بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين.

الكلمة الأولى

"بسم الله" رأس كل خير وبدء كل أمر ذي بال، فنحن أيضاً نستهل بها.

فيا نفسي اعلمي! إن هذه الكلمة الطيبة المباركة كما أنها شعار الإسلام، فهي ذكر جميع الموجودات بألسنة أحوالها.

فان كنت راغبة في إدراك مدى ما في "بسم الله" من قوة هائلة لا تنفد، ومدى ما فيها من بركة واسعة لا تنضب، فاستمعي إلى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة:

إن البدوي الذي يتنقل في الصحراء ويسيح فيها لابد له أن ينتمي إلى رئيس قبيلة، ويدخل تحت حمايته، كي ينجو من شر الأشقياء، وينجز أشغاله ويتدارك حاجاته، وإلاّ فسيبقى وحده حائراً مضطرباً أمام كثرة من الأعداء، ولا حد لها من الحاجات.

وهكذا.. فقد توافق أن قام اثنان بمثل هذه السياحة؛ كان أحدهما متواضعاً، والآخر مغروراً، فالمتواضع انتسب إلى رئيس، بينما المغرور رفض الانتساب. فتجولا في هذه الصحراء.. فما كان المنتسب يحل في خيمة إلا ويقابل بالاحترام والتقدير بفضل ذلك الاسم وإن لقيه قاطع طريق يقول له: "إنني أتجول باسم ذلك الرئيس.." فيتخلى عنه الشقي. أما

المغرور فقد لاقى من المصائب والويلات ما لا يكاد يوصف، إذ كان طوال السفرة في خوف دائم ووجل مستمر، وفي تسوّل مستديم، فأذلّ نفسه وأهانها.

فيا نفسي المغرورة! اعلمي!.. انك أنت ذلك السائح البدوي. وهذه الدنيا الواسعة هي تلك الصحراء. وان "فقرك" و "عجزك" لا حد لهما، كما أن أعداءك وحاجاتك لا نهاية لهما. فما دام الأمر هكذا؛ فتقلدي اسم المالك الحقيقي لهذه الصحراء وحاكمها الأبدي، لتنجي من ذُلّ التسول أمام الكائنات، ومهانة الخوف أمام الحادثات.

نعم! إن هذه الكلمة الطيبة "بسم الله" كنز عظيم لا يفنى أبداً، إذ بها يرتبط "فقرك" برحمة واسعة مطلقة أوسع من الكائنات، ويتعلق "عجزك" بقدرة عظيمة مطلقة تمسك زمام الوجود من الذرات إلى المجرات، حتى انه يصبح كل من عجزك وفقرك شفيعين مقبولين لدى القدير الرحيم ذي الجلال.

إن الذي يتحرك ويسكن ويصبح ويمسي بهذه الكلمة "بسم الله" كمن انخرط في الجندية؛ يتصرف باسم الدولة ولا يخاف أحداً، حيث إنه يتكلم باسم القانون وباسم الدولة، فينجز الأعمال ويثبت أمام كل شيء.

وقد ذكرنا في البداية: إن جميع الموجودات تذكر بلسان حالها اسم الله، أي أنها تقول: "بسم الله".. أهو كذلك؟

نعم! فكما لو رأيت أن أحداً يسوق الناس إلى صعيد واحد، ويرغمهم على القيام بأعمال مختلفة، فانك تتيقن أن هذا الشخص لا يمثل نفسه ولا يسوق الناس باسمه وبقوته، وإنما هو جندي يتصرف باسم الدولة، ويستند إلى قوة سلطان.

فالموجودات أيضاً تؤدي وظائفها باسم الله؛ فالبذيرات المتناهية في الصغر تحمل فوق رؤوسها باسم الله أشجاراً ضخمة وأثقالاً هائلة. أي إن كل شجرة تقول: "بسم الله" وتملأ أيديها بثمرات من خزينة الرحمة الإلهية وتقدمها إلينا.. وكل بستان يقول: "بسم الله" فيغدو مطبخاً للقدرة الإلهية تنضج فيه أنواع من الأطعمة اللذيذة.. وكل حيوان من الحيوانات ذات البركة والنفع ـــ كالإبل والمعزى والبقر – يقول: "بسم الله" فيصبح ينبوعاً دفاقاً للّبن السائغ، فيقدم إلينا باسم الرزاق ألطف مغذّ وأنظفه.. وجذور كل نبات وعشب تقول "بسم

الله" وتشق الصخور الصلدة باسم الله وتثقبها بشعيراتها الحريرية الرقيقة فيُسخَّر أمامها باسم الله وباسم الرحمن كل أمر صعب وكل شئ صلد!.

نعم، إن انتشار الأغصان في الهواء وحملها للأثمار، وتشعب الجذور في الصخور الصماء، وخزنها للغذاء في ظلمات التراب.. وكذا تحمّل الأوراق الخضراء شدة الحرارة ولفحاتها، وبقاءها طرية ندية.. كل ذلك وغيره صفعة قوية على أفواه الماديين عَبَدة الأسباب، وصرخة مدوية في وجوههم، تقول لهم:إن ما تتباهون به من صلابة وحرارة أيضاً لا تعملان بنفسيهما، بل تؤديان وظائفهما بأمر آمر واحد، بحيث يجعل تلك العروق الدقيقة الرقيقة ك–أنها عصا موسى تشق الصخور وتمتثل أمر(فَقُلنا اضرب بعصاك الحَجَر) (البقرة:60) ويجعل تلك الأوراق الطرية الندية كأنها أعضاء إبراهيم عليه السلام تقرأ تجاه لفحة الحرارة: (يا نارُ كوني برداً وسلاماً....)(الأنبياء:69)

فما دام كل شيء في الوجود يقول معنىً "بسم الله" ويجلب نِعَم الله باسم الله ويقدمّها إلينا، فعلينا أن نقول أيضاً "بسم الله" ونعطي باسم الله ونأخذ باسم الله. وعلينا أيضاً أن نردّ أيدي الغافلين الذين لم يعطوا باسم الله.

سؤال: إننا نبدي احتراماً وتوقيراً لمن يكون سبباً لنعمة علينا، فيا ترى ماذا يطلب منا ربنُّا الله صاحب تلك النعم كلها ومالكها الحقيقي؟

الجواب: إن ذلك المنعم الحقيقي يطلب منا ثلاثة أمور ثمناً لتلك النعم الغالية:

الأول: الذكر.. الثاني: الشكر.. الثالث: الفكر..

فـ "بسم الله" بدءاً هي ذكرٌ، و "الحمد لله" ختاماً هي شكرٌ، وما يتوسطهما هو "فكر" أي التأمل في هذه النعم البديعة، والإدراك بأنها معجزة قدرة الأحد الصمد وهدايا رحمته الواسعة... فهذا التأمل هو الفكر.

ولكن أليس الذي يقبّل أقدام الجندي الخادم الذي يقدّم هدية السلطان يرتكب حماقة فظيعة وبلاهة مشينة؟ إذن فما بال مَن يُثني على الأسباب المادية الجالبة للنعم، ويخصصها بالحب والود، دون المنعم الحقيقي! ألا يكون مقترفاً بلاهة أشد منها ألف مرة؟

فيا نفس!! إن كنت تأبين أن تكوني مثل الأحمق الأبله،

فاعطي باسم الله..

وخذي باسم الله..

وابدأي باسم الله..

واعملي باسم الله..

والســـلام.[1]

الكلمة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الذين يُؤمنون بالغَيب)

إن كنت تريد أن تعرف مدى ما في الإيمان من سعادة ونعمة، ومدى ما فيه من لـــذة وراحة، فاستمع إلى هذه الحكاية القصيرة:

خرج رجلان في سياحة ذات يوم، من أجل الاستجمام والتجارة. فمضى أحدهما وكان أنانياً شقياً إلى جهة، ومضى الآخر وهو رباني سعيد إلى جهة ثانية.

فالأناني المغرور الذي كان متشائماً لقي بلداً في غاية السوء والشؤم في نظره، جـــزاءاً وفاقاً على تشاؤمه، حتى انه كان يرى – أينما اتجه – عجزةً مساكين يصرخون ويولولون من ضربات أيدي رجال طغاة قساة ومن أعمالهم المدمّرة. فرأى هذه الحالة المؤلمة الحزينة في كل ما يزوره من أماكن، حتى اتخذت المملكة كلها في نظره شكل دار مأتم عام. فلم يجد لنفسه علاجاً لحاله المؤلم المظلم غير السُكر، فرمى نفسه في نشوته لكيلا يشعر بحاله، إذ صار كـــل واحد من أهل هذه المملكة يتراءى له عدواً يتربص به، وأجنبياً يتنكر له، فظـــل في عـــذاب وجداني مؤلم لما يرى فيما حوله من جنائز مرعبة ويتامى يبكون بكاءاً يائساً مريراً.

أمّا الآخر الرجل الربّاني العابد لله، والباحث عن الحق، فقد كان ذا أخلاق حسنة بحيث لقي في رحلته مملكة طيّبة هي في نظره في منتهى الروعة والجمال.

---

[1] ملاحظة: وضع الأستاذ المؤلف "المقام الثاني من اللمعة الرابعة عشرة" عقب هذه الكلمة الأولى، لمناسبة المقام حيث يضم ستة من أسرار" بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيمِ". وسيجده القارئ الكريم في موضعه من كتاب "اللمعات".فليراجع. ــ المترجم.

فهذا الرجل الصالح يرى في المملكة التي دخلها احتفالات رائعة ومهرجانـــات بارعـــة قائمة على قدم وساق. وفي كل طرف ســـروراً، وفي كل زاويـــة حبـــوراً، وفي كل مكان محاريب ذكر. حتى لقد صار يرى كل فرد من أفراد هذه المملكة صديقاً صدوقاً وقريباً حبيباً له. ثم يرى أن المملكة كلها تعلن – في حفل التسريح العام – هتافات الفرح بصيحة مصحوبة بكلمات الشكر والثناء. ويسمع فيهم أيضاً أصوات الجوقة الموسيقية وهـــي تقـــدم ألحانهـــا الحماسية مقترنة بالتكبيرات العالية والتهليلات الحارة بسعادة واعتزاز للـــذين يســـاقون إلى الخدمة والجندية.

فبينما كان ذلك الرجل الأول المتشائم منشغلاً بألمه وآلام الناس كلهم.. كان الثـــاني السعيد المتفائل مسروراً مع سرور الناس كلهم فرحاً مع فرحهم. فضلاً عن انه غنم لنفســـه تجارة حسنة مباركة فشكر ربه وحمده.

ولدى عودته إلى أهله، يلقى ذلك الرجل فيسأل عنه، وعن أخباره، فيعلم كل شئ عن حاله فيقول له:

– "يا هذا لقد جننتَ! فان ما في باطنك من الشؤم انعكس على ظاهرك بحيث أصبحتَ تتوهم أن كل ابتسامة صراخ ودموع، وأن كل تسريح وإجازة نهب وسلب. عُد إلى رشدك، وطهّر قلبك.. لعل هذا الغشاء النكد ينـــزاح عن عينيك. وعسى أن تبصر الحقيقـــة علـــى وجهها الأبلج. فأن صاحب هذه المملكة ومالكها وهو في منتهى درجات العـــدل والمرحمـــة والربوبية والاقتدار والتنظيم المبدع والرفق.. وان مملكة بمثل هذه الدرجة من الرقي والسمو مما تريك من آثار بأم عينيك... لا يمكن أن تكون بمثل ما تريه أوهامك من صور".

وبعد ذلك بدأ هذا الشقي يراجع نفسه ويرجع إلى صوابه رويداً رويداً، ويفكر بعقلـــه ويقول متندماً:

– نعم لقد أصابني جنون لكثرة تعاطي الخمر.. ليرضَ الله عنك؛ فلقد أنقـــذتني مـــن جحيم الشقاء.

فيا نفسي!

اعلمي أن الرجل الأول هو "الكافر" أو "الفاسق الغافل" فهذه الدنيا في نظره بمثابة مأتم عام، وجميع الأحياء أيتام يبكون تألماً من ض-ربات الزوال وصفعات الفراق..

أما الإنسان والحيوان فمخلوقات سائبة بلا راع ولا مالك، تتمزق بمخالب الأجل وتعتصر بمعصرته..

وأما الموجودات الضخام - كالجبال والبحار - فهي في حكم الجنائز الهامدة والنعوش الرهيبة..

وأمثال هذه الأوهام المدهشة المؤلمة الناشئة من كفر الإنسان وضلالته تذيق صاحبها عذاباً معنوياً مريراً.

أما الرجل الثاني، فهو "المؤمن" الذي يعرف خالقه حق المعرفة ويؤمن به، فالدنيا في نظره دار ذكر رحماني، وساحة تعليم وتدريب البشر والحيوان، وميدان ابتلاء واختبار الإنس والجان..

أما الوفيات كافة - من حيوان وإنسان - فهي إعفاء من الوظائف، وإنهاء من الخدمات، فالذين أنهوا وظائف حياتهم، يودّعون هذه الدار الفانية وهم مسرورون معنوياً، حيث انهم ينقلون إلى عالم آخر غير ذي قلق، خال من أوضار المادة وأوصاب الزمان والمكان وصروف الدهر وطوارق الحدثان، لينفسح المجال واسعاً لموظفين جدد يأتون للسعي في مهامهم..

أما المواليد كافة - من حيوان وإنسان - فهي سَوقة تجنيد عسكرية، وتسلُّم سلاح، وتسنّم وظائف وواجبات، فكل كائن إنما هو موظف وجندي مسرور، ومأمور مستقيم راضٍ قانع.. .

وأما الأصوات المنبعثة والأصداء المرتدة من أرجاء الدنيا فهي إما ذكر وتسبيح لتسنم الوظائف والشروع فيها، أو شكر وتهليل إيذاناً بالانتهاء منها، أو أنغام صادرة من شوق العمل وفرحته..

فالموجودات كلها – في نظر هذا المؤمن – خدام مؤنسون، وموظفون أخلاّء، وكتبٌ حلوة لسيده الكريم ومالكه الرحيم.. وهكذا يتجلى من إيمانه كثير جداً من أمثال هذه الحقائق التي هي في غاية اللطف والسمو واللذة والذوق.

فالإيمان إذن يضم حقاً بذرة معنوية منشقة من "طوبى الجنة"..

أما الكفر فانه يخفي بذرة معنوية قد نفثته "زقوم جهنم".

فالسلامة والأمان إذن لا وجود لهما إلاّ في الإسلام والإيمان.

فعلينا أن نردد دائماً:

الحمد لله على دين الإسلام وكمال الإيمان.

الكلمة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الناس اعبدوا..) (البقرة:21)

إن كنت تريد أن تفهم كيف أن العبادة تجارة عظمى وسعادة كبرى، وان الفسق والسفه خسارة جسيمة وهلاك محقق، فانظر إلى هذه الحكاية التمثيلية وأنصت إليها:

تسلَّم جنديان اثنان – ذات يوم – أمراً بالذهاب إلى مدينة بعيدة، فسافرا معاً، إلى أن وصلا مفرق طريقين، فوجدا هناك رجلاً يقول لهما:

– إن هذا الطريق الأيمن، مع عدم وجود الضرر فيه، يجد المسافرون الذين يسلكونه الراحة والاطمئنان والربح مضموناً بنسبة تسعة من عشرة. أما الطريق الأيسر، فمع كونه عديم النفع يتضرر تسعة من عشرة من عابريه. علماً أن كليهما في الطول سواء، مع فرق واحد فقط، هو أن المسافر المتجه نحو الطريق الأيسر – غير المرتبط بنظامٍ وحكومة – يمضي بلا حقيبة متاع ولا سلاح، فيجد في نفسه خفَّة ظاهرة وراحة موهومة. غير أن المسافر المتجه نحو الطريق الأيمن – المنتظم تحت شرف الجندية – مضطر لحمل حقيبة كاملة من مستخلصات غذائية تزن أربع "أوقيات" وسلاحاً حكومياً يزن "أوقيتين" يستطيع أن يغلب به كل عدو.

وبعد سماع هذين الجنديين كلام ذلك الرجل الدليل، سلك المحظوظ السعيد الطريـــق الأيمن، ومضى في دربه حاملاً على ظهره وكتفه رطلاً من الأثقال إلا أن قلبه وروحـــه قـــد تخلّصا من آلاف الأرطال من ثقل المنَّة والخوف.

بينما الرجل الشقي المنكود الذي آثر ترك الجندية و لم يرد الانتظام والالتـــزام، ســـلك سبــيـــل الـــشمال، فمـــع أن جســـمه قد تخلص من ثقـــل رطل فـــقد ظل قلبه يرزح تحت آلاف الأرطال من المنَّ والأذى، وانسحقت روحه تحت مخاوف لا يحصـــرها الحـــد. فمضى في سبيله مستجدياً كل شخص، وجلاً مرتعشاً من كل شئ، خائفاً من كل حادثـــة، إلى أن بلغ المحل المقصود فلاقى هناك جزاء فراره وعصيانه.

أما المسافر المتوجه نحو الطريق الأيمن – ذلك المحب لنظام الجندية والمحافظ على حقيبتـــه وسلاحه – فقد سار منطلقاً مرتاح القلب مطمئن الوجدان من دون أن يلتفت إلى منَّة أحد أو يطمع فيها أو يخاف من أحد.. إلى أن بلغ المدينة المقصودة وهنالك وجد ثوابَه اللائق به كأي جندي شريف أنجز مهمته بالحسنى.

فيا أيتها النفس السادرة السارحة!

اعلمي أن ذينك المسافرين؛ أحدهما أولئك المستسلمون المطيعون للقـــانون الإلهـــي، والآخر هم العصاة المتبعون للأهواء..

وأما ذلك الطريق فهو طريق الحياة الذي يأتي من عالم الأرواح ويمر من القبر المـــؤدي إلى عالم الآخرة..

وأما تلك الحقيبة والسلاح فهما العبادة والتقوى، فمهما يكن للعبادة من حمل ثقيـــل ظاهراً إلا أن لها في معناها راحة وخفة عظيمتين لا توصفان، ذلـــك لان العابـــد يقـــول في صلاته:لا إله إلا الله أي لا خالق ولا رازق إلاّ هو، النفع والـــضر بيده، وانه حكيم لا يعمل عبثاً كما أنه رحيم واسع الرحمة والإحسان.

فالمؤمن يعتقد بما يقول لذا يجد في كل شئ باباً ينفتح إلى خزائن الرحمة الإلهية، فيطرقه بالدعاء، ويرى أن كل شئ مسخَّر لأمر ربه، فيلتجئ إليه بالتضرع. ويتحصَّن أمام كل مصيبة مستنداً إلى التوكل، فيمنحه إيمانه هذا الأمان التام والاطمئنان الكامل.

نعم! أن منبع الشجاعة ككل الحسنات الحقيقية هو الإيمان والعبودية، وأن منبع الجبُن ككل السيئات هو الضلالة والسفاهة.

فلو أصبحت الكرة الأرضية قنبلة مُدمِّرة وانفجرت، فلربما لا تخيف عابداً لله ذا قلب منوَّر، بل قد ينظر إليها أنها خارقة من خوارق القدرة الصمدانية، ويتملاها بإعجاب ومتعة، بينما الفاسق ذو القلب الميت ولو كان فيلسوفاً - ممن يُعدّ ذا عقل راجح - إذا رأى في الفضاء نجماً مذنباً يعتوره الخوف ويرتعش هلعاً ويتساءل بقلق: ألا يمكن لهذا النجم أن يرتطم بأرضنا؟ فيتردى في وادي الأوهام (لقد ارتعد الأمريكان يوماً من نجم مذنب ظهر في السماء حتى هجر الكثيرون مساكنهم أثناء ساعات الليل).

نعم! رغم أن حاجات الإنسان تمتد إلى ما لا نهاية له من الأشياء، فرأس ماله في حُكم المعدوم. ورغم أنه معرَّض إلى ما لانهاية له من المصائب فاقتداره كذلك في حكم لا شيء، إذ إن مدى دائرتي رأس ماله واقتداره بقدر ما تصل إليه يده، بينما دوائر آماله ورغائبه وآلامه وبلاياه واسعة سعة مد البصر والخيال.

فما أحوج روح البشر العاجزة الضعيفة الفقيرة إلى حقائق العبادة والتوكل، والى التوحيد والاستسلام! وما أعظم ما ينال منها من ربح وسعادة ونعمة! فمن لم يفقد بصره كلياً يرى ذلك ويدركه. إذ من المعلوم أن الطريق غير الضار يُرجَّح على الطريق الضار حتى لو كان النفع فيه احتمالاً واحداً من عشرة احتمالات. علماً أن مسألتنا هذه، طريق العبادة، فمع كونه عديم الضرر، واحتمال نفعه تسعة من عشرة، فانه يعطينا كنزاً للسعادة الأبدية، بينما طريق الفسق والسفاهة - باعتراف الفاسق نفسه - فمع كونه عديم النفع فانه سبب الشقاء والهلاك الأبديين، مع يقين للخسران وانعدام الخير بنسبة تسعة من عشرة... وهذا الأمر ثابت بشهادة ما لا يحصى من (أهل الاختصاص والإثبات) بدرجة التواتر والإجماع. وهو يقين جازم في ضوء أخبار أهل الذوق والكشف.

نحصل من هذا:

أن سعادة الدنيا أيضاً - كالآخرة - هي في العبادة وفي الجندية الخالصة لله.

فعلينا إذن أن نردد دائماً:

الحمد لله على الطاعة والتوفيق..

وأن نشكره سبحانه وتعالى على أننا مسلمون.

الكلمة الرابعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

"الصلاة عماد الدين"

إن كنت تريد أن تعرف أهمية الصلاة وقيمتها، وكم هو يسير نيلها وزهيد كسبها، وان من لا يقيمها ولا يؤدي حقها أبله خاسر.. نعم! إن كنت تريد أن تعرف ذلك كله بيقين تام – كحاصل ضرب الاثنين في اثنين يساوي أربعاً – فتأمل في هذه الحكاية التمثيلية القصيرة:

يُرسل حاكمٌ عظيم – ذات يوم – إثنين من خَدَمه إلى مزرعته الجميلة، بعد أن يمنح كلاً منهما أربعاً وعشرين ليرة ذهبية، ليتمكنا بها من الوصول إلى المزرعة التي هي على بُعد شهرين.. ويأمرهما: أنفقا من هذا المبلغ لمصاريف التذاكر ومتطلبات السفر، واقتنيا ما يلزمكما هناك من لوزام السكن والإقامة.. هناك محطة للمسافرين على بُعد يوم واحد، توجد فيها جميع أنواع وسائط النقل من سيارة وطائرة وسفينة وقطار.. ولكلٍ ثمنه.

يخرج الخادمان بعد تسلمهما الأوامر.. كان أحدهما سعيداً محظوظاً، إذ صرف شيئاً يسيراً مما لديه لحين وصوله المحطة، صرفه في تجارة رابحة يرضى بها سيدُه، فارتفع رأس ماله من الواحد إلى الألف.

أما الخادم الآخر، فلسوء حظه وسفاهته صرف ثلاثاً وعشرين مما عنده من الليرات الذهبية في اللّهو والقمار، فأضاعها كلها إلا ليرة واحدة منها لحين بلوغه المحطة..

خاطبه صاحبه:

ـــ يا هذا.. اشتر بهذه الليرة الباقية لديك تذكرة سفر، فلا تضيّعها كذلك، فسـيدُنا كريمٌ رحيمٌ، لعلّه يشملك برحمته وينالك عفوه عما بدر منك من تقصير، فيسمحوا لـك بركوب الطائرة، ونبلغ معاً محل إقامتنا في يوم واحد. فان لم تفعل ما أقوله لك فستضطر إلى مواصلة السير شهرين كاملين في هذه المفازة مشياً على الأقدام، والجوع يفتك بك، والغربـة تخيم عليك وأنت وحيد شارد في هذه السفرة الطويلة.

تُرى لو عاند هذا الشخص، فصرف حتى تلك الليرة الباقية في سبيل شـهوة عـابرة، وقضاء لذة زائلة، بدلاً من اقتناء تذكرة سفر هي بمثابة مفتاح كنـز له. ألا يعني ذلك أنـه شقي خاسر، وأبله بليد حقاً.. ألا يُدرك هذا أغبى إنسان؟

فيا من لا يؤدي الصلاة! ويا نفسي المتضايقة منها!

إن ذلك الحاكم هو ربُّنا وخالقنا جلّ وعلا..

أما ذلكما الخادمان المسافران، فأحدهما هو المتديّن الذي يقيم الصلاة بشوق ويؤديهـا حق الأداء، والآخر هو الغافل التارك للصلاة..

وأما تلك الليرات الذهبية "الأربعة والعشرون" فهي الأربع والعشرون ساعة من كـل يوم من أيام العمر..

وأما ذلك البستان الخاص فهو الجنة..

وأما تلك المحطة فهي القبر..

وأما تلك السياحة والسفر الطويل فهي رحلة البشر السائرة نحو القبر والماضية إلى الحشر والمنطلقة إلى دار الخلود. فالسالكون لهذا الطريق الطويل يقطعونه على درجات متفاوتة، كلٌ حسب عمله ومدى تقواه، فقسم من المتقين يقطعون في يوم واحد مسافة ألف سنة كـأنهم البرق، وقسم منهم يقطعون في يوم واحد مسافة خمسين ألف سنة كأنهم الخيال. وقد أشـار القرآن العظيم إلى هذه الحقيقة في آيتين كريمتين..

أما تلك التذكرة فهي الصلاة التي لا تستغرق خمسُ صلوات مع وضوئها اكثـر مـن ساعة!

فيا خسارة مَن يصرف ثلاثاً وعشرين من ساعاته على هذه الحياة الدنيا القصـــيرة ولا يصرف ساعةً واحدة على تلك الحياة الأبدية المديدة!. ويا له من ظالم لنفسه مبين! ويا له من أحمق ابله!

لئن كان دفع نصف ما يملكه المرء ثمناً لقمار اليانصيب – الذي يشترك فيه أكثر مـــن ألف شخص – يعدّ أمراً معقولاً، مع أن احتمال الفوز واحد من ألف، فكيف بالذي يحجـــم عن بذل واحدٍ من أربعة وعشرين مما يملكه، في سبيل ربح مضمون، ولأجل نيل خزينة أبدية، باحتمال تسعٍ وتسعين من مائة.. ألا يُعدّ هذا العمل خلافاً للعقل، ومجانبـــاً للحكمـــة.. ألا يدرك ذلك كلٌّ من يعدّ نفسه عاقلاً؟

إن الصلاة بذاتها راحة كبرى للروح والقلب والعقل معاً. فضلاً عن أنها ليست عمـــلاً مرهقاً للجسم. وفوق ذلك فان سائر أعمال المصلي الدنيوية المباحة ستكون له بمثابة عبـــادة لله، وذلك بالنية الصالحة.. فيستطيع إذن أن يحوّل المصلي جميع رأس مال عمره إلى الآخـــرة، فيكسب عمراً خالداً بعمره الفاني.

الكلمة الخامسة

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنَّ اللهَ مَعَ الذينَ اتّقوا والذينَ هُمْ مُحْسِنون) (النحل:128)

إذا أردت أن ترى أن إقامة الصلاة واجتناب الكبائر وظيفة حقيقية تليـــق بالإنســـان ونتيجة فطرية ملائمة مع خلقته.. فتأمل في هذه الحكاية التمثيلية القصيرة واستمع إليها:

كان في الحرب العالمية، وفي أحد الأفواج، جنديان اثنان: أحدهما مدرَّب على مهمتـــه مجدّ في واجبه. والآخر جاهل بوظيفته متّبعٌ هواه. كان المتقن واجبه يهتم الاهتمام كله بأوامر التدريب وشؤون الجهاد. ولم يكن ليفكر قط بلوازم معاشه وأرزاقه، حيث إنه أدرك يقيناً أن إعاشته ورعاية شؤونه وتزويده بالعتاد بل حتى مداواته إذا تمرض بل حتى وضع اللقمة – إذا احتاج الأمر – في فمه، إنما هو من واجب الدولة. وأما واجبه الأساس فهو التدّرب على أمور الجهاد ليس إلاّ، مع علمه أن هذا لا يمنع من أن يقوم بشؤون التجهيز وبعض أعمال الإعاشة

كالطهي وغسل المواعين، وحتى في هذه الأثناء لو سُئل: ماذا تفعل؟ لقال: إنما أقوم ببعض واجبات الدولة تطوّعاً، ولا يجيب: إنني أسعى لأجل كسب لوازم العيش.

أما الجندي الآخر، الجاهل بواجباته فلم يكن ليبالي بالتدريب ولا يهتم بالحرب. فكان يقول: ذلك من واجب الدولة، وما لي أنا؟! فيشغل نفسه بأمور معيشته ويلهث وراء الاستزادة منها حتى كان يَدَع الفوج ليزاول البيع والشراء في الأسواق.

قال له صديقه المجدّ ذات يوم:

- يا أخي!! إن مهمتك الأصلية هي التدرّب والاستعداد للحرب، وقد جئ بك إلى هنا من أجل ذلك؛ فاعتمد على السلطان واطمئن إليه في أمر معاشك، فلن يَدَعَك جائعاً، فذلك واجبُه ووظيفته. ثم إنك عاجز وفقير لن تستطيع أن تدير أمور معيشتك بنفسك، وفوق هذا فنحن في زمن جهاد وفي ساحة حرب عالمية كبرى، أخشى أنهم يعدّونك عاصياً لأوامرهم فينزلون بك عقوبة صارمة.

نعم؛ إن وظيفتين اثنتين تبدوان أمامنا:

إحداهما: وظيفة السلطان، وهي قيامه بإعاشتنا. ونحن قد نُستخدم مجاناً في إنجاز تلك الوظيفة.

وأُخراهما: هي وظيفتنا نحن، وهي: التدريب والاستعداد للحرب، والسلطان يقدّم لنا مساعدات وتسهيلات لازمة.

فيا أخي تأمل لو لم يُعِر الجندي المهمِل سمعاً لكلام ذلك المجاهد المدرَّب كم يكون خاسراً ومتعرضاً للأخطار والتهلكة؟!

فيا نفسي الكسول!!

إن تلك الساحة التي تمور موراً بالحرب هي هذه الحياة الدنيا المائجة.. وأمّا ذلك الجيش المقسم إلى الأفواج فهو الأجيال البشرية.. وأمّا ذلك الفوج نفسه فهو المجتمع المسلم المعاصر.. وأمّا الجنديان الاثنان؛ فأحدهما هو العارف بالله والعامل بالفرائض والمجتنب الكبائر، وهو ذلك المسلم التقي الذي يجاهد نفسه والشيطان خشية الوقوع في الخطايا والذنوب.. وأما الآخر: فهو الفاسق الخاسر الذي يلهث وراء هموم العيش لحد اتهام الرزاق الحقيقي، ولا يبالي في سبيل

الحصول على لقمة العيش أن تفوته الفرائض وتتعرض له المعاصي.. وأما تلـــك التـــدريبات والتعليمات، فهي العبادة وفي مقدمتها الصلاة.. وأما تلك الحرب فهي مجاهدة الإنسان نفسه وهواه، واجتنابه الخطايا ودنايا الأخلاق، ومقاومته شياطين الجن والأنس، إنقاذاً لقلبه وروحه معاً من الهلاك الأبدي والخسران المبين.

وأما تانك الوظيفتان الاثنتان؛ فإحداهما منح الحياة ورعايتها. والأخرى عبادة واهـــب الحياة ومربيها والسؤال منه والتوكل عليه والاطمئنان إليه.

أجل! إن الذي وهب الحياة؛ وأنشأها صنعةً صمدانية معجزة تتلمع، وجعلها حكمـــةً ربانية خارقة تتألق، هو الذي يربيـــها، وهو وحـــده الـــذي يرعاها ويديمـــها بالرزق.

أوَ تريد الدليل؟!

إن أضعف حيوان وأبلده ليُرزَق بأفضل رزق وأجوده (كالأسماك وديدان الفواكه). وان أعجز مخلوق وأرقه ليأكل أحسن رزق وأطيبه (كالأطفال والصغار).

ولكي تفهم أن وسيلة الرزق الحلال ليست الاقتدار والاختيـــار، بـــل هـــي العجـــز والـــضعف، يكفيك أن تعقد مقارنه بين الأسماك البليدة والثعالب، وبين الصغار الذين لا قوة لهم والوحوش الكاسرة، وبين الأشجار المنتصبة والحيوانات اللاهثة.

فالذي يترك صلاته لأجل هموم العيش مَثَـــلُهُ كمثل ذلك الجندي الذي يترك تدريبـــه وخندقه ويتسوّل متسكعاً في الأسواق. بينما الذي يقيم الصلاة دون أن ينسى نصـــيبه مـــن الرزق، يبحث عنه في مطبخ رحمة الرزاق الكريم لئلا يكون عالةً على الآخرين فجميل عمله، بل هو رجولة وشهامة، وهو ضرب من العبادة أيضاً.

ثم إن فطرة الإنسان وما أودع الله فيه من أجهزة معنوية تدلاّن على أنه مخلوق للعبادة؛ لان ما اُودع فيه من قدرات وما يؤديه من عمل لحياته الدنيا لا تبلغه مرتبة أدنى عصـــفور – الذي يتمتع بالحياة اكثر منه وافضل – بينما يكون الإنسان سلطان الكائنات وسيد المخلوقات من حيث حياته المعنوية والأخروية بما أودع الله فيه من علم به وافتقار إليه وقيام بعبادته.

فيا نفسي!

إن كنت تجعلين الحياة الدنيا غاية المقصد وأفرغت في سبيلها جهدك فسوف تكونين في حكم أصغر عصفور.

أما إن كنت تجعلين الحياة الأخرى غاية المنى وتتخذين هذه الحياة الدنيا وسيلة لها ومزرعة، وسعيتِ لها سعيها.. فسوف تكونين في حكم سيد الأحياء والعبد العزيز لدى خالقه الكريم وستصبحين الضيف المكرم الفاضل في هذه الدنيا.

فدونك طريقان اثنان، فاختاري أيّما تشائين.

واسألي الرب الرحيم الهداية و التوفيق.

الكلمة السادسة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفُسَهم وأموالَهم بأنّ لَهم الجنة) (التوبة: 111)

إذا أردت أن تعلم أن بيع النفس والمال إلى الله تعالى، والعبودية له، والجندية في سبيله أربح تجارة وأشرفها! فأنصت إلى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة:

وضع سلطان – ذات يوم – لدى اثنين من رعاياه وديعةً وأمانة، لكل منهما مزرعة واسعة، فيها كل ما تتطلبه من مكائن وآلات وأسلحة وحيوانات وغيرها.. وتوافق أن كان الوقت آنذاك وقت حرب طاحنة، لا يقرّ قرار لشيء؛ فإما أن تبدّله الحرب وتغيّره أو تجعله أثراً بعد عين. فأرسل السلطان رحمةً منه وفضلاً أحدَ رجاله المقربين مصحوباً بأمره الكريم ليقول لهما:

"بيعوا لي ما لديكم من أمانتي لأحفظها لكم، فلا تذهب هباء في هذا الوقت العصيب، وسأردّها لكم حالما تضع الحرب أوزارها.. وسأوفي ثمنها لكم غالياً، كأن تلك الأمانة ملككم.. وستُشغل تلك المكائن والآلات التي في حوزتكم الآن في معاملي وباسمي وعهدتي.. وسترتفع أثمانها من الواحد إلى الألف، فضلاً عن أن جميع الأرباح ستعود إليكم أيضاً.. وسأتعهد عنكم بجميع تكاليفها ومصاريفها، حيث إنكم فقراء عاجزون لا تتحملون

مصاريف تلك المكائن.. وسأرد لكم جميع وارداتها ومنافعها، علماً أني سأبقيها عندكم لتستفيدوا منها وتتمتعوا بها إلى أن يحين وقت أخذها.

فلكم خمس مراتب من الأرباح في صفقة واحدة.

وان لم تبيعوها لي فسيزول حتماً كل ما لديكم، حيث ترون أن أحداً لا يستطيع أن يمسك بما عنده.. وستحرمون من تلك الأثمان الغالية.. وستهمل تلك الآلات الدقيقة النفيسة والموازين الحساسة والمعادن الثمينة، وتفقد قيمتها كلياً، وذلك لعدم استعمالها في أعمال راقية.. وستتحملون وحدكم إدارتها وتكاليفها وسترون جزاء خيانتكم للأمانة.. فتلك خمس خسائر في صفقة واحدة. وفوق هذا كله إن هذا البيع يعني أن البائع يصبح جندياً حراً أبياً خاصاً بي، يتصرف باسمي ولا يبقى أسيرا عادياً وشخصاً سائباً.."

أنصت الرجلان ملياً إلى هذا الكلام الجميل والأمر السلطاني الكريم. فقال العاقل الرزين منهما:

"سمعاً وطاعة لأمر السلطان، رضيت بالبيع بكل فخر وشكر".

أما الآخر المغرور المتفرعن الغافل فقد ظن أن مزرعته لا تبيد أبداً، ولا تصيبها تقلبات الدهر واضطرابات الدنيا، فقال:

"لا!.. ومَن السلطان؟ لا أبيع ملكي ولا أفسد نشوتي!".

ودارت الأيام.. فاصبح الرجل الأول في مقام يغبطه الناس جميعاً، إذ أضحى يعيش في بحبوحة قصر السلطان، يتنعم بألطافه ويتقلب على أرائك أفضاله. أما الآخر فقد ابتلي شرّ بلاء حتى رثى لحاله الناس كلهم، رغم انهم قالوا: انه يستحقها! إذ هو الذي ورّط نفسه في مرارة العذاب جزاء ما ارتكب من خطأ، فلا دامت له نشوته ولا دام له ملكه.

فيا نفسي المغرورة!

انظري من خلال منظار هذه الحكاية إلى وجه الحقيقة الناصعة. فالسلطان هو سلطان الأزل والأبد وهو ربك وخالقك. وتلك المزرعة والمكائن والآلات والموازين هي ما تملكينه في الحياة الدنيا من جسم وروح وقلب، وما فيها من سمع وبصر وعقل وخيال، أي جميع الحواس الظاهرة والباطنة. وأما الرسول الكريم فهو "سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم". وأما الأمر

السلطاني المحكم فهو القرآن الكريم الذي يعلن هذا البيع والتجارة الرابحة في هذه الآية الكريمة: (إنَّ اللهَ اشترى من المؤمنينَ أنفُسَهم وأموالَهُم بأنَّ لَهم الجنّةَ) وأما الميدان المضطرب والحـــرب المدمّرة فهي أحوال هذه الدنيا، إذ لا قرار فيها ولا ثبات، كلها تقلبات تلحّ على فكر الإنسان بهذا السؤال:

"إن جميع ما نملك لا يستقر ولا يبقى في أيدينا، بل يفنى ويغيب عنّا، أليس هناك مـــن علاج لهذا؟ ألا يمكن أن يحل البقاء بهذا الفناء؟!".

وبينما الإنسان غارق في هذا التفكير، إذا به يسمع صدى القرآن السماوي يـــدوّي في الآفاق ويقول له بتلك الآية الكريمة: نعم! إن هناك علاجاً لهذا الداء، بل هو علاج لطيف فيه ربح عظيم في خمس مراتب.

سؤال: وما العلاج؟

الجواب: بيعُ الأمانة إلى مالكها الحقيقي، في هذا البيع خمس درجات من الربح في صفقة واحدة.

الربح الأول: المال الفاني يجد البقاء، لأن العمر الزائل الذي يوهب للحي القيوم الباقي، ويبذل في سبيله سبحانه، ينقلب عمراً أبدياً باقياً. عندئذٍ تثمر دقائق العمر ثماراً يانعة وأزاهير سعادة وضاءة في عالم البقاء مثلما تفنى البذور ظاهراً وتنشق عنها الأزهار والسنابل.

الربح الثاني: الثمن هو الجنة.

الربح الثالث: يرتفع ثمن كل عضو وحاسة ويغلو من الواحدة إلى الألف.

فمثلاً: العقل عضو وآلة، إن لم تبعه - يا أخي - لله ولم تستعمله في سبيله، بل جعلته في سبيل الهوى والنفس، فانه يتحول إلى عضو مشؤوم مزعج وعاجز، إذ يحمّلك آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذٍ إلى درك آلة ضارة مشؤومة، ألا ترى كيف يهرب الفاسق من واقع حياته وينغمس في اللهو أو السكر إنقاذاً لنفسه من ازعاجات عقلـــه؟ ولكن إذا بيع العقل إلى الله، واُستُعمل في سبيله ولأجله، فانه يكون مفتاحاً رائعاً بحيث يفتح ما لا يعد من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية فأينما ينظر صاحبه وكيفما يفكـــر

يرى الحكمة الإلهية في كل شئ، وكل موجود، وكل حادثة. ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا إلى مرتبة مرشدٍ رباني يهيئ صاحبه للسعادة الخالدة.

ومثلاً: العين حاسة، تطل الروح منها على هذا العالم، فان لم تستعملها في سبيل الله، واستعملتها لأجل النفس والهوى، فإنها بمشاهدتها بعض المناظر الجميلة المؤقتة الزائلة تصبح في درك الخادمة والسمسارة الدنيئة لإثارة شهوات النفس والهوى. ولكن إن بعتها إلى خالقها البصير واستعملتها فيما يرضيه، عندئذٍ تكون العين مطالِعة لكتاب الكون الكبير هذا وقارئة له، ومشاهِدة لمعجزات الصنعة الربانية في الوجود، وكأنها نحلة بين أزاهير الرحمة الإلهية في بستان الأرض، فتقطّر من شَهْد العبرة والمعرفة والمحبة نور الشهادة إلى القلب المؤمن.

ومثلاً: إن لم تبع حاسة الذوق – التي في اللسان – إلى فاطرها الحكيم، واستعملتها لأجل المعدة والنفس، فحينئذٍ تهوي إلى درك بوّاب معمل المعدة واصطبلها، فتهبط قيمتها. ولكن إن بعتَها إلى الرزاق الكريم، فإنها ترقى إلى درجة ناظر ماهر لخزائن الرحمة الإلهية، ومفتش شاكر لمطابخ القدرة الصمدانية.

فيا أيها العقل! أفق، أين الآلة المشؤومة من مفتاح كنوز الكائنات؟

ويا أيتها العين! ابصري جيداً، أين السمسرة الدنيئة من الإمعان في المكتبة الإلهية؟

ويا أيها اللسان! ذق بحلاوة أين بواب المعمل والاصطبل من ناظر خزينة الرحمة الإلهية؟.

فان شئت – يا أخي – فقس بقية الأعضاء والحواس على هذا، وعندها تفهم أن المؤمن يكسب حقاً خاصية تليق بالجنة، كما أن الكافر يكتسب ماهية توافق جهنم. فما جوزي كل منهما بهذا الجزاء العادل إلاّ لأن المؤمن يستعمل بإيمانه أمانة خالقه سبحانه باسمه وضمن دائرة مرضاته، وان الكافر يخون الأمانة فيستعملها لهواه ولنفسه الأمارة بالسوء.

الربح الرابع: إن الإنسان ضعيف بينما مصائبه كثيرة، وهو فقير ولكن حاجته في ازدياد، وعاجز إلاّ أن تكاليف عيشه مرهقة، فإن لم يتوكل هذا الإنسان على العلي القدير ولم يستند إليه، وان لم يسلّم الأمر إليه ولم يطمئن به، فسيظل يقاسي في وجدانه آلاماً دائمة، وتخنقه حسراته وكدحه العقيم، فإما يحوله إلى مجرم قذر أو سكير عابث.

الربح الخامس: انه من المتفق عليه إجماعاً بين أهل الاختصاص والشهود والذوق والكشف أن العبادات والأذكار والتسبيحات التي تقوم بها الأعضاء عندما تعمل ضمن مرضاته سبحانه تتحول إلى ثمار طيبة لذيذة من ثمار الجنة، وتقدّم إليك في وقت أنت في أمس الحاجة إليها.

وهكذا.. ففي هذه التجارة ربح عظيم فيه خمس مراتب من الأرباح، فان لم تقم بها فستحرم من أرباحها جميعها، فضلاً عن خسرانك خمس خسارات أخرى هي:

الخسارة الأولى: إن ما تحبه من مال وأولاد، وما تعشقه من هوى النفس وما تعجب به من حياة وشباب، سيضيع كله ويزول، مخلفاً آثامه وآلامه مثقل بها ظهرك.

الخسارة الثانية: ستنال عقاب من يخون الأمانة. لأنك باستعمالك اثمن الآلات والأعضاء في أخس الأعمال قد ظلمت نفسك.

الخسارة الثالثة: لقد افتريت وجنيت على الحكمة الإلهية، إذ أسقطت جميع تلك الأجهزة الإنسانية الراقية إلى دركات الأنعام بل أضل.

الخسارة الرابعة: ستدعو بالويل والثبور دائماً، وستئن من صدمة الفراق والزوال ووطأة تكاليف الحياة التي أرهقت بها كاهلك الضعيف مع أن فقرك قائم وعجزك دائم.

الخسارة الخامسة: إن هدايا الرحمن الجميلة – كالعقل والقلب والعين وما شابهها – ما وُهبت لك إلاّ لتهيئك لفتح أبواب السعادة الأبدية، فما أعظمها خسارة أن تتحول تلك الهدايا إلى صورة مؤلمة تفتح لك أبواب جهنم!.

والآن.. سننظر إلى البيع نفسه. أهو ثقيل متعب حقاً بحيث يهرب منه الكثيرون؟.

– كلا، ثم كلا.. فلا تعب فيه ولا ثقل أبداً. لأن دائرة الحلال واسعة فسيحة، تكفي للراحة والسعادة والسرور. فلا داعي للولوج في الحرام.

أما ما افترضهَّ الله علينا فهو كذلك خفيف وضئيل، وان العبودية لله بحد ذاتها شرف عظيم إذ هي جندية في سبيله سبحانه وفيها من اللذة وراحة الوجدان ما لا يوصف.

أما الواجب فهو أن تكون ذلك الجندي، فتبدأ باسم الله، وتعمل باسم الله، وتأخـــذ وتعطي في سبيله ولأجله، وتتحرك وتسكن ضمن دائرة مرضاته وأوامره، وان كـــان هنـــاك تقصير فدونك باب الاستغفار، فتضرع إليه وقل:

اللّهم اغفر لنا خطايانا، واقبلنا في عبادك، واجعلنا أمناء على ما أمّنته عنـــدنا إلى يـــوم لقائك ... آمـــين.

الكلمة السابعة

آمنت بالله وباليوم الآخر

إن كنت ترغب أن تفهم كيف أن الإيمان بالله وباليوم الآخر، أثمن مفتاحين يحلاّن لروح البشر طلسم الكون ولغزه، ويفتحان أمامها باب السعادة والهناء.. وكيف أن توكّل الإنسان على خالقه صابراً، والرجاء من رزّاقه شاكراً، أنفع علاجين نـــاجعين.. وان الإنصـــات إلى القرآن الكريم، والانقياد لحكمه، وأداء الصلوات وترك الكبائر، أغلى زاد للآخرة، واســـطع نور للقبر، وأيسر تذكرة مرور في رحلة الخلود.. أجل! إن كنت تريد أن تفهم هذه الأمـــور كلها فأنصت معي إلى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة:

وقع جندي – في الحرب العالمية – في مأزق عصيب ووضع محيّر، إذ أصـــبح جريحـــاً بجرحين غائرين في يمينه وفي شماله. وخلفه أسد هصور يوشك أن ينقضّ عليه. وأمامه مشنقة تبيد جميع أحبته وتنتظره أيضاً، زد على ذلك كانت أمامه رحلة نفي شاقة طويلة رغم وضعه الفظيع المؤلم!.. وبينما كان هذا المسكين المبتلى مستغرقاً في تفكير يائس من واقعه المفجـــع هذا، إذا برجل خيّرٍ كأنه الخضر عليه السلام يتلألأ وجهه نوراً يظهر عن يمينه ويخاطبه:

– لا تيأس ولا تقنط. سأعلمك طلسمين اثنين، إن أحسنتَ استعمالهما ينقلب ذلـــك الأسد فرساً أميناً مسخراً لخدمتك، وتتحول تلك المشنقة أرجوحة مريحة لطيفة تأنس بهـــا.. وسأناولك دواءين اثنين، إن أحسنت استعمالهما يصيّران جرحيك المنتنين زهرتين شـــذّيتين، وسأزودك بتذكرة سفر تستطيع بها أن تقطع مسافة سنة كاملة في يوم واحد كأنك تطـــير!!

وإن لم تصدّق بما أقول فجرّبه مرة، وتيقنّ من صحته وصدقه... فجرَّب الجندي شيئاً منــه، فرآه صدقاً وصواباً.

نعم، وأنا كذلك – هذا المسكين "سعيد" – أصدّقه، لأنني جربته قليلاً، فرأيته صــدقاً وحقاً خالصاً.

ثم، على حين غرة رأى رجلاً لعوباً دساساً – كأنه الشيطان – يأتيه من جهة اليسار مع زينة فاخرة، وصور جذابة، ومُسْكرات مغرية، ووقف قبالته يدعوه:

– إليّ إليّ أيها الصديق، أقبل لنلْهُ معاً ونستمتع بصور الحسناوات هذه، ونطرب بسماع هذه الألوان من الأغاني ونتلذذ بهذه المأكولات اللذيذة.. ولكن يا هذا! ما هذه التمتمة الــتي ترددها؟!

– انه طلسم ولغز!

– دع عنك هذا الشيء الغامض، فلا تعكّر صفو لذتنا، وأُنسَ نشوتنا الحاضــرة.. يــا هذا... وما ذلك بيدك؟

– انه دواء!

– إرمه بعيداً، انك سالم صحيح ما بك شئ، ونحن في ساعة طرب وانس ومتعة. ومــا هذه البطاقة ذات العلامات الخمس؟

– إنها تذكرة سفر، وأمر إداري للتوظيف!

– مزّقها، فلسنا بحاجة إلى سفر في هذا الربيع الزاهي!

وهكذا حاول بكل مكر وخديعة أن يقنع الجندي، حتى بدأ ذلك المسكين يركن شيئاً قليلاً إلى كلامه.

نعم، إن الإنسان ينخدع، ولقد خُدعت أنا كذلك لمثل هذا الماكر!

وفجأة دوّى صوت كالرعد عن يمينه يحذّره:

– إياك أن تنخدع.. قل لذلك الماكر الخبيث:

إن كنت تستطيع قتل الأسد الرابــض خلفي، وان ترفع أعواد المشنقة من أمامي، وان تبرأني من جرحيّ الغائرين في يميني وشمالي، وان تحول بيني وبين رحلتي الشاقة الطويلة.. نعــم

إن كنت تقدر على إيجاد سبيل لكل هذا فهيا أرنيه، وهات ما لديك، ولك بعـــد ذلـــك أن تدعوني إلى اللهو والطرب، وإلاّ فاسكت أيها الأبله، ليتكلم هذا الرجل السامي – الشـــبيه بالخضر – ليقول ما يروم.

فيا نفسي الباكية على ما ضحكتْ أيام شبابها. اعلمي! إن ذلك الجنـــدي المســـكين المتورط هو أنتِ، وهو الإنسان.. وان ذلك الأسد هـــو الأجـــل.. وان أعواد المشنقة تلـــك هي الموت والزوال والفراق الذي تذوقه كل نفس.. ألا تَرَين كيف يفارقنا كل حبيب اِثـــر حبيب ويودعنا ليل نهار.. أما الجرحان العميقان، فأحدهما: العجز البشري المزعج الـــذي لا حدّ له. والآخر: هو الفقر الإنساني المؤلم الذي لا نهاية له.. أما ذلك النفي والسفر المديد فهو رحلة الامتحان والابتلاء الطويلة لهذا الإنسان، التي تنطلق من عالم الأرواح مارةً من رحم الأم ومن الطفولة والصبا ثم من الشيخوخة ومن الدنيا ثم من القبر والبرزخ ومن الحشر والصراط.. وأما الطلسمان فهما الإيمان بالله وباليوم الآخر. نعم إن الموت بهذا الطلسم القدسي يلـــبس صورة فرس مسخّر بدلاً عن الأسد، بل يتخذ صورة بُراق يُخرج الإنسان المؤمن من ســـجن الدنيا إلى روضة الجنان، إلى روضة الرحمن ذي الجلال. ومن هنا كان الكاملون من النـــاس يحبّون الموت ويطلبونه، حيث رأوا حقيقته. ثم ان سير الزمان ومروره على كل شئ ونفـــوذ الزوال والفراق والموت والوفاة فيه يتخذ بهذا الطلسم الإيماني صورةً وضّـــاءة حيـــث تحفِّـــز الإنسان إلى رؤية الجِدَّة بتجدد كل شئ، بل يكون مبعث التأمل في ألوان مختلفـــة متنوعـــة وأنواع متباينة لمعجزات إبداع الخالق ذي الجلال وخوارق قدرته، وتجليات رحمته ســـبحانه ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين. بمثل ما يضفي تبدل المرايا العاكسة لألوان نور الشمس، وتغيّر الصور في شاشة السينما من جمال وروعة إلى تكون المناظر الجذابة وتشكلها.

أما ذانك العلاجان.

فأحدهما: التوكل على الله والتحلي بالصبر، أي الاستناد إلى قدرة الخالق الكريم والثقة بحكمته سبحانه.

– أهو كذلك؟

نعم، إن من يعتمد بهوية "عجزه" على سلطان الكون الذي بيده أمر "كـــن فيكـــون" كيف يجزع ويضطرب؟ بل يثبت أمام أشد المصائب، واثقاً بالله ربه، مطمئن البـــال مرتـــاح القلب وهو يردد: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

نعم، إن العارف بالله يتلذذ من عجزه وخوفه من الله سبحانه. وحقاً إن في الخـــوف لذة! فلو تمكنّا من الاستفسار من طفل له من العمر سنة واحدة، مفترضين فيه العقل والكلام: ما أطيب حالاتك وألـــذها؟ فربما يكـــون جوابه: هو عندما ألوذ بصدر أمي الحنون بخـــوفي ورجائي وعجزي.. علماً أن رحمة جميع الوالدات وحنانهن ما هي إلاّ لمعةُ تجلٍ من تجليـــات الرحمة الإلهية الواسعة.

ومن هنا وجد الذين كَمُل إيمانُهم لذة تفوق أية لذة كانت في العجز ومخافة الله،حـــتى انهم تبرأوا إلى الله براءة خالصة من حولهم وقوتهم ولاذوا بعجزهم إليه تعالى واستعاذوا بـــه وحده، مقدِّمين هذا العجز والخوف وسيلتين وشفيعين لهم عند البارئ الجليل.

أما العلاج الآخر فهو: الدعاء والسؤال ثم القناعة بالعطاء، والشكر عليه والثقة برحمـــة الرزاق الرحيم.

- أهو هكذا؟

نعم! إن من كان ضيفاً لدى الذي فَرَش له وجه الأرض مائدةً حافلة بالنعم، وجعـــل الربيع كأنه باقة أنيقة من الورود ووضعها بجانب تلك المائدة العامرة بل نثرها عليها، إن مَـــن كان ضيفاً عند هذا الجواد الكريم جل وعلا كيف يكون الفقر والحاجة لديه مؤلماً وثقيلاً؟. بل يتخذ فقره وفاقته إليه سبحانه صورة مُشهٍّ لتناول النِعم. فيسعى إلى الاستزادة من تلك الفاقة كمن يستزيد من شهيته. وهنا يكمن سبب افتخار الكاملين واعتـــزازهم بـــالفقر إلى الله تعالى.. (وإياك أن تظن خلاف ما نقصد بالفقر؛ انه استشعار الإنسان بالفقر إليـــه ســـبحانه والتضرع إليه وحده والسؤال منه، وليس المقصود إظهار الفقر إلى الناس والتذلل لهم والسؤال منهم بالتسول والاستجداء!).

أما ذلك المستند أو الأمر الإداري أو البطاقة فهو أداء الفرائض وفي مقدمتها الصـــلوات الخمس واجتناب الكبائر.

- أهو هكذا؟

نعم! إن جميع أهل الاختصاص والشهود وجميع أهل الذوق والكشف من العلماء المدققين والأولياء الصالحين متفقون على أن زاد طريق أبد الآباد، وذخيرة تلك الرحلة الطويلة المظلمة ونورها وبُراقها ليس إلاّ امتثال أوامر القرآن الكريم واجتناب نواهيه، وإلاّ فلا يغني العلم والفلسفة والمهارة والحكمة شيئاً في تلك الرحلة، بل تقف جميعها منطفئة الأضواء عند باب القبر.

فيا نفسي الكسول!

ما أخف أداء الصلوات الخمس واجتناب الكبائر السبع وما أريحها وأيسرها أمام عِظَم فوائدها وثمراتها وضرورتها! إن كنتِ فطنة تفهمين ذلك. ألا قولي لمن يدعوكِ إلى الفسق واللهو والسفاهة، والى ذلك الشيطان الخبيث الماكر:

لو كانت لديك وسيلة لقتل الموت، ولإزالة الزوال عن الدنيا، ولو كان عندك دواء لرفع العجز والفقر عن البشرية، ووساطة لغلق باب القبر إلى الأبد، فهاتها إذن وقُلها لأسمع وأطيع.. وإلاّ فاخرس، فان القرآن الكريم يتلو آيات الكائنات في مسجد الكون الكبير هذا. فلننصت إليه، ولنتنّور بنوره، ولنعمل بهديه الحكيم، حتى يكون لساننا رطباً بذكره وتلاوته.

نعم! إن الكلام كلامه. فهو الحق، وهو الذي يُظهر الحقيقة وينشر آيات نور الحكمة.

اللّهم نوِّر قلوبَنا بنور الإيمان والقرآن. اللهم اَغنِنا بالافتقار إليك ولا تُفقِرنا بالاستغناء عنك، تبرأنا إليك مِن حولنا وقوتنا والتجأنا إلى حولك وقوتك فاجعلنا من المتوكلين عليك ولا تكِلْنا إلى أنفسنا واحفظنا بحفظك وارحمنا وارحم المؤمنين والمؤمنات.

وصلِّ وسلم على سيّدنا محمد عبدك ونبيك وصفيك وخليلك وجمال ملكك ومليك صنعك وعين عنايتك وشمس هدايتك ولسان محبتك ومثال رحمتك ونور خلقك وشرف موجوداتك وسراج وحدتك في كثرة مخلوقاتك وكاشف طلسم كائناتك ودلاّل سلطنة ربوبيتك ومبلّغ مرضياتك ومعرّف كنوز أسمائك ومعلم عبادك وترجمان آياتك ومرآة جمال ربوبيتك ومدار شهودك وإشهادك وحبيبك ورسولك الذي أرسلته رحمةً للعالمين وعلى آله

وصحبه أجمعين وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وعلى ملائكتك المقربين وعلى عبادك الصالحين... آمين [2].

الكلمة الثامنة

بسم الله الرحمن الرحيم

(الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم) (البقرة:255)

(إنّ الدينَ عند الله الإسلام) (آل عمران: 19)

إذا أردت أن تفهم ما الدنيا وما دور الروح الإنسانية فيها، وما قيمة الدين عند الإنسان وكيف أنه لولا الدين الحق لتحولت الدنيا إلى سجن رهيب، وأن الشخص الملحد هو أشقى المخلوقات، وأن الذي يحل طلسم العالم ولغزه المحير وينقذ الروح البشرية من الظلمات إن هو إلا يا الله... "لا إله إلا الله".. أجل إذا كنت تريد أن تفهم كل ذلك فأنصت إلى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة وتفكر فيها ملياً:

كان شقيقان في قديم الزمان يذهبان معاً إلى سياحة طويلة، فواصلا سيرهما سوية إلى أن وصلا إلى مفرق طريقين، فرأيا هناك رجلاً وقوراً فسألاه: أي الطريقين أفضل؟.

فأجابهما: في الطريق اليمين التزام إجباري للقانون والنظام، إلاّ أن في ثنايا ذلك التكليف ثمة أمان وسعادة. أما طريق الشمال ففيه الحرية والتحرر إلا أن في ثنايا تلك الحرية تهلكة وشقاء. والآن لكم الخيار في سلوك أيهما.

وبعد الاستماع إلى هذا الكلام سلك الأخ ذو الطبع الطيب طريق اليمين قائلاً: "توكلت على اللّه" وانطلق راضياً عن طيب نفس باتباع النظام والانتظام. أما الأخ الآخر الغاوي، فقد رجّح طريق الشمال لمجرد هوى التحرر الذي فيه.

والآن فلنتابع خيالاً هذا الرجل السائر في طريق ظاهره السهولة والخفة وباطنه من قبله الثقل والعناء. فما أن عبر الوديان العميقة والمرتفعات العالية الوعرة حتى

[2] هذه الأدعية الواردة في ختام أغلب (الكلمات) جاءت بالأصل باللغة العربية. (المترجم).

دخل وسط مفازة خالية وصحراء موحشة؛ فسمع صوتاً مخيفاً، ورأى أن أسداً ضخماً غضوباً قد انطلق من الأحراش نحوه؛ ففر منه فراراً وهو يرتعد خوفاً وهلعاً، فصادف بئراً معطلة على عمق ستين ذراعاً فألقى نفسه فيها طلباً للنجاة، وفي أثناء السقوط لقَيت يداه شجرةً فتشبث بها. وكان لهذه الشجرة جذران نبتا على جدار البئر وقد سلّط عليهما فأران، أبيض وأسود. وهما يقضمان ذينك الجذرين بأسنانهما الحادة. فنظر إلى الأعلى فرأى الأسد واقفاً كالحـــارس على فوهة البئر، ونظر إلى الأسفل فرأى ثعباناً كبيراً جداً قد رفع رأسه يريد الاقتراب منه وهو على مسافة ثلاثين ذراعاً، وله فم واسع سعة البئر نفسها. ورأى ثمة حشرات مؤذية لاســعة تحيط به. نظر إلى أعلى الشجرة فرأى أنها شجرة تين، إلا أنها تثمر بصورة خارقة أنواعاً مختلفة وكثيرة من فواكه الأشجار ابتداء من الجوز وانتهاء إلى الرمان.

لم يكن هذا الرجل ليفهم – لسوء إدراكه وحماقته – بأن هذا الأمر ليس اعتيادياً، ولا يمكن أن تأتي كل هذه الأشياء مصادفةً ومن دون قصد. ولم يكن يفهم أن في هذه الشـــؤون العجيبة أسراراً غريبة، وأن هناك وراء كل ذلك من يدبّر هذه الأمور ويسيّرها.

فبينما يبكي قلب هذا الرجل وتصرخ روحه ويحار عقله من أوضاعه الأليمة إذا بنفسه الأمارة بالسوء أخذت تلتهم فواكه تلك الشجرة متجاهلة عما حولها وكأن شيئاً لم يحـــدث؛ سادّة أذنيها عن صرخات القلب وهواتف الروح، خادعة نفسها بنفسها رغم أن قسماً مـــن تلك الفواكه كانت مسمومة ومضرة.

وهكذا نرى أن هذا الرجل الشقي قد عومل بمثل ما جاء في الحديث القدسي (أنا عند ظن عبدي بي) [3] أي: أنا أعامل عبدي مثلما يعرفني هو. فلقد عومل هكذا، وسيعامل مثلـــها أيضاً، بل لابد أن يرى مثل هذه المعاملة جزاء تلقيه كل ما يشاهده أمراً عادياً بلا قصـــد ولا حكمة وكأنه الحق بعينه، وذلك لسوء ظنه وبلاهته الخرقاء؛ فصار يتقلب في نار العذاب ولا يستطيع أن يموت لينجو ولا يقدر على العيش الكريم.

[3] رواه البخاري ومسلم 2675 والترمذي 3538 (ت.احمد شاكر) ـــ المترجم ـــ

ونحن بدورنا سنرجع تاركين وراءنا ذلك المشؤوم يتلوى في عذابه؛ لنعرف ما جـــرى للأخ الآخر من أحوال.

فهذا الرجل المبارك ذو العقل الرشيد ما يزال يقطع الطريق دون أن يعـــاني الــــضيق كأخيه، ذلك لأنه لا يفكر إلا في الأشياء الجميلة – لما له من جمال الخُلق – ولا يأخذ بعنان الخيال إلاّ بما هو جميل ولطيف، لذا كان يستأنس بنفسه ولا يلاقي الصعوبة والمشقة كأخيه. ذلك لأنه يعرف النظام، ويعمل بمقتضى الولاء والاتباع. فيرى الأمور تسهل له، ويمضي حراً منطلقاً مستظلاً بالأمان والاستقرار. وهكذا مضى حتى وجد بستاناً فيه أزهار جميلة وفواكـــه لطيفة مع ثمة جثث حيوانات وأشياء منتنة مبعثرة هنا وهناك بسبب إهمال النظافة. كان أخوه الشقي قد دخل – من قبل – في مثل هذا البستان أيضاً غير أنه انشغل بمشاهدة الجيف الميتـــة وإنعام النظر فيها مما أشعره بالغثيان والدوار. فغادره دون أن يأخذ قسطاً من الراحة لمواصلة السير. أما هذا الأخ فعملاً بقاعدة "انظر إلى الأحسن من كل شي" فقد أهمـــل الجيـــف و لم يلتفت إليها مطلقاً، بل استفاد مما في البستان من الأشياء والفواكه. وبعدما استراح فيه الراحة التامة مضى إلى سبيله.

ودخل – هو أيضاً كأخيه – في صحراء عظيمة ومفازة واسعة. وفجأة سمع صوت أسد يهجم عليه فخاف إلاّ انه دون خوف أخيه، حيث فكّر بحُسن ظنه وجمال تفكيره قائلاً: لابد أن لهذه الصحراء حاكماً، فهذا الأسد إذن يحتمل أن يكون خادماً أميناً تحت أمرته.. فوجد في ذلك اطمئناناً، غير أنه فرّ كذلك حتى وصل وجهاً لوجه إلى بئر معطلة بعمق ستين ذراعـــاً فألقى نفسه فيها وأمسك – كصاحبه – بشجرة في منتصف الطريق من البئر.. وبقي معلقـــاً بها، فرأى حيوانين اثنين يقطعان جذري تلك الشجرة رويداً رويداً.. فنظر إلى الأعلى فـــرأى الأسد، ونظر إلى الأسفل فرأى ثعباناً ضخماً، ونظر إلى نفسه فوجدها – كأخيه تمامـــاً – في وضع عجيب غريب. فدهش من الأمر هو كذلك إلا انه دون دهشة أخيه بألف مـــرة، لمـــا منحه الله من حُسن الخلق وحُسن التفكير والفكر الجميل الذي لا يريه إلا الجهة الجميلة مـــن الأشياء. ولهذا السبب فقد فكّر هكذا: أن هذه الأمور العجيبة ذات علاقات مترابطة بعضها

ببعض، وأنها لتظهر كأن آمراً واحداً يحركها؛ فلابد إذن أن يكون في هذه الأعمال المحيرة سرّ مغلق وطلسم غير مكشوف.

أجل! إن كل هذا يرجع إلى أوامر حاكم خفي، فأنا إذن لست وحيداً، بل إن ذلك الحاكم الخفي ينظر اليّ ويرعاني ويختبرني، ولحكمة مقصودة يسوقني إلى مكان، ويدعونني إليه. فنشأ لديه من هذا التفكير الجميل والخوف اللذيذ شوقٌ أثار هذا السؤال: مَن يكون يا ترى هذا الذي يجرّبني ويريد أن يعرّفني نفسه؟ ومَن هذا الذي يسوقني في هذا الطريق العجيب إلى غاية هادفة؟ ثم نشأ من الشوق إلى التعرف محبة صاحب الطلسم، ونمت من تلك المحبة رغبة حل الطلسم، ومن تلك الرغبة انبثقت رغبة اتخاذ وضع جميل وحالة مقبولة لدى صاحب الطلسم حسب ما يحبه ويرضاه.

ثم نظر أعلى الشجرة فرأى أنها شجرة تين، غير أن في نهاية أغصانها آلاف الأنواع من الأثمار والفواكه، وعندها ذهب خوفه وزال نهائياً، لأنه علم علماً قاطعاً بأن شجرة التين هذه إنما هي فهرس ومعرض، حيث قلد الحاكم الخفي نماذج ما في بستانه وجناته بشكل معجز عليها وزيّنها بها، إشارةً لما أعدّه من أطعمة ولذائذ لضيوفه.. وإلا فان شجرة واحدة لن تعطي أثمار آلاف الأشجار. فلم يرَ أمامه إلاّ الدعاء والتضرع، فألح متوسلاً بانكسار إلى أن اُلهم مفتاح الطلسم فهتف قائلاً:

"يا حاكم هذه الديار والآفاق! التجئ إليك وأتوسل وأتضرع، فأنا لك خادم، أريد رضاك وأنا أطلبك وأبحث عنك"..

فانشق جدار البئر فجأة بعد هذا الدعاء، عن باب يفتح إلى بستان فاخر طاهر جميل، وربما انقلب فم ذلك الثعبان إلى ذلك الباب واتخذ كل من الأسد والثعبان صورة الخادم وهيأته.. فأخذا يدعوانه إلى البستان حتى أن ذلك الأسد تقمص شكل حصان مسخّر بين يديه.

فيا نفسي الكسلى! ويا صاحبي في الخيال..

تعالا لنوازن بين أوضاع هذين الأخوين كي نعلم كيف أن الحسنة تجلب الحسنة وأن السيئة تأتي بالسيئة.

إن المسافر الشقي إلى جهة الشمال معرّض في كل آن أن يلج في فم الثعبان فهو يرتجف خوفاً وهلعاً. بينما هذا السعيد يُدعى إلى بستان أنيق بهيج مثمر بفواكه شتى.. وان قلب ذلك الشقي يتمزق في خوف عظيم ورعب أليم بينما هذا السعيد يرى غرائب الأشياء وينظر إليها بعبرة حلوة وخوف لذيذ ومعرفة محبوبة.. وان ذلك الشقي المسكين ليعـــاني مـــن الوحشـــة واليأس واليتم عذاباً وأي عذاب! بينما هذا السعيد يتلـــذذ في الأنـــس ويترفـــل في الأمـــل والشوق.. ثم ان ذلك المنكود يرى نفسه محكوماً عليه – كالسجين – بهجمات الحشـــرات المؤذية، بينما هذا السعيد المحظوظ يتمتع متعة ضيف عزيز. وكيف لا وهو ضيف عند مضيّف كريم، فيستأنس مع عجائب خدمه. ثم أن ذلك السيء الحظ ليعجّل عذابه في النـــار بأكلـــه مأكولات لذيذة الطعم ظاهراً ومسمومة حقيقةً ومعنىً، إذ إن تلك الفواكه ما هي إلاّ نماذج، قد إذن للتذوق منها فحسب ليكون طالباً لحقائقها وأُصولها ويكون شاريها الأصيل وإلاّ فلا سماح للشراهة منها كالحيوان. أما هذا السعيد المحمود فانه يتذوق منها إذ يعي الأمر، مؤخّراً أكلها وملتذاً بالانتظار.. ثم إن ذلك الشقي يكون قد ظلم نفسه بنفسه؛ جاراً عليها وضـــعاً مظلماً وأوهاماً ذات ظلمات حتى كأنه في جحيم، بانعدام بصيرته عن حقائق ساطعة كالنهار وأوضاع جميلة باهرة، فلا هو مستحق للشفقة ولا له حق الشكوى، مَثَله في هذا مثل رجـــل وسط أحبائه في موسم الصيف وفي حديقة جميلة بهيجة في وليمة طيبة للأفراح، فلعدم قناعته بها راح يرتشف كؤوس الخمر – أم الخبائث – حتى أصبح سكيراً ثملاً؛ فشـــرع بالصـــراخ والعويل، وبدأ بالبكاء، ظاناً نفسه أنه في قلب الشتاء القارس، ومتصوراً أنه جائع وعار وسط وحوش مفترسة. فمثلما أن هذا الرجل لا يستحق الشفقة والرأفة، إذ ظلم نفسه بنفسه متوهماً أصدقاءه وحوشاً، محتقراً لهم.. فكذلك هذا المشؤوم.

ولكنما ذلك السعيد يبصر الحقيقة، والحقيقة بذاتها جميلة، ومع إدراك جمال الحقيقة فانه يحترم كمال صاحب الحقيقة ويوقّره فيستحق رحمته.

فاعلم إذن سراً من أسرار: (ما أَصَابكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِن الله وما أَصَابَك مِن سَيئةٍ فَمِـــن نَفسِكَ) (النساء:79)

فلو وازنت سائر هذه الفروق وأمثالها لعلمت أن النفس الأمارة للأول قد أحضرت له جهنم معنوية، بينما الآخر قد نال – بحسن نيته وحسن ظنه وحسن خصلته وحسن فكره – الفيض والسعادة والإحسان العميم.

فيا نفسي. ويا أيها الرجل المنصت معي إلى هذه الحكاية!

إذا كنت تريد أن لا تكون مثل ذلك الأخ المشؤوم وترغب في أن تكون كالأخ السعيد فاستمع إلى القرآن الكريم وأرضخ لحكمه واعتصم به واعمل بأحكامه.

وإذا كنت قد وعيت ما في هذه الأقصوصة التمثيلية من حقائق؛ فانك تستطيع أن تطبق عليها الحقيقة الدينية والدنيوية والإنسانية والإيمانية كلها. وسأقول لك الأسس، واستخرج بنفسك الدقائق!

فالأخوان الاثنان: أحدهما روح المؤمن وقلب الصالح، والآخر روح الكافر وقلب الفاسق.. أما اليمين من تلكما الطريقين فهو طريق القرآن وطريق الإيمان وأما الشمال فطريق العصيان والكفران.. وأما ذلك البستان في الطريق فهو الحياة الاجتماعية المؤقتة للمجتمع البشري والحضارة الإنسانية التي يوجد فيها الخير والشر والطيب والخبيث والطاهر والقذر معاً. فالعاقل هو مَن يعمل على قاعدة: "خذ ما صفا.. دع ما كدر" فيسير مع سلامة القلب واطمئنان الوجدان.

وأما تلك الصحراء فهي هذه الدنيا وهذه الأرض.. وأما ذلك الأسد فهو الأجل والموت.. وأما تلك البئر فهي جسد الإنسان وزمان الحياة. وأما ذلك العمق البالغ ستين ذراعاً فهو إشارة إلى العمر الغالب، وهو معدل العمر "ستون سنة".. وأما تلك الشجرة فهي مدة العمر ومادة الحياة.. وأما الحيوانان الاثنان، الأسود والأبيض فهما الليل والنهار.. وأما ذلك الثعبان فهو فم القبر المفتوح إلى طريق البرزخ ورواق الآخرة، إلاّ أن ذلك الفم هو للمؤمن باب يفتح من السجن إلى البستان.. وأما تلك الحشرات المضرة فهي المصائب الدنيوية، إلاّ أنها للمؤمن في حكم الايقاظات الإلهية الحلوة والالتفاتات الرحمانية لئلا يغفل.. وأما مطعومات تلك الشجرة فهي النعم الدنيوية التي صنعها ربّ العزة الكريم لكي تكون فهرساً للنعم الأخروية ومذكِّرة بها، بمشابهتها لها، وقد خلقها البارئ الحكيم على هيئة نماذج لدعوة

الزبائن إلى فواكه الجنة، وان إعطاء تلك الشجرة على وحدها الفواكه المختلفة المتباينة إشارة إلى آية الصمدانية وختم الربوبية الإلهية وطغراء سلطنة الألوهية. ذلك لأن "صنع كل شئ من شئ واحد" أي صنع جميع النباتات وأثمارها من تراب واحد، وخلق جميع الحيوانات من ماء واحد، وإبداع جميع الأجهزة الحيوانية من طعام بسيط. وكذا "صنع الشيء الواحد من كل شئ" كبناء لحم معين وجلد بسيط لذي حياة من مطعومات مختلفة الأجناس.. إنما هي الآية الخاصة للذات الأحدية الصمدية والختم المخصوص للسلطان الأزلي الأبدي وطغراؤه التي لا يمكن تقليدها أبداً.

نعم إن خلق شيء من كل شئ وخلق كل شئ من شيء، إنما هو خاصية تعود إلى خالق كل شيء.. وعلامة مخصوصة للقادر على كل شيء. وأما ذلك الطلسم فهو سر حكمة الخلق الذي يُفتح بسر الإيمان.

وأما ذلك المفتاح فهو (الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم) و "يا الله" و (لا إله إلا الله..)

وأما انقلاب فم ذلك الثعبان إلى باب البستان فهو رمز إلى أن القبر هو سجن الوحشة والنسيان والإهمال والضيق، فهو كبطن الثعبان لأهل الضلالة والطغيان. ولكنه لأهل الإيمان والقرآن باب مفتوح على مصراعيه من سجن الدنيا إلى بستان البقاء، ومن ميدان الامتحان إلى روضة الجنان، ومن زحمة الحياة إلى رحمة الرحمن.. وأما انقلاب ذلك الأسد المفترس إلى حصان مسخر والى خادم مؤنس فهو إشارة إلى أن الموت لأهل الضلال فراق أبدي أليم من جميع الأحبة، وخروج من جنة دنيوية كاذبة إلى وحشة سجن انفرادي للقبر، وضياع في تيه سحيق، بينما هو لأهل الهداية وأهل القرآن رحلة إلى العالم الآخر، ووسيلة إلى ملاقاة الأحبة والأصدقاء القدامى، وواسطة إلى دخول الوطن الحقيقي ومنازل السعادة الأبدية، ودعوة كريمة من سجن الدنيا إلى بساتين الجنان، وانتظار لأخذ الأجرة للخدمات تفضلاً من الرحمن الرحيم، وتسريح من تكاليف الحياة وإجازة من وظيفتها، وإعلان الانتهاء من واجبات العبودية وامتحانات التعليم والتعليمات.

نحصل من هذا كله:

أن كل من يجعل الحياة الفانية مبتغاه فسيكون في جهنم حقيقةً ومعنىً، حتى لو كـــان يتقلب ظاهراً في بحبوحة النعيم.

وان كل من كان متوجهاً إلى الحياة الباقية ويسعى لها بجد وإخلاص فهو فائز بسعادة الدارين وأهل لهما معاً حتى لو كانت دنياه سيئة وضيقة، إلاّ أنه سيراها حلوة طيبة، وسيراها قاعة انتظار لجنته، فيتحملها ويشكر ربه فيها وهو يخوض غمار الصبر.

اللهم اجعلنا من أهل السعادة والسلامة والقرآن والإيمان .. آمين.

اللّهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه بعدد جميع الحروفات المتشكلة في جميع الكلمات المتمثلة بإذن الرحمن في مرايا تموجات الهواء عند قراءة كل كلمة من القـــرآن من كل قارئ من أول النـــزول إلى آخر الزمان.

وارحمنا ووالدينا وارحم المؤمنين والمؤمنات بعددها برحمتك يا أرحم الراحمين آمـــين .. والحمد لله رب العالمين.

الكلمة التاسعة

بسم الله الرحمن الرحيم

(فَسُبْحانَ الله حينَ تُمسونَ وحين تُصبِحُون_ وَلَه الحَمدُ في السَموات والأرض وَعَشِيّا وحين تُظهِرون) (الروم: 17 -18)

أيها الأخ! تسألني عن حكمة تخصيص الصلاة في هذه الأوقات الخمسة المعينة، فسنشير إلى حكمة واحدة فقط من بين حِكمها الوفيرة.

نعم، كما أن وقت كل صلاة، بداية انقلابٍ زمني عظيم ومهم، فهو كـــذلك مـــرآة لتصرف إلهي عظيم، تعكس الآلاء الإلهية الكلية في ذلك الوقت. لهذا فقـــد اُمـــر في تلـــك الأوقات بالصلاة ، أي الزيادة من التسبيح والتعظيم للقدير ذي الجلال، والإكثار من الحمـــد والشكر لنعمه التي لا تحصى والتي تجمعت بين الوقتين. ولأجل فهم بعضٍ من هـــذا المعـــنى العميق الدقيق، ينبغي الإصغاء – مع نفسي – إلى خمس نكات [4].

---

[4] النكتة: هي مسألة لطيفة اُخرجت بدقة نظر وامعان فكر، وسُميت المسألة الدقيقة نكتة لتأثير الخواطر في استنباطها. ــ التعريفات للجرجاني ــ المترجم

النكتة الأولى:

إن معنى الصلاة هو التسبيح والتعظيم والشكر لله تعالى. أي تقديسُه جل وعــلا تجــاه جلاله قولاً وفعلاً بقول: "سبحان الله".. وتعظيمه تجاه كماله لفظاً وعمــلاً بقــول: "اللّــه اكبــر".. وشكره تجاه جماله قلباً ولساناً وجسماً بقول: "الحمد لله".

أي أن التسبيح والتكبير والتحميد هو بمثابة نوى الصلاة وبذورها، فوُجِدت هذه الثلاثة في جميع حــركات الصلاة وأذكارها. ولهــذا أيضاً تُكرّر هذه الكلمات الطيبة الثلاث ثلاثاً وثلاثين مرة عقب الصلاة، وذلك للتأكيد على معنى الصلاة وترسيخه، إذ بهــذه الكلمــات الموجزة المجملة يؤكد معنى الصلاة ومغزاها.

النكتة الثانية:

إن معنى العبادة هو سجودُ العبد بمحبة خالصة وبتقدير وإعجاب في الحضــرة الإلهيــة وأمام كمال الربوبية والقدرة الصمدانية والرحمة الإلهية مشاهداً في نفسه تقصــيرَه وعجــزَه وفقرَه.

نعم، كما أن سلطنة الربوبية تتطلب العبودية والطاعة، فان قدسيتَها ونــزاهتها تتطلب أيضاً أن يُعلن العبدُ – مع استغفاره برؤية تقصيره – أن ربَّه منــزهٌ عن أي نقص، وانه مُتعالٍ على جميع أفكار أهل الــضلالة الباطلة، وانه مقدّس من جميع تقصيرات الكائنات ونقائصها. أي يعلن ذلك كله بتسبيحه، بقوله: "سبحان الله".

وكذا قدرة الربوبية الكاملة تطلب من العبد أيضاً أن يلتجئ إليها، ويتوكل عليها لرؤيته ضعفَ نفسه الشديد وعجزَ المخلوقات قائلاً: "الله اكبر" بإعجاب وتقدير واستحسان تجــاه عظمة آثار القدرة الصمدانية، ماضياً إلى الركوع بكل خضوع وخشوع.

وكذا رحمة الربوبية الواسعة تتطلب أيضاً أن يُظهر العبدُ حاجاته الخاصة وحاجات جميع المخلوقات وفقرها بلسان السؤال والدعاء، وان يعلن إحسان ربه وآلاءه العميمــة بالشــكر والثناء والحمد بقوله: "الحمد لله".

أي أن أفعال وأقوال الصلاة تتضمن هذه المعاني. ولأجل هذه المعاني فُرضت الصلاة من لدنه سبحانه وتعالى.

النكتة الثالثة:

كما أن الإنسان هو مثالٌ مصغّر لهذا العالم الكبير، وان سورة الفاتحة مثالٌ منوّر للقرآن العظيم، فالصلاة كذلك فهرس نوراني شامل لجميع العبادات، وخريطة سامية تشير إلى أنماط عبادات المخلوقات جميعاً.

النكتة الرابعة:

إن عقارب الساعة التي تعد الثواني والدقائق والساعات والأيام، كلٌ منها يناظر الآخر، ويمثّل الآخر، ويأخذ كلٌ منها حكم الآخر.

كذلك في عالم الدنيا الذي هو ساعة إلهية كبرى، فان دوران الليل والنهار الذي هو بحكم الثواني للساعة، والسنوات التي تعدّ الدقائق، وطبقات عمر الإنسان التي تعد الساعات، وأدوار عمر العالم التي تعد الأيام، كل منها يناظر الآخر، ويتشابه معه، ويماثله، ويذكّر كل منها الآخر، ويأخذ حكمه.

فمثلاً:

وقت الفجر إلى طلوع الشمس: يشبه ويذكّر ببداية الربيع وأوله، وبأوان سقوط الإنسان في رحم الأم، وباليوم الأول من الأيام الستة في خلق السموات والأرض، فينبّه الإنسان إلى ما في تلك الأوقات من الشؤون الإلهية العظيمة.

أما وقت الظهر: فهو يشبه ويشير إلى منتصف الصيف، والى عنفوان الشباب، والى فترة خلق الإنسان في عمر الدنيا، ويذكّر ما في ذلك كله من تجليات الرحمة وفيوضات النعمة.

أما وقت العصر: فهو يشبه موسم الخريف، وزمن الشيخوخة، وعصر السعادة الذي هو عصر خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام، ويذكّر ما في ذلك كله من الشؤون الإلهية والآلاء الرحمانية.

أما وقت المغرب: فأنه يذكّر بغروب أغلب المخلوقات واُفولها نهاية الخريف، ويذكّر أيضاً بوفاة الإنسان، وبدمار الدنيا عند قيام الساعة، ومع ذلك فهو يعلّم التجليات الجلالية، ويوقظ الإنسان من نوم الغفلة وينبهه.

أما وقت العشاء: فيذكّر بغشيان عالم الظلام وستره آثار عالم النهار بكفنه الأسود، ويذكّر أيضاً بتغطية الكفن الأبيض للشتاء وجه الأرض الميتة، وبوفاة حتى آثار الإنسان المتوفى ودخولها تحت ستار النسيان، وبانسداد أبواب دار امتحان الدنيا نهائياً، ويعلن في ذلك كله تصرفات جلالية للقهار ذي الجلال.

أما وقت الليل: فانه يذكّر بالشتاء، وبالقبر، وبعالم البرزخ، فضلاً عن انه يذكّر روح الإنسان بمدى حاجتها إلى رحمة الرحمن.

أما التهجد في الليل: فانه يذكّر بضرورته ضياء لليل القبر، ولظلمات عالم البرزخ، وينبّه ويذكّر بنعم غير متناهية للمنعم الحقيقي عبر هذه الانقلابات، ويعلن أيضاً عن مدى أهلية المنعم الحقيقي للحمد والثناء.

أما الصباح الثاني: فانه يذكّر بصباح الحشر. نعم، كما أن مجيء الصبح لهذا الليل، ومجيء الربيع لهذا الشتاء معقول وضروري وحتمي، فان مجيء صباح الحشر وربيع البرزخ هما بالقطعية والثبوت نفسيهما.

فكل وقت إذن – من هذه الأوقات الخمسة – بداية انقلاب عظيم، ويذكّر بانقلابات أخرى عظيمة، فهو يذكّر أيضاً بمعجزات القدرة الصمدانية وهدايا الرحمة الإلهية سواء منها السنوية أو العصرية أو الدهرية، بإشارات تصرفاتها اليومية العظيمة.

أي إن الصلاة المفروضة التي هي وظيفة الفطرة وأساس العبودية والدَّين المفروض، لائقة جداً ومناسبة جداً في أن تكون في هذه الأوقات حقاً.

النكتة الخامسة:

إن الإنسان بفطرته ضعيف جداً، ومع ذلك فما اكثر المنغصات التي تورثه الحزن والألم، وهو في الوقت نفسه عاجز جداً، مع أن أعداءه ومصائبه كثيرة جداً، وهو فقير جداً مع أن حاجاته كثيرة وشديدة، وهو كسول وبلا اقتدار مع أن تكاليف الحياة ثقيلة عليه، وإنسانيته جعلته يرتبط بالكون جميعاً مع أن فراقَ ما يحبه وزوال ما يستأنس به يؤلمانه، وعقله يريه مقاصد سامية وثماراً باقية، مع أن يده قصيرة، وعمره قصير، وقدرته محدودة وصبره محدود.

فروح الإنسان في هذه الحالة (في وقت الفجر) أحوج ما تكون إلى أن تطرق – بالدعاء والصلاة – باب القدير ذي الجلال، وباب الرحيم ذي الجمال، عارضةً حالها أمامه، سائلة التوفيق والعون منه سبحانه، وما اشد افتقار تلك الروح إلى نقطة استناد كي تتحمل ما سيأتي أمامها من أعمال، وما ستحمل على كاهلها من وظائف في عالم النهار الذي يعقبه. ألا يُفهم ذلك بداهةً؟

(وعند وقت الظهر) ذلك الوقت الذي هو ذروة كمال النهار وميلانه إلى الزوال، وهو أوان تكامل الأعمال اليومية، وفترة استراحة موقتة من عناء المشاغل، وهو وقت حاجة الروح إلى التنفس والاسترواح مما تعطيه هذه الدنيا الفانية والأشغال المرهقة الموقتة من غفلةٍ وحيرةٍ واضطراب فضلاً عن انه أوان تظاهر الآلاء الإلهية.

فخلاصُ روح الإنسان من تلك المضايقات، وانسلالها من تلك الغفلة والحيرة، وخروجها من تلك الأمور التافهة الزائلة، لا يكون إلاّ بالالتجاء إلى باب القيوم الباقي – وهو المنعم الحقيقي – بالتضرع والتوسل أمامه مكتوف اليدين شاكراً حامداً لمحصّلة نِعَمه المتجمعة، مستعيناً به وحده، مع إظهار العجز أمام جلاله وعظمته بالركوع، وإعلان الذل والخضوع – بإعجاب وتعظيم وهيام – بالسجود أمام كماله الذي لا يزول، وأمام جماله الذي لا يحول.. وهذا هو أداء صلاة الظهر، فما أجملها، وما ألذّها، وما أجدرها، وما أعظم ضرورتها!. ومن ثم فلا يحسبنّ الإنسان نفسه إنساناً إن كان لا يفهم هذا.

(وعند وقت العصر): الذي يذكّر بالموسم الحزين للخريف، وبالحالة المحزنة للشيخوخة، وبالأيام الأليمة لآخر الزمان، وبوقت ظهور نتائج الأعمال اليومية. فهو فترة حصول المجموع الكلي الهائل للنعم الإلهية، أمثال التمتع بالصحة والتنعم بالعافية، والقيام بخدمات طيبة. وهو كذلك وقت الإعلان بان الإنسان ضيف مأمور، وبأن كل شئ يزول وهو بلا ثبات ولا قرار، وذلك بما يشير إليه انحناء الشمس الضخمة إلى الأُفول.

نعم إن روح الإنسان التي تنشد الأبدية والخلود، وهي التي خُلقت للبقاء والأبد، وتعشق الإحسان، وتتألم من الفراق، تُنهض بهذا الإنسان ليقوم وقت العصر ويسبغ الوضوء لأداء صلاة العصر، ليناجي متضرعاً أمام باب الحضرة الصمدانية للقديم الباقي وللقيوم السرمدي،

وليلتجئ إلى فضل رحمته الواسعة، وليقدم الشكر والحمد على نعمه التي لا تحصى، فيركع بكل ذلٍّ وخضوع أمام عزة ربوبيته سبحانه ويهوي إلى السجود بكل تواضع وفناء أمام سرمدية ألوهيته، ويجد السلوان الحقيقي والراحة التامة لروحه بوقوفه بعبودية تامة وباستعداد كامل أمام عظمة كبريائه جل وعلا. فما اسماها من وظيفةٍ تأديةُ صلاة العصر بهذا المعنى! وما أليقها من خدمة! بل ما أحقه من وقتٍ لقضاء دَين الفطرة، وما أعظمه من فوزٍ للسعادة في منتهى اللذة! فمن كان إنساناً حقاً فسيفهم هذا.

(وعند وقت المغرب) الذي يذكّر بوقت غروب المخلوقات اللطيفة الجميلة لعالم الصيف والخريف في خزينة الودائع منذ ابتداء الشتاء، ويذكّر بوقت دخول الإنسان القبر عند وفاته وفراقه الأليم لجميع أحبته، وبوفاة الدنيا كلها بزلزلة سكراتها وانتقال ساكنيها جميعاً إلى عوالم أخرى. ويذكّر كذلك بانطفاء مصباح دار الامتحان هذه. فهو وقت إيقاظ قوي وإنذار شديد لأولئك الذين يعشقون لحد العبادة المحبوبات التي تغرب وراء اُفق الزوال. لذا فالإنسان الذي يملك روحاً صافية كالمرآة المجلوة المشتاقة فطرةً إلى تجليات الجمال الباقي، لأجل أداء صلاة المغرب في مثل هذا الوقت يولّي وجهه إلى عرش عظمة مَن هو قديم لم يزل، ومن هو باقٍ لا يزال، ومَن هو يدبر أمر هذه العوالم الجسيمة ويبدّلها، فيدّوي بصوته قائلاً: (الله اكبر) فوق رؤوس هذه المخلوقات الفانية، مُطلقاً يده منها، مكتوفاً في خدمة مولاه الحق منتصباً قائماً عند مَن هو دائمٌ باقٍ جل وعلا ليقول: "الحمد لله" أمام كماله الذي لا نقص فيه، وأمام جماله الذي لا مثيل له، واقفاً أمام مُثنياً رحمته الواسعة ليقول: (إياك نعبد وإياك نستعين). ليعرض عبوديته واستعانته تجاه ربوبية مولاه التي لا معين لها وتجاه ألوهيته التي لا شريك لها، وتجاه سلطنته التي لا وزير لها. فيركع إظهاراً لعجزه وضعفه وفقره مع الكائنات جميعاً أمام كبريائه سبحانه التي لا منتهى لها، وأمام قدرته التي لا حدّ لها، وأمام عزته التي لا عجز فيها، مسبحاً ربّه العظيم قائلاً :(سبحان ربي العظيم). ثم يهوي إلى السجود أمام جمال ذاته الذي لا يزول، وأمام صفاته المقدسة التي لا تتغير، وأمام كمال سرمديته الذي لا يتبدل، مُعلناً بذلك حبَّه وعبوديته في إعجاب وفناء وذل، تاركاً ما سواه سبحانه قائلاً: (سبحان ربي الأعلى) واجداً جميلاً باقياً ورحيماً سرمدياً بدلاً من كل فانٍ. فيقدس ربَّه الأعلى المنزه عن

الزوال المبرأ من التقصير ويجلس للتشهد، فيقدّم التحيات والصلوات الطيبات لجميع المخلوقات هديةً باسمه إلى ذلك الجميل الذي لم يزل وإلى ذلك الجليل الذي لا يزال، مجدداً بيعتَــه مــع رسوله الأكرم بالسلام عليه مُظهراً بها طاعته لأوامره، فيرى الانتظام الحكيم لقصر الكائنات هذا، ويُشهِدُه على وحدانية الصانع ذي الجلال، فيجدّد إيمانه وينوّره، ثم يشهد علــى دلاّل الربوبية ومبلّغ مرضياتها وترجمان آيات كتاب الكون الكبير ألا وهو محمد العربي صــلى الله عليه وسلم . فما ألطفَ وما أنــزه أداء صلاة المغرب وما أجلّها من مهمة – بهذا المضمون – وما أعزّها وأحلاها من وظيفة، وما أجملها وألذّها من عبودية، وما أعظمها من حقيقة أصيلة! وهكذا نرى كيف أنها صُحبة كريمة وجلسة مباركة وسعادة خالدة في مثل هذه الـــضيافة الفانية.. أ فيحسب مَن لم يفهم هذا نفسه أنساناً؟.

(وعند وقت العشاء) ذلك الوقت الذي تغيب في الأفق حتى تلك البقية الباقية من آثار النهار، ويخيّم الليلُ فيه على العالم، فيذكّر بالتصرفات الربانية لــ (مقلب الليل والنهار) وهو القدير ذو الجلال في قلبه تلك الصحيفة البيضاء إلى هذه الصحــيفة الســوداء.. ويذكــرّ كــذلك بالإجراءات الإلــهية لــ(مسخر الشمس والقمر) وهو الحكيم ذو الكمال في قلبه الصحيفة الخضراء المزيّنة للصيف إلى الصحيفة البيضاء الباردة للشــتاء.. ويــذكّر كــذلك بالشؤون الإلهية لــ (خالق الموت والحياة) بانقطاع الآثار الباقية – بمرور الزمن – لأهل القبور من هذه الدنيا وانتقالها كلياً إلى عالم آخر. فهو وقت يذكّر بالتصرفات الجلالية، وبالتجليات الجمالية لخالق الأرض والسموات، وبانكشاف عالم الآخرة الواسع الفسيح الخالد العظــيم، وبموت الدنيا الــضيقة الفانية الحقيرة، ودمارها دماراً تاماً بسكراتها الهائلة. إنهــا فتــرة – أو حالة – تُثبت أن المالك الحقيقي لهذا الكون بل المعبود الحقيقي والمحبوب الحقيقي فيه لا يمكن أن يكون إلاّ مَن يستطيع أن يقلّب الليل والنهار والشتاء والصيف والدنيا والآخرة بســهولة كسهولة تقليب صفحات الكتاب، فيكتب ويثبت ويمحو ويبدل، وليس هذا إلاّ شأن القدير المطلق النافذ حكمه على الجميع جلّ جلاله.

وهكذا فروح البشر التي هي في منتهى العجز وفي غاية الفقر والحاجة، والــتي هــي في حيرة من ظلمات المستقبل وفي وَجَل مما تخفيه الأيام والليالي.. تدفع الإنسان عند أدائه لصلاة

العشاء – بهذا المضمون – أن لا يتردد في أن يردد على غرار سيدنا إبراهيم عليه السـلام (لا أحبُّ الآفلين). فيلتجئ بالصلاة إلى باب مَن هو المعبود الذي لم يزل ومَن هو المحبوب الذي لا يزال، مناجياً ذلك الباقي السرمدي في هذه الدنيا الفانية، وفي هذا العالم الفانـي، وفي هذه الحياة المـظلمة والمسـتقبل المظـلم، لينشر على أرجاء دنياه النور من خـلال صحـبة خاطـفةٍ ومنـاجاة مـوقتة، ولينّور مستقبله ويضمد جراح الزوال والفراق عما يحبّه مـن أشياء وموجـودات ومن أشخاص وأصدقاء وأحباب، بمشاهدة توجـّه رحـمةِ الـرحمن الرحيم، وطلب نور هدايته، فينسى – بدوره – تلك الدنيا التـي أنسـتـه، والتي اختفت وراء العشاء، فيسكب عبرات قلبه، ولوعة صدره، على عتبة باب تلك الرحمـة، ليقـوم بوظيـفة عبـوديته النهـائيـة قـبـل الـدخـول فـيـمـا هـو مـجـهـول العاقـبة، ولا يعـرف ما يُفعـل بـه بعـده، من نوم شبيه بالموت، وليختم دفتر أعمالـه اليومية بحسن الخاتمة. ولأجل ذلك كله يقوم بأداء الصلاة، فيتشرف بالمثول أمام مَـن هـو المعبود المحبوب الباقي بدلاً من المحبوبات الفانية، وينتصب قائماً أمام مَن هو القدير الكريم بدلاً من جميع العجزة المتسولين، وليسمو بالمثول في حضرة مَن هو الحفيظ الرحيم لينجو من شـر من يرتعد منهم من المخلوقات الـضارة. فيستهلّ الصلاة بالفاتحة، أي بالمدح والثناء لـرب العالمين الكريم الرحيم الذي هو الكامل المطلق والغني المطلق، بدلاً من مدح مخلوقات لا طائل وراءها وغير جديرة بالمدح وهي ناقصة وفقيرة وبدلاً من البقاء تحت ذلّ المنّة والأذى، فيرقى إلى مقام الـضيف الكريم في هذا الكون، والى مقام الموظف المرموق فيه رغم انـه ضـئيل وصغير بل هو معدوم، وذلك بسموه إلى مرتبة خطاب (إياك نعبد) أي انتسابه لمالـك يـوم الدين ولسلطان الأزل والأبد. فيقدّم بقوله: (إياك نعبد وإياك نستعين) عبادات واسـتعانات الجماعة الكبرى والمجتمع الأعظم لجميع المخلوقات طالباً الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو طريقه المنوّر الموصل إلى السعادة الأبدية عبر ظلمات المستقبل بقوله: (اهدنا الصراط المستقيم) ويتفكر في كبريائه سبحانه وتعالى ويتأمل في أن هذه الشموس المستترة – التي هي كالنباتات والحيوانات النائمة الآن – وهذه النجوم المنتبهة، جنود مطيعة مسخّرة لأمره جل وعلا، وان كل واحد منها ما هو إلا مصباح في دار ضيافته هذه، وكل واحد منها خادم عامل، فيكبّـر

قائلاً: (الله اكبر) ليبلُغَ الركوع. ثم يتأمل بالسجدة الكبرى لجميع المخلوقات كيف أن أنواع الموجودات في كل سنة، وفي كل عصر - كالمخلوقات النائمة في هذا الليل - بل حتى الأرض نفسها وحتى العالم كله، إنما هي كالجيش المنظم، بل كالجندي المطيع، عندما تسـرّح من وظيفتها الدنيوية بأمر: (كن فيكون) أي عندما تُرسل إلى عالم الغيب تسجد في منتهى النظام في الزوال على سجادة الغروب مكبّرة (الله اكبر). وهي تُبعث وتُحشر كـذلك في الربيـع بنفسها أو بمثلها، بصيحة إحياء وإيقاظ صادر من أمر (كن فيكون) فيتأهـب الجميـع في خضوع وخشوع لأمر مولاهم الحق. فهذا الإنسان الـضعيف اقتداء بتلك المخلوقات، يهوي إلى السجود أمام ديوان الرحمن ذي الكمال والرحيم ذي الجمال قائلاً: "الله اكبر" في حـبٍ غامرٍ بالإعجاب وفي فنائيةٍ مفعمة بالبقاء وفي ذلّ مكللٍ بالعز.

فلا شك يا أخي قد فهمت أن أداء صلاة العشاء سموٌ وصعودٌ فيما يشبه المعراج، ومـا أجملها من وظيفةٍ وما أحلاها من واجبٍ وما اسماها من خدمةٍ وما اعزّها وألذّها من عبودية وما أليقها من حقيقة أصيلة!

أي أن كل وقت من هذه الأوقات إشارات لانقلاب زمني عظيم، وأمارات لإجراءات ربانية جسيمة، وعلامات لإنعامات إلهية كلية، لذا فان تخصيص صلاة الفرض - التي هي دَين الفطرة - في تلك الأوقات هو منتهى الحكمة.

(سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنآ الاَّ مَا عَلَّمْتَنَا انّكَ اَنْتَ العَليمُ الحَكيمُ)

اللّهم صل وسلم على مَن أرسلته معلّماً لعبادك، ليعلّمهم كيفية معرفتك والعبودية لك، ومعرّفاً لكنوز أسمائك، وترجماناً لآيات كتاب كائناتك، ومرآةً بعبوديته لجمـال ربوبيتـك، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وارحمنا وارحم المؤمنين والمؤمنات.

آمين برحمتك يا ارحم الراحمين.

الكلمة العاشرة

مبحث الحشر

تنبيه

إن سبب إيرادي التشبيه والتمثيل بصورة حكايات في هذه الرسائل هو تقريب المعاني إلى الأذهان من ناحية، وإظهار مدى معقولية الحقائق الإسلامية ومدى تناسبها ورصانتها من ناحية أخرى، فمغزى الحكايات إنما هو الحقائق التي تنتهي إليها، والتي تدل عليها كنايةً. فهي إذن ليست حكايات خيالية وإنما حقائق صادقة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(فَانْظُرْ إلى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَـمُحْيِي الْـمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ) (الروم: 50)

يا أخي!

إن رمتَ إيضاح أمر الحشر وبعضَ شؤون الآخرة على وجهٍ يُلائم فهمَ عامة الناس، فاستمع معي إلى هذه الحكاية القصيرة.

ذهب اثنان معاً إلى مملكة رائعة الجمال كالجنة – التشبيه هنا للدنيا– وإذا بهما يَريان أن أهلها قد تركوا أبواب بيوتهم وحوانيتهم ومحلاتهم مفتوحة لا يهتمون بحراستها.. فالأموال والنقود في متناول الأيدي دون أن يحميها أحد. بدأ أحدهما – بما سوّلت له نفسه – يسرق حيناً ويغصب حيناً آخر مرتكباً كل أنواع الظلم والسفاهة، والأهلون لا يبالون به كثيراً.

فقال له صديقه:

– ويحك ماذا تفعل؟ انك ستنال عقابك، وستلقيني في بلايا ومصائب. فهذه الأموال أموال الدولة، وهؤلاء الأهلون قد اصبحوا — بعوائلهم وأطفالهم — جنود الدولة أو موظفيها، ويُستخدمون في هذه الوظائف ببزّتهم المدنية، ولذلك لم يُبالوا بك كثيراً. اعلم أن النظام هنا صارم، فعيون السلطان ورقباؤه وهواتفه في كل مكان. أسرع يا صاحبي بالاعتذار وبادر إلى التوسل.. ولكن صاحبه الأبله عاند قائلاً:

– دعني يا صاحبي، فهذه الأموال ليست أموال الدولة، بل هي أموال مشاعة، لا مالك لها. يستطيع كل واحد أن يتصرف فيها كما يشاء. فلا أرى ما يمنعني من الاستفادة منها، أو الانتفاع بهذه الأشياء الجميلة المنثورة أمامي. واعلم أني لا أصدّق بما لا تراه عيناي... وبدأ يتفلسف ويتفوه بما هو من قبيل السفسطة [5]. وهنا بدأت المناقشة الجادّة بينهما. وأخذ الحوار يشتد إذ سأل المغفل:

– وما السلطان؟ فأنا لا اعرفه.. فردّ عليه صاحبه:

– انك بلا شك تعلم انه لا قرية بلا مختار، ولا إبرة، بلا صانع وبلا مالك، ولا حرف بلا كاتب. فكيف يسوغ لك القول: انه لا حاكم ولا سلطان لهذه المملكة الرائعة المنتظمة المنسقة؟ وكيف تكون هذه الأموال الطائلة والثروات النفيسة الثمينة بلا مالك، حتى كأن قطاراً مشحوناً بالأرزاق الثمينة يأتي من الغيب كل ساعة ويفرغ هنا ثم يذهب [6]! أوَ لا ترى في أرجاء هذه المملكة إعلانات السلطان وبياناته، وأعلامَه التي ترفرف في كل ركن، وختمه الخاص وسكّته وطرّته على الأموال كلها، فكيف تكون مثل هذه المملكة دون مالك؟.. يبدو انك تعلمت شيئاً من لغة الإفرنج، ولكنك لا تستطيع قراءة هذه الكتابات الإسلامية ولا ترغب أن تسأل من يقرأها ويفهمها، فتعال إذن لأقرأ لك أهم تلك البلاغات والأوامر الصادرة من السلطان.. فقاطعه ذلك المعاند قائلاً:

– لنسلّم بوجود السلطان، ولكن.. ماذا يمكن أن تضره وتنقص من خزائنه ما أحوزه لنفسي منها؟ ثم إني لا أرى هنا عقاباً من سجن أو ما يشبهه!.

أجابه صاحبه:

– يا هذا، إن هذه المملكة التي نراها ما هي إلاّ ميدان امتحانٍ واختبار، وساحة تدريب ومناورة، وهي معرض صنائع السلطان البديعة، ومضيف مؤقت جداً.. ألا ترى أن قافلة تأتي يومياً وترحل أخرى وتغيب؟ فهذا هو شأن هذه المملكة العامرة، أنها تملأ وتخلى باستمرار،

5 السفسطة: الاستدلال والقياس الباطل، أو الذي يقصد به تمويه الحقائق. والسفسطائية فرقة ينكرون الحسيات والبديهيات وغيرها.

6 إشارة إلى فصول السنة حيث الربيع يشبه شاحنة قطار مملوءة بالأغذية و يأتي من عالم الغيب. المؤلف.

وسوف تفرغ نهائياً وتبدل بأخرى باقية دائمة، وينقل إليها الناس جميعاً فيثاب أو يُعاقب كلٌ حسب عمله.

ومرة أخرى تمرّد صديقه الخائن الحائر قائلاً:

– أنا لا أؤمن ولا اصدق! فهل يمكن أن تُباد هذه المملكة العامرة، ويرحل عنها أهلها إلى مملكة أخرى؟.. وعندها قال له صديقه الناصح الأمين:

– يا صاحبي ما دمتَ تعاند هكذا وتصرّ، فتعال أبين لك دلائل لا تعد ولا تحصى مجملةً في "اثنتي عشرة صورة "تؤكد لك أن هناك محكمة كبرى حقاً، وداراً للثواب والإحسان، وأخرى للعقاب والسجن، وانه كما تفرغ هذه المملكة من أهلها يوماً بعد يوم، فسيأتي يوم تفرغ فيه منهم نهائياً وتباد كليّاً.

الصورة الأولى

أمن الممكن لسلطنةٍ – ولاسيما كهذه السلطنة العظمى – أن لا يكون فيها ثوابٌ للمطيعين ولا عقاب للعاصين؟.. ولما كان العقاب والثواب في حكم المعدوم في هذه الدار..

فلابد إذن من محكمةٍ كبرى في دارٍ أخرى.

الصورة الثانية

تأمل سير الأحداث والإجراءات في هذه المملكة، كيف يوزَّع الرزقُ رغداً حتى على أضعف كائن فيها وأفقره، وكيف أن الرعاية تامة والمواساة دائمة لجميع المرضى الذين لا معيل لهم. وانظر إلى الأطعمة الفاخرة والأواني الجميلة والأوسمة المرصعة والملابس المزركشة.. فالموائد العامرة مبثوثة في كل مكان.. وانظر! الجميع يتقنون واجباتهم ووظائفهم إلاّ أنت وأمثالك من البلهاء، فلا يتجاوز أحد حدّه قيد أنملة، فأعظم شخص يؤدي ما أنيط به من واجب بكل تواضع، وفي غاية الطاعة، تحت ظل جلال الهيبة والرهبة. إذن فمالِكُ هذه السلطنة ومليكها ذو كرم عظيم، وذو رحمة واسعة، وذو عزة شامخة، وذو غيرة جليلة ظاهرة، وذو شرف سامٍ. ومن المعلوم أن الكرم يستوجب إنعاماً، والرحمة لا تحصل دون إحسان، والعزة تقتضي الغيرة، والشرف السامي يستدعي تأديب المستخفين، بينما لا يتحقق في هذه

المملكة جزء واحد من ألف مما يليق بتلك الرحمة ولا بذلك الشرف. فيرحل الظالم في عزته وجبروته ويرحل المظلوم في ذله وخنوعه.

فالقضية إذن مؤجلة إلى محكمة كبرى.

الصورة الثالثة

انظر، كيف تُنجز الأعمال هنا بحكمة فائقة وبانتظام بديع، وتأمل كيف يُنظر إلى المعاملات بمنظار عدالةٍ حقة وميزانٍ صائب. ومن المعلوم أن حكمة الحكومة وفطنتها هي اللطف بالذين يحتمون بحماها وتكريمهم. والعدالة المحضة تتطلب رعاية حقوق الرعية، لتصان هيبة الحكومة وعظمة الدولة.. غير انه لا يبدو هنا إلاّ جزءٌ ضئيلٌ من تنفيذ ما يليق بتلك الحكمة، وبتلك العدالة. فأمثالك من الغافلين سيغادرون هذه المملكة دون أن يرى اغلبهم عقاباً.

فالقضية إذن مؤجلة بلا ريب إلى محكمة كبرى.

الصورة الرابعة

انظر إلى ما لا يعد ولا يحصى من الجواهر النادرة المعروضة في هذه المعارض، والأطعمة الفريدة اللذيذة المزيّنة بها الموائد، مما يُبرز لنا أن لسلطان هذه المملكة سخاءً غير محدود، وخزائن ملأى لا تنضب.. ولكن مثل هذا السخاء الدائم، ومثل هذه الخزائن التي لا تنفد، يتطلبان حتماً دار ضيافة خالدة أبدية، فيها ما تشتهيه الأنفس. ويقتضيان كذلك خلود المتنعمين المتلذذين فيها، من غير أن يذوقوا ألم الفراق والزوال؛ إذ كما أن زوال الألم لذة فزوال اللذة ألم كذلك.. وانظر إلى هذه المعارض، ودقق النظر في تلك الإعلانات، واصغ جيداً إلى هؤلاء المنادين الدعاة الذين يصفون عجائب مصنوعات السلطان - ذي المعجزات - ويعلنون عنها، ويظهرون كماله، ويفصحون عن جماله المعنوي الذي لا نظير له، ويذكرون لطائف حسنه المستتر.

فلهذا السلطان إذن كمال باهر، وجمال معنوي زاهر، يبعثان على الإعجاب. ولاشك أن الكمال المستتر الذي لا نقص فيه يقتضي إعلانه على رؤوس الأشهاد من المعجبين

المستحسنين، ويتطلب إعلانه أمام أنظار المقدّرين لقيمته. أما الجمال الخفي الذي لا نظير له، فيستلزم الرؤية والإظهار، أي رؤية جماله بوجهين.

أحدهما: رؤيته بذاته جمالَه في كل ما يعكس هذا الجمال من المرايا المختلفة.

ثانيهما: رؤيته بنظر المشاهدين المشتاقين والمعجبين المستحسنين له. وهذا يعني أن الجمال الخالد يستدعي رؤية وظهوراً، مع مشاهدةٍ دائمة، وشهودٍ أبدي.. وهذا يتطلب حتماً خلودَ المشاهدين المشتاقين المقدّرين لذلك الجمال، لأن الجمال الخالد لا يرضى بالمشــتاق الزائــل. ولأن المشاهد المحكوم عليه بالزوال يبدل تصور الزوال محبته عداءً، وإعجابه استخفافاً، وتوقيره إهانةً، إذ الإنسان عدو لما يجهل ولما يقصر عنه.. ولما كان الجميع يغادرون دور الضيافة هذه بسرعة ويغيبون عنها بلا ارتواء من نور ذلك الجمال والكمال، بل قد لا يــرون إلاّ ظــلالاً خافتة منه عبر لمحات سريعة..

فالرحلة إذن منطلقة إلى مشهد دائم خالد.

الصورة الخامسة

تأمل، كيف أن لهذا السلطان – الذي لا نظير له – رأفة عظيمة تتجلى في خضم هذه الأحداث والأمور، إذ يغيث الملهوف المستغيث، ويستجيب للداعي المستجير، وإذا مــا رأى أدنى حاجة لأبسط فرد من رعاياه فانه يقضيها بكل رأفة وشفقة، حتى انه يرسل دواءً أو يهيئ بيطاراً لإسعاف قدم نعجة من النعاج.

هيا بنا يا صاحبي لنذهب معاً إلى تلك الجزيرة، حيث تضم جمعاً غفيراً مــن النــاس. فجميع أشراف المملكة مجتمعون فيها.. انظر فها هو ذا مبعوث كريم للسلطان متقلّد اعظــم الأوسمة وأعلاها يرتجل خطبة يطلب فيها من مليكه الرؤوف أموراً، وجميع الذين معه يوافقونه ويصدّقونه ويطلبون ما يطلبه.

أنصت لما يقول حبيب الملك العظيم، انه يدعو بأدبٍ جم وتضرّع ويقول:

يا من اسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، يا سلطاننا، أرِنا منابع وأصولَ ما أريتَه لنا مــن نماذج وظلال.. خذ بنا إلى مقر سلطنتك ولا تهلكنا بالــضياع في هذه الفلاة.. أقبلنا وارفعنا إلى ديوان حــضورك.. ارحمنا... أطعمنا هناك لذائذ ما أذقتنا إياه هنا، ولا تعذبنا بألم التنائي

والطرد عنك.. فهاهم أولاء رعيتك المشتاقون الشاكرون المطيعون لك، لا تتركهم تائهين ضائعين، ولا تفنِهم بموت لا رجعة بعده..

أسمعت يا صاحبي ما يقول؟. تُرى أمن الممكن لمن يملك كل هذه القدرة الفائقة، وكل هذه الرأفة الشاملة، أن لا يعطي مبعوثه الكريم ما يرغب به، ولا يستجيب لأسمى الغايات وأنبل المقاصد؟ وهو الذي يقضي بكل اهتمامٍ أدنى رغبة لأصغر فرد من رعاياه؟ مع أن ما يطلبه هذا المبعوث الكريم تحقيق لرغبات الجميع ومقاصدهم، وهو من مقتضيات عدالته ورحمته ومرضاته. ثم انه يسير عليه وهيّن، فليس هو بأصعب مما عرضه من نماذج في متنـزهات هذه المملكة ومعارضها.. فما دام قد انفق نفقات باهظة وأنشأ هذه المملكة لعرض نماذجه عرضاً مؤقتاً، فلابد أنه سيَعرِض في مقر سلطنته من خزائنه الحقيقية ومن كمالاته وعجائبه ما يبهر العقول. إذن فهؤلاء الذين هم في دار الامتحان هذه ليسوا عبثاً، وليسوا سدى، بل تنتظرهم قصورُ السعادة السرمدية الخالدة، أو غياهب السجون الأبدية الرهيبة.

الصورة السادسة

تعال، وانظر إلى هذه القاطرات الضخمة، والى هذه الطائرات المشحونة، والى هذه المخازن الهائلة المملوءة، والى هذه المعارض الأنيقة الجذابة.. وتأمل في الإجراءات وسير الأمور.. إنها جميعاً تبيّن أن هناك سلطنة عظيمة حقاً [7] تحكم من وراء ستار. فمثل هذه

---

7 فكما أن الجيش الهائل في ميدان المناورات أو مباشرة الحرب، يتحول إلى ما يشبه غابة أشواكٍ، بمجرد تسلّمه أمرَ: "خذوا السلاح، ركّبوا الحِراب". وكما يتحول المعسكر برمّته في كل عيد وعرض عسكري إلى ما يشبه حديقة جميلة ذات أزهار ملونة بمجرد تسلمه أمر: "احملوا شاراتكم، تقلّدوا أوسمتكم".. كذلك النباتات غير ذات الشعور والتي هي نوع من جنود غير متناهية للّه سبحانه ــ كما أن الملائكة والجن والأنس والحيوان جنوده ــ فهي عندما تتسلم أمر (كن فيكون) أثناء جهادها لحفظ الحياة وتؤمر بالأمر الإلهي "خذوا أسلحتكم وعتادكم لأجل الدفاع" تهيئ الأشجار والشجيرات المشوكة رميحاتها، فيتحول سطح الأرض إلى ما يشبه المعسكر الضخم المدجج بالسلاح الأبيض فكل يوم من أيام الربيع، وكل أسبوع فيه بمثابة عيد لطائفة من طوائف النباتات، فتُظهِر كلُ طائفة منها ما وهّبه لها سلطانها من هدايا جميلة، وما أنعم عليها من أوسمة مرصعة، فتعرض نفسها ــ بما يشبه العرض العسكري ــ أمام نظر السلطان الأزلي وإشهاده، كأنها تسمع أمراً ربانياً: "تقلّدوا مرصعات الصنعة الربانية، وأوسمة الفطرة الإلهية التي هي الأزهار والثمار... وفتّحوا الأزهار". عندئذ يعود سطح الأرض كأنه معسكر عظيم في يوم عيد بهيج، وفي استعراض هائل رائع تزخر بالأوسمة البراقة والشارات اللماعة.

فهذا الحشد من التجهيز الحكيم وهذا المدى من العتاد المنظّم وهذا القدر من التزيين البديع يُري لمن لم يفقد بصره انه أمر سلطان قدير لا منتهى لقدرته، وأمر حاكم حكيم لا نهاية لحكمته. ــ المؤلف

السلطنة تقتضي حتماً رعايا يليقون بها. بينما تشاهد انهم قد اجتمعوا في هذا المضيف - مضيف الدنيا - والمضيف يودّع يومياً صنوفاً منهم ويستقبل صنوفاً. وهم قد حضروا في ميدان الامتحان والاختبار هذا، غير أن الميدان يُبدّل كل ساعة، وهم يلبثون قليلاً في هذا المعرض العظيم، يتفرجون على نماذج آلاء المليك الثمينة وعجائب صنعته البديعة، غير أن المعرض نفسه يحوّل كل دقيقة، فالراحل لا يرجع والقابل يرحل كذلك.. فهذه الأمور تبين بشكل قاطع أن وراء هذا المضيف الفاني، ووراء هذه الميادين المتبدلة، ووراء هذه المعارض المتحولة، قصور دائمة خالدة، ومساكن طيبة أبدية وجنائنُ مملوءة بحقائق هذه النماذج، وخزائن مشحونة بأصولها.

فالأعمال والأفعال هنا إذن ما هي إلا لأجل ما أُعدّ هنالك من جزاء. فالملك القدير يكلف هنا ويجازي هناك، فلكل فردٍ لون من السعادة حسب استعداده وما اقدم عليه من خير.

الصورة السابعة

تعال، لنتنزه قليلاً بين المدنيين من الناس لنلاحظ أحوالهم، وما تجري حولهم من أمور. انظر، فها قد نُصبَت في كل زاوية آلاتُ تصوير عديدة تلتقط الصور، وفي كل مكان كتّاب كثيرون يسجلون كل شئ، حتى أهون الأمور.

هيا انظر إلى ذاك الجبل الشاهق فقد نصبت عليه آلة تصوير ضخمة تخص السلطان نفسه [8] تلتقط صور كل ما يجري في هذه المملكة. فلقد اصدر السلطان أوامره لتسجيل الأمور كلها، أو تدوين المعاملات في مملكته. وهذا يعني أن السلطان المعظم هو الذي يملي الحوادث جميعها، ويأمر بتصويرها.. فهذا الاهتمام البالغ، وهذا الحفظ الدقيق للأمور، وراءه محاسبة بلا

---

8 لقد وضح قسم من هذه المعاني التي تشير إليها هذه الصورة في "الحقيقة السابعة". فآلة التصوير الكبرى هنا ــ التي تخص السلطان ــ تشير إلى اللوح المحفوظ، والى حقيقته وقد أثبتت الكلمة "السادسة والعشرون" اللوح المحفوظ، وتحقّق وجوده بما يأتي:
كما أن الهويات الشخصية الصغيرة ترمز إلى وجود سجل كبير للهويات، والسندات الصغيرة تُشعر بوجود سجل أساس للسندات. ورشحات قطرات صغيرة وغزيرة تدل على وجود منبع عظيم، فان القوى الحافظة في الإنسان، وأثمار الأشجار، وبذور الثمار كذلك كل منها بمثابة هويات صغيرة، وبمعنى "لوح محفوظ صغير" وبصورة ترشحات نقاط صغيرة ترشحت من القلم الذي كتب اللوح المحفوظ الكبير. فلابد أن كلاً منها تشعر بوجود الحافظة الكبرى، والسجل الأكبر، واللوح المحفوظ الأعظم، بل تُثبته وتبرزه إلى العقول النافذة. ــ المؤلف .

شك، إذ هل يمكن لحاكمٍ حفيظ – لا يهمل أدنى معاملة لأبسط رعاياه – أن لا يحفـــظ ولا يدوّن الأعمال العظيمة لكبار رعاياه، ولا يحاسبهم ولا يجازيهم على ما صـــنعوا مـــع انهـــم يُقدمون على أعمال تمسّ الملك العزيز، وتتعرض لكبريائه، وتأباه رحمته الواسعة؟.. وحيـــث إنهم لا ينالون عقاباً هنا..

فلابد انه مؤجل إلى محكمة كبرى.

الصورة الثامنة

تعال، لأتلو عليك هذه الأوامر الصادرة من السلطان. انظر، انه يكرر وعده ووعيـــده قائلاً: لآتينّ بكم إلى مقر سلطنتي، ولأسعدنّ المطيعين منكم، ولأزجنّ العصاة في الســـجن، ولأدمرنّ ذلك المكان الموقت، ولأنشأن مملكة أخرى فيها قصور خالدة وسجون دائمة.. علماً أن ما قطعه على نفسه من وعد، هين عليه تنفيذه، وهو بالغ الأهمية لرعاياه. أمـــا إخـــلاف الوعد فهو منافٍ كلياً لعزته وقدرته.

فانظر أيها الغافل: إنك تصدق أكاذيب أوهامك، وهذيان عقلك، وخداع نفسك، ولا تصدّق مَن لا يحتاج إلى مخالفة الوعد قطعاً، ومَن لا تليق المخالفة بغيرته وعزته أصلاً، ومَـــن تشهد الأمور كافة على صدقه.. انك تستحق العقاب العظيم بلا شك، إذ إن مَثلكَ في هـــذا مثل المسافر الذي يغمض عينيه عن ضوء الشمس، ويسترشد بخياله، ويريد أن يـــنير طريقـــه المخيف ببصيص عقله الذي لا يضئ إلاّ كضياء اليراعة (ذباب الليل).

وحيث إنه قد وعد، فسيفي بوعده حتماً، لأن وفاءه سهل عليه وهين، وهـــو مـــن مقتضيات سلطنته، وهو ضروري جداً، لنا ولكل شئ.

إذن هناك محكمة كبرى وسعادة عظمى.

الصورة التاسعة

تعال، لننظر إلى رؤساء [9] من هذه الدوائر، قسم منهم يمكنهم الاتصال بالسلطان العظيم مباشرة، بهاتف خاص. بل لقد ارتقى قسم آخر وسما إلى ديوان قدسه.. تأمل مـــاذا يقـــول

---

9 إن المعاني التي تثبتها هذه الإشارة ستظهر في "الحقيقة الثامنة" فمثلاً: أن رؤساء الدوائر في هذا المثال ترمز إلى الأنبياء والأولياء. أما الهاتف فهو نسبة ربانية ممتدة من القلب الذي هو مرآة الوحي ومظهر الإلهام وبمثابة بداية ذلك الهاتف وسماعته. ـــ المؤلف

هؤلاء؟ انهم يخبروننا جميعاً أن السلطان قد أعدّ مكاناً فخماً رائعاً لمكافأة المحسنين وآخر رهيباً لمعاقبة المسيئين. وانه يَعِد وعداً قوياً ويُوعِد وعيداً شديداً، وهو أجلّ وأعزّ من أن يذلّ إلى خلاف ما وعد وتوعد. علماً بأن أخبار المخبرين قد وصلت من الكثرة إلى حد التواتر ومن القوة إلى درجة الاتفاق والإجماع فهم يبلغوننا جميعاً: بأن مقر هذه السلطنة العظيمة التي نرى آثارها وملامحها هنا، إنما هو في مملكة أخرى بعيدة. وان العمارات في ميدان الامتحان هذا بنايات وقتية، وستُبدّل إلى قصور دائمة، فتبدل هذه الأرض بغيرها. لأن هذه السلطنة الجليلة الخالدة – التي تُعرف عظمتُها من آثارها – لا يمكن أن تقتصر هيمنتُها على مثل هذه الأمور الزائلة التي لا بقاء لها ولا دوام ولا كمال ولا قرار ولا قيمة ولا ثبات. بل تستقر على ما يليق بها وبعظمتها من أمور تتّسم بالديمومة والكمال والعظمة.

فإذن هناك دار أخرى.. ولابد أن يكون الرحيل إلى ذلك المقر.

الصورة العاشرة

تعال يا صاحبي، فاليوم يوم عيد ملكي عظيم [10].. ستحدث تبدلات وتغيرات وستبرز أمور عجيبة.. فلنذهب معاً للنزهة، في هذا اليوم البهيج من أيام الربيع إلى تلك الفلاة المزدانة بالأزهار الجميلة.. انظر! هاهم الناس متوجهون إلى هناك.. انظر! هاهنا أمر غريب عجيب، فالعمارات كلها تنهار وتتخذ شكلاً آخر! حقاً انه شيء معجز! إذ العمارات التي انهارت قد أعيد بناؤها هنا فوراً، وانقلبت هذه الفلاة الخالية إلى مدينة عامرة! انظر.. إنها تريك كل ساعة مشهداً جديداً وتتخذ شكلاً غير شكلها السابق — كشاشة السينما — لاحظ الأمر بدقة لترى روعة هذا النظام المتقن في هذه الشاشة التي تختلط فيها المشاهد بكثرة وتتغير بسرعة فهي مشاهد حقيقية يأخذ كل شيء مكانه الحقيقي في غاية الدقة والانسجام، حتى المشاهد الخيالية لا تبلغ هذا الحد من الانتظام والروعة والإتقان، بل لا يستطيع ملايين

---

10 سترى ما ترمز إليه هذه الصورة في "الحقيقة التاسعة". فيوم العيد مثلاً إشارة إلى فصل الربيع، أما الفلاة المزدانة بالأزهار فإشارة إلى سطح الأرض في موسم الربيع، أما المناظر والمشاهد المتغيرة في الشاشة، فالمقصود منها أنواع ما يخرجه الربيع والصيف من الأرزاق الخاصة بالحيوان والإنسان التي يقدّرها الصانع القدير ذو الجلال والفاطر الحكيم ذو الجمال، والذي يغيرها بانتظام كامل ويجدّدها برحمة تامة منه سبحانه، ويرسلها في فترات متعاقبة متتالية ابتداء من أول الربيع إلى انتهاء الصيف. ـــ المؤلف

الساحرين البارعين من القيام بمثل هذه الأعمال البديعة.. إذن فللسلطان العظيم المستور عنا الشيء الكثير من الأمور الخارقة.

فيا أيها المغفل! انك تقول: كيف يمكن أن تدمّر هذه المملكة العظيمة وتعمّر من جديد في مكان آخر؟.

فها هو ذا أمامك ما لا يقبله عقلك من تقلبات كثيرة وتبدلات مذهلة، فهذه السرعة في الاجتماع والافتراق، وهذا التبدل والتغير، وهذا البناء والهدم.. كلها تنبئ عن مقصد، وتنطوي على غاية، إذ يُصرف لأجل اجتماع في ساعة واحدة ما ينفق لعشر سنوات ! فهذه الأوضاع إذن ليست مقصودة لذاتها، بل هي أمثلة ونماذج للعرض هنا. فالسلطان يُنهي أعماله على وجه الإعجاز، كي تؤخذ صورها، وتُحفظ نتائجها وتُسجل كما تُسجل وتُحفظ كل ما في ميدان المناورات العسكرية. فالأمور والمعاملات إذن ستجري في الاجتماع الأكبر وتستمر وفق ما كانت هنا. وستعرض تلك الأمور عرضاً مستمراً في المشهد الأعظم والمعرض الأكبر. أي أن هذه الأوضاع الزائلة تنتج ثماراً باقية وتولّد صوراً خالدة هناك.

فالمقصود من هذه الاحتفالات إذن هو بلوغ سعادة عظمى، ومحكمة كبرى، وغايات سامية مستورة عنا.

الصورة الحادية عشرة

تعال أيها الصديق المعاند، لنركب طائرة أو قطاراً، لنذهب إلى الشرق أو إلى الغرب – أي إلى الماضي أو إلى المستقبل – لنشاهد ما أظهره السلطان من معجزات متنوعة في سائر الأماكن. فما رأيناه هنا في المعرض، أو في الميدان، أو في القصر، من الأمور العجيبة له نماذج في كل مكان، إلاّ انه يختلف من حيث الشكل والتركيب. فيا صاحبي، أنعم النظر في هذا، لترى مدى ظهور انتظام الحكمة، ومبلغ وضوح إشارات العناية، ومقدار بروز أمارات العدالة، ودرجة ظهور ثمرات الرحمة الواسعة، في تلك القصور المتبدلة، وفي تلك الميادين الفانية، وفي تلك المعارض الزائلة. فَمَن لم يفقد بصيرته يفهم يقيناً أنه لن تكون – بل لا يمكن تصور – حكمة أكملَ من حكمة ذلك السلطان ولا عناية اجملَ من عنايته، ولا رحمة أشمل من رحمته، ولا عدالة أجلّ من عدالته.. ولكن لما كانت هذه المملكة – كما هو معلوم –

قاصرةً عن إظهار حقائق هذه الحكمة والعناية والرحمة والعدالة، ولو لم تكن هناك في مقــر مملكته - كما توهمت - قصور دائمة، وأماكن مرموقة ثابتــة، ومســاكن طيبــة خالــدة، ومواطنون مقيمون، ورعايا سعداء تحقق تلك الحكمة والعناية والرحمة والعدالة، يلزم عندئــذٍ إنكار ما نبصره من حكمة، وإنكار ما نشاهده من عناية، وإنكار ما نراه من رحمة، وإنكــار هذه الأمارات والإشارات للعدالة الظاهرة البينة.. إنكار كل ذلك بحماقة فاضحة كحماقة من يرى ضوء الشمس وينكر الشمس نفسَها في رابعة النهار! ويلزم أيضاً القول بأن القائم بما نراه من إجراءات تتسم بالحكمة وأفعالٍ ذات غايات كريمة وحسنات ملؤها الرحمة إنمــا يلــهو ويعبث ويغدر - حاشاه ثم حاشاه - وما هذا إلا قلب الحقائق إلى أضدادها، وهــو المحــال باتفاق جميع ذوي العقول غير السوفسطائي الأبله الذي يُنكِر وجودَ الأشياء، حــتى وجــودَ نفسه.

فهناك إذن ديار غير هذه الديار، فيها محكمة كبرى ، ودار عدالة عليا، ومقــرٌّ كــرم عظيم، لتظهر فيها هذه الرحمة وهذه الحكمة وهذه العناية وهذه العدالة بوضوح وجلاء.

الصورة الثانية عشرة

تعال فلنرجع الآن يا صاحبي، لنلتقي ضباطَ هذه الجماعات ورؤســاءها، انظــر إلى معدّاتهم.. أ زوّدوا بها لقضاء فترة قصيرة من الزمن في ميدان التدريب هذا، أم أنها وُهبَت لهم ليقضوا حياة سعيدة مديدة في مكان آخر؟ ولما كنا لا نستطيع لقاء كل واحــد منــهم، ولا نتمكن الاطلاع على جميع لوازمهم وتجهيزاتهم، لذا نحاول الاطلاع على هوية وسجل أعمال واحد منهم كنموذج ومثال. ففي الهوية نجد رتبة الضابط، ومرتّبه، ومهمته، وامتيازاته، ومجال أعماله، وكل ما يتعلق بأحواله.. لاحظ، إن هذه الرتبة ليست لأيام معدودة بل لمدة مديدة.. ولقد كتب في هويته انه يتسلّم مرتّبه من الخزينة الخاصة بتاريخ كذا.. غير أن هذا التــاريخ بعيد جداً، ولا يأتي إلاّ بعد إنهاء مهام التدريب في هذا الميدان.. أما هذه الوظيفة فلا توافــق هذا الميدان الموقت ولا تنسجم معه، بل هي للفوز بسعادة دائمة في مكان سامٍ عنــد الملــك القدير.. أما الواجبات فهي كذلك لا يمكن أن تكون لقضاء أيام معدودة في دار الضيافة هذه،

وإنما هي لحياة أخرى سعيدة أبدية.. يتضح من الهوية بجلاء، أن صاحبها مهيأ لمكان أخر، بل يسعى نحو عالم آخر.

انظر إلى هذه السجلات التي حدّدت فيها كيفية استعمال المعدّات والمسؤوليات المترتبة عليها، فان لم تكن هناك منـزلة رفيعة خالدة غير هذا الميدان، فلا معنى لهذه الهوية المتقنة، ولا لهذا السجل المنتظم، ولسقط الضابط المحترم والقائد المكرم والرئيس الموقر إلى درك هابط ولقي الشقاء والذلة والمهانة والنكبة والضعف والفقر.. وقس على هذا، فأينما أنعمت النظر متأملاً قادك النظر والتدبر إلى أن هناك بقاء بعد هذا الفناء..

فيا صديقي! إن هذه المملكة المؤقتة ما هي إلا بمثابة مزرعة، وميدان تعليم، وسُوق تجاري، فلابد أن تأتي بعدها محكمة كبرى وسعادة عظمى. فإذا أنكرتَ هذا، فسوف تضطر إلى إنكار كل الهويات والسجلات التي يمتلكها الضابط، وكل تلك العُدد والأعتدة والتعليمات، بل تضطر إلى إنكار جميع الأنظمة في هذه المملكة، بل إنكار وجود الدولة نفسها، وينبغي عند ذلك أن تكذّب جميع الإجراءات الحادثة. وعنده لا يمكن أن يُقال لك انك إنسان له شعور. بل تكون إذ ذاك أشد حماقة من السوفسطائيين.

وإياك إياك أن تظن أن دلائل وإشارات تبديل المملكة منحصرة في "اثنتي عشرة" صورة التي أوردناها، إذ إن هناك ما لا يعد ولا يحصى من الأمارات والأدلة على أن هذه المملكة المتغيرة الزائلة تتحول إلى أخرى مستقرة باقية، وهناك الكثير الكثير من الإشارات والعلامات تدل على أن هؤلاء الناس سينقلون من دار الضيافة المؤقتة الزائلة إلى مقر السلطنة الدائمة الخالدة.

يا صاحبي! تعال لأقرر لك برهاناً اكثر قوة ووضوحاً من تلك البراهين الاثنى عشر التي أنبأت عنها تلك الصور المتقدمة. تعال، فانظر إلى المبعوث الكريم، صاحب الأوسمة الرفيعة الذي شاهدناه في الجزيرة - من قبل - انه يبلّغ أمراً إلى الحشود الغفيرة التي تتراءى لنا على بُعد. فهيّا نذهب ونصغي إليه.. انتبه! فها هو يُفسّر للملأ البلاغ السلطاني الرفيع ويوضحه قائلاً لهم:

تهيأوا! سترحلون إلى مملكة أخرى خالدة، ما أعظمها من مملكة رائعة! إن مملكتنا هذه تعدّ كالسجن بالنسبة لها. فإذا ما أصغيتم إلى هذا الأمر بإمعان، ونفّذتموه بإتقان ستكونون أهلاً لرحمة سلطاننا وإحسانه في مستقره الذي تتجهون إليه، وإلاّ فالزنزانات الرهيبة مثواكم جزاء عصيانكم الأمر وعدم اكتراثكم به..

انه يذكّر الحاضرين بهذا البلاغ، وأنت ترى على ذلك البلاغ العظيم ختمَ السلطان الذي لا يُقلّد. والجميع يدركون يقيناً - إلاّ أمثالك من العميان - أن ذلك المبعوث المجلل بالأوسمة الرفيعة هو مبلّغ أمين لأوامر السلطان، بمجرد النظر إلى تلك الأوسمة.

فيا ترى هل يمكن الاعتراض على مسألة تبديل هذه المملكة التي يدعو إليها ذلك المبعوث الكريم بكل ما أوتي من قوة، ويتضمنه البلاغ الملكي السامي؟ كلا.. لا يمكن ذلك أبداً، إلاّ إذا أنكرتَ جميع ما تراه من أمور وحوادث.

فالآن أيها الصديق! لك أن تقول ما تشاء.

- ماذا عساي أن أقول؟ وهل بقي مزيد من قول لقائل أمام هذه الحقائق! وهل يقال للشمس وهي في كبد السماء، أين هي؟. إن كل ما أريد أن أقوله هو: الحمد لله، وألف شكر وشكر، فقد نجوت من قبضة الأوهام والأهواء، وتحررت من أسار النفس والسجن الأبدي، فآمنت بأن هناك دار سعادة عند السلطان المعظم، ونحن مهيأون لها بعد هذه الدار الفانية المضطربة.

وهكذا تمت الحكاية التي كانت كناية عن الحشر والقيامة. والآن ننتقل بتوفيق العلي القدير إلى الحقائق العليا، فسنبينها في "اثنتي عشرة حقيقة" وهي متسانده مترابطة مقابل الصور الإثنتي عشرة، بعد أن نمهد لها بمقدمة.

المقدمة

نشير إشارات فحسب إلى بعض المسائل التي أوضحناها في أماكن أخرى، أي في الكلمات الثانية والعشرين، والتاسعة عشرة، والسادسة والعشرين.

الإشارة الأولى

هناك ثلاث حقائق للمغفل ولصديقه الناصح الأمين المذكورَين في الحكاية:

الأولى: هي نفسي الأمارة وقلبي.

الثانية: متعلمو الفلسفة وتلاميذ القرآن الكريم.

الثالثة: ملة الكفر و الأمة الإسلامية.

إن عدم معرفة الله سبحانه وتعالى هو الذي أوقع متعلمي الفلسفة وملة الكفر والنفس الأمارة في الضلالة الرهيبة. فمثلما قال الناصح الأمين - في الحكاية - انه لا يمكن أن يكون حرف بلا كاتب، ولا قانون بلا حاكم، كذلك نقول:

انه محال أن يكون كتاب بلا كاتب، ولا سيما كتاب كهذا الذي تتضمن كل كلمة من كلماته كتاباً خُطّ بقلم دقيق، والذي تحت كل حرف من حروفه قصيدة دُبجت بقلم رفيع. وكذلك من أمحل المحال أن يكون هذا الكون من غير مبدع، حيث إن هذا الكون كتاب على نحو عظيم تتضمن كل صحيفة فيه كتباً كثيرة، لا بل كل كلمة منها كتاباً، وكل حرف منها قصيدةً.. فوجه الأرض صحيفة، وما اكثر ما فيها من كتب! والشجرة كلمة واحدة، وما اكثر ما فيها من صحائف! والثمرة حرف، والبذرة نقطة.. وفي هذه النقطة فهرس الشجرة الباسقة وخطة عملها. فكتاب كهذا ما يكون إلاّ من إبداع قلم صاحب قدرة متصف بالجمال والجلال والحكمة المطلقة. أي أن مجرد النظر إلى العالَم ومشاهدته يستلزم هذا الإيمان، إلاّ مَنْ أسكَرته الضلالة!.

ومثلما لا يمكن أن تكون دار بلا بنّاء، لاسيما هذه الدار التي زيّنت بأبدع زينة، ونقشت بأروع نقوش وأعجبها وشيّدت بصنعة خارقة، حتى أن كل حجر من أحجارها يتجسم فيه فن ما في البناء كله. فلا يقبل عاقل أن تكون دار مثل هذه الدار بلا بنّاء ماهر،

وبخاصة أنه يشيِّد في هذا الديوان – في كل ساعة – مساكنَ حقيقيـــة في غايـــة الانتظـــام والتناسق، ويغيّرها بانتظام وسهولة كاملين – كسهولة تبديل الملابس – بل انه ينشئ في كل ركن غرفاً صغيرة عدة في كل مشهد حقيقي.

فلابد لهذا الكون العظيم من خالق حكيم عليم قدير مطلق، لأن هذا الكون إنما هـــو كالقصر البديع؛ الشمسُ والقمر مصابيحه، والنجوم شموعه وقناديله، والزمن شريط يعلق عليه الخالق ذو الجلال – في كل سنة – عالماً آخر يبرُزه للوجود، مجدّداً فيه صـــوراً منتظمـــة في ثلاثمائة وستين شكلاً وطرازاً، مبدلاً إياه بانتظام تام، وحكمة كاملة، جاعلاً ســـطح الأرض مائدة نِعَمٍ، يزيّنها في كل ربيع بثلاثمائة ألف نوع من أنواع مخلوقاته، ويملؤها بما لا يعـــد ولا يحصى من آلائه، مع تمييز كلٍ منها تمييزاً كاملاً، على الرغم من تداخلها وتشابكها.. وقـــس على هذه الأشياء الأمور الأخرى.. فكيف يمكن التغافل عن صانع مثل هذا القصر المنيف؟

ثم، ما أعظم بلاهة من ينكر الشمس في رابعة النهار، وفي صحوة السماء! في الوقـــت الذي يُرى تلألؤ أشعتها، وانعكاس ضوئها، على زَبَد البحر وحَبابه، وعلى مواد البر اللامعـــة وعلى بلورات الثلج الناصعة، لأن إنكار الشمس الواحدة ورفضها – في هذه الحالة – يستلزم قبول شُميسات حقيقية أصيلة، بعدد قطرات البحر وبعدد الزَبَد والحباب وبعـــدد بلـــورات الثلج! ومثلما يكون قبول وجود شمسٍ عظيمة في كل جزيئة – وهي تسع ذرة واحـــدة – بلاهةً، فان عدم الإيمان بالخالق ذي الجلال، ورفض التصديق بأوصاف كماله سبحانه – مع رؤية هذه الكائنات المنتظمة المتبدلة والمتعاقبة بحكمة في كل آن والمتجددة بتناسق وانتظام في كل وقت – ضلالة أدهى ولاشك، بل هذيان وجنون.. لأنه يلزم إذ ذاك قبول ألوهية مطلقة في كل شيء حتى في كل ذرة!.

لأن كل ذرة من ذرات الهواء – مثلاً – تستطيع أن تدخل في كل زهرة، وفي كل ثمرة، وفي كل ورقة، وتتمكن من أن تؤدي دورها هناك. فلو لم تكن هذه الذرة مأمورةً ومسخرةً للزم أن تكون على علمٍ بأشكال ما تمكنت من الدخول فيه، وبصورته وتركيبه، وهيئته، أي يجب أن تكون ذات علم محيط، وذات قدرة شاملة كي تستطيع القيام بذلك!!

وكل ذرة من ذرات التراب - مثلاً - يمكن أن تكون سبباً لنشوء البذور ونمو أنواعها جميعاً. فلو لم تكن مأمورة ومسخّرة للزم أن تحتوي آلات وأجهزة معنوية بعدد أنواع الأعشاب والأشجار، أو يجب منحها قدرة ومهارة بحيث تعلم جميع أشكال تراكيبها، فتصنعها، وتعرف جميع صورها، فتنسجها.. وقس على هذا سائر الموجودات، حتى تفهم أن للوحدانية دلائل واضحة باهرة في كل شيء.

نعم، إن خلق كل شيء من شيء واحد، وخلق شيء واحد من كل شئ، إنما هو عمل يخصّ خالق كل شئ. فتدبر وتأمل في قوله تعالى (وَاِنْ مِنْ شَيْءٍ اِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ). واعلم أن عدم الاعتقاد بالإله الواحد الأحد يستلزم الاعتقاد بآلهة عدة بعدد الموجودات!

الإشارة الثانية:

لقد جاء في الحكاية ذكر مبعوث كريم، وذُكر أن من لم يكن أعمى يفهم من رؤية أوسمته: أنه شخص عظيم، لا يأتمر إلاّ بأمر السلطان، فهو عامله الخاص.. فهذا المبعوث إنما هو رسولنا الأعظم ρ.

نعم، يلزم أن يكون لمثل هذا الكون البديع ولصانعه القدوس، مثل هذا الرسول الكريم، كلزوم الضوء للشمس. لأنه كما لا يمكن للشمس إلاّ أن تشع ضياءً كذلك لا يمكن للألوهية إلاّ أن تظهر نفسها بإرسال الرسل الكرام عليهم السلام.

فهل يمكن أن لا يرغب جمالٌ في غاية الكمال في إظهار نفسه بوسيلة ودليل يعرّفه؟

أم هل يمكن أن لا يطلب كمالٌ في غاية الجمال الإعلانَ عنه بوساطة يلفت الأنظار إليه؟

أم هل يمكن أن لا تطلب سلطنةٌ كلية لربوبية عامة شاملة إعلان وحدانيتها وصمدانيتها على مختلف الطبقات بوساطة مبعوث ذي جناحين؟ أي ذي صفتين: صفة العبودية الكلية، فهو ممثل طبقات المخلوقات عند الحضرة الربانية. وصفة الرسالة والقرب إليه، فهو مُرسل من لدنه سبحانه إلى العالمين كافة.

أم هل يمكن لصاحب جمال مطلق أن لا يروم أن يشهد هو ويُشهِد خلقه محاسن جماله ولطائف حسنه في مرايا تعكس هذا الجمال؟ أي بوساطة رسول حبيب؛ فهو حبيب لتودده

إلى الله سبحانه بعبوديته الخالصة، وهو رسول حبيب لأنه يحبب الله سبحانه إلى الخلق بإظهار جمال أسمائه الحسنى.

أم هل يمكن أن لا يريد مَن يملك خزائن مشحونة بأغلى الأشياء وأعجبها وبما يـــدهش العقول، إظهار كماله المستتر. وان لا يطلب عرضه على أنظار الخلق أجمعين، وكشفَه علـــى مرأى منهم، بوساطة معرّف حاذق ومعلن وصّاف؟

أم هل يمكن لِمَن زيّن هذا الكون بمخلوقات معبّرة عن كمال أسمائه الحسنى، وجعلــه قصراً رائعاً، وجمّله ببدائع صنعته المذهلة، وعرضه على الأنظار، ثم لا يكل أمر إيضـــاحه إلى مرشد معلم رائد؟.

أم هل يمكن أن لا يبيّن مالك هذا الكون بوساطة رسول: ما الغاية من تحولات هـــذا الكون وما القصد من هذا الطلسم المغلق؟ وان لا يجيب بوساطته عن ألغاز الأســئلة الثلاثـــة المستعصية في الموجودات، وهي: من أين؟ والى أين؟ ومن تكون؟

أم هل يمكن للخالق ذي الجلال الذي عرّف نفسه إلى ذوي الشعور بهذه المخلوقـــات الجميلة، وحبّبها إليهم بنعمه الغالية، أن لا يبيّن لهم بوساطة رسول ما يريد منهم وما يرضـــيه إزاء هذه النعم السابغة؟

أم هل يمكن للخالق الذي ابتلى النوع الإنساني باختلاف المشاعر والاتجاهات، وهيـــأ استعداده للعبودية التامة الكلية، أن لا يطلب توجيه أنظار هذا النوع من الكثرة إلى التوحيـــد بوساطة مرشد مرسل؟

وهكذا فان هناك دلائل أخرى زيادة على ما تقدم، كلها براهين قاطعة تبين: "وظائف النبوة ومهامها"، وتوضّح: أن الألوهية لا تكون بلا رسالة.

والآن، فهل ظهر في العالم مَن هو اكثر أهلية، واجمع لتلك الأوصاف والوظائف الـــتي ذكرت، من محمد الهاشمي ρ ؟ أم هل هناك أحد أليق منه ρ لمنصب الرسالة ومهمة التبليغ؟ وهل اظهر الزمان أحداً اعظم أهلية منه؟ كلا. ثم كلا.. فهو إمام جميع المرسلين، وقرة عـــين كل الأصفياء، وسلطان جميع المرشدين، وزبدة كل المختارين والمقربين، صـــاحب ألـــوف المعجزات كشق القمر، ونبعان الماء من بين أصابعه الشريفة، مما عدا دلائل نبوته وأماراتها التي

لا تحصى، مما هو محل إجماع أهل الفضل والعلم، وعدا القرآن العظيم الذي هو بحر الحقائق والمعجزة الكبرى، إذ انه كالشمس الساطعة دليل قاطع على صدق رسالته.. ولقد أثبتنا إعجاز القرآن بما يقرب من أربعين وجهاً من وجوه الإعجاز في "رسائل النور" ولاسيما في "الكلمة الخامسة والعشرين".

الإشارة الثالثة

لا يخطرنّ على بال أحد ويقول: ما أهمية هذا الإنسان الصغير وما قيمته حتى تنتهي هذه الدنيا العظيمة وتفتح دنيا أخرى لمحاسبته على أعماله!

لأن هذا الإنسان، هو سيد الموجودات رغم انه صغير جداً، لما يملك من فطرة جامعة شاملة.. فهو قائد الموجودات،و الداعي إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة ومظهرها، لذا فان له أهمية عظمى.

ولا يخطرن على البال كذلك: كيف يكون هذا الإنسان محكوماً بعذاب أبدي، مع أن له عمراً قصيراً جداً؟.

لأن الكفر جريمة كبرى، وجناية لا حدود لها، حيث إنه يهبط بقيمة الكائنات ودرجتها -التي توازي قيمة مكاتيب صمدانية ودرجتها - إلى هاوية العبث، ويوهم عدم وجود الغاية من إيجادها.. انه تحقير بيّن للكائنات كلها وإنكار لما يشاهد من أنوار الأسماء الحسنى كلها، وإنكار آثارها في هذه الموجودات، ومن ثم فانه تكذيب ما لا يحصى من الأدلة الدالة على حقيقة وجود ذات الحق سبحانه وتعالى، وكل هذا جناية لا حدود لها، والجناية التي لا حدود لها توجب عذاباً غير محدد بحدود.

الإشارة الرابعة

لقد رأينا في الحكاية بصورها الإثنتي عشرة:

انه لا يمكن بوجه من الوجوه أن تكون لسلطان عظيم مملكة مؤقتة - كأنها دار ضيافة -ثم لا تكون له مملكة أخرى دائمة مستقرة، ولائقة لأبهته وعظمته ومقام سلطنته السامية.

كذلك لا يمكن بوجه من الوجوه أن لا ينشئ الخالق الباقي سبحانه عالماً باقياً بعد أن أوجد هذا العالم الفاني.

ولا يمكن أيضاً أن يخلق الصانع السرمدي هذه الكائنات البديعة الزائلة، ولا ينشئ كائنات أخرى دائمة مستقرة.

ولا يمكن أيضاً أن يخلق الفاطر الحكيم القدير الرحيم هذا العالم الذي هو بحكم المعرض العام وميدان الامتحان والمزرعة الوقتية ثم لا يخلق الدار الآخرة التي تكشف عن غاياته وتظهر أهدافه!

إن هذه الحقيقة يتم الدخول فيها من "أثني عشر باباً". وتفتح تلك الأبواب بـ "اثنتي عشرة حقيقة"، نبدأ بأقصرها وأبسطها.

الحقيقة الأولى

باب الربوبية والسلطنة

وهو تجلي اسم "الرَّب"

أمن الممكن لـمَن له شأن الربوبية وسلطنة الألوهية، فأوجد كوناً بديعاً كهذا الكون؛ لغايات سامية ولمقاصد جليلة، إظهاراً لكماله،ثم لا يكون لديه ثواب للمؤمنين الذين قابلوا تلك الغايات والمقاصد بالإيمان والعبودية، ولا يعاقِب أهل الضلالة الذين قابلوا تلك المقاصد بالرفض والاستخفاف..؟!

الحقيقة الثانية

باب الكرم والرحمة

وهو تجلي اسم "الكريم والرَّحيم"

أمن الممكن لربّ هذا العالم ومالكه الذي أظهر بآثاره كرماً بلا نهاية، ورحمة بلا نهاية، وعزة بلا نهاية، وغيرة بلا نهاية، أن لا يقدّر مثوبة تليق بكرمه ورحمته للمحسنين، ولا يقرر عقوبة تناسب عزته وغيرته للمسيئين؟.. فلو أنعم الإنسان النظر في سير الحوادث ابتداءً من

أضعف كائن حيّ وأشده عجزاً [11] وانتهاءً بأقوى كائن، لوجد أن كل كائن يأتيه رزقه رغداً من كل مكان، بل يَمنح سبحانه أضعفَهم وأشدّهم عجزاً ألطف الأرزاق وأحسنها، ويسعف كل مريض بما يداويه.. وهكذا يجد كل ذي حاجة حاجته من حيث لا يحتسب.. فهذه الضيافة الفاخرة الكريمة، والإغداق المستمر، والكرم السامي، تدلّنا بداهة، أن يداً كريمة خالدة هي التي تعمل وتدير الأمور.

فمثلاً: إن إكساء الأشجار جميعاً بحلل شبيهة بالسندس الخضر - كأنها حور الجنة - وتزيينَها بمرصعات الأزهار الجميلة والثمار اللطيفة، وتسخيرَها لخدمتنا بإنتاجها ألطف الأثمار المتنوعة وألذها في نهايات أغصانها التي هي أيديها اللطيفة.. وتمكيننا من جني العسل اللذيذ - الذي فيه شفاء للناس - من حشرة سامة.. وإلباسَنا أجمل ثياب وألينها مما تحوكه حشرة بلا يد.. وادّخار خزينة رحمة عظيمة لنا في بذرة صغيرة جداً.. كل ذلك يرينا بداهةً كرماً في غاية الجمال، ورحمة في غاية اللطف.

وكذا، إن سعي جميع المخلوقات، صغيرها وكبيرها - عدا الإنسان والوحوش الكاسرة -لإنجاز وظائفها بانتظام تام ودقة كاملة، ابتداءً من الشمس والقمر والأرض إلى اصغر مخلوق، بشكل لا يتجاوز أحد حدّه قيد أنملة، ضمن الطاعة التامة والانقياد الكامل المحفوفَين بهيبة عظيمة، يظهر لنا أن هذه المخلوقات لا تتحرك ولا تسكن إلاّ بأمر العظيم ذي العزة والجلال.

وكذا، إن عناية الأمهات بأولادهن الضعاف العاجزين - سواء في النبات أو الحيوان أو البشر - عناية ملؤها الرأفة والرحمة [12]، وتغذيتها بالغذاء اللطيف السائغ من اللبن، تريك عظمة التجليات، وسعة الرحمة المطلقة.

---

11 إن الدليل القاطع على أن الرزق الحلال يُعطى حسب الافتقار، ولا يؤخذ بقوة الكائن وقدرته، هو: سعة معيشة الصغار الذين لا طاقة لهم ولا حول وضيق معيشة الحيوانات المفترسة، وبدانة الأسماك البليدة وهزال الثعالب والقردة ذوي الذكاء والحيل. فالرزق إذن يأتي متناسباً عكسياً مع الاختيار والقدرة، أي: كلما اعتمد الكائن على إرادته ابتلي بضيق المعيشة وتكاليفها ابتلاء اكثر.ـــ المؤلف.

12 نعم إن إيثار الأسد الجائع شبله الضعيف على نفسه بما يظفر به من قطعة لحم، وهجوم الدجاج الجبان على الكلب والأسد حفاظاً على فراخها الصغيرة. وإعداد شجرة التين لصغارها - التي هي ثمارها ـــ لبناً خالصاً من الطين.. كل ذلك يدل بداهة ـــ لأهل البصائر ـــ على أنها حصلت بأمر الرحيم الذي لا نهاية لرحمته، والكريم الذي لا نهاية لكرمه، والرؤوف الذي لا نهاية لرأفته وشفقته. وان قيام النباتات والحيوانات ـــ التي لا وعي لها ولا شعور ـــ بأعمال في منتهى الوعي والشعور والحكمة، يبين بالضرورة أن عليماً مطلقاً وحكيماً مطلقاً هو الذي يسوقها إلى تلك الأعمال، وهي بأمره تأتمر. ـــالمؤلف.

فما دام رب هذا العالم ومدبّره له هذا الكرم الواسع، وهذه الرحمة التي لا منتهى لهـــا، وله الجلال والعزة المطلقان، وان العزة والجلال المطلقين يقتضيان تأديب المستخفين، والكـــرم الواسع المطلق يتطلب إكراماً غير متناه، والرحمة التي وسعت كل شيء تستدعي إحساناً يليق بها، بينما لا يتحقق من كل ذلك في هذه الدنيا الفانية والعمر القصير إلا جزء ضئيل جداً هو كقطرة من بحر.

فلابد أن تكون هناك دار سعادة تليق بذلك الكرم العميم، وتنسجم مع تلك الرحمـــة الواسعة.. وإلاّ يلزم جحود هذه الرحمة المشهودة، بما هو كإنكار وجود الشمس الـــتي يمـــلأ نورُها النهارَ، لأن الزوال الذي لا رجعة بعده يستلزم انتفاء حقيقة الرحمة مـــن الوجـــود، بتبديله الشفقة مصيبةً، والمحبة حرقةً، والنعمة نقمةً واللذة ألماً، والعقل المحمود عضواً مشؤوماً.

وعليه فلابد من دار جزاء تناسب ذلك الجلال والعزة وتنسجم معها. لأنه غالباً ما يظل الظالمُ في عزته، والمظلومُ في ذلته وخنوعه، ثم يرحلان على حالهما بلا عقاب ولا ثواب.

فالأمر إذن ليس إهمالاً قط، وإن أُمهلَت إلى محكمة كبرى، فالقضية لم تُهمـــل ولـــن تُهمل، بل قد تُعَجّل العقوبة في الدنيا. فإنزال العذاب في القرون الغابرة بأقوام عصت وتمردت يبين لنا أن الإنسان ليس متروكاً زمامه، يسرح وفق ما يملي عليه هواه، بل هو معرّض دائماً لصفعات ذي العزة والجلال.

نعم، إن هذا الإنسان الذي أنيط به - من بين جميع المخلوقات - مهام عظيمة، وزود باستعدادات فطرية كاملة، إن لم يعرف ربه "بالإيمان" بعد أن عرّف سبحانه نفسَـــه إليـــه بمخلوقاته البديعة المنتظمة.. وان لم ينل محبته بالتقرب إليه بـــ "العبادة" بعد أن تحبب إليـــه سبحانه بنفسه وعرّفها إليه بما خلق له من الثمار المتنوعة الجميلة الدالة على رحمته الواســـعة.. وان لم يقم بالتوقير والإجلال اللائقين به "بالشكر والحمد" بعد أن اظهر سبحانه محبته لـــه ورحمته عليه بنعمه الكثيرة... نعم، إن لم يعرف هذا الإنسان ربه هكذا، فكيف يُترك سدى دون جزاء، ودون أن يعدّ له ذو العزة والجلال داراً للعقاب؟

وهل من الممكن أن لا يمنح ذلك الرب الرحيم دار ثوابٍ وسعادة أبدية، لأولئك المؤمنين الذين قابلوا تعريفَ ذاته سبحانه لهم بمعرفتهم إياه بـ "الإيمان" ومحبته لهم، بالحب والتحبب له بـ "العبادة"، ورحمته لهم بالإجلال والتوقير له بـ "الشكر"؟

الحقيقة الثالثة

باب الحكمة والعدالة

وهو تجلي اسم "الحكيم والعادل"

أمن الممكن [13] لخالق ذي جلال أظهر سلطان ربوبيته بتدبير قانون الوجود ابتداء من الذرات وانتهاء بالمجرات، بغاية الحكمة والنظام وبمنتهى العدالة والميزان.. أن لا يعامل بالإحسان من احتموا بتلك الربوبية وانقادوا لتلك الحكمة والعدالة، وان لا يجازي أولئك الذين عصوا بكفرهم وطغيانهم تلك الحكمة والعدالة؟.

بينما الإنسان لا يلقى ما يستحقه من الثواب أو العقاب في هذه الحياة الفانية على وجه يليق بتلك الحكمة وتلك العدالة إلاّ نادراً، بل يؤخر، إذ يرحل اغلب أهل الضلالة دون أن يلقوا عقابهم، ويذهب اكثر أهل الهداية دون أن ينالوا ثوابهم.. فلابد أن تناط القضية بمحكمة عادلة، وبلقاءٍ آيل إلى سعادة عظمى.

نعم، انه لواضح أن الذي يتصرف في هذا الكون إنما يتصرف فيه بحكمة مطلقة. أفتطلب برهاناً على هذا؟.. فانظر إلى رعايته سبحانه للمصالح والفوائد في كل شيء!.. ألا ترى أن أعضاء الإنسان جميعاً سواء العظام منها أو العروق وحتى خلاياه الجسمية وكل جزء منه ومكان، قد روعيت فيه فوائد وحكم شتى، بل إن في أعضاء جسمه من الفوائد والأسرار

---

13 إن عبارة "أمن الممكن؟" تتكرر كثيراً، فهي تفيد غاية مهمة وهي: أن الكفر والضلال يتولدان غالباً من الاستبعاد، أي يرى الإنسان ما لا يعتقده بعيداً عن ميزان العقل، فيعدّه محالاً، ويبدأ بالإنكار والكفر.. ولكن هذه الكلمة (الحشر) أوضحت بأدلة قاطعة: أن الاستبعاد الحقيقي والمحال الحقيقي والبعد عن موازين العقل والصعوبة الحقة والمشكلات العويصة التي هي بدرجة الامتناع، إنما هي في الكفر ومنهج أهل الضلال. وان الإمكان الحقيقي، والمعقولية التامة والسهولة الجارية مجرى الوجوب، إنما هي في طريق الإيمان، وجادة الإسلام.

والخلاصة: إن الفلاسفة إنما زلّوا إلى الإنكار نتيجة الاستبعاد. وهذه (الكلمة العاشرة) تبين بتلك العبارة: "أمن الممكن؟" أين يكمن الاستبعاد، وتوجّه ضربة على أفواههم. ـــ المؤلف.

بقدر ما تنتجه الشجرة الواحدة من الثمار، مما يدل على أن يد حكمة مطلقة تدير الأمـــور. فضلاً عن التناسق البديع في صنعة كل شيء والانتظام الكامل فيها اللذان يدلان علـــى أن الأمور تؤدى بحكمة مطلقة.

نعم، إن تضمين الخطة الدقيقة لزهرة جميلة في بُذيرتها الصغيرة، وكتابة صحيفة أعمـــال شجـــرة ضخمة وتاريخ حياتها وفهرس أجهزتها، في نويّتـــها بقلم القَدَر المعنـــوي.. يرينـــا بوضوح أن قلم حكمةٍ مطلقة هو الذي يتصرف في الأمر.. وكذا، وجود روعـــة الصـــنعة الجميلة وغاية حُسنها في خلقة كل شئ، يُظهر أن صانعاً حكيماً مطلقاً هو صـــاحب هـــذا الإبداع وهذه النقوش..

نعم، إن إدراج فهرس الكائنات جميعاً، ومفاتيح خزائن الرحمة كافة ومرايـــا الأسمـــاء الحسنى كلها، في هذا الجسم الصغير للإنسان، لمما يدل على الحكمـــة البليغـــة في الصـــنعة البديعة.. فهل من الممكن لمثل هذه الحكمة المهيمنة على مثل هذه الإجراءات والشؤون الربانية أن لا تحسن معاملة أولئك الذين استظلوا بظلها وانقادوا لها بالإيمان، وان لا تثيبهم إثابة أبدية خالدة؟.

وهل تريد برهاناً على إنجاز الأعمال بالعدل والميزان؟

إن منح كل شيء وجوداً بموازين حساسة، وبمقاييس خاصة، وإلباسَه صـــورة معينـــة، ووضعَه في موضع ملائم.. يبيّن بوضوح أن الأمور تسير وفق عدالة وميزان مطلقين.

وكذا، إعطاء كل ذي حق حقه وفق استعداده ومواهبه، أي إعطاء كل ما يلزم، ومـــا هو ضروري لوجوده، وتوفير جميع ما يحتاج إلى بقائه في افضل وضع، يدلّ على أن يد عدالة مطلقة هي التي تُسيّر الأمور.

وكذا، الاستجابة المستمرة والدائمة لما يُسأل بلسان الاستعداد أو الحاجة الفطريـــة، أو بلسان الاضطرار، تُظهر أن عدالةً مطلقة، وحكمة مطلقة هما اللتان تُجريان عجلة الوجود.

فالآن، هل من الممكن أن تهمل هذه العدالة وهذه الحكمة تلك الحاجة العظمى، حاجة البقاء لأسمى مخلوق وهو الإنسان؟ في حين انهما تستجيبان لأدنى حاجة لأضعف مخلوق؟ فهل

من الممكن أن تردّا أهم ما يرجوه الإنسان واعظم ما يتمناه، وألاّ تصونا حشـــمة الربوبيـــة وتتخلفا عن الإجابة لحقوق العباد؟.

غير أن الإنسان الذي يقضي حياة قصيرة في هذه الدنيا الفانية لا ينال ولن ينال حقيقة مثل هذه العدالة. وإنما تؤخّر إلى محكمة كبرى. حيث تقتضي العدالة الحقة أن يلاقـــي هـــذا الإنسان الصغير ثوابَه وعقابه لا على أساس صغره، بل على أساس ضخامة جنايتـــه، وعلـــى أساس أهمية ماهيته، وعلى أساس عظمة مهمته.. وحيث إن هذه الدنيا العابرة بعيدة كل البعد عن أن تكون محلاً لمثل هذه العدالة والحكمة بما يخص هذا الإنسان – المخلوق لحياة أبدية – فلابد من جنة أبدية، ومن جهنم دائمة للعادل الجليل ذي الجمال وللحكـــيم الجميـــل ذي الجلال.

الحقيقة الرابعة

باب الجود والجمال

وهو تجلي اسم "الجواد والجميل"

أمن الممكن لجود وسخاء مطلقين، وثروة لا تنضب، وخزائن لا تنفد، وجمال سرمدي لا مثيل له، وكمال أبدي لا نقص فيه، أن لا يطلب دار سعادةٍ ومحل ضيافةٍ، يخلـــد فيـــه المحتاجون للجود، الشاكرون له، والمشتاقون إلى الجمال، المعجبون به؟

إن تزيين وجه العالم بهذه المصنوعات الجميلة اللطيفة، وجعل الشمس سراجاً، والقمـــر نوراً، وسطح الأرض مائدة للنعم، وملأها بألذ الأطعمة الشهية المتنوعة، وجعل الأشجار أواني وصحافاً تتجدد مراراً كل موسم.. كل ذلك يظهر سخاءً وجوداً لا حد لهمـــا. فلابـــد أن يكون لمثل هذا الجود والسخاء المطلقين، ولمثل هذه الخزائن التي لا تنفد، ولمثل هذه الرحمة التي وسعت كل شئ، دارَ ضيافة دائمة، ومحل سعادة خالدة يحوي ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وتستدعي قطعاً أن يخلد المتلذذون في تلك الدار، ويظلوا ملازمين لتلك السعادة ليبتعدوا عن الزوال والفراق، إذ كما أن زوال اللذة ألم فزوال الألم لذة كذلك، فمثل هذا السخاء يـــأبى الإيذاء قطعاً.

أي أن الأمر يقتضي وجود جنة أبدية، وخلود المحتاجين فيها؛ لأن الجود والسخاء المطلقين يتطلبان إحساناً وإنعاماً مطلقين، والإحسان والإنعام غير المتناهيين يتطلبان تنعماً وامتناناً غير متناهيين، وهذا يقتضي خلود إنعام مَن يستحق الإحسان إليه، كي يظهر شكره وامتنانه بتنعمه الدائم إزاء ذلك الإنعام الدائم.. وإلا فاللذة اليسيرة – التي ينغّصها الزوال والفراق – في هذه الفترة الوجيزة لا يمكن أن تنسجم ومقتضى هذا الجود والسخاء.

ثم انظر إلى معارض أقطار العالم التي هي مشهد من مشاهد الصنعة الإلهية، وتدبّر في ما تحمله النباتات والحيوانات على وجه الأرض من إعلانات ربانية [14] وأنصت إلى الداعين الأدلاء إلى محاسن الربوبية وهم الأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحون، كيف انهم يرشدون جميعاً الناس لمشاهدة كمال صنعة الصانع ذي الجلال بتشهيرهم صنعته البديعة ويلفتون أنظارهم إليها.

إذن، فلصانع هذا العالم كمال فائق عظيم مثير للإعجاب، خفي مستتر، فهو يريد إظهاره بهذه المصنوعات البديعة، لأن الكمال الخفي الذي لا نقص فيه ينبغي الإعلان عنه على رؤوس إشهادٍ مقدّرين مستحسنين معجبين به. وان الكمال الدائم يقتضي ظهوراً دائماً، وهذا بدوره يستدعى دوام المستحسنين المعجبين، إذ المعجب الذي لا يدوم بقاؤه تسقط في نظره قيمة الكمال [15].

ثم إن هذه الموجودات العجيبة البديعة الدقيقة الرائعة المنتشرة في هذا الكون تدل بوضوح – كدلالة ضوء النهار على وجود الشمس – على محاسن الجمال المعنوي الذي لا مثيل له، وتريك كذلك لطائف الحسن الخفي الذي لا نظير له [16]. وان تجلي ذلك الحُسن

---

14 نعم، إن الزهرة الجميلة وهي في غاية الزينة والزخرفة، والثمرة المنضّدة وهي في منتهى الإتقان والإبداع، المعلقتين بخيط دقيق في نهاية أغصان يابسة يبوسة العظم.. لاشك انهما "لوحة إعلان" تجعل ذوي المشاعر يقرأون فيها محاسن صنعة الصانع المعجز الحكيم!.. قس على النباتات الحيوانات أيضاً. ـ المؤلف.

15 نعم لقد ذَهَب مثلاً: أن حسناء بارعةَ الجمال طردت أحدَ المعجبين بها، فقال هذا المعجب مسلياً نفسه: تبّاً لها ما أقبحها.. منكراً جمال تلك الجميلة. وذات يوم مرّ دُب تحت شجرة عنب ذات عناقيد لذيذة، فأراد أن يأكل من ذلك العنب الحلو، ولّما لم تصل يده اليه، وعجز عن التسلق، قال متمتماً: انه حامض، فسلى نفسه.. ومضى في طريقه.ـ المؤلف.

16 إن الموجودات الشبيهة بالمرايا مع أنها تتعاقب بالزوال والفناء فان وجود تجليات الجمال نفسه والحسن عينه في وجهها، وفي التي تعقبها، يدل على أن ذلك الجمال ليس ملكاً لها، بل هو آيات حسنٍ منزه، وأمارات جمالٍ مقدّس. ـ المؤلف.

الباهر المنــزّه، وذلك الجمال الزاهر المقدس يشير إلى كنوز كثيرة خفية موجودة في الأسمــاء الحسنى، بل في كل اسم منها.

ومثلما يطلب هذا الجمال الخفي السامي الذي لا مثيل له، أن يرى محاسـنه في مـرآة عاكسة ويشهد قِيَم حُسنه ومقاييس جماله في مرآة ذات مشاعر وأشواق إليه، فانـه يريـد الظهور والتجلي ليرى جماله المحبوب أيضاً بأنظار الآخرين. أي أن النظـر إلى جمـال ذاتـه يستدعي أن يكون من جهتين:

الأولى: مشاهدة الجمال بالذات في المرايا المختلفة المتعددة الألوان.

والأخرى: مشاهدة الجمال بنظر المشاهدين المشتاقين المعجبين المستحسنين.

أي أن الجمال والحسن يقتضيان الشهود والإشهاد (الرؤية والإراءة) وهـذا الشـهود والإشهاد يستلزمان وجود المشاهدين المشتاقين والمستحسنين المعجبين.. ولما كـان الجمـال والحسن خالدَين سرمديين فانهما يقتضيان خلود المشتاقين وديمومتهم. لأن الجمال الـدائم لا يرضى بالمشتاق الزائل الآفل. لذا فالمشاهد الذي يشعر بالزوال – وقضى على نفسـه بعـدم العودة إلى الحياة – تتحول بمجرد تصوره الزوال محبته عداءً، وإعجابه استخفافاً، واحترامـه إهانةً، لأن الشخص الأناني مثلما يعادي ما يجهله يعادي ما لا تصل إليه يده أيضاً، فيضـمر عداءً وحقداً وإنكاراً لذلك الجمال الذي ينبغي أن يقابَل بما يستحقه من محبة بلا نهاية وشوق بلا غاية وإعجاب بلا حدّ. ومن هذا يُفهم سرّ كون الكافر عدواً لله سبحانه وتعالى.

ولما كان ذلك الجود في العطاء غير المحدود، وذلك الحسن في الجمال الذي لا مثيل له، وذلك الكمال الذي لا نقص فيه.. يقتضي خلود الشاكرين، وبقاء المشتاقين المستحسـنين، ونحن نشاهد رحلة كل شخص واختفاءه بسرعة في دار ضيافة الدنيا هذه، دون أن يسـتمتع بإحسان ذلك السخاء إلاّ نزراً يسيراً بما يفتح شهيته فقط، ودون أن يرى من نور ذلك الجمال والكمال إلاّ لمحة خاطفة. إذن الرحلة منطلقة نحو متنــزهات خالدة ومَشاهدَ أبدية.

الخلاصة: مثلما أن هذا العالم يدل بموجوداته دلالة قاطعة يقيناً على صانعه الكـريم ذي الجلال، فصفاته المقدسة سبحانه وأسماؤه الحسنى تدل كذلك على الدار الآخرة بـلا ريـب وتظهرها، بل تقتضيها.

الحقيقة الخامسة

باب الشفقة وعبودية محمدρ

وهو تجلي اسم "المجيب والرَّحيم"

أمن الممكن لرب ذي رحمة واسعة وشفقة غير متناهية يبصر أخفى حاجة لأدنى مخلوق، ويسعفه من حيث لا يحتسب برأفة غير متناهية ورحمة سابغة، ويسمع أخفت صوت لأخفى مخلوق فيغيثه، ويجيب كل داعٍ بلسان الحال والمقال، أمن الممكن إلاّ يقضى هذا الرب المجيب الرحيم أهم حاجة لأعظم عباده [17] وأحب خلقه إليه، ولا يسعفه بما يرجوه منه؟

فحُسن تربية صغار الحيوانات وضعافها، وأعاشتها بسهولة ولطف ظاهريين تريانِنا أن مالك هذه الكائنات يسيّرها بربوبية لا حدّ لرحمتها. فهل يعقل لهذه الربوبية المتصفة بكمال الشفقة والرأفة الاّ تستجيب لأجمل دعاء لأفضل مخلوق؟..

وكما بينتُ هذه الحقيقة في "الكلمة التاسعة عشرة" أعيد بيانها هنا:

فيا صديقي الذي يسمعني مع نفسي! لقد ذكرنا في الحكاية: أن هناك اجتماعاً في جزيرة، وان مبعوثاً كريماً يرتجل خطبة هناك، فحقيقة ما أشارت إليه الحكاية هي ما يأتي:

تعال! لنتجرد من قيود الزمان، ولنذهب بأفكارنا إلى عصر النبوة، وبخيالنا إلى تلك الجزيرة العربية كي نحظى بزيارته ρ، وهو يزاول وظيفته بكامل عبوديته. انظر! كيف انه سبب السعادة بما أتى به من رسالة وهداية، فانه ρ هو الداعي لإيجاد تلك السعادة وخلق الجنة بدعائه وبعبوديته.

---

17 نعم، إن الذي حكم ودام سلطان حكمه ألفاً وثلاثمائة وخمسين سنة. والذي عدد أمته أكثر من ثلاثمائة وخمسين مليوناً ــ في اغلب الأوقات ــ وهم يجددون معه البيعة يومياً، ويشهدون بعلو مكانته وينقادون لأوامره انقياداً تاماً عن رغبة وطواعية.. هذا الذي تسربل نصف الأرض وخمس البشرية بسرباله المبارك، وانطبع بطابعه المعنوي، وأصبحت ذاتُه الشريفة محبوبةَ قلوبهم، ومربيةَ أرواحهم، ومزكّية نفوسهم، لا ريب انه العبد الأعظم لرب العالمين سبحانه.. هذا العبد الكريم الذي رحّب اغلب أنواع الكائنات بمهمته ورسالته فحمل كلُ نوع ثمرةً من ثمرات معجزاته، لا ريب انه احب مخلوق لدى الخالق العظيم.. وان البشرية التي ترجو الخلود بكل ما لها من استعداد وتطلب هذه الحاجة الملحة التي تنقذها من التردي إلى دركات اسفل سافلين وترفعها إلى درجات أعلى عليين.. فهي حاجة عظمى، لا ريب أن من يتقدم بها ويرفعها إلى قاضي الحاجات لهو اعظم العباد. ــالمؤلف.

انظر إلى هذا النبي الكريم إلامَ يدعو.. انه يدعو إلى السعادة الأبدية في صـــلاة كـــبرى شاملة، وفي عبادة رفيعة مستغرقة، حتى أن الجزيرة العربية، بل الأرض برمّتها، كأنها تصلي مع صلاته، وتبتهل إلى الله بابتهاله الجميل، ذلك لأن عبوديته ρ تتضمن عبودية جميع أمته الذين اتبعوه، كما تتضمن – بسر الموافقة في الأصول – سرّ العبودية لجميع الأنبياء عليهم السلام. فهو يؤم صلاة كبرى – أيّما صلاة – ويتضرع بدعاء – ويا له من تضـــرع رقيق — في خلق عظيم، كأن الـــذين تنوروا بنور الإيمان – من لدن آدم عليه السلام إلى الآن وإلى يوم القيامة –اقتدوا به، وأمّنوا على دعائه [18].

انظر! كيف يدعو الله حاجة عامة كحاجة البقاء والخلود!. هذه الدعوة التي لا يشترك فيها معه أهل الأرض وحدهم، بل أهل السموات أيضاً، لا بل الموجودات كافـــة. فتقـــول بلسان الحال: "آمين اللهم آمين استجب يا ربنا دعاءه، فنحن نتوسل بك ونتضـــرع إليـــك مثله".

ثم انظر! انه يسأل تلك السعادة والخلود بكل رقة وحزن، وبكل حـــب وود، وبكـــل شوق وإلحاح، وبكل تضرع ورجاء، يُحزن الكون جميعاً ويبكيه فيُسهمه في الدعاء.

ثم انظر وتأمل! انه يدعو طالباً السعادة لقصد عظيم، ولغاية سامية.. يطلبـــها لينقـــذ الإنسان والمخلوقات جميعاً من التردي إلى هاوية أسفل سافلين وهو الفناء المطلق والضـــياع والعبث، ويرفعه إلى أعلى عليين وهو الرفعة والبقاء وتقلّد الواجبات وتســـلّم المســـؤوليات، ليكون أهلاً لها ويرقى إلى مرتبة مكاتيب صمدانية.

انظر! كيف انه يطلب الاستعانة مستغيثاً ببكاء، متضرعاً راجياً من الاعماق، متوســـلاً بإلحاح.. حتى كأنه يُسمع الموجودات جميعاً، بل السموات، بل العرش، فيهزّهم وجداً وشوقاً إلى دعائه ويجعلهم يرددون: آمين اللّهم آمين [19].

---

18 نعم، إن جميع الصلوات التي تقيمها الأمة كلها، منذ المناجاة الأحمدية ــ عليه الصلاة والسلام ــ وجميع الصلوات والتسليمات التي تبعثها إلى النبي ρ إن هي إلاّ تأمين دائم لدعائه، ومشاركة عامة معه، حتى أن كل صلاة وسلام عليه هو تأمين على ذلك الدعاء. وان ما يأتيه كل فرد من أفراد الأمة من الصلوات في الصلاة، ومن الدعاء عقب الإقامة ــ لدى الشافعية ــ إنما هو تأمين عام على ذلك الدعاء الذي يدعو به للسعادة الأبدية. فالنبي ρ يرجو في دعائه البقاء والسعادة الأبدية، وهذا هو ما يريده الإنسان ويرجوه بكل ما أوتي من قوة بلسان حال فطرته، لذا يؤمّن خلفه جميع الذين تنوّروا بنور الإيمان. فهل يمكن ألاّ يقرن هذا الدعاء بالقبول والاستجابة؟! ــ المؤلف.

19نعم، انه لا يمكن بحال من الأحوال ألاّ يطّلعَ ربُّ هذا العالم على أفعال مَن هو بالمنـــزلة الرفيعة من خَلقه، في الوقت الذي يتصرف

وانظر! انه يسأل السعادة والبقاء الأبدي، ويرجوهما من قدير سميع كريم، ومن عليم بصير رحيم يرى ويسمع أخفى حاجة لأضعف مخلوق فيتداركه برحمته، ويستجيب له، حتى أن كان دعاءً بلسان الحال.

نعم، انه يستجيب له ببصيرة ورحمة ويغيثه بحكمة، مما ينقي أية شبهةٌ بأن تلك الرعاية الفائقة ليست إلاّ من لدن سميع بصير، وان ذلك التدبير الدقيق ليس إلاّ من عند كريم رحيم.

نعم، إن الذي يقود جميع بني آدم على هذه الأرض متوجهاً إلى العرش الأعظم، رافعاً يديه، داعياً بدعاء شامل لحقيقة العبودية الأحمدية التي هي خلاصة عبودية البشرية.. تُرى ماذا يريد؟ ماذا يريد شرف الإنسانية، وفخر الكائنات، وفريد الأزمان والأكوان؟!. لننصت إليه.. انه يسأل السعادة الأبدية لنفسه ولأمته، انه يسأل الخلود في دار البقاء، انه يسأل الجنة ونعيمها.. نعم، يسألها ويرجوها مع تلك الأسماء الإلهية المتجلية بجمالها في مرآة الموجودات.. انه يستشفع تلك الأسماء الحسنى كما ترى.

أرأيت إن لم يكن شيء من أسباب موجبة لا تعد ولا تحصى للآخرة ولا شيء من دلائل وجودها، أليس دعاء واحد من هذا النبي الكريم ρ سبباً كافياً لإيجاد الجنة [20] التي هي سهلة على قدرة خالقنا الرحيم، كسهولة إعادة الحياة إلى الأرض في أيام الربيع؟.

في الكون بكل علم وبصيرة وحكمة، كما هو مشاهد. ولا يمكن أيضاً بحال من الأحوال ألاّ يبالي ذلك الرب العليم بدعاء هذا العبد المختار من عباده، وهو المطلع على كل أفعاله ودعواته.كذلك لا يمكن بحال من الأحوال ألاّ يستجيب ذلك الرب القدير الرحيم لتلك الدعوات وهو يرى من صاحبها كل التجرد والافتقار إليه.

نعم، لقد تبدل وضع العالم بنور النبي ρ، وتبينت حقيقة الإنسان والكون وماهيتهما بذلك النور، وانكشفت بذلك الضياء. فظهر: أن موجودات هذا الكون مكاتيب صمدانية تستقرئ الأسماء الحسنى، ومأمورات موظفات، وموجودات نفيسة ذات معنى ومغزى تليق بالبقاء. فلولا ذلك النور لظل الكون مستوراً تحت ظلام الأوهام، محكوماً عليه بالفناء المطلق والعدم، تافهاً دون معنى ودون نفع، بل كان عبثاً وسدى ووليد الصدفة. ولهذا السر فان كل شيءٍ في الأرض والسماء، من الثرى إلى الثريا يستضيء بنوره ρ ويبدى علاقته به مثلما يؤمّن الإنسان لدعائه ولا غرو أن روحِ العبوديةِ المحمدية ومخها إنما هو الدعاء بل إن حركات الكون ووظائفه جميعاً ما هي إلاّ نوع من الدعاء، فنمو البذرة وتحولاتها مثلاً ما هو إلاّ نوع من دعاء لبارئها لتصبح شجرة باسقة. ـــ المؤلف.

20 نعم، إن إبداء نماذج الصنعة الدقيقة البديعة التي لا تعد ولا تحصى على وجه الأرض الذي هو بمثابة صحيفة صغيرة بالنسبة إلى عالم الآخرة الفسيح، وكذا إراءة نماذج الحشر والقيامة في ثلاثمائة ألفٍ من مخلوقات ذات موازنة وانتظام، وكتابتها في تلك الصحيفة الواحدة بهذا النظام البديع، لاشك أنها أعقد من تهيئة الجنة الموسومة بالفخامة والرفعة في عالم البقاء الرحب، لذا يصح القول: أن خلق حدائق الربيع بما فيها من الأزهار والرياحين أمر يبعث على الحيرة والدهشة اكثر مما يبعثها خلقُ الجنة، وبنسبة علو درجة الجنة ورفعة مكانتها على الربيع. ـــ المؤلف.

نعم، ان الذي جعل سطح الأرض في الربيع مثالاً للحشر، فأوجد فيه مائة نموذج من نماذجه بقدرته المطلقة، كيف يصعب عليه إيجاد الجنة؟.. إذن فكما كانت رسالته ρ سبباً لإيجاد دار الامتحان هذه، وصارت بياناً وإيضاحاً لسر (لَوْلاَك لَوْلاَكَ لَمَا خَلَقْتُ الأَفْلاَكَ) [21] فإن عبوديته كذلك أصبحت سبباً لخلق تلك الدار السعيدة الأبدية.

فهل من الممكن يا ترى لانتظام العالم البديع الذي حيّر العقول والصنعة المتقنة وجمال الربوبية الشاملة في إطار رحمته الواسعة، أن يقبل قبحاً فظيعاً وظلماً شنيعاً وفوضى ضاربة أطنابها، بعدم استجابة ذلك الدعاء أي أن لا يراعي ولا يسمع ولا ينجز اكثر الرغبات أهمية، واشدها ضرورة في حين انه يراعي باهتمام بالغ ابسط الرغبات وأصغرها، ويسمع أخفت الأصوات وأدقها ويقضي لكل ذي حاجة حاجته! كلا ثم كلا ألف ألف مرة، إن مثل هذا الجمال يأبى التشوه ولن يكون قبيحاً [22].

فالرسول ρ إذن يفتح بعبوديته باب الآخرة مثلما فتح برسالته باب الدنيا.

عليه صلوات الرحمن ملء الدنيا ودار الجنان.

اللّهم صلِّ وسلّم على عبدك ورسولك، ذلك الحبيب الذي هو سيد الكونين، وفخر العالمين، وحياة الدارين، ووسيلة السعادتين، وذو الجناحين، ورسول الثقلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين. آمين.

الحقيقة السادسة

باب العظمة والسرمدية

وهو تجلي اسم "الجليل والباقي"

---

21 وقد تكلم علماء محققون حول هذا الحديث ، فمنهم من أقره، ومنهم من ضعّفه ومنهم من أنكره ولعلّ قول على القاري في شرح الشفا (1 / 6) يعدّ خلاصة جيدة، إذ يقول: "إنه صحيح معنىً ولو ضُعف مبنى " –المترجم..

22 نعم، إن انقلاب الحقائق محال بالاتفاق. واشد محالاته هو انقلاب الضد إلى ضده. وضمن عدم إمكان انقلاب الحقائق إلى أضدادها حقيقة لا تقبل الضد قطعاً، وهي انقلاب الشيء مع احتفاظه بماهيته إلى عين ضده، كأن ينقلب الجمال المطلق ـ مع احتفاظه بهذا الجمال ـ إلى القبح الحقيقي! فتحول جمال الربوبية الواضح والظاهر ظهوراً جلياً إلى ضده مع بقائه على ماهيته هو اشد محالا واكثر عجباً في أحكام العقل. ـالمؤلف.

أمن الممكن لرب جليل يدير الموجودات ويسخّرها من الشـــموس إلى الأشـــجار والى الذرات والى ما هو اصغر منها، كأنها جنود مجندة، أن يقصر نشر سلطانه على مساكين فانين يقضون حياة مؤقتة في دار ضيافة الدنيا هذه ولا ينشئ مقراً سامياً سرمدياً ومدار ربوبية جليلة باقية له؟!

إن ما نشاهده في هذا الكون من الإجراءات الجليلة الضخمة أمثال تبدل المواسم.. ومن التصرفات العظيمة أمثال تسيير النجوم.. ومن التسخيرات المدهشة أمثال جعل الأرض مهاداً والشمس سراجاً.. ومن التحولات الواسعة أمثال إحياء الأرض وتزيينها بعد جفافها وموتها.. ليبيّن لنا بجلاء أن وراء الحجاب ربوبية جليلة عظيمة تحكم وتُهيمن بسلطانها الجليل. فمثـــل هذه السلطنة الربانية تستدعي رعايا يليقون بها، ومظاهر تناسبها. بينما ترى أن مَن لهم افضل المزايا وأجمعها من الرعايا والعباد قد اجتمعوا مؤقتاً منهوكين في مضيف الدنيا، والمضيف نفسه يملأ ويفرغ يومياً، والرعايا لا يلبثون فيه الاّ بمقدار أداء تجربة مهماتهم في ميدان الاختبار هذا. والميدان نفسه يتبدل كل ساعة. فالرعايا يقفون دقائق معدودة لرؤية ما في معـــارض ســـوق العالم من نماذج الآلاء الثمينة للخالق ذي الجلال، ومشاهدين – لأجل التجارة – بدائع صنعه سبحانه في هذا المعرض الهائل، ومن ثم يغيبون، والمعرض نفسه يتبدل ويتغير كل دقيقة!. فمَن يرحل فلا عودةَ له، والقابل راحل. فهذا الوضع يبين بوضوح وبشكل قـــاطع أن وراء هـــذا المضيف الفاني، وخلف هذا الميدان المتغير، وبعد هذا المعرض المتبدل، قصوراً دائمـــة تليـــق بالسلطنة السرمدية، ومساكن أبدية ذات جنان، وخزائن ملأى بالأصول الخالصـــة الراقيـــة للنماذج التي نراها في الدنيا؛ لذا فالدأب والسعي هنا إنما هـــو للتطلـــع إلى مـــا هنـــاك.. والاستخدام هنا لقبض الأجرة هناك. فلكلٍ حسب استعداده واجتهاده سعادة وافـــرة إن لم يفقدها.

نعم، انه محال أن تظل مثل هذه السلطنة السرمدية مقصورة على هؤلاء الفانين الأذلاء..

فانظر إلى هذه الحقيقة من خلال منظار هذا المثال:

هب انك تسير في طريق، وتشاهد أن عليها "فندقاً فخماً" بناه ملك عظيم لضـــيوفه، وهو ينفق مبالغ طائلة لتزيينه وتجميله كي يُدخل البهجة في قلوب ضيوفه، ويعتبروا بما يرون.

بيد أن أولئك الضيوف لا يتفرجون إلاّ على أقل القليل من تلك التزيينات، ولا يـــذوقون إلاّ أقل القليل من تلك النعم، حيث لا يلبثون إلاّ قليلاً ومن ثم يغادرون الفندق دون أن يرتـــووا ويشبعوا. سوى ما يلتقطون من صور أشياء في الفندق بما يملكون من آلة تصـــوير وكـــذلك يفعل عمال صاحب الفندق وخدامه حيث يلتقطون حركات هؤلاء النـــزلاء وسكناهم بكل دقة وأمانة ويسجلونها. فها أنت ذا ترى أن الملك يهدّم يومياً اغلب تلك التزيينات النفيســـة، مجدداً إياها بأخرى جديدة للضيوف الجدد. أ فبعد هذا يبقى لديك شك في مَن بـــنى هـــذا الفندق على قارعة هذه الطريق يملك قصوراً دائمة عالية، وله خزائن زاخرة ثمينة لا تنفد، وهو ذو سخاء دائم لا ينقطع. وان ما يبديه من الكرم في هذا الفندق هو لإثارة شهية ضيوفه إلى ما عنده من أشياء، ولتنبيه رغباتهم وتحريكها لما أعدّ لهم من هدايا؟.

فإن تأملت من خلال هذا المثال في أحوال فندق الدنيا هذه، وأنعمت النظر فيها بوعي تام فستفهم الأسس التسعة الآتية:

الأساس الأول:

انك ستفهم أن هذه الدنيا - الشبيهة بذلك الفندق - ليست لذاتها. فمحال أن تتخذ لنفسها بنفسها هذه الصورة والهيئة. وإنما هي دار ضيافة تملأ وتفرغ، ومنـــزل حلّ وترحال، أنشئت بحكمة لقافلة الموجودات والمخلوقات.

الأساس الثاني:

وستفهم أن ساكني هذا الفندق هم ضيوف مسافرون، وأن ربهم الكريم يـــدعوهم إلى دار السلام.

الأساس الثالث:

وستفهم أن التزيينات في هذه الدنيا ليست لأجل التلذذ والتمتع فحسب، إذ لو أذاقتك اللذة ساعة، أذاقتك الألم بفراقها ساعات وساعات، فهي تذيقك مـــثيرة شـــهيتك دون أن تشبعك، لقصر عمرها أو لقصر عمرك، إذ لا يكفي للشبع.

إذن فهذه الزينة الغالية الثمن والقصيرة العمر هي للعبرة [23]، وللشكر، وللحض على الوصول إلى تناول أصولها الدائمة، ولغايات أخرى سامية.

الأساس الرابع:

وستفهم أن هذه الزينة في الدنيا [24] بمثابة صور ونماذج للنعم المدّخرة لدى الرحمة الإلهية في الجنة للمؤمنين.

الأساس الخامس:

---

23 على الرغم من أن كل شيء دقيق الصنع بديع التصوير جميل التركيب هو غالٍ ونفيس، فان عمره قصير، ووجوده لا يستغرق إلاّ زمناً يسيراً. فهو إذن نماذج وصور لأشياء أخرى ليس إلاّ.

ولما كان هناك ما يشبه توجيه الأنظار إلى الحقائق الأصيلة، فلا غرابة إذن في أن يقال: إن زينة الحياة الدنيا ما هي إلاّ نماذج لنعم الجنة التي هيأها الرب الرحيم بفضله ولطفه لمن أحب من عباده، بل الحقيقة هي هذه فعلاً. ــ المؤلف.

24 نعم، إن لوجود كل شيء غايات، ولحياته أهداف ونتائج، فهي ليست بمنحصرة ــ كما يتوهم أهل الضلالة ــ على الغايات والمقاصد التي تتوجه إلى الدنيا أو التي تنحصر في الموجود نفسه، حتى يمكن أن يتسلل إليها العبث وعدم القصد. بل إن غايات وجود كل شيء ومقاصد حياته ثلاثة أقسام:

أولها: وهو أسماها وهو المتوجه إلى صانعه سبحانه وتعالى. أي: عرض دقائق صنع كل شيء وبديع تركيبه أمام أنظار الشاهد الأزلي سبحانه ــ بما يشبه الاستعراض الرسمي ــ حيث تكفي لذلك النظر حياة الشيء ولو للحظة واحدة. بل قد يكفيه استعداده لإبراز قواه الكامنة ــ الشبيهة بنيّته ــ ولمّا يبرز إلى الوجود . ومثاله : المخلوقات اللطيفة التي تزول بسرعة، والبذور التي لم يتسن لها إعطاء ثمارها وأزاهيرها، تفيد هذه الغاية وتعبّر عنها تماماً، فلا يطرأ عليها عبث ولا انتفاء النفع البتة. أي أن أُولى غايات كل شيء هو: إعلانه وإظهاره ــ بحياته ووجوده ــ معجزات قدرة صانعه، وآثار صنعته، أمام أنظار عناية مليكه ذي الجلال.

والقسم الثاني: من غاية الوجود وهدف الحياة هو: التوجه إلى ذوي الشعور أي ان كل شيء بمثابة رسالة ربانية زاخرة بالحقائق، وقصيدة تنضح لطفاً ورقةً وكلمة تفصح عن الحكمة، يعرضها الباري عز وجل أمام أنظار الملائكة والجن والحيوان والإنسان، ويدعوهم إلى التأمل، أي أن كل شيء هو محل مطالعة وتأمل وعبرة لكل من ينظر إليه من ذوي الشعور.

القسم الثالث: من غاية الوجود وهدف الحياة هو: التوجه إلى ذات نفسه: كالتمتع والتلذذ وقضاء الحياة والبقاء فيها بهناء، وغيرها من المقاصد الجزئية. فمثلاً : إن نتيجة عمل الملاّح في سفينة السلطان العظيمة تعود فائدتها إليه وهي أجرته، وهي بنسبة واحد في المائة، بينما تسع وتسعين بالمائة من نتائج السفينة تعود إلى السلطان الذي يملكها.. وهكذا إن كانت الغاية المتوجهة إلى كل شيء بذاته والى دنياه واحدة، فالغاية المتوجهة إلى بارئه سبحانه هي تسع وتسعون.

ففي تعدد الغايات هذا يكمن سر التوفيق بين "الحكمة والجود" اي بين الاقتصاد والسخاء المطلقين، اللذين يبدوان كالضدين والنقيضين. وتوضيح ذلك:

إذا لوحظت غاية بمفردها فان الجود والسخاء يسودان آنذاك، ويتجلى اسم "الجواد"، فالثمار والحبوب حسب تلك الغاية المفردة الملحوظة لا تعد ولا تحصى. أي أنها تفيد جوداً مطلقاً وسخاء لا حصر له. أما إذا لوحظت الغايات كلها فان الحكمة هي التي تظهر وتهيمن، ويتجلى اسم "الحكيم". فتكون الحِكَم والغايات المتوخاة من ثمرة لشجرة واحدة بعدد ثمار تلك الشجرة، فتتوزع هذه الغايات على الأقسام الثلاثة التي سبق ذكرها. فهذه الغايات العامة تشير إلى حكمة غير نهائية، واقتصاد غير محدد، فتجتمع الحكمة المطلقة مع الجود المطلق اللذان يبدوان كالضدين.

ومثلاً: إن إحدى الغايات من الجيش هي المحافظة على الأمن والنظام، فإذا نظرت إلى الجيش بهذا المنظار فسترى أن هناك عدداً فوق المطلوب منه. أما إذا نظرنا إليه مع أخذنا الغايات الأخرى بنظر الاعتبار كحفظ الحدود، ومجاهدة الأعداء وغيرها، عند ذلك نرى أن العدد يكاد يفي بالحد المطلوب... فهو إذن توازن دقيق بميزان الحكمة. إذ تجتمع حكمة الحكومة مع عظمتها. وهكذا يمكن القول في هذه الحالة: أن الجيش ليس فوق الحد المطلوب. ــ المؤلف.

وستفهم أن هذه المصنوعات الفانية ليست للفناء، و لم تخلق لتشاهَد حيناً ثم تذهب هباءً، وإنما اجتمعت هنا، وأخذت مكانها المطلوب لفترة قصيرة كي تُلتقط صورها، وتُفهم معانيها، وتُدوّن نتائجها، ولتُنسج لأهل الخلود مناظر أبدية دائمة ولتكون مداراً لغايات أخرى في عالم البقاء.

ويفهم من المثال الآتي، كيف أن هذه الأشياء لم تخلق للفناء بل للبقاء، بل إن فناءها الظاهري ليس إلاّ إطلاقاً لسراحها بعدما أتمت مهامّها، وكيف أن الشيء يفنى من جهة إلاّ انه يبقى من جهات كثيرة:

تأمل في هذه الزهرة – وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية – إنها تنظر إلينا مبتسمة لنا لفترة قصيرة، ثم تختفي وراء ستار الفناء. فهي كالكلمة التي نتفوه بها، التي تودع آلافاً من مثيلاتها في الآذان وتبقى معانيها بعدد العقول المنصتة لها، وتمضي بعد أن أدت وظيفتها، وهي إفادة المعنى. فالزهرة أيضاً ترحل بعد أن تودع في ذاكرة كل من شاهدها صورتها الظاهرة، وبعد أن تودع في بذيراتها ماهيتها المعنوية، فكأن كل ذاكرة وكل بذرة، بمثابة صور فوتوغرافية لحفظ جمالها وصورتها وزينتها، ومحل إدامة بقائها.

فلئن كان المصنوع وهو في أدنى مراتب الحياة يعامل مثل هذه المعاملة للبقاء، فما بالك بالإنسان الذي هو في أسمى طبقات الحياة، والذي يملك روحاً باقية، ألا يكون مرتبطاً بالبقاء والخلود؟ ولئن كانت صورة النبات المزهر المثمر، وقانون تركيبه – الشبيه جزئياً بالروح – باقية ومحفوظة في بُذيراتها بكل انتظام، في خضم التقلبات الكثيرة، أفلا يُفهم كم تكون روح الإنسان باقية، وكم تكون مشدودة مع الخلود، علماً أنها قانون أمري، وذات شعور نوراني، تملك ماهية راقية، وذات حياة، وذات خصائص جامعة شاملة، وقد اُلبست وجوداً خارجياً؟!

الأساس السادس:

وستفهم أن الإنسان لم يترك حبله على غاربه، و لم يترك طليقاً ليرتع أينما يريد، بل تُسجّل جميع أعماله وتُلتقط صورها، وتدوّن جميع أفعاله ليحاسب عليها.

الأساس السابع:

وستفهم أن الموت والاندثار الذي يصيب في الخريف مخلوقات الربيع والصيف الجميلة، ليس فناءً نهائياً، وإعداماً أبدياً، وإنما هو إعفاء من وظائفها بعد إكمالها وإيفائها، وتسريح منها[25]، وهو إفساح مجالٍ وتخليةُ مكانٍ لما سيأتي في الربيع الجديد من مخلوقات جديدة. فهو تهيؤ وتهيأة لما سيحل من الموجودات المأمورة الجديدة.

وهو تنبيه رباني لذوي المشاعر الذين أنسَتهم الغفلة مهامهم، ومنعهم السُكر عن الشكر.

الأساس الثامن:

وستفهم أن الصانع السرمدي لهذا العالم الفاني له عالم غير هذا، وهو عالم باقٍ خالد، ويشوّق عباده إليه، ويسوقهم إليه.

الأساس التاسع:

وستفهم أن الرحمن الرحيم جل جلاله سوف يكرم في ذلك العالم الفسيح عباده المخلصين بما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. آمنا.

الحقيقة السابعة

باب الحفظ والحفيظية

وهو تجلي اسم "الحفيظ والرَّقيب"

أمن الممكن لحفيظ ورقيب يحفظ بانتظام وميزان ما في السماء والأرض، وما في البر والبحر، من رطب ويابس فلا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها، أن لا يحافظ ولا يراقب أعمال الإنسان الذي يملك فطرة سامية، ويشغل رتبة الخلافة في الأرض، ويحمل مهمة الأمانة الكبرى؟. فهل يمكن أن لا يحافظ على أفعاله التي تمس الربوبية؟ ولا يفرزها بالمحاسبة؟ ولا يزنها

---

25 نعم، لا بد من زوال الثمار والأزهار والأوراق المحمولة على أغصان ورؤوس الأشجار ــ التي هي خزينة الأرزاق للرحمة الإلهية ــ بعد ان أدت وظيفتها وهرمت، كيلا يوصَد الباب أمام ما يسيل وراءها ويخلفها، وإلاّ صارت سداً منيعاً أمام سعة الرحمة وحائلاً أمام مهام أخواتها، فضلاً عن أنها هي نفسها تذوي وتذبل بزوال شبابها. وهكذا، فالربيع أشبه بتلك الشجرة المثمرة، المُظهرة للحشر. وعالم الإنسان ــ في كل عصر ــ هو شجرة مثمرة ذات حكمة وعبرة، والأرض جميعاً شجرة قُدرةٍ بديعةٍ والدنيا كذلك شجرة رائعة ترسل ثمارها إلى سوق الآخرة. ــالمؤلف.

بميزان العدالة؟ ولا يجازي فاعلها بما يليق به من ثواب وعقاب؟. تعالى الله عن ذلـــك علـــواً كبيراً.

نعم، إن الذي يدير أمر هذا الكون هو الذي يحافظ على كل شيء فيه ضـــمن نظـــام وميزان. والنظام والميزان هما مظهران من مظاهر العلم والحكمة مع الإرادة والقـــدرة، لأننـــا نُشاهد أن أيّ مصنوع كان لم يُخلق ولا يُخلق إلاّ في غاية الانتظام والميزان، وان الصور التي يغيّرها طوال حياته في انتظام دقيق كما أن مجموعها أيضاً ضمن نظام متقن محكم. ونرى أيضاً ان الحفيظ ذا الجلال يحفظ صور كل شيء حالما يختم عمره مع انتهاء وظيفته ويرحل من عالم الشهادة، يحفظها سبحانه في الأذهان التي هي أشبه ما تكون بالألواح المحفوظة [26] وفي ما تشبه بمرايا مثالية، فيكتب معظم تاريخ حياته في بذوره وينقشه نقشاً في ثماره، فيديم حياته ويحفظها في مرايا ظاهرة وباطنة..فذاكرة البشر، وثمر الشجر، ونواة الثمر، وبذر الزهر.. كل ذلك يبين عظمة إحاطة الحفيظية.

ألا ترى كيف يُحافَظ على كل شيء مزهر ومثمر في الربيع الشاسع العظيم، وكيـــف يُحافظ على جميع صحائف أعماله الخاصة به، وعلى جميع قوانين تركيبه ونماذج صوره، كتابةً في عدد محدود من البُذيرات. حتى إذا ما أقبل الربيع تُنشر تلك الصحائف وفق حساب دقيق يناسبها فيخرج إلى الوجود ربيعاً هائلاً في غاية الانتظام والحكمة؟ ألا يبين هذا مدى نفوذ الحفظ والرقابة، ومدى قوة إحاطتهما الشاملة؟ فلئن كان الحفظ إلى هذا الحد مـــن الإتقـــان والإحاطة فيما لا أهمية له وفي أشياء مؤقتة عادية، فهل يُعقل عدم الاحتفاظ بأعمال البشـــر، التي لها ثمار مهمة في عالم الغيب وعالم الآخرة وعالم الأرواح، ولدى الربوبية المطلقة؟! فهـــل يمكن إهمالها وعدم تدوينها؟ حاش لله...

نعم، يفهم من تجلي هذه الحفيظية، وعلى هذه الصورة الواضـــحة، أن لمالـــك هـــذه الموجودات عناية بالغة لتسجيل كل شيء وحفظه، وضبطِ كل ما يجري في ملكه، وله منتهى الرعاية في حاكميته، ومنتهى العناية في سلطنة ربوبيته، بحيث إنه يكتب ويستكتب أدنى حادثة

---

26 انظر حاشية الصورة السابعة. ـــ المؤلف.

وأهون عمل محتفظاً بصور كل ما يجري في ملكه في محافظَ كثيرة. فهذه المحافظـــة الواســـعة الدقيقة تدل على أنه سيُفتح بلا شك سجلٌ لمحاسبة الأعمال، ولاسيما لهذا المخلوق المكـــرّم والمعزّز والمفطور على مزايا عظيمة، ألا وهو الإنسان. فلابد أن تدخل أعماله التي هي عظيمة، وأفعاله التي هي مهمة ضمن ميزان حساس ومحاسبة دقيقة، ولابد أن تُنشر صحائف أعماله.

فيا ترى هل يقبل عقل بأن يُترك هذا الإنسان الذي أصبح مكرّماً بالخلافة والأمانـــة، والذي ارتقى إلى مرتبة القائد والشاهد على المخلوقات، بتدخله في شؤون عبـــادة أغلـــب المخلوقات وتسبيحاته بإعلانه الوحدانية في ميادين المخلوقات الكثيرة وشهوده شؤون الربوبية الكلية.. فهل يمكن أن يُترك هذا الإنسان، يذهب إلى القبر لينام هادئاً دون أن ينبّه ليُسأل عن كل صغيرة وكبيرة من أعماله، ودون أن يُساق إلى المحشر ليحاكم في المحكمة الكبرى؟ كلاّ ثم كلاّ!.

وكيف يمكن أن يذهب هذا الإنسان إلى العدم، وكيف يمكن أن يتوارى في التـــراب فيفلت من يد القدير ذي الجلال الذي تشهد جميع الوقائع التي هي معجزات قدرته في الأزمنة الغابرة على قدرته العظيمة لما سيحدث من الممكنات في الأزمنة[27] الآتية. تلك القدرة الـــتي

---

27 إن الماضي الممتد منذ الآن إلى بدء الخليقة مليء بالوقائع والأحداث، فكل يوم ظهر إلى الوجود منه سطر، وكل سنة منه صـــحيفة، وكل عصر منه كتاب، رَسَمه قلمُ القدَر، وخطت فيه يدُ القدرة آياتها المعجزة بكل حكمة وانتظام. وان المستقبل الذي يمتد من الآن إلى يوم القيامة، والى الجنة، والى الأبد، إنما هو ضمن الممكنات، أي: كما أن الماضي هو وقائع وقعت فعلاً، فالمستقبل كذلك ممكنات يمكن أن تقع فعلاً. وإذا قوبلت سلستا هذين الزمانين فلا ريب في أن الذي خلق الأمس بما فيه من الموجودات قادر على خلق الغد بما سيكون فيه من الموجودات، ولا ريب كذلك أن موجودات وخوارق الزمن الماضي الذي هو معرض العجائب والغرائب هي معجزات القـــدير ذي الجلال وهي تشهد شهادة قاطعة على: انه سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق المستقبل كله، وما فيه من الممكنات كلها، وان يعرض فيه عجائبه ومعجزاته كافة.

نعم، فكما أن الذي يقدر على خلق تفاحة واحدة لابد أن يكون قادراً على خلق تفاح العالم جميعاً، بل على إيجاد الربيع الكبير. إذ من لا يَقدر على خلق الربيع لا يمكن أن يخلق تفاحة، لأن تلك التفاحة تنسج في ذلك المصنع. ومَن يقدِر على خلق تفاحة واحدة فهو إذن قـــادرٌ على خلق الربيع فالتفاحة مثال مصغّر للشجرة، وللحديقة، بل هي مثال الكائنات جميعاً. والتفاحة من حيث الصنعة والإتقان هي معجـــزة الصنعة، حيث تتضمن بذورها تاريخ حياة شجرتها. فالذي يخلقها خلقاً بديعاً كهذا لا يعجزه شيء مطلقاً.

وهكذا، فالذي يخلق اليومَ هو قادر على خلق يوم القيامة، والذي يحدث الربيع قادر على أحداث الحشر، والذي اظهر عـــوالم الماضـــي وعلقها على شريط الزمان ــ بكل حكمة وانتظام ــ لاشك انه يقدر على أن يظهر عوالم أخرى ويعلقها بخيط المســـتقبل، وســـيظهرها حتماً. وقد أثبتنا بشكل قاطع في كثير من "الكلمات" ولا سيما في "الكلمة الثانية والعشرين" بأن "من لا يخلق كل شيء لا يقدر على خلـــق شئ. ومن يخلق شيئاً واحداً يقدر على أن يخلق كل شيء. وكذلك لو أحيل إيجاد الأشياء إلى ذات واحدة لسهُلت الأشياء كلهـــا كالشـــيء الواحد، ولو اسند إلى الأسباب المتعددة والى الكثرة لأصبح إيجاد الشيء الواحد صعباً بمقدار إيجاد الأشياء كلها إلـــى درجـــة الامتنـــاع والمحال" ــ المؤلف.

تحدث الشتاء والربيع الشبيهين بالقيامة والحشر؟ ولما كان الإنسان لا يحاسَب في هذه الدنيا حساباً يستحقه، فلابد انه سيذهب يوماً إلى محكمة كبرى وسعادة عظمى.

الحقيقة الثامنة

باب الوعد والوعيد

وهو تجلي اسم "الجميل والجليل"

أمن الممكن لمبدع هذه الموجودات وهو العليم المطلق والقدير المطلق ألاّ يوفي بما أخبر به مكرراً الأنبياء عليهم السلام كافة بالتواتر من وعد ووعيد، وشهد به الصدّيقون والأولياء كافة بالإجماع، مُظهراً عجزاً وجهلاً بذلك؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. علماً أن الأمور التي وعد بها، وأوعدها، ليست عسيرة على قدرته قطعاً، بل هي يسيرة وهينة، وسهلة كسهولة إعادة الموجودات التي لا تحصى للربيع السابق بذواتها [28] أو بمثلها [29] في الربيع المقبل. أما الوفاء بالوعد فكما هو ضروري لنا ولكل شيء ضروري كذلك لسلطنة ربوبيته. بعكس إخلاف الوعد فهو مضاد لعزة قدرته، ومنافٍ لإحاطة علمه، حيث لا يتأتى إخلاف الوعد إلاّ من الجهل أو العجز.

فيا أيها المنكر! هل تعلم مدى حماقة ما ترتكب من جناية عظمى بكفرك وإنكارك! انك تصدّق وهمَك الكاذب وعقلك الهاذي ونفسَك الخدّاعة، وتكذّب مَن لا يضطر إلى إخلاف الوعد، ولا إلى خلافه أبداً، بل لا يليق الإخلاف بعزته وعظمته قطعاً. وان جميع الأشياء وجميع المشهودات تشهد على صدقه وأحقيته!!.. انك ترتكب إذن جناية عظمى لا نهاية لها مع صغرك المتناهي، فلا جرم انك تستحق عقاباً عظيماً أبدياً.. ولقياس عِظَم ما يرتكبه الكافر من جناية فقد وَرَد أن ضرس بعض أهل النار كالجبل [30].. إن مَثَلك هو كمثَل ذلك المسافر الذي يغمض عينيه عن نور الشمس ويتبع ما في عقله من خيال، ثم يريد أن ينوّر طريقه المخيف بضياء ما في عقله من بصيص كنور اليراعة!.

---

28 كجذور وأصول الأعشاب والأشجار. ـــ المؤلف.

29 كالأوراق والثمار. ـــ المؤلف.

30 عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ρ: إن ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أُحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث. رواه مسلم (4/2189) ـــ المترجم.

فما دام الله سبحانه قد وعد، وهذه الموجودات كلماته الصادقة بالحق، وهذه الحوادث في العالم آياته الناطقة بالصدق، فانه سيوفي بوعده حتماً، وسيفتح محكمة كبرى، وسيهب سعادة عظمى.

الحقيقة التاسعة

باب الإحياء والإماتة

وهو تجلي اسم "الحي القيوم والمحيي والمميت"

أمن الممكن للذي اظهر قدرتَه بإحياء الأرض الضخمة بعد موتها وجفافها، وبعث اكثر من ثلاثمائة ألف نوع من أنواع المخلوقات، مع أن بعث كل نوع عجيب كأعجوبة بعث البشر.. والذي اظهر إحاطةَ علمه ضمن ذلك الإحياء بتمييزه كل كائن من بين ذلك الامتزاج والتشابك.. والذي وجّه أنظار جميع عباده إلى السعادة الأبدية بوعدهم الحشر في جميع أوامره السماوية.. والذي اظهر عظمة ربوبيته بجعله الموجودات متكاتفة مترافقة، فأدارها ضمن أمره وإرادته، مسخراً أفرادها، معاوناً بعضها بعضاً.. والذي أولى البشر الأهمية القصوى، بجعله أجمع ثمرة في شجرة الكائنات، وألطفها وأشدها رقةً ودلالاً، وأكثرها مستجاباً للدعاء، مسخراً له كل شئ، متخذاً إياه مخاطباً.. أ فمن الممكن لمثل هذا القدير الرحيم ولمثل هذا العليم الحكيم الذي أعطى هذه الأهمية للإنسان أن لا يأتي بالقيامة؟ ولا يحدث الحشر ولا يبعث البشر، أو يعجز عنه؟ وان يعجز عن فتح أبواب المحكمة الكبرى وخلق الجنة والنار؟!. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

نعم، إن الرب المتصرف في هذا العالم جلّ جلاله يُحدث في هذه الأرض المؤقتة الضيقة في كل عصر وفي كل سنة وفي كل يوم نماذج وأمثلة كثيرة وإشارات عديدة للحشر الأكبر. فعلى سبيل المثال:

انه يحشر في بضعة أيام في حشر الربيع ويبعث اكثر من ثلاثمائة ألف نوع من أنواع النباتات والحيوانات من صغير وكبير، فيحيي جذور الأشجار والأعشاب، ويعيد بعض الحيوانات بعينها كما يعيد أمثال بعضها الآخر. ومع أن الفروق المادية بين البُذيرات المتناهية في الصغر جزئية جداً، إلاّ أنها تُبعث وتُحيا بكل تميّز، وتشخّص في منتهى السرعة في ستة أيام،

أو ستة أسابيع، وفي منتهى السهولة والوفرة، وبانتظام كامل وميزان دقيق، رغم اختلاطها وامتزاجها. فهل يصعب على من يقوم بمثل هذه الأعمال شيء، أو يعجز عن خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولا يستطيع أن يحشر الإنسان بصيحة واحدة؟.. سبحان الله عما يصفون.

فيا ترى أن كان ثمة كاتبٌ ذو خوارق يكتب ثلاثمائة ألف كتاب مُسحت حروفُها ومُسخت، في صحيفة واحدة دون اختلاط ولا سهو ولا نقص، وفي غاية الجمال، ويكتبها جميعاً معاً خلال ساعة واحدة. وقيل لك: إن هذا الكاتب سيكتب من حفظه في دقيقة واحدة كتابك الذي وقع في الماء وهو من تأليفه. فهل يمكنك أن ترد عليه وتقول: لا يستطيع. لا أصدق؟!.. أو أن سلطاناً ذا معجزات يرفع الجبال وينسفها ويغير المدن بكاملها ويحول البحر براً، بإشارة منه، إظهاراً لقدرته وجعلها آية للناس.. فبينما ترى منه هذه الأعمال إذا بصخرة عظيمة قد تدحرجت إلى وادٍ وسدّت الطريق على ضيوفه، وقيل لك: إن هذا السلطان سيميط حتماً تلك الصخرة من على الطريق ويحطمها مهما كانت كبيرة، حيث لا يمكن أن يدع ضيوفه في الطريق.. كم يكون جوابك هذياناً أو جنوناً إذا ما أجبته بقولك: لا، لا يستطيع أن يفعل؟!!.. أو أن قائداً يمكنه أن يجمع من جديد أفراد جيشه الذي شكله بنفسه في يوم واحد. وقيل لك: إن هذا سيجمع أفراد تلك الفرق وسينضوي تحت لوائه أولئك الذين سرّحوا وتفرّقوا، بنفخة من بوق، فأجبته: لا، لا اصدق!. عندها تفهم أن جوابك هذا ينبئ عن تصرف جنوني، أيّ جنون!!

فإذا فهمت هذه الأمثلة الثلاثة فتأمل في ذلكم البارئ المصور سبحانه وتعالى الذي يكتب أمام أنظارنا بأحسن صورة وأتمها بقلم القدرة والقدر اكثر من ثلاثمائة ألف نوع من الأنواع على صحيفة الأرض، مبدلاً صحيفة الشتاء البيضاء إلى الأوراق المتفتحة للربيع والصيف، يكتبها متداخلة دون اختلاط، يكتبها معاً دون مزاحمة ولا التباس، رغم تباين بعضها مع البعض الآخر في التركيب والشكل. فلا يكتب خطأ مطلقاً. أ فيمكن أن يُسال الحفيظ الحكيم الذي أدرج خطة روح الشجرة الضخمة ومنهاجها في بذرة متناهية في الصغر محافظاً عليها، كيف سيحافظ على أرواح الأموات؟. أم هل يمكن أن يُسأل القدير ذو الجلال

الذي يُجري الأرض في دورتها بسرعة فائقة، كيف سيزيلها من على طريق الآخرة، وكيف سيدمّرها؟ أم هل يمكن أن يُسأل ذو الجلال والإكرام الذي أوجد الذرات من العدم ونسّقها بأمر (كُنْ فَيَكُونُ) في أجساد جنود الأحياء ، فأنشأ منها الجيوش الهائلة، كيف سيجمع بصيحة واحدة تلك الذرات الأساسية التي تعارفت فيما بينها، وتلك الأجزاء الأساسية التي انضوت تحت لواء فرقة الجسد ونظامه؟

فها أنت ذا ترى بعينيك كم من نماذج وأمثلة وأمارات للحشر شبيهة بحشر الربيع، قد أبدعها الباري سبحانه وتعالى في كل موسم، وفي كل عصر، حتى أن تبديل اللّيل والنّهار، وإنشاء السحاب الثقال وإفناءها من الجو، نماذج للحشر وأمثلة وأمارات عليه.

وإذا تصورت نفسك قبل ألف سنة مثلاً، وقابلت بين جناحي الزمان الماضي والمستقبل، ترى أمثلة الحشر والقيامة ونماذجها بعدد العصور والأيام.

فلو ذهبت إلى استبعاد الحشر الجسماني وبعث الأجساد متوهماً انه بعيد عن العقل ، بعد ما شاهدت هذا العدد الهائل من الأمثلة والنماذج، فستعلم أنت كذلك مدى حماقة من ينكر الحشر.

تأمل ماذا يقول الدستور الأعظم حول هذه الحقيقة:

(فَانْظُر إلى آثَارِ رَحْمَتِ الله كَيْفَ يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إنَّ ذلِكَ لَمُحيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ) (الروم: 50)

الخلاصة: لا شيء يحول دون حدوث الحشر، بل كل شيء يقتضيه ويستدعيه. نعم! إن الذي يحيي هذه الأرض الهائلة وهي معرض العجائب ويميتها كأدنى حيوان، والذي جعلها مهداً مريحاً وسفينة جميلة للإنسان والحيوان، وجعل الشمس ضياءً وموقداً لهذا المضيف، وجعل الكواكب السيّارة والنجوم اللامعة مساكن طائرات للملائكة.. إن ربوبية خالدة جليلة إلى هذا الحدّ، وحاكمية محيطة عظيمة إلى هذه الدرجة، لا تستقران ولا تنحصران في أمور الدنيا الفانية الزائلة الواهية السيالة التافهة المتغيرة. فلابد أن هناك داراً أخرى باقية، دائمة، جليلة، عظيمة، مستقرة، تليق به سبحانه فهو يسوقنا إلى السعي الدائب لأجل تلك الممالك والديار ويدعونا إليه وينقلنا إلى هناك. يشهد على هذا أصحاب الأرواح النيرة، وأقطاب

القلوب المنورة، وأرباب العقول النورانية، الذين نفذوا من الظاهر إلى الحقيقة، والذين نالوا شرف التقرب إليه سبحانه. فهم يبلغوننا متفقين انه سبحانه قد أعد ثواباً وجزاءاً، وأنه يَعِد وعداً قاطعاً، ويوعد وعيداً جازماً..

فإخلاف الوعد لا يمكن أن يدنو إلى جلاله المقدّس، لأنه ذلّة وتذلل. وأما إخلاف الوعيد فهو ناشئ من العفو أو العجز. والحال أن الكفر جناية مطلقة [31] لا يستحق العفو والمغفرة. أما القدير المطلق فهو قدوس منزّه عن العجز، وأما المخبرون والشهود فهم متفقون اتفاقاً كاملاً على أساس هذه المسألة رغم اختلاف مسالكهم ومناهجهم ومشاربهم. فهم من حيث الكثرة بلغوا درجة التواتر، ومن حيث النوعية بلغوا قوة الإجماع، ومن حيث المنزلة فهم نجوم البشرية وهداتها وأعزة القوم وقرة عيون الطوائف. ومن حيث الأهمية فهم في هذه المسألة "أهل اختصاص وأهل إثبات". ومن المعلوم أن حكم اثنين من أهل الاختصاص في علم أو صنعة يرجّح على آلاف من غيرهم، وفي الأخبار والرواية يرجح قول اثنين من المثبتين على آلاف من النافين المنكرين، كما في إثبات رؤية هلال رمضان، حيث يرجّح شاهدان مثبتان، بينما يضرب بكلام آلاف من النافين عرض الحائط.

والخلاصة: لا خبر اصدق من هذا في العالم، ولا قضية أصوب منها، ولا حقيقة اظهر منها ولا أوضح.

فالدنيا إذن مزرعة بلا شك، والمحشر بيدر، والجنة والنار مخزنان.

الحقيقة العاشرة
باب الحكمة والعناية والرحمة والعدالة
وهو تجلي اسم "الحكيم والكريم والعادل والرَّحيم"

---

31 نعم إن الكفر إهانة وتحقير للكائنات جميعاً، حيث يتهمها بالعبثية وانتفاء النفع. وهو تزييف تجاه أسماء الله الحسنى، لأنه ينكر تجلي تلك الأسماء على مرايا الموجودات. وهو تكذيب للمخلوقات جميعاً حيث يردّ شهادة الموجودات على الوحدانية. لذا فانه يفسد قوى الإنسان واستعداداته إلى درجة يسلب منه القدرة على تقبل الخير والصلاح. فالكفر إذن ظلم عظيم جداً، إذ هو تجاوز لحقوق جميع المخلوقات، ولجميع الأسماء الحسنى، لذا فحفاظاً على هذه الحقوق، ولعدم تمكن نفس الكافر من قبول الخير، اقتضى حرمانه من العفو. والآية الكريمة: **(إن الشِركَ لظُلمٌ عظيمٌ)** تفيد هذا المعنى. ــ المؤلف.

أمن الممكن لمالك الملك ذي الجلال الذي أظهر في دار ضيافة الدنيا الفانية هـــذه، وفي ميدان الامتحان الزائل هذا، وفي معرض الأرض المتبدل هذا، هذا القدر من آثـــار الحكمـــة الباهرة، وهذا المدى من آثار العناية الظاهرة، وهذه الدرجة من آثار العدالة القاهرة، وهـــذا الحد من آثار الرحمة الواسعة! ثم لا ينشئ في عالم ملكه وملكوته مساكن دائمـــة، وســـكنة خالدين، ومقامات باقية، ومخلوقات مقيمين. فتذهب هباءاً منثوراً جميع الحقائق الظاهرة لهذه الحكمة، ولهذه العناية، ولهذه العدالة، ولهذه الرحمة؟.

وهل يعقل لحكيم ذي جلال اختار هذا الإنسان من بين المخلوقات، وجعله مخاطباً كلياً له، ومرآة جامعة لأسمائه الحسنى، ومقدّراً لما في خزائن رحمته من ينابيع، ومتذوقاً لها ومتعرفاً إليها، والذي عرّف سبحانه ذاته الجليلة له بجميع أسمائه الحسنى، فأحبّه وحبّبه إليـــه.. أفمـــن المعقول بعد كل هذا أن لا يُرسل ذلك "الحكيم" جل وعلا هذا الإنسان المسكين إلى مملكتـــه الخالدة تلك؟ ولا يسعده في تلك الدار السعيدة بعد أن دعاه إليها؟؟

أم هل يعقل أن يحمّل كل موجود وظائف جمّة – ولو كان بذرة – بثقـــل الشـــجرة، ويركّب عليه حِكَماً بعدد أزهارها، ويقلّده مصالح بعدد ثمارها، ثم يجعل غاية وجـــود تلـــك الوظائف والحكم والمصالح جميعها مجرّد ذلك الجزء الضئيل المتوجه إلى الدنيا. أي يجعل غايـــة الوجود هي البقاء في الدنيا فقط، الذي لا أهمية له حتى بمثقال حبة من خردل؟ ولا يجعل تلك الوظائف والحِكَم والمصالح بذوراً لعالم المعنى، ولا مزرعة لعالم الآخرة لتثمر غاياتها الحقيقيـــة اللائقة بها.

وهل يعقل أن تذهب جميع هذه المهرجانات الرائعة والاحتفالات العظيمة هباءً بلا غاية، وسدى بلا معنى وعبثاً بلا حكمة؟!

أم هل يعقل أن لا يوجّه كلها إلى عالم المعنى وعالم الآخرة لتظهر غاياتُهـــا الأصـــيلة وأثمارُها الجديرةُ بها؟!

نعم! أمن الممكن أن يظهر كل ذلك خلافاً للحقيقة، خلافاً لأوصافه المقدّسة وأسمائـــه الحسنى: "الحكيم، الكريم، العادل، الرحيم" كلا.. ثم كلا.

أم هل من الممكن أن يكذِّب سبحانه حقائقَ جميع الكائنات الدالة على أوصافه المقدّسة من حكمةٍ وعدلٍ وكرمٍ ورحمة، ويردّ شهادة الموجودات جميعاً، ويبطل دلائل المصـــنوعات جميعاً! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهل يقبل العقل أن يعطي للإنسان أجرة دنيوية زهيدة، زهادة شعرة واحدة، مع انـــه أناط به وبحواسه مهاماً ووظائف هي بعدد شعرات رأسه؟ فهل يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل الذي لا معنى له ولا مغزى خلافاً لعدالته الحقة، ومنافاة لحكمته الحقيقة؟ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

أوَ من الممكن أن يقلّد سبحانه كل ذي حياة، بل كل عضو فيه — كاللسان مثلاً — بل كل مصنوع، من الحِكم والمصالح بعدد أثمار كل شجرة مُظهراً حكمته المطلقـــة ثم لا يمـــنح الإنسان البقاء والخلود، ولا يهب له السعادة الأبدية التي هي أعظم الحِكَم، وأهم المصـــالح، وألزم النتائج؟ فيترك البقاء واللقاء والسعادة الأبدية التي جعلت الحكمة حكمة، والنعمة نعمةً، والرحمة رحمةً، بل هي مصدر جميع الحكم والمصالح والنعم والرحمة ومنبعها. فهل يمكـــن أن يتركها ويهملها ويسقط تلك الأمور جميعها إلى هاوية العبث المطلق؟ ويضع نفسه - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - بمنـــزلة من يبني قصراً عظيماً يضع في كل حجر فيه آلاف النقـــوش والزخارف، وفي كل زاوية فيه آلاف الزينة والتجميل، وفي كل غرفة فيه آلاف الآلات الثمينة والحاجيات الضرورية.. ثم لا يبني له سقفاً ليحفظه؟! فيتركه ويترك كل شيء للبلى والفساد! حاشَ لله.. إن الخير يصدر من الخيِّر المطلق، وان الجمال يصدر من الجميل المطلق، فلن يصدر من الحكيم المطلق العبث البتة.

نعم! إن كل من يمتطي التاريخ ويذهب خيالاً إلى جهة الماضي سيرى انه قد ماتت بعدد السنين منازلُ ومعارضُ وميادين وعوالمُ شبيهة بمنـــزل الدنيا وميدان الابتلاء ومعرض الأشياء في وقتنا الحاضر. فعلى الرغم مما يُرى من اختلاف بعضها عن البعض الآخر صورةً ونوعـــاً، فإنها تتشابه في الانتظام والإبداع وإبراز قدرة الصانع وحكمته.

وسيرى كذلك - ما لم يفقد بصيرته - أن في تلك المنازل المتبدلة، وفي تلك الميـــادين الزائلة، وفي تلك المعارض الفانية.. من الأنظمة الباهرة الساطعة للحكمة، والإشارات الجليّـــة

الظاهرة للعناية، والأمارات القاهرة المهيمنة للعدالة، والثمار الواسعة للرحمة ما سيدرك يقيناً أنه:

لا يمكن أن تكون حكمةٌ اكملَ من تلك الحكمة المشهودة، ولا يمكن أن تكون عناية أروع من تلك العناية الظاهرة الآثار، ولا يمكن أن تكون عدالة أجلّ من تلك العدالة الواضحة أماراتها. ولا يمكن أن تكون رحمة اشمل من تلك الرحمة الظاهرة الثمار.

وإذا أفتُرض المحال، وهو أن السلطان السرمدي - الذي يدير هذه الأمور، ويغيّر هؤلاء الضيوف والمستضافات باستمرار — ليست له منازل دائمة ولا أماكن راقية سامية ولا مقامات ثابتة ولا مساكن باقية ولا رعايا خالدون، ولا عبادٌ سعداء في مملكته الخالدة. يلزم عندئذٍ إنكار الحقائق الأربعة: "الحكمة والعدالة والعناية والرحمة" التي هي عناصر قوية شاملة كالنور، والهواء والماء والتراب، وإنكار وجودها الظاهر ظهور تلك العناصر. لأنه من المعلوم أن هذه الدنيا وما فيها لا تفي لظهور تلك الحقائق، فلو لم يكن هناك في مكان آخر ما هو أهل لها، فيجب إنكار هذه الحكمة الموجودة في كل شيء أمامنا - بجنون من ينكر الشمس الذي يملأ نورها النهار - وإنكار هذه العناية التي نشاهدها دائماً في أنفسنا وفي أغلب الأشياء. وإنكار هذه العدالة الجلية الظاهرة الأمارات [32]. وإنكار هذه الرحمة التي نراها في كل مكان. وكذلك يلزم أن يعتبر صاحب ما نراه من الإجراءات الحكيمة والأفعال الكريمة، والآلاء الرحيمة (حاشَ لله ثم حاشَ لله) لاهياً لاعباً ظالماً غدّاراً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وما هذا إلاّ انقلاب الحقائق بأضدادها، وهو منتهى المحال، حتى السوفسطائيون الذين أنكروا وجود أنفسهم لم يدنوا إلى تصوّر هذا المحال بسهولة.

---

32 نعم، إن العدالة شقان أحدهما إيجابي، والآخر سلبي.

أما الإيجابي فهو: إعطاء كل ذي حق حقه. فهذا القسم من العدالة محيط وشامل لكل ما في هذه الدنيا لدرجة البداهة. فكما أثبتنا في "الحقيقة الثالثة" بان ما يطلبه كل شيء وما هو ضروري لوجوده وإدامة حياته التي يطلبها بلسان استعداده وبلغة حاجاته الفطرية وبلسان اضطراره من الفاطر ذي الجلال يأتيه بميزان خاص دقيق، وبمعايير ومقاييس معينة، أي أن هذا القسم من العدالة ظاهر ظهور الوجود والحياة.

أما القسم السلبي فهو: تأديب غير المحقين، أي إحقاق الحق بإنزال الجزاء والعذاب عليهم. فهذا القسم وان كان لا يظهر بجلاء في هذه الدنيا إلاّ أن هنالك إشارات وأمارات تدل على هذه الحقيقة. خذ مثلاً سوطَ العذاب وصفعات التأديب التي نزلت بقوم عاد وثمود بل بالأقوام المتمردة في عصرنا هذا، مما يظهر للحدس القطعي هيمنة العدالة السامية وسيادتها. ـــ المؤلف.

والخلاصة: أنه ليست هناك علاقة أو مناسبة بين ما يُشاهَد في شؤون العالم من تجمعات واسعة للحياة، وافتراقات سريعة للموت، وتكتلات ضخمة، وتشتتات سريعة، واحتفالات هائلة، وتجليات رائعة.. وبين ما هو معلوم لدينا من نتائج جزئية، وغايات تافهة مؤقتة، وفترة قصيرة تعود إلى الدنيا الفانية. لذا فالربط بينهما بعلاقة، أو إيجاد مناسبة، لا ينسجم مع عقل ولا يوافق مع حكمة، إذ يشبه ذلك ربط حِكَم هائلة وغايات عظيمة كالجبل بحصاة صغيرة جداً، وربط غاية تافهة جزئية مؤقتة – بحجم الحصاة – بجبل عظيم!!.

أي إنّ عدم وجود هذه العلاقة بين هذه الموجودات وشؤونها وبين غاياتها التي تعود إلى الدنيا، يشهد شهادة قاطعة، ويدل دلالة واضحة على أن هذه الموجودات متوجهة إلى عالم المعنى، حيث تعطي ثمارها اللطيفة اللائقة هناك، وان أنظارها متطلعة إلى الأسماء الحسنى، وان غاياتها ترنو إلى ذلك العالم. ومع أن بذورها مخبوءة تحت تراب الدنيا إلاّ أن سنابلها تبرز في عالم المثال. فالإنسان – حسب استعداده – يَزرع ويُزرع هنا ويحصد هناك في الآخرة.

نعم! لو نظرت إلى وجوه الموجودات المتوجهة إلى الأسماء الحسنى والى عالم الآخرة لرأيت:

أن لكل بذرة – وهي معجزة القدرة الإلهية – غايات كبيرة كبر الشجرة.

وان لكل زهرة – وهي كلمة الحكمة – [33]معاني جمّة بمقدار أزهار الشجر.

وان لكل ثمرة – وهي معجزة الصنعة وقصيدة الرحمة – من الحِكَم ما في الشجرة نفسها. أما من جهة كونها أرزاقاً لنا فهي حكمة واحدة من بين ألوف الحكم، حيث إنها تنهي مهامها، وتوفي مغزاها فتموت وتدفن في معداتنا.

فما دامت هذه الأشياء الفانية تؤتي ثمارها في غير هذا المكان، وتودع هناك صوراً دائمة، وتعبّر عن معانٍ خالدة، وتؤتي أذكارها وتسابيحها الخالدة السرمدية هناك. فالإنسان

---

33 فان قلت: لِمَ تورد اغلب الأمثلة من الزهرة والبذرة والثمرة؟
الجواب: لأنها أَبدع معجزات القدرة الإلهية وأعجبها وألطفها. ولمّا عجز أهل الضلالة والطبيعة والفلسفة المادية من قراءة ما خَطه قلم القدر والقدرة فيها من الكتابة الدقيقة، تاهوا وغرقوا فيها، وسقطوا في مستنقع الطبيعة الآسن.ـــ المؤلف.

إذن يصبح إنساناً حقاً مادام يتأمل وينظر إلى تلك الوجوه المتوجهة نحو الخلود. وعنده يجد سبيلاً من الفاني إلى الباقي.

إذن هناك قصد آخر ضمن هذه الموجودات المحتشدة والمتفرقة التي تسيل في خضم الحياة والموت، حيث إن أحوالها تشبه – ولا مؤاخذة في الأمثال – أحوالاً وأوضاعاً تُرتّب للتمثيل، فتنفق نفقات باهظة لتهيئة اجتماعات وافتراقات قصيرة، لأجل التقاط الصور وتركيبها لعرضها على الشاشة عرضاً دائماً.

وهكذا فان إحدى غايات قضاء الحياة – الشخصية والاجتماعية – في فترة قصيرة في هذه الدنيا هي أخذ الصور وتركيبها، وحفظ نتائج الأعمال، ليحاسب أمام الجمع الأكبر، وليعرض أمام العرض الأعظم، وليهيأ استعداده ومواهبه للسعادة العظمى. فالحديث الشريف: (الدنيا مزرعة الآخرة)[34] يعبّر عن هذه الحقيقة.

وحيث إن الدنيا موجودة فعلاً، وفيها الآثار الظاهرة للحكمة والعناية والرحمة والعدالة، فالآخرة موجودة حتماً، وثابتة بقطعية ثبوت هذه الدنيا.

ولما كان كل شيء في الدنيا يتطلع من جهة إلى ذلك العالم، فالسير إذن والرحلة إلى هناك، لذا فان إنكار الآخرة هو إنكار للدنيا وما فيها.

وكما أن الأجل والقبر ينتظران الإنسان، فإن الجنة والنار كذلك تنتظرانه وتترصدانه.

الحقيقة الحادية عشرة

باب الإنسانية

وهو تجلي اسم "الحق"

أمن الممكن للحق سبحانه وهو المعبود الحق أن يخلق هذا الإنسان ليكون اكرمَ عبدٍ لربوبيته المطلقة، واكثر أهمية لربوبيته العامة للعالمين، واكثر المخاطبين إدراكاً وفهماً لأوامره السبحانية، وفي احسن تقويمٍ حتى اصبح مرآة جامعة لأسمائه الحسنى ولتجلي الاسم الأعظم

---

34 (الدنيا مزرعة الآخرة) قال في المقاصد: لم اقف عليه مع إيراد الغزالي له في الإحياء، وقال القاري قلتُ: معناه صحيح مقتبس من قوله تعالى **(من كان يريدُ حرث الآخرة نزد له في حرثه)**.. عن كشف الخفاء للعجلوني1320 ــ المترجم.

ولتجلي المرتبة العظمى لكل اسم من هذه الأسماء الحسنى. وليكون أجملَ معجـــزات القـــدرة الإلهية، وأغناها أجهزةً وموازينَ لمعرفة وتقدير ما في خزائن الرحمة الإلهية من كنوز، وأكثـــر المخلوقات فاقة وحاجة إلى نعمه التي لا تحصى، وأكثرها تألماً من الفناء، وأزيدها شـــوقاً إلى البقاء، وأشدها لطافة ورقة وفقراً وحاجة. مع انه من جهة الحياة الدنيا أكثرها تعاسة، ومن جهة الاستعداد الفطري أسماها صورة.. فهل من الممكن أن يخلق المعبود الحق الإنسان بهـــذه الماهية ثم لا يبعثه إلى ما هو مؤهّل له ومشتاق إليه من دار الخلود؟! فيمحق الحقيقة الإنسانية ويعمل ما هو منافٍ كلياً لأحقيته سبحانه؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً..

وهل يعقل للحاكم بالحق والرحيم المطلق الذي وهب لهذا الإنسان اســتعداداً فطريـــاً سامياً يمكّنه من حمل الأمانة الكبرى التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنـــها، أي خَلقَه ليعرف صفات خالقه سبحانه الشاملة المحيطة وشؤونه الكلية وتجلياته المطلقة، بموازينـــه الجزئية وبمهاراته الضئيلة.. والذي بَرأه بشكل ألطف المخلوقات وأعجزها وأضعفها. فسخر له جميعَها من نبات وحيوان، حتى نصبه مشرفاً ومنظماً ومتدخلاً في أنماط تسبيحاتها وعباداتها.. والذي جعله نموذجاً - بمقاييس مصغّرة - للإجراءات الإلهيـــة في الكـــون، ودلاّلاً لإعـــلان الربوبية المنـــزهة — فعلاً وقولاً — على الكائنات، حتى منحه منـــزلة اكرم مـــن منـــــزلة الملائكة، رافعاً إياه إلى مرتبة الخلافة.. فهل يمكن أن يهب سبحانه للإنسان كل هذه الوظائف ثم لا يَهَبَ له غاياتها ونتائجها وثمارها وهي السعادة الأبدية؟ فيرميه إلى درك الذلّة والمســـكنة والمصيبة والأسقام، ويجعله أتعس مخلوقاته؟ ويجعل هذا العقل الذي هو هدية مباركة نورانيـــة لحكمته سبحانه ووسيلة لمعرفة السعادة آلةَ تعذيبٍ

وشؤم، خلافاً لحكمته المطلقة، ومنافاة لرحمته المطلقة؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الخلاصة: كما أننا رأينا في الحكاية أن في هوية الضابط ودفتر خدمته رتبته، ووظيفتـــه ومرتّبه وأفعاله وعتاده، واتضح لدينا أن ذلك الضابط لا يعمل لأجل هذا الميدان المؤقت، بل لما سيرحل إليه من تكريم وإنعام في مملكة مستقرة دائمة.

كذلك فان ما في هوية قلب الإنسان من لطائف، وما في دفتر عقله من حواس، وما في فطرته من أجهزة وعتاد متوجهة جميعاً ومعاً إلى السعادة الأبدية،بل ما مُنحت له إلاّ لأجـــل تلك السعادة الأبدية. وهذا ما يتفق عليه أهل التحقيق والكشف.

فعلى سبيل المثال:

لو قيل لقدرة التخيل في الإنسان وهي إحدى وسائل العقل وأحد مصوّريه: ستُمنح لكِ سلطنةَ الدنيا وزينتها مع عمر يزيد على مليون سنة ولكن مصيرك إلى الفناء والعدم حتمـــاً. نراها تتأوه وتتحسر. إن لم يتدخل الوهم وهوى النفس.

أي أن أعظم فانٍ – وهو الدنيا وما فيها – لا يمكنه أن يُشبع اصغر آلة في الإنسان وهي الخيال!

يظهر من هذا جلياً أن هذا الإنسان الذي له هذا الاستعداد الفطري والذي له آمالٌ تمتد إلى الأبد، وأفكارٌ تحيط بالكون، ورغباتٌ تنتشر في ثنايا أنواع السعادة الأبدية. هذا الإنسان إنما خلق للأبد وسيرحل إليه حتماً. فليست هذه الدنيا إلاّ مستضافاً مؤقتاً، وصـــالة انتظـــار الآخرة.

الحقيقة الثانية عشرة

باب الرسالة والتنـــزيل

وهو تجلي "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم"

أمن الممكن لمن أيّد كلامَه جميعُ الأولياء الصالحين المعزّزين بكشـــفياتهم وكرامـــاتهم، وشهد بصدقه جميعُ العلماء والأصفياء المستندين إلى تدقيقاتهم وتحقيقاتهم.. ذلكم هو الرسول الكريم ρ الذي فتح بما أوتي من قوة طريقَ الآخرة وباب الجنة، مصَّدقاً بألفٍ من معجزاته الثابتة، وبآلاف من آيات القرآن الكريم الثابت إعجازُه بأربعين وجهاً. فهل من الممكـــن أن تسد أوهامٌ هي أوهى من جناح ذبابة ما فتحه هذا الرسول الكريم ρ من طريـــق الآخـــرة وباب الجنة؟!

❋ ❋ ❋

وهكذا لقد فُهم من الحقائق السابقة أن مسألة الحشر حقيقة راسخة قوية بحيث لا يمكن أن تزحزحها أيّة قوة مهما كانت حتى لو استطاعت أن تزيح الكرة الأرضية وتحطمها، ذلك لان الله سبحانه وتعالى يقرّ تلك الحقيقة بمقتضى أسمائه الحسنى جميعها وصفاته الجليلة كلــها. وان رسوله الكريم ρ يصدّقها بمعجزاته وبراهينه كلها. والقرآن الكريم يثبتها بجميع آياتــه وحقائقه. والكون يشهد لها بجميع آياته التكوينية وشؤونه الحكيمة.

فهل من المكن يا ترى أن يتفق مع واجب الوجود سبحانه وتعالى جميعُ الموجـــودات – عدا الكفار – في حقيقة الحشر، ثم تأتي شبهة شيطانية واهية ضعيفة لتـــزيح هـــذه الحقيقـــة الراسخة الشامخة وتزعزعها؟! كلاّ... ثم كلا...

ولا تحسبنّ أن دلائل الحشر منحصرة في ما بحثناه من الحقائق الإثنتي عشرة، بل كما أن القرآن الكريم وحدَه يعلّمنا تلك الحقائق، فانه يشير كذلك بآلاف من الأوجـــه والأمـــارات القوية إلى أن خالقنا سينقلنا من دار الفناء إلى دار البقاء.

ولا تحسبنّ كذلك أن دلائل الحشر منحصرة فيما بحثناه من مقتضيات الأسماء الحســـنى "الحكيم، الكريم، الرحيم، العادل، الحفيظ" بل إن جميعَ الأسماء الحسنى المتجلية في تدبير الكون تقتضي الآخرة وتستلزمها.

ولا تحسب أيضاً أن آيات الكون الدّالة على الحشر هي تلك التي ذكرناها فحسب، بل هناك آفاق وأوجه في اكثر الموجودات تفتح وتتوجه يميناً وشمالاً، فمثلما يدل ويشهد وجـــه على الصانع سبحانه وتعالى يشير وجه آخر إلى الحشر ويومئ إليه.

فمثلاً: إن حسن الصنعة المتقنة في خلق الإنسان في احسن تقويم، مثلما هو إشـــارة إلى الصانع سبحانه، فإن ما فيه من قابليات وقوى جامعة، التي تزول في مدّة يسيرة، تشـــير إلى الحشر. حتى إذا ما لوحظ وجهٌ واحدٌ فقط بنظرتين، فانه يدل على الصانع والحشر معاً.

فمثلاً: إذا لوحظت ماهيةُ ما هو ظاهرٌ في اغلب الأشياء من تنظيم الحكمة وتزيين العناية وتقدير العدالة ولطافة الرحمة، تبين انه صادرة من يد القدرة لصانع حكيم، كريم، عـــادل، رحيم. كذلك إذا لوحظت عظمة هذه الصفات الجليلة وقوتها وطلاقتها، مع قصر حياة هذه الموجودات في هذه الدنيا وزهادتها فان الآخرة تتبين من خلالها.

أي أن كل شيء يقرأ ويستقرئ بلسان الحال قائلاً:

آمَنْتُ بِالله وَبِالْيَوْمِ الآخر

الخاتمة

إن الحقائق الإثنتي عشرة السابقة يؤيد بعضها البعض الآخر، وتكمل إحداها الأخرى وتسندها وتدعمها، فتتبين النتيجة من مجموعها واتحادها معاً. فأي وهم يمكنه أن ينفذ من هذه الأسوار الإثنى عشر الحديد، بل الألماس المنيعة ليزعزع الإيمان بالحشر المحصّن بالحصن الحصين؟

فالآية الكريمة (مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إلاّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) (لقمان:28) تفيد أن خلق جميع البشر وحشرهم سهل ويسير على القدرة الإلهية، كخلق إنسان واحد وحشره. نعم، وهو هكذا حيث فصلت هذه الحقيقة في بحث "الحشر" من رسالة "نقطة من نور معرفة الله". إلاّ أننا سنشير هنا إلى خلاصتها مع ذكر الأمثلة، ومن أراد التفصيل فليراجع تلك الرسالة.

فمثلاً: ولله المثل الأعلى- ولا جدال في الأمثال – إن الشمس مثلما تُرسل – ولو إرادياً – ضوءَها بسهولة تامة إلى ذرة واحدة، فإنها ترسله بالسهولة نفسها إلى جميع المواد الشفافة التي لا حصر لها، وذلك بسر "النورانية".

وان أخذ بؤبؤ ذرّة شفافة واحدة لصورة الشمس مساوٍ لأخذ سطح البحر الواسع لها، وذلك بسر "الشفافية".

وان الطفل مثلما يمكنه أن يحرك دُمَيَته الشبيهة بالسفينة، يمكنه أن يحرّك كذلك السفينة الحقيقية، وذلك بسرّ "الانتظام" الذي فيها.

وأن القائد الذي يسيّر الجندي الواحد بأمر "سِر"، يسوق الجيش بأكمله بالكلمة نفسها، وذلك بسرّ "الامتثال والطاعة".

ولو افترضنا ميزاناً حساساً جداً في الفضاء، بحيث يتحسس وزن جوزة صغيرة في الوقت الذي يمكن أن توضع في كفتيه شمسان. ووجدت في الكفتين جوزتان أو شمسان، فان الجهد المبذول لرفع إحدى الكفتين إلى الأعلى والأخرى إلى الأسفل هو الجهد نفسه، وذلك بسر "الموازنة".

فما دام اكبر شيء يتساوى مع أصغره، وما لا يعدّ من الأشياء يظهر كالشيء الواحد في هذه المخلوقات والممكنات الاعتيادية – وهي ناقصة فانية – لما فيها من (النورانية

والشفافية والانتظام والامتثال والموازنة) فلابدّ أنه يتساوى أمام القدير المطلق القليل والكثير، والصغير والكبير، وحشرُ فرد واحد وجميع الناس بصيحة واحدة، وذلك بالتجليات "النورانية" المطلقة لقدرته الذاتية المطلقة وهي في منتهى الكمال، و "الشفافية" و "النورانية" في ملكوتية الأشياء، و "انتظام" الحكمة والقدرة، و "امتثال" الأشياء وطاعتها لأوامره التكوينية امتثــالاً كاملاً، وبسر "موازنة" الإمكان الذي هو تساوي الممكنات في الوجود والعدم.

ثم إن مراتب القوة والضعف لشيء ما عبارة عن تداخل ضده فيه، فدرجات الحرارة – مثلاً – ناتجة من تداخل البرودة، ومراتب الجمال متولدة من تداخل القبح، وطبقات الضــوء من دخول الظلام. إلاّ أنّ الشيء إن كان ذاتياً غير عرضي، فلا يمكن لضده أن يدخل فيــه، وإلاّ لزم اجتماع الضدين وهو محال. أي أنه لا مراتب فيما هو ذاتي وأصيل. فما دامت قدرة القدير المطلق ذاتية، وليست عرضية كالممكنات، وهي في كمال المطلق، فمن المحــال إذن أن يطرأ عليها العجزُ الذي هو ضده. أي أن خلق الربيع بالنسبة لذي الجلال هيّن كخلق زهرة واحدة، وبعث الناس جميعاً سهل ويسير عليه كبعث فرد منهم، بخلاف ما إذا أُسند الأمرُ إلى الأسباب المادية، فعندئذٍ يكون خلقُ زهرةٍ واحدة صعباً كخلق الربيع.

* * *

وكل ما تقدّم من الأمثلة والإيضاحات – منذ البداية – لصور الحشر وحقائقه ما هي إلاّ من فيض القرآن الكريم، وما هي إلاّ لتهيئة النفس للتسليم والقلب للقبــول؛ إذ القــول الفصل للقرآن الكريم والكلام كلامه، والقول قوله، فلنستمع إليه.. فلله الحجَّة البالغة...

(فانظر إلى آثار رَحمتِ الله كيف يُحيي الأرض بعدَ موتِها إنّ ذلك لمحيي الموتى وهــو على كل شيء قدير) (الروم: 50)

(قال مَن يحيي العظام وهي رميم_ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكــل خلــقٍ عليم) (يس:78،79)

(يا أيها الناسُ اتقوا ربكمْ إنّ زلزلة الساعَة شيءٌ عظيمٌ_ يوم تَرونَهــا تَــذهَل كــلّ مرضعةٍ عما أرضعت وتــضعُ كلّ ذات حملٍ حَملها وترى الناسَ سُكارى وما هم بِسُكارى ولكنّ عذاب الله شديدٌ) (الحج: 1 – 2)

(اللهُ لا اِلهَ إلاّ هو ليجمَعَنّكُمْ إلى يوم القيامَةِ لا ريبَ فيهِ ومن اصدَقُ من الله حَـــديثاً) (النساء:87)

(إنّ الأبرار لفي نعيمـ وانّ الفجّارَ لفي جحيم) (الانفطار: 13 - 14)

(إذا زُلزلت الأرض زلزالها_ وأخرجَتِ الأرض أثقالها_ وقال الإنسان ما لها_ يومئـــذٍ تحدِّث أخبارَها_ بأن ربَّك أوحى لها_ يومئذٍ يصدُرُ النّاسُ أشتاتاً ليروا أعمالهم_ فمنْ يَعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يَرَه_ ومن يعمل مثقال ذرّةٍ شرّاً يَرَهُ) (سورة الزلزال)

(القارعة_ ما القارعة_ وما أدراك ما القارعة_ يومَ يكونُ الناس كالفراش المبثــوث_ وتكون الجبال كالعِهنِ المنفوش_ فأما مَن ثقلت موازينُه_ فهو في عيشةٍ راضيةٍ_ وأمــا مَــنْ خفَّت موازينُه_ فأمه هاوية_ وما أدراك ماهِيَهْ_ نارٌ حامية) (سورة القارعة)

(ولله غيبُ السمواتِ والأرض وما أمرُ الساعة إلاّ كلمحِ البصر أو هو أقــرب إنّ الله على كلٌ شيءٍ قدير) (النحل:77)

* * *

ولنستمع إلى أمثال هذه الآيات البينات. ولنقل آمنا وصدقنا:

آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه مــن الله تعــالى، والبعث بعد الموت حق، وان الجنة حق، والنار حق، وان الشفاعة حق، وان منكراً ونكــيراً حق، وأنَّ الله يبعث من في القبور.

اشهد أن لا اِله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

اللّهم صلّ على ألطف وأشرف وأكمل وأجمل ثمرات طوبى رحمتك الذي أرسلته رحمةً للعالمين ووسيلة لوصولنا إلى أزين واحسن وأجنى وأعلى ثمرات تلك الطوبى المتدلية علــى دار الآخرة أي الجنّة.

اللّهم أجرنا وأجر والدينا من النار وأدخلنا وأدخل والدينا الجنّة مع الأبرار بجاه نبيّــك المختار... آمين.

* * *

فيا أيها الأخ القارئ لهذه الرسالة بإنصاف! لا تقل لِمَ لا أحيط فهماً بهــذه الكلمــة العاشرة.. لا تَغتَم ولا تتضايق من عدم الإحاطة بها، فان فلاسفة دهاة - أمثال ابن سينا - قد قالوا: "الحشر ليس على مقاييس عقلية" أي :نؤمن به فحسب، إذ لا يمكن ســلوك ســبيله، وسبر غوره بالعقل.. وكذلك اتفق علماء الإسلام بأن قضية الحشر قضية نقلية، أي أن أدلتها نقلية، ولا يمكن الوصول إليها عقلاً. لذا فإن سبيلاً غائراً، وطريقاً عالياً ســامياً في الوقــت نفسه، لا يمكن أن يكون بسهولة طريق عام يمكن أن يسلكه كل سالك.

ولكن بفيض القرآن الكريم، وبرحمة الخالق الرحيم قد مُنَّ علينا السير في هذا الطريــق الرفيع العميق، في هذا العصر الذي تحطم فيه التقليد وفسد الإذعان والتسليم. فما علينــا إلاّ تقديم آلاف الشكر إلى البارئ عز وجل على إحسانه العميم وفضله العظيم، إذ إن هذا القدر يكفي لإنقاذ إيماننا وسلامته. فلابد أن نرضى بمقدار فهمنا ونزيده بتكرار المطالعة.

هذا وان أحد أسرار عدم الوصول إلى مسألة الحشر عقلاً هو أن الحشر الأعظم هو من تجلي "الاسم الأعظم"، لذا فان رؤية وإراءة الأفعال العظيمة الصادرة من تجلي الاسم الأعظم، ومن تجلي المرتبة العظمى لكل اسم من الأسماء الحسنى هي التي تجعل إثبات الحشر الأعظــم سهلاً هيناً وقاطعاً كإثبات الربيع وثبوته، والذي يؤدي إلى الإذعان القطعي والإيمان الحقيقي.

وعلى هذه الصورة توضّح الحشر ووُضِّح في هذه "الكلمة العاشرة" بفــيض القــرآن الكريم. وإلاّ لو اعتمد العقل على مقاييسه الكليلة لظلّ عاجزاً مضطراً إلى التقليد.

ذيل رسالة الحشر

القطعة الأولى

من لاحقة الكلمة العاشرة وذيلها المهم

بسم الله الرحمن الرحيم

(فَسُبْحَانَ اللهِ حينَ تُمْسُونَ وَحينَ تُصْبحُونَ_ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّموات وَالأرض وَعَشيّاً وَحينَ تُظْهِرُونَ_ يُخرِجُ الحَىَّ مِنَ الْمَيِّت وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتهَا وَكَذلكَ تُخْرجونَ _ وَمِنْ آيَاته اَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَاب ثُمَّ اذَآ اَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ_ وَمِنْ آيَاتِه اَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ اَنْفُسكُمْ اَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إليها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إنَّ في ذلكَ لآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ _ وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّموَات وَالأرض وَاْخْتِلافُ اَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَانِكُمْ انَّ فِى ذلكَ لايَات لِلْعَالمينَ_ وَمِنْ آيَاته مَنَامُكُمْ بِالَّيْلِ والنَّهَارِ وَاْبتغَآؤُكُمْ مِنْ فَضْلِه إنَّ فِى ذلكَ لآيات لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ_ وَمِنْ آيَاته يُريكُمُ اْلبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعَاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمآءِ مَآءً فَيُحْيِى به الأرضَ بَعْدَ مَوْتهَا إنَّ فِي ذلكَ لآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ_ وَمِنْ آيَاته اَنْ تَقُومَ السَّمآءُ وَالأرض بِاَمْرِه ثُمَّ إذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأرض إذا اَنْتُمْ تَخرُجُونَ_ وَلَهُ مَنْ فِى السَّموات وَالأرض كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ_ وَهُوَ الَّذى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ اَهْوَنُ عَلَيْه وَلَهُ الْمَثَلُ الاَعْلى فِى السَّموات وَالأرض وَهُوَ الْعَزيزُ الحَكيمُ) (الروم17 - 27)

سنُبيِّن في هذا "الشعاع التاسع" برهاناً قوياً، وحجةً كبرى، لما تبينه هذه الآيات الكريمة من محور الإيمان وقطبه، وهو الحشر، ومن البراهين السامية المقدسة الدالة عليه.

وانه لعناية ربانية لطيفة أن كتب "سعيد القديم"[35] قبل ثلاثين سنة في ختام مؤلّفه "محاكمات" الذي كتبه مقدمة لتفسير "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" ما يأتي:

المقصد الثاني: سوف يفسر آيتين تبيّنان الحشر وتشيران إليه.

---

35 "سعيد القديم" هو اللقب الذي يطلقه النورسي على نفسه قبل قيامه بتأليف رسائل النور (1926) وقبل أن يأخذ "سعيد الجديد" على عاتقه مهمة إنقاذ الإيمان، ويستلهم من فيض القرآن الكريم رسائل النور. - المترجم.

ولكنه ابتدأ بـــ: نخو[36] بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيم. وتوقف، و لم تتح له الكتابة.

فألف شكر وشكر للخالق الكريم وبعدد دلائل الحشر وأماراته أن وفّقني لبيان ذلـــك التفسير بعد ثلاثين سنة. فأنعمَ سبحانه وتعالى عليّ بتفسير الآية الأولى:

(فَانْظُر إلى آثَارِ رَحْمَـــتِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا اِنَّ ذَلِكَ لَمُحيِي الْمَـــوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ) (الروم: 50)

وذلك بعد نحو عشر سنوات، فأصبحت "الكلمـــة العاشـــرة" و "الكلمـــة التاســـعة والعشرين" وهما حجتان ساطعتان قويتان أخرستا المنكرين الجاحدين..

وبعد حوالي عشر سنوات من بيان ذلك الحصن الحصين للحشر، أفاض عليّ ســـبحانه وتعالى وانعم بتفسير الآيات المتصدرة لهذا الشعاع، فكان هذه الرسالة.

فهذا "الشعاع التاسع" عبارة عن تسعة مقامات سامية مما أشارت إليها الآيات الكريمة مع مقدمة مهمة.

---

36 نخو: كلمة كردية باللهجة الكرمانجية الشمالية، تعني: فإذن. - المترجم.

المقدمة

هذه المقدمة نقطتان:سنذكر أولاً وباختصار نتيجة واحدة جامعة من بين النتائج الحياتية والفوائد الروحية لعقيدة الحشر، مبينين مدى ضرورة هذه العقيدة للحياة الإنسانية ولاسيما الاجتماعية.

ونورد كذلك حجة كلية واحدة – من بين الحجج العديدة لعقيدة الإيمان بالحشر – مبينين أيضاً مدى بداهتها ووضوحها حيث لا يداخلها ريب ولا شبهة.

النقطة الأولى

سنشير إلى أربعة أدلة على سبيل المثال وكنموذج قياسي من بين مئات الأدلة على أن عقيدة الآخرة هي أس الأساس لحياة الإنسان الاجتماعية والفردية، وأساس جميع كمالاته ومُثله وسعادته.

الدليل الأول:

إن الأطفال الذين يمثلون نصف البشرية، لا يمكنهم أن يتحمّلوا تلك الحالات التي تبدو مؤلمةً ومفجعة أمامَهم من حالات الموت والوفاة إلاّ بما يجدونه في أنفسهم وكيانهم الرقيق اللطيف من القوة المعنوية الناشئة من "الإيمان بالجنة". ذلك الإيمان الذي يفتح باب الأمل المشرق أمام طبائعهم الرقيقة التي لا تتمكن من المقاومة والصمود وتبكي لأدنى سبب. فيتمكنون به من العيش بهناء وفرح وسرور. فيحاور الطفل المؤمن بالجنة نفسه: أن أخي الصغير أو صديقي الحبيب الذي توفي، اصبح الآن طيراً من طيور الجنة، فهو إذن يسرح من الجنة حيث يشاء، ويعيش افضل واهنأ منّا. وإلاّ فلولا هذا الإيمان بالجنة لهدم الموتُ الذي يصيب أطفالاً أمثاله – وكذلك الكبار – تلك القوة المعنوية لهؤلاء الذين لا حيلة لهم ولا قوة، ولحطّم نفسياتهم، ولدمّر حياتهم ونغَصها فتبكي عندئذٍ جميع جوارحهم ولطائفهم من روح وقلب وعقل مع بكاء عيونهم. فإما أن تموت أحاسيسهم وتغلظ مشاعرهم أو يصبحوا كالحيوانات الضالة التعسة.

الدليل الثاني:

إن الشيوخ الذين هم نصف البشرية، إنما يتحملون ويصبرون وهم على شفير القبر بـــ "الإيمان بالآخرة". ولا يجدون الصبر والسلوان من قرب انطفاء شعلة حياتهم العزيزة علـــيهم، ولا من انغلاق باب دنياهم الحلوة الجميلة في وجوههم إلاّ في ذلك الإيمان. فهؤلاء الشـــيوخ الذين عادوا كالأطفال واصبحوا مرهفي الحس في أرواحهم وطبائعهم، إنما يقـــابلون ذلـــك اليأس القاتل الأليم الناشئ من الموت والزوال، ويصبرون عليه بالأمل في الحياة الآخـــرة. وإلاّ فلولا هذا الإيمان بالآخرة لشعر هؤلاء الآباء والأمهات – الذين هم اجدر بالشفقة والرأفـــة والذين هم في أشد الحاجة إلى الاطمئنان والسكينة والحياة الهادئة – ضراماً روحياً واضطراباً نفسياً وقلقاً قلبياً، ولضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، ولتحولت سجناً مظلماً رهيباً، ولانقلبت الحياة إلى عذاب أليم قاسٍ.

الدليل الثالث:

إن الشباب والمراهقين الذين يمثلون محور الحياة الاجتماعية لا يهدّئ فورة مشـــاعرهم، ولا يمنعهم من تجاوز الحدود إلى الظلم والتخريب، ولا يمنع طيش أنفسهم ونزواتها، ولا يؤمّن السير الأفضل في علاقاتهم الاجتماعية إلاّ الخوف من نار جهنم. فلولا هذا الخوف من عذاب جهنم لقلب هؤلاء المراهقون الطائشون الثملون بأهوائهم الدنيا إلى جحـــيم تتـــأجج علـــى الضعفاء والعجائز، حيث "الحُكُم للغالب" ولحوّلوا الحياة الإنسانية السامية إلى حياة حيوانيـــة سافلة.

الدليل الرابع:

إن الحياة العائلية هي مركز تجمّع الحياة الدنيوية ولولبها وهي جنة ســـعادتها وقلعتـــها الحصينة وملجأها الأمين. وان بيت كل فرد هو عالَمه ودنياه الخاصة. فلا سعادة لروح الحياة العائلية إلاّ بالاحترام المتبادل الجاد والوفاء الخالص بين الجميع، والرأفة الصادقة والرحمة الـــتي تصل إلى حد التضحية والإيثار. ولا يحصل هذا الاحترام الخالص والرحمة المتبادلة الوفيـــة إلاّ بالإيمان بوجود علاقات صداقة أبدية، ورفقة دائمة، ومعيّة سرمدية، في زمن لا نهايـــة لـــه، وتحت ظل حياة لا حدود لها، تربطها علاقات أبوّةٍ محترمة مرموقة، واخوةٍ خالصـــة نقيـــة،

وصداقةٍ وفيّة نزيهة، حيث يحدّث الزوجُ نفسه: "إن زوجتي هذه رفيقة حياتي وصـــاحبتي في عالم الأبد والحياة الخالدة، فلا ضير إن أصبحت الآن دميمة أو عجوزاً، اذ إن لها جمالاً أبدياً سيأتي، لذا فأنا مستعد لتقديم أقصى ما يستوجبه الوفاء والرأفة، وأضحي بكل ما تتطلبه تلك الصداقة الدائمة".. وهكذا يمكن أن يكنّ هذا الرجل حباً ورحمة لزوجته العجوز كما يكنّـــه للحور العين. وإلاّ فان صحبة وصداقة صورية تستغرق ساعة أو ساعتين ومن ثم يعقبها فراق أبدي ومفارقة دائمة لهي صحبة وصداقة ظاهرية لا أساس لها ولا سند. ولا يمكنها أن تعطي إلاّ رحمة مجازية، واحتراماً مصطنعاً، وعطفاً حيواني المشاعر، فضلاً عـــن تـــدخُل المصـــالح والشهوات النفسانية وسيطرتها على تلك الرحمة والاحترام فتنقلب عندئذٍ تلك الجنة الدنيوية إلى جحيم لا يطاق.

وهكذا فان نتيجة واحدة للإيمان بالحشر من بين مئات النتائج الـــتي تتعلـــق بالحيـــاة الاجتماعية للإنسان، وتعود إليها، والتي لها مئات الأوجه والفوائد، إذا ما قيست على تلـــك الدلائل الأربعة المذكورة آنفاً، يُدرك أن وقوع حقيقة الحشر وتحققها قطعي كقطعية ثبـــوت حقيقة الإنسان السامية وحاجاته الكلية. بل هي اظهر دلالة من حاجة المعـــدة إلى الأطعمـــة والأغذية، وأوضح شهادةً منها. ويمكن أن يقدّر مدى تحققها تحققاً أعمق واكثر إذا ما سلبت الإنسانية من هذه الحقيقة، الحشر، حيث تصبح ماهيتها التي هي سامية ومهمة وحيوية بمثابة جيفة نتنة ومأوى الميكروبات والجراثيم.

فليلق السمعَ علماء الاجتماع والسياسة والأخلاق من المعنيين بشؤون الإنسان وأخلاقه واجتماعه، وليأتوا ويبينوا بماذا سيملأون هذا الفراغ؟ وبماذا سيداوون ويضمدون هذه الجروح الغائرة العميقة؟!

النقطة الثانية

تبين هذه النقطة بإيجاز شديد برهاناً واحداً – من بين البراهين التي لا حصر لها – على حقيقة الحشر وهو ناشئ من خلاصة شهادة سائر الأركان الإيمانية. وعلى النحو الآتي.

إن جميع المعجزات الدالة على رسالة سيدنا محمد ρ مع جميع دلائل نبوتـــه وجميـــع البراهين الدالة على صدقه، تشهد بمجموعها معاً، على حقيقة الحشر، وتدل عليها وتثبتـــها، لأن دعوته ρ طوال حياته المباركة قد انصبّت بعد التوحيد على الحشر. وأن جميع معجزاته وحججه الدالة على صدق الأنبياء عليهم السلام – وتحمل الآخرين على تصديقهم – تشهد على الحقيقة نفسها، وهي الحشر. وكذا شهادة "الكتب المنـــزلة" التي رقّت الشهادة الصادرة من "الرسل الكرام" إلى درجة البداهة، تشهدان على الحقيقة نفسها. وعلى النحو الآتي:

فالقرآن الكريم – ذو البيان المعجز – يشهد بجميع معجزاته وحججه وحقائقه – الـــتي تثبت أحقيته – على حدوث الحشر ويثبته، حيث إن ثُلث القرآن بأكمله، وأوائـــل أغلـــب السور القصار، آيات جلية على الحشر. أي أن القرآن الكريم ينبئ عن الحقيقة نفسِها بآلاف من آياته الكريمة صراحة أو إشارةً ويثبتها بوضوح، ويظهرها بجلاء. فمثلاً:

(إذا الشمسُ كُوّرت)

(يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم)

(إذا زلزلت الأرض زلزالها)

(إذا السماءُ انفطرت)

(إذا السماء انشقت)

(عمّ يتساءلون)

(هل أتاك حديثُ الغاشية)

فيثبت القرآن الكريم بهذه الآيات وأمثالها في مفتتح ما يقارب أربعين سورة أن الحشر لا ريب فيه، وأنه حَدثٌ في غاية الأهمية في الكون، وان حدوثه ضروري جداً ولابد منه، ويبين بالآيات الأخرى دلائل مختلفة مقنعة على تلك الحقيقة.

تُرى إن كان كتاب تثمر إشارةٌ واحدةٌ لآيةٍ من آياتِه تلك الحقائق العلميـــة والكونيـــة المعروفة بالعلوم الإسلامية، فكيف إذن بشهادة آلاف من آياته ودلائله التي تبين الإيمان بالحشر كالشمس ساطعة؟ ألا يكون الجحود بهذا الإيمان كإنكار الشمس بل كإنكـــار الكائنـــات قاطبة؟! ألا يكون ذلك باطلاً ومحالاً في مائة محال؟!

تُرى هل يمكن أن يوصَم آلاف الوعد والوعيد لكلام سلطان عزيز عظيم بالكـــذب أو أنها بلا حقيقة، في حين قد يخوض الجيش غمار الحرب لئلا تُكذَّب إشارةٌ صادرة من سلطان.

فكيف بالسلطان المعنوي العظيم الذي دام حكمه وهيمنته ثلاثة عشر قرناً دون انقطاع، فربّى ما لا تعد من الأرواح والعقول والقلوب والنفوس، وزكّاها وأدارها على الحق والحقيقة، ألا تكفي إشارة واحدة منه لإثبات حقيقة الحشر؟ علماً أن فيه آلاف الصـــراحة الواضـــحة المثبتة! أليس الذي لا يدرك هذه الحقيقة الواضحة أحمقَ جاهلاً؟ ألا يكون من العدالة المحضـــة أن تكون النار مثواه؟

ثم إن الصحف السماوية والكتب المقدسة جميعها التي حكَمت كل منها لفتـــرة مـــن العصور والأزمنة، قد صدّقت بآلاف من الدلائل دعوى القرآن الكريم في حقيقة الحشر مع أن بيانها لها مختصر وموجز، وذلك بمقتضى زمانها وعصرها، تلك الحقيقة القاطعة التي بيّنها القرآن الكريم الذي ساد حكمه على العصور جميعها، وهيمن على المستقبل كله، بيّنها بجلاء وأفاض في إيضاحها.

يُدرج هنا نص ما جاء في آخر رسالة "المناجاة" انسجاماً مع البحث، تلـــك الحجـــة القاطعة الملخَّصة للحشر، والناشئة من شهادة سائر الأركان الإيمانية ودلائلها علـــى الإيمـــان باليوم الآخر، ولاسيما الإيمان بالرسل والكتب، والتي تبدد الأوهام والشكوك، حيث جاءت بأسلوب موجز، وعلى صورة مناجاة.

"يا ربي الرحيم.. لقد أدركتُ بتعليم الرسول ρ وفهمتُ من تدريس القرآن الحكيم، أن الكتبَ المقدسة جميعها، وفي مقدمتها القرآن الكريم، والأنبياء عليهم السلام جميعهم، وفي مقدمتهم الرسول الأكرم ρ ، يدلّون ويشهدون ويشيرون بالإجماع والاتفاق إلى أن تجليات الأسماء الحسنى – ذات الجلال والجمال – الظاهرةَ آثارُها في هذه الدنيا، وفي العوالم كافـــة، ستدوم دواماً اسطعَ وأبهرَ في أبد الآباد.. وأن تجلياتها – ذات الرحمة – وآلاءهـــا المشـــاهدة نمـــاذجها في هذا العـــالم الفاني، ستثمر بأبهى نور واعظم تـــألق، وســـتبقى دومـــاً في دار السعادة.. وان أولئك المشتاقين الذين يتملّونها – في هـــذه الحيـــاة الدنيا القصيرة – بلهفـــةٍ وشوق سيرافـــقـــونـــها بالمحبة والودّ، ويصحبونها إلى الأبد، ويظلون معها خالـــدين.. وان

جميع الأنبياء وهم ذوو الأرواح النيرة وفي مقدمتهم الرسول الأكرم ρ ، وجميع الأولياء وهم أقطاب ذوي القلوب المنورة، وجميع الصديقين وهم منابع العقول النافذة النيّرة، كل أولئك يؤمنون إيماناً راسخاً عميقاً بالحشر ويشهدون عليه ويبشرون البشـــرية بالســـعادة الأبديـــة، وينذرون أهل الضلالة بأن مصيرهم النار، ويبشرون أهل الهداية بأن عاقبتهم الجنة، مستندين إلى مئات المعجزات الباهرة والآيات القاطعة، والى ما ذكرتَه أنت يا ربي مراراً وتكـــراراً في الصحف السماوية والكتب المقدسة كلها من آلاف الوعد والوعيد. ومعتمدين علـــى عـــزة جلالك وسلطان ربوبيتك، وشؤونك الجليلة، وصفاتك المقدسة كالقدرة والرحمة والعنايـــة والحكمة والجلال والجمال وبناءً على مشاهداتهم وكشفياتهم غير المعدودة التي تنبئ عن آثار الآخرة ورشحاتها. وبناءً على إيمانهم واعتقادهم الجازم الذي هو بدرجة علم الـــيقين وعـــين اليقين.

فيا قدير ويا حكيم ويا رحمن ويا رحيم ويا صادق الوعد الكريم، ويا ذا العزة والعظمة والجلال ويا قهار ذو الجلال. أنت مقدّس ومنـــزّهٌ، وأنت متعال عن أن تُوصِم بالكذب كل أوليائك وكل وعودك وصفاتك الجليلة وشؤونك المقدسة.. فتكذّبهم، أو تحجب ما يقتضـــيه قطعاً سلطان ربوبيتك بعدم استجابتك لتلك الأدعية الصادرة من عبادك الصـــالحين الـــذين أحببتهم وأحبّوك، وحبّبوا أنفسهم إليك بالإيمان والتصديق والطاعة، فأنت منـــزّه ومتعـــال مطلق عن أن تصدّق أهل الضلالة والكفر في إنكارهم الحشر، أولئك الذين يتجاوزون علـــى عظمتك وكبريائك بكفرهم وعصيانهم وتكذيبهم لك ولوعودك، والذين يســـتخفّون بعـــزة جلالك وعظمة ألوهيتك ورأفة ربوبيتك..

فنحن نقدّس بلا حد ولا نهاية عدالتَك وجمالك المطلقين ورحمتك الواسعة وننـــــزّهها من هذا الظلم والقبح غير المتناهي..

ونعتقد ونؤمن بكل ما أوتينا من قوة بأن الآلاف من الرسل والأنبياء الكرام، وبما لا يعدّ ولا يحصى من الأصفياء والأولياء الذين هم المنادون إليك هم شاهدون بحق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين على خزائن رحمتك الأخروية وكنوز إحساناتك في عالم البقاء، وتجليات أسمائك الحسنى التي تنكشف كلياً في دار السعادة.. ونؤمن ان هذه الشـــهادة حـــق وحقيقـــة، وان

إشاراتهم صدق وواقع، وان بشاراتهم صادقة وواقعة.. فهؤلاء جميعاً يؤمنون بأن هذه الحقيقة الكبرى – أي الحشر – شعاع عظيم من اسم "الحق" الذي هو مرجع جميع الحقائق وشمسها، فيرشدون عبادك – بإذن منك – ضمن دائرة الحق، ويعلمونهم بعين الحقيقة.

فيا ربي! بحق دروس هؤلاء، وبحرمة إرشاداتهم، آتنا إيماناً كاملاً وارزقنا حسن الخاتمة، لنا ولطلاب النور، واجعلنا أهلاً لشفاعتهم... آمين".

وهكذا فإن الدلائل والحجج التي تثبت صدق القرآن الكريم بل جميع الكتب السماوية، وان المعجزات والبراهين التي تثبت نبوة حبيب الله بل الأنبياء جميعهم، تثبت بدورها أهم ما يدعون اليه، وهو تحقق الآخرة وتدل عليها. كما أن اغلب الأدلة والحجج الشاهدة على وجوب واجب الوجود ووحدته سبحانه، هي بدورها شاهدة على دار السعادة وعالم البقاء التي هي مدار الربوبية والألوهية وأعظم مظهر لهما، وهي شاهدة على وجود تلك الدار وانفتاح أبوابها – كما سيُبين في المقامات الآتية – لأن وجوده سبحانه وتعالى، وصفاته الجليلة، وأغلب أسمائه الحسنى، وشؤونه الحكيمة، وأوصافه المقدسة أمثال الربوبية والألوهية والرحمة والعناية والحكمة والعدالة تقتضي جميعها الآخرة وتلازمها، بل تستلزم وجود عالم البقاء بدرجة الوجوب وتطلب الحشر والنشور للثواب والعقاب بدرجة الضرورة أيضاً.

نعم، ما دام الله موجوداً، وهو واحد، أزلي أبدي، فلابد أن محور سلطان ألوهيته وهو الآخرة، موجود أيضاً.. وما دامت الربوبية المطلقة تتجلى في هذه الكائنات ولا سيما في الأحياء وهي ذات جلال وعظمة وحكمة ورأفة ظاهرة واضحة، فلابد أن هناك سعادة أبدية تنفي عن الربوبية المطلقة أيّ ظن بكونها تترك الخلق هملاً دون ثواب، وتبرئ الحكمة من العبث، وتصون الرأفة من الغدر. أي أن تلك الدار موجودة قطعاً ولابد من الدخول فيها.

وما دامت هذه الأنواع من الإنعام والإحسان واللطف والكرم والعناية والرحمة مشاهدة وظاهرة أمام العقول التي لم تنطفئ، وأمام القلوب التي لم تمت، وتدلّنا على وجوب وجود رب رحمن رحيم وراء الحجاب، فلابد من حياة باقية خالدة، لتنقذ الإنعامَ من الاستهزاء أي يأخذ الإنعام مداه، وتصون الإحسان من الخداع ليستوفي حقيقته، وتنقذ العناية من العبث لتستكمل تحققها، وتنجي الرحمة من النقمة فيتم وجوهها، وتبرئ اللطف والكرم من الإهانة

ليفيضا على العباد. نعم، إن الذي يجعل الإحسان إحساناً حقاً، والنعمة نعمةً حقاً، هو وجود حياةٍ باقيةٍ خالدةٍ في عالم البقاء والخلود.. نعم، لابد أن يتحقق هذا.

وما دام قلم القدرة الذي يكتب في فصل الربيع وفي صحيفة ضيقة صغيرة، مائة ألــف كتاب، كتابةً متداخلة بلا خطأ ولا نصب ولا تعب، كما هو واضح جليٌ أمام أعيننـــا. وان صاحب ذلك القلم قد تعهّد ووعد مائة ألف مرة لأكتبنّ كتاباً اسهل مـــن كتـــاب الربيـــع المكتوب أمامكم ولأكتبنّه كتابةً خالدة، في مكان أوسع وارحبَ وأجملَ من هذا المكان الضيق المختلط المتداخل.. فهو كتاب لا يفنى أبداً، ولأجعلنكم تقرأونه بحـــيرة وإعجـــاب!. وانـــه سبحانه يذكر ذلك الكتاب في جميع أوامره، أي أن أصول ذلك الكتاب قد كُتبت بلا ريب، وستُكتب حواشيه وهوامشه بالحشر والنشور، وستدوّن فيه صحائف أعمال الجميع..

وما دامت هذه الأرض قد أصبحت ذات أهمية عظمى من حيث احتواؤها على كثـــرة المخلوقات، ومئات الألوف من أنواع ذوي الحياة والأرواح المختلفة المتبدلة، حتى صـــارت قلب الكون وخلاصته، ومركزه وزبدته ونتيجته وسبب خلقـــه. فـــذُكرت دائمـــاً صـــنواً للسماوات كما في: (رَبُّ السَّموَاتِ وَالأرض) في جميع الأوامر السماوية...

وما دام ابن آدم يحكم في شتى جهات هذه الأرض – التي لها هذه الماهيات والخواص – ويتصرف في اغلب مخلوقاتها مسخّراً اكثر الأحياء له، جاعلاً أكثر المصنوعات تحوم حوله وفق مقاييسه وهواه، وحسب حاجاته الفطرية، وينظمها ويعرضها ويزيّنها، وينسّق الأنواع العجيبة منها في كل مكان بحيث لا يلفت نظر الإنس والجن وحدهم، بل يلفت أيضاً نظـــر أهـــل السموات والكون قاطبة، بل حتى نظر مالك الكون، فنال الإعجاب والتقدير والاستحسان، وأصبحت له – من هذه الجهة – أهمية عظيمة، وقيمة عالية، فاظهر بما أوتي من علم ومهارة انه هو المقصود من حكمة خلق الكائنات، وأنه هو نتيجتها العظمى وثمرتها النفيسة، ولا غرو فهو خليفة الأرض..وحيث إنه يعرض صنائع الخالق البديعة، وينظّمها بشكل جميل جذاب في هذه الدنيا، فقد أُجّل عذابه على عصيانه وكفره، وسُـــمح له بالعيش في الدنيا وأُمهل ليقوم بهذه المهمة بنجاح..

وما دام لابن آدم – الذي له هذه الماهية والمزايا خلقةً وطبعاً، وله حاجات لا تُحدّ مع ضعفه الشديد، وآلام لا تُعدّ مع عجزه الكامل – ربٌ قدير، له القدرة والرأفة المطلقة مما يجعل هذه الأرض الهائلة العظيمة مخزناً عظيماً لأنواع المعادن التي يحتاجها الإنســـان، ومســـتودعاً لأنواع الأطعمة الضرورية له، وحانوتاً للأموال المختلفة التي يرغبها، وانه سبحانه ينظر إليـــه بعين العناية والرأفة ويربيه ويزوده بما يريد...

وما دام الرب سبحانه – كما في هذه الحقيقة – يحبّ الإنسان، ويحبّب نفسه إليه، وهو باقٍ، وله عوالم باقية، ويُجري الأمور وفق عدالته، ويعمل كل شيء وفق حكمته، وان عظمة سلطان هذا الخالق الأزلي وسرمدية حاكميته لا تحصرهما هذه الدنيا القصيرة، ولا يكفيهمـــا عمر الإنسان القصير جداً، ولا عمر هذه الأرض المؤقتة الفانية. حيث يظل الإنسان دون جزاء في هذه الدنيا لما يرتكبه من وقائع الظلم، وما يقترفه من إنكار وكفر وعصيان، تجاه مـــولاه الذي انعم عليه ورباه برأفة كاملة وشفقة تامة، مما ينافي نظام الكون المنسّق، ويخالف العدالة والموازنة الكاملة التي فيها، ويخالف جماله وحسُنه، إذ يقضي الظالم القاسي حياته براحة، بينما المظلوم البائس يقضيها بشظف من العيش. فلا شك أن ماهية تلك العدالة المطلقـــة – الـــتي يشاهد آثارها في الكائنات – لا تقبل أبداً، ولا ترضى مطلقاً، عدم بعث الظالمين العتاة مـــع المظلومين البائسين الذين يتساوون معاً أمام الموت.

وما دام مالك الملك قد اختار الأرض من الكون، واختار الإنسان من الأرض، ووهب له مكانة سامية، وأولاه الاهتمام والعناية، واختار الأنبياء والأولياء والأصفياء من بين الناس، وهم الذين انسجموا مع المقاصد الربانية، وحبّبوا أنفسهم إليه بالإيمان والتســـليم، وجعلـــهم أولياءه المحبوبين المخاطبين له، أكرمهم بالمعجزات والتوفيـــق في الأعمـــال وأدّب أعـــداءهم بالصفعات السماوية، واصطفى من بين هؤلاء المحبوبين إمامَهم ورمزَ فخرهم واعتزازهم، ألا وهو محمد ρ . فنوّر بنوره نصف الكرة الأرضية ذات الأهمية، وخُمس البشرية ذوي الأهمية، طوال قرون عدة، حتى كأن الكائنات قد خُلقت لأجله، لـــبروز غاياتهـــا جمـــيعاً بـــه، وظهورهـــا بالدين الـــذي بُعث به، وانجلائها بالقرآن الـــذي اُنزل عليه. فبينما يستحق أن يكافأ على خدماته الجليلة غير المحدودة بعمرٍ مديد غيـــر محدود وهو أهـــلٌ له، إلاّ أنه قضى

عمراً قصيراً وهو ثلاث وستون سنة في مجاهدة ونصَب وتعب! فهل يمكن، وهلْ يعقل مطلقاً، وهل هناك أي احتمال إلاّ يُبعَث هو وأمثاله وأحباؤه معاً؟! وإلاّ يكون الآن حياً بروحه؟! وان يفنى نهائياً ويصير إلى العدم؟ كلا.. ثم كلا.. وحاشاه ألف ألف مرة. نعم، إن الكون وجميع حقائق العالم يدعو إلى بعثه ويريده ويطلب من رب الكون حياتَه.

ولقد بيّنتْ رسالة "الآية الكبرى" وهي الشعاع السابع وأثبتت بثلاثة وثلاثين إجماعاً عظيماً، كل منه كالجبل الأشم في قوة حجّته، بأن هذا الكون لم يصدر إلاّ من يد واحدٍ أحد، وليس ملكاً إلاّ لواحد أحد. فأظهرت التوحيد - بتلك البراهين والمراتب بداهةً - انه محور الكمال الإلهي وقطبه. وبيّنت أنه بالوحدة والأحدية يتحول جميعُ الكون بمثابة جنودٍ مستنفرين لذلك الواحد الأحد، وموظفين مسخّرين له. وبمجيء الآخرة ووجودها تتحقق كمالاته وتصان من السقوط وتسود عدالته المطلقة، وتنجو من الظلم، وتُنزّه حكمته العامة وتبرأ من العبث والسفاهة، وتأخذ رحمتُه الواسعة مداها، وتُنقذ من التعذيب المشين. وتبدو عزته وقدرته المطلقتان وتُنقَذان من العجز الذليل. وتتقدّس كل صفة من صفاته سبحانه وتتجلى منزّهة جليلة.

فلابد ولا ريب مطلقاً أن القيامة ستقوم، وان الحشر والنشور سيحدث، وان أبواب دار الثواب والعقاب ستُفتح، بمقتضى ما في حقائق هذه الفقرات الثمانية المذكورة المبتدئة بـ "ما دام" التي هي مسألة دقيقة ونكتة ذات مغزى لطيف من بين مئات النكات الدقيقة للإيمان بالله ؛ وذلك: كي تتحقق أهمية الأرض ومركزيتها، وأهمية الإنسانية ومكانتها.. ولكي تتقرر عدالة رب الأرض والإنسان وحكمته ورحمته وسلطانه.. ولكي ينجو الأولياء والأحبّاء الحقيقيون والمشتاقون إلى الرب الباقي من الفناء والإعدام الأبدي.. ولكي يرى أعظمُهم وأحبّهم وأعزّهم ثوابَ عمله، ونتائج خدماته الجليلة التي جعلت الكائنات في امتنان ورضى دائمين.. ولكي يتقدس كمال السلطان السرمدي من النقص والتقصير، وتتنزّه قدرتُه من العجز، وتبرأ حكمتُه من السفاهة، وتتعالى عدالته عن الظلم.

والخلاصة: ما دام الله جل جلاله موجوداً فان الآخرة لا ريب فيها مطلقاً.

وكما تثبت الأركان الإيمانية الثلاثة – المذكورة آنفاً – الحشرَ بجميع دلائلها وتشهد عليه. كذلك يستلزم الركنان الإيمانيان "وبملائكته، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى" أيضاً الحشرَ، ويشهدان شهادة قوية على العالم الباقي ويدلان عليه على النحو الآتي:

إن جميع الدلائل والمشاهدات والمكالمات الدالة على وجود الملائكة ووظائف عبوديتهم، هي بدورها دلائل على وجود عالم الأرواح وعالم الغيب وعالم البقاء وعالم الآخرة ودار السعادة والجنة والنار اللتين ستعمران بالجن والإنس، لأن الملائكة يمكنهم – بإذن إلهي – ان يشاهدوا هذه العوالم ويدخلوها، لذا فالملائكة المقربون يخبرون بالاتفاق – كجبريل عليه السلام الذي قابل البشر – بوجود تلك العوالم المذكورة وتجوالهم فيها. فكما أننا نعلم بديهة وجود قارة أمريكا التي لم نرها من كلام القادمين منها، كذلك يكون الإيمان بديهة بما أخبرت به الملائكة – وهو بقوة مائة تواتر – عن وجود عالم البقاء ودار الآخرة والجنة والنار... وهكذا نؤمن ونصدق.

وكذلك الدلائل التي تثبت "الإيمان بالقدر" – كما جاءت في رسالة القدر "الكلمة السادسة والعشرين" هي بدورها دلائل على الحشر ونشر الصحف وموازنة الأعمال عند الميزان الأكبر، ذلك لأن ما نراه أمام أعيننا من تدوين مقدّرات كل شيء على ألواح النظام والميزان، وكتابة أحداث الحياة ووقائعها لكل ذي حياة في قواه الحافظة، وفي حبوبه ونواه، وفي سائر الألواح المثالية. وتثبيت دفاتر الأعمال لكل ذي روح ولا سيما الإنسان، وإقرارها في ألواح محفوظة.. كل هذا القدر من القَدَر المحيط، ومن التقدير الحكيم، ومن التدوين الدقيق، ومن الكتابة الأمينة، لا يمكن أن يكون إلاّ لأجل محكمة كبرى، ولنيل ثواب وعقاب دائمين. وإلاّ فلا يبقى مغزى ولا فائدة أبداً، لذلك التدوين المحيط والكتابة التي تسجل وتحفظ أدق الأمور. فيقع إذن ما هو خلاف الحكمة والحقيقة. أي إنْ لم يحدث الحشر فإن جميع معاني كتاب الكون الحقة التي كتبت بقلم القَدَر سوف تمسخ وتفسد! وهذا لا يمكن أن يكون مطلقاً، وليس له احتمال أبداً، بل هو محال في محال. كإنكار هذا الكون، بل هو هذيان ليس إلاّ.

نحصل مما تقدم: إن جميع دلائل أركان الإيمان الخمسة هي بدورها دلائل على الحشــــر ووجوده، وعلى النشور وحدوثه، وعلى وجود الدار الآخرة وانفتاح أبوابها. بــــل تســــتدعيه وتشهد عليه، لذا فانه من الوفاق الكامل والانسجام التام أن يبحث ثلث القرآن الكريم المعجز البيان بكامله عن الحشر لما له من الأسس والبراهين التي لا تتزعزع، ويجعله أساساً وركيــــزة لجميع حقائقه التي يرفعها على ذلك الحجر الأساس.

(انتهت المقدمة)

القطعة الثانية

من الذيل

هي المقام الأول من تسعة مقامات لطبقات البراهين التسع التي تدور حول الحشر والتي أشارت إليها بإعجاز الآية الكريمة الآتية:

(فَسبحانَ الله حين تُمسون وحين تُصبحون_ وله الحمدُ في السموات والأرض وَعَشياً وحين تُظهرون_ يُخرج الحيَّ من الميتِ ويُخرج الميتَ من الحي ويُحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) (الروم: 17 - 19)

سيُبيَّن – إن شاء الله – ما أظهرته هذه الآيات الكريمة من البرهان الباهر والحجة القاطعة للحشر.[37]

ولقد بيّنت في الخاصة الثامنة والعشرين من الحياة، أن الحياة تثبت أركان الإيمان الستة، وتتوجه نحوها وتشير إلى تحقيقها.

نعم! فما دامت "الحياة" هي حكمة خلق الكائنات، واهم نتيجتها وجوهرها، فلا تنحصر تلك الحقيقة السامية في هذه الحياة الدنيا الفانية القصيرة الناقصة المؤلمة، بل أن الخواص التسع والعشرين للحياة وعظمة ماهيتها، وما يُفهم من غاية شجرتها ونتيجتها، وثمرتها الجديرة بعظمة تلك الشجرة، ما هي إلاّ الحياة الأبدية والحياة الآخرة والحياة الحية بحجرها وترابها وشجرها في دار السعادة الخالدة. وإلاّ يلزم أن تظل شجرة الحياة المجهَّزة بهذه الأجهزة الغزيرة المتنوعة في ذوي الشعور – ولا سيما الإنسان – دون ثمر ولا فائدة ولا حقيقة، ولظل الإنسان تعساً وشقياً وذليلاً وأحط من العصفور بعشرين درجة، بالنسبة لسعادة الحياة، مع أنه أسمى مخلوق وأكرم ذوي الحياة وارفع من العصفور بعشرين درجة. بل العقل الذي هو أثمن نعمة

37 لم يكتب هذا المقام بعدُ. وحيث إن مسألة (الحياة) وقضيتها لها علاقة مع الحشر، فقد أُدرجت هنا. وفي ختام هذه المسألة إشارات الحياة إلى الركن الإيماني (القَدَر)، وهي مسألة دقيقة جداً وعميقة.- المؤلف

يصبح بلاءً ومصيبة على الإنسان بتفكره في أحزان الزمان الغابر ومخاوف المستقبل، فيعــذّب قلبَه دائماً معكراً صفو لذة واحدة بتسعة آلام!. ولاشك أن هذا باطل مائة في المائة.

فهذه الحياة الدنيا إذن تثبت ركن "الإيمان بالآخرة" إثباتاً قاطعاً بما تظهر لنا في كل ربيع اكثر من ثلاثمائة ألف نموذج من نماذج الحشر.

فيا ترى هل يمكن لربّ قدير، يهيئ ما يلزم حياتك من الحاجات المتعلقة بها جميعاً ويوفر لك أجهزتها كلها سواءٌ في جسمك أو في حديقتك أو في بلدك، ويرسله في وقته المناسب بحكمة وعناية ورحمة، حتى أنه يعلم رغبة معدتك فيما يكفل لك العيش والبقاء، ويسمع ما تهتف به من الدعاء الخاص الجزئي للرزق مبُدياً قبوله لذلك الدعاء بما بثّ من الأطعمة اللذيذة غير المحدودة ليُطمئن تلك المعدة ! فهل يمكن لهذا المدبّر القدير أن لا يعرفك؟ ولا يــراك؟ ولا يهيئ الأسباب الضرورية لأعظم غاية للإنسان وهي الحياة الأبدية؟ ولا يستجيب لأعظم دعاء وأهمه وأعمّه، وهو دعاء البقاء والخلود؟ ولا يقبله بعدم إنشائه الحياة الآخرة وإيجاد الجنة؟ ولا يسمع دعاء هذا الإنسان وهو أسمى مخلوق في الكون بل هو سلطان الأرض ونتيجتها.. ذلك الدعاء العام القوي الصادر من الأعماق، والذي يهز العرش والفرش! فهل يمكن أن لا يهتم به اهتمامَه بدعاء المعدة الصغيرة ولا يُرضي هذا الإنسان؟ ويعرّض حكمتَه الكاملة ورحمته المطلقة للإنكار؟ كلا.. ثم كلا ألف ألف مرة كلا.

وهل يعقل أن يسمع اخفت صوت لأدنى جزء من الحياة فيستمع لشــكواه ويســعفه، ويحلم عليه ويربيه بعناية كاملة ورعاية تامة وباهتمام بالغ مسخراً له اكبر مخلوقاته في الكون، ثم لا يسمع صوتاً كهزيم السماء لأعظم حياة وأسماها وألطفها وأدومها؟ وهل يعقل إلاّ يهتم بدعائه المهم وهو دعاء البقاء، وإلاّ ينظر إلى تضرعه ورجائه وتوسله؟ ويكون كمــن يجهــز بعناية كاملة جندياً واحداً بالعتاد، ولا يرعى الجيش الجرار الموالي له !! وكمن يرى الذرة ولا يرى الشمس! أو كمن يسمع طنين الذباب ولا يسمع رعود السماء! حاشَ لله مائة ألف مرة حاشَ لله.

وهل يقبل العقل – بوجه من الأوجه – إن القدير الحكيم ذا الرحمة الواسعة وذا المحبــة الفائقة وذا الرأفة الشاملة والذي يحب صنعته كثيراً، ويحبّب نفسه بها إلى مخلوقاته وهو أشــد

حباً لمن يحبونه، فهل يعقل أن يُفني حياة مَن هو اكثر حباً له، وهو المحبوب، وأهلٌ للحـــب، وعابدٌ لخالقه فطرةً؟ ويُفني كذلك لب الحياة وجوهرها وهو الروح، بالموت الأبدي والإعدام النهائي!! ويولّد جفوة بينه وبين محبيه ويؤلمهم أشد الإيلام! فيجعل سر رحمته ونـــور محبتـــه معرّضاً للإنكار! حاشَ لله ألف مرة حاش لله... فالجمال المطلق الذي زيّن بتجليه هذا الكون وجمّله، والرحمة المطلقة التي أبهجت المخلوقات قاطبة وزيّنتها، لاشـــك انهمـــا منـــــزّهتان ومقدستان بلا نهاية ولا حد عن هذه القساوة وعن هذا القبح المطلق والظلم المطلق.

النتيجة:

ما دامت في الدنيا حياة، فلابد أن الذين يفهمون سر الحياة من البشـــر، ولا يســـيئون استعمال حياتهم، يكونون أهلاً لحياة باقية، في دار باقية وفي جنة باقية... آمنا.

ثم، إن تلألؤ المواد اللماعة على سطح الأرض، وتلمّع الفقاعات والحباب والزبد علـــى سطح البحر، ثم انطفاء ذلك التلألؤ والبريق بزوال الفقاعات ولمعان التي تعقبها كأنها مرايـــا لشُميسات خيالية يظهر لنا بداهة أن تلك اللمعات ما هي إلاّ تجلي انعكاس شمـــسٍ واحـــدة عالية. وتذكر بمختلف الألسنة وجود الشمس، وتشير إليها بأصابع من نور.. وكذلك الأمر في تلألؤ ذوي الحياة على سطح الأرض وفي البحر، بالقدرة الإلهية وبتجلّي اسم "المحيي" للحي القيوم جلّ جلاله، واختفائها وراء ستار الغيب لفسح المجال للذي يخلفها - بعد أن ردّدت "يا حي" - ما هي إلاّ شهادات وإشارات للحياة السرمدية ولوجوب وجود الحي القيوم سبحانه وتعالى.

وكذا، فان جميع الدلائل التي تشهد على العلم الإلهي الذي تُشاهَد آثاره مـــن تنظـــيم الموجودات، وجميع البراهين التي تثبت القدرة المتصرفة في الكون، وجميع الحجج التي تثبـــت الإرادة والمشيئة المهيمنة على إدارة الكون وتنظيمه، وجميع العلامات والمعجزات التي تثبـــت الرسالات التي هي مدار الكلام الرباني والوحي الإلهي.. جميع هذه الدلائل التي تشهد وتـــدلّ على الصفات الإلهية السبع الجليلة، تدل وتشهد أيضاً بالاتفاق على حياة "الحـــي القيـــوم" سبحانه؛ لأنه لو وجدت الرؤية في شيء فلابد أن له حياة أيضاً، ولو كان له سمـــع فـــذلك علامة الحياة، ولو وجد الكلام فهو إشارة إلى وجود الحياة، ولو كان هناك الاختيار والإرادة

فتلك مظاهر الحياة.. وهكذا فان جميع دلائل الصفات الجليلة التي تشاهد آثارها ويُعلم بداهة وجودها الحقيقي، أمثال القدرة المطلقة، والإرادة الشاملة، والعلم المحيط، تدل على حياة "الحي القيوم" ووجوب وجوده، وتشهد على حياته السرمدية التي نوّرت بشعاعٍ منها جميعَ الكـــون وأحيَت بتجلٍ منها الدار الآخرة كلها بذراقا معاً..

* * *

والحياة كذلك تنظر وتدل على الركن الإيماني "الإيمان بالملائكة" وتثبته رمزاً.

إذ ما دامت الحياة هي أهم نتيجةٍ للكون، وان ذوي الحياة لنفاستهم هم اكثر انتشـــاراً وتكاثراً، وهم الذين يتتابعون إلى دار ضيافة الأرض قافلة إثر قافلة، فتعمّر بهم وتبتهج. ومـــا دامت الكرة الأرضية هي محط هذا السيل من ذوي الحياة، فتملأ وتخلى بحكمـــة التجديـــد والتكاثر باستمرار، ويُخلق في أخس الأشياء والعفونات ذوو حياة بغزارة، حـــتى أصـــبحت الكرة الأرضية معرضاً عاماً للأحياء.. وما دام يُخلق بكثرة هائلة على الأرض أصفى خلاصة لترشح الحياة وهو الشعور والعقل والروح اللطيفة ذات الجوهر الثابت، فكـــأن الأرض تحيـــا وتتجمل بالحياة والعقل والشعور والأرواح.. فلا يمكن أن تكون الأجرام السماوية التي هـــي اكثر لطافة واكثر نوراً وأعظم أهمية من الأرض جامدة بلا حياة وبلا شعور. فالذين سيعمّرون السماوات إذن يعمروها ويبهجون الشموس والنجوم، ويهبون لها الحيوية، ويمثلون نتيجة خلق السماوات وثمرتها، والذين سيتشرفون بالخطابات السبحانية، هم ذوو شعور وذوو حياة مـــن سكان السموات وأهاليها المتلائمين معها حيث يوجدون هناك بسرّ الحياة، وهم الملائكة.

* * *

وكذلك ينظر سر الحياة وماهيتها ويتوجه إلى "الإيمان بالرسل" ويثبته رمزاً.

نعم! ما دام الكون قد خُلق لأجل الحياة، وان الحياة هي اعظم تجل واكمـــل نقـــش وأجمل صنعة للحي القيوم جـــلّ جلاله، وما دامت حياته السرمدية الخـــالدة تظهر وتكشف عن نفسها بإرسال الرسل وإنزال الكتب. إذ لو لم تكن هناك "رسل" ولا "كتب" لما عُرفت تلك الحياة الأزلية، فكما أن تكلم الفرد يبين حيويته وحياته كذلك الأنبياء والرسل علـــيهم السلام والكتب المنـــزلة عليهم، يبينون ويدلون على ذلك المتكلم الحي الذي يـــأمر وينـــهى

بكلماته وخطاباته من وراء الغيب المحجوب وراء ستار الكون. فلابد أن الحياة التي في الكون تدل دلالة قاطعة على "الحي الأزلي" سبحانه وتعالى وعلى وجوب وجوده،كما أن شعاعات الحياة الأزلية كذلك وتجلياتها تنظر وتتوجه إلى مالها ارتباطات وعلاقات معها من أركان الإيمان مثل (إرسال الرسل) و (إنزال الكتب) وتثبتهما رمزاً، ولا سيما "الرسالة المحمدية" و "الوحي القرآني". إذ يصح القول: انهما ثابتان قاطعان كقطعية ثبوت الحياة، حيث إنهما بمثابة روح الحياة وعقلها.

نعم، كما أن الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة، فهي ذاتها الثابتة المستقلة. كذلك الحياة المحمدية – المادية والمعنوية – مترشحة من الحياة ومن روح الكون، فهي خلاصة خلاصتها والرسالة المحمدية مترشحة من حسّ الكون وشعورهِ وعقلِه، فهي أصفى خلاصته، بل إن حياة محمد ρ – المادية والمعنوية – بشهادة آثارها حياة لحياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له. والوحي القرآني بشهادة حقائقه الحيوية روح لحياة الكون وعقل لشعوره.. أجل ... أجل... أجل.

فإذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جنّ جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزلزل عقلها، وظلت بلا شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة.

والحياة كذلك، تنظر إلى الركن الإيماني "القدر" وتدل عليه وتثبته رمزاً؛ إذ ما دامت الحياة ضياءً لعالم الشهادة وقد استولت عليه وأحاطت به، وهي نتيجة الوجود وغايته، وأوسع مرآةٍ لتجليات خالق الكون، وأتم فهرس ونموذج للفعالية الربانية، حتى كأنها بمثابة نوع من خطتها ومنهجها – إذا جاز التشبيه – فلابد أن سر الحياة يقتضي أن يكون عالم الغيب أيضاً – وهو بمعنى الماضي والمستقبل، أي المخلوقات الماضية والقابلة – في نظام وانتظام وان يكون معلوماً ومشهوداً ومتعيناً ومتهيأً لامتثال الأوامر التكوينية، أي كأنه في حياة معنوية. مَثَلُها كمثل تلك

البذرة الأصلية للشجرة وأصولها، والنوى والأثمار التي في منتهاها، التي تتميز بمزايا نوعٍ من الحياة كالشجرة نفسها. بل قد تحمل تلك البذور قوانين حياتية أدق من قوانين حياة الشجرة.

فكما أن البذور والأصول التي خلفها الخريف الماضي، وسيخلفها هذا الربيع تحمل نور الحياة وتسير وفق قوانين حياتية، مثل ما يحمله هذا الربيع من حياة، كذلك شجرة الكائنات، وكلُّ غصنٍ منه وكلُّ فرعٍ، له ماضيه ومستقبله، وله سلسلة مؤلفة من الأطوار والأوضاع، القابلة والماضية، ولكلّ نوعٍ ولكلّ جزء منه وجودٌ متعدد بأطوار مختلفة في العلم الإلهي، مشكلاً بذلك سلسلةَ وجودٍ علمي. والوجود العلمي هذا، الشبيه بالوجود الخارجي هو مظهرٌ لتجلٍ معنوي للحياة العامة، حيث تؤخذ المقدرات الحياتية من تلك الألواح القدرية الحية ذات المغزى العظيم.

نعم، إن امتلاء عالم الأرواح – وهو نوع من عالم الغيب – بالأرواح التي هي عين الحياة، ومادها، وجوهرها وذواها، يستلزم أن يكون الماضي والمستقبل – وهما نوعان من عالم الغيب وقسم ثان منه – متجلّية فيهما الحياة.. وكذا فان الانتظام التام والتناسق الكامل في الوجود العلمي الإلهي لأوضاع ذات معانٍ لطيفة لشيء ما ونتائجَه وأطوارَه الحيوية ليبيّن أن له أهلية لنوع من الحياة المعنوية.

نعم، إن مثل هذا التجلي، تجلي الحياة الذي هو ضياء شمس الحياة الأزلية لن ينحصر في عالم الشهادة هذا فقط، ولا في هذا الزمان الحاضر، ولا في هذا الوجود الخارجي، بل لابد أن لكل عالم من العوالم مظهراً من مظاهر تجلي ذلك الضياء حسب قابليته. فالكونُ إذن بجميع عوالمه، حيّ ومشع مضيء بذلك التجلي، وإلاّ لأصبح كل من العوالم – كما تراه عين الضلالة – جنازة هائلة مخيفة تحت هذه الدنيا المؤقتة الظاهرة، وعالماً خرباً مظلماً.

وهكذا يُفهم وجهٌ من أوجه الإيمان بالقضاء والقدر من سر الحياة ويثبت به ويتضح. أي كما تظهر حيوية عالم الشهادة والموجودات الحاضرة بانتظامها وبنتائجها، كذلك المخلوقات الماضية والآتية التي تعدّ من عالم الغيب لها وجود معنوي، ذو حياة معنى، ولها

ثبوت علمي ذو روح بحيث يظهر باسم المقدرات اثر تلك الحياة المعنوية بوساطة لوح القضاء والقدر.

القطعة الثالثة

من الذيل

سؤال يرد بمناسبة مبحث الحشر:

إن ما ورد في القرآن الكريم مراراً (إِنْ كَانَتْ إِلاّ صَيْحَةً وَاحِدَةً) (يس:29)، (وَمَآ اَمْرُ السَّاعَةِ إِلاّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ)(النحل:77) يبين لنا أن الحشر الأعظم سيظهر فجأة إلى الوجود، في آن واحد بلا زمان. ولكن العقول الضيقة تطلب أمثلة واقعية مشهودة كي تقبل وتذعن لهذا الحدث الخارق جداً والمسألة التي لا مثيل لها.

الجواب: إن في الحشر ثلاث مسائل هي: عودةُ الأرواح إلى الأجساد، وإحياءُ الأجساد، وإنشاء الأجساد وبناؤها.

المسألة الأولى: وهي مجيء الأرواح وعودها إلى أجسادها ومثاله هو:

اجتماع الجنود المنتشرين في فترة الاستراحة والمتفرقين في شتى الجهات على الصوت المدوي للبوق العسكري.

نعم، إن الصور الذي هو بوق إسرافيل عليه السلام، ليس قاصراً عن البوق العسكري كما أن طاعة الأرواح التي هي في جهة الأبد وعالم الذرات والتي أجابت بـ(قَالُوا:بَلَى) (الأعراف:172) عندما سمعت نداء (اَلَسْتُ بِرَبِكُم) (الأعراف: 172) المقبل من أعماق الأزل ونظامها يفوق بلا شك أضعاف أضعاف ما عند أفراد الجيش المنظم. وقد أثبتت"الكلمة الثلاثون" ببراهين دامغة أن الأرواح ليست وحدها جيش سبحاني بل جميع الذرات أيضاً جنوده المتأهبون للنفير العام.

المسألة الثانية: وهي إحياء الأجساد. ومثالُه هو:

مثلما يمكن إنارة مئات الآلاف من المصابيح الكهربائية ليلة مهرجان مدينة عظيمة، من مركز واحد في لحظة واحدة، كأنها بلا زمان. كذلك يمكن إنارة مئات الملايين من مصابيح الأحياء وبعثها على سطح الأرض من مركز واحد. فما دامت الكهرباء وهي مخلوقة من مخلوقات الله سبحانه وتعالى وخادمة إضاءة في دار ضيافته، لها هذه الخصائص والقدرة على

القيام بأعمالها حسب ما تتلقاه من تعليمات وتبليغات ونظام من خالقها، فلابد أن الحشــر الأعظم سيحدث كلمح البصر ضمن القوانين المنظمة الإلهية التي يمثلها آلاف الخدم المنــوّرِين كالكهرباء.

المسألة الثالثة: وهي إنشاء الأجساد فوراً ومثاله هو:

إنشاء جميع الأشجار والأوراق التي يزيد عددها ألف مرة على مجموع البشرية، دفعــة واحدة في غضون بضعة أيام في الربيع، وبشكل كامل، وبالهيئة نفسها التي كانت عليهــا في الربيع السابق.. وكذلك إيجاد جميع أزهار الأشجار وثمارها وأوراقها بسرعة خاطفة، كمــا كانت في الربيع الماضي.. وكذلك تنبّه البُذيرات والنوى والبذور وهي لا تحصى ولا تعد والتي هي منشأ ذلك الربيع في آن واحد معاً وانكشافها وأحياؤها.. وكذلك نشور الجثث المنتصبة والهياكل العظمية للأشجار، وامتثالها فوراً لأمر "البعث بعد الموت" .. وكذلك إحياء أفــراد أنواع الحيوانات الدقيقة وطوائفها التي لا حصر لها بمنتهى الدقة والإتقان.. وكذلك حشر أمم الحشرات ولا سيما الذباب "الماثل أمام أعيننا والذي يذكرنا بالوضوء والنظافة لقيامه بتنظيف يديه وعيونه وجناحيه باستمرار وملاطفته وجوهنا" الذي يفوق عدد ما ينشر منــه في ســنة واحدة عدد بنى آدم جميعهم من لدن آدم عليه السلام.. فحشر هذه الحشرة في كل ربيع مع سائر الحشرات الأخرى وإحياؤها في بضعة أيام، لا يعطي مثالاً واحداً بل آلاف الأمثلة على إنشاء الأجساد البشرية فوراً يوم القيامة.

نعم، لما كانت الدنيا هي دار "الحكمة" والدار الآخرة هي دار "القدرة" فــان إيجــاد الأشياء في الدنيا صار بشيء من التدريج ومع الزمن. بمقتضى الحكمة الربانية وبموجب اغلب الأسماء الحسنى أمثال "الحكيم، المرتّب، المدبر، المربي". أما في الآخرة فان "القدرة" و "الرحمة" تتظاهران اكثر من "الحكمة" فلا حاجة إلى المادة والمدة والزمن ولا إلى الانتظار. فالأشــياء تنشأ هناك نشأة آنية. وما يشير إليه القرآن الكريم بــ (وَمَآ اَمْرُ السَّاعَةِ إلاّ كَلَمْحِ البَصَــرِ اَوْ هُوَ اَقْرَبُ) (النحل:77)، هو أن ما ينشأ هنا من الأشياء في يوم واحد وفي سنة واحدة ينشأ في لمحة واحدة كلمح البصر في الآخرة.

وإذا كنت ترغب أن تفهم أن مجيء الحشر أمر قطعي كقطعية مجـــيء الربيـــع المقبـــل وحتميته، فانعم النظر في "الكلمة العاشرة" و "الكلمة التاسعة والعشرين". وان لم تصدق به كمجيء هذا الربيع، فلك أن تحاسبني حساباً عسيراً.

المسألة الرابعة: وهي موت الدنيا وقيام الساعة، ومثاله:

انه لو اصطدم كوكب سيار أو مذنّب بأمر رباني بكرتنا الأرضية التي هي دار ضيافتنا، لدمّر مأوانا ومسكننا – أي الأرض – كما يُدمّر في دقيقة واحدة قصر بُني في عشر سنوات.

القطعة الرابعة

من الذيل

(قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَميمٌ_ قُل يُحْيِيْهَا الَّذى اَنْشَاَهَآ اَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْـــقٍ عَليمٌ) (يس:78ـــ 79)

لقد جاء في المثال الثالث في الحقيقة التاسعة للكلمة العاشرة، أنه:

إذا قال لك أحدهم أن شخصاً عظيماً في الوقت الذي ينشئ أمام أنظارنا جيشاً ضخماً في يوم واحد يمكنه أن يجمع فرقة كاملة من الجنود المتفرقين للاستراحة بـــنفخ مـــن بـــوق، ويجعلهم ينضوون تحت نظام الفرقة، وقلتَ: لا، لا أصدق ذلك، ألا يكون جوابك وإنكارك جنوناً وبلاهة؟ كذلك، فان الذي أوجد أجساد الحيوانات كافة، وذوي الحياة كافـــة مـــن العدم، تلك الأجساد التي هي كالفرق العسكرية للكائنات الشبيهة بالجيش الضـــخم ونظّـــم ذراتها ولطائفها ووضعها في موضعها اللائق، بنظام كامل وميزان حكيم بأمر "كن فيكون"، وهو الذي يخلق في كل قرن بل في كل ربيع، مئات الآلاف من أنواع ذوي الحياة وطوائفها الشبيهة بالجيش.. فهل يمكن أن يُسأل هذا القدير وهذا العليم كيف سيجمع بصيحة واحدة من بوق إسرافيل جميع الذرات الأساس والأجزاء الأصلية من الجنود المتعارفين تحت لواء فرقة الجسد ونظامها؟! وهل يمكن أن يُستبعد هذا منه؟ أوَ ليس استبعاده بلاهة وجنوناً؟

وكذلك فان القرآن الكريم قد يذكر من أفعال الله الدنيوية العجيبة والبديعة كي يعـــدّ الأذهان للتصديق ويحضر القلوب للإيمان بأفعاله المعجزة في الآخرة. أو أنه يصـــوّر الأفعـــال

الإلهية العجيبة التي ستحدث في المستقبل والآخرة بشكل نقنع ونطمئن إليه بما نشاهده من نظائرها العديدة. فمثلاً.

(اَوَ لَمْ يَرَ الإنسان اَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فإذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ) إلى آخر سورة (يس).. هنا في قضية الحشر، يثبت القرآن الكريم ويسوق البراهين عليها، بسبع أو ثماني صور مختلفة متنوعة.

انه يقدّم النشأة الأولى أولاً، ويعرضها للأنظار قائلاً: إنكم ترون نشأتكم من النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى خلق الإنسان، فكيف تنكرون إذن النشأة الأخرى التي هي مثل هذا بل أهون منه؟.. ثم يشير بـ (اَلّذى جَعَلَ لكم مِنَ الشَّجَرِ الاَخْضَرِ نَاراً)(يس:80) إلى تلك الآلاء وذلك الإحسان والإنعام الذي أنعمه الحق سبحانه على الإنسان، فالذي ينعم عليكم مثل هذه النعم، لن يترككم سدى ولا عبثاً، لتدخلوا القبر وتناموا دون قيام.. ثم انه يقول رمزاً : إنكم ترون إحياء واخضرار الأشجار الميتة، فكيف تستبعدون اكتساب العظام الشبيهة بالحطب للحياة ولا تقيسون عليها؟.. ثم هل يمكن أن يعجز مَن خلق السماوات والأرض عن إحياء الإنسان وإماتته وهو ثمرة السموات والأرض، وهل يمكن لمن يدير أمر الشجرة ويرعاها أن يهمل ثمرها ويتركها للآخرين؟! فهل تظنون أن يُترك للعبث "شجرة الخلقة" التي عجنت جميع أجزائها بالحكمة، ويهمل ثمرها ونتيجتها؟.. وهكذا فان الذي سيحييكم في الحشر هو مَن بيده مقاليد السموات والأرض، وتخضع له الكائنات خضوع الجنود المطيعين لأمره فيسخرهم بأمر"كن فيكون" تسخيراً كاملاً.. ومَن عنده خلق الربيع يسير وهيّن كخلق زهرة واحدة، وإيجاد جميع الحيوانات سهل على قدرته كإيجاد ذبابة واحدة. فلا ولن يُسأل للتعجيز صاحب هذه القدرة: (مَنْ يُحيْيِ الْعِظَامَ)؟

ثم انه بعبارة (فَسُبْحَانَ الَّذى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِ شَيْء) (يس:83) يبين انه سبحانه بيده مقاليد كل شيء، وعنده مفاتيح كل شيء، يقلب الليل والنهار، والشتاء والصيف بكل سهولة ويسر كأنها صفحات كتاب، والدنيا والآخرة هما عنده كمنزلين يغلق هذا ويفتح ذاك. فما دام الأمر هكذا فان نتيجة جميع الدلائل هي: (واَلَيْهِ تُرْجَعُونَ) أي انه يحييكم من القبر، ويسوقكم إلى الحشر، ويوفي حسابكم عند ديوانه المقدس.

وهكذا ترى أن هذه الآيات قد هيأت الأذهان، وأحضرت القلوب لقبول قضية الحشر، بما أظهرت نظائرها بأفعال في الدنيا.

هذا وقد يذكر القرآن أيضاً أفعالاً أخروية بشكل يحسس ويشير إلى نظائرها الدنيويـــة، ليمنع الإنكار والاستبعاد فمثلاً:

بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيم

﴿اِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَت_ وإذا النُّجُومُ انْكَــدَرَت_ وإذا الْجِـبَـــــالُ سُيــــــِّرَت_ وإذا الْعِشَارُ عُطِّلَت_ وإذا الْوُحُوشُ حُشِرَت_ وإذا الْبِحَارُ سُجِّرَت_ وإذا النُّفُوسُ زُوِّجَت_ وإذا الــمَوْؤُدَةُ سُئِلَت_ بِاَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَت_ وإذا الصُّحُفُ نُشِرَت_ وإذا السَّمَآءُ كُشِــطَت_ وإذا الْجَحيمُ سُعِّرَت_ وإذا الْجَنَّةُ اُزْلِفَت_ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَآ اَحْــضَرَت﴾ إلى آخر السورة

بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيم

﴿اِذَا السَّمَآءُ انْفَطَرَت_ وإذا الْكَواكِبُ انْتَثَرَت_ وإذا البِحَارُ فُجِــرَت_ وإذا الْقُبُــورُ بُعْثِرَت_ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَاَخَّرَتْ﴾ إلى آخر السورة

بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيم

﴿اِذَا السَّمَآءُ انْشَقَّت_ وَأذِنَتْ لِرَبِهَا وَحُقَّت_ وإذا الأرض مُدَّت_ وَاَلْقَتْ مَــا فِيهَــا وَتَخَلَّت_ وَأذِنَتْ لِرَبِهَا وَحُقَّتْ ﴾ إلى آخر السورة

فترى أن هذه السوّر تذكر الانقلابات العظيمة والتصرفات الربانية الهائلة بأسلوب يجعل القلب أسير دهشة هائلة يضيق العقل دونها ويبقى في حيرة. ولكن الإنسان ما أن يرى نظائرها في الخريف والربيع إلاّ ويقبلها بكل سهولة ويسر. ولما كان تفسير السور الثلاث هذه يطول، لذا سنأخذ كلمة واحدة نموذجاً، فمثلاً:

﴿**وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ**﴾ تفيد هذه الآية: ستنشر في الحشر جميع أعمال الفرد مكتوبــة على صحيفة. وحيث إن هذه المسألة عجيبة بذاتها فلا يرى العقل إليها سبيلاً، إلاّ أن السورة كما تشير إلى الحشر الربيعي وكما أن للنقاط الأخرى نظائرها وأمثلتها كذلك نظــير نشــر الصحف ومثالها واضح جلي. فلكل ثمر ولكل عشب ولكل شجر، أعمال وله أفعــال ولــه وظائف وله عبودية وتسبيحات بالشكل الذي تــظهر به الأسماء الإلهية الحسنى، فجميع هذه

الأعمال مندرجة مع تاريخ حياته في بذوره ونواه كلها. وستظهر جميعها في ربيع آخر ومكان آخر. أي انه كما يذكر بفصاحة بالغة أعمال أمهاته وأصوله بالصورة والشكل الظاهر، فانه ينشر كذلك صحائف أعماله بنشر الأغصان وتفتح الأوراق والأثمار.

نعم، إن الذي يفعل هذا أمام أعيننا بكل حكمة وحفظ وتدبير وتربية ولطف هو الذي يقول (**وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ**).

وهكذا قس النقاط الأخرى على هذا المنوال. وان كانت لديك قوة استنباط فاستنبط.

ولأجل مساعدتك ومعاونتك سنذكر (إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) أيضاً. فان لفظ "كُوِّرَتْ" الذي يرد في هذا الكلام هو بمعنى: لُفّتْ وجُمعتْ، فهو مثال رائع ساطع فوق أنه يومئ إلى نظيره ومثيله في الدنيا:

أولاً: إن الله سبحانه وتعالى قد رفع ستائر العدم والأثير والسماء، عن جوهرة الشمس التي تضئ الدنيا كالمصباح، فأخرجها من خزينة رحمته وأظهرها إلى الدنيا. وسيلفّ تلك الجوهرة بأغلفتها عندما تنتهي هذه الدنيا وتنسد أبوابها.

ثانياً: إن الشمس موظفة ومأمورة بنشر غلالات الضوء في الأسحار ولفّها في الأماسي، وهكذا يتناوب الليل والنهار عل هامة الأرض، وهي تجمع متاعها مقللة من تعاملها، أو قد يكون القمر – إلى حدٍ ما – نقابا لأخذها وعطائها ذلك. أي كما أن هذه الموظفة تجمع متاعها وتطوي دفاتر أعمالها بهذه الأسباب فلابد من أن يأتي يوم تعفى من مهامها، وتفصل من وظيفتها، حتى إن لم يكن هناك سبب للإعفاء والعزل. ولعلّ توسع ما يشاهده الفلكيون على وجهها من البقعتين الصغيرتين الآن اللتين تتوسعان وتتضخمان رويداً رويداً، تسترجع الشمس – بهذا التوسع – وبأمر رباني ما لفّته ونشرته على رأس الأرض بإذن إلهي من الضوء، فتلف به نفسها. فيقول ربّ العزة: إلى هنا انتهت مهمتك مع الأرض، فهيّا إلى جهنم لتحرقي الذين عبدوك وأهانوا موظفة مسخرة مثلك وحقروها متهمين إياها بالخيانة وعدم الوفاء.

بهذا تقرأ الشمسُ الأمرَ الرباني (إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) على وجهها المبقع.

القطعة الخامسة

من الذيل

إن إخبار مائة وأربعة وعشرين ألفاً من المصطفين الأخيار وهـــم الأنبيـــاء والمرســـلون عليهم الصلاة والسلام - كما نص عليه الحديث - [38] إخباراً بالإجماع والتواتر مستندين إلى الشهود عند بعضهم والى حق اليقين عند آخرين، عن وجود الدار الآخرة، وإعلاهم بالإجماع أن الناس سيساقون إليها، وان الخالق سبحانه وتعالى سيأتي بالدار الآخرة بلا ريب، مثلمـــا وعد بذلك وعداً قاطعاً.

وان تصديق مائة وأربعة وعشرين مليوناً من الأولياء كشفاً وشهوداً ما أخبر به هـــؤلاء الأنبياء عليهم السلام، وشهادتهم على وجود الآخرة بعلم اليقين دليل قاطع وأيّ دليل علـــى وجود الآخرة..

وكذا، فإن تجلّيات جميع الأسماء الحسنى لخالق الكون المتجلّية في أرجاء العـــالم كلـــه، تقتضي بالبداهة وجود عالم آخر خالد، وتدل دلالة واضحة على وجود الآخرة.

وكذا القدرة الإلهية وحكمتها المطلقة، التي لا إسراف فيها ولا عبث، والتي تحيي جنائز الأشجار الميّتة وهياكلها المنتصبة، تحييها وهي لا تعد ولا تحصى على سطح الأرض في كـــل ربيع، وفي كل سنة، بأمر "كن فيكون" وتجعلها علامة على "البعث بعد المـــوت" فتحشـــر ثلاثمائة ألف نوع من طوائف النباتات وأمم الحيوانات وتنشرها، مظهرةً بذلك مئات الألوف من نماذج الحشر والنشور ودلائل وجود الآخرة.

وكذا الرحمة الواسعة التي تديم حياة جميع ذوي الأرواح المحتاجة إلى الرزق، وتعيّشـــها بكمال الرأفة عيشة خارقة للغاية. والعناية الدائمة التي تظهر أنواع الزينة والمحاسن بما لا يُعـــدّ ولا يحصى، في فترة قصيرة جداً في كل ربيع. لا شك أنهما تستلزمان وجود الآخرة بداهة.

---

38 قال أبو ذر: (قلت: يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال "مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً) رواه الإمام احمد.(مشكاة المصابيح ت 5737) - المترجم .

وكذا، عشق البقاء، والشوق إلى الأبدية وآمال السرمدية المغروزة غرزاً لا انفصام لها في فطرة هذا الإنسان الذي هو أكمل ثمرة لهذا الكون، وأحب مخلوق إلى خالق الكون، وهو أوثق صلة مع موجودات الكون كله، لا شك انه يشير بالبداهة إلى وجود عالم باقٍ بعد هذا العالم الفاني، والى وجود عالم الآخرة ودار السعادة الأبدية.

فجميع هذه الدلائل تثبت بقطعية تامة - إلى حدّ يستلزم القبول - وجود الآخرة بمثل بداهة وجود الدنيا.[39] فما دام أهم درس يلقننا القرآن إيّاه هو "الإيمان بالآخرة" وهذا الدرس رصين ومتين إلى هذه الدرجة، وفي ذلك الإيمان نور باهر ورجاء شديد وسلوان عظيم ما لو اجتمعت مائة ألف شيخوخة في شخص واحد لكفاها ذلك النور، وذلك الرجاء، ذلك السلوان النابع من هذا الإيمان؛ لذا علينا نحن الشيوخ أن نفرح بشيخوختنا ونبتهج قائلين: "الحمد لله على كمال الإيمان".

39 إن مدى السهولة في إخبار "الأمر الثبوتي" ومدى الصعوبة والإشكال في (نفي وإنكار) ذلك، يظهر في المثال الآتي:
إذا قال أحدهم: أن هناك ــ على سطح الأرض ــ حديقة خارقة جداً ثمارها كعلب الحليب، وأنكر عليه الآخر قوله هذا قائلاً: لا، لا توجد مثل هذه الحديقة. فالأول يستطيع ــ بكل سهولة ــ أن يثبت دعواه. بمجرد إراءة مكان تلك الحديقة أو بعض ثمارها. أما الثاني (أي المنكر) فعليه أن يرى ويُري جميع أنحاء الكرة الأرضية لأجل أن يثبت نفيه، وهو عدم وجود مثل هذه الحديقة. وهكذا الأمر في الذين يخبرون عن الجنة، فانهم يُظهرون مئات الآلاف من ترشحاتها، ويبيّنون ثمارها وأثارها، علماً أن شاهدين صادقين منهم كافيان لإثبات دعواهم، بينما المنكرون لوجودها، لا يسعهم إثبات دعواهم إلاّ بعد مشاهدة الكون غير المحدود، والزمن غير المحدود، مع سبر غورها بالبحث والتفتيش، وعند عدم رؤيتهم لها، يمكنهم إثبات دعواهم!
فيا من بلغ به الكبر عتياً ويا أيها الاخوة! اعلموا ما أعظم قوة الإيمان بالآخرة وما أشد رصانته!. - المؤلف.

الحقيقة الحادية عشرة

باب الإنسانية

وهو تجلي اسم "الحق"

أمن الممكن للحق سبحانه وهو المعبود الحق أن يخلق هذا الإنسان ليكون اكـرمَ عبـدٍ لربوبيته المطلقة، واكثر أهمية لربوبيته العامة للعالمين، واكثر المخاطبين ادراكاً وفهماً لأوامـره السبحانية، وفي احسن تقويمٍ حتى اصبح مرآة جامعة لأسمائه الحسنى ولتجلي الاسم الاعظـم ولتجلي المرتبة العظمى لكل اسم من هذه الأسماء الحسنى. وليكون أجملَ معجـزات القـدرة الإلهية، وأغناها أجهزةً وموازينَ لمعرفة وتقدير ما في خزائن الرحمة الإلهية من كنوز، واكثـر المخلوقات فاقة وحاجة إلى نعمه التي لا تحصى، واكثرها تألماً من الفناء، وأزيدها شـوقاً إلى البقاء، وأشدها لطافة ورقة وفقراً وحاجة. مع انه من جهة الحياة الدنيا أكثرها تعاسة، ومن جهة الاستعداد الفطري أسماها صورة.. فهل من الممكن أن يخلق المعبود الحق الإنسان بهـذه الماهية ثم لا يبعثه إلى ما هو مؤهّل له ومشتاق إليه من دار الخلود؟! فيمحق الحقيقة الإنسانية ويعمل ما هو منافٍ كلياً لأحقيته سبحانه؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً..

وهل يعقل للحاكم بالحق والرحيم المطلق الذي وهب لهذا الإنسان اسـتعداداً فطريـاً سامياً يمكّنه من حمل الأمانة الكبرى التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنـها، أي خَلقَه ليعرف صفات خالقه سبحانه الشاملة المحيطة وشؤونه الكلية وتجلياته المطلقة، بموازينـه الجزئية وبمهاراته الضئيلة.. والذي بَرأه بشكل ألطف المخلوقات وأعجزها وأضعفها. فسخر له جميعَها من نبات وحيوان، حتى نصبه مشرفاً ومنظماً ومتدخلاً في أنماط تسبيحاتها وعباداتها.. والذي جعله نموذجاً - بمقاييس مصغّرة - للإجراءات الإلهيـة في الكـون، ودلاّلاً لإعـلان الربوبية المنـزهة - فعلاً وقولاً - على الكائنات، حتى منحه منـزلة اكرم مـن منـزلة الملائكة، رافعاً إياه إلى مرتبة الخلافة.. فهل يمكن أن يهب سبحانه للإنسان كل هذه الوظائف ثم لا يَهَبَ له غاياتها ونتائجها وثمارها وهي السعادة الأبدية ؟ فيرميه إلى درك الذلّة والمسكنة والمصيبة والأسقام، ويجعله أتعس مخلوقاته؟ ويجعل هذا العقل الذي هو هدية مباركة نورانيـة

لحكمته سبحانه ووسيلة لمعرفة السعادة آلةَ تعذيبٍ وشؤم، خلافاً لحكمته المطلقـــة، ومنافـــاة لرحمته المطلقة؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الخلاصة: كما أننا رأينا في الحكاية أن في هوية الضابط ودفتر خدمته رتبته، ووظيفتـــه ومرتّبه وأفعاله وعتاده، واتضح لدينا أن ذلك الضابط لا يعمل لأجل هذا الميدان المؤقت، بل لما سيرحل إليه من تكريم وإنعام في مملكة مستقرة دائمة.

كذلك فان ما في هوية قلب الإنسان من لطائف، وما في دفتر عقله من حواس، وما في فطرته من اجهزة وعتاد متوجهة جميعاً ومعاً إلى السعادة الأبدية،بل ما مُنحت له إلاّ لأجـــل تلك السعادة الأبدية . وهذا ما يتفق عليه أهل التحقيق والكشف.

فعلى سبيل المثال:

لو قيل لقدرة التخيل في الإنسان وهي إحدى وسائل العقل وأحد مصوّريه: ستُمنح لكِ سلطنةَ الدنيا وزينتها مع عمر يزيد على مليون سنة ولكن مصيرك إلى الفناء والعدم حتمـــاً. نراها تتأوه وتتحسر. (إن لم يتدخل الوهم وهوى النفس).

أي إن أعظم فانٍ – وهو الدنيا وما فيها – لا يمكنه أن يُشبع اصغر آلة في الإنسان وهي الخيال!

يظهر من هذا جلياً أن هذا الإنسان الذي له هذا الاستعداد الفطري والذي له آمالٌ تمتد إلى الأبد، وأفكارٌ تحيط بالكون، ورغباتٌ تنتشر في ثنايا أنواع السعادة الأبدية . هذا إنإنسان إنما خلق للابد وسيرحل إليه حتماً. فليست هذه الدنيا إلاّ مستضافاً مؤقتاً، وصـــالة انتظـــار الآخرة.

الحقيقة الثانية عشرة

باب الرسالة والتنـــزيل

وهو تجلي "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم"

أمن الممكن لمن أيّد كلامَه جميعُ الأولياء الصالحين المعزّزين بكشـــفياتهم وكرامـــاتهم، وشهد بصدقه جميعُ العلماء والأصفياء المستندين إلى تدقيقاتهم وتحقيقاتهم.. ذلكم هو الرسول الكريم ρ الذي فتح بما أوتي من قوة طريقَ الآخرة وباب الجنة، مصَّدقاً بألفٍ من معجزاتـــه الثابتة، وبآلاف من آيات القرآن الكريم الثابت إعجازُه بأربعين وجهاً. فهل من الممكـــن أن تسد أوهامٌ هي أوهى من جناح ذبابة ما فتحه هذا الرسول الكريم ρ من طريق الآخرة وباب الجنة؟!

III

وهكذا لقد فُهم من الحقائق السابقة ان مسألة الحشر حقيقة راسخة قوية بحيث لا يمكن أن تزحزحها أيّة قوة مهما كانت حتى لو استطاعت أن تزيح الكرة الأرضية وتحطمها، ذلك لان الله سبحانه وتعالى يقرّ تلك الحقيقة بمقتضى اسمائه الحسنى جميعها وصفاته الجليلة كلـــها. وان رسوله الكريم ρ يصدّقها بمعجزاته وبراهينه كلها. والقرآن الكريم يثبتها بجميـــع آياتـــه وحقائقه. والكون يشهد لها بجميع آياته التكوينية وشؤونه الحكيمة.

فهل من المكن يا ترى ان يتفق مع واجب الوجود سبحانه وتعالى جميعُ الموجودات – عدا الكفار – في حقيقة الحشر، ثم تأتي شبهة شيطانية واهية ضعيفة لتـــزيح هـــذه الحقيقـــة الراسخة الشامخة وتزعزعها؟! كلاّ... ثم كلا...

ولا تحسبنّ ان دلائل الحشر منحصرة في ما بحثناه من الحقائق الاثنتي عشرة، بل كما ان القرآن الكريم وحدَه يعلّمنا تلك الحقائق، فانه يشير كذلك بآلاف من الأوجـــه والامـــارات القوية إلى أن خالقنا سينقلنا من دار الفناء إلى دار البقاء.

ولا تحسبنّ كذلك ان دلائل الحشر منحصرة فيما بحثناه من مقتضيات الاسماء الحسنى "الحكيم، الكريم، الرحيم، العادل، الحفيظ" بل ان جميعَ الاسماء الحسنى المتجلية في تدبير الكون تقتضي الآخرة وتستلزمها.

ولا تحسب ايضاً ان آيات الكون الدّالة على الحشر هي تلك التي ذكرناها فحسب، بل هناك آفاق وأوجه في اكثر الموجودات تفتح وتتوجه يميناً وشمالاً، فمثلما يدل ويشهد وجه على الصانع سبحانه وتعالى يشير وجه آخر إلى الحشر ويومئ اليه.

فمثلاً: ان حسن الصنعة المتقنة في خلق الإنسان في احسن تقويم، مثلما هو اشارة إلى الصانع سبحانه، فان ما فيه من قابليات وقوى جامعة، التي تزول في مدّة يسيرة، تشير إلى الحشر. حتى اذا ما لوحظ وجهٌ واحدٌ فقط بنظرتين، فانه يدل على الصانع والحشر معاً.

فمثلاً: اذا لوحظت ماهيةُ ما هو ظاهرٌ في اغلب الاشياء من تنظيم الحكمة وتزيين العناية وتقدير العدالة ولطافة الرحمة، تبين انه صادرة من يد القدرة لصانع حكيم، كريم، عادل، رحيم. كذلك اذا لوحظت عظمة هذه الصفات الجليلة وقوها وطلاقتها، مع قصر حياة هذه الموجودات في هذه الدنيا وزهادها فان الآخرة تتبين من خلالها.

اي ان كل شئ يقرأ ويستقرئ بلسان الحال قائلاً:

امَنْتُ بِالله وَبِالْيَوْمِ اْلاخِرِ

الخاتمة

ان الحقائق الاثنتي عشرة السابقة يؤيد بعضها البعض الآخر، وتكمل احداها الاخرى وتسندها وتدعمها، فتتبين النتيجة من مجموعها واتحادها معاً. فأي وهم يمكنه ان ينفذ من هذه الاسوار الاثنى عشر الحديد، بل الالماس المنيعة ليزعزع الايمان بالحشر المحصّن بالحصن الحصين؟

فالآية الكريمة (مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ اِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) (لقمان:28) تفيد ان خلق جميع البشر وحشرهم سهل ويسير على القدرة الإلهية، كخلق انسان واحد وحشره. نعم، وهو هكذا حيث فصلت هذه الحقيقة في بحث "الحشر" من رسالة "نقطة من نور معرفة الله". اِلا اننا سنشير هنا إلى خلاصتها مع ذكر الامثلة، ومن اراد التفصيل فليراجع تلك الرسالة.

فمثلاً: "ولله المثل الاعلى" - ولا جدال في الأمثال - ان الشمس مثلما تُرسل - ولو ارادياً - ضوءَها بسهولة تامة إلى ذرة واحدة، فانها ترسله بالسهولة نفسها إلى جميع المواد الشفافة التي لا حصر لها، وذلك بسر "النورانية".

وان أخذ بؤبؤ ذرّة شفافة واحدة لصورة الشمس مساوٍ لأخذ سطح البحر الواسع لها، وذلك بسر "الشفافية".

وان الطفل مثلما يمكنه ان يحرك دُمِيَته الشبيهة بالسفينة، يمكنه أن يحرّك كذلك السفينة الحقيقية، وذلك بسرّ "الانتظام" الذي فيها.

وأن القائد الذي يسيّر الجندي الواحد بامر "سِر"، يسوق الجيش باكمله بالكلمة نفسها، وذلك بسرّ "الأمتثال والطاعة".

ولو افترضنا ميزاناً حساساً جداً في الفضاء، بحيث يتحسس وزن جوزة صغيرة في الوقت الذي يمكن أن توضع في كفتيه شمسان. ووجدت في الكفتين جوزتان أو شمسان، فان الجهد المبذول لرفع احدى الكفتين إلى الأعلى والاخرى إلى الاسفل هو الجهد نفسه، وذلك بسر "الموازنة".

فما دام اكبر شئ يتساوى مع أصغره، وما لا يعدّ من الاشياء يظهر كالشيء الواحد في هذه المخلوقات والممكنات الاعتيادية - وهي ناقصة فانية - لما فيها من (النورانية والشفافية والانتظام والامتثال والموازنة) فلابدّ أنه يتساوى أمام القدير المطلق القليل والكثير، والصغير والكبير، وحشرُ فرد واحد وجميع الناس بصيحة واحدة، وذلك بالتجليات "النورانية"

المطلقة لقدرته الذاتية المطلقة وهي في منتهى الكمال، و "الشفافية" و "النورانية" في ملكوتية الاشياء، و "انتظام" الحكمة والقدرة، و "امتثال" الاشياء وطاعتها لأوامره التكوينية امتثــالاً كاملاً، وبسر "موازنة" الامكان الذي هو تساوي الممكنات في الوجود والعدم.

ثم ان مراتب القوة والضعف لشئ ما عبارة عن تداخل ضده فيه، فدرجات الحرارة – مثلاً – ناتجة من تداخل البرودة، ومراتب الجمال متولدة من تداخل القبح، وطبقات الضــوء من دخول الظلام. الاّ انّ الشئ ان كان ذاتياً غير عرضي، فلا يمكن لضده أن يدخل فيه، والا لزم اجتماع الضدين وهو محال. أي أنه لا مراتب فيما هو ذاتي وأصيل. فما دامت قــدرة القدير المطلق ذاتية، وليست عرضية كالممكنات، وهي في كمال المطلق، فمن المحــال اذن أن يطرأ عليها العجزُ الذي هو ضده. أي ان خلق الربيع بالنسبة لذي الجلال هيّن كخلق زهــرة واحدة، وبعث الناس جميعاً سهل ويسير عليه كبعث فرد منهم، بخلاف ما اذا اُسند الامرُ إلى الاسباب المادية، فعندئذٍ يكون خلقُ زهرةٍ واحدة صعباً كخلق الربيع.

III

وكل ما تقدّم من الامثلة والايضاحات – منذ البداية – لصور الحشر وحقائقه ما هــي الاّ من فيض القرآن الكريم، وما هي الا لتهيئة النفس للتسليم والقلب للقبول؛ اذ القول الفصل للقرآن الكريم والكلام كلامه، والقول قوله، فلنستمع اليه.. فلله الحجَّة البالغة...

(فانظر إلى آثار رَحمتِ الله كيف يُحيي الأرضَ بعدَ موتِها إنّ ذلك لمحيي الموتى وهــو على كل شيء قدير) (الروم: 50)

(قال مَن يحيي العظام وهي رميم_ قل يحييها الذي انشأها أول مرة وهو بكــل خلــقٍ عليم) (يس:78،79)

(يا أيها الناسُ اتقوا ربكمْ ان زلزلة الساعَة شيءٌ عظيمٌ_ يوم تَرونَها تَذهَل كلّ مرضعةٍ عما أرضعت وتــضعُ كلّ ذات حملٍ حَملها وترى الناسَ سُكارى وما هم بِسُكارى ولكــنّ عذاب الله شديدٌ) (الحج: 1 – 2)

(الله لا الهَ الاّ هو ليجمَعَنّكُمْ إلى يوم القيامَةِ لا ريبَ فيهِ ومن اصدَقُ من الله حَــديثاً) (النساء:87)

(ان الأبرار لفي نعيم_ وانّ الفجّارَ لفي جحيم) (الانفطار: 13 - 14)

(اذا زُلزلت الارض زلزالها_ وأخرجَتِ الارض اثقالها_ وقال الإنسان ما لها_ يومئذٍ تحدِّث أخبارَها_ بأن ربَّك أوحى لها_ يومئذ يصدُرُ النّاسُ اشتاتاً ليروا اعمالهم_ فمنْ يَعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يَرَه_ ومن يعمل مثقال ذرّةٍ شرّاً يَرَهُ) (سورة الزلزال)

(القارعة_ ما القارعة_ وما ادراك ما القارعة_ يومَ يكونُ الناس كالفراش المبثوث_ وتكون الجبال كالعِهنِ المنفوش_ فأما مَن ثقلت موازينُه_ فهو في عيشةٍ راضيةٍ_ وأما مَنْ خفَّت موازينُه_ فأمه هاوية_ وما ادراك ماهِيَهْ_ نارٌ حامية) (سورة القارعة)

(ولله غيبُ السمواتِ والارض وما أمرُ الساعة الاّ كلمحِ البصر أو هو أقرب ان الله على كلّ شيءٍ قدير) (النحل:77)

III

ولنستمع إلى امثال هذه الآيات البينات. ولنقل آمنا وصدقنا:

آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وبالقدر خيره وشرّه من الله تعالى، والبعث بعد الموت حق، وان الجنة حق، والنار حق، وان الشفاعة حق، وان منكراً ونكيراً حق، وأنَّ الله يبعث من في القبور. اشهد أن لا اله الاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

اللّهم صلّ على ألطف وأشرف واكمل وأجمل ثمرات طوبى رحمتك الذي أرسلته رحمةً للعالمين ووسيلة لوصولنا إلى أزين واحسن وأجنى واعلى ثمرات تلك الطوبى المتدلية على دار الاخرة أي الجنّة.

اللّهم أجرنا وأجر والدينا من النار وأدخلنا وأدخل والدينا الجنّة مع الابرار بجاه نبيّك المختار... آمين.

"فيا أيها الأخ القارئ لهذه الرسالة بانصاف! لا تقل لِمَ لا احيط فهماً بهذه الكلمة العاشرة.. لا تَغتَم ولا تتضايق من عدم الاحاطة بها، فان فلاسفة دهاة – امثال ابن سينا – قد قالوا: (الحشر ليس على مقاييس عقلية) اي "نؤمن به فحسب، اذ لا يمكن سلوك سبيله، وسبر غوره بالعقل" وكذلك اتفق علماء الاسلام بأن قضية الحشر قضية نقلية، أي ان أدلتها

نقلية، ولا يمكن الوصول اليها عقلاً. لذا فان سبيلاً غائراً، وطريقاً عالياً سـامياً في الوقـت نفسه، لا يمكن أن يكون بسهولة طريق عام يمكن أن يسلكه كل سالك.

ولكن بفيض القرآن الكريم، وبرحمة الخالق الرحيم قد مُنَّ علينا السير في هذا الطريـق الرفيع العميق، في هذا العصر الذي تحطم فيه التقليد وفسد الاذعان والتسليم. فما علينـا الاّ تقديم آلاف الشكر إلى البارى عز وجل على احسانه العميم وفضله العظيم، اذ ان هذا القدر يكفي لانقاذ ايماننا وسلامته. فلابد ان نرضى بمقدار فهمنا ونـزيده بتكرار المطالعة.

هذا وان أحد اسرار عدم الوصول إلى مسألة الحشر عقلاً هو ان الحشر الاعظم هو من تجلي (الاسم الاعظم)، لذا فان رؤية واراءة الافعال العظيمة الصادرة من تجلي الاسم الاعظم، ومن تجلي المرتبة العظمى لكل اسم من الاسماء الحسنى هي التي تجعل اثبات الحشر الاعظـم سهلاً هيناً وقاطعاً كاثبات الربيع وثبوته، والذي يؤدي إلى الاذعان القطعي والايمان الحقيقي.

وعلى هذه الصورة توضّح الحشر ووُضِّح في هذه (الكلمة العاشرة) بفـيض القـرآن الكريم. والاّ لو اعتمد العقل على مقاييسه الكليلة لظلّ عاجزاً مضطراً إلى التقليد.

ذيل رسالة الحشر

القطعة الأولى

من لاحقة الكلمة العاشرة وذيلها المهم

بسم الله الرحمن الرحيم

(فَسُبْحَانَ الله حينَ تُمْسُونَ وَحينَ تُصْبِحُونَ_ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّموات وَالْارْضِ وَعَشِيّاً وَحينَ تُظْهِرُونَ_ يُخرجُ الحَىَّ منَ الْمَيِّت وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ منَ الْحَىِّ وَيُحْيِي الارْضَ بَعْدَ مَوْتهَا وَكَذلكَ تُخْرجونَ_ وَمنْ آيَاته اَنْ خَلَقَكُمْ منْ تُرَاب ثُمَّ اذَآ اَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشرُونَ_ وَمنْ آيَاته اَنْ خَلَقَ لَكُمْ منْ اَنْفُسكُمْ اَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا اِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً اِنَّ في ذلكَ لايات ٍ

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَـ وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّموَاتِ وَالاَرْضِ وَاْخْتلافُ اَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَانِكُمْ اِنَّ فِى ذلِكَ لاَيَاتٍ لِلْعَالمِينَـ وَمِنْ آيَاتِه مَنَامُكُمْ بِالّيْلِ والنَّهَارِ وَاْبتغَآؤُكُمْ مِنْ فَضْلِه اِنَّ فِى ذلِكَ لاَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَـ وَمِنْ آيَاتِه يُرِيكُمُ اْلبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِلُ مِنَ السَّمآءِ مَآءً فَيُحْيِى بِهِ اْلاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا اِنَّ فِى ذلِكَ لاَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَـ وَمِنْ آيَاتِه اَنْ تَقُومَ السَّمآءُ وَاْلاَرضُ بِاَمْرِه ثُمَّ اِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الاَرْضِ اِذا اَنْتُمْ تَخرُجُونَـ وَلَهُ مَنْ فِى السَّمواتِ وَاْلارْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَـ وَهُوَ الَّذى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ اَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الاَعْلى فِى السَّمواتِ وَالارْضِ وَهُوَ الْعَزيزُ الحَكيمُ) (الروم17 - 27)

سنُبيّن في هذا (الشعاع التاسع) برهاناً قوياً، وحجةً كبرى، لما تبينه هذه الآيات الكريمة من محور الايمان وقطبه، وهو الحشر، ومن البراهين السامية المقدسة الدالة عليه.

وانه لعناية ربانية لطيفة ان كتب (سعيد القديم)[40] قبل ثلاثين سنة في ختام مؤلّفه (محاكمات) الذي كتبه مقدمة لتفسير (اشارات الاعجاز في مظان الايجاز) ما يأتي:

المقصد الثاني: سوف يفسر آيتين تبيّنان الحشر وتشيران اليه.

ولكنه ابتدأ بـ: نخو[41] بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم. وتوقف، ولم تتح له الكتابة.

فألف شكر وشكر للخالق الكريم وبعدد دلائل الحشر واماراته أن وفّقني لبيان ذلك التفسير بعد ثلاثين سنة. فأنعمَ سبحانه وتعالى عليّ بتفسير الآية الاولى:

(فَانْظُر إلى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا اِنَّ ذَلِكَ لَمُحيِي الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ) (الروم: 50)

وذلك بعد نحو عشر سنوات، فأصبحت (الكلمة العاشرة) و (الكلمة التاسعة والعشرين) وهما حجتان ساطعتان قويتان اخرستا المنكرين الجاحدين..

---

[40] »سعيد القديم« هو اللقب الذي يطلقه النورسي على نفسه قبل قيامه بتأليف رسائل النور (1926) وقبل أن يأخذ »سعيد الجديد« على عاتقه مهمة انقاذ الايمان، ويستلهم من فيض القرآن الكريم رسائل النور. ـــــ المترجم.

[41] نخو: كلمة كردية باللهجة الكرمانجية الشمالية، تعني: فإذن. ـــــ المترجم.

وبعد حوالى عشر سنوات من بيان ذلك الحصن الحصين للحشر، أفاض عليّ سبحانه وتعالى وانعم بتفسير الآيات المتصدرة لهذا الشعاع، فكان هذه الرسالة.

فهذا (الشعاع التاسع) عبارة عن تسعة مقامات سامية مما اشارت اليها الآيات الكريمة مع مقدمة مهمة.

المقدمة

هذه المقدمة نقطتان: سنذكر اولاً وباختصار نتيجة واحدة جامعة من بين النتائج الحياتية والفوائد الروحية لعقيدة الحشر، مبينين مدى ضرورة هذه العقيدة للحياة الانسانية ولاسيما الاجتماعية.

ونورد كذلك حجة كلية واحدة - من بين الحجج العديدة لعقيدة الايمان بالحشر - مبينين ايضاً مدى بداهتها ووضوحها حيث لا يداخلها ريب ولا شبهة.

النقطة الأولى

سنشير إلى أربعة أدلة على سبيل المثال وكنموذج قياسي من بين مئات الادلة على أن عقيدة الاخرة هي أس الاساس لحياة الإنسان الاجتماعية والفردية، وأساس جميع كمالاته ومُثله وسعادته.

الدليل الأول:

ان الاطفال الذين يمثلون نصف البشرية، لا يمكنهم ان يتحمّلوا تلك الحالات التي تبدو مؤلمةً ومفجعة امامَهم من حالات الموت والوفاة اِلاّ بما يجدونه في انفسهم وكيـــانهم الرقيـــق اللطيف من القوة المعنوية الناشئة من "الايمان بالجنة". ذلك الايمان الذي يفتح بـــاب الامـــل المشرق أمام طبائعهم الرقيقة التي لا تتمكن من المقاومة والصـــمود وتبكـــي لأدنى ســـبب. فيتمكنون به من العيش بهناء وفرح وسرور. فيحاور الطفل المؤمن بالجنة نفســـه: "أن اخـــي الصغير أو صديقي الحبيب الذي توفي، اصبح الآن طيراً من طيور الجنة، فهو اذن يسرح مـــن الجنة حيث يشاء، ويعيش افضل واهنأ منّا". واِلاّ فلولا هذا الايمان بالجنة لهدم الموتُ الـــذي يصيب اطفالاً امثاله – وكذلك الكبار – تلـــــك القـــــوة المعنـــــوية لهـــــؤلاء الذين لا حيـــــلة لهم ولا قـــــوة، ولحطـــّم نفسياتهم، ولدمّر حياتهم ونغَصها فتبكي عندئذٍ جميع جوارحـــــــهم ولطـــائفهم من روح وقلب وعقل مع بكـــاء عيـــونهم. فإمـــا أن تمـــوت احاسيسهم وتغلظ مشاعرهم أو يصبحوا كالحيوانات الضالة التعسة.

الدليل الثاني:

اِن الشيوخ الذين هم نصف البشرية، انما يتحملون ويصبرون وهم على شفير القبر بـــ "الايمان بالآخرة". ولا يجدون الصبر والسلوان من قرب انطفاء شعلة حياتهم العزيزة علـــيهم، ولا من انغلاق باب دنياهم الحلوة الجميلة في وجوههم اِلاّ في ذلك الايمان. فهؤلاء الشـــيوخ الذين عادوا كالاطفال واصبحوا مرهفي الحس في أرواحهم وطبائعهم، انما يقـــابلون ذلـــك اليأس القاتل الأليم الناشئ من الموت والزوال، ويصبرون عليه بالأمل في الحياة الآخـــرة. والاّ فلولا هذا الايمان بالآخرة لشعر هؤلاء الآباء والامهات – الذين هم اجدر بالشفقة والرأفـــة والذين هم في أشد الحاجة إلى الاطمئنان والسكينة والحياة الهادئة – ضراماً روحياً واضطراباً نفسياً وقلقاً قلبياً، ولضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، ولتحولت سجناً مظلماً رهيباً، ولانقلبت الحياة إلى عذاب أليم قاسٍ.

الدليل الثالث:

ان الشباب والمراهقين الذين يمثلون محور الحياة الاجتماعية لا يهدّئ فورة مشـــاعرهم، ولا يمنعهم من تجاوز الحدود إلى الظلم والتخريب، ولا يمنع طيش انفسهم ونـــــزواتها، ولا

يؤمّن السير الافضل في علاقاتهم الاجتماعية الاّ الخوف من نار جهنم. فلولا هذا الخوف من عذاب جهنم لقلب هؤلاء المراهقون الطائشون الثملون بأهوائهم الدنيا إلى جحيم تتأجج على الضعفاء والعجائز، حيث "الحُكُم للغالب" ولحوّلوا الحياة الانسانية السامية إلى حياة حيوانية سافلة.

الدليل الرابع:

ان الحياة العائلية هي مركز تجمّع الحياة الدنيوية ولولبها وهي جنة سعادتها وقلعتها الحصينة وملجأها الامين. وان بيت كل فرد هو عالَمه ودنياه الخاصة. فلا سعادة لروح الحياة العائلية الاّ بالاحترام المتبادل الجاد والوفاء الخالص بين الجميع، والرأفة الصادقة والرحمة التي تصل إلى حد التضحية والايثار. ولا يحصل هذا الاحترام الخالص والرحمة المتبادلة الوفية الاّ بالايمان بوجود علاقات صداقة أبدية، ورفقة دائمة، ومعيّة سرمدية، في زمن لا نهاية له، وتحت ظل حياة لا حدود لها، تربطها علاقات أبوّةٍ محترمة مرموقة، واخوةٍ خالصة نقية، وصداقةٍ وفيّة نزيهة، حيث يحدّث الزوجُ نفسه: "ان زوجتي هذه رفيقة حياتي وصاحبتي في عالم الابد والحياة الخالدة، فلا ضير ان اصبحت الان دميمة أو عجوزاً، اذ إن لها جمالاً أبدياً سيأتي، لذا فأنا مستعد لتقديم اقصى ما يستوجبه الوفاء والرأفة، وأضحي بكل ما تتطلبه تلك الصداقة الدائمة".. وهكذا يمكن أن يكنّ هذا الرجل حباً ورحمة لزوجته العجوز كما يكنّه للحور العين. والاّ فان صحبة وصداقة صورية تستغرق ساعة أو ساعتين ومن ثم يعقبها فراق أبدي ومفارقة دائمة لهي صحبة وصداقة ظاهرية لا اساس لها ولا سند. ولا يمكنها ان تعطي الاّ رحمة مجازية، واحتراماً مصطنعاً، وعطفاً حيواني المشاعر، فضلاً عن تدخُل المصالح والشهوات النفسانية وسيطرتها على تلك الرحمة والاحترام فتنقلب عندئذٍ تلك الجنة الدنيوية إلى جحيم لا يطاق.

وهكذا فان نتيجة واحدة للايمان بالحشر من بين مئات النتائج التي تتعلق بالحياة الاجتماعية للانسان، وتعود اليها، والتي لها مئات الأوجه والفوائد، اذا ما قيست على تلك الدلائل الاربعة المذكورة آنفاً، يُدرك أن وقوع حقيقة الحشر وتحققها قطعي كقطعية ثبوت حقيقة الإنسان السامية وحاجاته الكلية. بل هي اظهر دلالة من حاجة المعدة إلى الاطعمة

والاغذية، واوضح شهادةً منها. ويمكن ان يقدّر مدى تحققها تحققاً أعمق واكثر اذا ما سلبت الانسانية من هذه الحقيقة، الحشر، حيث تصبح ماهيتها التي هي سامية ومهمة وحيوية بمثابة جيفة نتنة ومأوى الميكروبات والجراثيم.

فليلق السمعَ علماء الاجتماع والسياسة والاخلاق من المعنيين بشؤون الإنسان واخلاقه واجتماعه، وليأتوا ويبينوا بماذا سيملأون هذا الفراغ؟ وبماذا سيداوون ويضمدون هذه الجروح الغائرة العميقة؟!

النقطة الثانية

تبين هذه النقطة بايجاز شديد برهاناً واحداً - من بين البراهين التي لا حصر لها - على حقيقة الحشر وهو ناشئ من خلاصة شهادة سائر الاركان الايمانية. وعلى النحو الآتي.

ان جميع المعجزات الدالة على رسالة سيدنا محمد ρ مع جميع دلائل نبوته وجميع البراهين الدالة على صدقه، تشهد بمجموعها معاً، على حقيقة الحشر، وتدل عليها وتثبتها، لأن دعوته ρ طوال حياته المباركة قد انصبّت بعد التوحيد على الحشر. وأن جميع معجزاته وحججه الدالة على صدق الانبياء عليهم السلام - وتحمل الآخرين على تصديقهم - تشهد على الحقيقة نفسها، وهي الحشر. وكذا شهادة "الكتب المنزلة" التي رقّت الشهادة الصادرة من "الرسل الكرام" إلى درجة البداهة، تشهدان على الحقيقة نفسها. وعلى النحو الآتي:

فالقرآن الكريم - ذو البيان المعجز - يشهد بجميع معجزاته وحججه وحقائقه - التي تثبت أحقيته - على حدوث الحشر ويثبته، حيث ان ثُلث القرآن بأكمله، وأوائل أغلب السور القصار، آيات جلية على الحشر. أي أن القرآن الكريم ينبئ عن الحقيقة نفسها بآلاف من آياته الكريمة صراحة أو اشارةً ويثبتها بوضوح، ويظهرها بجلاء. فمثلاً:

(اذا الشمسُ كُوِّرت)

(يا ايها الناسُ اتقوا ربَّكم ان زلزلة الساعة شيءٌ عظيم)

(اذا زلزلت الارض زلزالها)

(اذا السماءُ انفطرت)

(اذا السماء انشقت)

(عمّ يتساءلون)

(هل اتاك حديثُ الغاشية)

فيثبت القرآن الكريم بهذه الآيات وأمثالها في مفتتح ما يقارب أربعين سورة ان الحشر لا ريب فيه، وأنه حَدثٌ في غاية الأهمية في الكون، وان حدوثه ضروري جداً ولابد منه، ويبين بالآيات الأخرى دلائل مختلفة مقنعة على تلك الحقيقة.

تُرى ان كان كتاب تثمر اشارةٌ واحدةٌ لآيةٍ من آياته تلك الحقائق العلمية والكونية المعروفة بالعلوم الاسلامية، فكيف اذن بشهادة آلاف من آياته ودلائله التي تبين الايمان بالحشر كالشمس ساطعة؟ ألا يكون الجحود بهذا الايمان كانكار الشمس بل كانكار الكائنات قاطبة؟! ألا يكون ذلك باطلاً ومحالاً في مائة محال؟!

تُرى هل يمكن أن يوصَم آلاف الوعد والوعيد لكلام سلطان عزيز عظيم بالكذب أو انها بلا حقيقة، في حين قد يخوض الجيش غمار الحرب لئلا تُكذَّب اشارةٌ صادرة من سلطان.

فكيف بالسلطان المعنوي العظيم الذي دام حكمه وهيمنته ثلاثة عشر قرناً دون انقطاع، فربّى ما لا تعد من الارواح والعقول والقلوب والنفوس، وزكّاها وأدارها على الحق والحقيقة، ألا تكفي اشارة واحدة منه لإثبات حقيقة الحشر؟ علماً أن فيه آلاف الصراحة الواضحة المثبتة! أليس الذي لا يدرك هذه الحقيقة الواضحة احمقَ جاهلاً؟ ألا يكون من العدالة المحضة ان تكون النار مثواه؟

ثم ان الصحف السماوية والكتب المقدسة جميعها التي حكَمت كل منها لفترة من العصور والازمنة، قد صدّقت بآلاف من الدلائل دعوى القرآن الكريم في حقيقة الحشر مع ان بيانها لها مختصر وموجز، وذلك بمقتضى زمانها وعصرها، تلك الحقيقة القاطعة التي بيّنها القرآن الكريم الذي ساد حكمه على العصور جميعها، وهيمن على المستقبل كله، بيّنها بجلاء وافاض في ايضاحها.

يُدرج هنا نص ما جاء في آخر رسالة (المناجاة) انسجاماً مع البحث، تلك الحجة القاطعة الملخَّصة للحشر، والناشئة من شهادة سائر الاركان الايمانية ودلائلها على الايمان

باليوم الآخر، ولاسيما الايمان بالرسل والكتب، والتي تبدد الاوهام والشكوك، حيث جاءت باسلوب موجز، وعلى صورة مناجاة.

"يا ربي الرحيم.. لقد أدركتُ بتعليم الرسول ρ وفهمتُ من تدريس القرآن الحكيم، ان الكتبَ المقدسة جميعها، وفي مقدمتها القرآن الكريم، والأنبياءَ عليهم السلام جميعهم، وفي مقدمتهم الرسول الاكرم ρ، يدلّون ويشهدون ويشيرون بالاجماع والاتفاق إلى ان تجليـــات الاسماء الحسنى - ذات الجلال والجمال - الظاهرةَ آثارُها في هذه الدنيا، وفي العوالم كافـــة، ستدوم دواماً اسطعَ وأبهرَ في أبد الآباد.. وان تجلياتها - ذات الرحمة - وآلاءها المــــشاهدة نمــاذجـــــها في هذا العـــالم الفاني، ستثمر بابهى نور واعظم تألق، وستبقى دومـــاً في دار السعادة.. وان اولئك المشتاقين الذين يتـــــملّونها - في هـــــــذه الحيـــــــاة الـــدنيا القصـــــيرة - بلهفـــــةٍ وشـــــوق سيرافــقــونـــها بالمحبة والودّ، ويصحبونها إلى الابد، ويظلون معها خالدين.. وان جميع الانبياء وهم ذوو الارواح النيرة وفي مقدمتهم الرســـول الاكرمρ ، وجميع الأولياء وهم اقطاب ذوي القلوب المنورة، وجميع الصديقين وهم منـــابع العقول النافذة النيّرة، كل اولئك يؤمنون ايماناً راسخاً عميقاً بالحشر ويشهدون عليه ويبشرون البشرية بالسعادة الأبدية ، وينذرون اهل الضلالة بأن مصيرهم النار، ويبشرون أهل الهداية بأن عاقبتهم الجنة، مستندين إلى مئات المعجزات الباهرة والآيات القاطعة، والى ما ذكرتَه انت يا ربي مراراً وتكراراً في الصحف السماوية والكتب المقدسة كلها من آلاف الوعد والوعيـــد. ومعتمدين على عزة جلالك وسلطان ربوبيتك، وشؤونك الجليلة، وصفاتك المقدسة كالقدرة والرحمة والعناية والحكمة والجلال والجمال وبناءً على مشاهداتهم وكشفياتهم غير المعدودة التي تنبئ عن آثار الآخرة ورشحاتها. وبناءً على ايمانهم واعتقادهم الجازم الذي هو بدرجة علـــم اليقين وعين اليقين.

فيا قدير ويا حكيم ويا رحمن ويا رحيم ويا صادق الوعد الكريم، ويا ذا العزة والعظمة والجلال ويا قهار ذو الجلال. انت مقدّس ومنـــزهٌ، وانت متعال عن ان تُوصِم بالكذب كل أوليائك وكل وعودك وصفاتك الجليلة وشؤونك المقدسة.. فتكذّبهم، أو تحجب ما يقتضـــيه قطعاً سلطان ربوبيتك بعدم استجابتك لتلك الأدعية الصادرة من عبادك الصـــالحين الـــذين

احببتهم واحبّوك، وحبّبوا انفسهم اليك بالايمان والتصديق والطاعة، فانت منــزه ومتعــال مطلق عن أن تصدّق أهل الضلالة والكفر في انكارهم الحشر، اولئك الذين يتجاوزون علــى عظمتك وكبريائك بكفرهم وعصيانهم وتكذيبهم لك ولوعودك، والذين يســتخفّون بعــزة جلالك وعظمة ألوهيتك ورأفة ربوبيتك..

فنحن نقدّس بلا حد ولا نهاية عدالتَك وجمالك المطلقين ورحمتك الواسعة وننـــزهها من هذا الظلم والقبح غير المتناهي..

ونعتقد ونؤمن بكل ما اوتينا من قوة بأن الآلاف من الرسل والأنبياء الكرام، وبما لا يعدّ ولا يحصى من الاصفياء والأولياء الذين هم المنادون اليك هم شاهدون بحق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين على خزائن رحمتك الأخروية وكنوز احساناتك في عالم البقاء، وتجليات اسمائك الحسنى التي تنكشف كلياً في دار السعادة..

ونؤمن ان هذه الشهادة حق وحقيقة، وان اشاراتهم صدق وواقع، وان بشاراتهم صادقة وواقعة.. فهؤلاء جميعاً يؤمنون بأن هذه الحقيقة الكبرى - أي الحشر - شعاع عظيم من اسم "الحق" الذي هو مرجع جميع الحقائق وشمسها، فيرشدون عبادك - باذن منك - ضمن دائرة الحق، ويعلمونهم بعين الحقيقة.

فيا ربي! بحق دروس هؤلاء، وبحرمة ارشاداتهم، آتنا ايماناً كاملاً وارزقنا حسن الخاتمــة، لنا ولطلاب النور، واجعلنا اهلاً لشفاعتهم... آمين".

وهكذا فان الدلائل والحجج التي تثبت صدق القرآن الكريم بل جميع الكتب السماوية، وان المعجزات والبراهين التي تثبت نبوة حبيب الله بل الانبياء جميعهم، تثبت بدورها أهم مــا يدعون اليه، وهو تحقق الآخرة وتدل عليها. كما ان اغلب الادلة والحجج الشــاهدة علــى وجوب واجب الوجود ووحدته سبحانه، هي بدورها شاهدة على دار السعادة وعالم البقــاء التي هي مدار الربوبية والالوهية وأعظم مظهر لهما، وهي شاهدة على وجود تلــك الــدار وانفتاح أبوابها - كما سيُبين في المقامات الآتية - لأن وجوده سبحانه وتعــالى، وصــفاته الجليلة، وأغلب اسمائه الحسنى، وشؤونه الحكيمة، وأوصافه المقدسة أمثال الربوبية والالوهيــة

والرحمة والعناية والحكمة والعدالة تقتضي جميعها الآخرة وتلازمها، بل تستلزم وجود عــالم البقاء بدرجة الوجوب وتطلب الحشر والنشور للثواب والعقاب بدرجة الضرورة أيضاً.

نعم، ما دام الله موجوداً، وهو واحد، أزلي أبدي، فلابد ان محور سلطان الوهيته وهــو الآخرة، موجود ايضاً.. وما دامت الربوبية المطلقة تتجلى في هذه الكائنــات ولا ســيما في الاحياء وهي ذات جلال وعظمة وحكمة ورأفة ظاهرة واضحة، فلابد أن هناك سعادة أبدية تنفي عن الربوبية المطلقة أيّ ظن بكونها تترك الخلق هملاً دون ثواب، وتبرئ الحكمــة مــن العبث، وتصون الرأفة من الغدر. أي أن تلك الدار موجودة قطعاً ولابد من الدخول فيها.

وما دامت هذه الأنواع من الإنعام والاحسان واللطف والكرم والعناية والرحمة مشاهدة وظاهرة أمام العقول التي لم تنطفئ، وامام القــلوب الــتي لــم تمــت، وتدلّنا علــى وجوب وجود رب رحمن رحيم وراء الحجاب، فلابد من حياة باقية خالدة، لتنقذ الإنعامَ من الاستهزاء أي يأخذ الانعام مداه، وتصون الاحسان من الخداع ليستوفي حقيقته، وتنقذ العناية من العبث لتــستكمل تحقــقها، وتنجي الرحمــة من النقمة فيتم وجوهــا، وتــبرىء اللطف والكرم من الاهانة ليفيضا على العباد. نعم، ان الذي يجعل الاحسان احساناً حقــاً، والنعمة نعمةً حقاً، هو وجود حياةٍ باقيةٍ خالدةٍ في عالم البقاء والخلود.. نعم، لابد ان يتحقق هذا.

وما دام قلم القدرة الذي يكتب في فصل الربيع وفي صحيفة ضيقة صغيرة، مائة الــف كتاب، كتابةً متداخلة بلا خطأ ولا نصب ولا تعب، كما هو واضح جليٌ امام اعيننــا. وان صاحب ذلك القلم قد تعهّد ووعد مائة ألف مرة لأكتبنّ كتاباً اسهل مــن كتــاب الربيــع المكتوب أمامكم ولأكتبنّه كتابةً خالدة، في مكان اوسع وارحبَ وأجملَ من هذا المكان الضيق المختلط المتداخل.. فهو كتاب لا يفنى ابداً، ولأجعلنكم تقرأونه بحــيرة واعجــاب!. وانــه سبحانه يذكر ذلك الكتاب في جميع أوامره، اي ان اصول ذلك الكتاب قد كُتبت بلا ريب، وستُكتب حواشيه وهوامشه بالحشر والنشور، وستدوّن فيه صحائف اعمال الجميع..

وما دامت هذه الارض قد اصبحت ذات اهمية عظمى من حيث احتواؤها على كثــرة المخلوقات، ومئات الالوف من انواع ذوي الحياة والأرواح المختلفة المتبدلة، حتى صــارت

قلب الكون وخلاصته، ومركزه وزبدته ونتيجته وسبب خلقه. فذُكرت دائماً صنواً للسماوات كما في (رَبُّ السَّموَاتِ وَالاَرْضِ) في جميع الأوامر السماوية...

وما دام ابن آدم يحكم في شتى جهات هذه الارض – التي لها هذه الماهيات والخواص – ويتصرف في اغلب مخلوقاتها مسخّراً اكثر الاحياء له، جاعلاً اكثر المصنوعات تحوم حوله وفق مقاييسه وهواه، وحسب حاجاته الفطرية، وينظمها ويعرضها ويزيّنها، وينسّق الأنواع العجيبة منها في كل مكان بحيث لا يلفت نظر الانس والجن وحدهم، بل يلفت ايضاً نظر أهل السموات والكون قاطبة، بل حتى نظر مالك الكون، فنال الاعجاب والتقدير والاستحسان، وأصبحت له – من هذه الجهة – أهمية عظيمة، وقيمة عالية، فاظهر بما أوتي من علم ومهارة انه هو المقصود من حكمة خلق الكائنات، وأنه هو نتيجتها العظمى وثمرتها النفيسة، ولا غرو فهو خليفة الارض..وحيث أنه يعرض صنائع الخالق البديعة، وينظّمها بشكل جميل جذاب في هذه الدنيا، فقد أُجّل عذابه على عصيانه وكفره، وسُمح له بالعيش في الدنيا وأُمهل ليقوم بهذه المهمة بنجاح..

وما دام لابن آدم – الذي له هذه الماهية والمزايا خلقةً وطبعاً، وله حاجات لا تُحدّ مع ضعفه الشديد، وآلام لا تُعدّ مع عجزه الكامل – ربٌ قدير، له القدرة والرأفة المطلقة مما يجعل هذه الارض الهائلة العظيمة مخزناً عظيماً لأنواع المعادن التي يحتاجها الانسان، ومستودعاً لأنواع الاطعمة الضرورية له، وحانوتاً للأموال المختلفة التي يرغبها، وانه سبحانه ينظر إليه بعين العناية والرأفة ويربيه ويزوده بما يريد...

وما دام الرب سبحانه – كما في هذه الحقيقة – يحبّ الانسان، ويحبّب نفسه اليه، وهو باقٍ، وله عوالم باقية، ويُجري الامور وفق عدالته، ويعمل كل شئ وفق حكمته، وان عظمة سلطان هذا الخالق الأزلي وسرمدية حاكميته لا تحصرهما هذه الدنيا القصيرة، ولا يكفيهما عمر الإنسان القصير جداً، ولا عمر هذه الارض المؤقتة الفانية. حيث يظل الإنسان دون جزاء في هذه الدنيا لما يرتكبه من وقائع الظلم، وما يقترفه من انكار وكفر وعصيان، تجاه مولاه الذي انعم عليه ورباه برأفة كاملة وشفقة تامة، مما ينافي نظام الكون المنسّق، ويخالف العدالة والموازنة الكاملة التي فيها، ويخالف جماله وحسُنه، اذ يقضي الظالم القاسي حياته براحة، بينما

المظلوم البائس يقضيها بشظف من العيش. فلا شك ان ماهية تلك العدالة المطلقة - التي يشاهد آثارها في الكائنات - لا تقبل أبداً، ولا ترضى مطلقاً، عدم بعث الظالمين العتاة مع المظلومين البائسين الذين يتساوون معاً امام الموت.

وما دام مالك الملك قد اختار الارض من الكون، واختار الإنسان من الارض، ووهب له مكانة سامية، وأولاه الاهتمام والعناية، واختار الانبياء والأولياء والأصفياء من بين الناس، وهم الذين انسجموا مع المقاصد الربانية، وحبّبوا انفسهم إليه بالايمان والتسليم، وجعلهم أولياءه المحبوبين المخاطبين له، واكرمهم بالمعجزات والتوفيق في الأعمال وأدّب اعداءهم بالصفعات السماوية، واصطفى من بين هؤلاء المحبوبين إمامَهم ورمزَ فخرهم واعتزازهم، ألا وهو محمدρ . فنوّر بنوره نصف الكرة الأرضية ذات الأهمية، وخُمس البشرية ذوي الأهمية، طوال قرون عدة، حتى كأن الكائنات قد خُلقت لأجله، لبروز غاياتها جميعاً به، وظهورها بالدين الذي بُعث به، وانجلائها بالقرآن الذي اُنزل عليه. فبينما يستحق أن يكافأ على خدماته الجليلة غير المحدودة بعمرٍ مديد غير محدود وهو أهلٌ له، الاّ أنه قضى عمراً قصيراً وهو ثلاث وستون سنة في مجاهدة ونصَب وتعب! فهل يمكن، وهلْ يعقل مطلقاً، وهل هناك أي احتمال ألاّ يُبعَث هو وأمثاله وأحباؤه معاً؟! وألاّ يكون الآن حياً بروحه؟! وان يفنى نهائياً ويصير إلى العدم؟ كلا.. ثم كلا.. وحاشاه ألف ألف مرة. نعم، ان الكون وجميع حقائق العالم يدعو إلى بعثه ويريده ويطلب من رب الكون حياتَه.

ولقد بيّنتْ رسالة "الآية الكبرى" وهي الشعاع السابع واثبتت بثلاثة وثلاثين اجماعاً عظيماً، كل منه كالجبل الأشم في قوة حجّته، بأن هذا الكون لم يصدر الاّ من يد واحد أحد، وليس ملكاً الا لواحد احد. فاظهرت التوحيد - بتلك البراهين والمراتب بداهةً - انه محور الكمال الآلهي وقطبه. وبيّنت أنه بالوحدة والأحدية يتحول جميعُ الكون بمثابة جنودٍ مستنفرين لذلك الواحد الاحد، وموظفين مسخّرين له. وبمجئ الآخرة ووجودها تتحقق كمالاته وتصان من السقوط وتسود عدالته المطلقة، وتنجو من الظلم، وتُنزه حكمته العامة وتبرأ من العبث والسفاهة، وتأخذ رحمتُه الواسعة مداها، وتُنقذ من التعذيب المشين. وتبدو عزته

وقدرته المطلقتان وتُنقَذان من العجز الذليل. وتتقدّس كل صفة من صفاته سبحانه وتتجلـــى منـــزهة جليلة.

فلابد ولا ريب مطلقاً أن القيامة ستقوم، وان الحشر والنشور سيحدث، وان أبواب دار الثواب والعقاب ستُفتح، بمقتضى ما في حقائق هذه الفقرات الثمانية المذكورة المبتدئة بـــ "ما دام" التي هي مسألة دقيقة ونكتة ذات مغزى لطيف من بين مئات النكات الدقيقـــة للايمـــان باللّه؛ وذلك: كي تتحقق اهمية الارض ومركزيتها، وأهمية الانسانية ومكانتها.. ولكي تتقرر عدالة رب الارض والانسان وحكمته ورحمته وسلطانه.. ولكي ينجو الاولـيـــاء والاحبّـــاء الحقيقيون والمشتاقون إلى الرب الباقي من الفناء والاعدام الأبدي.. ولكي يـــرى اعظمُهـــم وأحبّهم وأعزّهم ثوابَ عمله، ونتائج خدماته الجليلة التي جعلت الكائنات في امتنان ورضـــى دائمين.. ولكي يتقدس كمال السلطان السرمدي من النقص والتقصير، وتتنـــزه قدرتُه مـــن العجز، وتبرأ حكمتُه من السفاهة، وتتعالى عدالته عن الظلم.

والخلاصة: ما دام الله جل جلاله موجوداً فان الآخرة لا ريب فيها مطلقاً.

وكما تثبت الاركان الايمانية الثلاثة – المذكورة آنفاً – الحشرَ بجميع دلائلها وتشـــهد عليه. كذلك يستلزم الركنان الايمانيان "وبملئكته، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى" أيضـــاً الحشرَ، ويشهدان شهادة قوية على العالم الباقي ويدلان عليه على النحو الآتي:

ان جميع الدلائل والمشاهدات والمكالمات الدالة على وجود الملائكة ووظائف عبوديتهم، هي بدورها دلائل على وجود عالم الأرواح وعالم الغيب وعالم البقاء وعـــالم الآخـــرة ودار السعادة والجنة والنار اللتين ستعمران بالجن والانس، لان الملائكة يمكنهم – بإذن إلهي – ان يشاهدوا هذه العوالم ويدخلوها، لذا فالملائكة المقربون يخبرون بالاتفاق – كجبريـــل عليـــه السلام الذي قابل البشر – بوجود تلك العوالم المذكورة وتجوالهم فيها. فكما اننا نعلم بديهة وجود قارة امريكا التي لم نرها من كلام القادمين منها، كذلك يكون الايمان بديهة بما اخبرت به الملائكة – وهو بقوة مائة تواتر – عن وجود عالم البقاء ودار الآخرة والجنـــة والنـــار... وهكذا نؤمن ونصدق.

وكذلك الدلائل التي تثبت "الايمان بالقدر" - كما جاءت في رسالة القـــدر "الكلمـــة السادسة والعشرين" هي بدورها دلائل على الحشر ونشر الصحف وموازنة الاعمـــال عنـــد الميزان الاكبر، ذلك لأن ما نراه أمام أعيننا من تدوين مقدّرات كل شئ على ألواح النظـــام والميزان، وكتابة احداث الحياة ووقائعها لكل ذي حياة في قواه الحافظة، وفي حبوبه ونـــواه، وفي سائر الالواح المثالية. وتثبيت دفاتر الاعمال لكل ذي روح ولا سيما الانسان، واقرارها في ألواح محفوظة.. كل هذا القدر من القَدَر المحيط، ومن التقدير الحكـــيم، ومـــن التـــدوين الدقيق، ومن الكتابة الأمينة، لا يمكن أن يكون الاّ لأجل محكمة كبرى، ولنيل ثواب وعقاب دائمين. والاّ فلا يبقى مغزى ولا فائدة أبداً، لذلك التدوين المحيط والكتابة التي تسجل وتحفظ أدق الامور. فيقع اذن ما هو خلاف الحكمة والحقيقة. أي اِنْ لم يحدث الحشر فـــان جميـــع معاني كتاب الكون الحقة التي كتبت بقلم القَدَر سوف تمسخ وتفسد! وهـــذا لا يمكـــن أن يكون مطلقاً، وليس له احتمال ابداً، بل هو محال في محال. كإنكار هذا الكون، بل هو هذيان ليس اِلاّ.

نحصل مما تقدم: ان جميع دلائل اركان الايمان الخمسة هي بدورها دلائل على الحشـــر ووجوده، وعلى النشور وحدوثه، وعلى وجود الدار الآخرة وانفتاح ابوابها. بـــل تســـتدعيه وتشهد عليه، لذا فانه من الوفاق الكامل والانسجام التام ان يبحث ثلث القرآن الكريم المعجز البيان بكامله عن الحشر لما له من الاسس والبراهين التي لا تتزعزع، ويجعله اساساً وركيـــزة لجميع حقائقه التي يرفعها على ذلك الحجر الاساس.

(انتهت المقدمة)

القطعة الثانية

من الذيل

هي المقام الاول من تسعة مقامات لطبقات البراهين التسع التي تدور حول الحشر والتي أشارت اليها باعجاز الآية الكريمة الآتية:

(فَسبحانَ الله حين تُمسون وحين تُصبحون_ وله الحمدُ في السموات والارض وَعَشياً وحين تُظهرون_ يُخرج الحيَّ من الميتِ ويُخرج الميتَ من الحي ويُحيي الارضَ بعــد موتهــا وكذلك تخرجون) (الروم: 17 - 19)

سيُبيَّن – ان شاء الله – ما اظهرته هذه الآيات الكريمة من البرهان الباهر والحجة القاطعة للحشر.[42]

ولقد بيّنت في الخاصة الثامنة والعشرين من الحياة، ان الحياة تثبت اركان الايمان الستة، وتتوجه نحوها وتشير إلى تحقيقها.

نعم! فما دامت (الحياة) هي حكمة خلق الكائنات، واهم نتيجتها وجوهرهــا، فــلا تنحصر تلك الحقيقة السامية في هذه الحياة الدنيا الفانية القصيرة الناقصة المؤلمة، بل أن الخواص التسع والعشرين للحياة وعظمة ماهيتها، وما يُفهم من غاية شجرتها ونتيجتها، وثمرتها الجديرة بعظمة تلك الشجرة، ما هي الاّ الحياة الأبدية والحياة الآخرة والحياة الحية بحجرها وترابهــا وشجرها في دار السعادة الخالدة. والاّ يلزم ان تظل شجرة الحياة المجهَّزة بهذه الأجهزة الغزيرة المتنوعة في ذوي الشعور – ولا سيما الإنسان –دون ثمر ولا فائدة ولا حقيقة، ولظل الإنسان تعساً وشقياً وذليلاً وأحط من العصفور بعشرين درجة، بالنسبة لسعادة الحياة، مع أنه أسمــى مخلوق وأكرم ذوي الحياة وارفع من العصفور بعشرين درجة.

بل العقل الذي هو أثمن نعمة يصبح بلاءً ومصيبة على الإنسان بتفكره في أحزان الزمان الغابر ومخاوف المستقبل، فيعذّب قلبَه دائماً معكراً صفو لذة واحدة بتسعة آلام!. ولاشك أن هذا باطل مائة في المائة.

فهذه الحياة الدنيا اذن تثبت ركن (الايمان بالآخرة) اثباتاً قاطعاً بما تظهر لنا في كل ربيع اكثر من ثلاثمائة الف نموذج من نماذج الحشر.

---

[42] لم يكتب هذا المقام بعدُ. وحيث ان مسألة (الحياة) وقضيتها لها علاقة مع الحشر، فقد أُدرجت هنا. وفي ختام هذه المسألة اشارات الحياة الى الركن الايماني (القَدَر)، وهي مسألة دقيقة جداً وعميقة.ـــــ المؤلف

فيا ترى هل يمكن لربّ قدير، يهئ ما يلزم حياتك من الحاجات المتعلقة بها جميعاً ويوفر لك اجهزتها كلها سواءٌ في جسمك أو في حديقتك أو في بلدك، ويرسله في وقته المناسب بحكمة وعناية ورحمة، حتى أنه يعلم رغبة معدتك فيما يكفل لك العيش والبقاء، ويسمع ما تهتف به من الدعاء الخاص الجزئي للرزق مُبدياً قبوله لذلك الدعاء بما بثّ من الاطعمة اللذيذة غير المحدودة ليُطمئن تلك المعدة ! فهل يمكن لهذا المدبّر القدير ان لا يعرفك؟ ولا يراك؟ ولا يهئ الاسباب الضرورية لأعظم غاية للانسان وهي الحياة الأبدية ؟ ولا يستجيب لأعظم دعاء وأهمه وأعمّه، وهو دعاء البقاء والخلود؟ ولا يقبله بعدم انشائه الحياة الآخرة وايجاد الجنة؟ ولا يسمع دعاء هذا الإنسان وهو أسمى مخلوق في الكون بل هو سلطان الارض ونتيجتها.. ذلك الدعاء العام القوي الصادر من الاعماق، والذي يهز العرش والفرش! فهل يمكن أن لا يهتم به اهتمامَه بدعاء المعدة الصغيرة ولا يُرضي هذا الانسان؟ ويعرّض حكمتَه الكاملة ورحمته المطلقة للانكار؟ كلا.. ثم كلا ألف ألف مرة كلا.

وهل يعقل ان يسمع اخفت صوت لأدنى جزء من الحياة فيستمع لشكواه ويسعفه، ويحلم عليه ويربيه بعناية كاملة ورعاية تامة وباهتمام بالغ مسخراً له اكبر مخلوقاته في الكون، ثم لا يسمع صوتاً كهزيم السماء لأعظم حياة وأسماها وألطفها وأدومها؟ وهل يعقل ألاّ يهتم بدعائه المهم وهو دعاء البقاء، وألاّ ينظر إلى تضرعه ورجائه وتوسله؟ ويكون كمن يجهز بعناية كاملة جندياً واحداً بالعتاد، ولا يرعى الجيش الجرار الموالي له !! وكمن يرى الذرة ولا يرى الشمس! أو كمن يسمع طنين الذباب ولا يسمع رعود السماء! حاشَ لله مائة ألف مرة حاشَ للّه.

وهل يقبل العقل – بوجه من الاوجه – ان القدير الحكيم ذا الرحمة الواسعة وذا المحبة الفائقة وذا الرأفة الشاملة والذي يحب صنعته كثيراً، ويحبّب نفسه بها إلى مخلوقاته وهو أشد حباً لمن يحبونه، فهل يعقل ان يُفني حياة مَن هو اكثر حباً له، وهو المحبوب، وأهلٌ للحب، وعابدٌ لخالقه فطرةً؟ ويُفني كذلك لب الحياة وجوهرها وهو الروح، بالموت الأبدي والاعدام النهائي!! ويولّد جفوة بينه وبين محبيه ويؤلمهم أشد الايلام! فيجعل سر رحمته ونور محبته معرّضاً للانكار! حاشَ لله ألف مرة حاش للّه... فالجمال المطلق الذي زيّن بتجليه هذا الكون

وجمّله، والرحمة المطلقة التي أبهجت المخلوقات قاطبة وزيّنتها، لاشك انهما منزهتان ومقدستان بلا نهاية ولا حد عن هذه القساوة وعن هذا القبح المطلق والظلم المطلق.

النتيجة:

ما دامت في الدنيا حياة، فلابد ان الذين يفهمون سر الحياة من البشر، ولا يسيئون استعمال حياتهم، يكونون اهلاً لحياة باقية، في دار باقية وفي جنة باقية... آمنا.

III

ثم، ان تلألؤ المواد اللماعة على سطح الارض، وتلمّع الفقاعات والحباب والزبد على سطح البحر، ثم انطفاء ذلك التلألؤ والبريق بزوال الفقاعات ولمعان التي تعقبها كأنها مرايا لشُميسات خيالية يظهر لنا بداهة ان تلك اللمعات ما هي اِلاّ تجلي انعكاس شمسٍ واحدة عالية. وتذكر بمختلف الالسنة وجود الشمس، وتشير اليها بأصابع من نور.. وكذلك الامر في تلألؤ ذوي الحياة على سطح الارض وفي البحر، بالقدرة الإلهية وبتجلّى اسم "المحيي" للحي القيوم جلّ جلاله، واختفائها وراء ستار الغيب لفسح المجال للذي يخلفها – بعد أن ردّدت "يا حي" – ما هي اِلاّ شهادات واشارات للحياة السرمدية ولوجوب وجود الحي القيوم سبحانه وتعالى.

وكذا، فان جميع الدلائل التي تشهد على العلم الإلهي الذي تُشاهَد آثاره من تنظيم الموجودات، وجميع البراهين التي تثبت القدرة المتصرفة في الكون، وجميع الحجج التي تثبت الارادة والمشيئة المهيمنة على ادارة الكون وتنظيمه، وجميع العلامات والمعجزات التي تثبت الرسالات التي هي مدار الكلام الرباني والوحي الإلهي.. جميع هذه الدلائل التي تشهد وتدلّ على الصفات الإلهية السبع الجليلة، تدل وتشهد أيضاً بالاتفاق على حياة "الحي القيوم" سبحانه؛ لأنه لو وجدت الرؤية في شئ فلابد أن له حياة أيضاً، ولو كان له سمع فذلك علامة الحياة، ولو وجد الكلام فهو اشارة إلى وجود الحياة، ولو كان هناك الاختيار والارادة فتلك مظاهر الحياة.. وهكذا فان جميع دلائل الصفات الجليلة التي تشاهد آثارها ويُعلم بداهة وجودها الحقيقي، أمثال القدرة المطلقة، والارادة الشاملة، والعلم المحيط، تدل على حياة "الحي

القيوم" ووجوب وجوده، وتشهد على حياته السرمدية التي نوّرت بشعاعٍ منها جميعَ الكـــون وأحيَت بتجلٍ منها الدار الآخرة كلها بذراتها معاً..

III

والحياة كذلك تنظر وتدل على الركن الايماني (الايمان بالملائكة) وتثبته رمزاً.

اذ ما دامت الحياة هي أهم نتيجةٍ للكون، وان ذوي الحياة لنفاستهم هم اكثر انتشـــاراً وتكاثراً، وهم الذين يتتابعون إلى دار ضيافة الارض قافلة إثر قافلة، فتعمّر بهم وتبتهج. ومـــا دامت الكرة الأرضية هي محط هذا السيل من ذوي الحياة، فتملأ وتخلى بحكمـــة التجديـــد والتكاثر باستمرار، ويُخلق في أخس الاشياء والعفونات ذوو حياة بغزارة، حـــتى اصـــبحت الكرة الأرضية معرضاً عاماً للاحياء.. وما دام يُخلق بكثرة هائلة على الأرض أصفى خلاصة لترشح الحياة وهو الشعور والعقل والروح اللطيفة ذات الجوهر الثابت، فكـــأن الأرض تحيـــا وتتجمل بالحياة والعقل والشعور والارواح.. فلا يمكن أن تكون الاجرام السماوية التي هـــي اكثر لطافة واكثر نوراً وأعظم أهمية من الارض جامدة بلا حياة وبلا شعور. فالذين سيعمّرون السماوات اذن يعمرونها ويبهجون الشموس والنجوم، ويهبون لها الحيوية، ويمثلون نتيجة خلق السماوات وثمرتها، والذين سيتشرفون بالخطابات السبحانية، هم ذوو شعور وذوو حياة مـــن سكان السموات وأهاليها المتلائمين معها حيث يوجدون هناك بسرّ الحياة، وهم الملائكة.

III

وكذلك ينظر سر الحياة وماهيتها ويتوجه إلى "الايمان بالرسل" ويثبته رمزاً.

نعم! ما دام الكون قد خُلق لأجل الحيـــاة، وان الحيـــــاة هـــــي اعظـــــم تجـــل واكمل نقش وأجمل صنعة للحي القيوم جـــلّ جلاله، وما دامـــت حياتـــه الســـــــرمدية الخـــالدة تظهر وتكشف عن نفسها بارسال الرســـــل وانـــزال الكتب. اِذ لـــو لم تكـــن هناك "رسل" ولا "كتب" لما عُرفت تلك الحياة الازلية، فكما ان تكلم الفرد يـــبين حيويتـــه وحياته كذلك الانبياء والرسل عليهم السلام والكتب المنـــزلة عليهم، يبـــينون ويـــدلون على ذلك المتكلم الحي الذي يأمر وينهى بكلماته وخطاباته من وراء الغيب المحجـــوب وراء ستار الكون. فلابد ان الحياة التي في الكون تدل دلالة قاطعة على "الحـــي الازلي" ســـبحانه

وتعالى وعلى وجوب وجوده،كما أن شعاعات الحياة الازلية كذلك وتجلياتها تنظر وتتوجه إلى مالها ارتباطات وعلاقات معها من اركان الايمان مثل (ارسال الرسل) و (انـــزال الكتـــب) وتثبتهما رمزاً، ولا سيما "الرسالة المحمدية" و "الوحي القرآني". اذ يصح القول: انهما ثابتـــان قاطعان كقطعية ثبوت الحياة، حيث انهما بمثابة روح الحياة وعقلها.

نعم، كما ان الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشـــحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة، فهي ذاتها الثابتة المستقلة. كذلك الحياة المحمدية – المادية والمعنوية – مترشحة من الحياة ومن روح الكون، فهي خلاصة خلاصتها والرسالة المحمديـــة مترشحة من حسّ الكون وشعورهِ وعقلِه، فهي اصفى خلاصته، بل إن حياة محمـــدρ – المادية والمعنوية – بشهادة آثارها حياة لحياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكـــون ونور له. والوحي القرآني بشهادة حقائقه الحيوية روح لحياة الكون وعقل لشعوره.. أجل ... أجل... أجل.

فإذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جنّ جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزلـــزل عقلـــها، وظلت بلا شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفـــضاء، وقامت القيامة.

III

والحـــيـــاة كـــذلك، تنظر إلى الركـــن الإيماني "الـــقـــدر" وتدل عليـــــه وتثبـــته رمـــــزاً؛ إذ ما دامت الحياة ضياءً لعالم الشهادة وقد استولت عليه وأحاطت به، وهي نتيجة الوجود وغايته، واوسع مرآةٍ لتجليات خالق الكون، وأتم فهرس ونموذج للفعالية الربانية، حتى كأنها بمثابة نوع من خطتها ومنهجها – إذا جاز التشبيه – فلابد أن سر الحيـــاة يقتضـــي ان يكون عالم الغيب أيضاً – وهو بمعنى الماضي والمستقبل، أي المخلوقات الماضية والقابلة – في نظام وانتظام وان يكون معلومـــاً ومشـــــــهوداً ومتـــــعيناً ومتـــهيأً لامتثـــال الأوامـــر الـــتـــكوينـــية، أي كـــــأنه في حـــياة معنوية. مَثَلُها كمثل تلك البذرة الاصلية للشجرة

وأصولها، والنوى والأثمار التي في منتهاها، التي تتميز بمزايا نوعٍ من الحياة كالشجرة نفسها. بل قد تحمل تلك البذور قوانين حياتية أدق من قوانين حياة الشجرة.

فكما أن البذور والأصول التي خلفها الخريف الماضي، وسيخلفها هذا الربيع تحمل نور الحياة وتسير وفق قوانين حياتية، مثل ما يحمله هذا الربيع من حياة، كذلك شجرة الكائنات، وكلُّ غصنٍ منه وكلُّ فرعٍ، له ماضيه ومستقبله، وله سلسلة مؤلفة من الأطوار والأوضاع، القابلة والماضية، ولكلّ نوعٍ ولكلّ جزء منه وجودٌ متعدد بأطوار مختلفة في العلم الإلهي، مشكلاً بذلك سلسلةَ وجودٍ علمي. والوجود العلمي هذا، الشبيه بالوجود الخارجي هو مظهرٌ لتجلٍ معنوي للحياة العامة، حيث تؤخذ المقدرات الحياتية من تلك الألواح القدرية الحية ذات المغزى العظيم.

نعم، إن امتلاء عالم الأرواح – وهو نوع من عالم الغيب – بالأرواح التي هي عين الحياة، ومادتها، وجوهرها وذواتها، يستلزم أن يكون الماضي والمستقبل – وهما نوعان من عالم الغيب وقسم ثان منه – متجلّية فيهما الحياة.. وكذا فان الانتظام التام والتناسق الكامل في الوجود العلمي الإلهي لأوضاع ذات معانٍ لطيفة لشيء ما ونتائجَه وأطوارَه الحيوية ليبيّن أن له أهلية لنوع من الحياة المعنوية.

نعم، إن مثل هذا التجلي، تجلي الحياة الذي هو ضياء شمس الحياة الأزلية لن ينحصر في عالم الشهادة هذا فقط، ولا في هذا الزمان الحاضر، ولا في هذا الوجود الخارجي، بل لابد أن لكل عالم من العوالم مظهراً من مظاهر تجلي ذلك الضياء حسب قابليته. فالكونُ إذن بجميع عوالمه، حيّ ومشع مضيء بذلك التجلي، وإلاّ لأصبح كل من العوالم – كما تراه عين الضلالة – جنازة هائلة مخيفة تحت هذه الدنيا المؤقتة الظاهرة، وعالماً خرباً مظلماً.

وهكذا يُفهم وجهٌ من أوجه الإيمان بالقضاء والقدر من سر الحياة ويثبت به ويتضح. أي كما تظهر حيوية عالم الشهادة والموجودات الحاضرة بانتظامها وبنتائجها، كذلك المخلوقات الماضية والآتية التي تعدّ من عالم الغيب لها وجود معنوي، ذو حياة معنى، ولها ثبوت علمي ذو روح بحيث يظهر باسم المقدرات اثر تلك الحياة المعنوية بوساطة لوح القضاء والقدر.

القطعة الثالثة

من الذيل

سؤال يرد بمناسبة مبحث الحشر:

إن ما ورد في القرآن الكريم مراراً (إنْ كَانَتْ اِلاّ صَيْحَةً وَاحِدَةً)(يس:29)، (وَمَآ اَمْرُ السَّاعَةِ اِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ)(النحل:77) يبين لنا أن الحشر الأعظم سيظهر فجأة إلى الوجود، في آن واحد بلا زمان. ولكن العقول الضيقة تطلب أمثلة واقعية مشهودة كي تقبل وتذعن لهذا الحدث الخارق جداً والمسألة التي لا مثيل لها.

الجواب: ان في الحشر ثلاث مسائل هي: عودةُ الارواح إلى الاجساد، وإحياءُ الاجساد، وانشاء الاجساد وبناؤها.

المسألة الأولى: وهي مجئ الارواح وعودها إلى اجسادها ومثاله هو:

اجتماع الجنود المنتشرين في فترة الاستراحة والمتفرقين في شتى الجهات على الصوت المدوي للبوق العسكري.

نعم، ان الصور الذي هو بوق اسرافيل عليه السلام، ليس قاصراً عن البوق العسكري كما أن طاعة الارواح التي هي في جهة الأبد وعالم الذرات والتي أجابت بـ(قَالُوا:بَلى) (الاعراف:172) عندما سمعت نداء (اَلَسْتُ بِرَبِكُم)(الاعراف: 172) المقبل من اعماق الازل ونظامها يفوق بلاشك أضعاف اضعاف ما عند أفراد الجيش المنظم. وقد اثبتت "الكلمة الثلاثون" ببراهين دامغة ان الارواح ليست وحدها جيش سبحاني بل جميع الذرات ايضاً جنوده المتأهبون للنفير العام.

المسألة الثانية: وهي إحياء الاجساد. ومثالُه هو:

مثلما يمكن اِنارة مئات الآلاف من المصابيح الكهربائية ليلة مهرجان مدينة عظيمة، من مركز واحد في لحظة واحدة، كأنها بلا زمان. كذلك يمكن انارة مئات الملايين من مصابيح الأحياء وبعثها على سطح الارض من مركز واحد. فما دامت الكهرباء وهي مخلوقة من مخلوقات الله سبحانه وتعالى وخادمة إضاءة في دار ضيافته، لها هذه الخصائص والقدرة على

القيام بأعمالها حسب ما تتلقاه من تعليمات وتبليغات ونظام من خالقها، فلابد ان الحشـــر الاعظم سيحدث كلمح البصر ضمن القوانين المنظمة الإلهية التي يمثلها آلاف الخدم المنـــوّرِين كالكهرباء.

المسألة الثالثة: وهي انشاء الاجساد فوراً ومثاله هو:

انشاء جميع الاشجار والاوراق التي يزيد عددها ألف مرة على مجموع البشرية، دفعـــة واحدة في غضون بضعة ايام في الربيع، وبشكل كامل، وبالهيئة نفسها التي كانت عليهـــا في الربيع السابق.. وكذلك ايجاد جميع أزهار الاشجار وثمارها واوراقها بسرعة خاطفة، كمـــا كانت في الربيع الماضي.. وكذلك تنبّه البُذيرات والنوى والبذور وهي لا تحصى ولا تعد والتي هي منشأ ذلك الربيع في آن واحد معاً وانكشافها واحياؤها.. وكذلك نشور الجثث المنتصبة والهياكل العظمية للاشجار، وامتثالها فوراً لأمر "البعث بعد الموت" .. وكذلك احياء افـــراد انواع الحيوانات الدقيقة وطوائفها التي لا حصر لها بمنتهى الدقة والاتقان.. وكذلك حشر أمم الحشرات ولا سيما الذباب (الماثل امام اعيننا والذي يذكرنا بالوضوء والنظافة لقيامه بتنظيف يديه وعيونه وجناحيه باستمرار وملاطفته وجوهنا) الذي يفوق عدد ما ينشر منـــه في ســـنة واحدة عدد بني آدم جميعهم من لدن آدم عليه السلام.. فحشر هذه الحشرة في كل ربيع مع سائر الحشرات الاخرى واحياؤها في بضعة ايام، لا يعطي مثالاً واحداً بل آلاف الامثلة على انشاء الاجساد البشرية فوراً يوم القيامة.

نعم، لما كانت الدنيا هي دار "الحكمة" والدار الآخرة هي دار "القدرة" فـــان ايجـــاد الاشياء في الدنيا صار بشئ من التدريج ومع الزمن. بمقتضى الحكمة الربانية وبموجب اغلب الاسماء الحسنى امثال "الحكيم، المرتّب، المدبر، المربي". اما في الاخرة فان "القدرة" و "الرحمة" تتظاهران اكثر من "الحكمة" فلا حاجة إلى المادة والمدة والزمن ولا إلى الانتظار. فالاشـــياء تنشأ هناك نشأة آنية. وما يشير إليه القرآن الكريم بـــ (وَمَآ اَمْرُ السَّاعَةِ إلاّ كَلَمْحِ البَصَـــرِ اَوْ هُوَ اَقْرَبُ) (النحل:77)، هو ان ما ينشأ هنا من الاشياء في يوم واحد وفي سنة واحدة ينشأ في لمحة واحدة كلمح البصر في الآخرة.

واذا كنت ترغب ان تفهم ان مجئ الحشر أمر قطعي كقطعية مجئ الربيع المقبل وحتميته، فانعم النظر في "الكلمة العاشرة" و "الكلمة التاسعة والعشرين". وان لم تصدق به كمجـــئ هذا الربيع، فلك ان تحاسبني حساباً عسيراً.

المسألة الرابعة: وهي موت الدنيا وقيام الساعة، ومثاله:

انه لو اصطدم كوكب سيار او مذنّب بأمر رباني بكرتنا الارضية التي هي دار ضيافتنا، لدمّر مأوانا ومسكننا – أي الارض – كما يُدمّر في دقيقة واحدة قصر بُني في عشر سنوات.

القطعة الرابعة

من الذيل

(قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَميمٌـ قُل يُحْيِيْهَا الَّذى اَنْشَاَهَآ اَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْــقٍ عَليمٌ)(يس:78ــــ 79)

لقد جاء في المثال الثالث في الحقيقة التاسعة للكلمة العاشرة، أنه:

اذا قال لك احدهم ان شخصاً عظيماً في الوقت الذي ينشئ امام انظارنا جيشاً ضخماً في يوم واحد يمكنه ان يجمع فرقة كاملة من الجنود المتفرقين للاستراحة بـــنفخ مـــن بـــوق، ويجعلهم ينضوون تحت نظام الفرقة، وقلتَ: لا، لا أصدق ذلك، ألا يكون جوابك وانكارك جنوناً وبلاهة؟ كذلك، فان الذي أوجد اجساد الحيوانات كافة، وذوي الحياة كافـــة مـــن العدم، تلك الاجساد التي هي كالفرق العسكرية للكائنات الشبيهة بالجيش الضـــخم ونظّـــم ذراتها ولطائفها ووضعها في موضعها اللائق، بنظام كامل وميزان حكيم بأمر "كن فيكون"، وهو الذي يخلق في كل قرن بل في كل ربيع، مئآت الآلاف من انواع ذوي الحياة وطوائفها الشبيهة بالجيش.. فهل يمكن أن يُسأل هذا القدير وهذا العليم كيف سيجمع بصيحة واحدة من بوق اسرافيل جميع الذرات الاساس والاجزاء الاصلية من الجنود المتعارفين تحت لواء فرقة الجسد ونظامها؟! وهل يمكن أن يُستبعد هذا منه؟ أوَ ليس استبعاده بلاهة وجنوناً؟

وكذلك فان القرآن الكريم قد يذكر من افعال الله الدنيوية العجيبة والبديعة كي يعـــدّ الاذهان للتصديق ويحضر القلوب للايمان بافعاله المعجزة في الآخرة. أو أنه يصـــوّر الافعـــال

الإلهية العجيبة التي ستحدث في المستقبل والآخرة بشكل نقنع ونطمئن إليه بما نشاهده من نظائرها العديدة. فمثلاً.

(اَوَلَمْ يَرَ الإنسان اَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَاِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) إلى آخر سورة (يس).. هنا في قضية الحشر، يثبت القرآن الكريم ويسوق البراهين عليها، بسبع أو ثماني صور مختلفة متنوعة.

انه يقدّم النشأة الاولى اولاً، ويعرضها للانظار قائلاً: انكم ترون نشأتكم من النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى خلق الانسان، فكيف تنكرون اذن النشأة الاخرى التي هي مثل هذا بل أهون منه؟.. ثم يشير بـ (اَلَّذى جَعَلَ لكم مِنَ الشَّجَرِ الاَخْضَرِ نَاراً)(يس:80) إلى تلك الآلاء وذلك الاحسان والانعام الذي انعمه الحق سبحانه على الانسان، فالذي ينعم عليكم مثل هذه النعم، لن يترككم سدى ولاعبثاً، لتدخلوا القبر وتناموا دون قيام.. ثم انه يقول رمزاً : انكم ترون احياء واخضرار الاشجار الميتة، فكيف تستبعدون اكتساب العظام الشبيهة بالحطب للحياة ولا تقيسون عليها؟.. ثم هل يمكن أن يعجز مَن خلق السماوات والارض عن احياء الإنسان واماتته وهو ثمرة السموات والارض، وهل يمكن لمن يدير أمر الشجرة ويرعاها ان يهمل ثمرتها ويتركها للآخرين؟! فهل تظنون أن يُترك للعبث "شجرة الخلقة" التي عجنت جميع اجزائها بالحكمة، ويهمل ثمرتها ونتيجتها؟.. وهكذا فان الذي سيحييكم في الحشر هو مَن بيده مقاليد السموات والارض، وتخضع له الكائنات خضوع الجنود المطيعين لأمره فيسخرهم بأمر"كن فيكون" تسخيراً كاملاً.. ومَن عنده خلق الربيع يسير وهيّن كخلق زهرة واحدة، وايجاد جميع الحيوانات سهل على قدرته كايجاد ذبابة واحدة. فلا ولن يُسأل للتعجيز صاحب هذه القدرة: (مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ)؟

ثم انه بعبارة (فَسُبْحَانَ الَّذى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِ شَيْءٍ) (يس:83) يبين انه سبحانه بيده مقاليد كل شئ، وعنده مفاتيح كل شئ، يقلب الليل والنهار، والشتاء والصيف بكل سهولة ويسر كأنها صفحات كتاب، والدنيا والآخرة هما عنده كمنزلين يغلق هذا ويفتح ذاك. فما دام الأمر هكذا فان نتيجة جميع الدلائل هي: (واَلَيْهِ تُرْجَعُونَ) اي انه يحييكم من القبر، ويسوقكم إلى الحشر، ويوفي حسابكم عند ديوانه المقدس.

وهكذا ترى ان هذه الآيات قد هيأت الاذهان، واحضرت القلوب لقبول قضية الحشر، بما أظهرت نظائرها بافعال في الدنيا.

هذا وقد يذكر القرآن ايضاً افعالاً اخروية بشكل يحسس ويشير إلى نظائرها الدنيويـــة، ليمنع الانكار والاستبعاد فمثلاً:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(اِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَت_ وَاِذَا النُّجُومُ انْكَـــدَرَت_ وَاِذَا الْجِـبَــــالُ سُيـــــِّرَت_ وَاِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَت_ وَاِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَت_ وَاِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَت_ وَاِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَـــت_ وَاِذَا الـــمَوْؤُدَةُ سُئِلَت_ بِاَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَت_ وَاِذَا الصُّحُفُ نُشِرَت_ وَاِذَا السَّمَآءُ كُشِـــطَت_ وَاِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَت_ وَاِذَا الْجَنَّةُ اُزْلِفَت_ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَآ اَحْـــضَرَت) إلى اخر السورة

بِسْم اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

(اِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَت_ وَاِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَت_ وَاِذَا البِحَـــارُ فُجِّـــرَت_ وَاِذَا الْقُبُـــورُ بُعْثِرَت_ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَاَخَّرَتْ) إلى آخر السورة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

(اِذَا السَّمَآءُ انْشَقَّت_ وَاَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّت_ وَاِذَا الارْضُ مُدَّت_ وَاَلْقَتْ مَـــا فِىهَـــا وَتَخَلَّت_ وَاَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)الى آخر السورة

فترى ان هذه السوّر تذكر الانقلابات العظيمة والتصرفات الربانية الهائلة باسلوب يجعل القلب أسير دهشة هائلة يضيق العقل دونها ويبقى في حيرة. ولكن الإنسان ما أن يرى نظائرها في الخريف والربيع الاّ ويقبلها بكل سهولة ويسر. ولما كان تفسير السور الثلاث هذه يطول، لذا سنأخذ كلمة واحدة نموذجاً، فمثلاً:

(وَاِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) تفيد هذه الآية: ستنشر في الحشر جميع اعمال الفرد مكتوبـــة على صحيفة. وحيث ان هذه المسألة عجيبة بذاتها فلا يرى العقل اليها سبيلاً، الاّ أن السورة كما تشير إلى الحشر الربيعي وكما ان للنقاط الاخرى نظائرها وأمثلتها كذلك نظـــير نشـــر الصحف ومثالها واضح جلي. فلكل ثمر ولكل عشب ولكل شجر، أعمال وله أفعـــال ولـــه وظائف وله عبودية وتسبيحات بالشكل الذي تـــظهر به الاسماء الإلهية الحسنى، فجميع هذه

الاعمال مندرجة مع تاريخ حياته في بذوره ونواه كلها. وستظهر جميعها في ربيع آخر ومكان آخر. أي انه كما يذكر بفصاحة بالغة أعمال أمهاته وأصوله بالصورة والشكل الظاهر، فانه ينشر كذلك صحائف أعماله بنشر الاغصان وتفتح الاوراق والاثمار.

نعم، اِن الذي يفعل هذا أمام أعيننا بكل حكمة وحفظ وتدبير وتربية ولطف هو الذي يقول (وَاِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ).

وهكذا قس النقاط الاخرى على هذا المنوال. وان كانت لديك قوة استنباط فاستنبط.

ولاجل مساعدتك ومعاونتك سنذكر (اِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) ايضاً. فان لفظ "كُوِّرَتْ" الذي يرد في هذا الكلام هو بمعنى: لُفّتْ وجُمعتْ، فهو مثال رائع ساطع فوق أنه يومئ إلى نظيره ومثيله في الدنيا:

اولاً: ان الله سبحانه وتعالى قد رفع ستائر العدم والاثير والسماء، عن جوهرة الشمس التي تضئ الدنيا كالمصباح، فأخرجها من خزينة رحمته واظهرها إلى الدنيا. وسيلفّ تلك الجوهرة بأغلفتها عندما تنتهي هذه الدنيا وتنسد أبوابها.

ثانياً: ان الشمس موظفة ومأمورة بنشر غلالات الضوء في الاسحار ولفّها في الأماسي، وهكذا يتناوب الليل والنهار عل هامة الارض، وهي تجمع متاعها مقللة من تعاملها، أو قد يكون القمر- إلى حدٍ ما - نقابا لأخذها وعطائها ذلك. أي كما ان هذه الموظفة تجمع متاعها وتطوي دفاتر اعمالها بهذه الاسباب فلابد من أن يأتي يوم تعفى من مهامها، وتفصل من وظيفتها، حتى ان لم يكن هناك سبب للاعفاء والعزل. ولعلّ توسع ما يشاهده الفلكيون على وجهها من البقعتين الصغيرتين الآن اللتين تتوسعان وتتضخمان رويداً رويداً، تسترجع الشمس - بهذا التوسع - وبأمر رباني ما لفّته ونشرته على رأس الارض باذن إلهي من الضوء، فتلف به نفسها. فيقول ربّ العزة: إلى هنا انتهت مهمتك مع الارض، فهيّا إلى جهنم لتحرقي الذين عبدوك وأهانوا موظفة مسخرة مثلك وحقروها متهمين اياها بالخيانة وعدم الوفاء.

بهذا تقرأ الشمسُ الامرَ الرباني (اِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) على وجهها المبقع.

القطعة الخامسة

من الذيل

ان اخبار مائة واربعة وعشرين ألفاً من المصطفين الاخيار وهم الانبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام - كما نص عليه الحديث - [43] اخباراً بالاجماع والتواتر مستندين إلى الشهود عند بعضهم والى حق اليقين عند آخرين، عن وجود الدار الآخرة، واعلانهم بالاجماع ان الناس سيساقون اليها، وان الخالق سبحانه وتعالى سيأتي بالدار الآخرة بلا ريب، مثلما وعد بذلك وعداً قاطعاً.

وان تصديق مائة واربعة وعشرين مليوناً من الأولياء كشفاً وشهوداً ما أخبر به هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، وشهادتهم على وجود الآخرة بعلم اليقين دليل قاطع وايّ دليل على وجود الآخرة..

وكذا، فان تجلّيات جميع الأسماء الحسنى لخالق الكون المتجلّية في ارجاء العالم كله، تقتضي بالبداهة وجود عالم آخر خالد، وتدل دلالة واضحة على وجود الآخرة.

وكذا القدرة الإلهية وحكمتها المطلقة، التي لا اسراف فيها ولا عبث، والتي تحيي جنائز الأشجار الميّتة وهياكلها المنتصبة، تحييها وهي لا تعد ولا تحصى على سطح الأرض في كل ربيع، وفي كل سنة، بأمر "كن فيكون" وتجعلها علامة على "البعث بعد الموت" فتحشر

---

[43] قال ابو ذر (قلت: يا رسول الله كم وفاء عدة الانبياء؟ قال »مائة الف واربعة وعشرون الفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً) رواه الامام احمد.(مشكاة المصابيح ت 5737) ـــــ المترجم .

ثلاثمائة ألف نوع من طوائف النباتات وأمم الحيوانات وتنشرها، مظهرةً بذلك مئات الالوف من نماذج الحشر والنشور ودلائل وجود الآخرة.

وكذا الرحمة الواسعة التي تديم حياة جميع ذوي الأرواح المحتاجة إلى الرزق، وتعيّشـــها بكمال الرأفة عيشة خارقة للغاية. والعناية الدائمة التي تظهر انواع الزينة والمحاسن بما لا يُعـــدّ ولا يحصى، في فترة قصيرة جداً في كل ربيع. لا شك أنهما تستلزمان وجود الآخرة بداهة.

وكذا، عشق البقاء، والشوق إلى الأبدية وآمال السرمدية المغروزة غرزاً لا انفصام لهـــا في فطرة هذا الإنسان الذي هو أكمل ثمرة لهذا الكون، وأحب مخلوق إلى خالق الكون، وهو أوثق صلة مع موجودات الكون كله، لا شك انه يشير بالبداهة إلى وجود عالم باقٍ بعد هذا العالم الفاني، والى وجود عالم الآخرة ودار السعادة الأبدية .

فجميع هذه الدلائل تثبت بقطعية تامة- إلى حدّ يستلزم القبول - وجود الآخرة بمثل بداهة وجود الدنيا.[44]فما دام أهم درس يلقننا القرآن ايّاه هو "الأيمان بالآخرة" وهذا الـــدرس رصين ومتين إلى هذه الدرجة، وفي ذلك الايمان نور باهر ورجاء شديد وسلوان عظيم ما لو

---

[44] ان مدى السهولة في إخبار »الامر الثبوتي« ومدى الصعوبة والاشكال في (نفي وانكار) ذلك، يظهر في المثال الاتي:

اذا قال احدهم: ان هناك ـــــ على سطح الارض ـــــ حديقة خارقة جداً ثمارها كعلب الحليب، وأنكر عليه الآخر قوله هذا قائلاً: لا، لا توجد مثل هذه الحديقة. فالاول يستطيع ـــــ بكل سهولة ـــــ ان يثبت دعواه. بمجرد اراءة مكان تلك الحديقة او بعض ثمارها. أما الثاني (اي المنكر) فعليه ان يرى ويُري جميع انحاء الكرة الارضية لأجل ان يثبت نفيه، وهو عدم وجود مثل هذه الحديقة. وهكذا الامر في الذين يخبرون عن الجنة، فانهم يُظهرون مئات الآلاف من ترشـــــحاتها، ويبيّنون ثمارها واثارها، علـــماً ان شاهدين صادقين منهم كافيان لاثبات دعواهم، بينما المنكرون لوجودها، لا يسعهم اثبات دعواهم الاّ بعد مشاهدة الكون غير المحدود، والزمن غير المحدود، مع سبر غورها بالبحث والتفتيش، وعند عدم رؤيتهم لها، يمكنهم اثبات دعواهم!

فيا من بلغ به الكبر عتياً ويا ايها الاخوة! اعلموا ما أعظم قوة الايمان بالآخرة وما اشد رصانته!. ـــــ المؤلف.

اجتمعت مائة الف شيخوخة في شخص واحد لكفاها ذلك النور، وذلك الرجـــاء، ذلـــك السلوان النابع من هذا الايمان؛ لذا علينا نحن الشيوخ ان نفرح بشيخوختنا ونبتهج قائلين:

"الحمد لله على كمال الايمان".

الكلمة الحادية عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(والشمسِ وضُحاها_ والقمرِ إذا تلاها_ والنهارِ إذا جلاّها_ والليلِ إذا يَغْشَاها_ والسماءِ ومَا بناها_ والارضِ وما طَحاها_ ونفسٍ وما سوّاها..) (الشمس: 1ــــ7)

أيها الأخ ! إن شئت أن تفهم شيئاً من أسرار حكمة العالم وطلسمه، ولغز خلق الإنسان، ورموز حقيقة الصلاة، فتأمل معي في هذه الحكاية التمثيلية القصيرة.

كان في زمان ما سلطان له ثروات طائلة وخزائن هائلة تحوي جميع أنواع الجواهر والألماس والزمرد، مع كنوز خفية أخرى عجيبة جداً. وكان صاحب علمٍ واسع جداً، وإحاطة تامة، واطلاع شامل على العلوم البديعة التي لاتحد، مع مهارات فائقة وبدائع الصنعة.

وحيث إن كل ذي جمال وكمالٍ يحب أن يشهَد ويُشاهِد جمالَه وكمالَه، كذلك هذا السلطان العظيم، أراد أن يفتح معرضاً هائلاً لعرض مصنوعاته الدقيقة كي يُلفت أنظار رعيته إلى أبهة سلطنته، وعظمة ثروته ويُظهِر لهم من خوارق صنعته الدقيقة وعجائب معرفته وغرائبها، ليشاهِد جمالَه وكمالَه المعنويين على وجهين:

الأول: أن يرى بالذات معروضاته بنظره البصير الثاقب الدقيق.

والثاني: أن يراها بنظر غيره.

ولأجل هذه الحكمة بدأ هذا السلطان بتشييد قصر فخم شامخ جداً، وقسّمه بشكل بارع إلى منازل ودوائر مزيّناً كلَّ قسمٍ بمرصعات خزائنه المتنوعة، وجمّله بما عملت يداه من ألطف آثار إبداعه وأجملها، ونظّمه ونسقه بأدق دقائق فنون علمه وحكمته، فجهزه وحسّنه بالآثار المعجزة لخوارق علمه.

وبعد أن أتمه وكمله، أقام في القصر موائد فاخرة بهيجة تضم جميع أنواع أطعمته اللذيذة، وأفضل نِعَمه الثمينة، مخصصاً لكل طائفة ما يليق بها ويوافقها من الموائد، فأعدّ بذلك ضيافة فاخرة عامة، مبيناً سخاءاً وإبداعاً وكرماً لم يشهد له مثيل، حتى كأن كل مائدة من تلك الموائد قد امتلأت بمئات من لطائف الصنعة الدقيقة وآثارها، بما مَدّ عليها من نِعمٍ غالية لا تحصى.

ثم دعا أهالي أقطار مملكته ورعاياه، للمشاهدة والتنـــزه والضيافة، وعلّم كبير رُسُـــل القصر المكرّمين ما في هذا القصر العظيم من حكمٍ رائعة، وما في جوانبه ومشتملاته من معان دقيقة، مخصصاً إياه معلماً رائداً وأستاذاً بارعاً على رعيته، ليعلّم الناس عظمة بـــاني القصـــر وصانع ما فيه من نقوش بديعة موزونة ، ومعرّفاً لكل الداخلين رمـــوزَه ومـــا تعنيـــه هـــذه المرصعات المنتظمة والإشارات الدقيقة التي فيه، ومدى دلالتها على عظمة صـــاحب القصـــر وكماله الفائق ومهارته الدقيقة. مبيناً لهم أيضاً تعليمات مراسيم التشريفات بما في ذلك آداب الدخول والتجول، وأصول السير وفق ما يرضي السلطان الذي لا يُرى إلاّ من وراء حجاب.

وكان هذا المعلم الخبير يتوسط تلامذته في أوسع دائرة من دوائر القصر الضخم وكـــان مساعدوه منتشرين في كلٍ من الدوائر الأخرى للقصر.

بدأ المعلم هذا بإلقاء توجيهاته إلى المشاهدين كافة قائلاً:

»أيها الناس ان سيدنا مليك هذا القصر الواسع البديع، يريد ببنائه هذا وبإظهار ما ترونه أمام أعينكم من مظاهر، أن يعرّف نفسه اليكم، فاعرفوه واسعوا لحسن معرفته.

وانه يريد بهذه التزيينات الجمالية، أن يحبب نفسه إلـــيكم، فحببـــوا أنفســـكم إليـــه، باستحسانكم أعماله وتقديركم لصنعته.

وأنه يتودد إليكم ويريكم محبته بما يسبغه عليكم من آلائه ونعمه وأفضاله فأحبوه بحسن إصغائكم لأوامره وبطاعتكم إياه.

وانه يظهر لكم شفقته ورحمته بهذا الإكرام والإغداق من النعم فعظّموه أنتم بالشكر.

وانه يريد أن يظهر لكم جماله المعنوي بآثار كماله في هذه المصنوعات الجميلة الكاملـــة فأظهروا أنتم شوقكم ولهفتكم للقائه ورؤيته، ونيل رضاه.

وانه يريد منكم أن تعرفوا أنه السلطان المتفرد بالحاكمية والاستقلال، بما تـــرون مـــن شعاره الخاص، وخاتمه المخصص، وطرته التي لا تقلد على جميع المصنوعات.. فكل شئ له، وخاص به، صدر من يد قدرته. فعليكم أن تدركوا جيداً، أن لا ســـلطان ولا حـــاكم إلاّ هو.فهو السلطان الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا مثيل..«.

كان هذا المعلم الكبير يخاطب الداخلين للقصر والمتفرجين، بأمثال هذا الكلام الذي يناسب مقام السلطان وعظمته وإحسانه.

ثم انقسم الداخلون إلى فريقين:

الفريق الأول:

وهم ذوو العقول النيرة، والقلوب الصافية المطمئنة، المدركون قدر أنفسهم، فحيثما يتجولون ـــ في آفاق هذا القصر العظيم – ويسرحون بنظرهم إلى عجائبه يقولون: لابد أن في هذا شأناً عظيماً !! ولابد أن وراءه غاية سامية!.. فعلِموا أن ليس هناك عبث، وليس هو بلعب، ولا بلهو صبياني.. ومن حيرتهم بدأوا يقولون:

يا تُرى أين يكمن حل لغز القصر، وما الحكمة في ما شاهدناه ونشاهده؟!

وبينما هم يتأملون ويتحاورون في الأمر، إذا بهم يسمعون صوت خطبة الأستاذ العارف وبياناته الرائعة، فعرفوا أن لديه مفاتيح جميع الأسرار وحل جميع الألغاز، فأقبلوا إليه مسرعين:

– السلام عليكم أيها الأستاذ.. إن مثل هذا القصر الباذخ ينبغي أن يكون له عرّيفاً صادقاً مدققاً أميناً مثلك، فالرجاء أن تعلّمنا مما علّمك سيدُنا العظيم.

فذكَّرهم الأستاذ بخطبته المذكورة آنفاً، فاستمعوا إليه خاشعين، وتقبّلوا كلامه بكل رضى واطمئنان، فغنموا أيّما غنيمة، إذ عملوا ضمن مرضاة سلطانهم، فرضي عنهم السلطان بما أبدوا من رضى وسرور لأوامره. فدعاهم إلى قصر أعظم وأرقى لا يكاد يوصف، وأكرمهم بسعادة دائمة، بما يليق بالمالك الجواد الكريم، وتلائم هؤلاء الضيوف الكرام المتأدبين، وحريّ بهؤلاء المطيعين المنقادين للأوامر.

أما الفريق الآخر:

وهم الذين قد فسدت عقولهم، وانطفأت جذوة قلوبهم، فما أن دخلوا القصر، حتى غلبتْ عليهم شهواتُهم، فلم يعودوا يلتفتون إلا لما تشتهيه أنفسُهم من الأطعمة اللذيذة، صارفين أبصارهم عن جميع تلك المحاسن، سادّين آذانهم عن جميع تلك الإرشادات الصادرة من ذلك المعلم العظيم، وتوجيهات تلاميذه.. فأقبلوا على المأكولات بشراهة وهم، كالحيوانات، فأطبقت عليهم الغفلة والنوم وغشيهم السُكرُ، حتى فقدوا أنفسهم لكثرة ما

أفرطوا في شرب ما لم يؤذن لهم به فأزعجوا الضيوف الآخرين بجنونهم وعربدتهم. فأساءوا الأدب مع قوانين السلطان المعظم وأنظمته، لذا أخذهم جنوده وساقوهم إلى سجن رهيب لينالوا عقابهم الحق، جزاءً وفاقاً على ما عملوا من سوء الخُلق.

فيا من ينصت معي إلى هذه الحكاية؛ لابد انك قد فهمت أن ذلك السلطان قد بنى هذا القصر الشامخ لأجل تلك المقاصد المذكورة، فحصول تلك المقاصد يتوقف على أمرين:

أحدهما:

وجود ذلك المعلم الأستاذ الذي شاهدناه وسمعنا خطابه، إذ لولاه لذهبت تلك المقاصد هباءاً منثوراً، كالكتاب المبهم الذي لا يُفهم معناه، ولا يبينه أستاذ، فيظل مجرد أوراق لا معنى لها!..

ثانيهما:

إصغاء الناس إلى كلام ذلك المعلم، وتقبّلهم له.

بمعنى أن وجود الأستاذ مدعاة لوجود القصر. واستماع الناس إليه سبب لبقاء القصر، لذا يصح القول: لم يكن السلطان العظيم ليبني هذا القصر لولا هذا الأستاذ. وكذا يصح القول: حينما يصبح الناس لا يصغون إليه ولا يلقون بالاً إلى كلامه، فسيغير السلطان هذا القصر ويبدله.

إلى هنا انتهت القصة يا صديقي. فان كنت قد فهمت سر الحكاية، فانظر من خلالها إلى وجه الحقيقة:

إن ذلك القصر هو هذا العالم، المسقف بهذه السماء المتلألئة بالنجوم المتبسمة، والمفروش بهذه الأرض المزيّنة من الشرق إلى الغرب بالأزهار المتجددة كل يوم.

وذلك السلطان العظيم، هو الله تعالى سلطان الأزل والأبد الملك القدوس ذو الجلال والإكرام الذي (تسبّح له السمواتُ السبعُ والارضُ ومَن فيهن..) حيث إن (كلٌ قد علم صلاتَه وتسبيحَه) (النور: 41) وهو القدير (الذي خلقَ السمواتِ والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشي الليلَ النهارَ يَطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره) (الأعراف: 54).

أما منازل ذلك القصر فهي ثمانية عشر ألفاً من العوالم التي تزينت كل منها وانتظمت بما يلائمها من مخلوقات.. أما الصنائع الغريبة في ذلك القصر فهي معجزات القدرة الإلهية الظاهرة في عالمنا لكل ذي بصر وبصيرة.. وما تراه من الأطعمة اللذيذة التي فيه، هي علامات الرحمة الإلهية من الأثمار والفواكه البديعة التي تشاهد بكل وضوح في جميع مواسم السنة وخاصة في الصيف وبالأخص في بساتين (بارلا)[45].

ومطبخ هذا القصر هو سطح الأرض وقلبها الذي يتّقد ناراً.

وما رأيته في الحكاية من الجواهر في تلك الكنوز الخفية، هي في الواقع أمثلة لتجليات الأسماء الحسنى المقدسة.

وما رأيناه من النقوش ورموزها، هي هذه المخلوقات المزيّنة للعالم وهي نقوش موزونة لقلم القدرة الإلهية الدالة على أسماء القدير ذي الجلال.

أما ذلك المعلم الأستاذ فهو سيدنا، وسيد الكونين محمد ρ ، ومساعدوه هم الأنبياء عليهم السلام. وتلاميذه هم الأولياء الصالحون، والعلماء الأصفياء.

أما خدام السلطان العظيم فهم إشارة إلى الملائكة عليهم السلام في هذا العالم.

وأما جميع من دُعُوا إلى دار ضيافة الدنيا فهم إشارة إلى الإنس والجن وما يخدم الإنسان من حيوانات وأنعام.

أما الفريقان:

فالأول: هم أهل الإيمان الذين يتتلمذون على مائدة القرآن الكريم الذي يفسّر آيات كتاب الكون.

والآخر: هم أهل الكفر والطغيان الصمّ البكم الضالون الذين اتبعوا أهواءهم والشيطان، فما عرفوا من الحياة إلاّ ظاهرها، فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

---

[45] قرية نائية في ولاية اسبارطة جنوب غربي تركيا، نفي إليها الأستاذ النورسي سنة 1926، وظل فيها تحت الإقامة الجبرية، وألّف معظم رسائل النور إلى أن سيق إلى محكمة اسكي شهر سنة 1934 ــ المترجم.

أما الفريق الأول الذين هم الأبرار السعداء؛ فقد أنصتوا إلى المعلم العظيم والأستاذ الجليل ذي الحقيقتين؛ إذ هو عبد، وهو رسول؛ فمن حيث العبودية يعرِّف ربَّه ويوصفه بما يليق به من أوصاف الجلال، فهو إذا في حكم ممثلٍ عن أمته لدى الحضرة الإلهية.. ومن حيث الرسالة يبلّغ أحكام ربّه إلى الجن والإنس كافة بالقرآن العظيم.

فهذه الجماعة السعيدة بعدما أصغوا إلى ذلك الرسول الكريم ρ وانصاعوا لأوامر القرآن الحكيم، إذا بهم يرون أنفسهم قد قُلِّدوا مهمات لطيفة تترقى ضمن مقامات سامية كثيرة، تلك هي الصلاة، فهرس أنواع العبادات.

نعم! لقد شاهدوا بوضوح تفاصيل فريضة الصلاة وارتقوا في مقاماها الرفيعة التي تشير إليها أذكارُها وحركاتُها المتنوعة، على النحو الآتي:

أولاً: بمشاهدهم الآثار الربانية المبثوثة في الكون، وجدوا أنفسهم في مقام المشاهدين محاسن عظمة الربوبية، بمعاملة غيابية، فأدّوا وظيفة التكبير والتسبيح، قائلين: الله اكبر.

ثانياً: وبظهورهم في مقام الدعاة والأدلاّء إلى بدائع صنائعه سبحانه وآثاره الساطعة، التي هي جلوات أسمائه الحسنى، أدّوا وظيفة التقديس والتحميد بقولهم: سبحان الله والحمد لله.

ثالثاً: وفي مقام إدراك النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية وتذوقها بحواسَ ظاهرة وباطنة شرعوا بوظيفة الشكر والحمد.

رابعاً: وفي مقام معرفة جواهر كنوز الأسماء الحسنى وتقديرها حق قدرها بموازين الأجهزة المعنوية المودعة فيهم، بدأوا بوظيفة التنزيه والثناء.

خامساً: وفي مقام مطالعة الرسائل الربانية المسطرّة بقلم قدرته تعالى على صحيفة القَدَر، باشروا بوظيفة التفكر والإعجاب والاستحسان.

سادساً: وفي مقام التنزيه بإمتاع النظر إلى دقة اللطف في خلق الأشياء، ورقة الجمال في إتقانها، دخلوا وظيفة المحبة والشوق إلى جمال الفاطر الجليل والصانع الجميل.

وهكذا.. بعد أداء هذه الوظائف في المقامات السابقة، والقيام بالعبادة اللازمة بمعاملة غيابية، لدى مشاهدة المخلوقات، ارتقوا إلى درجة النظر إلى معاملة الصانع الحكيم وشهودها ومعاملة أفعاله معاملةً حضورية، وذلك أنهم:

قابلوا أولاً تعريفَ الخالق الجليل نفسَه لذوي الشعور بمعجزات صنعته، قابلوه بمعرفةٍ ملؤها العَجب والحيرة قائلين: سبحانك ما عرفناك حق معرفتك يا معروف بمعجزات جميع مخلوقاتك.

ثم استجابوا لتحبّب ذلك الرحمن بثمرات رحمته سبحانه، بمحبةٍ وهيام مرددين : إياك نعبد وإياك نستعين.

ثم لَبّوا ترحمّ ذلك المنعم الحقيقي بنِعَمه الطيبة وإظهار رأفته عليهم، بالشكر والحمد، وبقولهم: سبحانك ما شكرناك حق شكرك يا مشكورُ بألسنة أحوالٍ فصيحة تنطق بها جميع إحساناتك المبثوثة في الكون، وتعلن الحمدَ والثناء إعلاناتُ نِعَمِك المعدّة في سوق العالم والمنثورة على الارض كافة. فجميع الثمرات المنضّدة لرحمتك الواسعة، وجميع الأغذية الموزونة لنعمك العميمة، توفي شكرها بشهادتها على جُودك وكرمك لدى أنظار المخلوقات.

ثم قابلوا إظهار كبرياء جماله وجلاله وكماله سبحانه في مرايا الموجودات المتبدلة على وجه الكون، بقولهم: الله اكبر، وركعوا في عجز مكلّل بالتعظيم، وهَوَوا إلى السجود في محبة مفعمة بالذل والفناء لله، وفي غمرة إعجاب وتعظيم وإجلال.

ثم أجابوا إظهار ذلك الغني المطلق سبحانه ثروتَه التي لا تنفد ورحمته التي وسعت كل شئ، بالدعاء الملح والسؤال الجاد، بإظهار فقرهم وحاجتهم قائلين: إياك نستعين.

ثم استقبلوا عرضَ ذلك الخالق الجليل للطائف صنائعه وروائع بدائعه ونشره لها في معارضَ أمام انظار الأنام، بالإعجاب والتقدير اللازمين، قائلين: ما شاء الله، تبارك الله، ما اجمل خلقَ هذا.. شاهدين مستحسنين لها، هاتفين: هلموا لمشاهدة هذه البدائع، حيّ على الفلاح.. اشهدوها وكونوا شهداء عليها.

ثم اجابوا اعلان ذلك السلطان العظيم – سلطان الازل والابد – لربوبيــة ســلطنته في الكون كله، واظهاره وحدانيته للوجود كافة، بقولهم: سمعنا واطعنا.. فَســمعوا، وانقــادوا واطاعوا.

ثم استجابوا لإظهار رب العالمين اُلوهيته الجليلة، بخلاصة عبودية تنمّ عن ضعفهم الكامن في عجزهم، وفقرهم المندمج في حاجاهم.. تلك هي الصلاة.

وهكذا بمثل هذه الوظائف المتنوعة للعبودية، ادّوا فريضة عمرهم ومهمة حياهم في هذا المسجد الاكبر المسمى بدار الدنيا، حتى اتخذوا صورة أحسن تقويم، واعتلوا مرتبةً تفوق جميع المخلوقات قاطبة، إذ أصبحوا خلفاء أمناء في الأرض، بما اُودع فيهم من الإيمان والأمانة..

وبعد انتهاء مدة الامتحان والخروج من قبضة الاختبار يدعوهم رهم الكريم إلى السعادة الأبدية والنعيم المقيم ثواباً لإيمانهم، ويرزقهم الــدخول إلى دار الســلام جــزاء إســلامهم، ويكرمهم – وقد أكرمهم – بنعمٍ لا عين رأت ولا اُذن سمعت ولا خطرت على قلب بشر، إذ المشاهد المشتاق لجمال سرمدي والعاشق الذي يعكسه كالمرآة، لابد أن يظل باقياً ويمضي إلى الأبد.

هذه هي عقبى تلاميذ القرآن.. اللّهمّ اجعلنا منهم!.

أما الفريق الآخر وهم الفجار والأشرار فما أن دخلوا بسن البلوغ قصر هذا العــالم إلاّ وقابلوا بالكفر دلائل الوحدانية كلها، وبالكفران الآلاء التي تُسبغ عليهم، واتهموا الموجودات كلها بالتفاهة وحقّروها بالعبثية ورفضوا تجليات الأسماء الإلهية علــى الموجــودات كلــها، فارتكبوا جريمة كبرى في مدة قصيرة، مما استحقوا عذاباً خالداً.

نعم، إن الإنسان لم يُوهَب له رأس مال العمر، و لم يودَع فيه أجهزة إنسانية راقيــة إلاّ ليؤهله ذلك على تأدية الوظائف الجليلة المذكورة.

فيا نفسي الحائرة ويا صديقي المغرم بالهوى!

أتحسبون أن »مهمة حياتكم« محصورة في تلبية متطلبات النفس الامارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعاً لشهوة البطن والفرج؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما اُودع فــيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حساسة، وجوارح وأجهــزة بديعــة، ومشــاعر

وحواس متجسسة، انما هي لمجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟ حاشَ وكلا!!

بل إن خلق تلك اللطائف والحواس والمشاعر في وجودكم وادراجَها في فطرتكم انما يستند إلى أساسين اثنين:

الاول: أن تجعلكم تستشعرون بالشكر تجاه كل نوع من أنواع النعم التي أسبغها عليكم المنعم سبحانه. أي عليكم الشعور بها والقيام بشكره تعالى وعبادته.

الثاني: أن تجعلكم تعرفون أقسام تجليات الأسماء الحسنى التي تعم الوجود كله، معرفتها وتذوقها فرداً فرداً.أي عليكم الإيمان بتلك الأسماء ومعرفتها معرفة ذوقية خالصة.

وعلى هذين الأساسين تنمو الكمالات الإنسانية، وبهما يغدو الإنسان إنساناً حقاً.

فانظر الآن - من خلال هذا المثال - لتعرف أن الإنسان بخلاف الحيوان لم يزوّد بالأجهزة لكسب هذه الحياة الدنيا فقط:

أعطى سيدٌ خادمَه عشرين ليرة ليشتري بها بدلة لنفسه، من قماش معين. فراح الخادم واشتراها من أجود أنواع الأقمشة ولبسها. ثم أعطى السيد نفسه خادماً آخر ألف ليرة ولكن وضع في جيبه ورقة تعليمات وأرسله للتجارة.

فكل مَن يملك مسكة من العقل يدرك يقيناً أن هذا المبلغ ليس لشراء بدلة، إذ قد اشتراها الخادم الأول بعشرين ليرة!

فلو لم يقرأ هذا الثاني ما كُتب له في الورقة، وأعطى كل ما لديه إلى صاحب حانوتٍ واشترى منه بدلة - تقليداً لصديقه الآخر - ومن أردأ أنواع البدلات، ألا يكون قد ارتكب حماقة متناهية، ينبغي تأديبه بعنف وعقابه عقاباً رادعاً؟

فيا صديقي الحميم، ويا نفسي الامارة بالسوء!

استجمعوا عقولكم، ولا تهدروا رأس مال عمركم، ولا تبددوا طاقات حياتكم واستعداداتها لهذه الدنيا الفانية الزائلة، وفي سبيل لذة مادية ومتاع حيواني.. فالعاقبة وخيمة، إذ تُردّون إلى دَرَكةٍ أدنى من أخس حيوان، علماً أن رأس مالكم أثمن من أرقى حيوان!

* فيا نفسي الغافلة!

ان كنت تريدين أن تفهمي شيئاً من: غاية حياتك، ماهية حياتك، صورة حياتك، سر حقيقة حياتك، كمال سعادة حياتك.. فانظري إلى مجمل »غايات حياتك« فانها تسعة أمور:

أولها: القيام بالشكر الكلي، ووزن النِعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية بموازين الحواس المغروزة في جسمك.

ثانيها: فتح الكنوز المخفية للاسماء الإلهية الحسنى بمفاتيح الاجهزة المودعة في فطرتــك، ومعرفة الله جل وعلا بتلك الأسماء الحسنى.

ثالثها: اعلان ما ركّبت فيك الأسماء الحسنى من لطائف تجلياتها وبدائع صنعتها، واظهار تلك اللطائف البديعة أمام أنظار المخلوقات بعلمٍ وشعور، وبجوانب حياتك كافة في معـــرض الدنيا هذه.

رابعها: اظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك، بلسان الحال والمقال.

خامسها: التجمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبتْها لك تجليات الاسماء، وابرازها أمام نظر الشاهد الازلي جل وعلا.. مثلك في هذا كمثل الجندي الذي يتقلد الشارات المتنوعة التي منحها السلطان في مناسبات رسمية، ويعرضها أمام نظره ليُظهر آثار تكرّمه عليه وعنايته به.

سادسها: شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، شهود علمٍ وبصيرة، إذ هي تحياتُها ودلالاتها بحياتها على بارئها سبحانه.. ورؤية تسبيحاتها لخالقها، رؤيةً بتفكرٍ وعبرة، إذ هـــي رمـــوز حياتها.. وعرض عبادتها إلى واهب الحياة سبحانه والشهادة عليها، إذ هـــي غايـــةُ حياتهـــا ونتيجتها.

سابعها: معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، وشؤونه الحكيمة، ووزنها بمـــا وهـــب لحياتك من علم جزئي وقدرة جزئية وارادة جزئية، أي بجعلها نماذج مصغرة ووحدة قياســـية لمعرفة تلك الصفات المطلقة الجليلة.

فمثلاً: كما انك قد شيدت هذه الدار بنظام كامل، بقدرتك الجزئية وارادتك الجزئية، وعلمك الجزئي، كذلك عليك أن تعلم – بنسبة عظمة بناء قصر العالم ونظامه المـــتقن – أن بنّاءه قدير، عليم، حكيم، مدبِّر.

ثامنها: فهم الاقوال الصادرة من كل موجود في العالم وادراك كلماته المعنوية - كل حسب لسانه الخاص - فيما يخص وحدانية خالقه وربوبية مبدعه.

تاسعها: ادراك درجات القدرة الإلهية والثروة الربانية المطلقتين، بموازين العجز والضعف والفقر والحاجة المنطوية في نفسك، إذ كما تُدرك أنواع الاطعمة ودرجاتها ولذاتها، بدرجات الجوع وبمقدار الاحتياج اليها، كذلك عليك فهم درجات القدرة الإلهية وثروتها المطلقتين بعجزك وفقرك غير المتناهيين.

فهذه الامور التسعة وأمثالها هي مجمل »غايات حياتك«.

أما »ماهية حياتك الذاتية« فمجملها هو:

انها فهرس الغرائب التي تخص الأسماء الإلهية الحسنى..

ومقياس مصغر لمعرفة الشؤون الإلهية وصفاتها الجليلة..

وميزان للعوالم التي في الكون..

ولائحة لمندرجات هذا العالم الكبير..

وخريطة لهذا الكون الواسع ..

وفذلكة لكتاب الكون الكبير..

ومجموعة مفاتيح تفتح كنوز القدرة الإلهية الخفية..

وأحسن تقويمٍ للكمالات المبثوثة في الموجودات، والمنشورة على الاوقات والازمان..

فهذه وامثالها هي » ماهية حياتك«.

وإليك الآن »صورة حياتك« وطرز وظيفتها، وهي: إن حياتك كلمة حكيمة مكتوبة بقلم القدرة الإلهية .. وهي مقالة بليغة تدل على الأسماء الحسنى المشهودة والمسموعة .. فهذه وامثالها هي صورة حياتك.

أما »حقيقة حياتك« وسرّها فهي:

انها مرآة لتجلي الاحدية، وجلوة الصمدية، أي أن حياتك كالمرآة تنعكس عليها تجلي الذات الأحد الصمد تجلياً جامعاً، وكأن حياتك نقطةٌ مركزيةٌ لجمع أنواع تجليات الأسماء الإلهية المتجلية على العالم أجمع.

أما »كمال سعادة حياتك« فهو:

الشعور بما يتجلى من أنوار التجليات الإلهية في مرآة حياتك وحبها، واظهار الشـــوق اليها، وأنت مالكٌ للشعور، ثم الفناء في محبتها، وترسيخ تلك الانوار المنعكسة وتمكينـــها في بؤبؤ عين قلبك.

ولأجل هذا قيل بالفارسية هذا المعنى للحديث النبوي القدسي الذي رفعك إلى اعلـــى عليين:

من نكنجم درسموات وزمين

أز عجب كنجم بقلب مؤمنين[46]

فيا نفسي!

ان حياتك التي تتوجه إلى مثل هذه الغايات المثلى، وهي الجامعة لمثل هـــذه الخـــزائن القيّمة.. هل يليق عقلاً وانصافاً ان تُصرف في حظوظ تافهة، تلبية لرغبات النفس الامـــارة، واستمتاعاً بلذائذ دنيوية فانية، فتهدر وتضيّع بعد ذلك.

فان كنت راغبة في عدم ضياعها سدىً، ففكّري وتدبّري في القَسَم وجواب القَسَم في سورة »الشمس« ثم اعملي مع تذكر الحكاية التمثيلية المذكورة في المقدمة، التي ترمز إلى تلك السورة.

---

[46] هذا معنى الحديث »ما وسعني سمائي ولا ارضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن«. ذكره في الاحياء بلفظ مقارب. قال العراقي في تخريجه: لم ار له أصلاً (كشف الخفاء للعجلوني 195/2 باختصار). وقال السيوطي في الدرر المنتثرة: قلت اخرج الامام احمد في الزهد عن وهب بن منبه: ان ا فتح السموات لحزقيل حتى نظر الى العرش فقال حزقيل: سبحانك ما اعظمك يارب! فقال ا: ان السموات والارض ضعفن ان يسعنني ووسعني قلب المؤمن الوادع اللين« اهـــ . قال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية: وذكرُ جماعةٍ له من الصوفية لا يريدون حقيقة ظاهره من الاتحاد والحلول لأن كلاً منهما كفر، وصالحو الصوفية اعرف الناس باللّه وما يجب له وما يستحيل عليه، وانما يريدون بذلك ان قلب المؤمن يسع الايمان باللّه ومحبته ومعرفته. ا هـــ . ـــــ المترجم.

بسم الله الرحمن الرحيم

(والشمس وضُحاها_ والقمر إذا تلاها_ والنهار إذا جلاهـــا_ واليـــل إذا يغشـــاها_ والسمآء وما بناها_ والارض وما طحاها_ ونفسٍ وما سوّاها_ فالهمها فجورها وتقواها_ قد افلح من زكاها_ وقد خاب من دساها).

اللهم صلّ وسلم على شمس سماء الرسالة وقمر برج النبوة، وعلى آله واصحابه نجـــوم الهداية.

وارحمنا وارحم المؤمنين والمؤمنات.

آمين آمين آمين.

الكلمة الثانية عشرة

بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(ومَن يؤتَ الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً) (البقرة: 269)

هذه الكلمة تشير إلى موازنة اجمالية بين حكمة القرآن الكريم المقدسة وحكمة الفلسفة، وتشير أيضاً إلى خلاصة مختصرة لما تلقنه حكمة القرآن من تربية الإنسان في حياتيه الشخصية والاجتماعية فضلاً عن انها تضم اشارة إلى جهة ترجح القرآن الكريم وأفضليته علـــى ســـائر الكلام الإلهي وسموه على الاقوال قاطبة. بمعنى أن هناك أربعة أسس في هذه الكلمة:

pالاساس الاول:

من خلال منظار هذه الحكاية التمثيلية أنظر إلى الفروق بين حكمة القـــرآن الكـــريم وحكمة العلوم:

اراد حاكم عظيم ذو تقوى وصلاح وذو مهارة وابداع أن يكتب القرآن الحكيم كتابة تليق بقدسية معانيه الجليلة وتناسب اعجازه البديع في كلماته، فأراد أن يُلبِس القرآن الكريم ما يناسب اعجازه السامي من ثوب قشيب خارق مثله.

فطفق بكتابة القرآن، وهو مصور مبدع، كتابة عجيبة جداً مستعملاً جميع أنواع الجواهر النفيسة والاحجار الكريمة ليشير بها إلى تنوع حقائقه العظيمة فكتب بعض حروفه المجسمة بالالماس والزمرد وقسماً منها باللؤلؤ والمرجان وطائفة منها بالجوهر والعقيق ونوعاً منها بالذهب والفضة، حتى أضفى جمالاً رائعاً وحسناً جالباً للانظار يعجب بها كل من يراها سواء أعلم القراءة أم جهلها. فالجميع يقفون أمام هذه الكتابة البديعة مبهوتين يغمرهم التبجيل والاعجاب، ولا سيما أهل الحقيقة الذين بدأوا ينظرون اليها نظرة اعجاب وتقدير أشد، لما يعلمون أن الجمال الباهر هذا يشف عما تحته من جمال المعاني وهو في منتهى السطوع واللمعان وغاية اللذة والذوق.

ثم عرض ذلك الحاكم العظيم، هذا القرآن البديع الكتابة، الرائع الجمال، على فيلسوف أجنبي وعلى عالم مسلم. وأمرهما:

»ليكتب كل منكما كتاباً حول حكمة هذا القرآن!« ملمحاً إلى اختبارهما ليكافئهما.

كتب الفيلسوف كتاباً. وكتب العالم المسلم كتاباً. كان كتاب الفيلسوف يبحث عن نقوش الحروف وجمالها، وعلاقة بعضها ببعض، وأوضاع كل منها، وخواص جواهرها وميزاتها وصفاتها فحسب. ولم يتعرض في كتابه إلى معاني ذلك القرآن العظيم قط، إذ إنه جاهل باللغة العربية جهلاً مطبقاً، بل لم يدرك أن ذلك القرآن البديع هو كتاب عظيم تنم حروفه عن معان جليلة، وانما حصر نظره في روعة حروفه وجمالها الخارق. ومع هذا فهو مهندس بارع، ومصور فنان، وكيميائي حاذق، وصائغ ماهر، لذا فقد كتب كتابه هذا وفق ما يتقنه من مهارات ويجيده من فنون.

أما العالم المسلم، فما أن نظر إلى تلك الكتابة البديعة حتى علم أنه: كتاب مبين وقرآن حكيم. فلم يصرف اهتمامه إلى زينته الظاهرة، ولا أشغل نفسه بزخارف حروفه البديعة، وانما توجه كلياً ــــ وهو التواق للحق– إلى ما هو أسمى وأثمن وألطف وأشرف وأنفع وأشمل مما

انشغل به الفيلسوف الاجنبي بملايين الاضعاف، فبحث عما تحت تلك النقوش الجميلة من حقائق سامية جليلة وأسرار نيرة بديعة فكتب كتابه تفسيراً قيماً لهذا القرآن الحكيم، فأجاد وأتقن.

قدّم كلٌ منهما ما كتبه إلى الحاكم العظيم. تناول الحاكم أولاً مؤلَّف الفيلسوف ونظر إليه ملياً. فرأى أن ذلك المعجب بنفسه والمقدس للطبيعة، لم يكتب حكمةً حقيقية قط، مع أنه بذل كل ما في طوقه، إذ لم يفهم معاني ذلك الكتاب، بل ربما زاغ واختلط عليه الامر، وأظهر عدم توقير واجلال لذلك القرآن، حيث إنه لم يكترث بمعانيه السامية، وظن أنه مجرد نقوش جميلة وحروف بديعة، فبخس حق القرآن وازدراه من حيث المعنى. لذا رد الحاكم الحكيم مؤلَّف ذلك الفيلسوف وضربه على وجهه وطرده من ديوانه.

ثم أخذ مؤلَّف العالم المسلم المحقق المدقق، فرأى أنه تفسير قيم جداً، بالغ النفع. فبارك عمله، وقدر جهده، وهنّأه عليه وقال: هذه هي الحكمة حقاً، وانما يطلق اسم العالم والحكيم حقاً على صاحب هذا المؤلَّف، وليس الآخر إلاّ فنان صنّاع قد أفرط وتجاوز حدّه. وعلى اثره كافأ ذلك العالم المسلم وأجزل ثوابه، آمراً أن تمنح عشر ليرات ذهبية لكل حرف من حروف كتابه.

فاذا فهمت - يا أخي - أبعاد هذه الحكاية التمثيلية، فانظر إلى وجه الحقيقة:

فذلك القرآن الجميل الزاهي، هو هذا الكون البديع.. وذلك الحاكم المهيب هو سلطان الازل والابد سبحانه. والرجلان: الاول - أي ذلك الاجنبي - هو علم الفلسفة وحكماؤها. والاخر: هو القرآن الكريم وتلاميذه.

نعم، ان القرآن الكريم »المقروء« هو أعظم تفسير وأسماه، وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع، الذي هو قرآن آخر عظيم »منظور«.

نعم! ان ذلك الفرقان الحكيم هو الذي يرشد الجن والانس إلى الآيات الكونية التي سطَّرها قلمُ القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الازمنة والعصور. وهو الذي ينظر إلى الموجودات - التي كل منها حرف ذو مغزى - بالمعنى الحرفي، أي ينظر

اليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل. فيقول: ما أحسنَ خلقه! ما أجملَ خلقه! ما أعظم دلالته على جمال المبدع الجليل. وهكذا يكشف أمام الانظار الجمالَ الحقيقي للكائنات.

أما ما يسمونه بعلم الحكمة وهي الفلسفة، فقد غرقت في تزيينات حروف الموجودات، وظلّت مبهوتة أمام علاقات بعضها ببعض، حتى ضلت عن الحقيقة. فبينما كان عليها أن تنظر إلى كتاب الكون نظرتها إلى الحروف - الدالة على كاتبها - فقد نظرت اليها بالمعنى الاسمي، أي أن الموجودات قائمة بذاتها، وبدأت تتحدث عنها على هذه الصورة فتقول: ما أجمل هذا! بدلاً من:ما أجمل خلق هذا، سالبة بهذا القول الجمال الحقيقي للشئ. فأهانت باسنادها الجمال إلى الشئ نفسه جميع الموجودات حتى جعلت الكائنات شاكية عليها يوم القيامة..

نعم! ان الفلسفة الملحدة انما هي سفسطة لا حقيقة لها وتحقير للكون واهانة له.

pالاساس الثاني:

للوصول إلى مدى الفرق بين التربية الاخلاقية التي يربي بها القرآن الكريم تلاميذه، والدرس الذي تلقنه حكمة الفلسفة، نرى أن نضع تلميذيهما في الموازنة:

فالتلميذ المخلص للفلسفة »فرعون« ولكنه فرعون ذليل، إذ يعبد أخس شئ لأجل منفعته، ويتخذ كل ما ينفعه رباً له.

ثم أن ذلك التلميذ الجاحد »متمرد وعنود« ولكنه متمرد مسكين يرضى لنفسه منتهى الذل في سبيل الحصول على لذة، وهو عنود دنئ إذ يتذلل ويخنع لاشخاص هم كالشياطين، بل يقبّل أقدامهم!

ثم أن ذلك التلميذ الملحد »مغرور، جبار« ولكنه جبار عاجز لشعوره بمنتهى العجز في ذاته، حيث لا يجد في قلبه من يستند اليه.

ثم أن ذلك التلميذ »نفعي ومصلحي« لا يرى إلاّ ذاته. فغاية همته تلبية رغبات النفس والبطن والفرج، وهو »دسّاس مكّار« يتحرى عن مصالحه الشخصية ضمن مصالح الامة.

بينما تلميذ القرآن المخلص هو »عبد« ولكنه عبد عزيز لا يستذل لشئ حتى لأعظم مخلوق، ولا يرضى حتى بالجنة، تلك النعمة العظمى غاية لعبوديته لله.

ثم أنه تلميذ »متواضع، ليّن هيّن« ولكنه لا يتذلل بارادته لغير فاطره الجليل ولغير أمره وإذنه.

ثم أنه »فقير وضعيف« موقن بفقره وضعفه، ولكنه مستغنٍ عن كل شئ بما ادخره لــه مالكُه الكريم من خزائن لا تنفد في الآخرة. وهو »قوي« لاستناده إلى قوة سيده المطــلقة.

ثم أنه لا يعمل إلاّ لوجه الله، بل لا يسعى إلاّ ضمن رضاه بلوغاً إلى الفضائل ونشرها.

وهكذا تفهم التربية التي تربي بها الحكمتان، لدى المقارنة بين تلميذيهما.

pالاساس الثالث:

أما ما تعطيه حكمة الفلسفة وحكمة القرآن من تربية للمجتمع الإنساني فهي:

أن حكمة الفلسفة ترى »القوة« نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية.

وتهدف إلى »المنفعة« في كل شئ.

وتتخذ »الصراع« دستوراً للحياة.

وتلتزم »بالعنصرية والقومية السلبية« رابطة للجماعات.

أما ثمراتها فهي اشباع رغبات الاهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس واثارة الهوى.

ومن المعلوم أن شأن »القوة« هو »الإعتداء«.. وشأن »المنفعة« هو »التــزاحم« إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم.. وشأن »الصراع« هو »النــزاع والجــدال«.. وشأن »العنصرية « هو »الإعتداء« إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حســاب العناصــر الاخرى.

ومن هنا تلمس لِمَ سُلبت سعادةُ البشرية، من جراء اللهاث وراء هذه الحكمة.

أما حكمة القرآن الكريم، فهي تقبل »الحق« نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، بدلاً من »القوة«.. وتجعل »رضى الله سبحانه« ونيل الفضائل هو الغاية، بدلاً من »المنفعة«.. وتتخذ دستور »التعاون« أساساً في الحياة، بدلاً من دستور »الصراع« .. وتلتزم برابطة »الــدين«

والصنف[47]والوطن لربط فئات الجماعات بدلاً من العنصرية والقومية السلبية.. وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الامارة ودفع الروح إلى معالي الامور، واشباع مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية.

ان شأن »الحق« هو »الاتفاق«.. وشأن »الفضيلة« هو »التساند«.. وشأن دستور »التعاون« هو »اغاثة كل للاخر«.. وشأن »الدين« هو »الاخوة والتكاتف«.. وشأن »إلجام النفس« وكبح جماحها وأطلاق الروح وحثها نحو الكمال هو »سعادة الدارين«.

pالاساس الرابع:

اذا أردت أن تفهم كيف يسمو القرآن على سائر الكلمات الإلهية وتعرف مدى تفوّقه على جميع الكلام. فانظر وتأمل في هذين المثالين:

المثال الاول: أن للسطان نوعين من المكالمة، وطرازين من الخطاب والكلام:

الاول: مكالمة خاصة بوساطة هاتف خاص مع أحد رعاياه من العوام، في أمر جزئـي يعود إلى حاجة خاصة به.

والآخر: مكالمة باسم السلطنة العظمى، وبعنوان الخلافة الكبرى وبعزة الحاكمية العامة، بقصد نشر أوامره السلطانية في الآفاق، فهي مكالمة يجريها مع أحد مبعوثيه أو مع أحد كبار موظفيه.. فهي مكالمة بأمر عظيم يهم الجميع.

المثال الثاني: رجل يمسك مرآة تجاه الشمس، فالمرآة تلتقط – حسب سعتها – نوراً وضياء يحمل الالوان السبعة في الشمس. فيكون الرجل ذا علاقة مع الشمس بنسبة تلك المرآة، ويمكنه أن يستفيد منها فيما إذا وجهها إلى غرفته المظلمة، أو إلى مشتله الخاص الصغير المسقف، بيد أن استفادته من الضوء تنحصر بمقدار قابلية المرآة على ما تعكسه من نور الشمس وليست بمقدار عِظمَ الشمس.

---

[47] المقصود: الارتباط الموجود ضمن الصنف الواحد من الناس المنسجمين في الميول والأفكار والاذواق والطبائع كأرباب الحرف والمهن. ـــــ المترجم.

بينما رجل آخر يترك المرآة، ويجابه الشمس مباشرة، ويشاهد هيبتها ويدرك عظمتـــها، ثم يصعد على جبل عال جداً وينظر إلى شعشعة سلطانها الواسع المهيب ويقابلها بالذات دون حجاب ثم يرجع ويفتح من بيته الصغير ومن مشتله المسقف الخاص نوافذ واسعة نحو الشمس، واجداً سبلاً إلى الشمس التي هي في أعالي السماء ثم يجري حواراً مع الضياء الدائم للشـــمس الحقيقية. فيناجي الشمس بلسان حاله ويحاورها بهذه المحاورة المكللة بالشكر والامتنان فيقول: (ايه يا شمس! يا من تربعت على عرش جمال العالم! يا لطيفة السماء وزهراءها! يا من أضفيت على الارض بهجة ونوراً، ومنحت الازهار ابتسامة وسروراً،فلقد منحت الدفء والنور معـــاً لبيتي ومشتلي الصغير كما وهبت للعالم أجمع الدفء والنور).

بينما صاحب المرآة السابق لا يستطيع أن يناجي الشمس ويحاورها بهذا الاســـلوب، إذ إن آثار ضوء الشمس محددة بحدود المرآة وقيودها، وهي محصورة بحسب قابلية تلك المـــرآة واستيعابها للضوء.

وبعد.. فانظر من خلال منظار هذين المثالين إلى القرآن الكريم لتشاهد اعجازه، وتدرك قدسيته وسموه.

أجل ان القرآن الكريم يقول:

(ولو أنّ ما في الارضِ مِن شجرةٍ أقلامٌ والبحُر يمدّه من بعدهِ سبعةُ أبحرٍ مـــا نفـــدتْ كلمات الله، ان الله عزيز حكيم) (لقمان:27)

وهكذا فان منح القرآن الكريم اعلى مقام من بين الكلمات جميعاً، تلك الكلمات التي لا تحدها حدود، مردّه أن القرآن قد نـــزل من الاسم الاعظم ومن أعظم مرتبة من مراتب كل اسم من الأسماء الحسنى، فهو كلام الله، بوصفه رب العـــالمين، وهـــو أمـــره بوصـــفه إلـــه الموجودات، وهو خطابُه بوصفه خالق السموات والارض، وهو مكالمةٌ سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو خطابُه الازلي باسم السلطنة الإلهية العظمى. وهو سجلُ الالتفـــات والتكـــريم الرحماني نابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شئ. وهو مجموعة رسائل ربانية تـــبين عظمـــة الالوهية، إذ في بدايات بعضها رموز وشفرات. وهو الكتاب المقدس الذي ينثر الحكمة.

ولأجل هذه الاسرار أُطلق على القرآن الكريم ما هو أهله ولائق به اسم (كلام الله).

أما سائر الكلمات الإلهية: فان قسماً منها كلام نابع باعتبار خاص، وبعنوان جزئـــي، وبتجل جزئي لاسم خصوصي، وبربوبية خاصة، وسلطان خـــاص، ورحمـــة خصوصـــية. فدرجات هذه الكلمات مختلفة متفاوتة من حيث الخاص والكلي، فأكثر الإلهامات من هـــذا القسم إلاّ أن درجاتها متفاوتة جداً.

فمثلاً: ان ابسطها واكثرها جزئية هي إلهام الحيوانات، ثم إلهام عوام الناس، ثم إلهام عوام الملائكة، ثم إلهام الاولياء، ثم إلهام كبار الملائكة.

ومن هذا السر نرى ان ولياً يقول: »حدّثني قلبي عن ربي« أي: بهاتف قلبه. ومن دون وســـاطة مَلَك، فهو لا يقول: حدّثني رب العـــالمـــين. أو نراه يقـــــول: ان قلـــبـــــي عـــرشٌ ومرآة عاكسة لتجليات ربـــي. ولا يقـــول: عـــرش رب العـــالمين؛ لأنه يمـــكن ان ينال حظاً من الخطاب الرباني وفق استعداداته وحسب درجة قابلياته وبنسبة رفـــع مـــا يقارب سبعين الف حجاب.

نعم! انه بمقدار علو كلام السلطان الصادر من حيث السلطنة وسموه على مكالمته الجزئية مع أحد رعاياه من العوام، وبمقدار ما يفوق الاستفادة من فيض تجلي الضوء من الشمس التي هي في السماء على استفادة فيضها من المرآة، يمكن فهم سمو القرآن الكريم على جميع الكلام الإلهي والكتب السماوية.

فالكتب المقدسة والصحف السماوية تأتي بالدرجة الثانية بعد القرآن الكريم في درجـــة العلو والسمو. كل له درجته وتفوقه، كل له حظه من ذلك السر للتفوق، فلو اجتمع جميـــع الكلام الطيب الجميل للانس والجن - الذي لم يترشح عن القرآن الكريم - فانه لا يمكن أن يكون نظيراً قط للقرآن الكريم ولا يمكن أن يدنو إلى أن يكون مثله.

واذا كنت تريد أن تفهم شيئاً من أن القرآن الكريم قد نـــزل من الاسم الاعظم ومـــن المرتبة العظمى لكل اسم من الأسماء الحسنى فتدبّر في (آية الكرسي) وكذا الآيـــات الكريمـــة التالية وتأمل في معانيها الشاملة العامة السامية:

(وعندَه مفاتِحُ الغَيب) (الانعام :59)

(قل اللّهم مالكَ الملك) (آل عمران :26)

(يُغشي الليلَ النهار يطلُبُه حثيثاً والشمسَ والقمــرَ والنجــومَ مســخراتٍ بــأمره) (الاعراف:54)

(يا أرض ابلعي ماءك ويا سماءُ أقلعي) (هود:44)

(تسبح له السمواتُ السبعُ والارضُ ومَن فيهن) (الاسراء:44)

(ما خَلْقُكُم ولا بَعثُكُم إلاّ كَنفسٍ واحدة) (لقمان:28)

(إنّا عرضنا الأمانةَ على السمواتِ والارض والجبال) (الاحزاب:72)

(يومَ نطوي السماءَ كطيِّ السّجلِ للكتب) (الانبياء:104)

(وما قدروا الله حقّ قدرِه والارضُ جميعاً قــبــضتُه يومَ القيامة) (الزمر:67)

(لو أنــزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته..) (الحشر:21)

وأمثالها من الآيات الجليلة، ثم دقق النظر في السور المبتدئة بــ (الحمد لله) و(تسبح..). لترى شعاع هذا السر العظيم ثم أنظر إلى السور المستهلة بـــ(الم) و(ألر)، و(حم) لتفهم أهمية القرآن لدى رب العالمين.

واذا فهمت السر اللطيف لهذا الاساس الرابع، تستطيع أن تفهم: الســر في أن أكثــر الوحي النازل إلى الانبياء انما هو بوساطة ملك، أما الالهام فبلا وساطة.

وتفهم السر في أن أعظم ولي من الاولياء لا يبلغ أي نبي كان من الانبياء. وتفهم السر الكامن في عظمة القرآن وعزته القدسية وعلو اعجازه.. وتفهم سر لزوم المعــراج وحكمــة ضرورته، أي تفهم السر في رحلته(ص) إلى السموات العلا والى سدرة المنتهى حتى كان قاب قوسين أو أدنى ومن ثم مناجاته معه سبحانه، مع أنه جل جلاله (أقرب إليه من حبل الوريد) ثم عودته بطرف العين إلى مكانه.

أجل! ان شق القمر كما أنه معجزة لاثبات الرسالة، أظهرت نبوته إلى الجن والانــس. كذلك المعراج هو معجزة عبوديته(ص) أظهرت محبوبيته إلى الارواح والملائكة.

اللّهم صل وسلم عليه وعلى آله، كما يليق برحمتك وبحرمته

آمــــــــين

الكلمة الثالثة عشرة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(ونُنــــزل من القرآنِ ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين) (الاسراء: 82)

(وما علّمناه الشِعْرَ وَمَا يَنْبَغي لهُ) (يس:69)

اذا اردتَ أن تعقد موازنة ومقارنة بين حكمة القرآن الحكيم والعلوم الفلسفية، واردت أن تعرف ما يمكن ان يُستخلص من كل منهما من دروس العبرة والعظة، ورمتَ أن تلمس ما ينطويان عليه من علوم.. فامعن النظر وتأمل فيما يأتي:

ان القرآن الكريم، ببياناته القوية النافذة، انما يمزّق غطاء الأُلفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة، والتي لا تُذكر الاّ انها عادية مألوفة مع انها خوارق قــــدرةٍ بديعـــة ومعجزاتها العظيمة. فيكشف القرآن بتمزيقه ذلك الغطاء حقائق عجيبة لـــذوي الشـــعور، ويُلفت انظارهم إلى ما فيها من دروس بليغة للاعتبار والعظة، فاتحاً كنـــزاً لا يفنى للعلوم امام العقول.

اما حكمة الفلسفة، فهي تخفي جميع معجزات القدرة الإلهية وتسترها تحت غطاء الأُلفة والعادة، فتجاوزها دون اكتراث. بل تتجاهلها دون مبالاة بها، فلا تعرض امام انظـــار ذوي الشعور الا افراداً نادرة شذّت عن تناسق الخلقة، وتردّت عن كمال الفطرة السليمة مدّعية انها نماذج حكمةٍ ذات عبرة.

فمثلاً: ان الإنسان السوي الذي هو في احسن تقويم جامعٍ لمعجزات القـــدرة الإلهيـــة، تنظر إليه حكمةُ الفلسفة نظرها إلى شئ عادي مألوف، بينما تلفت الانظار إلى ذلك الإنسان المشوّه الذي شذّ عن كمال الخلقة، كأن يكون له ثلاثة ارجل أو رأسين مثلاً، فتثير حوله نظر العبرة والاستغراب.

ومثلاً: ان اعاشة جميع الصغار من خزائن الغيب اعاشةً في منتهى الانتظام الـتي تمثـل ألطف معجزة من معجزات رحمته تعالى واعمّها في الوجود، تنظر اليها حكمة الفلسفة أمـراً مألوفاً عادياً، فتسترها بستار الكفران، بينما تلفت الانظار إلى اعاشة حشرة شذت عن النظام ونأت عن طائفتها وظلت وحيدة في الغربة فريدة في اعماق البحر، فبدأت تقتات على ورق نبات اخضر هناك حتى انها لتثير اشجان الصيادين إلى ما يتجلى منها من لطف وكـرم بـل تدفعهم إلى البكاء والحزن.[48]

فشاهد في ضوء هذه الامثلة ثروة القرآن الطائلة وغناه الواسع في معرفة الله في ميـدان العلم والحكمة.. وافلاس الفلسفة وفقرها المدقع في دروس العبرة والعلم بمعرفة الصانع الجليل.

ولأجل هذا السر فالقرآن الكريم الذي هو جامع لحقائق باهرة ساطعة لا نهايـة لهـا، مستغنٍ عن خيالات الشعر.. وثمة سبب آخر لتنـزه القرآن عن الشعر هو ان القرآن مع انه في اتم نظام خارق واكمل انتظام معجز ويفسّر - باساليبه المنتظمة - تناسق الصنعة الإلهية في الكون نراه غير منظوم، فكل آية من نجوم آياته لا تتقيد بنظام الوزن، لذا تصبح كأنها مركز لأكثر الآيات وشقيقتها. إذ تمثل خيوط العلاقة بين الآيات المترابطة في المعنى دائرة واسـعة. فكأن كل آيةٍ حرةٍ - غير مقيدة بنظام الوزن - تملك عيوناً باصرة إلى اكثر الآيات، ووجوهاً متوجهة اليها.

ومن هذا نجد في القرآن الكريم آلافاً من القرائن حتى أنه يهب لكل ذي مشرب قرآنـاً منه. فسورة الاخلاص - مثلاً - تشتمل على خزينة عظيمة لعلم التوحيد، تضم ستاً وثلاثين سورة اخلاصٍ، تتكون من تراكيب جملها الست ذات العلاقات المترابطة بعضها ببعض، كما وضّح ذلك في الكلمة الخامسة والعشرين.

نعم! ان عدم الانتظام الظاهر في نجوم السماء، يجعل كل نجم منها غير مقيـد وكأنهـا مركز لاكثر النجوم ضمن دائرة محيطها. فتمد خيوط العلاقات وخطوط الاواصر إلى كـل

---

[48] لقد وقعت هذه الحادثة فعلاً في امريكا.ـــ المؤلف

منها اشارة إلى العلاقات الخفية فيما بين الموجودات قاطبة. وكأن كل نجمـــة - كنجـــوم الآيات الكريمة - تملك عيوناً باصرة إلى النجوم كافة ووجوهاً متوجهة اليها جميعاً .

فشاهد كمال الانتظام في عدم الانتظام. واعتبر! واعلم من هذا سراً من أسرار الآيـــة الكريمة (وما علّمناه الشعر وما ينبغي له)(يس:69)

واعلم ايضاً حكمةً أخرى لـــ(وما ينبغي له) مما يأتي:

ان شأن الشعر هو تجميل الحقائق الصغيرة الخامدة، وتزيينها بالخيال البراق، وجعلـــها مقبولة تجلب الاعجاب.. بينما حقائق القرآن من العظمة والسمو والجاذبية بحيث تبقى اعظم الخيالات واسطعها قاصرة دونها، وخافته امامها.

فمثلاً:قوله تعالى (يومَ نطوي السماءَ كطي السّجل للكتب) (الانبياء104) (يُغشي الليلَ النهار يطلبُه حثيثاً) (الاعراف:54) (ان كانت الاّ صيحةً واحدةً فاذا هـــم جميـــعٌ لـــدينا مُحـــضَرون)(يس:53). وامثالها من الحقائق التي لا حدّ لها في القرآن الكريم شاهدات على ذلك.

اذا شئت ان تشاهد وتتذوق كيف تنشر كلُ آية من القرآن الكـــريم نـــورَ اعجازهـــا وهدايتها وتبدّد ظلمات الكفر كالنجم الثاقب؛ تصوَّر نفسَك في ذلك العصر الجـــاهلي وفي صحراء تلك البداوة والجهل. فبينا تجد كل شئ قد اسدل عليه ستار الغفلة وغشـــيه ظـــلام الجهل ولفّ بغلاف الجمود والطبيعة، إذا بك تشاهد وقد دّبت الحياة في تلك الموجـــودات الهامدة أو الميتة في اذهان السامعين فتنهض مسبّحةً ذاكرةً الله بصدى قوله تعالى (يسبّح لله ما في السموات وما في الارض الملكِ القدوسِ العزيزِ الحكيم) (الجمعة:1) وما شابهها من الآيات الجليلة.

ثم ان وجه السماء المظلمة التي تســـتعر فيهـــا نجـــومٌ جامـــدة، تتحـــول في نظـــر السامعين،بصدى قوله تعالى (تسبّح له السمواتُ السبعُ والارضُ) (الاسراء:44) إلى فمٍ ذاكرٍ لله، كل نجم يرسل شعاع الحقيقة ويبث حكمة حكيمة بليغة.

وكذا وجه الارض التي تضم المخلوقات الضعيفة العاجزة تتحـــول بـــذلك الصـــدى السماوي إلى رأس عظيم، والبر والبحر لسانين يلهجان بالتسبيح والتقديس وجميع النباتـــات والحيوانات كلمات ذاكرة مسبّحة؛ حتى لكأن الأرض كلها تنبض بالحياة.

وهكذا بانتقالك الشعوري إلى ذلك العصر تتذوق دقائق الاعجاز في تلك الآية الكريمة. وبخلاف ذلك تُحرَم من تذوق تلك الدقائق اللطيفة في الآية الكريمة.

نعم! انك إذا نظرت إلى الآيات الكريمة من خلال وضعك الحاضر الذي استنار بنـــور القرآن منذ ذلك العصر حتى غدا معروفاً، واضاءته سائر العلوم الاسلامية، حـــتى وضـــحت بشمس القرآن. أي إذا نظرت إلى الآيات من خلال ستار الأُلفة، فانك بلا شك لا ترى رؤية حقيقية مدى الجمال المعجز في كل آية، وكيف انها تبدد الظلمات الدامسة بنورها الوهـــاج. ومن بعد ذلك لا تتذوق وجه اعجاز القرآن من بين وجوهه الكثيرة.

واذا اردت مشاهدة اعظم درجة لأعجاز القرآن الكثيرة، فاستمع إلى هذا المثال وتأمل فيه: لنفرض شجرة عجيبة في منتهى العلو والغرابة وفي غاية الانتشار والسعة؛ قد اُسدل عليها غطاء الغيب، فاستترت طي طبقات الغيب.

فمن المعلوم أن هناك توازناً وتناسباً وعلاقاتِ ارتباط بين اغصـــان الشـــجرة وثمراتهـــا واوراقها وازاهيرها - كما هو موجود بين اعضاء جسم الإنسان - فكل جزء من اجزائهـــا يأخذ شكلاً معيناً وصورة معينة حسب ماهية تلك الشجرة.

فاذا قام احدٌ - من قِبل تلك الشجرة التي لم تُشاهَد قط ولا تُشاهد - ورســـم علـــى شاشةٍ صورةً لكل عضو من اعضاء تلك الشجرة، وحدّ له، بأن وضع خطوطاً تمثل العلاقات بين اغصانها وثمراتها واوراقها، وملأ ما بين مبدئها ومنتهاها - البعيدين عن بعضهما بما لايحد -بصورٍ وخطوط تمثل اشكال اعضائها تماماً وتبرز صورها كاملة.. فلا يبقى ادنى شـــك في أن ذلك الرسام يشاهد تلك الشجرة الغيبية بنظره المطلع على الغيب ويحيط به علماً، ومن بعد ذلك يصوّرها.

فالقرآن المبين - كهذا المثال - ايضاً فان بياناته المعجزة التي تخص حقيقة الموجـــودات (تلك الحقيقة التي تعود إلى شجرة الخلق الممتدة من بدء الدنيا إلى نهاية الآخرة والمنتشرة مـــن

الفرش إلى العرش ومن الذرات إلى الشموس) قد حافظت - تلك البيانات الفرقانية - على الموازنة والتناسب واعطت لكل عضو من الاعضاء ولكل ثمرة من الثمرات صورة تليق بها بحيث خَلُص العلماء المحققون - لدى اجراء تحقيقاتهم وابحاثهم- إلى الانبهار والإنشداه قائلين: ما شاء الله.. بارك الله. ان الذي يحل طلسم الكون ويكشف معمّى الخلق انما هو أنت وحدك ايها القرآن الحكيم!

فلنمثل - ولله المثل الاعلى- الأسماء الإلهية وصفاتها الجليلة والشؤون الربانية وافعالها الحكيمة كأنها شجرة طوبى من نور تمتد دائرة عظمتها من الازل إلى الابد، وتسع حدود كبريائها الفضاء المطلق غير المحدود وتحيط به. ويمتد مدى اجراءاتها من حدود (فالق الحب والنوى) (الانعام:95) (ويحوُل بين المرء وقلبه)(الانفال:24) (وهو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء) (آل عمران:6) إلى (خلق السموات والارض في ستة أيام) (هود:7) والى (والسموات مطويات بيمينه) (الزمر:67) (وسخر الشمس والقمر) فنرى ان القرآن الكريم يبين تلك الحقيقة النورانية بجميع فروعها واغصانها وبجميع غاياتها وثمراتها بياناً في منتهى التوافق والانسجام بحيث لا تعيق حقيقةٌ حقيقةً أخرى ولا يفسد حكمُ حقيقةٍ حُكْماً لأُخرى، ولا تستوحش حقيقة من غيرها. وعلى هذه الصورة المتجانسة المتناسقة بيّنَ القرآن الكريم حقائق الأسماء الإلهية والصفات الجليلة والشؤون الربانية والافعال الحكيمة بياناً معجزاً بحيث جعل جميع أهل الكشف والحقيقة وجميع اولي المعرفة والحكمة الذين يجولون في عالم الملكوت، يصّدقونه قائلين امام جمال بيانه المعجز والاعجابُ يغمرهم: »سبحان الله! ما اصوبَ هذا! وما اكثر انسجامه وتوافقه وتطابقه مع الحقيقة وما اجمله وأليقه«.

فلو اخذنا مثلاً اركانَ الإيمان الستة التي تتوجه إلى جميع دائرة الموجودات المختلفة ودائرة الوجوب الإلهي والتي تعد غصناً من تلكما الشجرتين العظميين، يصورها القرآن الكريم بجميع فروعها واغصانها وثمراتها وازاهيرها مراعياً في تصويره انسجاماً بديعاً بين ثمراتها وازاهيرها معّرفاً طرز التناسب في منتهى التوازن والاتساق بحيث يجعل عقل الإنسان عاجزاً عن ادراك ابعاده ومبهوتاً أمام حسن جماله.

ثم ان الاسلام الذي هو فرع من غصن الايمان، أبدع القرآن الكريم واتى بالرائع المعجب في تصوير ادق فروع اركانه الخمسة وحافظ على جمال التناسب وكمال التوازن فيما بينها، بل حافظ على ابسط اداها ومنتهى غاياها واعمق حِكَمها واصغر فوائدها وثمراها واهر دليل على ذلك هوكمال انتظام الشريعة العظمى النابعة من نصوص ذلك القرآن الجـــامع ومـــن اشاراته ورموزه..

فكمال انتظام هذه الشريعة الغراء وجمال توازها الدقيق وحســـن تناســـب احكامهـــا ورصانتها كل منها شاهدُ عدلٍ لا يجرح وبرهان قاطع باهر لا يدنو منه الريب ابـــداً علـــى أحقية القرآن الكريم بمعنى ان البيانات القرآنية لا يمكن ان تستند إلى علم جزئي لبشـــر، ولا سيما إنسان اميّ، بل لابد ان تستند إلى علم واسع محيط بكل شئ والبصير بجميع الاشـــياء معاً..

فهو كلام ذات الله الجليل البصير بالازل والابد معاً والشاهد بجميـــع الحقـــائق في آن واحد. ومما يشير إلى هذه الحقيقة الآية الكريمة:

(الحمد لله الذي انـــزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجاً) (الكهف:1)

اللهم يا منـــزل القرآن! بحق القرآن وبحقّ من اُنـــزل عليه القرآن نوّر قلوبنا وقبورنـــا بنور الإيمان والقرآن آمين يا مستعان!!

المقام الثاني

من الكلمة الثالثة عشرة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

[حوار مع عدد من الشباب الذين تتجاذبهم الاغراءات والأهواء ولكنهم لم يفقدوا بعدُ صوابهم]

طلب عدد من الشباب ان تعينهم »رسائل النور« وتمدّ لهم يد النجدة سائلين:

كيف يمكننا أن ننقذ آخرتنا ازاء ما يحيط بنا في زماننا هذا من فتنة الاغـــراء وجاذبيـــة الهوى وخداع اللهو؟

فأجبتهم باسم شخصية »رسائل النور« المعنوية قائلاً:

القبر ماثل أمام الجميع! لا يمكن أن ينكره أحد. كلُّنا سندخله لا مناص! والدخول فيه بثلاثة طرق لا غيرها:

الطريق الاول: يؤدي إلى أن القبر باب ينفتح للمؤمنين إلى رياض جميلة وعالمٍ رحـــب فسيح أفضلَ وأجملَ من هذه الدنيا.

الطريق الثاني: يوصل إلى أن القبر باب لسجن دائم للمتمادين في الضلالة والغي – مع ايمانهم بالآخرة – فهم يعامَلون بجنس ما كانوا يعتقدونه ويرون الوجود والحياة من خلالـــه؛ فيُعزَلون عن جميع أحبتهم في هذا السجن الانفرادي، لعدم عملهم بما كانوا يعتقدونه.

الطريق الثالث: ينساق إليه مَن لا يؤمن بالآخرة من أرباب الضلالة، فاذا القبر بابٌ إلى العدم المحض واعدامٌ نهائي له. والقبر في نظره مشنقة تُفنيه وتُفني معه جميعَ أحبته. فهذا هــو جزاء جحوده بالآخرة.

هذان الشقان بديهيان، لا يحتاجان إلى دليل، إذ يمكن مشاهدتهما رأي العين.

فما دام الاجلُ مستوراً عنا بستار الغيب، والموتُ يمكنه أن يدركنا في كل حين، يضرب عنق الإنسان دون تمييز بين الشاب والشيخ، فلا شك أن الإنسان الضعيف الذي يرى هــذه القضية المذهلة أمام عينيه، في كل وقت، سوف يتحرى عما ينجيه من ذلك الاعدام، ويبحث عما يحوّل له بابَ القبر من ظلمة قاتمة إلى نور ساطع ينفتح إلى عالم خالد ورياض مونقــة في عالم النور والسعادة الخالدة.. ولا ريب أن هذه المسألة هي القضية الكبرى لدى الإنسان، بل هي أعظم و أجلّ من الدنيا كلها.

ان ظهور هذه الحقيقة، حقيقة الموت والقبر، بالطرق الثلاثة المتقدمة، ينبئ بهــا مائــة وأربعة وعشرون ألفاً من المخبرين الصادقين، وهم الانبياء الكرام عليهم السلام الحاملون لواء تصديقهم الذي هو معجزاتهم الباهرة.. وينبيء بها مائة وأربعة وعشرون مليوناً من الاوليــاء الصالحين، يصدّقون ما أخبر به أولئك الانبياء الكرام، ويشهدون لهم على الحقيقــة نفســها بالكشف والذوق والشهود.. وينبئ بها ما لا يعد ولا يحصى من العلماء المحققين، يثبتون مــا أخبر به أولئك الانبياء والاولياء بأدلتهم العقلية القاطعة البالغة درجة علم اليقين،[49] وبما يصــل إلى تسع وتسعين بالمئة من الثبوت والجزم.. فالجميع يقررون:

أن النجاة من الاعدام الابدي، والخلاص من السجن الانفرادي، وتحويــل المــوت إلى سعادة أبدية، انما تكون بالايمان بالله وطاعته ليس الاّ.

نعم! لو سار أحدُهم في طريقٍ غيرَ مكترث بقول مخبر عن وجود خطر مهلــك، ولــو باحتمال واحد من المائة، أليس ما يحيط به من قلق وخوف عما يتصوره ويتوقعه من مخــاطر كافياً لقطع شهيته عن الطعام؟ فكيف اذن بإخبار مئات الآلاف من الصــادقين المصــدّقين،

---

[49] احد اولئك رسائل النور كما يراها الجميع. ـــــ المؤلف

إخباراً يبلغ صدقُهم مائة في المائة، واتفاقهم جميعاً على أن الضلالة والجحود يدفعان الإنسان إلى مشنقة القبر وسجنه الانفرادي الابدي - كما هو ماثل امامكم - وان الإيمان والعبادة بيقين مائة في المائة، كفيلان برفع أعواد المشنقة واغلاق باب السجن الانفرادي، وتحويل القبر إلى باب يُفتح إلى قصور مزيّنة عامرة بالسعادة الدائمة، وكنوز مليئة لا تنضب.. علماً أهم مع أخبارهم هذا يدلون على اماراتها ويظهرون آثارها.

والآن أوجه اليكم هذا السؤال:

- تُرى ما موقف الإنسان البائس، ولا سيما المسلم، ازاء هذه المسألة الجسيمة الرهيبة؟ هل يمكن أن تزيل سلطنةُ الدنيا كلها مع ما فيها من متع ولذائذ، ما يعانيه الإنسان من اضطراب وقلق في انتظار دوره في كل لحظة للدخول إلى القبر، إن كان فاقداً للايمان والعبادة؟.

ثم أن الشيخوخة والمرض والبلاء، وما يحدث من وفيات هنا وهناك، تقطّر ذلك الألم المرير إلى نفس كل انسان، وتُنذره دوماً بمصيره المحتوم. فلا جرم أن أولئك الضالين وأرباب السفاهة والمجون سيتأجج في قلوبهم جحيمٌ معنوي، يعذبهم بلظاه حتى لو تمتعوا بمباهج الدنيا ولذائذها، بيد أن الغفلة وحدها هي التي تحول دون استشعارهم ذلك العذاب الاليم.

فما دام أهل الإيمان والطاعة يرون القبر الماثل أمامَهم باباً إلى رياض سعادة دائمة ونعيم مقيم، بما مُنحوا من القدر الالهي من وثيقة تُكسبهم كنوزاً لا تفنى بشهادة الايمان، فان كلاً منهم سيشعر لذة عميقة حقيقية راسخة، ونشوة روحية لدى انتظاره كل لحظة مَن يناديه قائلاً: تعال خذ بطاقتك! بحيث إن تلك النشوة الروحية لو تجسمت لاصبحت بمثابة جنة معنوية خاصة بذلك المؤمن، بمثل ما تتحول البذرة وتتجسم شجرةً وارفة.

ولما كان الامر هكذا، فالذي يدَع تلك المتعة الروحية الخالصة لأجل لذة مؤقتة غير مشروعة منغصة بالآلام - كالعسل المسموم - بدافع من طيش الشباب وسفاهته، سينحط إلى مستوى أدنى بكثير من مستوى الحيوان.. بل لا يبلغ أن يكون حتى بمثل الملاحدة الأجانب أيضاً؛ لان مَن ينكر منهم رسولَنا الكريمρفقد يؤمن برسل آخرين، وإن لم يؤمن بالرسل كلهم، فقد يؤمن بوجوده تعالى. وإن لم يؤمن بالله، فقد تكون له من الخصال الحميدة ما يريه

الكمالات. بينما المسلم لم يعرف الرسل الكرام ولا آمن بربه ولا عرف الكمالات الإنسانية إلاّ بوساطة هذا النبي الكريمρلذا مَن يترك منهم التأدب بتربيته المباركة ويحل ربقته عن أوامره فلا يعترف بنبي آخر، بل يجحد حتى بالله سبحانه وتعالى. ولا يستطيع أن يحافظ على أسس الكمالات الإنسانية في روحه؛ ذلك لان أصول الدين وأسس التربية التي جاء بها الرسول الكريم (ص)هي من الرسوخ والكمال ما لا يمكن أن يحرز نوراً ولا كمالاً قط مَن يَدَعها ويتركها، بل يُحكَم عليه بالتردي والسقوط المطلق، إذ هو ρ خاتم النبيين وسيد الانبياء والمرسلين، وإمام البشرية بأكملها، في الحقائق كلها، بل هو مدار فخرها واعتزازها، كما أثبت ذلك اثباتاً رائعاً على مدى أربعة عشر قرناً.

فيا مَن فُتنتم بزهرة الحياة الدنيا ومتاعها، ويا مَن يبذلون قصارى جهدهم لضمان الحياة والمستقبل بالقلق عليهما! أيها البائسون!

ان كنتم ترومون التمتع بلذة الدنيا والتنعم بسعادتها وراحتها، فاللذائذ المشروعة تُغنيكم عن كل شئ، فهي كافية ووافية لتلبية رغباتكم وتطمين أهوائكم. ولقد أدركتم - مما بيناه آنفاً - أن كل لذة ومتعة خارج نطاق الشرع فيها ألف ألمٍ وألم، إذ لو أمكن عرض ما سيقع من أحداث مقبلة بعد خمسين سنة مثلاً، على شاشة الآن مثلما تُعرض الاحداث الماضية عليها لبكى أربابُ الغفلة والسفاهة بكاءً مراً أليماً على ما يضحكون له الآن.

فمن كان يريد السرور الخالص الدائم والفرح المقيم في الدنيا والآخرة، عليه أن يقتدي بما في نطاق الإيمان من تربية محمد ρ .

حوار مع فريق من الشباب

جاءني – ذات يوم – فريق من الشباب، يتدفقون نضارة وذكاءً، طالبين تنبيهات قوية وارشادات قويمة تقيهم من شرورٍ تتطاير من متطلبات الحياة ومن فتوة الشباب ومن الاهـــواء المحيطة بهم.

فقلت لهم بمثل ما قلته لأولئك الذين طلبوا العون من رسائل النور:

اعلموا ان ما تتمتعون به من ربيع العمر ونضارة الحياة ذاهب لا محالة، فان لم تلزمـــوا انفسكم بالبقاء ضمن الحدود الشرعية، فسيضيع ذلك الشباب ويذهب هباءً منثوراً، ويجـــرّ عليكم في الدنيا وفي القبر وفي الآخرة بلايا ومصائب وآلاماً تفوق كثيراً ملذات الدنيا الـــتي أذاقكم اياها.. ولكن لو صرفتم ربيع عمركم في عفة النفس وفي صون الشرف وفي طاعـــة ربكم بتربيته على الاسلام، اداءاً لشكر الله تعالى على ما أنعم عليكم مـــن نعمـــة الفتـــوة والشباب، فسيبقى ويدوم ذلك العهد معنىً، وسيكون لكم وسيلة للفوز بشباب دائم خالد في الجنة الخالدة.

فالحياة، ان كانت خالية من الايمان، او فَقَد الإيمان تأثيره فيها لكثرة المعاصي، فانها مع متاعها ولذتها الظاهرية القصيرة جداً تذيق الآلام والاحزان والهموم اضعافَ اضعافِ تلك المتع والملذات، ذلك لأن الإنسان – بما مُنح من عقل وفكر – ذو علاقة فطرية وثيقـــة بالماضـــي والمستقبل فضلاً عما هو عليه من زمان حاضر حتى انه يتمكن من ان يذوق لذائـــذ تلـــك الازمنة ويشعر بآلامها، خلافاً للحيوان الذي لا تعكر صفو لذته الحاضرة الاحزانُ الواردة من الماضي ولا المخاوف المتوقعة في المستقبل، حيث لم يمنح الفكر.

ومن هنا فالانسان الذي تردّى في الضلالة واطبقت عليه الغفلة تفسد متعتُه الحاضرة بما يردُه من احزان من الماضي، وما يرده من اضطرابٍ من القلق على المستقبل. فتتكدر حياتُـــه الحاضرة بالآلام والاوهام، سيما الملذات غير المشروعة، فهي في حكم العسل المسموم تماماً.

اي ان الإنسان هو أدنى بمائة مرة من الحيوان من حيث التمتع بملذات الحياة. بـــل ان حياة ارباب الضلالة والغفلة، بل وجودهم وعالَمهم، ما هو الاّ يومهم الحاضـــر، حيـــث إن الازمنة الماضية كلها وما فيها من الكائنات معدومة، ميتة، بسبب ضلالتهم، فترِدهم من هناك حوالك الظلمات..!

أما الازمنة المقبلة فهي ايضاً معدومة بالنسبة اليهم، وذلك لعدم ايمانهم بالغيب. فـــتملأ الفراقات الابدية التي لا تنقطع حياتهم بظلمات قاتمة، ما داموا يملكون العقل جاحدين بالبعث والنشور.

ولكن إذا ما اصبح الإيمان حياةً للحياة، وشعّ فيها من نوره، استنارت الازمنة الماضـــية واستضاءت الازمنة المقبلة، وتجدان البقاء وتمدان روح المؤمن وقلبه من زاوية الايمان، باذواق معنوية سامية وانوار وجودية باقية، بمثل ما يمدّهما الزمن الحاضر.

هذه الحقيقة موضحة توضيحاً وافياً في »الرجاء السابع« من رسالة »الشيوخ« فليراجع.

هكذا الحياة.. فان كنتم تريدون ان تستمتعوا بالحياة وتلتذوا بها فاحيوا حياتكم بالايمان وزيّنوها باداء الفرائض، وحافظوا عليها باجتناب المعاصي.

أما حقيقة الموت التي تُطلعنا على اهوالها، الوفياتُ التي نشاهدها كل يـــوم، في كـــل مكان، فسأبينها لكم في مثال، مثلما بينتها لشبان آخرين من امثالكم

تصوروا ههنا - مثلاً - اعواداً نُصبت امامكم للمشنقة، وبجانبها دائرة توزع جـــوائز سخية كبرى للمحظوظين.. ونحن الاشخاص العشرة هنا سنُدعى إلى هناك طوعاً أو كرهـــاً. ولكن لأن زمان الاستدعاء مخفي عنّا، فنحنُ في كل دقيقة بانتظار مَن يقول لكلٍ منا: تعال.. تسلّم قرار اعدامك، واصعد المشنقة!. أو يقول: تعال خذ بطاقة تربحـــك ملايـــين اللـــيرات الذهبية.!

وبينا نحن واقفون منتظرون، إذا بشخصين حضرا لدى الباب. احدهما امِرأة جميلة لعوب شبه عارية تحمل في يدها قطعة من الحلوى، تقدّمها الينا تبدو أنها شهية، ولكنها مسمومة في حقيقتها.

أما الآخر فهو رجل وقور كيّس – ليس خباً ولا غرّاً – دخل على اثر تلك المرأة وقال: لقد أتيتكم بطلسم عجيب، وجئتكم بدرس بليغ، إذا قرأتم الدرس و لم تـأكلوا من تلك الحلوى، تنجون من المشنقة، وتتسلمون – بهذا الطلسم – بطاقة تلك الجائزة الثمينة.. فها انتم اولاء ترون بأم اعينكم ان مَن يأكل تلك الحلوى، يتلوى من آلام البطن حتى يصعد المشنقة.

أما الفائزون ببطاقة الجائزة، فمع انهم محجوبون عنّا، ويبدون انهم يصعدون منصّة المشنقة الاّ ان اكثر من ملايين الشهود يخبرون بأنهم لم يُشنَقوا، وانما اتخذوا اعواد المشنقة سلماً للاجتياز بسهولة ويسر إلى دائرة الجوائز.

فهيا انظروا من النوافذ، لتروا كيف ان كبار المسؤولين المشرفين على توزيع تلك الجوائز ينادون بأعلى صوتهم قائلين:

»ان اصحاب ذلك الطلسم العجيب قد فازوا ببطاقة الجوائز.. اعلموا هذا يقيناً كما رأيتم بعين اليقين اولئك الذاهبين إلى المشنقة، فلا يساورنكم الشك في هذا، فهو واضح وضوح الشمس في رابعة النهار«.

وهكذا على غرار هذا المثال:

فان متع الشباب وملذاته المحظورة شرعاً كالعسل المسموم.. وغدا الموت لدى الذي فقد بطاقة الإيمان التي تربحه السعادة الأبدية كأنه مشنقة، فينتظر جلاد الأجل الذي يمكن ان يحضر كل لحظة – لخفاء وقته عنا – ليقطع الاعناق دون تمييز بين شاب وشيخ.. فيرديه إلى حفرة القبر الذي هو باب لظلمات أبدية كما هو في ظاهره..

ولكن إذا ما أعرض الشاب عن تلك الملذات المحظورة، الشبيهة بالعسل المسموم وضرب عنها صفحاً، وبادر إلى الحصول على ذلك الطلسم القرآني وهو الإيمان واداء الفرائض، فان مائة واربعة وعشرين الفاً من الانبياء عليهم السلام، وما لا يعد ولا يحصى من الأولياء

الصالحين والعلماء العاملين يخبرون ويبشّرون بالاتفاق مظهرين آثار ما يخبرون عنه بأن المؤمن سيفوز ببطاقة تكسبه كنوز السعادة الأبدية.

حاصل الكلام: ان الشباب سيذهب حتماً وسيزول لا محالة. فان كان قــد قضـــي في سبيل الملذات ونشوة الطيش والغرور، فسيورث آلاف البلايا والآلام والمصائب الموجعة سواءً في الدنيا أو الآخرة.

وان كنتم ترومون أن تفهموا بأن أمثال هؤلاء الشباب سيؤول حالُهم في غالب الأمـــر إلى المستشفيات، بسبب تصرفاتهم الطائشة واسرافاتهم وتعرضهم لأمـــراض نفســية.. أو إلى السجون واماكن الاهانة والتحقير، بسبب نـــزواتهم وغرورهم.. أو إلى الملاهي والخمـــارات بسبب ضيق صدورهم من الآلام والاضطرابات المعنوية والنفسية التي تنتابهم.. نعم.. اِن شئتم أن تتيقنوا من هذه النتائج فأسألوا المستشفيات والسجون والمقابر.. فستسمعون بلاشك من لسان حال المستشفيات الأنات والآهات والحسرات المنبعثة من امراض نجمت من نــــــزوات الشباب واسرافهم في امرهم.. وستسمعون ايضاً من السجون صيحات الأسى واصوات الندم وزفرات الحسرات يطلقها اولئك الشبان الاشقياء الذين انساقوا وراء طيشـــهم، وغـــرورهم فتلقوا صفعة التأديب لخروجهم على الاوامر الشرعية، وستعلمون ايضاً ان اكثر ما يعذّب المرء في قبره – ذلك العالم البرزخي الذي لا تهدأ ابوابُه عن الانفتاح والانغلاق لكثرة الداخلين فيه –ما هو الاّ بما كسبت يداه من تصرفات سيئة في سني شبابه، كما هو ثابت بمشاهدات أهل كشف القبور، وشهادة جميع أهل الحقيقة والعلم وتصديقهم.

واسألوا اِن شئتم الشيوخ والمرضى الذين يمثلون غالبية البشرية، فستسمعون ان أكثريتهم المطلقة يقولون:

»وا أسفى على ما فات! لقد ضيعنا ربيع شبابنا في امور تافهة، بل في امـــور ضـــارة! فإياكم إياكم ان تعيدوا سيرتنا، وحذار حذار ان تفعلوا مثلنا!«.

ذلك لأن الذي يقاسي سنواتٍ من الغم والهم في الدنيا، والعذاب في البرزخ، ونار سَقَر في الآخرة، لأجل تمتع لا يدوم خمسٍ أو عشر سنوات من عمر الشباب بملـــذات محظـــورة.. غيرجدير بالاشفاق، مع أنه في أشد الحالات استدراراً للشفقة والرثاء، لأن الـــذي يرضـــى

بالضرر وينساق إليه طوعاً، لا يستحق الإشفاق عليه ولا النظر إلى حاله بعين الرحمة، وفـــق القاعدة الحكيمة: »الراضي بالضرر لا يُنظر له«.

حفظنا اللّه واِياكم من فتنة هذا الزمان المغرية ونجانا من شرورها..

آمـــين

[حاشية المقام الثاني من الكلمة الثالثة عشرة]

باسمه سبحانه

ان المسجونين هم في امسّ الحاجة إلى ما في »رسائل النور« من سلوان حقيقي وعـــزاء خالص. ولا سيما أولئك الشبان الذين تلقوا صفعات التأديب ولطمات التأنيب بنـــــزواهم واهوائهم. فقضوا نضارة عمرهم في السجن، فحاجة هؤلاء إلى النور كحاجتهم إلى الخبز.

ان عروق الشباب تنبض لهوى المشاعر، وتستجيب لها اكثر مما تستجيب للعقل وترضخ له. وسَورات الهوى - كما هو معلوم - لا تبصر العقبى، فتفضل درهماً من لـــذة حاضـــرة عاجلة على طنٍ من لذة آجلة، فيُقدم الشاب بدافع الهوى على قتل انسان برئ للتلذذ بدقيقة واحدة من لذة الانتقام، ثم يقاسي من جرائها ثمانية آلاف ساعة من آلام السجن.. والشـــاب ينساق إلى التمتع لساعة واحدة في اللهو والعبث - في قضية تخص الشرف - ثم يتجرع مـــن ورائها آلام ألوف الأيام من سجن وخوف وتوجس من العدو المتربص به.. وهكذا تضيع منه سعادة العمر بين قلق واضطراب وخوف وآلام.

وعلى غرار هذا يقع الشباب المساكين في ورطات ومشاكل عويصة كثيرة حتى تحـــوّل ألطف أيام حياهم واحلاها إلى أمرّ الايام وأقساها، وفي حالة يرثى لها. ولا سيما بعد ان هبت عواصف هوجاء من الشمال تحمل فتناً مدمرة لهذا العصر؛ إذ تستبيح لهوى الشباب الذي لا يرى العقبى أعراضَ النساء والعذارى الفاتنات وتدفعهم إلى الاختلاط الماجن البذئ، فضلاً عن إباحتها أموال الأغنياء لفقراء سفهاء.

ان فرائص البشرية كلها لترتعد أمام هذه الجرائم المنكرة التي تُرتكب بحقها.

فعلى الشباب المسلم في هذا العصر العصيب ان يشمّروا عن ساعد الجد لينقذوا الموقف، ويسلّوا السيوف الالماسية لحجج »رسائل النور« وبراهينها الدامغة - التي في رسالة »الثمرة« و»مرشد الشباب« وامثالهما - ويدافعوا عن أنفسهم، ويصدّوا هذا الهجوم الكاسح الذي شُنّ عليهم من جهتين.. والاّ فسيضيع مستقبل الشباب في العالم، وتذهب حياته السعيدة، ويفقد تنعّمه في الآخرة، فتنقلب كلها إلى آلامٍ وعذاب؛ إذ سيكون نزيل المستشفيات، بما كَسبت يداه من اسراف وسفاهة.. ونزيل السجون، بطيشه وغيّه.. وسيبكي أيام شيخوخته بكاءً مراً ويزفر زفرات ملؤها الحسرات والآلام.

ولكن إذا ما صان نفسه بتربية القرآن، ووقاها بحقائق »رسائل النور« فسيكون شاباً رائداً حقاً، وانساناً كاملاً، ومسلماً صادقاً سعيداً، وسلطاناً على سائر المخلوقات.

نعم، ان الشاب إذا دفع ساعة واحدة من اربع وعشرين ساعة من يومه في السجن إلى اقامة الفرائض، وتاب عن سيئاته ومعاصيه التي دفَعَتْه إلى السجن، وتجنب الخطايا والذنوب مثلما يجنّبه السجن اِياها.. فانه سيعود بفوائد جمة إلى حياته والى مستقبله والى بلاده والى أمته والى احبّائه واقاربه، فضلاً عن انه يكسب شباباً خالداً في النعيم المقيم بدلاً من هذا الذي لا يدوم خمس عشرة سنة.

هذه الحقيقة يبشرّ بها ويخبر عنها عن يقين جازم جميع الكتب السماوية وفي مقدمتها القرآن الكريم.

نعم! إذا ما شكر الشاب على نعمة الشباب - ذلك العهد الجميل الطيب - بالاستقامة على الصراط السوي، واداء العبادات، فان تلك النعمة المهداة تزداد ولا تنقص، وتبقى من دون زوال، وتصبح أكثر متعة وبهجة.. والاّ فانها تكون بلاء ومصيبة مؤلمة ومغمورة بالغم والحزن والمضايقات المزعجة حتى تذهب هباء فيكون عهد الشباب وبالاً على نفسه وأقاربه وعلى بلاده وأمته.

هذا وان كل ساعة من ساعات المسجون الذي حكم عليه ظلماً تكون كعبادة يومٍ كامل له، ان كان مؤدياً للفرائض، ويكون السجن بحقه موضع انزواء واعتزال من الناس

كما كان الزهاد والعباد ينـــزوون في الكهوف والمغارات ويتفرغون للعبادة. أي يمكـــن ان يكون هو مثل اولئك الزهاد.

وستكون كل ساعة من ساعاته ان كان فقيراً ومريضاً وشيخاً متعلقاً قلبه بحقائق الإيمان وقد أناب إلى الله وادّى الفـــرائض، في حـــكم عبـــادة عشـــرين ساعة له، ويتحول السجن بحقه مدرســـة تربوية ارشادية، وموضع تحابب ومـــكان تـــعاطف، حيث يقضي أيامه مـــع زملائه في راحة فضلاً عن راحته وتوجه الانظار إليه بالرحمة، بل لعله يفضل بقاءه في السجن على حريته في الخارج التي تنثال عليه الذنوب والخطايا من كل جانب، ويأنس بما يتلقى من دروس التربية والتزكية فيه. وحينما يغادره لا يغادره قاتلاً ولا حريصاً على أخذ الثأر، وانمـــا يخرج رجلاً صالحاً تائباً إلى الله، قد غنم تجارب حياتية غزيرة. فيصبح عضواً نافعـــاً للـــبلاد والعباد، حتى حدا الامر بجماعة كانوا معنا في سجن »دنيزلي« إلى القول، بعـــدما أخـــذوا دروساً ايمانية في سمو الاخلاق ولو لفترة وجيزة من رسائل النور:

»لو تلقى هؤلاء دروس الإيمان من رسائل النور في خمســـة اســـابيع، فانـــه اجـــدى لاصلاحهم من القائهم في السجن خمس عشرة سنة«.

فما دام الموت لا يفنى من الوجود، والأجل مستور عنا بستار الغيب، ويمكنه ان يحلّ بنا في كل وقت.. وان القبر لا يُغلق بابه.. وان البشرية تغيب وراءه قافلة اِثر قافلة.. وان الموت نفسه بحق المؤمنين ما هو الاّ تذكرة تسريح واعفاء من الاعدام الأبدي – كما وضّح ذلـــك بالحقيقة القرآنية – وانه بحق الضالين السفهاء اعدام أبدي كما يشاهدونه أمامهم؛ إذ هو فراق أبدي عن جميع أحبتهم وأقاربهم بل الموجودات قاطبة.. فلابد ولا شك بان أسعد انسان هو مَن يشكر ربه صابراً محتسباً في سجنه مستغلاً وقته أفضل استغلال، ساعياً لخدمـــة القـــرآن والإيمان مسترشداً برسائل النور.

ايها الإنسان المبتلى بالملذات والمتع!

لقد علمتُ يقيناً طوال خمس وسبعين سنة من العمر، وبالوف التجارب التي كسبتها في حياتي، ومثلها من الحوادث التي مرت عليّ أن الذوق الحقيقي، واللذة الـــتي لا يشـــوبها ألم، والفرح الذي لا يكدّره حزن، والسعادة التامة في الحياة انما هي في الايمان، وفي نطاق حقائقه

ليس الاّ. ومن دونه فان لذةً دنيوية واحدة تحمل آلاماً كثيرة كثيرة. واذ تقدم اليك الدنيا لذة بقدر ما في حبة عنب تصفعك بعشر صفعات مؤلمات، سالبةً لذة الحياة ومتاعها.

أيها المساكين المبتلون بمصيبة السجن!

ما دامت دنياكم حزينة باكية، وان حياتكم قد تعكرت بالآلام والمصائب، فابذلوا ما في وسعكم كيلا تبكي آخرتكم، ولتفرح وتحلو وتسعد حياتكم الأبدية. فاغتنموا يا اخوتي هذه الفرصة، إذ كما ان مرابطة ساعة واحدة أمام العدو ضمن ظروف شاقة يمكن ان تتحول إلى سنة من العبادة، فان كل ساعة من ساعاتكم التي تقاسونها في السجن تتحول إلى ساعات كثيرة هناك إذا ما أديتم الفرائض، وعندها تتحول المشقات والمصاعب إلى رحمات وغفران.

uuu

باسمه سبحانه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ابداً دائماً.

أيها الاخوة الاعزاء الأوفياء!

لقد رأيت انوار سلوان ثلاثة، أبينها في نقاط ثلاث للذين ابتلوا بالسجن ومن يقوم بنظارتهم ورعايتهم ومن يعينهم في أعمالهم وارزاقهم.

النقطة الأولى:

ان كل يوم من أيام العمر التي تمضي في السجن، يمكن ان يُكسِب المرء ثواب عبادة عشرة أيام، ويمكن ان يحوّل ساعاته الفانية – من حيث النتيجة– إلى ساعات باقية خالدة.. بل يمكن ان يكون قضاء بضع سنين في السجن وسيلة نجاة من سجن أبدي لملايين السنين.

فهذا الربح العظيم مشروط لأهل الإيمان باداء الفرائض والتوبة إلى الله من الذنوب والمعاصي التي دفعته إلى السجن، والتوجه إليه تعالى بالشكر صابراً محتسباً. علماً ان السجن نفسه يحول بينه وبين كثير من الذنوب.

النقطة الثانية:

ان زوال الألم لذةٌ، كما ان زوال اللذة ألمٌ.

نعم! ان كل من يفكر في الأيام التي قضاها بالهناء والفرح يشعر في روحه حسرة وأسفاً عليها، حتى ينطلق لسانه بكلمات الحسرات: اواه.. آه.. بينما إذا تفكر في الأيام التي مـــرت بالمصائب والبلايا فانه يشعر في روحه وقلبه فرحاً وبهجة من زوالها حتى ينطلق لسانه بــــــ: الحمد لله والشكر له، فقد ولّت البلايا تاركة ثوابها. فينشرح صدره ويرتاح.

أي أن ألماً موقتاً لساعة من الزمان يترك لذة معنوية في الروح، بينما لذة موقتة لساعة من الزمان تترك ألماً معنوياً في الروح، خلافاً لذلك.

فما دامت الحقيقة هذه، وساعات المصائب التي ولّت مع آلامها أصــبحت في عـــداد المعدوم، وان أيام البلايا لم تأت بعدُ، فهي ايضاً في حكم المعدوم.. وانه لا ألم من غير شئ.. ولا يرد من العدم ألمٌ.. فمن البلاهة اذن اظهار الجزع ونفاد الصبر الآن، من ســاعات آلامٍ ولّت، ومن آلامٍ لم تأتِ بعدُ، علماً انها جميعاً في عداد المعدوم. ومن الحماقة أيضـــاً اظهـــار الشكوى من الله وترك النفس الأمارة المقصّرة من المحاسبة، ومن بعد ذلـــك قضـــاء الوقـــت بالحسرات والزفرات. أوَليس من يفعل هذا أشد بلاهة ممن يداوم على الأكل والشرب طوال اليوم خشية أن يجوع أو يعطش بعد أيام؟

نعم! ان الإنسان اِن لم يشتت قوة صبره يميناً وشمالاً- إلى الماضي والمستقبل - وسدّدها إلى اليوم الذي هو فيه، فانها كافية لتحل له حبال المضايقات.

حتى انني أذكر ـــ ولا أشكو — ان ما مرّ عليّ في هذه المدرسة اليوسفية الثالثـــة [50] في غضون أيام قلائل من المضايقات المادية والمعنوية لم أرها طوال حياتي، ولا سيما حرماني من القيام بخدمة النور مع ما فيّ من أمراض. وبينما كان قلبي وروحي يعتصران معاً من الضـــيق واليأس إذا بالعناية الإلهية تمدني بالحقيقة السابقة، فانشرح صدري ايّما انشراح وولت تلـــك المضايقات فرضيت بالسجن وآلامه والمرض وأوجاعه. إذ من كان مثلي على شفير القبر يعدّ ربحاً عظيماً له أن تتحول ساعة من ساعاته التي يمكن ان تمر بغفلة إلى عشر ســاعات مـــن العبادة... فشكرت اللّه كثيراً.

---

[50] المقصود سجن »آفيون« حيث دخله الاستاذ النورسي وطلاب النور سنة 1948ـــــ المترجم

النقطة الثالثة:

ان القيام بمعاونة المسجونين بشفقة ورأفة واعطاءهم ارزاقهم التي يحتاجون اليها وضماد جراحاتهم المعنوية ببلسم التسلي والعزاء، مع انه عمــل بسيــط الاّ أنه يحمل في طياته ثواباً جزيلاً وأجراً عظيماً. حيث إن تسليم ارزاقهم التي تُرسل اليهم من الخارج يكــون بحكــم صَدقة، وتكتب في سجل حسنات كل مَن قام بهذا العمل، سواءاً الذين أتوا بها من الخارج أو الحراس أو المراقبون الذين عاونوهم، ولا سيما ان كان المسجون شيخاً كبيراً أو مريضــاً أو غريباً عن بلده أو فقيراً معدماً، فان ثواب تلك الصدقة المعنوية يزداد كثيراً.

وهذا الربح العظيم مشروط باداء الفرائض من الصلوات لتصبح تلك الخدمة لوجه الله.. مع شرط آخر هو ان تكون الخدمة مقرونة بالشفقة والرحمة والمحبة من دون ان يحمّل شيئاً من المنة.

uuu

باسمه سبحانه

(وَاِنْ مِنْ شَيءٍ اِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أبداً دائماً.

يا اخوتي في الدين ويا زملائي في السجن!.

لقد اُخطر لقلبي ان أبين لكم حقيقة مهمة، تنقذكم باذن الله من عذاب الدنيا والآخرة وهي كما أوضحها بمثال:

ان أحداً قد قتل شقيق شخص آخر أو أحد أقربائه. فهذا القتل الناجم من لذة غــرور الانتقام التي لا تستغرق دقيقة واحدة تورثه مقاساة ملايين الدقائق من ضــيق القلــب وآلام السجن. وفي الوقت نفسه يظل اقرباء المقتول أيضاً في قلق دائم وتحين الفرص لأخذ الثــأر، كلما فكروا بالقاتل ورأوا ذويه. فتضيع منهم لذة العمر ومتعة الحياة بما يكابدون من عذاب الخوف والقلق والحقد والغضب.

ولا علاج لهذا الأمر ولا دواء له الاّ الصلح والمصالحة بينهما، وذلك الذي يـــأمر بـــه القرآن الكريم، ويدعو إليه الحق والحقيقة، وفيه مصلحة الطرفين، وتقتضيه الإنسانية، ويحـــث عليه الاسلام.

نعم، ان المصلحة والحقيقة في الصلح، والصلح خير؛ لأن الأجل واحد لا يتغير، فذلك المقتول على كل حال ما كان ليظل على قيد الحياة ما دام أجله قد جاء. اما ذلك القاتل فقد أصبح وسيلة لذلك القضاء الإلهي، فإن لم يحل بينهما الصلحُ فسيظلان يعانيان الخوف وعذاب الانتقام مدة مديدة؛ لذا يأمر الاسلام بعدم هجر المسلم أخاه فوق ثلاثة أيام. فـــان لم يكـــن ذلك القتل قد نجم من عداء أصيل ومن حقد دفين، وكان أحد المنافقين سبباً في اشعال نـــار الفتنة، فيلزم الصلح فوراً، لأنه لولا الصلح لعظمت تلك المصيبة الجزئية ودامت، بينما إذا ما تصالح الطرفان وتاب القاتل عن ذنبه، واستمر على الدعاء للمقتول، فان الطرفين يكســـبان الكثير، حيث يدب الحب والتآلف بينهما، فيصفح هذا عن عدوه ويعفو عنه واجـــداً أمامـــه اخوة اتقياء أبراراً بدلاً من شقيق واحد راحل، ويستسلمان معاً لقضاء الله وقدره، ولا سيما الذين استمعوا إلى دروس النور، فهم مدعوون لهجر كل ما يفسد بين اثنين، إذ الأخوة الـــتي تربطهم ضمن نطاق النور، والمصلحة العامة، وراحة البال وسلامة الصدر الـــتي يســـتوجبها الإيمان.. تقتضي كلها نبذ الخلافات واحلال الوفاق والوئام. ولقد حصل هذا فعـــلاً بـــين مسجونين يعادي بعضهم بعضاً في سجن »دنيزلي« فاصبحوا بفضل الله أخوة متحابين بعد ان تلقوا دروساً من رسائل النور، بل غدوا سبباً من أسباب براءتنا، حـــتى لم يجـــد الملحـــدون والسفهاء من الناس بداً أمام هذا التحابب الاخروي، فقالوا مضطرين: ما شاء الله.. بـــارك الله!! وهكذا انشرحت صدور السجناء جميعاً وتنفسوا الصعداء بفضل الله.اذ إني أرى هنـــا مدى الظلم الواقع على المسجونين، حيث يشدد الخناق على مائة منهم بجريرة شخص واحد، حتى انهم لا يخرجون معه إلى فناء السجن في أوقات الراحة.. ألا ان المؤمن الغيور لا تســـعه شهامته ان يؤذي المؤمن قط، فكيف يسبب له الأذى لمنفعته الجزئية الخاصة، فلابد ان يسارع إلى التوبة والإنابة إلى الله حالما يشعر بخطئه وتسبّبه في أذى المؤمن.

uuu

باسمه سبحانه

(وَاِنْ مِنْ شَيءٍ اِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أبداً دائماً

اخوتي المسجونين الاعزاء الجدد والقدامى!

لقد بت على قناعة تامة من ان العناية الإلهية هي التي ألقت بنا إلى ههنا وذلك لأجلكم أنتم، أي ان مجيئنا إلى هنا انما هو لبث السلوان والعزاء الذي تحمله رسائل النور اليكم.. وتخفيف مضايقات السجن عنكم بحقائق الإيمان.. وصونكم من كثير من بلايا الدنيا ولأوائها.. وانتشال حياتكم المليئة بالأحزان والهموم من العبثية وعدم الجدوى.. وانقاذ آخرتكم من ان تكون كدنياكم حزينة باكية.

فما دامت الحقيقة هي هذه، فعليكم ان تكونوا اخوة متحابين كطلاب النور وكأولئك الذين كانوا معنا في سجن »دنيزلي«.

فها أنتم اولاء ترون الحراس الذين يحرصون على القيام بخدماتكم يعانون الكثير من المشقات في التفتيش، بل حتى انهم يفتشون طعامكم لئلا تكون فيه آلة جارحة، ليحولوا دون تجاوز بعضكم على بعض، وكأنكم وحوش مفترسة ينقضُّ الواحد على الآخر ليقتله، فضلاً عن انكم لا تستمتعون بالفرص التي تتاح لكم للتفسح والراحة خوفاً من نشوب العراك فيما بينكم.

ألا فقولوا مع هؤلاء الأخوة حديثي العهد بالسجن الذين يحملون مثلكم بطولة فطرية وشهامة وغيرة.

قولوا أمام الهيئة ببطولة معنوية عظيمة في هذا الوقت:

»ليست الآلات الجارحة البسيطة، بل لو سلمتم إلى أيدينا أسلحة نارية فلا نتعدى على أصدقائنا وأحبابنا هؤلاء الذين نكبوا معنا، حتى لو كان بيننا عداء أصيل سابق. فقد عفونا عنهم جميعاً، وسنبذل ما في وسعنا الاّ نجرح شعورهم ونكسر خاطرهم، هذا هو قرارنا الذي اتخذناه بارشاد القرآن الكريم وبأمر اخوة الإسلام وبمقتضى مصلحتنا جميعاً«.

وهكذا تحوّلون هذا السجن إلى مدرسة طيبة مباركة.

[ذيل المقام الثاني من الكلمة الثالثة عشرة]

مسألة مهمة تخطرت في ليلة القدر

هذه حقيقة واسعة جداً وطويلة في الوقت نفسه، خطرت على القلب ليلة القدر سأحاول ان أشير اليها اشارة مختصرة جداً، كالآتي:

أولاً:

لقد قاست البشرية من ويلات هذه الحرب العالمية الأخيرة ايّ مقاساة، إذ رأت أشد أنواع الظلم وأقسى أنواع الاستبداد والتحكم، مع الدمار الظالم المريع في الارض كافة، فقد نكبت مئات الابرياء بجريرة شخص واحد، ووقع المغلوبون على أمرهم في بؤس وشقاء مريرين، وبات الغالبون في عذاب وجداني أليم لعجزهم عن اصلاح دمارهم الفظيع وخشيتهم من ان يعجزوا عن الحفاظ على سيادتهم. وظهر للناس بجلاء تام؛ ان الحياة الدنيا فانية لا ريب فيها، وان زخارف المدنية خادعة ومخدّرة لا تجدي شيئاً، وتلطخت البشرية بدماء الطعنات القوية التي نزلت بالذات الإنسانية وبالاستعدادات الرفيعة في فطرتها.. وظهر للعيان تحطم الغفلة والضلالة والطبيعة الجامدة الصماء تحت ضربات سيف القرآن الالماسي.. وافتضحت الصورة الحقيقة للسياسة الدولية الشوهاء الغدارة والتي هي أوسع ستار واكثفه لإغفال الناس واضلالهم واشده خنقاً وخداعاً لروحهم.

فلاشك ان فطرة البشرية – بعد وضوح هذه الأمور – ستبحث عن معشوقها »الحقيقي« وهو الحياة الباقية الخالدة وتسعى اليها بكل قواها – وقد بدت اماراتها في شمال

العالم وغربه وفي أمريكا – وستعلم جيداً ان الحياة الدنيا التي تتعشقها عشقاً »مجازياً« دميمة شوهاء، فانية زائلة.

ولا ريب انها ستبحث عن القرآن الكريم الذي له في كل عصر ثلاثمائة مليون من العاملين له المتتلمذين عليه منذ ألف وثلاثمائة وستين سنة.. والذي يصدق كل حكم من احكامه ودعاويه ملايين من أرباب الحقيقة.. والذي يحتفظ بمكانته المقدسة في قلوب ملايين الحفاظ في كل دقيقة.. والذي يرشد البشرية بألسنتهم، ويبشرها باسلوبه المعجز بالحياة الباقية والسعادة الدائمة، مضمداً بها جراحاتها الغائرة، بل يبشر بها بألوف آياته القوية الشديدة المكررة، بل قد يخبر عنها صراحة أو اشارة بعشرات الألوف من المرات، ناصباً عليها ما لايعد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة والحجج الثابتة.

فان لم تفقد البشرية صوابها كلياً و لم تقم عليها قيامة – مادية أو معنوية – فستبحث حتماً عن القرآن الكريم المعجز البيان كما حدث في قارات العالم كله ودولها العظمى، وحدث فعلاً في السويد والنرويج وفنلندا، ومثلما يسعى لقبوله خطباء مشهورون من انكلترا وتقوم بالبحث عنه جمعية تتحرى الدين الحق وهي ذات شأن في أمريكا.. ولابد انهم بعد ان يدركوا حقائقه سيعتصمون به ويلتفون حوله بكل مهجهم وارواحهم. ذلك لأنه ليس من نظير للقرآن في معالجة هذه الحقيقة، ولن يكون، ولا يمكن ان يسد مسدّ هذه المعجزة الكبرى شئ قطعاً.

ثانياً:

ان رسائل النور قد أظهرت خدماتها كسيف ألماسي قاطع بيد هذه المعجزة الكبرى، حتى ألزمت الحجة أعداءها العنيدين وألجأتهم إلى الاستسلام، وانها تقوم بوظيفتها بين يدي هذه الخزينة القرآنية من حيث كونها معجزةً لمعانيه المعجزة على نحو تستطيع ان تنور القلب والروح والمشاعر، مناولةً كلاً منها علاجاتها الناجعة، ولا غرو فهي الداعية إلى هذا القرآن العظيم والمستفيضة منه وحده ولا ترجع الاّ اليه.

وانها إذ تقوم بمهمتها خير قيام، انتصرت في الوقت نفسه على الدعايات المغرضة الظالمة التي يشيعها أعداؤها، وقضت على أشد الزنادقة تعنتاً، ودكّت أقوى قلاع الضلالة التي تحتمي بها وهي »الطبيعة« برسالة »الطبيعة«، كما بددت الغفلة وأظهرت نور التوحيد في أوسع ميادين العلوم الحديثة وأشد الظلمات الخانقة للغفلة بالمسألة السادسة »للثمرة« وبالحجج الأولى والثانية والثالثة.. والثامنة من رسالة »عصا موسى«.

ومن هنا فانه من الضروري لنا - وأكثر ضرورة للأمة - ان يفتح طلاب النور - في حدود القدرات المتاحة - في كل مكان مدارس نورية صغيرة بعدما سمحت الدولة - في الوقت الحاضر - بفتح مدارس خاصة لتدريس الدين [51] صحيح ان كل قارئ للرسائل يستطيع ان يستفيد منها شيئاً لنفسه الاّ انه لا يستطيع ان يستوعب كل مسألة من مسائلها؛ ذلك لانها ايضاح لحقائق الإيمان. فهي دروس علمية، ومعرفة إلهية، وسكينة للقلب وعبادة لله في الوقت نفسه. [52]

ان النتائج التي كان يمكن الحصول عليها في المدارس الدينية طوال خمس أو عشر سنوات يمكن الحصول عليها في مدارس النور في خمسة أو عشرة أسابيع بإذن الله، بل ضمنت تلك النتائج في العشرين سنة التي خلت والحمدلله.

ثم بات من المسلّم به فائدة هذه الرسائل الداعية إلى القرآن والتي هي لمعات من أنواره الباهرة، لحياة الأمة ولأمن البلاد، وحتى لحياتها السياسية فضلاً عن حياتها الأخروية، فمن الضروري اذن للدولة الاّ تتعرض لها بسوء بل تسعى جادة إلى نشرها وتشجع الناس على قراءتها.. ليكون عملها هذا كفّارة عما اقترفت من سيئآت فاحشة سابقة وسداً منيعاً في وجه ما سيقبل من ويلات ومصائب وفوضى وارهاب.

---

[51] لقد الغيت المدارس الدينية في تركيا منذ اواخر العشرينات حتى سنة 1950 ــــ المترجم.

[52] حتى إن لم يكن احدهم بحاجة الى التعلم فهو بلاشك في شوق الى العبادة أو الى المعرفة الإلهية او الى اطمئنان القلب وسكينته. ولهذا فان رسائل النور درس ضروري لكل فرد. ــــ المؤلف.

المسألة السادسة

من رسالة الثمرة

هذه المسألة اشارة مختصرة إلى برهان واحد فقــط من بين ألوف البراهين الكلية حول (الايمان بالله) والذي تم ايضاحه مع حججه القاطعة في عدة مواضع من رسائل النور.

جاءني فريق من طلاب الثانوية في »قسطموني[53] قائلين:

»عرّفنا بخالقنا، فان مدرسينا لا يذكرون الله لنا!«.

فقلت لهم:

»ان كل علم من العلوم التي تقرأونها يبحث عن الله دوماً، ويعرّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة. فاصغوا إلى تلك العلوم دون المدرسين«.

---

[53] مدينة تقع شمالي تركيا، نفي اليها الاستاذ النورسي سنة 1936م وظل فيها تحت الإقامة الجبرية الى أن سيق منها سنة 1943 موقوفاً لمحاكمته في محكمة الجزاء الكبرى في »دنيزلي«. ــــ المترجم.

nفمثلاً: لو كانت هناك صيدلية ضخمة، في كل قنينة من قنانيها أدوية ومستحضرات حيوية، وضِعت فيها بموازين حساسة، وبمقادير دقيقة؛ فكما أنها ترينا ان وراءهـــا صـــيدليا حكيماً، وكيميائياً ماهراً، كذلك صيدلية الكرة الأرضية التي تضم اكثر من أربعمائة ألـــف نوع من الأحياء نباتاً وحيواناً، وكل واحد منها في الحقيقة بمثابـــة زجاجـــة مستحضـــرات كيمياوية دقيقة، وقنينة مخاليط حيوية عجيبة. فهذه الصيدلية الكبرى تُـــري حـــتى للعميـــان صيدليّها الحكيم ذا الجلال، وتعرّف خالقها الكريم ســـبحانه بدرجـــة كمالهـــا وانتظامهـــا وعظمتها، قياساً على تلك الصيدلية التي في السوق، وفق مقاييس علم الطب الذي تقرأونه.

nومثلاً: كما أن مصنعاً خارقاً عجيـــباً ينســـج ألوفاً من أنـــواع المنســـــوجات المتنوعة، والأقمشة المختلفة، من مادة بسيطة جداً، يرينا بلا شك ان وراءه مهندساً ميكانيكياً ماهراً، ويعرّفه لنا؛ كذلك هذه الماكنة الربانية السيارة المسماة بالكرة الارضية، وهذا المصـــنع الإلهي الذي فيه مئات الآلاف من مصانع رئيسية، وفي كل منها مئات الآلاف من المصـــانع المتقنة، يعرّف لنا بلا شك صانعَه، ومالكَه، وفق مقاييس علم المكائن الذي تقرأونه، يعرّفـــه بدرجة كمال هذا المصنع الآلهي، وعظمته قياساً على ذلك المصنع الإنساني.

nومثلاً: كما ان حانوتاً أو مخزناً للأعاشة والارزاق، ومحلاً عظيماً للأغذية والمـــواد، احضر فيه – من كل جانب – ألف نوع من المواد الغذائية، وميّز كل نوع عـــن الآخـــر، وصفف في محله الخاص به، يرينا ان له مالكاً ومدبراً؛ كذلك هذا المخزن الرحماني للاعاشـــة الذي يسيح في كل سنة مسافة اربعة وعشرين ألف سنة، في نظام دقيق متقن، والذي يضم في ثناياه مئات الآلاف من اصناف المخلوقات التي يحتاج كل منها إلى نوع خاص من الغـــذاء. والذي يمر على الفصول الاربعة فيأتي بالربيع كشاحنة محمولة بآلاف الانواع مـــن مختلـــف الأطعمة، فيأتي بها إلى الخلق المساكين الذين نفد قوتُهم في الشتاء. تلك هي الكرة الأرضـــية، والسفينة السبحانية التي تضم آلاف الانواع من البضائع والاجهزة ومعلبات الغـــذاء. فهـــذا المخزن والحانوت الرباني، يُري – وفق مقاييس علم الاعاشة والتجارة الذي تقرأونه – صاحبَه ومالكَه ومتصرفَه بدرجة عظمة هذا المخزن، قياساً على ذلك المخزن المصـــنوع مـــن قبـــل الإنسان، ويعرّفه لنا، ويحببه الينا.

nومثلاً: لو أن جيشاً عظيماً يضم تحت لوائه أربعمائة ألف نوع من الشعوب والأمم، لكل جنس طعامه المستقل عن الآخر، وما يستعمله من سلاح يغاير سلاح الآخر، وما يرتديه من ملابس تختلف عن ألبسة الآخر، ونمط تدريباته وتعليماته يباين الآخر، ومدة عمله وفتـــرة رخصه هي غير المدة للآخر.. فقائد هذا الجيش الذي يزوّدهم وحده بـــالأرزاق المختلفـــة، والاسلحة المتـــباينة، والألبـــــسة المتغـــــايرة، دون نسيان أي منها ولا التباس ولا حيرة، لهو قائد ذو خوارق بلا ريب، فكما ان هذا المعسكر العجيب يرينا بداهة ذلك القائد الخارق، بل يحببه الينا بكل تقدير واعجاب؛ كذلك معسكر الأرض؛ ففي كل ربيع يجنّد مجدداً جيشاً سبحانياً عظيماً مكوناً من اربعمائة ألف نوع من شعوب النبـــاتات وأمم الحيوانات، ويمنح لكل نوع ألبسته وأرزاقه واسلحته وتدريبه ورخصه الخاصة به، من لدن قائد عظيم واحـــد أحد جل وعلا، بلا نسيان لأحد ولا اختلاط ولا تحير وفي منتهى الكمال وغاية الأنتظـــام.. فهذا المعسكر الشاسع الواسع للربيع الممتد على سطح الأرض يُري - لأولي الالباب والبصائر -حاكم الأرض حسب العلوم العسكرية وربّها ومدبرها، وقائدها الأقدس الاجلّ، ويعرّفـــه لهم، بدرجة كمال هذا المعسكر المهيب، ومدى عظمته، قياساً إلى ذلك المعسكر المذكور، بل يحبب مليكه سبحانه بالتحميد والتقديس والتسبيح.

nومثلاً: هب ان ملايين المصابيح الكهربائية تتجول في مدينة عجيبة دون نفاد للوقود ولا انطفاء؛ ألا تُري - باعجاب وتقديـــــ أن هناك مهندساً حاذقاً، وكهربائياً بارعاً لمصنع الكهرباء، ولتلك المصابيح؟.. فمصابيح النجوم المتدلية من سقف قصر الأرض وهي اكبر من الكرة الأرضية نفسها بألوف المرات حسب علم الفلك وتسير أسرع من انطلاق القذيفة، من دون ان تخل بنظامها، او تتصادم مع بعضها مطلقاً ومن دون انطفاء، ولا نفاد وقود وفق مـــا تقرأونه في علم الفلك.. هذه المصابيح تشير باصابع من نور إلى قدرة خالقها غير المحـــدودة . فشمسنا مثلاً وهي اكبر بمليون مرة من كرتنا الأرضية، وأقدم منها بمليون سنة، ما هـــي الا مصباح دائم، وموقد مستمر لدار ضيافة الرحمن. فلأجل ادامة اتقادها واشتعالها وتســـجيرها كل يوم يلزم وقوداً بقدر بحار الأرض، وفحماً بقدر جبالها، وحطباً بقدر اضعاف اضـــعاف حجم الأرض، ولكن الذي يشعلها - ويشعل جميع النجوم الاخرى أمثالها - بلا وقـــود ولا

فحم ولا زيت ودون انطفاء ويسيّرها بسرعة عظيمة معاً دون اصطدام، انما هي قدرة لا نهاية لها وسلطنة عظيمة لا حدود لها.. فهذا الكون العظيم وما فيه من مصابيح مضيئة، وقناديـــل متدلية يبين بوضوح – وفق مقاييس علم الكهرباء الذي قرأتموه أو ستقرأونه – سلطان هـــذا المعرض العظيم والمهرجان الكبير، ويعرّف منوّره ومدبّره البديع وصانعه الجليل، بشهادة هذه النجوم المتلألئة، ويحببه إلى الجميع بالتحميد والتسبيح والتقديس بـــل يســـوقهم إلى عبادتـــه سبحانه.

nومثلاً: لو كان هناك كتاب، كتب في كل سطر منه كتاب بخط دقيق وكُتـــب في كل كلمة من كلماته سورة قرآنية، وكانت جميع مسائله ذات مغزى ومعنى عميق، وكلـــها يؤيد بعضـــها البعض، فهـــذا الكتاب العجـــيـــب يبين بلاشـــــك مهـــارة كاتبـــه الفائقة، وقدرة مؤلفه الكاملة. أي أن مثل هذا الكتاب يعرّف كاتبه ومصـــنّفه تعـــــــريفاً يضـــاهـــي وضوح النـــهـــار، ويبين كمـــالَه وقـــدرتَه، ويثـــيـــر مـــن الاعجـــاب والتقدير لدى الناظرين إليه ما لا يملكون معه الا ترديد: تبارك الله،سبحان الله،ما شاء الله! من كلمات الاستحسان والاعجاب؛ كذلك هذا الكتاب الكبير للكون الذي يُكتب في صحيفة واحدة منه، وهي سطح الارض، ويُكتب في ملزمة واحدة منه، وهـــي الربيـــع، ثلثمائة ألف نوع من الكتب المختلفة، وهي طوائف الحيوانات وأجناس النباتات، كل منـــها بمثابة كتاب.. يُكتب كل ذلك معاً ومتداخلاً بعضها ببعض بلا اختلاط ولا خطأ ولا نسيان، وفي منتهى الانتظام والكمال بل يُكتب في كل كلمة منه كالشجرة، قصيدة كاملة رائعة، وفي كل نقطة منه كالبذرة، فهرس كتاب كامل. فكما ان هذا مشاهد وماثل أمامنـــا، ويُرينـــا بالتأكيد ان وراءه قلماً سيالاً يسطر، فلكم اذن ان تقدروا مدى دلالة كتاب الكون الكـــبير العظيم الذي في كل كلمة منه معان جمة وحكم شتى، ومدى دلالة هذا القرآن الاكبر المجسم وهو العالم، على بارئه سبحانه وعلى كاتبه جل وعلا، قياساً إلى ذلك الكتاب المـــذكور في المثال. وذلك بمقتضى ما تقرأونه من علم حكمة الاشياء او فن القراءة والكتابـــة، وتناولـــه بمقياس اكبر، وبالنظرة الواسعة إلى هذا الكون الكبير. بل تفهمون كيف يعرّف الخالقَ العظيم

بـــ »الله اكبر« وكيف يعلّم التقديس بـــ »سبحان الله« وكيف يحبّب الله سبحانه الينا بثناء »الحمدلله«.

nوهكذا فان كل علم من العلوم العديدة جداً، يدل على خالق الكون ذي الجلال – قياساً على ما سبق – ويعرّفه لنا سبحانه باسمائه الحسنى، ويعلّمـــه ايانـــا بصـــفاته الجليلـــة وكمالاته. وذلك بما يملك من مقاييس واسعة، ومرايا خاصة، وعيون حادة باصرة، ونظرات ذات عبرة.

فقلت لأولئك الطلبة الشباب: ان حكمة تكرار القرآن الكريم من: (خَلَق الســـموات والأرض) و(ربّ السموات والأرض) انما هي لأجل الارشاد إلى هذه الحقيقـــة المـــذكورة، وتلقين هذا البرهان الباهر للتوحيد، ولأجل تعريفنا بخالقنا العظيم سبحانه.

فقالوا: شكراً لربنا الخالق بغير حد، على هذا الدرس الذي هو الحقيقة السامية عينـــها، فجزاك الله عنا خير الجزاء ورضي عنك.

قلت: ان الإنسان ماكنة حيوية، يتألم بآلاف الانواع من الآلام، ويتلذذ بآلاف الأنواع من اللذائذ، ومع أنه في منتهى العجز، فان له من الأعداء ما لا يحد سواء الماديين أو المعنويين، ومع أنه في غاية الفقر فان له رغبات باطنة وظاهرة لا تحصر، فهو مخلوق مسكين يتجّرع آلام صفعات الزوال والفراق باستمرار.. فرغم كل هذا، فانه يجد بانتسابه إلى السلطان ذي الجلال بالايمان والعبودية، مستنداً قوياً، ومرتكزاً عظيماً يحتمي إليه في دفع أعدائه كافة، ويجد فيـــه كذلك مدار استمداد يستغيث به لقضاء حاجاته وتلبية رغباته وآماله كافة، فكما ينتسب كلٌ إلى سيده ويفخر بشرف انتسابه اليه، ويعتز بمكانة منـــزلته لديه، كذلك فان انتساب الإنسان بالايمان إلى القدير الذي لا نهاية لقدرته، والى السلطان الرحيم ذي الرحمة الواسعة، ودخوله في عبوديته، بالطاعة والشكران، يبدّل الأجل والموت من الاعدام الأبـــدي إلى تـــذكرة مـــرور ورخصة إلى العالم الباقي!. فلكم ان تقدّروا كم يكون هذا الإنسان متلذذاً بحلاوة العبودية بين يدي سيده، وممتناً بالايمان الذي يجده في قلبه، وسعيداً بأنوار الاسلام، ومفتخراً بسيّده القدير الرحيم شاكراً له نعمة الإيمان والاسلام.

ومثلما قلت ذلك لاخواني الطلبة، اقول كذلك للمسجونين:

ان من عرف الله واطاعه سعيدٌ ولو كان في غياهب السجن، ومن غفل عنه ونسيه شقي ولو كان في قصور مشيدة. فلقد صرخ مظلوم ذات يوم بوجه الظالمين وهو يعتلـــي منصـــة الاعدام فرحاً جذلاً وقائلاً:

انني لا انتهى إلى الفناء ولا أُعدم، بل أُسرح من سجن الدنيا طليقاً إلى السعادة الابدية، ولكني اراكم انتم محكومين عليكم بالاعدام الابدي لما ترون الموت فناء وعدماً. فانا اذن قـــد اخذت ثأرى منكم. فسلّم روحه وهو قرير العين يردد: لا اله الاّ الله.

(سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنآ اِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا انّكَ اَنْتَ العَليمُ الحَكيمُ)

نكتة توحيدية في لفظ »هو«

باسمه سبحانه

(وَانْ مِنْ شَيءٍ الاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ابداً دائماً

اخوتي الاعزاء الأوفياء:

لقد شاهدت ـــ مشاهدة آنية ـــ خلال سياحة فكرية خيالية، لدى مطالعة صحيفة الهواء من حيث جهته المادية فقط، نكتةً توحيدية ظريفة تولدت من لفظ »هو« الموجود في (لا إله الاّ هو) وفي (قل هو الله أحد) ورأيت فيها ان سبيل الايمان سهل ويسير الى حد الوجوب بينما سبيل الشرك والضلالة فيه من المحالات والمعضلات الى حد الامتناع.

سأبين باشارة في منتهى الاختصار تلك النكتة الظريفة الواسعة الطويلة.

نعم! ان حفنة من تراب، يمكن ان تكون موضع استنبات مئات من النباتات المزهرة انْ وضعتْ فيها متعاقبةً. فان اُحيل هذا الامر الى الطبيعة والأسباب يلزم؛ اما ان تكون في تلك الحفنة من التراب مئات من المصانع المصغرة المعنوية، بل بعدد الأزهار.. أو ان كل ذرة من ذرات تلك الحفنة من التراب تعلم بناء تلك الأزهار المتنوعة وتركيبها بخصائصها المتنوعة واجهزتها الحيوية، اي لها علم محيط وقدرة مطلقة بما يشبه علم الآله وقدرته!!.

وكذلك الهواء الذي هو عرش من عروش الأمر والارادة الإلهية، فلكل جزء منه، من نسيم وريح، بل حتى للهواء الموجود في جزء من نَفَس الانسان الضَئيل عندما ينطق كلمة »هو« وظائف لا تعد ولا تحصى.

فلو اُسندت هذه الوظائف الى الطبيعة والمصادفة والاسباب؛ فإما أنه اي الهواء يحمل بمقياس مصغر مراكز بث واستقبال لجميع ما في العالم من اصوات ومكالمات في التلغراف والتلفون والراديو مع ما لا يحد من انواع الاصوات للكلام والمحادثات، وان يكون له القدرة على القيام بتلك الوظائف جميعها في وقت واحد.. أو أن ذلك الجزء من الهواء الموجود في كلمة »هو«، وكل جزء من اجزائه وكل ذرة من ذراته، لها شخصيات معنوية، وقابليات بعدد كل مَن يتكلم بالتلفونات وجميع مَن يبث من البرقيات

المتنوعة وجميع مَن يذيع كلاماً من الراديوات، وان تعلم لغاتهم ولهجاتهم جميعاً، وتعلّمــه في الوقت نفسه الى الذرات الاخرى، وتنشره وتبثه. حيث ان قسماً من ذلك الوضع مشــهود أمامنا، وان اجزاء الهواء كلها تحمل تلك القابلية.. اذاً فليس هناك محال واحد في طريق الكفر من الماديين الطبيعيين بل محالات واضحة جلية ومعضلات واشكالات بعدد ذرات الهواء.

ولكن ان اُسند الأمر الى الصانع الجليل، فان الهواء يصبح بجميع ذراته جندياً مســتعداً لتلقي الأوامر. فعندئذٍ تقوم ذراتُه باداء وظائفها الكلية المتنوعة والتي لا تحد باذن خالقها وبقوته وبانتسابها واستنادها اليه سبحانه، وبتجلي قدرة صانعها تجلياً آنياً ـــ بسرعة البرق ـــــ وبسهولة قيام ذرة واحدة بوظيفة من وظائفها وبيُسر تلفظ كلمة »هو« وتموج الهواء فيهــا. اي يكون الهواء صحيفة واسعة للكتابات المنسقة البديعة التي لا تحصر لقلم القــدرة الإلهيــة، وتكون ذراته بدايات ذلك القلم، وتصبح وظائف الذرات كذلك نقاط قلم القَدَر، لذا يكون الأمر سهلاً كسهولة حركة ذرة واحدة.

رأيت هذه الحقيقة بوضوح تام وبتفصيل كامل وبعين اليقين عندما كنت اشاهد عــالم الهواء واطالع صحــيفــته فــي سيــاحتي الفــكرية وتأمــلي في (لا إله الاّ هو) و (قل هو الله أحد) وعلمت بعلم اليقين ان في الهواء الموجود في لفظ »هو« برهاناً ساطعاً للوحدانيــة مثلما ان في معناه وفي اشارته تجليا للأحدية في غاية النورانية وحجة توحيدية في غاية القــوة، حيث فيها قرينة الاشارة المطلقة المبهمة لضمير »هو« اي: الى مَن يعود؟ فعرفت عندئذٍ لمــاذا يكرر القرآن الكريم واهل الذكر هذه الكلمة عند مقام التوحيد.

نعم! لو أراد شخص ان يضع نقطة معينة ـــ مثلاً ـــ على ورقة بيضاء في مكــان معين، فان الامر سهل، ولكن لو طُلب منه وضع نقاط عدة في مواضع عــدة في آن واحــد فالأمر يستشكل عليه ويختلط. كذلك يرزح كائن صغير تحت ثقل قيامه بعــدة وظــائف في وقت واحد. لذا فالمفروض أن يختلط النظام ويتبعثر عند خروج كلمات كثيرة في وقت واحد من الفم ودخولها الاذن معاً..

ولكني شاهدت بعين اليقين، وبدلالة لفظ »هو« هذا الذي اصبح مفتاحاً وبمثابة بوصلة، ان نقاطاً مختلفة تعد بالالوف وحروفاً وكلماتٍ توضع ـــ أو يمكن ان توضع ـــ على كل

جزء من اجزاء الهواء الذي اسيح فيه فكراً بل يمكن ان توضع كلها على عاتق ذرة واحدة من دون ان يحدث اختلاط او تشابك أو ينفسخ النظام، علماً ان تلك الذرة تقوم بوظائف اخرى كثيرة جداً في الوقت نفسه، فلا يلتبس عليها شئ، وتحمل اثقالاً هائلة جداً من دون ان تبدي ضعفاً او تكاسلاً، فلا نراها قاصرة عن اداء وظائفها المتنوعة واحتفاظها بالنظام؛ اذ تــــرد الى تلك الذرات الوف الالوف من الكلمات المختلفة في انماط مختلفة واصوات مختلفة، وتخــــرج منها ايضاً في غاية النظام مثلما دخلت، دون اختلاط أو امتزاج ودون ان يفســـد احـــداها الاخرى. فكأن تلك الذرات تملك آذاناً صاغية صغيرة على قدّها، وألسنة دقيقـــة تناســـبها فتدخل تلك الكلمات تلك الآذان وتخرج من ألسنتها الصغيرة تلك.. فمع كل هذه الامـــور العجيبة فان كل ذرة ـــــ وكل جـــزء من الهواء ـــــ تتـــجـــــول بحـــريــــــة تامــــــة ذاكرةً خالقها بلسان الحال وفي نشوة الجذب والوجد قائلة: (لا إله اِلاّ هو) و (قل هـــو الله احد) بلسان الحقيقة المذكورة آنفاً وشهادتها.

وحينما تحدث العواصف القوية وتدّوي اهازيج الرعد، ويتلمع الفضاء بســـنا الـــبرق، يتحول الهواء الى امواج ضخمة متلاطمة.. بيد ان الذرات لا تفقد نظامها ولا تتعثـــر في اداء وظائفها فلا يمنعها شغل عن شغل.. هكذا شاهدت هذه الحقيقة بعين اليقين.

اذن، فإما ان تكون كل ذرة ـــــ وكل جزء من الهواء ـــــ صـــاحبة علـــم مطلـــق وحكمة مطلقة وارادة مطلقة وقوة مطلقة وقدرة مطلقة وهيمنة كاملة على جميع الـــذرات.. كي تتمكن من القيام باداء هذه الوظائف المتنوعة على وجهها.. وما هذا الاّ محالات ومحالات بعدد الذرات وباطل بطلاناً مطلقاً. بل حتى لا يذكره اي شيطان كان..

لذا فان البداهة تقتضي، بل هو بحق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين: أن صحيفة الهواء هذه انما هي صحيفة متبدلة يكتب الخالقُ فيها بعلمه المطلق ما يشاء بقلم قُدرته وقَدَره الذي يحركه بحكمته المطلقة، وهي بمثابة لوحة محوٍ واثبات في عالم التغيّر والتّبدل للشؤون المســـطّرة في اللوح المحفوظ.

فكما ان الهواء يدل على تجلي الوحدانية بهذه الامور العجيبة المذكورة آنفاً، وذلك لدى اداء وظيفة واحدة من وظائفها وهي نقل الاصوات، ويبين في الوقت نفسه بيانـــاً واضـــحاً

محالات الضلالة التي لا تحصر، كذلك فهو يقوم بوظائف في غاية الاهمية وفي غاية النظام ومن دون اختلاط أو تشابك أو التباس كنقل المواد اللطيفة مثل الكهربـــاء والجاذبيـــة والدافعـــة والضوء.. وفي الوقت نفسه يدخل الى مداخل النباتات والحيوانات بالتنفس مؤديـــاً هنـــاك مهماته الحياتية باتقان، وفي الوقت عينه يقوم بنقل حبوب اللقاح ـــــ اي وظيفـــة تلقـــيح النباتات ـــــ وهكذا امثال هذه الوظائف الاساسية لإدامة الحياة؛ مما يثبت يقيناً ان الهـــواء عرش عظيم يأتمر بالأمر الإلهي وارادته الجليلة. ويثبت ايضاً بعين اليقين ان لا احتمال قطعـــاً لتدخل المصادفة العشواء والاسباب السائبة التائهة والمواد العاجزة الجامدة الجاهلة في الكتابـــة البديعة لهذه الصحيفة الهوائية وفي اداء وظائفها الدقيقة. فاقتنعْتُ بهذا قناعة تامة بعين الـــيقين وعرفتُ ان كـــل ذرة وكل جزء من الـــهواء تقول بلســـــان حالها : (قـــل هـــــو الله أحـــد) و (لا إله الاّ هـــو).

ومثلما شاهدت هذه الامور العجيبة في الجهة المادية من الهواء بهذا المفتاح، اعني مفتاح »هو« فعنصر الهواء برمته اصبح ايضاً كلفظ »هو« مفتاحاً لعالم المثال وعالم المعـــنى؛ اذ قـــد علمتُ ان عالم المثال كآلة تصوير عظيمة جداً تلتقط صوراً لا تعد ولا تحصـــى للحـــوادث الجارية في الدنيا، تلتقطها في آن واحد بلا اختلاط ولا التباس حتى غدا هذا العـــالم يضـــم مشاهد عظيمة وواسعة اُخروية تسع الوف الوف الدُنى تعـــرض اوضـــاع حـــالات فانيـــة لموجودات فانية وتظهر ثمار حياتها العابرة في مشاهد ولوحات خالدة تعرض امام اصـــحاب الجنة والسعادة الأبدية في معارض سرمدية مذكّرةً اياهم بحوادث الدنيا وذكرياتهم الجميلـــة الماضية فيها.

فالحجة القاطعة على وجود اللوح المحفوظ وعالم المثال ونموذجها المصغر هو ما في رأس الانسان من قوة حافظة وما يملك من قوة خيال، فمع انهما لا تشغلان حجم حبة من خردل الاّ انهما تقومان بوظائفهما على اتم وجه بلا اختلاط ولا التباس وفي انتظام كامل واتقان تام، حتى كأنهما يحتفظان بمكتبة ضخمة جداً من المعلومات والوثائق. مما يثبت لنا أن تينك القوتين نموذجان للوح المحفوظ وعالم المثال.

وهكذا لقد عُلم بعلم اليقين القاطع ان الهواء والماء ولا سيما سائل النطف، واللـــذان يفوقان الترابَ في الدلالة على الله ـــــ الذي اوردناه في مستهل البحث ـــــــ صـــحيفتان واسعتان يكتب فيهما قلمُ القدر والحكمة كتابة حكيمة بليغة، ويجريان فيهما الارادة وقلـــم القدر والقدرة. وان مداخلة المصادفة العشواء والقوة العمياء والطبيعة الصماء والاسباب التائهة الجامدة في تلك الكتابة الحكيمة محال في مائة محال وغير ممكن قطعاً.

(لم تُكتَّب بقية البحث في الوقت الحاضر)

الف الف تحية وسلام الى الجميع

الكلمة الرابعة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر كتابٌ أُحكمت آياتُه ثم فُصّلت من لدُن حكيمٍ خبير)(هود: 1)

سنشير الى نظائر قسم من الحقائق السامية الرفيعة للقرآن الحكيم، ولمفسّره الحقيقي الحديث الشريف، وذلك لتكون بمثابة درجات سلّم للصعود الى تلك الحقائق، لكي تُسعف القلوب التي ينقصها التسليم والانقياد. وفي خاتمة الكلمة سيُبيّن درسٌ للعبرة وسرٌ من اسرار العناية الإلهية.

ونكتفي هنا بذكر نماذج لخمس مسائل فحسب من تلك الحقائق الجليلة، حيث ان النظائر التي تخص الحشر والقيامة قد ذكرت في »الكلمة العاشرة« ولا سيما في »الحقيقة التاسعة« منها ولا داعي للتكرار.

اولاها:

مثال: قوله تعالى: (خَلقَ السموات والارضَ في ستة ايام) (الاعراف: 54)

هذه الآية الكريمة تشير الى أن دنيا الانسان وعالم الحيوان يعيشان ستة ايام من الايام القرآنية التي هي زمن مديد ولربما هو كألف سنة أو كخمسين الف سنة. فلأجل الاطمئنان القلبي والاقتناع التام بهذه الحقيقة السامية نبين للانظار ما يخلقه الفاطر الجليل من عوالم سيالة وكائنات سيارة ودنىً عابرة، في كل يوم، في كل سنة، في كل عصر، الذي هو بحكم يوم واحد.

حقاً كأن الدنى ضيوف عابرة ايضاً كالناس. فيمتلئ العالم بأمر الفاطر الجليل كل موسم ويُخلى.

ثانيتها:

مثال: قوله تعالى (ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاّ في كتابٍ مبين) (الانعام: 59)

(وكلَّ شيء أحصيناه في إمام مبين) (يس: 12)

(لا يَعزُبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السموات ولا في الارض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلاّ في كتاب مبين) (سبأ: 3)

وامثالها من الآيات الكريمة التي تفيد:

ان الاشياء جميعها وباحوالها كلها، مكتوبة، قبل وجودها وبعد وجودها، وبعد ذهابها من الوجود.

نبين أمام الانظار ما يأتي ليصل القلب الى الاطمئنان:

ان البارئ المصور الجليل سبحانه يدرج فهارس وجود ما لا يحد من المخلوقات المنسقة وتواريخ حياتها ودساتير اعمالها، يدرجها درجاً معنوياً محافظاً عليها في بذور ونوى واصول تلك المخلوقات، على الرغم من تبديلها في كل موسم، على صحيفة الارض كافة، ولا سيما في الربيع. كما انه سبحانه يدرجها بقلم القدر نفسه درجاً معنوياً بعد زوال تلك المخلوقات في ثمراتها وفي بذيراتها الدقيقة، حتى انه سبحانه يكتب كل ما هو رطب ويابس من مخلوقات الربيع السابق في بذورها المحدودة الصلبة كتابة في غاية الاتقان ويحافظ عليها في منتهى الانتظام. حتى لكأن الربيع بمثابة زهرة واحدة وهي في منتهى التناسق والابداع، تضعها يد الجميل الجليل على هامة الارض ثم يقطفها منها.

ولما كانت الحقيقة هي هذه، أليس من العجب أن يضل الانسان اعجب ضلالة، وهي اطلاقه اسم الطبيعة على هذه الكتابة الفطرية، وهذه الصورة البديعة، وهذه الحكمة المنفعلة المسطرة على وجه الارض كافة والتي هي انعكاس لتجلٍ من تجليات ما سُطّر في اللوح المحفوظ الذي هو صحيفة قلم القدر الإلهي! أليس من العجب أن يعتقد الانسان بالطبيعة وانها مؤثرة ومصدر فاعل؟

اين الحقيقة الجلية مما يظنه اهل الغفلة؟. اين الثرى من الثريا؟

ثالثتها:

ان المخبر الصادق (ص) قد صوّر ـــ مثلاً ـــ الملائكة الموكلين بحمل العرش، وكذا حَملة الارض والسموات، أو ملائكة آخرين، بأن للملك اربعين ألف رأس، في كل رأس اربعون الف لسان، كل لسان يسبح باربعين ألف نوع من انواع التسبيحات.

هذه الحقيقة الرفيعة في امثال هذه الاحاديث الشريفة تعبّر عن انتظام العبادة وكليتها وشمولها لدى الملائكة، فلأجل الصعود الى هذه الحقيقة السامية نبين امام الشهود الآيات الكريمة التالية وندعو الى التدبّر فيها، وهي:

(تسبّح له السمواتُ السبع والارضُ ومَن فيهن) (الاسراء: 44)

(إنّا سخّرنا الجبالَ معه يسبّحنَ بالعشيّ والإشراق) (ص: 18)

(إنّا عَرَضنا الامانةَ على السموات والارض والجبال..) (الاحزاب: 72)

وامثالها من الآيات الجليلة التي تصرّح:

ان لأضخم الموجودات واكثرها سعة وشمولاً تسبيحاً خاصاً منسجماً مع عظمته وكليته، والأمر واضح ومشاهد؛ اذ السموات الشاسعة مسبّحة لله.. وكلماتها التسبيحية هي الشموس والاقمار والنجوم، كما أن الارض الطائرة في جو السماء مسبحةٌ حامدةٌ لله، والفاظها التحميدية هي الحيوانات والنباتات والاشجار.

بمعنى أن لكل شجرة ولكل نجم، تسبيحاته الجزئية الخاصة به، مثلما أن للارض برمتها تسبيحاتها الخاصة بها. فهي تسبيحات كلية تضم تسبيحات كل جزء وقطعة منها بل كل وادٍ وجبل وكل بحر وبر فيها. فكما ان للارض تسبيحاتها باجزائها وكليتها كذلك للسموات والابراج والافلاك تسبيحاتها الكلية.

فهذه الارض التي لها الوف الرؤوس، ومئات الالوف من الألسنة لكل رأس، لاشك ان لها ملكاً موكلاً بها يناسبها، يترجم ازاهير تسبيحات كل لسان وثمرات تحميداته التي تربو على مائة الف نمط من انماط التسبيح والتحميد، يترجمها ويبينها في عالم المثال، ويمثلها ويعلن عنها في عالم الارواح.

اذ لو دخلت اشياء متعددة في صورة جماعة أومجموعة، لتشكلت لها شخصية معنوية، واذا امتزجت تلك المجموعة واتحدت، تكون لها شخصية معنوية تمثلها، ونوع من روحها المعنوية، وملك موكل يؤدي وظيفتها التسبيحية.

فانظر مثلاً الى هذه الشجرة المنتصبة امام غرفتنا، وهي شجرة الدُلب ذات الاغصان الثلاثة، فهي تمثل كلمة عظيمة ينطق بها لسان هذا الجبل الموجود في فم «بارلا» ألا ترى كم من مئات ألسنة الاغصان لكل رأس من رؤوس الشجرة الثلاثة، وكم من مئات ثمرات الكلمات الموزونة المنتظمة في كل لسان؟ وكم من مئات حروف البذيرات المجنحة في كل ثمرة

من الثمرات؟ ألا يسبّح كلٌ من تلك الرؤوس والألسنة لمالك الملك الذي له امر كن فيكون؟ الاّ يسبّح بكلام فصيح، وبثناء بليغ واضح، حتى انك تشاهد تسبيحاتها وتسمعها؟!

فالملك الموكل عليها ايضاً يمثل تلك التسبيحات في عالم المعنى بألسنةٍ متعددة.

بل الحكمة تقتضي ان يكون الأمر هكذا!

رابعتها:

قوله تعالى ـــــ مثلاً ـــــ:

(انما أمرُه اذا أراد شيئاً ان يقولَ له كُن فيكون) (يس: 82)

(وما أمرُ الساعة اِلاّ كلمحِ البصر) (النحل: 77)

(ونحن اقربُ اليه من حبل الوريد) (ق: 16)

(تعرُج الملائكةُ والروحُ اليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألفَ سنة) (المعارج: 4)

وأمثال هذه الآيات الكريمة التي تعبّر عن الحقيقة السامية الآتية وهي:

ان الله سبحانه وتعالى، القدير على كل شئ، يخلق الاشياء بسهولة مطلقـــة في ســـرعة مطلقة دون اية معالجة أو مباشرة، حتى تبدو الاشياء كأنها توجد بمجرد الأمر.

ثم ان ذلك الصانع الجليل قريب جداً الى المصنوعات، بينما المصنوعات بعيدة عنه غاية البعد.

ثم انه سبحانه مع كبريائه المطلق، لايدع احقر الاشياء واكثرها جزئية وخسّة خـــارج اتقانه!

هذه الحقيقة القرآنية يشهد لها جريان الانتظام الاكمل في الموجودات وبسهولة مطلقة. كما ان التمثيل الآتي بيّن سرّ حكمتها:

فمثلاً (وَللّه اْلمَثَلُ الاَعْلى) ان الوظائف التي قلّدها الأمر الرباني والتسخير الإلهي للشمس ـــــ التي تمثل مرآة كثيفة لإسم النور من الاسماء الحسنى ـــــ تقرّب هذه الحقيقة الى الفهم وذلك:

انه مع علو الشمس ورفعتها، قريبة جداً من المواد الشفافة واللامعة، بل انها اقـــرب الى ذوات تلك الاشياء من انفسها. وعلى الرغم من ان الشمس تجعل الاشياء تتأثر بها بجلواتهـــا

وبضوئها وبجهات اخرى شبيهة بالتصرف فيها، الاّ ان تلك المواد الشفافة بعيدة عنها بالوف السنين، فلا تستطيع ان تؤثر فيها قطعاً، بل لا يمكنها ادعاء القرب منها.

وكذا يفهم من رؤية انعكاس ضوء الشمس وما يشبه صورها من كل ذرة شفافة حسب قابليتها ولونها، ان الشمس كأنها حاضرة في كل ذرة منها وناظرة اينما بلغت اشعتها.

وكذا فان نفوذ اشعة الشمس وشمولها واحاطتها تزداد بعظم نورانيتها. فعظمة النورانية هي التي تضم كل شئ داخل احاطتها الشاملة حتى لا يستطيع شئٌ مهما صغر أن يختبئ عنها او يهرب منها. أي ان عظمة كبريائها لا ترمي الى الخارج حتى الاشياء الصغيرة الجزئية، بل العكس هو الصحيح انها تضم جميعها ــــ بسر النورانية ــــ ضمن دائرة احاطتها.

فلو فرضنا الشمس ــ فرضاً محالاً ــــ انها فاعلة مختارة فيما نالت من وظائف وجلوات، فاننا نستطيع ان نتصور ان افعالها تسري ــــ بإذن إلهي ــــ في منتهى السهولة ومنتهى السرعة ومنتهى السعة والشمول، ابتداءً من الذرات الى القطرات والى وجه البحر والى الكواكب السيارة. فتكون الذرة والكوكب السيار سيّان تجاه امرها. اذ الفيض الذي تبثه الى سطح البحر تعطيه بانتظام كامل ايضاً للذرة الواحدة حسب قابليتها.

فهذه الشمس التي هي فقاعة صغيرة جداً مضيئة لماعة على سطح بحر السماء، وهي مرآة صغيرة كثيفة تعكس تجلي اسم النور للقدير على كل شئ.. هذه الشمس تبين نماذج الاسس الثلاثة لهذه الحقيقة القرآنية. اذ لاشك أن ضوء الشمس وحرارتها كثيفة ككثافة التراب بالنسبة لعلم وقدرة مَن هو نور النور ومنوِّر النور ومقدِّر النور.

فذلك الجميل الجليل اذن قريب الى كل شئ قرباً مطلقاً بعلمه وقدرته، وهو حاضر عنده وناظر اليه، بينما الاشياء بعيدة عنه بعداً مطلقاً.

وانه يتصرف في الاشياء بلا تكلف ولا معالجة وفي سهولة مطلقة بحيث يفهم انه يأمر ــــ مجرد الأمر ــــ والاشياء توجد بيسر وسرعة مطلقتين.

وانه ليس هناك شئ، مهما كان جزئياً أو كلياً، صغيراً أو كبيراً خارج دائرة قدرته، وبعيداً عن احاطة كبريائه جل جلاله.

هكذا نفهم، وهكذا نؤمن ايماناً يقيناً وبدرجة الشهود، بل ينبغي أن نؤمن هكذا.

خامستها:

ان امثال الآيات الكريمة التالية تبين عظمته سبحانه وتعالى وكبرياءه المطلقين: فأبتداءً من قوله تعالى: (وما قدروا الله حقّ قَدرِه والارضُ جميعاً قبــضتُه يومَ القيامة والسمواتُ مطويّاتٌ بيمينه) (الزمر: 67) الــى قوله تعــالى (واعلَموا أن الله يَحُولُ بين المرء وقلبه) (الانفــال: 24) ومن قوله تعالى الله (خالقُ كلِّ شـــيءٍ وهـــو عـــلى كل شـــيء وكيـــل) (الزمر: 62) الى قـــوله تعالى (يعلمُ ما يُسرّون وما يُعلنون) (البقرة: 77) ومن قوله تعالى (خَلَـــقَ السموات والارض) (الاعراف:54) الى قوله تعالى (خَلَقَكُم وما تَعملون) (الصافات: 96). ومن قوله تعالى (ما شـــاءَ الله لا قوة الاّ باللـــّه) (الكهف:39) الى قـــوله تعـــالى (ومـــا تشاؤون الاّ أن يشاء الله) (الانسان: 30) هذه الآيات الجليلة تبـــين احاطة حدود عظمـــة ربوبيته سبحانه وكبرياء الوهيته بكل شئ.. هذا السلطان الجليل، سلطان الازل والابد يهدد بشدة ويعنّف ويزجر ويتوعد هذا الانسان الذي هو في منتهى العجز ومنتهى الضعف ومنتهى الفقر، والذي لا يملك الاّ جزءاً ضئيلاً من ارادة اختيارية وكسباً فقط، فلا قدرة لـــه علـــى الايجاد قطعاً. والسؤال الوارد هو: ما اساس الحكمة التي تبنى عليها تلك الزواجر والتهديدات المرعبة والشكاوى القرآنية الصادرة من عظمته الجليلة تجاه هذا الانسان الضعيف، وكيف يتم الانسجام والتوفيق بينهما؟.

اقول: لأجل البلوغ الى الاطمئنان القلبي، انظر الى هذه الحقيقة العميقة جداً والرفيعـــة جداً في الوقت نفسه من زاوية المثالين الآتيين:

المثال الاول:

بستان عظيم جداً يحوى مالا يعد ولا يحصى من الاثمار اليانعة والازاهير الجميلة، عُـــيّن عدد كبير من العاملين والموظفين للقيام بخدمات تلك الحديقة الزاهرة. الاّ ان المكلّف بفـــتح المنفذ الذي يجري منه الماء للشرب وسقي البستان، تكاسل عن اداء مهمته و لم يفتح المنفـــذ، فلم يجر الماء. بمعنى انه أخل بكل ما في البستان أو سبّب في جفافه!

وعندها فان لجميع العاملين في البستان حق الشكوى من ذلك العامل المتقـــاعس عـــن العمل، فضلاً عن شكاوى ما ابدعه الرب الجليل والخالق الكريم وما هو تحت نظر شـــهوده

العظيم، بل حتى للتراب والهواء والضياء حق الشكوى من ذلك العامل الكسلان، لما سبّب من بوار مهماتهم وعقم خدماتهم او اخلال بها في الأقل!

المثال الثاني:

سفينة عظيمة للسلطان. إن ترك فيها عاملٌ بسيط وظيفته الجزئية، فسيؤدي تركه هذا الى اخلال نتائج اعمال جميع العاملين في السفينة واهدارها. لأجل ذلك فان صاحب السفينة، وهو السلطان العظيم، سيهدد ذلك المقصّر تهديداً شديداً باسم جميع العاملين في السفينة. في حين لا يقدر ذلك المقصّر على القول: مَن انا حتى استحق كل هذا التهديد المروّع، وما عملي الاّ اهمال تافه جزئى!

ذلك لان عدماً واحداً يؤدي الى ما لا يتناهى من انواع العدم، بينما الوجود يثمر ثمرات حسب نوعه. لأن وجود الشئ يتوقف على وجود جميع الاسباب والشروط، بينما انعدام ذلك الشئ وانتفاؤه من حيث النتيجة انما هو بانتفاء شرط واحد فقط وبانعدام جزء منه.

ومن هنا غدا »التخريب أسهل من التعمير« دستوراً متعارفاً لدى الناس. ولما كانت اسس الكفر والضلال والطغيان والمعصية، انكاراً ورفضاً وتركاً للعمل وعدم قبول، فصورتها الظاهرية مهما بدت ايجابية وذات وجود، الاّ انها في حقيقتها انتفاء وعدم، لذا فهي جناية سارية.

فهذه الامور مثلما تخل بنتائج اعمال الموجودات كافة، فانها تسدل ستاراً أمام التجليات الجمالية للاسماء الحسنى وتحجبها عن الانظار.

وهكذا فالموجودات لها حق الشكوى بلا حدود، وان سلطانها الجليل يهدّد باسمها هذا الانسان العاصي ويزجره اشد الزجر. وهذا هو عين الحكمة، لأن ذلك العاصي يستحق بلا ريب ذلك التهديد الرهيب كما يستحق أنواعاً من الوعيد المرعب.

خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وما الحياةُ الدنيا الاّ متاعُ الغُرور) (آل عمران: 185)

(درس للعبرة وصفعة قوية على رأس الغفلة)

يا نفسي!.. ايتها السادرة في الغفلة!

يا من ترين هذه الحياة حلوة لذيذة فتطلبين الدنيا وتنسين الآخرة.. هــل تــدرين بمَ تشبهين؟ انك لتشبهين النعامة.. تلك التي ترى الصياد فلا تستطيع الطيران، بل تقحم رأسها في الرمال تاركة جسمها الضخم في الخارج ظناً منها ان الصياد لا يراها.إلا أن الصياد يرى، ولكنها هي وحدها التي اطبقت جفنيها تحت الرمال فلم تعد ترى!

فيا نفسي!

انظري الى هذا المثال وتأملي فيه، كيف ان حصر النظر كله في الدنيا يحوّل اللذة الحلوة الى ألم مرير!.

هب أنه في هذه القرية (بارلا) رجلان اثنان: أحدهما قد رحل تسعة وتسعون بالمائة من أحبته الى استانبول وهم يعيشون هناك عيشة طيبة جميلة، ولم يبق منهم هنا سوى شــخص واحد فقط وهو أيضاً في طريقه الى الالتحاق بهم، لذا فان هذا الرجل مشتاق الى اســتانبول أشد الاشتياق بل يفكر بها، ويرغب في ان يلتقي الأحباب دائماً. فلو قيل له في أي وقت من الاوقات: »هيا اذهب الى هناك« فانه سيذهب فرحاً باسماً..

أما الرجل الثاني فقد رحل من احبته تسعة وتسعون بالمائة، ويظن ان بعضــهم فــني، ومنهم مَن انزوى في أماكن لا ترى. فهلكوا وتفرقوا حسب ظنه. فهذا الرجل المســكين ذو داء عضال يبحث عن أنيس وعن سلوان حتى عند سائح واحد، بدلاً من اولئك جميعاً، ويريد ان يغطي به على ألم الفراق الشديد.

فيا نفسي!

ان أحبتك كلهم، وعلى رأسهم وفي مقدمتهم (حبيب الله) (ص)، هم الآن في الطرف الآخر من القبر. فلم يبق هنا الاّ واحد أو اثنان وهم ايضاً متأهبون للرحيل.

فلا تديرنّ رأسك جفلة من الموت، خائفة من القبر، بل حدّقي في القبر وانظـــري الى حفرته بشهامة واستمعي الى ما يطلب. وابتسمي بوجه الموت برجولة، وانظري ماذا يريـــد؟ واياك ان تغفلي فتكوني أشبه بالرجل الثاني!.

يا نفسي!

لا تقولي ابداً بأن الزمان قد تغيّر، وان العصر قد تبدّل، وان الناس قد انغمسوا في الدنيا وافتتنوا بحياتها، فهم سكارى بهموم العيش.. ذلك لأن الموت لا يتغير، وان الفراق لا ينقلـــب الى بقاء فلا يتغير ايضاً، وان العجز الانساني والفقر البشري هما ايضاً لا يتغيران بل يـــزدادان، وان رحلة البشرية لا تنقطع، بل تحث السير وتمضي. ثم لا تقولي كذلك: »أنا مثـــل كـــل الناس«. ذلك لأن ما من أحدٍ من الناس يصاحبك الاّ الى عتبة باب القبر .. لا غير.

ولو ذهبت تنشدين السلوان فيما يقال عن مشاركة الآخرين معك في المصيبة ومعيتهم لك، فان هذا ايضاً لا حقيقة له ولا أساس مطلقاً في الطرف الآخر من القبر!.

ولا تظني نفسك سارحة مفلوتة الزمام، ذلك لأنك اذا ما نظرت الى دار ضيافة الـــدنيا هذه نظر الحكمة والروية.. فلن تجدي شيئاً بلا نظام ولا غاية، فكيف تبقين اذن وحدك بلا نظام ولا غاية؟! فحتى الحوادث الكونية والوقائع الشبيهة بالزلازل ليست ألعوبة بيد الصدفة.

فمثلاً: في الوقت الذي تشاهدين فيه بأن الأرض قد ألبست حللاً مزركشة بعضها فوق بعض مكتنفة بعضها البعض الآخر من انواع النباتات والحيوانات في منتهى النظام وفي غايـــة النقش والجمال، وترينها مجهّزة كلها من قمة الرأس الى أخمص القـــدم بـــالحكم، ومزينـــة بالغايات. وفي الوقت الذي تدور بما يشبه جذبة حب وشوق مولوية [54] بكمال الدقة والنظام ضمن غايات سامية.. ففي الوقت الذي تشهدين هذا، وتعلمين ذلك فكيف يســـوغ اذن أن تكون الزلزلة الشبيهة بهزّ عطف كرة الارض [55] مظهرة بها عدم رضاها عـــن ثقـــل الضـــيق المعنوي الناشئ من اعمال البشر، ولا سيما أهل الايمان منهم، كيف يمكن أن تكـــون تلـــك

[54] تشبيه لطيف بالمريد المولوي الذي يدور حول نفسه وحول حلقة الذكر بحلاوة الخشوع ونشوة الذكر. والمولوية طريقة صوفية منتشرة في تركيا. ـــــ المترجم.

[55] كتب البحث بمناسبة الزلزال الذي حدث في أزمير. ـــــ المؤلف.

الحادثة المليئة بالموت، بلا قصد ولا غاية كما نشره ملحد ظناً منه أنها مجرد مصادفة، مرتكباً بذلك خطأ فاحشاً ومقترفاً ظلماً قبيحاً؟ اذ صيّر جميع ما فقده المصابون من أمـــوال وارواح هباء منثوراً قاذفاً بهم في يأس أليم. والحال أن مثل هذه الحوادث تدّخر دائماً أمـــوال أهـــل الايمان، محولة اِياها بأمر الحكيم الرحيم، الى صَدَقة لهم. وهي كفّارة لذنوب ناشئة من كفران النعم.

فلسوف يأتي ذلك اليوم الذي تجد الارض المسخرة وجهها دميمة قبيحة بما لطخ زينتها شركُ اعمال البشر ولوّثها كفرانه، فتمسح عندئذٍ وجهها بزلزلة عظيمة بأمر الخالق، وتطهّره مفرغةً أهل الشرك بأمر الله في جهنم، وداعيةً أهلَ الشكر: »هيا تفضلوا الى الجنة«.

ذيل

الكلمة الرابعة عشرة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(اذا زُلْزلت الأرضُ زلزالَها_ وأخرجَت الأرضُ أثقالها_ وقال الانسانُ ما لَها_ يومئـــذٍ تُـــحدّثُ أخبارهَا_ بأن ربَّك أوحى لها...) الى اخر السورة

هذه السورة الجليلة تبين بياناً قاطعاً؛ ان الأرض في حركاتها وزلزالها وحتى في اهتزازاتها أحياناً، انما هي تحت أمر الله ووحيه.

(لقد وردت الى القلب أجوبة ــــ بمعاونة تنبيه معنوي ــــ عن بضعة أسئلة تـــدور حول الزلزال الذي حدث حالياً، ورغم اني عزمت على كتابة تلك الأجوبة كتابة مفصلة عدة مرات، فلم يؤذن لي ، لذا ستكتب مختصرة ومجملة).

nالسؤال الأول:

لقد أذاقت هذه الزلزلة العظيمة الناس مصيبةً معنوية أدهى من مصيبتها المادية الفجيعة، تلك هي الخوف والهلع واليأس والقنوط التي استولت على النفوس، حيث انهـــا اســـتمرت ودامت حتى سلبت راحة اغلب الناس ليلاً. وعمّ القلق والاضطراب أغلب مناطق الـــبلاد.. تُرى ما منشأ هذا العذاب الأليم وما سببه؟

بمعاونة تنبيه معنوي كذلك كان الجواب هو الآتي:

ان مما يُقترف في أرجاء هذه البلاد ــــ التي كانت مركزاً طيباً للاسلام ــــ من مجون وعربدة جهاراً نهاراً، وفي شهر مبارك جليل كشهر رمضان، واثناء اقامة صلوات التـــراويح، واسماع الناس اغانٍ مثيرة باصوات نساء، واحياناً من الراديو وغيرها.. قد ولّد إذاقة عـــذاب الخوف والهلع هذا.

nالسؤال الثاني:

لماذا لا يترل هذا العذاب الرباني والتأديب الإلهي ببلاد الكفر والالحاد ويـــترل بهـــؤلاء المساكين المسلمين الضعفاء؟.

الجواب: مثلما تحال الجرائم الكبيرة الى محاكم جزاء كبرى، وتُعهد اليهـــا عقوبتـــها بالتأخير، بينما تحسم الجنايات الصغيرة والجَنح في مراكز الأقضية والنواحي، كـــذلك فـــان القسم الأعظم من عقوبات أهل الكفر وجرائم كفرهم وإلحادهم يؤجل الى المحكمة الكـــبرى

في الحشر الأعظم، بينما يعاقب أهل الايمان على قسم من خطيئاتهم في هذه الـــدنيا، وذلـــك بمقتضى حكمة ربانية مهمة .[56]

nالسؤال الثالث:

لماذا تعم هذه المصيبة البلاد كلها، علماً انها مصيبة ناجمة من اخطاء يرتكبـــها بعـــض الناس؟

الجواب: ان أغلب الناس يكونون مشتركين مع اولئك القلة الظلمة، إمـــا مشـــاركة فعلية، أو التحاقاً بصفوفهم أو التزاماً باوامرهم، أي يكونون معهم معنىً، مما يُكسب المصـــيبة صفة العمومية، اذ تعم المصيبة بمعاصي الأكثرية.

nالسؤال الرابع:

ما دامت هذه الزلزلة قد نشأت من اقتراف الخطايا والمفاسد، ووقعت كفّارة للذنوب، فلماذا تصيب الأبرياء اذن، ويحترقون بلظاها وهم لم يقربوا الخطايا والذنوب، وكيف تسمح العدالة الربانية بهذا؟

وكذلك بمعاونة تنبيه معنوي كان الجواب هو الآتي:

ان هذه المسألة متعلقة بسر القدر الإلهي، لذا نحيلها الى »رسالة القدر« ونكتفي بالآتي:

قال تعالى (واتقوا فتنةً لا تُصيبنَّ الذين ظَلَموا منكم خاصّة) (الانفال:25) وسرّ هـــذه الآية ما يأتي:

ان هذه الدنيا دار امتحان واختبار، ودار مجاهدة وتكليـــف، والاختبـــار والتكليـــف يقتضيان ان تظل الحقائق مستورة ومخفية، كي تحصل المنافسة والمسابقة، وليسمو الصـــديقون بالمجاهدة الى أعلى عليين مع أبي بكر الصديق، وليتردى الكذابون الى أســـفل ســـافلين مـــع مسيلمة الكذاب.

---

[56] وكذا فان ترك الروس وأمثالهم ديناً محرفاً ومنسوخاً واستهانتهم به لا يمس غيرة الله، مثلما تمسها الاستهانة بدين حق خالد وغير قابل للنسخ. لذا تمهل الارض اولئك وتغضب على هؤلاء.ـــــ المؤلف.

فلو سلم الابرياء من المصيبة و لم يمسّهم سوء ولا أذى، لأصبح الايمـــان بـــديهياً، أي لاستسلم الكفار والمؤمنون معاً على حد سواء، ولأنتفى التكليف وانسدّ بابه، و لم تبق حاجة الى الرقي والسمو في مراتب الايمان.

n فما دامت المصيبة تصيب كلاً من الظالمين والمظــلومين معاً، وفق الحكمة الإلهيـــة، فما نصيب اولئك المظلومين من العدالة الإلهية ورحمتها الواسعة؟.

الجواب: ان هناك تجلياً للرحمة في ثنايا ذلك الغضب والبلاء، لأن اموال اولئك الابرياء الفانية ستخلد لهم في الآخرة، وتدّخر صدقة لهم، أما حياهم الفانية فتتحول الى حياة باقية بما تكسب نوعاً من الشهادة، أي ان تلك المصيبة والبلاء بالنسبة لأولئك الأبرياء نوعٌ من رحمة إلهية ضمن عذاب أليم موقت، حيث تمنح لهم بمشقة وعذاب مؤقتين، وقليلين نسبياً، غنيمـــة دائمة وعظيمة.

nالسؤال الخامس:

ان الله سبحانه وتعالى، وهو العادل الرحيم، والقدير الحكيم، لا يجازي الذنوب الخاصة بعقوبات خاصة، وانما يسلط عنصراً جسيماً كالأرض، للتأديب والعقاب. فهل هذا يوافـــق شمول قدرته وجمال رحمته سبحانه؟.

الجواب: لقد اعطى القدير الجليل كلَّ عنصرٍ من العناصر وظائف كثيرة، ويُنشئ على كلٍ من تلك الوظائف نتائج كثيرة. فلو ظهرت نتيجة واحدة قبيحة ـــــ أي شر ومصـــيبة وبلاء ـــــ من عنصر من العناصر في وظيفة من وظائفه الكثيرة، فان سائر النتائج المترتبة على ذلك العنصر، تجعل هذه النتيجة الوخيمة في حكم الحسن والجميل، لأهما جميلة وحسنة اذ لو مُنع ذلك العنصر الغاضب على الانسان من تلك الوظيفة للحيلولة دون مجئ تلـــك النتيجـــة الوحيدة البشعة للوجود لتُركت اذن خيرات كثيرة بعدد النتائج الخيرة المترتبة علـــى ســـائر وظائف ذلك العنصر. أي تحصل شرور كثيرة بعدد تلك النتائج الخيرة، حيث ان عدم القيام بخير ضروري، انما هو شر كما هو معلوم. كل ذلك للحيولة دون مجئ شر واحد! وما هذا الاّ منافاةٌ للحكمة. وهو قبح واضح، ومجافاة للحقيقة، وقصور مشين. بينما الحكمـــة والقـــدرة والحقيقة متزّهة عن كل نقص وقصور.

ولما كان قسم من المفاسد هو عصياناً شاملاً وتعدّياً فاضحاً على حقوق كـــثير مـــن المخلوقات واهانة لها واستخفاف بها حتى يستدعي غـــضب العناصر ولا سيــــــما الارض، فيثير غيظها، فلاشك أن الايعاز الى عنصر عظيم بأن يؤدب اولئك العصاة، اظهاراً لبشـــاعة عصيانهم وجسامة جنايتهم، انما هو عين الحكمة والعدالة، وعين الرحمة للمظلومين في الوقت نفسه.

nالسؤال السادس:

يشيع الغافلون في الأوساط، ان الزلزلة ما هي الاّ نتيجة انقلابات المعادن واضطراباتها في جوف الأرض، فينظرون اليها نظر حادثة نجمت من غير قصد، ونتيجة مصادفة وأمور طبيعية، ولا يرون الاسباب المعنوية لهذه الحادثة ولا نتائجها، كي يفيقوا من غفلتهم وينتبـــهوا مـــن رقدتهم. فهل من حقيقة لما يستندون اليه؟

الجواب: لا حقيقة له غير الضلال، لاننا نشاهد ان كل نوع من الآف أنواع الأحيـــاء التي تزيد على خمسين مليوناً على الكرة الأرضية، يلبس أقمصته المزركشة المنسقة ويبدّلها كل سنة، بل لا يبقى جناح واحد وهو عضو واحد من مئات اعضاء الذباب الذي لا يعـــد ولا يحصى، لا يبقى هذا العضو هملاً ولا سدىً بل ينال نور القصد والارادة والحكمة. مما يـــدل على ان الافعال والأحوال الجليلة للكرة الأرضية الضخمة ـــــ التي هي مهد ما لا يحد مـــن ذوي المشاعر وحضارتهم ومرجعهم ومأواهم ـــــ لا تبقى خارج الارادة والأختيار والقصد الإلهي، بل لا يبقى اي شئ خارجها، جزئياً كان ام كلياً.

ولكن القدير المطلق قد جعل الاسباب الظاهرة ستائر أمام تصرفاته بمقتضـــى حكمتـــه المطلقة، اذ حالما تتوجه ارادته الى احداث الزلزلة، يأمر ـــــ أحياناً ـــــ معدناً من المعـــادن بالاضطراب والحركة، فيوقده ويشعله.

هب ان الزلزال نشأ فرضاً من حدوث انقلابات المعادن واضطراباتها، فلا يحدث أيضـــاً الاّ بأمر إلهي ووفق حكمته لا غير.

اذ كيف أنه من البلاهة والجنون، وضياع جسيم لحق المقتول، الاّ يؤخذ القاتل بنظـــر الاعتبار ويُحصر النظر في البارود المشتعل في طلقة بندقيته،كذلك فان الحماقة الاشنع منـــها

الانسياق الى الطبيعة ونسيان الأمر الإلهي باشعال القنبلة المدخرة في جوف الارض بحكمتـــه وارادته، تلك المأمورة المسخرة والسفينة والطائرة للقدير الجليل، فيأمرها سبحانه بـــالانفلاق إيقاظاً للغافلين وتنبيهاً للطغاة.

]تتمة السؤال السادس وحاشيته]

ان اهل الضلال والالحاد، يبدون تمرداً غريباً، وحماقة عجيبة الى درجة تجعل الانســـان نادماً على انسانيته، وذلك في سبيل الحفاظ على مسلكهم المعوق لصحوة الايمان. فمثلاً:

ان العصيان الظالم المظلم، الذي اقترفه البشر في الآونة الاخيرة، والذي عم العالم وشمله، حتى اغضب العناصر الكلية. بل تجلت ربوبية خالق الارض والسموات بصفة رب العـــالمين وحاكم الاكوان ـــــ لا بصفة ربوبية جزئية خاصة ـــــ في العالم اجمع، وفي دائـــرة كليـــة واسعة، فصفع رب العالمين البشرية ببلايا وآفات عامة مرعبة كـــالحرب العالميـــة والـــزلازل والسيول العارمة والرياح الهوج والصواعق المحرقة والطوفانات المدمرة. كل ذلك ايقاظاً لهـــذا الانسان السادر في غفلته، وسوقاً له ليتخلى عن غروره وطغيانه الرهيب. ولتعريفه بربه الجليل الذي يعرض عنه. فاظهر سبحانه حكمته وقدرته وعدالته وقيوميته وإرادته وحاكميته اظهاراً جلياً. ولكن على الرغم من هذا فان شياطين حمقى ممن هم في صور اناسي، يتمـــردون في وجه تلك الاشارات الربانية الكلية والتربية الإلهية العامة للبشرية، تمرداً ببلاهـــة مشـــينة، اذ يقولون: انها عوامل طبيعية، انها انفجار مواد واختلاط معادن، انها مصادفات ليس الا، فقـــد تصادمت حرارة الشمس والكهرباء فاحدثت توقفاً في المكائن في امريكا لمدة خمس ســـاعات واحمرّ الجو في (قسطموني) حتى كأنه يلتهب.! الى آخر هذه الهذيانات التي لا معنى لها.

فالجهل المريع الناشئ من الضلال، والتمرد المقيت المتولد من الزندقـــة، يحـــولان دون ادراكهم ماهية الاسباب، التي هي حُجب وستائر (امام القدرة الإلهية) ليس الاّ.

اذ ترى احدهم ـــــ من جهله ـــــ يبرز اسباباً ظاهرية، ويقـــول: هـــذه الشـــجرة الضخمة للصنوبر ـــــ مثلاً ـــــ قد انشأتها هذه البذرة. منكراً معجزة صانعها الجليل. علماً انه لو احيلت الى الاسباب لما كفت مائة من المصانع لتكوين تلك الشجرة.

فابراز اسباب ظاهرية ـــــ مثل هذه ـــــ انما هو تهوين من شأن عظمة فعل الربوبيـــة الجليلة المفعمة بالحكمة والاختيار.

وترى آخر يطلق اسماً علمياً على حقيقة مهمة يقصر العقل عن ادراك مداها وعمقهـــا. فكأن تلك الحقيقة قد عرفت وعُلمت بمجرد وضع اسم عليها. وغدت مألوفـــة معتـــادة، لا حكمة فيها ولا معنى!

فتأمل في هذه البلاهة والحماقة التي لا منتهى لهما! اذ الحقيقة التي لا تسع مائة صحيفة لبيان حكمتها وتعريفها، كأن وضع هذا العنوان عليها جعلها معروفة مألوفة! وقولهم: هـــذا الشئ من هذا. وهذه الحادثة من مادة الشمس التي اصطدمت بالكهرباء.. جعل ذلك الشـــئ معروفاً وتلك الحادثة مفهومة!!

بل يظهر احدهم جهلاً اشد من جهل ابي جهل، اذ يسند حادثـــة ربوبيـــة مقصـــودة خاصة، يرجعها الى احد قوانين الفطرة، وكأن القانون هو الفاعل! فيقطع بهذا الاسناد نســـبة تلك الحادثة الى الارادة الإلهية الكلية واختياره المطلق وحاكميته النافذة والتي تمثلـــها ســـننه الجارية في الوجود.. ثم تراه يحيل تلك الحادثة الى المصادفة والطبيعة! فيكون كالابله العنيـــد الذي يحيل الانتصار الذي يحرزه جندي او فرقة، في الحرب، على نظـــام الجنديـــة وقـــانون العسكرية، ويقطعه عن قائد الجيش، وسلطان الدولة، والافعال الجارية المقصودة.

ولننظر الى حماقتهم الفاضحة بهذا المثال:

اذا ما صنع صناع ماهر مائة اوقية من مختلف الاطعمة، ومائة ذراع من مختلف الاقمشة، من قطعة صغيرة من خشب لا يتجاوز حجمها قلامة اظفر. وقال احدهم ان هذه الاعمـــال الخارقة قامت بها تلك القطعة الخشبية التافهة! ألا يرتكب حماقة عجيبة؟ فهذا شبيه بمن يـــبرز بذرة صلدة وينكر خوارق صنع الصانع الحكيم في خلق الشجرة، بل يحط من قيمـــة تلـــك الامور المعجزة باحالتها الى مصادفة عشواء او عوامل طبيعية!

والامر كذلك في هذا...

nالسؤال السابع:

كيف يفهم بان هذه الحادثة الأرضية متوجهة بالذات الى مسلمي هذه البلاد، أي انها تستهدفهم؟ ولماذا تقع بكثرة في جهات »أزمير« و»ارزنجان«.

الجواب: ان هناك امارات كثيرة على ان هذه الحادثة استهدفت أهل الإيمان، اذ وقوعها في قارس الشتاء وفي ظلمة الليل، وفي شدة البرد، وخاصة في هذه البلاد التي لا تحترم شهر رمضان، واستمرارها الناشئ من عدم اتعاظ الناس منها، ولإيقاظ الغافلين من رقدتهم بخفة.. وامثالها من الأمارات تدل على ان هذه الحادثة استهدفت اهل الايمان، وانها تتوجه اليهم وتزلزلهم بالذات لتدفعهم الى اقامة الصلاة والدعاء والتضرع اليه سبحانه.

اما شدة هزّتها في أرزنجان المنكوبة، فلها وجهان:

الأول: انها عجّلت بهم تكفيراً عن خطاياهم الطفيفة.

الثاني: يحتمل انها ضربت صفعتها أولاً في تلك الأماكن،حيث أسس أهل الزندقة مركزاً قوياً لنشاطاتهم منتهزين الفرصة من قلة عدد حماة الاسلام الأقوياء وحفظة الايمان الاصلاء، أو لكونهم مغلوبين على أمرهم.

لا يعلم الغيب الاّ الله

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

الكلمة الخامسة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولقد زيّنا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وجعلناها رُجوماً للشياطين) (الملك: 5)

يا من تعلّم في المدارس الحديثة مسائل فاقدة للروح في علم الفلك، فضاق ذهنه، وانحدر عقله الى عينه حتى استعصى عليه استيعاب السر العظيم لهذه الآية الجليلة. اعلم ان للصعود الى سماء هذه الآية الكريمة سُلّما ذا سبع درجات ومراتب، هيا نصعد اليها معاً.

uالمرتبة الاولى:

ان الحقيقة والحكمة تقتضيان ان يكون للسماء أهلون يناسبونها ــ كما هو الحـــال في الارض ــــ ويسمى في الشريعة اولئك الاجناس المختلفة الملائكة والروحانيات.

نعم! الحقيقة تقتضي هكذا، اذ ان ملء الارض، مع صـــغرها وحقارتهـــا بالنســـبة الى السماء، بذوي حياة وادراك، واعمارها حيناً بعد حين بذوي ادارك آخرين بعد اخلائها من السابقين يشير، بل يصرّح، بامتلاء السموات ذات البروج المشيدة، تلك القصـــور المزينـــة، بذوي ادراك وشعور. فهؤلاء كالجن والانس، مشاهدو قصر هذا العالم، مطـــالعو كتـــاب الكون، ادلاّء الى عظمة الربوبية ومنادون اليها؛ لأن تزيين العالم وتجميله بما لا يعد ولا يحصى من التزيينات والمحاسن والنقوش البديعة، يقتضي بداهة، جلب انظار متفكرين مستحســـنين ومقدّرين معجبين، اذ لا يُظَهر الحسن الاّ لعاشق، كما لايعطى الطعام الا لجائع، مع ان الانس والجن لا يستطيعان القيام الاّ بواحد من مليون من هذه الوظائف غير المحدودة فضـــلاً عـــن الاشراف المهيب والعبودية الواسعة. بمعنى ان هذه الوظائف المتنوعة غير المتناهية وهذه العبادة التي لا نهاية لها تحتاج الى ما لا يعد من انواع الملائكة واجناس الروحانيات. وكذا، بناء على اشارة بعض الروايات والآثار، وبمقتضى حكمة انتظام العالم يصح القول:

ان قسماً من الاجسام السيارة ابتداءً من الكواكب السيارة وانتهاء بالقطرات الدقيقـــة، مراكب لقسم من الملائكة، فهم يركبون تلك الاجسام ــــ بإذن إلهي ــــ ويتجولون في عالم الشهادة ويتفرجون عليه.

ويصح القول ايضاً: ان قسماً من الاجسام الحيوانية ابتداءً من طيور الجنة الموصوفة بــ »طير خضر« ــــ كما ورد في الحديث الشريف[57] ــــ وانتهاء بالـــذباب والبعـــوض في الارض، طيارات لجنس من الارواح، تدخل تلك الارواح في اجوافها باســـم الله »الحـــق« وتشاهد عالم الجسمانيات، وتطل من نوافذ حواس تلك المخلوقات مشاهدة معجزات الفطرة الجسمانية.

[57] عن عبدالله ابن مسعود قال :قال رسول الله ρ »..أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت«. ــــ مسلم كتاب الأمارة:121. ــــ المترجم.

فالخالق الكريم الذي يخلق باستمرار من التراب الكثيف والماء العكر مخلوقـــات ذوات ادراك منورة، وحياة نورانية لطيفة، لا ريب أن له مخلوقات ذوات ادراك وشعور يخلقها مــــن بحر النور بل من بحر الظلمات، مما هو أليق للروح والحياة وأنسب لهما.بل هي موجودة بكثرة هائلة.

فان شئت فراجع رسالة »نقطة من نور معرفة الله جل جلاله« و »الكلمـــة التاســـعة والعشرين« فيما يخص اثبات وجود الملائكة والروحانيات. فقد اثبتنا وجودهم اثباتاً جازمـــاً قاطعاً.

uالمرتبة الثانية:

ان الارض والسموات ذات علاقة بعضها ببعض، كعلاقة مملكتين لدولة واحدة، فبينهما ارتباط وثيق ومعاملات مهمة، فما هو ضروري للارض من الضياء والحرارة والبركة والرحمة وما شابهها تأتي كلها من السماء الى الارض، اي تُرسل من هناك.

كذلك فباجماع جميع الاديان السماوية المستندة الى الوحي الإلهي، وبالتواتر الحاصل من شهود جميع اهل الكشف، ان الملائكة والروحانيات يأتون من السماء الى الارض. فبالحـــدس القطعي ـــــ اقرب الى الاستشعار والاحساس ــــ ان لسكنة الارض طريقاً يصعدون بها الى السماء. اذ كما يرنـــو عـــقـــل كـــل فـــرد وخيـــاله ونظره الى السماء في كل حـــين، كذلك ارواح الانبياء والاولياء الذين خفّوا بوضع اثقالهم، وارواح الاموات الـــذين خلعـــوا أجسادهم يصعدون باذن إلهي الى السماء. وحيث ان الذين خفّوا ولطفوا يذهبون الى هناك، فلابد ان الذين يلبسون جسداً مثالياً، واللطيفين الخفيفين لطافة الروح وخفتها مـــن ســـكنة الارض والهواء يمكنهم الذهاب الى السماء.

uالمرتبة الثالثة:

ان سكون السماء وسكوتها وانتظامها واطرادها ووسعتها ونورانيتها يدل على ان أهلها ليسوا كأهل الارض، بل كل اهل السماء مطيعون يفعلون ما يؤمَرون، فليس هناك ما يوجب المزاحمة والاختلافات لأن المملكة واسعة فسيحة جداً، وهم مفطورون على الصفاء والنقـــاء، معصومون لا ذنب لهم، ومقامهم ثابت بخلاف الارض التي فيها اجتماع الاضداد واختـــلاط

الاشرار بالابرار مما ولّد الاختلافات المؤدية الى الاضطرابات والقلاقل والمشاجرات. وانفـــتح بذلك باب الامتحان والمسابقة وظهرت مراتب الرقي ودركات التدني.

وحكمة هذه الحقيقة هي:

ان الانسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة، ومن المعلوم ان الثمرة هي أبعـــد اجـــزاء الشجرة واجمعها وألطفها، لذا فالانسان هو ثمرة العالم واجمع وابدع مصنوعات القدرة الربانية واكثرها عجزاً وضعفاً ولطفاً.

ومن هنا فان مهد هذا الانسان ومسكنه وهو الارض كفء للسماء معنىً وصنعةً. ومع صغر الارض وحقارتها بالنسبة الى السماء فهي قلب الكون ومركزه.. ومشهر جميع معجزات الصنعة الربانية.. ومظهر جميع تجليات الاسماء الحسنى وبؤرتها.. ومعكس الفعاليات الربانيـــة المطلقة ومحشرها وسوق عرض المخلوقات الإلهية بجود مطلق، ولاسيما عرضها لكثرة كـــاثرة من النباتات والحيوانات.. وهي نموذج مصغر لما يعرض في عوالم الاخرة من مصـــنوعات.. و مصنع يعمل بسرعة فائقة لانتاج المنسوجات الابدية والمناظر السرمدية المتبدلة بسرعة.. وهي مزرعة ضيقة مؤقتة لإستنبات بذور البساتين الدائمة الخالدة.

ومن هذه العظمة المعنوية للارض [58] واهميتها من حيث الصنعة، جعلها القرآن الكـــريم كفؤاً للسموات وعدلاً لها، مع انها بالنسبة للسموات كالثمرة الصغيرة بشجرتها الضـــخمة، فيجعلها في كفة والسموات في كفة اخرى، فيكرر الآية الكريمة (رب السموات والارض).

---

[58] نعم! ان الارض مع صغرها يمكن ان تعدل السموات، لأنه يصح القول: ان نبعاً دائم العطاء هو اكبر من بحيرة لا يجنى منها شئ. ثم انه اذا كيل شئ ما بمكيال، ووضع جانباً، ثم كيلت محاصيله بالمكيال نفسه، ووضعت الى جانب آخر، فمهما كانت هذه المواد اضخم واكبر من المكيال نفسه، ولو بالوف المرات ظاهراً، الاّ أن المكيال يمكن ان يعادل ذلك الجسم ويقارن معه.
كذلك الارض، فقد خلقها سبحانه وتعالى: مشهر صنعته، محشر ايجاده، مدار حكمته، مظهر قدرته، مزهر رحمته، مزرعة جنته، مكيل الموجودات ـــ اي وحدة قياس لعوالم المخلوقات ـــ وخلقها نبعاً فياضاً تسيل منه (الموجودات) الى بحار الماضي والى عالم الغيب. وخلقها بحيث يبدّل عليها سنوياً اثوابها المنسوجة ببدائع صنعه، يبدلها الواحدة تلو الاخرى، بمئات الالوف من الانواع والاشكال.

ثم ان تحول الارض السريع، وتغيّرها الدائم ـــــ بناء على هذه الحكم المذكورة ــــــــ يقتضي ان تطرأ على اهليها ايضاً تحولات مماثلة لها.

وكذا ان الارض مع محدوديتها، نالت من تجليات القدرة الإلهية المطلقة، وذلك بعـــدم تحديد قوى اهليها ذوي الشأن وهما الجن والانس؛ بحدّ فطري او قدٍّ خلقي كما هو في سائر ذوي الحياة. لذا غدت الارض معرضاً لرقي لا نهاية له ولتدنٍ لاغاية له. فابتداءً من الانبيـــاء والاولياء وانتهاء بالنماردة الطغاة والشياطين ميدان واسع جداً للامتحان والاختبار.

ولما كان الأمر هكذا فان الشياطين المتفرعنة ستقذف السماء واهلها بشـــراراتها غـــير المحدودة.

uالمرتبة الرابعة:

ان لرب العالمين وخالقها ومدبّر امرها ذي الجلال والاكرام، اسماء حسنى كثيرة، متغايرة احكامها، متفاوتة عناوينها. فالاسم والعنوان والصفة التي تقتضي ارسال الملائكة للقتـــال في صف الصحابة الكرام مع الرسول(ص) لدى محاربة الكفار، هو الاسم نفسه والعنوان نفســـه والصفة نفسها التي تقتضي ان تكون هناك محاربة بين الملائكة والشياطين، وان تكون هنـــاك مبارزة بين السماويين الاخيار والارضيين الاشرار.

ان القدير الجليل المالك لأرواح الكفار وانفاسهم ونفوسهم في قبضة قدرته لا يفنـــيهم بأمر منه، ولا بصيحة، بل يفتح ميدان امتحان ومبارزة، بعنوان الربوبية العامـــة، وباسمائـــه الحسنى »الحكيم ، المدبّر«.

فمثلاً (ولا مشاحة في الامثال): نرى أن السلطان له عناوين مختلفة واسمـــاء متنوعـــة حسب دوائر حكومته، فالدائرة العدلية تعرفه باسم »الحاكم العادل« والدائرة العسكرية تعرفه

والآن خذ امام نظرك تلك العوالم الكثيرة التي تصب في عالم الغيب، وتلك الاثواب الكثيرة جداً التي تلبسها الارض وتنزعها، اي افترض جميع ما في الارض حاضراً، ثم قابلها مع السموات التي هي على وتيرة واحدة، وبساطة غير معقدة، ووازن بينهما، ترى أن الارض، ان لم تثقل على كفة السموات فلا تبقى قاصرة عنها. ومن هنا تفهم سر الآية الكريمة: (رب السموات والارض).ـــــ المؤلف.

باسم »القائد العام« بينما دائرة المشيخة تذكره باسم »الخليفة« والدائرة الرسمية تعرفه باسم »السلطان« والاهلون المطيعون للسلطان يذكرونه باسم »السلطان الرحيم« بينما العصاة يقولون انه »الحاكم القهار«. وقس على هذا، فان ذلك السلطان الجليل المالك لناصية الاهلين كافة، لا يعدم بامرٍ منه شخصاً عاجزاً عاصياً ذليلاً، بل يسوقه الى المحكمة باسم الحاكم العادل، ثم ان ذلك السلطان الجليل لا يلتفت التفاتة تكريم الى احدٍ من موظفيه الجديرين بها حسب علمه به ولا يكرمه بهاتفه الخاص. بل يفتح ميدان مسابقة، ويهئ له استقبالاً رسمياً، يأمر وزيره ويدعو الاهلين الى مشاهدة المسابقة، ثم يكافئ ذلك الموظف بعنوان هيئة الدولة وادارة الحكومة. فيعلن مكافأته في ذلك الميدان نظير استقامته، اي يكرمه ويتفضل عليه امام جموع غفيرة من اشخاص سامين، بعد امتحان مهيب، لإثبات جدارته امامهم.

وهكذا (وَلِلّهِ الْمَثَلُ الاَعْلى) فللّه سبحانه وتعالى اسماء حسنى كثيرة، وله شؤون وعناوين كثيرة جداً، وله تجليات جلالية وظواهر جمالية. فالاسم والعنوان والشأن الذي يقتضي وجود النور والظلام، والصيف والشتاء، والجنة والنار، يقتضي شمول قانون المبارزة نوعاً ما وتعميمه ايضاً كقانون التناسل وقانون المسابقة وقانون التعاون كامثاله من القوانين العامة الشاملة اي يقتضي شمول قانون المبارزة ابتداءً من المبارزة بين الالهامات والوساوس الدائرة حول القلب وانتهاء الى المبارزة الحاصلة بين الملائكة والشياطين في آفاق السموات.

uالمرتبة الخامسة:

لما كان هناك ذهاب من الارض الى السماء والعودة منها، فالنزول من السماء والصعود اليها وارد ايضاً، بل اللوازم والضروريات الارضية تُرسل من هناك.

وحيث ان الارواح الطيبة تنطلق الى السماء من الارض، فلابد أن تتشبث الارواح الخبيثة وتحاول تقليد الطيبين منها في الذهاب الى السموات، وذلك للطافتها وخفتها، ولابد الاّ يقبلها اهل السماء، بل يطردونها لما في طبعها من شؤم وشر.

ثم لابد من وجود علامة على هذه المعاملة المهمة وهذه المبارزة المعنوية في عالم الشهادة، لأن عظمة الربوبية تقتضي ان تضع اشارة على التصرفات الغيبية الإلهية المهمة وعلامة عليها ليبصرها ذوو الادراك والشعور ولاسيما الانسان الحامل لاجلّ وظيفة وهي المشاهدة والشهادة

والدعوة والاشراف. فكما انه سبحانه قد جعل المطر اشارة الى معجزات الربيــع، وجعــل الاسباب الظاهرة علامة على خوارق صنعته، جاعلاً اهل عالم الشهادة شاهدين عليها، فــلا ريب أنه يجلب انظار جميع اهل السماء واهل الارض الى ذلك المشهد العظيم العجيب. فيظهر تلك السماء العظيمة كالقلعة الحصينة التي زينت بروجها بحراس مصطفين حولها، أو كالمدنية العامرة التي تشوق اهل الفكر الى التأمل فيها.

فما دام اعلان هذه المبارزة الرفيعة ضرورية تقتضيها الحكمة، فلابد من وجود اشــارة عليها. بينما لا تشاهد اية حادثة كانت ضمن الحادثات الجوية والسماوية تلائم هذا الاعلان وتناسبه. فان ما ذكرناه اذن هو أنسب علامة عليها، لان الحادثات النجمية، من رمي الشهب الشبيه برمي المجانيق، واطلاق طلقات التنوير من القلاع العالية وبروجها الحصينة، مما يفهــم بداهةً مدى مناسبتها وملاءمتها برجم الشياطين بالشهب، مع انه لا تعرف لهذه الحادثة ـــــ رجم الشياطين ـــــ غير هذه الحكمة، ولا تعرف لها غاية تناسبها غير التي ذكرناها، فضــلاً عن أن رجم الشياطين حادثة مشهورة منذ زمن سيدنا آدم عليه السلام ومشهودة لدى اهــل الحقيقة، خلاف الحادثات الاخرى.

uالمرتبة السادسة:

لما كان الانس والجن يحملان استعداداً لا نهاية له للشر والجحود، فهما قادران على تمرد وطغيان لا نهاية لهما، لذا يزجر القرآن الكريم ببلاغته المعجزة، وباســاليب بــاهرة ســامية ويضرب الامثال الرفيعة القيمة ويذكر مسائل دقيقة، يزجر بها الانس والجن مــن الطغيــان والعصيان زجراً عنيفاً يهزّ الكون كله.

فمثلاً قوله تعالى:

(يا معْشَرَ الجنّ والإنس ان استطعتُم أن تنفُذُوا من أقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان_ فبأى آلاء ربكما تكذّبان_ يُرسَل عليكُما شواظٌ من نارٍ ونحاسٌ فــلا تنتصران) (الرحمن: 33ـــــ 35).

تأمل النذير العظيم والتهديد المريع والزجر العنيف في هذه الآية، وكيف تكسر تمــرد الجن والانس ببلاغة معجزة، معلنة عجزهما، مبينة مدى ما فيهما من ضعف امــام عظمــة

سلطانه وسعة ربوبيته جلّ وعلا. فكأن الآية الكريمة، وكذا الآية الاخرى (وجعلناها رجوماً للشياطين) (الملك:5) تخاطبان هكذا:

« ايها الانس والجان، ايها المغرورون المتمردون، المتوحلون بعجزهم وضــعفهم! ايهـــا المعاندون الجامحون المتمرغون في فقرهم وضعفهم انكم إن لم تطيعوا أوامري، فهيا اخرجوا من حدود ملكي وسلطاني إن استطعتم! فكيف تتجرأون اذن على عصيان أوامر سلطان عظيم؛ النجوم والاقمار والشموس في قبضته، تأتمر بأوامره، كأنها جنود متأهبون.. فأنتم بطغيــانكم هذا إنما تبارزون حاكماً عظيماً جليلاً له جنود مطيعون مهيبون يستطيعون ان يرجموا بقذائف كالجبال، حتى شياطينكم لو تحملت.. وانتم بكفرانكم هذا إنما تتمردون في مملكة مالك عظيم جليل، له جنود عظام يستطيعون ان يقصفوا اعداءً كفرة ـــــ ولو كانوا في ضخامة الارض والجبال ـــــ بقذائف ملتهبة وشظايا من لهيـــب كامثـــال الأرض والجبـــال، فيمزقـــونكم ويشتتونكم!. فكيف بمخلوقات ضعيفة امثالكم؟.. وانتم تخالفون قانوناً صارماً يرتبط به من له القدرة ـــــ باذن الله ـــــ ان يمطر عليكم قذائف وراجمات امثال النجوم.

نعم ان في القرآن الكريم تحشيدات ذات اهمية بالغة، فهي ليست ناتجة من قوة الاعداء، بل من اسباب اخرى كاظهار عظمة الالوهية وفضح العدو وشناعته.

ثم احياناً تحشّد الآية الكريمة اعظم الاسباب واقواها لأصغر شئ واضعفه، وتقرن بينهما دون تجاوزٍ للضعيف، وذلك اظهاراً لكمال الانتظام وغاية العدل ونهاية العلم وقوة الحكمـــة. فقوله تعالى (وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلـــك ظهير) (التحريم:4)

يبين مدى الاحترام اللائق الذي حظي به النبي الكريم(ص)، ومدى الرحمة الواسعة التي تشمل حقوق الزوجات.

فهذه الحشود انما تفيد افادة رحيمة في اظهار عظمة النبي(ص) وعلو مكانته عنـــد الله وبيان اهمية شكوى زوجتين ضعيفتين ومدى الرعاية لحقوقهما.

uالمرتبة السابعة:

تتباين النجوم فيما بينها تبايناً كبيراً، كما هو الحال في الملائكة والاسماك، فمنها في غاية الصغر ومنها في غاية الكبر، حتى أُطلق على كل ما يلمع في وجه السماء بالنجم.

وهكذا فنوع من انواع اجناس النجوم هو لتزيين وجه السماء اللطيف، وكأن الفـــاطر الجليل والصانع الجميل قد خلقها كالثمار النيرة لتلك الشجرة، اوكالاسماك المسبّحة لله لذلك البحر الواسع. وكالالوف من المنازل لملائكته، وخلق ايضاً نوعاً صغيراً من النجوم اداةً لرجم الشياطين.

فالشهب التي تُرسل لرجم الشياطين تحمل ثلاثة معانٍ:

المعنى الاول:

انه رمز وعلامة على جريان قانون المبارزة في اوسع دائرة من دوائر الوجود.

المعنى الثاني:

ان في السموات حراساً يقظين واهلين مطيعين، فهذه الشهب اشـــارة واعـــلان عـــن امتعاض جنود الله من اختلاط الارضيين الشريرين بهم واستراق السمع اليهم.

المعنى الثالث:

ان هذه الشهب وكأنها مجانيق وقذائف تنوير هي لإرهاب جواسيس الشياطين الـــذين يسترقون السمع والذين يمثلون المساوئ الارضيةأسوأ تمثيل، وطردهم من ابواب السماء وذلك لئلا يلوثوا السماء الطاهرة التي هي سكنى الطاهرين، وليحولوا بينهم وبين القيام بالتجســـس لحساب النفوس الخبيثة.

ايها الفلكي المعتمد على عقله القاصر، الذي لا يتجاوز نوره نور اليراعة! ويـــا مـــن يغمض عينه عن نور شمس القرآن المبين!

تأمل في هذه الحقائق التي تشير اليها هذه المراتب السبع، تأملها دفعة واحدة، أبصر، دع عنك بصيص عقلك، وشاهد معنى الآية الكريمة في نور اعجازها الواضح وضوح النهار، وخذ نجم حقيقة واحدة من سماء تلك الآية الكريمة واقذف بها الشيطان القابع في ذهنك وارجمه بها! ونحن كذلك نفعل هذا. ولنقل معاً:

(رب اعوذ بك من همزات الشياطين).

..فللّه الحجة البالغة والحكمة القاطعة.

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم) [59]

الكلمة السادسة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(انما اَمْرُهُ اِذَا ارادَ شيئاً اَن يقولَ لهُ كُنْ فيكون_ فسُبْحان الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ واليهِ تُرجعون) (يس: 82 ـــ 83)

[59] ملاحظة: ذيل هذه »الكلمة الخامسة عشرة« هو »حجة القرآن على الشيطان وحزبه« وهو المبحث الاول من المكتوب السادس والعشرين. فليراجع في موضعه رجاءً.ـــــ المترجم.

كتبت هذه الكلمة لتمنح نفسي العمياء بصيرة، ولتبدد الظلمات من حولها، ولتكـــون مبعثاً لاطمئنانها، وذلك باراءها اربع أشعات من نور هذه الآية الكريمة.

« الشعاع الاول:

يا نفسي الجاهلة تقولين: أن أحدية ذات الله سبحانه وتعالى، مع كلية أفعاله.. ووحدة ذاته مع عمومية ربوبيته دون معين.. وفرديته مع شمول تصرفاته دون شريك.. وحضـــوره في كل مكان مع تنّزهه عن المكان.. ورفعته المطلقة مع قربه الى كل شئ.. ووحدانيته مع ان كل شئ في قبضته بالذات.. جميعها من الحقائق القرآنية.. وتقولين: ان القرآن حكيم، والحكيم لا يحمّل العقل ما لايقبله. بيد أن العقل يرى منافاة ظاهرة في هذه الامور. لذا اطلب ايضـــاحاً يسوق العقل الى التسليم.

الجواب: مادام الأمر هكذا، وتطلبين ذلك لبلوغ الاطمئنان، فاننا نقول مســـتندين الى فيض القرآن الكريم:

ان اسم »النور« وهو من الاسماء الحسنى قد حلّ كثيراً من مشكلاتنا، ويحلّ بـــاذن الله هذه المسألة ايضاً.

نقول كما قال الامام الرباني احمد الفاروقي السرهندي، منتقين طريق التمثيل الواضـــح للعقل والمنور للقلب:

نه شبم نه شب برستم من   غلام شمسم از شمس مى كويم خبر[60]

لما كان التمثيل اسطع مرآة عاكسة لإعجاز القرآن، فنحن ايضاً سننظر الى هذا السر من خلال التمثيل وذلك:

ان شخصاً واحداً يكسب صفة كلية بوساطة مرايا مختلفة، فبينما هو جزئـــي حقيقـــي يصبح بمثابة كلي مالك لشؤون شاملة عامة، فمثلاً:

---

[60] بيت بالفارسية يعني: لست ليلاً ولستُ عابد ليل   أنا خادم شمس الحقيقة ومنها آتيكم بالخبر.
ولعل المقصود: ان الامور واضحة جلية عندي لا لبس فيها قطعاً. ـــــ المترجم.

الشمس، وهي جزئي مشخّص، ولكن بوساطة الاشياء الشفافة تصبح بحكـــم الكلـــي حتى انها تملأ سطح الارض بصورها وانعكاساتها، بل تكون لها من الجلوات بعدد القطـــرات والذرات الساطعة.

وحرارة الشمس وضياؤها، وما فيه من الوان سبعة، يحيط كل منها بالاشياء التي تقابلها ويشملها ويعمّها وفي الوقت نفسه فان كل شئ شفاف يخبئ في بؤبؤ عينه ـــــ مع صـــورة الشمس ـــــ الحرارة والضياء والالوان السبعة ايضاً، جاعلاً من قلبه الطاهر عرشاً لها.

.بمعنى ان الشمس مثلما تحيط بصفة واحديتها بجميع الاشياء التي تقابلها، فهي من حيث أحديتها توجد بنوعٍ من تجلي ذاتها في كل شئ مع (خاصيتها) واوصافها الكثيرة.

وما دمنا قد انتقلنا من التمثيل الى التمثّل، فسنشير الى ثلاثة انواع من التمثيل ليكـــون محور مسألتنا هذه.

اولها: الصور المنعكسة للاشياء المادية الكثيفة، هي غيرٌ وليست عيناً، وهـــي مـــوات وليست مالكةً لأية خاصية غير هويتها الصورية الظاهرية.

فمثلاً: اذا دخلتَ ـــــ يا سعيد ـــــ الى مخزن المرايا، فيكون سعيدٌ واحد ألف سعيد، ولكن الذي يملك الحياة من هذه الالوف، هو أنت فقط لا غير، والبقية أموات ليست لهـــم خواص الحياة.

ثانيها: الصور المنعكسة للنورانيات المادية؛ هذه الصور المنعكسة ليست عيناً، وليســـت غيراً في الوقت نفسه، اذ لا تستوعب ماهية النوراني المادية، ولكنها مالكة لأكثر خواص ذلك النوراني، فتعتبر ذات حياة مثله.

فمثلاً: عندما تنشر الشمس اشعتها على الكرة الارضية تظهر صورتها في كـــل مـــرآة، فكل صورة منعكسة منها تحمل ما يماثل خصائص الشمس، من ضوء والوان ســـبعة. فلـــو افترضت الشمس ذات شعور، واصبحت حرارتها عين قدرتها، وضياؤها عين علمها، والوانها السبعة صفاتها السبع، لكانت توجد تلك الشمس الوحيدة الفريدة في كل مرآة، في اللحظـــة نفسها، ولاتخذت من كل منها عرشاً لها يخصها، ومن كل منها نوعاً من هاتف، فلا يمنع شئ

شيئاً. ولأمكنها ان تقابل كلاً منا بالمرآة التي في ايدينا، ومع اننا بعيدون عنها، فانها اقرب الينا من انفسنا.

ثالثها: الصور المنعكسة للارواح النورانية؛ هذه الصور حية، وهي عينٌ في الوقت نفسه، ولكن لأن ظهورها يكون وفق قابليات المرايا، فالمرآة لا تسع ماهية الروح بالذات. فمثلاً: في الوقت الذي كان سيدنا جبريل عليه السلام يحضر في مجلس النبوة على صورة الصحابي دحية الكلبي، كان يسجد في الحضور الإلهي باجنحته المهيبة امام العرش الاعظم، وهو في اللحظة نفسها موجود في اماكن لا تعدّ ولا تحصى، اذ كان يبلّغ الاوامر الآلهية. فما كان فعلٌ يمنع فعلاً.

ومن هذا السر نفهم كيف يسمع الرسول(ص)، صلوات امته كلها، في الانحاء كافة، في الوقت نفسه، اذ ماهيته نور وهويته نورانية.. ونفهم كذلك كيف انه(ص) يقابل الاصفياء يوم القيامة في وقت واحد، فلا يمنع الواحدُ الآخر.. بل حتى الاولياء الذين اكتسبوا مزيداً من النورانية والذين يطلق عليهم اسم »الابدال« هذا القسم يقال انهم يشاهَدون في اللحظة نفسها، في اماكن متعددة. ويروى عنهم أن الشخص نفسه ينجز اعمالاً متباينة كثيرة جداً. اذ كما يصبح الزجاج والماء وامثالهما من المواد مرايا للاجسام المادية، كذلك يصبح الهواء والاثير وموجودات من عالم المثال، بمثابة مرايا للروحانيات ووسائط سير وتجوال لها في سرعة البرق والخيال. فتتجول تلك الروحانيات وتسيح في تلك المنازل اللطيفة والمرايا النظيفة بسرعة الخيال، فتدخل في الوف الاماكن في آن واحد.

فمخلوقات عاجزة ومسخّرة كالشمس، ومصنوعات شبه نورانية مقيدة بالمادة كالروحاني ان كان يمكن ان يوجد في موضع واحد وفي عدة مواضع في الوقت نفسه، بسر النورانية، اذ بينما هو جزئي مقيد يكسب حكماً كلياً مطلقاً، يفعل باختيار جزئي اعمالاً كثيرة في آن واحد.. فكيف اذن بمن هو مجرد عن المادة ومقدس عنها، ومن هو منزّه عن التحديد بالقيد وظلمة الكثافة ومبرأ عنها.. بل ما هذه الانوار والنورانيات كلها الاّ ظلال كثيفة لأنوار اسمائه الحسنى، بل ما جميع الوجود والحياة كلها، وعالم الارواح وعالم المثال الاّ مرايا شبه شفافة لإظهار جمال ذلك القدوس الجليل الذي صفاته محيطة بكل شئ وشؤونه

شاملة كل شئ.. تُرى اي شئ يستطيع ان يتستر عن توجه احديته التي هي ضمن تجلي صفاته المحيطة وتجلي افعاله بارادته الكلية وقدرته المطلقة وعلمه المحيط.. واي شئ يصعب عليه واي شئ يستطيع أن يتخفى عنه.. واي فرد يمكنه ان يظل بعيداً عنه.. واية شخصية يمكنها ان تقترب منه دون ان تكتسب الكلية؟

نعم! ان الشمس بوساطة نورها الطليق غير المقيد، وبوساطة صورها المنعكسة غير المادية، اقرب اليك من بؤبؤ عينك، ومع هذا فانت بعيد عنها بعداً مطلقاً، لأنك مقيد، فيلزم التجرد من كثير من القيود، وقطع كثير من المراتب الكلية وتجاوزها كي تتقرب اليها، وهذا يستلزم ان تكبر كبر الكرة الارضية وتعلو علو القمر، ومن بعد ذلك يمكن ان تتقرب من المرتبة الاصلية للشمس ـــ الى حدٍ ما ـــ وتتقابل معها دون حجاب.

فكما ان الامر هكذا في الشمس، كذلك في الجليل ذي الجمال، والجميل ذي الكمال (ولله المثل الاعلى) فهو أقرب اليك من كل شئ، وانت بعيد عنه سبحانه بعداً لا حد له. فان كانت لك قوة في القلب، وعلوٌ في العقل، فحاول ان تطبق النقاط الواردة في التمثيل على الحقيقة.

« الشعاع الثاني:

قوله تعالى: (إنما امُره اذا اراد شيئاً أن يقول له كُن فيكون) (يس:82) وقوله تعالى: (ان كانت الاّ صيحة واحدة فاذا هم جميعٌ لدينا محضرون) (يس:53)

يا نفسي الغافلة! تقولين ان هذه الآيات الكريمة وامثالها تفيد ان الاشياء خلقت بمجرد أمر إلهي، وظهرت للوجود دفعة واحدة، بينما الآيات الكريمة الآتية: (صُنعَ الله الذي أتقنَ كلَّ شيء) (النمل:88) (واحسنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه) (السجدة:7) وامثالها من الآيات تبين ان الاشياء وجدت تدريجياً، بقدرة عظيمة، وعلم محيط، واتقان في الصُنع ضمن حكمة بالغة. فاين وجه التوفيق بينهما؟

الجواب: نقول مستندين الى فيض القرآن:

اولاً: لا منافاة بين الآيات. اذ قسم من الموجودات يخلق كما في الآيات الاولى، كالايجاد في البدء، وقسم آخر يكون كما في الآيات التالية كإعادة المثل.

ثانياً: ان ما يشاهد في الموجودات من منتهى النظام وغاية الاتقان ومنتهى الحســـن في الصنعة وكمال الخلقة، ضمن سهولة وسرعة وكثرة وسعة، يشهد بوجود حقـــائق هـــذين القسمين من الآيات شهادة مطلقة. لذا لا داعي لأن يكون مدار البحث تحقق هذه الامور في الخارج. وانما يصح ان يقال: ما سر حكمة هذين القسمين من الايجاد والخلق؟

لذا نشير الى هذه الحكمة بقياس تمثيلي؛ فنقول مثلاً:

ان صانعاً ماهراً ــــ كالخياط مثلاً ــ يصرف مبالغ ويبذل جهداً ويزاول مهارة وفناً، لكي يوجد شيئاً جميلاً يخص صنعته، فيعمل منه انموذجاً (موديلاً) لمصـــنوعاته، اذ يمكنـــه ان يعمل امثال تلك الصنعة بلا مصاريف ولا تكاليف وفي سرعة تامة، بل قد يكون الامر احياناً سهلاً ويسيراً الى درجة وكأنه يأمر والعمل يُنجَز، وذلك لأنه قد كسب انتظاماً واطراداً دقيقاً كالساعة وكأن العمل يتم بمجرد الأمر له.

)ولله المثل الاعلى) فان الصانع الحكيم والمصور العليم، قد ابدع قصر العالم مع جميع ما فيه، ثم اودع في كل شئ فيه، جزئياً كان أم كلياً، جزءاً كان أم كلاً، مقداراً معيناً، بنظـــام قدري شبيه بنموذج ذلك الشئ.

فان تأملت في اعماله سبحانه، وهو المصور الازلي، تراه يجعل من كل عصر انموذجـــاً (موديلا) يُلبسه عالماً بكراً جديداً لطيفاً مزيناً بمعجزات قدرته، ويجعل من كل سنة مقياســـاً ينسج ــــ بخوارق رحمته ــــ كائنات بكر على قدّه، ويجعل من كل يوم سطراً يكتب فيه موجودات بكر جديدة مزينة بدقائق حكمته. ثم ان ذلك القدير المطلق كما جعل كل عصر وكل سنة وكل يوم انموذجاً، فانه قد جعل سطح الارض ايضاً، بل كل جبل وصحراء، وكل حديقة وبستان وكل شجر وزهر أنموذجاً وينشئ كائنات جديدة غضة متجددة مترادفة على الارض، فيخلق دنيا جديدة، ويأتي بعالم منسق جديد بعد أن سحب ما سبق من عالم.

وهكذا يُظهر في كل موسم معجزات بكر لقدرته المطلقة ويبرز هدايا مجددة لرحمته في كل حديقة وبستان، فيكتب كتاب حكمة جديدة بكر، وينصب مطبخ رحمته متجدداً ويُلبس الوجود حلّة بديعة جديدة، ويخلع على كل شجر في كل ربيع وشـــاح الســـندس ويزيّنـــه بمرصعات جديدة بكر كالنجوم المتلألئة، ويملأ ايديها بهدايا الرحمة..

فالذي يقوم بهذه الاعمال في منتهى الاتقان وكمال الانتظام والذي يبدّل هذه العـوالم السيارة المنشورة على حبل الزمان، يعقب بعضها بعضاً، وهي في منتهى الحكمة والعناية وفي منتهى القدرة والاتقان، لاريب انه قدير مطلق وحكيم مطلق وبصير مطلق وعليم مطلـق، لا يمكن بحال من الاحوال أن تبدو منه المصادفة قطعاً، فذلكم الخالق الجليل يقول: (إنما أمره اذا أراد شيئاً ان يقولَ له كُن فيكون) (يس:82) (وما امرُ الساعةِ الاّ كلمـحِ البصـر أو هـو أقرب)(النحل:77) فيعلن قدرته المطلقة ويبين ان الحشر والقيامة بالنسبة لتلك القدرة هي في منتهى السهولة واليسر، وان الاشياء كلها مسخّرة لأوامره ومنقادة اليها كمال الانقياد، وانه يخلق الاشياء دون معالجة ولا مزاولة ولا مباشرة، ولأجل الإفادة عن السهولة المطلقة في ايجاد الاشياء عبّر القرآن المبين انه سبحانه وتعالى يفعل ما يريد بمجرد الأمر.

والخلاصة: ان قسماً من الآيات الكريمة يعلن منتهى الاتقان وغاية الحكمـة في خلـق الاشياء ولا سيما في بداية الخلق. وقسماً آخر يبين السهولة المطلقة والسرعة المطلقة ومنتـهى الانقياد وعدم الكلفة في ايجاد الاشياء ولا سيما في تكرار ايجادها واعادتها.

« الشعاع الثالث:

يا نفسي الموسوسة! يا من تجاوزت حدكِ ! انك تقولين: ان قوله تعالى (ما مِن دابةٍ الاّ هو آخذٌ بناصيتها) وكذا قوله تعالى (بيده ملكوتُ كلّ شيء)(يس:83) وكذا قوله تعـالى (ونحنُ اقربُ اليه من حبل الوريد).. هذه الآيات الجليلة تبين منتهى القرب الإلهي بينما آيات اخرى مثل قوله تعالى: (واليه ترجعون) (تعرُج الملائكةُ والروحُ اليه في يوم كـان مقـدارُه خمسين الف سنة)(المعارج:4) وكذا قول الرسول الكريم(ص) في الحديث الشريف (...سبعين الف حجاب) وكذا حقيقة المعراج.. كل هذه تبين منتهى بعدنا عنه سبحانه.

فأريد ايضاحاً لتقريب هذا السر الغامض الى الاذهان!

الجواب: ولهذا استمع!

اولاً: لقد ذكرنا في ختام الشعاع الأول؛ ان الشمس بنورها غير المقيد، ومـن حيـث صورها المنعكسة غير المادية، اقرب اليك من بؤبؤ عينك ـــ التي هي مرآة لنافذة روحـك ـــ الاّ انك بعيد عنها غاية البعد، لانك مقيد ومحبوس في المادة. ولا يمكنـك ان تمـس الاّ

قسماً من صورها المنعكسة وظلالها ولا تقابل الاّ نوعاً من جلواتها الجزئيـــة، ولا تتقـــرب الاّ لألوانها التي هي في حكم صفاتها، ولطائفة من اشعتها التي هي بمثابة طائفة من اسمائها.

ولو اردت ان تتقرب الى المرتبة الاصلية للشمس، واردت ان تقابلها بذاتها، لزم عليك التجرد عن كثير جداً من القيود والمضي من مراتب كلية كثيرة جداً، وكأنك تكبر معنىً ــــ من حيث التجرد ــــ بقدر الكرة الارضية وتنبسط روحاً كالهواء، وترتفع عالياً كـــالقمر، وتقابل الشمس كالبدر. ومن بعد ذلك يمكنك ان تدّعي نوعاً من القرب دون حجاب.

)ولله المثل الاعلى) فالجليل ذو الكمال والجلال، ذلك الواجب الوجود، الموجد لكـــل موجود، النور السرمد، سلطان الازل والابد، اقرب اليك من نفسك، وانت بعيد عنه بعـــداً مطلقاً.

فان كانت لديك قوة الاستنباط، فطبّق ما في التمثيل من الدقائق على الحقائق.

ثانياً: ان اسم القائد ــــ مثلا ــــ من بين اسماء السلطان الكثيرة ــــ يظهر في دوائر متداخلة في دولته، فابتداءً من الدائرة الكلية للقائد العام العسكري ودائرة المشير والفريق حتى يبلغ دائرة الملازم والعريف. اي أن تجلي ظهوره يكون في دوائر واسعة ودوائر ضيقة وبشكل كلي وجزئي.

فالجندي، أثناء خدمته العسكرية، يتخذ من مقام العريف مرجعاً له، لما فيه من ظهـــور جزئي جداً للقيادة. ويتصل بقائده الاعلى بهذا التجلي الجزئي لإسمه، ويرتبط به بعلاقة، ولكن لو اراد هذا الجندي ان يتصل بالقائد الاعلى باسمه الأصلي، وان يقابله بذلك العنوان ينبغي له الصعود وقطع المراتب كلها من مرتبة العريف الى المرتبة الكلية للقائد العام.

اي ان السلطان قريب من ذلك الجندي باسمه وحكمه وقانونه وعلمه وهاتفه وتدبيره، وان كان ذلك السلطان نورانياً ومن الاولياء الأبدال، فانه يكون قريباً اليه بحضوره بالذات، اذ لا يمنع شيء من ذلك ولا يحول دونه شئ. ومع أن ذلك الجندي بعيد عن السلطان، غايـــة البعد وهناك الالوف من المراتب التي تحول بينه وبين السلطان وهناك الالوف مـــن الحجـــب تفصله عنه، ولكن السلطان يشفق احياناً على أحد الجنود فيأخذه الى حضور ديوانه ــــــ خلاف المعتاد ــــ ويسبغ عليه من افضاله وألطافه.

(ولله المثل الاعلى) فالمالك لأمر (كن فيكون) المسخّر للشموس والنجــوم كــالجنود المنقادة، فهو سبحانه وتعالى اقرب الى كل شئ من اي شئ كان، مع ان كل شئ بعيد عنــه بعداً لا حدود له.

واذا اريد الدخول الى ديوان قربه وحضوره المقدس بلا حجاب، فانه يستلزم المرور من بين سبعين الف حجاب من الحجب النورانية والمظلمة، اي الماديــة والكونيــة والاسمائيــة والصفاتية، ثم الصعود الى كل اسم من الاسماء الذي له الــوف مــن درجــات التجليــات الخصوصية والكلية والمرور الى طبقات صفاته الجليلة والرفيعة ثم العروج الى عرشه الاعظــم الذي حظي بالاسم الاعظم. فان لم يكن هناك جذب ولطف إلهي يلزم الوفاً من سنيّ العمل والسلوك.

مثال: اذا أردت أن تتقرب اليه سبحانه باسم »الخالق« فعليك الارتباط وتكوين علاقة اولاً من حيث انه خالقك الخاص، ثم من حيث انه خالق جميع الناس، ثم بعنوان انــه خــالق جميع الكائنات الحية، ثم باسم خالق الموجودات كلها. لذا فان لم تتدرج هكذا تبقى في الظل ولاتجد الاّ جلوة جزئية.

تنبيه: ان السلطان المذكور في المثال السابق قد وضع في مراتب اسم القيــادة وســائط كالمشير والفريق، وذلك لعجزه عن القيام بالاعمال بنفسه. أما الذي بيده ملكوت كل شيء، وذلك القدير، فهو مستغن عن الوسائط، بل ليست الوسائط الاّ اموراً ظاهرية بحتة. تمثل ستار العزة والعظمة ودلائل تشير الى سلطان الربوبية من خلال عبودية وعجز وافتقار وانبهار امام العظمة الإلهية، وليست تلك الوسائط مُعينة له سبحانه ولا يمكنها ان تكون شريكة في سلطنة الربوبية قطعاً لأنها ليست الاّ وسائل للمشاهدة والتفرج.

« الشعاع الرابع:

يا نفسي الكسولة!.

ان حقيقة الصلاة التي هي كمعراج المؤمن شبيهة بقبول دخول جندي بسيط الى ديوان السلطان الاعظم بمحض لطفه ـــــ كما ذكر في المثال السابق ـــــ فقبولك ايضاً الى المثول امام جلاله سبحانه انما هو بمحض لطف الجليل ذي الجمال والمعبود ذي الجلال. فانت عندما

تقول: الله اكبر. تمضي معنىً وتقطع خيالاً أو نيّةً الدنيا والآخرة، حتى تتجرد عن القيود المادية فتصعد مكتسباً مرتبة عبودية كلية او ظلاً من ظلال المرتبة الكلية أو بصورة مـــن صـــورها وتتشرف بنوع من الحضور القلبي والمثول بين يديه تعالى فتنال حظوة عظمى بخطاب (ايـــاك نعبد) كل حسب درجته.

حقاً ان كلمة »الله اكبر.. الله اكبر« وتكرارها في حركات الصلاة وافعالها هي اشـــارة لقطع المراتب والعروج الى مراتب الرقي المعنوي، والصعود من الدوائر الجزئيـــة الى الـــدوائر الكلية، فهي عنوان لمجمل كمالات كبرياء الله سبحانه، والتي هي خارج نطاق معرفتنا، وكأن كل كلمة من »الله اكبر« اشارة الى قطع مرتبة من مراتب المعراج.

وهكذا فان البلوغ الى ظلٍ أو شعاعٍ من حقيقة الصلاة هذه، معنىً أو نيةً أو تصوراً أو خيالاً لهو نعمة عظمى وسعادة كبرى.

ولأجل هذا يُردد ذكر »الله اكبر« في الحج بكثرة هائلة. لأن الحج؛ عبادة في مرتبة كلية لكل حاج بالاصالة.

فالجندي البسيط يذهب الى الحضور الملكي في يوم خاص ـــــ كالعيد ـــــــ مثلمـــا يذهب الفريق فينال لطف مليكه وكرمه. كذلك الحاج ـــــ مهما كان من العوام ـــــ فهو متوجه الى ربه الجليل بعـــنـــوان رب العـــالمـــين، كالـــولي الـــذي قطـــع المـــــراتب، فهـــو مشرّف بعبودية كلية، فلابد أن المراتب الكلية للربوبية التي تفـــتـــــح بمفـــتــــــاح الحـــج، وآفاق عظمة الالوهية التي تشاهد بمنظار الحج، ودوائر العبودية الـــتي تتوســـــع في قلـــب الحاج وخياله، كلما قام وادّى مناسك الحج، ومراتب الكبريـــاء والعظمـــة واُفـــق التجليات التي تمنـــح حـــــرارة الشـــــــوق، والاعجاب والانبـــــهـــــار، امـــــــام عظمة الالوهية وهيبة الربوبية، لا يسكّن الاّ بـــــ »الله اكبر.. الله اكبر«! وبه يمكن ان يعلن عن المراتب المنكشفة المشهودة أو المتصورة.

وهذه المعاني انما تتجلى بعد الحج في صلاة العيد، بدرجات علوية وكليـــة ومتفاوتـــة، وكذا في صلاة الاستسقاء وصلاة الكسوف والخسوف وصلاة الجماعة.

ومن هذا تظهر اهمية الشعائر الاسلامية حتى لو كانت من قبيل السنن النبوية.

سبحان من جعل خزائنه بين الكاف والنون.

(فَسبحانَ الذي بيده مَلكوتُ كُلِّ شيءٍ والَيْهِ تُرْجَعُون)

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

(ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا)

(ربنا لا تُزِغ قلوبَنا بعدَ إذ هَدَيتَنا وهبْ لنا مِن لدُنك رحمةً إنكَ انتَ الوهّاب)

وصلّ وسلم على رسولك الأكرم، مظهر اسمك الاعظم، وعلى آله واصحابه واخوانه واتباعه آمين يا ارحم الراحمين.

ذيل صغير

ان القدير العليم والصانع الحكيم، يُظهر قدرته وحكمته، وعدم تدخل المصادفة في اي فعل من افعاله قطعاً، بالنظام والتناسق الذي تظهره عاداتُه التي هي على صورة القوانين الكونية.. وكذا يُظهر سبحانه بشواذ القوانين الكونية، وبخوارق عاداته، وبالتغيرات الظاهرية، وباختلاف التشخصات، وبتبدل زمان النزول والظهور.. يُظهر مشيئته وارادته، وانه الفاعل

المختار، وان اختياره لا يرضخ لأي قيد كان، ممزقاً بهذا ستار الرتابة والاطراد، فيُعلم: ان كل شيء، في كل آن، في كل شأن من شؤونه، في كل ما يخصه ويعود اليه، محتاج اليه سبحانه، منقاد لربوبيته.. وبهذا يشتت الغفلة، ويصرف الانظار، انظار الجن والانس عن الاسباب الى مسبب الاسباب.

وعلى هذا الاساس تتوجه بيانات القرآن الكريم.

فمثلاً: يحدث في اغلب الاماكن، أن قسماً من الاشجار المثمرة، تثمر سنة، اي تُعطى اليها من خزينة الرحمة، وهي بدورها تسلّمها الينا. ولكن السنة الاخرى تستلم الثمرة الاّ انها لا تعطيها، رغم وجود الاسباب الظاهرية للاثمار.

ومثلاً: ان اوقات نزول المطر ــــ بخلاف الامور اللازمة الاخرى ــــ متحولة ومتغيرة الى درجة دخلت ضمن المغيّبات الخمسة إذ إن أهم موقع في الوجود هو للحياة والرحمة، والمطر منشأ الحياة والرحمة الخالصة، لذا فان ذلك الماء الباعث على الحياة، والرحمة المهداة، لا يدخل ضمن القاعدة المطردة التي تحجب عن الله وتورث الغفلة، بل تكون في قبضة ذي الجلال مباشرة من دون حجاب وضمن تصرف المنعم المحيي الرحمن الرحيم. وذلك لكي تبقى ابواب الدعاء والشكر مفتوحة دائماً.

ومثلاً: ان اعطاء الرزق، وتشخيص سيماء الانسان وملامحه وصورته، انما هو احسان إلهي يوهبه له من حيث لا يحتسب، مما يبين بجلاء طلاقة المشيئة الإلهية والاختيار الرباني.

وقس على هذا تصريف الرياح وتسخير السحاب وامثالها من الشؤون الإلهية.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(انّا جَعَلْنا ما عَلى الارض زِينَةً لها لِنَبْلُوَهم أيُّهم أحْسنُ عَمَلاً_ وإنَّا لَجاعلونَ ما عَلَيْها صَعيداً جُرُزاً) (الكهف:7ـــ8)

(وما الحياةُ الدنيا الاّ لعبٌ ولَهْوٌ) (الانعام:32)

[هذه الكلمة عبارة عن مقامين عاليين وذيل ساطع].

ان الخالق الرحيم والرزاق الكريم والصانع الحكيم قد جعل هذه الدنيا على صورة عيد بهيج واحتفال مهيب ومهرجان عظيم لعالم الارواح والروحانيات، وزيّنها بالآثـــار البديعـــة لاسمائه الحسنى، وخلع على كل روح صغيراً كان أم كبيراً، عالياً كان ام سافلاً، جسداً على قدّه وقدره، وجهّزه بالحواس والمشاعر وكل ما يوافقه للاستفادة من الالاء المختلفة والـــنعم المتنوعة التي لا تعد ولا تحصى، والمبثوثة في ذلك العيد البهيج، والمعروضة في ذلك المهرجـــان العظيم. ومنح سبحانه لكل روح من تلك الارواح وجوداً جسمانياً (مادياً) وارسلها الى ذلك العيد والمهرجان مرة واحدة، ثم قسّم ذلك العيد الواسع جداً زمانـــاً ومكانـــاً الى عصـــور وسنوات ومواسم، بل حتى الى ايام واجزاء ايام، جاعلاً من كل عصر، من كل سنة، من كل موسم، من كل يوم، من كل جزء من يوم، مهرجاناً سامياً وعيداً رفيعاً واستعراضـــاً عامـــاً لطائفة من مخلوقاته ذوات ارواح ومن مصنوعاته النباتية، ولا سيما سطح الارض، ولا سيما في الربيع والصيف، جاعلاً اعياداً متعاقبة، الواحد تلو الآخر، لطوائف مصـــنوعاته الصـــغيرة جداً، حتى غدا ذلك العيد عيداً رائعاً جذاباً لفت انظار الروحانيات الموجودة في الطبقـــات العليا والملائكة واهل السموات الى مشاهدته، وجلب انظار اهل الفكر الى مطالعته بمتعـــة الى حد يعجز العقل عن استكناه متعتها.. ولكن هذه الضيافة الإلهية والعيد الرباني، وما فيهما من تجليات اسم »الرحمن والمحيي« يكتنفها الفراق والموت، حيث يبرز اسم الله »القهار والمميت« وربما هذا لا يوافق - كما يبدو - شمول رحمته تعالى المذكور في قوله (ورحمتي وسعت كـــل شيء) (الاعراف:156).

ولكن في الحقيقة هناك جهات عدة يظهر فيها الانسجام والموافقة الكاملة مع الرحمـــة الإلهية، نذكر منها جهة واحدة فقط وهي:

انه بعد انتهاء الاستعراض الرباني لكل طائفة من الطوائف، وبعد استحصــــال النتــــائج المقصودة من ذلك العرض، يتفضل الفاطر الرحيم والصانع الكريم على كـــل طائفـــة مـــن الطوائف فيمنحهم رغبة في الراحة واشتياقاً اليها وميلاً الى الانتقال الى عالمٍ آخر، ويُســـئمهم من الدنيا باشكال من النفور والسأم رحمةً بهم.

وحينما يُرخّصون من تكاليف الحياة ويُسرّحون من وظائفها، ينبّه سبحانه في أرواحهم رغبة قوية وحنيناً الى موطنهم الأصلي. وكما يمنح سبحانه مرتبة الشهادة لجندي بسيط يُقتل في سبيل اداء الخدمة ويهلك في مهمة الجهاد، وكما يمنح الشاة الأضحية وجـــوداً ماديـــاً في الآخرة ويكافؤها بجعلها مطية كالبراق لصاحبها مارة به على الصراط المستقيم، فليس بعيـــداً من ذلك الرحمن الكريم ان يمنح لذوي الارواح والحيوانات ثواباً روحانياً يلائمهـــم وأجـــراً معنوياً يوافق استعدادهم، من خزينة رحمته الواسعة، بعد ما قاسوا المشقات وهلكوا أثناء اداء وظائفهم الفطرية الربانية الخاصة بهم، وعانوا ما عانوا في طاعتهم للاوامر السبحانية. وذلـــك لئلا يتألموا ألماً شديداً لدى تركهم الدنيا، بل يكونون راضين مرضيين.. ولا يعلم الغيـــب الاّ الله.

بيد أن الانسان الذي هو أشرف ذوي الارواح واكثرهم استفادة من هذا العيد – مـــن حيث الكمية والنوعية – يوهب له برحمة من الله ولطف منه حالةً من الشوق الروحي تنفّـــره عن الدنيا التي ابتلي بها، كي يعبر الى الآخرة بأمان. فالانسان الذي لم تغـــرق انســـانيته في الضلالة يستفيد من تلك الحالة الروحية فيرحل عن الدنيا وقلبه مطمئن بالايمان.

نبين هنا خمسةً من الوجوه التي تورث تلك الحالة الروحية على سبيل المثال:

الوجه الأول: انه سبحانه وتعالى يُظـــهر للانســـــان – بحلـــول الشيـــــخوخة – ختم الفناء والزوال على الاشياء الدنيوية الفتانة، ويفهّمه معانيها المريرة، مما يجعله ينفر مـــن الدنيا ويسرع للتحري عن مطلوب باق خالد بدلاً من هذا الفاني الزائل.

الوجه الثاني: انه تعالى يُشعر الانسان شوقاً ورغبة في الذهاب الى حيث رحل تسعٌ وتسعون بالمائة من أحبته الذين يرتبط معهم والذين استقروا في عالم آخر، فتدفع تلك المحبة الجادة الانسان ليستقبل الموت والأجل بسرور وفرح.

الوجه الثالث: انه تعالى يدفع الانسان ليستشعر ضعفه وعجزه غير المتناهيين، سواءً بمدى ثقل الحياة أو تكاليف العيش أو أمور اخرى، فيولد لديه رغبة جادة في الخلود الى الراحة وشوقاً خالصاً للمضي الى ديار اخرى.

الوجه الرابع: انه تعالى يبيّن للانسان المؤمن – بنور الايمان – ان الموت ليس اعداماً بل تبديل مكان، وان القبر ليس فوهة بئر عميق بل باب لعوالم نورانية، وان الدنيا مع جميع مباهجها في حكم سجن ضيق بالنسبة لسعة الآخرة وجمالها. فلا شك ان الخروج من سجن الدنيا والنجاة من ضيقها الى بستان الجنان الاخروية، والانتقال من منغصات الحياة المادية المزعجة الى عالم الراحة والطمأنينة وطيران الارواح، والانسلاخ من ضجيج المخلوقات وصخبها الى الحضرة الربانية الهادئة المطمئنة الراضية، سياحة بل سعادة مطلوبة بألف فداء وفداء.

الوجه الخامس: انه تعالى يفهّم المنصت للقرآن الكريم ما فيه من علم الحقيقة، ويعلّمه بنور الحقيقة ماهية الدنيا، حتى يغدو عشقها والركون اليها تافهاً لا معنى له.. اي يقول له ويثبت:

ان الدنيا كتاب رباني صمداني مفتوح للانظار، حروفه وكلماته لا تمثل نفسها، بل تدل على ذات بارئها وعلى صفاته الجليلة واسمائه الحسنى، ولهذا، افهم معانيها وخذ بها، ودَع عنك نقوشها وامض الى شانك..

واعلم انها مزرعة للآخرة، فازرع واجنِ ثمراتها واحتفظ بها، واهمل قذاراتها الفانية..

واعلم انها مجاميع مرايا متعاقبة، فتعرّف الى مَن يتجلى فيها، وعاين انواره، وادرك معاني اسمائه المتجلية فيها واحبب مسمّاها، واقطع علاقتك عن تلك القطع الزجاجية القابلة للكسر والزوال.. واعلم انها موضع تجارة سيار، فقم بالبيع والشراء المطلوب منك، دون ان تلهث وراء القوافل التي اهملتك وجاوزتك، فتتعب..

واعلم انها متنزّه مؤقت فاسرح ببصرك فيها للعبرة، ودقق في الوجه الجميـــل المتســـتر، المتوجه الى الجميل الباقي، واعرض عن الوجه القبيح الدميم المتوجه الى هوى الـــنفس، ولا تبك كالطفل الغرير عند انسدال الستائر التي تريك تلك المناظر الجميلة..

واعلم انها دار ضيافة، وانت فيها ضيف مكرم، فكل واشرب باذن صاحب الضـــيافة والكرم، وقدّم له الشكر، ولا تتحرك الاّ وفق اوامره وحدوده، وارحل عنها دون ان تلتفـــت الى ورائك.. واياك أن تتدخل بفضول بامور لا تعود اليك ولا تفيدك بشئ، فلا تغرق نفسك بشؤونها العابرة التي تفارقك.

وهكذا بمثل هذه الحقائق الظاهرة يخفف سبحانه وتعالى عن الانسان كـــثيراً مـــن آلام فراق الدنيا، بل قد يحببه الى النابهين اليقظين، بما يظهر سبحانه عليه من اسرارحقيقة الـــدنيا، وانه اثرٍ من آثار رحمته الواسعة في كل شئ، وفي كل شأن. واذ يشير القرآن الكريم الى هذه الوجوه الخمسة، فان آيات كريمة تشير الى وجوه خاصة اخرى كذلك.

فيا لتعاسة من ليس له حظ من هذه الوجوه الخمسة.

المقام الثاني

من الكلمة السابعة عشرة [61]

»انما الشكوى بلاء«

دع الصُراخ يا مسكين، وتوكل على الله في بلواك.

انما الشكوى بلاء.

بل بلاء في بلاء، واثام في اثام وعناء.

اذا وجدتَ مَن ابتلاك،

عاد البلاء عطاء في عطاء، وصفاء في صفاء.

دع الشكوى، واغنم الشكر. فالازهار تبتسم من بهجة عاشقها البلبل.

III

فبغير الله دنياك آلام وعذاب، وفناء وزوال، وهباء في هباء.

فتعال، توكل عليه في بلواك!

ما لكَ تصرخ من بلية صغيرة، وانت مثقلٌ ببلايا تسع الدنيا.

III

تبسّم بالتوكل في وجه البلاء، ليبتسم البلاء.

فكلما تبسّم صغُر وتضاءل حتى يزول.

ايها المغرور اعلم!

ان السعادة في هذه الدنيا، في تركها.

ان كنت بالله مؤمناً..فهو حسبك، فلو ادبرتَ عن الدنيا أقبلتْ عليك.

III

وان كنت معجباً بنفسك، فذلك الهلاك المبين.

---

[61] هذه القطع الواردة في المقام الثاني جاءت بما يشبه الشعر إلاّ انها ليست شعراً، و لم يُقصد نظمها، بل ان كمال انتظام الحقائق جعلها تتخذ شكلاً شبيهاً بالنظم. ـــــ المؤلف.

اما في الترجمة، فقد اقتصرنا على المعنى وحده.ـــــ المترجم.

ومهما عملت فالاشياء تعاديك.

فلابد من الترك اذن في كلتا الحالتين.

III

وتركها يعني: انها مُلك الله، يُنظر اليها بإذنه وبإسمه،

وان كنت تبغي تجارة رابحة، فهي

في استبدال عمر باقٍ لا يزول بعمرك الفاني الزائل.

III

وان كنت تريد رغبات نفسك، فهي زائلة، تافهة، واهية.

وان كنت تتطلع الى الآفاق، فختم الفناء عليها.

III

فالمتاع في هذا السوق مزيف. لا يستحق الشراء اذن.

لذا دعه، فالاصيل منه قد اعدّ خلفه..

»غرباء الحيرة«

[على قمة شجرة التوت الاسود المباركة، ذكر سعيد القديم بلسان سعيد الجديد هـــذه الحقائق].

مخاطبي ليس »ضياء باشا[62] بل المفتونون باوروبا.

والمتكلم ليس نفسي، بل قلبي تلميذ القرآن.

III

ان »الكلمات« السابقة حقائق. اياك ان تحار، احذر ان تجاوز حدّها

لا تُزغ، ولا تصغِ الى فكر الاجانب، انه ضلال، يسوقك الى الندم.

III

ألا ترى الأوسعَ فكراً والأحدَّ نظراً يقول دوماً في حيرته:

آه! وا أسفى! ممن اشكو، ولمن! فقد ذهلت!

III

وأنا أقول ولا اتردد فالقرآن ينطقني:

اشكو منه اليه، ولا اتحير مثلك!

III

استغيث من الحق بالحق، لا أتجاوز حدّي.

ادعو من الارض الى السماء، ولا اهرب مثلك!

في القرآن الكريم: الدعوة كلها؛ من النور والى النور، لا انكث مثلك.

في القران الكريم: الحكمة الصائبة. اثبتها، ولا اعير للفلسفة المخالفة اي اهتمام!

في القرآن الكريم: جواهر الحقائق.

افديها بروحي.. لا ابيعها مثلك!

---

[62] شاعر تركي (1825 ــــ 1880) كان من دعاة التجديد، دخل جمعية العثمانيين الجدد، هاجر الى باريس. له ديوان »ظفرنامه« و »خرابات« في ثلاث مجلدات، جمع فيها من عيون شعر الديوان. كان يتمتع بذكاء خارق ولكنه حار أمام الحكمة الإلهية الجارية في الكون، وكان يعاني من حيرته هذه معاناة اي معاناة. »يني لغات«. ــــ المترجم.

III

أجيل طرفي من الخلق الى الحق، لا اضل مثلك!

اطير فوق الطريق الشائك، لا اطؤها مثلك!

يصعد شكري الى عنان السماء، لا اعصي مثلك!

III

ارى الموت صديقاً، لا اخافه مثلك!

ادخل القبر باسماً، لا ارتعد مثلك!

III

فمَ تنّين، فِراشَ الوحشة، عتبةَ العدم.. لا اراه مثلك!

بل موضع تلاقي الاحباب.. لا اضجر منه، لا ابغضه مثلك!

III

لا اتضايق منه، ولا أهابه.

فهو باب الرحمة، باب النور، باب الحق

اقرعه باسم الله، ولا التفت، ولا تأخذني الدهشة.

سأرقُد قرير العين، حامداً ربي، لا اقاسي ضيقاً، ولا اظل في وحشة.

سأقوم على صدى أذان اسرافيل في فجر الحشر، قائلاً.. »الله اكبر«.

لا ارهب من المحشر الاكبر!

لا اتخلف من المسجد الاعظم!

III

من لطف الله ونور القران الكريم وفيض الإيمان.. لا أيأس اصلاً.

بل اسعى واجري طائراً الى ظل عرش الرحمن.

ولا احار مثلك.. ان شاء الله.

III

هذه المناجاة تخطرت في القلب هكذا بالبيان الفارسي

[كتبت هذه المناجاة كما خطر على القلب، باللغة الفارسية، وقد نشرت ضمن رسالة »حباب من عمان القرآن الحكيم«.]

يا رب! به شش جهت نظر مى‌كردم درد خودرا درمان نمى‌ديدم

يا رب! لقد سرحت نظري في الجهات الست، علّني أجد دواءً لدائي، وانا مستند الى اقتداري واختياري غافلاً لا متوكلاً، ولكن وا اسفى لم استطع أن أجد دواءً لدائي.. وقيل لي معنىً: ألا يكفيك الداءُ دواءً.

در راست مي ديدم كه: دى روز مزار بدر من است

نعم! لقد نظرت ـــ بغفلة ـــ الى الزمان الماضي في يميني، لأجد فيه السلوان، ولكـــني رأيت ان الأمس قبرُ أبي، وتراءت لي الأيام الخوالي مقبرة كبيرة لأجدادي. فأورثتني هذه الجهة وحشة بدل السلوان(1).

(1) ولكن الايمان يُري تلك المقبرة الكبرى مجلساً منوراً ومجمعاً مؤنساً للأحباب.

ودر جب ديدم كه: فردا قبر من است

ثم نظرت الى المستقبل في اليسار، فلم أستطع أن أجد فيه دواءً. بل تراءى لي الغـــد في صورة قبري، وتراءى لي المستقبل قبراً لأمثالي ومقبرة للجيل المقبل، فـــاورثتني هـــذه الجهـــة الوحشة بدل السلوان(2).

(2) ولكن الايمان وما يورثه من الاطمئنان يُري تلك المقبرة العظمى دعوة رحمانية الى قصور السعادة اللطيفة.

و إمروز: تابوت جسم بر اضطراب من است

وحيث لا جدوى من اليسار، نظرت الى اليوم الحاضر، فرأيت وكأن هذا اليوم تابوت يحمل جنازة جسمي الذي ينتفض انتفاضة المذبوح بين الموت والحياة.(3)

(3) ولكن الايمان يُري ذلك التابوت دار تجارة ودار ضيافة باهرة.

بر سر عمر جنازهء من ايستاده است

فلم أعثر على الدواء في هذه الجهة، ورفعت رأسي ونظرت الى قمة شـــجرة عمـــري، ورأيت أن جنازتي هي الثمرة الوحيدة لتلك الشجرة، وهي ترقبني من هناك(4)

(4) ولكن الايمان يُري ان تلك الثمرة ليست جنازة، بل هي انطلاقٌ لروحي المرشّحة للأبد من وكرها القديم لتسرح في النجوم.

در قدم: آب خاك خلقت من وخاكستر عظام من است

فيئستُ من تلك الجهة أيضاً، ،طأطأت رأسي، فرأيت ان رميم عظامي قد اختلط مع تراب مبدأ خلقتي وهو يُداس تحت الأقدام. فزادت - هذه الجهة - داءً لدائي ولم تسعفني بشئ(5).

(5) اما الايمان فقد أظهر ذلك التراب باباً للرحمة،وستاراً دون صالة الجنة.

جون در بس مىنكرم، بينم: اين دنياى بى بنياد هيج در هيج است

فصرفت نظري عن تلك الجهة مولّياً وجهي الى الوراء، ورأيت: ان دنياً فانية تتدحرج في وديان العبث وظلمات العدم. فنفثتْ هذه الجهة سمّ الوحشة والخوف في دائي بدلاً من ان تمنحني العزاء(6).

(6) اما الايمان فقد أظهر ان تلك الدنيا المتدحرجة في الظلمات ما هي الا مكاتيب صمدانية وصحائف نقوش سبحانية أنهت مهامها، وأفادت معانيها، وتركت نتائجها في الوجود بدلاً عنها.

ودر بيش: اندازهء نظر مىكنم، در قبر كشاده است و راه ابد بدورودراز به ديداراست

ولما لم أجد خيراً ايضاً في هذه الجهة رنوت بنظري الى الأمام، ورأيت ان باب القبر مفتوح في بداية طريقي، وتتراءى وراءه من بعيد طريقٌ ممتدة الى الأبد(7).

(7) أما الايمان فقد جعل باب القبر ذاك باباً الى عالم النور، وتلك الطريق طريقاً الى السعادة الخالدة، فأصبح الايمان، بحقٍ مرهماً شافياً لدائي.

مرا جز جزء اختيارى جيزى نيست در دست

وهكذا لم أعثر في هذه الجهات الست على أي سلوانٍ وعزاءٍ بل وجدت استيحاشاً وهلعاً، ولم يكن لي تجاهها مستند سوى جزء اختياري(8).

(8) اما الايمان فانه يسلّمني بدلاً من ذلك الجزء الاختياري وثيقة لأستند بها الى قدرة عظيمة مطلقة، بل الايمان هو الوثيقة نفسها.

كه او جزء هم عاجز، هم كوتاه، وهم كم عيار است

وان ذلك الجزء الاختياري الذي هو سلاح الانسان، عاجز، قاصر، ناقص، لا يمكنه الخلق وليس له الاّ الكسب(9).

(9) الاّ ان الايمان يجعل ذلك الجزء الاختياري كافياً لكل شئ اذ يستعمله في سبيل الله، كالجندي الذي إنسلك في جيش الدولة فينجز ألوف أضعاف قوته من الأعمال.

نه در ماضى مجال حلول، نه در مستقبل مدار نفوذاست

لأن ذلك الجزء الاختياري ليس له القدرة للحلول في الماضي، ولا النفوذ في المستقبل. لذا لا نفع له لآمالي وآلامي الماضية والمستقبلة(10)

(10) ولكن الايمان يأخذ زمام ذلك الجزء الاختياري من الجسم الحيواني ويسلّمه الى القلب والروح، لذا يستطيع ان يحلّ في الماضي وينفذ في المستقبل. حيث دائرة حياة القلب والروح واسعة جداً.

ميدان أو إين زمان حال، ويك آن سيّال است

ان ميدان جولان ذلك الجزء الاختياري هو الوقت الحاضر القصير وهو آن سيّال ليس الاّ.

با إين همه فقرها وضعفها، قلم قدرت تو آشكاره

نوشته است، »در فطرت ما«: ميل ابد وامل سرمد

علاوة على جميع حاجاتي هذه، وضعفي وفقري وعجزي، وانا تحت هجمات الاستيحاش والمخاوف الواردة من هذه الجهات، فقد اُدرجتْ في ماهيتي آمال ممتدة الى الأبد، وفي فطرتي رغبات سطرت بوضوح بقلم القدرة.

بلكه هرجه هست، هست

بل كل ما في الدنيا، نماذجُه في فطرتي، فأنا على علاقة بجميع تلك الرغبات والآمال، بل أسعى لها، واُدفع الى السعي لها.

دائرهء إحتياج مانند دائرهء نظر بزركى داراست

ان دائرة الحاجة واسعة سعة دائرة النظر.

خيال كدام رسد احتياج نيزرسد، در دست هرجه نيست در إحتياج هست

حتى ان الخيال أينما ذهب، تذهب دائرة الحاجة الى هناك. فالحاجة اذاً هناك أيضاً، بل كل ما ليس في متناول اليد فهو ضمن الحاجة، وما ليس في اليد لا حدّ له.

دائرهء اقتدار همجو دائرهء دست كوتاه كوتاه است

بينما دائرة القدرة ضيقة وقاصرة بقدر ما تصل اليه يدي القاصرة

بس فقر و حاجات ما به قدر جهان است

.بمعنى ان فقري وحاجاتي بقدر الدنيا كلها.

سر مايهء ما همجو: »جزء لا يتجزأ« است

أما رأس مالي فهو شئ جزئي ضئيل.

اين جزء كدام واين كائنات حاجات كدام است؟

أين الحاجات التي بقدر هذا العالم، ولا تستحصل الاّ بالمليارات من هذا الجزء الاختياري الذي لايساوي شيئاً؟.

انه لا يمكن شراء تلك الحاجات بهذا الثمن الزهيد جداً. ولا يمكن ان تستحصل تلك بهذا!.

فلابد اذن من البحث عن وسيلة أخرى.

بس در راه تو أزين جزء نيز بازمى‌كدشتن جارهء من است

وتلك الوسيلة هي التبرؤ من ذلك الجزء الاختياري وتفويض أمره الى الارادة الإلهية، وتبرؤ المرء من قوة نفسه وحوله والالتجاء الى حول الله وقوته. وبذلك يكون الاعتصام بحبل التوكل.

فيا رب! لما كانت وسيلة النجاة هي هذه. فانني أتخلى عن ذلك الجزء الاختياري واتبرأ من أنانيتي، في سبيلك.

تا عنايت تو دستكير من شود، رحمت بى نهايت توبناه من است

لتأخذ عنايتك بيدي، رحمةً بعجزي وضعفي، ولتكون رحمتك مستندي، رأفة بفقـــري واحتياجي.. ولتفتح لي بابها.

آن كس كه بحر بى نهايت رحمت يافت، تكيه

نكند برين جزء اختيارى كه يك قطره سراب است

نعم، كل مَن وجد بحر الرحمة الذي لا ساحل له، لا يعتمد على جزئه الاختياري وهو كقطرة سراب، ولا يفوض اليه أمره، من دون تلك الرحمة.

أيواه! اين زندكانى همجو خواب است

وين عمر بى بنياد همجو باد است

يا اسفى، لقد خُدعنا، فظننا هذه الحياة الدنيا مستقرة دائمة. وأضعنا بهذا الظن كـــل شئ.

نعم، ان هذه الحياة غفوة قد مضت كرؤيا عابرة!

وهذا العمر الذي لا قرار له يذهب ذهاب الريح.

انسان به زوال دنيا به فنا است، آمال بى بقا آلام به بقا است

ان الانسان المغرور، المعتد بنفسه، ويحسبها أبدياً، محكوم عليه بالزوال. انـــه يـــذهب سريعاً.

اما الدنيا التي هي مأواه، فستهوي في ظلمات العدم، فتذهب الآمـــال أدراج الريـــاح وتبقى الآلام محفورة في الأرواح.

بيا أي نفس نا فرجام! وجود فانى خودرا فدا كن

خالق خودرا كه اين هستى وديعه هست

فتعالى يا نفسي المشتاقة الى الحياة، والطالبة العمر الطويل، والعاشقة للـــدنيا، والمبـــتلاة بآلام لا حدّ لها وآمال لا نهاية لها، يا نفسي الشقية انتبهي وعودي الى رشدك، ألا تـــرين ان اليراعة التي تعتمد على ضوئها تظل بين ظلمات الليل البهيم، بينما النحل التي لا تعتد بنفسها، تجد ضياء النهار، وتشاهد جميع صديقاتها من الأزهار مذهّبة بضوء الشمس.. كذلك أنتِ، ان اعتمدت على وجودك وعلى نفسك وعلى أنانيتك، فســـتكونين كاليراعـــة. ولكـــن ان

ضحيت بوجودك في سبيل خالقك الكريم الذي وهبه لك سوف تكونين كالنحل. وتجـــدين نور وجود لا حدّ له. فضحي بنفسك، اذ هذا الوجود وديعة عندك وامانة لديك.

وملك او أوداه فنا كن تا بقا يابد، ازان

سرى كه: »نفى النفى« إثبات است

ثم ان الوجود ملكُه سبحانه وهو الذي وهبه لك، لذا إفديه من دون منّة ولا إحجـــام، وإفنيه كي يجد البقاء، لأن نفي النفي إثبات.

أي: ان كان العدم معدوماً فهو موجود، وان انعدم المعدم يكون موجوداً.

خداى بر كرم خود ملك خودرا مى‌خرد أزتو

بهاي بى كران داده براى تو نكهدارد

ان الله يشتري منك ملكه، ويعطيك ثمنه عظيماً، وهو الجنة. وانه يحفظ لك ذلك الملك ويرفع قيمته وثمنه وسيعيده اليك بأبقى صورة واكملها. فيا نفسي! انفذي هذه التجارة فوراً، انها تجارة رابحة في خمسة أرباح، أي تكسبين خمسة أرباح معاً في صفقة واحدة، وتنجين مـــن خمسة خسائر معاً.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(فَلَمّا أفلَ قالَ لاَ أحِبُّ الافلين)

[لقد أبكاني نعي:(لا أحب الآفلين) من خليل الله ابراهيم عليه السلام الذي ينعي بـــه زوال الكائنات، فصبّت عينُ قلبي قطراتٍ باكيات من شؤون الله، كل قطرة تحمل من الحزن والكمد ما يثير الاشجان ويدفع الى البكاء والنحيب. تلك القطرات هي هذه الابيات الـــتي وردت الى القلب بالفارسية.. وهي نمط من تفسير لكلام خليل الرحمن ونبيه الحكـــيم كمـــا تضمنته الآية الكريمة: (لا أحب الآفلين)].

نمى ز يياست »افولده« كم شدن محبوب

محبوب، يغرق في أفق المغيب! ليس بمحبوب جميل، فالمحكوم عليه بالزوال لن يكـــون جميلاً حقاً ولا يحبه القلب، اذ القلب الذي خلق أصلاً ليعشق خالداً، ويعكس أنوار الصمد، لا يود الزوال ولا ينبغي له.

نمى ارزد »غروبده« غيب شدن مطلوب

مطلوب، محكوم عليه بالأفول! ليس أهلاً أن يرتبط به القلب، ولا يشد معه الفكـــر؛ لأنه عاجز عن أن يكون مرجعاً للاعمال وموئلاً للآمال. فالنفس لا تذهب عليه حســـرات، أتراك يعشقه القلب أو ينشده ويعبده؟.

نمى خواهـم »فناده« محو شدن مقصود

مقصود، يُمحى في الفناء ويزول! لا أريده. أنا لا أريد فانيا، لاني الفـــاني المســـكين، فماذا يُغني الفانون عني؟

نمى خوانم »زوالده« دفن شدن معبود

معبود، يدفن في الزوال! لا أدعوه، ولا أسأله، ولا التجئ اليه، اذ من كان عـــاجزاً لا يستطيع حتماً من ان يجد دواءً لأدوائي الجسيمة ولا يقدر على ضماد جراحـــاتي الابديـــة، فكيف يكون معبوداً من لا يقدر على انقاذ نفسه من قبضة الزوال؟

عقل فرياد مى دارد، نداءِ (لا احب الآفلين) مى زند روح

أمام هذه الكائنـــات المضطربة المنسابة الى الزوال، يصـــرخ »العقـــل« المفتـــــــون بالمظاهر يائساً من الاعماق، كلما رأى زوال معشوقاته.. وتئن »الروح« الساعية الى محبوب خالد أنين (لا أحب الآفلين).

لا.. لا أريد الفراق.. لا.. لا اطيق الفراق.

نمي خواهم نمى خوانم نمى تابم فراقي

نمى ارزد »مراقه« إين زوال در بس تلاقي

وصال يعقبه الزوال مؤلم، هذه اللقاءات المكدرة بالزوال غير جديرة باللهفـــة، بـــل لا يستحق شوقاً وصال يعقبه فراق؛ لان زوال اللذة مثلما هو ألم فان تصور زوال اللذة كذلك ألم مثله، فدواوين جميع شعراء الغزل والنسيب – وهم عشاق مجازيون – وجميع قصائدهم انما

هي صراخات تنطلق من آلام تنجم من تصور الزوال هذا، حتى اذا ما استعصرتَ روح ديوان أيٍ منهم فلا تراها الاّ وتقطر صراخاً أليماً ناشئاً من تصور الزوال.

أزان دردى كزين (لا احب الآفلين) مى زند قلبم

فتلك اللقاءات المشوبة بالزوال، وتلك المحبوبات المجازية المورثة للألم، تعصر قلبي حتى يجهش بالبكاء قائلاً: لا أحب الآفلين على غرار سيدنا ابراهيم عليه السلام.

فان كنت طالباً للبقاء حقاً، وأنت ما زلت في الدنيا الفانية فاعلم:

درين فاني بقا خوازى بقا خيزد »فنادن«.

ان البقاء ينبثق من الفناء، فجُد بفناء النفس الامارة لتحظى بالبقاء!

فنا شد، هم فدا كن ، هم عدم بين ، كه از دنيا »بقايه« راه »فنادن«

تجرّد من كل خلق ذميم هو مبعث عبادة الدنيا. افنهِ من نفسك، جُد بماتملكه في سبيل المحبوب الحق. أبصر عقبى الموجودات الماضية نحو العدم فالسبيل في الدنيا الى البقاء انما تمر من درب الفناء.

فكر فيزار مى دارد، أنين (لا احب الآفلين) مى زند وجدان

ويظل »فكر« الانسان السارح في الاسباب المادية في حيرة وقلق أمـــام مشـــهد زوال الدنيا، فيستغيث في قنوط.

بينما »الوجدان« الذي ينشد وجوداً حقيقياً يتبع خطى سيدنا ابراهيم عليه الســـلام في أنينه: لا أحب الآفلين ويقطع أسبابه مع المحبوبات المجازية ويحل حبالـــه مـــع الموجـــودات الزائلة،معتصماً بالمحبوب السرمدي..بالمحبوب الحقيقي.

بدان اي نفس نادانم ! كه : درهر فرد أز فاني دو راه هست با باقي ، دو سرّ جـــان جانانى

فيا نفسي الغافلة الجاهلة! يا سعيد اعلم! انك تستطيع وجدان سبيلين الى البقاء من كل شئ فانٍ في هذه الدنيا الفانية، حتى يمكنك أن تشاهد فيهما لمعتين وسرّين من أنـــوار جمـــال المحبوب الدائم، فيما اذا قدرت على تجاوز الصورة الفانية وخرقت حدود نفسك.

كه در نعمتها إنعام هست وبس آثارها أسما بكير مغزى، رميزن در فنا آن قشر بى معنا

نعم!! ان الإنعام يشاهَد طي النعمة، ولطف الرحمن يُستشعر في ثنايا النعمة. فان نفذت من خلال النعمة الى رؤية الإنعام فقد وجدت المنعم.

ثم ان كل أثر من آثار الأحد الصمد انما هو رسالته المكتوبة. كل منه يبين أسماء صانعه الحسنى. فان استطعت العبور من النقش الظاهر الى المعنى الباطن فقد وجدت طريقاً الى الاسماء الحسنى من خلال المسميات.

فما دام في وسعك – يا نفسي – الوصول الى مغزى هذه الموجودات الفانيات ولبّهـــا، فاستمسكي بالمعنى، ودعي قشورها يجرفها سيل الفناء، مزقي الاستار دون حسرة عليها.

بلى اثارها كونيد: ز اسما لفظ بُر معنا نجوان معنا، وميزن در هوا آن لفظ بى سودا

نعم! ليس في الموجودات من شئ الا هو لفظ مجسم يفصح عن معـــاني جليلـــة، بـــل يستقرىء أغلب اسماء صانعه البديع.

فما دامت هذه المخلوقات ألفاظ القدرة الإلهية وكلماتها المجسدة، فاقرأيها – يا نفسي – وتأملي في معانيها واحفظيها في أعماق القلب، وارمي بألفاظها التافهة أدراج الريـــاح دون أسف عليها.. ودون انشغال بها.

عقل فرياد مى دارد، غياث (لا احب الآفلين) ميزن اي نفسم

والعقل المبتلى بمظاهر الدنيا ولا يملك الا معارف آفاقية خارجية، تجره سلسلة أفكاره الى حيث العدم والى غير شئ. فتراه يضطرب من حيرته ويرتعد من هول الموقف فيصرخ يائســـاً جزعاً، باحثاً عن مخرج من هذا المأزق ليبلغه طريقاً سوياً يوصله الى الحقيقة.

فما دامت الروح قد كفت يدها عن الآفلين الزائلين، والقلب قد تـــرك المحبوبـــات المجازية، والوجدان قد أعرض عن الفانيات.. فاستغيثي يا نفسي المسكينة بغياث ابراهيم عليه السلام: لا أحب الآفلين وانقذي نفسك.

جه خوش كويد أو شيدا »جامي« عشق خوى:

وانظري! ما أجمل قول »جامي [63]ذلك الشاعر العاشق الولهان حتى لكأن فطرتـــه قـــد عجنت بالحب الإلهي حينما أراد ان يولي الانظار شطر التوحيد ويصرفها عـــن التشـــتت في الكثرة... اذ قال:

يكى خواه، يكى خوان، يكى جوى، يكى بين، يكى دان، يكى كوى[64]

أقصد الواحد، فسواه ليس جديراً بالقصد.

أدع الواحد، فما عداه لا يستجيب دعاء

اطلب الواحد، فغيره ليس أهلاً للطلب

شاهد الواحد، فالآخرون لا يشاهَدون دائماً، بل يغيبون وراء ستار الزوال.

اعرف الواحد، فما لا يوصل الى معرفته لا طائل من ورائه.

اذكر الواحد، فما لا يدل عليه من أقوال وأذكار هراء لا يغني المرء شيئاً.

نعم! صدقت أي جامي:

كه »لا اله الاّ هو« برابر ميزند عالم

هو المطلوب، هو المحبوب، هو المقصود، هو المعبود.

فالعالم كله، أشبه بحلقة ذكر، وتهليل كبرى يردد بألسنته المتنوعة ونغماته المختلفة: (لا إله الا هو) ويشهد الكل على التوحيد، فيداوي به الجرح البالغ الغور الذي يفجره: لا أحب الآفلين وكأنه يقول: هيا الى المحبوب الدائم الباقي.. انفضوا أيديكم من كل محبوباتكم المجازية الزائلة.

---

[63] هو نورالدين عبد الرحمن ولد في (جام) من اعمال (هراة) عام 817 هـــ (1414)، بعد ان اتم دراسته العلمية اظهر شغفاً شديداً بالتصوف، وكان امامه سعد الدين الكاشغرى احد علماء عصره وشيخ النقشبندية في عهده. توفي عن اثنتين واربعين سنة من العمر. له ثلاثة دواوين من الشعر الوجداني، وسبع مثنويات. ـــــ المترجم.

[64] هذا البيت لمولانا جامي. ـــــ المؤلف.

»لوحتان«

[كنت قبل خمسة وعشرين عاماً [65]على تل يوشع المطل على البسفور باستانبول، عندما قررت ترك الدنيا، أتاني أصحاب اعزاء، ليثنوني عن عزمي ويعيدونني الى حالتي الاولى، فقلت لهم: دعوني وشأني الى الغد، كي استخير ربي. وفي الصباح الباكر خطرت هاتان اللوحتان الى قلبي، وهما شبيهتان بالشعر، الاّ انهما ليستا شعراً، وقد حافظت على عفويتهما وأبقيتهما كما وردتا لأجل تلك الخاطرة الميمونة. وقد ألحقتا بختام »الكلمة الثالثة والعشرين«.ولمناسبة المقام أدرجتا هنا].

اللوحة الأولى

[وهي لوحة تصور حقيقة الدنيا لدى أهل الغفلة]

لا تدعُني الى الدنيا، فقد جئتها ورأيت الفساد.

اذ لما صارت الغفلة حجاباً، وسترت نور الحق..

رأيت الموجودات كلها، فانية مضرة

ان قلتَ: الوجود! فقد لبسته، ولكن كم عانيت من البلاء في العدم .

وان قلتَ: الحياة! فقد ذقتها، ولكن كم قاسيت العذاب.

اذ صار العقل عقاباً، والبقاء بلاءً

والعمر عين الهواء، والكمال عين الهباء.

والعمل عين الرياء، والأمل عين الألم.

والوصال عين الزوال، والدواء عين الداء.

والأنوار ظلمات، والأحبابُ أيتاماً.

والاصوات نعيات، والأحياء أموات.

وانقلبت العلوم أوهاماً، وفي الحِكَم ألف سقم.

وتحولت اللذائذ آلاماً، وفي الوجود ألفِ عدم.

---

[65] اي سنة 1922 ـــــ المترجم

وان قلتَ: الحبيب! فقد وجدته، آه! كم في الفراق من ألم.

اللوحة الثانية

[وهي لوحة تشير الى حقيقة الدنيا لدى أهل الهداية]

لما زالت الغفلة، أبصرت نور الحق عياناً.

واذا الوجود برهان ذاته، والحياة مرآة الحق..

واذا العقل مفتاح الكنز، والفناء باب البقاء.

وانطفأت لمعة الكمال، واشرقت شمس الجمال..

فصار الزوال عين الوصال، والألم عين اللذة.

والعمر هو العمل نفسه، والأبد عين العمر.

والظلامُ غلاف الضياء، وفي الموت حياة حقة..

وشاهدت الأشياء مؤنسة، والأصوات ذكراً..

فالموجودات كلها ذاكرات مسبحات.

ولقد وجدت الفقر كنز الغنى وابصرت القوة في العجز.

إن وجدت الله فالاشياء كلها لك.

نعم ان كنت عبداً لمالك الملك، فملكه لك..

وان كنت عبداً لنفسك معجباً بها، فابصر بلاءً وعبئاً بلا عدٍّ، وذقها عذاباً بلا حد.

وان كنت عبداً لله حقاً مؤمناً به، فابصر صفاءً بلا حدٍ، وذق ثواباً بلا عد، ونِل سعادة بلا حدٍ.

مناجاة

[لقد قرأت قصيدة الاسماء الحسنى للشيخ الكيلاني (قُدس سره) بعد عصر يوم من أيام شهر رمضان المبارك، وذلك قبل خمس وعشرين سنة، فوددت ان اكتب مناجاة بالاسماء الحسنى، فكُتب هذا القدر في حينه، إذ انني اردت كتابة نظيرة لمناجاة استاذي الجليل السامي، ولكن هيهات، فانى لا املك موهبة في النظم. لذا عجزت، وظلت المناجاة مبتورة.

وقد ألحقت هذه المناجاة برسالة »النوافذ« وهي المكتوب الثالث والثلاثون ولكن لمناسبة المقام اُخذت الى هنا].

هو الباقي

حكيمُ القضايا نحن في قَبْض حُكمه هو الحَكَمُ العدلُ له الارضُ والسماءُ

عليمُ الخفايا والغيوبُ في مُلكه هو القادرُ القيومُ له العرش والثراء

لطيفُ المزايا والنقوش في صُنعه هو الفاطرُ الودودُ له الحُسن والبهاءُ

جليلُ المرايا والشؤون في خلقه هو الملكُ القدوسُ له العز والكبرياء

بديع البرايا نحن من نقش صُنعه هو الدائمُ الباقي له الملك والبقاءُ

كريمُ العطايا نحن مِن ركبِ ضيفه هو الرزاقُ الكافي له الحمد والثناء

جميل الهدايا نحن من نسج علمه هو الخالقُ الوافي له الجودُ والعطاء

سميعُ الشكايا والدعاءِ لخَلْقِه هو الراحمُ الشافي له الشكر والثناء

غــفور الخــطايا والذنــوبِ لعبده هو الغفّار الــرحيمُ لــه الــعــــفوُ والـــرضاء

ويا نفسي! استغيثي وابكي مثل قلبي وقولي:

انا فانٍ مَن كان فانيا لا اريد

انا عاجز من كان عاجزاً لا اريد

سلّمت روحي للرحمن، سواه لا اريد

بل اريد .. حبيباً باقياً اريد

انا ذرة.. شمساً سرمداً اريد

انا لا شئ، ومن غير شئ، الموجودات كلّها اريد.

ثمرة تأمل

في مراعي بارلا، واشجار الصنوبر والقَطِران، والعرعر والحَور الأسود.

[وهي قطعة من المكتوب الحادي عشر. اخذت هنا لمناسبة المقام].

بينما كنت على قمة جبل في (بارلا) ايام منفاي، أسرح النظر في اشــجار الصــنوبر والقَطِران والعَرعرَ، التي تغطي الجهات. وأتأمل في هيبة أوضاعها وروعة اشكالها وصورها. اذ هَبّ نسيم رقيق حوّل ذلك الوضع المهيب الرائع الى أوضاع تســبيحات وذكــر جذابــة واهتزازات نشوة شوق وتهليل. واذا بذلك المشهد البهيج السار يتقطر عبراً أمام النظر، وينفث الحكمة في السمع. وفجأة خطرت ببالي الفقرة الآتية بالكردية لـــ (أحمد الجزري).[66]

هر كس بتماشا كه حسناته زهر جاى تشبيه نكاران بجمالا ته دنازن

أي لقد أتى الجميع مسرعين من كل صوب لمشاهدة حسنك، انهم بجمالك يتغنجــون ويدللون.

---

[66] هو الملا الجزري، أصله من جزيرة بوتان (جزيرة ابن عمر) واسمه الشيخ أحمد. ولد عام (540هـــ) حيث كان يحكم الجزيرة الأمير عماد الدين وهو صاحب امارة فيها. له غزليات غزيرة مدونة في ديوانه المسمى (ديوان الملا الجزري).ــــ المترجم.

وتعبيراً عن معاني العبرة، بكى قلبي على هذه الصورة:

يا رب! هر حى بتماشاكه صنع تو زهر جاى بتازى

يارب! ان كل حي، يتطلع من كل مكان، فينظرون معاً الى حسـنك، ويتـأملون في روائع الأرض التي هي معرض صنعك.

زنشيب از فرازى مانند دلالان بنداء بآوازى

فهم كالدعاة الادلاء، ينادون من كل مكان، من الأرض، ومن السماوات العلـى الى جمالك.

دم دم ز جمال نقش تو در رقص بازى

فترقص تلك الاشجار، الادلاّء الدعاة، جذلة من بهجة جمال نقوشك في الوجود.

ز كمال صنع تو خوش خوش بكازى

فتصدر أنغاماً شديَّة واصداءً ندية من نشوة رؤيتهم لكمال صنعتك..

ز شيرينى آواز خود هى هى دنازى

فكأن حلاوة أصدائها، تزيد نشوتها وتهزّها طرباً، فتتغنج بحركات الدلال.

أز وى رقص آمد جذبه خوازى

ولأجل هذا هبّت هذه الاشجار للرقص الجميل، راغبة في الانتشاء والانجذاب.

أزين آثار رحمت يافت هر حى درس تسبيح نمازى

يستلهم كل حي صلاته الخاصة وتسبيحاته المخصوصة من اثار هذه الرحمة الإلهية.

ايستاده هر يكى بر سنك بالا سرفرازى

وبعد التزود بالدرس البليغ، تنتصب كل شجرة قائمة فوق صخرة شماء، فاتحة أيـديها متطلعة الى العرش.

دراز كرده است دستهارا بدركاه إلهى همجو شهبازى

لقد تسربلت كل شجرة بسربال العبودية، ومدّت مئات أيديها ضارعة امـــام عتبـــة الحضرة الإلهية، كأنها (شهباز قلندر) [67]به جنبيد است زلفهارا به شوق انكيز شهنازى

وتهز أغصانها الرقيقة كأنها الضفائر الفاتنة لـــ (شهناز الجميلة) [68]مـــثيرة في المشـــاهد أشواقاً لطيفة وأذواقاً سامية.

به بالا ميزنند أز برده هاى »هاى هوى« عشق بازى [69]لكأن هذا الجمال يهزّ طبقات العشق، بل يمسّ أعمق الأوتار وأشدها حساسية.

ميدهد (هوشه) كيرينهاى درينهاى زوالى أز حب مجازى

امام هذا المنظر المعبّر يرد الفكر هذا المعنى:

يذكّره بأنين حزين، وبكاء مرير، ينبعثان من أعمق الأعماق. المكلوم بألم الزوال الذي يصيب الأحبة المجازية.

بر سر محمودها نغمهاى حزن انكيز أيازى

انه يُسمع انغام الفراق والالم الشجية على رؤوس اشهاد العاشقين المفارقين عن أحبتهم، كما فارق السلطان محمود محبوبه.

مردهارا نغمهاى أزلِى أز حزن انكيز نوازى

وكأن هذه الاشجار بنغماتها الرقيقة الحزينة، تؤدي مهمة إسماع اصداء الخلود لأولئـــك الأموات الذين انقطعوا عن محاورات الدنيا واصدائها.

»روحه« مى آيد أزو زمزمهء ناز ونيازى

اما الروح فقد تعلمت من هذه المشاهد:

---

[67] كان خادماً لدى الشيخ الكيلاني، وتربى على يديه، حتى ترقى في مراتب الولاية. ـــــ المؤلف

[68] حسناء شهيرة بجمالها وجمال شعرها وظفائرها. ـــــ المؤلف

[69] هذا البيت يشير الى شجرة العرعر في المقبرة:

ببالا ميزنند أز برده هاى هاى هوى مردها رانغمهاى ازلى از حزن انكيز نوازي.ــــــالمؤلف.

ان الأشياء تتوجه الى تجليات اسماء الصانع الجليل بالتسبيح والتـــهليل فهـــي أصـــوات وأصداء تضرعاتها وتوسلاتها.

قلب مي خواند أزين آياتها: سر توحيد ز علو نظم اعجازى

اما القلب فانه يقرأ من النظم الرفيع لهذا الاعجاز، سر التوحيد في هذه الاشجار كأنها آيات مجسمات.

أي ان في خلق كل منها من خوارق النظام وابداع الصنعة واعجاز الحكمة، مـــا لـــو اتحدت أسباب الكون كلها، وأصبحت فاعلة مختارة، لعجزت عن تقليدها.

نفس ميخواهد درين ولوله ها! زلزله ها: ذوق باقى در فناى دنيابازى

اما النفس؛ فكلما شاهدت هذا الوضع للاشجار، رأت كأن الوجـــود يتـــدحرج في دوّامات الزوال والفراق. فتحرّت عن ذوقٍ باقٍ، فتلقت هذا المعنى: »انك ستجدين البقـــاء بترك عبادة الدنيا«.

عقل مي بيند ازين زمزمه ها دمدمه ها: نظم خلقت نقش حكمت كنز رازى

اما العقل فقد وجد انتظام الخلقة، ونقش الحكمة وخزائن أســـرار عظيمـــة في هـــذه الأصوات اللطيفة المنبعثة من الاشجار والحيوانات معاً، ومن انداء الشـــجيرات والنســـائم. وسيفهم ان كل شئ يسبّح للصانع الجليل بجهات شتى.

آرزو ميدارد هوا ازين همهمه ها هوهوها مرك خود در ترك اذواق مجازى

اما هوى النفس، فانه يلتذ ويستمتع من حفيف الاشجار وهبوب النسيم ذوقاً لطيفـــاً ينسيها الأذواق المجازية كلها، حتى انه يريد ان يموت ويفنى في ذلك الذوق الحقيقي، واللـــذة الحقيقية بتركه الأذواق المجازية، التي هي جوهر حياته.

خيال بيند ازين اشجار: ملائك را جسد آمد سماوى باهزاران نى

اما الخيال فانه ىرى كأن الملائكة الموكلين بهذه الاشجار قد دخلوا جذوعها ولبســـوا أغصانها المالكة لقصيبات الناي بانواع كثيرة. وكأن السلطان السرمدي قد ألبســـهم هـــذه الأجساد في استعراض مهيب مع آلاف انغام الناي، كي تُظهِر تلك الاشجار أوضاع الشكر والامتنان له بشعور تام، لا أجساداً ميتة فاقدة للشعور.

ازين نيها شنيدت هوش ستايشهاى ذات حى

فتلك النايات مؤثرة الانغام صافيتها، اذ تخرج أصواتاً لطيفة كأنها منبعثة من موسـيقى سماوية علوية، فلا يسمع الفكر منها شكاوى آلام الفراق والزوال، كما يسمعها كل العشاق وفي مقدمتهم (مولانا جلال الدين الرومي) بل يسمع أنواع الشكر للمنعم الرحمن، وأنـواع الحمد تقدم الى الحي القيوم.

ورقهارا زبان دارند همه »هو هو« ذكردارند به در معناي: حى حى

وإذ صارت الاشجار أجساداً. فقد صارت الأوراق كذلك ألسنة. كل منـها تـردد بآلاف الالسنة ذكر الله بـ »هو.. هو..« بمجرد مسّ الهواء لها. وتعلن بتحيات حياتـه الى صانعه الحي القيوم

جو »لاَ اله الا هو« برابر مى زند هر شى

لاَن جميع الأشياء تقول: »لا اله الا هو« وتعمل ضمن حلقة ذكر الكائنات العظمى.

دمادم جويدند »يا حق« سراسر كويدند: »يا حي« برابر ميزنند: »الله«

فتسأل كل حين من خزينة الرحمة الإلهية، بلسان الاستعداد والفطرة، وتطلب حقـوق حياتها، بترديدها: »يا حق«.

وتذكر جميعاً اسم »يا حي« بلسان نيلها لمظاهر الحياة.

فيا حي يا قيوم بحق اسم حى قيوم

حياتى ده به إين قلب بريشان را استقامت ده به إين عقل مشوش را...

آمين

رسالة تستنطق النجوم

كنت يوماً على ذروة قمة من قمم جبل »جام« نظرت الى وجه السـماء في سـكون الليل، واذا بالفقرات الآتية تخطر ببالي، فكأنني استمعت خيالاً الى ما تنطق به النجوم بلسـان الحال.. كتبتها كما خطرت دون تنسيق على قواعد النظم والشعر لعدم معرفتي بها.

وقد أُخذت الى هنا من المكتوب الرابع، ومن ختام الموقف الاول من الكلمـــة الثانيـــة والثلاثين.

واستمع الى النجوم ايضاً، الى حلو خطابها الطيب اللذيذ.

لترى ما قرّره ختم الحكمة النيّر على الوجود.

III

انها جميعاً تهتف وتقول معاً بلسان الحق:

نحن براهين ساطعة على هيبة القدير ذي الجلال

III

نحن شواهد صدق على وجود الصانع الجليل وعلى وحدانيته وقدرته.

نتفرج كالملائكة على تلك المعجزات اللطيفة التي جمّلت وجه الارض.

III

فنحن الوف العيون الباصرة تطل من السماء الى الارض وترنو الى الجنة.[70]

نحن الوف الثمرات الجميلة لشجرة الخلقة، علّقتنا يدُ حكمة الجميل ذي الجلال علـــى شطر السماء وعلى اغصان درب التبانة.

III

فنحن لأهل السموات مساجدٌ سيارة ومساكنٌ دوّارة وأوكار سامية عالية ومصـــابيح نوّارة وسفائن جبارة وطائرات هائلة!

III

---

[70] اي أن وجه الارض مشتل ازاهير الجنة ومزرعتها،، تعرض فيه ما لايحد من معجزات القدرة الإلهية. ومثلما تتفرج ملائكة عالم السموات وتشاهد تلك المعجزات تشاهدها ايضاً النجوم التي هي بمثابة عيون الاجرام السماوية الباصرة. فهي كلما نظرت كالملائكة الى تلك المصنوعات اللطيفة التي تملأ وجه الارض، نظرت الى عالم الجنة ايضاً، فتشاهد تلك الخوارق المؤقتة في صورها الباقية هناك. اي انها عندما تلقى نظرة الى الارض تلقى الاخرى الى الجنة، بمعنى ان لها اشرافاً على ذينك العالَمين معاً. ـــــ المؤلف.

نحن معجزات قدرة قدير ذي كمال وخوارق صنعة حكيم ذي جلال. ونوادر حكمة ودواهي خلقة وعوالم نور.

III

هكذا نبيّن مائة الف برهان وبرهان، بمائة الف لسان ولسان، ونُسمعها الى مَـــن هـــو انسان حقاً.

عميت عين الملحد لا يرى وجوهنا النيّرة، ولا يسمع اقوالنا البيّنة.. فنحن آيات ناطقة بالحق.

III

سكتنا واحدة، طُرتنا واحدة، مسبّحات نحن عابدات لربنا، مسخّرات تحت امره.

نذكره تعالى ونحن مجذوبات بحبّه، منسوبات الى حلقة ذكر درب التبانة.

الكلمة الثامنة عشرة

[لهذه الكلمة مقامان . و لم يكتب بعدُ المقام الثاني. والمقام الاول عبارة عن ثـــلاث نقاط].

«النقطة الاولى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبّون ان يُحمَدوا بما لم يفعَلوا، فلا تحسبنّهم بمفازةٍ من العذاب ولهم عذابٌ أليمٌ) (آل عمران: 188)

لطمةُ تأديب لنفسي الامارة بالسوء!

يا نفسي المغرمة بالفخر، المعجبة بالشهرة، الهائمة وراء المدح والثناء!

يا نفسي الغويّة!

ان كانت بذيرة التين التي هي منشأ ألوف الثمرات، والساق النحيفة الصلبة التي تعلقت بها مئات العناقيد.. ان كانت هذه الثمرات والعناقيد من عمل تلك البذيرة والساق ومن مهارتهما لزم كل من يستفيد من تلك النتائج ان يبدي المدح ويظهر الثناء لهما! اقول: ان كانت هذه الدعوى حقاً، فلربما يكون لكِ - يا نفسي - حقٌ ايضاً في الفخر والغرور لما حُمّلتِ من النعم.

بينما انتِ لا تستحقين الاّ الذم، لانك لستِ كتلك البذيرة ولا كتلك الساق، وذلك لما تحملين من جزء اختياري. فتنتقصين بفخركِ وغروركِ من قيمة تلك النعم وتبخسين حقها، وتبطلينها بكفرانك النعم، وتغتصبينها بالتملك.

فليس لكِ الفخر، بل الشكر. ولا تليق بكِ الشهرة، بل التواضع والحياء. وما عليكِ الا الاستغفار، وملازمة الندم، لا المدح، فليس كمالك في الانانية، بل في الاستهداء.

نعم! يا نفسي! انتِ في جسمي تشبهين الطبيعة في العالم، فانتما (النفس والطبيعة) قد خُلقتما قابلين للخير، مرجعَين للشر. اي انتما لستما الفاعل ولا المصدر، بل المنفعل ومحل الفعل، الاّ ان لكما تأثيراً واحداً فقط وهو تسببكما في الشر، عند عدم قبولكما الخير الوارد من الخير المطلق قبولاً حسناً.

ثم انكما قد خُلقتما ستارين، كي تُسند اليكما المفاسد والقبائح الظاهرية التي لا يُشاهد جمالُها، لتكونا وسيلتين لتنزيه الذات الإلهية الجليلة. ولكنكما قد لبستما صورة تخالف وظيفتكما الفطرية، اذ تقلبان الخير الى شر لإفتقاركما الى القابليات، فكأنكما تشاركان خالقكما في الفعل!

فالذي يعبد النفس ويعبد الطبيعة اذاً في منتهى الحماقة ومنتهى الظلم.

فيا نفسي!

لا تقولي: انني مظهر الجمال، فالذي ينال الجمال يكون جميلاً.. كلا، انكِ لم تتمثلـــي الجمال تمثلاً تاماً، فلا تكونين مظهراً له بل ممراً اليه.

ولا تقولي ايضاً:

انني قد اُنتُخبتُ من دون الناس كلهم، وهذه الثمرات انما تظهر بوساطتي، بمعنى ان لي فضلاً ومزيّة! كلا.. وحاشَ للّه.. بل قد اُعطيتِ تلك الثمرات لانكِ أحوج النـــاس اليهـــا، واكثرهم إفلاساً واكثرهم تألماً.[71]

«النقطة الثانية:

نوضح سراً من أسرار الآية الكريمة:(أَحْسَنَ كُلَّ شيء خَلَقَهُ) (السجدة:8)

نعم، إنَّ كل شئ في الوجود، بل حتى ما يبدو أنه أقبح شئ، فيه جهة حُسنٍ حقيقيـــة، فما من شئ في الكون، وما من حادث يقع فيه إلاّ وهو جميل بذاته، أو جميل بغيره، أي جميل بنتائجه التي يفضي اليها..

فهناك من الحوادث التي يبدو في ظاهر أمرها قبيحاً مضطرباً ومشوشاً، الاّ أنَّ تحت ذلك الستار الظاهري أنواعاً من جمال رائق، وأنماطاً من نظم دقيقة.

فتحت حجاب الطين والغبار والعواصف والأمطار الغزيرة في الربيع تختبئ ابتســـامات الأزهار الزاهية بروعتها، وتحتجب رشاقة النباتات الهيفاء الساحرة الجميلة..

وفي ثنايا العواصف الخريفية المدمرة المكتسحة للأشجار والنباتات، والهـــازة لـــلأوراق الخضراء من فوق الأفنان، حاملةً نذر البين، وعازفةً لحن الشجن والموت والأنـــدثار، هنـــاك بشارة الانطلاق من أسر العمل لملايين الحشرات الرقيقة الضعيفة التي تتفتح للحيـــاة في أوان

[71] حقاً! انني في هذه المناظرة، اعجبت ايما اعجاب بإلزام سعيد الجديد نفسَه الى هذا الحد من الالزام فباركته وهنأته قائلاً: بارك ا فيك الف مرة.ـــــ المؤلف

تفتح الأزهار، فتحافظ عليها من قَرّ الشتاء وضغوط طقسه، فضلاً عن أن أنواء الشتاء القاسية الحزينة تهيئ الأرض استعداداً لمقدم الربيع بمواكبه الجميلة الرائعة.

نعم! إن هناك تفتحاً لأزهار معنوية كثيرة تختبئ تحت ستار عصف العواصف إذا عصفت وزلزلة الأرض إذا تزلزلت، وانتشار الأمراض والأوبئة إذا انتشرت.

فبذور القابليات، ونوى الاستعدادات الكامنة - التي لم تستنبت بعدُ - تتسنبل وتتجمل نتيجة حوادث تبدو قبيحة في ظاهر شأنها، حتى كأن التقلبات العامة، والتحولات الكلية في الوجود إن هي الاّ امطارٌ معنوية تنزل على تلك البذور لتستنبتها.

بَيْدَ ان الأنسان المفتون بالمظاهر والمتشبث بها والذي لا ينظر الى الامور والأحداث الاّ من خلال أنانيته ومصلحته بالذات، تراه تتوجه أنظارُه الى ظاهر الامور، وتنحصر فيها، فيحكم عليها بالقبح!..

وحيث أنه يزن كل شئ بحسب نتائجه المتوجهة اليه فحسب تراه يحكم عليه بالشر! علماً أن الغاية من الأشياء إنْ كانت المتوجهة منها الى الانسان واحدةً، فالمتوجهة منها الى أسماء صانعها الجليل تعدُّ بالالوف. فمثلاً:

الاشجار والاعشاب ذات الاشواك التي تدمي يد الانسان الممتدة اليها يتضايق منها الانسان ويراها شيئاً ضاراً لا جدوى منه، بينما هي لتلك الاشجار والأعشاب في منتهى الأهمية حيث تحرسها وتحفظها مِمّنْ يريد مسَّها بسوء.

ومثلاً: انقضاض العقاب على العصافير والطيور الضعيفة يبدو منافياً للرحمة، والحال ان انكشاف قابليات تلك الطيور الضعيفة وتحفيزها للظهور لا يتحقق الاّ اذا أحسَّت بالخطر المحدق بها، وشعرت بقدرة الطيور الجارحة على التسلّط عليها..

ومثلاً: ان هطول الثلوج الذي يغمر الأشياء في فصل الشتاء ربما يثير بعض الضيق لدى الأنسان، لأنه يحرمه من لذة الدفء ومناظر الخضرة، بينما تختفي في قلب هذا الجليد غايات دافئة جداً ونتائج حلوة يعجز الانسان عن وصفها.

ثم ان الانسان من حيث نظره القاصر يحكم على كل شئ بوجهه المتوجه الى نفسه، لذا يظن أن كثيراً من الامور التي هي ضمن دائرة الآداب المحضة أنها مجافية لها، خارجة عنها...

فالحديث عن عضو تناسل الانسان – مثلاً – مخجل فيما يتبادله من أحاديث مع الآخـــرين. فهذا الخجل منحصر في وجهه المتوجه للانسان، الاّ أن أوجهه الأخرى، أي من حيث الخلقة ومن حيث الاتقان ومن حيث الغايات التي وجد لأجلها، موضع أعجاب وتدبر.. فكلٌّ مـــن هذه الأوجه التي فطر عليها إنما هي وجهٌ جميل من أوجه الحكمة، واذا هي – بهذا المنظار – محض أدب لا يخدش الحديث عنها الذوق والحياء..

حتى أن القرآن الكريم – الذي هو منبع الأدب الخالص – يضم بين سوره تعابير تشـــير إشارات في غاية اللطف والجمال الى هذه الوجوه الحكيمة والستائر اللطيفة، فما نراه قبحاً في بعض المخلوقات، والآلام والأحزان التي تخلفها بعض الأحداث والوقـــائع اليوميـــة لا تخلـــو أعماقُها قطعاً من أوجه جميلة، وأهداف خيرة، وغايات سامية، وحكم خبيئة، تتوجه بكـــل ذلك الى خالقها الكريم كما قدّر وهدى وأراد. فالكثير من الامور التي تبدو – في الظاهر – مشوشة مضطربة ومختلطة، إن انعمتَ النظر الى مداخلها طالعتك – من خلالها – كتابـــات ربانية مقدسة رائعة، وفي غاية الجمال والانتظام والخير والحكمة.

« النقطة الثالثة:

قال تعالى (قل إن كنتم تُحبّون الله فاتّبعوني يُحْببكُم الله) (آل عمران:31)

ما دام حسن الصنعة موجوداً في الكون، وهو أمر قطعي كما يشاهد، يلزم اذاً ثبـــوت الرسالة الأحمدية عليه الصلاة والسلام بقطعية يقينية بدرجة الشهود؛ لأن حسن الصنعة وجمال الصورة في هذه المصنوعات، يدلان على أن في صانعها إرادة تحسين وطلب تزيين في غايـــة القوة، وان ارادة التحسين وطلب التزيين يدلان على أن في صانعها محبة علوية ورغبة قدســـية لإظهار كمالات صنعته التي في مصنوعاته، وان تلك المحبة والرغبة تقتضيان قطعاً تمركزهما في اكمل وأنور المصنوعات وأبدعها، الا وهو الانسان. ذلك لأن الانسان هو الثمـــرة المجهّـــزة بالشعور والادراك لشجرة الخلق، وان الثمرة هي اجمع جزء وأبعده من جميع اجـــزاء تلـــك الشجرة، وله نظر عام وشعور كلي.

فالفرد الذي له نظر عام، وشعور كلي هو الذي يصلح ان يكون المخاطـــب للصـــانع الجميل والماثل في حضوره، ذلك لأنه يصرف كل نظره العام وعموم شعوره الكلي الى التعبد

لصانعه والى استحسان صنعته وتقديرها والى شكر آلائه ونعمه.. فبالبداهة يكون ذلك الفرد الفريد هو المخاطب المقرب والحبيب المحبوب.

والآن تشاهَد لوحتان ودائرتان:

احداهما: دائرة ربوبية في منتهى الانتظام وغاية الروعة والهيبة ولوحة صنعة بارعة الجمال وفي غاية الاتقان.

والاخرى: دائرة عبودية منوّرة مزهّرة للغاية، ولوحة تفكر واستحسان وشكر وايمان في غاية الجامعية والسعة والشمول، بحيث ان دائرة العبودية هذه تتحرك بجميع جهاتها باسم الدائرة الاولى وتعمل بجميع قوتها لحسابها.

وهكذا يفهم بداهة أن رئيس هذه الدائرة الذي يخدم مقاصد الصانع المتعلقة بمصنوعاته تكون علاقته مع الصانع قوية متينة، ويكون لديه محبوباً مرضياً عنده.

فهل يقبل عقلٌ الاّ يبالي ولا يهتم صانع هذه المصنوعات المزينة بانواع المحاسن ومنعم هذه النعم، المراعي لدقائق الاذواق حتى في أفواه الخلق، هل يعقل الاّ يبالي بمثل هذا المصنوع الأجمل الاكمل، المتوجه اليه بالتعبد، والاّ يهتم بمثل هذا المخلوق الذي هزّ العرش والفرش بتهليلات استحسانه وتكبيرات تقديراته لمحاسن صنعة ذلك الصانع، فاهتزّ البر والبحر انتشاءً من نغمات حمده وشكره وتكبيراته لنعم ذلك الفاطر الجليل؟ وهل يمكن الاّ يتوجه اليه؟ وهل يمكن الاّ يوحي اليه بكلامه؟ وهل يمكن الاّ يجعله رسولاً؟ والاّ يريد ان يسري خُلُقه الحسن وحالاته الجميلة الى الخلق اجمعين؟

كلا! بل لا يمكن ألاّ يمنحه كلامه والاّ يجعله رسولاً للناس كافة .

(ان الدين عند الله الاسلام) (ال عمران: 19)

(محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم) (الفتح:29)

* * *

أنّات بكاء لقلب آسٍ، فجر أيام اسر مليئة بالفراق والاغتراب

نسيم التجلي يهبّ وقت الاسحار، فأنتبهى يا عيني في السحر، واسألي المولى العناية، فالسحر متابة المذنبين، فهب يا قلبي تائباً في الفجر مستغفراً لدى باب مولاك.

سحر حشريست ، درو هشيار در تسبيح همه شى..

بخواب غفلت سرسم نفسم حتى كى؟..

عمر عصريست سفر با قبرمى بايد زهر حى..

بيرخيز نمازى جونيازى كو بكن آوازى جون نى..

بكو: يارب بشيمانم خجيلم شرمسارم از كناه بى شمارم بريشانم ذليلم اشك بارم از حيات بى قرارم غريبم بى كسم ضعيفم ناتوانم عليلم عاجزم اختيارم بى اختيارم الأمان كويم عفو جويم مدد خواهم ز دركاهت إلهي.

الكلمة التاسعة عشرة

تخص الرسالة الأحمدية

وما مدحتُ محمداً بمقالتي ولكن مدحتُ مقالتي بمحمد عليه الصلاة والسلام.

نعم! ان هذه الكلمة جميلة، ولكن الشمائل المحمدية التي تفوق الحسن هي التي جمّلتها.

تتضمن هذه الكلمة »اللمعة الرابعة عشرة« أربع عشرة رشحة:[72]

oالرشحة الأولى:

إن ما يُعرّف لنا ربَّنا هو ثلاثة معرّفين أدلاّء عظام:

أوله: كتاب الكون، الذي سمعنا شيئاً من شهادته في ثلاث عشرة لمعة (من لمعات المثنوي العربي النوري).

ثانيه: هو الآية الكبرى لهذا الكتاب العظيم، وهو خاتم ديوان النبوة (ص).

ثالثه: القرآن الحكيم.

---

[72] كتب الاستاذ النورسي هذا البحث باللغة العربية في المثنوي العربي النوري، ثم ترجمه الى التركية وجعله »الكلمة التاسعة عشرة«. فأثناء ترجمتي لها الى العربية مرّة أخرى احتفظت بالنص العربي للاستاذ المؤلف مع ما يستوجب من تقديم وتأخير وحذف وإضافة في ضوء النص التركي. ـــــ المترجم.

فعلينا الآن أن نعرف هذا البرهان الثاني الناطق، وهو خاتم الانبياء وسيد المرسلين (ص) وننصت اليه خاشعين.

إعلم! ان ذلك البرهان الناطق له شخصية معنوية عظيمة. فإن قلت: ما هو؟ وما ماهيته؟

قيل لك: هو الذي لعظمته المعنوية صار سطحُ الأرض مسجده، ومكةُ محرابه، والمدينة منبره.. وهو امام جميع المؤمنين يأتمون به صافّين خَلْفَه.. وخطيب جميع البشر يبيّن لهم دساتير سعاداتهم.. ورئيس جميع الأنبياء يزكّيهم ويصدّقهم بجامعية دينه لأساسات أديانهم.. وسيد جميع الأولياء يرشدهم ويربّيهم بشمس رسالته.. وقطبٌ في مركز دائرة حلقة ذكر تركّبَت من الأنبياء والأخيار والصديقين والأبرار المتفقين على كلمته الناطقين بها.. وشجرةٌ نورانية عروقُها الحيوية المتينة هي الأنبياء باساساتهم السماوية، واغصانها الخضرة الطرية وثمراتها اللطيفة النيّرة هي الأولياء بمعارفهم الالهامية. فما من دعوى يدّعيها الاّ ويشهدُ له جميعُ الأنبياء مستندين بمعجزاتهم، وجميعُ الأولياء مستندين بكراماتهم. فكأن على كل دعوىً من دعاويه خواتمُ جميع الكاملين، اذ بينما تراه قال: (لا إله الا الله) وادّعى التوحيد فاذا نسمع من الماضي والمستقبل من الصفّين النورانيين – أي شموس البشر ونجومه القاعدين في دائرة الذكر – عينَ تلك الكلمة، فيكررونها ويتفقون عليها، مع اختلاف مسالكهم وتباين مشاربهم. فكأنهم يقولون بالاجماع: »صَدَقت وبالحق نطقت«. فأنّى لوهمٍ أن يَمدَّ يده لردِّ دعوىً تأيّدتْ بشهادات مَنْ لا يُحَد من الشاهدين الذين تزكّيهم معجزاتُهم وكراماتُهم.

oالرشحة الثانية:

إعلم! إن هذا البُرهان النوراني الذي دلَّ على التوحيد وأرشد البشر اليه، كما أنه يتأيد بقوة ما في جناحَيه نبوةً وولايةً من الاجماع والتواتر.. كذلك تصدّقُه مئاتُ إشارات الكتب

السماوية من بشارات التوراة والانجيل والزبور وُزُبرِ الأولين.. [73]وكذلك تصدِّقُه رموز ألوف الارهاصات الكثيرة المشهودة، وكذا تصدِّقُه دلالات معجزاته من أمثال: شق القمر، ونبعـــان الماء من الأصابع كالكوثر ومجئ الشجر بدعوته، ونزول المطر في آن دعائه، وشبع الكثير من طعامه القليل، وتكلّم الضب والذئب والظبي والجمل والحجر، الى ألفٍ من معجزاته كما بيّنها الرواة والمحدثون المحققون.. وكذا تصدِّقه الشريعة الجامعة لسعادات الدارين.

واعلم! أنه كما تصدِّقه هذه الدلائل الآفاقية، كذلك هو كالشمس يدل على ذاته بذاته، فتصدقّه الدلائل الأنفسية؛ اذ اجتماع اعالي جميع الاخلاق الحميدة في ذاته بالاتفاق.. وكـــذا جمعُ شخصيته المعنوية في وظيفته أفاضل جميع السجايا الغالية والخصائل التريهة.. وكذا قـــوة إيمانه بشهادة قوة زهده وقوة تقواه وقوة عبوديته.. وكذا كمال وثوقه بشهادة سيره، وكمال جدّيته وكمال متانته، وكذا قوة أمنيته في حركاته بشهادة قوة إطمئنانه.. تصدِّقه كالشـــمس الساطعة في دعوى تمسّكه بالحق وسلوكه الحقيقة.

oالرشحة الثالثة:

إعلم! إن للمحيط الزماني والمكاني تأثيراً عظيماً في محاكمات العقول. فإن شئت فتعال لنذهب الى خير القرون وعصر السعادة النبوية لنحظى بزيارته الكريمة (ص) ولو بالخيـــال – وهو على رأس وظيفته يعمل. فافتح عينيك وانظر! فإنّ أولَ ما يتظاهر لنا من هذه المملكـــة: شخصٌ خارق، له حسنُ صورة فائقة، في حُسن سيرة رائقة. فها هو آخذٌ بيده كتاباً معجِزاً كريماً، وبلسانه خطاباً موجزاً حكيماً، يبلّغ خطبةً أزليةً ويتلوها على جميع بَني آدم، بل علـــى جميع الجن والانس، بل على جميع الموجودات.

فيا للعجب! ما يقول؟.. نعم! إنه يقول عن أمرٍ جسيم، ويبحث عن نبـــأٍ عظـــيم، إذ يشرح ويحل اللغز العجيب في سرِّ خِلْقة العالم، ويفتح ويكشف الطلسم المغلق في سرِّ حكمة

---

[73] لقد استخرج حسين الجسر مائة واربع عشرة بشارة من بطون تلك الكتب، وضمنها في »الرسالة الحميدية«. فلئن كانت البشارات بعد التحريف الى هذا الحد، فلاشك ان صراحات كثيرة كانت موجودة قبله.ـــــ المؤلف.

الكائنات، ويوضِّح ويبحث عن الأسئلة الثلاثة المعضلة التي أشغلت العقول وأوقعتها في الحيرة، إذ هي الأسئلة التي يَسأل عنها كلٌّ موجود. وهي: مَنْ أنتَ؟ ومِن أين؟ والى أين؟.

oالرشحة الرابعة:

انظر! الى هذا الشخص النوراني كيف ينشر من الحقيقة ضياءً نوّاراً، ومن الحـــق نـــوراً مضيئاً، حتى صيَّر ليلَ البشر نهاراً وشتاءه ربيعاً؛ فكأن الكائنات تبدَّل شكلُها فصار العـــالَم ضاحكاً مسروراً بعدما كان عبوساً قمطريراً.. فإذا ما نظرت الى الكائنـــات خـــارجَ نـــور إرشاده؛ ترى في الكائنات مأتماً عمومياً، وترى موجوداتها كالأجانب الغرباء والأعـــداء، لا يعرف بعضٌ بعضاً، بل يعاديه، وترى جامداتها جنائز دهّاشة، وترى حيواناتها واناسيّها أيتاماً باكين بضربات الزوال والفراق.

فهذه هي ماهية الكائنات عند مَنْ لم يدخل في دائرة نوره. فانظر الآن بنوره، وبمرصاد دينه، وفي دائرة شريعته، الى الكائنات. كيف تراها؟.. فانظر! قد تبدّل شكلُ العالم، فتحوّل بيتُ المأتم العمومي مسجدَ الذكر والفكر ومجلسَ الجذبة والشكر، وتحوّل الأعداءُ الأجانب من الموجودات أحباباً وإخواناً، وتحوّل كلٌّ من جامداتها الميتة الصامتة حيّاً مؤنساً مأموراً مسخَّراً ناطقاً بلسان حاله آيات خالقه، وتحوّل ذوو الحياة منها – الأيتام الباكون الشاكون – ذاكرين في تسبيحاتهم، شاكرين لتسريحهم عن وظائفهم.

oالرشحة الخامسة:

لقد تحوّلت بذلك النور حركاتُ الكائنات وتنوعاتُها وتغيراتُها من العبثيـــة والتفاهـــة وملعبة المصادفة الى مكاتيب ربانية، وصحائف آياتٍ تكوينية، ومرايا اسماء إلهية . حتى ترقّى العالمُ وصار كتاب الحكمة الصمدانية.

وانظر الى الانسان كيف ترقَّى من حضيض الحيوانية الذي هوى اليه بعجـــزه وفقـــره وبعقله الناقل لأحزان الماضي ومخاوف المستقبل، ترقّى الى أوج الخلافة بتنور ذلـــك العقـــل والعجز والفقر. فانظر كيف صارت أسبابُ سقوطه – من عجز وفقر وعقـــل – أســـبابَ صعوده بسبب تنورها بنور هذا الشخص النوراني.

فعلى هذا، لو لم يوجد هذا الشخص لسقطت الكائناتُ والأنسان، وكلُ شئ الى درجة العدم؛ لاقيمة ولا أهمية لها. فيلزم لمثل هذه الكائنات البديعة الجميلة من مثل هذا الشـــخص الخارق الفائق المعرِّف المحقق، فإذا لم يكن هذا فلا تكن الكائنات، اذ لا معنى لها بالنسبة إلينا.

o الرشحة السادسة:

فان قلت: مَنْ هذا الشخص الذي نراه قد صار شمساً للكون، كاشــفاً بدينــه عـــن كمالات الكائنات؟ وما يقول؟.

قيل لك: انظر واستمع الى ما يقول: ها هو يُخبر عن سعادة أبدية ويبشّر بها، ويكشف عن رحمة بلا نهاية، ويعلنها ويدعو الناس اليها. وهو دلالُ محاسن سلطنة الربوبية ونَظّارُهـــا، وكشّافُ مخفيّات كنوز الأسماء الألهية ومعرِّفُها.

فانظر اليه من جهة وظيفته (رسالته)؛ تَرهُ برهانَ الحق وسراجَ الحقيقة وشمس الهدايـــة ووسيلة السعادة.

ثم انظر اليه من جهة شخصيته (عبوديته)؛ تَرَهُ مثالَ المحبة الرحمانية وتمثالَ الرحمة الربانية، وشرفَ الحقيقة الأنسانية، وأنورَ أزهرِ ثمرات شجرة الخلقة.

ثم انظر! كيف أحاط نورُهُ ودينُه بالشرق والغرب في سرعة البرق الشارق، وقد قَبِـــل بإذعان القلب ما يقرُب من نصف الأرض ومن خُمس بني آدم هديةَ هدايته، بحيث تُفدي لها ارواحَها. فهل يمكن للنفس والشيطان أن يناقشا بلا مغالطة في مدّعيات مثل هذا الشـــخص، لاسيما في دعوىً هي أساس كل مدّعياته، وهو: »لا إله إلا الله« بجميع مراتبها؟...

oالرشحة السابعة:

فإن شئت أن تعرف ان ما يحرّكه، إنما هو قوة قدسية، فانظر الى إجراآته في هذه الجزيرة الواسعة! ألا ترى هذه الأقوام المختلفة البدائية في هذه الصحراء الشاسعة، المتعصبين لعاداتهم، المعاندين في عصبيتهم وخصامهم، كيف رفع هذا الشخص جميعَ أخلاقهم الســيئة البدائيـــة وقلعها في زمان قليل دفعة واحدة؟ وجهّزهم بأخلاق حسنة عالية؛ فصيّرهم معلمـــي العـــالم الأنساني وأساتيذ الامم المتمدنة.

فانظر! ليست سلطنتُه على الظاهر فقط؛ بل ها هو يفتح القلوب والعقول، ويسخِّر الأرواح والنفوس، حتى صار محبوبَ القلوب ومعلّمَ العقول ومربي النفوس وسلطان الأرواح.

oالرشحة الثامنة:

من المعلوم أن رفعَ عادةٍ صغيرة – كالتدخين مثلاً – من طائفة صغيرة بالكلية، قد يَعْسَرُ على حاكم عظيم، بهمّةٍ عظيمة، مع انا نرى هذا النبي الكريم (ص) قد رفع بالكلّية، عاداتٍ كثيرة، من أقوام عظيمة، متعصبين لعاداتهم، معاندين في حسيّاتهم، رفعها بقوةٍ جزئية، وهمّة قليلة في ظاهر الحال، وفي زمان قصير، وغَرَسَ بدَلَها برسوخ تامٍ في سجيتهم عادات عالية، وخصائلَ غالية. فيتراءى لنا من خوارق اجراآته الأساسية ألوفَ ما رأينا، فمَن لم يَر هذا العصر السعيد نُدخل في عينه هذه الجزيرة ونتحداه. فليجربْ نفسه فيها. فليأخذوا مائةً من فلاسفتهم وليذهبوا اليها وليعملوا مائة سنة هل يتيسر لهم أن يفعلوا جزءاً من مائة جزء مما فعله (ص) في سنة بالنسبة الى ذلك الزمان؟!

o الرشحة التاسعة:

إعلم! إن كنت عارفاً بسجية البشر أنه لا يتيسّر لعاقل أن يدّعي – في دعوىً فيها مناظرة – كذباً يخجل بظهوره، وأن يقوله بلا حرج وبلا تردد وبلا إضطراب يشير الى حيلته، وبلا تصنع وتهيج يوميان الى كذبه، أمام أنظار خصومه النقّادة، ولو كان شخصاً صغيراً، ولو في وظيفة صغيرة، ولو بمكانة حقيرة، ولو في جماعة صغيرة، ولو في مسألة حقيرة. فكيف يمكن تداخل الحيلة ودخول الخلاف في مدّعيات مثل هذا الشخص الذي هو موظف عظيم، في وظيفة عظيمة، بحيثية عظيمة، مع أنه يحتاج لحماية عظيمة، وفي جماعة عظيمة، مقابل خصومة عظيمة، وفي مسألة عظيمة، وفي دعوىً عظيمة؟

وها هو يقول ما يقول بلا مبالاة بمعترض، وبلا تردّد وبلا تحرج وبلا تخوف وبلا إضطراب وبصفوة صميمية، وبجدّية خالصة، وبطرز يثير اعصاب خصومه، بتزييف عقولهم وتحقير نفوسهم وكسر عزتهم، باسلوب شديد علويّ. فهل يمكن تداخل الحيلة في مثل هذه الدعوى من مثل هذا الشخص، في مثل هذه الحالة المذكورة؟ كلا! (إن هو إلاّ وحْيٌ يُوحى).

نعم! إن الحق أغنى من أن يَدلس، ونظر الحقيقة أعلى من أن يُدلس عليـــه! نعـــم! إن مسلكه الحق مستغنٍ عن التدليس، ونظرَه النفّاذ متزّهٌ من أن يلتبس عليه الخيالُ بالحقيقة..

oالرشحة العاشرة:

انظر واستمعْ الى ما يقول! ها هو يبحث عن حقائق مدهشة عظيمة، ويبحـــث عـــن مسائل جاذبة للقلوب، جالبة للعقول الى الدقة والنظر؛ إذ من المعلوم أن شوق كشف حقائق الأشياء قد ساق الكثيرين من أهل حب الاستطلاع واللهفة والاهتمام الى فـــداء الأرواح. ألا ترى أنه لو قيل لك: إن افديت نصفَ عمرك، أو نصفَ مالك؛ لترل من القمر أو المشـــتري شخصٌ يُخبرك بغرائب أحوالهما، ويخبرك بحقيقة مستقبل أيامك؟ أظنك ترضى بالفداء. فيـــا للعجب؟ ترضى لدفع ما تتلهف اليه بنصف العمر والمال، ولا تهتم بما يقول هـــذا النـــــبي الـــكريم (ص) ويصـــدِّقه إجماعٌ اهل الشهود وتواتر أهل الاختصاص من الأنبياء والصديقين والأولياء والمحققين! بينما هو يبحث عن شؤون سلطانٍ، ليس القمر في مملكته إلاّ كـــذباب يطير حول فراش، وهذا يحوم حول سراج من بين ألوف من القناديل التي أسرجها في مترل من بين ألوف منازله الذي أعدّه لضيوفه.. وكذا يخبر عن عالمٍ هو محل الخوارق والعجائب، وعن انقلاب عجيب، بحيث لو انفلقت الارضُ وتطايرت جبالُها كالسحاب ما ســـاوتْ عُشـــر معشار غرائب ذلك الانقلاب. فإن شئت فاستمع من لسانه أمثال السور الجليلة:

(اِذا الشَّمْسُ كُوِّرتْ)و (اِذا السّـــمآء انْفَطَـــرَتْ) (واِذا زُلْزِلَـــت الأرضُ زِلْزَالَهـــا) و(الْقارعة).

وكذا يخبر بصدق عن مستقبل، ليس مستقبل الدنيا بالنسبة اليه إلا كقطرة سراب بـــلا طائل بالنسبة الى بحر بلا ساحل. وكذا يبشّر عن شهود بسعادة، ليست سعادة الدنيا بالنسبة اليها الاّ كبرقٍ زائلٍ بالنسبة الى شمس سرمدية.

o الرشحة الحادية عشرة:

ان تحت حجاب هذه الكائنات – ذات العجائب والأسرار – تنتظرنا أمورٌ أعجـــب. ولابدَّ للإخبار عن تلك العجائب والخوارق من شخصٍ عجيبٍ خارقٍ يُستَشفّ من أحوالـــه أنه يشاهِد ثم يَشهد، ويَبصُر ثم يُخبر.

نعم! نشاهد من شؤونه واطواره أنه يشاهد ثم يشهَد فيُنذر ويبشر. وكذا يُخبر عن مرضيات رب العالمين – الذي غمرنا بنعمه الظاهرة والباطنة – ومطالبه منا وهكذا...

فيا حسرة على الغافلين! ويا خسارة على الضالين! ويا عجبا من بلاهة اكثر الناس! كيف تعامَوا عن هذا الحق وتصامّوا عن هذه الحقيقة؟ لا يهتمون بكلام هذا النبي الكريم(ص) مع أن من شأن مثِله أن تُفدى له الأرواحُ ويُسرع اليه بترك الدنيا وما فيها؟

oالرشحة الثانية عشرة:

اعلم أن هذا النبي الكريم(ص) المشهود لنا بشخصيته المعنوية، المشهور في العالم بشؤونه العلوية، كما أنه برهانٌ ناطق صادق على الوحدانية، ودليل حقٍ بدرجة حقانية التوحيد، كذلك هو برهان قاطع ودليل ساطع على السعادة الأبدية؛ بل كما أنه بدعوته وهدايته سببُ حصول السعادة الأبدية ووسيلة وصولها، كذلك بدعائه وعبوديته سببُ وجود تلك السعادة الأبدية ووسيلة ايجادها ..

فإن شئت فانظر اليه وهو في الصلاة الكبرى، التي بعظمة وسعتها صيّرت هذه الجزيرة بل الارض مصلين بتلك الصلاة الكبرى.. ثم انظر انه يصلي تلك الصلاة بهذه الجماعة العظمى، بدرجة كأنه هو امامٌ في محراب عصره واصطفَّ خلفَه، مقتدين به جميعُ أفاضل بني آدم، من آدم(عليه السلام) الى هذا العصر الى آخر الدنيا في صفوف الاعصار مؤتمّين به ومؤمِّنين على دعائه. ثم استمع ما يفعل في تلك الصلاة بتلك الجماعة.. فها هو يدعو لحاجةٍ شديدة عظيمة عامة بحيث تشترك معه في دعائه الأرضُ بل السماء بل كل الموجودات، فيقولون بألسنة الأحوال: نعم يا ربنا تقبّل دعاءه؛ فنحن ايضاً بل مع جميع ما تجلّى علينا من أسمائك نطلب حصولَ ما يطلب هو.. ثم انظر الى طوره في طرز تضرعاته كيف يتضرع؛ بافتقار عظيم، في اشتياق شديد، وبحزن عميق، في محبوبية حزينة؛ بحيث يهيّج بكاء الكائنات فيبكيها فيُشركها في دعائه. ثم انظر لأي مقصد وغاية يتضرع؟ ها هو يدعو لمقصد لولا حصول ذاك المقصد لسقط الانسانُ، بل العالم، بل كل المخلوقات الى أسفل سافلين لا قيمة لها ولا معنى. وبمطلوبه تترقّى الموجودات الى مقامات كمالاتها.. ثم انظر كيف يتضرع باستمداد مديد، في غياث شديد، في استرحام بتودد حزين، بحيث يُسمع العرش والسموات،

ويهيّج وَجْدها، حتى كأن العرشَ والسموات يقول: آمين اللّهم آمين.. ثم انظر ممن يطلب مسؤلَه؛ نعم! يطلب من القدير السميع الكريم ومن العليم البصير الرحيم، الذي يَسمَع أخفى دعاء من أخفى حيوان في أخفى حاجة؛ إذ يجيبه بقضاء حاجته بالمشاهدة، وكذا يبصر أدنى أملٍ في أدنى ذي حياةٍ في أدنى غايةٍ، اذ يوصله اليها من حيث لا يحتسب بالمشاهدة، ويكرم ويرحم بصورة حكيمة، وبطرز منتظم. لا يبقى ريب في أن هذه التربية والتدبير من سميع عليم ومن بصير حكيم.

oالرشحة الثالثة عشرة:

فيا للعجب!.. ما يطلب هذا الذي قام على الأرض، وجَمَع خلفه جميع افاضل بني آدم ورفع يديه متوجهاً الى العرش الاعظم يدعو دعاءً يؤمّن عليه الثقلان. ويُعلَم من شؤونه أنه شرفُ نوع الانسان، وفريدُ الكون والزمان، وفخرُ هذه الكائنات في كل آن، ويستشفع بجميع الاسماء القدسية الإلهية المتجلية في مرايا الموجودات، بل تدعو وتطلب تلك الأسماء عينَ ما يطلب هو. فاستمع! ها هو يطلب البقاء واللقاء والجنة والرضا. فلو لم يوجد مالا يعد من الأسباب الموجبة لإعطاء السعادة الأبدية من الرحمة والعناية والحكمة والعدالة المشهودات - المتوقف كونها رحمة وعناية وحكمة وعدالة على وجود الآخرة - وكذا جميع الأسماء القدسية أسباباً مقتضية لها، لكفى دعاء هذا الشخص النوراني لأن يبني ربُه له ولأبناء جنسه الجنة، كما يُنشئ لنا في كل ربيع جناناً مزينة بمعجزات مصنوعاته. فكما صارت رسالته سبباً لفتح هذه الدار الدنيا للامتحان والعبودية، كذلك صار دعاؤه في عبوديته سبباً لفتح دار الآخرة للمكافآت والمجازاة.

فهل يمكن أن يقبل هذا الانتظام الفائق، في هذه الرحمة الواسعة، في هذه الصنعة الحسنة بلا قصور، في هذا الجمال بلا قبح - بدرجة أنطق أمثال الغزالي بـــ »ليس في الامكان أبدع مما كان - «أن تتغير هذه الحقائق الى قبح خشين، وظلم موحش، وتشوش عظيم. أي بعدم مجئ الآخرة؟ إذ سماع أدنى صوت من أدنى خلق في أدنى حاجة وقبولها بأهمية تامة، مع عدم سماع أرفع صوت ودعاء في أشد حاجة، وعدم قبول أحسن مسؤول، في أجمل أمل ورجاء؛

قبحٌ ليس مثله قبح وقصور لا يساويه قصور، حاشا ثم حاشا وكلاّ.. لا يقبل مثل هذا الجمال المشهود بلا قصور مثل هذا القبح المحض.

فيا رفيقي في هذه السياحة العجيبة، ألا يكفيك ما رأيت؟ فإن أردت الإحاطة فلا يمكن، بل لو بقينا في هذه الجزيرة مائة سنة ما احطنا ولا مللنا من النظر بجزء واحد من مائة جزء من عجائب وظائفه، وغرائب اجراآته..

فلنرجع القهقرى، ولننظر عصراً عصراً، كيف اخضرت تلك العصور واستفاضت من فيض هذا العصر؟ نعم، ترى كل عصر تمر عليه قد انفتحت أزاهيرُه بشمس عصر السعادة، وأثمر كلُ عصر من امثال أبي حنيفة والشافعي وأبي يزيد البسطامي وجنيد والشيخ عبد القادر الكيلاني.. والامام الغزالي والشاه النقشبندي والامام الرباني ونظائرهم ألوف ثمراتٍ منوراتٍ من فيض هداية ذلك الشخص النوراني. فلنؤخر تفصيلات مشهوداتنا في رجوعنا الى وقت آخر، ونصلّي ونسلّم على ذلك الذات النوراني الهادي، ذي المعجزات بصلوات وسلام تشير الى قسم من معجزاته:

على من أُنزل عليه القرآن الحكيم من الرحمن الرحيم من العرش العظيم.

على سيدنا محمد ألفُ ألفِ صلاةٍ وسلام بعدد أنفاس أمته.

على مَن بشّر برسالته التوراة والانجيل والزبور والزبر.

وبشّر بنبوّته الارهاصات وهواتف الجن وكواهن البشر وانشقّ باشارته القمر.. سيدنا محمد ألفُ ألفِ صلاةٍ وسلام بعدد حسنات أمته.

على من جاءت لدعوته الشجرُ، ونزل سرعةً بدعائه المطر، واظلّته الغمامة من الحر، وشبع من صاعٍ من طعامه مآتٌ من البشر، ونبع الماء من بين أصابعه ثلاث مرات كالكوثر، وانطق الله له الضب والظبي والذئب والجذع والذراع والجمل والجبل والحجر والمدر والشجر..

صاحب المعراج وما زاغ البصر..

سيدنا وشفيعنا محمد ألف ألف صلاة وسلام بعدد كل الحروف المتشكلة في الكلمات المتمثلة بإذن الرحمن في مرايا تموجات الهواء عند قراءة كل كلمة من القرآن من كل قارئ من أول النزول الى آخر الزمان واغفر لنا وأرحمنا يا الـــــــ"ــهنا بكل صلاة منها.. آمين.

[إعلم: إن دلائل النبوة الأحمدية لا تعدّ ولا تحدّ، ولقد صنّف في بيانها أعاظم المحققين. وأنا مع عجزي وقصوري قد بيّنت شعاعاتٍ من تلك الشمس في رسالة تركية مسّماة بـــــ »شعاعات من معرفة النبي (ص) « وفي »المكتوب التاسع عشر«. وكذا بينت اجمالاً وجـــوه إعجاز معجزته الكبرى – أي القرآن – وقد اشرتُ بفهمي القاصر الى أربعين وجهـــاً مـــن وجوه أعجاز القرآن في رسالة »اللوامع«، وقد بينت من تلك الوجوه واحداً وهـــو البلاغـــة الفائقة النظمية في مقدار أربعين صحيفة من تفســـيري العـــربي المســـمى بــــ »اشـــارات الاعجـــاز«. فإن شـــئـــت فارجع الى هذه الكتب الثلاثة..].

o الرشحة الرابعة عشرة:

اعلم! ان القرآن الكريم الذي هو بحر المعجزات والمعجزة الكبرى يثبت النبوة الأحمديـــة والوحدانية الإلهية إثباتاً، ويقيم حججاً ويسوق براهين ويبرز أدلة تغني عن كل برهان آخر.

فنحن هنا سنشير الى تعريفه، ثم نشير الى لمعاتٍ من اعجازه تلك التي اثارت تســـاؤلاً لدى البعض.

فالقرآن الحكيم الذي يعرّف ربّنا لنا:

هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسّر كتاب العالم.. وكذا هو كشافٌ لمخفيات كنوز الأسمـــاء المســـتترة في صـــحائف السموات والارض.. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المـــُضْمَرة في سطور الحادثات.. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة.. وكذا هو خزينة المخاطبات الازلية السبحانية والالتفاتات الابدية الرحمانية... وكذا هو أساسٌ وهندسةٌ وشمسٌ لهذا العالم المعنوي الاسلامي.. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي.. وكذا هو قولٌ شارحٌ وتفسير واضحٌ وبرهان قاطعٌ وترجمان ساطعٌ لذات الله وصفاته واسمائه وشؤونه.. وكذا هو مربٍّ للعالم الانساني.. وكالماء وكالـــــضياء للأنسانية الكبرى التي هي الاسلامية... وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشـــد

المهدي الى ما خُلِقَ البشرُ له.. وكذا هو للأنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك هو كتـــاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر، وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الانسان المعنوية، كذلك هو كمنزل مقدسٍ مشحون بالكتب والرسائل. حتى انه ابرز لمشرب كل واحدٍ من أهل المشارب المختلفة، ولمسلكِ كل واحدٍ من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمســـاق ذلـــك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل.

u فانظر الـــى بيان لمعة الاعـــجاز في تكرارات القرآن التي يتوهمها القاصرون نقصاً في البلاغة.

اعلم! أن القرآن لأنه كتاب ذكر، وكتاب دعاء، وكتاب دعوة، يكون تكراره أحسن وأبلغ بل ألزم، وليس كما ظنّه القاصرون، إذ الذكر يُكرَّر، والدعاء يُردَّد. والدعوة تؤكَّد. إذ في تكرير الذكر تنويرٌ وفي ترديد الدعاء تقريرٌ وفي تكرار الدعوة تأكيدٌ.

واعلم انه لا يمكن لكلِ أحدٍ في كل وقتٍ قراءة تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء لكل أحدٍ في كل وقت. فلهذا أدْرَجَ الحكيمُ الرحيم اكثر المقاصد القرآنية في اكثر سوره؛ لا سيما الطويلة منها، حتى صارت كلُ سورة قرآناً صغيراً، فسهّل السبيلَ لكل أحدٍ، دون أن يَحْـــرُمَ أحداً، فكرر التوحيد والحشر وقصة موسى عليه السلام.

اعلم! أنه كما أن الحاجات الجسمانية مختلفةٌ في الأوقات؛ كذلك الحاجـــات المعنويـــة الأنســـانية ايضاً مختلفة الأوقـــات. فالى قســـمٍ في كل آن كـــ (هو الله) للروح - كحاجة الجسم الى الهواء - والى قسم في كل ساعة كـــ (بسم الله) وهكذا فقس.

فتكرار الآيات والكلمات اذن للدلالة على تكرّر الاحتياج، وللاشارة الى شدة الاحتياج اليها، ولتنبيه عرق الاحتياج وإيقاظه، وللتشويق على الاحتياج، ولتحريك اشتهاء الاحتيـــاج الى تلك الأغذية المعنوية.

اعلم! أن القرآن مؤسسٌ لهذا الدين العظيم المتين، وأساسات لهذا العـــالم الاســـلامي، ومقلِّبٌ لاجتماعيات البشر ومحوّلها ومبدّلها. وجواب لمكررات أســـئلة الطبقـــات المختلفـــة

للبشرية بألسنة الأقوال والأحوال.. ولابدَّ للمؤسس من التكرير للتثبيت، ومن الترديد للتأكيد، ومن التكرار للتقرير والتأييد.

اعلم! أن القرآن يبحث عن مسائل عظيمة ويدعو القلوب الى الايمان بها، وعن حقائق دقيقة ويدعو العقول الى معرفتها. فلابدَّ لتقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة من التكرار في صور مختلفة وأساليب متنوعة.

اعلم! ان لكل آية ظهراً وبطناً وحدّاً ومَطلعاً، ولكل قصةٍ وجوهاً وأحكاماً وفوائد ومقاصد، فتُذكر في موضعٍ لوجهٍ، وفي آخر لأخرى، وفي سورةٍ لمقصدٍ وفي اُخرى لآخر وهكذا. فعلى هذا لا تكرار إلاّ في الصورة.

اما إجمال القرآن الكريم بعض المسائل الكونية وإبهامه في بعض آخر فهو لمعة اعجاز ساطع وليس كما توهمه أهلُ الألحاد من قصور ومدار نقد.

uفإن قلت:

لأي شئ لا يبحث القرآن عن الكائنات كما يبحث عنها فن الحكمة والفلسفة؟ فَيَدع بعض المسائل مجملاً ويذكر أخرى ذكراً ينسجم مع شعور العوام وافكارهم فلا يمسّها بأذى ولا يرهقها بل يذكرها سلساً بسيطاً في الظاهر؟

نقول جواباً:

لأن الفلسفة عَدِلتْ عن طريق الحقيقة وضلّت عنها، وقد فهمتَ حتماً من الدروس والكلمات السابقة أن القرآن الكريم إنما يبحث عن الكائنات استطراداً، للاستدلال على ذات الله وصفاته واسمائه الحسنى، أي يُفهم معاني هذا الكتاب، كتاب الكون العظيم كي يعرِّف خالقه.

أي أن القرآن الكريم يستخدم الموجودات لخالقها لا لأنفسها. فضلاً عن أنه يخاطب الجمهور.

وعلى هذا، فمادام القرآن يستخدم الموجودات دليلاً وبرهاناً، فمن شرط الدليل أن يكون ظاهراً وأظهرَ من النتيجة أمام نظر الجمهور.

ثم إن القرآن مادام مرشداً فمن شأن بلاغة الإرشاد مماشاة نظر العوام، ومراعاة حسّ العامةِ ومؤانسة فكر الجمهور، لئلا يتوحش نظرُهم بلا طائل ولا يتشوش فكرُهم بلا فائدة، ولا يتشرّد حسُّهم بلا مصلحة، فأبلغُ الخطاب معهم والارشاد أن يكون ظاهراً بسيطاً سهلاً لا يعجزهم، وجيزاً لا يُملّهم، مجملاً فيما لا يلزم تفصيله لهم، ويضرب بالأمثال لتقريب مادقَّ من الأمور الى فهمهم.

فلأن القرآن مرشد لكل طبقات البشر تستلزم بلاغةُ الارشاد أن لا يذكر ما يوقع الاكثرية في المغلطة والمكابرة مع البديهيات في نظرهم الظاهري، وأن لا يغيّر بلا لزوم ما هو متعارف محسوس عندهم، وان يهمل أو يجمل ما لا يلزم لهم في وظيفتهم الأصلية.

فمثلاً: يبحث عن الشمس لا للشمس، ولا عن ماهيتها، بل لِمن نورَّها وجعلها سراجاً، وعن وظيفتها بصيرورتها محوراً لانتظام الصنعة ومركزاً لنظام الخلقة، وما الانتظام والنظام إلاّ مرايا معرفة الصانع الجليل. فيعرّفنا القرانُ باراءة نظام النسج وانتظام المنسوجات كمالات فاطرها الحكيم وصانعها العليم، فيقول: (والشمسُ تجري) ويفهِّم بها وينبه الى تصرفات القدرة الإلهية العظيمة في اختلاف الليل والنهار وتناوب الصيف والشتاء. وفي لفت النظر اليها تنبيه السامع الى عظمة قدرة الصانع وانفراده في ربوبيته. فمهما كانت حقيقة جريان الشمس وبأي صورة كانت لا تؤثر تلك الحقيقة في مقصد القرآن في اراءة الانتظام المشهود والمنسوج معاً.

ويقول أيضاً:

(وَجَعَلَ الشمسَ سراجاً)(نوح:16) ففي تعبير السراج تصوير العالم بصورة قصر، وتصوير الأشياء الموجودة فيه في صورة لوازم ذلك القصر، ومزيّناته، ومطعوماته لسكان القصر ومسافريه، واحساسٌ أنه قد أحضَرَها لضيوفه وخدّامه يدُ كريمٍ رحيم. وما الشمسُ إلاّ مأمور مسخَّر وسراج منوَّر. ففي تعبير السراج تنبيه الى رحمة الخالق في عظمة ربوبيته، وافهامُ إحسانه في سعة رحمته، واحساسُ كرمه في عظمة سلطنته.

فالآن استمع ماذا يقول الفلسفي الثرثار في الشمس. يقول: »هي كتلة عظيمة من المائع الناري تدور حول نفسها في مستقرها، تطايرت منها شرارات وهي أرضنا وسيارات أخرى فتدور هذه الاجرام العظيمة المختلفة في الجسامة.. ضخامتها كذا.. ماهيتها كذا..«

فانظر ماذا أفادتك هذه المسألة غيرَ الحيرة المدهشة والدهشة الموحشة، فلم تُفِدْك كمالاً علمياً ولا ذوقاً روحياً ولا غاية إنسانية ولا فائدة دينية.

فقس على هذا لتقدّر قيمة المسائل الفلسفية التي ظاهرُها مزخرفة وباطنُها جهالة فارغة. فلا يغرّنك تشعشع ظاهرها وتُعرِض عن بيان القرآن المعجز.

اللّهم اجعل القرآن شفاءً لنا ولكاتبه وأمثاله من كل داء، ومؤنساً لنا ولهم في حياتنا وبعد موتنا، وفي الدنيا قريناً، وفي القبر مؤنساً، وفي القيامة شفيعاً، وعلى الصراط نوراً، ومن النار ستراً وحجاباً، وفي الجنة رفيقاً، والى الخيرات كلها دليلاً وإماماً، بفضلك وجودك وكرمك ورحمتك يا اكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين آمين.

اللّهم صلِ وسلم على مَن أنزل عليه الفرقان الحكيم وعلى آله وصحبه أجمعين .. آمين . آمين.

تنبيه:

لقد ذكرنا في المثنوي العربي النوري خمسة عشر نوعاً من انواع اعجاز القرآن البالغ اربعين نوعاً وذلك في ست قطرات للرشحة الرابعة عشرة، ولا سيما النكت الدقيقة الست للقطرة الرابعة.

لذا اجملنا هنا مكتفين بما ذكرناه هناك، فمن شاء فليراجعه.

الكلمة العشرون

»وهي مقامان«

المقام الاول

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(واذ قُلنا للملائكة اسجدُوا لادمَ فسجدوا إلاّ ابليس)(البقرة:34)

(إن الله يأمُركم ان تذبحُوا بقرةً) (البقرة:67)

(ثم قَسَتْ قلوبُكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوةً) (البقرة:74)

كنت اتلو هذه الآيات الكريمة يوماً، فورد إلهامٌ من فيض نور القرآن الكريم في نكات ثلاث ليصدّ إلقاءات ابليس!. وصورة الشبهة الواردة هي:

قال: انكم تقولون: ان القرآن معجز، وفي ذروة البلاغة، وانه هدىً للعالمين في كل وقت وآن، ولكن ماذا يعني ذكر حوادث جزئية وسردها سرداً تأريخياً والتأكيد عليها وتكرارها؟ وما الداعي الى ذكر حادثة جزئية كذبح بقرة ضمن هالة من الاوصاف، حتى تسمّت السورة باسم »البقرة«؟

ثم ان القرآن يرشد ارباب العقول عامة ويذكر في كثير من مواضعه »أفلا يعقلون« اي يحيل الأمر الى العقل، في حين أن حادثة سجود الملائكة لآدم أمر غيبي محض لا يجد العقل اليه سبيلاً، الاّ بالتسليم أو الاذعان بعد الايمان القوي الراسخ.

ثم اين وجه الهداية في بيان القرآن حالات طبيعية تحدث مصادفة للاحجار والصخور واضفاء اهمية بالغة عليها؟

وصورة النكت الملهمة هي الآتية:

o النكتة الاولى:

ان في القرآن الحكيم حوادث جزئية، ولكن وراء كل حادث يكمن دستور كلي عظيم. وانما تُذكر تلك الحوادث لانها طرف من قانون عام شامل كلي وجزء منه.

فالآية الكريمة (وعلّم آدمَ الاسماء كُلَّها) تبين ان تعليم الاسماء معجزة من معجزات سيدنا آدم عليه السلام تجاه الملائكة، اظهاراً لإستعداده للخلافة. وهي وإن كانت حادثة جزئية الا انها طرف لدستور كلي هو:

ان تعليم الانسان – المالك لإستعداد جامع – علوماً كثيرة لا تحد، وفنوناً كثيرة لا تحصى حتى تستغرق انواع الكائنات، فضلاً عن تعليمه المعارف الكثيرة الشاملة لصفات الخالق الكريم سبحانه وشؤونه الحكيمة.. ان هذا التعليم هو الذي أهّل الانسان لينال أفضلية، ليس على الملائكة وحدهم، بل ايضاً على السموات والارض والجبال، في حمل الأمانة الكبرى.

واذ يذكر القرآن خلافة الانسان على الارض خلافة معنوية، يبين كذلك ان في سجود الملائكة لآدم وعدم سجود الشيطان له – وهي حادثة جزئية غيبية – طرفاً لدستور مشهود كلي واسع جداً، وفي الوقت نفسه يبين حقيقة عظيمة هي أن القرآن الكريم بذكره طاعة الملائكة وانقيادهم لشخص آدم عليه السلام وتكبّر الشيطان وامتناعه عن السجود، انما يفهّم ان اغلب الانواع المادية للكائنات وممثليها الروحانيين والموكلين عليها، مسخرة كلها ومهيأة لإفادة جميع حواس الانسان افادة تامة، وهي منقادة له.. وان الذي يفسد استعداد الانسان الفطري ويسوقه الى السيئات والى الضلال هي المواد الشريرة وممثلاتها وسكنتها الخبيثة، مما يجعلها اعداءً رهيبين، وعوائق عظيمة في طريق صعود الانسان الى الكمالات.

واذ يدير القرآن الكريم هذه المحاورة مع آدم عليه السلام وهو فرد واحد ضمن حادثة جزئية، فانه في الحقيقة يدير محاورة سامية مع الكائنات برمتها والنوع البشري قاطبة.

oالنكتة الثانية:

من المعلوم ان اراضي مصر جرداء قاحلة، اذ هي جزء من الصحراء الكبرى، الاّ انها تدّر محاصيل وفيرة ببركة نهر النيل، حتى غدت كأنها مزرعة تجود بوفير المحاصيل؛ لذا فان وجـــود مثل هذه الجنة الوارفة بجنب تلك الصحراء التي تستطير ناراً ، جعل الزراعة والفلاحة مرغوبة فيها لدى اهل مصر حتى توغلت في طبائعهم. بل اضفت تلك الرغبة الشديدة في الزراعة نوعاً من السمو والقدسية، كما اضفت بدورها قدسية على واسطة الزراعة من ثور وبقر، حتى بلغ الامر أن منح اهل مصر – في ذلك الوقت – قدسية على البقر والثور الى حدّ العبادة، وقـــد ترعرع بنو اسرائيل في هذه المنطقة وبين احضان هذه البيئة والاجواء فأخذوا مـــن طبـــائعهم حظاً، كما يُفهم من حادثة »العجل« المعروفة.

وهكذا يعلّمنا القرآن الكريم بذبح بقرة واحدة، أن سيدنا موسى عليه السلام، قد ذبح برسالته مفهوم عبادة البقر، ذلك المفهوم الذي سرى في عروق تلـــك الامـــة، وتنـــامى في استعداداتهم.

فالقرآن الكريم انما يبين بهذه الحادثة الجزئية بياناً معجزاً، دستوراً كلياً، ودرساً ضرورياً في الحكمة يحتاجه كل أحد في كل وقت.

فافهم قياساً على هذا:

ان الحوادث الجزئية المذكورة في القرآن الكريم، على صورة حوادث تأريخية، انما هـــي طرف وجزء من دساتير كلية شاملة ينبئ عنها، حتى ان كل جملة جزئية من الجمل الســـبع لقصة موسى عليه السلام المكررة في القرآن تتضمن دستوراً كلياً عظيماً، كما بيّنا في كتابنـــا »اللوامع« راجعه ان شئت.

oالنكتة الثالثة:

قوله تعالى: (ثم قَسَتْ قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوةً _ وانّ مـــن الحجارة لَمَا يتفجر منه الانهار_ وان منها لما يشّقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط مـــن خشية الله وما الله بغافل عما تعملون) (البقرة:74 – 76)

عند قراءتي لهذه الآيات البينات، قال الموسوس:

ماذا يعني ذكر حالات طبيعية وفطرية للاحجار الاعتيادية وبيانها كأنها مسألة عظيمة، مع انها معلومة لدى الناس؟ وما وجه العلاقة والمناسبة والسبب؟ وهل هناك من داعٍ أو حاجة اليها؟

فأُلهم قلبي الالهام الآتي من فيض القرآن لصدّ هذه الشبهة:

نعم، هناك علاقة وسبب، وهناك داعٍ وحاجة، بل العلاقة قوية والمعنى جليل والحقيقة ضرورية وعظيمة بحيث لا يتيسر الاّ لإعجاز القرآن وايجازه ولطف ارشاده أن يسهّلها وييسّرها للفهم.

ان الايجاز الذي هو اساس مهم من اسس الاعجاز، وكذا لطف الارشاد وحسن الافهام الذي هو نور من هدي القرآن، يقتضيان أن تُبيَّن الحقائق الكلية والدساتير الغامضة العامة، في صور جزئية مألوفة للعوام الذين يمثلون معظم مخاطبي القرآن، وان لا تبين لاولئك البسطاء في تفكيرهم الاّ طرفاً من تلك الحقائق المعظمة وصوراً بسيطة منها..

زد على ذلك ينبغي ان تبين لهم التدابير الإلهية تحت الارض التي هي خوارق العادات والتي تسترت بستار العادة والألفة، بصورة مجملة.

فبناء على هذا:

يقول القرآن الحكيم في هذه الآيات: يا بني اسرائيل ويا بني آدم! ماذا دهاكم حتى غلظت قلوبُكم واصبحت أصلب من الحجر واقسى منها! ألا ترون ان اصلب الصخور واصمها، التي تشكل طبقة عظيمة من الاحجار الصلدة تحت التراب، مطيعة للاوامر الإلهية طاعة تامة، ومنقادة الى الاجراءات الربانية انقياداً كاملاً. فكما تجري الاوامر الإلهية في تكوين الاشجار والنباتات في الهواء بسهولة مطلقة، تجري على تلك الصخور الصماء الصلدة تحت الارض بالسهولة نفسها وبانتظام كامل. حتى ان جداول الماء وعروقها تحت الارض تجري بانتظام كامل وبحكمة تامة من دون ان تجد عائقاً أو مقاومة تُذكر من تلك الصخور،

فينساب الماء فيها كانسياب الدم وجريانه داخل العروق في الجســـم مـــن دون مقاومـــة أو صدود.[74]

ثم ان الجذور الرقيقة تنبت وتتوغل في غاية الانتظام بامر رباني في تلك الصخور التي هي تحت الارض دون ان يقف امامها حائل أو مانع، فتنتشر بسهولة كسهولة انتشـــار اغصـــان الاشجار والنباتات في الهواء.

فالقرآن الكريم يشير بهذه الآية الكريمة الى حقيقة واسعة جداً، ويرشد اليهـــا مخاطبـــاً القلوب القاسية مرمزاً اليها على النحو الآتي:

يا بني اسرائيل ويا بنى آدم! ما هذه القلوب التي تحملونها وأنتم غـــارقون في فقـــركم وعجزكم! انها تقاوم بغلظة وبقساوة أوامر مولىً جليل عظيم، تنقاد له طبقـــات الصـــخور الصلدة الهائلة، ولا تعصيه امراً، بل تؤدي كل منها وظيفتها الرفيعة في طاعة كاملة وانقيـــاد تام؛ وهي مغمورة في ظلمات الارض. بل تقوم تلك الصـــخور بوظيفة المستودع والمخـــزن لمتطلبات الحياة للاحياء الذين يدبون على تراب الارض. حتى انها تكون لـــينة طرية في يـــد القدرة الحكيمة الجليلة، طراوة شمع العسل، فتكون وسائل لتقسيمات تتم بعدالـــة، وتكـــون

---

[74] نعم! ان حجر الزاوية لقصر الارض المهيب السيار، هو طبقة الصخور، فقد أوكل اليها الفاطر الجليل ثلاث وظائف مهمة، والقرآن الكريم وحده القمين بأن يبين هذه الوظائف، لا غيره .

فوظيفتها الاولى: وظيفة مربية التراب في حجرها بالقدرة الإلهية، والتراب بدوره يؤدي وظيفة الامومة للنباتات بالقدرة الربانية.

الوظيفة الثانية: العمل على جريان المياه جرياناً منتظماً في جسم الارض، والذي يشبه جريان الدم ودورانه في جسم الانسان.

الوظيفة الفطرية الثالثة: وظيفة الخزان للانهار والعيون والينابيع، سواءً في ظهورها أو استمرارها على وفق ميزان دقيق منتظم.

نعم! ان الصخور بكامل قوتها وبملء فمها بما تسكب من افواهها من ماء باعث على الحياة تنشر دلائل الوحدانية على الارض وتسطرها عليها.ـــــ المؤلف.

وسائط لتوزيعات تنتهي بحكمة، بل تكون رقيقة رقة هواء النسيم، نعم! انها في سجدة دائمة امام عظمة قدرته جل جلاله.

فهذه المصنوعات المنتظمة المتقنة الماثلة امامنا فوق الارض، وهذه التدابير الإلهية ذات الحكمة والعناية الجارية عليها هي ايضاً بعينها تجري تحت الارض بل تتجلى فيها الحكمة الإلهية والعناية الربانية بأعجب منها حكمةً واغرب منها انتظاماً.

تأملوا جيداً! ان اصلب الصخور واضخمها واصمّها تلين ليونة الشمع تجاه الاوامر التكوينية، ولا تبدي اية مقاومة أو قساوة تُذكر تجاه تلك الموظفات الإلهية اي المياه الرقيقة والجذور الدقيقة والعروق اللطيفة لطافة الحرير، حتى كأنها عاشق يشق قلبه بمسٍّ من أنامل تلك اللطيفات والجميلات، فتتحول تراباً في طريقهن..

وكذا قوله تعالى (وإنَّ منها لَمَا يهبط من خشية الله) فانه يبيّن طرفاً من حقيقة عظيمة جداً هي:

ان الجبال التي على سطح الارض، والتي تجمدت بعد ان كانت في حالة مائعة وسائلة. واصبحت كتلاً ضخمة من الصخور الصلدة، تتفتت وتتصدع، بتجليات جلالية، تتجلى على صورة زلازل وانقلابات ارضية، مثلما تناثر واصبح دكاً ذلك الجبل الذي تجلّى عليه الرب سبحانه في طلب موسى عليه السلام رؤية الله جل جلاله.

فتلك الصخور تهبط من ذرى تلك الجبال، من خشية ظهور تجليات جلالية ورهبتها، فتتناثر اجزاؤها. فقسم منها ينقلب تراباً تنشأ منه النباتات.. وقسم آخر يبقى على هيئة صخور تتدحرج الى الوديان وتكتسح السهول فيستخدمها اهلُ الارض في كثير من الامور النافعة – كبناء المساكن مثلاً – فضلاً عن امورٍ وحكم مخفية ومنافع شتى، فهي في سجدة وطاعة للقدرة الإلهية وانقياد تام لدساتير الحكمة الربانية.

فلا ريب ان ترك الصخور لمواضعها الرفيعة من خشية الله واختيارها الاماكن الواطئة في تواضع جم، وتسببها لمنافع جليلة شتى، أمر لا يحدث عبثاً ولا سدىً وهو ليس مصادفة عمياء ايضاً، بل هو تدبير رب قدير حكيم يحدثه بانتظام وحكمة وإن بدا في غير انتظام في ظاهر الأمر.

والدليل على هذا الفوائد والمنافع التي تجنى من تفتت الصخور ويشهد عليه شـــهادة لا ريب فيها كمال الانتظام وحسن الصنعة للحلل التي تخلع على الجبال التي تتـــدحرج منـــها الصخور، والتي تزدان بالازاهير اللطيفة والثمرات الجميلة والنقوش البديعة.

وهكذا رأيتم كيف أن هذه الآيات الثلاث لها اهميتها العظيمة من زاوية الحكمة الإلهية.

والآن تدبروا في لطافة بيان القرآن العظيم وفي اعجاز بلاغته الرفيعة، كيف يبين طرفـــاً وجزءاً من هذه الحقائق الثلاث المذكورة، وهي حقائق جليلة وواسعة جداً، يبينها في ثـــلاث فقرات وفي ثلاث حوادث مشهورة مشهودة، وينبه الى ثلاث حوادث اخرى لتكون مـــدار عبرة لأولى الالباب ويزجرهم زجراً لا يقاوم.

فمثلاً: يشير في الفقرة الثانية (وإنّ منها لما يشّـــقّق فيخرج ُمنه الماءُ) الى الصخرة الـــتي انشقت بكمال الشوق تحت ضرب عصا موسى فانبجست منها اثنتا عشرة عيناً، وفي الوقت نفسه يورد الى الذهن هذا المعنى ويقول:

يا بني اسرائيل! ان الصخور الضخمة تتشتت وتتشقق وتلين تجاه معجزة واحدة مـــن معجزات سيدنا موسى عليه السلام وتذرف الدموع كالسيل من خشيتها أو من ســـرورها فكيف تتمردون تجاه معجزات موسى عليه السلام كلها، ولا تدمع اعينكم بل تجمد وتغلـــظ قلوبكم وتقسو.

ويذكّر في الفقرة الثالثة: (وانّ منها لَمَا يهبط من خشية الله) تلك الحادثة الجليلة الـــتي حدثت في طورسيناء، اثناء مناجاة سيدنا موسى عليه السلام. تلك هي التجلي الإلهي الاعظم الى الجبل وجعله دكاً حتى تفتت وتناثر في الارجاء من خشيته سبحانه. ويرشـــد في الوقـــت نفسه الى معنى كهذا:

يا قوم موسى (عليه السلام) كيف لا تتقون الله ولا تخشونه، فالجبال الشاهقة التي هي صخور صلدة تتصدع من خشيته وتتبعثر، وفي الوقت الذي ترون انه قد أخذ الميثاق مـــنكم برفع جبل الطور فوقكم، مع مشاهدتكم وعلمكم تشقق الجبل في حادثة الرؤيـــة الجليلـــة، فكيف تجرأون ولا ترتعد فرائصكم من خشيته سبحانه، بل تغلظ قلوبكم؟.

ويذكّر في الفقرة الاولى (وإنّ من الحجارة لَمَا يتفجر منه الانهارُ) مشيراً الى أنهار كالنيل ودجلة والفرات النابعة من الجبال ويعلّم في الوقت نفسه مدى نيل تلك الاحجار للطاعة المعجزة والانقياد الخارق تجاه الاوامر التكوينية ومدى كونها مسخّرة لها. فيورث بهذا التعليم القلوب المتيقظة هذا المعنى:

انه لا يمكن قطعاً ان تكون هذه الجبال الضخمة منابع حقيقية لمثل هذه الانهار العظيمة لأنه لو كانت هذه الجبال بحجمها الكامل مملوءة بالماء، اي لو اصبحت احواضاً مخروطية لتلك الانهار، فانها لا تكفي لصرفيات تلك الانهار الا لبضعة شهور وذلك لسيرها السريع وجريانها الدائم. فضلاً عن ان الامطار التي لا تنفذ في التراب لأكثر من متر، لا تكون ايضاً واردات كافية لتلك الصرفيات الهائلة.

بمعنى ان تفجّر هذه الانهار ليس امراً اعتيادياً طبيعياً، أو من قبيل المصادفة، بل ان الفاطر الجليل يسيّلها من خزينة الغيب وحدها، ويجريها منها جرياناً خارقاً. واشارة الى هذا افادت رواية الحديث الشريف بهذا المعنى: ان كلاً من تلك الانهار الثلاثة تقطر عليها كل وقت قطرات من الجنة، لذا اصبحت مباركة. وفي رواية ان منابع هذه الأنهار الثلاثة من الجنة[75] وحقيقة هذه الرواية هي:

ان الاسباب المادية لا تكفي لتفجر هذه الانهار وتدفقها بهذه الكثرة، فلابد ان تكون منابعها في عالم غيب، وانها ترد من خزينة رحمة غيبية، وعندها تتوازن الواردات والصرفيات وتدوم. وهكذا يعلّم القرآن الكريم درساً بليغاً وينبّه الى هذا المعنى:

يا بني اسرائيل ويا بني آدم! انكم بقساوة قلوبكم تعصون اوامر رب جليل، وبغفلتكم عنه تغمضون عيونكم عن نور معرفة ذلك النور المصور الذي حوّل ارض مصر الى جنة وارفة

---

[75] عن ابي هريرة قال: قال رسول الله (ص) »سَيْحان وجَيحان والفرات والنيل كلٌّ من انهار الجنة«. ــــ مسلم: كتاب الجنة:26، وفي الخطيب البغدادي »ليس من الجنة في الارض شئ إلاّ ثلاثة اشياء: غرس العجوة والحجر وأواقٍ تنزل في الفرات كلَّ يوم بركة من الجنة«.وانظر فيض القدير 381/5.ــــ المترجم

الظلال واجرى النيل العظيم المبارك وامثاله من الانهار من افواه احجار صلدة بسيطة مظهـــراً معجزات قدرته وشواهد وحـــدانيته قوية بقوة تلك الانهار العظيمة ونيّرة بشـــدة ظهورهـــا وافاضاتها. فيضـــع تلك الشواهد في قلب الكائنات ويسلّمها الى دماغ الارض، ويسيّلها في قلوب الجن والانس وفي عقولهم.

ثم انه سبحانه وتعالى يجعل صخوراً جامدة لا تملك شعوراً قط [76]تنال معجزات قدرتـــه حتى انها تدل على الفاطر الجليل كدلالة ضوء الشمس على الشمس. فكيف لا ترون وتعمى ابصاركم عن رؤية نور معرفته جل جلاله؟

فانظر! كيف لبست هذه الحقائق الثلاث حلل البلاغة الجميلة، ودقق النظر في بلاغـــة الارشاد لترى مدى القساوة والغلظة التي تملك القلوب ولا تنسحق خشية امام ذلك الارشاد البليغ.

فان كنت قد فهمت من بداية هذه الكلمة الى نهايتها، فشاهد لمعة اعجـــاز اســـلوب الارشاد القرآني واشكر ربك العظيم عليه.

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

اللّهم فهّمنا اسرار القرآن كما تحب وترضى ووفقنا لخدمته.. آمين

برحمتك يا ارحم الراحمين.

---

[76]) ينبع نهر النيل من جبل القمر، وينبع اهم رافد دجلة من كهف صخرة في ناحية »مكس« التابعة لمحافظة »وان« وان اعظم رافد لنهر الفرات ينبع من سفح جبل من جهة »ديادين« ولما كان اصل الجبال حقيقة متكونة من مادة مائعة تجمدت احجاراً كما هو ثابت في العلوم الحديثة وكما يدل عليه الذكر النبوي في: »سبحان من بسط الارض على ماء جَمَدْ« مما يدل دلالة قاطعة على ان اصل خلق الارض على الوجه الآتي:

ان مادة شبيهة بالماء قد انجمدت بالامر الالهي واصبحت حجراً، والحجر أصبح تراباً باذن الهي، اذ لفظ الارض الوارد في الذكر يعني التراب. بمعنى ان ذلك الماء (المادة المائعة) لين لطيف جداً بحيث لا يمكن استقرار شيء عليه. والحجر بذاته صلب جداً لا يمكن الاستفادة منه، لذا نشر الحكيم الرحيم التراب فوق الحجر ليكون مستقراً لذوي الحياة. ـــــ المؤلف.

اللّهم صل وسلم على من أُنزل عليه القرآن الحكيم وعلى آله وصحبه أجمعين.

المقام الثاني

من الكلمة العشرين

لمعة اعجاز قرآني تتلألأ على وجه معجزات الانبياء

»أنعم النظر في الجوابين المذكورين في الختام«

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاّ في كتابٍ مبين) (الانعام:59)

لقد كتبتُ قبل أربع عشرة سنة [77] بحثاً يخص سراً من أسرار هـــذه الآيـــة الكريمـــة في تفسيري الذي كتبته باللغة العربية الموسوم بـــ »اشارات الاعجاز في مظان الايجـــاز« والآن استجابة لطلب أخوين كريمين عزيزين عندي اكتب ايضاحاً باللغة التركية لذلك البحـــث، مستعيناً بتوفيق العلي القدير ومستلهماً من فيض القرآن الكريم، فأقول:

ان »كتاب مبين – «على قول – هو القرآن الكريم. فهذه الآية الكريمة تبيّن أنه: ما من رطب ولا يابس إلاّ وهو في القرآن الكريم.

– أتراه كذلك؟

– نعم! ان في القرآن كل شئ. ولكن لا يستطيع كل واحد أن يرى فيه كلَّ شئ. لأن صور الاشياء تبدو في درجات متفاوتة في القرآن الكريم، فأحياناً توجد بذور الشئ أو نـــواه، واحياناً مجمل الشئ أو خلاصته، واحياناً دساتيره، واحياناً توجد عليه علامات. ويرد كل من هذه الدرجات؛ اما صراحة أو اشارة أو رمزاً أو ابهاماً أو تنبيهاً. فيعبّر القرآن الكـــريم عـــن اغراضه ضمن أساليب بلاغته، وحسب الحاجة، وبمقتضى المقام والمناسبة.

* فمثلاً: ان الطائرة والكهرباء والقطار واللاسلكي وامثالها من منجزات العلم والصناعة –التكنلوجيا الحديثة – والتي تعدّ حصيلة التقدم الانساني ورقيه في مضمار الصناعة والعلـــم، أصبحت هذه الاختراعات موضع اهتمام الانسان، وتبوأت مكانة خاصة في حياته المادية.

---

[77] المقصود السنة الاولى من الحرب العالمية الاولى. ـــــ المترجم

لذا فالقرآن الكريم الذي يخاطب البشرية قاطبة لم يهمل هذا الجانب من حياة البشر، بل قد أشار الى تلك الخوارق العلمية من جهتين:

الجهة الاولى: اشار اليها عند اشارته الى معجزات الانبياء عليهم السلام.

الجهة الثانية: اشار اليها عند سرده بعض الحوادث التاريخية.

فعلى سبيل المثال: فقد اشار الى القطار في الآيات الكريمة الآتية:

(قُتلَ اصحابُ الاخدود_ النارِ ذاتِ الوَقُودِ_ اذ هُم عليها قُعودٌ_ وهُم على ما يفعلونَ بالمؤمنينَ شُهودٌ_ وما نَقَموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيزِ الحميد).[78] (البروج: 4ـــ 8)

وايضاً:

(في الفُلك المشحون_ وخَلقنا لهم مِن مثلِه ما يَركبون) (يس:41 - 42)

والآية الكريمة الآتية ترمز الى الكهرباء علاوة على اشارتها الى كثير من الأنوار والاسرار:

(الله نورُ السمواتِ والارض مثلُ نورهِ كمشكوةٍ فيها مصباحٌ المصــباحُ في زجاجــةٍ الزجاجُة كأنها كوكبٌ درّيٌّ يوقَدُ مِن شجرةٍ مُباركةٍ زيتونةٍ لا شرقية ولا غربيةٍ يكادُ زيتُها يُــضيء ولو لم تمسسهُ نارٌ نورٌ على نورٍ يهدى الله لنوره مَن يشاءُ)[79] (النور:35)

ولما كان الكثيرون من الفضلاء قد انصرفوا الى هذا القسم، وبذلوا جهــوداً كــثيرة في توضيحه علماً ان القيام ببحثه يتطلب دقة متناهية ويستدعي بسطاً للموضوع اكثر من هــذا وايضاحاً وافياً. فضلاً عن وجود أمثلة وفيرة عليه، لذا لا نفتح هذا الباب، ونكتفي بالآيــات المذكورة.

اما القسم الاول الذي يشير الى تلك الاختراعات الشبيهة بالخوارق ضــمن اشــارات القرآن الى معجزات الانبياء.. سنذكر نماذج منه.

---

[78] تشير هذه الجملة الى ان الذي قيّد العالم الاسلامي، ووضعه في الاسر هو القطار، وبه غلب الكفار المسلمين. ـــــ المؤلف.

[79] ان جملة (يكاد زيتها يــضئ ولو لم تمسسه نار، نور على نور) تضئ ذلك الرمز وتنوره. ـــــ المؤلف

المقدمة:يبيّن القرآن الكريم ان الانبياء عليهم السلام قد بُعثوا الى مجتمعـات انسـانية ليكونوا لهم ائمة الهدى يُقتدى بهم، في رقيهم المعنوي. ويبين في الوقت نفسه ان الله قد وضع بيد كلٍ منهم معجزة مادية، ونَصَبهم روّاداً للبشرية واساتذة لها في تقدمها المادي ايضـاً. أي انه يأمر بالاقتداء بهم واتباعهم اتباعاً كاملاً في الامور المادية والمعنوية؛ اذ كما يحض القـرآنُ الكريم الانسانَ على الاستزادة من نور الخصال الحميدة التي يتحلى بها الانبياء عليهم السلام، وذلك عند بحثه عن كمالاتهم المعنوية، فانه عند بحثه عن معجزاتهم المادية ايضاً يومئ الى إثارة شوق الانسان ليقوم بتقليد تلك المعجزات التي في ايديهم، ويشير الى حضّـه علـى بلـوغ نظائرها، بل يصح القول: ان يد المعجزة هي التي أهدت الى البشرية الكمال المادي وخوارقه لاول مرة، مثلما أهدت اليها الكمال المعنوي. فدونك سفينة نوح عليه السلام وهي احـدى معجزاته، وساعة يوسف عليه السلام، وهي احدى معجزاته. فقد قدمتهما يدُ المعجزة لاول مرة هدية ثمينة الى البشرية. وهناك اشارة لطيفة الى هذه الحقيقة، وهي اتخاذ أغلب الصناع نبياً من الانبياء رائداً لصنعتهم وقطباً لمهنتهم. فالملاحون – مثلاً – اتخذوا سيدنا نوحاً عليه السلام رائدهم والساعاتيون اتخذوا سيدنا يوسف عليه السلام امامهم، والخياطون اتخـذوا سـيدنا ادريس عليه السلام مرشدهم..

ولما كان العلماء المحققون من أهل البلاغة قد اتفقوا جميعاً ان لكل آية كريمة وجوهـاً عدة للارشاد، وجهات كثيرة للهداية، فلا يمكن اذاً ان تكون أسطع الآيات وهـي آيـات المعجزات، سرداً تاريخياً، بل لابد انها تتضمن ايضاً معاني بليغة جمة للارشاد والهداية.

نعم، ان القرآن الكريم بايراده معجزات الانبياء انما يخط الحدود النهائية لأقصى ما يمكن ان يصل اليه الانسان في مجال العلوم والصناعات، ويشير بها الى أبعد نهاياتها، وغاية ما يمكـن ان تحققه البشرية من أهداف، فهو بهذا يعيّن أبعد الاهداف النهائية لها ويحددها، ومن بعـد ذلك يحث البشرية ويحضّها على بلوغ تلك الغاية، ويسوقها اليها. اذ كما ان الماضي مستودع بذور المستقبل ومرآة تعكس شؤونه، فالمستقبل ايضاً حصيلة بذور الماضي ومرآة آماله.

وسنبين بضعة نماذج مثالاً، من ذلك النبع الفياض الواسع:

* فمثلاً: (ولسليمنَ الريح غدوّها شهرٌ ورَواحُها شهرٌ) (سبأ:12).

هذه الآية الكريمة تبين معجزة من معجزات سيدنا سليمان عليه السلام.

وهي تسخير الريح له، أي أنه قد قطع في الهواء ما يقطع في شهرين في يوم واحد.

فالآية تشير الى ان الطريق مفتوح امام البشر لقطع مثل هذه المسافة في الهواء.

فيا ايها الانسان! حاول ان تبلغ هذه المرتبة، واسعَ للدنو من هذه المنزلة ما دام الطريق ممهداً أمامك.

فكأن الله سبحانه وتعالى يقول في معنى هذه الآية الكريمة:

»ان عبداً من عبادي ترك هوى نفسه، فحمّلتُه فوق متون الهواء. وانت ايها الانسان! ان نبذت كسل النفس وتركته، واستفدت جيداً من قوانين سنتي الجارية في الكون، يمكنك ايضاً ان تمتطي صهوة الهواء«.

* ومثلاً: (فقلنا اضربْ بعصاكَ الحجَر فانفجرتْ منه اثنتا عشرةَ عيناً..) (البقرة:60)

هذه الآية الكريمة تبين معجزة من معجزات سيدنا موسى عليه السلام، وهي تشير الى انه يمكن الاستفادة من خزائن الرحمة المدفونة تحت الارض بآلات بسيطة، بل يمكن تفجير الماء، وهو ينبوع الحياة، من ارض صلدة ميتة كالحجر بوساطة عصا.

فهذه الآية تخاطب البشرية بهذا المعنى:

يمكنكم ان تجدوا الماء الذي هو ألطف فيض من فيوضات الرحمة الإلهية، بوساطة عصا، فاسعوا واعملوا بجد لتجدوه وتكشفوه.

فالله سبحانه يخاطب الانسان بالمعنى الرمزي لهذه الآية:

»ما دمتُ اسلّم بيد عبد يعتمد عليّ ويثق بي عصا، يتمكن بها ان يفجّر الماء أينما شاء. فانت ايها الانسان ان اعتمدت على قوانين رحمتي، يمكنك أيضاً ان تخترع آلةً شبيهة بتلك العصا، أو نظيرة لها. فهيا اسعَ لتجد تلك الآلة«.

فانت ترى كيف ان هذه الآية سبّاقة لإيجاد الآلة التي بها يتمكن الانسان من استخراج الماء في اغلب الاماكن، والتي هي احدى وسائل رقي البشرية. بل ان الآية الكريمة قد وضعت الخط النهائي لحدود استخدام تلك الآلة ومنتهى الغاية منها، بمثل ما عيّنت الآية الاولى أبعد النقاط النهائية، واقصى ما يمكن ان تبلغ اليه الطائرة الحاضرة.

* ومثلاً: (وابرئ الاكمهَ والأبرصَ وأُحيي الموتى بإذن الله..) (آل عمران:49)

فالقرآن الكريم اذ يحث البشرية صراحة على اتباع الاخلاق النبوية السامية التي يتحلـــى بها سيدنا عيسى عليه السلام، فهو يرغّب فيها ويحض عليها رمزاً الى النظر الى ما بين يديه من مهنة مقدسة وطب رباني عظيم.

فهذه الآية الكريمة تشير الى:

»انه يمكن ان يُعثر على دواء يشفي أشد الامراض المزمنة والعلل المستعصية، فلا تيـــأس ايها الانسان، ولا تقنط ايها المبتلى المصاب، فكل داء مهما كان له دواء، وعلاجـــه ممكـــن، فابحث عنه، وجِدْه، واكتشفه، بل حتى يمكن معالجة الموت نفسه بلون مـــن الـــوان الحيـــاة الموقتة«.

فالله سبحانه يقول بالمعنى الاشاري لهذه الآية الكريمة:

»لقد وهبتُ لعبد من عبادي تَركَ الدنيا لأجلي، وعافها في سبيلي، هديتين: احـــداهما دواء للاسقام المعنوية، والاخرى علاج للامراض المادية. فالقلوب الميتة تُبعث بنور الهدايـــة، والمرضى الذين هم بحكم الاموات يجدون شفاءهم بنفث منه ونفخ، فيبرأون به. وانت ايهـــا الانسان! بوسعك ان تجد في صيدلية حكمتي دواء لكل داء يصيبك، فاسعَ في هذه الســـبيل، واكشف ذلك الدواء فانك لا محالة واجده وظافر به.

وهكذا ترى كيف ترسم هذه الآية الكريمة أقصى المدى وأبعد الأهداف التي يصبو اليها الطب البشري من تقدم.

فالآية تشير الى ذلك الهدف وتحث الانسان على الوصول اليه.

* ومثلاً: (وألنّا لَهُ الحديدَ) (سبأ:10)

(وآتيناهُ الحكمةَ وفصلَ الخطاب) (ص:20)

هاتان الآيتان تخصان معجزة سيدنا داود عليه السلام. والآية الكريمة (وأسَلنا له عَـــينَ القِطرِ) (سبأ:12) تخص معجزة سيدنا سليمان عليه السلام. فهذه الآيات تشير الى:

ان تليين الحديد نعمة إلهية عظمى، اذ يبين الله به فضل نبيٍ عظيم. فتليين الحديد وجعله كالعجين، واذابة النحاس وايجاد المعادن وكشفها هو اصـــل جميـــع الصـــناعات البشـــرية، واساسها. وهو أم التقدم الحضاري من هذا الجانب ومعدنه.

فهذه الآية تشير الى النعمة الإلهية العظمى في تليين الحديد كالعجين وتحويله اســـلاكاً رفيعة واسالة النحاس، واللذان هما محور معظم الصناعات العامة، حيث وهبها الباري الجليـــل على صورة معجزة عظمى لرسول عظيم وخليفة للارض عظيم. فما دام سبحانه قد كرم مَن هو رسولٌ وخليفة معاً، فوهب للسانه الحكمة وفصل الخطاب، وسلّم الى يده الصنعة البارعة، وهو يحض البشرية على الاقتداء بما وهب للسانه حضاً صريحاً، فلابد ان هناك اشارة ترغّـــب وتحضّ على ما في يده من صنعة ومهارة.

فسبحانه يقول بالمعنى الاشاري لهذه الآية الكريمة:

»يا بني آدم! لقد آتيت عبداً من عبادي اطاع اوامري وخضع لما كلفته به، آتيت لسانه فصل الخطاب، وملأتُ قلبه حكمةً ليفصل كل شئ على بينة ووضوح.

ووضعت في يده من الحقيقة الرائعة ما يكون الحديد كالشمع فيها، فيغيّر شكله كيفما يشاء، ويستمد منه قوة عظيمة لإرساء اركان خلافته وادامة دولته وحكمه. فما دام هذا الامر ممكناً وواقعاً فعلاً، وذا أهمية بالغة في حياتكم الاجتماعية فانتم يابني آدم إن اطعتم اوامـــري التكوينية تُوهَب لكم ايضاً تلك الحكمة والصنعة، فيمكنكم بمرور الزمن ان تقتربوا منـــهما وتبلغوهما.

وهكذا فان بلوغ البشرية أقصى امانيها في الصناعة، وكسبها القدرة الفائقة في مجـــال القوة المادية، انما هو بتليين الحديد وباذابة النحاس - القطرـــــ فهذه الآيات الكريمة تستقطب انظار البشرية عامة الى هذه الحقيقة، وتلفت نظر السالفين وكسالى الحاضرين اليهـــا، فتنبـــه اولئك الذين لا يقدرونها حق قدرها.

* ومثلاً: (قالَ الذي عندهُ علمٌ من الكتابِ أنا اتيكَ به قبلَ أن يرتدّ اليكَ طرفُكَ فلمـــا رآهُ مستقراً عندهُ..) (النمل:40)

فهذه الآية تشير الى ان احضار الاشياء من مسافات بعيدة - عيناً أو صورة - ممكـــن، وذلك بدلالتها على تلك الحادثة الخارقة التي وقعت في ديوان سيدنا سليمان عليه الســـلام، عندما قال أحد وزرائه الذي اوتي علماً غزيراً في »علم التحضير«: انا اتيك بعرش بلقيس.

ولقد آتى الله سبحانه سيدنا سليمان عليه السلام المُلك والنبوة معاً، واكرمه بمعجـــزة يتمكن بها من الاطلاع المباشر بنفسه وبلا تكلف ولا صعوبة على احوال رعاياه، ومشـــاهدة اوضاعهم، وسماع مظالمهم. فكانت هذه المعجزة مناط عصمته وصونه من الشطط في امـــور الرعية. وهي وسيلة قوية لبسط راية العدالة على ارجاء المملكة.

فمن يعتمد على الله سبحانه اذاً ويطمئن اليه، ويسأله بلسان استعداداته وقابلياته الـــتي فُطر عليها، وسار في حياته على وفق السنن الإلهية والعناية الربانية، يمكن ان تتحول له الدنيا الواسعة كأنها مدينة منتظمة امامه كما حدث لسليمان عليه السلام الذي طلب بلسان النبوة المعصومة إحضار عرش بلقيس فأحضر في طرفة عين وصار ماثلاً امامه - بعينه أو بصورته - في بلاد الشام بعد ان كان في اليمن. ولاشك ان اصوات رجال الحاشية الذين كانوا حـــول العرش قد سُمعتْ مع مشاهدة صورهم.

فهذه الآية تشير اشارة رائعة الى احضار الصور والاصوات من مسافات بعيدة. فالآيـــة تخاطب:

»ايها الحكام! ويا من تسلمتم امر البلاد! ان كنتم تريدون ان تســـود العدالـــة انحـــاء مملكتكم، فاقتدوا بسليمان - عليه السلام - واسعَوا مثله الى مشاهدة ما يجـــري في الارض كافة، ومعرفة ما يحدث في جميع ارجائها. فالحاكم العادل الذي يتطلع الى بسط راية العدالـــة في ربوع البلاد، والســـــلطان الـــــذي يرعـــى شؤون ابناء مملكته، ويشفق علـــيهم، لا يصل الى مبتـــغـــــاه إلا اذا اســـتـــطـــــــاع الاطـــلاع - مـــتى شاء - على اقطـــار مملكته. وعندئذٍ تعم العـــدالة حـــقاً، وينقذ نفـــسه من المـــحـــاســـــــبة والتبـــــعات المعنوية.

فالله سبحانه يخاطب بالمعنى الرمزي لهذه الآية الكريمة:

»يا بني آدم! لقد آتيتُ عبداً من عبادي حُكمَ مملكة واسعة شاسعة الارجاء، ومنحته الاطلاع المباشر على احوال الارض واحداثها ليتمكن من تطبيق العدالة تطبيقاً كاملاً، ولما كنتُ قد وهبت لكل انسان قابلية فطرية ليكون خليفة في الأرض، فلا ريب أني قد زوّدتُه – بمقتضى حكمتي – ما يناسب تلك القابلية الفطرية من مواهب واستعدادات يتمكن بها من ان يشاهد الارض بأطرافها ويدرك منها ما يدرك. وعلى الرغم من أن الانسان قد لا يبلغ هذه المرتبة بشخصه الا انه يتمكن من بلوغها بنوعه. وان لم يستطع بلوغها مادياً، فانه يبلغها معنوياً – كما يحصل للاولياء الصالحين – فباستطاعتكم اذاً الاستفادة من هذه النعمة الموهوبة لكم. فسارعوا الى العمل الجاد واسعوا سعياً حثيثاً كي تحوّلوا الارض الى ما يشبه حديقة صغيرة غنّاء، تجولون فيها وترون جهاتها كلها وتسمعون احداثها واخبارها من كل ناحية منها غير ناسين وظيفة عبوديتكم. تدبروا الآية الكريمة:

(هوَ الذي جعلَ لكمُ الارضَ ذلولاً فامشوا في مناكِبها وكُلوا مِن رزقه واليه النشور) (الملك:15)

وهكذا نرى كيف تومئ الآية الكريمة المتصدرة لهذا المثال الى اثارة همة الانسان، وبعث اهتماماته لاكتشاف وسيلة يستطيع بها احضار الصور والاصوات من أبعد الاماكن واقصاها ضمن ادق الصناعات البشرية.

* ومثلاً: (وآخرين مقرّنين في الأصفاد) (ص:38)

(ومنِ الشياطين مَن يغُوصونَ لهُ ويعملونَ عملاً دونَ ذلكَ وكنّا لهُم حافظين) (الانبياء:82)

هذه الآيات الكريمة تفيد تسخير سيدنا سليمان عليه السلام الجن والشياطين والارواح الخبيثة، ومنعه شرورهم واستخدامهم في أمور نافعة. فالآيات تقول:

ان الجن الذين يلون الانسان في الأهمية في سكنى الأرض من ذوي الشعور، يمكن ان يصبحوا خداماً للانسان، ويمكن ايجاد علاقة ولقاء معهم، بل يمكن للشياطين ان يضعوا عداءَهم مع الانسان ويخدموه مضطرين كما سخّرهم الله سبحانه وتعالى لعبدٍ من عباده المنقادين لأوامره.

بمعنى ان الله سبحانه يخاطب الانسان بالمعنى الرمزي لهذه الآيات: »أيها الانسان! اني اسخّر الجن والشياطين واشرارهم لعبدٍ قد أطاعني واجعلهم منقادين اليه مسخرين له، فانت ان سخّرت نفسك لأمري واطعتني، قد تُسخّر لك موجودات كثيرة بل حتى الجن والشياطين« .

فالآية الكريمة تخط أقصى الحدود النهائية، وتعيّن أفضل السبل القويمة للانتفاع، بل تفتح السبيل أيضاً الى تحضير الارواح ومحادثة الجن الذي ترشح من امتزاج فنون الانسان وعلومه، وتظاهر مما تنطوي عليه من قوى ومشاعر فوق العادة، المادية منها والمعنوية. ولكن ليس كما عليه الامر في الوقت الحاضر حيث أصبح المشتغلون بهذه الأمور موضع استهزاء بل ألعوبة بيد الجن الذين ينتحلون أحياناً اسماء الأموات. وغدوا مسخّرين للشياطين والارواح الخبيثة، وانما يكون ذلك بتسخير أولئك باسرار القرآن الكريم مع النجاة من شرورهم.

* ثم ان الآية الكريمة:

(فارسلنا اليها روحَنا فتمثلَ لها بشراً سَوِيّاً) (مريم:17)

هذه الآية وامثالها التي تشير الى تمثل الارواح، وكذا الآيات المشيرة الى جلب سيدنا سليمان – عليه السلام – للعفاريت وتسخيرهم له . هذه الآيات الكريمة مع اشارتها الى تمثل الروحانيات فهي تشير الى تحضير الأرواح ايضاً. غير ان تحضير الارواح الطيبة – المشار اليه في الآيات – ليس هو بالشكل الذي يقوم به المعاصرون من إحضار الارواح الى مواضع لهوهم واماكن ملاعبهم والذي هو هزل رخيص واستخفاف لا يليق بتلك الارواح الموقرة الجادة، التي تعمر عالماً كله جدّ لا هزل فيه، بل يمكن تحضيرالارواح بمثل ما قام به اولياء صالحون لأمر جاد ولقصد نبيل هادف – من امثال محي الدين بن عربي – الذين كانوا يقابلون تلك الارواح الطيبة متى شاؤا، فاصبحوا هم منجذبين اليها ومنجلبين لها ومرتبطين معها ومن ثم الذهاب الى مواضعها والتقرب الى عالمها والاستفادة من روحانياتها، فهذا هو الذي تشير اليه الآيات الكريمة وتُشعر في اشارتها حضاً وتشويقاً للانسان وتخطّ اقصى الحدود النهائية لمثل هذه العلوم والمهارات الخفية، وتعرض أجمل صوره وأفضلها.

* ومثلاً:(إنّا سخّرنا الجبالَ معه يسبّحنَ بالعشيّ والإشراق) (ص:18)

(يا جبالُ أوّبي مَعَه والطيرَ وألنّا له الحديد) (سبأ:10).

(عُلِّمنا منطقَ الطير..)(النمل:16).

هذه الآيات الكريمة التي تذكر معجزات سيدنا داود عليه السلام تدل على أن الله سبحانه قد منح تسبيحاته واذكاره من القوة العظيمة والصوت الرخيم والأداء الجميل ما جعل الجبال في وجدٍ وشوق، وكأنها حاكٍ عظيم تردد تسبيحاتٍ واذكاراً. أو كأنها انسان ضخم يسبّح في حلقة ذكر حول رئيس الحلقة.

– أتُراك هذه حقيقة؟ وهل يمكن ان يحدث هذا فعلاً؟!

– نعم! انها لحقيقة قاطعة، أليس كل جبل ذي كهوف يمكن ان يتكلم مع كل انسان بلسانه، ويردد كالببغاء ما يذكره؟ فان قلت » الحمد لله« أمام جبل،فهو يقول ايضاً: »الحمد لله« وذلك برجع الصدى.. فما دام الله سبحانه وتعالى قد وهب هذه القابلية للجبال، فيمكن اذاً أن تنكشف هذه القابلية وتنبسط اكثر من هذا. وحيث ان الله سبحانه قد خص سيدنا داود عليه السلام بخلافة الأرض فضلاً عن رسالته، فقد كشف بذرة تلك القابلية لديه ونماها وبسطها بسطاً معجزاً عنده، بما يلائم شؤون الرسالة الواسعة والحاكمية العظيمة، حتى غدت الجبال الشم الرواسي منقادة اليه كأي جندي مطيع لأمره، وكأي صانع أمين لديه، وكأي مريد خاشع لذكره. فأصبحت تلك الجبال تسبح بحمد الخالق العظيم جلّ جلاله بلسانه عليه السلام وبأمره. فما كان سيدنا داود يذكر ويسبّح إلاّ والجبال تردد ما يذكره.

نعم، ان القائد في الجيش يستطيع ان يجعل جنوده المنتشرين على الجبال يرددون: »الله اكبر« بما لديه من وسائل الاتصال والمخابرات، حتى كأن تلك الجبال هي التي تتكلم وتهلل وتكبر! فلئن كان قائداً من الانس يستطيع أن يستنطق »مجازياً« الجبال بلسان ساكنيها، فكيف بقائد مهيب لله سبحانه وتعالى؟ الا يستطيع أن يجعل تلك الجبال تنطق نطقاً »حقيقياً« وتسبح تسبيحاً حقيقياً؟. هذا فضلاً عن اننا قد بينا في »الكلمات« السابقة ان لكل جبل شخصية معنوية خاصة به، وله تسبيح خاص ملائم له، وله عبادة مخصوصة لائقة به. فمثلما يسبّح كل جبل برجع الصدى باصوات البشر، فان له تسبيحات للخالق الجليل بألسنته الخاصة.

* وكذلك: (والطيرَ محشورةً) (ص:19)

(و عُلّمنا منطقَ الطير) (النمل:16). هذه الآيات تبين ان الله سبحانه قد علّم سيدنا داود وسليمان عليهما السلام منطق انواع الطيور، ولغة قابلياتها واستعداداتها، أي: أيّ الاعمال تناسبها؟ وكيف يمكن الاستفادة منها؟

نعم! هذه الحقيقة هي الحقيقة الجليلة، إذ ما دام سطح الارض مائدة رحمانية اقيمت تكريماً للانسان، فيمكن اذاً ان تكون معظم الحيوانات والطيور التي تنتفع من هذه المائدة مسخّرة للانسان، ضمن تصرفه وتحت خدمته. فالانسان الذي استخدم النحل ودودة القز – تلكم الخَدَمة الصغار – وانتفع مما لديهم من إلهام إلهي، والذي استعمل الحمام الزاجل في بعض شؤونه وأعماله، واستنطق الببغاء وأمثاله من الطيور، فضمَّ الى الحضارة الانسانية محاسن جديدة، هذا الانسان يمكنه ان يستفيد اذاً كثيراً اذا ما عَلِم لسان الاستعداد الفطري للطيور، وقابليات الحيوانات الاخرى، حيث هي انواع وطوائف كثيرة جداً، كما استفاد من الحيوانات الأليفة. فمثلاً: اذا عَلِم الانسان لسان استعداد العصافير (من نوع الزرازير) التي تتغذى على الجراد ولا تدعها تنمو، واذا ما نسّق اعمالها فانه يمكن ان يسخّرها لمكافحة آفة الجراد. فيكون عندئذٍ قد انتفع منها واستخدمها مجاناً في امور مهمة.

فمثل هذه الانواع من استغلال قابليات الطيور والانتفاع منها، واستنطاق الجمادات من هاتف وحاكٍ، تخط له الآية الكريمة المذكورة المدى الاقصى والغاية القصوى.

فيقول الله سبحانه بالمعنى الرمزي لهذه الآيات الكريمة:

يا بني الانسان! لقد سخرتُ لعبد من بني جنسكم، عبد خالص مخلص، سخرتُ له مخلوقات عظيمة في ملكي وانطقتها له، وجعلتها خداماً امناء وجنوداً مطيعين له، كي تعصم نبوته، وتصان عدالته في ملكه ودولته. وقد أتيتُ كلاً منكم استعداداً ومواهب ليصبح خليفة الارض، واودعتُ فيكم أمانة عظمى، أبتِ السموات والارض والجبال ان يحملنها، فعليكم اذاً ان تنقادوا وتخضعوا لأوامر مَن بيده مقاليد هذه المخلوقات وزمامها، لتنقاد اليكم مخلوقاته المبثوثة في ملكه. فالطريق ممهد أمامكم ان استطعتم ان تقبضوا زمام تلك المخلوقات باسم الخالق العظيم، واذا سموتم الى مرتبة تليق باستعداداتكم ومواهبكم..

فما دامت الحقيقة هكذا فاسعَ ايها الانسان ان لا تنشغل بلهو لا معنى له، وبلعب لا طائل من ورائه، كالانشغال بالحاكي والحمام والببغاء.. بل اسعَ في طلب لهوٍ من ألطف اللهو وازكاه، وتسلَّ بتسلية هي من ألذ أنواع التسلية.. فاجعل الجبال كالحاكي لأذكارك، كما هي لسيدنا داود عليه السلام، وشنّف سمعك بنغمات ذكر وتسبيح الاشجار والنباتات التي تخرج أصواتاً رقيقة عذبة بمجرد مس النسيم لها وكأنها اوتار آلات صوتية.. فبهذا الذكر العلوي تُظهر الجبال لك الوفاً من الألسنة الذاكرة المسبحة، وتبرز أمامك في ماهية عجيبة من أعاجيب المخلوقات. وعندئذٍ تتزيا معظم الطيور وتلبس - كأنها هدهد سليمان - لباسَ الصديق الحميم والانيس الودود، فتصبح خداماً مطيعين لك. فتسليك أيما تسلية، وتلهيك لهواً بريئاً لا شائبة فيه، فضلاً عن ان هذا الذكر السامي يسوقك الى انبساط قابليات ومواهب كانت مغمورة في ماهيتك، فتحول بينك وبين السقوط من ماهية الانسان السامية ومقامه الرفيع، فلا تجذبك بعدُ اضراب اللهو التي لا مغزى لها الى حضيض الهاوية.

* ومثلاً: (قلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) (الانبياء:69).

هذه الآية الكريمة تبين معجزة سيدنا ابراهيم عليه السلام، وفيها ثلاث اشارات لطيفة:

أولاها: النار - كسائر الاسباب - ليس أمرها بيدها، فلا تعمل كيفما تشاء حسب هواها وبلا بصيرة، بل تقوم بمهمتها وفق أمر يُفرض عليها. فلم تحرق سيدنا ابراهيم لانها أُمرت بعدم الحرق.

ثانيتها: ان للنار درجة تحرق ببرودتها، أي تؤثر كالاحتراق. فالله سبحانه يخاطب البرودة بلفظة: »سلاماً[80] بأن لا تحرقي انتِ كذلك ابراهيم، كما لم تحرقه الحرارة. أي أن النار في تلك الدرجة تؤثر ببرودتها كأنها تحرق، فهي نار وهي برد.

نعم ان النار - كما في علم الطبيعيات - لها درجات متفاوتة، منها درجة على صورة نار بيضاء لا تنشر حرارتها بل تكسب مما حولها من الحرارة، فتجمد بهذه البرودة ما حولها من

[80] يذكر احد التفاسير أنه: لو لم يقل (سلاماً) لكانت تحرق ببرودتها. ـــــ المؤلف.

السوائل، وكأنها تحــرق ببرودتـــــها. وهكـــذا الزمهـــــرير لـــون من الوان النار تحرق ببرودتها، فوجوده اذن ضروري في جهنم التي تضم جميع درجات النار وجميع أنواعها.

ثالثتها: مثلما الايمان الذي هو (مادة معنوية) يمنع مفعول نار جهنم، وينجي المـــؤمنين منها. وكما ان الاسلام درع واقٍ وحصن حصين من النار، كذلك هناك (مادة مادية) تمنـــع تأثير نار الدنيا، وهي درع أمامها، لان الله سبحانه يجري اجراءاته في هذه الدنيا – التي هـــي دار الحكمة – تحت ستار الاسباب وذلك بمقتضى اسمه (الحكيم)، لذا لم تحرق النار جســـم سيدنا ابراهيم عليه السلام مثلما لم تحرق ثيابه وملابسه ايضاً. فهذه الآية ترمز الى:

»يا ملة ابراهيم! اقتدوا بابراهيم! كي يكون لباسكم لباس التقوى وهو لباس ابـــراهيم، وليكون حصناً مانعاً ودرعاً واقياً في الدنيا والآخرة تجاه عدوكم الاكبر، النار. فلقـــد خبـــأ سبحانه لكم مواداً في الارض تحفظكم من شر النار، كما يقيكم لباس التقوى والايمان الذي ألبستموه أرواحكم، شر نار جهنم.. فهلموا واكتشفوا هذه المـــواد المانعـــة مـــن الحـــرارة واستخرجوها من باطن الارض والبسوها«.

وهكذا وجد الانسان حصيلة بحوثه واكتشافاته مادة لا تحرقها النار، بل تقاومها فيمكنه ان يصنع منها لباساً وثياباً.

فقارن هذه الآية الكريمة، وقس مدى سموها وعلوها على اكتشاف الانســـان للمـــادة المضادة للنار، واعلم كيف انها تدل على حلة قشيبة نسجت في مصنع (حنيفـــاً مســـلماً) لا تتمزق ولا تخلق وتبقى محتفظة بجمالها وبهائها الى الابد.

* ومثلاً: (وعلّم آدمَ الاسماءَ كلها) (البقرة:31)

تبين هذه الآية ان المعجزة الكبرى لآدم عليه السلام – في دعوى خلافته الكبرى – هي تعليم الاسماء.

فمثلما ترمز معجزات سائر الانبياء الى خارقة بشرية خاصة لكل منهم، فان معجزة ابي الانبياء وفاتح ديوان النبوة آدم عليه السلام تشير اشارة قريبة من الصراحة الى منتهى الكمال البشري، وذروة رقيه، والى أقصى أهدافه، فكأن الله سبحانه يقول بالمعنى الاشاري لهذه الآية الكريمة:

»يا بني آدم!.. ان تفوّق أبيكم آدم في دعوى الخلافة على الملائكة كان بمـــا علمتُـــه الاسماء كلها، وأنتم بنوه ووارثو استعداداته ومواهبه فعليكم أن تتعلموا الاسماء كلها لتثبتـــوا جدارتكم أمام المخلوقات لتسنم الامانة العظمى، فلقد مُهّد الطريق أمامكم لبلـــوغ اسمـــى المراتب العالية في الكون، وسُخرت لكم الارض، هذه المخلوقة الضـــخمة، فهيـــا انطلقـــوا وتقدموا، فالطريق مفتوح أمامكم.. واستمسكوا بكل اسم من اسمائي الحسنى، واعتصموا به، لتسموا وترتفعوا. واحذروا! فلقد أغوى الشيطان أباكم مرة واحدة، فهبط من الجنة – تلك المنزلة العالية – الى الارض موقتاً. فاياكم ان تتبعوا الشيطان في رقيكم وتقـــدمكم، فيكـــون ذريعة ترديكم من سموات الحكمة الإلهية الى ضلالة المادية الطبيعية.. ارفعوا رؤوسكم عاليـــاً، وانعموا النظر والفكر في اسمائي الحسنى، واجعلوا علومكم ورقيكم سلماً ومراقي الى تلـــك السموات، لتبلغوا حقائق علومكم وكمالكم، وتصلوا الى منابعها الاصلية، تلك هي أسمـــائي الحسنى.

وانظروا بمنظار تلك الاسماء ببصيرة قلوبكم الى ربكم«.

بيان نكتة مهمة وايـــضاح سر أهم

ان كل ما ناله الانسان — من حيث جامعية ما أودع الله فيه من استعدادات ـــــــ من الكمال العلمي والتقدم الفني، ووصوله الى خوراق الصناعات والاكتشافات، تعبّر عنه الآيـــة الكريمة بتعليم الاسماء: (وعلم آدم الاسماء كلها). وهذا التعبير ينطوي على رمزٍ رفيع ودقيق، وهو:

ان لكل كمال، ولكل علم، ولكل تقدم، ولكل فن – أياً كان – حقيقة سامية عالية. وتلك الحقيقة تستند الى اسم من الاسماء الحسنى، وباستنادها الى ذلك الاسم – الـــذي لـــه حُجُب مختلفة، وتجليات متنوعة، ودوائر ظهور متباينة – يجد ذلك الفن وذلك الكمال وتلك الصنعة، كلٌ منها كمالَه، ويصبح حقيقةً فعلاً، وإلا فهو ظل ناقص مبتور باهت مشوش.

فالهندسة – مثلاً – علم من العلوم، وحقيقتُها وغاية منتهاها هي الوصـــول الى اســـم (العدل والمقدِّر) من الاسماء الحسنى، وبلوغ مشاهدة التجليات الحكيمة لذلك الاسم بكـــل عظمتها وهيبتها في مرآة علم (الهندسة).

والطب – مثلاً – علم ومهارة ومهنة في الوقت نفسه، فمنتهاه وحقيقته يستند ايضاً الى اسم من الاسماء الحسنى وهو (الشافي). فيصل الطب الى كماله ويصبح حقيقة فعلاً بمشاهدة التجليات الرحيمة لاسم (الشافي) في الادوية المبثوثة على سطح الارض الذي يمثل صيدلية عظمى.

والعلوم التي تبحث في حقيقة الموجودات – كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان .. ـــــ هذه العلوم التي هي (حكمة الاشياء) يمكن ان تكون حكمة حقيقية بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم الله (الحكيم) جل جلاله في الاشياء، وهي تجليات تدبير، وتربية، ورعاية. وبرؤية هذه التجليات في منافع الاشياء ومصالحها تصبح تلك الحكمة حكمة حقاً، أي باستنادها الى ذلك الاسم (الحكيم) والى ذلك الظهير تصبح حكمة فعلاً، وإلاّ فإما أنها تنقلب الى خرافات وتصبح عبثاً لا طائل من ورائها أو تفتح سبيلاً الى الضلالة، كما هو الحال في الفلسفة الطبيعية المادية..

فاليك الامثلة الثلاثة كما مرت.. قس عليها بقية العلوم والفنون والكمالات..

وهكذا يضرب القرآن الكريم بهذه الآية الكريمة يد التشويق على ظهر البشرية مشيراً الى اسمى النقاط وأبعد الحدود واقصى المراتب التي قصرت كثيراً عن الوصول اليها في تقدمها الحاضر، وكأنه يقول لها: هيا تقدمي.

نكتفي بهذا الجوهر النفيس من الخزينة العظمى لهذه الآية الكريمة، ونغلق هذا الباب.

* ومثلاً: ان خاتم ديوان النبوة، وسيد المرسلين، الذي تعدّ جميع معجزات الرسل معجزة واحدة لتصديق دعوى رسالته، والذي هو فخر العالمين، وهو الآية الواضحة المفصلة لجميع مراتب الاسماء الحسنى كلها التي علمها الله سبحانه آدم عليه السلام تعليماً مجملاً.. ذلكم الرسول الحبيب محمد (ص) الذي رفع اصبعه عالياً بجلال الله فشق القمر وخفض الاصبع المبارك نفسه بجمال الله ففجر ماء كالكوثر.. وأمثالها من المعجزات الباهرات التي تزيد على الألف.. هذا الرسول الكريم أظهر القرآن الكريم معجزة كبرى تتحدى الجن والانس: (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (الاسراء:88) فهذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات تجلب انظار الانس والجن

الى ابرز وجوه الاعجاز في هذه المعجزة الخالدة واسطعها، فتلفتها الى ما في بيانه -الحقَ والحقيقةَ- من جزالة، والى ما في تعابيره من بلاغة فائقة، والى ما في معانيه من جامعية وشمول، والى ما في اساليبه المتنوعة من سمو ورفعة وعذوبة.. فتحدّى القرآن المعجز، وما زال كذلك يتحدى الانس والجن قاطبة، مثيراً الشوق في اوليائه، محركاً ساكن عناد اعدائه، دافعاً الجميع الى تقليده، بشوق عظيم وترغيب شديد، للاتيان بنظيره، بل انه سبحانه يضع هذه المعجزة الكبرى أمام انظار الانام في موقع رفيع لكأن الغاية الوحيدة من مجيء الانسان الى هذه الدنيا ليست سوى اتخاذه تلك المعجزة العظمى دستور حياته، وغاية مناه.

نخلص مما تقدم: ان كل معجزة من معجزات الانبياء عليهم السلام تشير الى خارقة من خوارق الصناعات البشرية. أما معجزة سيدنا آدم عليه السلام فهي تشير الى فهرس خوارق العلوم والفنون والكمالات، وتشوق اليها جميعاً مع اشارتها الى اسس الصنعة اشارة مجملة مختصرة.

أما المعجزة الكبرى للرسول الاعظم (ص) وهي القرآن الكريم ذو البيان المعجر، فلأن حقيقة تعليم الاسماء تتجلى فيه بوضوح تام، وبتفصيل أتم، فانه يبين الاهداف الصائبة للعلوم الحقة وللفنون الحقيقية، ويُظهر بوضوح كمالات الدنيا والآخرة وسعادتهما، فيسوق البشر اليها ويوجهه نحوها، مثيراً فيه رغبة شديدة فيها، حتى انه يبين بأسلوب التشويق أن» أيها الانسان! المقصد الاسمى من خلق هذا الكون هو قيامك أنت بعبودية كلية تجاه تظاهر الربوبية، وان الغاية القصوى من خلقك انت هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات«.

فيعبر بتعابير متنوعة رائعة معجزة مشيراً بها الى:

ان البشرية في أواخر ايامها على الارض ستنساب الى العلوم، وتنصب الى الفنون، وستستمد كل قواها من العلوم والفنون فيتسلم العلم زمام الحكم والقوة.

ولما كان القرآن الكريم يسوق جزالة البيان وبلاغة الكلام مقدماً ويكررهما كثيراً، فكأنه يرمز الى ان البلاغة والجزالة في الكلام - وهما من اسطع العلوم والفنون - سيلبسان ازهى حللهما واروع صورهما في آخر الزمان، حتى يغدو الناس يستلهمون أمضى سلاحهم من

جزالة البيان وسحره، ويستلمون أرهب قوقم من بلاغة الاداء، وذلك عند بيان أفكـــارهم ومعتقداهم لإقناع الاخرين بها، أو عند تنفيذ آرائهم وقراراقم..

نحصل مما سبق: أن أكثر الآيات الكريمة انما هي مفتاح لخزينة كمال فائق، ولكتر علمي عظيم. فان شئت ان تبلغ سماوات القرآن الكريم ونجوم الايات فاجعل (الكلمات العشـــرين السابقة) عشرين درجاً لسلم الوصول اليها، [81]وشاهدْ بها مدى سطوع شمس القرآن العظيم، وتأملْ كيف ينشر القرآن نوره باهراً على حقيقة الالوهية وحقائق الموجودات، والمخلوقات، وكيف ينشر الضياء الساطع على كل الموجودات.

النتيجة: ما دامت الآيات التي تخص معجزات الانبياء عليهم السلام لها نوع من الاشارة الى خوارق التقدم العلمي والصناعي الحاضر، ولها طراز من التعبير كأنه يخط أبعـــد الحـــدود النهائية لها.. وحيث أنه ثابت قطعاً أن لكل آية دلالات على معانٍ شتى بل هذا متفق عليـــه لدى العلماء.. ولما كان هناك أوامر مطلقة لإتباع الانبياء عليهم السلام والاقتداء بهم، لـــذا يصح القول:

انه مع دلالة الآيات المذكورة سابقاً على معانيها الصريحة هناك دلالات مشوّقة باسلوب الاشارة الى أهم العلوم البشرية وصناعاها.

جوابان مهمان عن سؤالين مهمين

* أحدهما:اذا قلت: لما كان القرآن الكريم قد نزل لأجل الانسان، فَلِمَ لا يصرّح بما هو المهم في نظره من خوارق المدنية الحاضرة؟ وانما يكتفي برمز مستتر، وايماء خفـــي، واشـــارة خفيفة، وتنبيه ضعيف فحسب؟

---

[81] بل ان ثلاثاً وثلاثين كلمة وثلاثةً وثلاثين مكتوباً واحدى وثلاثين لمعة وثلاثة عشر شعاعاً سلمٌ ذو مائة وعشرين مرتبة للصعود. ـــــ المؤلف.

فالجواب: ان خوارق المدنية البشرية لا تستحق أكثر من هذا القـــدر، اذ إن الوظيفـــة الاساسية للقرآن الكريم هي تعليم شؤون دائرة الربوبية وكمالاتها ووظائف دائـــرة العبوديـــة وأحوالها.

لذا فان حق تلك الخوارق البشرية وحصتها من تلك الدائرتين مجرد رمز ضعيف واشارة خفية ليس إلاّ.. فانها لو ادّعت حقوقها من دائرة الربوبية، فعندها لا تحصل إلاّ علـــى حـــق ضئيل جداً.

فمثلاً: اذا طالبت الطائرة البشرية [82] القرآن الكريم قائلة:

– »أعطني حقاً للكلام، وموقعاً بين آياتك«. فان طائرات دائـــرة الربوبيـــة تلـــك الكواكب السيّارة والارض والقمر، ستقول بلسان القرآن الكريم:

– »انكِ تستطيعين أن تأخذي مكانكِ هنا بمقدار جرمك لا أكثر«

واذا أرادت الغواصة البشرية موقعاً لنفسها بين الآيات الكريمة فستتصدى لها غواصات تلك الدائرة؛ التي هي الارض السابحة في محيط الهواء، والنجوم العائمة في بحر الأثير قائلة:

– »ان مكانك بيننا ضئيل جداً يكاد لا يُرى!«

واذا ارادت الكهرباء ان تدخل حرم الآيات بمصابيحها اللامعة أمثال النجـــوم، فـــان مصابيح تلك الدائرة التي هي الشموس والشهب والانجم المزيّنة لوجه السماء، سترد عليهـــا قائلة:

– »انك تستطيعين أن تدخلي معنا في مباحث القرآن وبيانه بمقدار ما تمـــتلكين مـــن ضوء!!«

ولو طالبت الخوارق الحضارية – بلسان صناعاتها الدقيقة – حقوقها وارادت لها مقامـــاً بين الآيات.. عندها ستصرخ ذبابة واحدة بوجهها قائلة:

---

[82] لقد انساق القلم دون ارادتي في هذا الموضوع الجاد الى هذا الحوار اللطيف فتركته وشأنه، على أمل ألاّ يخل لطافة الاسلوب بجدية الموضوع. ـــــ المؤلف.

- »اسكتوا.. فليس لكم حق. ولو بمقدار أحد جناحيّ هذين! ولئن اجتمع كل ما فيكم من المصنوعات والأختراعات - التي اكتشف إكتساباً بارادة الانسان الجزئية - مع جميع الآلات الدقيقة لديكم، لن تكون أعجب بمقدار ما في جسمي الصغير جداً من لطائف الاجهزة ودقائق الصنعة. وان هذه الآية الكريمة تبهتكم جميعاً:

(إنَّ الذينَ تَدعون مِن دونِ الله لن يَخلُقوا ذباباً ولو اجتَمعوا له، وإن يسلُبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوهُ منه، ضعُفَ الطالبُ والمطلوبُ) (الحج:73)

واذا ذهبت تلك الخوارق الى دائرة العبودية وطلبت منها حقها فستتلقى منها مثل هذا الجواب:

- »ان علاقتكم معنا واهية وقليلة جداً، فلا يمكنكم الدخول إلى دائرتنا بسهولة، لأن منهجنا هو:

ان الدنيا دار ضيافة، وان الانسان ضيف يلبث فيها قليلاً، وله وظائف جمة، وهو مكلف بتحضير وتجهيز ما يحتاجه لحياته الأبدية الخالدة في هذا العمر القصير، لذلك يجب عليه ان يقدّم ما هو الأهم والألزم.

إلاّ أنه تبدو عليكم - على اعتبار الأغلبية - ملامح نسجت بحب هذه الدنيا الفانية تحت أستار الغفلة واللهو وكأنها دار للبقاء ومستقر للخلود. لذا فان حظكم من دائرة العبودية المؤسّسة على هدى الحق والتفكر في آثار الآخرة، قليل جداً.

ولكن.. ان كان فيكم - أو من ورائكم - من الصناع المهرة والمخترعين الملهمين - وهم قلة - وكانوا يقومون بأعمالهم مخلصين لأجل منافع عباد الله - وهي عبادة ثمينة - ويبذلون جهدهم للمصلحة العامة وراحتهم لرقي الحياة الاجتماعية وكمالها، فان هذه الرموز والارشادات القرآنية كافية بلا ريب لأولئك الذوات المرهفي الاحساس، ووافية لتقدير مهاراتهم وتشويقهم الى السعي والاجتهاد.

* السؤال الثاني:

واذا قلت: » لم تبق لديّ الآن بعد هذا التحقيق شبهة، فقد ثبت عندي بيقين وصدّقت؛ أن القرآن الكريم فيه جميع ما يلزم السعادة الدنيوية والأخروية كل حسب قيمته

وأهميته، فهناك رموز واشارات الى خوارق المدنية الحاضرة بل الى أبعد منها من الحقائق الأخرى مع ما فيه من حقائق جليلة ولكن لِمَ لم يذكر القرآن الكريم تلك الخوراق بصراحة تامة كي تجبر الكفرة العنيدين على التصديق والايمان وتطمئن قلوبنا فتستريح؟.

الجواب:

ان الدين امتحان، وان التكاليف الإلهية تجربة واختبار من أجل أن تتسابق الارواح العالية والارواح السافلة، ويتميز بعضها عن بعض في حلبة السباق.

فمثلما يختبر المعدن بالنار ليتميز الالماس من الفحم والذهب من التراب؛ كذلك التكاليف الإلهية في دار الامتحان هذه. فهي ابتلاء وتجربة وسَوق للمسابقة حتى تتميز الجواهر النفيسة لمعدن قابليات البشر واستعداداته من المعادن الخسيسة.

فما دام القرآن قد نزل – في دار الابتلاء هذه – بصورة اختبار للانسان ليتم تكامله في ميدان المسابقة، فلابد انه سيشير – اشارة فحسب – الى هذه الأمور الدنيوية الغيبية التي ستتوضح في المستقبل للجميع، فاتحاً للعقل باباً بمقدار اقامة حجته. وإلاّ فلو ذكرها القرآن الكريم صراحة، لاختلتْ حكمة التكليف اذ تصبح بديهية مثل كتابة (لا إله إلاّ الله) واضحاً بالنجوم على وجه السماء، والذي يجعل الناس – أرادوا أم لم يريدوا – عندئذ مرغمين على التصديق، فما كانت ثمة مسابقة ولا اختبار ولا تمييز فحينئذٍ تتساوى الارواح السافلة التي هي كالفحم مع التي هي كالالماس.[83] والخلاصة:

ان القرآن العظيم، حكيمٌ يعطي لكل شئ قدره من المقام، ويرى القرآن من ثمرات الغيب التقدمَ الحضاري البشري قبل ألف وثلاثمائة سنة المستترة في ظلمات المستقبل، أفضل واوضح مما نراها نحن وسنراها. فالقرآن اذاً كلام مَن ينظر الى كل الأزمنة بما فيها من الأمور والأشياء في آن واحد..

فتلك لمعة من الأعجاز القرآني، تلمع في وجه معجزات الأنبياء.

---

[83] فكان أن ظهر ابو جهل اللعين مع ابي بكر الصديق رضي الله عنه في مستوىً واحد. ولضاع التكليف. ـــــ المؤلف.

اللهمَّ فَــهِّمنا أسرارَ القرآنِ وَوفِّقْنا لِخدْمته في كلِّ آنٍ وزمانٍ.

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم).

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)

اللّهم صلّ وسلّم وبارك وكرِّم على سيدنا ومولانا محمدٍ، عبدِك ونبيك ورسولِك النبي الأمّي وعلى آلهِ واصحابه وأزواجه وذرياته وعلى النبيين والمرسلين والملائكة المقربين والاولياء والصالحين، أفــضل صلاةٍ وأزكى سلامٍ وأنمى بركاتٍ، بعدد سُوَر القرآن وآياته وحروفــه وكلماته ومعانيه واشاراته ورموزه ودلالاته، واغفر لنا وارحمنا والطف بنا يا إلهنا، يا خالقنا، بكل صلاة منها برحمتك يا أرحم الراحمين.

والحمد لله رب العالمين

آمين

الكلمة الحاديةوالعشرون

عبارة عن مقامين

المقام الاول

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) (النساء: 103)

قال لي احدهم يوماً وهو كبير سناً وجسماً ورتبة: ان اداء الصلاة حسنٌ وجميل، ولكن تكرارها كل يوم، وفي خمسة اوقات كثير جداً فكثرتها هذه تجعلها مملّة!..

وبعد مرور فترة طويلة على هذا القول، اصغيت الى نفسي فاذا هي ايضاً تردد الكــــلام نفسه!!. فتأملت فيها مليّاً، واذا بها قد أخذت بطريق الكسل الدرسَ نفسه مــــن الشـــيطان، فعلمتُ عندئذ ان ذلك الرجل كأنه قد نطقَ بتلك الكلمات بلسان جميع النفـــوس الامّـــارة بالسوء، أو اُنطق هكذا.. فقلت: ما دامت نفسي التي بين جنبيّ امارةٌ بالسوء فلابد أن ابدأ بها أولاً لأن من عجز عن اصلاح نفسه فهو عن غيرها اعجز.. فخاطبتها:

يا نفسي!.. اسمعيها مني »خمسة تنبيهات« مقابل ما تفوهتِ به، وانـــتِ منغمســـة في الجهل المركب، سادرة في نوم الغفلة على فراش الكسل..

oالتنبيه الاول:

يا نفسي الشقية!.. هل ان عمركِ ابدي؟وهل عندك عهد قطعي بالبقاء الى السنة المقبلة بل الى الغد؟ فالذي جعلكِ تملّين وتسأمين من تكرار الصلاة هو توهمكِ الابديـــة والخلـــود، فتظهرين الدلال وكأنك بترفك مخلّدة في هذه الدنيا.

فان كنت تفهمين ان عمركِ قصير، وانه يمضي هباء دون فائدة، فلا ريب أن صـــرف جزء من اربعة وعشرين منه في اداء خدمة جميلة ووظيفة مريحة لطيفة، وهي رحمة لك ووسيلة لحياة سعيدة خالدة، لا يكون مدعاة الى الملل والسأم، بل وسيلة مثيرة لشوق خالص ولذوقٍ رائع رفيع.

oالتنبيه الثاني:

يا نفسي الشرهة!.. انكِ يومياً تاكلين الخبز، وتشربين الماء، وتتنفسين الهواء، أما يورث هذا التكرار مللاً وضجراً؟.. كلا.. دون شك.. لان تكرار الحاجة لا يجلب الملل بل يجــدّد اللذة، لهذا؛ فالصلاة التي تجلب الغذاء لقلبي، وماء الحياة لروحي، ونسيم الهواء للّطيفة الربانية الكامنة في جسمي، لابد انها لا تجعلك تملّين ولا تسأمين ابداً.

نعم! ان القلب المتعرض لأحزانٍ وآلام لا حدّ لها، المفتون بآمال ولذائذ لا نهاية لها، لا يمكنه ان يكسب قوةً ولا غذاء الاّ بطرقِ باب الرحيم الكريم، القادر على كل شــئ بكــل تضرع وتوسل.

وان الروح المتعلقة باغلب الموجودات الآتية والراحلة سريعاً في هذه الدنيا الفانيــة، لا تشرب ماء الحياة الاّ بالتوجه بالصلاة الى ينبوع رحمة المعبود الباقي والمحبوب السرمدي.

وان السر الانساني الشاعر الرقيق اللطيف، وهو اللطيفة الربانية النورانيــة، والمخلــوق للخلود، والمشتاق له فطرةً والمرآة العاكسة لتجليات الذات الجليلة.. لابد انه محتــاج أشــد الحاجة الى التنفس، في زحمة وقساوة وضغوط هذه الاحوال الدنيوية الساحقة الخانقة العــابرة المظلمة، وليس له ذلك الاّ بالاستنشاق من نافذة الصلاة.

oالتنبيه الثالث:

يا نفسي الجزعة!.. انك تضطربين اليوم من تذكر عناء العبادات التي قمت بها في الأيام الماضية، ومن صعوبات الصلاة وزحمة المصائب السابقة، ثم تتفكرين في واجبات العبادات في الايام المقبلة وخدمات اداء الصلوات، وآلام المصائب، فتظهرين الجزع، وقلة الصبر ونفــاده. هل هذا أمرٌ يصدر ممَّن له مسكة من عقل؟.

ان مثلكِ في عدم الصبر هذا مثلُ ذلك القائد الاحمق الذي وجَّه قوةً عظيمة من جيشــه الى الجناح الأيمن للعدو، في الوقت الذي إلتحقَ ذلك الجناح من صفوف العدو الى صــفّه، فاصبح له ظهيراً. ووجّه قوته الباقية الى الجناح الايسر للعدو، في الوقت الذي لم يكن هنــاك أحدٌ من الجنود. فأدرك العدو نقطة ضعفه فسدد هجومَه الى القلب فدمّره هو وجيشَه تدميراً كاملاً.

نعم انك تشبهين هذا القائد الطائش، لأن صعوبات الايام الماضية وأتعابها قد ولّـــت، فذهبت آلامُها وظلت لذّتها وانقلبت مشقتها ثواباً، لذا لا تولّد مللاً بل شوقاً جديداً وذوقـــاً نديّاً وسعياً جاداً دائماً للمضي والاقدام. أما الايام المقبلة، فلأنها لم تأتِ بعدُ، فـــان صـــرف التفكير فيها من الآن نوعٌ من الحماقة والبله، اذ يشبه ذلك، البكاء والصراخ من الآن، لما قد يحتمل ان يكون من العطش والجوع في المستقبل!.

فما دام الامر هكذا، فان كان لك شئ من العقل، ففكري من حيث العبادة في هـــذا اليوم بالذات. قولي: سأصرف ساعة منه في واجبٍ مهم لذيذ جميل، وفي خدمةٍ سامية رفيعة ذات أجر عظيم وكلفة ضئيلة.. وعندها تشعرين أن فتورك المؤلم قد تحوّل الى همـــة حلـــوة، ونشاط لذيذ.

فيا نفسي الفارغة من الصبر.. انك مكلفة بثلاثة أنواع من الصبر.

الأول: الصبر على الطاعة.

الثاني: الصبر عن المعصية.

الثالث: الصبر عند البلاء.

فان كنتِ فطنة فخذي الحقيقة الجلية في مثال القائد – في هذا التنبيه – عبرةً ودلـــيلاً، وقولي بكل همة ورجولة: يا صبور. ثم خذي على عاتقك الانواع الثلاثة من الصبر. واستندي الى قوة الصبر المودعة فيك وتحمّلي بها، فانها تكفي للمشقات كلها، وللمصائب جميعها ما لم تبعثريها خطأ في أمور جانبية..

oالتنبيه الرابع:

يا نفسي الطائشة!.. يا تُرى هل ان اداء هذه العبودية دون نتيجة وجدوى؟! وهـــل ان أجرها قليلة ضئيلة حتى تجعلك تسأمين منها؟. مع ان أحدنا يعمل الى المساء ويكدّ دون فتور إن رغّبه احدٌ في مالٍ أو أرهبه.

ان الصلاة التي هي قوتٌ لقلبك العاجز الفقير وسكينةٌ له في هذا المضيف الموقت وهـــو الدنيا. وهي غذاءٌ وضياء لمنزلك الذي لابد انك صائرة اليه، وهو القبر. وهي عهدٌ وبراءةٌ في محكمتك التي لا شك انك تحشرين اليها. وهي التي ستكون نوراً وبُراقاً على الصراط المستقيم

الذي لابد انك سائرة عليه.. فصلاة هذه نتائجها هل هي بلا نتيجة وجدوى؟ أم انها زهيدة الاجرة؟..

واذا وَعَدَكِ أحدٌ بهدية مقدارها مائة ليرة، فسوف يستخدمك مائة يوم وانت تسعَين وتعملين معتمدة على وعده دون ملل وفتور، رغم انه قد يخلف الوعد. فكيف بمن وعدك، وهو لا يخلف الوعد مطلقاً؟؟ فخُلف الوعد عنده محال! وعدك اجرةً وثمناً هي الجنة، وهدية عظيمة هي السعادة الخالدة، لتؤدي له واجباً ووظيفة لطيفة مريحة وفي فترة قصيرة جداً. ألا تفكرين في أنك ان لم تؤدي تلك الوظيفة والخدمة الضئيلة، أو قمتِ بها دون رغبة أو بشكلٍ متقطع، فانك اذن تستخفين بهديته، وتتهمينه في وعده! الا تستحقين اذن تأديباً شديداً وتعذيباً اليماً؟؟. الا يثير همتك لتؤدي تلك الوظيفة التي هي في غاية اليسر واللطف خوف السجن الابدي وهو جهنم، علماً انك تقومين باعمال مرهقة وصعبة دون فتور خوفاً من سجن الدنيا، واين هذا من سجن جهنم الابدي؟!

oالتنبيه الخامس:

يا نفسي المغرمة بالدنيا!.. هل ان فتورك في العبادة وتقصيرك في الصلاة ناشئان من كثرة مشاغلك الدنيوية؟ ام انك لا تجدين الفرصة لغلبة هموم العيش؟!

فيا عجباً هل أنتِ مخلوقة للدنيا فحسب، حتى تبذلي كل وقتك لها؟. تأملي!! انك لا تبلغين اصغرَ عصفور من حيث القدرة على تدارك لوازم الحياة الدنيا رغم انك أرقى من جميع الحيوانات فطرةً. لِمَ لا تفهمين من هذا أن وظيفتكِ الاصلية ليس الانهماك بالحياة الدنيا والاهتمام بها كالحيوانات، وانما السعيُ والدأبُ لحياة خالدة كالانسان الحقيقي. مع هذا فان اغلب ما تذكرينه من المشاغل الدنيوية، هي مشاغل ما لا يعنيك من الامور، وهي التي تتدخلين فيها بفضول، فتهدرين وقتك الثمين جداً فيما لا قيمة له ولا ضرورة ولا فائدة منه.. كتعلّم عدد الدجاج في امريكا!! أو نوع الحلقات حول زحل. وكأنك تكسبين بهذا شيئاً من الفَلك والاحصاء!! فتَدَعين الضروري والأهم والألزم من الامور كأنك ستعمّرين آلاف السنين؟.

فان قلت: ان الذي يصرفني ويفترني عن الصلاة والعبادة ليس مثل هذه الامور التافهة، وانما هي امور ضرورية لمطالب العيش. اذن فاسمعي مني هذا المثل:

ان كانت الاجرة اليومية لشخصٍ مائة قرش وقال له أحدهم تعال واحفر لعشر دقـــائق هذا المكان فانك ستجد حجراً كريماً كالزمرد قيمتُه مائة ليرة، كم يكون عذراً تافهاً بل جنوناً إن رفض ذلك بقوله: لا.. لا أعمل.. لأن اجرتي اليومية ستنقص!..

وكذلك حالك، فان تركت الصلاة المفروضة، فان جميع ثمار سعيك وعملك في هـــذا البستان ستنحصر في نفقةٍ دنيوية تافهة دون ان تجنى فائدتها وبركتها. بينما لو صرفت وقـــت راحتك بين فترات العمل في اداء الصلاة، التي هي وسيلةٌ لراحة الروح، ولتـــنفس القلـــب، يضاف عندئذٍ الى نفقتك الاخروية وزاد آخرتك مع نفقتك الدنيوية المباركة، ما تجدينه مـــن منبع عظيم لكنزَين معنويين دائمين وهما:

الكنز الأول: ستأخذ [84]حظك ونصيبك من »تسبيحات« كل ما هيأته بنيّة خالصة، من ازهار وثمار ونباتات في بستانك.

الكنز الثاني: ان كل مَن يأكل من محاصيل بستانك – سواء أكان حيوانـــاً أم انســـاناً شارياً أو سارقاً – يكون بحكم »صدقةٍ جارية« لك، فيما اذا نظرت الى نفسك كأنك وكيلٌ وموظف لتوزيع مال الله سبحانه وتعالى على مخلوقاته. اي تتصرف باسم الـــرزاق الحقيقـــي وضمن مرضاته.

والآن تأمل في الذي ترك الصلاة، كم هو خاسرٌ خسراناً عظيماً؟. وكم هو فاقد مـــن تلك الثروة الهائلة؟. وكيف انه سيبقى محروماً ومفلساً من ذينك الكنزين الدائمين اللذين يمدان الانسان بقوة معنوية للعمل ويشوّقانه للسعي والنشاط؟.. حتى اذا بلغ ارذل عمره، فانه سوف يملّ ويضجر مخاطباً نفسه: وما عليّ؟! لِمَ أتعب نفسي؟ لأجل مَن أعمل؟ فانني راحل من هذه الدنيا غداً!.. فيلقي نفسه في احضان الكسل.

---

[84] هذا المقام درس لأحد العاملين في بستان. - المؤلف.

بينما الرجل الاول يقول: سأسعى سعياً حثيثاً في العمل الحلال بجانب عبادتي المتزايـــدة كيما أرسل الى قبري ضياءاً أكثر وادّخر لآخرتي ذخيرة أزيد.

والخلاصة: اعلمي ايتها النفس!. ان الامس قد فاتكِ. أما الغد فلم يأت بعد، ولـــيس لديك عهد أنك ستملكينه، لهذا فاحسبي عمرك الحقيقي هو هذا اليوم. وأقل القليل ان تلقي ساعة منه في صندوق الادّخار الأُخروي، وهو المسجد أو السجادة لتضمني المستقبل الحقيقي الخالد.

واعلمي كذلك أن كل يوم جديد هو بابٌ ينفتح لعالم جديد - لك ولغيرك - فان لم تؤدي فيه الصلاة فان عالم ذلك اليوم يرحل الى عالم الغيب مُظلماً شاكياً محزوناً، وسيشـــهد عليك..

وان لكلٍ منا عالمه الخاص من ذلك العالم، وان نوعيته تتبع عملنا وقلبنا، مَثلُه في ذلـــك مثلُ المرآة، تظهر فيها الصورة تبعاً للونها ونوعيتها، فان كانت مسودّة فســـتظهر الصـــورة مسودّة.. وان كانت صقيلة فستظهر الصورة واضحة، وإلا فستظهر مشوهة تضخم أتفه شئ واصغره.. كذلك أنت، فبقلبك وبعقلك وبعملك يمكنك ان تغيري صورَ عالمكِ، وباختيارك وطوع ارادتك يمكنك ان تجعلي ذلك العالم يشهد لك أو عليك.

وهكذا ان ادّيت الصلاة وتوجهت بصلاتك الى خالق ذلك العالم ذي الجلال، فسيتنور ذلك العالم المتوجه اليك حالاً، وكأنك قد فتحت بنيّة الصلاة مفتاح النور فاضاءه مصـــباح صلاتك، وبدّد الظلمات فيه.. وعندها تتحول وتتبدل جميع الاضطرابات والاحـــزان الـــتي حولك في الدنيا فتراها نظاماً حكيماً، وكتابة ذات معنى بقلم القدرة الربانية، فينساب نورٌ من انوار (الله نور السموات والارض) الى قلبك، فيتنور عالم يومك ذاك، وسيشهد بنورانيته لك عند الله..

فيا أخي! حذار ان تقول: أين صلاتي من حقيقة تلك الصلاة؟. اذ كما تحمـــل نـــواةُ التمرفي طياتها صفات النخلة الباسقة، الفرق فقط في التفاصيل والاجمال. كذلك صلاة العوام -من هم امثالي وامثالك - فيها حظٌ من ذلك النور وسرٌ من اسرار تلك الحقيقة، كما هي في صلاة ولي من أولياء الله الصالحين ولو لم يتعلق بذلك شعوره. أما تنورها فهي بـــدرجات

متفاوتة، كتفاوت المراتب الكثيرة التي بين نواة التمر الى النخلة. ورغم أن الصلاة فيها مراتب اكثر فان جميع تلك المراتب فيها أساس من تلك الحقيقة النورانية.

اللّهم صل وسلم على من قال: (الصلاة عماد الدين)[85] وعلى آله وصحبه اجمعين.

المقام الثاني

من الكلمة الحادية والعشرين

[يتضمن خمسة مراهم لخمسة جروح قلبية]

بسم الله الرحمن الرحيم

(وقل ربِّ اعوذُ بكَ من هَمَزات الشياطين وأَعوذُ بكَ ربِّ اَن يَحضُرون) (المؤمنون: 97 - 98)

ايها الاخ المبتلى بداء الوسوسة! ليت شعري هل تعلم بماذا تشبه وسوستك؟. إنها أشبه بالمصيبة؛ تبدأ صغيرة ثم تكبر شيئاً فشيئاً على مدى اهتمامك بها، وبقدر اهمالك اياها تزول وتفنى، فهي تعظم اذا استعظمتَها وتصغر اذا استصغرتَها. واذا ما خفتَ منها داستك ودوّختك بالعلل، وان لم تَخَفْ هانَتْ وخَنَستْ وتوارت. وان لم تعرف حقيقتها استمرت واستقرت، بينما اذا عرفت حقيقتها وسَبَرتَ غورها تلاشت واضمحلت. فما دام الأمر هكذا فسأشرح لك خمسة وجوه، من وجوهها التي تحدث كثيراً. عسى ان يكون بيانها - بعون الله - شفاء لصدورنا نحن كلينا. ذلك لأن الجهل مجلبةٌ للوساوس، بينما العلم على نقيضه دافع لشرها. فلو جهلتها أقبلت ودنتْ واذا ما عرفتها ولّت وادبرت.

الوجه الاول - الجرح الأول:

---

[85] قال في المقاصد: رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف . واقول عزاه في الجامع الصغير للبيهقي عن ابن عمر.. واورده الغزالي في الاحياء، ورواه ابو نعيم عن بلال بن يحيى قال: جاء رجل الى النبي (ص) يسأله عن الصلاة فقال: الصلاة عمود الدين. وهو مرسل ورجاله ثقات. (باختصار عن كشف الخفاء). المترجم.

ان الشيطان يلقى اولاً بشبهته في القلب، ثم يراقب صداها في الاعماق، فاذا انكرهـــا القلب انقلب من الشبهة الى الشتم والسبّ، فيصوّر أمام الخيال ما يشبه الشتم مـــن قبـــيح الخواطر السيئة والهواجس المنافية للآداب، مما يجعل ذلك القلب المسكين يئن تحت وطأة اليأس ويصرخ: واحسرتاه!. وامصيبتاه!.. فيظن الموسوس ان قلبه آثم، وانه قد اقترف السيئات حيال ربه الكريم، ويشعر باضطراب وانفعال وقلق، فينفلت من عقال السكينة والطمأنينة، ويحاول الانغماس في اغوار الغفلة.

أما ضماد هذا الجرح فهو:

ايها المبتلى المسكين! لا تخف ولا تضطرب! لأن ما مرّ أمام مرآة ذهنك ليس شتماً ولا سبّاً، وانما هو مجـــرد صور وخـــــيالات تمـــــر مـــــروراً أمـــــام مرآة ذهـــنك وحيث ان تخيل الكفر ليس كفراً، فان تخيل الشتم ايضاً ليس شتماً، اذ من المعلوم في البديهية المنطقية: ان التخيل ليس بحكم بينما الشتم حُكمٌ. فضلاً عن هذا فان تلك الكلمات غير اللائقة لم تكن قد صدرت من ذات قلبك، حيث أن قلبك يتحسر منها ويتألم. ولعلها آتية من لّمة شـــيطانية قريبة من القلب. لذا فان ضرر الوسوسة انما هو في توهم الضرر، اي ان ضرره على القلـــب هو ما نتوهمه نحن من اضرارها. لأن المرء يتوهم تخيلاً – لا اساس له – كأنه حقيقة، ثم ينسب اليه من اعمال الشيطان ما هو برئ منه، فيظن ان همزات الشيطان هي من خواطر قلبه هـــو، ويتصور اضرارها فيقع فيها. وهذا هو ما يريده الشيطان منه بالذات.

oالوجه الثاني:

عندما تنطلق المعاني من القلب تنفذ في الخيال مجردةً من الصور، وتكتســـي الاشـــكال والصور هناك. والخيال هو الذي ينسج دائماً ولأسباب معينة، نوعاً من الصور، ويعرض ما يهتم به من الصور على الطريق، فأيما معنًى يرد فالخيال إما يُلبسه ذلك النسيج أو يعلقه عليه أو يلطخه به، أو يستره به فإن كانت المعاني منزّهة ونقية، والصور والانسجة ملوثة دنيئـــة فـــلا إلباس ولا إكساء، وانما مجرد مسّ فقط، فمن هنا يلتبس على الموسوس أمر التماس فيظنه تلبساً وتلبيساً، فيقول في نفسه: »يا ويلتاه! لقد تردى قلبي في المهاوي، وستجعلني هـــذه الـــدناءة

والخساسة النفسية من المطرودين من رحمة الله« فيستغل الشيطان هذا الوتر الحساس منه استغلالاً فظيعاً.

ومرهم هذا الجرح العميق هو:

كما لا يؤثر في صلاتك ولا يفسدها ما في جوفك من نجاسة، بل يكفي لها طهارة حسية وبدنية، كذلك لا تضر مجاورة الصور الملوثة بالمعاني المنزّهة والمقدسة. مثال ذلك:

قد تكون متدبراً في آية من آيات الله، واذا بأمر مهيّج من مرضٍ يفاجئك، أو من تدافع الأخبثين، يلحّ على خيالك بشدة، فلاشك أن خيالك سينساق الى حيث الدواء، أو قضاء الحاجة ناسجاً ما يقتضيه من صور دنيئة. فتمر المعاني الواردة في تدبرك من بين الصور الخيالية السافلة. دعها تمر، فليس ثمة ضرر ولا لوثة ولا خطورة. انما الخطورة فقط هي في تركيز الفكر فيها، وتوهم الضرر منها.

o الوجه الثالث:

هناك بعض علاقات خفية تسود بين الاشياء، وربما توجد خيوط من الصلة حتى بين ما لا نتوقعه من الاشياء، هذه الخيوط إما انها قائمة بذاتها، اي انها حقيقية، أو أنها من نتاجات خيالك الذي صنع هذه الخيوط – حسب ما ينشغل به من عمل – وهذا هو السر في توارد خيالات سيئة احياناً عند النظر في ما يخص اموراً مقدسة، اذ »التناقض الذي يكون سبباً للابتعاد في الخارج يكون مدعاة للقرب والتجاور في الصور والخيال« كما هو معلوم في علم البيان. أي ان ما يجمع بين صورتي الشيئين المتناقضين ليس إلاّ الخيال. ويطلق على هذه الخواطر الناتجة بهذه الوسيلة: تداعى الافكار. مثال ذلك:

بينما انت تناجي ربك في الصلاة بخشوع وتضرع وحضور قلب مستقبلاً الكعبة المعظمة، اذا بتداعي الافكار هذا يسوقك الى امور مشينة مخجلة لا تعنيك بشئ. فاذا كنت يا اخي مبتلى بتداعي الافكار، فاياك اياك ان تقلق أو تجزع، بل عُد الى حالتك الفطرية حالما تنتبه لها. ولا تشغل بالك قائلاً: لقد قصّرت كثيراً.. ثم تبدأ بالتحري عن السبب.. بل مر عليها مرّ الكرام لئلا تقوى تلك العلاقات الواهية العابرة بتركيزك عليها، اذ كلما اظهرت الأسى والاسف وزاد اهتمامك بها انقلب ذلك التخطر الى عادة تتأصل تدريجياً حتى تتحول

الى مرض خيالي. ولكن لا.. لا تخش ابداً، انه ليس بمرض قلبي، لأن هذه الهواجس النفسـية والتخطر الخيالي هي في اغلب الحالات تتكون رغماً عن ارادة الانسان وهي غالباً ما تكـون لدى مرهفي الحس والأمزجة الحادة. والشيطان يتغلغل عميقاً مع هذه الوساوس.

أما علاج هذا الداء فهو:

اعلم انه لا مسؤولية في تداعي الافكار، لأنها لا ارادية غالباً، اذ لا اختلاط ولا تماس فيها، وانما هي مجرد مجاورة ولا شئ بعد ذلك، لذا فلا تسري طبيعة الافكار بعضها ببعض. ومن ثم فلا يضر بعضها بعضاً. اذ كما ان مجاورة ملائكة الالهام للشيطان حول القلب لا بأس فيها، ومجاورة الابرار للفجار وقرابتهم ووجودهم في مسكن واحد لا ضرر فيه، كـذلك اذا تداخلت خواطر سيئة غير مقصودة بين أفكار طـاهرة نزيهـة لا تضـرّ في شـئ إلاّ اذا كانـت مقصـودة، أو أن تشـغل بها نفسك كثيراً، متوهماً ضررها بك. وقد يكون القلب احيـاناً مرهقاً فينشـغـل الفـكر بـشئ ما ـــ كيفما اتفق ـــ دون جدوى، فينتهز الشيطان هذه الفرصة ويقدّم الاخيلة الخبيثة وينثرها هنا وهناك.

oالوجه الرابع:

هو نوع من الوسوسة الناشئة من التشدد المفرط لدى التحري عن الأكمل الاتم مـن الاعمال. فكلما زاد المرء في التشدد هذا ـــ باسم التقوى والورع - ازداد الأمر سـوءاً وتعقيداً، حتى ليوشك أن يقع في الحرام في الوقت الذي يبتغي الوجـه الأولى والأكمـل في الاعمال الصالحة. وقد يترك »واجباً« بسبب من تحرّيه عن »سنّة« حيث يسأل نفسه دائمـاً عن مدى صحة عمله وقبوله، فتراه يعيده ويكرره، قائلاً: »ترى هل صحّ عملي؟« حتى يطول به الأمر فييأس، ويستغل الشيطان وضعه هذا فيرميه بسهامه ويجرحه من الاعماق.

ولهذا الجرح دواءان اثنان:

الدواء الاول: اعلم ان أمثال هذه الوساوس لا تليق الاّ بالمعتزلة الـذين يقولـون: »ان افعال المكلفين من حيث الجزاء الاخروي حسنة أو قبيحة في ذات نفسها، ثم يـأتي الشـرع فيقرر ان هذا حسن وهذا قبيح. اي ان الحسن والقبح أمران ذاتيان موجودان في طبيعة الاشياء -حسب الجزاء الاخروي - أما الاوامر والنواهي فهي تابعة لذلك ولأقرارها«. ولذلك فان

طبيعة هذا المذهب تؤدي بالانسان الى أن يستفسر دائماً عن اعماله: »ترى هل تم عملي على الوجه الاكمل المُرضي كما هو في ذاته أم لا؟«.. اما اصحاب الحق وهم أهل السنة والجماعة فيقولون: »ان الله سبحانه وتعالى يأمر بشئ فيكون حسناً وينهى عن شئ فيكون قبيحاً« فبالأمر والنهي يتحقق الحُسن والقبح. اي أن الحسن والقبح يتقرران من وجهة نظر المكلّف، ويتعلقان بحسب خواتيمهما في الآخرة دون النظر اليها في الدنيا، مثال ذلك:

لو توضأت أو صليت، وكان هناك شئ ما خفي عليك يفسد صلاتك أو وضوءك، و لم تطلع عليه. فصلاتك ووضوءك في هذه الحالة صحيحان وحسنان في آن واحد. وعند المعتزلة: انهما قبيحان وفاسدان حقيقةً ولكنهما مقبولان منك لجهلك، اذ الجهل عذر.

وهكذا ايها الأخ المبتلى، فأخذاً بمذهب أهل السنة والجماعة يكون عملك صحيحاً لا غبار عليه، نظراً لموافقته ظاهر الشرع. واياك ان توسوس في صحة عملك، ولكن اياك ان تغتر به ايضاً، لانك لا تعلم علم اليقين، أهو مقبول عند الله أم لا؟.

الدواء الثاني: اعلم ان الاسلام دين الله الحق، دين يسر لا حرج فيه، وان المذاهب الأربعة كلها على الحق. فان ادرك المرء تقصيره تلافاه بالاستغفار الذي هو أثقل ميزاناً من الغرور الناشئ من اعجابه بالاعمال الصالحة. لذا فان يرى مثل هذا الموسوس نفسه مقصراً في عمله ويستغفر ربه خيرٌ له ألف مرة من أن يغتر اعجاباً بعمله. فما دام الأمر هكذا، فاطرح الوساوس واصرخ في وجه الشيطان: ان هذا الحال حرجٌ، وان الاطلاع على حقيقة الاحوال أمرٌ صعب جداً، بل ينافي اليُسر في الدين، ويخالف قاعدة »لا حرج في الدين« و »الدين يُسر«. ولابد أن عملي هذا يوافق مذهباً من المذاهب الاسلامية الحقة، وهذا يكفيني. حيث يكون وسيلة لأن ألقي بنفسي بين يدي خالقي ومولاي ساجداً متضرعاً أطلب المغفرة، واعترف بتقصيري في العمل، وهو السميع المجيب.

o الوجه الخامس:

وهو الوساوس التي تتقمص اشكال الشبهات في قضايا الايمان:

فكثيراً ما يلتبس على الموسوس المحتار خلجات الخيال، فيظن انها من بنات عقله، اي يتوهم ان الشبهات التي تنتاب خياله كأنها مقبولة لدى عقله، اي أنها من شبهات عقله، فيظن

ان اعتقاده قد مسّه الخلل.. وقد يظن الموسوس احياناً اخرى ان الشبهة التي يتوهمها انما هـــي شك يضرّ بايمانه.. وقد يظن تارة اخرى ان ما يتصوره من رؤى الشبهات كأن عقله قـــد صدّقه.. وربما يحسب ان كل تفكير في قضايا الكفر كفراً، اي أنه يحســـب ان كـــل تحـــرٍ وتمحيص، وكل متابعة فكرية ومحاكمة عقليه محايدة لمعرفة اسباب الضلالة انه خلاف الايمان. فأمام هذه التلقينات الشيطانية الماكرة يرتعش ويرتجف، ويقول: »ويلاه! لقد ضاع قلبي وفسد اعتقادي واختل«. وبما أنه لا يستطيع ان يصلح تلك الاحوال بارادته الجزئية وهي غير ارادية على الأغلب، يتردى الى هاوية اليأس القاتل.

أما علاج هذا الجرح فهو:

ان توهم الكفر ليس كفراً كما ان تخيل الكفر ليس كفراً وان تصور الضـــلالة لـــيس ضلالة مثلما أن التفكير في الضلالة ليس ضلالة، ذلك لأن التخيل والتوهم والتصور والتفكر.. كل اولئك متباين ومتغاير كلياً عن التصديق العقلي والاذعان القلبي. اذ التخيـــل والتـــوهم والتصور والتفكر امور حرة طليقة الى حدٍ ما، لذلك فهي لا تحفل بالجزء الاختياري المنبثـــق من ارادة الانسان، ولا ترضخ كثيراً تحت التبعات الدينية. بينما التصديق والاذعـــان ليســـا كذلك، فهما خاضعان لميزان، ولأن كلاً من التخيل والتوهم والتصور والتفكر ليس بتصديق وإذعان فلا يعدّ شبهةً ولا تردداً. لكن اذا تكررت هذه الحالة – دون مبرر – وبلغت حالة من الاستقرار في النفس فقد يتمخض عنها لون من الشبهات الحقيقية، ثم قد يتزلـــق الموســـوس، بالتزامه الطرف المخالف باسم المحاكمات العقلية الحيادية أو باسم الانصاف، الى حالة يلتـــزم المخالف دون اختيار منه، وعندها يتنصل من الالتزامات الواجبة عليه تجاه الحق، فيهلـــك؛ اذ تتقرر في ذهنه حالة اشبه ما يكون بالمفوّض والمخوّل من قبل الطرف المخالف اي الخصم أو الشيطان.

ولعل أهم نوع من هذه الوسوسة الخطيرة هو:

ان الموسوس يلتبس عليه »الامكان الذاتي« و »الامكان الذهني« أي أنه يتوهم بذهنـــه ويشك بعقله ما يراه ممكناً في ذاته، علماً بأن هنالك قاعدة كلامية في »علم المنطق« تـــنص

على: »ان الامكان الذاتي لا ينافي اليقين العلمي، ومن ثم فلا تعارض ولا تضاد بينــه وبــين الضرورات الذهنية وبديهياتها« ولتوضيح ذلك نسوق هذا المثال:

من الممكن ان يغور البحر الاسود الآن، فهذا شئ محتمل الوقوع بالامكان الــذاتي، الاّ اننا نحكم يقيناً بوجود البحر المذكور في موقعه الحالي، ولا نشك في ذلــك قطعــاً. فهــذا الاحتمال الامكاني والامكان الذاتي لا يولدان شبهة ولا شكاً، بل لا يخلان بيقيننا أبداً.

ومثال آخر: من الممكن الاّ تغيب الشمس اليوم، ومن الممكن الاّ تشرق غــدا، الاّ أن هذا الامكان والاحتمال لا يخل بيقيننا بأي حال من الاحوال، ولا يطرأ اصغر شبهة عليــه. وهكذا على غرار هذين المثالين فالاوهام التي ترد من الامكان الذاتي على غروب الحياة الدنيا وشروق الآخرة التي هي من حقائق الغيب الايمانية لا تولد خللاً في يقيننا الايماني قطعاً. ولهذا فالقاعدة المشهورة في اصول الدين واصول الفقه: »لا عبرة للاحتمال غــير الناشــئ عــن الدليل«.

n واذا قلت: »تُرى ما الحكمة من ابتلاء المؤمنين بهذه الوساوس المزعجــة للــنفس المؤلمة للقلب؟«.

الجواب: اننا اذا ما نحّينا الافراط والغلبة جانباً فان الوسوسة تكون حــافزة للتــيقظ، وداعية للتحري، ووسيلة للجدية، وطاردة لعدم المبالاة، ودافعة للتهاون.. ولأجل هذا كلــه جعل العليم الحكيم الوسوسة نوعاً من سوط تشويق واعطاه بيد الشيطان كــي يحــث بــه الانسان في دار الامتحان وميدان السباق الى تلك الحِكَم. واذا ما افرط في الأذى، فررنــا الى العليم الحكيم وحده مستصرخين: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

الكلمة الثانية والعشرون

[هذه الكلمة عبارة عن مقامين]

المقام الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَيــَضْرِبُ الله الاَمْثَالَ لِلْنّاسِ لَعَلَهُمْ يَتَذَكَّروُنَ) (ابراهيم: 25)

(وَتِلْكَ الاَمْثَالُ نــَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَهُمْ يَتَفكَّرونَ) (الحشر:21)

استحم شخصان ذات يوم في حوض كبير، فغشيهما ما لا طاقة لهما به ففقدا وَعيَهما. وما ان أفاقا حتى وجَدا أنهما قد جئ بهما الى عالمٍ غير عالَمهما، الى عالم عجيب، وعجيب فيه كل شئ. فهو من فرط انتظامه الدقيق كأنه مملكة منسّقة الاطراف، ومن روعة جماله بمثابة مدينة عامرة، ومن شدة تناسق اركانه بحكم قصر بديع. وبدأا ينظران بلهفةٍ فيما حولهما وقد امتلأا حَيرة واعجاباً بما رأيا أمامهما من عالم عظيم حقاً، اذ لو نُظر الى جانبٍ منه لشوهدت مملكةٌ منتظمة، واذا ما نُظر اليه من جانب آخر لتراءت مدينةٌ كاملة الجوانب، بينما اذا نُظر اليه من جانب آخر فاذا هو بقصر عظيم شاهق يضم عالَماً مهيباً.. وطفقا يتجولان معاً في أرجاء هذا العالم العجيب فوقع نظرهما على مخلوقات يتكلمون بكلام معين لا يفقهانه، الاّ أنهما أدركا من إشاراتهم وتلويحاتهم أنهم يؤدون أعمالاً عظيمة وينهضون بواجبات جليلة.

قال أحدهما للآخر:

– لاشك ان لهذا العالم العجيب مدبّراً يدبّر شؤونَه، ولهذه المملكة البديعة مالكاً يرعاها، ولهذه المدينة الرائعة سيداً يتولى أمورها، ولهذا القصر المنيف صانعاً بديعاً قد أبدعه، فأرى لزاماً علينا أن نسعى لمعرفته، اِذ يبدو أنه هو الذي قد أتى بنا الى هاهنا، وليس أحد غيره. فلو لم نعرفه فمن ذا غيرهُ يُسعفنا ويُغيثنا ويقضي حوائجنا ونحن في هذا العالم الغريب؟ فهل ترى بصيصَ أملٍ نرجوه من هؤلاء العاجزين الضعفاء ونحن لا نفقه لسانهم ولا هم يصغون الى كلامنا؟. ثم ان الذي جعل هذا العالم العظيم على صورة مملكة منسقة وعلى هيئة مدينة رائعة وعلى شكل قصر بديع، وجعله كنزاً لخوارق الأشياء، وجمّله بأفضل زينة وأروع حُسن، ورصّع نواحيه كلها بمعجزات معبّرة حكيمة.. أقول أن صانعاً له كل هذه العظمة والهيبة وقد أتى بنا – وبمَن حولنا – الى هاهنا، لاشك أن له شأناً في هذا. فوَجَب قبل كل شئ أن نعرفه معرفة جيدة وأن نعلم منه ما يريد منا وماذا يطلب؟.

قال له صاحبه:

– دع عنك هذا الكلام. فانا لا أصدّق أن واحداً احداً يدير هذا العالم الغريب!

فأجابه:

–ـــ مهلاً يا صاحبي! هلاّ أعرتني سمعَك! فنحن لو أهملنا معرفته فلا نكسب شيئاً قط، وان كان في اهمالنا ضررٌ فضرره جدٌّ بليغ. بينما اذا سعَينا الى معرفته فليس في سعينا هذا مشقة ولا نلقى" من ورائه خسارة، بل منافع جليلة وعظيمة. فلا يليق بنا اذن ان نبقى مُعرِضين هكذا عن معرفته.

ولكن صاحبه الغافل قال:

– أنا لست معك في كلامك هذا. فأنا أجد راحتي ونشوتي في عدم صرف الفكر الى مثل هذه الأمور، وفي عدم معرفة ما تدّعيه عن هذا الصانع البديع. فلا أرى داعياً ان أجهد نفسي فيما لا يسعه عقلي. بل أرى هذه الأفعال جميعها ليست الاّ مصادفات وأموراً متداخلة متشابكة تجري وتعمل بنفسها؟ فما لي وهذه الأمور؟..

فردّ عليه العاقل:

– أخشى أن يلقي بنا عنادُك هذا وبالآخرين الى مصائب وبلايا. ألم تُهدَم مدنٌ عامرةٌ من جراء سفاهة شقيٍّ وأفعالِ فاسق؟

ومرة اخرى انبرى له الغافل قائلاً:

– لنحسم الموضوع نهائياً فإما أن تثبت لي اثباتاً قاطعاً لا يقبل الشك بأن لهذه المملكة الضخمة مالكاً واحداً وصانعاً واحداً احداً، أو تَدَعني وشأني.

أجابه صديقه:

– ما دمتَ يا صاحبي تصرّ على عنادك الى حد الجنون والهذيان مما يسوقنا والمملكة بكاملها الى الدمار! فسأضع بين يديك أثني عشر برهاناً أثبت بها أن لهذا العالم الرائع روعةَ القصر، ولهذه المملكة المنتظمة انتظام المدينة، صانعاً بديعاً واحداً احداً هو الذي يدبّر الأمور كلَّها. فلا ترى من فطورٍ في شئ، ولا ترى من نقصٍ في أمر. فذلك الصانع الذي لا نراه

يبصُرنا ويبصر كلّ شئ، ويسمع كلام كل شئ، فكلُّ أفعاله معجزات وآيــات وخــوارق وروائع. وما هذه المخلوقات التي لا نفهم ألسنتهم اِلاّ مأمورون وموظفون في مملكته.

oالبرهان الاول

تعال معي يا صاحبي لنتأمل ما حولنا من أشياء وأمور. ألا ترى ان يداً خفية تعمل من وراء الأمور جميعها؟ أوَ لا ترى ان ما لا قوة له أصلاً ولا يقوى على حمل نفســه [86]يحمــل آلاف الأرطال من الحمل الثقيل؟ أوَ لا تشاهد أن ما لا اِدراك له ولا شعور يقوم بأعمالٍ في غاية الحكمة؟... [87]فهذه الأشياء اذن لا تعمل مستقلة بنفسها، بل لابد ان مــولى عليمــاً، وصانعاً قديراً يديرها من وراء الحجب. اذ لو كانت مستقلةً بذاتها، وأمرُها بيدها، للــزم أن يكون كلُّ شئ هنا صاحبَ معجزة خارقة. وما هذه الا سفسطة لا معنى لها!

oالبرهان الثاني

تعال معي يا صاحبي لنُمعِن النظر في هذه الاشياء التي تزيّن الميادين والساحات، ففــي كل زينة منها أمور تخبرنا عن ذلك المالك وتدلنا عليه. كأنها سكّتُه وختمــهُ. كمــا تــدلنا طغــراء الســلــطــان وختــمــه على وجــوده، وتنبــئنا ســـكّته الــتي علـــى مســـكوكاته عن عظمته وهيبته. فان شئت فانظر الى هذا الجســم الصغير جداً الذي لا يكاد الانسان يعرف له وزناً، [88]قد صنع منه المولى اطوالاً من نسيج ملــون بــالوان زاهيــة ومزركش بزخارف باهرة، ويُخرج منه ما هو ألذّ من الحلويات والمعجنات المعسلة، فلو لبس آلافٌ من أمثالنا تلك المنسوجات وأكل من تلك المأكولات لما نفدت.

---

[86] اشارة الى البذور والنوى التي تحمل اشجاراً ضخمة. - المؤلف.

[87] اشارة الى سيقان العنب - مثلاً - التي تمد أيديها اللطيفة وتعانق الاشجار الاخرى، لضعفها عن حمل عناقيدها الغنية.ــــ المؤلف.

[88] اشارة الى البذور المتنوعة، فبذور البطيخ والخوخ وغيرها تنسج اوراقاً اجمل من اجود قماش، وتقدم لنا ثماراً طيبة هي ألذ من الحلوى تأتي بها من خزينة الرحمة الالهية.ــــ المؤلف.

ثم أنظر، انه يأخذ بيده الغيبية هذا الحديد والتراب والماء والفحم والنحـــاس والفضـــة والذهب ويصنع منها جميعاً قطعة لحم. [89]

فيا أيها الغافل.. هذه الأشياء والافعال انما تخصّ بمن زمام هذه المملكة بيده، ومَـــن لا يعزُب عنه شئ، وكل شئ منقاد لإرادته.

oالبرهان الثالث

تعال لننظر الى مصنوعاته العجيبة المتحركة. [90]فقد صُنع كلّ منها كأنه نسخةٌ مصـــغرةٌ من هذا القصر العظيم، اذ يوجد فيه ما في القصر كله. فهل يمكن ان يُدرج أحدٌ هذا القصر مصغّراً في ماكنةٍ دقيقة غير صانعه البديع؟ أو هل يمكن أن ترى عبثاً أو مصادفة في عالَمٍ ضُمَّ داخل ماكنة صغيرة؟

أي أن كل ما تشاهده من مكائن انما هي بمثابة آية تدل على ذلك الصانع البديع، بـــل كل ماكنة دليلٌ عليه، واعلان يفصح عن عظمته، ويقول بلسان الحال:

»نحن من اِبداع مَن أبدع هذا العالَم بسهولة مطلقة كما أوجدَنا بسهولة مطلقة«.

oالبرهان الرابع

أيها الأخ العنيد! تعال اُرِكَ شيئاً اكثر اثارة للاعجاب! انظر، فها قد تبدّلت الأمور في هذه المملكة، وتغيّرت جميع الاشياء، وها نحن أولاء نرى باعيننا هذا التبدل والتغير، فلا ثبات لشئ مما نراه بل الكل يتغيرويتجدد.

أنظر الى هذه الأجسام الجامدة المشاهَدة التي لا نرى فيها شعوراً، كأن كلاً منها قـــد اتخذ صورةَ حاكمٍ مطلق والآخرون محكومون تحت سيطرته، وكأن كلاً منها يسيطر علـــى

---

[89] اشارة الى خلق جسم الحيوان من العناصر، والى ايجاد الكائن الحي من النطفة.ـــــــ المؤلف.

[90] اشارة الى الحيوانات والانسان، لأن الحيوان فهرسٌ مصغّر لهذا العالم، والماهية الانسانية مثال مصغر للكائنات، فما من شيء في العالم الاّ ونموذجه في الانسان.ـــــ المؤلف.

الأشياء كلها. انظر الى هذه الماكنة التي بقربنا. [91]كأنها تأمر فيهرع اليها من بعيد ما تحتاجـــه من لوازم لزينتها وعملها، وانظر الى ذلك الجسم الذي لا شعور له، [92]كأنه يسخّر باشـــارةٍ خفيّة منه أضخَم جسمٍ وأكبره في شؤونه الخاصة ويجعله طوع اشارته.. وقس الأمور الأخرى على هذين المثالين.

فان لم تفوَّض امر إدارة المملكة الى ذلك المالك الذي لا نراه، فعليك اذن أن تحيـــل الى كل مصنوعٍ ما للبديع من إتقان وكمالات، حتى لو كان حجراً أو تراباً أو حيواناً أو انساناً أو أي مخلوق من المخلوقات.

فاذا ما استبعد عقلُك ان بديعاً واحداً احداً هو المالك لهذه المملكة وهو الذي يديرها، فما عليك الاّ قبول ملايين الملايين من الصانعين المبدعين، بل بعدد الموجودات! كل منها ندٌّ للآخر ومثيله وبديلُه ومتدخل في شؤونه! مع أن النظام المتقن البديع يقتضي عدم التدخل، فلو كان هناك تدخل مهما كان طفيفاً ومن أي شئ كان، وفي أي أمر من امور هذه المملكـــة الهائلة، لظهر أثره واضحاً، اذ تختلط الأمور وتتشابك ان كان هناك سيدان في قرية أو محافظان في مدينة أو سلطانان في مملكة. فكيف بحكامٍ لا يعدّون ولا يحصون في مملكة منسقة بديعة؟!

oالبرهان الخامس

أيها الصديق المرتاب! تعال لندقق في نقوش هذا القصر العظـــيم، ولـــنمعن النظـــر في تزيينات هذه المدينة العامرة، ولنشاهد النظام البديع لهذه المملكة الواسعة، ولنتأمـــل الصـــنعة المتقنة لهذا العالم. فها نحن نرى انه إن لم تكن هذه النقوش كتابةَ قلمِ المالك البديع الـــذي لا حدّ لمعجزاته وإبداعه، واُسندت كتابتُها ونقشُها الى الأسباب التي لا شعورَ لها، والى المصادفة

---

[91] اشارة الى النباتات المثمرة لأنها تحمل مئات المصانع والمعامل الدقيقة في اعضائها الرقيقة فتنسج الاوراق اللطيفة والازهار الزاهية وتُنضج الثمار اليانعة وتقدّمها الينا. ومنها أشجار الصنوبر الشامخة التي نصبت معاملها على الصخور الصماء في الجبال.ـــــ المؤلف.

[92] اشارة الى الحبوب والبذيرات وبيوض الحشرات، فتضع البعوضة مثلاً بيوضها على أوراق شجرة، فاذا الورقة تكون لها كرحم الأم والمهد اللطيف، وتمتلئ بغذاء لذيذ كالعسل. فكأن تلك الشجرة غير المثمرة تثمر كائنات حية. ـ المؤلف.

العمياء، والى الطبيعة الصماء، للزم اذن ان يكون في كل من أحجار هذه المملكة وعشـبها مصّورٌ معجزٌ وكاتبٌ بـديعٌ يستـطيع أن يكتـب ألـوف الكـتـب في حـرف واحـد، ويمكنه أن يُدرِج مـلايـين الاعمـال المتقـنة البديعة في نقشٍ واحد!! لأنـك ترى أن هذا النقش الذي أمامك في هذه اللبنة [93] يضم نقوش جميع القصر، وينطوي على جميع قوانين المدينة وانظمتها، ويتضمن خطط أعمالها. أي ان ايجاد هذه النقوش الرائعـة معجـزةٌ عظيمةٌ كايجاد المملكة نفسها، فكل صنعة بديعة ليست إلاّ لوحةُ اعلانٍ تُفصح عن أوصـاف ذلك الصانع البديع، وكل نقش جميل هو ختمٌ واضحٌ من أختامه الدالة عليه.

فكما انه لا يمكن لحرفٍ الاّ أن يدل على كاتبه، ولا يمكن لنقشٍ الاّ أن ينبئ عن نقاشه، فكيف يمكن اذن الاّ يدل حرفٌ كُتب فيه كتاب عظيم على كاتبه، ونقشٌ نُقشَـت ألـوف النقوش على نقّاشه؟ ألا تكون دلالتُه أظهرَ وأوضحَ من دلالته على نفسه؟

oالبرهان السادس

تعال يا صديقي لنذهب الى نزهة نتجول في هذه الفلاة الواسعة [94] المفروشة امامنا.. ها هو ذا جبلٌ أشمٌّ، تعال لنصعد عليه حتى نتمكن من مشاهدة جميع الأطراف بسهولة، ولنحمل معنا نظارات مكبّرة تقرب لنا ما هو بعيد عن أنظارنا. فهذه المملكة فيها من الأمور العجيبة والحوادث الغريبة ما لا يخطر على بال أحد. أنظر الى تلك الجبال والسهول المنبسطة والمـدن العامرة، انه أمر عجيب حقاً إذ يتبدل جميعُها دفعة واحدة، بل ان ملايين الملايين من الأفعال المتشابكة تتبدل تبدلاً بكل نظام وبكل تناسق، فكأن ملايين الاطوال من منسوجات ملونـة

---

[93] اشارة الى الانسان الذي هو ثمرة الخلقة، والى الثمرة التي تحمل فهرس شجرتها وبرنامجها. فما كتبه قلمُ القُدرة في كتاب العالم الكبير قد كتبه مجملاً في ماهية الانسان، وما كتبه قلمُ القَدَر في الشجرة قد دَرَجه في ثمرتها الصغيرة.ــــ المؤلف.

[94] اشارة الى سطح الارض في موسمي الربيع والصيف. حيث تُخلق مئات الألوف من المخلوقات خلقاً متداخلاً متشابكاً، وتُكتب على صحيفة الأرض دون خطأ ولا قصور، وتُبدل بانتظام، فتُفرش الوف ضيافات الرحمن، ثم تُرفع وتُجدد. فكأن كل شجرة خادم مطعم، وكل بستان مطبخٌ لاعداد الماكولات.ــــ المؤلف.

رائعة تنسج امامنا في آن واحد.. حقاً ان هذه التحولات عجيبة جداً. فاين تلك الأزاهير التي ابتسمت لنا والتي اَنسنا بها؟.. لقد غابت عنا، وحلّت محلها أنواعٌ مخالفة لها صـــورةً، مماثلـــة ماهية. وكأن هذه السهول المنبسطة وهذه الجبال المنصوبة صحائف كتاب يُكتب في كل منها كتبٌ مختلفة في غاية الاتقان دون سهو أو خطأ ثم تُمسح تلك الكتب ويُكتب غيرُها.. فهل ترى يا صديقي ان تبدّل هذه الأحوال وتحوّل هذه الأوضاع الذي يتم بكل نظـــام وميـــزان يحدث من تلقاء نفسه؟. أليس ذلك محالاً من أشد المحالات؟

فلا يمكن إحالة هذه الاشياء التي أمامنا وهي في غاية الاتقان والصنعة الى نفسها قـــط، فذلك محال في محال. بل هي أدلة واضحة على صانعها البديع أوضحَ من دلالتها على نفسها، اذ تبيّن أن صانعَها البديع لا يعجزه شئ، ولا يؤوده شئ، فكتابةُ ألف كتاب أمرٌ يسير لديـــه ككتابة حرف واحد. ثم تأمل يا أخي في الأرجاء كافة ترى ان الصانع الاعظم قـــد وضـــع بحكمةٍ تامة كلّ شئ في موضعه اللائق به. وأسبغ على كل شئ نِعَمه وكرمه بلطفه وفضـــله العميم. وكما يفتح أبواب نعمه وآلائه العميمة أمامَ كل شئ، يسعف رغبات كـــل شـــئ ويرسل اليه ما يطمئنه.

وفي الوقت نفسه ينصب موائد فاخرة عامرة بالسخاء والعطاء بل ينعم على مخلوقـــات هذه المملكة كافة من حيوان ونبات نِعَماً لا حدّ لها، بل يرسل الى كل فرد باسمه ورسمه نعمتَه التي تلائمه دون خطأ أو نسيان. فهل هناك محال أعظم من أن تظن ان في هذه الأمور شيئاً من المصادفة مهما كان ضئيلاً؟ أو فيه شيئاً من العبث وعدم الجدوى؟ أو أن احداً غير الصـــانع البديع قد تدخل في أمور المملكة؟ أو أن يُتصوَّر أن لا يدين له كل شئ في ملكه؟.. فهل تقدر يا صديقي أن تجد مبرراً لأنكار ما تراه؟..

oالبرهان السابع

لنَدَع الجزئيات يا صاحبي، ولنتأمل في هذا العالم العجيب، ولنشاهد أوضـــاع اجزائـــه المتقابلة بعضها مع البعض الآخر.. ففي هذا العالم البديع من النظام الشامل والانتظام الكامل كأن كل شئ فاعل مختار حي يشرف على نظام المملكة كلها، ويتحرك منسجماً مع ذلـــك النظام العام. حتى ترى الأشياء المتباعدة جداً يسعى الواحد منها نحو الآخر للتعاون والتآزر.

أنظر! ان قافلة مهيبة تنطلق من الغيب [95]مُقبلةً علينا. فهي قافلة تحمل صــحون ارزاق الاحياء.. ثم أنظر الى ذلك المصباح الوضئ [96]المعلق في قبة المملكة فهي تنير الجميع وتُنضــج المأكولات المعلقة بخيط دقيق [97]والمعروضة أمامه بيد غيبية. الا تلتفت معي الى هذه الحيوانات النحيفة الضعيفة العاجزة كيف يسيل الى أفواهها غذاءٌ لطيف خالص يتدفق مــن مضــخات [98]متدلية فوق رؤوسها، وحسبها ان تلصق أفواهها بها!

نخلص من هذا: انه ما من شئ في هذا العالم الاّ وكأنه يتطلع الى الآخر فيغيثه، أو يرى الآخر فيشد من ازره ويعاونه.. فيكمل الواحد عمل الآخر ويكون ظهيره وسنده، ويتوجــه الجميع جنباً الى جنب في طريق الحياة.. وقس على ذلك فهذه الظواهر جميعها تــدلنا دلالــة قاطعة وبيقين جازم إلى انه ما من شئ في هذا القصر العجيب الاّ وهو مسخر لمالكه القــدير ولصانعه البديع ويعمل باسمه وفي سبيله، بل كل شئ بمثابة جندي مطيــع متأهــب لتلقــي الأوامر. فكل شئ يؤدي ما كلّف به من واجب بقوة مالكه وحوله، فيتحرك بأمره، وينتظم بحكمته، ويتعاون بكرمه وفضله، ويغيث الآخرين برحمته. فان كنتَ تستطيع يا أخي ابــداء شئ من الاعتراض والشك أمام هذا البرهان فهاته.

oالبرهان الثامن

تعال يا صاحبي المتعاقل ويا مثيل نفسي الأمّارة بالسوء التي تعدّ نفسها رشيدة وتُحسن الظن بنفسها.. أراك يا صاحبي ترغب عن معرفة صاحب هذا القصر البديع، مع أن كل شئ يدل عليه، وكل شئ يشير اليه، وكل شئ يشهد بوجوده. فكيف تجرأ على تكــذيب هــذه الشهادات كلها؟. اذن عليك أن تنكر وجود القصر نفسه، بل عليك أن تعلن انه لا قصر ولا

[95] وهي قافلة النباتات الحاملة لأرزاق الأحياء كافة. ـ المؤلف

[96] اشارة الى الشمس.ـــــ المؤلف.

[97] اشارة الى اغصان الشجرة الدقيقة الحاملة للأثمار اللذيذة. ـ المؤلف

[98] اشارة الى ثدي الامهات. ـ المؤلف

مملكة ولا شئ في الوجود. بل تنكر نفسَك وتعدّها معدومةً لا وجود لها.!.. أو عليـــك ان تعود الى رُشدك وتصغي اليّ جيداً، فها أنا أضع بين يديك هذا المنظر:

تأمل في هذه العناصر والمعادن [99]التي تعم هذه المملكة والتي توجد في كل أرجاء هـــذا القصر. ومعلوم انه ما من شئ ينتج في هذه المملكة الاّ من تلك المواد. فَمن كان مالكاً لتلك المواد والعناصر فهو اذن مالك لكل ما يُصنع وينتج فيها. اذ مَن كان مالكاً للمزرعـــة فهـــو مالك المحاصيل، ومَن كان مالكاً للبحر فهو مالك لما فيه.

ثم أنظر يا صاحبي الى هذه المنسوجات والاقمشة الملونة المزدانة بالأزهار. انها تُصنع من مادة واحدة. فالذي هيأ تلك المادة وغَزَلها لابد أنه واحد، لأن تلك الصنعة لا تقبل الاشتراك، فالمنسوجات المتقنة تخصّه هو. ثم التفت الى هذا: ان اجناس هذه المنسوجات موجودة في كل جزء من أجزاء هذا العالم العجيب وقد انتشرت انتشاراً واسع النطاق حتى انها تُنسَـــج معـــاً وبتداخل في آن واحد وبنمط واحد في كل مكان. أي أنه فعلُ فاعلٍ واحد، فالجميع يتحرك بأمرٍ واحد. والاّ فمحال أن يكون هناك انسجامٌ تام وتوافق واضح في العمل وفي آن واحـــد وبنمط واحد وبنوعية واحدة وهيأة واحدة في جميع الانحاء، لذا فان كل ما هو متقن الصـــنع يدل دلالة واضحة على ذلك الفاعل الذي لا نراه، بل كأنه يعلن عنه صراحةً، بل كأن كـــل نسيج مغرز بالزهور، وكل ماكنة بديعة، وكل مأكول لذيذ، انما هو علامة الصانع المعجـــز وخاتمه وآيته وطغراؤه فكل منه يقول بلسان الحال: »مَن كنتُ انا مصنوعُه، فموضعي الذي أنا فيه مُلكُه«. وكل نقش يقول: »مَن قام بنسجي ونقشي فالطَول الـــذي أنـــا فيـــه هـــو منسوجُه«. وكل لقمة لذيذة تقول: »مَن يصنعني ويُنضجني فالقِدر الذي أطبخُ فيه مُلكُـــه«. وكل ماكنة تقول: »مَن قام بصنعي فكل ما في العالم من امثالي مصنوعه وهو مالكه. اي من كان مالكاً للمملكة والقصر كله فهو الذي يمكـــنه ان يملّكنا«. وذلك بمثـــل مَـــن اراد أن

---

[99] اشارة الى عناصر الهواء والماء التي تؤدي وظائف مهمة شتى، وتمد كل محتاج باذن ا وتنتشر في كل مكان بأمرا فتهيء لوازم الحياة لذوي الحياة، وهي الاصل في خيوط نقش المصنوعات الالهية.ـــــ المؤلف.

يدّعي تملّك أزرار البزة العسكرية ووضع شعار الدولة عليها لابد أن يكون مالكاً لمصـــانعها كلها حتى يكون مالكاً حقيقياً، والا فليس له إلاّ الادعاء الكاذب، بل يعاقب علـــى عملـــه ويؤاخذ على كلامه.

الخلاصة: كما ان عناصر هذه المملكة موادٌ منتشرةٌ في جميع ارجائها فمالكُها اذن واحدٌ يملك ما في المملكة كلها، كذلك المصنوعات المنتشرة في أرجاء المملكة لأنها متشابهةٌ تُظهِـــر علامة واحدة وناموساً واحداً، فجميعها اذن تدل على ذلك الواحد المهيمن على كل شئ.

فيا صديقي! ان علامة الوحدة ظاهرة في هذا العالم، وآية التوحيد واضحة بيّنة، ذلـــك لأن قسماً من الأشياء رغم انه واحد فهو موجود في العالم كله، وقسمٌ آخر رغم تعدد اشكاله فانه يُظهِر وحدةً نوعيةً مع أقرانه لتشابهه وانتشاره في الأرجاء، وحيث أن الوحدة تدل على الواحد كما هو معلوم لذا يلزم أن يكون صانع هذه الاشياء ومالـــــكهـــا واحداً أحداً. زد على هـــذا فانـــك ترى انها تُقدَّم إلينـــا هـــدايـــــا ثمـــينـــة من وراء ستار الغيب، فتتدلى منه خيوط وحبال[100] تحمل ما هو اثمن من الماس والزمرد من الآلاء والاحسان.

اذن فقدّر بنفسك مدى بلاهة مَن لا يعرف الذي يدير هذه الامور العجيبة ويقدّم هذه الهدايا البديعة؟ قدّر مدى تعاسة مَن لا يؤدي شكره عليها! إذ إن جهله به يُرغمه على التفوّه بما هو من قبيل الهذيان، فيقول – مثلاً ـــــ: ان تلك اللآلئ المرصـــعات تَصـــنعُ نفســـها بنفسها!. أي يُلزمه جهلُه ان يمنح معنى السلطان لكل حبلٍ من تلك الحبال! والحال اننا نرى ان يداً غيبية هي التي تمتد الى تلك الحبال فتصنعها وتقلدها الهدايا. أي أن كل مـــا في هـــذا القصر يدل على صانعه المبدع دلالة أوضح من دلالته على نفسه. فان لم تعرفه – يا صاحبي –حق المعرفة فستهوي اِذن في درك أحط من الحيوانات، لأنك تضطر الى انكار جميع هـــذه الاشياء.

oالبرهان التاسع

[100] الحبل اشارة الى الشجرة المثمرة، والخيوط الرفيعة اشارة الى أغصانها، أما الهدايا والمرصعات، فهي اشارة الى أنواع الأزهار وأضراب الثمار. - المؤلف.

أيها الصديق الذي يطلق أحكامه جزافاً، انك لا تعرف مالك هذا القصر ولا تَرغب في معرفته، فتستبعد ان يكون له مالك وتنساق الى إنكار احواله لعجز عقلك عن أن يستوعب هذه المعجزات الباهرة والروائع البديعة، مع ان الاستبعاد الحقيقي، والمشكلات العويصة والصعوبات الجمة في منطق العقل انما هو في عدم معرفة المالك والذي يفضي بك الى انكار وجود هذه المواد المبذولة لك، باثمانها الزهيدة ووفرتها العظيمة. بينما اذا عرفناه يكون قبول ما في هذا القصر، وما في هذا العالم سهلاً ومستساغاً ومعقولاً جداً، كأنه شئ واحد، اذ لو لم نعرفه ولولاه، لكان كل شئ عندئذٍ صعباً وعسيراً بل لا ترى شيئاً مما هو متوفر ومبذول امامك. فان شئت فانظر فحسب الى علب السمُربيات[101] المتدلية من هذه الخيوط. فلو لم تكن من انتاج مطبخ تلك القدرة المعجزة، لما كان باستطاعتك الحصول عليها ولو باثمان باهظة.

نعم ان الاستبعاد والمشكلات والصعوبة والهلاك والمحال انما هو في عدم معرفته، لأن ايجاد ثمرة – مثلاً – يكون صعباً ومشكلاً كالشجرة نفسها فيما اذا ربط كل ثمرة بمراكز متعددة وقوانين مختلفة، بينما يكون الأمر سهلاً مستساغاً اذا ما كان ايجاد الثمرة بقانون واحد ومن مركز واحد فيكون ايجاد آلاف الاثمار كايجاد ثمرة واحدة. مَثلُه في هذا كمثل تجهيز الجيش بالعتاد، فان كان من مصدر واحد وبقانون واحد ومن معمل واحد، فالأمر سهلٌ ومستساغ عقلاً. بينما اذا جُهّز كلٌّ جندي بقانون خاص ومن مصدر خاص ومن معمل يخصه، فالأمر صعب ومشكل جداً، بل سيحتاج ذلك الجندي حينئذٍ الى مصانع عتاد ومراكز تجهيزات وقوانين كثيرة بعدد أفراد جيش كامل.

فعلى غرار هذين المثالين، فان ايجاد هذه الاشياء في هذا القصر العظيم والمدينة الرائعة، وفي هذه المملكة الراقية والعالم المهيب اذا ما أُسند الى واحدٍ أحد فان الأمر سهل ومستساغ

---

[101] معلبات المربيات، اشارة الى البطيخ والشمام والرمان وغيرها من معلبات القدرة الالهية، وكل ذلك هدايا الرحمة الالهية. ـ المؤلف.

حيث يكون ما نراه من وفرة الاشياء وكثرتها واضحاً، بينما ان لم يسند الأمر اليه يكون ايجاد اي شئ كان عسيراً جداً، بل لا يمكن ايجاده اصلاً حتى لو اعطيت الدنيا كلها ثمناً له.

oالبرهان العاشر

أيها الصديق ويا من يتقرب شيئاً فشيئاً الى الانصاف.. فها نحن هنا منذ خمسة عشر يوماً، [102]فان لم نعرف انظمة هذه البلاد وقوانينها و لم نعرف مليكها فالعقاب يحق علينا، اذ لا مجال لنا بعدُ للاعتذار. فلقد أمهلونا طوال هذه الأيام، و لم يتعرضوا لنا بشئ. الاّ اننا لا شك لسنا طلقاء سائبين، فنحن في مملكة رائعة بديعة فيها من الدقّة والرقة والعبرة في المصنوعات المتقنة ما ينم عن عظمة مليكها، فلابد أن جزاءه شديد ايضاً. وتستطيع أن تفهم عظمة المالك وقدرته من هذا:

انه ينظمّ هذا العالم الضخم بسهولة تنظيم قصر منيف، ويدير أمور هذا العالم العجيب بيسر ادارة بيتٍ صغير، ويملأ هذه المدينة العامرة بانتظام كامل دون نقص ويخلّيها من سكانها بحكمة تامة بمثل سهولة ملء صحن وافراغه. وينصب الموائد الفخمة المتنوعة [103]ويعد الاطعمة اللذيذة بكمال كرمه بيد غيبية ويفرشها من أقصى العالم الى أقصاه ثم يرفعها بسهولة وضع سُفرة الطعام ورفعها. فان كنت فطناً فستفهم ان هذه العظمة والهيبة لابد أنها تنطوي على كرم لا حد له وسخاء لا حدود له.

ثم أنظر كما ان هذه الاشياء شاهدةُ صدقٍ على عظمة المالك القدير وعلى هيمنته، وعلى انه سلطان واحد أحد، كذلك القوافل المتعاقبة والتحولات المترادفة دليل على دوام ذلك السلطان وبقائه، لأن الأشياء الزائلة انما تزول معها أسبابُها أيضاً. فالأشياء والاسباب تزولان معاً، بينما التي تعقبها تأتي جديدة ولها آثارٌ كسابقتها، فهي اذن ليست من فعل تلك

---

[102] اشارة الى سن التكليف البالغ خمس عشرة سنة. -المؤلف.

[103] اشارة الى وجه الأرض في الربيع والصيف حيث تخرج أطعمة لذيذة متنوعة من مطبخ الرحمة الالهية وتُنصَب موائد النعم المتنوعة المختلفة وتجدد باستمرار، فكل بستان مطبخ، وكل شجرة خادم المطبخ. - المؤلف.

الأسباب، بل ممن لا يطرأ عليه الزوال! فكما ان بقاءَ اللمعان والتألّق – بعد زوال حَباب النهر الجاري – في التي تعقبها من الحباب، يفهمنا ان هذا التألق ليس من الحباب الزائلة بـــل مـــن مصدر نور دائم، كذلك تبدل الأفعال بالسرعة المذهلة، وتلوّن التي تعقبها وانصباغها بصفاتها يدلنا على أن تلك الأفعال انما هي تجلياتُ مَن هو دائم لا يزول وقائمٌ لا يحـــول. والاشـــياء جميعاً نقوشُه ومراياه وصنعتُه ليس الاّ.

oالبرهان الحادي عشر

تعال أيها الصديق لأبين لك برهاناً يملك من القوة ما للبراهين العشرة السابقة. دعنـــا نتأهب لسفرة بحرية، سنركب سفينة [104]لنذهب الى جزيرة بعيدة عنا. أتعلم لمـــاذا نـــذهب اليها؟. ان فيها مفاتيح ألغاز هذا العالَم ومغاليق اسراره وأعاجيبه. ألا ترى أنظار الجميع محدقة بها، ينتظرون منها بلاغاً ويتلقون منها الاوامر.. فها نحن نبدأ بالرحلة.. وها قد وصلنا اليهـــا ووطئت أقدامُنا أرضَ الجزيرة.. نحن الآن امام حشد عظيم من الناس وقد أجتمـــع اشـــراف المملكة جميعـــُهم هنا.. أمعن النظر يا صديقي الى رئيس الاجتماع المهيب.. هلاّ نتقرب اليه قليلاً فنعرفه عن كثب.. فها هو ذا متقلّد أوسمةً راقية تزيد على الألف [105]ويتحدث بكـــلام ملؤه الطيب والثقة والاطمئنان. وحيث اني كنت قد تعلمت شيئاً مما يقـــول خلال خمســـة عشر يوماً السابقة فسوف أعلّمك إياه.. انه يتحدث عن سلطان هذه المملكة ذى المعجزات ويقول: انه هو الذي أرسله اليكم. أنظر انه يُظهر خوارق عجيبة ومعجزات باهرة بحيـــث لا يدع شبهة في انه مُرسَلٌ خصيصاً من لدن السلطان العظيم. اِصغِ جيداً الى حديثه وكلامـــه،

---

[104] السفينة اشارة الى التأريخ، والجزيرة اشارة الى خير القرون وهو قرن السعادة النبوية. فاذا خلعنا ما ألبَسَتنا الحضارةُ الدنيّة من ملابسَ على ساحل هذا العصر المظلم، والقينا أنفسنَا في بحر الزمان، وركبنا سفينة كُتب التاريخ والسيرة الشريفة ووصلنا الى ساحل جزيرة عصر السعادة والنور، وبلغنا الجزيرة العربية، وحظينا بالرسول الكريم (ص) وهو يزاول مهمة النبوّة المقدسة، عند ذلك نعلم ان ذلك النبي (ص) انما هو برهان باهر للتوحيد ودليل ساطع عليه بحيث نوّرَ سطح الأرض جميعاً، وأضاء وجهَي الزمان الماضي والمستقبل ومحا ظلمات الكفر والضلالة.ـــــ المؤلف.

[105] اشارة الى المعجزات التي أظهرها الرسول الكريم (ص) وهي ثابتة عند أولى العلم والتحقيق. ـ المؤلف.

فجميع المخلوقات آذانٌ صاغية له، بل المملكة برمّتها تصغى اليه، حيث الجميع يســعون الى سماع كلامه الطيب ويتلهفون لرؤية محياه الزاهر. أوَ تظن ان الانسان وحده يصــغي اليــه فحسب؟ بل الحيوانات ايضاً، بل حتى الجبال والجمادات تصغى لأوامره وتهتز من خشــيتها وشوقها اليه. انظر الى الاشجار كيف تنقاد الى أوامره وتذهب الى ما اشار اليه من مواضــع، انه يفجّر الماء اينما يريد، بل حتى من بين أصابعه، فيرتوي الناس من ذلك الماء الزلال. انظــر الى ذلك المصباح المتدلي من سقف المملكة[106] انه ينشق الى شقين اثنين بمجرد اشــارة منــه. فكأن هذه المملكة وبما فيها تعرفه جيداً وتعلم يقيناً انه موظف مرسل بمهمة من لدن السلطان، ومبلّغ امين لأوامره الجليلة. فتراهم ينقادون له انقياد الجندي المطيع. فما من راشد عاقل ممن حوله الاّ ويقول انه رسول كريم، ويصدقونه ويذعنون لكلامه، ليس هذا فحسب بل يصدّقه ما في المملكة من الجبال والمصباح العظيم [107]. والجميع يقولون بلسان الحال وبخضوع: نعم.. نعم ان كل ما ينطق به صدق وعدل وصواب...

فيا ايها الصديق الغافل! هل ترى انه يمكن ان يكون هناك أدنى احتمــال لكــذبٍ أو خداع في كلام هذا الكريم؟ حاش لله أن يكون من ذلك شئ من كلامه ابداً. وهــو الــذي اكرمه السلطان بألفٍ من الانواط والشارات، وهي علامات تصديقه له، وجميــعُ اشــراف المملكة يصدّقونه، وكلامُه كله ثقة واطمئنان، فهو يبحث في أوصاف السلطان المعجزِ وعــن أوامره البليغة. فان كنت تجد في نفسك شيئاً من احتمال الكذب، فيلزم عليك أن تكذّب كل الجماعات المصدّقة به، بل تنكر وجود القصر والمصابيح وتنكر وجود كل شــئ وتكــذّب حقيقتهم، والاّ فهات ما عندك ان كان لديك شئ، فالدلائل تتحدى.

---

[106])» اشارة الى القمر، ومعجزة شق القمر. فقد قال مولانا جامي:
ان ذلك الأمي الذي لم يكتب في حياته شيئاً غير ما كتبه باصبعه حرف ألف على صحيفة السماء فشق به القمر شقين...«. - المؤلف.

[107] اشارة الى الشمس التي رجعت عن المغيب بعودة الارض من المشرق ، فشوهدت من جديد، وبناء على هذه المعجزة ادّى الامام علي رضى الله عنه صلاة العصر التي كادت ان تفوته، وذلك بسبب نوم الرسول (ص) على فخذه. المؤلف.

o البرهان الثاني عشر

أيها الأخ لعلك استرشدت بما قلنا شيئاً فشيئاً. فسأبين لك الآن برهاناً أعظم من جميع البراهين السابقة.

انظر الى هذه الأوامر السلطانية النازلة من الأفق الأعلى، الجميع يوقرونها وينظرون اليها باجلال واعجاب، وقد وقف ذلك الشخص الكريم المحلل بالاوسمة بجانب تلك الأوامر النورانية [108] ويفسّر للحشود المجتمعة معاني تلك الأوامر. انظر الى اسلوب الأوامر انه يشع ويسطع حتى يسوق الجميع الى الاعجاب والتعظيم. إذ يبحث في مسائل جادّة تهمّ الجميع بحيث لا يدع احداً الاّ ويصغي اليه. انه يفصّل تفصيلاً كاملاً شؤون السلطان وافعاله وأوامره وأوصافه. فكما ان على تلك الأوامر السلطانية طغراء السلطان نفسه فعلى كل سطر من سطورها ايضاً شارته بل اذا أمعنت النظر فعلى كل جملة بل كل حرف فيها خاتمه الخاص فضلاً عن معانيها ومراميها وأوامرها ونواهيها.

الخلاصة: ان تلك الأوامر السلطانية تدل على ذلك السلطان العظيم كدلالة الضوء على النهار.

III

فيا أيها الصديق: أظنك قد عُدت الى صوابك وأَفَقْت من نوم الغفلة، فانّ ما ذكرناه لك وبسطناه من براهين لكافٍ ووافٍ. فان بدا لك شئٌ فاذكره.

فما كان من ذلك المعاند الاّ أن قال:

لا أقول إلاّ: »الحمد للّه، لقد آمنت وصدقت، بل آمنت ايماناً واضحاً أبلج كالشمس وكالنهار، ورضيت بان لهذه المملكة ربّاً ذا كمال، ولهذا العالَم مولى ذا جلال، ولهذا القصر صانعاً ذا جمال. ليرضَ الله عنك يا صديقي الحميم فقد أنقذتني من أسار العناد والتعصب الممقوت الذي بلغ بي حَّد الجنون والبلاهة، ولا أكتمك يا أخي، فان ما سقته من

---

[108] اشارة الى القرآن الكريم والعلامة الموضوعة عليه اشارة الى اعجازه. ـ المؤلف.

براهــين، كلٌّ واحــد منها كــان بــرهــانــاً كافياً ليوصلني الى هذه النتيجة، الاّ انــي كنت أصغي اليك لأن كل برهان منها قد فتح آفاقاً أرحب ونوافذ أسطع الى معرفة الله والى محبته الخالصة«.

III

وهكذا تمت الحكاية التي كانت تشير الى الحقيقة العظمى للتوحيد والايمان باللّه.

وسنبين في المقام الثاني بفضل الرحمن وفيض القرآن الكريم ونور الايمان - مقابل ما جاء من اثنى عشر برهاناً في الحكاية التمثيلية إثنتي عشرة لمعة من لمعات شمس التوحيد الحقيقي بعد ان نمهّد لها بمقدمة.

نسأل الله التوفيق والهداية.

المقام الثاني

من الكلمة الثانية والعشرين

بسم الله الرحمن الرحيم

(اللهُ خَالِقُ كُلِ شَيءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شيْءٍ وَكيلٌ ـلهُ مَقاليــدُ السَــمواتِ والارض) (الزمر: 62ـــ 63)

(فَسُبحان الذى بيدهِ مَلَكُوتُ كلِّ شيْءٍ واليه تُرجعُونَ) (يس:83)

(وَاِنْ مِنْ شيْءٍ الاّ عندَنا خَزَائِنُهُ ومَا نُنَزِّلُهُ إلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) (الحجر: 21)

(مَا مِنْ دَابَةٍ الاّ هُوَ آخِذٌ بنَاصِيَتِها اِنّ رَبّى على صِرَاطٍ مُسْتَقيم) (هود:56)

المقدمة

لقد بيّنا اجمالاً في رسالة »قطرة من بحر التوحيد« قطبَ اركان الايمان وهو »الايمــان باللّه«. واثبتنا ان كل موجود من الموجودات يدل علــى وجوب وجود الله سبحانه ويشهد على وحدانيته بخمسة وخمسين لساناً. وذكرنا كذلك في رسالة »نقطة من نور معرفة الله جل جلاله« أربعة براهين كليّة على وجوب وجوده سبحانه ووحدانيته، كل برهان منها بقــوة ألف برهان. كما ذكرنا مئات من البراهين القاطعة التي تبيّن وجــوبَ وجــوده ســبحانه ووحدانيته فيما يقرب من اثنتي عشرة رسالة باللغة العربية، لذا نكتفي بما سبق ولا ندخل في تفاصيل دقيقة، الاّ أننا نسعى في هذه »الكلمة الثانية والعشرين« لإظهار »اثنتي عشرة« لمعــة من شمس »الايمان باللّه« تلك التي ذكرتُها اجمالاً في رسائل النور.

uاللمعة الاولى

التوحيد توحيدان، لنوضح ذلك بمثال:

اذا وردت الى سوقٍ او الى مدينة بضائع مختلفة وأموال متنوعة لشخص عظيم، فهــذه الأموال تُعرف مُلكيتها بشكلين اثنين:

الاول: شكل إجمالي عامي (أي لدى العامة من الناس) وهو : » ان مثل هذه الأمـــوال الطائلة ليس بمقدور أحدٍ غيره ان يمتلكها« ولكن ضمن نظرة الشخص العامي هذه يمكن أن يحدث اغتصاب، فيدّعي الكثيرون امتلاك قطِعها.

الثاني: أن تُقرأ الكتابة الموجودة على كل رزمة من رزم البضاعة، وتُعــرف الطغــراءُ الموجودة على كل طَول، ويُعلم الختمُ الموجود على كل مَعْلَمَ. أي كلّ شئ في هذه الحالــة يدل ضمناً على ذلك المالك.

فكما ان البضاعة يُعرف مالكُها بشكلين، كذلك التوحيد فانه على نوعين:

الاول: التوحيد الظاهري العامي: وهو »أنّ الله واحد لا شريك له ولا مثيــل، وهــذا الكون كلّه ملكه«.

الثاني: التوحيد الحقيقي: وهو الايمان بيقين أقرب ما يكون الى الشــهود، بوحدانيتــه سبحانه، وبصدور كلّ شئ من يد قدرته، وبأنه لا شريكَ له في ألوهيته، ولا معــينَ لــه في ربوبيته، ولا ندَّ له في مُلكه، إيماناً يَهب لصاحبه الاطمئنان الدائم وسكينة القلب، لرؤيته آية قدرته وختمَ ربوبيته ونقشَ قلمه، على كل شئ. فينفتح شباكٌ نافذٌ من كل شــئ الى نــوره سبحانه.

وسنذكر في هذه »الكلمة« شعاعاتٍ تبيّن ذلك التوحيد الحقيقي الخالص السامي.

تنبيه ضمن اللمعة الاولى:

ايها الغافل الغارق في عبادة الأسباب!

إعلم أن الاسباب ليست الاّ ستائر امام تصرف القدرة الإلهية، لأن العــزة والعظمــة تقتضيان الحجاب، اما الفاعل الحقيقي فهو القدرة الصمدانية، لأن التوحيد والجلال يتطلبــان هذا، ويقتضيان الاستقلال.

وأعلم أن مأموري السلطان الأزلي وموظفيه ليسوا هم المنفّذين الحقيقيين لأمور سلطنة الربوبية، بل هم دالّون على تلك العظمة والسلطان، والداعون اليها، ومشاهدوها المعجَبون، فما وُجدوا الاّ لإظهار عزّة القدرة الربانية وهيبتها وعظمتها، وذلك لئلا تظهر مباشرةُ يــد القدرة في امور جزئية خسيسة لا يــدرك نظــر اكثــر الغــافلين حُســنَها ولا يعــــرف

حكمـــــتهـــا فيشــــــتكي بغــــير حـــــق ويعتـــــرض بغـــيـــــر عــــلـــــم. وهم ليسوا كموظفي السلطان البشري الذي لم يعيّنـــهم ولم يُشـــركهم في سلطنته الاّ نتيجة عجزه وحاجته.

فالاسباب اذن انما وُضعَت لتبقى عزةُ القدرة مصونةً من جهة نظر العقل الظـــاهري؛ اذ ان لكل شئ جهتين – كوجهي المرآة – احداهما جهة »المُلك« الشبيهة بالوجه المطلي الملوّن للمرآة الذي يكون موضع الألوان والحالات المختلفة، والاخرى جهة »الملكوت« الشـــبيهة بالوجه الصقيل للمرآة. ففي الوجه الظاهر – أي جهة المُلك – هناك حالات منافية ظـــاهراً لعزة القدرة الصمدانية وكمالِها، فوُضعَت الأسبابُ كي تكون مرجعاً لتلك الحالات ووسائلَ لها. أما جهةُ الملكوت والحقيقة فكلُّ شيءٍ فيها شفافٌ وجميلٌ وملائمٌ لمباشرةِ يدِ القدرة لهـــا بذاتها، وليس منافياً لعزّتها، لذا فالاسباب ظاهرية بحتة، وليس لها التأثير الحقيقي في الملكوتية او في حقيقة الأمر.

وهناك حكمة اخرى للأسباب الظاهرية وهي:

عدم توجيه الشكاوي الجائرة والاعتراضات الباطلة الى العادل المطلق جلّ وعـــلا. أي وُضعت الأسبابُ لتكونَ هدفاً لتلك الاعتراضات وتلك الشكاوي، لأن التقصيرَ صادرٌ منـــها ناشئ من افتقار قابليتها.

ولقد روي لبيان هذا السر مثالٌ لطيف ومحاورة معنوية هي:

ان عزرائيل عليه السلام قال لرب العزة:

»ان عبادك سوف يشتكون مني ويسخطون عليّ عند أدائي لوظيفة قبض الأرواح«.

فقال الله سبحانه وتعالى له بلسان الحكمة:

»ساضع بينَك وبين عبادي ستائرَ المصائب والأمراض لتتوجـــه شـــكاواهم الى تلـــك الأسباب«.

وهكذا، تأمل! كما أن الأمراضَ ستائرُ يرجع اليها ما يُتوهّم من مساوئ في الأجَـــل، وكما أن الجمال الموجود في قبض الأرواح – وهو الحقيقة – يعود الى وظيفة عزرائيل عليه السلام، فان عزرائيل عليه السلام هو الآخر ستار، فهو ستار لأداء تلك الوظيفة وحجـــاب

للقدرة الإلهية، اذ أصبح مرجِعاً لحالات تبدو ظاهراً انها غير ذات رحمة ولا تليق بكمال القدرة الربانية.

نعم، ان العزّة والعظمة تستدعيان وضع الأسباب الظاهرية امام نظـــر العقـــل، الاّ ان التوحيد والجلال يردّان أيدي الاسباب عن التأثير الحقيقي.

uاللمعة الثانية

تأمل في بستان هذه الكائنات، وانظر الى جنان هذه الارض، وأنعم النظـــر في الوجـــه الجميل لهذه السماء المتلألئة بالنجوم. تَرَ أن للصانع الجليل جل جلاله ختماً خاصاً بمن هـــو صانع كل شئ على كل مصنوع من مصنوعاته، وعلامة خاصة بمن هو خالقُ كل شئ على كل مخلوق من مخلوقاته، وآية لا تقلَّد خاصة بسلطان الأزل والأبد على كل منشـــورٍ مـــن كتابات قلم قدرته على صحائف الليل والنهار وصفحات الصيف والربيع.

سنذكر من تلك الاختام والعلامات بضعاً منها نموذجاً ليس الاّ، انظر مما لا يحصى من علاماته الى هذه العلامة التي وضعها على »الحياة«:

»انه يخلق من شئ واحد كلَّ شئ، ويخلق من كلِّ شئ شيئاً واحداً«. فمن ماء النطفـــة بل من ماء الشرب، يخلق ما لا يعد من أجهزة الحيوان واعضائه، فهذا العمل لاشك انه خاص بقدير مطلق القدرة.

ثم ان تحويل الأطعمة المتنوعة – سواء الحيوانية أو النباتية – الى جسم خاص بنظام كامل دقيق، ونسج جلد خاص للكائن وأجهزة معينة من تلك المواد المتعددة لا شك أنه عمل قدير على كل شئ وعليم مطلق العلم.

نعم، ان خالق الموت والحياة يدير الحياة في هذه الدنيا، إدارة حكيمة بقـــانون أمـــري معجِز، بحيث لا يمكن أن يطبّق ذلك القانون وينفّذه الاّ مَن يصرّف جميع الكون في قبضته.

وهكذا إن لم تنطفىء جذوة عقلك و لم تفقد بصيرة قلبك فستفهم أنّ جعـــل الشـــئ الواحدِ كل شئ بسهولة مطلقة وانتظام كامل، وجعل كلَّ شئٍ شيئاً واحداً بميـــزانٍ دقيـــق وانتظام رائع وبمهارة وابداع، ليس الاّ علامة واضحة وآية بيّنة لخالق كل شئ وصانعه.

فلو رأيت – مثلاً – أن أحداً يملــك أعمالاً خارقة: ينســـج من وزنِ درهــــمٍ من القطن مائة طَولٍ من الصوف الخالص وأطوالاً من الحــــرير وانـــواعاً من الأقمشـــة، ورأيت أنه يُخرجِ علاوة على ذلك، من ذلك القطن حلويات لذيذة وأطعمة متنوعة كثيرة، ثم رأيت أنه يأخذ في قبضته الحديد والحجر والعسل والدهن والماء والتـــراب فيصـــنع منـــها الذهب الخالص، فستحكم حتماً أنه يملك مهارة معجِزة تخصّه وقدرة مهيمنة على التصـــرف في الموجودات، بحيث أن جميع عناصر الأرض مسخّرة بأمره، وجميع ما يتولد من التراب منفّذ لحكمه. فان تعجَبْ من هذا فان تجلي القدرة الإلهية وحكمتها في »الحياة« لهو أعجب مـــن هذا المثال بألف مرّة.. فاليك علامة واحدة من علامات عديدة موضوعة على الحياة.

uاللمعة الثالثة

أنظر الى »ذوي الحياة« المتجولة في خضم هذه الكائنات السيالة، وبين هذه الموجودات السيارة، تَرَ ان على كل كائن حيّ، أختاماً كثيرة، وضعها الحيُّ القيوم. أنظر الى ختم واحدٍ منها:

ان ذلك الكائن الحيّ – وليكن هذا الانسان – كأنه مثال مصغَّر للكون، وثمرة لشجرة الخِلقة، ونواةٌ لهذا العالَم، حيث أنه جامعٌ لمعظم نماذج أنواع العوالم، وكأن ذلك الكائن الحيّ قطرةٌ محلوبة من الكون كلّه، مستخلصةٌ بموازين علمية حساسة، لذا يلزم لخلقِ هذا الكـــائن الحيّ، وتربيته ورعايته ان يكون الكون قاطبة في قبضة الخالق وتحت تصرفه. فـــان لم يكـــن عقلك غارقاً في الأوهام، فستفهم ان جعلَ النحلة التي تمثل كلمةً من كلمات القدرة الربانية بمثابة فهرس مصغّر لكثير من الأشياء.. وكتابة أغلب مسائل كتاب الكون في كيان الانسان الذي يمثّل صحيفةً من قدرته سبحانه.. وادراج منهاج شجرة التين الضخمة في بُذيراتها الـــتي تمثل نقطةً في كتاب القدرة.. وإراءة آثار الأسماء الحسنى المحيطة المتجلية على صفحات هـــذا الكون العظيم في قلب الانسان الذي يمثل حرفاً واحداً من ذلك الكتاب.. ودرج ما تضـــمّه مكتبة ضخمة من مفصل حياة الانسان في ذاكرته المتناهية في الصغر.. كل ذلك دون شك، ختمٌ يخصّ بمن هو خالق كل شئ ورب العالمين.

فلئن أظهر ختمٌ واحد - من بين أختامٍ ربانية كثيرة - على »ذوي الحياة« نورَه باهراً حتى استقرأ آياته قراءة واضحة، فكيف اذا استطعتَ ان تنظر الى جميع »ذوي الحياة« وتشاهد تلك الأختام معاً، و ان تراها دفعةً واحدة، أما تقول: »سبحان من اختفى بشدة ظهوره«؟

uاللمعة الرابعة

أنظر الى هذه الموجودات الملونة الزاهية المبثوثة على وجه الارض، والى هذه المصنوعات المتنوعة السابحة في بحر السماوات، تأمل فيها جيداً.. تَرَ: ان على كل موجود منها طغراء لا تقلد للمنور الأزلي (جلّ وعلا). فكما تشاهَد على »الحياة« آياتُه وشــاراته، وعلـــى »ذوي الحياة« أختامُه - وقد رأينا بعضاً منها - تشاهد آيات وشارات ايضاً على »الإحيـــاء«، اي منح الحياة. سننظر الى حقيقتها بمثال، اذ المثال يقرب المعاني العميقة للأفهام.

انه يشاهد على كل من السيارات السابحة في الفضاء، وقطرات الماء، وقطع الزجـــاج الصغيرة، وبلورات الثلج البراقة... طغراءٌ لصورة الشمس وختم لانعكاسها، وأثـــرٌ نـــوراني خاص بها، فان لم تقبل ان تلك الشُميسات المشرقة على الأشياء غير المحدودة، هي انعكاسات نور الشمس وتجليها، فستضطر ان تقبل بوجود شمس بالأصالة في كل قطرة، وفي كل قطعـــة زجاجٍ معرّضة للضوء، وفي كل ذرة شفافة تقابل الضوء، مما يلزم ترديك في منتهى البلاهـــة ومنتهى الجنون!

وهكذا، فللّه سبحانه وهو نور السموات والارض تجليات نورانية، من حيث »الإحياء« وافاضة الحياة، فهو آية جلية وطغراء واضحة يضعها سبحانه على كل ذي حياة، بحيث لـــو افترض اجتماع جميع الأسباب واصبح كلٌّ سبب فاعلاً مختارا فلن تستطيع منحَ حياةٍ لموجود. أي انها تعجز عجزاً مطلقاً عن أن تقلّد شيئاً الختم الرباني في الإحياء. ذلك لأن كل ذي حياة هـــو بحدّ ذاتـــه معجزةٌ من معجزات القدرة الإلهية، اذ هو على صـــورة نقطـــة مركزيـــة »كالبؤرة« لتجليات الاسماء الحسنى، التي كل منها بمثابة شعاع من نوره ســـــبحانه. فلـــو لم يُسنَد ما يـــــشاهَد علـــى الكائن الحيّ من صنعة بديعة في الصورة، وحكمةٍ بالغـــة في النظام وتجلٍ باهر لسر الأحدية، الى الأحد الصمد جلّ جلالُه، للزم قبول قدرةٍ فاطرة مطلـــقة غير متـــناهية مـــستـــترة في كل ذي حياة، ووجود علمٍ محيط واســـــع فيـــه، مـــع ارادة

مطـــــلقة قـــادرة عـــلى ادارة الـــكون، بل يجب قبول وجود بقية الصفات التي تخـــص الخالق سبـــــحانه في ذلك الكائن، حتى لو كان الـــكائن الحــــــي ذبـــابـــة أو زهـــرة! أي اعـــطـــاء صـــفـــات الألوهـــــــيـــــة الى كل ذرة من ذرات اي كائن! أي قبـــول افتراضـــات محالة من أمثـــــال هذه الافـــتـــراضـــات التي تـــوجب السقـــــــــــوط الـــــى أدنــــى بلاهات الضـــلالة وحمـــــاقـــات الخرافة! ذلك لأنه سبحانه وتعالى قد أعطى لذرات كل شئ - لا سيما اذا كانت من امثال البذرة والنواة - وضعاً معيناً، كـــأن تلك الذرة تنظر الى ذلك الكائن الحي كله - رغم أنها جزء منه - وتتخذ موقفاً معيناً وفـــق نظامه، بل تتخذ هيئة خاصة بما يفيد دوام ذلك النوع، وانتشاره ونصب رايته في كل مكان، وكأنها تتطلع الى جميع أنواع ذلك الكائن في الارض - فتزود البذرة مثلاً بما يشبه جُنيحـــات لأجل الطيران والانتشار - ويتخذ ذلك الكائن الحيّ موقفاً يتعلق بجميع موجـــودات الأرض التي يحتاجها لأدامة حياته وتربيته ورزقه ومعاملاته. فان لم تكن تلك الذرة مأمورة من لـــدن قدير مطلق القدرة، وقُطِعت نسبتها من ذلك القدير المطلق، لزم ان يُعطى لها بصرٌ تبصر بـــه جميع الأشياء، وشعورٌ يحيط بكل شئ!!.

حاصل الكلام: كما انه لو لم تُسنَد صُور الشميسات المشرقة وانعكاســـات الألـــوان المختلفة في القطرات وقطع الزجاج الى ضوء الشمس، ينبغي عندئذ قبول شموس لا تحصـــى بدلاً من شمس واحدة. مما يقتضي التسليم بخرافة محالة، كذلك لو لم يُسند خلق كل شئ الى القدير المطلق، للزم قبول آلهة غير متناهية بل بعدد ذرات الكون بدلاً من الله الواحد الأحـــد سبحانه. أي قبول محال بدرجة مائة محال، أي ينبغي السقوط الى هذيان الجنون.

نخلص من هذا: ان هناك في كل ذرة ثلاثة شبابيك نافذة مفتّحة الى نور وحدانيـــة الله جلّ جلاله والى وجوب وجوده سبحانه وتعالى:

«النافذة الاولى:

ان كل ذرة كالجندي، الذي له علاقة مع كل دائرة من الدوائر العسكرية أي مع رهطه وسرّيته وفوجه ولوائه وفرقته وجيشه، وله حسب تلك العلاقة وظيفة هناك، وله حسب تلك الوظيفة حركة خاصة ضمن نطاق نظامها. فالذرة الجامدة الصغيرة جداً، التي هي في بؤبـــؤ

عينك لها علاقة معينة ووظيفة خاصة، في عينك ورأسك وجسمك، وفي القوى المولدة والجاذبة والدافعة والمصّورة وفي الأوردة والشرايين والأعصاب، بل لها علاقة حتى مع نوع الانسان.

فوجود هذه العلاقات والوظائف للذرة، يدلّ بداهة - لذوي البصائر - على ان الذرة انّما هي أثرٌ من صنعِ القدير المطلق، وهي مأمورة موظّفة تحت تصرفه سبحانه وتعالى.

« النافذة الثانية:

ان كل ذرة من ذرات الهواء تستطيع ان تزور أية زهرة أو ثمرة كانت، وتتمكن من الدخول والعمل فيها، فلو لم تكن الذرة مأمورة مسخّرة من لدن القدير المطلق البصير بكل شئ، للزم ان تكون تلك الذرة التائهة عالمةً بجميع أجهزة الأثمار والأزهار وبكيفيات بنائها، ومدركةً صنعتها الدقيقة المتباينة ومحيطة بنسج وتفصيل ما قدّ عليها من صور وأشكال، ومتقنةً صناعة نسيجها اتقاناً تاماً!!

وهكذا تشع هذه الذرة شعاعاً من شعاعات نور التوحيد كالشمس واضحة.. وقس الضوء على الهواء، والماء على التراب حيث أن منشأ الاشياء من هذه المواد الاربعة وقس ما في العلوم الحاضرة من مولد الماء ومولد الحموضة (الاوكسجين والهيدروجين) والآزوت والكاربون على تلك العناصر المذكورة.

«النافذة الثالثة:

يمكن ان تكون كتلة من التراب المركب من ذرات دقيقة منشأً ومصدراً لنموّ أي نبات من النباتات المزهرة والمثمرة الموجودة في الأرض كافة، فيما لو وُضعت فيها بُذيراتُها الدقيقة، تلك البذيرات المتشابهة - كالنُطف - والمركبة من كربون وآزوت واوكسجين وهيدروجين، فهي متماثلة ماهيةً، رغم انها مختلفة نوعيةً، حيث أودع فيها بقلم القَدَر، برنامجُ أصلها الذي هو معنوي بحت. فاذا ما وضعنا بالتعاقب تلك البذور في سندانة، فستنمو كل بذرة بلا ريب بشكل يُبرز أجهزتَها الخارقة وأشكالها الخاصة وتراكيبها المعينة. فلو لم تكن كل ذرة من ذرات التراب مأمورة وموظفة ومتأهبة للعمل تحت أمرة عليم بأوضاع كل شئ وأحواله، وقديرٍ على إعطاء كل شئ وجوداً يليق به ويديمه، اي لو لم يكن كل شئ مسخراً أمام قدرته

سبحانه، للزم ان تكون في كل ذرة من ذرات التراب، مصانع ومكائن ومطابع معنوية، بعدد النباتات، كي تصبح منشأً لتلك النباتات ذات الأجهزة المتباينة والأشكال المختلفة!.. أو يجب إسناد علم يحيط بجميع الموجودات الى كل ذرة، وقدرة تقدر على القيام بعمل جميع الأجهزة والأشكال فيها، كي تكون مصدراً لجميعها!!

أي انه اذا ما انقطع الانتساب الى الله سبحانه وتعالى، ينبغي قبول وجود آلهـة بعـدد ذرات التراب!! وهذه خرافة مستحيلة في ألـف محال ومحـال. بينما الأمر يكون مستساغاً عقلاً وسهلاً ومقبولاً عندما تصبح كل ذرة مأمورة، اذ كما ان جندياً إعتيادياً لدى سـلطان عظيم يستطيع - باسم السلطان واستناداً الى قوته - أن يقوم بتهجير مدينة عامرة من أهلها، أو يصل بين بحرين واسعين، أو يأسر قائداً عظيماً، كذلك تستطيع بعوضة صغيرة أن تطـرح نمروداً عظيماً على الأرض، وتستطيع نملة بسيطة ان تدمّر صرح فرعون، وتستطيع بذرة تـين صغيرة جداً ان تحمل شجرة التين الضخمة على ظهرها، كل ذلك بأمر سلطان الأزل والأبد وبفضل ذلك الانتساب.

وكما رأينا هذه النوافذ الثلاث المفتحة على نور التوحيد في كـل ذرة ففيهـا ايضـاً شاهدان صادقان آخران على وجود الصانع سبحانه وتعالى وعلى وحدانيته.

أولهما: هو حمل الذرة على كاهلها وظائف عظيمة جداً ومتنوعة جداً، مـع عجزهـا المطلق.

والآخر: هو توافق حركاتها بانتظام تام وتناسقها مع النظام العام، حتى تبدو وكأن فيها شعوراً عاماً كلياً مع انها جماد.

أي أن كل ذرة تشهد بلسان عجزها على وجود القدير المطلق، وتشـهد باظهارهـا الانسجام التام مع نظام الكون العام على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى.

وكما ان في كل ذرة شاهدين على ان الله واجب الوجود وواحد، كـذلك في كـل »حي« له آيتان على أنه »أحد صمدٌ«.

نعم! ففي كل حيّ هناك آيتان:

احداهما: آيةُ الأحدية.

والأخرى: آيةُ الصمدية.

لأن كل »حيّ« يُظهر تجليّات الأسماء الحسنى، المشاهَدة في أغلب الكائنات، يُظهرهــا دفعةً واحدة في مرآته، وكأنه نقطةٌ مركزية - كالبؤرة - تبيّن تجلي اسم الله الأعظم، الحـــي القيوم، أي أنه يحمل آية الأحدية باظهاره نوعاً من ظل أحدية الذات تحت ستار اسم المحيي.

ولما كان الكائن الحيّ بمثابة مثال مصغر للكائنات، وبمثابة ثمرة لشجرة الخليقـــة، فـــان إحضار حاجـــاته المـــترامـيـــة في الكـــائنـــات الى دائـــــرة حياته الصغيرة جداً، بسهولة كاملة، وبدفعة واحدة، يُبرز للعيان آية الصمدية ويبينها، أي ان هذا الوضع يبـــيّن ان لهـــذا الكائن الحيّ ربّاً - نِعمَ الرب - بحيث أن توجّهاً منه اليه يُغنيه عن كل شئ، ونظرةً منه اليه تكفيه عن جميع الأشياء، ولن يحلّ جميعُ الأشياءِ محل توجهٍ واحدٍ منه سبحانه.

»نعم يكفي لكل شئ شئ عن كل شئ، ولا يكفي عنه كل شئ ولو لشئ واحد«.

وكذا يبيّن ذلك الوضع أن ربّه ذاك - جلّ شأنه - كما انه ليس محتاجاً الى شئ أيّـــاً كان، فان خزائنه لا ينقص منها شئ أيضاً، ولا يصعب على قدرته شئ.. فاليك مثالاً من آيةٍ تُظهر ظل الصمدية.

أي، ان كل ذي حياة يرتّل بلسان الحياة: »قل هو الله أحدٌ. الله الصمد«..

هذا وان هناك عدة نوافذ مهمة اخرى عدا ما ذكرناه قد اُختصرت هنا فيما فُصلت في أماكن أخرى.

فما دامت كل ذرة من ذرات هذا الكون تفتح ثلاث نوافذ، وكُوّتين، والحياة نفسُـــها تفتح بابين دفعة واحدة الى وحدانية الله سبحانه، فلابدّ انك تستطيع الآن قياس مـــدى مـــا تنشره طبقات الموجودات - من الذرات الى الشمس - من أنوار معرفـــة الله ذي الجـــلال.. فافهم من هذا سعة درجات الرقي المعنوي في معرفة الله سبحانه ومراتب الاطمئنان والسكينة القلبية، وقس عليها.

uاللمعة الخامسة

من المعلوم أنه يكفي لاخراج كتاب ما، قلمٌ واحدٌ ان كان مخطوطاً. وتلزم أقلامٌ عديدة بعدد حروفه إن كان مطبوعاً، أي حروفاً معدنية عديدة. ولو كُتب معظمُ ما في الكتـــاب في

بعض حروفه بخط دقيق جداً - ككتابة سورة يس مصغرة في لفظ يس - فيلزم عندئــذٍ ان تكون جميع الحروف المعدنية مصغّرة جداً لطبع ذلك الحرف الواحد.

فكما ان الأمر هكذا في الكتاب المستنسخ أو المطبوع كذلك كتاب الكون هـذا، اذا قلتَ انه كتابة قلمِ قدرة الصمد، ومكتوبُ الواحد الأحد، فقد سلكتَ اذن طريقــاً ســهلة بدرجة الوجوب، ومعقـــولةً بـــدرجـــة الضـــرورة، ولكـــن اذا ما أســـندته الى الطبيعة والى الأسباب، فقد سلكت طريقاً صعبة بدرجـــة الامتنـــاع، وذات اشـــكالات عويصة بدرجة المحال، وذات خرافات لاشك فيها، اذ يلزم ان تنشئ الطبيعةُ في كـــل جـــزء تراب، وفي كل قطرة ماء، وفي كل كتلة هواء ملايين الملايين من مطابع معدنية، وما لا يحد من مصانع معنوية، كي يُظهر كلٌّ جزءٍ من تلك الأجزاء وينشيء ما لا يعد ولا يحصى مـــن النباتات المزهرة والمثمرة.. أو تضطر الى قبول وجود علمٍ محيط بكل شئٍ، وقوةٍ مقتدرة على كل شئ في كل منها، كي يكون مصدراً حقيقياً لهذه المصنوعات؛ لأن كل جزءٍ من أجـــزاء التراب والماء والهواء يمكن ان يكون منشأ لأغلب النباتات. والحال ان تركيب كـــل نبـــاتٍ منتظمٌ، وموزون، ومتمايز، ومختلف نوعاً، فكلٌ منه اذاً بحاجة الى معمل معنوي خـــاص بـــه وحده والى مطبعة تخصّه هو فقط. فالطبيعة اذن اذا خرجت عـــن كونهـــا وحـــدةَ قيـــاسٍ للموجودات الى مصدرٍ لوجودها، فما عليها الاّ احضار مكائن جميع الأشياء في كل شئ!!.

وهكذا فان أساس فكرة عبادة الطبيعة هذه خرافة بئست الخرافة!. حـــتى الخرافيـــون أنفسهم يخجلون منها. فتأمل في أهل الضلالة الذين يعدّون انفسهم عقلاء كيـــف تمســـكوا بفكرة غير معقولة بالمرة.. ثم اعتبر!!.

الخلاصة:

ان كل حرف في أي كتاب كان، يظهر نفسه بمقدار حرف، ويدل على وجوده بصورة معينة، الاّ انه يعرّف كاتبه بعشر كلمات، ويدل عليه بجوانب عديدة، فيقـــول مـــثلاً: »ان كاتبي خطه جميل، وان قلمه أحمر، وانه كذا وكذا..«.

ومثل ذلك كل حرف من كتاب العالم الكبير هذا، يدل على ذاته بقدر جرمه (مادته) ويُظهِر نفسه بمقدار صورته، الاّ انه يعرّف اسماء الباريء المصوّر سبحانه بمقدار قصيدة، ويظهر

تلك الأسماء الحسنى ويشير اليها بعدد أنواعه شاهداً على مسمّاه، لذا ينبغي ألا يزلّ الى انكار الخالق ذي الجلال حتى ذلك السوفسطائي الأحمق الذي ينكر نفسه وينكر الكون.

ان الخالق ذا الجلال كما وضع على جبين كل »فرد« من مخلوقاته وعلى جبهة كـــل »جزء« من مصنوعاته، آية أحديته (وقد رأيت قسماً منها في اللمعات السابقة)، فانه سبحانه قد وضع على كل »نوع« كثيراً من آية الأحدية بشكل ساطع لامع، وعلى كـــل »كـــلّ« عديداً من أختام الواحدية، بل وضع على مجموع العالم أنواعاً من طغراء الوحدة. واذا تأملنا ختماً واحداً، من تلك الاختام والعلامات العديدة الموضوعة على صحيفة ســـطح الأرض في موسم الربيع تبين لنا ما يأتي:

ان البارئ المصوّر سبحانه وتعالى قد حشر ونشر اكثر من ثلاثمائة ألف نوعٍ من النباتات والحيوانات على وجه الأرض في فصل الربيع والصيف بتمييز وتشخيص بـــالغين، وبانتظـــام وتفريق كاملين – رغم اختلاط الأنواع اختلاطاً كاملاً – فأظهر لنا ايـــة واســـعة ســـاطعة للتوحيد، واضحة وضوح الربيع. أي ان ايجاد ثلاثمائة ألف نموذج من نماذج الحشر بانتظـــام كامل عند إحياء الأرض الميتة في موسم الربيع، وكتابةَ الأفراد المتداخلة لثلاثمائة ألف نـــوع مختلف على صحيفة الأرض كتابةً دون خطأ ولا سهو ولا نقـــص، وفي منتـــهى التـــوازن والانتظام، وفي منتهى الاكتمال، لاشك أنه آية خاصة بمن هو قدير على كـــل شـــئ بيـــده ملكوت كل شئ، وبيده مقاليد كل شئ، وهو الحكيم العليم.

هذه الآية من الوضوح بحيث يدركها كل من له ذرة من شعور.

ولقد بيّن القرآن الكريم هذه الآية الساطعة في قوله تعالى:

(فانظُر الى آثارِ رَحْمَتِ الله كيفَ يُحيِي الأرضَ بَعْدَ مَوتها انّ ذلك لَمحيي الموتى وهو على كل شيءٍ قدير) (الروم:50)

نعم، ان قدرة الفاطر الحكيم التي أظهرت ثلاثمائة ألف نوع من نماذج الحشر في إحيـــاء الأرض خلال بضعة أيام، لابَّد ان يكون حشرُ الانسان – لديها – سهلاً ويسيراً. إذ هل يصح أن يقال – مثلاً – لمن له خوارق بحيث يزيل جبلاً عظيماً باشارة منـــــه، أيستطـــــيع ان يزيـــل هـــذه الصخـــرة العظـــيمة التـــي سدّت طـــريقنا مـــن هذا الوادي؟. ومثـــــلِه

كـــذلــــــك لا يجـــرأ ذو عقـــل أن يـــقول بصـــيغة الاســـتبعاد للقـــــدير الحكـــــيم والكريم الرحيم الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، والذي يملأهما ويفرغهما حينـــاً بعد حين: »كيف يستطيع أن يزيل طبقة التراب هذه التي علينا والتي سدت طريقنا المفروشة الى مستضافه الخالد؟«.

فهذا مثالُ آيةٍ واحدة للتوحيد تَظهر على سطح الأرض في فصل الربيع والصيف! فتأمل اذن كيف يظهر ختمُ الواحدية بجلاء على تصريف الأمور في الربيع الهائل على سطح الارض وهو في منتهى الحكمة والبصر، ذلك لأن هذه الاجراءات المشاهَدة، هي في انتظام مطلـــق، وخلقة تامة، وصنعة كاملة بديعة، مع انها تجري في سعة مطلقة، ومع هذه السعة فهي تتم في سرعة مطلقة، ومع هذه السرعة فهي ترد في سخاء مطلق. ألا يوضح هذا أنه ختمٌ جلّي بحيث لا يمكن ان يمتلكه الاّ مَن يملك علماً غير متناهٍ وقدرة غير محدودة.

نعم، اننا نشاهد على سطح الأرض كافة، ان هناك خلقاً وتصرفاً وفعاليةً تجري في سعة مطلقة، ومع السعة تُنجَز في سرعة مطلقة، ومع السرعة والسعة يُشاهد سخاءٌ مطلق في تكثير الأفراد، ومع السخاء والسعة والسرعة تتضح سهولةٌ مطلقة في الأمر مع انتظامٍ مطلق وابداع في الصنعة وامتياز تام، رغم الاختلاط الشديد والامتزاج الكامل. ويُشاهد كذلك آثارٌ ثمينـــة جداً، ومصنوعاتٌ نفيسة جداً رغم الوفرة غير المحدودة، مع انسجام كامل في نطاق واســـع جداً، ودقة الصنعة وبدائعها وروعتها وهي في منتهى السهولة واليسر. فايجاد كل هذا في آن واحد، وفي كل مكان، وبالطراز نفسه، وفي كل فرد، مع اظهار الصنعة الخارقـــة والفعاليـــة المعجزة، لاشك مطلقاً انه برهان ساطع وختم يخص مَن لا يحدّه مكان، مثلما أنـــه في كـــل مكان، حاضر وناظر رقيب حسيب، ومَن لا يخفى عليه شئ مثلما انه لا يعجزه شئ. فخلق الذرات والنجوم سواء امام قدرته.

لقد أحصيتُ ذات يوم عناقيد ساق نحيفة لعنب متسلق – بغلظ اصبعين – تلك العناقيد التي هي معجزات الرحيم ذي الجمال في بستان كرمه. فكانت مائة وخمسة وخمسين عنقوداً. واحصيتُ حبّات عنقود واحد منها فكانت مائة وعشرين حبة. فتأملت وقلت: لو كانـــت هذه الساق الهزيلة خزانة ماء معسّل، وكانت تعطي ماءً باستمرار لما كانت تكفي أمام لفـــح

الحرارة ما ترضعه لمئاتِ الحبات المملوءة من شراب سكر الرحمة. والحال أنها قد لا تنـــال الاّ رطوبة ضئيلة جداً، فيلزم ان يكون القائم بهذا العمل قادراً على كل شئ. فـــ »سبحان مـــن تَحيَّرُ في صنعه العقول«.

uاللمعة السابعة

كما انك تتمكن من رؤية اختام الأحد الصمد سبحانه، المختومة بها صحيفة الأرض، وذلك بنظرة إمعان قليلة، فارفع رأسك وافتح عينيك، وألق نظرةً على كتاب الكون الكبير تَرَ أنه يقرأ على الكون كله، ختمَ الوحدة بوضوح تام، بقدر عظمته وسعته ذلـــك لأن هـــذه الموجودات كأجزاء معمل منتظم، وأركان قصر معظم، وأنحاء مدينة عامرة، كُلّ جزءٍ ظهير للآخر، كل جزء يمدّ يد العون للآخر، ويجدّ في اسعاف حاجاته. والاجزاء جميعاً تسعى يـــداً بيد بانتظام تام في خدمة ذوي الحياة، متكاتفة متساندة متوجهة الى غاية معينة في طاعة مدبّر حكيمٍ واحدٍ.

نعم، ان دستور »التعاون« الجاري الظاهر ابتداءً من جري الشمس والقمر، وتعاقـــب الليل والنهار وترادف الشتاء والصيف.. الى إمداد النباتات للحيوانات الجائعـــة، والى ســـعي الحيوانات لمساعدة الانسان الضعيف المكرم، بل الى وصول المواد الغذائية على جناح السرعة لاغاثة الأطفال النحاف، وامداد الفواكه اللطيفة. بل الى خِدمة ذرات الطعام لحاجة حجيرات الجسم... كل هذه الحركات الجارية وفق دستور »التعاون« تُري لمن لم يفقد بصيرته كلّياً انها تجري بقوةِ مربٍّ واحد كريم مطلق الكرم، وبأمر مدبّر واحد حكيم مطلق الحكمة.

فهذا التساند، وهذا التعاون، وهذا التجاوب، وهذا التعانق، وهذا التســـخير، وهـــذا الانتظام، الجاري في هذا الكون، يشهد شهادة قاطعة، أن مدبراً واحداً هو الـــذي يـــديره، ومربياً احداً يسوق الجميع في الكون. زد عليه، فان الحكمة العامة الظاهرة بداهة في خلـــق الاشياء البديعة وما تتضمنه من عناية تامة وما في هذه العناية من رحمة واسعة وما على هـــذه الرحمة من ارزاق منثورة تفي بحاجة كل ذي حياة وتعيّشه وفق حاجاته... كل ذلك خـــتم عظيم للتوحيد له من الظهور والوضوح ما يفهمه كل مَن لم تنطفىء جذوة عقله، ويراه كل من لم يُعمَ بصرُه؟.

نعم، ان حُلّة «الحكمة» التي يتراءى منها القصد والشعور والارادة قد أسبغت على الكون كله وجُلّلت كل جوانبه. وخُلعَتْ على حلة الحكمة هذه حلّةُ «العناية» التي تشف عن اللّطف والتزيين والتحسين والاحسان، وعلى هذه الحلة القشيبة للعناية ألقيت حلّةُ «الرحمة» التي يتألق منها بريق التودد والتعرف والانعام والاكرام وهي تغمر الكون كله وتضمه. وصفَّت على هذه الحلّة المنوّرة للرحمة العامة «الارزاقُ العامة»، ومُدّت موائدها التي تعرض الترحم والاحسان والاكرام والرأفة الكاملة وحسن التربية ولطف الربوبية.

نعم، ان هذه الموجودات؛ ابتداءً من الذرات الى الشموس، سواءً أكانت أفراداً أم أنواعاً وسواءً أكانت صغيرة أم كبيرة، قد اُلبست ثوباً رائعاً جداً، نُسج هذا الثوب من قماش «الحكمة» المزيّن بنقوش الثمرات والنتائج والغايات والفوائد والمصالح.. وأكسيت بحلّة «العناية» المطرزة بأزاهير اللطف والاحسان قدّت وفصلت حسب قامة كل شئ ومقاس كل موجود.. وعلى حلّة العناية هذه قُلّدت شارات «الرحمة» الساطعة ببريق التودد والتكرم والتحنن، والمتلألئة بلمعات الانعام والافضال... وعلى تلك الشارات المرصعة المنورة نُصبت مائدةُ «الرزق» العام على امتداد سطح الأرض بما يكفي جميع طوائف ذوي الحياة وبما يفي سد جميع حاجاتهم.

وهكذا، فهذا العمل يشير اشارة واضحة وضوح الشمس، الى حكيم مطلق الحكمة، وكريم مطلق الكرم، ورحيم مطلق الرحمة، ورزاق مطلق الرزق.

- أحقاً ان كل شئ بحاجة الى الرزق؟

نعم، كما اننا نرى ان كل فرد بحاجة الى رزق يديم حياته، كذلك جميع موجودات العالم - ولا سيما الأحياء - الكلّي منها والجزئي، أو الكلّ والجزء، لها في كيانها، وفي بقائها، وفي حياتها وادامتها، مطاليب كثيرة، وضروريات عديدة، مادةً ومعنىً، ومع انها مفتقرةٌ ومحتاجة الى اشياء كثيرة مما لا يمكن أن تصل يدُها الى أدناها، بل لا تكفي قوّةُ ذلك الشئ وقدرتُه للحصول على أصغر مطاليبه، نشاهد ان جميع تلك المطاليب والارزاق المادية والمعنوية تُسلَّم الى يديه من حيث لا يحتسب وبانتظام كامل وفي الوقت المناسب تسليماً موافقاً لحياته متّسماً بالحكمة الكاملة.

ألا يدل هذا الافتقار، وهذه الحاجة في المخلوقات وهذا النمط من الإمـــداد والإعانـــة الغيبية، على رب حكيمٍ ذي جلال ومدبّر رحيم ذي جمال؟.

uاللمعة الثامنة

مثلما ان زراعة بذورٍ في حقلٍ ما، تدل على ان ذلك الحقل هو تحت تصـــرف مالـــك البذرة، وان تلك البذرة هي كـــذلك تحـــــت تصـــــرفه، فان كلية العنـــاصر في مزرعة الارض وفي كل جزء منها مع انها واحدة وبسيطة، وانتشار المخلوقات من نباتات وحيوانات في معظم الاماكن – وهي تمثل ثمرات الرحمة الإلهية ومعجزات قدرته وكلمات حكمته – مع انها متماثلة ومتشابهة ومتوطنة في كل طرف.. ان هذه الكلية والانتشار يدلان دلالة جَلية على انهما تحت تصرف ربّ واحد أحد، حتى كأن كلّ زهرة، وكل ثمرة، وكل حيوان، آية ذلكم الرب الكريم وختمه وطغراؤه، فاينما يحل – أيٌّ منها – يقول بلسان حاله:

»مَنْ كنتُ آيتَه، فهذه الأرض مصنوعته، ومَنْ كنتُ ختمه فهذا المكان مكتوبُه، ومَـــنْ كنتُ علامتَه فهذا الموطن منسوجُهُ..«

فالربوبية اذن على أدنى مخلوق، انما هي من شأن مَن يُمسك في قبضة تصـــرّفه جميـــعَ العناصر، ورعايةُ أدنى حيوان انما هي من شأن مَن لا يعجزه تربية جميع الحيوانات والنباتـــات والمخلوقات ضمن قبضة ربوبيته!.

هذه الحقيقة واضحة لمن لم يعم بصره!

نعم، ان كل فرد يقول بلسان مماثلته ومشابهته مع سائر الأفراد: »مَنْ كان مالكاً لجميع نوعي يمكنه ان يكون مالكي، والاّ فلا«. وان كل نوع يقول بلسان انتشـــاره مـــع ســـائر الأنواع، وكذا الارض تقول بلسان ارتباطها بسائر السيارات بشمس واحدة وتساندها مـــع السموات: »مَنْ كان مالكاً للكون كله يمكنه ان يكون مالكي، وإلاّ فلا«.

فلو قيل لتفاحةٍ ذات شعور: »أنتِ مصنوعتي أنا« فسترد عليه تلك التفاحة بلسان الحال قائلة:

– صه.. لو استطعت ان تكون قادراً على تركيب ما على سطح الأرض من تفاح، بل لو اصبحت متصرفاً فيما على الأرض من نباتات مثمرة من جنسنا، بل متصـــرفاً في هـــدايا الرحمن التي يجود بها من خزينة الرحمة. فادَّعِ آنذاك الربوبية علّي!!«.

فتلطم تلك التفاحة بهذا الجواب فمَ ذلك الأحمق لطمة قوية..!«.

uاللمعة التاسعة

لقد أشرنا الى آيات وأختام موضوعة على »الجزء والجزئي«، وعلى »الكل والكلّي«، وعلى »العالم الكلّي«، وعلى »الحياة« وعلى »ذوي الحياة« وعلى »الإحياء«، ونشير هنا الى آية واحدةٍ مما لا يحصى من الآيات في »الأنواع«.

ان تكاليف أثمار عديدة لشجرة مثمرة تتسهل، ومصاريفها تتذلل، حتى تتساوى مـــع تكاليف ومصاريف ثمرة واحدة تربّت بايدي الكثرة، ذلك لأن الشجرة الواحدة المثمرة تُدار من مركز واحد، وبتربية واحدة، وبقانون واحد، أي ان الكثرة وتعدد المراكز يســـتدعيان ان تكون لكل ثمرة مصاريف وتكاليف وأجهزة – كميةً – بقدر ما تحتاجه شـــجرة كاملـــة. والفرق في النوعية ليس إلاّ. مثله في هذا مثل عمل عتاد لجندي، وتوفير تجهيزاته العسكرية، اذ يحتاج معامل بقدر المعامل التي يحتاجها الجيش بأكمله، فالعمل إذن اذا انتقل من يد الوحـــدة الى يد الكثرة فان التكاليف تزداد من حيث الكمية بعدد الأفراد. وهكذا فان ما يشاهد مـــن أثر اليسر والسهولة الظاهرة في النوع انما هو ناشيء من السهولة الفائقة في الوحدة والتوحيد.

الخلاصة:

كما ان التشابه والتوافق في الأعضاء الاساس لأنواع جنسٍ واحد وافراد نوعٍ واحـــد، يثبتان ان تلك الأنواع والأفراد انما هي مخلوقات خالق واحد، كـــذلك الســـهولة المطلقـــة المشهودة، وانعدام التكاليف، تستلزمان بدرجة الوجوب ان يكون الجميع آثار صانع واحد، لأن وحدة القلم ووحدة السكة والختم تقتضيان هذا، والاّ لساقت الصعوبة التي هي في درجة الامتناع. ذلك الجنس الى الانعدام، وذلك النوع الى العدم.

نحصل من هذا: انه اذا اُسند الخلق الى الحق سبحانه وتعالى فان جميع الأشياء حُكْمها في سهولة الخلق كخلق شئ واحد، وان اُسند الى الاسباب فان كل شئ يكون حُكمـــه في

الخلق صعباً كصعوبة خلق جميع الأشياء. ولما كان الأمر هكذا، فالوفرة الفائقة المشـــاهدة في العالم، والخصب الظاهر امام العين يظهران كالشمس آية الوحدة. فان لم تكن هذه الفواكـــه الوفيرة التي نتناولها مُلكاً لواحدٍ أحد، لما أمكننا ان نأكل رمانةً واحدة ولو أعطينا ما في الدنيا كلها ثمناً لصنعها.

uاللمعة العاشرة

كما ان الحياة التي تُظهر تجلي الجمال الرباني هي برهان الأحدية، بل هي نوع من تجلي الوحدة، فالموت الذي يُظهر تجلي الجلال الإلهي هو الآخر برهان الواحدية.

فمثلاً: ان الفقاعات والزبد والحباب المواجهة للشمس، والتي تنساب متألقة على سطح نهرٍ عظيم، والمواد الشفافة المتلمعة على سطح الأرض، شواهدٌ على وجود تلـــك الشـــمس، وذلك باراءتها صورة الشمس وعكسها لضوئها. فدوامُ تجلي الشمس ببهاء مع غروب تلـــك القطرات وزوال لمعان المواد، واستمرار ذلك التجلي دون نقص على القطرات والمواد الشفافة المقبلة مجدداً، لهي شهادة قاطعة على ان تلك الشُميسات المثالية، وتلك الأضواء المنعكســـة، وتلك الأنوار المشاهدة التي تنطفئ وتضئ وتتغير وتتبدل متجدّدةً، انما هي تجليات شمسٍ باقية، دائمةٍ، عالية، واحدةٍ لا زوال لها. فتلك القطرات اللماعة اذن بظهورها وبمجيئها تدل علـــى وجود الشمس وعلى دوامها ووحدتها.

وعلى غرار هذا المثال (ولله المثل الأعلى) نجد أن:

هذه الموجودات السيالة اذ تشهد بوجودها وحياتها على وجوب وجود الخالق سبحانه وتعالى، وعلى أحديته فانها تشهد بزوالها وموتها أيضاً على وجود الخالق سبحانه وعلى أزليته وسرمديته وأحديته.

نعم، ان تجدد المصنوعات الجميلة وتبدّل المخلوقات اللطيفة، ضمن الغروب والشـــروق وباختلاف الليل والنهار، وبتحول الشتاء والصيف، وتبدل العصور والدهور، كما انها تشهد على وجود ذي جمال سرمدي رفيع الدرجات دائم التجلي، وعلى بقائه سبحانه ووحدتـــه، فان موت تلك المصنوعات وزوالها – باسبابها الظاهرة – يبيّن تفاهة تلك الاسباب وعجزها، وكونها ستاراً وحجاباً ليس إلاّ.. فيثُبت لنا هذا الوضع – اثباتاً قاطعـــاً – ان هـــذه الخِلقـــة

والصَنعة، وهذه النقوش والتجليات انما هي مصنوعاتٌ ومخلوقاتٌ متجددةٌ للخالق جل جلاله الذي جميع أسمائه حُسنى مقدّسة، بل هي نقوشه المتحولة، ومراياه المتحركة وآياته المتعاقبــــة، وأختامه المتبدلة بحكمة.

الخلاصة: ان كتاب الكون الكبير هذا اذ تعلّمنا آياته التكوينية الدالة علـــى وجـــوده سبحانه وعلى وحدانيته، يشهد كذلك على جميع صفات الكمال والجمال والجلال للـــذات الجليلة. ويثبت أيضاً كمال ذاته الجليلة المبرأة من كل نقص، والمترّهة عن كل قصور. ذلـــك لأن ظهور الكمال في أثرٍ ما، يدل على كمال الفعل الذي هو مصدره، كما هو بـــديهي، وكمال الفعل هذا يدلّ على كمال الأسم، وكمال الأسم يدل على كمال الصفات، وكمال الصفات يدل على كمال الشأن الذاتي، وكمال الشأن الذاتي يدل على كمال الذات – ذات الشؤون – حَدساً وضرورة وبداهة.

فمثلاً: ان النقوش المتقنة والتزيينات البديعة لقصر كامل رائع، تدل على ما وراءها من كمال الأفعال التامة لبنّاء ماهر خبير.. وان كمال تلك الأفعال واتقانها ينطق بتكامل الأسماء لرتب وعناوين ذلك البنّاء الفاعل.. وتكامل الأسماء والعناوين يُفصح عن تكامل صـــفاتٍ لا تحصى لذلك الصانع من جهة صنعته وتكامل تلك الصفات وابداع الصنعة يشـــهدان علـــى تكامل قابليات ذلك الصانع وإستعداداته الذاتية المسماة بالشؤون. وتكامل تلـــك الشـــؤون والقابليات الذاتية تدل على تكامل ماهية ذات الصانع.

وهكذا الأمر في الصنعة المبدعة المبرّأة من النقص والفطور في الآثار المشهودة في العالم، وفي هذه الموجودات المنتظمة في الكون، التي لفتت اليها الأنظار الآية الكريمة: (هَل تَرى مِـــن فُطُور)(الملك:3)، فهي تدل بالمشاهدة على كمال الأفعال لمؤثرٍ ذي قدرة مطلقة، وكمـــال الأفعال ذاك يدل بالبداهة على كمال أسماء الفاعل ذي الجلال، وذلك الكمال يدل ويشـــهد بالضرورة على كمالِ صفاتِ مسمّى ذي جمال لتلك الأسماء، وكمال الصـــفات ذاك يـــدل ويشهد يقيناً على كمال موصوف ذي كمال، وكمال الشؤون ذاك يدل بحق الـــيقين علـــى كمال ذاتٍ مقدسة ذات شؤون، دلالةً واضحة بحيث ان ما في الكون من أنواع الكمـــالات

المشاهدة ليس الاّ ظلاً ضعيفاً منطفئاً – ولله المثل الأعلى – بالنسبة لآيات كماله ورموز جلاله واشارات جماله سبحانه وتعالى.

uاللمعة الحادية عشرة الساطعة كالشموس

لقد عُرّف في »الكلمة التاسعة عشرة« بان اعظم آية في كتاب الكون الكبير، واعظم اسمٍ في ذلك القرآن الكبير، وبذرة شجرة الكون، وأنور ثمارها، وشمس قصر هذا العالم، والبدر المنوّر لعالم الاسلام، والدال على سلطان ربوبية الله، والكشّاف الحكيم للغز الكائنات، هو سيدنا محمد الأمين عليه أفضل الصلاة والسلام، الذي ضم الأنبياء جميعاً تحت جناح الرسالة، وحمى العالم الاسلامي تحت جناح الاسلام، فحلّق بهما في طبقات الحقيقة متقدماً موكبَ جميع الأنبياء والمرسلين، وجميع الأولياء والصديقين، وجميع الأصفياء والمحققين مبيّناً الوحدانية واضحة جلية بكل ما أوتي من قوة، فاتحاً طريقاً سوياً الى عرش الأحدية، دالاً على طريق الايمان باللّه، مثبتاً الوحدانية الحقة.. فأنّى لوهمٍ أو شبهةٍ أن يكون لهما الجرأة ليسدا أو يحجبا ذلك الطريق السوي؟

ولما كنّا قد بيّنا إجمالاً في »الكلمة التاسعة عشرة« و »المكتوب التاسع عشر« ذلك البرهان القاطع – الذي هو الماء الباعث للحياة ــ بأربع عشرة رشحة، وتسع عشرة اشارة، مع بيان أنواع معجزاته(ص)، لذا نكتفي بهذه الاشارة هنا، ونختمها بالصلاة والسلام على ذلك البرهان القاطع للوحدانية، صلاةً وسلاماً تشيران الى تلك الأسس التي تزكّيه وتشهد على صدقه:

اللّهم صلّ على مَن دلّ على وجوب وجودك ووحدانيتك، وشَهِد على جلالك وجمالك وكمالك.. الشاهدُ الصادق المصدَّق والبرهان الناطق المحقق.. سيد الأنبياء والمرسلين، الحاملُ سرَّ اجماعهم وتصديقهم ومعجزاتهم.. وإمامُ الأولياء والصديقين الحاوي سرّ اتفاقهم وتحقيقهم وكراماتهم، ذو المعجزات الباهرة والخوارق الظاهرة والدلائل القاطعة المحققة المصدّقة له.. ذو الخصال الغالية في ذاته، والأخلاق العالية في وظيفته، والسجايا السامية في شريعته المكملة المنزّهة عن الخلاف، مهبط الوحي الرباني باجماع المنزِل والمنزَل والمنزّل عليه.. سيّار عالم الغيب والملكوت.. مشاهد الأرواح ومصاحب الملائكة.. انموذج كمال الكائنات

شخصاً ونوعاً وجنساً.. أنور ثمرات شجرة الخلقة، سراج الحق برهان الحقيقة، تمثال الرحمة، مثال المحبة، كشاف طلسم الكائنات، دلاّل سلطنة الربوبية، المرمز بعلوية شخصيته المعنوية الى أنه نصبَ عين فاطر العالم في خلق الكائنات.. ذو الشريعة التي هي بوسعة دساتيرها وقوتها تشير الى أنها نظام ناظم الكون ووضع خالق الكائنات.

نعم، ان ناظم الكائنات بهذا النظام الأتم الأكمل هو ناظم هذا الدين بهذا النظام الأحسن الأجمل، سيّدنا نحن معاشر بني آدم ومهدينا الى الايمان نحن معاشر المؤمنين، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه افضل الصلوات واتمّ التسليمات ما دامت الأرض والسماوات فان ذلك الشاهد الصادق المصدّق يشهد على رؤوس الاشهاد منادياً، ومعلماً لأجيال البشر خلف الأعصار والأقطار، نداءً علوياً بجميع قوته وبغاية جدّيته وبنهاية وثوقه وبقوة اطمئنانه وبكمال إيمانه:

»أشهد ان لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له«.

uاللمعة الثانية عشرة الساطعة كالشموس

ان هذه اللمعة الثانية عشرة من هذه الكلمة الثانية والعشرين لهي بحر الحقائق ويا له من بحر عظيم بحيث ان الكلمات الاثنتين والعشرين السابقة لا تكون الاّ مجرد اثنتين وعشرين قطرة منه. وهي منبع الأنوار ويا له من منبع عظيم بحيث ان تلك الكلمات الاثنتين والعشرين ليست سوى اثنتين وعشرين لمعة من تلك الشمس.

نعم ان كل كلمة من تلك الكلمات »الاثنتين والعشرين« السابقة ما هي الاّ لمعة واحدة لنجمِ آيةٍ واحدة تسطع في سماء القرآن الكريم. وما هي الاّ قطرة واحدة من نهر آية تجري في بحر الفرقان الكريم، وما هي الاّ لؤلؤة واحدة من صندوق جواهر آيةٍ واحدة من كتاب الله الذي هو الكنز الأعظم، لذا ما كانت الرشحة الرابعة عشرة من الكلمة التاسعة عشرة الاّ نبذة من تعريف ذلك الكلام الإلهي العظيم، كلام الله الذي نزل من الاسم الأعظم.. من العرش الاعظم.. من التجلّي الأعظم للربوبية العظمى، في سعة مطلقة، وسموّ مطلق، يربط الأزل بالأبد، والفرش بالعرش، والذي يقول بكل قوته ويردد بكل قطعية آياته: »لا إله إلاّ هو« مشهداً عليه الكون قاطبة.

حقاً ان العالم كله ينطق معاً »لا إله الاّ هو«.

فاذا نظرتَ الى ذلك القرآن الكريم ببصيرة قلب سليم، ترى ان جهاته الست ساطعة نيّرة، وشفافة رائقة، بحيث لا يمكن لظلمةٍ ولا لضلالة ولا لشبهة ولا لحيلة أيّاً كانت ان ترى لها شقاً وفرجة للدخول في رحابه المقدس قط، حيث ان عليه: شارة الاعجاز، تحته: البرهان والدليل، خلفه »نقطة استناده«: الوحي الرباني المحض، أمامه: سعادة الدارين، يمينه: تصديق العقل باستنطاقه، شماله: تثبيت تسليم الوجدان باستشهاده. داخله: هداية رحمانية خالصة بالبداهة، فوقه: أنوار إيمانية خالصة بالمشاهدة. ثماره: الأصفياء والمحققون والأولياء والصديقون المتحلّون بكمالات الانسانية بعين اليقين.

فاذا ألصقت أذنك الى صدر لسان الغيب مصغياً فانك ستسمع من أعمق الأعماق صدىً سماوياً في غاية الأيناس والامتاع، وفي منتهى الجدية والسموّ المجهّز بالبرهان، يردّد: »لا اله الاّ هو« ويكررها بقطعية جازمة ويفيض عليك من العلم اليقين بدرجة عين اليقين بما يقوله من حق اليقين.

زبدة الكلام: ان الرسول الكريم (ص)، والفرقان الحكيم الذي كل منهما نور باهر، أظهرا حقيقة واحدة؛ هي حقيقة التوحيد.

فأحدهما: لسان عالم الشهادة، أشار الى تلك الحقيقة بأصابع الاسلام والرسالة وبيّنها بجلاء، بكل ما أوتي من قوة من خلال ألف من معجزاته وبتصديق جميع الأنبياء والأصفياء.

والآخر: هو بمثابة لسان عالم الغيب أظهر الحقيقة نفسها وأشار اليها بأصابع الحق والهداية، وعرضها بكل جدّ واصالة، من خلال أربعين وجهاً من وجوه الاعجاز، وتصديق من قبل جميع الآيات التكوينية للكون.. ألا تكون تلك الحقيقة أبهر من الشمس وأسطع منها، وأوضح من النهار وأظهر منه؟!!.

أيها الانسان الحقير المتمرّد السادر في الضلالة[109] كيف تتمكن ان تضارع هذه الشموس بما في رأسك من بصيص خافت هزيل؟ وكيف يمكنك الاستغناء عن تلك الشموس،

[109] هذا الخطاب موجه للذي حاول رفع القرآن وازالته. ـ المؤلف.

وتسعى الى اطفائها بنفخ الأفواه؟ تباً لعقلك الجاحد، كيف تجحد ما قاله لسان الغيب ولسان الشهادة من كلام باسم رب العالمين ومالك الكون وتنكر ما دعا اليه من دعوة.

أيها الشقي الأعجز من الذباب والأحقر منه، مَن أنت حتى تورط نفسك في تكـــذيب مالك الكون ذي الجلال والاكرام؟

الخاتمة

أيها الصديق يا ذا العقل المنوّر والقلب المتيقظ! ان كنت قد فهمت هذه »الكلمة الثانية والعشرين« من بدايتها، فخذ بيدك الاثنتي عشرة لمعة دفعة واحدة، واظفر بها سراجاً للحقيقة، بقوة آلافٍ من المصابيح، واعتصم بالآيات القرآنية الممتدة من العرش الأعظم، وامتطِ بـــراق التوفيق واعرج في سماوات الحقائق واصعد الى عرش معرفة الله سبحانه وقل:

أشهد ان لا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك لك

وأعلن في المسجد الكبير للعالم على رؤوس موجودات الكون الوحدانية قائلاً:

لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهـــو حـــيٌّ لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

(ربَّنا لا تُؤاخذنا إن نَسينا او اخطأنا ربَّنا ولا تحمِل علينا إصراً كما حَمَلته على الـــذين من قَبلنا رَبَّنا ولا تُحمّلنا ما لا طاقةَ لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصـــرنا على القوم الكافرين)

(ربَّنا لا تُزغْ قلوبَنا بعد إذ هَدَيْتَنا وَهَبْ لنا مِن لَدُنكَ رحمةً إنك انتَ الوهّاب)

(ربّنا انك جامعُ الناس ليومٍ لا ريب فيه ان الله لا يُخلف الميعاد)

اللّهم صل على من أرسلتَه رحمةً للعالمين وعلى آله وصحبه اجمعين وارحمنا وارحم أمته برحمتك يا أرحم الراحمين آمين

(وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين)

الكلمة الثالثة والعشرون

وهي مبحثان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمْ

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ في أحْسَنِ تَقْويمٍ_ ثُمّ رَدَدْناهُ أسْفَلَ سافِلينَ_ إلاّ الـــذينَ آمَنـــوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أجْرٌ غيرُ مَمْنونٍ) (التين: 4ـــــ 6)

المبحث الأول

نبين خمس محاسن من بين آلاف محاسن الايمان وذلك في خمسِ نقاط

oالنقطة الاولى:

إن الانسانَ يسمو بنور الايمان الى اعلى عليين فيكتسب بذلك قيمةً تجعلُه لائقاً بالجنة، بينما يتردّى بظلمةِ الكفر إلى اسفل سافلين فيكون في وضعٍ يؤهّلُه لنار جهـــنم، ذلـــك لأنّ الايمانَ يربطُ الانسانَ بصانعه الجليل، ويربطه بوثاق شديد ونسبةٍ اليه، فالايمـــانُ انمـــا هـــو إنتسابٌ؛ لذا يكتسب الانسانُ بالايمان قيمة سامية من حيث تجلّي الصنعةِ الإلهية فيه، وظهورِ آيات نقوشِ الأسماء الربانية على صفحةِ وجوده. أما الكفرُ فيقطع تلـــك النســـبةَ وذلـــك الانتسابَ، وتغشى ظلمته الصنعةَ الربانية وتطمِس على معالمها، فَتنقُص قيمةَ الانسانِ حيـــث

تنحصر في مادّته فحسب؛ وقيمةُ المادة لا يُعتدّ بها فهي في حكم المعدوم، لكونها فانية، زائلة، وحياتُها حياةٌ حيوانيةٌ مؤقتة.

وها نحن أولاء نبيّنُ هذا السرَّ بمثال توضيحي:

أن قيمةَ المادة تختلف عن قيمة الصنعة ومدى الاجادة فيما يصنعه الانسانُ، فنرى أحياناً القيمتين متساويتين، وقد تكون المادةُ اكثرَ قيمةً من الصنعة نفسها، وقد يحدث ان تحتوي مادة حديد على قيمة فنيةٍ وجمالية عاليةٍ جداً، ويحدث أن تحوز صنعةٌ نادرة نفيسة جداً قيمةَ ملايين الليرات رغم كونها من مادة بسيطة جداً. فاذا عُرضَت مثل هذه التحفة النـــادرة في ســـوق الصنّاعين والحرفيين الـــمُجيدين وعرفوا صانعها الباهر الماهر الشهير فانها تحوز سعر مَليـــون ليرة، أما إذا أُخذت التحفةُ نفسُها الى سوق الحدادين – مثلاً – فقد لا يتقدم لشرائها أحـــدٌ، وربما لا ينفق أحدٌ في شرائها شيئاً.

وهكذا الانسانُ، فهو الصنعة الخارقة للخالق الصانع سبحانه، وهو أرقى معجزةٍ مـــن معجزات قدرته وألطفُها، حيث خلقه الباري مظهراً لجميع تجليات أسمائه الحســـنى، وجعلـــه مداراً لجميع نقوشه البديعة جلّت عظمته، وصيرّه مثالاً مصغراً ونموذجاً للكائنات بأسرها.

فإذا استقر نورُ الايمان في هذا الانسان لبيّن – ذلك النور – جميع ما على الانسان مـــن نقوش حكيمة، بل يستقرئها الآخرين؛ فيقرأها المؤمن بتفكر، ويشعُر بها في نفســـه شـــعوراً كاملاً، ويجعل الآخرين يطالعونها ويتملّونَها، أي كأنه يقول: »ها أنا ذا مصـــنوع الصـــانع الجليل ومخلوقُه. انظروا كيف تتجلى فيّ رحمتُه، وكرمُه«. وبما شابهها من المعـــاني الواســـعة تتجلّى الصنعة الربانية في الانسان.

اذن الايمان – الذي هو عبارة عن الانتساب الى الصانع سبحانه – يقوم باظهار جميـــع آثار الصنعة الكامنة في الانسان، فتتعين بذلك قيمةُ الانسان على مدى بروز تلـــك الصـــنعة الربانية، ولمعان تلك المرآة الصمدانية. فيتحول هذا الانسان – الذي لا أهمية له – الى مرتبـــة أسمى المخلوقات قاطبة، حيث يصبح أهلاً للخطاب الإلهي، وينال شرفاً يؤهله للضيافة الربانية في الجنة.

أما إذا تسلّل الكفر - الذي هو عبارةٌ عن قطع الانتساب الى الله - في الانسان، فعندئذٍ تسقط جميع معاني نقوش الاسماء الحسنى الإلهية الحكيمة في الظلام وتمحى نهائياً، ويتعذر مطالعتها وقراءتها؛ ذلك لانه لا يمكن ان تُفهَم الجهات المعنوية المتوجهة فيه الى الصانع الجليل، بنسيان الصانع سبحانه، بل تنقلب على عقبيها، وتندرس اكثر آيات الصنعة النفيسة الحكيمة واغلب النقوش المعنوية العالية، أما ما يتبقى منها مما يتراءى للعين فسوف يُعزى الى الاسباب التافهة، الى الطبيعة، والمصادفة، فتسقط نهائياً وتزول، حيث تتحول كل جوهرةٍ من تلك الجواهر المتلألئة الى زجاجةٍ سوداء مظلمة، وتقتصر أهميتها آنذاك على المادة الحيوانية وحدها. وكما قلنا ان غاية المادة وثمرتها هي قضاء حياة قصيرة جزئية يعيشها صاحبها وهو أعجز المخلوقات وأحوجها وأشقاها، ومن ثم يتفسخ في النهاية ويزول.. وهكذا يهدم الكفر الماهية الانسانية ويحيلها من جوهرة نفيسة الى فحمة خسيسة.

oالنقطة الثانية:

كما ان الايمان نور يضيءُ الانسانَ وينوّرُه ويُظهر بارزاً جميعَ المكاتيب الصمدانية المكتوبة عليه ويستقرِئُها، كذلك فهو يُنير الكائنات أيضاً، وينقذ القرون الخالية والآتية من الظلمات الدامسة.

وسنوضح هذا السرّ بمثال؛ استناداً الى أحد اسرار هذه الآية الكريمة:

(الله وليُّ الذين آمَنوا يُخرجُهُم مِن الظُلماتِ الى النّور)(البقرة: 257)

لقد رأيتُ في واقعةٍ خيالية أن هناك طودين شامخين متقابلين، نُصبَ على قمتيهما جسرٌ عظيم مدهش، وتحته وادٍ عميقٌ سحيق. وأنا واقف على ذلك الجسر، والدنيا يخيّم عليها ظلامٌ كثيف من كل جانب، فلا يكاد يرى منها شئ. فنظرت الى يميني فوجدت مقبرةً ضخمة تحت جنح ظلمات لا نهاية لها، اي هكذا تخيلت، ثم نظرت الى طرفي الأيسر فكأني وجدت أمواجَ ظلماتٍ عاتية تتدافع فيها الدواهي المذهلة والفواجع العظيمة وكأنها تتأهب للانقضاض، ونظرتُ الى أسفل الجسر فتراءت لعيني هوةٌ عميقةٌ لا قرار لها، وقد كنتُ لا أملك سوى مصباحٍ يدوي خافتِ النور أمامَ كل هذا الهدير العظيم من الظلمات.

فاستخدمته، فبدا لي وضعٌ رهيب، اذ رأيت اُسوداً وضواري ووحوشاً وأشباحاً في كل مكان حتى في نهايات وأطراف الجسر، فتمنيتُ أن لم أكن أملكُ هذا المصباحَ الذي كشف لي كلَّ هذه المخلوقات المخيفة؛ إذ إنني أينما وجَّهتُ نورَ المصباح شهدتُ المخاطر المدهشة نفسَها، فتحسرتُ في ذات نفسي وتأوّهتُ قائلاً: »إن هذا المصباحَ مصيبةٌ وبلاءٌ عليّ«. فاستشاط غيظي فالقيت المصباح الى الأرض وتحطَّمَ، وكأن بتحطُّمه قد أصبتُ زرّاً لمصباح كهربائي هائل، فإذا به يُنور الكائناتِ جميعاً فانقشعتْ تلك الظلماتُ، وانكشفت وزالت نهائياً، وامتلأ كلُّ مكانٍ وكلُّ جهةٍ بذلك النور. وبَدَتْ حقيقةُ كلّ شئ ناصعةً واضحة. فوجدتُ أن ذلك الجسر المعلّقَ الرهيبَ ما هو إلاّ شارعٌ يمرّ من سهلٍ منبسط. وتبيّنتُ أن تلك المقبرةَ الهائلةَ التي رأيتُها على جهة اليمين ليست الاّ مجالسَ ذكرٍ وتهليلٍ وندوة كريمة لطيفة وخدمة جليلة، وعبادة سامية تحت إمرة رجالٍ نورانيين في جنائن خُضرٍ جميلة تشعُّ بهجةً ونوراً وتبعث في القلب سعادةً وسروراً. أما تلك الأودية السحيقةُ والدواهي المدهشةُ والحوادثُ الغامضةُ التي رأيتُها عن يساري، فلم تكن الاّ جبالاً مشجرّةً خضراء تسرُّ الناظرين، ووراءَها مضيفٌ عظيمٌ ومروجٌ رائعةٌ ومتنزَّهٌ رائع.. نعم، هكذا رأيتُها بخيالي، أما تلك المخلوقاتُ المخيفة والوحوشُ الضارية التي شاهدتُها فلم تكن الاّ حيوانات أليفة أنيسة؛ كالجمل والثور والضأن والماعز، وعندها تلوتُ الآيةَ الكريمة:

(اللهُ وليُّ الذينَ آمَنوا يُخرِجُهُمْ مِنَ الظُلُماتِ الى النّورِ)

وبدأتُ أردّد: الحمدلله على نور الايمان.

ثَمَّ أفقتُ من تلك الواقعةِ.

وهكذا، فذاكما الجبلان هما: بدايةُ الحياةِ ومُنتهاها، أي هما عالَمُ الأرض وعالَمُ البرزخ.. وذلك الجسرُ هو طريقُ الحياة.. والطرفُ الايمنُ هو الماضي من الزمن، والطرفُ الأيسرُ هو المستقبلُ منه . أما المصباحُ اليدوي فهو أنانيةُ الانسان المعتدةُ بنفسها والمتباهيةُ بما لديها من علم، والتي لا تصغي الى الوحي السماوي.. أما تلك الغيلانُ والوحوشُ الكاسرة فهي حوادثُ العالم العجيبة وموجوداته.

فالانسانُ الذي يعتمد على أنانيته وغروره ويقع في شِراكِ ظلماتِ الغفلةِ ويُبتلى بأغلال الضلالة القاتلة، فإنه يشبه حالتي الأُولى في تلك الواقعة الخيالية، حيث يرى الزمنَ الماضي – بنور ذلك المصباح الناقص الذي هو معرفةُ ناقصةُ منحرفة للضلالة كمقبرةٍ عظيمة في ظلمات العدم، ويصوِّرُ الزمن من المستقبلِ موحشاً تَعبثُ فيه الدواهي والخطوب محيلاً إياه الى الصدفةِ العمياء. كما يصوِّرُ جميعَ الحوادث والموجودات – التي كل منها موظفةٌ مسخرةٌ من لدن ربّ رحيم حكيم – كأنها وحوشٌ كاسرةٌ وفواتك ضارية. فيحقّ عليه حُكمُ الآية الكريمة:

(والذينَ كَفَروا أوليَاؤهُم الطّاغوتُ يُخرجُونَهُم من النّورِ الى الظُّلُمات) (البقرة: 257)

اما إذا أغاثت الانسانَ الهدايةُ الإلهيةُ، ووجد الايمانُ الى قلبه سبيلاً، وانكسرت فرعونيةُ النفسِ وتحطّمتْ، وأصغى الى كتاب الله، فيكونُ أشبهَ بحالتي الثانيةِ في تلك الواقعةِ الخياليـــة، فتصطبغُ الكائناتُ بالنهار وتمتلىءُ بالنور الإلهي، وينطق العالَمُ برمَّته : الله نـــورُ الســـمواتِ والأرض(النور:35)

فليس الزمنُ الغابرُ اذ ذاك مقبرةً عظمى كما يُتوهم، بل كل عصرٍ من عصوره كمـــا تشهدُه بصيرةُ القلب، زاخرٌ بوظائفَ عبوديةٍ تحت قيادة نبيّ مُرسَلٍ، أو طائفةٍ مـــن الأوليـــاء الصالحين، يديرُ تلك الوظيفة السامية وينشرها ويرُسّخُ اركانَها في الرعية على أتمِّ وجهٍ وأكمل صورة. ومن بعد انتهاء هذه الجماعات الغفيرة من ذوي الأرواح الصافية من اداء وظائفهـــا الحياتية وواجباتها الفطرية تحلّق مُرتَقيةً الى المقامات العالية مُردّدةً: »الله اكبرُ« مخترقةً حجابَ المستقبل. وعندما يلتفتُ الى يساره يتراءى له من بعيد – بمنظار نور الايمان – أن هناك وراءَ انقلاباتٍ برزخيةٍ وأُخروية – وهي بضخامة الجبال الشواهق – قصور سعادة الجنان، قد مُدَّت فيها مضايفُ الرحمن مَداً لا أولَ لها ولا آخر. فيتيقن بأَن كلَّ حادثةٍ من حوادث الكـــون – كالأعاصير والزلازل والطاعون وامثالها – انما هي مُسخرّات موظفاتٌ مأموراتٌ، فـــيرى أن عواصفَ الربيع والمطر وأمثالَها من الحوادث التي تبدو حزينةً سمجةً، ما هي في الحقيقة والمعنى الا مدارُ الحِكَمِ اللطيفة، حتى إنه يرى الموتَ مقدمةً لحياةٍ أبدية، ويرى القبرَ بـــابَ ســـعادةٍ خالدة.. وقسْ على هذا المنوال سائَر الجهاتِ بتطبيق الحقيقةِ على المثال.

oالنقطة الثالثة:

كما أن الايمانَ نورٌ وهو قوةٌ ايضاً. فالانسانُ الذي يظفر بالايمان الحقيقي يســتطيع أن يتحدى الكائناتِ ويتخلصَ من ضيق الحوادثِ، مستنداً الى قوة ايمانه فَيبحرُ متفرجــاً علـــى سفينة الحياة في خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الأمان والسلام قائلاً: تَوكَّلتُ على الله، ويسلّم أعباءه الثقيلةَ أمانةً الى يدِ القُدرةِ للقدير المطلق، ويقطعُ بذلك سبيلَ الدنيا مطمــئنّ البال في سهولةٍ وراحةٍ حتى يصل الى البرزخ ويستريح، ومن ثم يستطيع ان يرتفعَ طــائراً الى الجنة للدخول الى السعادة الأبدية.

أما اذا ترك الانسانُ التوكل فلا يستطيع التحليقَ والطيرانَ الى الجنة فحسب بل ستجذبه تلك الأثقالُ الى أسفلَ سافلين.

فالايمان اذن يقتضي التوحيدَ، والتوحيدُ يقودُ الى التسليم، والتسليم يُحقــق التوكــلَ، والتوكلُ يسهّل الطريقَ الى سعادة الدارَين. ولا تظنن أن التوكل هو رفضُ الأسباب وردّهــا كلياً، وإنما هو عبارةٌ عن العلمِ بأن الأسبابَ هي حُجُب بيَدِ القدرة الإلهية، ينبغــي رعايتــها ومداراتها، أما التشبثُ بها أو الأخذ بها فهو نوعٌ من الدعاء الفعلي. فطلــبُ المسَــبَّباتِ اذن وترقّب النتائج لا يكون الاّ مِن الحقِّ سبحانه وتعالى، وأنّ المنةَ والحمدَ والثناءَ لا ترجعُ الاّ اليه وحدَه.

ان مَثلَ المتوكلِ على الله وغيرَ المتوكل كَمثَلِ رجلَين قاما بحمل اعباءٍ ثقيلةٍ حُمّلت على رأسهما وعاتقهما، فقطعا التذاكر وصعدا سفينةً عظيمةً، فوضعَ احدهُما ما على كاهله حالما دخل السفينة وجلسَ عليه يرقُبُه أما الآخرُ فلم يفعل مثلَه لحماقته وغروره، فقيل له:

– »ضع عنك حملكَ الثقيل لترتاح من عنائك؟«. فقال:

– »كلا، اني لست فاعلاً ذاك مخافة الضياع، فانا على قوةٍ لا أعبأُ بحملي، وسأحتفظ بما أملُكه فوقَ رأسي وعلى ظهري«. فقيل له ثانية:

– »ولكن أيها الأخ إنّ هذه السفينةَ السلطانية الأمينةَ التي تأوينا وتجري بنا هي أقوى وأصلبُ عوداً منا جميعاً. وبامكانها الحفاظُ علينا وعلى أمتعتنا اكثرَ مِن أنفسنا، فربما يُغمــى عليك فتهوي بنفسك وأمتعتك في البحر، فضلاً عن انك تفقُد قوتَك رويداً رويداً، فكاهلُك الهزيل هذا وهامتُك الخرقاء هذه لن يَسَعهما بعدُ حملُ هذه الأعباء التي تتزايد رَهَقاً، واذا رآك

ربّان السفينة على هذه الحالة فيسظنــــــُّك مصاباً بَمسٍ من الجنون وفاقداً للوعي، فيطـــرُدُك ويقذفُ بكَ خارجاً، أو يأمرُ بإلقاء القبضِ عليك ويُودِعك السجن قائلاً: ان هذا خائنٌ يتهم سفينَتَنا ويستهزئُ بنا، وستُصبح أضحوكةً للناس، لأنك باظهارك التكبّر الذي يُخفي ضعفاً – كما يراه أهلُ البصائر – وبغرورِك الذي يحمل عَجزاً، وبتصنّعك الذي يُبطن رياءً وذلة، قـــد جعلتَ من نفسك أُضـــحوكةً ومهزلـــةً. ألا تـــرى ان الكـــل بـــاتوا يضـــحكون منـــك ويستصغرونك..! وبعد ما سمع كلَّ هذا الكلام عاد ذلك المسكينُ الى صوابه فوضع حِملَـــه على أرضِ السفينة وجلسَ عليه وقال:

– الحمد للّه... ليرضَ الله عنك كل الرضا فلقد أنقذتَني من التعـــب والهـــوان ومـــن السجن والسخرية.

فيا أيها الانسان البعيدُ عن التوكل! ارجع الى صوابك وعُد الى رُشدك كهذا الرجـــل وتوكّل على الله لتتخلص من الحاجة والتسوّل من الكائنات، ولتنجوَ من الإرتعاد والهلع أمام الحادثات، ولتنقذَ نفسَك من الرياء والاستهزاء ومن الشقاء الابدي ومن أغلال مضـــايقات الدنيا.

oالنقطة الرابعة:

إن الايمانَ يجعل الانسانَ انساناً حقاً، بل يجعله سلطاناً؛ لذا كانت وظيفتُـــه الأســـاس: »الايمانُ بالله تعالى والدعاء اليه«. بينما الكفرُ يجعل الانسانَ حيواناً مفترساً في غاية العجز.

وسنورد هنا دليلاً واضحاً وبرهاناً قاطعاً من بين آلاف الدلائل على هذه المسألة، وهو: التفاوتُ والفروقُ بين مجيء الحيوان والانسان الى دار الدنيا.

نعم، ان التفاوتَ بين مجيء الحيوان والانسان الى هذه الدنيا يـــدل علـــى أن اكتمـــالَ الانسانيةِ وارتقاءها الى الانسانية الحقة إنما هو بالايمان وحدَه، وذلك لأن الحيوانَ حينما يأتي الى الدنيا يأتي اليها كأنه قد إكتملَ في عالمٍ آخرٍ، فيرُسَلُ اليها متكاملاً حســـب إســـتعداده. فيتعلم في ظرف ساعتين أو يومين أو شهرين جميع شرائط حياته وعلاقاته بالكائنات الأخرى وقوانينَ حياته، فتحصلُ لديه مَلَكةٌ؛ فيتعلّم العصفورُ أو النحلةُ – مثلاً – القـــدرةَ الحياتيـــة والسلوكَ العملي عن طريق الإلهامِ الرباني وهدايتِه سبحانه. ويحصلُ في عشرين يوماً على ما لا

يتعلمه الانسانُ الاّ في عشرين سنة. اذن الوظيفةُ الاساس للحيوان ليست التكمّل والإكمتـــال بالتعلّم، ولا الترقي بكسب العلم والمعرفة، ولا الاستعانة والدعاء باظهار العجز. وانما وظيفتُه الأصلية: العمل حسب استعداده، اي العبودية الفعلية.

أما الانسانُ فعلى العكس من ذلك تماماً، فهو عندما يَقدِم الى الدنيا يقدِمُها وهو محتاجٌ الى تعلّم كل شئ وادراكه؛ اذ هو جاهلٌ بقوانين الحياة كافة جهلاً مطبقاً، حتى إنه قـــد لا يستوعب شرائطَ حياته خلال عشرين سنة. بل قد يبقى محتاجاً الى التعلم والـــتفهم مـــدى عمره. فضلاً عن أنه يُبعث الى الحياة وهو في غاية الضَعف والعَجز حتى إنه لا يـــتمكن مـــن القيام منتصباً الاّ بعد سنتين من عمره، ولا يكاد يميّز النفَع من الضرّ الا بعد خمس عشرة سنة، ولا يمكنه أن يحقّق لنفسه منافع حياته ومصالحها ولا دفـــع الضـــرر عنـــها إلاّ بالتعـــــاون والانخـــراط فـــي الحيـــاة الاجتماعية البشرية.

يتضح من هذا ان وظيفة الانسان الفطرية انما هي التكمل »بالتعلم« أي الترقـــي عـــن طريق كسب العلم والمعرفة، والعبودية »بالدعاء«. أي أن يدرك في نفسه ويستفسر: »برحمة مَنْ وشَفَقته اُدارى بهذه الرعاية الحكيمة؟! وبمَكْرَمةِ مَنْ وسخائه اُربّى هذه التربيـــة المفعمـــةَ بالشفقة والرحمة؟ وبألطافِ مَنْ بوجُودِه اُغذّى بهذه الصورة الرازقة الرقيقـــة؟!«. فـــيرى أن وظيفته حقاً هو الدعاءُ والتضرعُ والتوسلُ والرجاءُ بلسان الفقر والعجز الى قاضي الحاجـــات ليقضي له طلباته وحاجاته التي لا تصل يدُه الى واحدةٍ من الألفِ منها. وهذا يعني ان وظيفته الأساس هي التحليق والارتفاع بجناحَي »العجز والفقر« الى مقام العبودية السامي.

اذن فلقد جئ بهذا الانسان الى هذا العالم لأجل أن يتكامل بالمعرفة والدعاء؛ لأن كـــل شئ فيه موجَّه الى العلم ومتعلقٌ بالمعرفة حسبَ الماهية والاستعداد. فأساسُ كلِّ العلوم الحقيقية ومعدنُها ونورُها وروحها هو »معرفة الله تعالى« كما ان اُسَّ هذا الاساس هو »الايمانُ بـــالله جل وعلا«.

وحيث ان الانسان متعرضٌ لما لا يحصى من أنواع البلايا والمصائب ومهاجمة الاعداء لما يحمل من عجزٍ مطلق. وله مطالبُ كثيرةٌ وحاجاتٌ عديدة مع أنه في فقرٍ مدقع لا نهاية له؛ لذا تكون وظيفتُه الفطريةُ الأساس »الدعاءَ« بعد الايمان، وهو أساسُ العبادةِ ومخّها. فكما يلجـــأ

الطفلُ العاجز عن تحقيق مرامه أو تنفيذ رغبته بما لا تصل اليه يدُه، الى البكـــاء والعويـــل أو يطلب مأمولَه، أي يدعو بلسان عجزه إما قولاً أو فعلاً فيوفَّق الى مقصـــوده ذاك، كـــذلك الانسانُ الذي هو ألطفُ أنواع الأحياء وأعجزُها وأفقرُها وهو بمترلة صبيٍّ ضعيفٍ لطيـــفٍ، فلابدّ له من أن يأوى الى كنفِ الرحمن الرحيم والانطراحَ بين يديه إما باكياً معبراً عن ضعفه وعجزه، أو داعياً بفقره واحتياجـــه، حتـــى تُلبّى حاجتُه وتُنفَّذ رغبتُهُ. وعندئذٍ يكون قـــد أدّى شكرَ تلك الإغاثات والتلبيات والتسخيرات. والاّ فاذا قال بغرورٍ كالطفل الأحمق. »أنا أتمكن أن اُسخّرَ جميع هذه الأشياء واستحوذَ عليها بافكاري وتدبيري« وهي التي تفوق ألوف المرات قوتَه وطاقَته! فليس ذلك الاّ كفرانٌ بنَعم الله تعالى، ومعصيةٌ كـــبيرة تنـــافي الفطـــرة الانسانية وتناقضها، وسببٌ لجعل نفسه مستحقّاً لعذابٍ أليمٍ.

oالنقطة الخامسة:

كما أن الايمانَ يقتضي »الدعاء« ويتّخذه وسيلةً قاطعةً ووساطةً بين المؤمن وربّه، وكما اَن الفطرةَ الانسانية تتلهف اليه بشدةٍ وشوق، فان الله سبحانه وتعالى ايضاً يدعو الانسانَ الى الأمر نفسه بقوله:

(قُلْ مَا يَعْبَؤا بكُم ربّي لَولا دُعَاؤكُم) (الفرقان: 77)

وبقوله تعالى: (اُدْعوني أستَجِبْ لكُم) (غافر: 60)

ولعلك تقول: »إننا كثيراً ما ندعو الله فلا يُستجابُ لنا رغم ان الآية عامةٌ تُصرّح بأنّ كل دعاءٍ مستجابٌ«.

الجواب:

ان إستجابةَ الدعاء شئ، وقبولَه شئ آخر. فكلُّ دعاءٍ مستجابٌ، الاّ أن قبولَه وتنفيـــذَ المطلوب نفسه منوطٌ بحكمة الله سبحانه.

فمثلاً: يستصرخ طفلٌ عليل الطبيبَ قائلاً:

»أيها الطبيب انظر اليّ واكشف عني«.

فيقول الطبيب: »أمرُك يا صغيري«. فيقول الطفل:

»اعطني هذا الدواء«. فالطبيب حينذاك إمّا انه يُعطيه الدواء نفسَه، أو يعطيه دواءً أكثر نفعاً وأفضل له، أو يمنع عنه العلاجَ نهائياً. وذلك حسبما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ.

وكذلك الحق تبارك وتعالى (وله المثل الاعلى) فلأنه حكيمٌ مطلقٌ ورقيبٌ حسيب في كل آن، فهو سبحانه يستجيب دعاءَ العبد، وباستجابته يُزيل وحشَته القاتمةَ وغربته الرهيبة، مُبدلاً إياها أملاً وأُنساً وإطمئناناً. وهو سبحانه إما أنه يَقبل مَطلبَ العبد ويستجيب لدعائه نفسه مباشرة، أو يمنحه أفضل منه، أو يردّه، وذلك حسب اقتضاء الحكمة الربانية، لا حسبَ أهواء العبد المتحكمة وأمانيّه الفاسدة.

وكذا، فالدعاء هو ضربٌ من العبودية، وثمار العبادة وفوائدُها أخرويةٌ. أما المقاصدُ الدنيوية فهي »أوقاتُ« ذلك النوع من الدعاء والعبادة، وليست غاياتها.

فمثلاً: صلاةُ الاستسقاء نوعٌ من العبادة، وانقطاع المطر هو وقتُ تلك العبادة. فليست تلك العبادةُ وذلك الدعاء لأجل نزولِ المطر. فلو أُدّيَتْ تلك العبادةُ لأجل هذه النية وحدَها اذن لكانت غير حريّة بالقبول، حيث لم تكن خالصةً لوجه الله تعالى..

وكذا وقتُ غروبِ الشمس هو اعلانٌ عن صلاة المغرب، ووقتُ كسوف الشمس وخسوف القمر هو وقتُ صلاةِ الكسوف والخسوف. أي أن الله سبحانه يدعو عبادَه الى نوعٍ من العبادة لمناسبة انكساف آية النهار وانخساف آية الليل اللتين تومئان وتُعلنان عظمتَهُ سبحانه. والاّ فليست هذه العبادة لإنجلاء الشمس والقمر الذي هو معلومٌ عند الفلكي..

فكما ان الأمر في هذا هكذا فكذلك وقتُ انحباس المطر هو وقتُ صلاةِ الاستسقاء، وتهافتُ البلايا وتسلطُ الشرور والأشياء المضرة هو وقتُ بعض الادعية الخاصة، حيث يدرك الانسانُ حينئذٍ عجزَه وفقرَه فيلوذ بالدعاء والتضرع الى باب القدير المطلق. واذا لم يدفع الله سبحانه تلك البلايا والمصائب والشرور مع الدعاء الملحّ، فلا يقالُ: إن الدعاءَ لم يُستجبْ، بل يقال: إن وقت الدعاء لم ينقضِ بعدُ. وإذا ما رفع سبحانه بفضله وكرمه تلك البلايا وكشف الغمة فقد انتهى وقتُ الدعاء اذن وانقضى. وبهذا فالدعاء سرٌ من أسرار العبودية.

والعبودية لابد أن تكون خالصةً لوجه الله، بأن يأوي الانسانُ الى ربَّه بالدعاء مُظهــراً عجزَه، مع عدم التدخل في اجراءات ربوبيته، أو الاعتراضِ عليها، وتسليمُ الأمر والتدبير كلّه اليه وحدَه، مع الاعتماد على حكمته من دون إتهامٍ لرحمته ولا القنوطِ منها.

نعم! لقد ثبت بالآيات البيّنات أن الموجودات في وضعِ تسبيح لله تعالى؛ كلٌ بتســبيحٍ خاصٍ، في عبادة خاصة، في سجود خاص، فتتمخض عن هذه الأوضاع العبادية التي لا تعــدّ ولا تحصى سبلُ الدعاء المؤدية إلى كنف ربٍّ عظيم.

اما عن طريق لسان الاستعداد والقابلية؛ كدعاء جميع النباتات والحيوانات قاطبة، حيث يبتغي كلٌّ واحدٍ منهما من الفيّاض المطلق صورةً معينةً له فيها معانٍ لأسمائه الحسنى، أو عــن طريق لسان الحاجة الفطرية كأدعية جميع أنواع الاحياء للحصول على حاجاتها الضــرورية التـــي هـــي خـــارجة عن قدرتهـــا، فيطـــلب كـــلٌّ حيٍ من الجواد المطلــق؛ بلســـان حـــاجته الفطرية عناصرَ اســـتمـــرار وجوده التي هي بمثابة رزقها.

أو عن طريق لسان الاضطرار، كدعاء المضطرّ الذي يتضرع تضرعاً كاملاً الى مــولاه المغيب، بل لا يتوجّه الاّ الى ربه الرحيم الذي يلّبي حاجته ويقبل التجاءَه.

فهذه الانواع الثلاثة من الدعاء مقبولةٌ إن لم يطرأ عليها ما يجعلها غير مقبولة.

النوع الرابع من الدعاء، هو دعاؤنا المعروف، فهو أيضاً نوعان:

احدهما: دعاءٌ فعلي وحالي.

وثانيهما: دعاء قلبي وقولي.

فمثلاً: الأخذُ بالأسباب هو دعاء فعلي، علماً أن اجتماع الأسباب ليس المرادُ منه ايجاد المسَّبب. وانما هو لإتخاذ وضعٍ ملائمٍ ومُرضٍ لله سبحانه لطَلَب المسَّبب منه بلسان الحال. حتى إن الحراثةَ بمنزلةِ طَرْقِ بابِ خزينةِ الرحمةِ الإلهية. ونظراً لكون هذا النوع من الدعاء الفعلــي موجّهٌ نحو اسم »الجواد« المطلق والى عنوانه فهو مقبولٌ لا يُردُّ في أكثر الأحيان.

أما القسم الثاني: فهو الدعاءُ باللسان والقلب. أي طلبُ الحصولِ على المطالــب غــير القابلة للتحقيق والحاجات التي لا تصلُ اليها اليدُ. فأهمُّ جهةٍ لهذا الدعاء وألطفُ غاياته وألذُّ

ثمراته هو أن الداعي يدرك ان هناك مَن يسمع خواطر قلبه، وتصل يدُه الى كل شئ، ومَن هو القادرُ على تلبية جميع رغباته وآماله، ومَن يرحم عجزه ويُواسي فقرَه.

فيا أيها الانسان العاجز الفقير! اياك ان تتخلّى" عن مفتاح خزينةِ رحمة واسعة ومصدر قوة متينة، ألا وهو الدعاءُ. فتشبَّث به لترتقيَ الى اعلى عليي الانسانية، واجعل دعاءَ الكائنات جزءاً من دعائك. ومن نفسك عبداً كلياً ووكيلاً عاماً بقولك إياكَ نَسْتَعِينُ وكن أحسنَ تقويمٍ لهذا الكون.

المبحث الثاني

(وهو عبارة عن خمسِ نكات تدورحول سعادة الانسان وشقاوته)

ان الانسانَ نظراً لكونه مخلوقاً في أحسنِ تقويمٍ وموهوباً بأتمّ استعدادٍ جامع، فانه يتمكن من أن يدخل في ميدان الامتحان هذا الذي اُبتلي به ضمن مقامــاتٍ ومراتــبَ ودرجــاتٍ ودركات مصفوفة ابتداءً من سجين »أسفل سافلين« الى رياض »أعلى عليين« فيســمو أو يتردى، ويرقى أو يهوي ضمن درجاتٍ من الثرى الى العرش الأعلى، من الذرة الى المجرّة، اذ قد فُسِحَ المجالُ أمامَه للسلوك في نجدين لا نهاية لهما للصعود والهبوط. وهكذا اُرســل هــذا الانسانُ معجزةَ قدرةٍ، ونتيجةَ خلقةٍ، وأعجوبةَ صنعةٍ.

وسنبين هنا اسرار هذا الترقي والعروج الرائع، أو التدنّي والسقوط المرعب في »خمــسِ نكات«.

mالنكتة الأولى

ان الانسانَ محتاجٌ الى اكثر انواع الكائنات وهو ذو علاقة صميمية معها. فلقد انتشرت حاجاتُه في كل طرف من العالم، وامتدت رغباتُه وآمالُه الى حيث الأبد، فمثلــما يطلــب أقحــوانةً، يطلب أيضاً ربيعاً زاهياً فسيحاً، ومثلما يرغب في مَرجٍ مبهج يرغب أيضاً في الجنة الأبدية، ومثلما يتلهّف لرؤية محبوبٍ له يشتاق ايضاً ويتوق الى رؤية الجميل ذي الجــلال في

الجنة، ومثلما أنه محتاجٌ الى فتح باب غرفة لرؤية صديق حميم قابعٍ فيها، فهو محتاجٌ أيضـــاً الى زيارة عالَمِ البرزخ الذي يقبعُ فيه تســع وتسعون بالمائة من أحبابه وأقرانه. كما هـــو محتاج الى اللواذ بباب القدير المطـلـــق الـــذي سيغـــلق بابَ الكـــون الأوســع ويفتـــح بابَ الآخـــرة الزاخـــرة والمحـــــشـــورة بالعجـــائب، والذي سيرفع الدنيا ليضـــــع مكانَهـــا الآخرةَ انقاذاً لهذا الانسان المسكينِ من ألمِ الفراق الأبدي.

لذا فلا معبود لهذا الانسان وهذا وضعُه، الاّ مَن بيده مقاليدُ الأمور كلها، ومَن عنـــده خزائنُ كل شئ. وهو الرقيبُ على كل شئ، وحاضرٌ في كل مكان، ومنزّهٌ من كل مكـــان، ومبرّأٌ من العجز، ومقدَّسٌ من القصور، ومتـــعـــالٍ عن النقـــص، وهو القادر ذو الجـــلال، وهو الرحيم ذو الجمال، وهـــو الحكيـــــــم ذو الكـــــمـــــال. ذلك لأنه لا يســـتطيع أحدٌ تلبـــية حاجات انــــسانٍ بآمـــــالٍ ومطـــــامـــــحَ غــــير محـــــدودة الاّ مَن له قـــُـــدرة لا نهاية لها وعلم محيط شامل لا حدود له إذ لا يستحق العبادة الاّ هو.

فيا أيها الانسان! اذا آمنتَ بالله وحدَه وأصبحتَ عبداً له وحدَه، فُزتَ بموقعٍ مرمـــوقٍ فوق جميع المخلوقات. أما اذا استنكفتَ من العبودية وتجاهلتَها فسوف تكون عبداً ذليلاً أمام المخلوقات العاجزة، واذا ما تباهيتَ بقدرتك وأنانيتك، وتخلّيتَ عـــن الـــدعاء والتوكـــل، وتكبّرتَ وزِغتَ عن طريق الحق والصواب، فستكون أضعفَ من النملة والنحلة مـــن جهـــة الخير والايجاد، بل أضعف من الذبابة والعنكبوت. وستكون أثقلَ من الجبل وأضرّ من الطاعون من جهة الشر والتخريب.

نعم، ايها الانسانُ! انّ فيك جهتين:

الاولى: جهةُ الايجاد والوجودِ والخير والايجابية والفعل.

والاخرى: جهةُ التخريب والعدم والشر والسلبية والانفعال.

فعلى اعتبار الجهة الاولى «جهة الايجاد» فانك أقلُّ شأناً من النحلة والعصفور وأضعفُ من الذبابة والعنكبوت. أما على اعتبار الجهة الثانية «جهة التخريب» فباستطاعتك ان تتجاوز الأرضَ والجبال والسموات، وبوسعِكَ ان تحمل على عاتقك ما أشفقن منه فتكسبَ دائـــرةً أوسعَ ومجالاً أفسح؛ لأنك عندما تقوم بالخير والايجاد فانك تعمل على سعةِ طاقتك وبقـــدر

جهدك وبمدى قوتك، أما اذا قمتَ بالإساءةِ والتخريب، فإن اساءتكَ تتجاوز وتستشــري، وان تخريبَك يعم وينتشر.

فمثلاً: الكفرُ إساءةٌ وتخريبٌ وتكذيبٌ، ولكن هذه السيئةَ الواحدة تُفضي الى تحقير جميع الكائنات وازدرائها واستهجانها، وتتضمن أيضاً تزييف جميع الاسماء الإلهية الحسنى وإنكارها. وتتمخّض كذلك عن إهانة الانسانية وترذيلها؛ ذلك لأن لهذه الموجودات مقاماً عالياً رفيعاً، ووظيفةً ذات مغزى، حيث انها مكاتيب ربانية، ومرايا ســبحانية، وموظفــات مــأمورات إلـــــــ"ـــهية. فالكفر فضـــلاً عن إسقاطهِ تلك الموجودات من مرتبة التوظيـــف ومنزلـــة التسخير ومهمة العبودية، فانه كذلك يُرديها الى درك العَبَث والمصادفة ولا يرى لهـــا قيمـــةً ووزناً بما يعتريها من زوالٍ وفراق يبدّلان ويفسّخان بتخريبهما وأضـــرارهما الموجـــودات الى مواد فـــــانيـــة تافهة عـــقيـــــمة لا أهمية لها ولا جدوى منها. وهو في الوقت نفسه يُنكر الأسماء الإلهية ويتجاهلها، تلك الاسماء التي تتـــراءى نقـــــــوشُها وتجـــــليـــــــــاتُها وجـــمالاتُها في مــــــرايا جميــــع الكائـــــنات، حتى إن ما يُطلق عليه: »الانسانية« التي هي قصيدة حكيمةٌ منظومةٌ تعلن اعلاناً لطيفاً جميع تجليات الأسماء الإلهية القدســـية، وهـــي معجزةُ قدرةٍ باهرةٍ جامعةٍ كالنواة لأجهزة شجرةٍ دائمةٍ باقية. هذه »الانسانية« يقذفُها الكفرُ من صورها الحيّة التي تفوّقت بها على الارض والجبال والسماوات بما أخذتْ على عاتقها من الأمانة الكبري وفُضّلت على الملائكة وترجّحت عليها حتى أصبحت صاحبةَ مرتبةِ خلافـــة الأرض – يقذفها من هذه القمة السامية العالية الى دَركات هي أذلُّ وأدنى من أي مخلوقٍ ذليل فانٍ عاجزٍ ضعيف فقير، بل يُرديها الى دركة أتفهِ الصور القبيحة الزائلة سريعاً.

وخلاصة القول: ان النفس الأمارة بإمكانها اقتراف جنايةٍ لا نهاية لها في جهـــة الشـــر والتخريب، أما في الخير والايجاد فان طاقتها محدودة وجزئية؛ اذ الانسان يستطيع هدمَ بيتٍ في يوم واحد الاّ أنه لا يستطيع أن يشيّده في مائة يوم. أما إذا تخلى الانسانُ عن الانانية، وطلب الخير والوجود من التوفيق الإلهي وأرجَعَ الامرَ اليه، وابتعد عن الشر والتخريب، وترك اتبـــاعَ هوى النفس. فاكتمل عبداً لله تعالى تائباً مستغفراً، ذاكراً له سبحانه. فسيكون مَظهراً للآيـــة

الكريمة: ﴿يُبدّلُ الله سَيِّئاتِهم حَسَنات ﴾ (الفرقان: 70) فتنقلب القابلية العظمى عندَه للشر الى قابلية عظمى للخير. ويكتسب قيمة »أحسن تقويم« فيحلق عالياً الى أعلى عليين.

أيها الانسان الغافل! انظر الى فضل الحق تبارك وتعالى وكرمِه، ففـــي الوقـــت الـــذي تقتضي العدالةُ أن يكتب السيئةَ مائة سيئةٍ ويكتب الحسنةَ حسنةً واحدة او لا يكتبها حيث أن خيرها ومصلحتها يعودان على الانسان فهو جلّت قدرته يكتب السيئة سيئةً واحدةً والحسنةَ يزنها بَعشر أمثالها أو بسبعين أو بسبعمائة أو بسبعة آلاف أمثالها.

فأفهم من هذه النكتة ان الدخول في جهنم هو جزاء عمل وهو عين العدالـــة، وأمـــا دخول الجنة فهو فضل إلهي محض ومَكرمةٌ خالصة، ومرحمة بحتة.

mالنكتة الثانية

في الانسان وجهان:

الاول: جهة الانانية المقصورة على الحياة الدنيا.

والآخر: جهةُ العبودية الممتدة الى الحياة الأبدية.

فهو على اعتبار الوجه الاول مخلوقٌ مسكينٌ. إذ رأسماله من الارادة الجزئية جزءٌ ضيئل كالشعرة، وله من الاقتدار كسبٌ ضعيف، وله من الحياة شعلةٌ لا تلبث أن تنطفئ، وله مـــن العمر فترةٌ عابرة خاطفة، وله من الوجود جسمٌ يبلى بسرعة. ومع هذا فالانسان فردٌ لطيف رقيق ضعيف من بين الأفراد غير المحدودة والأنواع غير المعدودة المتراصة في طبقات الكائنات.

أما على اعتبار الوجه الثاني وخاصة من حيث العجز والضعف المتوجهين الى العبودية، فهو يتمتع بفسحة واسعة، وأهمية عظيمة جداً؛ لأن الفاطرَ الحكيم قد أودع في ماهيته المعنوية عجزاً عظيماً لا نهاية له، وفقراً جسيماً لا حد له، وذلك ليكون مرآةً واسعة جامعـــة جـــداً للتجليات غير المحدودة »للقدير الرحيم« الذي لا نهاية لقدرته ورحمته و »للغني الكريم« الذي لا منتهى لغناه وكرمه.

نعم، ان الانسان يشبه البذرة، فلقد وُهبت للبذرة اجهزةٌ معنوية من لـــدن »القُـــدرة« واُدرجت فيها خطةٌ دقيقة ومهمة جداً من لدن »القَدَر« لتتمكن من العمل داخل التربة، ومن النمو والترعرعِ والانتقالِ من ذلك العالم المظلم الضيق الى عالم الهواء الطليق والدنيا الفسيحة،

وأخيراً التوسل والتضرع لخالقها بلسان الاستعداد والقابليات لكي تصير شجرةً، والوصولِ الى الكمال اللائق بها. فاذا قامت هذه البذرةُ بجلب المواد المضرة بها، وصرفِ أجهزتها المعنوية التي وُهبت لها الى تلك المواد التي لا تعنيها بشئ وذلك لسوء مزاجها وفساد ذوقها، فلاشك ان العاقبةَ تكون وخيمةً جداً؛ اذ لا تلبث أن تتعفن دون فائدة، وتبلى في ذلك المكان الضيق. أما اذا اخضَعتْ أجهزتَها المعنوية لتتمثل أمر (فالق الحبِّ والنَّوى)(الانعام:95) التكويني واحسنتْ استعمالَها، فانها ستنبثق من عالمها الضيق لتكتملَ شجرةً مثمرةً باسقة، ولتأخذ حقيقتُها الجزئية، وروحُها المعنوية الصغيرة صورتَها الحقيقية الكلية الكبيرة.

فكما ان البذرة هكذا فالانسانُ كذلك. فقد اُودعتْ في ماهيته اجهزةٌ مهمةٌ من لدن القدرة الإلهية، ومُنحَ برامجَ دقيقة وثمينة من لدن القَدَر الإلهي. فاذا أخطأ هذا الانسانُ التقديرَ والاختيار، وصَرَف اجهزتَه المعنوية تحت ثرى الحياة الدنيا وفي عالم الارض الضيق المحدود، الى هوى النفس، فسوف يتعفّنُ ويتفسّخ كتلك البذرة المتعفنة، لأجل لذةٍ جزئيةٍ ضمن عمرٍ قصيرٍ وفي مكانٍ محصور وفي وضع متأزم مؤلم، وستتحمل روحُه المسكينة تبعات المسؤولية المعنوية فيرحلُ من الدنيا خائباً خاسراً.

أما اذا ربّى الانسانُ بذرةَ استعداده وسقاها بماءِ الأسلام، وغذّاها بضياءِ الايمان تحت تراب العبودية موجهاً أجهزتَها المعنوية نحو غاياتها الحقيقية بامتثال الأوامر القرآنية. فلابد أنها ستنشقّ عن أوراقٍ وبراعم واغصانٍ تمتدّ فروعُها وتتفتّح أزاهيرُها في عالم البرزخ وتولّد في عالم الآخرة وفي الجنة نِعَماً وكمالاتٍ لا حد لها. فيصبح الانسان بذرةً قيّمةً حاوية على أجهزة جامعة لحقيقة دائمة ولشجرة باقية، ويغدو آلةً نفيسة ذات رونق وجمال، وثمرةً مباركة منورة لشجرة الكون.

نعم ان السموَّ والرقي الحقيقي انما هو بتوجيه القلب، والسرِ، والروح، والعقل، وحتى الخيال وسائر القوى الممنوحة للانسان، الى الحياة الأبدية الباقية، وأشتغال كلٍّ منها بما يخصّها ويناسبها من وظائف العبودية. أما ما يتوهمه أهلُ الضلالة من الانغماس في تفاهات الحياة والتلذّذِ بملذاتها الهابطة والإنكباب على جزئيات لذاتها الفانية دون الالتفات الى جمال الكليات ولذائذها الباقية الخالدة مسخّرين القلب والعقل وسائر اللطائف الانسانية تحت إمرةِ النفس

الأمارة بالسوء وتسييرها جميعاً لخدمتها، فان هذا لا يعني رقياً قط، بل هو سقوطٌ وهبوط وانحطاط.

ولقد رأيت هذه الحقيقة في واقعة خيالية سأوضحها بهذا المثال:

دخلتُ في مدينة عظيمة، وجدت فيها قصوراً فخمة ودُوراً ضخمة، كانت تُقام أمام القصور والدور حفلات ومهرجانات وأفراح تجلب الانظار كأنها مسارحُ وملاهٍ، فلها جاذبية وبهرجة. ثم امعنت النظر فاذا صاحبُ قصر واقفٌ أمام الباب وهو يداعب كلبه ويلاعبه. والنساء يرقصن مع الشباب الغرباء، وكانت الفتيات اليافعات ينظّمن العابَ الأطفال. وبوّاب القصر قد اتخذ طورَ المشرف يقودُ هذا الحشد. فأدركت ان هذا القصر خالٍ من أهله وأنه قد عُطلّت فيه الوظائف والواجبات. فهؤلاء السارحون من ذويه السادرون في غيّهم قد سقطت أخلاقُهم وماتت ضمائرهم وفرغت عقولُهم وقلوبُهم فأصبحوا كالبهائم يهيمون على وجوههم ويلعبون أمام القصر. ثم مشيتُ قليلاً ففاجأني قصرٌ آخر. رأيت كلباً نائماً امام بابه. ومعه بوّاب شهمٌ وقور هادئ، وليس امام القصر ما يثير الانتباه، فتعجبت من هذا الهدوء والسكينة واستغربت! واستفسرتُ عن السبب، فدخلت القصرَ فوجدته عامراً بأهله، فهناك الوظائف المتباينة والواجبات المهمة الدقيقة ينجزها أهلُ القصر، كلٌّ في طابقه المخصص له في جوّ من البهاء والهناء والصفاء بحيث يبعث في الفؤاد الفرحة والبهجة والسعادة. ففي الطابق الأول هناك رجالٌ يقومون بإدارة القصر وتدبير شؤونه، وفي طابقٍ أعلى هناك البناتُ والاولاد يتعلمون ويتدارسون. وفي الطابق الثالث السيداتُ يقمن بأعمال الخياطة والتطريز ونسج الزخارف الملونة والنقوش الجميلة على انواع الملابس، أما الطابق الأخير فهناك صاحبُ القصر يتصل هاتفياً بالملكِ لتأمين الراحةِ والسلامةِ والحياة الحرّة العزيزة المرضية لأهل القصر، كلٌّ يمارس اعماله حسب اختصاصه وينجز وظائفه اللائقة بمكانته الملائمة بكماله ومنزلته. ونظراً لكوني محجوباً عنهم فلم يمنعني أحدٌ من التجوّل في انحاء القصر؛ لذا استطلعت الأمور بحرّية تامة. ثم غادرتُ القصر وتجولت في المدينة فرأيتُ انها منقسمةٌ الى هذين النوعين من القصور والبنايات، فسألت عن سبب ذلك ايضاً فقيل لي: »ان النوع الاول من القصور الخاليةِ من أهلها والمبهرجِ

خارجُها والمزينةِ سطوحُها وافنيتُها ما هي الاّ مأوى ائمة الكفر والضلالة. أما النوع الثاني من القصور فهي مساكن أكابر المؤمنين من ذوي الغيرة والشهامة والنخوة«. ثم رأيت أن قصـــراً في زاوية من زوايا المدينة مكتوبٌ عليه اسم (سعيد) فتعجبت، وعندما أمعنت النظر أبصرت كأن صورتي قد تراءت لي، فصرختُ من دهشتي واسترجعت عقلي وافقتُ من خيالي.

واريد أن أفسر بتوفيق الله هذه الواقعة الخيالية:

فتلك المدينة هي الحياة الاجتماعية البشرية ومدنية الحضارة الانسانية، وكل قصر مـــن تلك القصور عبارة عن انسان، أما أهلُ القصر فهم جوارحُ الانسان كالعين والاذن، ولطائفُه كالقلب والسر والروح، ونوازعُه كالهوى والقوة الشهوانية والغضبية. وكلٌّ لطيفةٍ من تلـــك اللطائف معدّةٌ لأداءِ وظيفةِ عبوديةٍ معينة ولها لذائذُها وآلامُها، أما النفس والهـــوى والقـــوة الشهوانية والغضبية فهي بحكم البوّاب وبمثابة الكلب الحارس. فإخضاع تلك اللطائف السامية اذن لأوامر النفس والهوى وطمس وظائفها الاصلية لا شك يعتبر سقوطاً وانحطاطاً وليس ترقياً وصعوداً.. وقس أنت سائر الجهات عليها.

m النكتة الثالثة

ان الانسان من جهة الفعل والعمل وعلى اساس السعي المادي حيوانٌ ضعيفٌ ومخلـــوق عاجز، دائرة تصرفاته وتملكه في هذه الجهة محدودةٌ وضيقةٌ، فهي على مدّ يده القصيرة، حتى ان الحيوانات الأليفة التي أعطي زمامُها بيد الانسان قد تسرّبتْ اليها من ضـــعف الانســـان وعجزِه وكَسَله حصة كبيرة. فاذا ما قيس مثلاً الغنم والبقر الأهلي بالغنم والبقـــر الوحشـــي لظَهر فرقٌ هائلٌ وبونٌ شاسعٌ.

الاّ ان الانسان من جهة الانفعال والقبول والدعاء والسؤال ضيفٌ عزيزٌ كـــريمٌ في دار ضيافة الدنيا، قد استضافه المولى الكريمُ ضيافةً كريمةً حتى فتح له خزائن رحمته الواسعة وسخرّ له خَدَمه ومصنوعاته البديعة غير المحدودة، وهيأ لتنزهه واستجمامه ومنافعه دائـــرةً عظيمـــة واسعة جداً، نصفُ قطرها مدُّ البصر بل مدُّ انبساط الخيال.

فإذا استند الانسان الى أنانيته وغروره واتخذ الحياة الدنيا غاية آماله، وكان جهدُه وكدُّه لأجل الحصول على لذاتٍ عاجلةٍ في سعيه وراء معيشته. فسوف يغـــرق في دائـــرة ضـــيقة

ويذهب سعيه ادراجَ الرياح، وستشهد عليه يوم الحشر جميعُ الاجهزة والجوارح واللطائف التي أُودعت فيه شاكيةً ضده، ساخطةً ثائرة عليه. أما إذا أدرك انه ضيفٌ عزيز، وتحـرك ضـمن دائرة مرضاة مَنْ نَزَل عليه ضيفاً وهو الكريمُ ذو الجلال، وصرَفَ رأسمال عمره ضمن الدائرة المشروعة فسوف يكون نشاطه وعمله ضمن دائرة فسيحة رحبة جداً تمتد الى الحياة الأبديـة الخالدة، وسيعيش سالماً آمناً مطمئناً، ويتنفس تنفس الصعداء ويستروح، وبإمكانِه الصـعودُ والرقي الى أعلى عليين. وستشهد له في الآخرة ما منحه الله من الاجهزة والجوارح واللطائف.

نعم، ان الاجهزة التي زُرعت في الانسان ليست لهذه الحياة الدنيا التافهة، وانما أُنعم عليه بها لحياةٍ باقية دائمة، لها شأنها وأيُّ شأن. ذلك لأننا إذا قارنّا بين الانسان والحيوان نـرى ان الانسان أغنى من الحيوان بكثير من حيث الأجهزة والآلات، بمائة مرة، ولكنه من حيث لذّته وتمتّعه بالحياة الدنيا أفقرُ منه بمائة درجة، لأن الانسان يجد في كل لذةٍ يلتذّ بها ويتذوقها آثـارَ آلاف من الآلامِ والمنغّصات. فهناك آلامُ الماضي، وغصصُ الزمن الخالي، ومخاوفُ المسـتقبل، وأوهامُ الزمان الآتي، وهناك الآلامُ الناتجة من زوال اللذات. كلُّ ذلك يُفسد عليـه مزاجَـه وأذواقَه ويكدّر عليه صفوَه ونشوتَه، حيث تترك كلُّ لذةٍ أثراً للألم. بينمـا الحيـوانُ لـيس كذلك، فهو يتلذّذُ دون ألمٍ، ويتذوق الاشياء صافيةً دون تكدّرٍ وتعكر، فلا تعذّبه آلامُ الماضي ولا ترهبهُ مخاوفُ المستقبل، فيعيش مرتاحاً ويغفو هانئاً شاكراً خالقَه،حامداً له.

اذن فالانسان الذي خُلق في »أحسن تقويم« إذا حَصَر فكرَه في الحياة الدنيا وحـدَها فسيهبط ويتّضع ويصبح أقل شأناً بمائة درجة من حيوان كالعصفور وان كان أسمى وأتم مـن الحيوان من حيث رأسماله بمائة درجة. ولقد وضّحتُ هذه الحقيقة بمَثَلٍ أوردتُه في موضع آخر وسأعيدُه هنا بالمناسبة:

ان رجلاً منح خادَمه عشرَ ليراتٍ ذهبية وأمره أن يفصّل لنفسه بدلةً من أجود أنـواع الأقمشة. وأعطى لخادمه الآخر ألفَ ليرة ذهبية الاّ انه أرفق بالمبلغ قائمة صغيرة فيها ما يطلبُه منه، ووضع المبلغَ والقائمةَ في جيب الخادم. وبعثهما الى السوق. اشترى الخادم الأول بدلـةً أنيقة كاملة من أفخر الأقمشة البديعة بعشر ليرات. أما الخادمُ الثاني فقد قلّـد الخـادم الأول وحذا حذوه، ومن حماقته وسخافة عقله لم يراجع القائمة الموجودة لديه، فدفع لصاحب محلٍ

كلَّ ما عنده ألفَ ليرة. وطلب منه بدلةً رجاليةً كاملة، ولكن البائع غيرَ المُنصف اختار له بدلةً من أردأ الأنواع، وعندما قفل هذا الخادمُ الشقيُ راجعاً الى سيّده، ووقف بين يديــه، عنَّفــه سيدُه أشدَّ التعنيف وأنّبه أقسى التأنيب وعذَّبه عذاباً أليماً.

فالذي يملك أدنى شعورٍ وأقلَّ فطنةٍ يدرك مباشرةً بأن الخادم الثاني الذي مُنح ألف ليرة لم يُرسَل الى السوق لشراء بدلة، وانما للأتّجار في تجارة مهمة جداً.

فكذلك الانسان الذي وُهب له هذه الاجهزةُ المعنوية واللطائف الانسانية التي إذا مـــا قيست كلٌّ واحدةٍ منها بما في الحيوان لظهرتْ انها أكثرُ انبساطاً واكثرُ مدى بمائة مرّة. فمثلاً: أين عينُ الانسان التي تميّز جميعَ مراتب الحسن والجمال؟ وأين حاستُه الذوقية التي تميّـــز بـــين مختلف المطعومات بلذائذها الخاصة؟ وأين عقلُه الذي ينفـــذ الى قـــرارة الحقـــائق والى أدق تفاصيلها؟ وأين قلبُه المشتاق المتلهّف الى جميع انواع الكمال؟ أين كل هذه الأجهزة وأمثالها مما في الآلات الحيوانية البسيطة التي قد لا تنكشف الاّ لحد مرتبتين اوثـــلاث!! فيمـــا عـــدا الاعمال الخاصة المناطة بجهاز خاص في حيوان معين، والذي يؤدي عمله بشكل قد يفضل ما عند الانسان الذي ليس من مهمته مثل هذه الاعمال والوظائف.

والسرُّ في وَفْرَةِ الأجهزة التي مُنحت للانسان وغِناها هو: ان حواسَّ الانسان ومشاعره قد اكتسبت قوةً ونماءً وانكشافاً وانبساطاً اكثر؛ لما يملك من الفكر والعقل، فقد تبايَن كـــثيراً مدى استقطاب حواسه،نظراً لتباين وكثرة احتياجاته. لذا تنوعـــت أحاسيُســـه وتعـــددت مشاعرُه.. ولأنه يملك فطرةً جامعةً فقد أصبح محوراً لآمالٍ ورغباتٍ عدة ومداراً للتوجّـــه الى مقاصدَ شتّى.. ونظراً لكثرة وظائفه الفطرية فقد انفرجت اجهزتُه وتوسّعت.. وبسبب فطرته البديعة المهيأة لشتى انواع العبادة فقد مُنح استعداداً جامعاً لبذور الكمال؛ لـــذا لا يمكـــن ان تُمنح له هذه الأجهزة الوفيرة الى هذه الدرجة الكثيفة لتحصيل هذه الحياة الدنيويـــة المؤقتـــة الفانية فحسب، بل لابد أن الغايةَ القصوى لهذا الانسان هي أن يفي بوظائفـــه المتطلعـــة الى مقاصدَ لا نهاية لها، وأن يعلن عجزَه وفقره بجنب الله تعالى بعبوديته، وان يرى بنظره الواســـع تسبيحات الموجودات، فيشهد على ذلك ويطّلع على ماتمدّه الرحمة الإلهية مـــن إنعـــام وآلاء

فيشكر الله عليها، وأن يعاين معجزات القدرة الربانية في هذه المصنوعات فيتفكر فيها ويتأمل وينظر اليها نظر العبرة والاعجاب.

فيا عابدَ الدنيا وعاشقَ الحياة الفانية الغافلَ عن سر »أحسَنِ تقويم«! استمع الى هـــذه الواقعة الخيالية التي تتمثل فيها حقيقةُ حياةِ الدنيا. تلك الواقعة التمثيلية التي رآهـــا »ســـعيد القديم« فحوّلته الى »سعيد الجديد« وهي:

رأيتُ نفسي كأني أسافر في طريقٍ طويل، أي اُرسَل الى مكانٍ بعيد، وكان سيدي قـــد خصّص لي مقدارَ ستين ليرة ذهبية يمنحني منها كلَّ يومٍ شيئاً، حتى دخلتُ الى فندقٍ فيه ملهى فطفقتُ أبذّر ما أملك - وهي عشرُ ليرات - في ليلةٍ واحدة على مائدة القمار والســـهر في سبيل الشهرة والاعجاب. فاصبحتُ وأنا صفر اليدين لم أتجّر بشيء، ولم آخـــذ شـــيئاً ممـــا سأحتاج اليه في المكان الذي أقصده، فلم أوفّر لنفسي سوى الآلام والخطايا التي ترسبتْ من لذات غير مشروعة، وسوى الجروح والغصّات والآهات التي ترشحت من تلك الســـفاهات والسفالات.. وبينما أنا في هذه الحالة الكئيبة الحزينة البائسة اذ تمثّل أمامي رجلٌ. فقال:

- »أنفقَت جميع رأسمالك سدىً، وصرتَ مستحقاً للعقاب، وستذهب الى البلد الذي تريدُه خاويَ اليدين. فان كنتَ فطناً وذا بصيرة فبـــابُ التوبـــة مفتـــوحٌ لم يغلـــق بعـــدُ. فبإمكـــــانـــــك ان تدّخر نصـــــــف ما تحـــــصـــل علـــــيه، مما بقي لـــك مـــن الـــلــــيرات الخمس عشرة لتشتري بعضاً مما تحتاج اليه في ذلك المكـــان..« فاستشـــرتُ نفسي فاذا هي غير راضية بذلك، فقال الرجل:

- »فادّخر اذن ثُلُثَه«. ولكن وجدتُ نفسي غير راضية بهذا ايضاً. فقال:

- »فادّخر ربُعَهَ«. فرأيتُ نفسي لا تريد أن تَدَع العادةَ التي اُبتلَيت بها. فأدار الرجـــلُ رأسه وأدبر في حدّة وغيظ ومضى في طريقه. ثم رأيتُ كأن الأمور قد تغيّرت. فرأيت نفسي في قطار ينطلق منحدراً بسرعة فائقة في داخل نفق تحت الارض، فاضطربت مـــن دهشـــتي، ولكن لا مناص لي حيث لا يمكنني الذهابُ يميناً ولا شمالاً. ومن الغريب أنه كانت تبدو على طرفَي القطار أزهارٌ جميلة جذابة وثمارٌ لذيذة متنوعة فمددتُ يدي - كالاغبيـــاء - نحوَهـــا اُحاول قطفَ أزهارها واحصل على ثمراتها، الاّ انها كانت بعيدةَ المنال، الأشواكُ فيها انغرزتْ

في يدي بمجرد ملامستها فأدْمَتها وجرحَتها والقطارُ كان ماضياً بسرعة فائقة فآذيتُ نفسي من دون فائدة تعود عليّ. فقال أحد موظفي القطار: »اعطني خمسة قروش لأنتقيَ لك الكميةَ المناسبة التي تريدُها من تلك الأزهار والأثمار، فانك تخسر بجروحك هذه اضعافَ اضعافِ ما تحصل عليه بخمسة قروش فضلاً عن ان هناك عقاباً على صنيعك هذا، حيث أنك تقطفها من غير إذن.« فاشتدّ عليّ الكربُ في تلك الحالة فنظرت اتطلّع من النافذة الى الامام لأتعرّف نهايةَ النفق، فرأيت أن هناك نوافذَ كثيرةً وثغوراً عدة قد أحلّت محلَّ نهاية النفق وأن مسافري القطار يُقذَفون خارجاً من القطار الى تلك الثغور والحفر، ورأيت أن ثغراً يقابلني أنا بالذات اُقيمَ على طرفيه حجرٌ اشبهُ ما يكونُ بشواهدِ القبر، فنظرت اليها بكل دقة وامعان فرأيتُ أنه قد كُتب عليهما بحروفٍ كبيرة اسم »سعيد« فصرختُ من فرقي وحيرتي: يا ويلاه!! وآنذاك سمعتُ صوت ذلك الرجل الذي أطال عليّ النصح في باب الملهى وهو يقول:

- »هل استرجعتَ عقلك يا بني وأفقتَ من سكرتك؟« فقلت:

- »نعم ولكن بعد فوات الاوان، بعد أن خارتْ قواي و لم يبقَ لي حولٌ ولا قوة«.

فقال:

- »تُب وتوكّل« فقلت:

- »قد فعلت«.

ثم أفقتُ وقد أختفى سعيدٌ القديم ورأيتُ نفسي سعيداً جديداً.

ونرجو من الله أن يجعل هذه الواقعة الخيالية خيراً. وسأفسر قسماً منها وعليك تفسير الباقي وهو:

ان ذلك السفر هو السفرُ الذي يمرُّ من عالَم الأرواح، ومن أطوار عالم الرَّحم، ومن الشباب، ومن الشيخوخة، ومن القبر، ومن البرزخ، الى الحشر والى الصراط والى أبد الآباد.

وتلك الليرات الذهبية البالغة ستين هي العمر البالغ ستين عاماً. وحينما رأيت تلك الواقعة الخيالية كنت في الخامسة والأربعين من العمر حسب ظني، ولم يكن لي سندٌ ولا حجةٌ من أن أعيش الى الستين من العمر، إلاّ أنه أرشدني أحدُ تلاميذ القرآن المخلصين أن اُنفق نصفَ ما بقي من العمر الغالب – وهو خمسة عشر عاماً – في سبيل الآخرة.

وذلك الفندق هو مدينةُ استانبول بالنسبة اليّ.

وذلك القطار هو الزمن، وكلٌّ عامٍ بمنزلة عربة منه.. وذلك النفقُ هو الحيـاة الـدنيا.. وتلك الأزهارُ والثمار الشائكة هي اللذات غير المشروعة واللهو المحظور حيث أن الألَمَ الناشئ من تصوّر زوالها يُدمي القلبَ ويَجرح النفسَ فيقاسي الانسان من توقّع فراقِها مرارةَ العذاب. وان معنى ما قاله الخادم في القطار: »اعطني خمسة قروش اعطك من أحسن ما تحتاجه« هو: ان اللذات والأذواقَ التي يحصل عليها الانسانُ عن طريق السعي الحـلال ضـمن الـدائرة المشروعة كافيةٌ لسعادته وهنائه وراحته فلا يدع مجالاً للدخول في الحرام.. ويمكنك ان تفسّر ما بقي.

mالنكتة الرابعة

ان الانسان في هذا الكون أشبَه ما يكون بالطفل الضعيف المحبوب يحمل في ضعفِه قوةً كبيرةً وفي عجزه قدرةً عظيمة؛ لأنه بقوة ذلك الضعفِ وقدرةِ ذلك العجـز سُـخِّرت لـه هـذه الموجـوداتُ وانقـادت. فإذا ما أدرك الانسـانُ ضعفَه ودعـا ربَّـه قولاً وحالاً وطـوراً، وأدرك عجزَه فاستـنجد واسـتغاث ربَّه، وادّى الشـكرَ والثناءَ على ذلك التسخير، فسيوفّق الى مطلوبه وستخضع له مقـاصدُه وتتحـقـق مآربُه وتأتي اليه طائعةً منقادةً مع أنه يعجز عن أن ينال بقدرته الذاتية الجزئية المحدودة بل ولا يتسنّى له عُشر معشار ذلك. الاّ انه يحيل خطأً أحياناً ما ناله بدعاء لسان الحـال الى قدرتـه الذاتية. وعلى سبيل المثال: ان القوة الكامنة في ضعف فرخ الدجاج تجعل أمَّه تدفع عنه الأسدَ بما تملك من قوة. وان القوة الكامنة في ضعف شبل الأسد تسخِّر أمَّه المفترسة الضارية لنفسه، بحيث يبقى الأسدُ يتضوَّرُ من الجوع بينما يشبع هو مع صِغَره وضَعفه. وانه لجدير بالملاحظة؛ القوةُ الهائلةُ في الضعف، بل حريٌّ بالمشاهدة والاعجاب: تجلي الرحمة في ذلك الضعف.

وكما ان الطفل المحبوبَ الرقيقَ يحصل بضعفه على شفقة الآخرين، وببكائه على مطالبه، فيَخضع له الأقوياءُ والسلاطين فينال ما لا يمكنه أن ينال واحداً من الألف منه بقوته الضئيلة. فضعفُه وعجزُه اذن هما اللذان يحرّكان ويثيران الشفقة والحماية بحقه حتى إنه يذلّل بسـبابته الصغيرة الكبارَ وينقاد اليه الملوكُ والأمراءُ. فلو أنكر ذلك الطفلُ تلك الشفقةَ واتّهم تلـك

الحمايةَ وقال بحماقة وغرور: »أنا الذي سخرتُ كل هؤلاء الأقوياء بقوتي وارادتي«! فلاشك انه يستحق أن يقابَلَ باللطمة والصفعة. وكذلك الانسانُ اذا أنكر رحمةَ خالقه وأهم حكمتَه وقال مثل ما قال قارون جاحداً النعمة.(إنّما أُوتيتُهُ على عِلمٍ عندي) (القصص: 78) فلاشك انه يعرِّض نفسَه للعذاب. فهذه المترلة والسلطنة التي يتمتع بها الانسانُ اذن وهذه الترقيـــات البشرية والآفاق الحضارية ليست ناشئة من تفّوقه وقوةِ جداله وهيمنةِ غلبته ولا هو بجالب لها، بل مُنحت للانسان لضَعفه ومُدّت له يدُ المعاونة لعجزه، وأُحسنتُ اليه لفقره، وأُكـــرم بهـــا لإحتياجه. وأن سبب تلك السلطنةِ ليس بما يملك من قوةٍ ولا بما يقدِرُ عليه من علمٍ بل هـــو الشفقةُ الربانيةُ ورأفتُها والرحمةُ الإلهية وحكمتُها التي سَخَّرت له الأشياءَ وسلَّمتْها اليه. نعم ان الانسان المغلوبَ أمام عقرب بلا عيون وحية بلا ارجل ليست قدرتُه هي التي ألبَستْه الحريـــرَ من دودة صغيرة واطعمته العسلَ من حشرة سامة، وانما ذلك ثمرةُ ضعفه الناتجة من التســـخير الرباني والإكرام الرحماني.

فيا أيها الانسان! ما دامت الحقيقة هكذا فدع عنك الغرورَ والأنانية، وأعلن أمامَ عتبة باب الألوهية عجزَك وضعفَك، اعلنهما بلسان الإستمداد، وأفصِح عن فقرك وحاجتك بلسان التضرع والدعاء، وأظهِر بانك عبدٌ لله خالص قائلاً:

»حَسْبُنا الله ونِعَم الوكيلُ« فارتفعْ وارتقِ في مدارج العلا.

ولا تقل: »أنا لست بشئ وما أهميتي حتى يُسخرَّ لي هذا الكون من لدن الحكيم العليم عن قصد وعناية وحتى يطلب مني الشكر الكلي«.

ذلك وان كنتَ بحسب نفسِك وصورتِك الظاهرية في حكم المعدم، إلاّ انك بحســـب وظيفتك ومترلتك مُشاهدٌ فَطِنٌ، ومتفرجٌ ذكي على الكائنات العظيمة. وانك اللسانُ الناطق البليغ ينطق باسم هذه الموجودات الحكيمة.. وانك القارئ الداهي والمطالعُ النبيه لكتاب العالم هذا.. وانك المشرف المتفكر في هذه المخلوقات المسبّحة.. وانك بحكم الاستاذ الخبير والمعمار الكريم لهذه المصنوعات العابدة الساجدة.

نعم ايها الانسان! انك من جهة جسمِك النباتي ونفسِك الحيوانية جزءٌ صغير وجزئـــيٌ حقيرٌ ومخلوقٌ فقير وحيوانٌ ضعيف تخوض في الأمواج الهادرة لهـــذه الموجـــودات المتزاحمـــة

المدهشة. إلاّ أنك من حيث انسانيتك المتكاملة بالتربية الاسلامية المنوَّرة بنور الايمان المتضمن لضياء المحبة الإلهية سلطانٌ في هذه العبدية.. وانك كليٌ في جزئيتك.. وانك عالمٌ واســـع في صغرك.. ولك المقامُ السامي مع حقارتك فانت المشرفُ ذو البصيرة النيرّة على هذه الـــدائرة الفسيحة المنظورة، حتى يمكنك القول: »ان ربيَ الرحيمَ قد جعلَ لي الدنيا مأوىً ومســـكناً، وجعل لي الشمس والقمر سراجاً ونوراً، وجعل لي الربيعَ باقةَ وردٍ زاهية، وجعلَ لي الصيفَ مائدةَ نعمةٍ، وجعل لي الحيوانَ خادماً ذليلاً، وأخيراً جعل لي النباتَ زينةً واثاثاً وبهجة لداري ومسكني«.

وخلاصة القول:

انك اذا ألقيتَ السمعَ الى النفس والشيطان فستسقط الى أسفل سافلين واذا أصغيتَ الى الحق والقرآن فسترتقي الى أعلى عليين وكنتَ »أحسن تقويم« في هذا الكون.

mالنكتة الخامسة:

ان الانسان أُرسل الى الدنيا ضيفاً وموظفاً ووُهبتْ له مواهبٌ واستعدادات مهمة جداً، وعلى هذا اسُندت اليه وظائفٌ جليلة. ولكي يقوم الانسانُ باعماله وليكدّ ويســـعى لتلـــك الغايات والوظائف العظيمة فقد رُغِّب ورُهَّب لإنجاز عمله.

سنجمل هنا الوظائف الانسانية وأساسات العبودية التي أوضحناها في موضـــع آخـــر، وذلك لفهم وادراك سر »أحسن تقويم« فنقول:

ان الانسان بعد مجيئه الى هذا العالم له عبوديةٌ من ناحيتين:

الناحية الاولى: عبوديةٌ وتفكرٌ بصورة غيابية.

الناحية الثانية: عبوديةٌ ومناجاةٌ بصورة مخاطبة حاضرة.

الناحية الاولى هي:

تصديقُه بالطاعة لسلطان الربوبية الظاهر في الكون والنظرُ الى كماله سبحانه ومحاســـنه باعجاب وتعظيم.

ثم استنباط العبرة والدروس من بدائع نقوش اسمائه الحسنى القدسية وإعلانها ونشـــرها واشاعتها.

ثم وزنُ جواهر الاسماء الربانية ودررها - كلٌّ واحدٍ منها خزينة معنوية خفية - بميزان الإدراك والتبصّر وتقييمها بانوار التقدير والعظمة والرحمة النابعة من القلب.

ثم التفكر بإعجاب عند مطالعة أوراق الأرض والسماء وصحائف الموجودات التي هي بمثابة كتابات قلم القدرة.

ثم النظرُ باستحسان بالغ الى زينة الموجودات والصنائع الجميلة اللطيفة التي فيها والتحببُ لمعرفة الفاطر ذي الجمال والتلهّفُ الى الصعود الى مقام حضورٍ عند الصانع ذى الكمال ونيل التفاته الرباني.

الناحية الثانية هي:

مقامُ الحضور والخطاب الذي ينفذ من الأثر الى المؤثر، فيرى أن صانعاً جليلاً يريد تعريف نفسه اليه بمعجزات صنعته. فيقابله هو بالايمان والمعرفة.

ثم يرى أن ربّاً رحيماً يريد أن يحبب نفسه اليه بالأثمار الحلوة اللذيذة لرحمته، فيقابله هو بجعل نفسه محبوباً عنده بالمحبة الخالصة والتعبد الخالص لوجهه.

ثم يرى: أن مُنعماً كريماً يغرقه في لذائذ نِعَمه المادية والمعنوية، فيقابله هو بفعله وحاله وقوله بكل حواسه وأجهزته - ان استطاع - بالشكر والحمد والثناء عليه.

ثم يرى: أن جليلاً جميلاً يُظهر في مرآة هذه الموجودات كبرياءَه وعظمتَه وكمالَه ويُبرز جلالَه وجمالَه فيها بحيث يجلب اليها الأنظار فيقابل هو ذلك كله: بترديد »الله اكبر.. سبحان الله..« ويسجد سجودَ مَن لا يمل بكل حيرة واعجاب وبمحبة ذائبة في الفناء.

ثم يرى: ان غنياً مطلقاً يعرض خزائنه وثروتَه الهائلة التي لا تنضب في سخاء مطلق، فيقابله هو بالسؤال والطلب بكمال الافتقار في تعظيم وثناء.

ثم يرى: ان ذلك الفاطرَ الجليل قد جعل الأرض معرضاً عجيباً لعرض جميع الصنائع الغريبة النادرة فيقابل هو ذلك بقوله »ما شاء الله« مستحسناً لها، وبقوله »بارك الله« مقدراً لها، وبقوله »سبحان الله« معجباً بها، وبقوله »الله اكبر« تعظيماً لخالقها.

ثم يرى: أن واحداً يختم على الموجودات كلها ختمَ التوحيد وسكّته التي لا تقلد وطغراءَه الخاصة به، وينقش عليها آيات التوحيد، وينصبُ رايةَ التوحيد في آفاق العالم معلناً ربوبيتَه، فيقابله هو بالتصديق والايمان والتوحيد والاذعان والشهادة والعبودية.

فالانسان بمثل هذه العبادة والتفكر يصبح انساناً حقاً ويُظهر نفسه أنه في »أحسن تقويم« فيصير بيُمن الايمان وبركته لائقاً للأمانة الكبرى وخليفة أميناً على الأرض.

فيا أيها الانسان الغافلُ المخلوقُ في »أحسَن تقويم« والذي ينحدر أسفلَ سافلين لسوء اختياره ونزقه وطيشه. اسمعني جيداً وانظر الى اللوحتين المكتوبتين في المقام الثاني من »الكلمة السابعة عشرة« حتى ترى أنت ايضاً كيف كنتُ أرى الدنيا مثلَك حلوةً خضرة عندما كنتُ في غفلة الشباب وسُكره. ولكن لما أفقتُ من سكر الشباب وصحوتُ منه بصبحِ المشيب رأيت أن وجهَ الدنيا غير المتوجه الى الآخرة والذي كنتُ اعدُّه جميلاً رأيته وجهاً قبيحاً. وان وجه الدنيا المتوجه الى الآخرة حسن جميل.

فاللوحة الأولى:

تصوّر دنيا أهل الغفلة. فقد رأيتها من دون أن اسكر فيها شبيهة بدنيا اهل الضلالة الذين اَطبقت عليهم حجب الغفلة.

اللوحة الثانية:

تشير الى حقيقة أهل الهداية وذوى القلوب المطمئنة.

فلم ابدل شيئاً من تلكما اللوحتين بل تركتهما كما كانتا من قبل، وهما وان كانتا تشبهان الشعر الاّ انهما ليسا بشعر.

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

(ربّ اشرح لي صدري_ ويسر لي امري_

واحلل عقدةً من لساني_ يفقهوا قولي)

اللّهم صلِّ على الذات المحمدية اللطيفة الأحدية شمسِ سماء الأسرار، ومَظهرِ الأنوار، ومركز مدار الجلال، وقطبِ فلكِ الجمال.

اللّهم بسرّه لديك، وبسيره إليكِ، آمِنْ خوفي، واَقِل عَثرتي، واَذهِب حُزني وحرصـــي، وكُن لي، وخذني إليك مني، وارزقني الفناءَ عني، ولا تجعلني مفتوناً بنفسي محجوبـــاً بحســـي، واكشف لي عن كل سرّ مكتوم.

ياحي يا قيوم، يا حي يا قيوم، يا حي يا قيوم.

وارحمني وارحم رفقائي وارحم اهلَ الايمان والقرآن.

آمين آمين يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين.

(وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين)

أعرف صديقاً عزيزاً كان قد عقد مع "النورسي" من خلال رسائله –رسائل النـــور– صداقة متينة، واتخذه صاحباً ومشيراً، فإذا حَزَبَهُ أَمرٌ من أمور دنيـــاه أو آخرتـــه، هُـــرِعَ إلى "الرسائل" يُقَلِّبُ نظره في صفحاتها، وهو يهمس في نفسه: ما تقول يـــا صـــديقي في هـــذا الإشكال، وكيف تراه..؟ أَمِنْ حَلٍّ له عندك..؟ ويظلُّ يجري بين الأسطر والصفحات حـــتى يلتقي الجواب، ويقع على الحَلِّ فيأنس ويطمئن.

الكلمة الرابعة والعشرون

[هذه الكلمة عبارة عن خمسة اغصان. لاحظ بامعان الغصن الرابع واستمسك بالغصن الخامس واصعد لتقطف ثماره]

بسم الله الرحمن الرحيم

(الله لا إله الاهو له الاسماء الحسنى)(طه:8)

نشير الى خمسة اغصان لحقيقة واحدة من الحقائق الكبرى الجليلة لهذه الآية الكريمة.

الغصن الأول

ان للسلطان عناوين مختلفة في دوائر حكومته، واوصافاً متباينة ضمن طبقات رعايـــاه، واسماءً وعلاماتٍ متنوعة في مراتب سلطنته. فمثلاً: له اسم الحاكم العادل في دوائر العـــدل، وعنوان السلطان في الدوائر المدنية، بينما له اسم القائد العام في الدوائر العســـكرية وعنـــوان الخليفة في الدوائر الشرعية.. وهكذا له سائر الاسماء والعناوين.. فله في كل دائرة من دوائـــر دولته مقام وكرسي بمثابة عرش معنوي له؛ وعليه يمكن ان يكون ذلك السلطان الفرد مالكـــاً لألف اسم واسم في دوائر تلك السلطنة وفي مراتب طبقات الحكومة؛ اي يمكن ان يكون له الف عرش وعرش من العروش المتداخل بعضها في بعض حتى كأن ذلك الحـــاكم موجـــود وحاضر في كل دائرة من دوائر دولته.. ويعلم ما يجري فيها بشخصـــيته المعنويـــة، وهاتفـــه الخاص. ويُشاهد ويَشْهَد في كل طبقة من الطبقات بقانونه ونظامه وبممثليه.. ويراقب ويدير من وراء الحجاب كلَّ مرتبة من المراتب بحكمته وبعلمه وبقوته.. فلكل دائرة مركزٌ يخصّـــها وموقعٌ خاص بها، أحكامُه مختلفة، طبقاتُه متغايرة.

وهكذا فإن رب العالمين وهو سلطان الأزل والابد له ضمن مراتب ربوبيته شؤون وعناوين مختلفة، لكن يتناظر بعضها مع بعض.. وله ضمن دوائر الوهيته علامات واسماء متغايرة، لكن يُشاهد بعضها في بعضٍ.. وله ضمن اجراءاته العظيمة تجليات وجلوات متباينة، لكن يشابه بعضها بعضاً.. وله ضمن تصرفات قدرته عناوين متنوعة، لكن يُشعر بعضها ببعض.. وله ضمن تجليات صفاته مظاهر مقدسة متفاوتة، لكن يُظهر بعضُها بعضاً.. وله ضمن تجليات افعاله تصرفات متباينة، لكن تكمّل الواحدة الاخرى.. وله ضمن صنعته ومصنوعاته ربوبية مهيبة متغايرة لكن تلحظ احداها الاخرى.

ومع هذا يتجلى عنوان من عناوين اسمٍ من الاسماء الحسنى، في كل عالمٍ من عوالم الكون وفي كل طائفة من طوائفه. ويكون ذلك الاسم حاكماً مهيمناً في تلك الدائرة، وبقية الاسماء تابعة له هناك، بل مندرجة فيه.

ثم ان ذلك الاسم له تجلٍ خاص وربوبية خاصة في كل طبقات المخلوقات، صغيرة كانت أو كبيرة، قليلة كانت او كثيرة، خاصة كانت أو عامة. بمعنى أن ذلك الاسم وان كان محيطاً بكل شئ وعاماً، الاّ انه متوجه بقصدٍ وبأهمية بالغة الى شئٍ ما، حتى كأن ذلك الاسمَ متوجه فقط وبالذات الى ذلك الشئ، وكأنه خاص بذلك الشئ.

زد على ذلك فان الخالق الجليل قريب الى كل شئ مع ان له سبعين الف حجاب من الحُجب النورانية. ويمكنك ان تقيس ذلك – مثلاً – من الحُجب الموجودة في مراتب اسم الخالق، ابتداءً من تجلي اسم الخالق لك – تلك المرتبة الجزئية المتعلقة بالمخلوقية في اسم الخالق – وانتهاء الى المرتبة الكبرى لخالق العالمين جميعاً، ذلك العنوان الاعظم. بمعنى انك تستطيع ان تبلغ نهاية تجليات اسم الخالق وتدخل اليها من باب المخلوقية، بشرط ان تدع الكائنات وراءك، وعندئذٍ تتقرب الى دائرة الصفات.

ولوجود المنافذ في الحجب، والتناظر في الشؤون، والتعاكس في الاسماء، والتداخل في التمثّلات، والتمازج في العناوين، والتشابه في الظهور، والتساند في التصرفات، والتعاضد في الربوبيات، لزم البتة لمن عرفه سبحانه في واحد مما مر من الاسماء والعناوين والربوبية الاّ ينكر

سائر الاسماء والعناوين والشؤون، بل يفهم بداهة انه هو هو. وإلاّ يتضرر إن ظل محجوباً عن تجليات الاسماء الاخرى و لم ينتقل من تجلي اسمٍ الى آخر.

فمثلاً: اذا رأى أثر اسمِ الخالق القدير، و لم ير اثر اسم العليم، يسقط في ضلالة الطبيعة، لذا عليه ان يجول بنظره فيما حوله ويرى أن الله هو هو، ويشاهد تجليه في كـــل شـــئ. وان تسمع اذنه من كل شئ: (قل هو الله احد) وينصت اليه. وان يردد لسانه دائماً: لا إله الاّ الله ويعلن (لآ اِلَه اِلاّ هُو بَرَابَرْ ميزَنَدْ عَالَمْ). وهكذا يشير القرآن الكريم بهذه الآية الكريمة (الله لا إله الاّ هو له الاسماء الحسنى) الى الحقائق التي ذكرناها.

فان كنت تريد ان تشاهد تلك الحقائق الرفيعة عن قرب، فاذهب الى بحرٍ هـــائج، والى ارضٍ مهتزة بالزلازل، وأسألهما: ما تقولان؟ ستسمع حتماً انهما يناديان: يـــا جليـــل.. يـــا جليل.. يا عزيز.. يا جبار...

ثم اذهب الى الفراخ والصغار من الحيوانات، التي تعيش في البحر أو على الارض، والتي تُربى في منتهى الشفقة والرحمة، وأسألها: ما تقولين؟ لابد أنها تترنم: يا جميل .. يا جميل.. يـــا رحيم.. يا رحيم.[110]

[110] حتى انني لاحظت القطط وتأملت فيها، فرأيت أنها بعدما اكلت ولعبت، نامت. فورد الى ذهني سؤال: لِمَ يُطلق على هذه الحيوانات الشبيهة بالمفترسة، حيوانات مباركة طيبة؟ ثم في الليل اضطجعت لأنام واذا بقطة من تلك القطط جاءت واستندت الى مخدتي وقرّبت فمها الى اذني، وذكرت الله ذكراً صريحاً باسم: »يارحيم .. يا رحيم ..يا رحيم« وكأنها ردّت ما ورد من الاعتراض والاهانة باسم طائفتها. فورد الى عقلي: تُرى هل ان هذا الذكر خاص بهذه القطة فقط أم بطائفة القطط عامة؟ وان استماع ذكرها، هل هو خاص بي ومنحصر لمعترض بغير حق مثلي أم ان كل انسان يستطيع الاستماع - الى حد - لو أعار سمعه اليها؟ وفي الصباح بدأتُ انصت الى القطط الاخرى، كانت تكرر الذكر نفسه بدرجات متفاوتة وان لم يكن صريحاً مثل الأولى. اذ في بداية هريرها لا يتميز هذا الذكر ثم يمكن تمييز: يا رحيم .. يا رحيم.. في الهرير، ثم يتحول هريرها كله الى: يا رحيم نفسه. فتذكرالله ذكراً حزيناً فصيحاً دون اخراج للحروف حيث تسد فمها وتذكرالله ذكراً لطيفاً بـــــ : يا رحيم.

ثم انصت الى السماء كيف تنادي: يا جــليــل ذو الجمال! واعر سمعــك الى الارض كـــيـــف تردد: يـــا جمـــيــل ذو الـــجـــلال. وتصـــنّت للحــــيوانات كيـــف تقـــول: يا رحمن يا رزاق. واسأل الربيع، فستسمع منـــه: يا حـــنان يا رحمـــن يا رحـــيم يا كريم يا لطيف يا عطوف يا مصوّر يا منوّر يـــا محـــسن يا مزيّن.. وامثالـــها من الاسماء الكثيرة.

واسأل انساناً هو حقاً انسان وشاهد كيف يقرأ جميع الاسماء الحسنى، فهي مكتوبةٌ على جبهته، حتى اذا انعمت النظر ستقرؤها انت بنفسك.

وكأن الكون كله موسيقى متناغمة الالحان لذكر عظيم. فامتزاج اصغر نغمة واوطئها مع اعظم نغمة واعلاها ينتج لحناً لطيفاً مهيباً.. وقس على ذلك..

غير ان الانسان مهما كان مظهراً لجميع الاسماء الحسنى الاّ ان تنوع الاسماء الحســـنى اصبح سبباً لتنوع الانسان - الى حدٍ ما - كما هو الحال في تنوع الكائنات واختلاف عبادة الملائكة، بل قد نشأت من هذا التنوع شرائع الانبياء المختلفة وطرائـــق الاوليـــاء المتفاوتـــة ومشارب الاصفياء المتنوعة.

فمثلاً: ان الغالب في سيدنا عيسى عليه السلام هو تجلي اسم (القدير) مـــع الاسمـــاء الاخرى، والمهيمن على أهل العشق هو اسم (الودود) والمستحوذ على اهل التفكر هو اســـم (الحكيم).

ذكرتُ الحادثة نفسها الى الذين أتوا لزيارتي، وهم بدورهم بدأوا يلاحظون الأمر. ثم قالوا: نسمع الذكر الى حدٍ ما، ثم ورد بقلبي: ما وجه تخصيص هذا الاسم : يارحيم؟ ولِمَ تذكر القطط هذا الاسم بالذات بلهجة لسان الانسان ولا تذكره بلسان الحيوانات. فورد: ان القط حيوان رقيق لطيف كالطفل الصغير، يختلط مع الانسان في كل زاوية من مسكنه، حتى كأنه صديقه فهو محتاج اذن الى مزيد من الشفقة والرحمة. فعندما يُلاطف ويستأنس به يحمد ا تاركاً الاسباب - بخلاف الكلب - ومعلناً في عالمه الخاص رحمة خالقه الرحيم، فيوقظ بذلك الذكر الانسان السادر في نوم الغفلة وبنداء »يارحيم« ينبه عَبَدة الاسباب قائلاً : ممن يَرِدُ المدد والعون وممن يتوقع الرحمة؟ — المؤلف.

فلو أن رجلاً كان عالماً وضابطاً وكاتبَ عدل ومفتشاً في دوائر الدولة في الوقت نفسه، في كل دائرة من تلك الدوائر علاقةً وارتباطاً ووظيفةً وعملاً، وله ايضـاً اجـرة ومرتـبٌ ومسؤولية فيها، وله كذلك مراتب رقي، فضلاً عن وجود الحسّاد والاعداء الذين يحاولون ان يعيقوا عمله.. فكما ان هذا الرجل وهذا شأنه، يظهر امام السلطان بعناوين كثيرة مختلفة جداً، ويرى السلطان من خلال تلك العناوين المتنوعة، ويسأله العون والمدد بألسنة كثيرة، ويراجعه بعناوين كثيرة ويستعيذ به في صور شتى كثيرة، خلاصاً من شر اعدائه. كذلك الانسان الذي حظي بتجليات اسماء كثيرة، وانيطت به وظائف كثيرة، وابتلي باعداء كثيرين، يذكر كـثيراً من اسماء الله في مناجاته واستعاذته، كما أن مدار فخر الانسانية، وهـو الانسـان الكامـل الحقيقي، محمد)ص(يدعو الله ويستعيذ به من النار بألف اسم واسـم في دعائـه المسـمى بالجوشن الكبير.

ومن هذا السر نجد القرآن يأمر بالاستعاذة بثلاثة عناوين، وذلك في سورة الناس (قـل اعوذ برب الناس_ ملك الناس_ إله الناس_ من شر الوسواس الخناس...)

ويبين في (بسم الله الرحمن الرحيم) الاستعانة بثلاثة اسماء من اسمائه الحسنى.

الغصن الثاني

الغصن الثاني من الكلمة الرابعة والعشرين

يبين سرين يتضمنان مفاتيح أسرار كثيرة

السر الأول:

إذ لِمَ يختلف الأولياء كثيراً في مشهوداتهم وكشفياتهم مع أنهم يتفقون في أصول الإيمان،

تظهر أحياناً كشوفهم التي هي في درجة الشهود مخالفةً للواقع ومجانبة للحق؟

ولماذا يرى – ويبيّن – أصحاب الفكر وأرباب النظر الحقيقةَ متناقضةً في أفكارهم رغم اثبات أحقيتها بالبرهان القاطع لدى كل واحد منهم؟ فلِمَ تتلون الحقيقة الواحدة بألوان شتى؟

السر الثاني:

لماذا ترك الأنبياء السابقون عليهم السلام قسماً من أركان الإيمان، كالحشر الجسماني، على شيء من الإجمال، ولم يفصّلوه تفصيلاً كاملاً كما هو في القرآن الكريم. حتى ذهب – فيما بعد – قسمٌ من أممهم إلى إنكار تلك الأركان المجملة؟ ثم لماذا تقدم قسم من الأولياء العارفين الحقيقيين في التوحيد فحسب، حتى بلغوا درجة حق اليقين، مع أن قسماً من أركان الإيمان يبدو مجملاً في مشاربهم أو يتراءى نادراً، بل لأجل هذا لم يول متبعوهم فيما بعد تلك الأركان الاهتمام اللازم، بل قد زاغ بعضهم وضل.

فما دام الكمال الحقيقي يُنال بانكشاف أركان الإيمان كلها، فلماذا تقدم أهل الحقيقة في بعضها بينما تخلّفوا في بعضها الآخر. علما أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وهو إمام المرسلين الذي حظى بالمراتب العظمى للأسماء الحسنى كلها، وكذا القرآن الحكيم الذي هو إمام جميع الكتب السماوية، قد فصّلا أركان الإيمان كلها تفصيلاً واضحاً جلياً وبأسلوب جاد ومقصود؟

الجواب: نعم! لأن الكمال الحقيقي الأتم هو هكذا في الحقيقة.

وحكمة هذه الأسرار هي على النحو الآتي:

إن الإنسان على الرغم من ان له استعداداً لبلوغ الكمالات كلها ونيل أنوار الأسماء الحسنى جميعها فانه يتحرى الحقيقة من خلال ألوف الحجب والبرازخ، إذ اقتداره جزئي، واختياره جزئي، واستعداداته مختلفة ورغباته متفاوتة.

ولأجل هذا تتوسط الحجب والبرازخ لدى انكشاف الحقيقة، وفي شهود الحق، فبعضهم لا يستطيع المرور من البرزخ. وحيث إن القابليات متفاوتة، فقابلية بعضهم لا تكون منشأ لانكشاف بعض أركان الإيمان.

ثم إن ألوان تجليات الأسماء تتنوع، حسب نيل المظاهر، وتصبح متغايرة، فلا يستطيع بعض من حظي بمظهر اسم من الأسماء أن يكون مداراً لتجليه تجلياً كاملاً، فضلاً عن ان تجلي الأسماء تتخذ صوراً مختلفة باعتبار الكلية والجزئية والظلية والأصلية. فيقصر بعض الاستعدادات عن اجتياز الجزئية والخروج من الظل. وقد يغلب اسم من الأسماء – حسب الاستعداد – فينفذُ حكمُه وحدَه، ويكون مهيمناً في ذلك الاستعداد.

وهكذا، فهذا السر الغامض العميق وهذه الحكمة الواسعة، سنشير إليها ببضع إشارات ضمن تمثيل واسع تمازجه الحقيقة إلى حد.

فلنفرض "زهرة" ذات نقوش، و "قطرة" ذات حياة عاشقة للقمر، و"رشحة" ذات صفاء متوجهة نحو الشمس، بحيث إن لكلٍ منها شعوراً، ولكلٍ منها كمالاً، وشوقاً نحو ذلك الكمال.

فهذه الأشياء الثلاثة تشير إلى حقائق كثيرة، فضلاً عن إشاراتها إلى سلوك النفس والعقل والروح، وهي أمثلة لثلاث طبقات لأهل الحقيقة[111] :

أولاها:

أهل الفكر وأهل الولاية وأهل النبوة.. فهذه الأشياء تشير إلى هؤلاء.ثانيتها:

السالكون إلى الحقيقة سعياً لبلوغ كمالهم بأجهزة جسمانية.. (أي عن طريق الحواس)

والماضون إلى الحقيقة بالمجاهدة بتزكية النفس وأعمال العقل..

والسائرون إلى الحقيقة بتصفية القلب والإيمان والتسليم.. فهذه الأشياء أمثلة لهؤلاء.

ثالثتها:

الذين حصروا السلوك إلى الحقيقة باستدلالهم، و لم يدَعوا الأنانية والغرور، وأوغلوا في الآثار.

والذين يتحرّون الحقيقة بالعلم والحكمة والمعرفة.

والذين يصلون إلى الحقيقة سريعاً بالإيمان والقرآن والفقر والعبودية.

فالأشياء الثلاثة تمثيلات تشير إلى حكمة الاختلاف في الطوائف الثلاث المتفاوتة في الاستعدادات.

فالسر الدقيق والحكمة الواسعة التي يتضمنها رقي هذه الطبقات الثلاث، نحاول أن نبينها ضمن تمثيل وتحت عناوين "زهرة" و "قطرة" و "رشحة".

[111] وفي كل طبقة أيضاً ثلاث طوائف. فالأمثلة الثلاثة الواردة في التمثيل متوجهة إلى الطبقات الثلاث التي في كل طبقة، بل إلى الطبقات التسع التي فيها. لا الطبقات الثلاث وحدها. – المؤلف.

فمثلاً: للشمس – بإذن خالقها وبأمره – أنواع ثلاثة مختلفة من التجلي والانعكاس والإفاضة.

أحدها: على الأزهار.

والآخر: على القمر والكواكب السيارة.

وآخر: على المواد اللماعة كالزجاج والماء.

فالأول: من هذا التجلي والإفاضة والانعكاس على أوجه ثلاثة:

الأول: تجل كلي وانعكاس عمومي، وهو أفاضتها على جميع الأزهار.

الثاني: تجلٍ خاصٍ، وهو انعكاس خاص حسب كل نوع.

الثالث: تجل جزئي، وهو إفاضة حسب شخصية كل زهرة.

ثانيتها:

السالكون إلى الحقيقة سعياً لبلوغ كمالهم بأجهزة جسمانية.. (أي عن طريق الحواس)

والماضون إلى الحقيقة بالمجاهدة بتزكية النفس وأعمال العقل..

والسائرون إلى الحقيقة بتصفية القلب والإيمان والتسليم.. فهذه الأشياء أمثلة لهؤلاء.

ثالثتها:

الذين حصروا السلوك إلى الحقيقة باستدلالهم، و لم يدَعوا الأنانية والغرور، وأوغلوا في الآثار.

والذين يتحرّون الحقيقة بالعلم والحكمة والمعرفة.

والذين يصلون إلى الحقيقة سريعاً بالإيمان والقرآن والفقر والعبودية.

فالأشياء الثلاثة تمثيلات تشير إلى حكمة الاختلاف في الطوائف الثلاث المتفاوتة في الاستعدادات.

فالسر الدقيق والحكمة الواسعة التي يتضمنها رقي هذه الطبقات الثلاث، نحاول أن نبينها ضمن تمثيل وتحت عناوين "زهرة" و "قطرة" و "رشحة".

فمثلاً: للشمس – بإذن خالقها وبأمره – أنواع ثلاثة مختلفة من التجلي والانعكاس والإفاضة.

أحدها: على الأزهار.

والآخر: على القمر والكواكب السيارة.

وآخر: على المواد اللماعة كالزجاج والماء.

فالأول: من هذا التجلي والإفاضة والانعكاس على أوجه ثلاثة:

الأول: تجل كلي وانعكاس عمومي، وهو إفاضتها على جميع الأزهار.

الثاني: تجلٍ خاصٍ، وهو انعكاس خاص حسب كل نوع.

الثالث: تجل جزئي، وهو إفاضة حسب شخصية كل زهرة.

وأمثالها من الآثار الجليلة المهيبة، لا يستطيع منح تلك الشمس الآثار التي شاهدها ضمن ذلك القيد الضيق والبرزخ المحدود.

وحتى لو منحت الأشياء الثلاثة - التي فرضناها ذات شعور - الشمسَ تلــك الآثــار العجيبة التي تشاهدها تحت ذلك القيد، فإنها يمكنها أن تمنحها بوجهٍ عقلي وإيمــاني بحــت، وبتسليم تام من أن تلك المقيدة هي المطلقة ذاتها.

فتلك "الزهرة والقطرة والرشحة" التي فرضناها شبيهة بالإنسان العاقل، اسنادُها هــذه الأحكام - أي الآثار العظيمة - إلى شموسها إسنادٌ عقلي لا شهودي.. بــل قــد تتصــادم أحكامُها الإيمانية مع مشهوداتها الكونية، فتصدّق بصعوبة بالغة. وهكذا فعلينا نحــن الثلاثــة الدخول إلى هذا التمثيل الممتزج بالحقيقة، والذي يضيق بها ولا يسعها، وتشــاهَد في بعــض جوانبه أعضاء الحقيقة.

لا يكفي ما افترضناه إذ سنفرض أنفسنا نحن الثلاثة "الزهرة" و "القطرة" و "الرشحة". من شعور فيها، فنلحق بها عقولَنا أيضاً. أي أن ندرك أن تلك الثلاثة مثلما تســتفيض مــن شمسها المادية، فنحن كذلك نستفيض من شمسنا المعنوية.

الصديق الذي لا ينسى الدنيا ويوغل في الماديات وقــد غلظــتْ نفسُــه أيها فأنت إن تلك الزهرة تأخذ لونا قد تحلل من إذ وتكاثفت! كن "الزهرة". لأن استعدادك شبيه بها، ضياء الشمس وتمزج مثال الشمس من ذلك اللون، وتتلون به في صورة زاهية.

أما هذا الفيلسوف الذي درس في المدارس الحديثة، والمعتقد بالأسباب، والذي يشـــبهه "سعيد القديم"، فليكن "القطرة" العاشقة للقمر، الذي يمنحها ظل الضياء المستفاد من الشمس فيعطي عينَها نوراً فتتلألأ به... ولكن "القطرة" لا ترى بذلك النور إلاّ القمر، ولا تستطيع أن ترى به الشمس، بل يمكنها رؤية الشمس بإيمانها.

ثم إن هذا الفقير الذي يعتقد أن كل شيء منه تعالى مباشرة، ويعدّ الأسباب حجابـــا، إليه وتعتمد عليـــه ليكن هو "الرشحة"، فهي رشحة فقيرة في ذاتها، لا شيء لها كي تستند إليها. فلها صفاء كالزهرة وليس لها لون كي تشاهد به، ولا تعرف أشياء أخرى كي تتوجه خالص يخبئ مثال الشمس في بؤبؤ عينها.

والآن، ما دمنا قد حللنا مواضع هذه الثلاثة، علينا أن ننظر إلى أنفسنا، لنرى ماذا بنا؟ وماذا نعمل؟

فها نحن ننظر، وإذا بالكريم يُسبغ علينا نِعَمه وإحسانَه، فينورنـــا ويربينـــا ويجمّلنـــا. والإنسان عبد الإحسان، ويسأل القرب ممن يستحق العبادة والمحبة، ويطلب رؤيته، لذا فكـــل منا يسلك حسب استعداده بجاذبة تلك المحبة.

فيا من يشبه "الزهرة" أنت تمضي في سلوكك، ولكن امض وأنت زهرة.. وهـــا قـــد مضيت، وقد ترقيت تدريجياً حتى بلغتَ مرتبةً كلية، كأنك أصبحت بمثابة كل الأزهار. بينما الزهرة مرآة كثيفة، فألوان الضياء السبعة تنكسر وتتحلل فيها، فتختفـــي صـــورة الشـــمس المنعكسة فلن توفّق إلى رؤية وجه محبوبك الشمس، لأن الألوان المقيدة، والخصائص، تشتت ضوء الشمس وتسدل الحجاب دونه، فيحجب ما وراءه. فأنت في هذه الحالة لن تنجو مـــن الفراقات الناشئة من توسط الصور والبرازخ. ولكن النجاة بشرط واحد هو:

أن ترفع رأسك السارح في محبة نفسك، وتكفّ نظرك المستمتع بمحاسن نفسك والمغتر بها، وتحدقه في وجه الشمس التي هي في كبد السماء. ثم تحوّل وجهك المنكب إلى التراب – يسأل الرزق – إلى الشمس في علاها، ذلك لأنك مرآة لتلك الشمس، ووظيفتـــك مرآتيـــة وإظهار لتجليها. أما رزقك فسيأتيك من باب خزينة الرحمة، التراب، ســـواء أعلمـــت أم لم تعلم.

نعم، كما أن الزهرة مرآة صغيرة للشمس، فان هذه الشمس الضخمة أيضاً هي مـــرآة كقطرة في بحر السماء تعكس لمعة متجلية من اسم الله "النور". فأدرك يا قلب الإنسان مـــن هذا ما اعظم الشمس التي أنت مرآها!

فبعدما أنجزت هذا الشرط تجد كمالك، ولكن لن ترى الشمس بذاها وفي نفس الأمـــر ألوان صفاتك تعطيها لوناً، ومنظارك الكثيف يلبســـها إذ بل لا تدرك تلك الحقيقة مجرّدة، صورة، وقابليتك المقيدة يحددها تحت قيد.

الفيلسوف الحكيم الداخل في "القطرة"! انك بمنظار قطرة فكرِك وســلّم أيها والآن الفلسفة رقيتَ وصعدت حتى بلغت القمر. ودخلت القمر. انظر! القمر في ذاته كثيف مظلم، لا ضياء له ولا حياة. فقد ذهب سعيُك هباءً وعلمك بلا جدوى ولا نفع. فانك تقـــدر أن تنجو من ظلمات اليأس ووحشة الغربة وازعاجات الأرواح الخبيثة بهذه الشروط، وهي:

إن تركتَ ليل الطبيعة وتوجّهت إلى شمس الحقيقة، اعتقدت يقينا أن أنوار الليل هذا هي ظلال ضياء شمس النهار. فان وفيت بهذا الشرط تجد كمالك، فتجد الشمس المهيبة بديل قمر فقير معتم. ولكنك أيضاً مثل صديقك الآخر لن ترى الشمس صافية، وإنما تراها وراء ستائر آنسها عقلُك وألفَتْها فلسفتُك، تراها خلف ما نسجها علمُك وحكمتُك من حُجب، تراها في صبغة أعطَتْها إياها قابليتُك.

وهذا صديقكم الثالث الشبيه بـــ "الرشحة" فقير، عديم اللون، يتبخر بسرعة بحـــرارة الشمس، يدع أنانيَته ويمتطي البخارَ فيصعد إلى الجو، يلتهب ما فيه من مادة كثيفـــة بنـــار العشق، ينقلب بالضياء نوراً، يمسك بشعاع صادر من تجليات ذلك الضياء ويقترب منه.

فيا مثال الرشحة! ما دمت تؤدي وظيفة المرآة للشمس مباشرة، فكن أينما شئت مـــن المراتب، فيمكنك ان تجد نافذة نظارة صافية تطل منها إلى عين الشمس بعين اليقين، فلا تعاني إليها أوصافها المهيبة بلا تستطيع أن تسند إذ إليها، صعوبة في إسناد الآثار العجيبة للشمس تردد، فلا يمكن أن يمسك يَدك ويكفّك شيء قطعاً عن إسناد الآثار المذهلة لسلطنتها الذاتيـــة إليها. فلا يحيرك ضيق البرازخ ولا قيد القابليات ولا صغر المرايا، ولا يســوقك إلى خـــلاف إليها مباشرة، ولذلك فقد أدركت أن ما الحقيقة شيء من ذلك لأنك صاف وخالص تنظر

يشاهَد في المظاهر ويُرى في المرايا ليس شمساً، وإنما نوع من تجلياتها وضرب من انعكاساتها المتلونة. وان تلك الانعكاسات إنما هي دلائل وعناوين لها فحسب، ولكن لا يمكنها أن تُظهر آثار هيبتها جميعاً.

ففي هذا التمثيل الممتزج بالحقيقة يُسلَك إلى الكمال بطرق ثلاثة مختلفة متنوعة، فهم يتباينون في مزايا تلك الكمالات وفي تفاصيل مرتبة الشهود، إلاّ انهم يتفقون في النتيجة، وفي الإذعان للحق، وفي التصديق بالحقيقة.

هذا فكما أن إنساناً ليلياً لم يشاهد الشمس أصلاً، وإنما يرى ظلالها في مرآة القمر، لا يمكنه ان يمكّن في عقله ويستوعب هيبة الضياء الخاص بالشمس وجاذبتها العظيمة وإنما يقلد مَن رآها ويستسلم لهم. كذلك مَن لم يبلغ بالوراثة النبوية المرتبة العظمى لأسمي "القدير" و "المحيي" وأمثالها من الأسماء يرى الحشر الأعظم والقيامة الكبرى ويقبلها تقليداً، قائلاً: إنها ليست مسألة عقلية. لأن حقيقة الحشر والقيامة مظاهر لتجلي الاسم الأعظم والمراتب العظمى لقسم من الأسماء. فمن لم يرقَ نظره إلى تلك المرتبة يضطر إلى التقليد. بينما مَن نفذ فكرُه إلى هناك يرى الحشر والقيامة سهلة كسهولة تعاقب الليل والنهار والشتاء والصيف، فيرضى بها مطمئن القلب.

وهكذا فمن هذا السر يذكر القرآنُ الكريم الحشرَ والقيامة في اعظم مرتبة وفي اكمل تفصيل وهكذا يرشد إليهما الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي حظي بأنوار الاسم الأعظم.

أما الأنبياء السابقون عليهم السلام فلم يبينوا الحشر في أعظم درجة وأوسع تفصيل بل بشيء من الإجمال، وذلك بمقتضى حكمة الإرشاد حيث كانت أممهم على أحوال ابتدائية بسيطة.

ومن هذا السر أيضاً لم ير قسمٌ من الأولياء بعض أركان الإيمان في مرتبته العظمى أو عجزوا عن أن يبينوه هكذا.

ومن هذا السر أيضاً تتفاوت كثيراً درجات العارفين في معرفة الله.

وهكذا تنكشف من هذه الحقيقة أسرار كثيرة أمثال هذه.

والآن نكتفي بالتمثيل، لأنه يُشعر إلى حدٍ ما بالحقيقة، إذ الحقيقة واسعة جداً وعميقة جداً،ولا نتدخل بما هو فوق حدنا من أسرار وبما لا طاقة لنا به.

الغصن الثالث

نظراً لشئ من الغموض الذي يكتنف فهمَ قسمٍ من الاحاديث الشريفة التي تبحث في »علامات الساعة واحداثها« وفي »فضائل الاعمال وثوابها« فقد ضعفها عددٌ من أهل العلم المعتدّين بعقولهم، ووضعوا بعضها في عداد »الموضوعات« وتطرّف آخرون من ضعاف الايمان المغرورين بعقولهم فذهبوا الى انكارها.

ونحن هنا لا نريد أن نناقشهم تفصيلاً، بل ننبه الى »اثني عشر« اصلاً من الاصول والقواعد العامة التي يمكن الاستهداء بها في فهم هذه الاحاديث الشريفة موضوعة البحث.

oالاصل الاول

وهو المسألة التي بيناها في الجواب عن السؤال الوارد في نهاية »الكلمة العشرين« ومجملها:

ان الدين امتحان واختبار، يميز الارواح العالية من الارواح السافلة، لذا يبحث في الحوادث التي سيشهدها الناس في المستقبل بصيغة ليست مجهولة ومبهمة الى حد استعصاء فهمها، وليست واضحة وضوح البداهة التي لا مناص من تصديقها. بل يعرضها عرضاً منفتحاً على العقول، لا يعجزها، ولا يسلب منها القدرة على الاختيار.

فلو ظهرت علامة من علامات الساعة بوضوح كوضوح البديهيات، واضطر الناس الى التصديق، لتساوى عندئذ استعداد فطري كالفحم في خساسته مع استعداد فطري آخر كالألماس في نفاسته، ولضاع سر التكليف وضاعت نتيجة الامتحان سدى.

فلأجل هذا ظهرت اختلافات كثيرة في مسائل عديدة، كمسائل المهدي [112] والسفياني [113] وصدرت احكام متضاربة لكثرة الاختلاف في الروايات.

[112] واحاديث المهدي عند الترمذي، وابي داود، وابن ماجه، والحاكم، والطبراني، وابي يعلى الموصلى، واسندوها الى جماعة من الصحابة. قال الشوكاني في التوضيح: والاحاديث الواردة في المهدي التي أمكن

oالاصل الثاني:

للمسائل الاسلامية طبقات ومراتب، فبينما تحتاج احداها الى برهان قطعي – كمـــا في مسائل العقائد – تكتفي الاخرى بغلبة الظن، واخرى الى مجرد التسليم والقبول وعدم الرفض.

لهذا لا يُطلب برهانٌ قطعي واذعان يقيني في كل مسألة من مسائل الفروع أو الاحداث الزمانية التي هي ليست من اسس الايمان، بل يكتفى بالتسليم وعدم الرفض.

oالاصل الثالث

لقد أسلم كثير من علماء بني اسرائيل والنصارى في عهد الصحابة الكرام، رضـــى الله عنهم، وحملوا معهم الى الاسلام معلوماتهم السابقة، فأُخذ وهماً غيرُ قليلٍ من تلك المعلومات السابقة المخالفة لواقع الحال كأنها من العلوم الاسلامية.

oالاصل الرابع

الوقوف عليها منها خمسون حديثاً فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلاشك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها على جميع الاصطلاحات المحررة في الاصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي فهي كثيرة ايضاً، لها حكم الرفع، اذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك أهـــ. (الاذاعة لمحمد صديق حسن خان 113 - 114) وانظر التحفة للمباركفوري (6/485).

[113] وردت احاديث كثيرة بحق دجال المسلمين الموصوف »بالسفياني« نذكر منها:

»عن ابي هـــريرة رضي ا عنه قـــال قال رسول الله(ص): يخرج رجل يقال له السفياني في عمق دمشق وعامة من يتبعه من كلب، فيقتل حتى يبقر بطون النـــساء ويقتل الصبيان فتجمع لهم قيس فيقتلها حتى لا يمنع ذنب تلعة، ويخرج رجل من اهل بيتي في الحرة فيـــبلغ السفياني، فيبعث اليه جنداً من جنده فيهزمهم فيسير منهم اليه السفياني بمن معه حتى اذا صار ببيداء مـــن الارض خسف بهم فلا ينجو منهم الا المخبر عنهم« اخرجه الحاكم في المستدرك 4/520 وقـــال: هذا حـــديث صحيح الاســـناد على شرط الشيـــــخـــيـــن و لم يخـــرجـــاه، ووافقه الـــذهبي. (يبقر: يفتح ـــــــ كلب: ماء بين الكوفة والشام ـــــــ لا يمنع ذنب تلعة: لا يخلو منه موضع«.

واورده السيوطي في اللآلئ 2/388 والاسفرايني 2/75. وانظر البداية والنهاية لابن كثير وتذكرة القرطبي. - المترجم.

لقد أُدرج شئ من اقوال الرواة، أو المعاني التي استنبطوها ضمن متن الحديث، فأُخذت على علاّتها. ولما كان الانسان لا يسلم من خطأ، ظهر شئ من تلك الاقوال والاستنباطات مخالفاً للواقع، مما سبب ضعفَ الحديث.

oالاصل الخامس

أُعتبر بعض المعاني الملهَمة للاولياء واهل الكشف من المحدّثين على أنها احاديث، بناء على أن في الأمة محدَّثين [114]، اي: ملهمين. ومن المعلوم ان إلهام الاولياء قد يكون خاطئاً لبعض العوارض، فيمكن أن يظهر ما يخالف الحقيقة في امثال هذا النوع من الروايات.

oالاصل السادس

يشتهر بعض الحكايات بين الناس، فتجري تلك الحكاية مجرى الامثال، والامثال لا يُنظر الى معناها الحقيقي، وانما يُنظر الى الهدف الذي يساق اليه المَثَل، لهذا كان في بعض الاحاديث ذكر بعض ما تعارف عليه الناس من قصص وحكايات كناية وتمثيلاً على سبيل التوجيه والارشاد.

فان كان هناك نقص وقصور في المعنى الحقيقي في مثل هذه المسائل فهو يعود الى اعراف الناس وعاداتهم ويرجع الى ما تسامعوه وتعارفوا عليه من حكايات.

o الاصل السابع

هناك كثير من التشبيهات والتمثيلات البلاغية تؤخذ كحقائق مادية، إما بمرور الزمن او بانتقالها من يد العلم الى يد الجهل، فيقع الناس في الخطأ من حسبان تلك التشبيهات حقائقَ مادية.

---

[114] عن ابي هريرة رضي ا عنه قال: قال رسول الله(ص): »لقد كان فيمن كان قبلكم من الامم ناس محدَّثون من غير ان يكونوا انبياء، فان يكن من امتي احد فانه عمر« رواه البخاري في فضائل اصحاب النبي (ص) - باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسنداً ومعلقاً، وفي الأنبياء - باب ما ذكر عن بني اسرائيل. ورواه مسلم 2398 في فضائل الصحابة باب فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه من حديث عائشة رضي الله عنها. - المترجم.

فمثلاً: ان المَلَكين المسميين بالثور والحوت، والمتمثلين على صورتيهما في عالم المثـــال، وهما من ملائكة الله المشرفة على الحيوانات البرية والبحرية، قد تحولا الى ثور ضخم وحوت مجسم في ظن الناس وتصورهم الخاطىء، مما ادى الى الاعتراض على الحديث.

ومثلاً: سُمع صوت في مجلس الرسول)ص(، فقال: هذا صوتُ حجرٍ يهوي في جهنم منذ سبعين خريفاً فالآن حين انتهى الى قعرها [115] فالذي يسمع بهذا الحديث و لم تتـــبين لـــه الحقيقة ينكره، فيزيغ، ولكن اذا علم ما هو ثابت قطعاً، انه بعد فترة وجيزة جـــاء أحـــدهم فاخبر النبي)ص(ان المنافق الفلاني المشهور قد مات قبل هنيهة، عندئذ يتـــيقن ان الرســـول)ص(قد صور ببلاغته النبوية الفائقة ذلك المنافق الذي دخل السبعين من عمـــره كحجـــرٍ يتدحرج الى قعر جهنم، حيث ان حياته كلها سقوط الى الكفر وتردٍّ الى اسفل سافلين، وقد أسمع الله سبحانه ذلك الصوت في لحظة موت ذلك المنافق وجعله علامة عليه.

oالاصل الثامن

يخفي الحكيم العليم في دار الامتحان وميدان الابتلاء هذا، اموراً مهمة جداً بين ثنايـــا كثرة من الامور. وترتبط بهذا الاخفاء حكم كثيرة ومصالح شتى.

فمثلاً: قد أخفى سبحانه وتعالى (ليلة القدر) في شهر رمضان، و (ساعة الاجابة) في يوم الجمعة، و(أولياءه الصالحين) بين مجاميع البشر، و(الأجل) في العمر، و(قيام الساعة) في عمـــر الدنيا.. وهكذا.

---

[115] روى مسلم في كتاب الزهد، وصـــفة الجنة، والايمـــان، عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: »كنا مع رسول الله (ص) اذ سمع وجبة (اي سقطة) فقال النبي (ص) تدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله اعلم. قال: هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خـــريفاً فهو يهـــوي في النار الآن حتـــى انتهـــى الى قعرها« زاد في رواية »فسمعتم وجـــبتها «(4/2185 - 3185 رقم 2844).

وروى ايضاً عن جابر رضي الله عنه ان رسول الله (ص) قدم من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد ان تدفن الراكب، فزعم ان رسول الله (ص) قال: بعثت هذه الريح لموت منافق، فلما قدم المدينة فاذا منافق عظيم من المنافقين قد مات«. (4/2145 رقم 2782). ورواه احمد بغير هذا اللفظ (341/3، 346).ـــــ المترجم.

فلو كان أجَلُ الانسان معيناً ومعلوماً وقته، لقضى هذا الانسان المسكين نصف عمــره في غفلة تامة، ونصفه الآخر مرعوباً مدهوشاً كمن يُساق خطوة خطوة نحو حبل المشــنقة. بينما تقتضي المحافظة على التوزان المطلوب بين الدنيا والآخرة ومصلحة بقاء الانسان معلقــاً قلبُه بين الرجاء والخوف، أن تكون في كل دقيقة تمر بالانسان امكان حــدوث المــوت او استمرار الحياة.. وعلى هذا يرجح عشرون سنة من عمر مجهول الاجل على ألف سنة مــن عمر معلوم الاجل.

وهكذا فقيام الساعة، هو أجَلُ هذه الدنيا، التي هي كانسان كبير، فلو كان وقته معيناً ومعلناً لمضت القرون الاولى والوسطى سادرة في نوم الغفلة، بينما تظل القرون الاخــيرة في رعب ودهشة؛ ذلك لان الانسان وطيد العلاقة بحياة مسكنه الاكبر وبلده الاعظم - الدنيا - بحكم حياته الاجتماعية والانسانية مثلما يرتبط بمسكنه وبلده بحكم حياته اليومية والشخصية.

نفهم من هذا أن القرب المذكور في الآية الكريمة(اقتربت الساعة) لا يناقضه مرور ألف سنة ونيف، اذ الساعة اجل الدنيا. وما نسبة ألف سنة أو ألفين من السنين الى عمر الدنيا الاّ كنسبة يومٍ أو يومين أو دقيقة ودقيقتين الى سني العمر.

وكذلك ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن يوم القيامة ليس أجل الانسانية فحسب حتى يقاس قربه وبعده بمقياس عمرها، بل هو أجل الكائنات والسماوات والارض ذات الاعمار المهولة التي تندّ عن القياس والحساب.

ولأجل هذا فقد أخفى الحكيم العليم موعدَ قيام الساعة في علمه بين المغيّبات الخمسة، وكان من حكمة الاخفاء هذا أن يخشى الناسُ في جميع العصور قيام الساعة، حتى الصــحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا أشدّ خشية من قيامها في زمنهم من غيرهم، مع أنهم كــانوا يعيشون في خير القرون، وهو قرن السعادة وانجلاء الحقائق، بل قال بعضهم ان أشراط الساعة وعلاماتها قد تحققت. فالذين يجهلون حكمة الاخفاء وحقيقته في الوقت الحاضــر يقولــون ظلماً: كيف ظن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم قرب وقوع حقيقة مهمة وخطيرة ستأتي بعد ألف وأربعمائة سنة، ظنوها قريبة في عصرهم، علماً بأنهم كانوا أقدر المسلمين وأفضلهم

في ادراك معاني الآخرة، وأحدّ المؤمنين بصيرة وأرهفهم حساً بارهاصات ما سيأتي به الزمن؟ لكأن فكرهم قد حاد عن الحقيقة الف سنة!

الجواب: لأن الصحابة الكرام – رضى الله عنهم أجمعين – كانوا اكثر النـــاس تفكـــراً بالآخرة، وأرسخهم يقيناً بفناء الدنيا، وأوسعهم فقهاً بحكمة اخفاء الله سبحانه لوقت القيامة، وذلك بفضل نور الصحبة النبوية وفيضها عليهم، لذا كانوا منتظرين أجَل الدنيا، متهيئين لموتها كمن ينتظر أجله الشخصى، فسعوا لآخرتهم سعياً حثيثاً.

ثم ان تكرار الرسول)ص((... فانتظروا الساعة) نابع من هذه الحكمة حكمة الاخفاء والابهام وفيه ارشاد نبوي بليغ، وليس تعييناً لموعد الساعة بالوحي، حتى يُظـــن بُعـــده عـــن الحقيقة، اذ الحكمة شئ يختلف عن العلة.

وهكذا فالاحاديث الشريفة التي هي من هذا القبيل نابعة من حكمة الاخفاء والابهام.

وبناء على هذه الحكمة نفسها، فقد انتظر الناس منذ زمن مديد، بل منذ زمن التـــابعين ظهور المهدي والدجال السفياني، على أمل اللحاق بهم، حتى قال قسم من الاولياء الصالحين بفوات وقتهم!

فالحكمة في عدم تعيين اوقات ظهورهم هي الحكمة نفسها في عدم تعيين يوم القيامـــة. وتتلخص بما يأتي:

ان كل وقت وكل عصر بحاجة الى »معنى« المهدي الذي يكون أساساً للقوة المعنويـــة، وخلاصاً من اليأس. فيلزم ان يكون لكل عصر نصيب من هذا المعنى. وكذلك يجب ان يكون الناس في كل عصر متيقظين وحذرين من شخصيات شريرة تكون على رأس النفاق وتقـــود تياراً عظيماً من الشر، وذلك لئلا يرتخي عنانُ النفس بالتسيّب وعدم المبالاة.

فلو كانت اوقات ظهور المهدي والدجال وامثالهما من الاشخاص معينـــةً لضـــاعت مصلحة الارشاد والتوجيه.

اما سر الاختلاف في الروايات الواردة في حقهما فهو:

ان الذين فسروا تلك الاحاديث الشريفة قد ادمجوا استنباطاتهم واجتهاداتهم الشخصـــية مع متن الحديث. كتفسيرهم ان وقائع المهدي واحداث الدجال تقع حول الشـــام والبصـــرة

والكوفة حسب تصورهم؛ اذ كانت تلك المدن تقع حول مركز الخلافة يومئــذ في المدينــة المنورة والشام.

أو أنهم فسروا تلك الاحاديث بأن الآثار العظيمة التي تمثّل الشخصية المعنوية لاولئــك الاشخاص أو تقوم بها جماعاتُهم، تصوّروها ناشئةً من شخصيتهم الذاتية الفردية، مما ادى الى ان يُفهم ان هؤلاء الاشخاص سيظهرون ظهوراً خارقاً للعادة، فيعرفهم جميع الناس، والحال – كما قلنا – ان الدنيا ميدان اختبار وامتحان، وان الله تعالى عندما يختبر الانسان لا يسلب منه الاختيار بل يفتح الباب امام عقله؛ لذا فهؤلاء الاشــخاص – اي الــدجال والمهــدي – لا يُعرفون من قبل كثير من الناس عند ظهورهم، بل لا يَعرف ذلك الدجال الرهيب نفسه انــه دجال بادئ الامر، وانما يعرفهم مَن ينظر اليهم بنور الايمان النافذ الى الاعماق.

والدجال الذي هو من علامات الساعة قال عنه الرسول)ص(أن يوماً من ايامه كسنة ويوماً كشهر ويوماً كجمعة وسائر أيامه كأيامكم [116]. وان الدنيا تسمع صــوته، ويســيح الارض في اربعين يوماً.

فالذين لم ينصفوا قالوا: هذه الرواية ضرب من المحالات، وانكروها. حاشَ للّه، بــل ان حقيقتها – والعلم عند الله – هي الآتي:

ان في الحديث الشريف اشارة الى ظهور شخص من جهة الشمال – الذي هو اكثــف منطقة لعالم الكفر – يقود تياراً عظيماً يتمخض من المادية الجاحدة، ويدعو الى الالحاد وانكار الخالق. فمعنى الحديث فيه اشارة الى ظهور هذا الشخص من شمال العالم. وتتضــمن هــذه الاشارة رمزاً حكيماً وهو:

---

[116] الاحاديث في هذا الباب كثيرة نذكر منها: رواية مسلم: (قلنا يا رسول الله: ما لبثه في الارض؟ قال: اربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر ايامه كايامكم«. (صحيح مسلم بشرح النووى 18/66) واخرجه بسياق قريب ابو داود (4321، 4322)، والترمذي كلهم من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه. ـ المترجم.

ان الدائرة القريبة للقطب الشمالي تكون السنة فيها يوماً وليلة، حيث أن ستة أشـــهر منها ليل والستة الاخرى نهار. اي يوم الدجال هذا سنة واحدة كما ورد (يوم كسنة). فهذه اشارة الى ظهوره قريباً من تلك الدائرة. أما المراد بـــ (يوم كشهر) فهو انه كلما تقدمنا من الشمال نحو مناطقنا يكون النهار احياناً شهراً كاملاً حيث لا تغـــرب الشـــمس شـــهراً في الصيف. وهذه اشارة ايضاً الى تجاوز الدجال الى عالم الحضارة بعد ظهوره في الشمال. وهذه الاشارة آتية من اسناد اليوم الى الدجال.. وهكذا كلما اقتربنـــا نـــزولاً مـــن الشـــمال الى الجنـــوب نرى الـــشمـــــس لا تغرب اســـــبوعاً، الى ان يكـــون الفـــرق في الشـــروق والغروب ثلاث ساعات، اي كأيامنا الاعتيادية. وقد كنتُ في مكان كهذا عندما كنت اسيراً في روسيا، فكانت الشمس لا تغرب اسبوعاً في مكان قريب منا، حتى كان الناس يخرجـــون لمشاهدة المنظر الغريب للغروب.

اما بلوغ صوت الدجال الى انحاء العالم، وانه يطوف الارض في اربعين يومـــاً، فقـــد حلّتهما اجهزة الراديو والمخابرة ووسائل النقل الحاضرة من قطارات وطائرات. فالذين انكروا هاتين الحالتين من الملحدين بالامس وعدّوهما من المحالات يرونهما اليوم من الامور العادية.

أما يأجوج ومأجوج والسد اللذان هما من علامات الساعة، فقد كتبتُ عنهما بشئ من التفصيل في رسالة اخرى، احيل اليها، اما هنا فأقول:

انه مثلما دمرت قبيلتا المانجور والمغول بالامس المجتمعات البشرية وكانوا السبب في بناء سد الصين، فهناك روايات تشير الى انه مع قرب قيام الساعة ستسقط الحضارة الجديدة ايضاً وتنهار تحت ضربات اقدام افكارهم الارهابية والفوضوية المرعبة.

وهنا يتساءل عدد من الملاحدة:

اين هذه الطائفة من البشر، والتي قامت وستقوم بمثل هذه الافعال؟

الجواب: كما ان الجراد آفة زراعية تكتسح منطقة معينة في موسم معين، ثم تختفي تبعاً لتبدل الموسم. فإن خواص تلك الاجناس التي ابادت تلك المنطقة مخبوءة في حنايا بعض افراد محدودين منها، فتظهر تلك الآفة نفسها – بأمر إلهي – في موسم معين، وبكثرة ساحقة، اي ان حقيقة اجناسها تنزوي ولا تضمحل، لتظهر من جديد في موسم معين.

فكما ان الامر هكذا في الجراد، فان الاقوام الذين اشاعوا الفساد في العالم في وقت ما، سيظهرون عند موعد محدد لهم لإهلاك البشرية بأمر إلهي وبمشيئته سبحانه، فيدمرون الحضارة البشرية مرة اخرى، ولكن اثارتهم وتحريكهم سيكون بنمط آخر. ولا يعلم الغيب الا الله.

o الاصل التاسع

ان حصيلة قسم من المسائل الايمانية متوجهة الى امور تتعلق بهذا العالم الضيق المقيد، والقسم الآخر منها يرنو الى العالم الاخروى الواسع الطليق.

وحيث ان قسماً من الاحاديث النبوية الواردة في فضائل الاعمال قد عبّر عنها الرسول الكريم (ص) باسلوب بلاغى يناسب الترغيب والترهيب، فقد ظن مَن لا ينعم النظر ان تلك الاحاديث الشريفة تحمل مبالغة!. كلا، انها جميعاً لعين الحق ومحض الحقيقة وليست فيها مبالغة قط.

مثال: ان الذي يخرش اذهان المتعسفين ويثيرها هو الحديث الآتي:

(لو كانت الدنيا تعدِل عند الله جناح بعوضةٍ ما شَرب الكافرُ منها جُرعة ماء) [117]. او كما قال. وحقيقته هي:

ان كلمة «عند الله» تعبّر عن العالم الباقي، فالنور المنبثق من عالم البقاء، ولو بمقدار جناح بعوضة هو أوسع وأعم، لانه ابدي، من نور موقت ولو كان يملأ الارض. اي ان الحديث لا يعقد موازنة بين جناح البعوض والعالم الكبير، وانما الموازنة هي بين دنيا كل فرد -محصورة في عمره القصير - وبين النور الدائم المشع، ولو بمقدار جناح بعوضة من الفيض الإلهي واحسانه العميم.

ثم ان الدنيا لها وجهان، بل ثلاثة اوجه:

---

[117] اصل الحديث : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» حديث صحيح: اخرجه الترمذي (2422) «تحفة» وابو نعيم في حلية الأولياء (3/253) والحاكم (4/306) وابن عدي في الكامل (1/249) والعقيلي في الضعفاء وعزاه في الجامع الصغير للضياء في المختارة، كلهم من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه وصححه الحاكم.ــــ المترجم.

الاول: وجه كالمرآة تعكس تجليات الاسماء الحسنى.

والثاني: وجه ينظر الى الآخرة، اي ان الدنيا مزرعة الآخرة.

اما الثالث: فهو الوجه الذي ينظر الى العدم والفناء، فهذا الوجه الاخير هو الدنيا غير المرضية عند الله، وهي المعروفة بدنيا اهل الضلالة.

اذن فالدنيا المذكورة في الحديث الشريف ليست بالدنيا العظيمة التي هي كمرايا للاسماء الحسنى ورسائل صمدانية، ولا هي بالدنيا التي هي مزرعة للآخرة، وانما هي الدنيا التي هي نقيض الآخرة ومنشأ جميع الخطايا والذنوب ومنبع كل البلايا والمصائب، هي دنيا عبدة الدنيا التي لا تعدِل ذرة واحدة من عالم الآخرة السرمدي الممنوح لعباد الله المؤمنين.فاين هذه الحقيقة الصادقة الصائبة من فهم اهل الالحاد الظالمين لما ظنوه مبالغة؟!

ومثال آخر: هو ما ذهب الملحدون وتمادوا فيه بتعسفهم حين ظنوا أن ما ورد من الاحاديث الشريفة حول ثواب الاعمال وفضائل بعض السور في القرآن الكريم مبالغة غير معقولة، بل حتى قالوا انها محالة!

فقد ورد - مثلاً - ان سورة »الفاتحة« لها ثواب القرآن [118]، وسورة »الاخلاص« تعدل ثلث القرآن [119]، وسورة »الزلزال« ربع القرآن [120]، وسورة »الكافرون« ربع القرآن [121] وسورة »يس« لها ثواب عشرة امثال القرآن [122].

---

[118] حديث: »الحمدلله رب العالمين هي السبع المثاني الذي أوتيته والقرآن العظيم«. اخرجه البخاري 6/322 وابو داود 1/145 والنسائي 2/139 من حديث ابي سعيد المعلى.

[119] حديث: »قل هو الله احد تعدل ثلث القرآن«. اخرجه البخاري 6/325 ومالك في الموطأ واحمد في المسند وابو داود 1461 والنسائي من حديث ابي سعيد الخدري رضي الله عنه.

[120] عن أنس بن مالك رضي ا عنه: ان رسول الله(ص) قال لرجل من اصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله، ولا عندي ما اتزوج به، قال: أليس معك »قل هو الله«؟ قال: بلى. قال: ثلث القرآن. قال: أليس معك »اذا جاء نصر الله والفتح«؟ قال: بلى. قال: ربع القرآن. قال: أليس معك »قل يا ايها الكافرون«؟ قال: بلى. قال: ربع القرآن. قال أليس معك »اذا زلزلت الارض« قال: بلى قال: ربع القرآن. قال: تزوج تزوج.. اخرجه الترمذي (3058) »تحفة« وقال: هذا حديث حسن، واحمد

فالذين لا ينعمون النظر وليس لهم انصاف وتروٍّ يدّعون استحالة هــذه الروايــات! اذ يقولون: كيف تكون لسورة »يس« هذه الفضيلة وهي سورة من القرآن الكريم وهناك سور اخرى فاضلة؟!

ان حقيقة هذه الروايات هي:

ان لكل حرف من حروف القرآن الكريم ثواباً، وهو حسنة واحدة، ولكن بفضــل الله وكرمه يتضاعف ثواب هذه الحروف ويثمر حيناً عشر حسنات، واحياناً ســبعين، واخــرى سبعمائة (كما في حروف آية الكرسي) ورابعة: الفاً وخمسمائة (كما في حــروف ســورة الاخلاص) وخامسة: عشرة آلاف حسنة (كقراءة الآيات في الاوقات الفاضلة وليلة النصف من شعبان) وسادسة: ثلاثين الفاً من الحسنات (كما في قراءة الآيات في ليلة القدر) فتتضاعف هذه الحسنات كما تتكاثر بذور الخشخاش. ويمكن فهم تضاعف الثواب الى ثلاثين الفاً مــن الآية الكريمة (خير من الف شهر) (القدر:3)

(3/146 - 147) والخطيب في تاريخ بغداد (11/380) وعزاه الحافظ في الفتح (9/61 - 62) لابن ابي شيبة وابو الشيخ مع زيادة في الحديث وقال: وهو حديث ضعيف لضعف سلمة، وان حسنه الترمذي أ هــــ قلت: وباقي رجال الاسناد ثقات.ـــــ المترجم.

[121] حديث ابن عمر: »قل هو الله احد تعدل ثلث القرآن، وقل يا ايها الكافرون تعدل ربع القرآن«. حسن: اخرجه الطبراني في الكبير (13494) وفي الاوسط (66 مجمع البحرين) مطولاً. ورواه البزار (512 زوائد البزار) واورده الهيثمي في المجمع (2/90) وقال: وفي اسناد الطبراني ليث بن حماد ضعفه الدار قطني واسناد البزار حسن. أهـــــ. وتعقبه محقق الطبراني بقوله: فيهما ليث بن ابي سليم وحاله معروف. أهـــــ. والحديث في صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم (4281) وصححه. وانظر الصحيحة برقم 588 . - المترجم.

[122] عن انس بن مالك قال: قال رسول الله (ص): »ان لكل شئ قلبا وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات«. اخرجه الترمذي (3048 تحفة) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفة الا من حديث حميد بن عبد الرحمن، وبالبصرة لا يعرفون من حديث قتادة الا من هذا الوجه، وهارون ابو محمد مجهول. أهـــ. واخرجه الترمذي ايضاً برقم (3049 تحفة) والدارمي (2/456).

وهكذا فلا يمكن مقايسة ولا موازنة القرآن الكريم مع وجود هذا التضاعف العـــددي التصاعدي للثواب المذكور، وانما يمكن ذلك مع اصل الثواب لبعض السور.

ولنوضح ذلك بمثال:

لنفرض ان مزرعة زرعت فيها الف حبة من الذرة، فلو انبتت بعض حباتها سبع سنابل (عرانيس) في كل سنبلة مائة حبة، فان حبة واحدة من الذرة تعدل عندئذ ثلثي ما في المزرعة.

ولو فرضنا – مثلاً – ان حبة اخرى انبتت عشر سنابل (عرانيس) في كل سنبلة منـــها مائة حبة، فان حبة واحدة عند ذلك تساوي ضعف الحبوب المزروعة أصلاً.. وهكذا قس في ضوء هذا المثال.

فالآن نتصور القرآن الكريم مزرعة سماوية نورانية مقدسة، كل حرف فيه مـــع ثوابـــه الاصلي بمثابة حبة واحدة – بغض النظر عن سنابلها – فاذا ما طبقتَ هذا على المثال السابق يمكنك معرفة فضائل السور التي وردت بحقها الاحاديث الشريفة، بمقارنتها بأصل حـــروف القرآن.

مثال ذلك: ان حروف القرآن الكريم ثلاثمائة الف وستمائة وعشرون حرفاً، وحـــروف سورة الاخلاص مع البسملة تسع وستين حرفاً، فثلاثة اضعاف تسع وستون تساوي مـــائتين وسبعة حروف. اي ان حسنات كـــــل حـــرف من حروف سورة الاخلاص تقارب ألفاً وخمـــسمـــائـــة حسنة وكذلك اذا حـــسبــــــــت حـــــروف سورة »يس« واخذت النسبة بينها وبين مجموع حروف القـــرآن، واخذنا التضـــاعف الى عشـــرة امثالهـــا بنظـــر الاعتــــبار، نجـــد ان لكـــل حـــرف فيها ما يقـــارب من خمســـمائة حسنة.

فاذا قست على هذا المنوال بقية ما ورد في فضائل السور في الاحاديث فستدرك مدى كونها حقيقة صائبة لطيفة، ومدى بُعدها عن كل ما يومئ الى المبالغة والاسراف في الكلام.

Oالاصل العاشر

قد يظهر افراد من الناس لهم خوارق في الاعمال والافعال كما يحدث في اكثر طوائف المخلوقات. فان كان الفرد الفذ هذا قد سبق الآخرين وبزّهم في الخير والصـــلاح فســـيكون مبعث فخر لبني جنسه ومدار اعتزازهم، والاّ فهو نذير شؤم وبلاء عليهم. فكل من هـــؤلاء

الافذاذ ينبث كشخصية معنوية في كل مكان في المجتمع، ويحاول الآخرون تقليده في افعالـــه ويجدّون لبلوغ شأوه، وربما يبلغ واحد منهم مبلغه في هذا الفعل أو ذاك. فالقضية اذن مـــن حيث المنطق هي قضية »ممكنة« لإمكان وجود ذلك الفرد الخارق في كل مكان وجوداً مخفياً ومطلقاً، اي أنه اصبح شخصاً كلياً بعمله هذا، أي من الممكن ان يولّد هذا النوع من العمل نتيجة كهذه.

فانظر في ضوء هذا المثال الى احاديث نبوية شريفة وردت بهذه المعـــاني: مَـــن صـــلى ركعتين كذا فله أجر حجة [123] أي ثواب ركعتين في اوقات معينة يقابل حجة، هذه حقيقـــة ثابتة. فيجوز اذن ان تحمل كل ركعتين من الصلاة بالكلية هذا المعنى، ولكن الوقوع الفعلـــي لهذا النوع من الروايات ليس دائماً ولا كلياً، حيث أن للقبول شرائطه المعينة، لذا تنتفي مـــن امثال هذه الروايات صفة الكلية والديمومة؛ فهي اما بالفعل موقتة مطلقة؛ او هي قضية ممكنة، كلية. والكلية في امثال هذه الاحاديث هي من حيث الامكان الاعتباري، كما هو في: الغيبة كالقتل، اي يكون الفرد بالغيبة سماً زعافاً قاتلاً. وكما هو في: الكلمة الطيبة صدقة كعتـــق رقبة.

والحكمة في ايراد هذه الاحاديث بهذه الصيغة هي:

ابراز امكانية وقوع هذه الصفة المعنوية الكاملة في كل مكان وفي صورها المطلقة، لأنه أبلغ في الترغيب والترهيب واكثر حضاً للنفوس على الخير وأشد تجنيباً لها من الشر.

ثم ان شؤون العالم الابدي لا توزن بمقاييس عالمنا الحاضر، اذ ان اضخم ما عندنا يمكن ان يكون اصغر شئ هناك ولا يوازيه، فثواب الاعمال نظراً لكونه يتطلع الى ذلـــك العـــالم الابدي فان نظرتنا الدنيوية الضيقة تغدو قاصرة دونه، فنعجز عن ان نستوعبه بعقولنا المحدودة.

---

[123] عن ابي امامة رضي ا عنه قال: قال رسول الله (ص) : (من صلى الغداة في جماعة ثم جلس يذكر ا حتى تطلع الشمس، ثم قام فركع ركعتين انقلب بأجر حجة وعمرة). اخرجه الطبراني في الكبير (7740) وفي مسند الشاميين (885) وقال الحافظ المنذرى في الترغيب والترهيب: اسناده جيد ومثله كلام الهيثمي في المجمع (10/104) وانظر الاحاديث الواردة في ذلك في صحيح الترغيب والترهيب برقم 468 و 469 و 470). ـ المترجم.

فمثلاً: هناك رواية تلفت انظار من لا يدققون النظر ولا ينصفون في احكامهم. هي:

من قرأ هذا اعطي له مثل ثواب موسى، وهارون، أي:

الحمد للّه رب السموات ورب الارضين رب العالمين وله الكبرياء في السموات والارض وهو العزيز الحكيم.

الحمد لله رب السموات ورب الارضين رب العالمين وله العظمة في السموات والارض وهو العزيز الحكيم، وله الملك ربّ السموات وهو العزيز الحكيم.

فحقيقة هذه الاحاديث وامثالها التي تثير الاذهان هي:

اننا لا ندرك مدى الثواب الذي يناله نبيان عظيمان هما موسى وهارون عليهما السلام الا حسب تصورنا ووفق اطار فكرنا الضيق وضمن حدود نظرنا القاصر الدنيوي، لذا فحقيقة الثواب الذي يناله عبد عاجز مطلق العجز بقراءته ذلك الورد، من رب رحيم واسع الرحمة، في حياة خالدة ابدية، يمكن ان يكون مماثلاً لذلك الثواب الذي تصورناه بعقولنا القاصرة للنبيين العظيمين، وذلك حسب دائرة علمنا وأفق تفكيرنا.

مثلنا في هذا كمثل بدوي لم ير السلطان ولا يدرك عظمته وابهته، وفي نظره المحدود وفكره الضيق ان السلطان شخص كشيخ القرية او اكبر منه بقليل. حتى لقد كان حوالينا – في شرقي الاناضول – قرويون سذج يقولون: ان السلطان يجلس قرب الموقد ويشرف على طبيخه بنفسه.. بمعنى ان اقصى ما يتصوره البدوي لعظمة السلطان لا يرقى الى مستوى آمر فوج في الجيش.. فلو قيل لأحد هؤلاء: اذا أنجزتَ لي هذا العمل فسأكافئك برتبة السلطان – اي بمكانة آمر الفوج – فهذا القول حقيقة وصواب، حيث ان عظمة السلطان في ذهن السامع وفي فكره المحدود هي بمقدار عظمة آمر الفوج ليس الا.

وهكذا فنحن لا نكاد نفهم حتى بمثل هذا البدوي الحقائق الواردة في ثواب الاعمال المتوجهة الى الآخرة، بعقولنا الضيقة وبافكارنا القاصرة وبنظرنا الدنيوي الكليل؛ اذ ان ما في الحديث الشريف ليس هو عقد لموازنة بين الثواب الحقيقي الذي يناله موسى وهارون عليهما السلام، والذي هو مجهول لدينا، وبين الثواب الذي يناله العبد الذاكر للورد؛ لأن قاعدة التشبيه هي قياس المجهول على المعلوم، أي ادراك حُكم المجهول من حُكم المعلوم. اي ان

الموازنة هي بين ثوابهما »المعلوم« لدينا حسب تصورنا، والثواب الحقيقـــي للعبـــد الـــذاكر »المجهول« عندنا.

ثم ان صورة الشمس المنعكسة من سطح البحر ومن قطرة ماء هي الصـــورة نفســـها، والفرق في النوعية فقط، فكلاهما يعكسان صورة الشمس وضوءها، لذا فأن روح كل مـــن موسى وهارون عليهما السلام التي هي مرآة صافية كالبحر تنعكس عليها من ماهية الثواب ما ينعكس على روح العبد الذاكر التي هي كقطرة ماء. فكلاهما ثواب واحد من حيث الماهيـــة والكمية الا ان النوعية تختلف، اذ تتبع القابلية.

ثم ان ترديد ذكر وتسبيح معين، أو تلاوة آية واحدة قد تفتح مـــن ابـــواب الرحمـــة والسعادة ما لا تفتحه عبادة ستين سنة، اي ان هناك حالات تمنح فيها آية واحدة من الفوائد ما للقرآن الكريم كله.

ثم ان الفيوضات الربانية المتجلية على الرسول الكريم)ص(بتلاوته آية واحدة قد تكون مساوية لفيض إلهي كامل على نبي آخر؛ اذ هو)ص(موضع تجلي الاسم الاعظم. فاذا قيل ان العبد الذاكر قد تعرض الى نفحة من ظل الاسم الاعظم بفضل وراثة النبوة ونال ثوابـــاً بهـــا .بمقدار قابليته، بقدر الفيض الإلهي على نبي آخر، فليس في قوله خلاف للحقيقة قط.

ثم ان الثواب والأجر من عالم النور الخالد الذي يمكن ان ينحصر عـــالم منـــه في ذرة واحدة، .بمثل انحصار صـــورة الســـــمـــوات بنجـــومـــها في قطـــعـــة صغيرة من زجاج ورؤيتها فيها. وهكذا فقراءة آية واحدة أو ذكر معين بنية خالصة يمكن ان تولد شـــفافية في الروح – كالزجاج – تستطيع ان تستوعب ثواباً نورانياً كالسموات الواسعة.

النتيجة: ايها الناظر الى كل شئ بعين النقد والتجريح ومن دون تدقيق، ويا ذا الايمـــان الواهي والفكر المملوء بالفلسفة المادية! أنصف قليلاً! أدم النظر في هذه الاصـــول العشـــرة، واياك ان تمدّ اصبع اعتراضك الى الاحاديث الشريفة وبدورها الى ما يخل .بمرتبة عصمة النبوة للرسول الكريم)ص(بحجة ما تراه في روايةٍ من خلاف قطعي للواقع ومنافاة للحقيقة.

فهذه الاصول العشرة، وميادين تطبيقها تجعلك تتخلى عن الانكار وتكفّك عن الرفض اولاً. ثم تخاطبك: ان كان هناك تقصيرٌ حقيقي، فهذا راجع الينا - اي الى الاصول - وليس الى الحديث الشريف قطعاً. وان لم يكن ثمة تقصير حقيقي فهو يعود الى سوء فهمك انت!

وحاصل الكلام: ان من يسترسل في الانكار والرفض، عليه ان يفنّد الاصول العشـــرة المذكورة والاّ لا يستطيع الانكار.

فان كنت منصفاً حقاً فتأمل جيداً في هذه الاصول العشرة، ومن بعـــدها لا تنـــهض لإنكار حديث نبوي يراه عقلك مخالفاً للحقيقة، بل قل: ربما هناك تفسير له، أو تأويـــل، أو تعبير، ودع الاعتراض!

oالاصل الحادي عشر

كما ان في القرآن الكريم آيات متشابهات تحتاج الى تأويل أو تطلب التسليم المطلـــق، كذلك في الحديث الشريف مشكلات تحتاج احياناً الى تفسير وتعـــبير دقـــيقين. ويمكنـــك الاكتفاء بالامثلة المذكورة.

نعم، ان اليقظ يستطيع ان يعبر عن رؤيا النائم، بينما النائم الذي يسمع مَن حوله مـــن اليقظين قد يطبق كلامهم بشكلٍ ما في منامه فيعبّر عنه بما يلائمه في النوم.

فيا ايها المنوّم بالغفلة والفلسفة المادية، ويا عديمَ الانصاف! ان الذي يقول الله تعالى في حقه (ما زاغ البصرُ وما طغى) (النجم:17) والذي يقول عن نفسه تنام عينـــاي ولا ينـــام قلبي[124] هو اليقظان الحقيقي، فلا تنكر ما يراه هو، بل عبّر عنه وجِد تعبيراً له في رؤيـــاك، والتمس له تفسيراً، اذ لو لسعت بعوضة شخصاً نائماً، فان آثار ذلك تظهر عليه وكأنه قـــد جرح في الحرب، واذا ما استفسر عنه بعد صحوه، فسيقول: نعم كنت في حـــرب داميـــة

[124] اخرجه احمد (2/151، 438) واسناده حسن من اجل ابن عجلان. واخرجه ايضاً ابن حبان (2124). لكن للحديث شواهد يرتقي بها الى درجة الصحة، منها ما اخرجه البخاري والنسائي من حديث عائشة رضي الله عنها، وشاهد آخر اخرجه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه، وآخر من حديث ابن عباس رضي الله عنهما اخرجه احمد (10/274) والترمذي (5121) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وانظر المجمع (8/242) والطبقات لابن سعد (1/107).ـــــ المترجم.

والمدافع مصوبة نحوي! بينما اليقظون الذين حوله يأخذون اضطرابه هذا مأخذ الاستهزاء. فنظرُ الغفلة المنومة وفكر الفلسفة المادية لا يمكن ان يكونا قطعاً محكاً للحقائق النبوية.

oالاصل الثاني عشر

ان نظر النبوة والتوحيد والايمان يرى الحقائق في نور الالوهية والآخرة ووحدة الكون لأنه متوجه اليها. أما العلم التجريبي والفلسفة الحديثة فانه يرى الامور من زاوية الاسباب المادية الكثيرة والطبيعة لأنه متوجه اليها. فالمسافة اذن بين زاويتي النظر بعيدة جداً. فرب غاية عظيمة جليلة لدى اهل الفلسفة تافهة وصغيرة لا تكاد ترى بين مقاصد علماء اصول الدين وعلم الكلام. ولهذا فقد تقدم اهل العلم التجريبي كثيراً في معرفة خواص الموجودات وتفاصيلها واوصافها الدقيقة في حين تخلفوا كثيراً حتى عن ابسط المؤمنين وأقلهم علماً في مجال العلم الحقيقي وهو العلوم الإلهية السامية والمعارف الاخروية.

فالذين لا يدركون هذا السر، يظنون ان علماء الاسلام متأخرون عن علماء الطبيعة والفلاسفة، والحال ان من انحدرت عقولهم الى عيونهم واصبحوا لا يفكرون الا بما يرون، وغرقوا في الكثرة من المخلوقات، أنّى لهم الجرأة ليلحقوا بورثة الانبياء عليهم السلام الذين بلغوا المقاصد الإلهية السامية وغاياتها الرفيعة العالية.

ثم ان الرؤية ان كانت من زاويتين مختلفتين، فلاشك من ظهور حقيقتين متباينتين، وقد تكون كلتاهما حقيقة. وحتماً لا تتعارض حقيقة علمية قاطعة مع حقائق النصوص القرآنية المقدسة، اذ اليد القصيرة للعلم التجريبي قاصرة عن بلوغ اهداب طرفٍ من حقائق القرآن الرفيعة المنزهة. وسنورد مثالاً واحداً فقط على هذا:

حقيقة الكرة الارضية في نظر أهل العلم هي:

انها احدى السيارات ذات الحجم المتوسط، تدور حول الشمس، وهي جرم صغير قياساً للكواكب والنجوم التي لا تعد ولا تحصى.

اما اذا نظرنا الى الكرة الارضية بنظر اهل القرآن، فحقيقتها هي كما وضحتها »الكلمة الخامسة عشرة«:

ان الانسان الذي هو ألطف ثمرة العالم، ومعجزة جامعة من معجزات القادر الحكـــيم، وأبدع المخلوقات واعزها وألطفها، مع انه أعجزها وأضعفها.. هذا الانسان يعيش على هذه الارض، فالارض اذن مهدٌ لهذا الانسان، فهي مع صغرها وحقارتها قياســـاً الى الســـموات عظيمة وجليلة من حيث المعنى والمغزى والابداع؛ حتى اصبحت بالمنظور القرآني:

قلب الكون ومركزه من حيث المعنى.. ومعرض جميع المصنوعات المعجزة.. وموضــــع تجلي الاسماء الحسنى كلها، حتى لكانها البؤرة الجامعة لتلك الانوار.. ومحشر الافعال الربانيـــة المطلقة ومرآتها.. وسوق واسع لإبراز الخلاقية الإلهية المطلقة، ولا سيما ايجادها الكثرة الهائلـــة من النباتات والحيوانات الدقيقة بكل جود وكرم.. ونموذج مصغر لمصنوعات عالم الآخـــرة الواسع الفسيح.. ومصنع يعمل بسرعة قصوى لانتاج منسوجات خالدة.. وموضع عـــرض لنماذج المناظر السرمدية المتبدلة بسرعة فائقة.. ومزرعة ضيقة مؤقتة لاستنبات بُذيرات تربّى بسرعة للبساتين الخالدة الرائعة.

لهذا كله يجعل القرآن الكريم الارض صنواً للسموات، من حيث عظمتها معنىً واهميتها صنعةً.وكأنها ثمرة صغيرة لشجرة ضخمة، وكأنها قلب صغير لجسد ضخم. فيذكرها القـــرآن الكريم مقرونة بالسموات، فهي في كفة والسموات كلها في كفة، فتكرر الآية الكريمة:

(رب السموات والارض)

وهكذا فقس سائر المسائل على هذا المنوال، وافهم:

ان الحقائق الميتة المنكفئة للفلسفة، لا يمكنها ان تتصادم مع حقائق القرآن الحية والمنورة. فكلتاهما حقيقة، الا ان الاختلاف هو في زاوية النظر، فتظهر الحقائق مـــتباينة.

الغصن الرابع

(ألم تَرَ أن الله يسجد له مَن في السموات ومَن في الأرض والشمسُ والقمرُ والنجـــومُ والجبالُ والشجرُ والدّوابُّ وكثيرٌ من الناس وكثيرٌ حق عليه العذاب، ومَن يُهنِ الله فما لَه مِن مُكرمٍ اِن الله يفعلُ ما يشاء) (الحج:18)

سنبين جوهرة واحدة فقط من الخزينة العظمى الواسعة لهذه الاية الكريمة، وذلك:

ان القرآن الحكيم يصرح بان كل شئ من العرش الى الفرش، ومن المَلَك الى السمك، ومن المجرات الى الحشرات، ومن السيارات الى الذرات.. كل منها يسجد لله، ويعبده، ويحمده ويقدّسه. الاّ أن عباداتها مختلفة متباينة متنوعة، كلٌ حسب قابلياتها، ومدى نيلها لتجليات الأسماء الحسنى.

نبين هنا تنوّع عبادات المخلوقات وتباينها بمثال:

فمثلاً (ولله المثل الاعلى) أن ملكاً عظيماً وسلطاناً ذا شأن، يستخدم أربعة أنواع من العمال في بناء قصر أو مدينة.

النوع الاول: هم عبيده، هذا النوع لا مرتّب لهم ولا اُجرة. بل ينالون ذوقاً في منتهى اللطف، ويحصلون على غاية الشوق في كل ما يعملونه ويؤدونه بأمر سيّدهم، بل يزدادون مُتعة وشوقاً من أي كلام في مدح سيدهم ووصفه، فحسبُهم الشرف العظيم الذي ينالونه بانتسابهم الى سيدهم. فضلاً عن تلذذهم لذة معنوية اثناء اشرافهم على العمل باسم ذلك المالك، وفي سبيله ونظره اليهم، فلا داعي الى مرتّبٍ ولا الى رتبة ولا الى أجرة.

القسم الثاني: هم خدّام بسطاء، لا يعرفون لماذا يعملون، بل ذلك المالك العظيم هو الذي يستخدمهم ويسوقهم الى العمل بفكره وعلمه، ويعطيهم اجرة جزئية تناسبهم وهؤلاء الخدام لا يعرفون نوع الغايات الكلية والمصالح العظيمة التي تترتب على عملهم، حتى حدا ببعض الناس ان يتوهم ان عمل هؤلاء لا غاية له الاّ اجرة جزئية تخصّهم بالذات.

القسم الثالث: هو الحيوانات التي يملكها ذلك المالك العظيم، ويستخدمها في أعمال بناء القصر والمدينة، ولا يعطيها الاّ علفها. فهذه الحيوانات تتمتع بلذة في اثناء قيامها بعمل يوافق استعداداتها، اذ القابلية أو الاستعداد ان دخلت طور الفعل والعمل بعدما كانت في طور القوة الكامنة، تنبسط وتتنفس، فتورث لذةً، وما اللذة الموجودة في الفعاليات كلها الا نابعة من هذا السر.

فأُجرة هذا القسم من الخدام ومرتّبهم هو العَلف مع لذة معنويةٍ، فهم يكتفون بهما.

القسم الرابع: وهم عمال يعرفون ماذا يعملون، ولماذا يعملون ولمن يعملون. فضلاً عن معرفتهم لِمَ يعمل العمال الآخرون، وما الذي يقصده المالك العظيم ولِمَ يـــدفع الجميـــعَ الى العمل؟

فهذا النوع من العمال، لهم رئاسة على العمال الآخرين، والاشراف علـــيهم، ولهـــم مرتّباهم حسب درجاهم ورتبهم.

وعلى غرار هذا المثال، فان مالك السماوات والارضين ذا الجلال، وباني الدنيا والآخرة ذا الجمال، وهو رب العالمين، يستخدم الملائكة والحيوانات والجمادات والنباتات والانســـان في قصر هذا الكون ضمن دائرة الأسباب، ويسوقهم الى العبادة، لا لحاجةٍ، فهو الخالق، بـــل لأجل إظهار العزة والعظمة وشؤون الربوبية وأمثالها من الحِكَم..

وهكذا فقد كلف هذه الأنواع الاربعة باربعة أنماط مختلفة من العبادة.

القسم الأول: الذين يمثلون العبيد في المثال، هم الملائكة، فهم لا مراتب لهم في الرقـــي بالمجاهدة، اذ لكل منهم مقام ثابت ورتبة معينة، الاّ ان لهم ذوقاً خاصاً في عملهم نفسه، وهم يستقبلون الفيوض الربانية – حسب درجاهم – في عبادهم نفسها.

بمعنى ان اجرة خدماهم مندرجة في عين أعمالهم؛ اذ كما يتلذذ الانسان من الماء والهواء والضياء والغذاء، كذلك الملائكة، يتلذذون ويتغذّون ويتنعمون بانوار الذكر والتسبيح والحمد والعبادة والمعرفة والمحبة، لاهم مخلوقون من نور، فيكفيهم النور غذاءً، بل حتى الروائح الطيبة القريبة من النور، هي الأخرى نوع من غذائهم حيث يُسرّون بها.

نعم! ان الأرواح الطيبة تحب الروائح الطيبة.

ثم ان للملائكة سعادة عظمى الى درجة لا يدركها عقل البشر ولا يستطيع ان يعرفهـــا الاّ المَلَك نفسه، وذلك فيما يعملون من عمل بأمر معبودهم، وفي الأعمال التي يؤدونهـــا في سبيله، والخدمات التي يقومون بها باسمه، والاشراف الذي يزاولونه بنظره، والشرف الـــذي يغنمونه بانتساهم اليه، والتفسح والتتره الذي ينالونه بمطالعة ملكه وملكوته، والتنعم الـــذي يحصلون عليه بمشاهدة تجليات جماله وجلاله.

فقسم من الملائكة عبّاد، وآخرون يزاولون عباداتهم في أعمالهم. والقسم العامل من الملائكة الأرضيين شبيه بنوع الانسان – ان جاز التعبير – فمنهم من يؤدي مهمة رعاية الحيوان وهم الرعاة، ونوع آخر لهم الاشراف على نبات الأرض وهم الفلاحون.. بمعنى ان سطح الأرض مزرعة عامة يشرف عليها مَلك موكل بها، أي يشرف على جميع طوائف الحيوانات التي تدبّ على الأرض بأمر الخالق الجليل، وباذنه، وفي سبيله، وبحوله وقوته. وهناك ملك موكل أصغر، للقيام برعاية خاصة لكل نوع من أنواع الحيوانات.

وحيث ان سطح الأرض مزرعة، تزرع فيها أنواع النباتات كلها، فهناك اذن مَلك موكّل للاشراف على تلك النباتات كلها، باسم الله سبحانه، وبقوته، وهناك مَلك أوطأ مرتبة، يشرف على كل طائفة من طوائف النباتات، وهكذا.. فهناك ملائكة مشرفون، وسيدنا ميكائيل عليه السلام الذي هو من حملة عرش الرزاقية؛ هو المشرف الأعظم على هؤلاء الملائكة.

وان الملائكة الذين هم بمثابة الرعاة والفلاحين يختلفون عن الانسان، لأن اشرافهم على الأمور هو عمل خالص في سبيل الله، وباسمه، وبقوته وبأمره، بل ان اشرافهم هو مشاهدة تجليات الربوبية في النوع الذي اُوكل لهم الاشراف عليه.. ومطالعة تجليات القدرة والرحمة فيه.. والقيام بإلهام الأوامر الإلهية اليه.. وأداء ما يشبه التنظيم في أفعاله الاختيارية. ولا سيما الاشراف على النباتات في مزرعة الأرض.. وتمثيل تسبيحاتها المعنوية واعلان تحياتها المعنوية الى فاطرها الجليل بلسان الملائكة.. علاوة على حُسن استعمال الاجهزة الممنوحة لها وتوجيهها الى غايات معينة والقيام بنوع من التنظيم فيها.

وتعدّ هذه الخدمات التي يؤديها الملائكة نوعاً من كسبٍ بالجزء الاختياري، بل هي نوع من العبادة والعبودية، إذ ليس لهم تصرف حقيقي، لأن كل شئ يحمل سكةً خاصة وختماً معيناً لخالق كل شئ لا يمكن لغيره تعالى أن يحشر نفسه في الايجاد قطعاً.

أي ان هذا النوع من عمل الملائكة هو عباداتهم؛ اذ ليس هي عادات كما هي في الانسان.

القسم الثاني: من العمال في قصر الكون، هو الحيوانات.

وحيث ان الحيوانات لها نفس مشتهية، واختيار جزئي، فلاتكون أعمالها خالصة لوجه الله. بل تستخرج النفسُ حظها، وشهوتَها من عملها ، لذا يمنح مالــك الملــك ذو الجــلال والاكرام ، تلك الحيوانات أجرة ومرّتباً ضمن أعمالها ، تُطمئن نفوسها وتشبعها

فمثلا: البلبل المعروف بعاشق الورود والأزهار[125]، يستخدم الفاطرُ الجليل ذلك الحيوان الصغير ويستعلمه في خمس غايات:

اولاها: انه مأمور ومكلّف – باسم القبائل الحيوانية – باعلان شــدة العلاقــة تجــاه طوائف النباتات.

ثانيتها: انه موظف باعلان الفرح والسرور، والترحيب بالهدايا المرسلة من قبل الــرزاق الكريم، حيث انه خطيب رباني يسأل بتغريده أرزاق الحيوانات – ضيوف الرحمن – المحتاجين الى الرزق.

ثالثتها: اظهار حسن الاستقبال على رؤوس النباتات جميعاً، تعبيراً عن ارسال النباتــات امداداً لبني جنسه من الطير والحيوان.

رابعتها: بيان شدة حاجة الحيوانات الى النباتات التي تبلغ حدّ العشق تجاه الوجوه المليحة للنباتات واعلانها على رؤوس الاشهاد.

خامستها: تقديم ألطف تسبيحٍ الى ديوان رحمة مالك الملك ذي الجــلال والاكــرام في ألطف شوق ووجد، وفي ألطف وجه، وهو الورد.

وهكذا هناك معان أخرى شبيهة بهذه الغايات الخمس.

فهذه المعاني وهذه الغايات هي الغاية من عمل البلبل الذي يقوم به لأجل الحق سبحانه وتعالى. فالبلبل يغرّد بلغته ونحن نفهم هذه المعاني من نغماته الحزينة، مثلما يفهمهــا ايضــاً الملائكة والروحانيات. وان عدم فهم البلبل لمعنى نغماته معرفة كاملة ليس حائلاً امام فهمنــا نحن لذلك، ولا يقدح فيه، والمثل: »رُب مستمع أوعى من متكلم« مشهور.

---

[125] لما كان البلبل يغرّد تغريداً شاعرياً فان بحثنا هذا قد انساب فيه شئ من روح الشاعرية، الاّ انه ليس بخيال بل حقيقة. - المؤلف.

ثم ان عدم معرفة البلبل لهذه الغايات بالتفصيل لا يدل على عدم وجودها، فهو في الأقل كالساعة التي تعرّفك أوقاتك وهي لا تعلم شيئاً مما تعمل. فجهلُها لا يضر بمعرفتك.

اما مرتّب ذلك البلبل ومكافأته الجزئية فهي الذوق الذي يحصل عليه من مشاهدة تبسّم الأزهار الجميلة، والتلذذ الذي يحصل عليه من محاورتها.

أي ان نغماته الحزينة وأصواته الرقيقة ليست شكاوى نابعة من تألمات حيوانية، بل هي شكر وحمد وثناء تجاه العطايا الرحمانية.

وقس على البلبل؛ بلابل النحل والعنكبوت والنمل والهوام والحيوانات الصغيرة، فلكل منها غايات كثيرة في أعمالها، ادرج فيها ذوق خاص، ولذة مخصوصة، كمرتّب وكمكافئة جزئية، فهي تخدم غايات جليلة لصنعة ربانية بذلك الذوق. فكما ان لعامل بسيط في سفينة السلطان مرتّبهُ الجزئي، كذلك لهذه الحيوانات التي تخدم الخدمات السبحانية مرتّبها الجزئي.

تتمة لبحث البلبل:

لا تحسبنّ ان هذه الوظيفة الربانية في الاعلان والدلالة والتغني بهزجات التسبيحات خاص بالعندليب. بل ان لكل نوع من أكثر انواع المخلوقات صنفاً شبيهاً بالعندليب، له فرد لطيف أو أفراد يمثلون ألطف مشاعر ذلك النوع ويتغنى بألطف التسبيحات بألطف السجعات، ولا سيما أنواع الهوام والحشرات، فبلابلها كثيرة، وعنادلها متنوعة جداً، تُمتّع جميع مَن له آذان صاغية اليهم بدءاً من أصغر حيوان الى أكبره، وتنثر على رؤوسهم تسبيحاتها بأجمل نغماتها.

وقسم من هذه البلابل ليلي، يكونون الأنيس المحبوب والقاصّ المؤنس في ذلك الليل الساكن والموجودات الصامتة، للحيوانات الصغيرة التي خلدت الى الهدوء، حتى كأن كلاً من تلك البلابل قطبٌ في حلقة ذكر خفي وسط ذلك المجلس الذي انسحب كل فرد فيه الى الهدوء والسكون ينصت الى نوع من ذكر الله وتسبيحه، بقلبه المطمئن الى الفاطر الجليل.

وقسم آخر من هذه البلابل نهاري، يعلنون في وضح النهار رحمة الرحمن الرحيم على منابر الاشجار وعلى رؤوس الاشهاد، ويتغنون بها، ولا سيما في موسم الصيف والربيع،

وينثرون بتغريداتهم الرقيقة وشَدوِهم اللطيف وتسبيحاتهم المسجّعة الوجدَ والشوق، لدى كل سامع لهم، حتى يشرع السامع بذكر فاطره الجليل بلسانه الخاص، وبنغماته الخاصة.

بمعنى ان لكل نوع من أنواع الموجودات بلبله الخاص به، فهو رئيس حلقة ذكر خاص بهم. بل حتى لنجوم السماء بلبلها الخاص بها، يشدو بأنواره ويترنم باضوائه.

ولكن.. أفضل هذه البلابل طراً وأشرفها وأنورها وابهرها واعظمها وأكرمها، واعلاها صوتاً واجلاها نعتاً واتمّها ذكراً واعمّها شكراً وأكملها ماهية واحسنها صورة، هو الذي يثير الوجدَ والجذب والشوق في الأرض والسماوات العلى، في بستان هذا الكون العظيم، بسجعاته اللطيفة وتضرعاته اللذيذة، وتسبيحاته العلوية.. وهو العندليب العظيم لنوع البشر، في بستان الكائنات، بلبل القرآن لبني آدم، محمد الأمين، عليه وعلى أله وامثاله، أفضل الصلوات واجمل التسليمات.

خلاصة ما سبق: ان الحيوانات الخادمة في قصر الكون تمتثل الأوامر التكوينية امتثالاً تاماً، وتظهر ما في فطرتها من غايات بأجمل صورتها باسم الله. فتسبيحاتها؛ هي قيامها بوظائف حياتها بأبدع طراز بقوة الله سبحانه، وببذل الجهد في العمل. وعباداتها؛ هي هداياها وتحياتها التي تقدمها الى الفاطر الجليل واهب الحياة.

القسم الثالث من العمال: هم النباتات والجمادات.. هؤلاء العمال لا مرتّب لهم ولا مكافأة، لأن لا اختيار لهم، فاعمالهم خالصة لوجه الله. وحاصلة بمحض ارادته سبحانه وباسمه وفي سبيله، وبحوله وقوته. الاّ انه يُستشعر من أحوال النباتات ان لها نوعاً من التلذذ في ادائها وظائف التلقيح والتوليد وانماء الثمار. الاّ انها لا تتألم قط، بخلاف الحيوانات التي لها آلام ممزوجة باللذائذ، حيث ان لها اختياراً. ولأجل عدم تدخل الاختيار في أعمال النباتات والجمادات تكون اثارهما أتقن وأكمل من أعمال الحيوانات التي لها اختيار. وفي النحل – مثلاً – التي تتنور بالوحي والالهام، يكون الاتقان في الاعمال أكمل من حيوان آخر يعتمد على جزئه الاختياري.

وكل طائفة من طوائف النباتات في مزرعة الأرض تسأل من فاطرها الحكيم وتدعوه بلسان الحال والاستعداد، قائلة:

يا ربنا آتنا من لدنك قوة، كي ننصب راية طائفتنا في أرجاء الأرض كافــة، لــنعلن بلساننا عظمة ربوبيتك.. ووفقنا يا ربنا لعبادتك في كل ركن من أركــان مســجد الأرض هذا.. وهب لنا قدرة لنسيح في كل ناحية من نواحي معرض الأرض لنشهر فيهــا نقــوش أسمائك الحسنى وبدائع صنعك وعجائبها.

والفاطر الحكيم يستجيب لدعاء النباتات المعنوي هذا، فيهَب لبــذور طائفــة منــها جُنيحات من شعيرات دقيقة لتتمكن بها من الطيران الى كل مكان، فتجعل الناظر اليها يقــرأ أسماء الله الحسنى كما في أغلب النباتات الشوكية وقسم من بذور الأزهار الصفراء، ويهــب سبحانه لآخر نسيجاً طرياً طيباً يحتاجه الانسان ويرتاح اليه، حتى يجعل الانسان خادماً لــه، فيزرعه في كل ناحية.. ويهب لطائفة اخرى ما لا يهضم من شبيه العظام مكسواً بما يشــبه اللحم تستسيغه الحيوانات، فتنشرها في اقطار الأرض.. ويهب لبعضٍ شويكات دقيقة تتعلــق بالأشياء بأدنى تماس. وبهذا ينتقل من مكان الى آخر فينشر راية طائفته هناك.

وهكذا تنشر النباتات بدائع صنع الله سبحانه وتعالى فيهب لقسم آخر علبــاً مملــوءة بالبذور تقذف بها الى مسافة أمتار حين نضوجها..

وقس على هذا المنوال كيف تستنطق النباتات ألسنة كثيرة في ذكر الفاطر الجليــل وفي تقديسه. فلقد خلق الفاطر الحكيم والقدير العليم، كل شئ، في أحسن صورة، وفي اكمــل انتظام، وجهّزه بأفضل جهاز، ووجّهه الى أحسن وجهة، ووظفه بأحسن وظيفة، فيقوم الشئ بأفضل التسبيحات واجملها، ويؤدي العبادات على أفضل الوجوه.

فان كنت أيها الانسان انساناً حقاً، فلا تقحم الطبيعة والمصادفة والعبثية والضــلالة في هذه الأمور الجميلة، ولا تشوّه جمالها بعملك القبيح، فتكون قبيحاً.

القسم الرابع: هو الانسان، فالانسان الذي هو نوع من أنواع الخدم العاملين في هــذا القصر، قصر الكون، هذا الانسان شبيه بالملائكة من جهة، وشبيه بالحيوان من جهة اخرى، اذ يشبه الملائكة في العبادة الكلية وشمول الاشراف واحاطة المعرفة وكونه داعياً الى الربوبيــة الجليلة، بل الانسان هو اكثر جامعية من الملائكة، لأنه يحمل نفساً شريرة شهوية – بخــلاف

الملائكة – وأمامه نجدان، له ان يختار، اما رقياً عظيماً أو تدنياً مريعاً. ووجه شـــبه الانســـان بالحيوان هو انه يبحث في أعماله عن حظٍ لنفسه، وحصةٍ لذاته، لذا فالانسان له مرتّبان:

الأول: جزئي حيواني معجل

والثاني: كلي ملائكي مؤجل

ولقد ذكرنا في الكلمات الثلاث والعشرين السابقة قسماً من مكافأة ومرتّب الانســـان ووظائفه، ومدارج رقيه وتدنيه، ولا سيما في الكلمة »الحادية عشرة والثالثة والعشـــرين« اذ فيهما تفصيل بيان، لذا نختصر هذا البحث ونختم بابه سائلين العلي القدير ان يفـــتح علينـــا أبواب رحمته ويوفقنا الى اتمام هذه الكلمة، راجين منه سبحانه وتعالى ان يعفو عـــن ســـيئاتنا ويغفر لنا خطايانا.

الغصن الخامس

لهذا الغصن خمس ثمرات:

oالثمرة الاولى:

يا نفسي المحبة لنفسها، ويا رفيقي العاشق للدنيا!

اعلمي! ان المحبة سبب وجود هذه الكائنات، والرابطة لأجزائها، وانها نور الأكـــوان، وحياتها.

ولما كان الانسان أجمع ثمرة من ثمرات هذا الكون، فقد اُدرجت في قلبه – الذي هـــو نواة تلك الثمرة – محبة قادرة على الاستحواذ على الكائنات كلها.

لذا لا يليق بمثل هذه المحبة غير المتناهية الاّ صاحب كمالٍ غير متناهٍ.

فيا نفسي! ويا صاحبي!

لقد أودع الله سبحانه جهازين في فطرة الانسان، ليكونا وسيلتين للخوف وللمحبـــة، وتلك المحبة والخوف إما سيتوجهان الى الخلق أو الى الخالق. علماً ان الخوف من الخلق بليـــة أليمة، والمحبة المتوجهة نحوه أيضاً مصيبة منغّصة؛ اذ إنك ايها الانسان تخاف من لا يرحمك، أو لا يسمع استرحامك. فالخوف اذاً في هذه الحالة بلاء أليم.

اما المحبة؛ فان ما تحبه، إما انه لا يعرفك، فيرحل عنك دون توديع - كشبابكَ ومالكَ -أو يحقّرك لمحبتك! ألا ترى ان تسعة وتسعين في المائة من العشاق المجازيين يشكون عن معشوقيهم، ذلك لأن عشق محبوبات دنيوية شبيهة بالاصنام لحد العبادة بباطن القلب الذي هو مرآة الصمد ثقيل في نظر اولئك المحبوبين، إذ الفطرة تردّ كل ما هو ليس فطري وأهلٌ له. (والحب الشهواني خارج عن بحثنا).

بمعنى: ان ما تحبه من أشياء إما انها لا تعرفك أو يحقّرك أو لا يرافقك، بل يفارقك وانفك راغم.

فما دام الأمر هكذا؛ فاصرف هذه المحبة والخوف الى مَن يجعل خوفك تذللاً لذيذاً، ومحبتك سعادة بلا ذلة.

نعم! ان الخوف من الخالق الجليل يعني وجدان سبيل الى رأفته ورحمته تعالى للالتجاء اليه. فالخوف بهذا الاعتبار هو سوط تشويقٍ يدفع الانسان الى حضن رحمته تعالى. اذ من المعلوم ان الوالدة تخوّف طفلها لتضمّه الى صدرها. فذلك الخوف لذيذ جداً لذلك الطفل. لأنه يجذب ويدفع الطفل الى صدر الحنان والعطف. علماً ان شفقة الوالدات كلهن ما هي الاّ لمعة من لمعات الرحمة الإلهية. بمعنى ان في الخوف من الله لذة عظيمة. فلئن كان للخوف من الله لذة الى هذا الحد، فكيف بمحبة الله سبحانه، ألا يفهم كم من اللذائذ غير المتناهية فيها.

ثم ان الذي يخاف من الله ينجو من الخوف من الآخرين، ذلك الخوف المليء بالقساوة والبلايا.

ثم ان المحبة التي يوليها الانسان الى المخلوقات ان كانت في سبيل الله لا تكون مشوبة بألم الفراق.

نعم، ان الانسان يحب نفسه أولاً، ثم يحب أقاربه، ثم أمته، ثم الاحياء من المخلوقات، ثم الكائنات، ثم الدنيا، فهو ذو علاقة مع كل دائرة من هذه الدوائر، ويمكن ان يتلذذ بلذائذها ويتألم بآلامها. بينما لا يقر قرار لشئ في هذا العالم الصاخب الذي يموج بالهرج والمرج، وتعصف فيه العواصف المدمّرة، لذا ترى قلب الانسان المسكين يجرح دائماً.

فالاشياء التي يتشبث بها هي التي تجرحه بالذهاب عنه، بل قد تقطع يده، لذا لا ينجـــو الانسان من قلق دائم، وربما يلقي نفسه في أحضان الغفلة والسُكر.

فيا نفسي! ان كنت تعقلين، فاجمعي اذن جميع أنواع تلك المحبة وسلّميها الى صـــاحبها الحقيقي وانجي من هذه البلايا.

فهذه الأنواع من المحبة غير المتناهية انما هي مخصوصة لصاحب كمال وجمال لا نهايـــة لهما. ومتى ما سلمتيها الى صاحبها الحقيقي يمكنك ان تحبي الأشياء جميعها باسمه دون قلـــق ومن حيث انها مراياه.

بمعنى انه ينبغي الاّ تصرفي هذه المحبة مباشرة الى الكائنات، وإلاّ تنقلب المحبةُ الى نقمـــةٍ أليمة بعد ان كانت نعمة لذيذة.

ظل أمر آخر وهو أهم مما ذكر:

انك يا نفسي تولين وجه محبتك الى نفسك بالذات، فتجعلين نفسك، محبوبة نفسها بل معبودة لها، وتضحين بكل شئ في سبيلها وكأنك تمنحينها نوعاً من الربوبية، مع ان ســـبب المحبة إما كمال، والكمال محبوب لذاته، أو منفعة أو لذة أو فضيلة أو أي سبب مشابه بهـــذه الاسباب المؤدية الى المحبة.

والآن يا نفسي!

لقد أثبتنا في عدد من »الكلمات« اثباتاً قاطعاً: ان ماهيتك الاصلية هي عجينة مركبـــة من القصور والنقص والفقر والعجز. فانك حسب الضدّية تؤدين وظيفة المـــرآة، فبـــالنقص والقصور والفقر والعجز الموجود في ماهيتك أصلاً، تظهرين كمال الفاطر الجليـــل وجمالـــه وقدرته ورحمته، مثلما يبيّن الظلامُ الدامس سطوع النور.

فيا أيتها النفس!

عليك الاّ تحبي نفسك بل الأولى لك معاداتها، أو التألم لحالها، والاشفاق عليها، بعد أن تصبح نفساً مطمئنة.

فان كنت تحبين نفسك لكونها منشأ اللذة والمنفعة، وانتِ مفتونة بأذواق اللذة والمنفعة، فلا تفضّلي لذة نفسانية بقدر ذرة على لذة لا نهاية لها ومنافع لا حدّ لها، فلا تكوني كاليراعة

التي تغرق جميع الأشياء وجميع أحبتها في وحشة الظلام مكتفية هي بلُميعة في نفسها. لأن لذتك النفسانية ومنفعتك وما تنتفعين من وراء منفعتهم وما تسعدين بسعادتهم وجميع منافع الكائنات ونفعها كلها انما هي من لطف محبوب أزلي سبحانه.

فعليك اذاً ان تحبي ذلك المحبوب الأزلي حتى تلتذي – بسعادتك وبسعادة اولئك – بلذة لا منتهى لها من محبة الكمال المطلق.

وفي الحقيقة ان محبتك الشديدة لنفسك والمغروزة فيك، ما هي الاّ محبة ذاتية متوجهة الى ذات الله الجليلة سبحانه، الاّ انكِ أسأت استعمال تلك المحبة فوجهتيها الى ذاتك، فمزّقي يا نفسي اذن ما فيك من »أنا« واظهري »هو«. فان جميع أ نواع محبتك المتفرقة على الكائنات انما هي محبة ممنوحة لك تجاه اسمائه الحسنى وصفاته الجليلة، بيد أنكِ أسأت استعمالها فستنالين جزاء ما قدمت يداك. لأن جزاء محبةٍ غير مشروعة وفي غير محلها، مصيبة لا رحمة فيها.

وان محبوباً أزلياً اعدّ – باسمه الرحمن الرحيم – مسكناً جامعاً لجميع رغباتك المادية، وهو الجنّة المزينة بالحور العين، وهيأ بسائر اسمائه الحسنى آلاءه العميمة لإشباع رغبات روحك وقلبك وسرّك وعقلك وبقية لطائفك. بل له سبحانه في كل اسم من أسمائه الحسنى خزائن معنوية لا تنفد من الاحسان والاكرام. فلاشك ان ذرة من محبة ذلك المحبوب الأزلي تكفي بديلاً عن الكائنات كلها ولا يمكن ان تكون الكائنات برمتها بديلاً عن تجلٍ جزئي من تجليات محبته سبحانه.

فاستمعي يا نفسي واتبعي هذا العهد الأزلي الذي انطقه ذلك المحبوب الأزلي، حبيبه الكريم بقوله تعالى:

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (آل عمران: 31).

oالثمرة الثانية:

يا نفس: ان وظائف العبودية وتكاليفها ليست مقدمة لثواب لاحق، بل هي نتيجة لنعمة سابقة.

نعم؛ نحن قد أخذنا أجرتنا من قبل، وأصبحنا بحسب تلك الاجرة المقدمة لنا مكلفين بالخدمة والعبودية؛ ذلك:

لان الخالق ذا الجلال والاكرام الذي ألبسك - ايتها النفس - الوجود وهو الخير المحض قد أعطاك باسمه »الرزاق« معدة تتذوّقين وتتلذذين بجميع ما فرشه أمامك على مائدة النعمة من مأكولات. ثم انه وهب لك حياة حساسة، فهي كالمعدة تطلب رزقا لها، فوضع امام حواسك من عين وأذن وهي كالأيدي مائدة نعمة واسعة سعة سطح الارض. ثم وهب لك انسانية تطلب بدورها أرزاقاً معنوية كثيرة، ففتح امام معدة الانسانية آفاق الملك والملكوت بمقدار ما يصل اليه العقل.

وبما وهب لك من الاسلام والايمان الذي هو »الانسانية الكبرى« والذي يطلب نعماً لا نهاية لها، ويتغذى على ثمار الرحمة التي لا تنفد، فتح لك مائدة النعمة والسعادة واللذة الشاملة للاسماء الحسنى، والصفات الربانية المقدسة، ضمن دائرة الممكنات. ثم أعطاك المحبة التي هي نور من أنوار الايمان، فأحسن اليك بمائدة نعمة وسعادة ولذة لا تنتهي أبداً.

بمعنى انك قد اصبحت - باحسانه سبحانه وتعالى - بحسب جسمك الصغير المحدود المقيد الذليل العاجز الضعيف من جزء الى كلّي، والى كلّ نوراني، اذ قد رفعك من الجزئية الى نوع من الكلية، بما أعطاك »الحياة« ، ثم الى الكلية الحقيقية، بما وهب لك »الانسانية«، ثم الى الكلية النورانية السامية بما أحسن اليك »الايمان« ومنها رفعك الى النور المحيط الشامل بما أنعم عليك من »المعرفة والمحبة«.

فيا نفس!

لقد قبضت مقدماً كل هذه الاجور والاثمان؛ ثم كلّفت بالعبودية وهي خدمة لذيذة وطاعة طيبة بل مريحة خفيفة؛ أفبعد هذا تتكاسلين عن أداء هذه الخدمة العظيمة المشرفة؟ وتقولين بدلال: لِمَ لا يقبل دعائي. حتى اذا ما قمت بالخدمة بشكل مهلهل تطالبين باجرة عظيمة اخرى، وكأنك لم تكتفي بالاجرة السابقة؟

نعم؛ انه ليس من حقك الدلال أبداً، وانما من واجبك التضرع والدعاء، فالله سبحانه وتعالى يمنحك الجنة والسعادة الابدية بمحض فضله وكرمه، لذا فالتجئى الى رحمته، واعتمدي عليها، ورددى هذا النداء العلوي الرباني:

(قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون) (يونس:58)

واذا قلت: كيف يمكنني أن أقابل تلك النعم الكلية التي لا تحد بشكري المحدود الجزئي؟

فالجواب: بالنية الكلية، وبالاعتقاد الجازم الذي لا حدّ له.

فمثلاً: ان رجلا يدخل الى ديوان السلطان بهدية زهيدة متواضعة بقيمة خمسة فلوس، ويشاهد هناك هدايا مرصوصة تقدر أثمانها بالملايين أرسلت الى السلطان من قبل ذوات مرموقين. فعندها يناجي نفسه: ماذ اعمل؟ ان هديتي زهيدة ولا شئ! الاّ انه يستدرك ويقول فجأة :

- يا سيدي؛ انني اقدم لك جميع هذه الهدايا باسمي، فانك اهل لها، ويا سيدي العظيم، لو كان باستطاعتي ان اقدّم لك أمثال هذه الهدايا الثمينة لما ترددت.

وهكذا فالسلطان الذي لا حاجة له الى أحد والذي يقبل هدايا رعاياه رمزاً يشير الى مدى اخلاصهم وتعظيمهم له، يقبل تلك الهدية المتواضعة جداً من ذلك الرجل المسكين كأنها أعظم هدية، وذلك بسبب تلك النية الخالصة منه، والرغبة الصادقة، واليقين الجازم الجميل السامي.

وهكذا، فالعبد العاجز عندما يقول في الصلاة: (التحيات للّه) ينوى بها:

انني ارفع اليك يا إلهي باسمي هدايا العبودية لجميع المخلوقات - التي هي حياتها - فلو كنت استطيع ان اقدم التحيات اليك يا ربي بعددهم لما احجمت ولا ترددت، فانك أهلٌ لذاك، بل اكثر.

فهذه النية الصادقة والاعتقاد الجازم، هي الشكر الكلي الواسع.

ولنأخذ مثلاً من النباتات حيث النوى والبذور فيها بمثابة نيّاتها. فالبطيخ مثلاً يقول بما ينوى من آلاف النوى التي في جوفه: يا خالقي انني على شوق ورغبة أن اعلن نقوش اسمائك الحسنى في ارجاء الارض كلها.

وحيث أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يحدث وكيف يحدث، فانه يقبل النية الصادقة كأنها عبادة فعلية، اي كأنها حدثت. ومن هنا تعلم كيف ان نية المؤمن خير من عمله، وتفهم كذلك حكمة التسبيح باعداد غير نهائية في مثل:

(سبحانك وبحمدك عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومـــداد كلماتـــك) [126] ونسبحك بجميع تسبيحات أنبيائك وأوليائك وملائكتك.

فكما ان الضابط المسؤول عن الجنود يقدم اعمالهم وانجازاتهم الى السـلطان باسمـه، كذلك هذا الانسان الذي هو ضابط على المخلوقات، وقائد للنباتات والحيوانات، ومؤهـل ليكون خليفة على موجودات الارض، ويعدّ نفسه مسـؤولاً ووكيلاً عمّا يحدث فـي عالمه الخاص.. يقول بلسان الجميع: اياك نعبد واياك نستعين فيقدّم الى المعبود ذي الجـلال جميـع عبادات الخلق واستعاناتهم.. ويجعل الموجودات قاطبة كذلك تتكلم باسمه وذلك عند قوله:

سبحانك بجميع تسبيحات جميع مخلوقاتك، وبألسنة جميع مصنوعاتك.

ثم انه يصلى على النبي)ص(باسم جميع الاشياء على الارض:

اللّهم صلّ على محمد بعدد ذرات الكائنات ومركباتها.. اذ ان كل شئ في الوجود لـه علاقة مع النور المحمدي عليه الصلاة والسلام.

وهكذا افهم حكمة الاعداد غير النهائية في التسبيحات والصلوات.

oالثمرة الثالثة:

فيا نفس! ان كنت حقاً تريدين ان تنالي عملاً أخروياً خالداً في عمر قصير؟ وان كنت حقاً تريدين ان تري فائدة في كل دقيقة من دقائق عمرك كالعمر الطويل؟ وان كنت حقـاً تريدين أن تحوّلي العادة الى عبادة وتبدلي غفلتك الى طمأنينة وسكينة. فاتبعي السنّة النبويـة الشريفة.. ذلك: لان تطبيق السنّة والشرع في معاملةٍ ما ، يورث الطمأنينة والسكينة، ويصبح نوعاً من العبادة، بما يثمر من ثمرات اخروية كثيرة.

فمثلاً: اذا ابتعت شيئاً، ففي اللحظة التي تطبق الامر الشرعي – الايجاب والقبول – فان جميع هذا البيع والشراء يأخذ حكم العبادة حيث تذكرك بالحكم الشرعي، مما يعطي تصوّراً

---

[126] حديث صحيح اخرجه احمد في المسند 6/ 325 و 429- 430 ومسلم برقم 2726 والترمذي 3626 تحفة. وقال: هذا حديث حسن صحيح وابو داود 2503 والنسائي 77/4 وابن ماجه - المترجم.

روحياً، وهذا التصور يذكرك بالشارع الجليل سبحانه، اي يعطي توجهاً إلهياً. وهذا هو الذي يسكب السكينة والطمأنينة في القلب.

اي ان انجاز الاعمال وفق السنة الشريفة يجعل العمل الفاني القصير مداراً للحياة الابدية، ذات ثمار خالدة. لذا فانصتي جيداً الى قوله تعالى:

(فآمنوا باللّه ورسوله النبي الامّي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) (الاعراف:158) واسعي ان تكوني مظهراً جامعاً شاملاً لفيض تجلٍ لكل اسم من تجليات الاسماء الحسنى المنتشرة في احكام السنة الشريفة والشرع.

o الثمرة الرابعة:

ايتها النفس! لا تقلدي أهل الدنيا، ولا سيما أهل السفاهة وأهل الكفر خاصة، منخدعةً بزينتهم الظاهرية الصورية، ولذائذهم الخادعة غير المشروعة، لانك بالتقليد لا تكونين مثلهم قطعاً، بل تتردىن كثيراً جداً، بل لن تكوني حتى حيواناً ايضاً، لأن العقل الذي في رأسك يصبح آلة مشؤومة مزعجة تنزل بمطارقها على رأسك، اذ ان كان ثمة قصر فخم فيه مصباح كهربائي عظيم تشعبت منه قوة الكهرباء الى مصابيح أصغر فأصغر موزعة في منازل صغيرة مرتبطة كلها بالمصباح الرئيس. فلو أطفأ أحدهم المصباح الكهربائي الكبير، فسيعم الظلام المنازل الأخرى كلها وتستولى الوحشة فيها، ولكن لأن هناك مصابيح في قصور أخرى غير مربوطة بالمصباح الكبير في القصر الفخم، فان صاحب القصر هذا إن أطفأ المصباح الكهربائي الكبير فان مصابيح صغيرة تعمل على الاضاءة في القصور الأخرى، ويمكنه ان يؤدي بها عمله، فلا يستطيع اللصوص نهب شئ منه.

فيا نفسي!

القصر الأول، هو المسلم، والمصباح الكبير، هو؛ سيدنا الرسول)ص(في قلب ذلك المسلم، فإن نسيه وأخرج الايمان به من قلبه – والعياذ بالله – فلا يؤمن بعدُ بأي نبي آخر. بل لا يبقى موضع للكمالات في روحه، بل ينسى ربه الجليل ويكون ما أُدرج في ماهيته من منازل ولطائف طعمة للظلام، ويحدث في قلبه دماراً رهيباً وتستولي عليه الوحشة، تُرى ما

الذي يغني عن هذا الدمار الرهيب، وما النفع الذي يكسبه حتى يستطيع ان يعمرّ ذلك الدمار والوحشة؟!

أما الاجانب فانهم يشبهون القصر الثاني، بحيث لو أخرجوا نور محمد)ص(من قلوبهم، تظل لديهم أنوار - بالنسبة لهم - أو يظنون أنها تظل! اذ يمكن ان يبقى لديهم شئ من العقيدة بالله والايمان بموسى وعيسى - عليهما السلام - والذي هو محور كمال اخلاقياتهم.

فيا نفسي الامارة بالسوء!

اذا قلت: انا لا أريد أن اكون اجنبياً بل حيواناً، فلقد كررنا عليك القول يا نفسي! إنك لن تكوني حتى كالحيوان، لانك تملكين عقلاً. فهذا العقل - الجامع لآلام الماضي ومخاوف المستقبل - يُنزل ضرباتٍ موجعة وصفعات مؤلمة برأسك وعينك، فيذيقك الوف الآلام في ثنايا لذة واحدة، بينما الحيوان يستمتع بلذة غير مشوبة بالآلام. لذا ان أردت ان تكوني حيواناً فتخلّي عن عقلك أولاً وارميه بعيداً، وتعرّضي لصفعة التأديب في الآية الكريمة: (كالانعام بل هم أضل) (الاعراف: 179)

oالثمرة الخامسة:

يا نفس! لقد كررنا القول: ان الانسان ثمرة شجرة الخلقة، فهو كالثمرة أبعد شئ عن البذرة، واجمع لخصائص الكل، وله نظر عام الى الجميع، ويضم جهة وحدة الكل، فهو مخلوق يحمل نواة القلب، ووجهه متوجه الى الكثرة - من المخلوقات - والى الفناء، والى الدنيا، ولكن العبادة التي هي حبل الوصال، أو نقطة اتصال بين المبدأ والمنتهى، تصرف وجه الانسان من الفناء الى البقاء، ومن الخلق الى الحق، ومن الكثرة الى الوحدانية، ومن المنتهى الى المبدأ.

لو أن ثمرة قيمة ذات ادراك أوشكت على ان تكوّن البذور، تباهت بجمالها ونظرت الى أسفل منها من ذوي الأرواح وألقت نفسها في أيديهم أو غفلت فسقطت ، فلا شك انها تتفتت وتتلاشى في ايديهم، وتضيع كأية ثمرة اعتيادية، ولكن تلك الثمرة المدركة ان وجدت نقطة استنادها وتمكنت من التفكير في انها ستكون وساطة لبقاء الشجرة واظهار حقيقتها ودوامها، عما تخبئ في نفسها من جهة الوحدة للشجرة، فان البذرة الواحدة لتلك الثمرة الواحدة تنال حقيقة كلية دائمة ضمن عمر باق دائم..

فالانسان الذي تاه في كثرة المخلوقات وغرق في الكائنات، وأخذ حب الدنيا بلبه حتى غره تبسم الفانيات وسقط في أحضانها، لاشك ان هذا الانسان يخسر خسراناً مبيناً، اذ يقع في الضلال والفناء والعدم، أي يعدم نفسه معنى.

ولكن اذا ما رفع هذا الانسان رأسه واستمع بقلب شهيد لدروس الايمان من لسان القرآن، وتوجّه الى الوحدانية فانه يستطيع ان يصعد بمعراج العبادة الى عرش الكمالات والفضائل فيغدو انساناً باقياً.

يا نفسي! لما كانت الحقيقة هي هذه، وانت من الملة الابراهيمية فقولي على غرار سيدنا ابراهيم: (لا أحب الافلين) وتوجهي الى المحبوب الباقي وابكي مثلي، قائلة:

(الأبيات الفارسية لم تدرج هنا، حيث أدرجت في المقام الثاني من الكلمة السابعة عشرة).

الكلمة الخامسة والعشرون

رسالة المعجزات القرآنية

اری من الفضول التحري عن برهانٍ وفي اليد قرآن وهو معجزة خالدة.
أتُراني أتضايق من إلزام الجاحدين، وفي اليد قرآن وهو برهان الحقيقة؟

تنبيه:

لقد عزمنا في بداية هذه الكلمة على ان نكتب خمس شُعَل، ولكن في اواخر الشعلة الاولى - قبل وضع الحروف الجديدة بشهرين[127] اضطررنا الى الأسراع في الكتابة لطبعها بالحروف القديمة، حتى كنا نكتب - في بعض الأيام - عشرين او ثلاثين صحيفة في غضون ساعتين او ثلاث ساعات، لذا اكتفينا بثلاث شُعَلٍ فكتبناها مجملةً مختصرة، وتركنا الآن شعلتين.

فآمل من اخواني الكرام ان ينظروا بعين الأنصاف والمسامحة الى ما كان مني من تقصيرات ونقائص واشكالات واخطاء.

[127] هذه الجملة هي زيادة المؤلف نفسه بخطه في نسخة مخطوطة لديّ، وهي تحدد زمن تأليف هذه الرسالة، اذ كان قرار استعمال الحروف اللاتينية (الجديدة) وحظر استعمال الحروف العربية في 23/11/1928 . - المترجم.

ان كل آية من اكثر الآيات الواردة في هذه الرسالة »المعجزات القرآنية« إما أنها اصبحت موضع انتقاد الملحدين، أو أصابها اعتراض اهل العلوم الحديثة، أَو مسَّتها شبهات شياطين الجن والانس واوهامهم.

ولقد تناولت هذه »الكلمة الخامسة والعشرون« تلك الآيات وبيَّنت حقائقها ونكاتها الدقيقة على أفضل وجه، بحيث ان ما ظنه اهلُ الالحاد والعلوم من نقاط ضعف ومدار نقص، أثبتته الرسالة بقواعدها العلمية أنه لمعات اعجاز ومنابع كمال بلاغة القرآن.

اما الشبهات فقد اُجيبت عنها اجوبة قاطعة من دون ذكر الشبهة نفسها وذلك لـئلا تتكدر الأذهان. كما في الآية الكريمة (والشمس تجري..) (والجبال اوتاداً). إلاّ ما ذكرناه من شبهاتهم في المقام الأول من الكلمة العشرين حول عدد من الآيات.

ثم ان هذه الرسالة »المعجزات القرآنية« وإن كُتبت باختصار شديد وفي غاية السرعة إلاّ أنها قد بيّنت جانب البلاغة وعلوم العربية بياناً شافياً باسلوب علمي رصين وعميق يثير اعجاب العلماء.

وعلى الرغم من ان كل بحث من بحوثها لا يستوعبه كل مهتم ولا يستفيد منه حق الفائدة، فإن لكلٍ حظه المهم في تلك الرياض الوارفة.

والرسالة وإن أُلّفت في اوضاع مضطربة وكتبتْ على عجل، ومع ما فيها من قصور في الافادة والتعبير، إلاّ انها قد بينت حقائق كثير من المسائل المهمة من وجهة نظر العلم.

سعيد النورسي

رسالة المعجزات القرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل لئن اجتمعتِ الانسُ والجن على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلهِ ولو كـــانَ بعــــــضُهم لبعـــضٍ ظهيراً) (الاسراء:88)

لقد اشرنا الى نحو أربعين وجهاً من وجوه إعجازٍ لا تُحد للقرآن الحكيم الذي هو منبع المعجزات والمعجزة الكبرى للرسول الكريم)ص(، وذلك في رسائلي العربية، وفي رسائل النور العربية، وفي تفسيري الموسوم بـــ »اشارات الاعجاز في مظان الايجاز« وفي الكلمات الاربع والعشرين السابقة.

وفي هذه الرسالة نشير الى خمسةٍ من تلك الوجوه ونبيّنها بشيءٍ من التفصيل، ونـــدرج فيها سائر الوجوه مجملةً.

وفي المقدمة نشير الى تعريف القرآن الكريم وماهيته.

المقدمة

»عبارة عن ثلاثة اجزاء«

* الجزء الأول:

القرآن ما هو؟ وما تعريفه؟

لقد وضّح في الكلمة التاسعة عشرة واثبت في رسائل اخرى ان القرآن:

هو الترجمةُ الازلية لكتاب الكائنات الكبير.. والترجمانُ الابدي لألسنتها المتنوعة التاليـــة للايات التكوينية.. ومفسّرُ كتاب عالَم الغيب والشهادة.. وكذا هو كشّافٌ لمخفيات الكنوز المعنوية للاسماء الإلهية المستترة في صحائف السماوات والأرض.. وكذا هو مفتـــاح لحقـــائق الشؤون المضمَرة في سطور الحادثات.. وكذا هو لسان عالَم الغيب في عالم الشهادة.. وكذا هو خزينةٌ للمخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية الواردة من عالم الغيب المستور وراء حجاب عالم الشهادة هذا.. وكذا هو شمسُ عالم الاسلام المعنـــوي وأساسُـــه وهندسته.. وكذا هو خريطةٌ مقدسةٌ للعوالم الاخروية.. وكذا هو القولُ الشارح والتفســـيرُ الواضح والبرهانُ القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته واسمائه وشؤونه.. وكذا هـــو المربي لهذا العالم الانساني.. وكالماء والضياء للانسانية الكبرى التي هي الاسلام.. وكذا هـــو الحكمة الحقيقية لنوع البشر.. وهو المرشد المهدي الى ما يسوق الأنسانية الى السعادة.. وكذا هو للانسان: كما انه كتاب شريعةٍ، كذلك هو كتابُ حكمةٍ، وكما انـــه كتـــابُ دعـــاءٍ وعبوديةٍ، كذلك هو كتابُ أمرٍ ودعوةٍ، وكما أنه كتابُ ذكرٍ كذلك هو كتابُ فكرٍ.. وهو الكتاب الوحيد المقدس الجامع لكل الكتب التي تحقق جميع حاجات الانسان المعنوية، حتى انه قد ابرز لمشرَب كلِّ واحدٍ من اهل المشارب المختلفة، ولمسلك كلِّ واحدٍ من اهل المســـالك المتباينة من الاولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرَب وتنويره، ولمساقِ ذلك المسلك وتصويره. فهذا الكتاب السماوي اشبهُ ما يكون بمكتبةٍ مقدسةٍ مشحونةٍ بالكتب.

* الجزء الثاني وتتمة التعريف: لقد وضّح في»الكلمة الثانية عشرة« واثبـــت فيهـــا: ان القرآن قد نزل من العرش الاعظم، من الاسم الاعظم، من اعظم مرتبة من مراتب كل اســـم من الأسماء الحسنى؛ فهو كلام اللّه بوصفه ربّ العالمين، وهو امر الله بوصفه إله الموجـــودات، وهو خطابه بوصفه خالق السموات والارض، وهو مكالمةٌ سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو

خطاب ازلي باسم السلطنة الإلهية الشاملة العظمى، وهو سجل الالتفات والتكريم الرحماني النابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شئ، وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الالوهية – اذ في بدايات بعضها رموز وشفرات – وهو الكتاب المقدس الذي ينشر الحكمة، نازلٌ من محيط الاسم الاعظم ينظر الى ما احاط به العرش الاعظم. ومن هذا السر أُطلق على القرآن الكريم ويطلق عليه دوماً ما يستحقه من اسم وهو:»كلام الله«. وتأتي بعد القرآن الكريم الكتب المقدسة لسائر الانبياء عليهم السلام وصحفهم. أما سائر الكلمات الإلهية التي لا تنفد، فمنها ما هو مكالمة في صورة إلهامٍ نابع باعتبار خاص، وبعنوان جزئي، وبتجلٍ خاص لإسم خصوصي، وبربوبية خاصة، وسلطان خاص، ورحمة خصوصية. فإلهامات المَلَك والبشر والحيوانات مختلفة جداً من حيث الكلية والخصوصية.

* الجزء الثالث: ان القرآن الكريم، كتاب سماوي يتضمن اجمالاً؛ كتبَ جميع الانبياء المختلفة عصورهم، ورسائل جميع الاولياء المختلفة مشاربهم، وآثار جميع الاصفياء المختلفة مسالكهم.. جهاتُه الست مُشرقة ساطعة نقية من ظلمات الاوهام، طاهرةٌ من شائبة الشبهات؛ اذ نقطةُ استناده: الوحي السماوي والكلام الأزلي باليقين.. هدفُه وغايتُه: السعادة الابدية بالمشاهدة.. محتواه: هداية خالصة بالبداهة.. أعلاه: انوار الايمان بالضرورة.. أسفله: الدليل والبرهان بعلم اليقين.. يمينُه: تسليم القلب والوجدان بالتجربة.. يساره: تسخير العقل والاذعان بعين اليقين.. ثمرتُه: رحمة الرحمن ودار الجنان بحق اليقين.. مقامُه: قبول المَلَك والانس والجان بالحدس الصادق.

ان كل صفةٍ من الصفات المذكورة في تعريف القرآن الكريم باجزائه الثلاثة، قد اثبتت اثباتاً قاطعاً في مواضع اخرى أو ستُثبت، فدعوانا ليست مجرد إدعاء من دون دليل، بل كل منها مبرهنة بالبرهان القاطع.

الشعلة الأولى

»هذه الشعلة لها ثلاث اشعات«

الشعاع الاول

بلاغة القرآن معجزة

هذه البلاغة المعجزة نَبعت من جزالة نظم القرآن وحسن متانته، ومن بداعة أساليبه وغرابتها وجودتها، ومن براعة بيانه وتفوقه وصفوته، ومن قوة معانيه وصدقها، ومن فصاحة ألفاظه وسلاستها.

بهذه البلاغة الخارقة تحدى القرآن الكريم، منذ ألف وثلاث مئة من السنين، أذكى بلغاء بني آدم وأبرع خطبائهم وأعظم علمائهم، فما عارضوه، وما حاروا ببنت شفة، مع شدة تحديه اياهم، بل خضعت رقابهم بذل، ونكسوا رؤوسهم بهوان، مع أن من بلغائهم مَن يناطح السحاب بغروره.

نشير الى وجه الاعجاز في بلاغته بصورتين:

الصورة الاولى:

ان أكثر سكان جزيرة العرب كانوا في ذلك الوقت أميين، لذا كانوا يحفظون مفاخرهم ووقائعهم التاريخية وأمثالهم وحكمهم ومحاسن أخلاقهم في شعرهم، وبليغ كلامهم المتناقل شفاهاً، بدلاً من الكتابة. فكان الكلام الحكيم ذو المغزى يستقر في الاذهان ويتناقله الخلف عن السلف. فهذه الحاجة الفطرية فيهم دفعتهم الى أن يكون أرغب متاع في أسواقهم وأكثره رواجاً هو: الفصاحة والبلاغة، حتى كان بليغ القبيلة رمزاً لمجدها وبطلاً من أبطال فخرها. فهؤلاء القوم الذين ساسوا العالم بفطنتهم بعد اسلامهم كانوا في الصدارة والقمة في ميدان البلاغة بين أمم العالم. فكانت البلاغة رائجة وحاجتهم اليها شديدة حتى يعدونها مدار اعتزازهم، بل حتى كانت رحى الحرب تدور بين قبيلتين أو يحل الوئام بينهما بمجرد كلام يصدرعن بليغهم بل كتبوا سبع قصائد بماء الذهب لأبلغ شعرائهم وعلقوها على جدار الكعبة، فكانت (المعلقات السبعة) التي هي رمز فخرهم.

ففي مثل هذا الوقت الذي بلغت فيه البلاغة قمة مجدها، ومرغوب فيها الى هذا الحد، نزل القرآن الكريم - بمثل ما كانت معجزة سيدنا موسى وعيسى عليهما السلام من جنس ما كان رائجاً في زمانهما، وهو السحر والطب - نزل في هذا الوقت متحدياً ببلاغته بلاغة عصره وكل العصور التالية، ودعا بلغاء العرب الى معارضته، والاتيان

ولو بأقصر سورة من مثله، فتحداهم بقوله تعالى:(وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) (البقرة: 23) واشتد عليهم بالتحدي (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار) (البقرة:24) أي: ستساقون الى جهنم وبئس المصير. فكان هذا يكسر غرورهم، ويستخف بعقولهم ويسفّه أحلامهم، ويقضي عليهم في الدنيا بالاعدام كما هو في الآخرة، أي: إمــا أن تأتوا بمثله أو أن ارواحكم واموالكم في خطر، ما دمتم مصرين على الكفر!

وهكذا فلو كانت المعارضة ممكنة فهل يمكن اختيار طريق الحرب والدمار، وهي أشــد خطراً وأكثر مشقة. وبين أيديهم طريق سهلة هينة، تلك هي معارضته ببضعة أسطر تماثلــه، لإبطال دعواه وتحديه؟

أجل! هل يمكن لاولئك القوم الاذكياء الذين أداروا العالم بسياســتهم وفطنتــهم أن يتركوا أسهل طريق وأسلمها، ويختاروا الطريق الصعبة التي تلقي ارواحهم وأموالهم الى الهلاك؟

اذ لو كان باستطاعة بلغائهم أن يعارضوا القرآن ببضعة حروف، لتخلى القــرآن عــن دعواه، ولنجوا من الدمار المادي والمعنوي، والحال أنهم اختاروا طريق الحرب المريعة الطويلة. بمعنى أن المعارضة بالحروف محالة ولا يمكنهم ذلك بحال من الاحوال، لذا عمدوا الى المقارعة بالسيوف.

ثم أن هناك دافعين في غاية القوة لمعارضة القرآن واتيان مثيله وهما:

الاول: حرص الاعداء على معارضته.

الثاني: شغف الاصدقاء على تقليده.

ولقد ألفت تحت تأثير هذين الدافعين الشديدين ملايين الكتب بالعربية، مــن دون أن يكون كتاب واحد منها شبيهاً بالقرآن قط، اذ كل من يراها – سواءٌ أكان عالماً أو جاهلاً – لا بد أن يقول: القرآن لا يشبه هذه الكتب، ولايمكن أن يعارض واحد منها القرآن قطعــاً. ولهذا فاما أن القرآن أدنى بلاغة من الكل، وهذا باطل محال باتفاق الاعداء والاصدقاء، وإما أن القرآن فوقها جميعاً، واسمى واعلى.

nفان قلت: كيف نعلم أن أحداً لم يحاول المعارضة؟ ألم يعتمد أحد على نــــفسه وموهبته ليبرز في ميدان التحدي؟ أوَلم ينفع تعاونهم ومؤازرة بعضهم بعضاً؟

الجواب: لو كانت المعارضة ممكنة، لكانت المحاولة قائمة لا محالة، لان هنـــاك قضـــية الشرف والعزة وهلاك الارواح والاموال. فلو كانت المعارضة قد وقعت فعلاً، لكان الكثيرون ينحازون اليها، لان المعارضين للحق والعنيدين كثيرون دائماً. فلو وجد مَن يؤيد المعارضـــة لاشتهر به، اذ كانوا ينظمون القصائد لخصام طفيف، ويجعلونها في المآثر، فكيـــف بصـــراع عجيب كهذا يبقى مستوراً في التاريخ؟

ولقد نقلت واشتهرت أشنع الاشاعات وأقبحها طعناً بالاسلام، و لم تنقل سوى بضـــع كلمات تقوَّلها مسيلمة الكذاب لمعارضة القرآن. ومسيلمة هذا، وإن كان صاحب بلاغـــة لا يستهان به إلاّ أن بلاغته عندما قورنت مع بلاغة القرآن التي تفوق كل حسن وجمال عُـــدَّت هذياناً. ونقل كلامه هكذا في صفحات التاريخ.

وهكذا فالاعجاز في بلاغة القرآن يقين كيقين حاصل ضرب الاثنين في اثنين يســـاوي أربعاً. ولهذا يكون الامر هكذا.

الصورة الثانية:

سنبين حكمة الاعجاز في بلاغة القرآن بخمس نقاط:

النقطة الاولى:

ان في نظم القرآن جزالة خارقة، وقد بيّن كتاب (اشارات الاعجاز في مظان الايجـــاز) من أوله الى آخره هذه الجزالة والمتانة في النظم، اذ كما أن عقارب الساعة العـــادَّة للثـــواني والدقائق والساعات يكمل كل منها نظام الآخر، كذلك النظم في هيئات كل جملة من جمل القرآن، والنظام الذي في كلماته، والانتظام الذي في مناسبة الجمل كل تجاه الآخر، وقد بُيّن كل ذلك بوضوح تام في التفسير المذكور. فمن شاء فليراجعه ليتمكن من أن يشاهد هـــذه الجزالة الخارقة في أجمل صورها، إلاّ اننا نورد هنا مثالين فقط لبيان نظم الكلمات المتعانقـــة لكل جملة (والتي لا يصلح مكانها غيرها بتناسق وتكامل).

mالمثال الاول:

قوله تعالى: (ولـــئـــن مسّـــتْهـــم نـــفحـــةٌ مـــن عـــــذابِ ربـــّـك) (ســـورة الانبياء:46)

هذه الجملة مسوقة لإظهار هول العذاب، ولكن باظهار التأثير الشديد لأقله، ولهذا فان جميع هيئات الجملة التي تفيد التقليل تنظر الى هذا التقليل وتمده بالقوة كي يظهر الهول:

فلفظ (لئن) هو للتشكيك، والشك يوحي القلة.

ولفظ (مسَّ) هو اصابة قليلة، يفيد القلة أيضاً.

ولفظ (نفحة) مادته رائحة قليلة، فيفيد القلة، كما أن صيغته تدل على واحدة، أي واحدة صغيرة، كما في التعبير الصرفي – مصدر المرة – فيفيد القلة..

وتنوين التنكير في (نفحةٌ) هي لتقليلها، بمعنى أنها شئ صغير الى حد لا يُعلم، فيُنكر.

ولفظ (من) هو للتبعيض، بمعنى جزء، فيفيد القلة.

ولفظ (عذاب) هو نوع خفيف من الجزاء بالنسبة الى النكال والعقاب، فيشير الى القلة.

ولفظ (ربك) بدلاً من: القهار، الجبار، المنتقم، فيفيد القلة أيضاً وذلك باحساسه الشفقة والرحمة.

وهكذا تفيد الجملة أنه:

اذا كان العذاب شديداً ومؤثراً مع هذه القلة، فكيف يكون هول العقاب الإلهي؟ فتأمل في الجملة لترى كيف تتجاوب الهيئات الصغيرة، فيُعين كلٌ الآخر، فكلٌ يمد المقصد بجهته الخاصة.

هذا المثال الذي سقناه يلحظ اللفظ والمقصد.

mالمثال الثاني:

قوله تعالى: (ومما رزقناهم يُنفقون) (البقرة: 3)

فهيئات هذه الجملة تشير الى خمسة شروط لقبول الصدقة:

الشرط الاول: المستفاد من »من« التبعيضية في لفظ (مما) أي: أن لا يبسط المتصدق يده كل البسط فيحتاج الى الصدقة.

الشرط الثاني: المستفاد من لفظ (رزقناهم) أي: أن لا يأخذ من زيد ويتصدق على عمرو، بل يجب أن يكون من ماله، بمعنى: تصدقوا مما هو رزق لكم.

الشرط الثالث: المستفاد من لفظ (نا) في (رزقنا) أي: أن لا يمنَّ فيستكثر، أي: لا منَّـــة لكم في التصدق، فأنا أرزقكم، وتنفقون من مالي على عبدي.

الشرط الرابع: المستفاد من (ينفقون) أي: أن ينفق على مَن يضعه في حاجاته الضرورية ونفقته، وإلاّ فلا تكون الصدقة مقبولة على مَن يصرفها في السفاهة.

الشرط الخامس: المستفاد من (رزقناهم) أيضاً. أي: يكون التصدق باسم الله، أي: المال مالي، فعليكم أن تنفقوه باسمي.

ومع هذه الشروط هناك تعميم في التصدق، اذ كما أن الصدقة تكون بالمال، تكـــون بالعلم ايضاً، وبالقول والفعل والنصيحة كذلك، وتشير الى هذه الاقسام كلمة (ما) الـــتي في (مما) بعموميتها. وتشير اليها في هذه الجملة بالذات، لانها مطلقة تفيد العموم.

وهكذا تجُود هذه الجملة الوجيزة - التي تفيد الصدقة - الى عقل الانسان خمسة شروط للصدقة مع بيان ميدانها الواسع، وتشعرها بهيئاتها.

وهكذا، فلهيئات الجمل القرآنية نظمٌ كثيرة أمثال هذه.

وكذا للكلمات القرآنية أيضاً ميدان نظم واسع مثل ذلك، كل تجاه الآخـــر. وكـــذا للكلام القرآني ولجمله دوائر نظم كتلك.

m فمثلاً: قوله تعالى:

(قل هو الله أحد_ الله الصمد_ لم يلد و لم يولد_ و لم يكن له كفواً أحد).

هذه الآيات الجليلة فيها ست جمل: ثلاث منها مثبتة وثلاث منها منفية، تثبت ســـت مراتب من التوحيد كما تردّ ستة أنواع من الشرك. فكل جملة منها تكون دلـــيلاً للجمـــل الاخرى كما تكون نتيجة لها. لان: لكل جملة معنيين، تكون باعتبار أحدهما نتيجة، وباعتبار الآخر دليلاً.

أي أن سورة الاخلاص تشتمل على ثلاثين سورة من سور الاخلاص. سور منتظمـــة مركبة من دلائل يثبت بعضها بعضاً، على النحو الآتي:

(قل هو الله): لانه أحد، لانه صمد، لانه لم يلد، لانه لم يولد،لانه لم يكن لـــه كفـــواً أحد.

وكذا: (ولم يكن له كفواً أحد): لانه لم يولد، لانه لم يلد، لانه صمد، لانه أحد، لانه هو الله.

وكذا: (هو الله) فهو أحد، فهو صمد، فاذاً لم يلد، فاذاً لم يولد، فاذاً لم يكن له كفواً أحد.

وهكذا فقس على هذا المنوال.

m ومثلاً: قوله تعالى:

(الم_ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) (البقرة:1،2)

فلكلٍ من هذه الجمل الاربع معنيان: فباعتبار أحدهما يكون دليلاً للجمل الاخرى، وباعتبار الآخر نتيجة لها. فيحصل من هذا نقش نظمي اعجازي من ستة عشر خطاً من خطوط المناسبة والعلاقة.

وقد بين ذلك كتاب (اشارات الاعجاز) حتى كأن لكل آية من أكثر الآيات القرآنية عيناً ناظرة الى أكثر الآيات، ووجهاً متوجهاً اليها، فتمد الى كل منها خطوطاً معنوية من المناسبات والارتباطات، ناسجة نقشاً اعجازياً. كما بُيّن ذلك في »الكلمة الثالثة عشرة«.

وخير شاهد على هذا »اشارات الاعجاز« اذ من اول الكتاب الى اخره شرح لجزالة النظم هذه.

النقطة الثانية:

البلاغة الخارقة في معناه، اذا شئت ان تتذوق بلاغة المعنى في الآية الكريمة:

(سبّح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) (الحديد: 1)

فانظر الى هذا المثال الموضّح في »الكلمة الثالثة عشرة«. فتصوَّر نفسَك قبل مجئ نور القرآن، في ذلك العصر الجاهلي، وفي صحراء البداوة والجهل، فبينما تجد كل شئٍ قد اُسدل عليه ستارُ الغفلة وغشيَه ظلامُ الجهل ولُفّ بغلاف الجمود والطبيعة، إذا بك تشاهد بصدى قوله تعالى:(سبح لله ما في السموات والارض او تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن) (الاسراء: 44) قد دبّت الحياةُ في تلك الموجودات الهامدة أو الميتة بصدى (سبح..) و (تسبّح) في اذهان السامعين فتنهض مسبحةً ذاكرة الله. وان وجه السماء المظلمة التي تستعرّ

فيها نجومٌ جامدة والارض التي تدبّ فيها مخلوقاتٌ عاجزة، تتحول في نظر السامعين بصـــدى (تسبح) وبنوره الى فمٍ ذاكر للّه، كلُّ نجمٍ يشع نور الحقيقة ويبث حكمة حكيمـــة بالغـــة. ويتحول وجهُ الارض بذلك الصدى السماوي ونوره الى رأس عظيم، والبر والبحر لســـانين يلهجان بالتسبيح والتقديس وجميع النباتات والحيوانات كلمات ذاكرة مسبّحة حتى لكـــأن الأرض كلها تنبض بالحياة.

mومثلاً:

انظر الى هذا المثال الذي اثبت في »الكلمة الخامسة عشرة« وهو قوله تعالى:

(يامعشرَ الجنِّ والانسِ إن استَطَعْتُمْ أنْ تَنفذوا مِن أقطارِ السموات والارضِ فانفـــذوا لا تنفذونَ إلاّ بسلطانٍ_ فبأي آلاء ربكما تُكذبان_ يُرسَلُ عليكُما شواظٌ من نارٍ ونحاسٌ فـــلا تنتصران_ فبأي آلاء ربكما تُكّذبان) (الرحمن: 33 ـــــ36) (ولقد زيّنا الســـماءَ الـــدنيا بمصابيحَ وجعلناها رجوماً للشياطين) (الملك:5).

استمع لهذه الآيات وتدبّر ما تقول؟ انها تقول: »ايها الانس والجان، ايهـــا المغـــرورون المتمردون، المتوحلون بعجزهم وضعفهم، ايها المعاندون الجـــامحون المتمرغـــون في فقـــرهم وضعفهم! انكم إن لم تطيعوا أوامري، فهيا اخرجوا من حدود ملكي وسلطاني إن استطعتم! فكيف تتجرأون اذاً على عصيان أوامر سلطان عظيم: النجوم والاقمار والشموس في قبضته، تأتمر بأوامره،كأنها جنود متأهبون.. فأنتم بطغيانكم هذا إنما تبارزون حاكماً عظيماً جليلاً له جنود مطيعون مهيبون يستطيعون ان يرجموا بقذائف كالجبال، حتى شياطينكم لو تحملـــت.. وانتم بكفرانكم هذا إنما تتمردون في مملكة مالك عظيم جليل، له جنود عظام يستطيعون ان يقصفوا اعداءً كفرة – ولو كانوا في ضخامة الارض والجبال – بقذائف ملتهبة وشظايا مـــن لهيب كامثال الأرض والجبال، فيمزقونكم ويشتتونكم!. فكيف بمخلوقات ضعيفة امثالكم؟.. وانتم تخالفون قانوناً صارماً يرتبط به من له القدرة – باذن الله – ان يمطر علـــيكم قـــذائف وراجمات امثال النجوم.

قس في ضوء هذا المثال قوة معاني ســــائر الآيات ورصـــــــانة بـــــلاغـــــــتها وســــــمو إفاداتها.

النقطة الثالثة:

البداعة الخارقة في اسلوبه. نعم، ان اساليب القرآن الكريم غريبة وبديعة كما هي عجيبة ومقنعة، لم يقلّد أحداً قط ولا يستطيع احدٌ ان يقلده. فلقد حافظ وما يزال يحــافظ علـــى طراوة أساليبه وشبابيته وغرابته مثلما نزل اول مرة.

mفمثلاً:

ان الحروف المقطّعة المذكورة في بدايات عدةٍ من السور تشبه الشفرات؛ امثال:

الم. الر. طه. يس. حم. عسق. وقد كتبنا نحو ستٍ من لمعات اعجازها في (اشـــارات الاعجاز) نذكر منها:

ان الحروف المذكورة في بدايات السور تنصِّف كلَّ ازواج طبائع الحروف الهجائية من المهموسة والمجهورة والشديدة والرخوة .. [128]وغيرها من اقسامها الكثيرة. اما الاوتار – التي لا تقبل التنصيف – فمن الثقيل النصف القليل كالقلقلة، ومن الخفيـــف النصـــف الكـــثير كالذلاقة.

فسلوكه في التنصيف والأخذ بهذا الطريق الخفي الذي لا يدركه العقل من بـــين هـــذه الطرق المتداخلة المترددة بين مائتي احتمال، ثم سَوق الكلام في ذلك السياق وفي ذلك الميدان الواسع المشتبهة الأعلام ليس بالامر الذي يأتي مصادفة قط، ولا هو من شأن البشر!

[128] فذكر من (المهموسة) وهي ما يضعف الاعتماد على مخرجه، ويجمعها (ستشحثك خصفه) نصفها وهي الحاء والهاء والصاد والسين والكاف. ومن البواقي (المجهورة) نصفها يجمعه (لن يقطع أمر) ومن (الشديدة) الثمانية المجموعة في (اجدت طبقك) اربعة يجمعها. ومن البواقي (الرخوة) عشرة يجمعها (حمس على نصره) ومن المطبقة التي هي الصاد والضاد والطاء والظاء نصفها. ومن البواقي (المنفتحة) نصفها. ومن (القلقلة) وهي حروف تضطرب عند خروجها ويجمعها (قد طبج) نصفها الاقل لقلتها. ومن (اللينتين) الياء لأنها أقل ثقلاً، ومن (المستعلية) وهي التي يتصعد الصوت بها في الحنك الاعلى وهي سبعة: القاف والصاد والطاء والخاء والغين والضاد والظاء نصفها الاقل، ومن البواقي (المنخفضة) نصفها... (تفسير البيضاوي). - المترجم.

فهذه الحروف المقطعة التي في اوائل السور والتي هي شفرات ورموز إلهية تبين خمساً أو ستاً من اسرار لمعات اعجاز اخرى، بل ان علماء علم اسرار الحروف والمحققين من الاولياء قد استخرجوا من هذه المقطعات اسراراً كثيرة جداً، ووجدوا من الحقائق الجليلة ما يثبت لديهم ان المقطعات معجزة باهرة بحد ذاتها. اما نحن فلن نفتح ذلك الباب لأننا لسنا اهلاً لأسرارهم، زد على ذلك لا نستطيع ان نثبتها إثباتاً يكون مشهوداً لدى الجميع.وانما نكتفي بالاحالة الى ما في (اشارات الاعجاز) من خمس او ست لمعات اعجاز تخص المقطعات.

والآن نشير عدة اشارات الى اساليب القرآن، باعتبار السورة، والمقصد، والآيات، والكلام، والكلمة:

m فمثلاً:

سورة »النبأ« (عمّ يتساءلون..) الى آخرها، اذا اُنعم النظر فيها فانها تصف وتثبت احوال الآخرة والحشر والجنة وجهنم باسلوب بديع يُطمئِن القلب ويقنعه، حيث تبين أن ما في هذه الدنيا من افعال إلهية وآثار ربانيةٍ متوجهة الى كلٍّ من تلك الاحوال الاخروية.

ولما كان ايضاح اسلوب السورة كلها يطول علينا، فسنشير الى نقطة او نقطتين منه:

تقول السورة في مستهلها اثباتاً ليوم القيامة: لقد جعلنا الأرض لكم مهداً قد بسط بسطاً جميلاً زاهياً.. والجبال أعمدة واوتاداً مليئة بالخزائن لمساكنكم وحياتكم.. وخلقناكم ازواجاً تتحابّون فيما بينكم ويأنس بعضكم ببعض.. وجعلنا الليل ساتراً لكم لتخلدوا الى الراحة.. والنهار ميداناً لمعيشتكم.. والشمس مصباحاً مضيئاً ومدفئاً لكم.. وانزلنا من السحب لكم ماءً باعثاً على الحياة يجري مجرى العيون.. وننشئُ بسهولة من ماء بسيط أشياء شتى من مزهر ومثمر يحمل ارزاقكم.. فاذاً يوم الفصل – وهو يوم القيامة – ينتظركم. وان إتيانه ليس بعسير علينا.

وبعد ذلك يشير اشارة خفية الى اثبات ما يحدث في يوم القيامة من سير الجبال وتناثرها، وتشقق السموات وتهيؤ جهنم، ومنح الجنة أهلها الرياض الجميلة. وكأنه يقول:

ان الذي يفعل هذه الأفعال في الجبال والأرض بمرآى منكم سيفعل مثلها في الآخرة.

أي ان ما في بداية السورة من جبال تشير الى احوال الجبال يوم القيامة، وان الحـــدائق التي في صدر السورة تشير الى رياض الجنة في الآخرة.

فقس سائر النقاط على هذا لتشاهد علو الاسلوب ومدى لطافته.

mومثلاً:

(قل اللّهّمَّ مالكَ الملكِ تؤتي الملكَ مَن تَشاءُ وتنزعُ الملكَ ممن تشاءُ وتعزُّ من تشاءُ وتذّل من تشاء بيدك الخيرُ انَّكَ على كل شئٍ قدير_ تولجُ الّيلَ في النهار وتـــولج النـــهار في الّيـــل وتُخرجُ الحيَّ مِن الميتِ وتخرجُ الميتَ من الحيِّ وترزقُ مَن تشاءُ بغيرِ حِساب) (آل عمـــران: 26ــــ27)

هذه الآية تبين باسلوب عالٍ رفيع: ما في بني الانسان من شؤون إلهية، وما في تعاقـــب الليل والنهار من تجليات إلهية، وما في فصول السنة من تصرفات ربانية، وما في الحياة والممات والحشر والنشر الدنيوي على وجه الارض من اجراءات ربانية.. هذا الاسلوب عالٍ وبديع الى حد يسخّر عقول اهل النظر. وحيث أن هذا الاسلوب العالي ساطع يمكن رؤيته بأدنى نظر فلا نفتح الآن هذا الكتر.

m ومثلاً:

(اذا السماءُ انشقّت_ وَاَذِنَتْ لربِّها وحُقّت_ واذا الارضُ مُدّت_ وألقتْ مـــا فيهـــا وتخلّت_ وأذنتْ لربها وحُقت) (سورة الانشقاق: 1ـــــ5)

تبين هذه الايات مدى انقياد السموات والارض وامتثالهما أوامر الله سبحانه، تبينـــها باسلوب عالٍ رفيع؛ اذ كما ان قائداً عظيماً يؤسس دائرتين عسكريتين لأنجـــاز متطلبـــات الجهاد؛ كشُعَب المناورة والجهاد، وشُعَب التجنيد والسَوق الى الجهاد، وانه حالما ينتهي وقت الجهاد والمناورة يتوجه الى تينك الدائرتين ليستعملهما في شؤون اخرى، فقد انتهت مهمتهما. فكأن كلاً من الدائرتين تقول بلسان موظفيها وخدّامها أو بلسانها لو أُنطقت:

»يا قائدى أمهلنا قليلاً كي نهيءَ اوضاعنا ونطهّر المكان من بقايـــا اعمالنـــا القديمـــة ونطرحها خارجاً.. ثم شرِّف وتفضَّل علينا!« وبعد ذلك تقول: »فها قد ألقيناها خارجـــاً، فنحن طوع امرك، فافعل ما تشاء فنحن منقادون لأمرك. فما تفعله حق وجميل وخير«.

فكذلك السموات والارض دائرتان فتحتا للتكليف والامتحان، فعندما تنقضي المــدة، تخلّي السموات والأرض باذن الله ما يعود إلى دائرة التكليف، ويقولان: يا ربنا استخدمنا فيما تريد، فالامتثال حق واجب علينا، وكل ما تفعله هو حق.

فانظر الى سمو هذا الاسلوب الخارق في هذه الجمل وأنعم النظر فيه.

m ومثلاً:

(يا أرضُ ابلعي ماءكِ وياسماءُ أقلعي، وغيضَ الماءُ وقــضيَ الأمــرُ واســتوتْ علــى الجوديّ، وقيلَ بُعداً للقوم الظالمين) (هود: 44)

للاشارة الى قطرة من بحر بلاغة هذه الآية الكريمة نبين اسلوباً منها في مرآة التمثيــل، وذلك:

ان قائداً عظيماً في حرب عالمية شاملة يأمر جيشه بعد إحراز النصر: اوقفوا اطلاق النار ويأمر جيشه الآخر: كفوا عن الهجوم. ففي اللحظة نفسها ينقطع اطلاق النار ويقف الهجوم، ويتوجه اليهم قائلاً: لقد انتهى كل شئ واستولينا على الأعداء وقد نصبتْ راياتنا على قمــة قلاعهم ونال اولئك الظالمون الفاسدون جزاءهم وولوا الى اسفل سافلين.

كذلك، فان السلطان الذي لا ندّ له ولا مثيل، قد أمر السموات والارض باهلاك قوم نوح. وبعد أن امتثلا الأمر توجه اليهما: ايتها الارض ابلعي ماءَك، وانتِ ايتها السماء اسكني واهدأي فقد انتهت مهمتكما. فانسحب الماء فوراً من دون تريث واستوت سفينة المــأمور الإلهي كخيمة ضربت على قمة جبل. ولقي الظالمون جزاءهم.

فانظر الى علو هذا الاسلوب، اذ الارض والسماء كجنديين مطيعين مستعدين للطاعــة وتلقي الاوامر. فتشير – الآية – بهذا الاسلوب الى ان الكائنات تغضب من عصيان الانســان وتغتاظ منه السموات والارض. وبهذه الاشارة تقول: »ان الذي تمتثــل الســموات والأرض بأمره لا يُعصى ولا ينبغي ان يُعصى« مما يفيد زجراً شديداً رادعاً للأنسان. فأنت تــرى ان الآية قد جمعت ببيان موجز معجز جميل مجملٍ في بضع جمل حادثة الطوفان التي هــي عامــةٌ وشاملة مع جميع نتائجها وحقائقها.

فقس قطرات هذا البحر الاخرى على هذه القطرة.

والان انظر الى الاسلوب الذي يريه(القــرآن) مــن نوافــذ الكلمــات:فمــثلاً الى كلمة»كالعرجون القديم« في الآية الكريمة:(والقمرَ قدّرناهُ منازلَ حتى عادَ كالعرجونِ القديم) (يس:39) كيف تعرض اسلوباً في غاية اللطف، وذلك:

ان للقمر مترلاً هو دائرة الثريا. حينما يكون القمر هلالاً فيه يشبه عرجوناً قديماً ابيض اللون. فتضع الآية بهذا التشبيه امام عين خيال السامع، كأن وراء ستار الخضراء [129]شــجرة شق احدُ اغصانها النورانية المدببة البيضاء ذلك الستار ومدّ رأسه الى الخارج، والثريا كأنهــا عنقود معلق فيه. وسائر النجوم كالثمرات النورانية لشجرة الخلقة المستورة. ولا جرم فــان عرض الهلال بهذا التشبيه لاولئك الذين مصدر عيشهم ومعظم قوتهم من النخيل هو اسلوب في غاية الحُسن واللطافة وفي منتهى التناسق والعلو. فإن كنت صاحب ذوق تدرك ذلك.

m ومثلاً:

كلمة »تجري« في الآية الكريمة (والشمس تجري لمستقر لها) (يس:38) تفــتح نافــذة لاسلوب عالٍ – كما اثبت في ختام الكلمة التاسعة عشرة – وذلك:

ان لفظ »تجري« الذي يعني دوران الشمس، يفهّم عظمة الصــانع الجليــل بتــذكيره تصرفات القدرة الإلهية المنتظمة في دوران الصيف والشتاء وتعاقب الليل والنــهار، ويلفــت الانظار الى المكتوبات الصمدانية التي كتبها قلم القدرة الإلهية في صحائف الفصول، فــيعلّم حكمة الخالق ذي الجلال.

وان قوله تعالى (وجعل الشمس سراجاً) (نوح: 16) اي مصــباحاً، يفــتح بتعــبير »سراجاً« نافذةً لمثل هذا الاسلوب وهو:

انه يُفهِّم عظمة الصانع واحسان الخالق بتذكيره: ان هذا العالم كأنه قصر، وان ما فيــه من لوازم واطعمة وزينة قد اُعدت للأنسان وذوي الحياة، وان الشمس أيضــاً مــا هــي إلاّ

[129] الخضراء: السماء لخضرتها (سوادها) صفة غلبت الاسماء وفي الحديث ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر (لسان العرب). - المترجم.

مصباح مسخر. فيبين بهذا دليلاً للتوحيد، إذ الشمس التي يتوهمها المشركون اعظم معبود لديهم وألمعها ما هي إلاّ مصباح مسخّر ومخلوق جامد.

فاذاً بتعبير»سراجاً« يذكّر رحمة الخالق في عظمة ربوبيته، ويفهّم احسانه في سعة رحمته، ويُشعر – بذلك الافهام – بكرمه في عظمة سلطانه، ويفّهم الوحدانية بهذا الإشعار. وكأنه يقول: ان مصباحاً مسخراً وسراجاً جامداً لا يستحق العبادة بأي حال من الأحوال.

ثم ان جريان الشمس بتعبير »تجري« يذكّر بتصرفات منتظمة مثيرة للاعجاب في دوران الصيف والشتاء والليل والنهار، ويفهّم بذلك التذكير عظمة قدرة الصانع المتفرد في ربوبيته. بمعنى أنه يصرف ذهن الانسان من الشمس والقمر الى صحائف الليل والنهار والصيف والشتاء، ويجلب نظره الى ما في تلك الصحائف من سطور الحادثات المكتوبة.

أجل! ان القرآن لا يبحث في الشمس لذات الشمس بل لمن نوّرها وجعلها سراجاً، ولا يبحث في ماهيتها التي لا يحتاجها الانسان، بل في وظيفتها، اذ هي تؤدي وظيفة نابض (زنبرك) لانتظام الصنعة الربانية، ومركز لنظام الخلقة الربانية، ومكّوك لإنسجام الصنعة الربانية، في الأشياء التي ينسجها المصوّر الازلي بخيوط الليل والنهار.

ويمكنك ان تقيس على هذا سائرَ الكلمات القرآنية فهي وإن كانت تبدو كأنها كلمات مألوفة بسيطة، إلاّ أنها تؤدي مهمة مفاتيح لكنوز المعاني اللطيفة.

وهكذا فلعلو اسلوب القرآن – كما في الوجوه السابقة في الأغلب – كان الأعرابي يعشق كلاماً واحداً منه احياناً، فيسجد قبل ان يؤمن، كما سمع احدهم الآية الكريمة (فاصدع بما تؤمر) (الحجر 94) فخرَّ ساجداً، فلما سئل: أأسلمت؟ قال: لا بل اسجد لبلاغة هذا الكلام!

النقطة الرابعة:

الفصاحة الخارقة في لفظه. نعم، إن القرآن كما هو بليغ خارق من حيث اسلوبه وبيان معناه، فهو فصيح في غاية السلاسة في لفظه. والدليل القاطع على فصاحته هو عدم ايراثه السأم والملل. كما ان شهادة علماء فن البيان والمعاني برهان باهر على حكمة فصاحته.

نعم! لو كرّر الوف المرات فلا يورث سأماً ولا مللاً. بل يزيد لذةً وحلاوة.. ثم أنه لا يثقل على ذهن صبي بسيط فيستطيع حفظه.. ولا تسأم منه أذن المصاب بداء عضال الـــذي يتأذى من ادنى كلام، بل يتلذذ به.. وكأنه الشراب العذب في فم المحتضر الذي يتقلـــب في السكرات، وهو لذيذ في اذنه ودماغه لذة ماء زمزم في فمه.

والحكمة في عدم الملل والسأم من القرآن هو:

ان القرآن قوتٌ وغذاء للقلوب، وقوة وغناء للعقول، وماء وضـــياء لـــلارواح، ودواء وشفاء للنفوس، لذا لا يُمَلّ. مثاله الخبز الذي نأكله يومياً دون ان نملّ، بينما لو تناولنا اطيب فاكهة يومياً لشعرنا بالملل. فإذاً لأن القرآن حق وحقيقة وصدق وهدى وذو فصاحة خارقـــة فلا يورث الملل والسآمة ، وانما يحافظ على شبابيته دائماً كما يحافظ على طراوته وحلاوتـــه، حتى ان أحد رؤساء قريش وبلغائها عندما ذهب الى الرسول الكريم ليسمع القرآن، قال بعد سماعه له: »والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة .. وما يقوله بشر. ثم قال لقومـــه: والله مـــا فيكم رجل اعلم بالشعر مني.. ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا«.

فلم يبق امامهم إلاّ ان يقولوا انه ساحر، ليغرروا به أتباعهم ويصدوهم عنه. وهكـــذا يبقى حتى أعتى اعداء القرآن مبهوتاً أمام فصاحته.

ان ايضاح اسباب الفصاحة في آيات القرآن الكريم وفي كلامه وفي جمله يطول كـــثيراً، فتفادياً من الإطالة نُقصر الكلام على اظهار لمعة اعجاز تتلمع من اوضاع الحروف الهجائيـــة وكيفياتها في آية واحدة فقط، على سبيل المثال وهي: قوله تعالى: (ثم اَنزلَ عليكم مِن بعـــدِ الغمّ اَمنةً نُعاسَاً يغشى طائفةً منكم وطائفةٌ قد أهمّـــتْهُم أنفسهم يظنونَ بالله غيرَ الحقِ ظـــنَّ الجاهليةِ يقولون هل لنا من الأمرِ من شئٍ، قُل ان الأمرَ كلَّه لله يُخفون في أنفســـهم مـــا لا يُبْدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُـــتلنا ههنا قل لو كنتم في بيـــوتكم لـــبرزَ الـــذين كُتُـــبَ علـــيهم القتـــلُ الى مـــــضاجعهم وليبتلـــي الله مـــا في صـــدوركم ولـــــــيمـــــحـــــّص مـــــــــا في قـــــــلوبـــكــــم والله علـــــيم بـــــذات الصـــــــــــدور).(آل عمران: 154)

لقد جمعت هذه الآية جميع حروف الهجاء واجناس الحروف الثقيلة، ومـــع ذلـــك لم يفقدها هذا الجمع سلاستها بل زادها بهاءً الى جمالها ومزج نغمة من الـــفصاحة نبعت مـــن اوتار متناسبة متنوعـــة.

فأنعم النظر في هذه اللمعة ذات الاعجاز وهي: أن الألف والياء لأنهما أخف حـــروف الهجاء، وتنقلب إحداهُما بالاخرى كأنهما اختان، تكرّر كلٌ منهما احدى وعشرين مـــرة.. وان الميم والنون[130] لأنهما اختان، ويمكن ان تحل احداهما محل الأخرى فقد ذُكر كلٌ منـــهما ثلاثاً وثلاثين مرةً.. وان الصاد والسين والشين متآخية حسب المخرج والصفة والصوت فذُكر كل واحد منها ثلاث مرات.. وان العين والغين متآخيتان فذكر العين ست مـــرات لخفتـــها بينما الغين لثقلها ذُكرت ثلاث مرات أي نصفه.. وان الطاء والظاء والذال والزاي، متآخيـــة حسب المخرج والصفة والصوت، فذكر كل واحد منها مرتين.. وان اللام والالف متحدتان في صورة (لا)، وان حصة الالف نصف في صورة (لا) فذُكرت اللام اثنتين واربعين مـــرة، وذُكرت الالف – نصفها – احدى وعشرين مرة .. وان الهمزة والهاء متآخيتـــان حســـب المخرج فذكرت الهمزة ثلاث عشرة مرة[131] والهاء اربع عشرة مرة لكونهـــا أخـــفّ منـــها بدرجة.. وان القاف والفاء والكاف متآخية، فذُكرت القاف عشر مرات لزيادة نقطة فيهـــا، وذكرت الفاء تسع مرات والكاف تسع.. وان الباء ذُكرت تسع مرات، والتاء ذُكرت اثنتـــا عشرة مرة، لأن درجتها ثلاثة.. وان الراء اخت اللام . ولكن الراء مئتان والـــلام ثلاثـــون حسب حساب »ابجدية الجمل« أي ان الراء فوق اللام بست درجات فأنخفضت عنها بست درجات. وايضاً الراء تتكرر كثيراً في التلفظ، فيثقل، فذُكرت ست مرات فقط.. ولأن الخاء والحاء والثاء والضاد ثقيلة وبينها مناسبات ذكر كل منها مرة واحدة.. ولأن الواو أخف من »الهاء والهمزة« واثقل من »الياء والالف« ذُكرت سبع عشرة مرة فوق الهمزة الثقيلة بـــاربع درجات وتحت الالف الخفيفة باربع درجات ايضاً.

[130] والتنوين أيضاً نون. ـــ المؤلف.

[131] الهمزة الملفوظة وغير الملفوظة هي خمس وعشرون. وهي فوق اختها وهي الالف الساكنة بثلاث درجات، لأن الحركة ثلاثة. - المؤلف.

وهكذا فان هذه الحروف بهذا الوضع المنتظم الخارق، مع تلــك المناســبات الخفيــة، والانتظام الجميل، والنظام الدقيق، والانسجام اللطيف تثبت بيقين جازم كحاصل ضرب اثنين في اثنين يساوي اربعاً: أنه ليس من شأن البشر ولا يمكنه أن يفعله. أما المصادفة فمحــال ان تلعب به.

هذا فإن ما في اوضاع هذه الحروف من الانتظام العجيب والنظام الغريب مثلما هــو مدار للفصاحة والسلاسة اللفظية، يمكن ان تكون له حِكم كثيرة اخرى.

فما دام في الحروف هذا الانتظام، فلا شك انه قد روعي في كلماتها وجملها ومعانيهــا إنتظام ذو أسرار، وانسجام ذو أنوار، لو رأته العين لقالت من اعجابها: مــا شــاء الله، واذا ادركه العقل لقال من حيرته: بارك الله.

النقطة الخامسة:

براعة البيان: أي التفوق والمتانة والهيبة، اذ كما ان في نظم القرآن جزالــة، وفي لفظــه فصاحة، وفي معناه بلاغة، وفي اسلوبه إبداعاً، ففي بيانه ايضاً براعة فائقة.

نعم! ان بيان القرآن لهو في أعلى مرتبة من مراتب طبقات الخطاب واقســام الكــلام: كالترغيب والترهيب، والمدح والذم، والاثبات والارشاد، والافهام والافحام.

فمن بين الآف امثلة مقام »الترغيب والتشويق« سورة »الانسان«، إذ بيان القرآن في هذه السورة سلس ينساب كالسلسبيل، ولذيذ كثمار الجنة، وجميل كحلل الحور العين. [132]

ومن بين الأمــثلة التي لاتحد لمقام »الترهيــب والتهديــد« مقــــدمة ســــورة »الغاشية« اذ بيان القرآن في هذه السورة يؤثر تأثير غليان الرصاص في صــماخ الضــالين، ولهيب النار في عقولهم، وكالزقوم في حلوقهم، وكلفح جهــنم في وجــوههم، وكالضــريع الشائك في بطونهم.

نعم، إن كانت مأمورةُ العذاب جهنم (تكاد تميز من الغيظ) فكيــف يكــون تهديــد وترهيب آمرها بالعذاب؟

---

[132]) هذا الاسلوب قد لبس حلل معاني السورة نفسها. - المؤلف.

ومن بين الآف امثلة مقام »المدح« السور الخمس المستـــــهلة بــ»الحمد للّـــه«؛ اذ بيان القرآن في هذه السور ساطع كالشمس، [133]مزّين كالنجوم، مهيب كالسموات والارض، محبوب مأنوس كالملائكة، لطيف رؤوف كالرحمة على الصغار في الدنيا، وجميل بهيج كالجنة اللطيفة في الآخرة.

ومن بين آلاف امثلة مقام »الذم والزجر« الآية الكريمة:

(أيحبُ احدكُم انْ يأكل لحم اخيهِ ميتاً فكرهتُموه). (الحجرات:12)

تنهى هذه الآية الكريمة عن الغيبة بست مراتب وتزجر عنها بشدة وعنف، وحيـــث ان خطاب الآية موجه الى المغتابين، فيكون المعنى كالاتي:

ان الهمزة الموجودة في البداية، للاستفهام الانكاري حيث يسري حكمه ويسيل كالماء الى جميع كلمات الآية، فكل كلمة منها تتضمن حكماً.

ففي الكلمة الاولى تخاطب الآية الكريمة بالهمزة:

أليس لكم عقل – وهو محل السؤال والجواب – ليعي هذا الامر القبيح؟

وفي الكلمة الثانية: »ايحب« تخاطب الآية بالهمزة:

هل فسد قلبكم – وهو محل الحب والبغض – حتى أصبح يحب اكره الاشياء واشـــدها تنفيراً.

وفي الكلمة الثالثة: »احدكم« تخاطب بالهمزة:

ماذا جرى لحياتكم الاجتماعية – التي تستمد حيويتها من حيوية الجماعة – وما بـــال مدنيتكم وحضارتكم حتى اصبحت ترضى بما يسمم حياتكم ويعكر صفوكم.

وفي الكلمة الرابعة: »ان يأكل لحم« تخاطب بالهمزة:

ماذا اصابت انسانيتكم؟ حتى اصبحتم تفترسون صديقكم الحميم.

وفي الكلمة الخامسة: »اخيه« تخاطب بالهمزة:

---

[133] في هذه العبارات اشارة لموضوعات تلك السور. – المؤلف.

اليس بكم رأفة ببني جنسكم، أليس لكم صلة رحم تربطكم معهم، حتى اصبحتم تفتكون بمن هو اخوكم من عدة جهات، وتنهشون شخصه المعنوي المظلوم نهشاً قاسياً ، ايملك عقلاً من يعض عضواً من جسمه؟ اوَليس هو بمجنون؟.

وفي الكملة السادسة: »ميتاً« تخاطب بالهمزة:

اين وجدانكم؟ أفسدت فطرتكم حتى اصبحتم تجترحون ابغض الاشياء وافسدها – وهو أكل لحم اخيكم – في الوقت الذي هو جدير بكل احترام وتوقير.

يفهم من هذه الآية الكريمة – وبما ذكرناه من دلائل مختلفة في كلماتها – ان الغيبة مذمومة عقلاً وقلباً وانسانية ووجداناً وفطرة وملةً.

فتدبر هذه الآية الكريمة، وانظر كيف انها تزجر عن جريمة الغيبة باعجاز بالغ وبايجاز شديد في ست مراتب.

ومن بين آلاف امثلة مقام »الاثبات« الآية الكريمة:

(فانظر الى آثارِ رحمتِ الله كيفَ يحيى الأرضَ بعدَ موتِها انّ ذلك لمحيي الموتى وهو على كلِّ شيءِ قديرٌ) (الروم:50) فانها تثبت الحشر وتزيل استبعاده ببيانٍ شافٍ ووافٍ لا بيان فوقه. وذلك كما اثبتنا في الحقيقة التاسعة من الكلمة العاشرة وفي اللمعة الخامسة من الكلمة الثانية والعشرين بأنه: كلما حلّ موسم الربيع، فكأن الأرض تُبعث من جديد بانبعاث ثلاثمائة الف نوع من انواع الحشر والنشور، في انتظام متقن وتمييز تام علماً انها في منتهى الاختلاط والتشابك، حتى يكون ذلك الإحياء والبعث ظاهراً لكل مشاهد، وكأنه يقول له: ان الذي أحيا الأرضَ هكذا لن يصعب عليه اقامة الحشر والنشور. ثم أن كتابة هذه الالوف المؤلفة من انواع الاحياء على صحيفة الأرض بقلم القدرة دون خطأ ولا نقص لهي ختم واضح للواحد الأحد،فكما أثبتت هذه الآية الكريمة التوحيدَ، تثبت القيامة والحشر ايضاً مبينةً ان الحشر والنشور سهل على تلك القدرة وقطعي ثابت كقطعية ثبوت غروب الشمس وشروقها.

ثم ان الآية الكريمة اذ تبين هذه الحقيقة بلفظ »كيف« أي من زاوية الكيفية فان سوراً اخرى كثيرة قد فصّلت تلك الكيفية منها: سورة »ق« مثلاً: فانها تثبت الحشر والقيامة ببيان رفيع جميل باهر يفيد انه لا ريب في مجئ الحشر كما لا ريب في مجئ الربيع – فتأمل في

جواب القرآن الكفارَ المنكرين وتعجبهم من احياء العظام وتحولها الى خلق جديد، اذ يقـــول لهم:

(أفلم ينظروا الى السماءِ فوقَهُم كيفَ بنيناها وزيّناها ومالهـــا مـــن فـــروجٍ_ والأرضَ مددناها وألقينا فيها رواسيَ وانبتنا فيها من كلِّ زوجٍ بهيجٍ_ تبصرةً وذكرى لكلّ عبدٍ منيبٍ_ ونزّلنا من السماء ماءً مباركاً فانبتنا به جنّاتٍ وحبّ الحصيد_ والنخلَ باسقاتٍ لهـــا طلـــعٌ نـــضيد _ رزقاً للعبادِ واحيينا به بلدةً ميتاً كذلك الخروج) (ق: 6ـــــ11)

فهذا البيان يسيل كالماء الرقراق، ويسطع كالنجوم الزاهرة، وهو يطعم القلب ويغذّيـــه بغذاء حلو طيب كالرطب. فيكون غذاء ويكون لذة في الوقت نفسه.

ومن ألطف امثلة مقام »الاثبات« هذا المثال:

(يس_ والقرآنِ الحكيم _ إنك لمن المرسلين) (يس : 1ـــــ3) . هذا القَسَم يشير الى حجية الرسالة وبرهانها بيقين جازم وحق واضح حتى بلغت في الحقانية والصدق مرتبة التعظيم والإجلال، فيُقْسَم به.

يقول القرآن الكريم بهذه الاشارة: انك رسول لأن في يدك قرآناً حكيماً، والقرآن نفسه حق وكلام الحق لأن فيه الحكمة الحقة وعليه ختم الاعجاز.

ونذكر من امثلة مقام »الاثبات« ذات الاعجاز والايجاز هذه الآية الكريمة:(قال من يحيى العظامَ وهي رميمٌ_ قلْ يحييها الذي أنشأها أولَ مرةٍ وهو بكلّ خلقٍ عليم) (يس: 78 - 79)

ففي المثال الثالث من الحقيقة التاسعة للكلمة العاشرة تصوير لطيف لهذه المسألة، علـــى النحو الآتي:

ان شخصاً عظيماً يستطيع ان يشكّل – أمام انظارنا – جيشاً ضخماً في يوم واحد. فاذا قال احدهم: ان هذا الشخص يمكنه ان يجمع جنود طابوره المتفـــرقين للاســـتراحة ببـــوق عسكري فينتظم له الطابور حالاً. وانت ايها الانسان إن قلت: لا اصدق!! تـــدرك عندئـــذٍ مدى بعد انكارك عن العقل.

والأمر كذلك (ولله المثل الاعلى): ان الذي يبعث أجساد الاحياء قاطبة من غير شيء كأنها أفراد جيش ضخم بكمال الانتظام وبميزان الحكمة، ويجمع ذرات تلك الاجساد ولطائفها ويحفظها بأمر »كن فيكون« في كل قرن، بل في كل ربيع، على وجه الارض كافة، ويوجِد مئات الالوف من امثالها من انواع ذوي الحياة. ان القدير العليم الذي يفعل هذا هل يمكن أن يستبعد منه جمع الذرات الاساسية والاجزاء الاصلية المتعارفة تحت نظام الجسد كأنها افراد جيش منظم، بصيحة من صور اسرافيل؟ إن استبعاد هذا من ذلكم القدير العليم لا محالة جنون!

وفي مقام »الارشاد« فان البيانات القرآنية مؤثرة ورفيعة ومؤنسة ورقيقةحتى أنها تملأ الروح شوقاً والعقل لهفة والعين دمعاً. فلنأخذ هذا المثال من بين الآف امثلته:

(ثم قسَتْ قلوبكُم منْ بعدِ ذلك فهي كالحجارةِ أو أشدُّ قسوةً وانَّ من الحجارة لَمَا يتفجّر منه الانهارُ وانّ منها لَمَا يشّقّق فيخرجُ منه الماءُ وانّ منها لما يهبطُ من خشيةِ الله وما الله بغافلٍ عما تعملون) (البقرة: 74) فكما اوضحنا واثبتنا في مبحث الآية الثالثة من »المقام الاول للكلمة العشرين« فان الآية هذه تخاطب بني اسرائيل قائلة: ماذا اصابكم يا بني اسرائيل حتى لا تبالون بجميع معجزات موسى عليه السلام، فعيونكم شاخصة جافة لا تدمع، وقلوبكم قاسية غليظة لا حرارة فيها ولا شوق، بينما الحجارة الصلدة القاسية قد ذرفت الدموع من اثنتي عشرة عيناً بضربة من عصا موسى - عليه السلام - وهي معجزة واحدة من معجزاته!

نكتفي بهذا القدر هنا ونحيل الى تلك الكلمة حيث وُضّح هذا المعنى الارشادى ايضاحاً كافياً.

وفي مقام »الافحام والالزام« تأمل في هذين المثالين فحسب من بين الآف امثلته.

mالمثال الاول:

(وان كنتم في ريبٍ مما نزّلنا على عَبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءَكُم من دون الله إن كنتم صادقين) (البقرة:23)

سنشير هنا اشارة مجملة فحسب، اذ قد اوضحناه واثبتناه واشرنا اليه في »اشارات الاعجاز« وهو:

ان القرآن المعجز البيان يقول: يا معشر الانس والجن إن كانت لـــديكم شـــبهة في أن القرآن ليس كلام الله، وتتوهمون انه من كلام بشر. فهيا، فها هو ميدان التحدي. فأتوا بقرآنٍ مثل هذا يصدر عن شخص أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، مثل محمد الذي تصفونه انـــتم بـــ »الأمين«..

فان لم تفعلوا هذا فأتوا به من غير أمي، وليكن بليغاً أو عالماً..

فان لم تفعلوا هذا فأتوا به من جماعة من البلغاء وليس من شخص واحد، بل اجمعـــوا جميع بلغائكم وخطبائكم والآثار الجيدة للسابقين منهم ومدد اللاحقين وهمـــم شـــهدائكم وشركائكم من دون الله، وابذلوا كل ما لديكم حتى تأتوا بمثل هذا القرآن..

فان لم تفعلوا هذا فاتوا بكتابٍ في مثل بلاغة القرآن ونظمه،بصرف النظر عن حقائقـــه العظيمة ومعجزاته المعنوية.

بل القرآن قد تحداهم بأقل من هذا اذ يقول فاتوا (بعشـــر ســـورٍ مثلـــه مفتريـــات) (هود:13) أي ليس ضرورياً صدق المعنى فلتكن اكاذيب مفتريات.

وان لم تفعلوا، فليكن عشر سور منه وليس ضرورياً كل القرآن..

وان لم تفعلوا هذا، فأتوا بسورة واحدة من مثله فحسب، وان كنتم ترون هذا ايضـــاً صعباً عليكم، فلتكن سورة قصيرة..

واخيراً ما دمتم عاجزين لا تستطيعون ان تفعلوا ولن تفعلوا مع انكم في أمسّ الحاجـــة الى الاتيان بمثيله، لأن شرفكم وعزتكم ودينكم وعصبيتكم واموالكم وارواحكم ودنيـــاكم واخراكم انما تصان باتيان مثله، والاّ ففي الدنيا يتعرض شرفكم ودينكم الى الخطر وتسامون الذل والهوان وتُهدر أموالكم، وفي الآخرة تصيرون حطباً للنار مـــع اصـــنامكم ومحكـــومين بالسجن الابدي (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) (البقرة: 24)

فما دمتم قد عرفتم عجزكم بثماني مراتب، فلابد ان تعرفوا ان القرآن معجز بثمـــاني مراتب فإما ان تؤمنوا به أو تسكتوا نهائياً وتكون جهنم مثواكم وبئس المصير.

وبعد ما عرفت بيان القرآن هذا والزامه في مقام »الافحام« قل: حقاً انه »ليس بعد بيان القرآن بيان«.

mالمثال الثاني:

(فذكّر فما انتَ بنعمتِ ربّك بكاهنٍ ولا مجنون_ أم يقولون شاعرٌ نتربّصُ بــه ريــبَ المنون_ قُل تربصوا فاني معكم من المتربصين _ أم تأمرُهُم احلامُهم بهذا أم هم قوم طاغون_ أم يقولون تَقَوّله بل لا يؤمنون_ فليأتوا بحديثٍ مثله ان كانوا صادقين_ ام خُلقوا مــن غــير شيء أم هم الخالقون_ أم خَلقوا السموات والارض بل لا ُيوقنون_ أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون_ أم لهم سلّمٌ يستمعون فيه فليأتِ مستمعُهم بسلطانٍ مبين_ أم لــه البنــات ولكم البنونَ_ أم تسئلهم اجراً فهم من مغْرَم مُثقلون_ أم عندهم الغيبُ فهم يكتبــون_ أم يُريدون كيداً فالذين كفروا هم الــمَكيدون_ أم لهم إلهٌ غيرُ الله سبحان الله عما يشركون) (الطور: 29 - 43)

من بين الآف الحقائق التي تتضمنها هذه الآيات الجليلة سنبين حقيقة واحدة فقط مثالاً للإلزام وإفحام الخصم. كالآتي:

ان هذه الايات الكريمة تُلزم جميع اقسام اهل الضلالة وتسكتهم، وتسدّ جميع منابــت الشبهات وتزيلها، وذلك بلفظ: أم .. أم، بخمس عشرة طبقة مــن الاســتفهام الانكــاري التعجبي، فلا تدع ثغرة شيطانية يترِوي فيها اهل الضلالة إلاّ وتســدها، ولا تــدع ســتاراً يتسترون تحته إلاّ وتمزقه، ولا تدع كذباً من اكاذيبهم إلاّ وتفنّده. فكل فقرة من فقراتها تبطل خلاصة مفهوم كفرٍ تحمله طائفة من الطوائف الكافرة؛ إما بتعبير قصير وجيز، أو بالسكوت عنه واحالته الى بداهة العقل لظهور بطلانه، أو باشارة مجملة إذ قد رُدّ ذلك المفهوم الكفري وأُفحم في موضع آخر بالتفصيل. فمثلاً:

الفقرة الأُولى تشير الى الآية الكريمة (وما عَلّمناهُ الشعرَ وما ينبغي له) أما الفقرة الخامسة عشرة فهي ترمز الى الآية الكريمة (لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا). قس بنفســك ســائر الفقرات في ضوء هذه الفقرة، وذلك:

ففي المقدمة تقول: بلّغ الاحكام الآلهية، فانك لستَ بكاهنٍ، لان كلام الكاهن ملفّــق مختلط لا يعدو الظن والوهم، بينما كلامك هو الحق بعينه وهو اليقين.. وذكّر بتلك الاحكام فلستَ مجنوناً قط، فقد شهد اعداؤك كذلك على كمال عقلك.

أم يقولون شاعرٌ نتربصُ بهِ ريبَ المنون فيا عجباً! أيقولون لك: شاعر، كالكفار العوام الذين لا يحتكمون الى العقل! أوَهم ينتظرون هلاكك وموتك! قل لهم: انتظروا وأنا معكم من المنتظرين.فان حقائقك العظيمة الباهرة منزّهة عن خيالات الشعر ومستغنية عن تزييناته.

أم تأمُرهم أحلامُهم بهذا: أم أنهم يستنكفون عن اتباعك كالفلاسفة المعتدين بعقـــولهم الفارغة؟؛ الذين يقولون: كفانا عقلنا. مع أن العقل نفسه يأمر باتباعك، فما من قول تقولـــه إلاّ وهو معقول، ولكن لا يبلغه العقل بمفرده.

أم هم قوم طاغون أم ان سبب انكارهم هو عدم رضوخهم للحق كالطغاة الظلمة؟ مع أن عقبى الجبارين العتاة من فراعنة ونماريد معلومة لا تخفى على أحد.

أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون. أم أنهم يتهمونك بأن القرآن كلام من عنـــدك، كمـــا يقول المنافقون الكاذبون الذين لا ضمير لهم ولا وجدان؟ مع أنهم هم الذين يدعونك الى الآن بـــ »محـــمد الأمين« لصدق كلامك. فاذاً لا ينـــوون الايـــمان. وإلاّ فليجـــدوا في آثـــار البشر مثيلاً للقرآن.

أم خُلقوا من غير شئ أم أنهم يعدّون أنفسهم سائبين، خُلقوا سدىً بـــلا غايـــة ولا وظيفة ولا خالق لهم ولا مولى؟ . ويعتقدون الكونَ كله عبثاً كما يعتقد به الفلاسفة العبثيون! أفعَميتْ ابصارهم؟ افلا يرون الكون كله من اقصاه الى اقصاه مزيّناً بالحِكَم ومثمراً بالغايات، والموجودات كلها من الذرات الى المجرات مناطة بوظائف جليلة ومسخرة لأوامر آلهية.

أم هم الخالقون أم أنهم يظنون أن الاشياء تتشكل بنفسها وتُربّى بنفسها وتخلق لوازمها بنفسها كما يقول الماديون المتفرعنون! حتى غدوا يستنكفون من الايمان والعبودية لله، فاذاً هم يظنون أنفسهم خالقين. والحال: ان خالق شيءٍ واحد يلزم ان يكون خالقاً لكل شئ. فلقـــد دفعهم اذن غرورُهم وعتوّهم الى منتهى الحماقة والجهل حتى ظنوا أن مَن هو عـــاجز امـــام أضعف مخلوق - كالذباب والميكروب - قادرٌ مطلق! فما داموا قد تخلّوا الى هذا الحد عـــن العقل وتجردوا من الانسانية، فهم اذاً اضلّ من الأنعام بل أدنى من الجمـــادات.. فـــلا تهـــتم لإنكارهم، بل ضعهم في عداد الحيوانات المضرة والمواد الفاسدة. ولا تلقِ لهم بالاً ولا تلتفت اليهم أصلاً.

أم خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون أم يجحدون وجود الله تعـــالى كالمعطلـــة الحمقى المنكرين للخالق؟ فلا يستمعون للقرآن! فعليهم اذاً ان ينكـــروا خلـــق الســـموات والارض، أو يقولوا:

نحن الخالقون؛ ولينسلخوا من العقل كلياً وليدخلوا في هذيان الجنـــون، لأن بـــراهين التوحيد واضحة تُقرأ في أرجاء الكون بعدد نجوم الســـــماء وبعـــدد ازاهير الارض، كلها تدل عـــلـــــى وجـــــوده تعـــــالى وتفـــــصـــــح عنه. فـــاذاً لا يرغبـــــــون في الرضـــــوخ الى الحق واليقين، والاّ فكيف ظنوا ان كتاب الكون العظيم هذا الذي تنـــدرج في كل حرف منه الوف الكتب أنه دون كاتب، مع أنهم يعلمون جيداً أن حرفاً واحـــداً لا يكون دون كاتب؟

أم عندهم خزائن ربك أم أنهم ينفون الارادة الآلهية كـــبعض الفلاســـفة الضـــالين او ينكرون اصل النبوة كالبراهمة، فلا يؤمنون بك! فعليهم اذاً ان ينكروا جميـــع آثـــار الحِكَـــم والغايات الجليلة والانتظامات البديعة والفوائد المثمرة واثار الرحمة الواسعة والعنايـــة الفائقـــة الظاهرة على الموجودات كافة، والدالة على الارادة الآلهية واختيارها، وعليهم ان ينكروا جميع معجزات الانبياء عليهم السلام، أو عليهم أن يقولوا: أن الخزينة التي تفيض بالاحسان علـــى الخلق اجمعين هي عندنا وبايدينا. وليُسْفِروا عن حقيقتهم بأنهم لا يستحقون الخطاب، ولا هم أهلٌ له. اذاً فلا تحزن على انكارهم. فلله حيوانات ضالة كثيرة.

أم هم المصيطرون أم أنهم توهموا أنفسهم رقباء على اعمال الله تعـــالى؟ أَفَيريـــدون ان يجعلوه سبحانه مسؤولاً، كالمعتزلة الذين نصبوا العقل حاكماً! فلا تبالِ ولا تكترث بهم إذ لا طائل وراء انكار هؤلاء المغرورين وامثالهم.

أم لهم سلمٌ يستمعونَ فيه فليأتِ مستمعُهُم بسلطانٍ مبين أم أنهم يظنون أنفسهم قـــد وجدوا طريقاً آخر الى عالم الغيب كما يدّعيه الكهان الـــذين اتبعـــوا الشـــياطين والجـــان، وكمشعوذي تحضير الارواح؟ أم يظنون أن لديهم سلماً الى السموات التي صُـــكت ابوابهـــا بوجوه الشياطين، حتى لا يصّدقوا بما تتلقاه من خبر السماء! فانكار هؤلاء الفجرة الكـــذابين وامثالهم، هو في حكم العدم.

أم لهُ البناتُ ولكم البنون أم أُهم يسندون الشرك الى الأحد الصمد باســـم العقـــول العشرة وارباب الانواع كما يعتقد به فلاسفة مشركون، أو بنوعٍ من الالوهية المنســـوبة الى النجوم والملائكة كالصابئة، أو باسناد الولد اليه تعالى كالملحدين والضالين، أو ينسبون اليـــه الولد المنافي لوجوب وجود الأحد الصمد، ولوحدانيته وصمدانيته وهو المستغني المتعـــال؟ أم يسندون الأنوثة الى الملائكة المنافية لعبوديتهم وعصمتهم وجنسهم (طبيعتهم)؟ أفَهُم يظنـــون أهم بهذا يوجدون شفعاء لأنفسهم، فلا يتّبعونك!؟ ان الانسان الفاني الذي يطلب الوريـــث المعين، والمطبوع على حب الدنيا الى حدّ الهيام بها، وهو العاجز الفقير الى بقاء نوعه، والمؤهل للتناسل والتكاثر والتجزؤ الجسماني، ذلك التناسل الذي هو رابطة البقـــاء وآصـــرة الحيـــاة للمخلوقات كافة.. فاسناد التناسل هذا الى مَن وجودُه واجب وهو الـــدائم البـــاقي، الأزلي الأبدي، الذاتي، المنزّه عن الجسمانية، المقدس عن تجزئة الماهية، المتعالي عن ان يمـــس قدرتـــه العجز، وهو الواحد الأحد الجليل ذو الجلال.. واسناد الاولاد اليه ولاسيما الضعفاء العاجزين أي البنات اللاتي لم يرتضها غرورُ هؤلاء، انما هو نهاية السفسطة ومنتـــهى الجنـــون وغايـــة الهذيان، حتى انه لا حاجة الى تفنيد افتراءاتهم واظهار بطلانهم فلا تنصت اليهم ولا تلق لهـــم بالاً اذ لا تُسمَع سفسطة كل ثملٍ ولا هذيان كل مجنون.

أم تسألهم أجراً فهم من مغْرمٍ مُثقلون أم أنهم يرون تكاليف العبودية التي تطلبها منهم ثقيلاً عليهم؟ كما يراها الطغاة الباغون الحريصون على الدنيا المعتادون على الخسة فيهربـــون من تلك التكاليف! ألا يعلمون انك لا تريد منهم أجراً ولا من أحدٍ إلاّ منه سبحانه؟ أيعـــزّ عليهم التصدق من مال الله الذي اعطاه اياهم ليزداد المال بركة وليحصَّن من حسد الفقراء، ومن الدعاء بالسوء على مالكه؟ فالزكاة بمقدار العُشر أو واحد من اربعين، والتصدق بها على فقرائهم أتعدّ أمراً ثقيلاً حتى يهربوا من الاسلام؟ انهم لا يستحقون حـــتى الجـــواب علـــى تكذيبهم، فهو واضح جداً وتافه جداً بل يستحقون التأديب لا الاجابة.

أم عندهم الغيب فهم يكتبون أم أنهم لا يروق لهم ما تتلقاه من اخبار الغيب، فيدّعون معرفة الغيب كالبوذيين وكالعقلانيين الذين يحسبون ظنونهم يقيناً! أعندهم كتاب من الغيـــب

وهو مفتوح لهم يكتبون منه حتى يردّوا كتابك الغيبي!؟ ان ذلك العالَم لا يتراح حجابُــه الاّ للرسل الموحى اليهم، ولا طاقة لأحد بالولوج فيه بنفسه قط.

ولا يستخفنَّك عن دعوتك تكذيب هؤلاء المغرورين المتكبرين الذين تجاوزوا طــورهم وتعدّوا حدودهم. فعن قريب ستحطم حقائقُك احلامَهم وتكون أثراً بعد عين.

أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون أم أنهم يريدون أن يكونوا كالمنافقين الذين فسدت فطرتهم وتفسخ وجدانهم، وكالزنادقة المكّارين الذين يصّدون الناس عن الهــدى – الذي حرموا منه – بالمكيدة والخــديعــة فيصرفوهم عن سواء السبيل، حتى اطلقوا عليــك اسم الكاهن أو المجنون أو الساحر، مع أنهم هم أنفســهم لا يصّــدقون دعــواهم فكيــف بالآخرين؟ فلا تهتم بهؤلاء الكذابين الخداعين ولا تعتبرهم في زمرة الأناسي، بــل امــضِ في الدعوة الى الله، لا يفترك شئ عنها، فاولئك لا يكيدونك بل يكيدون أنفسهم، ويضــرونها بأنفسهم. وما نجاحهم في الفساد والكيد إلاّ أمر مؤقت زائل بل هو استدراج ومكر إلهي.

أم لهم إلهٌ غيرُ الله سبحان الله عما يُشركون أم أنهم يعارضونك ويستغنون عنك لانهم يتوهمون الهاً غير الله يستندون اليه كالمجوس الذين توهموا إلهين اثنين باسم خالق الخير وخــالق الشر! أو كعبّاد الاسباب والاصنام الذين يمنحون نوعاً من الالوهية للاســباب ويتصــورونها موئل استناد؟ اذاً فقد عميت ابصارهم أفلا يرون هذا الانتظام الاكمل الظاهر كالنهار في هذا الكون العظيم ولا هذا الانسجام الاجمل فيه!..

فبمقتضى قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا) اذا ما حلّ مختاران في قريــة، وواليان في ولاية وسلطانان في بلد، فالانتظام يختل حتماً والانسجام يفسد نهائياً. والحــال ان الانتظام الدقيق واضح بدءاً من جناح البعوضة الى قناديل السماء. فليس للشرك موضع ولــو بمقدار جناح بعوض. فما دام هؤلاء يمرقون من نطاق العقل ويجافون الحكمة والمنطق ويقومون باعمال منافية كلياً للشعور والبداهة، فلا يصرفك تكذيبهم لك عن التذكير والارشاد.

وهكذا فهذه الايات التي هي سلسلة الحقائق، قد بينا بياناً مجملاً جوهرةً واحدة منــها فقط من مئات جواهرها، تلك الجوهرة التي تخص »الالزام والافحام«. فلو كانت لي قــدرة لأبين عدة جواهر اخرى منها لكنتَ تقول ايضاً: ان هذه الآيات معجزة بحد ذاتها!

أما بيان القرآن في »الافهام والتعليم« فهو خارق وذو لطافة وسلاسة، حتى ان ابسط شخص عامي يفهم – بتلك البيانات – اعظم حقيقة واعمقها بيسر وسهولة.

نعم! ان القرآن المبين يرشد الى كثير من الحقائق الغامضة ويعلّم الناس اياها باسلوب سهل وواضح وببيان شافٍ يراعي نظر العوام، من دون ايذاء لشعور العامة ولا إرهاق لفكر العوام ولا ازعاج له، فكما اذا ما حاور انسان صبياً فانه يستعمل تعابير خاصة به، كذلك الاساليب القرآنية والتي تسمى بـ »التنزلات الإلهية الى عقول البشر« خطاب ينزل الى مستوى مدارك المخاطبين، حتى يفهّم أشد العوام أمية، من الحقائق الغامضة والاسرار الربانية ما يعجز حكماءٌ متبحرون عن بلوغها بفكرهم؛ وذلك بالتشبيهات والتمثيلات بصور متشابهات.

فمثلاً: الآية الكريمة:

(الرحمن على العرشِ استوى) تبين الربوبية الإلهية وكيفية تدبيرها لشؤون العالم في صورة تمثيل وتشبيه لمرتبة الربوبية بالسلطان الذي يعتلي عرشه ويدير أمر السلطنة.

نعم! لما كان القرآن كلاماً لرب العالمين نزل من المرتبة العظمى لربوبيته الجليلة، مهيمناً على جميع المراتب الاخرى، مرشداً البالغين الى تلك المراتب، مخترقاً سبعين ألف حجاب، ملتفتاً اليها ومنوراً لها، وقد نشر نوره على الاف الطبقات من المخاطبين المتباينين في الفهم والادراك، ونثر فيضه طوال عصور وقرون متفاوتة في الاستعدادات. وعلى الرغم من نشره لمعانيه بسهولة تامة في جميع الانحاء والازمان، احتفظ بحيويته ونداوته ونضارته و لم يفقد شيئاً منها، بل ظل في منتهى الطراوة والجدة واللطافة سهلاً ممتنعاً، اذ مثلما يلقى دروسه على أي عامي كان في غاية السهولة يلقيه على المختلفين في الفهم والمتباينين في الذكاء لكثير جداً من الطبقات المتفاوتة ويرشدهم الى الصواب ويورثهم القناعة والاطمئنان.

ففي هذا الكتاب المبين اينما وجهت نظرك يمكنك ان تشاهد لمعة اعجاز.

حاصل الكلام:

كما ان لفظة قرآنية مثل: »الحمد لله« عندما تُتلى تملأ الكهف الذي هو بمثابة أُذن الجبل، فانها تملأ في الوقت نفسه ما تشبه الأُذين الصغيرة جداً لبعوض فتستقر اللفظة نفسها

فيهما معاً. كذلك الأمر في معاني القرآن الكريم. اذ مثلما تُشبع عقولاً جبارة، تعلّم عقـــولاً صغيرة وبسيطة جداً، وتُطمئنها بالكلمات نفسها، ذلك لأن القرآن يدعو جميع طبقات الجن والانس الى الايمان ويعلّم جميعهم علوم الايمان ويثبتها لهم جميعاً، لذا يستمع الى درس القرآن وارشاده اغبى الاغبياء من عامة الناس مع اخص الخواص جنباً الى جنب متكاتفين معاً.

أي أن القرآن الكريم مائدة سماوية تجد فيها الآف من مختلف طبقات الأفكار والعقـــول والقلوب والارواح غذاءهم، كل حسب ما يشتهيه ويلبّي رغباته. حتى ان كثيراً من أبـــواب القرآن ظلت مغلقة لتفتح في المستقبل من الزمان.

فإن شئت مثالاً على هذا المقام، فالقرآن كله من بدايته الى نهايته أمثلة لهذا المقام.

نعم، أن تلامذة القرآن والمستمعين لإرشاده من المجتهدين والصديقين وحكماء الاسلام والعلماء المحققين وعلماء اصول الفقه والمتكلمين والاولياء العـــارفين والاقطـــاب العاشـــقين والعلماء المدققين وعامة المسلمين.. كلهم يقولون بالاتفاق »نحن نتلقى الارشاد على أفضـــل وجه من القرآن«.

والخلاصة:

أن لمعة اعجاز القرآن تتلمع في هذا المقام ايضاً – مقام الافهام والتعليم – كما هو الحال في سائر المقامات.

الشعاع الثاني

جامعية القرآن الخارقة

لهذا الشعاع خمس لمعات

اللمعة الاولى:

الجامعية الخارقة في لفظه. هذه الجامعية واضـــحة جليـــة في الآيـــات المـــذكورة في »الكلمات« السابقة وفي هذه »الكلمة«.

نعم! ان الالفاظ القرآنية قد وُضعت وضعاً بحيث: أن لكلِ كلام بل لكل كلمة بل لكل حرف بل حتى لسكون احياناً وجوهاً كثيرة جداً، تمنح كل مخاطب حظّه ونصيبه من ابواب

مختلفة، كما يشير الى ذلك الحديث الشريف، فلكل آية ظهرٌ وبطن وحدّ ومطّلع،[134] ولكـــلٍ شجون وغصون وفنون.[135]

* فمثلاً:

(والجبالَ اوتاداً) (النبأ: 7)

فحصة عامي من هذا الكلام أنه:

يرى الجبال كالاوتاد المغروزة في الارض كما هو ظاهر أمام عينه، فيتأمل ما فيها مـــن نِعم وفوائد، ويشكر خالقه.

وحصة شاعر من هذا الكلام أنه:

يتخيل أن الارض سهل منبسط، وقبة السماء عبارة عن خيمة عظيمة خضراء ضـــربت عليه، وزينت الخيمة بمصابيح، وان الجبال تتراءى وهي تملأ دائرة الافق، تمس قممها اذيـــال السماء، وكأنها اوتاد تلك الخيمة العظيمة. فتغمره الحيرة والاعجاب ويقدس الصانع الجليل.

أما البدوي البليغ فحصته من هذا الكلام أنه:

يتصور سطح الارض كصحراء واسعة، وكأن سلاسل الجبال سلسلة ممتدة لخيم كثيرة بانواع شتى لمخلوقات متنوعة، حتى أن طبقة التراب عبارة عن غطاء اُلقي على تلك الاوتـــاد المرتفعة فرفعتها برؤوسها الحادة، جاعلةً منها مساكن مختلفة لأنواع شتى من المخلوقـــات.. هكذا يفهم فيسجد للفاطر الجليل سجدة حيرة واعجاب بجعله تلك المخلوقات العظيمة كأنها خيام ضربت على الارض.

---

[134] (انزل القرآن على سبعة أحرف) رواه احمد والترمذي عن اُبي رضى الله عنه واحمد عن حذيفة، وهو عند الطبراني من حديث ابن مسعود بزيادة.. وفي رواية اخرى عنده: لكل حرف منها ظهر وبطن ولكل حرف حدّ ولكل حدّ مطّلع (باختصار عن كشف الخفاء 209/1)

ولكل حدّ مطّلَعٌ، اي: لكل حدّ مصَعد يصعد اليه من معرفة علمه (لسان العرب) - المترجم.

[135] وفي المثل »الحديث ذو شجون« اي فنون واغراض، وقيل اي يدخل بعضه في بعض، أي: ذو شعَب وامتساك بعضه ببعض.. واصل الشجنة بالكسر والضم شعبة من غصن من غصون الشجرة (لسان العرب باختصار) - المترجم.

أما الجغرافي الاديب فحصته من هذا الكلام أن:

كرة الارض عبارة عن سفينة تمخر عباب بحر المحيط الهوائي أو الاثيري.وان الجبال أوتاد دقّت على تلك السفينة للتثبيت والموازنة.. هكذا يفكر الجغرافي ويقول أمام عظمة القدير ذي الكمال الذي جعل الكرة الارضية الضخمة سفينة منتظمة وأركَبنا فيها، لتجري بنا في آفاق العالم: (سبحانك ما اعظم شأنك).

أما المتخصص في امور المجتمع والملم بمتطلبات الحضارة الحديثة فحصتهُ من هذا الكلام:

أنه يفهم الارض عبارة عن مسكن، وان عماد حياة هذا المسكن هو حياة ذوي الحياة، وان عماد تلك الحياة هو الماء والهواء والتراب، التي هي شرائط الحياة. وان عماد هذه الثلاثة هو الجبال، لأن الجبال مخازن الماء، مشّاطة الهواء ومصفاته – اذ ترسب الغازات المضـــرة – وحامية التراب – اذ تحميه من استيلاء البحر والتوحل – وخزينة لسائر ما تقتضـــيه حيـــاة الانسان.. هكذا يفهم فيحمد ويقدّس ذلكم الصانع ذا الجلال والاكرام الذي جعـــل هـــذه الجبال العملاقة اوتاداً ومخازن معايشنا على الارض التي هي مسكن حياتنا.

وحصة فيلسوف طبيعي من هذا الكلام:

أنه يدرك أن الامتزاجات والانقلابات والزلازل التي تحصـــل في بـــاطن الارض تجـــد استقرارها وسكونها بظهور الجبال، فتكون الجبال سبباً لهدوء الارض واستقرارها حول محورها ومدارها وعدم عدولها عن مدارها السنوي وكأن الارض تتنفس بمنافذ الجبال فيخفّ غضَبُها وتسكن حدّتها.. هكذا يفهم ويطمئن ويلج في الايمان قائلاً: الحكمة لله.

* ومثلاً: (ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما) (الانبياء: 30)

ان كلمة »رتقاً« في هذه الآية تفيد لمن لم يتلوث بالفلسفة:

السماء كانت صافية لا سحاب فيها. والارض جدباء لا حياة فيها، فالذي فتح ابواب السماء بالمطر وفرش الارض بالخضرة هو الذي خلق جميع ذوي الحياة من ذلك الماء، وكأنـــه حصل نوع من المزاوجة والتلقيح بينهما، وما هذا إلاّ من شأن القدير ذي الجلال الذي يكون وجه الارض لديه كبستان صغير والسحب التي تحجب وجـــه الســـماء معصـــرات لـــذلك البستان.. يفهم هكذا فيسجد امام عظمة قدرته تعالى.

وتفيد تلك الكلمة »رتقاً« للعالم الكوني:

انه في بدء الخليقة، كانت الارض والسماء كتلتين لا شكل لهما وعجينتين طـــريتين لا نفع لهما، فبينما هما مادة لا مخلوقات لهما ولا مَن يدب عليهما، بسطهما الفاطر الحكيم بسطاً جميلاً، ومنحهما صوراً نافعة وزينة فاخرة وكثرة كاثرة من المخلوقات.. هكذا يفهم ويأخذه العجب أمام سعة حكمته تعالى.

وتفيد هذه الكلمة للفلاسفة المعاصرين:

ان كرتنا الارضية وسائر السيارات التي تشكل المنظومة الشمسية كانـــت في البدايـــة ممـــــتـــزجة مـــع الشــــمــــــس بشــــكل عجينة لم تُفـــرش بعــــــدُ، ففتـــّق القادر القـــيوم تلك العجينة ومكّن فيها السيارات كلاً في موضعه، فالشمس هناك والارض هنا.. وهكذا. وفرش الارض بالتراب وانزل عليها المطر من السماء، ونثر عليها الضياء مـــن الشمس واسكنها الانسان.. هكذا يفهم ويرفع رأسه من حمأة الطبيعة قائلاً:آمنت بالله الواحد الأحد.

* ومثلاً: (والشمس تجري لمستقر لها) (يس: 38): فاللام في (لمستقر) تفيد معنى اللام نفسها ومعنى (في) ومعنى (الى).

فهذه (اللام) يفهمها العوام بمعنى (الى) ويفهم الآية في ضوئها؛ أي:

ان الشمس التي تمنحكم الضوء والحرارة، تجري الى مستقرٍ لها وستبلغه يوماً، وعنـــدها لـــن تفيدكم شيئاً. فيتذكر بهذا ما ربط الله سبحانه وتعالى من نعمٍ عظيمة بالشمس، فيحمد ربه ويقدّسه قائلاً: سبحان الله والحمد للّه.

والآية نفسها تظهر (اللام) بمعنى (الى) الى العالِم ايضاً، ولكن ليس بمعنى ان الشـــمس مصدر الضوء وحده، وانما كمكوك تحيك المنسوجات الربانية التي تنسج في معمـــل الربيـــع والصيف. وانها مدادٌ ودواةٌ من نور لمكتوبات الصمد التي تُكتب على صحيفة الليل والنهار. فيتصورها هكذا ويتأمل في نظام العالم البديع الذي يشير اليه جريان الشـــمس الظـــاهري، فيهوي ساجداً أمام حكمة الصانع الحكيم قائلاً: ما شاء الله كان، تبارك الله.

أما بالنسبة للفلكي، فان (اللام) يفهمها بمعنى (في) أي: ان الشـــمس تـــنظم حركـــة منظومتها »كزنبرك« الساعة بحركة محورية حول نفسها. فأمام هذا الصانع الجليل الذي خلق مثل هذه الساعة العظمى يأخذه العجب والانبهار فيقول: العظمة والقدرة لله وحده، ويـــدع الفلسفة داخلاً في ميدان حكمة القرآن.

و(اللام) هذه يفهمها العالِم المدقق بمعنى »العلة« وبمعنى »الظرفيـــة« أي: أن الصـــانع الحكيم جعل الاسباب الظاهرية ستاراً لأفعاله وحجاباً لشؤونه. فقد ربط السيارات بالشمس بقانونه المسمى بـــ »الجاذبية« وبه يُجري السيارات المختلفة بحركات مختلفة ولكن منتظمة. ويجري الشمس حول مركزها سبباً ظاهرياً لتوليد تلك الجاذبية. أي أن معنى لمستقر هـــو: ان الشمس تجري في مستقر لها لإستقرار منظومتها، لأن الحركة تولد الحرارة والحرارة تولد القوة والقوة تولد الجاذبية الظاهرية، وذلك قانون رباني وسنة إلهية.

وهكذا، فهذا الحكيم المدقق يفهم مثل هذه الحكمة من حرف واحد من القرآن الحكيم ويقول: الحمد لله، ان الحكمة الحقة لهي في القرآن فلا اعتبر الفلسفة بعدُ شيئاً يذكر.

ومن هذه (اللام) والاستقرار يرد هذا المعنى الى مَن يملك فكراً وقلباً شاعرياً: ان الشمس شجرة نورانية، والسيارات التي حولها انما هي ثمراتها السائحة، فالشمس تنتفض دون الثمرات -بخلاف الاشجار الاخرى - لئلا تتساقط الثمرات، وبعكسه تتبعثر الثمرات.

ويمكن ان يتخيل ايضاً أن الشمس كسيد في حلقة ذكر، يذكر الله في مركز تلك الحلقة ذكر عاشقٍ ولهان، حتى يدفع الآخرين الى الجذبة والانتشاء.

وقد قلت في رسالة اخرى في هذا المعنى

نعم، ان الشمس مثمرة، تنتفض لئلا تتساقط الثمرات الطيبة ولو سكنت وســـكتت، لانفقد الانجذاب، فيصرخ العشاقُ المنسّقون في الفضاء الواسع هلعاً من السقوط والضياع!

* ومثلاً: (واولئك هم المفلحون) (البقرة: 5) فيها سكوت، وفيها اطلاق؛ اذ لم تعين بم يفلحون؟ ليجد كل واحد مبتغاه في هذا السكوت. فالآية تختصر الكلام ليتسع المعنى.

اذ إن قصد قسم من المخاطبين هو النجاة من النار، وقسم آخر لا يفكـــر إلاّ بالجنـــة، وقسم يأمل السعادة الابدية، وقسم يرجو الرضى الإلهي فحسب، وقسم غاية امله رؤيـــة الله

سبحانه. وهكذا.. فيترك القرآنُ الكلامَ على إطلاقه ليعمّ، ويحذف ليفيد معاني كثيرة، ويوجز ليجد كلُ واحدٍ حظَه منها.

وهكذا فــ (المفلحون) هنا لا يعّين بِمَ سيفلحون. وكأن الآية بسكوتها تقــول: أيهــا المسلمون: لكم البشرى! أيها المتقي: ان لك نجاة من النار. أيها العابد الصالح: فلاحُــك في الجنة. أيها العارف باللّه: ستنال رضاه. أيها العاشق لجمال الله: ستحظى برؤيتــه تعــالى.. وهكذا.

ولقد أوردنا من القرآن الكريم من جهة جامعية اللفظ في الكلام والكلمــة والحــروف والسكوت مثالاً واحداً فحسب من بين الآف الامثلة؛ فقس الآية والقصة على ما اسلفناه.

* ومثلاً: (فاعلم انه لا إله إلاّ الله واستغفر لذنبك) (محمد:19)

هذه الآية لها من الوجوه الكثيرة والمراتب العديدة حتى رأت جميع طبقات الاوليــاء في شتى وسائل سلوكهم ومراتبهم حاجتهم الى هذه الآية. فأخذ كلٌ منهم غذاءً معنوياً لائقــاً بمرتبته التي هو فيها، لأن لفظ الجلالة (الله) اسم جامع لجميع الاسماء الحسنى، ففيه انواع مــن التوحيد بقدر عدد الاسماء نفسها، أي: لا رزاق إلاّ هو، لا خالق إلاّ هو، لا رحمن إلاّ هو.. وهكذا.

* ومثلاً: قصة موسى عليه السلام من القصص القرآنية، فيها من العبر والدروس بقــدر ما في عصا موسى عليه السلام من الفوائد؛ اذ فيها تطمين للرسول)ص(وتسلية له، وتهديد للكفار، وتقبيح للمنافقين، وتوبيخ لليهود وما شابهها من المقاصد. فلها اذاً وجوه كثيرة جداً. لذا كررت في سور عدة. فمع انها تفيد جميع المقاصد في كل موضع إلاّ أن مقصداً منها هــو المقصود بالذات، وتبقى المقاصد الاخرى تابعة له

اذا قلت: كيف نفهم ان القرآن قد أراد جميع تلك المعاني التي جاءت في الامثلة السابقة، ويشير اليها؟

فالجواب: ما دام القرآن الكريم خطاباً أزلياً، يخاطب به الله سبحانه وتعــالى مختلــف طبقات البشرية المصطفة خلف العصور ويرشدهم جميعاً، فلابد أنه يدرج معاني عدة لــتلائم مختلف الافهام، وسيضع إمارات على ارادته هذه.

نعم، ففي كتاب »اشارات الاعجاز« ذكرنا هذه المعاني الموجودة هنا وأمثالهـــا مـــن المعاني المتعددة لكلمات القرآن، واثبتناها وفق قواعد علم الصرف والنحو وحسب دســـاتير علم البيان وفن المعاني وقوانين فن البلاغة.

والى جانب هذا فان جميع الوجوه والمعاني التي هي صحيحة حسب علـــوم العربيـــة، وصائبة وفق اصول الدين، ومقبولة في فن المعاني، ولائقة في علم البيان ومستحسنة في علـــم البلاغة، هي من معاني القرآن الكريم، باجماع المجتهدين والمفسرين وعلمـــاء اصـــول الـــدين واصول الفقه وبشهادة اختلاف وجهات نظرهم. وقد وضع القرآن الكريم امارات على كل من تلك المعاني حسب درجاتها وهي؛ إما لفظية أو معنوية، والامارة المعنوية هي: اما السياق نفسه او سباق الكلام أو أمارة من آيات أُخر تشير الى ذلك المعنى.

ان مئات الالوف من التفاسير التي قد بلغ بعضها ثمانين مجلداً [136]وقـــد الّفهـــا علمـــاء محققون، برهان قاطع باهر على جامعية وخارقية لفظ القرآن.

وعلى كل حال فلو اوضحنا في هذه الكلمة كل امارة تدل على كل معنى من المعـــاني بقانونها وبقاعدتها لطالت بنا الكلمة، لذا نختصر الكلام هنا ونحيـــل الى كتـــاب (اشـــارات الاعجاز في مظان الايجاز).

اللمعة الثانية:

الجامعية الخارقة في معانيه. نعم، ان القرآن الكريم قد افاض من خزينة معانيـــه الجليلـــة مصادرَ جميع المجتهدين، ومذاقَ جميع العارفين، ومشاربَ جميع الواصلين ومســـالكَ جميـــع الكاملين، ومذاهبَ جميع المحققين فضلاً عن انه صار دليلَهم في كل وقتٍ ومرشدَهم في رقيهم كل حين ناشراً على طرقهم انواره الساطعة من خزينته التي لا تنضب، كما هو مصدَّق ومتفق عليه بينهم.

اللمعة الثالثة:

---

[136] حتى أن: الاستفتاء في علم القرآن (تفسير الادنوي) في مائة وعشرين مجلداً، صنفه في اثنتي عشرة سنة، محمد بن علي بن احمد المقرئ النحوي المتوفي سنة 388 هـــ (كشف الظنون 1/441) - المترجم.

الجامعية الخارقة في علمه. نعم، ان القرآن الكريم مثلما اجرى من بحر علومــه؛ علــومَ الشريعة المتعددة الوفيرة، وعلومَ الحقيقة المتنوعة الغزيرة، وعلومَ الطريقةِ المختلفة غير المحدودة، فانه اجرى كذلك من ذلك البحر بسخاء وانتظام؛ الحكمة الحقيقية لدائرة الممكنات، والعلومَ الحقيقية لدائرة الوجوب والمعارف الغامضة لدائرة الآخرة.

ولو اردنا ايراد مثال لهذه اللمعة فلابد من كتابة مجلد كامل! لذا نبـــيّن »الكلمـــات« الخمسة والعشرين السابقة فحسب.

نعم ان الحقائق الصادقة للكلمات الخمس والعشرين كلها إن هي إلاّ خمس وعشـــرون قطرة من بحر علم القرآن. فان وجد قصور في تلك »الكلمات« فهو راجع الى فهمي القاصر.

اللمعة الرابعة:

الجامعية الخارقة في مباحثه. نعم، ان القرآن قد جمع المباحث الكلية لما يخص الانســـان ووظيفته، والكون وخالقه والارض والسموات والدنيا والاخرة والماضي والمســـتقبل والازل والابد فضلاً عن ضمه مباحث مهمة اساسية ابتداءً من خلق الانسان من النطفة الى دخولـــه القبر، ومن آداب الاكل والنوم الى مباحث القضاء والقدر، ومن خلق العالم في ستة ايـــام الى وظائف هبوب الريح التي يشير اليها القَسَم في والمرسلاتوالذاريات ومن مداخلته ســـبحانه في قلب الانسان وارادته باشارات الآيات الكريمة (وما تشاؤن إلاّ أن يشاء الله) (التكوير :29) (يحولُ بين المرء وقلبهِ) (الانفال:24) الى (والسموات مطويات ٌبيمينه) (الزمر:67)، ومـــن (وجعلنا فيها جنات من نخيلٍ واعناب) (يس:34) الى الحقيقة العجيبة التي تعبّر عنها الآية (اذا زلزلت الارض زلزالها) (الزلزلة)، ومن حالة السماء (ثم استوى الى السماء وهـــي دخـــان) (فصلت: 11) الى انشقاق السماء وانكدار النجوم وانتشارها في الفضاء الذي لايحد، ومـــن انفتاح الدنيا للامتحان الى انتهاء الاختبار، ومن القبر الذي هو أول مترل من منازل الآخـــرة والبرزخ والحشر والصراط الى الجنة والسعادة الابدية، ومن وقائع الزمان الماضي الغابر مـــن خلق آدم عليه السلام وصراع إبنَيْهِ الى الطوفان، الى هلاك قوم فرعون وحوادث جليلة لأغلب الانبياء عليهم السلام، ومن الحادثة الازلية في (ألستُ بربكم) (الاعراف: 172) الى (وجوه يومئذ ناضرة_ الى ربها ناظرة) (القيامة:22،23) التي تفيد الابدية.

فجميع هذه المباحث الاساسية والمهمة تُبين في القرآن بياناً واضحاً يليق بذات الله الجليلة سبحانه الذي يدير الكون كله كأنه قصر ويفتح الدنيا والآخرة كغرفتين يفتح احداهما ويسد الاخرى بسهولة ، ويتصرف في الارض تصرفه في بستان صغير، وفي السماء كأنها سقف مزيّن بالمصابيح ، ويطّلع على الماضي والمستقبل كصحيفتين حاضرتين امام شهوده كالليل والنهار ويشاهد الازل والابد كاليوم وامس، يشاهدهما كالزمان الحاضر الذي اتصل فيه طرفا سلسلة الشؤون الإلهية . فكما ان معمارياً يتكلم في بناءين بناهما وفي إدارتهما ويجعل للاعمال المتعلقة بهما صحيفة عمل وفهرس نظام؛ فالقرآن الكريم كذلك كلام مبين يليق بمن خلق هذا الكون ويديره وكتب صحيفة اعماله وفهارس برامجه - إن جاز التعبير - واظهرها. فلا يُشاهَد فيه اثرٌ من تصَنّع وتكلّف باي جهة كانت كما لا أمارة قطعاً لشائبة تقليد أي كلامٍ عن أحد وفرض نفسه في موضع غير موضعه وامثالها من الخدع. فهو بكل جديته، وبكل صفائه، وبكل خلوصه صافٍ براق ساطع زاهر، اذ مثلما يقول ضوء الشمس: انا منبعث من الشمس فالقرآن كذلك يقول: » انا كلام رب العالمين وبيانه«.

نعم ان الذي جمّل هذه الدنيا وزينها بصنائعه الثمينة وملأها باطايب نعمه الشهية ونشر في وجه الارض بدائع مخلوقاته ونعمه القيمة بكل إبداع واحسان وتنسيق وتنظيم ذلكم الصانع الجليل والمنعم المحسن، مَن غيرُهُ يليق أن يكون صاحب هذا البيان، بيان القرآن الكريم الذي ملأ الدنيا بالتقدير والتعظيم والاستحسان والاعجاب والحمد والشكر حتى جعل الارض رباط ذكر وتهليل،ومسجداً يرفع فيه اسم الله ومعرضاً لبدائع الصنعة الإلهية؟ ومَن يكون غيرُه صاحب هذا الكلام؟ ومَن يمكنه ان يدّعى ان يكون صاحبه؟ فهل يليق للضياء الذي ملأ الدنيا نوراً ان يعود لغير الشمس؟ وبيان القرآن الذي كشف لغز العالم ونوّره، نور مَن يكون غير نور من خلق السموات والارض؟ فمن يجرؤ ان يقلّده ويأتي بنظيرٍ له؟

حقاً، ان الصانع الذي زيّن بابداع صنعته هذه الدنيا، محال الاّ يتكلم مع هذا الانسان المبهور بصُنعهِ وابداعه، فما دام انه يفعل ويعلم فلابد انه يتكلم، وما دام انه يتكلّم فلا يليق

بكلامه إلاّ القرآن. فمالك الملك الذي يهتم بتنظيم زهرة صغيرة كيف لا يبالي بكلام حـــوّل مُلكه الى جذبة ذكر وتهليل؟ أيمكن أن يُنزّل من قدر هذا الكلام بنسبته الى غيره؟.

اللمعة الخامسة:

الجامعية الخارقة في اسلوبه وايجازه

»في هذه اللمعة خمسة اضواء«

الضوء الاول:

ان لأسلوب القرآن جامعية عجيبة، حتى ان سورة واحدة تتضمن بحر القرآن العظـــيم الذي ضم الكون بين جوانحه، وان آية واحدة تضم خزينة تلك السورة. وان اكثر الايات – كل منها – كسورة صغيرة، واكثر السور – كل منها – كقرآن صغير. فمن هذا الايجـــاز المعجز ينشأ لطف عظيم للارشاد وتسهيل واسع جميل. لأن كل انسان علـــى الـــرغم مـــن حاجتـــه الى تـــــلاوة القــــرآن كل وقـــــت، فانه قــــد لا يتاح له تلاوتـــه، امـــا لغباوته وقصور فهمه أو لأسباب اخرى. فلكي لا يُحرم أحدٌ من القرآن فان كل ســـورة في حكم قرآن صغير، بل كل آية طويلة في مقام سورة قصيرة، حتى أن اهل الكشف متفقون ان القرآن في الفاتحة والفاتحة في البسملة.أما البرهان على هذا فهو اجماع أهل التحقيق العلماء.

الضوء الثاني:

ان الايات القرآنية جامعة بدلالاتها واشاراتها لأنـــواع الكـــلام والمعـــارف الحقيقيـــة والحاجات البشرية كالأمر والنهي، والوعد والوعيد، الترغيب والترهيب، الزجر والارشـــاد، القصص والامثال، الاحكام والمعارف الإلهية، العلوم الكونية، وقـــوانين وشـــرائط الحيـــاة الشخصية والحياة الاجتماعية والحياة القلبية والحياة المعنوية والحياة الاخروية. حتى يصدق عليه المَثَل السائر بين اهل الحقيقة: »خذ ما شئت لما شئت« بمعنى ان الايات القرآنية فيهـــا مـــن الجامعية ما يمكن ان يكون دواء لكل داء وغذاء لكل حاجة.

نعم هكذا ينبغي ان يكون، لأن الرائد الكامل المطلق لجميع طبقات اهل الكمال الذين يقطعون المراتب دوماً الى الرقي – ذلك القرآن العظيم – لابد أن يكون مالكاً لهذه الخاصية.

الضوء الثالث:

الايجاز المعجز للقرآن. فقد يذكر القرآن مبدأ سلسلة طويلة ومنتهاها ذكراً لطيفاً يُـــري السلسلة بكاملها، وقد يدرج في كلمة واحدة براهين كثيرة لدعوىً؛ صراحة واشارة ورمـــزاً وايماءً.

فمثلاً:

(ومن آياتهِ خلقُ السموات والارض واختلافُ ألسنتِكُم وألوانكم) (الروم:22)

هذه الآية الكريمة تذكر مبدأ سلسلة خلق الكون ومنتهاها. وهي سلسلة آيات التوحيد ودلائله، ثم تبين السلسلة الثانية، جاعلة القارئ يقرأ السلسلة الاولى وذلك:

ان أولى صحائف العالم الشاهدة على الصانع الحكيم هي خلق السموات والارض، ثم تزيين السموات بالنجـــوم واعمــــــار الارض بـــــــــذوي الحياة، ثم تبدل المواسم بتسخير الشمس والقمر،ثم سلسلة الشؤون الربانية في اختلاف الليل والنهار وتعاقبـــهما.. وهكـــذا تدريجياً حتى تبلغ خصوصية الملامح والاصوات وامتيازها وتشخصاتها التي هي اكثر مواضـــع انتشار الكثرة.

فاذا ما وجد انتظام بديع حكيم محير للالباب، وتبينَ عملُ قلمٍ صَنّاع حكيم في اكثـــر المواضع بُعداً عن الانتظام وازيدها تعرضاً للمصادفة ظاهراً، تلك هي ملامح وجوه الانســـان والوانه، فلابد أن الصحائف الأخرى الظاهر نظامها تفهم بنفسها وتدل على مصّورها البديع.

ثم انه لما كان اثر الابداع والحكمة يُشاهد في أصل خلق السموات والارض التي جعلها الصانع الحكيم الحجر الاساس للكون، فلابد أن نقش الحكمة واثر الابداع ظـــاهر جـــداً في سائر اجزاء الكون.

فهذه الآية حوت ايجازاً لطيفاً معجزاً في اظهار الخفي واضـــمار الظـــاهر فـــأوجزتْ وأجملت. حقاً ان سلسلة البراهين المبتدئة من (فسبحان الله حين تمسون..) الى (ولـــه المثـــل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) والتي تتكرر فيها ســـت مـــرات »ومـــن آياته... ومن آياته« انما هي سلسلة جواهر، سلسلة نور، سلسلة اعجـــاز، سلســـلة ايجـــاز اعجازي؛ يتمنى القلب ان اُبيّن الجواهر الكامنة في هذه الكنوز، ولكن ما حـــيلتي فالمقـــام لا يتحمله، فلا افتح ذلك الباب، واعلق الامر الى وقت آخر بمشيئة الله.

ومثلاً:

(...فارسلون_ يوسفُ ايها الصدِّيق) (يوسف: 45،46) فبين كلمة (فارسلون) وكلمة (يوسف) يكمن معنى العبارة التالية: الى يوسف لأستعبر منه الرؤيا، فأرسلوه، فذهب الى السجن، وقال.. بمعنى انه أوجز عدة جملٍ في جملة واحدة من دون ان يخلّ بوضوح الآية ولا أشكل في فهمها.

ومثلاً:

(الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً) (يس: 80)

ففي معرض ردّ القرآن على الانسان العاصي الذي يتحدى الخالق بقوله: (مَن يحيي العظام وهي رميم) (يس: 78) يقول (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) (يس 79) ويقول أيضاً (الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً) قادر على أن يحيي العظام وهي رميم.

فهذا الكلام يتوجه الى دعوى الاحياء من عدة جهات ويثبتها. إذ إنه يبدأ من سلسلة الاحسانات التي احسن الله بها الى الانسان فيذكّره بها ويثير شعوره، إلاّ انه يختصرالكلام لأنه فصّله في آيات اخرى، ويوجزه محيلاً اياه على العقل. أي: أن الذي منحكم من الشجر الثمرَ والنار، ومن الاعشاب الرزقَ والحبوب ، ومن التراب الحبوبَ والنباتات، قد جعل لكم الارض مهداً، فيها جميع ارزاقكم، والعالم قصراً فيه جميع لوازم حياتكم، فهل يمكن ان يترككم سدىً فتفروا منه، وتختفوا عنه في العدم؟ فلا يمكن أن تكونوا سدىً فتدخلوا القبر وتناموا براحة دون سؤال عما كسبتم ودون احيائكم؟.

ثم يشير الى دليل واحد لتلك الدعوى: فيقول رمزاً بكلمة (الشجر الاخضر)

ايها المنكر للحشر! انظر الى الاشجار! فإن مَن يحيى اشجاراً لاحدّ لها في الربيع بعد أن ماتت في الشتاء واصبحت شبيهة بالعظام.. ويجعلها مخضرّة ، بل يُظهر في كل شجرة ثلاثة نماذج من الحشر؛ في الاوراق والازهار والاثمار.. ان هذا القدير لا تُتحدّى قدرتُه بالانكار ولا يُستبعد منه الحشر.

ثم يشير الى دليل آخر ويقول:

ان الذي اخرج لكم النار، تلك المادة الخفيفة النورانية، من الشجر الكثيف الثقيل المظلم، كيف تستبعدون منه منح حياةٍ لطيفة كالنار، وشعورٍ كالنور لعظام كالحطب.

ثم يأتي بدليل آخر صراحة ويقول:

ان الذي يخلق النار من الشجر المشهور لدى البدويين بحكّ غصنين معاً، ويجمع بين صفتين متضادتين الرطوبة والحرارة ويجعل احداهما منشأ للاخرى، يدلنا على أن كل شيئ حتى العناصر الأصلية والتابعة انما تتحرك بقوته وتتمثل بأمره. ولاشئ منها يتحرك بذاته أو سدىً. فمثل هذا الخالق العظيم لا يمكن أن يُستبعد منه احياء الانسان من التراب ــــ وقد خلقه من التراب ويعود اليه – فلا يُتحدى بالعصيان.

ثم بعد ذلك يذكّر بكلمة (الشجر الاخضر) شجرة موسى عليه السلام المشهورة فيومئ الى اتفاق الانبياء ايماءً لطيفاً، بأن هذه الدعوى الاحمدية (عليه الصلاة والسلام) هي بعينها دعوى موسى عليه السلام. مما يزيد ايجاز هذه الكلمة لطافةً وحسناً آخر.

الضوء الرابع:

ان ايجاز القرآن جامع ومعجز، فلو انعم النظر فيه لشوهد بوضوح ان القرآن قد بيّن في مثالٍ جزئي وفي حادثة خاصة، دساتيرَ كلية واسعة وقوانينَ عامة طويلة، وكأنه يبين في غرفة ماءٍ بحراً واسعاً.

سنشير الى مثالين اثنين من آلاف امثلته.

mالمثال الاول:

هو الايات الثلاث التي فصّلنا شرحها في المقام الاول من »الكلمة العشرين« : وهي:

انه بتعليم آدم عليه السلام الاسماء كلها تفيد الآية الكريمة: تعليم جميع العلوم والفنون الملهَمة لبني آدم.

وبحادثة سجود الملائكة لآدم عليه السلام وعدم سجود الشيطان تبين الآية: ان اكثـــر الموجودات ـــ من السمك الى المَلَك ـــ مسخرةٌ لبني الانسان، كما ان المخلوقات المضرة ـــ من الثعبان الى الشيطان ـــ لا تنقاد اليه بل تعاديه.

وبحادثة ذبح قوم موسى عليه السلام البقرة تعبّر الآية عن: ان فكرة عبادة البقـــر قـــد ذُبحتْ بسكين موسى عليه السلام، تلك الفكرة التي كانت رائجة في مصر حتى ان لها اثـــراً مباشراً في حادثة العجل.

وبنبعان الماء من الحجر وتشقق الصخور وسيلان الماء منها تـــبين الآيـــة: ان الطبقـــة الصخرية التي تحت التراب خزائن أوعية الماء تزوّد التراب بما يبعث فيه الحياة.

mالمثال الثاني:

ان قصة موسى عليه السلام قد تكررت كثيراً في القرآن الكريم؛ اذ إن في كـــل جملـــة منها، وفي كل جزء منها إظهاراً لطرفٍ من دستور كلي، ويعبّر عن ذلك الدستور.

منها: الآية الكريمة (يا هامان ابنِ لي صرحاً) (غافر: 36) يأمر فرعون وزيره: إبنِ لي برجاً عالياً لأطّلِع على احوال السموات وانظر هل هناك إله يتصرف فيها كما يدّعيه موسى عليه السلام؟ فبكلمة صرحا تبين الآية الكريمة بحادثة جزئية دستوراً عجيباً وعُرفاً غريباً كـــان جارياً في سلالة فراعنة مصر الذين ادّعوا الربوبية لجحودهم بالخالق وايمانهم بالطبيعة، وخلّدوا اسماءهم بجبروتهم وعُتوهم، فشيّدوا الاهرام المشهورة كأنها جبال وسط صحراء لا جبال فيها، ليشتهروا بها، وحفظوا جنائزهم بالتحنيط واضعين اياها في تلك المقابر الشامخة، لاعتقـــادهم بتناسخ الارواح والسحر.

ومنها: قوله تعالى (فاليوم ننجيك ببدنك) (يونس: 92) والخطاب موجه الى فرعـــون الذي غرق، وفي الوقت نفسه تبين الآية: ما كان للفراعنة من دستور لحياتهم مذكّرٍ بـــالموت مليءٍ بالعبر، وهو نقل اجساد موتاهم بالتحنيط من الماضي الى الاجيال المقبلة لعرضها امامهم وفق اعتقادهم بتناسخ الارواح، كما تفيد الآية الكريمة باسلوب معجز اشارة غيبيـــة الى: ان الجسد الذي اكتشف في العصر الأخير هو نفسه جسد فرعون الذي غرق، فكما اُلقي به الى

الساحل في الموضع الذي غرق فيه، فسيلقى به كذلك من بحر الزمان فوق امواج العصور الى ساحل هذا العصر.

ومنها: قوله تعالى (يذبّحون ابناءكم ويستحيون نساءكم) (البقرة: 49) فانه بحادثة ذبح بنى اسرائيل واستحياء نسائهم وبناقم في عهد فرعون يبين الإبادة الجماعية التي يتعرض لهـــا اليهود في اكثر البلدان وفي كل عصر، والدور المهم الذي تؤديه نساؤهم وبنـــاقم في حيـــاة السفاهة للبشرية وتحلل اخلاقها.

ومنها: (ولتجدنّهم أحرصَ الناسِ على حياة) (البقرة: 96)

(وترى كثيراً منهم يُسارعون في الاثم والعدوان واكلهم السُحت لبـــئسَ مـــا كـــانوا يعملون) (المائدة: 62)

(ويسعوْن في الارض فساداً والله لا يحبُ المفسدين) (المائدة: 64)

(وقـــضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الارض مرتين) (الاسراء:4)

(ولاتعثوا في الارض مفسدين) (البقرة: 60)

هذان الحكمان القاضيان في حق اليهود - الحـــرص والفســـاد - يتضـــمنان هـــذين الدستورين العامين المهمين، اللذين يديرهما اولئك القوم في حياة المجتمع الانساني بالمكر والحيل والخديعة؛ فالآية تبين: انهم هم الذين زلزلوا الحياة الاجتماعية الانسانية واوقدوا الحرب بـــين الفقراء والاغنياء بتحريض العاملين على اصحاب رأس المال. وكانوا السبب في تأسيس البنوك بجعلهم الربا أضعافاً مضاعفة، وجمعوا اموالاً طائلة بكل وسيلة دنيئة بالمكر والحيـــل، هـــؤلاء القوم هم انفسهم ايضاً انخرطوا في كل انواع المنظمات الفاسدة ومدّوا أيديهم الى كل نـــوع من انواع الثورات، أخذاً لثأرهم من الشعوب الغالبة ومن الحكومات التي ذاقوا منها الحرمان وسامتهم انواع العذاب.

ومنها:

(فتمنوا الموت إن كنتم صادقين__ ولن يتمنوه ابداً) (البقرة: 94____95)

فالآية تبين بعنوان حادثة جزئية وقعت في مجلس صغير في الحضرة النبوية الكريمة من أن اليهود الذين هم أحرص الناس على حياة وأخوفهم من الموت، لن يتمنوا الموت ولن يتخلّــوا عن الحرص على الحياة حتى قيام الساعة.

ومنها:

(وضربت عليهم الذلة والمسكنة) (البقرة:61)

تبين الآية الكريمة بهذا العنوان مقدرات اليهود في المستقبل بصورة عامــة، وحيــث أن الحرص والفساد قد تغلغل في سجاياهم وتمكن من طبعهم فالقرآن الكريم يغلــظ علــيهم في الكلام ويصفعهم صفعات زجر عنيفة للتأديب.

ففي ضوء هذه الامثلة، قس بنفسك قصة موسى عليه السلام وحوادث وقعــت لــبني اسرائيل وقصصهم.

وبعد، فان وراء كلمات القرآن البسيطة ومباحثه الجزئية هناك كثير من امثال ما في هذا الضوء الرابع من لمعات اعجاز كلمعة ايجاز اعجازي، والعارف تكفيه الاشارة.

الضوء الخامس:

هو الجامعية الخارقة لمقاصد القرآن ومسائله ومعانيه واساليبه ولطائفه ومحاسنه. نعم! اذا انعم النظر في سور القرآن الكريم وآياته، ولاسيما فواتح السور، ومبادئ الآيات ومقاطعهــا تبيّن:

ان القرآن المعجز البيان قد جمع انواع البلاغة، وجميع اقسام فضائل الكــلام، وجميــع اصناف الاساليب العالية وجميع افراد محاسن الاخلاق، وجميع خلاصات العلــوم الكونيــة، وجميع فهارس المعارف الإلهية، وجميع الدساتير النافعة للحياة البشرية الشخصية والاجتماعية، وجميع القوانين النورانية السامية لحكمة الكون.. وعلى الرغم من جمعه هذا لايظهر عليــه أي اثر كان من آثار الخلط وعدم الاستقامة في التركيب أو المعنى.

حقاً، ان جمع جميع هذه الاجناس المختلفة الكثيرة في موضع واحد من دون أن ينشأ منه اختلال نظامٍ أو اختلاط وتشوش، انما هو شأن نظام اعجاز قهّار ليس إلاّ.

وحقاً ان تمزيق ستار العاديّات - التي هي مصدر الجهل المركب - ببيانات نافذة، واستخراج خوارق العادات المتسترة تحت ذلك الستار واظهارها بجلاء، وتحطيم طاغوت الطبيعة - التي هي منبع الضلالة - بسيوف البراهين الالماسية، وتشتيت حجب نوم الغفلة الكثيفة بصيحات مدوية كالرعد، وحل طلسم الكون المغلق والمعمّى العجيب للعالم الذي أعجز الفلسفة البشرية والحكمة الانسانية... ما هو إلاّ من صنع هذا القرآن المعجز البيان، البصير بالحقيقة ، المطّلع على الغيب، المانح للهداية، المظهر للحق.

نعم، إذا أُنعم النظر في آيات القرآن الكريم بعين الانصاف لشوهدت أنها لا تشبه فكراً تدريجياً متسلسلاً يتابع مقصداً أو مقصدين كما هو الحال في سائر الكتب بل انها تُلْقى إلقاءً، ولها طور دفعي وآني، وان عليها علامة أن كل طائفة منها ترد معاً انما ترد مستقلة وروداً وجيزاً منجّماً ومن مكان قصي ضمن مخابرة في غاية الاهمية والجدية.

نعم، مَن غيرُ رب العالمين يستطيع ان يجري هذا الكلام الوثيق الصلة بالكون وبخالق الكون وبهذه الصورة الجادة؟ ومَن غيرُه تعالى يتجاوز حدّه بما لا حد له من التجاوز فيتكلم حسب هواه باسم الخالق ذي الجلال وباسم الكون كلاماً صحيحاً كهذا؟

نعم، انه واضح جلي في القرآن أنه كلام رب العالمين.. هذا الكلام الجاد الحق السامي الحقيقي الخالص، ليس عليه اية امارة كانت تومئ بالتقليد. فلو فرضنا محالاً ان هناك مَن هو مثل مسيلمة الكذاب الذي تجاوز حدّه بغير حدود فقلّد كلام خالقه ذي العزة والجبروت وتكلّم من بنات فكره ناصباً نفسه متكلماً عن الكون، فلابد أن ستظهر الاف من أمارات التقليد والتصنع والاف من علامات الغش والتكلف. لأن مَن يتلبّس طوراً اسمى واعلى بكثير من حالته الدنيئة لا شك أن كل حالة من حالاته تدل على التقليد والتصنع.

فانظر الى هذه الحقيقة التي يعلنها هذا القَسَم وانعم النظر فيها:

(والنجم اذا هوى_

ما ضل صاحبكم وما غوى_

وما ينطق عن الهوى_

ان هو إلاّ وحيٌ يوحى) (النجم: 1ــ4).

الشعاع الثالث

اعجاز القرآن الكريم الناشئ من إخباره عن الغيوب وديمومة شبابه، وصلاحه لكل طبقة من الناس . ولهذا الشعاع ثلاث جلوات.

الجلوة الاولى:

إخباره عن الغيوب . لهذه الجلوة ثلاث قبسات.

القبس الاول:

إخباره الغيبي عن الماضي

ان القرآن الحكيم، بلسان امي امين بالاتفاق يذكر اخباراً من لدن آدم عليه السلام الى خير القرون، مع ذكره أهم احوال الانبياء عليهم السلام واحداثهم المهمة، يذكرها ذكراً في منتهى القوة وغاية الجد، وبتصديق من الكتب السابقة كالتوراة والانجيل فيوافق ما اتفقت عليه تلك الكتب السابقة ويصحح حقيقة الواقعة ويفصِل في تلك المباحث التي اختلفت فيها.

.بمعنى أن نظر القرآن الكريم ذلك النظر المطّلع على الغيب يرى احوال الماضي أفضل من تلك الكتب وبما هو فوقها جميعاً بحيث يزكّيها ويصدّقها في المسائل المتفق عليها، ويصححها ويفصِل في المباحث التي اختلف فيها. علماً ان إخبار القرآن الذي يخص احوال الماضي ووقائعه ليس امراً عقلياً حتى يُخبر عنه بالعقل، بل هو أمر نقلي متوقف على السماع، والنقل خاص بأهل القراءة والكتابة، مع ان الاعداء والاصدقاء متفقون معاً على أن القرآن انما نزل على شخص امي لا يعرف القراءة والكتابة، معروف بالامانة موصوف بالأُمية. وحينما يخبر عن تلك الاحوال الماضية يخبر عنها وكأنه يشاهدها كلها، اذ يتناول روح حادثة طويلة وعقدها الحياتية، فيخبر عنها، ويجعلها مقدمة لمقصده. بمعنى ان الخلاصات والفذلكات المذكورة في القرآن الكريم تدل على: ان الذي أظهرها يرى جميع الماضي بجميع احواله، إذ كما ان شخصاً متخصصاً في فن أو صنعة اذا اتى بخلاصة من ذلك الفن، أو بنموذج من تلك الصنعة، فانها تدل على مهارته وملكته. كذلك الخلاصات وروح الوقائع المذكورة في القرآن الكريم تبين:

ان الذي يقولها انما يقولها وقد أحاط بها ويراها ثم يخبر عنها بمهارة فوق العادة (ان جاز التعبير).

القبس الثاني:

إخباره الغيبي عن المستقبل

لهذا القسم انواع كثيرة:

القسم الاول: خاص بقسم من اهل الكشف والولاية.

مثلاً:

ان محي الدين بن عربي وجد كثيراً من الإخبار عن الغيب في سورة الروم (الم ــ غُلبت الروم) (الروم:1، 2)

وان الامام الرباني (احمد الفاروقي السرهندي) قد شاهد في المقطّعات التي في بــدايات السور كثيراً من اشارات المعاملات الغيبية.

وبالنسبة الى علماء الباطن فالقرآن الحكيم من اوله الى آخره نوع من الاخبــار عــن الغيب.

أما نحن فسنشير الى قسم منها، الى الذي يخص العموم ويرجع الى الجميع. ولهذا القسم ايضاً طبقات كثيرة، فسنقصر كلامنا على طبقة واحدة.

فالقرآن الكريم يقول للرسول الكريم (ص) : [137](فاصبر إنّ وعدَ الله حقٌ) (الروم: 60)

(لتدخُلنّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنين محلّقين رؤسَكُم ومقصّرين لا تخافون) (الفتح: 27)

(هو الذي ارسل رسُولهُ بالهدى ودين الحق ليُظْهرهُ على الدين كله..) (الفتح:28)

(وهم مِن بعدِ غَلَبهم سَيغْلِبون ــ في بــضع سنين للّه الامر) (الروم: 3،4)

(فستبْصِر ويُبصرون ــ بأيّكم المفتون) (القلم: 5،6)

---

[137] هذه الآيات تنبئ عن الغيب، وضحتها تفاسير كثيرة ، ولم توضح هنا لأن العزم على طبع الكتاب بحروف قديمة (عربية) دفع المؤلف الى خطأ الاستعجال، لذا ظلت تلك الكنوز القيمة مقفلة. - المؤلف.

(ام يقولون شاعرٌ نتربّص به ريبَ المنون_ قل تربّصوا فاني معكم من المتربصين) (الطور: 30 - 31)

(والله يعصِمُك من الناس) (المائدة: 67)

(فان لم تفعلوا ولن تفعلوا..) (البقرة:24)

(ولن يتمنَوه ابداً) (البقرة:95)

سنريهم اياتنا في الافاق وفي انفسهِم حتى يتبيّن لهم انه الحقّ(فصلت: 53)

(قل لئن اجتمعتِ الانسُ والجنُ على ان ياتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً) (الاسراء:88)

(ياتى الله بقومٍ يحبّهم ويحبّونه أذلةٍ على المؤمنين اعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) (المائدة :54)

(وقل الحمد للّه سيريكم اياته فتعرفونها) (النمل: 93)

(قل هو الرحمنُ امنّا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين) (الملك:29)

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليَستَخلفنَّهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا) (النور: 55)

وامثال هذه الآيات كثيرة جداً تتضمن اخباراً عن الغيب وقد تحققت كما أخبرت.

فالإخبار عن الغيب دون تردد وبكمال الجد والاطمئنان وبما يُشعر بقوة الوثوق، على لسان مَن هو معرّض لاعتراضات المعترضين وانتقاداهم، وربما يفقد دعواه لخطأ طفيف، يدل دلالة قاطعة: انه يتلقى الدرس من استاذه الازلي ثم يقوله للناس.

القبس الثالث:

إخباره الغيب عن الحقائق الإلهية والحقائق الكونية والامور الاخروية.

نعم! ان بيانات القرآن التي تخص الحقائق الإلهية، وبياناته الكونية التي فتحت طلسم الكون وكشفت عن معمّى خلق العالم لهي اعظم البيانات الغيبية، لأنه ليس من شأن العقل قط، ولا يمكنه أن يسلك سلوكاً مستقيماً بين مالايحد من طرق الضلالة، فيجد تلك الحقائق

الغيبية. وكما هو معلوم فان اعظم دهاة حكمـــاء البـــــشر لم يصلوا الى اصغر تلك الحقائق وابسطها بعقولهم. ثم ان عقول البشر ستقول بلا شك امام تلك الحقائق الإلهيـــة والحقـــائق الكونية التي اظهرها القرآن الكريم: صدقتَ، وستقبل تلك الحقائق بعد اســـتماعها الى بيـــان القرآن بصفاء القلب وتزكية النفس، وبعد رقي الروح واكتمال العقل، وستباركه.

وحيث ان »الكلمة الحادية عشرة« قد أوضحت وأثبتت نبذة من هذا القسم فلا داعي للتكرار.

أما اخبار القرآن الغيبي عن الآخرة والبرزخ، فان عقل البشر وإن لم يـــدرك احـــوال الآخرة والبرزخ بمفرده ولا يراها وحده، إلاّ ان القرآن يبينها ويثبتها اثباتاً يبلغ درجة الشهود.

فراجع »الكلمة العاشرة« لتلمس مدى صواب الاخبار الغيبي عن الآخرة الذي أخبر به القرآن الكريم. فقد اثبتته تلك الرسالة ووضحته ايّما ايضاح.

الجلوة الثانية:

شبابية القرآن وفتوته

ان القرآن الكريم قد حافظ على شبابيته وفتوته حتى كأنه يترل في كل عصر نضراً فتياً.

نعم! ان القرآن الكريم لأنه خطاب ازلي يخاطب جميع طبقات البشر في جميع العصـــور خطاباً مباشراً يلزم ان تكون له شبابية دائمة كهذه. فلقد ظهر شاباً وهو كذلك كما كان. حتى انه ينظر الى كل عصر من العصور المختلفة في الافكار والمتباينة في الطبائع نظـــراً كأنـــه خاص بذلك العصر ووفق مقتضياته ملقناً دروسه ملفتاً اليها الانظار.

ان آثار البشر وقوانينه تشيب وتهرم مثله، وتتغير وتُبدَّل. إلاّ ان احكام القرآن وقوانينـــه لها من الثبات والرسوخ بحيث تظهر متانتها اكثر كلما مرت العصور.

نعم، ان هذا العصر الذي اغترّ بنفسه وأصمَّ اذنيه عن سماع القرآن اكثر من أي عصـــر مضى، واهل الكتاب منهم خاصة، أحوج ما يكونون الى ارشاد القرآن الذي يخاطبهم بـــ » يا اهل الكتاب.. يا اهل الكتاب« حتى كأن ذلك الخطاب موجّه الى هذا العصر بالذات إذ إن لفظ»اهل الكتاب« يتضمن معنى: اهل الثقافة الحديثة ايضاً!

فالقرآن يطلق نداءه يدوّي في اجواء الآفاق ويملأ الارض والسبع الطباق بكل شدة وقوة وبكل نضارة وشباب فيقول:

(يا أهل الكتاب تعالَوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم..) (آل عمران 64)

فمثلاً: ان الافراد والجماعات مع انهم قد عجزوا عن معارضة القــرآن إلاّ أن المدنيــة الحاضرة التي هي حصيلة افكار بني البشر وربما الجن ايضاً قد اتخذت طوراً مخالفاً له واخذت تعارض اعجازه باساليبها الساحرة. فلأجل اثبات اعجاز القرآن بدعوى الآية الكريمة (قل لئن اجتمعت الانس والجن..) لهذا المعارض الجديد الرهيب نضع الاسس والدساتير التي اتت بهـا المدنية الحاضرة امام اسس القرآن الكريم.

ففي الدرجة الاولى: نضع الموازنات التي عقدت والموازين التي نصـبت في الكلمـات السابقة، ابتداءاً من الكلمة الاولى الى الخامسة والعشرين، وكذا الآيات الكريمة المتصدرة لتلك الكلمات والتي تبين حقيقتها، تثبت إعجاز القرآن وظهوره على المدنية الحاضرة بيقين لا يقبل الشك قطعاً.

وفي الدرجة الثانية: نورد اجمالاً قسماً من دساتير المدنية والقرآن التي وضحته واثبتتـه (الكلمة الثانية عشرة).

فالمدنية الحاضرة تؤمن بفلسفتها: ان ركيزة الحياة الاجتماعية البشرية هي «القوة» وهي تستهدف «المنفعة» في كل شئ. وتتخذ «الصراع» دستوراً للحيـاة. وتلتـزم بالعنصـرية والقومية السلبية رابطةً للجماعات. وغايتها هي «لهو عابث» لإشباع رغبات الاهواء وميول النفس التي من شأنها تزييد جموح النفس واثارة الهوى. ومن المعلوم ان شأن «القـوة» هـو «التجاوز». وشأن «المنفعة» هو «التزاحم» اذ هي لا تفي بحاجات الجميع وتلبية رغبـاتهم. وشأن «الصراع» هو «التصادم» وشأن «العنصرية» هو «التجاوز» حيث تكـبر بـابتلاع غيرها.

فهذه الدساتير والاسس التي تستند اليها هذه المدنية الحاضرة هي التي جعلتها عاجزة – مع محاسنها – عن ان تمنح سوى عشرين بالمائة من البشر سعادة ظاهرية بينما ألقت البقية الى شقاء وتعاسة وقلق.

أما حكمة القرآن فهي تقبل »الحق« نقطة استناد في الحياة الاجتماعيـــة بـــدلاً مـــن »القوة«.. وتجعل »رضى الله ونيل الفضائل« هو الغاية والهدف، بدلاً من »المنفعة«.. وتتخذ دستور »التعاون« اساساً في الحياة، بدلاً من دستور »الصراع«.. وتلتزم رابطـــة »الـــدين« والصنف والوطن لربط فئات الجماعات، بدلاً من »العنصرية والقومية الســـلبية« .. وتجعـــل غاياها »الحدّ من تجاوز النفس الامارة ودفع الروح الى معالي الامور وتطمين مشاعرها السامية لسوق الانسان نحو الكمال والمثل العليا لجعل الانسان انساناً حقاً«.

ان شأن »الحق« هو »الاتفاق«.. وشأن »الفضيلة« هو »التساند«.. وشأن »التعاون« هو» اغاثة كل للآخر«.. وشأن »الدين« هو »الاخوة والتكاتف«.. وشأن »إلجام الـــنفس وكبح جماحها واطلاق الروح وحثها نحو الكمال« هو »سعادة الدارين«.

وهكذا غُلبت المدنية الحاضرة أمام القرآن الحكيم مع ما أخذت من محاسنَ من الاديان السابقة ولا سيما من القرآن الكريم.

وفي الدرجة الثالثة: سنبين – على سبيل المثال – اربعة مسائل فحسب من بـــين الاف المسائل:

* المسألة الاولى:

ان دساتير القرآن الكريم وقوانينه لأها آتية من الازل فهي باقية وماضية الى الابد. لاهرم ابداً ولا يصيبها الموت، كما هرم القوانين المدنية وتموت، بل هي شابة وقوية دائماً في كـــل زمان.

فمثلاً: ان المدنية بكل جمعياها الخيرية، وانظمتها الصارمة ونظمها الجبارة، ومؤسساها التربوية الاخلاقية لم تستطع ان تعارض مسألتين من القرآن الكريم بل اهارت امامهما وهي في قوله تعالى :

(وآتوا الزكاة) (البقرة: 43) و(..واحلّ الله البيع وحرّم الربا) (البقرة: 275)

سنبين هذا الظهور القرآني المعجز وهذه الغالبية بمقدمة:

ان اس اساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الانساني انما هو كلمة واحـــدة، كما أن منبع جميع الاخلاق الرذيلة كلمة واحدة ايضاً. كما أُثبـــت ذلـــك في (اشـــارات الاعجاز).

الكلمة الاولى: (ان شبعتُ، فلا عليّ ان يموت غيري من الجوع).

الكلمة الثانية: (اكتسبْ انتَ، لآكل انا، واتعبْ انت لأستريح أنا).

نعم، انه لا يمكن العيش بسلام ووئام في مجتمع إلاّ بالمحافظة على التوزان القـــائم بـــين الخواص والعوام، اي بين الاغنياء والفقراء، واساس هذا التوزان هو رحمة الخواص وشـــفقتهم على العوام، واطاعة العوام واحترامهم للخواص.

فالآن، ان الكلمة الاولى قد ساقت الخواص الى الظلم والفساد، ودفعت الكلمة الثانيـــة العوام الى الحقد والحسد والصراع. فسُلبت البشرية الراحة والامان لعصور خلت كما هو في هذا العصر، حيث ظهرت حوادث اوربا الجسام بالصراع القائم بين العاملين واصحاب رأس المال كما لا يخفى على أحد.

فالمدنية بكل جمعياتها الخيرية ومؤسساتها الاخلاقية وبكل وسائل نظامهـــا وانضـــباطها الصارم عجزت عن ان تصلح بين تينك الطبقتين من البشر كما عجزت عن ان تضمد جرحي الحياة البشرية الغائرَين.

أما القرآن الكريم فانه يقلع الكلمة الاولى من جذورها، ويداويها بوجـــوب الزكـــاة. ويقلع الكلمة الثانية من اساسها ويداويها بحرمة الربا.

نعم، ان الآيات القرآنية تقف على باب العالم قائلة للربا: الـــدخول ممنـــوع. وتـــأمر البشرية: اوصدوا ابواب الربا لتنسد امامكم ابواب الحروب. وتحذّر تلاميذ القرآن المؤمنين من الدخول فيها.

* الاساس الثاني:

ان المدنية الحاضرة لا تقبل تعدد الزوجات، وتحسب ذلك الحكم القرآني مخالفاً للحكمة ومنافياً لمصلحة البشر.

نعم، لو كانت الحكمة من الزواج قاصرة على قضاء الشهوة للزم ان يكــون الامــر معكوساً، بينماهو ثابت حتى بشهادة جميع الحيوانات وبتصديق النباتات المتزاوجة:

ان الحكمة من الزواج والغاية منه انما هي التكاثر وانجاب النسل. أما اللذة الحاصلة من قــضاء الشـــهوة فهـــي اجرة جزئية تمنـــحها الـــرحمــــة الإلهـــية لــــتأدية تلـــك المهمة. فما دام الزواج للتكاثر وانجاب النسل ولبقاء النوع حكمةً وحقيقـــةً، فـــلا شك ان المرأة التي لا يمكن أن تلد إلاّ مرة واحدة في السنة ولا تكون خصبة الاّ نصف ايـــام الشهر وتدخل سن اليأس في الخمسين من عمرها لا تكفي الرجل الذي لـــه القـــدرة علـــى الاخصاب في اغلب الاوقات حتى وهو ابن مائة سنة. لذا تضطر المدنية الى فتح اماكن العهر والفحش.

* الاساس الثالث:

ان المدنية التي لا تتحاكم الى المنطق العقلي، تنتقد الآية الكريمة (للذَكَرِ مثـــلُ حـــظ الانثيين) (النساء:11) التي تمنح النساء الثلث من الميراث (اي نصف ما يأخذه الذكر).

ومن البديهي ان اغلب الاحكام في الحياة الاجتماعية انما تسنّ حسب الاكثريـــة مـــن الناس، فغالبية النساء يجدن ازواجاً يعيلونهن ويحمونهن، بينما الكثير من الرجال مضطرون الى اعالة زوجاتهم وتحمّل نفقاتهن.

فاذا ما اخذت الانثى الثلث من ابيها (اي نصف ما اخذه الزوج من ابيه) فان زوجهـــا سيسد حاجتها. بينما اذا اخذ الرجل حظين من ابيه فانه سينفق قسطاً منه علـــى زوجتـــه، وبذلك تحصل المساواة، ويكون الرجل مساوياً لأخته. وهكذا تقتضي العدالة القرآنيـــة. [138]*

الاساس الرابع:

---

[138] هذه فقرة من اللائحة المرفوعة الى محكمة التمييز، ألقيت أمام المحكمة، فاسكتتها واصبحت حاشية لهذا المقام: »وانا اقول لمحكمة وزارة العدل الموقرة!

ان ادانة من يفسّر اقدس دستور الهي وهو الحق بعينه، ويحتكم اليه ثلاث مائة وخمسون مليوناً من المسلمين في كل عصر في حياتهم الاجتماعية، خلال الف وثلاث مائة وخمسين عاماً. هذا المفسر استند في تفسيره الى ما اتفق عليه وصدّق به ثلاث مائة وخمسون الف مفسر، واقتدى بالعقائد التي دان بها اجدادنا

ان القرآن الكريم مثلما يمنع بشدة عبادة الاصنام يمنع كذلك اتخاذ الصور التي هي شبيهة بنوع من اتخاذ الاصنام. أما المدنية الحاضرة فانها تعدّ الصورمن مزاياها وفضائلها وتحـاول ان تعارض القرآن. والحال ان الصور اياً كانت، ظلية أو غيرها، فهي: إما ظلم متحجر، أو رياء متجسد، أو هوى متجسم، حيث تهيج الاهواء وتدفع الانسان الى الظلم والرياء والهوى.

ثم ان القرآن يأمر النساء ان يحتجبن بحجاب الحياء، رحمـةً بهـن وصـيانة لحرمتـهن وكرامتهن ولكيلا تهان تلك المعادن الثمينة معادن الشفقة والرأفة وتلك المصـادر اللطيفـة للحنان والرحمة تحت اقدام الذل والمهانة، ولكي لا يكنّ آلة لهوسات الرذيلة ومتعة تافهـة لا قيمة لها. [139]أما المدنية فانها قد اخرجت النساء من اوكارهن وبيوتهن ومزقت حجابهن وأدت بالبشرية ان يجنَّ جنونها. علماً ان الحياة العائلية انما تدوم بالمحبة والاحترام المتبادل بين الـزوج والزوجة. بينما التكشف والتبرج يزيلان تلك المحبة الخالصة والاحترام الجاد ويسممان الحياة العائلية؛ ولا سيما الولع بالصور فانه يفسد الاخلاق ويهدمها كلياً، ويؤدي الى انحطاط الروح وتردّيها، ويمكن فهم هذا بالآتي:

كما ان النظر بدافع الهوى وبشهوة الى جنازة امرأة حسناء تنتظر الرحمة وترجوها يهدم الاخلاق ويحطها، كذلك النظر بشهوة الى صور نساء ميتات أو الى صور نساء حيـات – وهي في حكم جنائز مصغرة لهن – يزعزع مشاعر الانسان ويعبث بها، ويهدمها.

وهكذا بمثل هذه المسائل الاربع فان كل مسألة من آلاف المسائل القرآنية تضمن سعادة البشر في الدنيا كما تحقق سعادته الابدية في الاخرة.

فَلكَ أن تقيس سائر المسائل على المسائل المذكورة.

السابقون في الف وثلاث مائة وخمسين سنة.. اقول: ان إدانة هذا المفسر قرار ظالم لابد ان ترفضه العدالة، ان كانت هناك عدالة على وجه الارض، ولابد ان تردّ ذلك الحكم الصادر بحقه وتنقضه«. - المؤلف.

[139] ان اللمعة الرابعة والعشرين تثبت بقطعية تامة: ان الحجاب امر فطري جداً للنساء بينما رفع الحجاب ينافي فطرتهن..ـــــ المؤلف.

وايضاً، فكما ان المدنية الحاضرة تخسر وتُغلب امام دساتير القرآن المتعلقة بحياة الانسان الاجتماعية، فيظهر افلاسها – من زاوية الحقيقة – ازاء اعجاز القرآن المعنوي، كذلك فان فلسفة اوربا وحكمة البشر – وهي المدنية – عند الموازنة بينها وبين حكمة القرآن بموازين الكلمات الخمس والعشرين السابقة، ظهرت عاجزة وحكمة القرآن معجزة، وان شئت فراجع »الكلمة الثانية عشرة والثالثة عشرة« لتلمس عجز حكمة الفلسفة وافلاسها واعجاز حكمة القرآن وغناها.

وايضاً، فكما ان المدنية الحاضرة غُلبت امام اعجاز حكمة القرآن العلمي والعملي، كذلك آداب المدنية وبلاغتها فهي مغلوبة امام الأدب القرآني وبلاغته. والنسبة بينهما اشبه ما يكون ببكاء يتيم فَقَد أبوَيه بكاءً ملؤه الحزن القاتم واليأس المرير، الى انشاد عاشق عفيف حزينٍ على فراق قصير الأمد غناءً ملؤه الشوق والأمل.. أو نسبة صراخ سكير يتخبط في وضع سافل، الى قصائد حماسية تحضّ على بذل الغوالي من الانفس والاموال وبلوغ النصر. لأن: الادب والبلاغة من حيث تأثير الاسلوب، إما يورثان الحزن وإما الفرح. والحزن نفسه قسمان:

إما انه حزن منبعث من فقد الأحبة، أي من عدم وجود الأحبة والاخلاء، وهو حزن مظلم كئيب تورثه المدنية الملوثة بالضلالة والمشوبة بالغفلة والمعتقدة بالطبيعة، وإما انه ناشيء من فراق الأحبة، بمعنى ان الأحبة موجودون، ولكن فراقهم يبعث على حزن ينم عن لوعة الاشتياق. فهذا الحزن هو الذي يورثه القرآن الهادي المنير.

أما الفرح والسرور فهو ايضاً قسمان:

الاول: يدفع النفس الى شهواتها، هذا هو شأن آداب المدنية من ادب مسرحي وسينمائي وروائي.

أما الثاني: فهو فرح لطيف برئ نزيه، يكبح جماح النفس ويلجمها ويحث الروح والقلب والعقل والسر على المعالي وعلى موطنهم الاصلي، على مقرهم الابدي، على احبتهم الاخرويين. وهذا الفرح هو الذي يمنحه القرآن المعجز البيان الذي يحض البشر ويشوّقه للجنّة والسعادة الابدية وعلى رؤية جمال الله تعالى.

ولقد توهم بعض قاصري الفهم وممن لايكلفون انفسهم دقة النظر: ان المعنى العظـيم والحقيقة الكبرى التي تفيدها الآية الكريمة (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثـل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بـعـضهم لبعـض ظهيراً) ظنوها صورة محالة ومبالغـة بلاغية! حاشَ للّه! بل انها بلاغة هي عين الحقيقة، وصورة ممكنة وواقعة وليست محالة قـط. فأحد وجوه تلك الصورة هو أنه:

لو اجتمع اجمل ما يقوله الانس والجن الذي لم يترشح من القرآن ولا هو من متاعه، فلا يماثل القرآن قط ولن يماثله. لذا لم يظهر مثيله.

والوجه الآخر: ان المدنية وحكمة الفلسفة والآداب الاجنبية التي هي نتائج افكار الجن والانس وحتى الشياطين وحصيلة اعمالهم، هي في دركات العجز امام احكام القرآن وحكمته وبلاغته. كما قد بيّنا امثلة منها.

الجلوة الثالثة:

خطابه كل طبقة من طبقات الناس

ان القرآن الحكيم يخاطب كل طبقة من طبقات البشر في كل عصر من العصور، وكأنه متوجه توجهاً خاصاً الى تلك الطبقة بالذات. اذ لما كان القرآن يدعو جميع بني آدم بطوائفهم كافة الى الايمان الذي هو اسمى العلوم وادقها، والى معرفة الله التي هي اوسع العلوم وأنورها، والى الاحكام الاسلامية التي هي اهم المعارف واكثرها تنوعاً، فمن الألزم اذاً ان يكون الدرس الذي يلقيه على تلك الطوائف من الناس، درساً يوائم فهم كلٍ منها. والحـال أن الـدرس واحد، وليس مختلفاً، فلابد اذاً من وجود طبقات من الفهم في الدرس نفسه، فكل طائفة من الناس – حسب درجاتها – تأخذ حظها من الدرس من مشهد من مشاهد القرآن.

ولقد وافينا بأمثلة كثيرة لهذه الحقيقة، يمكن مراجعتها، اما هنا فنكتفـي بالاشـارة الى بضع اجزاءٍ منها، والى حظ طبقة أو طبقتين منها من الفهم فحسب.

فمثلاً:

قوله تعالى: (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)

فان حظ فهم طبقة العوام التي تشكل الاكثرية المطلقة هو:

»ان الله متزّه عن الوالد والولد وعن الزوجة والأقران«

وحظ طبقة اخرى متوسطة من الفهم هو:

»نفي الوهية عيسى عليه السلام والملائكة، وكل ما هو من شأنه التولد« لأن نفي المحال لا فائدة منه في الظاهر؛ لذا فلابد ان يكون المراد اذاً ما هو لازم الحكم كما هـــو مقـــرر في البلاغة. فالمراد من نفي الولد والوالدية اللذين لهما خصائص الجسمانية هو نفي الالوهية عن كل مَن له ولد ووالد وكفو، وبيان عدم لياقتهم للالوهية.

فمن هذا السر تبين: أن سورة الاخلاص يمكن أن تفيد كل انسان في كل وقت.

وحظ فهم طبقة اكثر تقدماً هو:

ان الله متزّه عن كل رابطة تتعلق بالموجودات تُشم منها رائحة التوليد والتولد، وهـــو مقدّس عن كل شريك ومعين ومجانس، وانمــا علاقتـــــــه بالمـــــوجـــــــودات هـــي الخـــــلاقيـــة. فهو يخلق الموجودات بأمر »كن فيكون« بارادته الازلية وباختياره. وهو متزّه عن كل رابطة تنافي الكمال، كالايجاب والاضطرار والصدور بغير اختيار.

وحظ فهم طبقة أعلى من هذه هو:

ان الله ازلي، ابدي، اول وآخر، لانظير له ولا كفو، ولاشبيه، ولامثيل ولامثال في ايـــة جهة كانت، لا في ذاته ولافي صفاته ولا في افعاله. وانما هناك (المَثَل) (ولله المثل الاعلى) الذي يفيد التشبيه في افعاله وشؤونه فحسب.

فلك أن تقيس على هذه الطبقات اصحاب الحظوظ المختلفة في الادراك من امثال طبقة العارفين وطبقة العاشقين وطبقة الصديقين وغيرهم...

المثال الثاني:

قوله تعالى (ما كان محمد أبا احدٍ من رجالكم) (الاحزاب:40)

فحظ فهم الطبقة الاولى من هذه الآية هو:

ان زيداً خادم الرسول)ص(ومتبناه ومخاطبه بـــ : يا بني، قد طلّق زوجته العزيزة بعدما احسّ انه ليس كفواً لها، فتزوجها الرسول)ص(بأمر الله تعالى، فالآية (النازلة بهذه المناســـبة)

تقول: ان النبي)ص(اذا خاطبكم مخاطبة الاب لإبنه، فانه يخاطبكم من حيث الرسالة، اذ هو ليس اباً لأحدٍ منكم باعتباره الشخصي حتى لا تليق به زوجاته.

وحظ فهم الطبقة الثانية هو:

ان الامير العظيم ينظر الى رعاياه نظر الأب الرحيم، فان كان سلطاناً روحانياً في الظاهر والباطن فان رحمته ستفوق رحمة الاب وشفقته اضعافاً مضاعفة، حتى تنظر اليه افراد الرعية نظرهم للاب وكأنهم اولاده الحقيقيون. وحيث إن النظرة الى الاب لا يمكن ان تنقلب الى النظر الى الزوج والنظر الى البنت لايتحول بسهولة الى النظر الى الزوجة، فلا يوافق في فكر العامة تزوج الرسول)ص(ببنات المؤمنين استناداً الى هذا السر. لذا فالقرآن يخاطبهم قائلاً: ان الرسول)ص(ينظر اليكم نظر الرحمة والشفقة من زاوية الرحمة الإلهية ويعاملكم معاملة الاب الحنون من حيث النبوة، ولكنه ليس اباً لكم من حيث الشخصية الانسانية حتى لا يلائم تزوجه من بناتكم ويحرم عليه.

القسم الثالث يفهم الآية هكذا:

ينبغي عليكم ألاّ ترتكبوا السيئات والذنوب اعتماداً على رأفة الرسول الكريم)ص(عليكم وانتسابكم اليه. اذ إن هناك الكثيرين يعتمدون على ساداتهم ومرشديهم فيتكاسلون عن العبادة والعمل، بل يقولون احياناً:

»قد اُديِّتْ صلاتُنا« (كما هو الحال لدى بعض الشيعة).

النكتة الرابعة:

ان قسماً آخر يفهم اشارة غيبية من الآية وهي:

ان أبناء الرسول)ص(لا يبلغون مبلغ الرجال، وانما يتوفاهم الله – قبل ذلك – فلا يدوم نسله من حيث كونهم رجالاً لحكمة يراها سبحانه وتعالى. إلاّ أن لفظ »رجال« يشير الى أنه سيدوم نسله من النساء دون الرجال.

فللّه الحمد والمنة فان النسل الطيب المبارك من فاطمة الزهراء (رضى الله عنها) كالحسن والحسين (رضي الله عنهما) وهما البدران المنوران لسلسلتين نورانيتين، يديمان ذلك النسل المبارك (المادي والمعنوي) لشمس النبوة.

اللّهم صلِّ عليه وعلى آله .

»تمت الشعلة الاولى بأشعتها الثلاثة«.

الشعلة الثانية

»هذه الشعلة لها ثلاثة انوار«

النور الاول

ان القرآن الكريم قد جمع السلاسة الرائقة والسلامة الفائقة والتساند المتين والتناسب الرصين والتعاون القوي بين الجمل وهيئاتها، والتجاوب الرفيع بين الآيات ومقاصدها، بشهادة علم البيان وعلم المعاني وشهادة الوف من ائمة هذه العلوم كالزمخشري والسكاكي وعبد القاهر الجرجاني، مع ان هناك ما يقارب تسعة اسباب مهمة تخل بذلك التجاوب والتعاون والتساند والسلاسة والسلامة، فلم تؤثر تلك الاسباب في الافساد والاخلال بل مدّت وعضّدت سلاسته وسلامته وتسانده إلاّ ما اجرته بشيء من حكمها في اخراج رؤوسها من وراء ستار النظام والسلاسة، وذلك لتدلّ على معان جليلة من سلاسة نظم القرآن، بمثل ما تخرج البراعم بعض البروزات والندب في جذع الشجرة المنسقة، فهذه البروزات ليست لإخلال تناسق الشجرة وتناسبها وانما لإعطاء ثمرات يتم بها جمال الشجرة وكمال زينتها.

اذ إن ذلك القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة نجماً نجماً لمواقع الحاجات نــزولاً متفرقاً متقطعاً، مع أنه يُظهر من التلاؤم الكامل كأنه نزل دفعة واحدة.

وايضاً ان ذلك القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة لاسباب نزول مختلفة متباينـــة، مع أنه يظهر من التساند التام كأنه نزل لسبب واحد.

وايضاً ان ذلك القرآن جاء جواباً لأسئلة مكررة متفاوتة، مع انه يظهر من الامتزاج التام والاتحاد الكامل كأنه جواب عن سؤال واحد.

وأيضاً ان ذلك القرآن جاء بياناً لأحكام حوادث متعددة متغايرة، مع أنه يــبين مـــن الانتظام الكامل كأنه بيان لحادثة واحدة.

وايضاً ان ذلك القرآن نزل متضمناً لتنزلات كلامية إلهية في اساليب تناســب افهـــامَ مخاطبين لا يحصرون، ومن حالات من التلــقي متخــــالــــفة متـــــنوعة، مع أنه يــبين من السلاسة اللطيفة والتماثل الجميل، كأن الحالة واحدة والفهم واحد، حتى تجري السلاسة كالماء السلسبيل.

وايضاً ان ذلك القرآن جاء مكلماً متوجهاً الى اصناف متعددة متباعدة من المخـــاطبين، مع أنه يظهر من سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الافهام كأن المخاطبين صنف واحـــد بحيث يظن كل صنف انه المخاطب وحده بالاصالة.

وأيضاً ان ذلك القرآن نزل هادياً وموصلاً الى غايات ارشادية متدرجة متفاوتة، مع انه يبين من الاستقامة الكاملة والموازنة الدقيقة والانتظام الجميل كأن المقصد واحد.

فهذه الاسباب مع انها اسباب للتشويش واختلال المعنى والمبنى إلاّ انها اســتخدمت في اظهار اعجاز بيان القرآن وسلاسته وتناسبه.

نعم! من كان ذا قلبٍ غير سقيم، وعقل مستقيم، ووجدان غير مريض، وذوق سليم، يرى في بيان القرآن سلاسة جميلة وتناسقاً لطيفاً ونغمة لذيذة وفصاحة فريدة. فمن كانت له عين سليمة في بصيرته، فلا ريب أنه يرى في القرآن عيناً ترى كل الكائنات ظـــاهراً وباطنـــاً بوضوح تام كأنها صحيفة واحدة، يقلّبها كيف يشاء، فيعرّف معانيها على ما يشـــاء مـــن اسلوب.

فلو اردنا توضيح حقيقة هذا النور الاول بأمثلة، لاحتجنا الى بضعة مجلدات. لذا نكتفي بالايضاحات التي تخص هذه الحقيقة في كل من »الرسائل العربية" [140] و»اشارات الاعجـــاز« والكلمات الخمس والعشرين السابقة. بل القرآن الكريم بكامله مثال لهذه الحقيقة. ابيّنه كلــه دفعة واحدة.

النور الثاني

يبحث هذا النور عن مزية الاعجاز في الاســـلوب البـــديع للقـــرآن في الخلاصـــات (الفذلكات) والاسماء الحسنى التي تنتهي بها الآيات الكريمة:

تنبيه

سترد آيات كثيرة في هذا النور الثاني، وهي ليست خاصة به وحده بل تكون امثلة ايضاً لما ذكر من المسائل والاشعة. ولو اردنا ان نوفي هذه الامثلة حقها من الايضاح لطـــال بنـــا البحث، بيد اني اراني مضطراً في الوقت الحاضر الى الاختصار والاجمال، لذا فقد أشرنا اشارة في غاية الاختصار والاجمال الى الآيات التي اوردناها مثالاً لبيان هذا السر العظيم سر الاعجاز مؤجلين تفصيلاتها الى وقت آخر.

فالقرآن الكريم يذكر في اكثر الاحيان قسماً من الخلاصـــات والفـــذلكات في خاتمـــة الآيات. فتلك الخلاصات: إما انها تتضمن الاسماء الحسنى أو معناها، واما انها تحيل قضاياها إلى

---

[140] وهي اثنتا عشرة رسالة ضمن كتاب »المثنوي العربي النوري«. - المترجم.

العقل وتحثه على التفكر والتدبر فيها.. أو تتضمن قاعدة كلية من مقاصد القرآن فتؤيد بها الآية وتؤكدها.

ففي تلك الفذلكات بعض اشارات من حكمة القرآن العالية، وبعض رشاشات من ماء الحياة للهداية الإلهية، وبعض شرارات من بوراق إعجاز القرآن.

ونحن الآن نذكر اجمالاً »عشر اشارات« فقط من تلك الاشارات الكثيرة جداً، كما نشير الى مثال واحد فقط من كثير من امثلتها، والى معنى اجمالي لحقيقة واحدة فقط من بين الحقائق الكثيرة لكل مثال.

هذا وان اكثر هذه الاشارات العشر تجتمع في اكثر الآيات معاً مكونة نقشاً اعجازياً حقيقياً. وان اكثر الآيات التي نأتي بها مثالاً هي امثلة لأكثر الاشارات. فنبين من كل آية اشارة واحدة مشيرين اشارة خفيفة الى معاني تلك الآيات التي ذكرناها في »كلمات« سابقة.

uمزية الجزالة الاولى:

ان القرآن الكريم - ببياناته المعجزة - يبسط افعال الصانع الجليل ويفرش آثاره أمام النظر، ثم يستخرج من تلك الافعال والآثار، الاسماء الإلهية، أو يثبت مقصداً من مقاصد القرآن الاساسية كالحشر والتوحيد.

فمن امثلة المعنى الاول:

قوله تعالى (هو الذي خلقَ لكُم ما في الارض جميعاً ثم استوى الى السماء فسويهنّ سبعَ سمواتٍ وهو بكل شيء عليم) (البقرة: 29)

ومن امثلة المعنى الثاني:

قوله تعالى(ألم نجعل الارض مهاداً_ والجبال اوتاداً_ وخلقناكم ازواجاً الى قوله تعالى إن يوم الفصل كان ميقاتاً) (النبأ)

ففي الآية الاولى: يعرض القرآن الآثار الإلهية العظيمة التي تدل بغاياتها ونظمها على علم الله وقدرته،يذكرها مقدّمة لنتيجة مهمة وقصد جليل ثم يستخرج اسم الله »العليم«.

وفي الآية الثانية: يذكر افعال الله الكبرى وآثاره العظمى، ويستنتج منها الحشر الذي هو يوم الفصل، كما وُضح في النقطة الثالثة من الشعاع الاول من الشعلة الاولى.

uالنكتة البلاغية الثانية:

ان القرآن الكريم ينشر منسوجات الصنعة الإلهية ويعرضها على انظار البشر ثم يلفّهـــا ويطويها في الخلاصة ضمن الأسماء الإلهية، أو يحيلها الى العقل.

فمن أمثلة الاول:

(قل من يرزقكم من السماء والارض، أمّن يملك السمعَ والابصار، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ومَن يدّبر الأمر فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون_ فـــذلكم الله ربكم الحق) (يونس: 31، 32)

فيقول اولاً: »مَن الذي هيأ السماء والارض وجعلهما مخازن ومستودعاتٍ لـــرزقكم، فأنزل من هناك المطر ويخرج من هنا الحبوب ؟ ومَن غيرُ الله يستطيع ان يجعل السماء والارض العظيمتين في حكم خازنين مطيعين لحكمه؟ فالشكر والحمد اذاً له وحده«.

ويقول في الفقرة الثانية: »أمّن هو مالك اسماعكم وابصاركم التي هـــي اثمـــن مـــا في اعضائكم؟ من أي مصنع أو محل ابتعتموها؟ فالذي منحكم هذه الحواس اللطيفة مـــن عـــين وسمع انما هو ربّكم! وهو الذي خلقكم ورباكم، ومنحها لكم،فالرب اذاً انما هـــو وحـــده المستحق للعبادة ولا يستحقها غيره«.

ويقول في الفقرة الثالثة: »أمّن يحيى مئات الالاف من الطوائف الميتة كما يحيى الارض؟ فمن غير الحق سبحانه وخالقُ الكون يقدر ان يفعل هذا الأمر؟ فلا ريب انه هو الذي يفعـــل وهو الذي يحيى الارض الميتة. فما دام هو الحق فلن تضيع عنده الحقوق، وسيبعثكم الى محكمة كبرى وسيحييكم كما يحيى الارض«.

ويقول في الفقرة الرابعة: » مَن غير الله يستطيع ان يدبّر شؤون هذا الكـــون العظـــيم ويدير أمره ادارةً منسقة منظمة بسهولة إدارة قصر أو مدينة؟ فما دام ليس هناك غير الله، فلا نقص اذاً في القدرة القادرة على ادارة هذا الكون العظيم – بكل أجرامهِ بيسر وسهولة – ولا حاجة لها الى شريك ولا الى معين فهي مطلقة لا يحدها حدود. ولايدع مَن يدبّر امور الكون العظيم ادارة مخلوقات صغيرة الى غيره. فانتم اذاً مضطرون لأن تقولوا: الله.«.

فترى ان الفقرة الاولى والرابعة تقول: الله، وتقول الثانية: رب. وتقول الثالثة: الحـــق. فافهم مدى الاعجاز في موقع جملة (فذلكم الله ربكم الحق).

وهكذا يذكر القرآن عظيم تصرفات الله سبحانه وعظيم منسوجاته ثم يذكر اليد المدبرة لتلك الآثار الجليلة والمنسوجات العظيمة: (فذلكم الله ربكم الحق)، أي: أنه يُري منبع تلـــك التصرفات العظيمة ومصدرها بذكر الاسماء الإلهية: الله، الرب، الحق.

ومن امثلة الثاني:

(ان في خلق السموات والارض واختلاف الّيل والنهار والفُلك التي تجري في البحر بمـــا يَنفعُ الناس وما انزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الارضَ بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون) (البقرة: 164)

يذكر القرآن في هذه الآيات ما في خلق السموات والارض من تجلي سلطنة الالوهيـــة الذي يُظهر تجلي كمال قدرته سبحانه وعظمة ربوبيته، ويَشهد على وحدانيته.. ويذكر تجلي الربوبية في اختلاف الليل والنهار، وتجلي الرحمة بتسخير السفينة وجريانها في البحر التي هـــي من الوسائل العظمى للحياة الاجتماعية، وتجلي عظمة القدرة في انزال الماء الباعث على الحياة من السماء الى الارض الميتة واحيائها مع طوائفها التي تزيد على مئات الآلاف، وجعلـــها في صورة معرض للعجائب والغرائب.. كما يذكر تجلي الرحمة والقدرة في خلق ما لا يحد مـــن الحيوانات المختلفة من تراب بسيط.. كما يذكر تجلي الرحمة والحكمة من توظيف الريـــاح بوظائف جليلة كتلقيح النباتات وتنفسها، وجعلها صالحة في ترديد انفاس الأحياء بتحريكها وادارتها.. كما يذكر تجلي الربوبية في تسخير السحب وجمعها وتفريقها وهي معلقـــة بـــين السماء والارض كأنها جنود منصاعون للاوامر يتفرقون للراحة ثم يجّمعون لتلقي الاوامـــر في عرض عظيم.

وهكذا بعد سرد منسوجات الصنعة الإلهية يسوق العقل الى اكتناه حقائقهـــا تفصـــيلاً فيقول: (لايات لقوم يعقلون) آخذاً بزمام العقل الى التدبر موقظاً اياه الى التفكر.

uمزيّة الجزالة الثالثة:

ان القرآن الكريم قد يذكر افعال الله سبحانه بالتفصيل ثم بعد ذلك يوجزها ويجملـــها بخلاصة، فهو بتفصيلها يورث القناعة والاطمئنان وبايجازها واجمالها يسهّل حفظها وتقييدها. فمثلاً:

(وكذلك يَجتَبيك ربُّك ويعلّمك من تأويل الاحاديث ويُتم نعمته عليـــك وعلـــى آل يعقوب كما اتمها على أبَويك من قبلُ ابراهيم واسحق ان ربك عليمٌ حكيمٌ) (يوسف:6)

يشير بهذه الآية الى النعم التي انعمها الله على سيدنا يوسف وعلى آبائه من قبل، فيقول: ان الله تعالى هو الذي اصطفاكم من بنى آدم لمقام النبوة وجعل سلسلة جميع الانبياء مرتبطـــة بسلسلتكم وسوّدها على سائر سلاسل بني البشر، كما جعل اسرتكم موضع تعليم وهداية، تلقّن العلوم الإلهية والحكمة الربانية، فجمع فيكم سلطنة الـــدنيا الســـعـــيـــدة وســـعادة الآخـــرة الخـــالـــدة، وجعـــلك بالعلـــم والحـــكمة عـــزيـــزاً لمصر ونبياً عظيماً ومرشداً حكيماً.. فبعد أن يذكر تلك الـــنعم ويعـــدّدها وكيف ان الله قد جعله هو واباءه ممتازين بالعلم والحكمة، يقول: (ان ربك عليم حكيم) أي اقتضت ربوبيته وحكمته ان يجعلك واباءك تحظون بنور اسم »العليم الحكيم«.

وهكذا أجمل تلك النعم المفصّلة بهذه الخلاصة.

ومثلاً: قوله تعالى (قل اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء الى قوله تعالى وترزق من تشاء بغير حساب) (آل عمران:27)

تعرض هذه الآية أفعال الله سبحانه في المجتمع الانساني وتفيد:

بأن العزة والذلة والفقر والغنى مربوطة مباشرة بمشـــيئة الله وارادتـــه تعـــالى. أي:»ان التصرف في اكثر طبقات الكثرة تشتتاً انما هو بمشيئة الله وتقديره فلا دخل للمصادفة قط«.

فبعد ان اعطت الآية هذا الحكم، تقول: ان اعظم شئ في الحياة الانسانية هو رزقـــه، فتثبت ببضع مقدمات ان الرزق انما يرسل مباشرة من خزينة الرزاق الحقيقي؛ إذ إن رزقكـــم منوط بحياة الارض، وحياة الارض منوطة بالربيع، والربيع انما هو بيد من يســـخر الشـــمس والقمر ويكور الليل والنهار. اذاً فان منح تفاحة لإنسان رزقاً حقيقياً، انما هو من فعل من يملأ الارض بانواع الثمرات، وهو الرزاق الحقيقي.

وبعد ذلك يجمل القرآن ويثبت تلك الافعال المفصّلة بهذه الخلاصة: (وترزق من تشـــاء بغير حساب).

u النكتة البلاغية الرابعة:

ان القرآن قد يذكر المخلوقات الإلهية مرتبة بترتيب معين ثم يبين به ان في المخلوقـــات نظاماً وميزاناً، يُريان ثمرة المخلوقات وكأنه يضفي نوعاً مـــن الشـــفافية والســـطوع علـــى المخلوقات التي تظهر منها الاسماء الإلهية المتجلية فيها، فكأن تلك المخلوقات المذكورة ألفاظ، وهذه الاسماء معانيها، أو انها ثمرات وهذه الاسماء نواها أو لبابها.

فمثلاً: (ولقد خلقنا الانسان من سلالةٍ من طين ــ ثم جعلناهُ نطفةً في قرارٍ مكـــينٍ ــ ثم خلقنا النطفةَ عَلَقةً فخلقنا العلقة مُـــضغةً فخلقنا الـــمُـــضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناهُ خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين). (المؤمنون:12ـــــ14) يذكر القرآن خلـــق الانسان واطواره العجيبة الغريبة البديعة المنتظمة الموزونة ذكراً مرتباً يبيّن كالمرآة (فتبارك الله احسنُ الخالقين)، حتى كأن كل طـــور يبـــين نفسه ويـــوحي بنفسه هـــذه الآيـــة، بـــل حـــتـــى قـــالـــها قبل مجيئها احـــد كتّاب الوحي حينما كان يـــكـــتب هـــذه الآيـــة، فذهب به الظن الى أن يقول: أأوحي اليّ ايضاً؟ والحال أن كمال نظام الكلام الأول وشفافيته الرائقة وانسجامه التام يظهر نفسه قبل مجئ هذه الكلمة.

وكذا قوله تعالى:

(ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة ايامٍ ثم استوى على العرش يُغشي الّيل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخّراتٍ بأمره ألا له الخلقُ والامرُ تبـــارك الله ربُ العالمين) (الاعراف: 54)

يبين القرآن في هذه الآية عظمة القدرة الإلهية وسلطنة الربوبية بوجه يدلّ على قدير ذي جلال استوى على عرش ربوبيته ويسطّر آيات ربوبيته على صحائف الكون ويحـــوّل الليـــل والنهار كأنهما شريطان يعقب احدهما الاخر. والشمس والقمر والنجوم متهيئة لتلقي الاوامر كجنود مطيعين. لذا فكل روح ما ان تسمع هذه الآية إلاّ وتقول: تبارك الله رب العـــالمين..

بارك الله.. ماشاء الله. أي أن جملة (تبارك الله رب العالمين) تجري مجرى الخلاصة لما سبق من الجمل وهي بحكم نواتها وثمرتها وماء حياتها.

uمزية الجزالة الخامسة:

ان القرآن قد يذكر الجزئيات المادية المعرّضة للتغير والتي تكون مناط مختلف الكيفيات والاحوال، ثم لأجل تحويلها الى حقائق ثابتة يقيدها ويُجْمِلها بالاسماء الإلهية التي هي نورانية وكلية وثابتة. أو يأتي بخلاصة تسوق العقل الى التفكر والاعتبار.

ومن امثلة المعنى الاول:

(وعلّم ادمَ الاسماءَ كلّها ثم عرضهم على الملائكةِ فقال أنبئوني باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين_ قالوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم) (البقرة:31 - 32)

هذه الآية تذكر اولاً حادثة جزئية هي: ان سبب تفضيل آدم في الخلافة على الملائكة هو »العلم« ومن بعد ذلك تذكر حادثة مغلوبية الملائكة امام سيدنا آدم في قضية العلم، ثم تعقب ذلك باجمال هاتين الحادثتين بذكر اسمين كليين من الاسماء الحسنى انت العليم الحكيم .بمعنى ان الملائكة يقولون: انت العليم يارب فعلّمتَ آدم فغلبنا وانت الحكيم فتمنحنا كل ما هو ملائم لإستعدادنا، وتفضّله علينا باستعداداته.

ومن امثلة المعنى الثاني:

(وإنّ لكم في الأنعام لعبرةً نسقيكُم مما في بطونه من بين فرثٍ ودمٍ لَبَنًا خالصاً سائغاً للشاربين_ ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سَكَرَاً ورزقاً حسناً ان في ذلك لاية لقومٍ يعقلون_ واوحى ربُّك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يَعرشُون_ ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سُبُلَ ربّكِ ذُلُلاً يخرج من بطونها شراب مختلفٌ الوانهُ فيه شفاءٌ للناس ان في ذلك لاية لقومٍ يتفكرون) (النحل:66ـــ69)

تعرض هذه الآيات الكريمة ان الله تعالى جعل الشاة، والمعزى، والبقر، والابل وامثالها من المخلوقات ينابيع خالصة زكية لذيذة تدفق الحليب، وجعل سبحانه العنب والتمر وأمثالهما أطباقاً من النعمة وجفاناً لطيفة لذيذة.. كما جعل من امثال النحل - التي هي معجزة من

معجزات القدرة – العسل الذي فيه شفاء للناس الى جانب لذته وحلاوته.. وفي خاتمة المطاف تحث الآيات على التفكر والاعتبار وقياس غيرها عليها بـــــــ (ان في ذلـــك لايـــةً لقـــوم يتفكرون).

uالنكتة البلاغية السادسة:

ان القرآن الكريم قد يَنشر احكام الربوبية على الكثرة الواسعة المنتشرة ثم يضع عليهـــا مظاهر الوحدة ويجمعها في نقطة توحدّها كجهة وحدة بينها، أو يمكّنها في قاعـــدة كليـــة. فمثلاً: قوله تعالى (وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظـــيم) (البقرة: 255)

فهذه الآية (أي آيةُ الكرسي) تأتي بعشر جمل تمثل عشر طبقات من التوحيد في اشكال مختلفة، وتثبتها. وبعد ذلك تقطع قطعاً كلياً بقوة صـــارمة عـــرق الـــشـــرك ومداخـــــلة غيـــر اللّـــه بـــ (مَن ذا الذي يشفع عنده إلاّ باذنه).

فهذه الآية لأنها قد تجلّى فيها الاسم الاعظم فان معانيها من حيث الحقائق الإلهية هي في الدرجة العظمى والمقام الاسمى، اذ تبين تصرفات الربوبية في الدرجة العظمى، وبعد ذكر تدبير الالوهية الموّجه للسموات والارض كافة توجهاً في اعلى مقام واعظم درجة تذكر الحفيظيـــة الشاملة المطلقة بكل معانيها ثم تلخص منابع تلك التجليات العظمى في رابطة وحدة اتحـــادٍ، وجهة وحدة بقوله تعالى: (وهو العلي العظيم).

ومثلاً:

(الله الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفُلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار_ وسخّر لكم الشـــمس والقمر دائبين وسخّر لكم الّيل والنهار_ وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدّوا نعمـــة الله لا تحصوها) (ابراهيم:32ـــــ34)

تبين هذه الآيات: كيف أن الله تعالى قد خلق هذا الكون للانسان في حكـــم قصـــر، وارسل ماء الحياة من السماء الى الارض، فجعل السماء والارض مسخرتين كأنهما خادمـــان عاملان على ايصال الرزق الى الناس كافة، كما سخر له السفينة ليمنح الفرصة لكل أحـــد،

ليستفيد من ثمار الارض كافة، ليضمن له العيش فيتبادل الافراد فيما بينهم ثمار سعيهم واعمالهم. أي جعل لكل من البحر والشجر والريح أوضاعاً خاصة بحيث تكون الريح كالسوط والسفينة كالفرس والبحر كالصحراء الواسعة تحتها. كما انه سبحانه جعل الانسان يرتبط مع كل ما في انحاء المعمورة بالسفينة وبوسائط نقل فطرية في الانهار والروافد وسيّر له الشمس والقمر وجعلهما ملاحين مأمورين لإدارة دولاب الكائنات الكبير واحضار الفصول المختلفة واعداد ما فيها من نعم إلهية. كما سخر الليل والنهار جاعلاً الليل لباساً وغطاءً ليخلد الانسان الى الراحة والنهار معاشاً ليتجر فيه.

وبعد تعداد هذه النعم الإلهية تأتي الآية بخلاصة (وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) لبيان مدى سعة دائرة انعام الله تعالى على الانسان وكيف انها مملوءة بانواع النعم أي: ان كل ما سأله الانسان بحاجته الفطرية وبلسان استعداده قد منحه الله تعالى اياه. فتلك النعم لا تدخل في الحصر ولا تنفد ولا تنقضي بالتعداد.

نعم، ان كانت السموات والارض مائدة من موائد نعمه العظيمة وكانت الشمس والقمر والليل والنهار بعضاً من تلك النعم التي احتوتها تلك المائدة، فلا شك أن النعم المتوجهة الى الانسان لا تعد ولاتحصى.

Uسر البلاغة السابعة:

قد تبين الآية غايات المسَبَّب وثمراته لتعزل السبب الظاهري وتسلب منه قدرة الخلق والايجاد. وليُعلَم ان السبب ما هو الاّ ستار ظاهري؛ ذلك لأن ارادة الغايات الحكيمة والثمرات الجليلة يلزم ان يكون من شأن من هو عليم مطلق العلم وحكيم مطلق الحكمة، بينما سببها جامدٌ من غير شعور. فالآية تفيد بذكر الثمرات والغايات: ان الاسباب وإن بدتْ في الظاهر والوجود متصلة مع المسبَّبات إلاّ ان بينهما في الحقيقة وواقع الأمر بوناً شاسعاً جداً.

نعم! ان المسافة بين السبب وايجاد المسبَّب مسافة شاسعة بحيث لا طاقة لأعظم الاسباب ان تنال ايجاد أدنى مسبَّب، ففي هذا البعد بين السبب والمسبَّب تشرق الاسماء الإلهية كالنجوم الساطعة. فمطالع تلك الاسماء هي في تلك المسافة المعنوية، اذ كما يُشاهد اتصال أذيال السماء بالجبال المحيطة بالافق وتبدو مقرونة بها، بينما هناك مسافة عظيمة جداً بين دائرة الافق

والسماء، كذلك فان ما بين الاسباب والمسببات مسافة معنوية عظيمة جداً لا تُرى الاّ بمنظار الايمان ونور القرآن. فمثلاً:

(فلينظر الانسانُ الى طعامهِ_ أنّا صَببنا الماء صبّاً_ ثم شققنا الارض شقّاً_ فانبتنا فيهــا حبّاً_ وعنباً وقــضباً_ وزيتوناً ونخلاً_ وحدائقَ غُلباً_ وفاكهة وأبّاً_ متاعاً لكم ولأنعامكم). (عبس:24 – 32)

هذه الآيات الكريمة تذكر معجزات القدرة الإلهية ذكراً مرتباً حكيماً تربط الاســباب بالمسببات، ثم في خاتمة المطاف تبيّن الغاية بلفظ (متاعاً لكم ولأنعامكم) فتثبت في تلك الغاية أن متصرفاً مستتراً وراء جميع تلك الاسباب والمسببات المتسلسلة يرى تلك الغايات ويراعيها. وتؤكد أن تلك الاسباب ما هي إلاّ حجاب دونه.

نعم ان عبارة (متاعاً لكم ولأنعامكم) تسلب جميع الاسباب من القدرة على الايجــاد والخلق. اذ تقول معنىً:

ان الماء الذي يترل من السماء لتهيئة الارزاق لكم ولأنعامكم لا يترل بنفسه، لأنه ليس له قابلية الرحمة والحنان عليكم وعلى انعامكم كي يرأف بحالكم؛ فاذاً يُرسل إرسالاً.

وان التراب الذي لاشعُور له، لأنه بعيد كل البعد من أن يرأف بحالكم فيهــئ لكــم الرزق، فلا ينشق اذاً بنفسه، بل هناك مَن يشقّه ويفتح ابوابه، ويناولكم النِعَم منه.

وكذا الاشجار والنباتات، فهي بعيدة كل البعد عن تهيئة الثمرات والحبوب رأفة بكــم وتفكراً برزقكم، فما هي إلاّ حبالٌ وشرائط ممتدة من وراء ستار الغيب يمدها حكيم رحــيم علّق تلك النعم بها وارسلها الى ذوي الحياة.

وهكذا فمن هذه البيانات تظهر مطالع اسماء حسنى كثيرة كالرحيم والرزاق والمــنعم والكريم.

ومثلاً:

(ألم ترَ أن الله يُزجى سحاباً ثم يؤلّف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودْقَ يخرج من خلاله ويُترّل من السماء من جبالٍ فيها من بَرَد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار_ يقلبُ الله الّيل والنهار ان في ذلك لعبرةً لاولي الابصار_ والله خلَــق

كلَّ دابة من ماءٍ فمنهم مَن يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم مَن يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير).(النور:43 ـ 45)

فهذه الآية الكريمة حينما تبين التصرفات العجيبة في انزال المطر وتشكل السحاب التي تمثل ستار خزينة الرحمة الإلهية واهم معجزة من معجزات الربوبية، تبينها كأن اجزاء السحاب كانت منتشرة ومختفية في جو السماء - كالجنود المنتشرين للراحة - فتجتمع بأمر الله وتتألف تلك الاجزاء الصغيرة مشكلة السحاب كما تجتمع الجنود بصوت بوق عسكري، فيرسل الماء الباعث على الحياة الى ذوي الحياة كافة، من تلك القطع من السحاب التي هي في جسامة الجبال السيارة في القيامة وعلى صورها. وهي في بياض الثلج والبَرَد وفي رطوبتها.. فيُشاهد في ذلك الارسال ارادة وقصداً لأنه يأتي حسب الحاجة، أي ترسل المطر ارسالاً، ولا يمكن ان تجتمع تلك الاجزاء الضخمة من السحاب وكأنها جبال بنفسها في الوقت الذي نرى الجو براقاً صحواً لا شئ يعكّره، بل يرسلها مَن يعرف ذوي الحياة ويعلم بحالهم.

ففي هذه المسافة المعنوية تظهر مطالع الاسماء الحسنى كالقدير والعليم والمتصرف والمدبّر والمربي والمغيث والمحيي.

Uمزية الجزالة الثامنة:

ان القرآن الكريم قد يذكر من افعال الله الدنيوية العجيبة والبديعة كي يعدّ الاذهان للتصديق ويحضر القلوب للايمان بافعاله المعجزة في الآخرة. أو أنه يصوّر الافعال الإلهية العجيبة التي ستحدث في المستقبل والآخرة بشكل يجعلنا نقنع ونطمئن اليه بما نشاهده من نظائرها العديدة. فمثلاً:

(أوَ لم يَرَ الانسانُ أنّا خَلقناه مِن نطفةٍ فاذا هو خصيمٌ مبينٌ..) الى آخر سورة (يس).. هنا في قضية الحشر، يثبت القرآن الكريم ويسوق البراهين عليها، بسبع أو ثماني صور مختلفة متنوعة.

انه يقدّم النشأة الاولى اولاً، ويعرضها للانظار قائلاً: انكم ترون نشأتكم من النطفة الى العلقة ومن العلقة الى المضغة ومن المضغة الى خلق الانسان، فكيف تنكرون اذن النشأة

الاخرى التي هي مثل هذا بل أهون منه؟ ثم يشير بـــ (الذي جعل لكم من الشجَر الأخضـــر ناراً) الى تلك الآلاء وذلك الاحسان والانعام الذي انعمه الحق سبحانه على الانسان، فالذي ينعم عليكم مثل هذه النعم، لن يترككم سدىً ولا عبثاً، لتدخلوا القبر وتناموا دون قيـــام. ثم انه يقول رمزاً: انكم ترون احياء واخضرار الاشجار الميتة، فكيف تستبعدون اكتساب العظام الشبيهة بالحطب للحياة ولا تقيسون عليها؟ ثم هل يمكن ان يعجز مَـــن خلـــق الســـماوات والارض عن إحياء الانسان واماتـــتـــــه وهو ثـــــمـــــرة الســــــــموات والأرض؟ وهل يمـــــكن من يـــــديـــــر أمر الشجرة ويرعاها ان يهمل ثمرتها ويتركها للآخرين؟! فهل تظنون أن يُترك للعبث »شجرة الخلقة« التي عجنت جميع اجزائها بالحكمة، ويهمل ثمرتها ونتيجتها؟ وهكذا فان الذي سيحييكم في الحشر مَن بيده مقاليد السموات والارض، وتخضع له الكائنات خضوع الجنود المطيعين لأمره فيسخرهم بأمر »كن فيكون« تسخيراً كـــاملاً.. ومَن عنده خلق الربيع يسيـــر وهـــيّـــن كخلق زهـــرة واحـــدة، وايجاد جميع الحيـــوانات سهل على قدرته كايجاد ذبابة واحدة. فلا ولن يُسأل للتعجيز صاحب هذه القدرة: (من يحيي العظام)؟

ثم انه بعبارة (فسبحان الذي بيده ملكوتُ كل شيء)يبين انه سبحانه بيده مقاليد كل شئ، وعنده مفاتيح كل شئ، يقلب الليل والنهار، والشتاء والصيف بكل سهولة ويسر كأنها صفحات كتاب، والدنيا والآخرة هما عنده كمنزلين يغلق هذا ويفتح ذاك. فمـــا دام الأمـــر هكذا فان نتيجة جميع الدلائل هي: (واليه تُرجعون) أي انه يحييكم من القبر، ويسوقكم الى الحشر، ويوفي حسابكم عند ديوانه المقدس.

وهكذا ترى ان هذه الآيات قد هيأت الاذهان، واحضرت القلوب لقبول قضية الحشر، بما أظهرت من نظائرها بافعال في الدنيا.

هذا وقد يذكر القرآن ايضاً افعالاً اخرويـــة بشـــكل يحســـس ويشـــير الى نظائرهـــا الدنيوية،ليمنع الانكار والاستبعاد. فمثلاً:

بسم الله الرحمن الرحيم_ (اذا الشمسُ كُوِّرتْ _ واذا النجومُ انكدَرتْ _ واذا الجبالُ سُيرتْ_ واذا العشارُ عطلتْ_ واذا الوحوشُ حُـــشِرتْ_ واذا البحار ُسُجّرتْ_ واذا النفوسُ

زُوّجتُ_ واذا الموؤدة سُئلتْ_ بأيّ ذنب قُتلَتْ_ واذا الصُــحُفُ نُشــرت_ واذا الســماء كُشطتْ_ واذا الجحيمُ سُعّرتْ_ واذا الجنةُ ازلفتْ_ علمتْ نفسٌ ما احـــــضرتْ...) الى آخر السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم_ (اذا السماءُ انفطرتْ_ واذا الكواكبُ انتثرتْ_ واذا البحــار فُجرتْ_ واذا القبورُ بُعثرتْ_ علمتْ نفسٌ ما قدّمتْ واخّرت...) الى آخر السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم_ (اذا السماءُ انشقّتْ_ واذنتْ لربّها وحُــقّتْ _ واذا الارضُ مُدّت_ والقتْ ما فيها وتخلّتْ_ واذنتْ لربّها وحُــقّتْ...) الى آخر السورة.

فترى ان هذه السوَر تذكر الانقلابات العظيمة والتصرفات الربانية الهائلة باسلوب يجعل القلب أسير دهشة هائلة يضيق العقل دونها ويبقى في حيرة. ولكن الانسان ما أن يرى نظائرها في الخريف والربيع إلاّ ويقبلها بكل سهولة ويسر. ولما كان تفسير السور الثلاث هذه يطول، لذا سنأخذ كلمة واحدة نموذجاً، فمثلاً:

(واذا الصحف نشرت) تفيد هذه الآية: »ستنشر في الحشر جميع اعمال الفرد مكتوبة على صحيفة«. وحيث ان هذه المسألة عجيبة بذاتها فلا يرى العقل اليها سبيلاً، إلاّ أن السورة كما تشير الى الحشر الربيعي وكما ان للنقاط الاخرى نظائرها وأمثلتها كذلك نظــير نشــر الصحف ومثالها واضح جلي فلكل ثمر ولكل عشب ولكل شجر، أعمال وله أفعــال، ولــه وظائف. وله عبودية وتسبيحات بالشكل الذي تظهر به الاسماء الإلهية الحسنى، فجميع هــذه الاعمال مندرجة مع تاريخ حياته في بذوره ونواه كلها. وستظهر جميعها في ربيع آخر ومكان آخر. أي انه كما يذكر بفصاحة بالغة أعمال أمهاته وأصوله بالصورة والشكل الظاهر، فانه ينشر كذلك صحائف أعماله بنشر الاغصان وتفتح الاوراق والاثمار.

نعم إن الذي يفعل هذا أمام أعيننا بكل حكمة وحفظ وتدبير وتربية ولطف هو الذي يقول (واذا الصحف نشرت).

وهكذا قس النقاط الاخرى على هذا المنوال. وان كانت لديك قوة استنباط فاستنبط. ولاجل مساعدتك ومعاونتك سنذكر (اذا الشمس كوّرت) ايضاً. فان لفظ »كوّرت« الذي

يرد في هذا الكلام هو بمعنى: لُفّت وجمعت، فهو مثال رائع ساطع فوق أنه يومئ الى نظـــيره ومثيله في الدنيا:

اولا: ان الله سبحانه وتعالى قد رفع ستائر العدم والاثير والسماء، عن جوهرة الشمس التي تضئ الدنيا كالمصباح، فأخرجها من خزينة رحمته واظهرها الى الدنيا. وســـيلفّ تلـــك الجوهرة بأغلفتها عندما تنتهي هذه الدنيا وتنسد أبوابها.

ثانياً: ان الشمس موظفة ومأمورة بنشر غلالات الضوء في الاسحار ولفّها في الاماسي وهكذا يتناوب الليل والنهار هامة الارض، وهي تجمع متاعها مقللة من تعاملها، أو يكـــون القمر – الى حدٍ ما – نقاباً لاخذها وعطائها ذلك، أي كما ان هذه الموظفة تجمع متاعهـــا وتطوي دفاتر اعمالها بهذه الاسباب فلابد من أن يأتي يوم تعفى من مهامها، وتنفصـــل مـــن وظيفتها، حتى ان لم يكن هناك سبب للاعفاء والعزل. ولعلّ توسع ما يشاهده الفلكيون على وجهها من البقعتين الصغيرتين الآن اللتين تتوسعان وتتضخمان رويداً رويداً. تسترجع الشمس -بهذا التوسع – وبأمر رباني ما لفّته ونشرته على رأس الارض باذن إلهي من الضوء، فتلـــف به نفسها. فيقول ربّ العزة: الى هنا انتهت مهمتك مع الارض، فهيّا الى جهنم لتحرقي الذين عبدوك وأهانوا موظفة مسخرة مثلك وحقروها متهمين إياها بالخيانة وعدم الوفاء. بهذا تقرأ الشمسُ الأمر الرباني (اذا الشمسُ كوّرت) على وجهها المبقع.

uنكتة البلاغة التاسعة:

ان القرآن الكريم قد يذكر بعضاً من المقاصد الجزئية،ثم لأجل أن يحوّل تلك الجزئيـــات الى قاعدة كلية ويجيلَ الاذهان فيها يثبّت ذلك المقصد الجزئي ويقرره ويؤكده بالاسماء الحسنى التي هي قاعدة كلية.

فمثلاً:

(قد سمعَ الله قولَ التي تُجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمعُ تحاوركما ان الله سميعٌ بصير) (المجادلة: 1)

يقول القرآن: ان الله سميع مطلق السمع يسمع كل شئ، حتى إنه ليسمع باسمه »الحق« حادثة جزئية، حادثة لمرأة – المرأة التي حظيت بألطف تجلٍ من تجليات الرحمة الإلهية وهي التي

تمثل اعظم كتر لحقيقة الرأفة والحنان - هذه الدعوى المقدمة من امرأة وهي محقة في دعواهـــا على زوجها وشكواها الى الله منه يسمعها باهتمام بالغ كأي أمرعظيم باسم »الرحيم« وينظر اليها بكل جد ويراها باسم »الحق«.

فلأجل جعل هذا المقصد الجزئي كلياً تفيد الآية بأن الذي يســـمع ادنى حادثـــة مـــن المخلوقات ويراها، يلزم ان يكون ذلك الذي يسمع كل شئ ويراه، وهو المترّه عن الممكنات. والذي يكون رباً للكون لابد أن يرى ما في الكون اجمع من مظالم ويسمع شكوى المظلومين، فالذي لا يرى مصائبهم ولا يسمع استغاثاهم لايمكن ان يكون رباً لهم.

لذا فان جملة (ان الله سميع بصير) تبين حقيقتين عظيمتين. كما جعلت المقصد الجزئي أمراً كلياً.

ومثل ثان:

(سبحانَ الذي اسرى بعبدهِ ليلاً من المسجدِ الحرام الى المسجد الاقصا الـــذي باركنـــا حوله لنُريهُ من آياتنا انه هو السميعُ البصير). (الاسراء:1)

ان القرآن الكريم يختم هذه الآية بـــ (انه هو السميع البصير) وذلك بعد ذكره إســـراء الرسول الحبيب)ص(من مبدأ المعراج - أي من المسجد الحرام الى المســـجد الاقصـــى - ومنتهاه الذي تشير إليه سورة النجم.

فالضمير في »إنّه« إما أن يرجع الى الله تعالى، أو الى الرسول الكريم)ص(فـــاذا كـــان راجعاً الى الرسول)ص(، فان قوانين البلاغة ومناسبة سياق الكلام تفيدان: أنّ هذه الســـياحة الجزئية، فيها من السير العمومي والعروج الكلي ما قد سَمِع وشاهَدَ كلَّ ما لاقـــى بَصَـــره وسمعَه من الآيات الربانية، وبدائع الصنعة الإلهية اثناء ارتقائه في المراتب الكلية للاسماء الإلهيـــة الحسنى البالغة الى سدرة المنتهى، حتى كان قاب قوسين أو أدنى. مما يـــدل علـــى أن هـــذه السياحة الجزئية هي في حُكم مفتاحٍ لسياحةٍ كليةٍ جامعة لعجائب الصنعة الإلهية.[141]

---

[141] جاء في تفسير روح المعاني للعلامة الآلوسي (ج 15/ص14) ما يأتي: »واما على تقدير كون الضمير للنبي صلى اللّه عليه وسلم، كما نقله ابو البقاء عن بعضهم وقال: أي السميع لكلامنا البصير لذاتنا، وقال

واذا كان الضمير راجعاً الى الله سبحانه وتعالى، فالمعنى يكون عندئذٍ هكذا:

إنه سبحانه وتعالى دعا عبدَه الى حضوره والمثول بين يديه لينيط به مهمــةً ويكلّفــه بوظيفة؛ فاسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي هو مجمع الانبياء. وبعد اجراء اللقاء معهم واظهاره بأنه الوارث المطلق لأصول أديان جميع الأنبياء، سَيَّره في جولةٍ ضــمن مُلكه وسياحةٍ ضمن ملكوته، حتى أبلغه سدرة المنتهى فكان قاب قوسين أو أدنى.

وهكذا فان تلك السياحة أو السير، وإن كانت معراجاً جزئياً وأن الذي عُرج به عبدٌ، إلاّ ان هذا العبد يحمل امانة عظيمة تتعلق بجميع الكائنات، ومعه نور مبين يــنير الكائنــات ويبدل من ملامحها ويصبغها بصبغته. فضلاً عن أن لديه مفتاحاً يستطيع ان يفتح بــه بــاب السعادة الأبدية والنعيم المقيم.

فلأجل كل هذا يصف الله سبحانه وتعالى نفسَه بــــ (إنه هو السميعُ البصير) كــي يُظهِر ان في تلك الأمانة وفي ذلك النور وفي ذلك المفتاح، من الحِكم السامية ما يشمل عموم الكائنات، ويعم جميع المخلوقات، ويحيط بالكون اجمع.

ومثل آخر:

(الحمد للّه فاطرِ السموات والارض جاعلِ الملئكةِ رسلاً اولي اجنحةٍ مثنى وثلثَ وربٰعَ يزيدُ في الخلقِ ما يشاءُ ان الله على كل شيءٍ قدير) (فاطر:1)

ففي هذه السورة يقول تعالى: »ان فاطر الســموات والارض ذا الجــلال قــد زيّــن السموات والارض وبيّن آثار كماله على ما لا يعد من المشاهدين وجعلهم يرفعون اليه ما لا نهاية له من الحمد والثناء. وانه تعالى زيّن الارض والسماء بما لا يحد من النعم والآلاء فتحمد السموات والارض بلسان نعمها وبلسان المنعمين عليهم جميعاً وتثنى على فاطرها »الرحمن«. وبعد ذلك يقول: ان الله سبحانه الذي منح الانسان والحيوانات والطيور من ســكان الارض

الجلبي: انه لا يبعد، والمعنى عليه: ان عبدي الذي شرفته بهذا التشريف هو المستأهل له فانه السميع لأوامري ونواهي، العامل بهما، البصير الذي ينظر بنظر العبرة في مخلوقاتي فيعتبر، أو البصير بالآيات التي أريناه اياها«. وانظر ايضاً تفسير اسماعيل القنوي على البيضاوي ج224/4.ــــ المترجم.

اجهزة واجنحة يتمكنون بها من الطيران والسياحة بين مدن الارض وممالكها، والذي منح سكان النجوم وقصور السموات - وهم الملائكة - كي تسيح وتطير بين ممالكها العلوية وابراجها السماوية لابد ان يكون قادراً على كل شئ. فالذي اعطى الذبابة الجناح لتطير من ثمرة الى اخرى، والعصفور ليطير من شجرة الى اخرى، هو الذي جعل الملائكة اولي اجنحة لتطير من الزُهَرة الى المشتري ومن المشتري الى زُحَل.

ثم ان عبارة (مثنى وثلث ورباع) تشير الى أن الملائكة ليسوا منحصرين بجزئية ولا يقيدهم مكان معين، كما هو الحال في سكان الارض بل يمكن ان يكونوا في آن واحد في اربع نجوم أو اكثر.

فهذه الحادثة الجزئية، أي تجهيز الملائكة بالاجنحة تشير الى عظمة القدرة الإلهية المطلقة العامة وتؤكدها بخلاصة (ان الله على كل شيء قدير)

u نكتة البلاغة العاشرة:

قد تذكر الآية ما اقترفه الانسان من سيئات، فتزجره زجراً عنيفاً، ثم تختمها ببعض من الاسماء الحسنى التي تشير الى الرحمة الإلهية لئلا يلقيه الزجر العنيف في اليأس والقنوط.

فمثلاً:

(قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً_ سبحانه وتعالى عمّا يقولون علواً كبيراً_ تسبح له السموات السبع والارض ومَن فيهن وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليماً غفوراً) (الاسراء:42 - 44)

تقول هذه الآية: »قل لهم لو كان في ملك الله شريك كما تقولون لامتدّت ايديهم الى عرش ربوبيته ولظهرت علائم المداخلة باختلال النظام، ولكن جميع المخلوقات من السموات السبع الطباق الى الأحياء المجهرية، جزئيها وكليّها، صغيرها وكبيرها، تسبّح بلسان ما يظهر عليها من تجليات الاسماء الحسنى ونقوشها، وتقدس مسمّى تلك الاسماء ذا الجلال والاكرام، وتنزّهه عن الشريك والنظير «.

نعم، ان السماء تقدسه وتشهد على وحدته بكلماتهاالنيرة من شموس، ونجوم، وبحكمتها وانتظامها.. وان جو الهواء يسبّحه ويقدسه ويشهد على وحدانيته بصوت السحاب وكلمات

الرعد والبرق والقطرات.. والارض تسبح خالقها الجليل وتوحدهّ بكلماتها الحية من حيوانات ونباتات وموجودات.. وكذا تسبحه وتشهد على وحدانيته كل شجرة من اشجارها بكلمات اوراقها وازاهيرها وثمراتها.. وكل مخلوق صغير ومصنوع جزئي مع صغره وجزئيته يسبح باشارات ما يحمله من نقوش وكيفيات وما يظهره من أسماء حسنى كثيرة وتقدس مسمى تلك الاسماء ذا الجلال وتشهد على وحدانيته تعالى. وهكذا فالكون برمته معاً وبلسان واحد، يسبح خالقه الجليل متفقاً ويشهد على وحدانيته، مؤدياً بكمال الطاعة ما انيط به من وظائف العبودية. الاّ الانسان الذي هو خلاصة الكون ونتيجته وخليفته المكرم وثمرته اليانعة، يقوم بخلاف جميع ما في الكون وبضده، فيكفر بالله ويشرك به. فكم هو قبيح صنيعه هذا؟ وكم ياترى يستحق عقاباً على ما قدمت يداه؟ ولكن لئلا يقع الانسان في هاوية اليأس والقنوط تبين له الآية حكمةَ عدم هدم القهار الجليل الكونَ على رأسه بما يجترحه من سيئات شنيعة كهذه الجناية العظمى، وتقول (انه كان حليماً غفوراً) مبينة حكمة الامهال وفتح باب الأمل بهذه الخاتمة.

فافهم من هذه الاشارات العشر الاعجازية، ان في الخلاصات والفذلكات التي في ختام الآيات لمعات اعجازية كثيرة فضلاً عما تترشح منها من رشحات الهداية الغزيرة، حتى بلغ بدهاة البلغاء أنهم لم يتمالكوا انفسهم من الحيرة والاعجاب امام هذه الاساليب البديعة فقالوا: ما هذا كلام البشر، وآمنوا بحق اليقين بقوله تعالى:

(ان هو الاّ وحي يوحى).

هذا وان بعض الآيات - الى جانب جميع الاشارات المذكورة - تتضمن مزايا اخرى عديدة لم نتطرق اليها في بحثنا، فيُشاهد من اجماع تلك المزايا نقش اعجازي بديع يراه حتى العميان.

النور الثالث

وهو أن القرآن الكريم لا يمكن ان يقاس بأي كلام آخر، اذ إن منابع علو طبقة الكلام وقوته وحسنه وجماله أربعة:

الأول: المتكلم. الثاني: المخاطب. الثالث: المقصد. الرابع: المقام. وليس المقام وحـــده كما ضل فيه الادباء. فلابد من ان تنظر في الكلام الى: مَن قال؟ ولمن قال؟ ولِمَ قال؟ وفـــيمَ قال؟ فلا تقف عند الكلام وحده وتنظر اليه.

ولما كان الكلام يستمد قوته وجماله من هذه المنابع الاربعة فبانعام النظر في منابع القرآن تُدرك درجة بلاغته وحسنها وسموها وعلوها.

نعم ان الكلام يستمد القوة من المتكلم، فاذا كان الكلام أمراً ونهياً يتضمن ارادة المتكلم وقدرته حسب درجته وعند ذاك يكون الكلام مؤثراً نافذاً يسري سريان الكهرباء مـــن دون اعاقة أو مقاومة. وتتضاعف قوة الكلام وعلوه حسب تلك النسبة.

فمثلاً: (ياارضُ ابلعي ماءكِ وياسماءُ أقلعي) (هود:44) و(فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين). (فصلت:11)

فانظر الى قوة وعلو هذه الاوامر الحقيقية النافذة التي تتضمن القوة والارادة. ثم انظر الى كلام انسان وأمره الجمادات الشبيه بهذيان المحموم: اسكني يا ارض وانشقي ياسماء وقـــومي ايتُها القيامة!

فهل يمكن مقايسة هذا الكلام مع الأمرين النافذين السابقين؟ ثم اين الاوامر الناشئة من فضول الانسان والنابعة من رغباته والمتولدة من أمانيه.. واين الاوامر الصادرة ممن هو متصف بالآمرية الحقة يأمر وهو مهيمن على عمله.

نعم! اين امر أمير عظيم مطاع نافذ الكلام يأمر جنوده بـــ : تقدّم، واين هذا الأمر اذا صدر من جندي بسيط لا يُبالى به؟ فهذان الأمران وان كانا صورة واحدة إلاّ أن بينهما معنىً بوناً شاسعاً،كما بين القائد العام والجندي.

ومثلاً: (انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) (يس:82)و(واذ قلنا للملائكـــة اسجدوا لادم) (البقرة:34) انظر الى قوة وعلو الامرين في هاتين الآيتين. ثم انظر الى كـــلام البشر من قبيل الأمر. ألا تكون النسبة بينهما كضوء اليراع أمام نور الشمس الساطعة؟.

نعم! اين تصوير عامل يمارس عمله، وبيان صانع وهو يصنع، وكـــلام مُحســـن في آن احسانه، كلٌ يصور أفاعيله، ويطابق فعله قوله، أي يقول: انظروا فقد فعلت كذا لكذا، افعل هذا لذاك، وهذا يكون كذا وذاك كذا... وهكذا يبين فعلَه للعين والاذن معاً، فمثلاً :

(أفلم ينظروا الى السماءِ فوقَهم كيف بنيناها وزيّناها ومالَها مـــن فـــروجـ والارضَ مددناها وألقينا فيها رواسيَ وانبتنا فيها من كل زوج بهيجـ تَبصرةً وذكرى لكل عبدٍ منيبـ ونزّلنا من السماء ماءً مباركاً فانبتنا به جناتٍ وحبّ الحصيدـ والنخلَ باسقاتٍ لهـــا طلـــعٌ نـــضيدـ رزقاً للعباد وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلك الخروج) (ق:6ــــ11).

اين هذا التصوير الذي يتلألأ كالنجم في برج هذه السورة في سماء القرآن؛ كأنه ثمـــار الجنة. - وقد ذكر كثيراً من الدلائل ضمن هذه الافعال مع انتظام البلاغة واثبت الحشر الذي هو نتيجتها بتعبير (كذلك الخروج) ليلزم بـــه الـــذين ينكرون الحـــشر فـــي مستـــهل الـــسورة - فـــأيـــن هذا وايـــن كلام النـــاس عـــلى وجـــه الفـــضول عن افعال لا تمسهم إلاّ قليلاً؟ فلا تكون نسبته اليه إلاّ كنسبة صورة الزهرة الى الزهرة الحقيقية التي تنبض بالحياة.

ان بيان معنى هذه الآيات من قوله تعالى (أفلم ينظروا) الى (كذلك الخروج) على وجه أفضل يتطلب منا وقتاً طويلاً فنكتفي بالاشارة اليه ونمضي الى شأننا:

ان القرآن يبسط مقدّمات ليرغم الكفار على قبول الحشر، لإنكارهم اياه في مســـتهل السورة. فيقول: افلا تنظرون الى السماء فوقكم كيف بنيناها، بناءً مهيباً منتظماً.. أوَلا ترون كيف زيّناها بالنجوم وبالشمس والقمر دون نقص او فطور..؟ أوَلا ترون كيـــف بســـطنا الارض وفرشناها لكم بالحكمة، وثبتنا فيها الجبال لتقيها من مّد البحار واستيلائها؟ أوَلا ترون انا خلقنا فيها ازواجاً جميلة متنوعة من كل جنس من الخضراوات والنباتات، وزيّنا بها ارجاء الارض كافة؟ أوَلا ترون كيف ارُسلُ ماءً مباركاً من السماء فأُنبتُ به البســـاتين والـــزرع والثمرات اللذيذة من تمر ونحوه واجعله رزقاً لعبادي؟ أوَلا يرون انني احيـــي الارض الميتـــة، بذلك الماء. وآتي الوفاً من الحشر الدنيوي. فكما أُحرج بقدرتي هذه النباتات من هذه الارض الميتة، كذلك خروجكم يوم الحشر؛ اذ تموت الارض في القيامة وتبعثون انتم أحياء. فأين ما

اظهرته الآية في اثبات الحشر من جزالة البيان ـــ التي ما اشرنا إلا الى واحدة من الألف منها ـــ واين الكلمات التي يسردها الناس لدعوى من الدعاوى؟.

* * *

لقد انتهجنا من اول هذه الرسالة الى هنا نهج المحايد الموضوعي في تحقيق قضية الاعجاز، وقد ابقينا كثيراً من حقوق القرآن مطوية مخفية مستورة، فكنا نعقد موازنة نترل تلك الشمس مترلة الشموع، وذلك كله لكي نُخضع خصماً عاتياً لقبول اعجاز القرآن.

والآن وقد وفّى التحقيق العلمي مهمته، وأُثبت اعجاز القرآن اثباتاً ساطعاً. فنشير ببعض القول باسم الحقيقة لا باسم التحقيق العلمي، الى مقام القرآن، ذلك المقام العظيم الـــذي لا تسعه موازنة ولا ميزان.

نعم! ان نسبة سائر الكلام الى آيات القرآن، كنسبة صور النجوم المتناهية في الصغر التي تتراءى في المرايا، الى النجوم نفسها.

نعم! اين كلمات القرآن التي كل منها تصوّر الحقائق الثابتة وتبينها، واين المعاني الـــتي يرسمها البشر بكلماته على مرايا صغيرة لفكره ومشاعره؟

اين الكلمات الحية حياة الملائكة الاطهار.. كلمات القرآن الذي يفيض بانوار الهدايـــة وهو كلام خالق الشمس والقمر.. واين كلمات البشر اللاذعة الخادعة بـــدقائقها الســـاحرة بنفثاتها التي تثير اهواء النفس.

نعم! كم هي النسبة بين الحشرات السامة والملائكة الاطهار والروحانيين المنوّرين؟ انها هي النسبة نفسها بين كلمات البشر وكلمات القرآن الكريم. وقد اثبتتْ هذه الحقيقـــة مـــع الكلمة الخامسة والعشرين جميع الكلمات الاربع والعشرين السابقة. فدعوانا هذه ليست ادعاء وانما هي نتيجة لبرهان سبقها.

نعم! اين الفاظ القرآن التي كل منها صدف درر الهداية ومنبـــع حقائق الايمان، ومعدن أسس الاسلام، والتي تتترل من عرش الرحمن وتتوجه من فوق الكـــون ومـــن خارجـــه الى الانسان، فاين هذا الخطاب الازلي المتضمن للعلم والقدرة والارادة، من الفاظ الانسان الواهية المليئة بالأهواء؟

نعم! ان القرآن يمثل شجرة طوبى طيبة نشرت اغصانها في جميع ارجاء العالم الاسلامي، فاورقت جميع معنوياته وشعائره وكمالاته ودساتيره واحكامه، وابرزت اوليـــاءه واصـــفياءه كزهور نضرة جميلة تستمد حسنها ونداوتها من ماء حياة تلك الشـــجرة، واثمـــرت جميـــعَ الكمالات والحقائق الكونية والإلهية حتى غدت كل نواة من نوى ثمارها دستور عمل ومنهج حياة.. نعم اين هذه الحقائق المتسلسلة التي يطالعنا بها القرآن بمثابة شجرة مثمرة وارفة الظلال واين منها كلام البشر المعهود. اين الثرى من الثريا؟

ان القرآن الحكيم ينشر جميع حقائقه في سوق الكون ويعرضها على الملأ اجمعين منـــذ اكثر من الف وثلاث مائة سنة وان كل فرد وكل امة وكل بلد قد اخذ من جواهره ومـــن حقائقه، وما زال يأخذ.. على الرغم من هذا فلم تخل تلك الألفة، ولا تلك الوفرة، ولا مرور الزمان، ولا التحولات الهائلة، بحقائقه القيمة ولا باسلوبه الجميل، ولم تشيّبه ولم تتمكن مـــن ان تفقِدهُ طراوته أو تسقط من قيمته أو تطفئ سنا جماله وحسنه.

ان هذه الحالة وحدها اعجاز أي اعجاز.

والآن اذا ما قام أحدٌ ونظم قسماً من الحقائق التي اتى بها القـــرآن حســـب اهوائـــه وتصرفاته الصبيانية، ثم اراد أن يوازن بين كلامه وكلام القرآن بغية الاعتراض على بعض آياته وقال: لقد قلت كلاماً شبيهاً بالقرآن. فلا شك ان كلامه هذا يحمل من السخف والحماقة ما يشبه هذا المثال:

ان بنّاءً شيد قصراً فخماً، احجاره من جواهر مختلفة، ووضع تلك الاحجار في اوضاع وزينها بزينة ونقوش موزونة تتعلق بجميع نقوش القصر الرفيعة، ثم دخل ذلك القصر من يقصر فهمه عن تلك النقوش البديعة، ويجهل قيمة جواهره وزينته. وبدأ يبدّل نقـــوش الاحجـــار واوضاعها، ويجعلها في نظام حسب اهوائه حتى غدا بيتاً اعتيادياً.ثم جمّله بما يعجب الصـــبيان من خرز تافه، ثم بدأ يقول: انظروا ان لي من المهارة في فن البناء ما يفوق مهارة باني ذلـــك القصر الفخم، ولي ثروة اكثر من بنّاء القصر! فانظروا الى جواهري الثمينة! لا شك ان كلامه هذا هذيان بل هذيان مجنون ليس إلا.

الشعلة الثالثة

هذه الشعلة لها ثلاثة اضواء

الضياء الاول

لقد وضّح في »الكلمة الثالثة عشرة« وجهٌ عظيم من وجوه اعجاز القرآن المعجز البيان، فأُخذ هنا وادرج مع سائر اخوته من وجوه الاعجاز.

اذا شئت ان تشاهد وتتذوق كيف تنشر كلُ آية من القرآن الكـــريم نـــورَ اعجازهـــا وهدايتها وتبدّد ظلمات الكفر كالنجم الثاقب؛ تصوَّر نفسَك في ذلك العصر الجـــاهلي وفي صحراء تلك البداوة والجهل. فبينا تجد كل شئ قد اسدل عليه ستار الغفلة وغشـــيه ظـــلام الجهل ولفّ بغلاف الجمود والطبيعة، اذا بك تشاهد وقد دّبت الحياة في تلـــك الموجـــودات الهامدة أو الميتة في اذهان السامعين فتنهض مسبّحةً ذاكرةً الله بصدى قوله تعالى (يسبّح لله ما في السموات وما في الارض الملك القدوس العزيز الحكيم) (الجمعة:1) وما شابهها من الآيات الجليلة.

ثم ان وجه السماء المظلمة التي تستعر فيها نجومٌ جامدة، تتحول في نظـر السـامعين، بصدى قوله تعالى (تسبّح له السمواتُ السبعُ والارضُ) الى فمٍ ذاكرٍ للّه، كل نجـم يرسـل شعاع الحقيقة ويبث حكمة حكيمة بليغة.

وكذا وجه الارض التي تضم المخلوقات الضعيفة العاجزة تتحـول بـذلك الصـدى السـماوي الى رأس عظـيم، والـبر والبحـر لسـانين يلـهجان بالتسـبـيـح والتـقديـس وجميع النباتات والحيوانات كلمات ذاكرة مسبّحـة؛ حـتى لكـأن الأرض كلها تنبض بالحياة.

وهكذا بانتقالك الشعوري الى ذلك العصر تتذوق دقائق الاعجاز في تلك الآية الكريمة. وبخلاف ذلك تُحرَم من تذوق تلك الدقائق اللطيفة في الآية الكريمة.

نعم! انك اذا نظرت الى الآيات الكريمة من خلال وضعك الحاضر الذي استنار بنـور القرآن منذ ذلك العصر حتى غدا متعارفاً، واضاءته سائر العلوم الاسلامية، حـتى وضـحت بشـمـس الـقـرآن. أي اذا نـظـرت الى الآيـات مـن خـلال سـتـار الأُلفة، فانك بلا شك لا ترى رؤية حقيقية مدى الجمال المعجز في كل آيـة، وكيف انها تبدد الظلمات الدامسة بنورها الوهاج. ومن بعد ذلك لا تتذوق وجـه اعجـاز القرآن من بين وجوهه الكثيرة.

واذا اردت مشاهدة اعظم درجة لأعجاز القرآن الكثيرة، فاستمع الى هذا المثال وتأمل فيه:

لنفرض شجرة عجيبة في منتهى العلو والغرابة وفي غاية الانتشار والسعة؛ قـد اُسـدل عليها غطاء الغيب، فاستترت طي طبقات الغيب.

فمن المعلوم أن هناك توازناً وتناسباً وعلاقاتِ ارتباط بين اغصان الشـجرة وثمراتهـا واوراقها وازاهيرها - كما هو موجود بين اعضاء جسم الانسان - فكل جزء من اجزائهـا يأخذ شكلاً معيناً وصورة معينة حسب ماهية تلك الشجرة.

فاذا قام احدٌ - من قبل تلك الشجرة التي لم تُشاهَد قط ولا تُشاهد - ورسـم علـى شاشةٍ صورة لكل عضو من اعضاء تلك الشجرة، وحدّ له، بأن وضع خطوطاً تمثل العلاقات

بين اغصانها وثمراتها واوراقها، وملأ ما بين مبدئها ومنتهاها - البعيدين عن بعضهما بما لايحد -بصورٍ وخطوط تمثل اشكال اعضائها تماماً وتبرز صورها كاملة.. فلا يبقى ادنى شك في أن ذلك الرسام يشاهد تلك الشجرة الغيبية بنظره المطلع على الغيب ويحيط به علماً، ومن بعد ذلك يصوّرها.

فالقرآن المبين - كهذا المثال - ايضاً، فان بياناته المعجزة التي تخص حقيقة الموجودات (تلك الحقيقة التي تعود الى شجرة الخلق الممتدة من بدء الدنيا الى نهاية الآخرة والمنتشرة من الفرش الى العرش ومن الذرات الى الشموس) قد حافظت - تلك البيانات الفرقانية - على الموازنة والتناسب واعطت لكل عضو من الاعضاء ولكل ثمرة من الثمرات صورة تليق بها بحيث خَلُص العلماء المحققون - لدى اجراء تحقيقاتهم وابحاثهم - الى الانبهار والإنشداه قائلين: ما شاء اللّه.. بارك اللّه. ان الذي يحل طلسم الكون ويكشف معمّى الخلق انما هو أنت وحدك ايها القرآن الحكيم!

فلنمثل - ولله المثل الاعلى - الاسماء الإلهية وصفاتها الجليلة والشؤون الربانية وافعالها الحكيمة كأنها شجرة طوبى من نور تمتد دائرة عظمتها من الازل الى الابد، وتسع حدود كبريائها الفضاء المطلق غير المحدود وتحيط به. ويمتد مدى اجراءاتها من حدود (فالق الحب والنوى) (الانعام:95) (ويحوُل بين المرء وقلبه) (الانفال:24) (وهو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء) (آل عمران:6) الى (خلق السموات والارض في ستة أيام) (هود:7) والى (والسموات مطويات بيمينه) (الزمر:67) والى (وسخّر الشمس والقمر) (الزمر:5)

فنرى ان القرآن الكريم يبين تلك الحقيقة النورانية بجميع فروعها واغصانها وبجميع غاياتها وثمراتها بياناً في منتهى التوافق والانسجام بحيث لا تعيق حقيقةٌ حقيقةً اخرى ولا يفسد حكمُ حقيقةٍ حُكْماً لأُخرى، ولا تستوحش حقيقة من غيرها. وعلى هذه الصورة المتجانسة المتناسقة بيّنَ القرآن الكريم حقائق الاسماء الإلهية والصفات الجليلة والشؤون الربانية والافعال الحكيمة بياناً معجزاً بحيث جعل جميع أهل الكشف والحقيقة وجميع اولي المعرفة والحكمة الذين يجولون في عالم الملكوت، يصّدقونه قائلين امام جمال بيانه المعجز والاعجابُ يغمرهم:

»سبحان الله! ما اصوبَ هذا! وما اكثر انسجامه وتوافقه وتطابقه مع الحقيقة ومـــا اجملـــه وأليقه«.

فلو اخذنا مثلاً اركانَ الايمان الستة التي تتوجه الى جميع دائرة الموجـــودات المختلفـــة ودائرة الوجوب الالهي والتي تعد غصناً من تلكما الشجرتين العظميين، يصورها القرآن الكريم بجميع فروعها واغصانها وثمراتها وازاهيرها مراعياً في تصويره انسجاماً بـــديعاً بـــين ثمراتهـــا وازاهيرها معّرفاً طرز التناسب في منتهى التوازن والاتساق بحيث يجعل عقل الانسان عـــاجزاً عن ادراك ابعاده ومبهوتاً أمام حسن جماله.

ثم ان الاسلام الذي هو فرع من غصن الايمان، أبدع القرآن الكريم واتى بالرائع المعجب في تصوير ادق فروع اركانه الخمسة وحافظ على جمال التناسب وكمال التوازن فيما بينها، بل حافظ على ابسط ادابها ومنتهى غاياتها واعمق حِكَمها واصغر فوائدها وثمراتها. واهر دليل على ذلك هو:

كمال انتظام الشريعة العظمى النابعة من نصوص ذلك القرآن الجامع ومـــن اشـــاراته ورموزه.. فكمال انتظام هذه الشريعة الـــغـــــــراء وجمـــــــال توازنهـــا الدقيـــــــق وحــــــسن تناسب احكامها ورصانتها، كل منها شاهِدُ عدلٍ لا يجرح وبرهان قاطع باهر لا يدنو منه الريب ابداً على أحقية القرآن الكريم؛ بمعنى:

ان البيانات القرآنية لا يمكن ان تستند الى علم جزئي لبشر، ولا سيما إنسان اميّ، بل لابد ان تستند الى علم واسع محيط بكل شئ والبصير بجميع الاشياء معاً..

فهو كلام ذات الله الجليل البصير بالازل والابد معاً والشاهد على جميع الحقائق في آن واحد.. آمنا.

الضياء الثاني

ان فلسفة البشر التي تحاول ان تتصدى لحكمة القرآن الكريم وتسعى لمعارضـــتها، قـــد سقطت وهوت امام حكمة القرآن السامية.. كما اوضحنا ذلك في »الكلمة الثانية عشرة« في اسلوب حكاية تمثيلية، واثبتناه اثباتاً قاطعاً في كلمات اخرى.

لذا نحيل الى تلك الرسائل، إلاّ اننا سنعقد هنا موازنة جزئية بسيطة بينهما من جانب آخر وهو جانب نظرتهما الى الدنيا؛ كالآتي:

ان فلسفة البشر وحكمته تنظر الى الدنيا على انها: ثابتة دائمة، فتذكر ماهية الموجودات وخواصها ذكراً مفصلاً مسهباً، بينما لو ذكرتْ وظائف تلك الموجودات الدالة على صانعها فانها تذكرها ذكراً مجملاً مقتضباً. أي انها تفصّل في ذكر نقوش كتاب الكون وحروفه، في حين لا تعير معناه ومغزاه اهتماماً كبيراً.

أما القرآن الكريم فانه ينظر الى الدنيا، على أنها: عابرة سيّالة، خدّاعة سيّارة، متقلبة لا قرار لها ولا ثبات، لذا يذكر خواص الموجودات وماهياتها المادية الظاهرة ذكراً مجملاً مقتضباً، بينما يفصل تفصيلاً كاملاً لدى بيانه وظائفها التي تنمّ عن عبوديتها التي اناطها بها الصانع الجليل، ولدى بيانه مدى انقياد الموجودات للاوامر التكوينية الإلهية، وكيف وبأي وجه من وجوهها تدل على أسماء صانعها الحسنى.

ففي بحثنا هذا، سنلقي نظرة عجلى على الفرق بين نظرة الفلسفة ونظرة القرآن (الى الدنيا والموجودات) من حيث هذا الاجمال والتفصيل؛ لنرى اين يقف الحق الابلج والحقيقة الساطعة.

ان ساعتنا اليدوية التي يبدو عليها الاستقرار والثبات تنطوي على تغيرات وتبدلات واهتزازات عديدة، سواءً في حركات التروس الدائمة أو في اهتزازات الدواليب والآلات الدقيقة. فكما ان الساعة هكذا، فالدنيا كذلك، كأنها ساعة عظيمة أبدعتها القدرة الإلهية، فعلى الرغم من انها تبدو ثابتة مستقرة، فهي تتقلب وتتدحرج في تغيّر واضطراب دائمين، ضمن تيار الزوال والفناء؛ اذ لما حل »الزمان« في الدنيا، اصبح »الليل والنهار« كعقرب الثواني ذي الرأس المزدوج لتلك الساعة العظمى، تتبدل بسرعة.. وصارت »السنة« كأنها عقرب الدقائق لتلك الساعة.. وغدا »العصر« كأنه عقرب الساعات لها.. وهكذا ألقى »الزمانُ« الدنيا على ظهر امواج الزوال والفناء، مستبقياً الحاضر وحده للوجود مسلّماً الماضي والمستقبل الى العدم.

فالدنيا – علاوة على هذه الصورة التي يمنحها الزمان – فهي كالساعة ايضاً متغيرة وغير ثابتة، من حيث »المكان«؛ اذ إن »الجو – «كمكان – في تبدل سريع وفي تغيّر دائـــم، وفي تحول مستمر، حتى انه قد يحدث في اليوم الواحد مراتٍ عدة امـــتلاء الغيـــوم بالامطـــار ثم انقشاعها عن صحو باسم. أي كأن الجو بسرعة تغيّره وتحوله يمثل عقرب الثواني لتلك الساعة العظمى.

و»الارض« التي هي ركيزة دار الدنيا، فان »وجهها« كمكان في تبدل مستمر، مـــن حيث الموت والحياة، ومن حيث ما عليه من نبات وحيوان، لذا فهو كعقرب الدقائق تبين لنا: ان هذه الجهة من الدنيا عابرة سائرة زائلة.

وكما ان الارض من حيث وجهها في تبدل وتغير، فان ما في »باطنها« مـــن تغـــيرات وزلازل وانقلابات تنتهي الى بروز الجبال وخسف الارض، جعلها كعقرب الساعات الـــتي تسير ببطء نوعاً ما إلاّ أنها تبين لنا: ان هذه الجهة من الدنيا ايضاً تمضي الى زوال.

أما »السماء« التي هي سقف دار الدنيا، فان التغيرات الحاصلة فيها – كمكان – سواءً بحركات الاجرام السماوية، أو بظهور المذنبات وحدوث الكسوف والخســـوف، وســـقوط النجوم والشهب وامثالها من التغيرات تبين: ان السماء ليست ثابتة ولا مستقرة، بل تسير نحو الهرم والدمار. فتغيراتها كعقرب الساعة العادَّة للاسابيع، الدالة على مضـــيها نحـــو الخـــراب والزوال رغم سيرها البطئ.

وهكذا، فالدنيا – من حيث انها دنيا (أي باعتبار نفسها) – قد شُيّدت علـــى هـــذه الاركان السبعة، هذه الاركان تهدّها في كل وقت وتزلزلها كل حين، إلاّ ان هـــذه الـــدنيا المتزلزلة المتغيرة المتبدلة باستمرار عندما تتوجه الى صانعها الجليـــل، فـــان تلـــك الـــتغيرات والحركات تغدو حركات قلم القدرة الإلهية لدى كتابتها رسائل صـــمدانية علـــى صـــفحة الوجود وتصبح تبدلات الاحوال مرايا متجددة تعكس انوار تجليات الاسماء الإلهية الحســـنى، وتبين شؤونها الحكيمة وتصفها بأوصاف متنوعة مختلفة لائقة بها.

وهكذا فالدنيا من حيث انها دنيا، متوجهة نحو الفناء والزوال، وساعية سعياً حثيثاً نحو الموت والخراب، ومتزلزلة متبدلة باستمرار. فهي عابرة راحلة كالماء الجاري في حقيقة امرها.

إلاّ أن الغفلة عن الله اظهرت ذلك الماء جامداً ثابتاً، وبمفهوم »الطبيعة« الماديّ تعكّر صــــفوه وتلوث نقاؤه، حتى غدت الدنيا ستاراً كثيفاً يحجُب الآخرة.

فالفلسفة السقيمة؛ بتدقيقاتها الفلسفية وتحرياتها، وبمفهوم الطبيعة المـــادي، وبمغريـــات المدنية السفيهة الفاتنة، وهوساتها وعربدتها.. كثّفت تلك الدنيا وزادتهـــا صـــلابة وتجمـــداً، وعمّقت الغفلة في الانسان، وضاعفت من لوثاتها وشوائبها حتى أنستْه الصانع الجليل والآخرة البهيجة.

أما القرآن الكريم، فانه يهزّ هذه الدنيا – وتلك حقيقتهـــــ هزاً عنفياً – من حيث انها دنيا – حتى يجعلها كالعهن المنفوش، وذلك في قوله تعالى: (القارعة مـــا القارعـــة..) و (اذا وقعت الواقعة..) و(والطور_ وكتاب مسطور..) وامثالها من الآيات الجليلة.

ثم انه يمنح الدنيا شفافية وصفاءً رائقاً مزيلاً عنها الشوائب والاكدار، وذلك ببياناتهـــا الرائعة في قوله تعالى: (أوَ لم ينظروا في ملكوت الســــموات والارض..) (الاعـــراف:185) (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها..) (ق:6) (أوَلم ير الذين كفروا ان الســــموات والارض كانتا رتقاً...) (الانبياء:30) وامثالها من الآيات الحكيمة.

ثم انه يذيب تلك الدنيا الجامدة بنظر الغفلة عن الله بعباراته النورانية اللامعة في قولـــه تعالى: (اللهُ نورُ السموات والارض...) وما الحياة الدنيا إلاّ لعبٌ ولهو... وامثالها من الآيات العظيمة.

ثم انه يزيل توهم الابدية والخلود في الدنيا بعباراته التي تنم عن زوال الدنيا وموتهـــا في قوله تعالى: (اذا السماء انفطرت...) (اذا الشمس كوّرت..) (اذا السماء انشقت...) (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض إلاّ مَن شاء الله..) (الزمر:68) وأمثالها من الآيات الكريمة.

ثم انه يبدد الغفلة المولّدة لمفهوم »الطبيعة« المادي، ويشتتها بنداءاته المدوية كالصاعقة في قوله تعالى: (يعلم ما يَلجُ في الارض وما يخرجُ منها وما ينزل من السماء وما يعرُج فيها وهو معكم اينما كنتم والله بما تعملون بصير) (الحديد:4)، (وقل الحمد للّه سيريكم آياته فتعرفونها وما ربّك بِغافل عمّا تعملون) (النمل:93).. وامثالها من الآيات النيرة.

وهكذا فان القرآن الكريم بجميع آياته المتوجهة للكون (اي الآيات الكونية)يمضي على هذا الاساس، فيكشف عن حقيقة الدنيا كما هي، ويبيّنها للانظار. ويصرف نظر الانسان ببيانه إلى مدى دمامة وجه الدنيا القبيح – بتلك الآيات – ليتوجه الى الوجه الصبوح الجميل للدنيا الجميلة، ذلك الوجه المتوجه الى الصانع الجليل. فيوجّه نظر الانسان الى هذا الوجه، ملقناً اياه الحكمة الصائبة والفلسفة الحقّة بما يعلّمه من معاني كتاب الكون الكبير مع التفاته الى حروفه ونقوشه، من دون ان يبدد جهوده فيما لا يعنيه من امور نقوش الحروف الزائلة كما تفعله الفلسفة الثملة العاشقة للقبح، حيث أنستْه النظر الى المعنى والمغزى.

الضياء الثالث

لقد اشرنا في الضياء الثاني الى انهزام حكمة البشر وسقوطها امام حكمة القرآن، كما اشرنا فيه الى اعجاز حكمة القرآن. وفي هذا الضياء سنبين درجة حكمة تلاميذ القرآن، وهم العلماء الاصفياء والاولياء الصالحون والمنوّرون من حكماء الاشراقيين[142] امام حكمة القرآن مشيرين من هذا الجانب الى اعجاز القرآن اشارة مختصرة.

ان اصدق دليل على سمو القرآن الحكيم وعلوه، واوضح برهان على كونه صدقاً وعدلاً واقوى علامة وحجة على اعجازه هو:

ان القرآن الكريم قد حافظ على التوازن في بيانه التوحيد بجميع اقسامه مع جميع مراتب تلك الاقسام وجميع لوزامه، ولم يخل باتزان أيٍ كان منها.. ثم انه قد حافظ على الموازنة الموجودة بين الحقائق الإلهية السامية كلها.. وجمع الاحكام التي تقتضيها الاسماء الإلهية الحسنى جميعها مع الحفاظ على التناسب والتناسق بين تلك الاحكام.. ثم انه قد جمع بموازنة كاملة شؤون الربوبية والالوهية.

فهذه »المحافظة والموازنة والجمع« خاصيةٌ لا توجد قطعاً في أي أثر كان من آثار البشر، ولا في نتاج افكار اعاظم المفكرين كافة، ولا توجد قط في آثار الاولياء الصالحين النافذين الى

---

[142] الاشراقيون: فلاسفة صوفيون إلاّ أن من ارائهم ما لا يتفق مع الاسلام، مذهبهم مزيج من الفلسفة الافلاطونية الجديدة والاسلام. ـ المترجم.

عالم الملكوت، ولا في كتب الاشراقيين الموغلين في بواطن الامور، ولا في معارف الروحانيين الماضين الى عالم الغيب؛ بل كل قسم من اولئك قد تشبث بغصن أو غصنين فحسب من اغصان الشجرة العظمى للحقيقة، فانشغل كلياً مع ثمرة ذلك الغصن وورقه، دون أن يلتفت الى غيره من الاغصان؛ إما لجهله به أو لعدم التفاته اليه. وكأن هناك نوعاً من تقسيم الاعمال فيما بينهم.

نعم! ان الحقيقة المطلقة لا تحيط بها أنظار محدودة مقيدة. اذ تلزم نظراً كلياً كنظر القرآن الكريم ليحيط بها. فكل ما سوى القرآن الكريم - ولو يتلقى الدرس منه - لا يرى تماماً بعقله الجزئي المحدود إلاّ طرفاً أو طرفين من الحقيقة الكاملة فينهمك بذلك الجانب ويعكف عليه، وينحصر فيه، فيخلّ بالموازنة التي بين الحقائق ويزيل تناسقها إما بالافراط أو بالتفريط. ولقد بينا هذه الحقيقة بتمثيل عجيب في الغصن الثاني من الكلمة الرابعة والعشرين. أما هنا فسنورد مثالاً آخر يشير الى المسألة نفسها، هو:

لنفرض ان كنزاً عظيماً يضم ما لا يحد من الجواهر الثمينة في قعر بحر واسع. وقد غاص غواصون مهرة في اعماق ذلك البحر بحثاً عن جواهر ذلك الكنز الثمين. ولكن لأن عيونهم معصوبة فلا يتمكنون من معرفة انواع تلك الجواهر الثمينة إلاّ بايديهم.. ولقد لقيت يدُ بعضهم ألماساً طويلاً نسبياً، فيقضي ذلك الغواص ويحكم: ان الكنز عبارة عن قضبان من الماس. وعندما يسمع من اصدقائه اوصافاً لجواهر غيرها يحسب أن تلك الجواهر التي يذكرونها ما هي إلاّ توابع ما وجده من قضبان الالماس وما هي إلاّ فصوصه ونقوشه. ولنفرض أن آخرين لقوا شيئاً كروياً من الياقوت، واخرين وجدوا كهرباً مربعاً.. وهكذا..فكل واحد من هؤلاء الذين رأوا تلك الجواهر والاحجار الكريمة بايديهم - دون عيونهم - يعتقد أن ما وجده من جوهر نفيس هو الأصل في ذلك الكنز ومعظمه. ويزعم ان ما يسمعه من اصدقائه زوائدُه وتفرعاتُه، وليس اصلاً للكنز.

وهكذا تختل موازنة الحقائق، ويضمحل التناسق ايضاً، ويتبدل لون كثير من الحقائق اذ يضطر مَن يريد أن يرى اللون الحقيقي للحقيقة الى تأويلات وتكلفات. حتى قد ينجر بعضهم الى الانكار والتعطيل. فمن يتأمل في كتب حكماء الاشراقيين، وكتب المتصوفة الذين اعتمدوا

على مشهوداتهم وكشفياتهم دون ان يزنوها بموازين السنة المطهرة يصدّق حكمنا هــذا دون تردد.

اذاً فعلى الرغم من أنهم يسترشدون بالقرآن، ويؤلفون في جنس حقائق القــرآن إلاّ أن النقص يلازم آثارهم، لأنها ليست قرآناً.

فالقرآن الكريم الذي هو بحر الحقائق، آياته الجليلة غوّاصة كذلك في البحر تكشف عن الكنز، إلاّ أن عيونها مفتحة بصيرة تحيط بالكنز كله، وتبصر كل ما فيه، لذا يصف القــرآن الكريم باياته الجليلة ذلك الكنز العظيم وصفاً متوازناً يلائمه وينسجم معــه فيظهــر حُســنه الحقيقي وجماله الاخاذ. فمثلاً:

ان القرآن الكريم يرى عظمة الربوبية الجليلة ويصفها بما تفيده الآيات الكريمة (والارض جميعاً قبــضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) (الزمر:67) (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب) (الانبياء:104) وفي الوقت نفسه يرى شمول رحمته تعالى ويدل عليهــا بمــا تفصح عنه الآيات الكريمة (ان الله لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء_ هو الــذي يصوركم في الارحام كيف يشاء) (ال عمران: 5ــــ6)(ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصــيتها (هود:56) (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم) (العنكبوت: 60).

ثم انه مثلما يرى سعة الخلاقية الإلهية ويدل عليها بما تعبّر عنها الآية الكريمــة (خلــق السموات والارض وجعل الظلمات والنور) (الانعام: 1) فانه يرى شمول تصــرفه تعــالى في الكون واحاطة ربوبيته بكل شئ وتدل عليها بما تبينه الآية الكريمة (خلقكم ومــا تعملــون) (الصافات: 96)

ثم انه مثلما يرى الحقيقة العظمى التي تدل عليها الآية الكريمة (يحيى الارض بعد موتها) (الروم: 50) فانه يرى حقيقة الكرم الواسع التي تعبر عنها الآية الكريمة (واوحى ربــك الى النحل..) (النحل:68) ويدل عليها، ويرى في الوقت نفسه حقيقة الحاكمية المهيمنة ويــدل عليها بــــ(والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) (الاعراف: 54) ومثلما يرى الحقيقة الرحيمة المدبرة التي تفيدها الآية الكريمة (أوَلم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقــبــضن ما يمسكهن إلاّ الرحمن انه بكل شيء بصير) (الملك:19) يرى الحقيقة العظمى التي تفيدها الآية

الكريمة (وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما..) (البقــرة:255) في الوقــت الذي يرى حقيقة الرقابة الإلهية في تعبير الآية (وهو معكم اين ما كنتم) (الحديد:4) كالحقيقة المحيطة التي تفصح عنها الآية (هو الاول والاخر والظاهر والباطن وهو بكل شــيء علــيم) (الحديد:3) ويرى أقربيته سبحانه التي يعبر عنها قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان ونعلم مــا توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد) (ق: 16) مع ما تشير اليه مــن حقيقــة سامية الآية الكريمة (تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمســين الــف ســنة) (المعارج:4) كالحقيقة الجامعة التي تدل عليها وتفيدها الآية الكريمة (ان الله يــأمر بالعــدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) (النحل: 90) وامثالها من الآيات الكريمة التي تضم الدساتير الدنيوية والاخروية والعلمية والعملية.

فالقرآن يرى جميع الدساتير التي تحقق سعادة الدارين ويبيّنها مع بيانه كل ركن مــن اركان الايمان الستة بالتفصيل، وكل ركن من اركان الاسلام الخمسة بقصدٍ وجدّ محافظاً على الموازنة فيما بينها جميعاً مديماً تناسبها، فينشأ من منبع الجمال والحسن البديعِ الحاصــل مــن تناسب مجموع تلك الحقائق وتوازنها اعجازٌ معنوي رائع للقرآن.

فمن هذا السر يتبين: أن علماء الكلام، وإن تتلمذوا على القرآن الكريم وألّفوا الــوف الكتب - بعضها عشرات المجلدات - إلاّ انهم لترجيحهم العقل على النقل كالمعتزلة، عجزوا عن ان يوضحوا ما تفيده عشرُ آيات من القرآن الكريم وتثبته اثباتاً قاطعاً بما يورث القناعــة والاطمئنان، ذلك لأنهم يحفرون عيوناً في سفوح جبال بعيدة ليأتوا منها بالماء الى اقصى العالم بوساطة انابيب، أي بسلسلة الاسباب، ثم يقطعون تلك السلسلة هناك، فيثبتون وجود واجب الوجود والمعرفة الإلهية التي هي كالماء الباعث على الحياة!! أما الآيات الكريمة فكل واحــدة منها كــعصا موســى تستــطيع ان تــفــجّر المــاء ايــنما ضــربت، وتــفــتــح من كل شــئ نافذةً تــدل على الصانع الجليــل وتعرّفه. وقد أثبتت هذه الحقيقة بوضوح في سائر الكلمات وفي الرسالة العربيــة »قطــرة« المترشحة من بحر القرآن.

ومن هذا السر ايضاً نجد ان جميع ائمة الفرق الضالة الذين توغلوا في بـــواطن الامـــور واعتمدوا على مشهوداتهم من دون اتباع السنة النبوية، فرجعوا من اثناء الطريق، وترأســـوا جماعة وشكلوا لهم فرقةً ضالة.. هؤلاء قد زلّوا الى مثل هذه البدع والضلالة وساقوا البشـــرية الى مثل هذه السبل الضالة لانهم لم يستطيعوا ان يحافظوا على تناسق الحقائق وموازنتها.

إن عجز جميع هؤلاء يبين اعجازاً للآيات القرآنية.

الخاتمة

لقد مضت لمعتان اعجازيتان من لمعات اعجاز القرآن، في الرشحة الرابعة عشرة مـــن الكلمة التاسعة عشرة وهما حكمة التكرار في القرآن، وحكمة اجمالـــه في مضـــمار العلـــوم الكونية، وتبين بوضوح هناك ان كلاً منهما منبع من منابع الاعجاز بخلاف ما يظن بعـــض الناس انهما سبب نقص وقصور كما قد وضحت بجلاء لمعةٌ من اعجاز القرآن التي تتلألأ على وجه معجزات الانبياء عليهم السلام، وذلك في المقام الثاني من الكلمة العشرين، وذكـــرت كذلك امثال هذه اللمعات في سائر »الكلمات« وفي رسائلي العربية. فنكتفي بهـــا، ولكـــن نقول: ان معجزة قرآنية اخرى هي:

كما ان معجزات الانبياء بمجموعها أظهرت نقشاً من نقوش اعجاز القرآن، فان القرآن كذلك بجميع معجزاته معجزة للرسول عليه الصلاة والسلام، وان معجزاته)ص(جميعها ايضاً هي معجزة قرآنية. اذ انها تشير الى نسبة القرآن الى الله سبحانه وتعالى، أي أنه كلام اللّـــه. وبظهور هذه النسبة تكون كل كلمة من كلمات القرآن معجزة، لأن الكلمة الواحدة آنذاك يمكن أن تتضمن بمعناها شجرة من الحقائق فهي بمثابة النواة.. ويمكن ان تكون ذات علاقة مع جميع اعضاء الحقيقة العظمى، بمثابة مركز القلب.. ويمكن أن تنظر وتتوجه بحروفها وهيئتـــها وكيفيتها وموقعها الى مالا يحد من الامور وذلك لاستنادها الى علم محيط وارادة غير متناهية.

ومن هنا يدّعى علماء علم الحروف: انهم استخرجوا من حرف من القرآن اسراراً كثيرة تسع صفحة كاملة، ويثبتون دعواهم لأهل ذلك الفن.

والآن تذكّر ما مضى في هذه الرسالة من أولها الى هنا وانظر بمنظار مجموع ما فيها من الشُعَل والاشعة واللمعات والانوار والاضواء الى نتيجة الدعوى المذكورة في اول الرسـالة، تجدها تعلنها اعلاناً باعلى صوتها وتقرأها، تلك هي:

(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعـضهم لبعضٍ ظهيـراً).

(سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا انك انت العليم الحكيم)

(ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا)

(رب اشرح لي صدري_ ويسر لي امرى_ واحلل عقدة من لساني_ يفقهوا قولي)

اللّهم صلّ وسلّم أفـضل واجمل وانبل، واظهر وأطهر، وأحسن وأبرّ، واكرم واعـزّ، واعظم واشرف، واعلى وأزكى، وابرك وألطف صلواتك، وأوفى واكثر وأزيد، وأرقى وارفع وأدوم سلامك، صلاةً وسلاماً، ورحمةً ورضواناً، وعفواً وغفراناً تمتد وتزيد بوابل سـحائب مواهب جودك وكرمك، وتنمو وتزكو بنفائس شرائفِ لطائف جودك ومننك، أزلية بأزليتك لا تزول، ابدية بابديتك لا تحول، على عبدك وحبيبك ورسولك محمد خير خلقك، النـور الباهر اللامع، والبرهان الظاهر القاطع، والبحر الزاخر، والنور الغـامر، والجمـال الزاهـر، والجلال القاهر، والكمال الفاخر، صلاتك التي صلّيت بعظمة ذاتك عليه وعلى آله واصحابه كذلك، صلاةً تغفر بها ذنوبنا، وتشرح بهاصدورنا، وتطهّر بها قلوبنا وتروّح بهـا ارواحنـا وتقدس بها اسرارنا، وتنزّه بها خواطرنا وافكارنا، وتصفّي بها كدورات ما في اسرارنا وتشفي بها امراضنا، وتفتح بها اقفال قلوبنا.

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب)

(وآخر دعويهم أن الحمد للّه رب العالمين)

آمين .. آمين ... آمين

الذيل الاول

المرتبة السابعة عشرة من الشعاع السابع »رسالة الآية الكبرى« اُلحقت ذيلاً بالكلمة الخامسة والعشرين »المعجزات القرآنية«

ان السائح الذي لا يناله تعب ولا شبع والذي علم ان غاية الحياة في هذه الدنيا، بل حياة الحياة انما هو الايمان، حاور هذا السائح قلبه قائلاً:

ان الكلام الذي نبحث فيه هو أشهر كلام في هذا الوجود واصدقه وأحكمه، وقد تحدى في كل عصر مَن لا ينقاد اليه، ذلك القرآن الكريم ذو البيان المعجز.. فلنراجع اذاً هذا الكتاب الكريم، ولنفهم ماذا يقول... ولكن لنقف لحظة قبل دخولنا هذا العالم الجميل لنبحث فيما يجعلنا نستيقن أنه كتاب خالقنا نحن.. وهكذا باشر بالتدقيق والبحث.

وحيث ان هذا السائح من المعاصرين فقد نظر أولاً الى »رسائل النور« التي هي لمعات الاعجاز المعنوي للقرآن الكريم، فرأى:

ان هذه الرسائل البالغة مائة وثلاثين رسالة هي بذاتها تفسير قيّم للآيات الفرقانية، اذ إنها تكشف عن نكاتها الدقيقة وأنوارها الزاهية.

ورغم ان رسائل النور نشرت الحقائق القرآنية بجهاد متواصل الى الآفاق كافة، في هذا العصر العنيد الملحد، لم يستطع أحد أن يعارضها أو ينقدها، مما يثبت ان القرآن الكريم الذي هو رائدها ومنبعها، ومرجعها، وشمسها، انما هو سماوي من كلام الله رب العالمين، وليس بكلام بشر، حتى ان »الكلمة الخامسة والعشرين« وختام »المكتوب التاسع عشر« وهما حجة واحدة من بين مئات الحجج، تقيمها »رسائل النور« لبيان إعجاز القرآن، فتثبته بأربعين وجهاً إثباتاً حيّر كل من نظر اليها، فقدّرها واعجب بها - ناهيك عن انهم لم ينقدوها و لم يعترضوا عليها قط - بل اثنوا عليها كثيراً. هذا وقد احال السائح اثبات وجه الاعجاز للقرآن الكريم، وانه كلام الله سبحانه حقاً الى »رسائل النور«، إلاّ انه انعم النظر في بضع نقاط تبين باشارة مختصرة:

عظمة القرآن الكريم:

النقطة الاولى: مثلما ان القرآن الكريم بكل معجزاته وحقائقه الدالة على أحقيته هـــو معجزة لمحمد عليه الصلاة والسلام، فان محمداً عليه الصلاة والسلام بكل معجزاته ودلائـــل نبوته وكمالاته العلمية معجزة أيضاً للقرآن الكريم وحجة قاطعة على ان القرآن الكريم كلام الله رب العالمين.

النقطة الثانية: ان القرآن الكريم قد بدّل الحياة الاجتماعية تبديلاً هائلاً نـــوّر الآفـــاق وملأها بالسعادة والحقائق، وأحدث انقلاباً عظيماً سواء في نفوس البشر وفي قلـــوبهم، أو في أرواحهم وفي عقولهم، أو في حياتهم الشخصية والاجتماعية والسياسية، وأدام هذا الانقـــلاب وأداره، بحيث إن آياته البالغة ستة آلاف وستمائة وستاً وستين آية تُتلى منذ أربعة عشر قرنـــاً في كل آن بألسنة أكثر من مائة مليون شخص في الأقل بكل إجلال واحترام، فيربي النـــاس ويزكي نفوسهم، ويصفي قلوبهم، ويمنح الأرواح إنكشافاً ورقياً، والعقول إستقامة ونـــوراً، والحياة حياةً وسعادةً. فلا شك أنه لا نظير لمثل هذا الكتاب ولا شبيه له ولا مثيـــل. فهـــو خارق، وهو معجز.

النقطة الثالثة: ان القرآن الكريم قد أظهر بلاغة – أيّما بلاغة – منذ ذلك العصـــر الى زماننا هذا، حتى انه حطّ من قيمة »المعلقات السبع« المشهورة وهي قصائد أبلغ الشـــعراء، كتبت بالذهب وعُلقت على جدران الكعبة، حتى ان ابنة »لبيد« أنزلت قصيدة أبيها من على جدار الكعبة قائلة : »أما وقد جاءت الآيات فليس لمثلك هنا مقام«.

وكذا عندما سمع أعرابيٌ الآية الكريمة: (فاصْدَع بما تُؤمَر) (الحجر: 94) خر ســـاجداً. فقيل له:

– أأسلمـــت؟ قال:

– لا، بل سجدت لبلاغة هذه الآية.

وكذا، فان آلافاً من أئمة البلاغة وفحول الأدب، أمثـــال عبـــد القـــاهر الجرجـــاني، والسكاكي، والزمخشري، قد أقرّوا بالاجماع والاتفاق:

»ان بلاغة القرآن فوق طاقة البشر ولا يمكن أن يُدرك«.

وكذا، فان القرآن الكريم منذ نزوله - كان وما زال كذلك - يتحدى كـــل مغـــرور ومتعنت من الأدباء والبلغاء، وينال من عتوّهم وتعاليهم، تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله.. أو ان يرضوا بالهلاك والذل في الدنيا والآخرة..

وبينما يعلن القرآن تحديه هذا، اذا ببلغاء ذلك العصر العنيدين قد تركوا السبيل القصيرة وهي المضاهاة والمعارضة والاتيان بسورة من مثله،سالكين السبيل الطويلة، سبيل الحرب التي تأتي بالويل والدمار على الأرواح والاموال، مما يثبت اختيارهم هذا: انه لا يمكن المســير في تلك السبيل القصيرة.

وكذا، ففي متناول الأيدي ملايين الكتب العربية التي كتبها أولياء القرآن بشغف اقتباس اسلوبه وتقليده أو كتبها أعداؤه لأجل معارضته ونقده، فكل ما كتب، ويكتب، مع التقـــدم والرقي في الاسلوب الناشئ من تلاحق الأفكار - ومنذ ذلك الوقت الى الآن - لا يمكـــن ان يضاهي أو يداني أيٌّ منها أسلوب القرآن، حتى لو استمع رجل عامي لما يتلى مـــن القـــرآن الكريم لاضطر الى القول: ان هذا القرآن لا يشبه أيّاً من هذه الكتب، ولا في مرتبتها. فاما أن بلاغته تحت الجميع، أو أنها فوق الجميع. ولن يستطيع انسان كائناً من كان، ولا كافر، ولا أحمق ان يقول: انها أسفل الجميع، فلابد اذاً ان مرتبة بلاغته فوق الجميع. حتى قد تلا أحدهم الآية الكريمة:

(سَبّح للّهِ ما في السموات والارض) (الحديد:1)   ثم قال:

- »اني لا أرى الوجه المعجز الذي ترونه في بلاغة هذه الآية الكريمة«.

فقيل له:

-ـــ »عد بخيالك - كهذا السائح - الى ذلك العصر واستمع اليها هناك«.

وبينما هو يتخيل نفسه هناك فيما قبل نزول القرآن الكريم، اذا به يرى:

ان موجودات العالم ملقاة في فضاء خالٍ شاسع دون حدود، في دنيا فانية زائلة، وهـــي في حالة يائسة مضطربة تتخبط في ظلمة قاتمة، وهي جامدة دون حياة وشعور، وعاطلة دون وظيفة ومهام، ولكن حالما أنصت الى هذه الآية الكريمة وتدبرها اذا به يرى:

ان هذه الآية قد كشفت حجاباً مسدلاً عن وجه الكون وعن وجه العالم كله حتى بان ذلك الوجه مشرقاً ساطعاً، فألقى هذا الكلام الأزلي والأمر السرمدي درساً على جميع أرباب المشاعر المصطفين حسب العصور كلها مظهراً لهم:

ان هذا الكون هو بحكم مسجد كبير، وان جميع المخلوقات - ولا سيما السموات والارض - منهمكة في ذكر وتهليل وتسبيح ينبض بالحيوية. وقد تسنم الكل وظائفهم بكل شوق ونشوة وهم ينجزونها بكل سعادة وإمتنان.

هكذا شاهد السائح سريان مفعول هذه الآية الكريمة في الكون، فتذوق مدى سمو بلاغتها، وقاس عليها سائر الآيات الكريمة، فأدرك السر في هيمنة بلاغة القرآن الفريدة لنصف الارض وخمس البشرية، وعلم حكمة واحدة من آلاف الحكم لديمومة جلال سلطان القرآن الكريم بكل توقير وتعظيم على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان دون إنقطاع.

النقطة الرابعة: ان القرآن الكريم قد أظهر عذوبة وحلاوة ذات اصالة وحقيقة بحيث ان التكرار الكثير - المسبب للسآمة حتى من أطيب الأشياء - لا يورث الملال عند من لم يفسد قلبه ويبلد ذوقه، بل يزيد تكرار تلاوته من عذوبته وحلاوته، وهذا أمر مسلّم به عند الجميع منذ ذلك العصر، حتى غدا مضرب الأمثال.

وكذا فقد اظهر القرآن الكريم من الطراوة، والفتوة والنضارة والجدّة بحيث يحتفظ بها وكأنه قد نزل الآن، رغم مرور أربعة عشر قرناً من الزمان عليه، ورغم تيسر الحصول عليه للجميع. فكل عصر قد تلقاه شاباً نضراً وكأنه يخاطبه. وكل طائفة علمية مع انهم يجدونه في متناول ايديهم وينهلون منه كل حين، ويقتفون أثر اسلوب بيانه، يرونه محافظاً دائماً على الجدة نفسها في اسلوبه والفتوة عينها في طُرز بيانه.

النقطة الخامسة: ان القرآن الكريم قد بسط أحد جناحيه نحو الماضي والآخر نحو المستقبل، فالحقيقة التي اتفق عليها الأنبياء السابقون هي جذر القرآن وأحد جناحيه، فهو يصدقهم ويؤيدهم، وهم بدورهم يؤيدونه ويصدقونه بلسان حال التوافق.

وكذلك فان الأولياء الصالحين، والعلماء الاصفياء هم ثمار استمدت الحياة من شجرة القرآن الكريم، فتكاملهم الحيوي يدل على ان شجرتهم المباركة هي ذات حياة وعطاء،

وذات فيض دائم وذات حقيقة واصالة، فالذين انضووا تحت حماية جناحه الثاني، وعاشوا في ظلاله من أصحاب جميع طرق الولاية الحقة، وارباب جميع العلوم الاسلامية الحقة يشهدون ان القرآن هو عين الحق، ومجمع الحقائق، ولا مثيل له في جامعيته وشموليته، فهو معجزة باهرة.

النقطة السادسة: ان الجهات الست للقرآن الكريم منورة مضيئة، مما يُبين صدقه وعدله.

نعم، فمن تحته أعمدة الحجج والبراهين، وعليه تتألق سكة الاعجاز وبين يديه - وهدفه -هدايا سعادة الدارين، ومن خلفه - أي نقطة استناده - حقائق الوحي السماوي، وعن يمينه تصديق ما لايحد من أدلة العقول المستقيمة، وعن يساره الاطمئنان الجاد والانجذاب الخالص والاستسلام التام للقلوب السليمة والضمائر الطاهرة.

واذ تثبت - تلك الجهات الست - ان القرآن الكريم حصن سماوي حصين في الأرض لا يقوى على خرقه خارق ولا ينفذ من جداره نافذ، فهناك أيضاً ستة »مقامات« تؤكد انه الصدق بذاته والحق بعينه، وانه ليس بكلام بشر قط، وانه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأول تلك المقامات: تأييد مصرّف هذا الكون ومدبّره له، الذي اتخذ إظهار الجميل وحماية البر والصدق ومحق الخداعين وازالة المفترين، سنة جارية لفعاليته سبحانه، فأيَّد سبحانه وصدّق هذا القرآن بما منحه من مقام إحترام وتعظيم وأولاه من مرتبة توفيق وفلاح هو أكثر قبولاً وأعلى مرتبة وأعظم هيمنة في العالم.

ومن ثم فان الاعتقاد الراسخ والتوقير اللائق من الذات المباركة للرسول الكريم)ص(نحو القرآن الكريم يفوق الجميع وهو منبع الاسلام وترجمان القرآن، وكونه بين اليقظة والنوم حينما يتترل عليه الوحي فيتترل عليه دون ارادته، وعدم بلوغ سائر كلامه شأوه، بل عدم مشابهته له الى حدّ رغم أنه أفصح الناس، وبيانه - بهذا القرآن - بياناً غيبياً لما مضى من الحوادث الكونية الواقعة ولما سيأتي منها مع أميّته، من دون تردد وبكل إطمئنان. وعدم ظهور أية حيلة أو خطأ أو ما شابهها من الأوضاع منه مهما صغرت رغم انه بين أنظار أشد الناس إنعاماً للنظر في تصرفاته.. فايمان هذا الترجمان الكريم والمبلغ العظيم)ص(وتصديقه بكل

قوته لكل حكم من أحكام القرآن الكريم، وعدم زعزعة أي شئ له مهما عظم يؤيد ويؤكد أن القرآن سماوي وكله صدق وعدل وكلام مبارك للرب الرحيم.

وكذا فان ارتباط خمس البشرية، بل الشطر الأعظم منهم بذلك القرآن الكريم المشاهد أمامهم، إرتباط انجذاب وتديّن، واستماعهم اليه بجد وشوق ولهفة، وتوافد الجن والملائكة والروحانيين اليه والتفافهم حوله عند تلاوته التفاف الفراشة العاشقة للنور بشهادة امارات ووقائع وكشفيات صادقة كثيرة، كل ذلك تصديق بان هذا القرآن هو محل رضى الكون واعجابه، وان له فيه اسمى مقام وأعلاه.

وكذا فان أخذ كل طبقة من طبقات البشر ابتداءً من الغبي الشديد الغباء والعامي، الى الذكي الحاد الذكاء والعالم نصيبها كاملة من الدروس التي يلقيها القرآن الكريم، وفهمهم منه أعمق الحقائق، واستنباط جميع الطوائف من علماء مئات العلوم والفنون الاسلامية، وبخاصة مجتهدي الشريعة السمحة ومحققي اصول الدين وعباقرة علم الكلام وامثالهم، واستخراجهم الاجوبة الشافية لما يحتاجونه من المسائل التي تخص علومهم من القرآن الكريم، انما هو تصديق بأن القرآن الكريم هو منبع الحق ومعدن الحقيقة.

وكذا فان عدم معارضة أدباء العرب الذين هم في المقدمة في الأدب ولا سيما الذين لم يدخلوا في الاسلام مع رغبتهم الملحة في المعارضة، وعجزهم عجزاً تاماً أمام وجه واحد، - وهو الوجه البلاغي - من بين وجوه الاعجاز السبعة الكبرى للقرآن، وعجزهم عن الاتيان بسورة واحدة فقط من سور القرآن الكريم، وصدودهم عن ذلك، وعدم معارضته ممن أتى من مشاهير البلغاء وعباقرة العلماء لحد الآن لاي وجه من وجوه الاعجاز - مع رغبتهم في ذيوع صيتهم بالمعارضة - وسكوتهم بعجز واحجامهم عن ذلك، لهو حجة قاطعة على ان القرآن الكريم معجزة فوق طاقة البشر.

نعم ان قيمة الكلام وعلوه وبلاغته تتوضح في بيان: »من قاله؟ ولمن قاله؟ ولِمَ قاله؟«.

وبناء على هذا فان القرآن الكريم لم يأت ولن يأتي مثله ولن يدانيه شئ قط؛ ذلك لأن القرآن الكريم انما هو خطاب من رب العوالم جميعاً وكلام من خالقها، وهو مكالمة لا يمكن تقليدها - باي جانب كان من الجوانب - وليس فيه امارة تومئ بالتصنع.

ثم ان المخاطب هو مبعوث باسم البشرية قاطبة، بل باسم المخلوقات جميعاً، وهو أكرم من أصبح مخاطباً وأرفعهم ذكراً، وهو الذي ترشح الاسلام العظيم من قوة إيمانه وسعته، حتى عرج به الى قاب قوسين أو أدنى فنزل مكللاً بالمخاطبة الصمدانية.

ثم ان القرآن الكريم المعجز البيان قد بيّن سبيل سعادة الدارين، ووضّح غايات خلق الكون، وما فيه من المقاصد الربانية موضحاً ما يحمله ذلك المخاطب الكريم من الايمان السامي الواسع الذي يضم الحقائق الاسلامية كلها عارضاً كل ناحية من نواحي هذا الكون الهائل ومقلباً إياه كمن يقلب خارطة أو ساعة أمامه، معلِّماً الانسانَ صانعَه الخالق سبحانه من خلال أطوار الكون وتقلباته. فلا ريب ولابد انه لا يمكن الاتيان بمثل هذا القرآن أبداً، ولا يمكن مطلقاً ان تُنال درجة إعجازه.

وكذا فان الآلاف من العلماء الأفذاذ الذين قام كل منهم بكتابة تفسير للقرآن الكريم في مجلدات بلغ قسم منها ثلاثين أو أربعين مجلداً بل سبعين مجلداً، وبيانهم بأسانيدهم ودلائلهم لما في القرآن الكريم مما لايحد من المزايا السامية والنكات البليغة والخواص الدقيقة والاسرار اللطيفة والمعاني الرفيعة والاخبارات الغيبية الكثيرة بأنواعها المختلفة، وإظهار كل هؤلاء لتلك المزايا واثباتهم لها دليل قاطع أن القرآن الكريم معجزة إلهية خارقة وبخاصة اثبات كل كتاب من كتب رسائل النور البالغة مائة وثلاثين كتاباً لمزية من مزايا القرآن الكريم ولنكتة من نكاته البديعة إثباتاً قاطعاً بالبراهين الدامغة، ولاسيما رسالة »المعجزات القرآنية«، و »المقام الثاني من الكلمة العشرين« الذي يستخرج كثيراً من خوارق الحضارة من القرآن الكريم أمثال القطار والطائرة. و »الشعاع الاول« المسمى »بالاشارات القرآنية« الذي يبين اشارات آيات الى رسائل النور والى الكهرباء، والرسائل الصغيرة الثمانية المسماة »بالرموزات الثمانية« التي تبين مدى الانتظام الدقيق في حروف القرآن الكريم، وكم هي ذات أسرار ومعان غزيرة، والرسالة الصغيرة التي تبين خواتيم سورة الفتح وتثبت إعجازها بخمسة وجوه من حيث الاخبار الغيبي، وأمثالها من الرسائل.. فان إظهار كل جزء من أجزاء رسائل النور لحقيقة من حقائق القرآن

الكريم، ولنور من أنواره كل ذلك تصديق وتأكيد بان القرآن الكريم ليس له مثيـــل، وانـــه معجزة وخارقة، وانه لسان الغيب في عالم الشهادة هذا، وانه كلام علاّم الغيوب.

وهكذا، لأجل مزايا وخواص القرآن الكريم هذه التي أشير اليها في ست نقـــاط، وفي ست جهات، وفي ستة مقامات، دامت حاكميته النورانية الجليلة وسلطانه المقدس المعظـــم، بكمال الوقار والاحترام مضيئة وجوه العصور ومنورة وجه الأرض أيضاً، طوال ألف وثلاثمائة سنة. ولأجل تلك الخواص أيضاً نال القرآن الكريم ميزات قدسية حيث ان لكل حرف مـــن حروفه عشرة أثوبة وعشر حسنات في الأقل، وعشر ثمار خالدة، بل ان كـــل حـــرف مـــن حروف قسم من الآيات والسور يثمر مائة أو ألفاً أو أكثر، من ثمار الآخرة، ويتصاعد نـــور كل حرف وثوابه وقيمته في الأوقات المباركة من عشرة الى المئات.. وامثالهـــا مـــن المزايـــا القدسية قد فهمها سائح العالم، فخاطب قلبه قائلاً:

- »حقاً إن هذا القرآن الكريم المعجز في كل ناحية من نواحيه قد شهد باجماع سوره وباتفاق آياته، وبتوافق أسراره وأنواره، وبتطابق ثماره وآثاره، شهادةً ثابتة بالـــدلائل علـــى وجود واجب الوجود، وعلى وحدانيته سبحانه، وعلى صفاته الجليلة، وعلى أسمائه الحســـنى، حتى ترشحت الشهادات غير المحدودة لجميع أهل الايمان من تلك الشهادة.

وهكذا، فقد ذكرت في المرتبة السابعة عشرة من المقام الأول اشارة قصيرة لمـــا تلقـــاه السائح هذا، من درس التوحيد والايمان من القرآن الكريم:

لا إله إلا اللّه الواجب الوجود الواحد الاحد الذي دَلَّ على وجوب وجوده في وحدتهِ: القرآن المعجز البيان، المقبولُ المرغوبُ لأجناس المَلَكِ والإنس والجانِ، المقروء كل آياته في كل دقيقة بكمال الاحترام، بألسنة مئات الملايين من نوع الانسان، الدّائم سَلطنتهُ القدسيةُ علـــى أقطار الأرض والاكوان، وعلى وجوهِ الاعصار والزمان، والجاري حاكميته المعنوية النورانيـــة على نصف الأرض وخُمس البشر في أربعة عشر عصراً بكمال الاحتشام.. وكـــذا شَـــهِدَ وبرهن باجماع سورِهِ القدسية السماوية، وباتفاق آياته النورانية الإلهية وبتوافق أسراره وأنواره وبتطابق حقائقه وثمراته وآثاره بالمشاهدة والعيان.

الذيل الثاني

»المسألة العاشرة من الشعاع الحادي عشر »رسالة الثمرة«

زهرة اميرداغ

[رد شاف ومقنع على اعتراضات ترد حول التكرار في القرآن الكريم]

اخواني الاعزاء الأوفياء!

كنت اعاني من حالة مضطربة بائسة حينما تناولت هذه المسألة بالكتابة، لذا اكتنفها شئ من الغموض لكونها بقيت كما جاءت عفو الخاطر. ولكني ادركت ان تلك العبارات المشوشة تنطوي على اعجاز رائع. فيا اسفى اذ لم استطع ان اوفي حق هذا الاعجاز من الأداء والتعبير. فعبارات الرسالة مهما كانت خافتة الانوار إلاّ انها تعد – من حيث تعلقها بالقرآن الكريم» – عبادة فكرية« و »صَدَقَة« تضم لآلئ نفيسة سامية، فالرجاء ان تصرفوا النظر عن قشرتها وتنعموا النظر بما فيها من لآلئ ساطعة. فان وجدتموها جديرة حقاً فاجعلوها »المسألة العاشرة« لرسالة الثمرة، وإلاّ فاقبلوها رسالة جوابية عن تهانيكم.

ولقد اضطررت الى كتابتها في غاية الاجمال والاقتضاب، لما كنت اكابد من سوء التغذية وأوجاع الامراض، حتى انني ادرجت في جملة واحدة منها حقائق وحججاً غزيرة، واتممتها – بفضل الله – في يومين من إيام شهر رمضان المبارك فارجو المعذرة عما بدر مني من تقصير. [143]اخوتي الاوفياء الصادقين!

حينما كنت اتلو القرآن – المعجز البيان – في الشهر المبارك رمضان، تدبّرت في معاني الآيات الثلاث والثلاثين – التي وردت اشاراتُها الى رسائل النور في »الشعاع الأول – «

[143] هذه المسألة »زهيرة« لطيفة وضاءة لهذا الشهر الكريم ولمدينة »أميرداغ« الحقت بـ »ثمرة« سجن دنيزلي على انها »المسألة العاشرة«. فهي تزيل باذن اللهه ما ينفثه أهلِ الضلالة من سموم الاوهام العفنة حول ظاهرة التكرار في القرآن. وذلك ببيانها حكمة من حكمها الكثيرة. ـ المؤلف.

فرأيت أن كل آية منها - بل آيات تلك الصفحة في المصحف وموضوعها - كأنها تطل على رسائل النور وطلابها من جهة نيلهم غيضا من فيضها وحظاً من معانيها - لا سيما آية النور »في سورة النور« فهي تشير بالاصابع العشر الى رسائل النور، كما أن الآيات التي تعقبها - وهي آية الظلمات - تطل على معارضي الرسائل واعدائها بل تعطيهم حصة كـبرى، اذ لا يخفى ان مقام تلك الآيات وأبعادها ومراميها غير قاصرة على زمان ومكان معينين بل تشمل الأزمنة والامكنة جميعها، أي تخرج من جزئية الامكنة والازمنة الى كلّيتهما الشـاملة، لـذا شعرت ان رسائل النور وطلابها انما يمثلون في عصرنا هذا - حق التمثيل - فرداً واحداً مـن افراد تلك الكلية الشاملة.

ان خطاب القرآن الكريم قد اكتسب الصفة الكلية والسعة المطلقة والرفعـة السـامية والاحاطة الشاملة؛ لصدوره مباشرة من المقام الواسع المطلق للربوبية العامة الشاملة للمـتكلم الازلي سبحانه.. ويكتسبها من المقام الواسع العظيم لمن اُنزل عليه هذا الكتاب، ذلكم الـنبي الكريم)ص(الممثل للنوع البشري والمخاطب باسم الأنسانية قاطبة، بل باسـم الكائنـات جميعاً.. ويكتسبها ايضاً من توجه الخطاب الى المقام الواسع الفسيح لطبقات البشرية كافـة وللعصور كافة.. ويكتسبها أيضاً من المقام الرفيع المحيط النابع من البيان الشافي لقـوانين الله سبحانه المتعلقة بالدنيا والآخرة،بالارض والسماء، بالازل والابد، تلك القوانين الـتي تخـص ربوبيته وتشمل امور المخلوقات كافة.

فهذا الخطاب الجليل الذي اكتسب من السعة والسمو والاحاطة والشمول ما اكتسب، يبرز اعجازاً رائعاً وإحاطة شاملة، بحيث:

ان مراتبه الفطرية والظاهرية التي تلاطف أفهام العوام البسيطة - وهم معظم المخاطبين -تمنح في الوقت نفسه حصة وافرة لأعلى المستويات الفكرية ولأرقى الطبقات العقلية، فـلا يهب لمخاطبيه شيئاً من ارشاداته وحدها، ولا يخصهم بعبرة من حكاية تأريخية فقـط، بـل يخاطب مع ذلك كل طبقة في كل عصر - لكونها فرداً من افراد دستور كلي - خطاباً نـدياً طرياً جديداً كأنه الآن يترل عليهم.

ولا سيما كثرة تكراره: »الظالمين... الظالمين..« وزجره العنيف لهم وانذاره الرهيـــب من نزول مصائب سماوية وأرضية بذنوبهم ومظالمهم، فيلفت الأنظار - بهذا التكـــرار - الى مظالم لا نظير لها في هذا العصر، بعرضه أنواعاً من العذاب والمصائب النازلة على قوم عـــاد وثمود وفرعون. وفي الوقت نفسه يبعث السلوان والطمأنينة الى قلوب المـــؤمنين المظلـــومين، بذكره نجاة رسل كرام امثال ابراهيم وموسى عليهما السلام.

ثم ان هذا القرآن العظيم يرشد كل طبقة من كل عصر ارشاداً واضحاً باعجاز رائـــع مبيناً:

ان »الازمنة الغابرة« والعصور المندثرة التي هي في نظر الغافلين الضالين واد من عـــدم سحيق موحش رهيب، ومقبرة مندرسة أليمة كئيبة، يعرضها صحيفة حيـــة تطفـــح عـــبراً ودروساً، وعالماً عجيباً ينبض بالحياة ويتدفق بالحيوية من أقصاه الى أقصاه، ومملكـــة ربانيـــة ترتبط معنا بوشائج وأواصر فيبينها - باعجازه البديع - واضحة جليلة كأنها مشهودة تعرض أمامنا على شاشة، فتارة يأتي بتلك العصور ماثلة شاخصة أمامنا، وتارة يأخـــذنا الى تلـــك العصور.

ويبين بالاعجاز نفسه »الكون« الذي يراه الغافلون فضاء موحشاً بلا نهاية، وجمـــادات مضطربة بلا روح تتدحرج في دوامة الفراق والآلام، يبينه القرآن: كتاباً بليغاً، كتبه الأحـــد الصمد، ومدينة منسقة عمرها الرحمن الرحيم، ومعرضاً بديعاً أقامه الرب الكـــريم لإشـــهار مصنوعاته. فيبعث بهذا البيان حياة في تلك الجمادات ، ويجعل بعضها يسعى لإمداد الآخـــر، وكل جزء يغيث الآخر ويعينه، كأنه يحاوره محاورة ودية صميمة، فكل شئ مسخر وكل شئ انيط به وظيفة وواجب.. وهكذا يلقي القرآن دروس الحكمة الحقيقية والعلم المنور الى الانس والجن والملائكة كافة. فلا ريب ان هذا القرآن العظيم - الذي له هذا الاعجاز في البيان - قمين بأن يحوز خواص راقية عالية، وميزات مقدسة سامية، امثال:

في كل حرف منه عشر حسنات، بل ألف حسنة أحياناً، بل ألوف الحسنات في احيان أخرى.. وعجز الجن والأنس عن الأتيان بمثله ولو اجتمعوا له.. ومخاطبته بني آدم جميعهم بل الكائنات برمتها مخاطبة بليغة حكيمة.. وحرص الملايين من الناس في كل عصر على حفظـــه

عن ظهر قلب بشوق ومتعة.. وعدم السأم من تلاوته الكثيرة رغم تكراراته.. واستقراره التام في اذهان الصغار اللطيفة البسيطة مع كثرة ما فيه من جمل ومواضع تلتبس عليهم.. وتلذذ المرضى والمحتضرين – الذين يتألمون حتى من أدنى كلام – بسماعه، وجريانه في اسماعهم عذباً طيباً.. وغيرها من الخواص السامية والمزايا المقدسة التي يحوزها القرآن الكريم، فيمنح قرّاءه وتلاميذه انواعاً من سعادة الدارين.

ويظهر اعجازه الجميل ايضاً في »اسلوب ارشاده البليغ« حيث راعى أحسن الرعاية أمية مبلغه الكريم)ص(باحتفاظه التام على سلاسته الفطرية، فهو أجلّ من ان يدنو منه تكلف او تصنع او رياء – مهما كان نوعه – فجاء اسلوبه مستساغاً لدى العوام الذين هم اكثرية المخاطبين ملاطفاً بساطة اذهانهم بتنزلاته الكلامية القريبة من أفهامهم.. باسطاً امامهم صحائف ظاهرة ظهوراً بديهياً كالسموات والارض.. موجهاً الانظار الى معجزات القدرة الإلهية وسطور حكمته البالغة المضمرتين تحت العاديات من الامور والاشياء.

ثم ان القرآن الكريم يظهر نوعاً من اعجازه البديع ايضاً في »تكراره البليغ« لجملة واحدة، او لقصة واحدة، وذلك عند ارشاده طبقات متباينة من المخاطبين الى معان عدة، وعبر كثيرة في تلك الآية أو القصة، فاقتضى التكرار حيث أنه: كتاب دعاء ودعوة كما انه كتاب ذكر وتوحيد، وكل من هذا يقتضي التكرار، فكل ما كرر في القرآن الكريم اذاً من آية أو قصة إنما تشتمل على معنى جديد وعبرة جديدة.

ويظهر إعجازه ايضاً عند تناوله »حوادث جزئية« وقعت في حياة الصحابة الكرام اثناء نزوله وارسائه بناء الاسلام وقواعد الشريعة فتراه يأخذ تلك الحوادث بنظر الاهتمام البالغ، مبيناً بها: أن أدق الامور لأصغر الحوداث جزئية انما هي تحت نظر رحمته سبحانه، وضمن دائرة تدبيره وإرادته، فضلا عن انه يظهر بها سنناً إلهية جارية في الكون ودساتير كلية شاملة. زد على ذلك ان تلك الحوادث – التي هي بمثابة النويات عند تأسيس الإسلام والشريعة ستثمر فيما يأتي من الازمان ثماراً يانعة من الأحكام والفوائد.

ان تكرر الحاجة يستلزم التكرار، هذه قاعدة ثابتة، لذا فقد أجاب القرآن الكريم عن أسئلة مكررة كثيرة خلال عشرين سنة فارشد باجاباته المكررة طبقات كثيرة متباينة من المخاطبين. فهو يكرر جملاً تملك ألوف النتائج، ويكرر ارشادات هي نتيجة لأدلة لاحد لها، وذلك عند ترسيخه في الأذهان وتقريره في القلوب ما سيحدث من انقلاب عظيم وتبدل رهيب في العالم وما سيصيبه من دمار وتفتت الاجزاء، وما سيعقبه من بناء الآخرة الخالدة الرائعة بدلا من هذا العالم الفاني.

ثم انه يكرر تلك الجمل والآيات ايضاً عند اثباته: ان جميع الجزئيات والكليات ابتداء من الذرات الى النجوم انما هي في قبضة واحد أحد سبحانه وضمن تصرفه جل شأنه.

ويكررها ايضاً عند بيانه الغضب الإلهي والسخط الرباني على الانسان المرتكب للمظالم عند خرقه الغاية من الخلق، تلك المظالم التي تثير هيجان الكائنات والأرض والسماء والعناصر وتؤجج غضبها على مقترفيها.

لذا فان تكرار تلك الجمل والآيات عند بيان امثال هذه الأمور العظيمة الهائلة لايعد نقصاً في البلاغة قط، بل هو اعجاز في غاية الروعة والإبداع، وبلاغة في غاية العلو والرفعة، وجزالة – بل فصاحة – مطابقة تطابقاً تاماً لمقتضى الحال، فعلى سبيل المثال:

* ان جملة (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ) هي آية واحدة تتكرر مائة واربع عشرة مرة في القرآن الكريم ذلك لأنها حقيقة كبرى تملأ الكون نوراً وضياء وتشد الفرش بالعرش برباط وثيق – كما بيناها في اللمعة الرابعة عشرة – فما من أحد إلاّ وهو بحاجة مسيسة الى هذه الحقيقة في كل حين، فلو تكررت هذه الحقيقة العظمى ملايين المرات، فالحاجة ما زالت قائمة باقية لا ترتوي. اذ ليست هي حاجة يومية كالخبز، بل هي ايضاً كالهواء والضياء الذي يُضطر اليه ويشتاق كل دقيقة.

* وان الآية الكريمة (وان ربك لهو العزيز الرحيم) تتكرر ثماني مرات في سورة »الشعراء«. فتكرار هذه الآية العظيمة التي تنطوي على الوف الحقائق في سورة تذكُر نجاة الأنبياء عليهم السلام وعذاب اقوامهم، انما هو لبيان:

ان مظالم اقوامهم تمس الغاية من الخلق، وتتعرض الى عظمة الربوبية المطلقة، فتقتضي العزة الربانية عذابَ تلك الأقوام الظالمة مثلما تقتضي الرحمة الإلهية نجاة الأنبياء عليهم السلام. فلو تكررت هذه الآية الوف المرات لما انقضت الحاجة والشوق اليها، فالتكرار هنا بلاغة راقية ذات اعجاز وايجاز.

* وكذلك الآية الكريمة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) المكررة في سورة »الرحمن« والآية الكريمة (ويل يومئذ للمكذبين) المكررة في سورة »المرسلات« تصرخ كل منهما في وجه العصور قاطبة وتعلن اعلاناً صريحاً في اقطار السموات والأرض أن كفر الجن والأنس وجحودهم بالنعم الإلهية، ومظالمهم الشنيعة، يثير غضب الكائنات ويجعل الأرض والسموات في حنق وغيظ عليهم... ويخل بحكمة خلق العالم والقصد منه.. ويتجاوز حقوق المخلوقات كافة ويتعدى عليها.. ويستخف بعظمة الالوهية وينكرها، لذا فهاتان الآيتان ترتبطان بألوف من امثال هذه الحقائق، ولهما من الأهمية ما لألوف المسائل وقوتها، لو تكررتا الوف المرات في خطاب عام موجه الى الجن والانس لكانت الضرورة قائمة بعد، والحاجة اليها ما زالت موجودة باقية. فالتكرار هنا بلاغة موجزة جليلة ومعجزة جميلة.

* (ومثال آخر نسوقه حول حكمة التكرار في الحديث النبوي)ص() فالمناجاة النبوية المسماة بالجوشن الكبير مناجاة رائعة مطابقة لحقيقة القرآن الكريم ونموذج مستخلص منه. نرى فيها جملة: سبحانك يا لا إله إلاّ انت الأمان الأمان خلصنا من النار.. اجرنا من النار.. نجّنا من النار، هذه الجمل تتكرر مائة مرة، فلو تكررت الوف المرات لما ولدت السأم، إذ أنها تنطوي على أجل حقيقة في الكون وهي التوحيد. وأجل وظيفة للمخلوقات تجاه ربهم الجليل وهي التسبيح والتحميد والتقديس، واعظم قضية مصيرية للبشرية وهي النجاة من النار والخلاص من الشقاء الخالد. وألزم غاية للعبودية وللعجز البشري وهي الدعاء.

وهكذا نرى امثال هذه الأسس فيما تشتمل عليه انواع التكرار في القرآن الكريم. حتى نرى أنه يعبر اكثر من عشرين مرة عن حقيقة التوحيد - صراحة أو ضمناً - في صحيفة واحدة من المصحف وذلك حسب اقتضاء المقام، ولزوم الحاجة الى الافهام، وبلاغة البيان،

فيهيج بالتكرار الشوق الى تكرار التلاوة، ويمد به البلاغة قوة وسمواً من دون أن يورث سأماً أو مللاً.

ولقد أوضحت اجزاء رسائل النور حكمة التكرار في القرآن الكريم وبينت حججهـا واثبتت مدى ملاءمة التكرار وانسجامه مع البلاغة، ومدى حسنه وجماله الرائع.

* أما حكمة إختلاف السور المكية عن المدنية من حيث البلاغة، ومن جهة الاعجـاز ومن حيث التفصيل والاجمال فهي كما يأتي:

ان الصف الاول من المخاطبين والمعارضين في مكة كانوا مشركي قريش وهم اميـون لاكتاب لهم، فاقتضت البلاغة اسلوباً عالياً قوياً واجمالاً معجزاً مقنعـاً، وتكـراراً يسـتلزمه التثبيت في الافهام؛ لذا بحثت اغلب السور المكية اركان الايمان ومراتب التوحيد باسلوب في غاية القوة والعلو، وبايجاز في غاية الاعجاز، وكررت الايمان باللّه والمبدأ والمعـاد والاخـرة كثيراً، بل قد عبرت عن تلك الاركان الايمانية في كل صحيفة أو اية، او في جملة واحدة، او كلمة واحدة، بل ربما عبرت عنها في حرف واحد، في تقديم وتأخير، في تعريف وتنكير، في حذف وذكر. فاثبتت اركان الايمان في أمثال تلك الحالات والهيئات البلاغية إثباتـاً جعـل علماء البلاغة وائمتها يقفون حيارى مبهوتين أمام هذا الأسلوب المعجز. ولقـد وضّـحت رسائل النور ولاسيما »الكلمة الخامسة والعشرون (المعجزات القرآنية) مع ذيولها« اعجـاز القرآن في أربعين وجهاً من وجوهها، وكذلك تفسير »إشارات الاعجاز في مظان الايجـاز« باللغة العربية الذي يبين بياناً رائعاً اعجاز القرآن من حيث وجه النظم بين الآيات الكريمـة. فاثبتت كلتا الرسالتين فعلاً علو الأسلوب البلاغي الفذ وسمو الايجاز المعجز.

أما الآيات المدنية وسورها فالصف الاول من مخاطبيها ومعارضيها كانوا مـن اليهـود والنصارى وهم أهل كتاب مؤمنون باللّه. فاقتضت قواعد البلاغة واساليب الإرشاد واسـس التبليغ أن يكون الخطاب الموجه لأهل الكتاب مطابقاً لواقع حالهم، فجاء باسـلوب سـهل واضح سلس، مع بيان وتوضيح في الجزئيات – دون الأصول والاركان (الايمانية) – لأن تلك الجزئيات هي منشأ الاحكام الفرعية والقوانين الكليـة، ومـدار الأختلافـات في الشـرائع والاحكام. لذا فغالباً ما نجد الآيات المدنية واضحة سلسة باسلوب بياني معجز خاص بالقرآن

الكريم. ولكن ذكر القرآن فذلكة قوية أو نتيجة ملخصة أو خاتمة رصينة أو حجة دامغة تعقيباً على حادثة جزئية فرعية، يجعل تلك الحادثة الجزئية قاعدة كلية عامة، ومن بعد ذلك يضمن الامتثال بها بترسيخ الايمان بالله الذي يحققه ذكر تلك الفواصل الختامية الملخصة للتوحيد والايمان والاخرة. فترى أن ذلك المقام الواضح السلس يتنور ويسمو بتلك الفواصل الختامية. (ولقد بينت »رسائل النور« واثبتت حتى للمعاندين مدى البلاغة العالية والميزات الراقية وانواع الجزالة السامية الدقيقة الرفيعة في تلك الفذلكات والفواصل وذلك في عشر مميزات ونكت في النور الثاني من الشعلة الثانية للكلمة الخامسة والعشرين الخاصة باعجاز القرآن). فان شئت فانظر الى (ان الله على كل شيء قدير)، (ان الله بكل شيء عليم) (وهو العزيز الحكيم) (وهو العزيز الرحيم) وامثالها من الآيات التي تفيد التوحيد وتذكر بالاخرة، والتي تنتهي بها اغلب الآيات الكريمة، ترَ أن القرآن الكريم عند بيانه الاحكام الشرعية الفرعية والقوانين الاجتماعية يرفع نظر المخاطب الى آفاق كلية سامية، فيبدل ـــــ بهذه الفواصل الختامية - ذلك الأسلوب السهل الواضح السلس اسلوباً عالياً رفيعاً، كأنه ينقل القارئ من درس الشريعة الى درس التوحيد. فيثبت أن القرآن: كتاب شريعة واحكام وحكمة، كما هو كتاب عقيدة وايمان، وهو كتاب ذكر وفكر، كما هو كتاب دعاء ودعوة.

وهكذا ترى أن هناك نمطاً من جزالة معجزة ساطعة في الآيات المدنية هو غير بلاغة الآيات المكية، حسب اختلاف المقام وتنوع مقاصد الأرشاد والتبليغ.

فقد ترى هذا النمط في كلمتين فقط: (ربك) و (رب العالمين) إذ يعلّم الأحدية بتعبير (ربك) ويعلّم الواحدية بـــ (رب العالمين)، علما ان الواحدية تتضمن الأحدية.

بل قد ترى ذلك النمط من البلاغة في جملة واحدة فيريك في آية واحدة مثلا نفوذ علمه الى موضع الذرة في بؤبؤ العين وموقع الشمس في كبد السماء، واحاطة قدرته التي تضع بالآلة الواحدة كلاً في مكانه، جاعلة من الشمس كأنها عين السماء فيعقب (وهو عليم بذات الصدور) بعد آية (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) (الحديد:6) أي يعقب نفوذ علمه سبحانه الى خفايا الصدور بعد ذكره عظمة الخلق في السموات والأرض وبسطها أمام الأنظار. فيقر في الأذهان أنه يعلم خواطر القلوب وخوافي شؤونها ضمن جلال خلاقيته

للسموات والأرض وتدبيره لشؤونها. فهذا التعقيب: (وهو عليم بذات الصدور) لـــون مـــن البيان يحول ذلك الأسلوب السهل الواضح الفطري - القريب الى افهام العوام - الى ارشاد سامٍ وتبليغ عام جذاب.

سؤال: ان النظرة السطحية العابرة لا تستطيع ان ترى ما يورده القرآن الكـــريم مـــن حقائق ذات اهمية، فلا تعرف نوع المناسبة والعلاقة بين فذلكة تعبر عن توحيد سام أو تفيـــد دستوراً كلياً، وبين حادثة جزئية معتادة؛ لذا يتوهم البعض ان هناك شـــيئاً مـــن قصـــور في البلاغة، فمـــــثـــــلاً لا تظهـــــر المناســـــبة البلاغية في ذكر دســـــــتور عظـــيم: (وفوق كل ذي علم عليم) تعقيباً على حادثة جزئية وهي ايواء يوسف عليه السلام أخاه اليه بتدبير ذكي. فيرجى بيان السر في ذلك وكشف الحجاب عن حكمته؟

الجواب: ان اغلب السور المطولة والمتوسطة - التي كل منها كأنها قرآن على حدة - لا تكتفي بمقصدين او ثلاثة من مقاصد القرآن الاربعة (وهي: التوحيد، النبوة، الحشر، العدل مع العبودية) بل كل منها يتضمن ماهية القرآن كلها، والمقاصد الأربعة معاً، أي كل منـــها: كتاب ذكر وايمان وفكر، كما أنه كتاب شريعة وحكمة وهداية. فكل سورة من تلك السُوَر تتضمن كُتباً عدة، وترشد الى دروس مختلفة متنوعة. فتجد ان كل مقام - بل حتى الصحيفة الواحدة - يفتح أمام الإنسان ابواباً للايمان يحقق بها اقرار مقاصد أخرى حيـــث أن القـــرآن يذكر ما هو مسطور في كتاب الكون الكبير ويبينه بوضوح، فيرسخ في اعماق المؤمن احاطة ربوبيته سبحانه بكل شئ، ويريه تجلياتها المهيبة في الآفاق والأنفس. لذا فان ما يبـــدو مـــن مناسبة ضعيفة، يبنى عليها مقاصد كلية فتتلاحق مناسبات وثيقة وعلاقات قوية بتلك المناسبة الضعيفة ظاهراً، فيكون الاسلوب مطابقاً تماماً لمقتضى ذلك المقام، فتتعالى مرتبته البلاغية.

سؤال آخر: ما حكمة سَوق القرآن الوف الدلائل لاثبات امور الآخرة وتلقين التوحيد واثابة البشر؟ وما السر في لفته الانظار الى تلك الامور صراحة وضمناً واشارة في كل سورة بل في كل صحيفة من المصحف وفي كل مقام؟

الجواب: لأن القرآن الكريم ينبه الانسان الى اعظم انقلاب يحدث ضـــمن المخلوقـــات ودائرة الممكنات في تأريخ العالم.. وهو الآخرة. ويرشده الى اعظم مسألة تخصه وهو الحامل

للامانة الكبرى وخلافة الأرض.. تلك هي مسألة التوحيد الذي تدور عليه سعادته وشقاوته الأبديتان. وفي الوقت نفسه يزيل القرآن سيل الشبهات الواردة دون انقطاع، ويحطم أشـــد انواع الجحود والانكار المقيت.

لذا لو قام القرآن بتوجيه الانظار الى الأيمان بتلك الأنقلابات المدهشة وحمل الآخـــرين على تصديق تلك المسألة العظيمة الضرورية للبشر.. نعم لو قام به آلاف المرات وكرر تلـــك المسائل ملايين المرات لايعد ذلك منه إسرافاً في البلاغة قط، كما أنه لايولد سأماً ولا ملـــلاً ألبتة، بل لا تنقطع الحاجة الى تكرار تلاوتها في القرآن الكريم، حيث ليس هناك أهم ولا أعظم مسألة في الوجود من التوحيد والآخرة.

فمثلاً: ان حقيقة الآية الكريمة: (ان الذين امنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الانهار ذلك الفوز الكبير) (البروج:11) هي بشرى السعادة الخالدة تزفها هـــذه الآيـــة الكريمة الى الانسان المسكين الذي يلاقي حقيقة الموت كل حين، فتنقذه هذه البشـــرى مـــن تصور الموت اعداماً أبدياً، وتنجيه – وعالمه وجميع أحبته – من قبضة الفناء، بل تمنحه سلطنة ابدية، وتكسبه سعادة دائمة.. فلو تكررت هذه الآية الكريمة ملياراً من المرات لايعد تكرارها من الاسراف قط، ولا يمس بلاغتها شئ.

وهكذا ترى أن القرآن الكريم الذي يعالج امثال هذه المسائل القيمة ويســـعى لاقنـــاع المخاطبين بها باقامة الحجج الدامغة، يعمق في الأذهان والقلوب تلك التحـــولات العظيمـــة والتبدلات الضخمة في الكون، ويجعلها أمامهم سهلة واضحة كتبدل المترل وتغـــير شـــكله. فلابد أن لفت الأنظار الى أمثال هذه المسائل – صراحة وضمناً واشارة – بـــالوف المـــرات ضروري جداً بل هو كضرورة الإنسان الى نعمة الخبز والهواء والضياء التي تتكرر حاجته اليها دائماً.

* ومثلاً: ان حكمة تكرار القرآن الكريم: (والذين كفروا لهم نار جهنم) (فـــاطر:36) (ان الظالمين لهم عذاب أليم) (ابراهيم:22) وأمثالها من آيات الانذار والتهديـــد. وســـوقها باسلوب في غاية الشدة والعنف، هي (مثلما اثبتناها في رسائل النور اثباتاً قاطعاً):

ان كفر الانسان انما هو تجاوز - أيّ تجاوز - على حقوق الكائنات واغلب المخلوقات، مما يثير غضب السماوات والارض، ويملأ صدور العناصر حنقاً وغيظاً على الكافرين، حتى تقوم تلك العناصر بصفع اولئك الظالمين بالطوفان وغيره. بل حتى الجحيم تغضب عليهم غضباً تكاد تتفجر من شدته كما هو صريح الآية الكريمة: (اذا القوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور_ تكاد تميز من الغيظ..) (الملك: 7،8). فلو يكرر سلطان الكون في اوامره تلك الجناية العظمى (الكفر) وعقوبتها باسلوب في غاية الزجر والشدة ألوف المرات، بل ملايين المرات، بل مليارات المرات لما عد ذلك اسرافاً مطلقاً ولا نقصاً في البلاغة، نظراً لضخامة تلك الجناية العامة وتجاوز الحقوق غير المحدودة، وبناء على حكمة اظهار اهمية حقوق رعيته سبحانه وابراز القبح غير المتناهي في كفر المنكرين وظلمهم الشنيع. اذ لا يكرر ذلك لضآلة الأنسان وحقارته بل لهول تجاوز الكافر وعظم ظلمه.

ثم اننا نرى ان مئات الملايين من الناس منذ الف ومئات من السنين يتلون القرآن الكريم بلهفة وشوق وبحاجة ماسة اليه دون ملل ولاسأم.

نعم، ان كل وقت وكل يوم إنما هو عالمٌ يمضي وباب ينفتح لعالم جديد لذا فان تكرار (لا إله إلا الله) بشوق الحاجة اليها ألوف المرات لأجل اضاءة تلك العوالم السيارة كلها وانارتها بنور الايمان، يجعل تلك الجملة التوحيدية كأنها سراج منير في سماء تلك العوالم والايام. فكما أن الأمر هكذا في (لا إله إلاّ الله) كذلك تلاوة القرآن الكريم فهي تبدد الظلام المخيم على تلك الكثرة الكاثرة من المشاهد السارية، وعلى تلك العوالم السيارة المتجددة، وتزيل التشوه والقبح عن صورها المنعكسة في مرآة الحياة، وتجعل تلك الاوضاع المقبلة شهوداً له يوم القيامة لا شهوداً عليه. وترقّيه الى مرتبة معرفة عِظَم جزاء الجنايات، وتجعله يدرك قيمة النذر المخفية لسلطان الازل والابد التي تشتت عناد الظالمين الطغاة، وتشوّقه الى الخلاص من طغيان النفس الأمارة بالسوء.. فلأجل هذه الحكم كلها يكرر القرآن الكريم ما يكرر في غاية الحكمة، مظهراً ان النذر القرآنية الكثيرة الى هذا القدر، وبهذه القوة والشدة والتكرار حقيقة عظمى، ينهزم الشيطان من توهمها باطلا، ويهرب من تخيلها عبثاً. نعم ان عذاب جهنم لهو عين العدالة لأولئك الكفار الذين لا يعيرون للنذر سمعاً.

* ومن المكررات القرآنية »قصص الانبياء« عليهم السلام، فالحكمة في تكـــرار قصـــة موسى عليه السلام. – مثلاً – التي لها من الحكم والفوائد ما لعصا موسى، وكذا الحكمة في تكرار قصص الأنبياء انما هي لاثبات الرسالة الأحمدية وذلك بأظهار نبوة الانبيـــاء جمـــيعهم حجةً على احقية الرسالة الاحمدية وصدقها؛ حيث لا يمكن أن ينكرها إلاّ من ينكر نبـــوتهم جميعاً. فذكرها اذن دليل على الرسالة.

ثم إن كثيراً من الناس لا يستطيعون كل حين ولا يوفقون الى تلاوة القرآن الكريم كله، بل يكتفون بما يتيسر لهم منه. ومن هنا تبدو الحكمة واضحة في جعل كل ســـورة مطولـــة ومتـــوســـطة بمـــثـــــابة قرآن مصغر، ومن ثم تـــــكرار الـــقـــــصص فيهـــــا بمثـــل تكرار أركان الايمان الضرورية. أي أن تكرار هذه القصص هو مقتضى البلاغة ولـــيس فيـــه اسراف قط. زد على ذلك فان فيه تعليماً بأن حادثة ظهور محمد)ص(أعظم حادثة للبشرية واجلّ مسألة من مسائل الكون.

* نعم! ان منح ذات الرسول الكريم)ص(اعظم مقام واسماه في القرآن الكريم، وجعـــل (محمد رسول الله) – الذي يتضمن اربعة من اركان الايمان – مقروناً بـــ (لا إله إلاّ الله) دليل وأي دليل على أن الرسالة المحمدية هي اكبر حقيقة في الكون، وان محمداً)ص(لهو اشـــرف المخلوقات طراً. وان الحقيقة المحمدية التي تمثل الشخصية المعنوية الكلية لمحمد)ص(هي السراج المنير للعالمين كليهما، وانه)ص(أهل لهذا المقام الخارق، كما قد اثبت ذلك في أجزاء رسائل النور بحجج وبراهين عديدة اثباتاً قاطعاً. نورد هنا واحداً من الف منها. كما يأتي:

ان كل ما قام به جميع أمة محمد)ص(من حسنات في الازمنة قاطبة يكتـــب مثلـــها في صحيفة حسناته)ص(، وذلك حسب قاعدة »السبب كالفاعل«.

وان تنويره لجميع حقائق الكائنات بالنور الذي اتى به لا يجعل الجن والأنس والملائكة وذوي الحياة في امتنان ورضى وحدهم بل يجعل الكون برمته والســـماوات والأرض جميعـــاً راضية عنه محدثة بفضائله.

وان ما يبعثه صالحو الامة – الذين يبلغون الملايين – يومياً من أدعية فطرية مستجابة لا ترد – بدلالة القبول الفعلي المشاهد لأدعية النباتات بلسان الاستعداد، وادعيـــة الحيوانـــات

بلسان حاجة الفطرة – ومن ادعية الرحمة بالصلاة والسلام عليه ، وما يرسلونه بما ظفروا من مكاسب معنوية وحسنات هداياً، انما تقدم اليه اولاً.

فضلاً عما يدخل في دفتر حسناته)ص(من أنوار لا حدود لها بما تتلوه أمته – بمجـــرد التلاوة – من القرآن الكريم الذي في كل حرف من حروفه – التي تزيد على ثلاثمائة الـــف حرف – عشر حسنات وعشر ثمار اخروية، بل مائة بل الف من الحسنات..

نعم! ان علام الغيوب سبحانه قد سبق علمه وشاهد أن الحقيقة المحمديـــة الـــتي هـــي الشخصية المعنوية لتلك الذات المباركة)ص(ستكون كمثال شجرة طوبى الجنة، لذا أولاه في قرآنه تلك الأهمية العظمى حيث هو المستحق لذلك المقام الرفيع. وبيّن في اوامره بـــأن نيـــل شفاعته انما هو باتباعه والاقتداء بسنته الشريفة وهو أعظم مسألة من مسائل الأنسان. بل أخذ بنظر الاعتبار – بين حين وآخر – اوضاعه الانسانية البشرية التي هي بمثابة بذرة شجرة طوبى الجنة.

وهكذا فلأن حقائق القرآن المكررة تملك هذه القيمة الراقية وفيها من الحكم ما فيهـــا، فالفطرة السليمة تشهد أن في تكراره معجزة معنوية قوية وواسعة، الاّ مَن مرض قلبه وســـقم وجدانه بطاعون المادية، فتشمله القاعدة المشهورة:

قد ينكر المرء ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم

خاتمة هذه المسألة العاشرة في حاشيتين:

الحاشية الاولى:

طرق سمعي قبل اثنتي عشرة سنة، ان زنديقاً عنيداً، قد فضح سوء طويته وخبث قصده باقدامه على ترجمة القرآن الكريم، فحاك خطة رهيبة، للتهوين من شأنه بمحاولة ترجمته. وصرح قائلاً: ليترجم القرآن لتظهر قيمته؟ أي ليرى الناس تكراراته غير الضرورية! ولتتلى ترجمته بدلاً منه! الى آخره من الافكار السامة. الا أن رسائل النور بفضل الله قد شلت تلك الفكرة واجهضت تلك الخطة بحججها الدامغة وبأنتشارها الواسع في كل مكان، فاثبتت اثباتاً قاطعاً أنه:

لا يمكن قطعاً ترجمة القرآن الكريم ترجمة حقيقية.. وان أية لغة غير اللغة العربية الفصحى عاجزة عن الحفاظ على مزايا القرآن الكريم ونكته البلاغية اللطيفة.. وان الترجمات العادية الجزئية التي يقوم بها البشر لن تحل - بأي حال - محل التعابير الجامعة المعجزة للكلمات القرآنية التي في كل حرف من حروفها حسنات تتصاعد من العشرة الى الألف، لذا لا يمكن مطلقاً تلاوة الترجمة بدلاً منه.

بيد ان المنافقين الذين تتلمذوا على يد ذلك الزنديق، سعوا بمحاولات هوجاء في سبيل الشيطان ليطفئوا نور القرآن الكريم بأفواههم. ولكن لما كنت لا التقي احداً، فلا علم لي

بحقيقة ما يدور من أوضاع، الاّ ان اغلب ظني ان ما أوردته آنفاً هو السبب الذي دعـا الى إملاء هذه »المسألة العاشرة« علي، رغم ما يحيط بي من ضيق.

الحاشية الثانية:

كنت جالساً ذات يوم في الطابق العلوي من فندق »شهر« عقب اطلاق سراحنا مـن سجن »دنيزلي« أتأمل فيما حوالي من اشجار الحَوَر (الصفصاف) الكثيرة في الحدائق الغنـاء والبساتين الجميلة، رأيتها جذلانة بحركاتها الراقصة الجذابة، تتمايل بجذوعها وأغصانها، وتهتز اوراقها بادنى لمسة من نسيم. فبدت أمامي بابهى صورة واحلاها، وكأنها تسبح لله في حلقات ذكر وتهليل.

مسّت هذه الحركات اللطيفة أوتار قلبي المحزون من فراق إخواني، وانا مغموم لانفرادي وبقائي وحيداً.. فخطر على البـال – فجأة – موسـما الخريف والشتاء وانتابتني غفلة، اذ ستتناثر الاوراق وسيذهب الرواء والجمال.. وبدأت أتألم على تلك الحَوَر الجميلة، واتحسر على سائر الأحياء التي تتجلى فيها تلك النشوة الفائقة تألما شديداً حتى اغرورقـت عينـاي واحتشدت على رأسي أحزان تدفقت من الزوال والفراق تملأ هذا الستار المزركش البـهيج للكائنات!.

وبينما أنا في هذه الحالة المحزنة اذا بالنور الذي اتت به الحقيقة المحمدية)ص(يغيـثني – مثلما يغيث كل مؤمن ويسعفه – فبدّل تلك الأحزان والغموم التي لا حدود لهـا مسـرات وأفراحاً لاحد لها، فبتّ في امتنان أبدي ورضى دائم من الحقيقة المحمدية التي انقـذني فـيض واحد من فيوضات انوارها غير المحدودة فنشر ذلك الفيض السلوان في ارجاء نفسي واعماق وجداني، وكان ذلك كالآتي:

ان تلك النظرة الغافلة أظهرت تلك الاوراق الرقيقة والاشجار الفارعة الهيفاء من دون وظيفة ولا مهمة، لا نفع لها ولا جدوى، وانها لا تهتز اهتزازها اللطيف من شـدة الشـوق والنشوة بل ترتعد من هول العدم والفراق.. فتبّاً لها من نظرة غافلة اصابت صميم مـا هـو مغروز فيّ – كما هو عند غيري – من عشق للبقاء، وحب الحيـاة، والافتتـان بالمحاسـن، والشفقة على بني الجنس.. فحولت الدنيا الى جهنم معنوية، والعقـل الى عضـو للشـقاء

والتعذيب. فبينما كنت اقاسي هذا الوضع المؤلم، اذا بالنور الذي أنار به محمد)ص(البشـــرية جمعاء يرفع الغطاء ويزيل الغشاوة ويبرز حِكَماً ومعاني ووظائف ومهمات غزيرة جداً تبلـــغ عدد اوراق الحَوَر. وقد اثبتت رسائل النور ان تلك الوظائف والحكم تنقسم الى ثلاثة أقسام:

القسم الاول: وهو المتوجه الى الاسماء الحسنى للصانع الجليل. فكما ان صانعاً ماهراً اذا ما قام بصنع ماكنة بديعة، يثني عليه الجميع ويقدرون صنعته ويباركون ابداعه، فـــان تلـــك الماكنة هي بدورها كذلك تبارك صانعها وتثني عليه بلسان حالها، وذلك باراءتهـــا النتـــائج المقصودة منها اراءة تامة.

اما القسم الثاني: فهو المـــتوجه الى انظـــــار ذوي الحيـــاة وذوي الشعـــــور مـــن المخلوقات أي يكون موضـــــع مطالعة حلـــــوة وتأمل لذيذ، فيـــــكون كل شـــــئ كأنه كتاب معرفة وعـــلـــم، ولا يغادر هذا العالَم - عالم الشهادة - الاّ بعد وضع معانيـــه في اذهان ذوي الشعور، وطبع صوره في حافظتهم، وانطباع صـــورته في الالـــواح المثاليـــة لسجلات علم الغيب، أي لا ينسحب من عالم الشهادة الى عالم الغيب إلا بعد دخوله ضمن دوائر وجود كثيرة ويكســـب انواعا من الوجود المعنـــوي والغيـــبي والعلمي.

نعم ما دام الله موجوداً، وعلمه يحيط بكل شئ، فلابد ان لا يكون هناك في عالم المؤمن عدم، واعدام، وانعدام، وعبث، ومحو، وفناء، من زاوية الحقيقة.. بينما دنيا الكفـــار زاخـــرة بالعدم والفراق والانعدام ومليئة بالعبث والفناء ومما يوضح هذه الحقيقة ما يدور على الالسنة من قول مشهور هو:»من كان له الله كان له كل شئ، ومن لم يكن له الله لم يكن له شئ«.

الخلاصة: ان الايمان مثلما ينقذ الانسان من الاعدام الأبدي اثناء الموت، فهو ينقذ دنيا كل شخص ايضاً من ظلمات العدم والانعدام والعبث. بينما الكفر - ولا سيما الكفر المطلق -فانه يعدم ذلك الانسان، ويعدم دنياه الخاصة به بالموت. ويلقيه في ظلمات جهنم معنويـــة محولاً لذائذ حياته آلاماً وغصصاً.

فلْترنّ آذان الذين يستحبون الحياة الدنيا على الاخرة، وليأتوا بعلاج لهذا الامر ان كانوا صادقين، أو ليدخلوا حظيرة الايمان ويخلصوا انفسهم من هذه الخسارة الفادحة.

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

أخوكم الراجي دعواتكم والمشتاق اليكم

سعيد النورسي

الكلمة السادسة والعشرون

رسالة القدر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(وانْ مِنْ شيءٍ الاّ عندنا خزائنُهُ وما نُنَزّله الاّ بِقَدَرٍ مَعْلومٍ) (الحجر:21)

(وكلّ شيءٍ أحْصَيناه في إمامٍ مُبينٍ) (يس:12)

[القدر الإلهي والجزء الاختياري مسألتان مهمتان. نحاول حلّ بعض اسرارهما في اربعة مباحث تخص القدر]

المبحث الاول

ان القدر والجزء الاختياري جزءان من ايمان حالي ووجداني، يبيّن نهاية حدود الايمان والاسلام، وليسا مباحث علمية ونظرية.

اي: ان المؤمن يعطي للهكل شئ، ويحيل اليه كل أمر، وما يزال هكذا حتى يحيل فعله ونفسه اليه.ولكي لا ينجو في النهاية من التكليف والمسؤولية يبرز امامه الجزء الاختياري قائلاً له: »انت مسؤول، أنت مكلّف«!

ثم انه لكي لا يغتر بما صدر عنه من حسنات وفضائل، يواجهه القدر، قائلاً له: »اعرف حدّك، فلست انت الفاعل«.

اجل! ان القدر والجزء الاختياري هما في اعلى مراتب الايمان والاسلام قد دخلا ضمن المسائل الايمانية، لانهما ينقذان النفس الانسانية.. فالقدر ينقذها من الغرور، والجزء الاختياري ينجيها من الشعور بعدم المسؤولية. وليسا من المسائل العلمية والنظرية التي تفضي الى ما يناقض سر القدر وحكمة الجزء الاختياري كلياً بالتشبث بالقدر للتبرئة من مسؤولية السيئات التي اقترفتها النفوس الامارة بالسوء والافتخار بالفضائل التي اُنعمت عليها والاغترار بها واسنادها الى الجزء الاختياري.

اجل! ان العوام الذين لم يبلغوا مرتبة ادراك سر القدر لهم مواضع لاستعماله، ولكن هذه المواضع تنحصر في الماضيات من الامور وبخصوص المصائب والبلايا والذي هو علاج

اليأس والحزن، وليس في امور المعاصي أو في المقبلات من الايام، والذي ينتفي كونه مساعداً على اقتراف الذنوب والتهاون في التكاليف.

بمعنى ان مسألة القدر ليست للفرار من التكليف والمسؤولية، بل هو لإنقاذ الانسان من الفخر والغرور، ولهذا دخلت ضمن مسائل الايمان.

أما الجزء الاختياري، فقد دخل ضمن مباحث العقيدة ليكون مرجعــاً للســيئات، لا ليكون مصدراً للمحاسن والفضائل التي تسوق الى الطغيان والتفرعن.

نعم! ان القرآن الكريم يبين ان الانسان مسؤول عن ســيئاته مســؤولية كاملــة. لأن الانسان هو الذي اراد السيئات. ولما كانت السيئات من قبيل التخريبــات، لــذا يســتطيع الانسان ان يوقع دماراً هائلاً بسيئة واحدة، كإحراق بيت كامل بعود ثقاب، وبذلك يستحق انزال عقاب عظيم به.

أما في الحسنات، فليس له الحق في الفخر والمباهاة، لأن حصته فيها ضئيلة جــداً، لأن الرحمة الإلهية هي التي ارادت الحسنات، واقتضتها. والقدرة الربانية هي التي اوجدتها، فالسؤال والجواب والسبب والداعي كلاهما من الحق سبحانه وتعالى. ولا يكون الانسان مالكاً لهــذه الحسنات وصاحباً لها الاّ بالدعاء والتضرع، وبالايمان، وبالشعور بالرضى عنها. بينما الــذي اراد السيئات هو النفس الانسانية، إما بالاستعداد او بالاختيار، مثلما تكتسب بعض المــواد التعفن والاسوداد من ضياء الشمس الجميل اللامع، فذلك الاسوداد انما يعود الى استعداد تلك المادة، ولكن الذي يوجد تلك السيئات بقانون إلهي متضمن لمصالح كثيرة انما هو الله سبحانه ايضاً. اي أن التسبب والسؤال هما من النفس الانسانية بحيث تتحمل المسؤولية عنــها. أمــا الخلق والايجاد الخاص به سبحانه وتعالى فهو جميل، لأن له ثمرات اخرى جميلة، ونتائج شتى جميلة، فهو خير.

ومن هذا السر يكون خلق الشر ليس شراً، وانما كسب الشر شر، اذ لا يحق لكســلان قد تأذى من المطر – المتضمن لمصالح غزيرة – ان يقول:المطر ليس رحمة.

نعم! ان في الخلق والايجاد خيراً كثيراً مع تضمنه لشر جزئي، وان ترك خير كثير لأجل شر جزئي، يحدث شراً كثيراً، لذا فان ذلك الشـــــر الجزئي يعدّ خيـــــــراً وفي حكمـــه. فليس في الخلق الإلهي شرٌ ولا قبح، بل يعود الشر الى كسب العبد والى استعداده.

وكما ان القدر الإلهي منزّه عن القبح والظلم، من حيث النتيجة والثمرات، كذلك فهو مقدّس عن القبح والظلم من حيث العلة والسبب، لأن القدر الإلهي ينظر الى العلل الحقيقية، فيعدل. بينما الناس يبنون احكامهم على ما يشاهدونه من علل ظاهرة فيرتكبون ظلماً ضمن عدالة القدر نفسه.

فمثلاً: هب ان حاكماً قد حكم عليك بالسجن بتهمة السرقة، وانت برئ منها، ولكن لك قضية قتل مستورة لا يعرفها الاّ الله.

فالقدر الإلهي قد حكم عليك بذلك السجن، وقد عدل من أجل ذلك القتل المســـتور عن الناس. أما الحاكم فقد ظلمك، حيث حكم عليك بالسجن بتهمة السرقة وانـــت منـــها برئ.

وهكذا ففي الشئ الواحد تظهر جهتان، جهة عدالة القدر والايجاد الإلهي، وجهة ظلم البشر وكسبه. قس بقية الامور على هذا.

اي ان القدر والايجاد الإلهي منزّهان عن الشر والقبح والظلم، باعتبار المبدأ والمنتـــهى والاصول والفروع والعلل والنتائج.

Oواذا قيل:

ما دام الجزء الاختياري لا قابلية له في الايجاد، ولا يوجد في يد الانسان غير الكســـب الذي هو في حكم امر اعتباري، فكيف يكون اذن شكوى القرآن المعجز البيان مـــن هـــذا الانسان شكاوى عظيمة تجاه عصيانه خالق السموات والارض؛ حتى كأنه اُعطي له وضـــع العدو العاصي، بل يرسل سبحانه جنوده الملائكة لإمداد العبد المؤمن تجاه ذلك العاصى، بـــل يُمدّه خالق السموات والارض بنفسه.. فلِمَ هذه الأهمية البالغة؟

الجواب: لأن الكفر والعصيان والسيئة كلها تخريب وعدم، ويمكن ان تترتب تخريبـــات هائلة وعدمات غير محدودة على امرٍ اعتباري وعدمي واحد. اذ كما ان عدم ايفـــاء مـــلاح

سفينة ضخمة بوظيفته يغرق السفينة، ويفسد نتائج اعمال جميع العاملين فيها، لترتب جميع تلك التخريبات الجسيمة على عمل عدمٍ واحد، كذلك الكفر والمعصية، لكونهما نوعاً من العدم والتخريب، فيمكن ان يحركهما الجزء الاختياري بأمر اعتباري، فيسببان نتائج مريعة. لأن الكفر وان كان سيئة واحدة؛ الاّ انه تحقير لجميع الكائنات بوصمها بالتفاهة والعبثية، وتكذيب لجميع الموجودات الدالة على الوحدانية، وتزييف لجميع تجليات الاسماء الحسنى. فان تهديده سبحانه وتعالى وشكواه باسم الكائنات قاطبة، والموجودات كافة والاسماء الإلهية الحسنى؛ كلها من الكافر شكاوى عنيفة وتهديدات مريعة هو عين الحكمة وان تعذيبه بعذاب خالد هو عين العدالة.

وحيث ان الانسان لدى انحيازه الى جانب التخريب بالكفر والعصيان، يسبب دماراً رهيباً بعمل جزئي، فان اهل الايمان محتاجون اذن، تجاه هؤلاء المخربين، الى عناية إلهية عظيمة، لأنه اذا تعهّد عشرة من الرجال الأقوياء بالحفاظ على بيت وتعميره، فان طفلاً شريراً في محاولته احراق البيت، يُلجئ اولئك الرجال الى الذهاب الى وليّه بل التوسل الى السلطان.

لذا فالمؤمنون محتاجون اشد الحاجة الى عنايته سبحانه وتعالى للصمود تجاه هؤلاء العصاة الفاجرين.

نحصل مما سبق: ان الذي يتحدث عن القدر والجزء الاختياري ان كان ذا ايمان كامل، مطمئن القلب، فانه يفوّض امر الكائنات كلها، ونفسه كذلك، الى الله سبحانه وتعالى، ويعتقد بان الامور تجري تحت تصرفه سبحانه وتدبيره. فهذا الشخص يحق له الكلام في القدر والجزء الاختياري لأنه يعرف أن نفسه وكل شئ، منه سبحانه وتعالى. فيتحمل المسؤولية، مستنداً الى الجزء الاختياري الذي يعتبره مرجعاً للسيئات، فيقدّس ربه وينزّهه، ويظل في دائرة العبودية ويرضخ للتكليف الإلهي ويأخذه على عاتقه. وينظر الى القدر في الحسنات والفضائل الصادرة عنه، لئلا يأخذه الغرور، فيشكر ربه بدل الفخر، ويرى القدر في المصائب التي تنزل به فيصبر.

ولكن ان كان الذي يتحدث في القدر الإلهي والجزء الاختياري من أهل الغفلة، فلا يحق له الخوض فيهما، لأن نفسه الامارة بالسوء – بدافع من الغفلة أو الضلالة – تحيل

الكائنات الى الاسباب، فتجعل ما لله اليها، وترى نفسها مالكة لنفسها، وترجع افعالهـــا الى نفسها ويسنـــدها الى الاســـباب، بينما تحمّـــل القـــــدر المســــؤولية والتقصـــيرات. وحينئذٍ يكون الخوض في القدر والجزء الاختياري باطلاً لا اساس له – بهذا المفهـــوم – ولا يعني سوى دسيسة نفسية تحاول التملص من المسؤولية، مما ينافي حكمة القدر وســـر الجـــزء الاختياري.

المبحث الثاني

هذا المبحث بحث علمي دقيق خاص للعلماء .[144]

oاذا قلت: كيف يمكن التوفيق بين القدر والجزء الاختياري؟

الجواب: بسبعة وجوه:

الاول: ان العادل الحكيم الذي تشهد لحكمته وعدالته الكائنات كلها، بلسان الانتظام والميزان، قد اعطى للانسان جزءاً اختيارياً مجهول الماهية، ليكون مدار ثواب وعقاب. فكمـــا ان للحكيم العادل حكَماً كثيرة خفية عنا، كذلك كيفية التوفيق بين القدر والجزء الاختياري خافية علينا. ولكن عدم علمنا بكيفية التوفيق لا يدل على عدم وجوده.

الثاني: ان كل انسان يشعر بالضرورة ان له ارادة واختياراً في نفسه، فيعرف وجود ذلك الاختيار وجداناً. وان العلم بماهية الموجودات شئ والعلم بوجودها شئ آخر. فكـــثير مـــن الاشياء وجودها بديهي لدينا الاّ أن ماهيتها مجهولة بالنسبة الينا. فهذا الجزء الاختياري يمكن ان يدخل ضمن تلك السلسلة، فلا ينحصر كل شئ في نطاق معلوماتنا، وان عدم علمنـــا لا يدل على عدمه.

الثالث: ان الجزء الاختياري لا ينافي القدر، بل القدر يؤيد الجزء الاختياري؛ لأن القدر نوع من العلم الإلهي، وقد تعلق العلم الإلهي باختيارنا، ولهذا يؤيد الاختيار ولا يبطله.

---

[144] هذا المبحث الثاني هو اعمق واعضل مسألة في القدر، وهو مسألة عقائدية كلامية ذات اهمية جليلة لدى العلماء المحققين، وقد حلتها رسائل النور حلاً تاماً. ـ المؤلف.

الرابع: القدر نوع من العلم، والعلم تابع للمعلوم، اي على اية كيفية يكون المعلوم يحيط به العلم ويتعلق به، فلا يكون المعلوم تابعاً للعلم، اي ان دساتير العلم ليست اساســاً لإدارة المعلوم من حيث الوجود الخارجي، لأن ذاتَ المعلوم ووجوده الخــارجي ينظــر الى الارادة ويستند الى القدرة.

ثم ان الازل ليس طرفاً لسلسلة الماضي كي يُتخذ اساساً في وجود الاشــياء ويُتصــور اضطراراً بحسبه، بل الازل يحيط بالماضي والحاضر والمستقبل - كاحاطة السماء بــالارض - كالمرآة الناظرة من الاعلى.

لذا ليس من الحقيقة في شئ تخيل طرفٍ ومبدأٍ في جهة الماضي للزمان الممتد في دائــرة الممكنات واطلاق اسم الازل عليه، ودخول الاشياء بالترتيب في ذلك العلم الازلي، وتــوهم المرء نفسه في خارجه، ومن ثم القيام بمحاكمة عقلية في ضوء ذلك.

فانظر الى هذا المثال لكشف هذا السر:

اذا وجدت في يدك مرآة، وفرضتَ المسافة التي في يمينها الماضــي. والمســافة الــتي في يسارها المستقبل، فتلك المرآة لا تعكس الاّ ما يقابلها، وتضم الطرفين بترتيب معين، حيث لا تستوعب اغلبهما، لأن المرآة كلما كانت واطئة عكست القليل، بينما اذا رفعت الى الاعلى فان الدائرة التي تقابلها تتوسع، وهكذا بالصعود تدريجياً تستوعب المرآة المسافة في الطرفين معاً في نفسها في آن واحد.

وهكذا يرتسم في المرآة في وضعها هذا كل ما يجري من حالات في كلتا المسافتين. فلا يقال ان الحالات الجارية في احداها مقدمة على الاخرى، أو مؤخرة عنــها، او توافقهــا، أو تخالفها.

وهكذا فالقدر الإلهي لكونه من العلم الازلي، والعلم الازلي »في مقام رفيع يضم كل ما كان وما يكون، ويحيط به« كما يُعبّر عنه في الحديث الشريف، لــذا لا نكــون نحــن ولا محاكماتنا العقلية خارجَين عن هذا العلم قطعاً، حتى نتصوره مرآة تقع في مسافة الماضي.

الخامس: ان القدر يتعلق تعلقاً واحداً بالسبب وبالمسبب معاً - فالارادة لا تتعلق مــرة بالمسبب ثم بالسبب مرة اخرى - اي ان هذا المسبَّب سيقع بهذا السبب. لذا يجب الاّ يقال:

ما دام موت الشخص الفلاني مقدّراً في الوقت الفلاني، فما ذنب من يرميه ببندقيـــة بارادتـــه الجزئية؛ اذ لو لم يرمه لمات ايضا؟

oسؤال: لِمَ يجب الاّ يقال؟

الجواب: لأن القدر قد عّين موته ببندقية ذاك، فاذا فرضت عدم رميه، عندئذٍ تفـــرض عدم تعلق القدر. فبِمَ تحكم اذن على موته. الاّ اذا تركت مسلك اهـــل الســـنة والجماعـــة ودخلت ضمن الفرق الضالة التي تتصور قدراً للسبب وقدراً للمسبب، كما هو عند الجبرية. أو تنكر القدر كالمعتزلة. أما نحن اهل الحق فنقول: لو لم يرمه فان موته مجهول عنـــدنا. أمـــا الجبرية فيقولون: لو لم يرمه لمات ايضاً. بينما المعتزلة يقولون: لو لم يرمه لا يموت.

السادس : [145]ان الميلان الذي هو اس اساس الجزء الاختياري، أمر اعتبـــاري عنـــد الماتريدية، فيمكن أن يكون بيد العبد، ولكن الميلان أمر موجود لدى الاشعريين، فليس هـــو بيد العبد، الاّ ان التصرف عندهم أمر اعتباري بيد العبد. ولهذا فذلك الميلان وذلك التصرف فيه، امران نسبيان، ليس لهما وجود خارجي محقق. أما الامر الاعتباري فلا يحتـــاج ثبوتـــه ووجوده الى علة تامة والتي تستلزم الضرورة الموجبة لرفع الاختيار، بل اذا اتخذت علة ذلـــك الامر الاعتباري وضعاً بدرجة من الرجحان، فانه يمكن ان يثبت،ويمكن ان يتركه في تلـــك اللحظة، فيقول له القرآن آنئذ: هذا شر! لا تفعل.

نعم! لو كان العبد خالقاً لأفعاله وقادراً على الايجاد، لَرُفع الاختيار؛ لأن القاعدة المقررة في علم الاصول والحكمة أنه »ما لم يجب لم يوجد« اي لا ياتي الى الوجود شئ مالم يكـــن وجوده واجباً، اي لابد من وجود علة تامة ثم يوجد. أما العلة التامـــة فيقتضـــي المعلـــول بالضرورة وبالوجوب. وعندها لا اختيار.

oاذا قلت:

[145] حقيقة خاصة للعلماء المدققين غاية التدقيق. - المؤلف.

الترجيح بلا مرجّحٍ محال، بينما كسب الانسان الذي تسمونه امراً اعتبارياً، بالعمل احياناً وبعدمه اخرى، يلزم الترجيح بلا مرجّح ان لم يوجد مرجّح موجِب، وهذا يهدم اعظم اصل من اصول الكلام!

الجواب: ان الترجّح بلا مرجّح محال - اي الرجحان بلا سبب ولا مرجّح - دون الترجيح بلا مرجّح الذي يجوز وهو واقع، فالارادة الإلهية صفة من صفاته تعالى وشأنها القيام بمثل هذا العمل (اي اختياره تعالى هو المرجّح).

○اذا قلت:

ما دام الذي خلق القتل هو الله سبحانه وتعالى، فلماذا يقال لي: القاتل؟

الجواب: ان اسم الفاعل مشتق من المصدر الذي هو أمر نسبي، حسب قواعد علم الصرف ولا يشتق من الحاصل بالمصدر الذي هو أمر ثابت. فالمصدر هو كسبنا، ونتحمل عنوان القاتل نحن، والحاصل بالمصدر مخلوق الله سبحانه، وما يشم منه المسؤولية لا يشتق من الحاصل بالمصدر.

السابع: ان ارادة الانسان الجزئية وجزأه الاختياري، ضعيف وأمر اعتباري. الاّ ان الله سبحانه وهو الحكيم المطلق قد جعل تلك الارادة الجزئية الضعيفة شرطاً عادياً لارادته الكلية. اي كأنه يقول معنىً: يا عبدي ايّ طريق تختاره للسلوك، فانا اسوقك اليه. ولهذا فالمسؤولية تقع عليك، فمثلاً (ولا مشاحة في الامثال) اذا أخذت طفلاً عاجزاً ضعيفاً على عاتقك وخيّرته قائلاً: الى اين تريد الذهاب، فسآخذك اليه. وطلب الطفل الصعود على جبلٍ عالٍ، وانت اخذته الى هناك، ولكن الطفل تمرض او سقط. فلا شك ستقول له: انت الذي طلبت! وتعاتبه. وتزيده لطمة تأديب. وهكذا.. ولله المثل الاعلى. فهو سبحانه أحكم الحاكمين جعل ارادة عبده الذي هو في منتهى الضعف شرطاً عادياً لارادته الكلية.

حاصل الكلام:

ايها الانسان! ان لك ارادة في منتهى الضعف، الاّ ان يدها طويلة في السيئات والتخريبات وقاصرة في الحسنات، هذه الارادة هي التي تسمى بالجزء الاختياري. فسلّم لإحدى يدى تلك الارادة الدعاء، كي تمتد وتطال الى الجنة التي هي ثمرة من ثمار سلسلة

الحسنات وتبلغ السعادة الابدية التي هي زهرة من ازاهيرها.. وسلّم لليد الاخرى الاستغفار كي تقصر يدها عن السيئات، ولا تبلغ ثمرة الشجرة الملعونة زقوم جهنم. اي أن الدعاء والتوكل يمدّان ميلان الخير بقوة عظيمة، كما ان الاستغفار والتوبة يكسران ميلان الشر ويحدّان من تجاوزه.

المبحث الثالث

ان الايمان بالقدر من اركان الايمان، اي ان كل شئ بتقدير الله، والدلائل القاطعة على القدر كثيرة جداً لا تعد ولا تحصى. ونحن سنبين هنا مدى قوة هذا الركن الايماني وسعته باسلوب بسيط وظاهر في مقدمة.

المقدمة

ان كل شئ قبل كونه وبعد كونه مكتوب في كتاب، يصرّح بهذا القرآن الكريم في كثير من آياته الكريمة امثال (ولا رطب ولا يابس الاّ في كتاب مبين) وتصدّق هذا الحكم القرآني الكائنات قاطبة، التي هي قرآن القدرة الإلهية الكبير، بآيات النظام والميزان والانتظام والامتياز والتصوير والتزيين وامثالها من الايات التكوينية.

نعم! ان كتابات كتاب الكائنات المنظومة وموزونات اياها تشهد على أن كل شئ مكتوب. أما الدليل على أن كل شئ مكتوب ومقدّر قبل وجوده وكونه، فهو جميع المبادىء والبذور وجميع المقادير والصور شواهد صدق. اذ ما البذور الاّ صنيديقات لطيفة ابدعها معمل (ك.ن) أودع فيها القدر فهيرس رسمه، وتبني القدرة - حسب هندسة القدر - معجزاتها العظيمة على تلك البذيرات، مستخدمة الذرات. بمعنى ان كل ما سيجري على الشجرة من امور مع جميع وقائعها، في حكم المكتوب في بذرتها. لأن البذور بسيطة ومتشابهة مادةً، فلا اختلاف بينها.

ثم ان المقدار المنظم لكل شئ يبين القدر بوضوح فلو دقق النظر الى كائن حي لتبين أن له شكلاً ومقداراً، كأنه قد خرج من قالب في غاية الحكمة والاتقان، بحيث أن اتخاذ ذلك المقدار والشكل والصورة، اما انه يتأتى من وجود قالب مادي خارق في منتهى الانشاءات

والانحناءات.. أو أن القدرة الإلهية تفصّل تلك الصورة وذلك الشكل وتُلبسها الشجرة بقالب معنوي علمي موزون أتى من القدر.

تأمل الآن في هذه الشجرة، وهذا الحيوان، فالذرات الصم العمي الجامدة التي لا شعور لها والمتشابهة بعضها ببعض، تتحرك في نمو الاشياء، ثم تتوقف عند حدود معينة توقف عارف عالم بمظان الفوائد والثمرات. ثم تبدل مواضعها وكأنها تستهدف غاية كبرى.

اي أن الذرات تتحرك على وفق المقدار المعنوي الآتي من القدر، وحسب الامر المعنوي لذلك المقدار.

فما دامت تجليات القدر موجودة في الاشياء المادية المشهودة الى هذه الدرجة، فلابد أن أوضاع الاشياء الحاصلة والصور التي تلبسها والحركات التي تؤديها بمرور الزمان تابعة ايضاً لإنتظام القدر.

نعم! ان في البذرة تجليين للقدر.

الاول: (بديهي) يخبر ويشير الى الكتاب المبين الذي هو عنوان الارادة والاوامر التكوينية.

والآخر: تجلٍ نظري (معقول) يخبر ويرمز الى الامام المبين الذي هو عنوان الامر والعلم الإلهي.

(فالقدر البديهي) هو ما تتضمن تلك البذرة من اوضاع وكيفيات وهيئات مادية للشجرة، والتي ستشاهد فيما بعد.

و(القدر النظري) هو ما سيخلق من تلك البذرة من اوضاع واشكال وحركات وتسبيحات طوال حياة الشجرة وهي التي يُعبّر عنها بتاريخ حياة الشجرة. فتلك الاوضاع والاشكال والافعال تتبدل حيناً بعد حين الاّ ان لها مقداراً قدرياً منتظماً، كما هو الظاهر في اغصان الشجرة واوراقها.

فلئن كان للقدر تجلٍ كهذا في الاشياء الاعتيادية والبسيطة، فلابد أن هذا يفيد؛ ان الاشياء كلها قبل كونها ووجودها مكتوبة في كتاب، ويمكن ان يفهم ذلك بشئ من التدبر.

أما الدليل على أن تأريخ حياة كل شئ، بعد وجوده وكونه، مكتوب؛ فهـــو جميـــع الثمرات التي تخبر عن الكتاب المبين والامام المبين. والقوة الحافظة للانسان الـــتي تشـــير الى اللوح المحفوظ وتخبر عنه، كل منها شاهد صادق، وأمارة وعلامة على ذلك.

نعم! ان كل ثمرة تُكتب في نواتها - التي هي في حكم قلبها - مقدّرات حياة الشـــجرة ومستقبلها ايضاً.

والقوة الحافظة للانسان - التي هي كحبة خردل في الصغر - تَكتب فيها يدُ القـــدرة بقلم القدر تاريخ حياة الانسان وقسماً من حوادث العالم الماضية كتابةً دقيقة، كأنها وثيقـــة وعهد صغير من صحيفة الاعمال اعطته تلك القدرة للانسان ووضعها في زاوية من دماغـــه ليتذكر بها وقت المحاسبة، وليطمئن انّ خلق هذا الهرج والمرج والفناء والزوال مرايا للبقـــاء، رسَمَ فيها القدير هوّيات الزائلات، والواحاً يكتب فيها الحفيظ العليم معاني الفانيات.

نحصل مما سبق: ان حياة النباتات، ان كانت منقادة الى هذا الحد لنظام القدر مع انهـــا ادنى حياة وابسطها، فان حياة الانسان التي هي في اعلى مرتبة من مراتب الحياة، لابـــد انهـــا رسمت بجميع تفرعاتها بمقياس القدر وكتبت بقلمه.

نعم! كما ان القطرات تُخبر عن السحاب، والرشحات تدل على نبع الماء والمستندات والوثائق تشير الى وجود السجل الكبير، كذلك الثمرات والنطف والبذور والنوى والصـــور والاشكال الماثلة امامنا وهي في حكم رشحات القدر البـــديهي - اي الانتظـــام المـــادي في الاحياء - وقطرات القدر النظري - اي الانتظام المعنوي والحيـــاتي - وبمثابـــة مســـتنداتهما ووثائقهما.. تدل بالبداهة على الكتاب المبين، وهو سجل الارادة والاوامر التكوينية، وعلى اللوح المحفوظ، الذي هو ديوان العلم الإلهي، الامام المبين.

النتيجة: ما دمنا نرى أن ذرات كل كائن حي، اثناء نموه ونشوئه ترحـــل الى حـــدود ونهايات ملتوية منثنية وتقف عندها. وتغير طريقها لتثمر في تلك النهايات حكمـــةً وفائـــدة ومصلحة. فبالبداهة ان المقدار الظاهري لذلك الشئ قد رُسم بقلم القدر.

وهكذا فان القدر البديهي المشهود يدل على ما في الحالات المعنوية ايضاً لذلك الكائن الحي من حدود منتظمة ومثمرة ونهايات مفيدة قد رسمت بقلم القدر ايضاً. فالقدرة مصدر، والقدر مِسطَر، تُسطّر القدرةُ على مسطر القدر، ذلك الكتاب للمعاني.

فما دمنا ندرك ادراكاً جازماً أن ما رُسم من حدود وثمرات ونهايات حكيمة، انما هـــو بقلم القدر المادي والمعنوي، فلابد أن ما يجريه الكائن الحي طوال حياته من احوال واطوار قد رسم ايضاً بقلم ذلك القدر. اذ إن تاريخ حياته يجري على وفق نظام وانتظام، مـــع تغـــييره الصور واتخاذه الاشكال. فما دام قلم القدر مهيمناً على جميع ذوي الحياة، فلاشك ان تاريخ حياة الانسان – الذي هو اكمل ثمرة من ثمرات العالم وخليفة الارض الحامل للامانة الكبرى –اكثر انقياداً لقانون القدر من اي شئ آخر.

Oفان قال:

ان القدر قد كبّلنا وسلب حريتنا، الا ترى ان الايمان بالقدر يورث ثقلاً على القلـــب ويولد ضيقاً في الروح، وهما المشتاقان الى الانبساط والجولان؟

والجواب: كلا. حاشَ للّه! فكما ان القدر لا يورث ضيقاً، فانه يمنح خفة بـــلا نهايـــة وراحة بلا غاية وسروراً ونوراً يحقق الأمن والامان والروح والريحان؛ لأن الانسان إن لم يؤمن بالقدر يضطر لأن يحمل ثقلاً بقدر الدنيا على كاهل روحه الضعيف ضمن دائرة ضيقة وحرية جزئية وتحرر مؤقت، لأن الانسان له علاقات مع الكائنات قاطبة، وله مقاصد ومطالـــب لا تنتهيان الاّ ان قدرته وارادته وحريته لا تكفي لإيفاء واحدٍ من مليون مـــن تلـــك المطالـــب والمقاصد، ومن هنا يفهم مدى ما يقاسيه الانسان من ثقل معنوي في عدم الايمـــان بالقـــدر، وكم هو مخيف وموحش.

بينما الايمان بالقدر يحمل الانسان على أن يضع جميع تلك الاثقال في سفينة القدر، مما يمنحه راحة تامة، اذ ينفتح امام الروح والقلب ميدان تجوال واســـع، فيســـيران في طريـــق كمالاتهما بحرية تامة. بيد أن هذا الايمان يسلب من النفس الامارة بالسوء حريتـــها الجزئيـــة ويكسر فرعونيتها ويحطم ربوبيتها ويحدّ من حركاتها السائبة.

ألا ان الايمان بالقدر لذيذ ما بعده لذة، وسعادة ما بعدها سعادة. وحيث لا نستطيع تعريف تلك اللذة والسعادة، نشير اليهما بالمثال الآتي:

رجلان يسافران معاً الى عاصمة سلطان عظيم، ويدخلان الى قصر السلطان العامر بالعجائب والغرائب. احدهما لا يعرف السلطان ويريد ان يسكن في القصر خلسة ويمضي حياته بغصب الاموال، فيعمل في حديقة القصر. ولكن ادارة تلك الحديقة وتدبيرها وتنظيم وارداتها وتشغيل مكائنها واعطاء ارزاق حيواناتها الغريبة وامثالها من امورها المرهقة دفعته الى الاضطراب الدائم والقلق المستمر، حتى اصبحت تلك الحديقة الزاهية الشبيهة بالجنة جحيماً لا يطاق. اذ يتألم لكل شئ يعجز عن ادارته، فيقضي وقته بالآهات والحسرات. واخيراً يُلقى به في السجن عقاباً وتأديباً له لسوء تصرفه وادبه.

اما الشخص الثاني فانه يعرف السلطان، ويعدّ نفسه ضيفاً عليه، ويعتقد ان جميع الاعمال في القصر والحديقة تدار بسهولة تامة .. بنظام وقانون وعلى وفق برنامج ومخطط، فيلقى الصعوبات والتكاليف الى قانون السلطان، مستفيداً بانشراح تام وصفاء كامل من متع تلك الحديقة الزاهرة كالجنة، ويرى كل شئ جميلاً حقاً، استناداً الى عطف السلطان ورحمته، واعتماداً على جمال قوانينه الادارية.. فيقضي حياته في لذة كاملة وسعادة تامة.

فافهم من هذا سر (من آمن بالقدر أمن من الكدر)

المبحث الرابع

اذا قلت: لقد اُثبت في المبحث الاول ان كل ما للقدر جميل وخير، بل حتى الشر الآتي منه خير. والقبح الوارد منه جميل . بينما المصائب والبلايا التي تنزل في دار الدنيا هذه تجرح هذا الحكم وتقدح بهذا الاثبات.

الجواب: يا نفسي ويا صاحبي!

يا من تتألمان كثيراً لشدة ما تحملان من شفقة ورأفة. اعلما ان الوجود خير محض والعدم شر محض، والدليل هو رجوع جميع المحاسن والكمالات والفضائل الى الوجود، وكون العدم اساس جميع المعاصي والمصائب والنقائص.

ولما كان العدم شراً محضاً، فالحالات التي تنجر الى العدم او يُشم منها العدم تتضـــمن الشر ايضاً، لذا فالحياة التي هي اسطع نور للوجود، تتقوى بتقلبها ضمن احـــوال مختلفـــة، وتتصفى بدخولها اوضاعاً متباينة، وتثمر ثمرات مطلوبة باتخاذها كيفيات متعددة، وتبين نقوش اسماء واهب الحياة بياناً لطيفاً وجميلاً بتحولها في اطوار متنوعة.

وبناءً على هذه الحقيقة تعرض حالات على الاحياء في صور الآلام والمصائب والمشقات والبليات، فتتجدد بتلك الحالات انوار الوجود في حياتهم وتتباعد عنها ظلمات العـــدم، واذا بحياتهم تتطهر وتتصفى، ذلك لأن التوقف والسكون والسكوت والعطالة والدعة والرتابة، كل منها عدمٌ في الكيفيات والاحوال. حتى ان اعظم لذة من اللذائذ تتناقص بل تزول في الحالات الرتيبة.

حاصل الكلام : لما كانت الحياة تبين نقوش الاسماء الحسنى، فكل ما يترل بالحيـــاة اذن جميل وحسن.

فمثلاً: أن صانعاً ثرياً ماهراً يكلّف رجلاً فقيراً لقاء أجرة معينة ليقوم له في ظرف ساعة بدور النموذج »موديل« لأجل اظهار آثار صنعته الجميلة وابراز مدى ثرواته القيّمة فيُلبسه ما نسجه من حلة قشيبة في غاية الجمال والابداع،و يجرى عليه اعمالاً ويظهر اوضاعاً واشكالاً شتى لإظهار خوارق صنائعه وبدائع مهاراته، فيقصّ ويبدّل ويطوّل ويقصر، وهكذا...

تُرى أيحق لذلك الفقير الأجير أن يقول لذلك الصانع الماهر: »انك تتعـــبني وتـــرهقني بطلبك منّي الانحناء مرة والاعتدال أخرى.. وانك تشوّه بقصّك وتقصيرك هذا القميص الذي يجمّلني ويزينني؟ ترى أيقدر ان يقول له: لقد ظلمت وما انصفت؟!«

وكذلك الأمر في الصانع الجليل الفاطر الجميل (ولله المثل الاعلى) اذ يبـــدّل قمـــيص الوجود الذي ألبسه ذوي الحياة، ويقلبه في حالات كثيرة، ذلك القيمص المرصع باللطـــائف والحواس كالعين والاذن والعقل والقلب وامثالها، يبدّله ويقلّبه اظهاراً لنقوش اسمائه الحسنى.

ففي الاوضاع التي تتسم بالآلام والمصائب انوار جمال لطيف تشف عن اشـــعة رحمـــة ضمن لمعات الحكمة الإلهية، اظهاراً لأحكام بعض الاسماء الحسنى.

الخاتمة

[هذه فقرات خمس اسكتت النفس الامارة بالسوء لسعيد القديم، تلك النفس الجاهلة المتفاخرة المغرورة المرائية المعجبة بنفسها]

oالفقرة الاولى:

ما دامت الاشياء موجودة ومتقنة الصنع، فلابد ان صانعاً ماهراً قد صنعها. فلقد اثبتنا في الكلمة الثانية والعشرين اثباتاً قاطعاً انه:

ان لم تُسند كل الاشياء الى الواحد الأحد، يتعسر كل شئ كتعسر الاشياء كلها. وإن اُسند كل شئ الى الواحد الأحد، تسهل الاشياء كلها كسهولة شئ واحد.

ولما كان الذي خلق الارض والسموات هو الواحد الأحد، فلابد ان ذلك البديع الحكيم لا يعطى ثمرات الارض والسموات ونتائجهما وغاياتهما – وهم ذوو الحياة – الى غيره فيفسد الامور. ولا يمكن ان يسلّمها الى ايدي الآخرين فيعبث بجميع اعماله الحكيمة. ولا يمكن ان يبيدها.. ولا يسلّم ايضاً شكرها وعباداتها الى غيره.

o الفقرة الثانية:

يا نفسي المغرورة! انكِ تشبهين ساق العنب، لا تغتري ولا تفتخري، فتلك الساق لم تعلق العناقيد على نفسها، بل علّقها عليها غيرها.

oالفقرة الثالثة:

يا نفسي المرائية! لا تغتري قائلة: انني خدمت الدين. فان الحديث الشريف صريح بـ ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[146] فعليك ان تعدّى نفسكِ ذلك الرجل الفاجر، لانك غير مزكاة.

[146] روى البخاري أن النبي)ص(قال لبلال: يا بلال قم فأذّن لا يدخل الجنة الاّ مؤمن وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر. - المترجم.

واعلمي ان خدمتك للدين وعباداتك ما هي الا شكر ما انعم الله عليـــك، وهـــي اداء لوظيفة الفطرة وفريضة الخلق ونتيجة الصنعة الإلهية.. اعلمي هذا وانقذي نفسك من العجب والرياء.

oالفقرة الرابعة:

ان كنت ترومين الحصول على علم الحقيقة، والحكمة الحقة، فاظفري بمعرفـــة الله، اذ حقائق الموجودات كلها، انما هي اشعة اسم الله الحق، ومظاهر اسمائه الحسنى، وتجليات صفاته الجليلة. واعلمي ان حقيقة كل شئ مادياً كان أو معنوياً وجوهريـــاً أو عرضـــياً، وحقيقـــة الانسان نفسه انما تستند الى نور من انوار اسمائه تعالى وترتكز على حقيقته. والاّ فهي صورة تافهة لا حقيقة لها. ولقد ذكرنا في ختام الكلمة العشرين شيئاً من هذا البحث.

يا نفسي!

ان كنت مشتاقة الى هذه الدنيا، وتفرين من الموت، فاعلمي يقيناً ان ما تظنينه حياة، ما هو الاّ الدقيقة التي انت فيها، فما قبل تلك الدقيقة من زمان وما فيه من اشياء دنيوية كلـــه ميت. وما بعد تلك الدقيقة من زمان وما فيه كله عدم، لا شئ.

بمعنى ان ما تفتخرين به وتغترين به من حياة فانية ليس الاّ دقيقة واحدة، حتى ان قسماً من اهل التدقيق قالوا: ان الحياة عاشرة عشر من الدقيقة، بل آنٌ سيّال.. من هنا حَكَم قســـم من اهل الولاية والصلاح بعدمية الدنيا من حيث انها دنيا.

فما دام الامر هكذا فدعي الحياة المادية النفسية واصعدي الى درجات حيـــاة القلـــب والروح والسر. وانظري ما اوسع دائرة حياتها، فالماضي والمستقبل – الميتان بالنسبة لـــك – حيّان بالنسبة لها وموجودان.

فيا نفسي:

ما دام الامر هكذا، ابكي كما يبكي قلبي واستغيثي وقولي:

أنا فانٍ، من كان فانياً لا اريد

انا عاجز، من كان عاجزاً لا اريد..

سلمت روحي للرحمن، سواه لا اريد..

بل اريد، ولكن حبيباً باقياً اريد..

انا ذرة..

ولكن شمساً سرمداً اريد.

انا لا شئ ومن غير شئ، ولكن الموجودات كلّها اريد.

Oالفقرة الخامسة:

هذه الفقرة خطرت باللغة العربية وكتبت كما وردت. وهي اشـــارة الى مرتبـــة مـــن المراتب الثلاث والثلاثين في ذكر »الله اكبر«.

الله اكبر؛ اذ هو القدير العليم الحكيم الكريم الرحيم الجميل النقاش الازلي الـــذي مـــا حقيقة هذه الكائنات كلاً وجزءاً وصحائف وطبقاتٍ وما حقائق هذه الموجـــودات كليـــاً وجزئياً ووجوداً وبقاءً إلا:

خطوط قلم قـــضائه وقدره وتنظيمه وتقديره بعلمٍ وحكمةٍ.

ونقوش بركار علمه وحكمته وتصويره وتدبيره بصنع وعناية.

وتزيينات يد بـــيـــضاء صنعه وعنايته وتزيينه وتنويره بلطف وكرمٍ.

وأزاهير لطائف لطفه وكرمه وتودده وتعرّفه برحمة ونعمة.

وثمرات فياض رحمته ونعمته وترحمه وتحننه بجمال وكمال.

ولمعات وتجليات جماله وكماله بشهادات تفانية المرايا وسيالية المظاهر مع بقاء الجمـــال المجرد السرمدي، الدائم التجلي والظهور، على مر الفصول والعصور والدهور، ودائم الانعام على مر الانام والايام والاعوام.

نعم فالاثر المكمّل يدل ذا عقل على الفعل المكمّل ثم الفعل المكّمل يدل ذا فهم علـــى الاسم المكمل ثم الاسم المكمّل يدل بالبداهة على الوصف المكمّل ثم الوصف المكمل يـــدل بالضرورة على الشأن المكمّل ثم الشأن المكمل يدل باليقين على كمال الذات بما يليق بالذات وهو الحق اليقين.

نعم تفاني المرآة، زوال الموجودات، مع التجلي الدائم مع الفيض الملازم.. من اظهر الظواهر ان الجمال الظاهر، ليس ملك المظاهر.. من افصح تبيان.. من اوضح برهان للجمال المجرد للاحسان المجدد للواجب الوجود.. للباقي الودود..

اللّهم صل على سيّدنا محمّد من الازل الى الابد عدد ما في علم الله
وعلى اله وصحبه وسلم.

ذيل

هذا الذيل القصير جداً له اهمية عظيمة ومنافع للجميع

للوصول الى الله سبحانه وتعالى طرائق كثيرة، وسبل عديدة ومورد جميع الطرق الحقة ومنهل السبل الصائبة هو القرآن الكريم. الا ان بعض هذه الطرق اقرب من بعض واسلم واعم.

وقد استفدت من فيض القرآن الكريم - بالرغم من فهمي القاصر - طريقاً قصيراً وسبيلاً سوياً هو:

طريق العجز، الفقر، الشفقة، التفكر.

نعم! ان العجز كالعشق طريق موصل الى الله، بل اقرب واسلم، اذ هـــو يوصـــل الى المحبوبية بطريق العبودية.

والفقر مثله يوصل الى اسم الله »الرحمن«.

وكذلك الشفقة كالعشق موصل الى الله الا انه انفذ منه في السير واوسع منه مدى، اذ هو يوصل الى اسم الله »الرحيم«.

والتفكر ايضاً كالعشق الا انه اغنى منه واسطع نوراً وارحب سبيلاً، اذ هـــو يوصـــل السالك الى اسم الله »الحكيم«.

وهذا الطريق يختلف عما سلكه اهل السلوك في طرق الخفاء - ذات الخطوات العشـــر كاللطائف العشر - وفي طرق الجهر - ذات الخطوات السبع حسب النفوس السبعة - فهذا الطريق عبارة عن اربع خطوات فحسب، وهو حقيقة شرعية اكثر مما هو طريقة صوفية.

ولا يذهبن بكم سوء الفهم الى الخطأ. فالمقصود بالعجز والفقر والتقصير انما هو اظهار ذلك كله امام الله سبحانه وليس اظهاره امام الناس.

اما اوراد هذا الطريق القصير واذكاره فتنحصر في اتباع الســـنة النبويـــة.. والعمـــل بالفرائض، ولا سيما اقامة الصلاة باعتدال الاركان والعمل بالاذكار عقبها.. وترك الكبائر.

اما منابع هذه الخطوات من القرآن الكريم فهي:

(فلا تُزكّوا انفُسَكم) (النجم:32) تشير الى الخطوة الاولى.

(ولا تكونوا كالذين نَسُوا الله فأنساهُم أنفُسَهم) (الحشر:19) تشير الى الخطوة الثانية.

(ما اصابكَ مِن حسنةٍ فمن الله، ومَا اصابكَ مِن سيئةٍ فِمن نفسِك) (النساء:79) تشير الى الخطوة الثالثة:

(كلُّ شيءٍ هالكٌ الاّ وجْهَه) (القصص:88)، تشير الى الخطوة الرابعة.

وايضاح هذه الخطوات الاربع بايجاز شديد هو:

الخطوة الاولى:

كما تشير اليها الآية الكريمة (فلا تزكوا انفسكم) وهي: عدم تزكية النفس. ذلك لان الانسان حسب جبلّته، وبمقتضى فطرته، محبٌ لنفسه بالذات، بل لا يحب الا ذاته في المقدمة.

ويضحي بكل شئ من اجل نفسه، ويمدح نفسه مدحاً لا يليق الا بالمعبود وحـــده، ويـــنزّه شخصه ويبرئ ساحة نفسه، بل لا يقبل التقصير لنفسه اصلاً ويدافع عنها دفاعاً قوياً بما يشبه العبادة، حتى كأنه يصرف ما اودعه الله فيه من اجهزة لحمده سبحانه وتقديسه الى نفســه، فيصيبه وصف الآية الكريمة: (من اتّخذ الهَه هَواه) (الفرقان:43) فيعجب بنفسه ويعتد بهـــا.. فلابد اذن من تزكيتها فتزكيتُها في هذه الخطوة وتطهيرها هي بعدم تزكيتها.

الخطوة الثانية:

كما تلقّنه الآية الكريمة من درس: (ولا تكونوا كالذين نَسُوا الله فأنساهُم انفُسَهم). وذلك: ان الانسان ينسى نفسه ويغفل عنها، فاذا ما فكر في الموت صرفه الى غيره، واذا مـــا رأى الفناء والزوال دفعه الى الآخرين، وكأنه لا يعنيه بشئ، اذ مقتضى النفس الامـــارة انهـــا تذكر ذاتها في مقام اخذ الاجرة والحظوظ وتلتزم بها بشدة، بينما تتناسى ذاتها في مقام الخدمة والعمل والتكليف. فتزكيتها وتطهيرها وتربيتها في هذه الخطوة هي:

العمل بعكس هذه الحالة، اي عدم النسيان في عين النســيان، اي نســيان الـــنفس في الحظوظ والاجرة، والتفكر فيها عند الخدمات والموت.

والخطوة الثالثة:

هي ما ترشد اليه الآية الكريمة: (ما اصابكَ مِن حَسَنةٍ فَمِنَ الله وما اصابكَ مِنْ ســيئة فمن نفسك) وذلك: ان ما تقتضيه النفس دائماً انها تنسب الخير الى ذاتها، مما يسوقها هذا الى الفخر والعجب. فعلى المرء في هذه الخطوة ان لا يرى من نفسه الا القصور والنقص والعجز والفقر، وان يرى كل محاسنه وكمالاته احساناً من فاطره الجليل، ويتقبلها نعماً منه سبحانه، فيشكر عندئذ بدل الفخر ويحمد بدل المدح والمباهاة. فتزكية النفس في هذه المرتبة هي في سر هذه الآية الكريمة: (قَد أفلَحَ مَنْ زَكّاها) (الشمس:9).

وهي ان تعلم بأن كمالها في عدم كمالها، وقدرتَها في عجزها، وغناها في فقرهـــا، (اي كمال النفس في معرفة عدم كمالها، وقدرتها في عجزها امام الله، وغناها في فقرها اليه).

الخطوة الرابعة:

هي ما تعلمه الآية الكريمة: (كُلُّ شَيءٍ هالكٌ الا وجْهَه). ذلك لان النفس تتوهم نفسها حرة مستقلة بذاتها، لذا تدّعى نوعاً من الربوبية، وتضمر عصيانا حيال معبودها الحق. فبادراك الحقيقة الاتية ينجو الانسان من ذلك وهي: كل شئ بحد ذاته، وبمعناه الاسمي: زائلٌ، مفقود، حادث، معدوم، الا انه في معناه الحرفي، وبجهة قيامه بدور المرآة العاكسة لأسماء الصانع الجليل، وباعتبار مهامه ووظائفه: شاهد، مشهود، واجد، موجود.

فتزكيتها في هذه الخطوة هي معرفة: ان عدمها في وجودها ووجودها في عدمها، اي اذا رأت ذاتها واعطت لوجودها وجوداً، فانها تغرق في ظلمات عدم يسع الكائنات كلها. يعني اذا غفلت عن موجدها الحقيقي وهو الله، مغترة بوجودها الشخصي فانها تجد نفسها وحيدة غريقة في ظلمات الفراق والعدم غير المتناهية، كأنها اليراعة في ضيائها الفردي الباهت في ظلمات الليل البهيم. ولكن عندما تترك الانانية والغرور ترى نفسها حقاً انها لا شئ بالذات، وانما هي مرآة تعكس تجليات موجدها الحقيقي. فتظفر بوجود غير متناه وتربح وجود جميع المخلوقات.

نعم، من يجد الله فقد وجد كل شئ، فما الموجودات جميعها الا تجليات اسمائه الحسنى جل جلاله.

خاتمة

ان هذا الطريق الذي يتكون من اربع خطوات وهي العجز والفقر والشفقة والتفكر، قد سبقت ايضاحاته في »الكلمات الست والعشرين« السابقة من كتاب » الكلمات« الذي يبحث عن علم الحقيقة، حقيقة الشريعة، حكمة القرآن الكريم. الا اننا نشير هنا اشارة قصيرة الى بضع نقاط وهي: ان هذا الطريق هو اقصر واقرب من غيره، لانه عبارة عن اربع خطوات. فالعجز اذا ما تمكن من النفس يسلّمها مباشرة الى »القدير« ذي الجلال.بينما اذا تمكن العشق من النفس - في طريق العشق الذي هو انفذ الطرق الموصلة الى الله - فانها تتشبث بالمعشوق المجازي، وعندما ترى زواله تبلغ المحبوب الحقيقي.

ثم ان هذا الطريق اسلم من غيره، لان ليس للنفس فيه شطحات او ادعـاءات فـوق طاقتها، اذ المرء لا يجد في نفسه غير العجز والفقر والتقصير كي يتجاوز حده.

ثم ان هذا الطريق طريق عام وجادة كبرى، لانه لا يضطر الى اعدام الكائنـات ولا الى سجنها، حيث ان اهل »وحدة الوجود« توهموا الكائنات عدماً، فقالوا: »لا موجود الا هو« لاجل الوصول الى الاطمئنان والحضور القلبي. وكذا اهل »وحدة الشهود« حيـث سـجنوا الكائنات في سجن النسيان فقالوا: »لا مشهود الا هو« للوصول الى الاطمئنان القلبي.

بينما القرآن الكريم يعفو الكائنات بكل وضوح عن الاعدام ويطلـق سـراحها مـن السجن، فهذا الطريق على نهج القرآن ينظر الى الكائنات انها مسخرة لفاطرها الجليل وخادمة في سبيله، وانها مظاهر لتجليات الاسماء الحسنى كأنها مرايا تعكس تلك التجليـات. اي انـه يستخدمها بالمعنى الحرفي ويعزلها عن المعنى الاسمى من ان تكون خادمة ومسـخرة بنفسـها. وعندها ينجو المرء من الغفلة، ويبلغ الحضور الدائمي على نهج القرآن الكريم. فيجد الى الحق سبحانه طريقاً من كل شئ.

وزبدة الكلام: ان هذا الطريق لا ينظر الى الموجودات بالمعنى الاسمي، اي لا ينظر اليها انها مسخرة لنفسها ولذاتها، بل يعزلها من هذا ويقلدها وظيفة، انها مسخرة لله سبحانه.

الكلمة السابعة والعشرون

رسالة الاجتهاد

قبل حوالى خمس سنوات او اكثر كتبتُ بحثا حول »الاجتهاد« في رسـالة بالعربيـة[147] واستجابة لرغبة اخوين عزيزين كتبت هذه »الكلمة« ارشاداً لمن لا يعرف حدّه في هـذه المسألة ليدرك ما يجب ان يقف عنده.

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَلَو رَدّوه الى الرسول والى أولي الامرِ منهُم لَعَلِمه الذين يَستنبطونَه منهم) (النسـاء: 83)

[147] وهي »حباب من عمان القرآن الكريم« من »المثنوي العربي النوري«. - المترجم

ان باب الاجتهاد مفتوح، الا ان هناك ستة موانع في هذا الزمان تحول دون الـــدخول فيه.

اولها:

كما تُسَد المنافذ حتى الصغيرة منها عند اشتداد العواصف في الشتاء، ولا يستصوب فتح أبواب جديدة، وكما لا تفتح ثغور لترميم الجدران وتعمير السدود عند اكتساح السيول، لانه يفضي الى الغرق والهلاك.. كذلك من الجناية في حق الاسلام فتح ابواب جديدة في قصـــره المنيف، وشق ثغرات في جدرانه مما يمهّد السبيل للمتسللين والمخربين باســـم الاجتـــهاد، ولا سيما في زمن المنكرات، ووقت هجوم العادات الاجنبية واستيلائها، واثنـــاء كثـــرة البـــدع وتزاحم الضلالة ودمارها.

ثانيها:

ان الضروريات الدينية التي لا مجال فيها للاجتهاد لقطعيتها وثبوتها، والتي هي في حكم القوت والغذاء، قد اُهملت في العصر الحاضر واخـــــذت بالتصـــــدع، فالواجـــب يحـــتم صرف الجهود وبذل الهمم جميعاً لاحياء هذه الضروريات واقامتها، حيث ان الجوانب النظرية للاسلام قد استثرت بافكار السلف الصالحين وتوسعت باجتهاداتهم الخالصة حـــتى لم تعـــد تضيق بالعصور جميعاً؛ لذا فان ترك تلك الاجتهادات الزكية والانصراف عنها الى اجتهادات جديدة اتباعاً للهوى انما هو خيانة مبتدعة.

ثالثها:

مثلما يروّج لمتاع في السوق حسب المواسم ويرغّب فيه، كـــذلك اســـواق الحيـــاة الاجتماعية ومعارض الحضارة البشرية في العالم، فترى متاعاً يرغّب فيه في عصر، فيكون لـــه رواج، فتُوجَّه اليه الانظار، وتجذب نحوه الافكار، فتحوم حوله الرغبات. فمثلاً: ان المتـــاع الذي تُلفت اليه الانظار في عصرنا الحاضر وتُرغّب فيه هو الانشـــغال بـــالامور السياســـية واحداثها، وتأمين الراحة في الحياة الدنيا وحصر الهمّ بها، ونشر الافكار المادية وترويجها. بينما نرى ان السلعة الغالية النفيسة، والبضاعة الرائجة المقبولة في عصر السلف الصالح واكثر مـــا يرغَّب فيه في سوق زمانهم هو ارضاء رب السموات والارض والوقـــوف عنـــد حـــدوده،

واستنباط اوامره ونواهيه من كلامه الجليل، والسعي لنيل وسائل الوصول الى السعادة الخالدة التي فتح ابوابها الى الابد القرآن الكريم ونور النبوة الساطع. فكانت الاذهان والقلوب والارواح كلها متوجهة - في ذلك العصر - وبكل قواها الى معرفة مرضاة الله سبحانه وادراك مرامي كلامه، حتى باتت وجهة حياتهم واحوالهم المختلفة وروابطهم فيما بينهم وحوادثهم واحاديثهم مقبلة كلها الى مرضاة رب السموات والارضين، لذا ففي مثل هذه الحياة التي تجري بشتى جوانبها وفق مرضاة رب العالمين سبحانه تصبح الحوادث بالنسبة لصاحب الاستعداد والقابليات الفطرية دروساً وعبراً له من حيث لا يشعر، وكأن قلبه وفطرته يتلقيان الدروس والارشاد من كل ما حوله، ويستفيدان من كل حادثة وظرف وطور، وكأن كل شئ يقوم بدور معلم مرشد يعلم فطرته ويلقنها ويرشدها ويهيؤها للاجتهاد، حتى يكاد زيت ذكائه يضئ ولو لم تمسسه نار الاكتساب. فاذا ما شرع مثل هذا الشخص المستعد في مثل هذا المجتمع، بالاجتهاد في اوانه، فان استعداده ينال سراً من اسرار (نور على نور) ويصبح في اقرب وقت واسرعه مجتهداً.

بينما في العصر الحاضر: فان تحكم الحضارة الاوروبية، وتسلط الفلسفة المادية وافكارها، وتعقد متطلبات الحياة اليومية.. كلها تؤدي الى تشتت الافكار وحيرة القلوب وتبعثر الهمم وتفتت الاهتمامات، حتى اضحت الامور المعنوية غريبة عن الاذهان.

لذا، لو وجد الآن مَن هو بذكاء (سفيان بن عيينة) [148] الذي حفِظ القرآن الكريم وجالس العلماء وهو لا يزال في الرابعة من عمره، لاحتاج الى عشرة امثال ما احتاجه ابن عيينة ليبلغ درجة الاجتهاد، اي انه لو كان قد تيسر لسفيان بن عيينة الاجتهاد في عشر

---

[148] ولد في الكوفة سنة 107 هـ وتوفي سنة 198 هـ بمكة المكرمة كان اماماً عالماً ثبتاً، حجة زاهداً ورعاً مجمعاً على صحة حديثه وروايته، حج سبعين حجة، ادرك نيفاً وثمانين نفساً من التابعين. روى عن الزهري والسبيعي وابن المنكدر وابي الزناد وعاصم المفري والاعمش وعبد الملك بن عمير وغير هؤلاء من اعيان العلماء. وروى عنه الامام الشافعي وشعبة ومحمد بن اسحاق وابن جريج وابن بكار وعمه مصعب والصنعاني ويحيى بن اكثم وخلق كثير رضي ا عنهم (باختصار عن وفيات الاعيان لابن خلكان 2/391). - المترجم.

سنوات فان الذي في زماننا هذا قد يحصل عليه في مائة سنة، ذلك لان مبدأ تعلم (سفيان) الفطري للاجتهاد يبدأ من سن التمييز ويتهيأ استعداده تدريجاً كاستعداد الكبريت للنار، اما نظيره في الوقت الحاضر فقد غرق فكرُه في مستنقع الفلسفة المادية وسرح عقلُه في احداث السياسة، وحار قلبُه امام متطلبات الحياة المعاشية، وابتعدت استعداداته وقابلياته عن الاجتهاد، فلا جرم قد ابتعد استعداده عن القدرة على الاجتهادات الشرعية بمقدار تفننه في العلوم الارضية الحاضرة، وقصر عن نيل درجة الاجتهاد بمقدار تبحره في العلوم الارضية، لذا لا يمكنه ان يقول لِمَ لا استطيع ان ابلغ درجة سفيان بن عيينة، وانا مثله في الذكاء؟ نعم، لا يحق له هذا القول، كما انه لن يلحق به ولن يبلغ شأوه ابداً.

رابعها:

ان ميل الجسم الى التوسع لاجل النمو إن كان داخلياً فهو دليل التكامل. بينما ان كان من الخارج فهو سبب تمزق الغلاف والجلد، اي انه سبب الهدم والتخريب لا النمو والتوسع.

وهكذا، فان وجود ارادة الاجتهاد والرغبة في التوسع في الدين عند الذين يدورون في فلك الاسلام ويأتون اليه من باب التقوى والورع الكاملَين وعن طريق الامتثال بالضروريات الدينية فهو دليل الكمال والتكامل. وخير شاهد عليه السلف الصالح. اما التطلع الى الاجتهاد والرغبة في التوسع في الدين إن كان ناشئاً لدى الذين تركوا الضروريات الدينية واستحبوا الحياة الدنيا، وتلوثوا بالفلسفة المادية، فهو وسيلة الى تخريب الوجود الاسلامي وحل ربقة الاسلام من الاعناق.

خامسها:

هناك ثلاث نقاط تدعو الى التأمل والنظر، تجعل اجتهادات هذا العصر ارضية وتسلب منها روحها السماوي، بينما الشريعة سماوية والاجتهادات بدورها سماوية، لاظهارها خفايا احكامها. والنقاط هي الاتي:

اولاً ـــ ان (علّة) كل حكم تختلف عن (حكمته) فالحكمة والمصلحة سبب الترجيح وليست مناط الوجود ولامدار الايجاد، بينما (العلة) هي مدار وجود الحكم.

ولنوضح هذا بمثال: تُقصر الصلاة في السفر، فتصلّى ركعتان فعلّة هذه الرخصة الشرعية السفر. اما حكمتها فهي المشقة. فاذا وجُد السفرُ و لم تكن هناك مشقة فالصلاة تُقصـــر، لان العلة قائمة وهي السفر. في حين ان لم يكن هناك سفر وكانت هناك اضعاف اضعاف المشقة، فلن تكون تلك المشقات علة القصر.

وخلافاً لهذه الحقيقة يتوجه نظر الاجتهاد في هذا العصر، الى اقامة المصلحة والحكمـــة بدل العلة، وفي ضوئها يصدر حكمه، فلا شك ان اجتهاداً كهذا ارضي وليس بسماوي.

ثانياً ـــــ ان نظر هذا العصر متوجه اولاً وبالذات الى تأمين سعادة الـــدنيا، وتوجّـــه الاحكام نحوها، والحال ان قصد الشريعة متوجه اولا وبالذات الى سعادة الآخرة، وينظـــر الى سعادة الدنيا بالدرجة الثانية، ويتخذها وسيلة للحياة الاخرى، اي ان وجهة هذا العصر غريبة عن روح الشريعة ومقاصدها، فلا تستطيع ان تجتهد باسم الشريعة.

ثالثاً ـــ ان القاعدة الشرعية (الضرورات تبيح المحظورات) ليست كلية، لان الضرورة ان كانت ناشئة عن طريق الحرام لا تكون سبباً لإباحة الحرام. والاّ فالضرورة التي نشأت عـــن سوء اختيار الفرد، او عن وسائل غير مشروعة لن تكون حجة ولا سبباً لإباحة المحظـــورات ولا مداراً لأحكام الرُخص.

فمثلاً: لو اسكر احد نفسه – بسوء اختياره – فتصرفاته لدى علماء الشرع حجة عليه، اي لا يُعذَر، وان طلّق زوجته فطلاقُه واقع، وان ارتكب جريمة يعاقب عليها، ولكن ان كانت من دون اختيار منه، فلا يقع طلاقه، ولا يعاقب على ما جنى. فليس لمدمن خمر – مثلاً – ان يقول انها ضرورة لي، فهي اذن حلال لي، حتى لو كان مبتلىً بها الى حد الضرورة بالنسبة له.

فانطلاقاً من هذا المفهوم فان هناك كثير من الامور في الوقت الحاضر ابتلي بها النـــاس وباتت ضرورية بالنسبة لهم، حتى اخذت شكل (البلوى العامة) فهذه التي تسمى ضرورة، لن تكون حجة لاحكام الرُخَص، ولا تباح لاجلها المحظورات، لانها نجمت من سوء اختيار الفرد ومن رغبات غير مشروعة ومن معاملات محرمة.

وحيث ان اهل اجتهاد هذا الزمان قد جعلوا تلك الضرورات مداراً للاحكام الشرعية، لذا اصبحت اجتهاداتهم ارضية وتابعة للهوى ومشوبة بالفلسفة المادية، فهـــي اذن ليســـت

سماوية، ولا تصح تسميتها اجتهادات شرعية قطعاً؛ ذلك لان اي تصرف في احكام خالق السموات والارض واي تدخل في عبادة عباده دونما رخصة او إذن معنوي فهو مردود.

ولنضرب لذلك مثالاً:

يستحسن بعض الغافلين القاء خطبة الجمعة وامثالها من الشعائر الاسلامية باللغة المحلية لكل قوم دون العربية ويبررون استحسانهم هذا بسببين:

الاول: »ليتمكن عوام المسلمين من فهم الاحداث السياسية«! مع انها قد دخلها من الاكاذيب والدسائس والخداع ما جعلها في حكم وسوسة الشياطين! بينما المنبر مقام تبليغ الوحي الإلهي، وهو ارفع واجل من ان ترتقى اليه الوسوسة الشيطانية.

الثاني: »الخطبة هي لفهم ما يرشد اليه بعض السور القرآنية من نصائح«.

نعم؛ لو كان معظم المسلمين يفهمون المسلّمات الشرعية والاحكام المعلومة من الدين بالضرورة، ويمتثلون بها، فلربما كان يستحسن عند ذاك ايراد الخطبة باللغة المعروفة لديهم، ولكانت ترجمة سور من القرآن لها مبرر — ان كانت الترجمة ممكنة [149] –وذلك ليفهموا النظريات الشرعية والمسائل الدقيقة والنصائح الخفية. اما وقد اهملت في زماننا هذا الاحكام الواضحة المعلومة؛ كوجوب الصلاة والزكاة والصيام وحرمة القتل والزنا والخمر، وان عوام المسلمين ليسوا بحاجة الى دروس في معرفة هذا الوجوب وتلك الحرمة بقدر ما هم بحاجة الى الامتثال بتلك الاحكام واتباعها في حياتهم. ولا يتم ذلك الا بتذكيرهم وحثهم على العمل وشحذ الهمم واثارة غيرة الاسلام في عروقهم، وتحريك شعور الايمان لديهم كي ينهضوا بامتثال واتباع تلك الاحكام المطهرة.

فالمسلم العامي – مهما بلغ جهله – يدرك هذا المعنى الاجمالي من القرآن الكريم، ومن الخطبة العربية. ويعلم في قرارة نفسه بان الخطيب او المقرئ للقرآن الكريم يذكّره – ويذكّر

---

[149] لقد اثبتت الكلمة الخامسة والعشرون »المعجزات القرآنية« انه لا يمكن ترجمة القرآن ترجمة حقيقية. - المؤلف.

الاخرين معه – باركان الايمان واسس الاسلام التي هي معلومة من الدين بالضرورة. وعندها يفعم قلبه بالاشواق الى تطبيق تلك الاحكام.

ليت شعري اي تعبير في الكون كله يمكنه ان يقف على قدميه حيال الاعجاز الرائع في القرآن الكريم الموصول بالعرش العظيم.. واي ترغيب وترهيب وبيان وتذكير يمكن ان يكون افضل منه؟!

سادسها:

ان قرب عهد المجتهدين العظام من السلف الصالحين لعصر الصحابة الكرام الذي هو عصر الحقيقة وعصر النور يسَّر لهم ان يأخذوا النور الصافي من اقرب مصادره، فتمكنوا من القيام باجتهاداتهم الخالصة، في حين ان مجتهدي العصر الحديث ينظرون الى كتاب الحقيقة من مسافة بعيدة جداً ومن وراء كثير جداً من الاستار والحجب حتى ليصعب عليهم رؤية اوضح حرف فيه.

فان قلت: ان مدار الاجتهادات ومصدر الاحكام الشرعية هو عدالة الصحابة وصدقهم، حتى اتفقت الامة على انهم عدول صادقون، علما انهم بشر مثلنا، لا يخلون من خطأ!

الجواب: ان الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين هم روّاد الحق وعشاقه، وهم التواقون الى الصدق والعدل. ولقد تبين في عصرهم قبح الكذب ومساوؤه، وجمال الصدق ومحاسنه بوضوح تام، بحيث اصبح البون شاسعاً بين الصدق والكذب كالبعد بين الثريا والثرى وبين العرش والفرش!! اذ يوضح ذلك الفارق الكبير بين الرسول الاعظم(ص) الواقف على قمة درجات الصدق وفي اعلى عليين وبين مسيلمة الكذاب الذي كان في اسفل سافلين وفي اوطأ دركات الكذب.

فالذي اهوى بمسيلمة الى تلك الدركات الهابطة الدنيئة هو الكذب والذي رفع »محمداً الامين«(ص) الى تلك الدرجات الرفيعة هو الصدق والاستقامة.

لذا فالصحابة الكرام رضوان الله عليهم الذين كانوا يملكون الهمم العالية والخلق الرفيع واستناروا بنور صحبة شمس النبوة، لا ريب انهم ترفعوا عن الكذب الممقوت القبيح الموجود

في بضاعة مسيلمة الكذاب ونجاساتها الموجبة للذلة والهوان - كما هو ثابت - وتجنبوا الكذب كتجنبهم الكفر الذي هو صنوه، وسعوا سعياً حثيثاً في طلب الصدق والاستقامة والحق، وتحروه بكل ما اوتوا من قوة وعزم. فشغفوا به ولا سيما في رواية الاحكام الشرعية وتبليغها، تلك الاحكام المتسمة بالحسن وبالجمال القمينة بالمباهاة والفخر، والتي هي وسيلة للعروج صعداً الى الرقي والكمال، والموصولة السبب بعظمة الرسول(ص) الذي تنورت بنور شعاعه الحياة البشرية.

اما الآن، فقد ضاقت المسافة بين الكذب والصدق، وقصرت حتى صارا متقاربين بل متكاتفين، وبات الانتقال من الصدق الى الكذب سهلاً وهيناً جداً بل غدا الكذب يفضل على الصدق في الدعايات السياسية.

فان كان اجمل شئ يباع مع اقبحه في حانوت واحد جنباً الى جنب وبالثمن نفسه، ينبغي على مشتري لؤلؤة الصدق الغالي الاّ يعتمد على كلام صاحب الحانوت ومعرفته دون فحص وتمحيص.

الخاتمة

تتبدل الشرائع بتبدل العصور، وقد تأتي شرائع مختلفة، وترسل رسل كرام في عصر واحد، حسب الاقوام. وقد حدث هذا فعلاً.

اما بعد ختم النبوة، وبعثة خاتم الانبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام فلم تعد هناك حاجة الى شريعة اخرى. لان شريعته العظمى كافية ووافية لكل قوم في كل عصر.

اما جزئيات الاحكام غير المنصوص عليها التي تقتضي التبديل تبعاً للظروف، فان اجتهادات فقهاء المذاهب كفيلة بمعالجة التبديل. فكما تبدل الملابس باختلاف المواسم، وتغيّر الادوية حسب حاجة المرضى، كذلك تبدل الشرائع حسب العصور، وتدور الاحكام وفق استعدادات الامم الفطرية، لان الاحكام الشرعية الفرعية تتبع الاحوال البشرية، وتأتي منسجمة معها وتصبح دواء لدائها.

ففي زمن الانبياء السابقين عليهم السلام كانت الطبقات البشرية متباعدة بعضها عن بعض، مع ما فيهم من جفاء وشدة في السجايا، فكانوا اقرب ما يكونون الى البداوة في

الافكار، لذا اتت الشرائع في تلك الازمنة متباينة مختلفة، مع موافقتها لأحوالهم وانسجامها على اوضاعهم، حتى لقد اتى انبياء متعددون بشرائع مختلفة في منطقة واحدة وفي عصر واحد.

ولكن بمجيء خاتم النبيين وهو نبي آخر الزمان(ص)، تكاملت البشرية وكأنها ترقت من مرحلة الدراسة الابتدائية فالثانوية الى مرحلة الدراسة العالية واصبحت اهلاً لان تتلقى درساً واحداً، وتنصت الى معلم واحد، وتعمل بشريعة واحدة. فرغم كثرة الاختلافات لم تعد هناك حاجة الى شرائع عدة ولا ضرورة الى معلمين عديدين.

ولكن لعجز البشرية من ان تصل جميعاً الى مستوى واحد، وعدم تمكنها من السير على نمط واحد في حياتها الاجتماعية فقد تعددت المذاهب الفقهية في الفروع.

فلو تمكنت البشرية - باكثريتها المطلقة - ان تحيا حياة اجتماعية واحدة، واصبحت في مستوى واحد، فحينئذ يمكن أن تتوحد المذاهب.

ولكن مثلما لا تسمح احوال العالم، وطبائع الناس لبلوغ تلك الحالة، فان المذاهب كذلك لا تكون واحدة.

فان قلت: ان الحق واحد، فكيف يمكن ان تكون الاحكام المختلفة للمذاهب الاربعة والاثني عشر حقاً؟

الجواب: يأخذ الماء احكاماً خمسة مختلفة حسب اذواق المرضى المختلفة وحالاتهم:

فهو دواء لمريض على حسب مزاجه، اي تناوله واجب عليه طباً. وقد يسبب ضرراً لمريض آخر فهو كالسم له، اي يحرم عليه طباً، وقد يولد ضرراً اقل لمريض آخر فهو اذن مكروه له طباً، وقد يكون نافعاً لآخر من دون أن يضره، فيسنّ له طباً، وقد لا يضر آخر ولا ينفعه، فهو له مباح طباً فليهنأ بشربه.

فنرى من الامثلة السابقة:

ان الحق قد تعدد هنا، فالاقسام الخمسة كلها حق، فهل لك ان تقول: ان الماء علاج لا غير، او واجب فحسب، وليس له حكم آخر؟.

وهكذا ـ بمثل ما سبق - تتغير الاحكام الإلهية بسَوْقٍ من الحكمة الإلهية وحسب التابعين لها. فهي تتبدل حقاً، وتبقى حقاً ويكون كل حكم منها حقاً ويصبح مصلحة.

فمثلا: نجد ان اكثرية الذين يتبعون الامام الشافعي رضى الله عنه هم اقرب من الاحناف الى البداوة وحياة الريف، تلك الحياة القاصرة عن حياة اجتماعية توحدّ الجماعة. فيرغب كل فرد في بث ما يجده في نفسه الى قاضي الحاجات بكل اطمئنان وحضور قلب، ويطلب حاجته الخاصة بنفسه ويلتجئ اليه، فيقرأ سورة الفاتحة بنفسه رغم انه تابع للامام. وهذا هـو عـين الحق، وحكمة محضة في الوقت نفسه. اما الذين يتبعون الامام الاعظم »ابو حنيفة النعمـان« رضى الله عنه، فهم باكثريتهم المطلقة اقرب الى الحضارة وحياة المدن المؤهلة لحياة اجتماعية، وذلك بحكم التزام اغلب الحكومات الاسلامية لهذا المذهب. فصارت الجماعة الواحـدة في الصلاة كأنها فرد واحد، واصبح الفرد الواحد يتكلم باسم الجميـع، وحيـث ان الجميـع يصدقونه ويرتبطون به قلباً، فان قوله يكون في حكم قول الجميع، فعدم قـراءة الفـرد وراء الامام بـ »الفاتحة« هو عين الحق وذات الحكمة.

ومثلاً: لما كانت الشريعة تضع حواجز لتحول دون تجاوز طبـائع البشـر حـدودها، فتقوّمها بها وتؤدبها، فتربى النفس الامارة بالسوء، فلابد ان ينقض الوضوء بمس المرأة وقليل من النجاسة يضر، حسب المذهب الشافعي الذي اكثر اتباعه من اهل القرى وانصـاف البـدو والمنهمكين بالعمل اما حسب المذهب الحنفي الذين هم باكثريتهم المطلقة قد دخلوا الحيـاة الاجتماعية، واتخذوا طور انصاف متحضرين فـ »لا ينقض الوضوء من مسِّ المرأة، ويسمح بقدر درهم من النجاسة«. ولننظر الآن الى عامل والى موظف، فالعامل بحكـم معيشـته في القرية معرض للاختلاط والتمـاس بالنسـاء الاجنبيـات والجلـوس معـاً حـول مـوقـد واحـد، والـولـوج في اماكن ملوثة فهو مبتلى بكل هذا بحكم مهنته ومعيشته، وقد تجد نفسه الامارة بالسوء مجالاً امامها لتتجاوز حدودها؛ لذا تلقي الشريعة في روع هذا صدى سماوياً فتمنع تلك التجاوزات بامرها له: لا تمـس مـا يـنقض الوضوء، فتبطل صلاتك. اما ذلك الموظف، فهو حسب عادتـه الاجتماعيـة لا يتعـرض للاختلاط بالنساء الاجنبيات - بشرط ان يكون نبيلاً - ولا يلوث نفسه كثيراً بالنجاسات، آخذاً باسباب النظافة المدنية. لذا لم تشدد عليه الشريعة، بل اظهرت له جانب الرخصـة - دون العزيمة - باسم المذهب الحنفي وخففت عنه قائلة: ان مست يدك امرأة اجنبية فلا ينقض

وضوءك، ولا ضرر عليك ان لم تستنج بالماء حياء من الحاضرين، فهناك سماح بقدر درهم من النجاسة فتخلصه بهذا من الوسوسة، وتنجّيه من التردد.

فهاتان قطرتان من البحر نسوقهما مثالاً، قس عليهما، واذا استطعت ان تزن مـــوازين الشريعة بميزان »الشعراني« على هذا المنوال فافعل.

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

اللّهم صل وسلم على مَن تمثّل فيه انوارُ محبتك لجمال صفاتك واسمائك، بكونه مـــرآةً جامعة لتجليات اسمائك الحسنى.. ومَن تمركز فيه شعاعاتُ محبتك لصنعتك في مصـــنوعاتك بكونه اكملَ وابدعَ مصنوعاتك، وصيرورته انموذج كمالات صنعتك، وفهرســـتة محاســـن نقوشك.. ومَن تظاهر فيه لطائف محبتك ورغبتك لاستحسان صنعتك بكونـــه اعلـــى دلالي محاسن صنعتك وارفع المستحسنين صوتاً في اعلان حسن نقوشك وابدعهم نعتاً لكمـــالات صنعتك.. ومَن تجمّع فيه اقسامُ محبتك واستحسانك لمحاسن اخـــلاق مخلوقاتـــك ولطـــائف اوصاف مصنوعاتك، بكونه جامعاً لمحاسن الاخلاق كافة باحسانك وللطـــائف الاوصـــاف قاطبة بفـــضلك.. ومَن صار مصداقاً ومقياساً فائقاً لجميع من ذكرتَ في فرقانك انك تحبهم من المحسنين والصابرين والمؤمنين والمتقين والتوابين والاوابين وجميع الاوصاف الذين احببتهم وشرفتهم بمحبتك، في فرقانك حتى صار امام الحبيبين لك، وسيد المحبوبين لك ورئيس اودّائك وعلى آله واصحابه واخوانه اجمعين آمين برحمتك يا ارحم الراحمين.

ذيل

رسالة الاجتهاد

يخص الصحابة الكرام

رضوان الله تعالى عليهم اجمعين

اقول كما قال مولانا جامي:

يا رسول الله جه باشد جون سك اصحاب كهف

داخـــل جنـــت شوم در زمـــرهء اصحـــاب تـــو؟

او رود درجنـــت ومـــن درجهنم كـــى رواســـــت

او سك اصحـــاب كهف ومن ســـــك اصحـــاب تو؟.

يا رسول الله ما ضر لو دخلت الجنة مع الداخلين،

ككلب اصحاب الكهف في زمرة اصحابك الاولين.

أيُّنا ألَيَق بالجنة انا أم مَن حرس الكهف سنين

هو كلب اصحاب الرقيم وانا كلب اصحاب الامين .[150]

باسمه سبحانه

(وان من شئ إلاّ يسبح بحمده)

بسم الله الرحمن الرحيم

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالذينَ مَعَهُ أشدّاءُ على الكفّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم تَراهُمْ رُكَّعاً سُـــجّداً يَبْتَغُونَ فــَضْلاً مِن اللهِ وَرِضْوَاناً سيمَاهُمْ فى وُجُوههِمْ مِن اَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فى التَّوراةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الانْجيلِ كَزَرعٍ اَخْرَجَ شَطْئهُ فَآزَرَهُ فَاستَغلَظَ فَاسْتَوى علَى سُوقِه يُعْجبُ الـــزُّرَّاعَ لِيَغيظَ بِهِمُ الكُفَّار وَعَدَ اللهُ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات مِنْهُمْ مَغْفِـــرةً واَجْـــراً عَظيمـــاً). (الفتح:29).

تسأل يا اخي: ان هناك روايات تفيد انه عند انتشار البدع يمكن ان يبلـــغ مؤمنـــون صادقون درجة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وربما يسبقونهم، فهـــل هـــذه الروايـــات صحيحة؟ وان كانت كذلك، فما حقيقتها؟

الجواب: ان اجماع اهل السنة والجماعة لهو حجة قاطعة بان الصحابة الكرام هم افضل البشر بعد الانبياء عليهم السلام. فالصحيح من تلك الروايات يخص الفضائل الجزئية ولـــيس الفضائل الكلية، اذ قد يترجح المرجوح على الراجح في الفضائل الجزئية وفي كمال خـــاص

---

[150]) ترجمة الابيات الفارسية المتصدرة بما يشبه الشعر. - المترجم.

معين، والاّ فلا يبلغ احد من حيث الفضائل الكلية منزلة الصحابة الكرام الذين اثنى الله تعالى عليهم في قرآنه المبين ووصفَهم في التوراة والانجيل، كما هو في ختام سورة الفتح.

وسنبين ثلاثاً من الحكم المنطوية على اسباب ثلاثة من بين الكثير من الاسباب والحكم.

«الحكمة الاولى:

ان الصحبة النبوية اكسير عظيم، لها من التأثير الخارق ما يجعل الذين يتشرفون بها لدقيقة واحدة ينالون من انوار الحقيقة ما لا يناله من يصرف سنين من عمره في السير والسلوك، ذلك لان في الصحبة النبوية انصباغاً بصبغة الحقيقة، وانعكاساً لانوارها، اذ يستطيع المرء بانعكاس ذلك النور الاعظم ان يرقى الى مراتب سامية ودرجات رفيعة، وان يحظى بالتبعية والانتساب بارفع المقامات. مثله في هذا مثل خادم السلطان، الذي يستطيع ان يصل الى مواقع رفيعة لا يقدر على بلوغها قواد السلطان وامراؤه.

ومن هذا السر نرى انه لا يستطيع ان يرقى اعظم ولي من اولياء الله الصالحين الى مرتبة صحابي كريم للرسول الاعظم (ص)، بل حتى لو تَشرف اولياء صالحون مراراً بصحبة النبي(ص) في الصحوة، كجلال الدين السيوطي – مثلاً – وأُكرموا بلقائه يقظة في هذا العالم، فلا يبلغون ايضاً درجة الصحابة لان صحبة الصحابة الكرام للنبي (ص) كانت بنور النبوة، إذ كانوا يصحبونه في حالة كونه نبياً رسولاً. اما الاولياء الصالحون فان رؤيتهم له (ص) انما هي بعد وفاته، اي بعد انقطاع الوحي، فهي صحبة بنور الولاية، اي ان تمثل الرسول (ص) وظهوره لنظرهم انما هو من حيث الولاية الاحمدية، وليس باعتبار النبوة.

فما دام الامر هكذا، فلا بد ان تتفاوت الصحبتان بمقدار سمو درجة النبوة وعلوها على مرتبة الولاية.

ولكي يتوضح ما للصحبة النبوية من تأثير خارق ونور عظيم، يكفي ملاحظة ما يأتي:

بينما اعرابي غليظ القلب يئد بنته بيده، اذا به يكسب خلال حضوره مجلس الرسول (ص) ومن صحبته ساعة من الزمان، رقة قلب وسعة صدر وشفافية روح ما يجعله يتحاشى قتل نملة صغيرة.

أو آخر يجهل شرائع الحضارة وعلومها، يحضر مجلس الرسول الكريم (ص) فيصبح معلماً لأرقى الامم المتحضرة - كالهند والصين - ويحكم بينهم بالقسطاس المستقيم، ويغدو لهم مثلاً اعلى وقدوة طيبة.

«الحكمة الثانية:

لقد اثبتنا في رسالة (الاجتهاد) ان الصحابة الكرام هم في قمة الكمال الانساني، حيث ان التحول العظيم الذي احدثه الاسلام في مجرى الحياة في ذلك الوقت، سواء في المجتمع او في الفرد، قد ابرز جمال الخير والحق واظهر نصاعتهما الباهرة، وكشف عن خبث الشر والباطل وبيّن سماجتهما وقبحهما، حتى انجلى كل من الحق والباطل والصدق والكذب بوضوح تام، يكاد المرء يلمسه لمس اليد، وانفرجت المسافة بين الخير والشر وبين الصدق والكذب، ما بين الايمان والكفر، بل ما بين الجنة والنار.

لذا فالصحابة الكرام رضى الله عنهم الذين وُهبوا فطراً سليمة ومشاعر سامية، وهم التواقون لمعالي الامور ومحاسن الاخلاق شدوا انظارهم الى الذي تسنَّم قمة اعلى عليي الكمال والداعي الى الخير والصدق والحق، بل هو المثال الاكمل والنموذج الاتم، ذلكم الرسول الكريم حبيب رب العالمين محمد (ص)، فبذلوا كل ما وهبهم الله سبحانه من قوة للانضواء تحت لوائه، بمقتضى سجيتهم الطاهرة وجبلتهم النقية، و لم يُر منهم اي ميل كان الى اباطيل مسيلمة الكذاب الذي هو مثال الكذب والشر والباطل والخرافات.

ولتوضيح الامر نسوق هذا المثال:

تعرض احياناً في سوق الحضارة البشرية ومعرض الحياة الاجتماعية اشياء لها من الآثار السيئة المرعبة والنتائج الشريرة الخبيثة ما للسم الزعاف للمجتمع. فكل من كانت له فطرة سليمة ينفر منها بشدة ويتجنبها ولا يقربها.. وتعرض كذلك اشياء اخرى وامتعة معنوية في السوق نفسها، لها من النتائج الطيبة والآثار الحسنة ما يستقطب الانظار اليها، وكأنها الدواء الناجع لامراض المجتمع، لذا يسعى نحوها المفطورون على الخير والصلاح.

وهكذا، ففي عصر النبوة السعيد وخير القرون على الاطلاق، عرضت في سوق الحياة الاجتماعية امور. فبديهي ان يسعى الصحابة الكرام نحو الصدق والخير والحق لما يملكون من

فطر صافية وسجايا سامية، وبديهي كذلك ان ينفروا ويتجنبوا كل ماله نتائج وخيمة وشقاء الدنيا والآخرة كالكذب والشر والكفر، فالتفوا حول راية الرسول الكـــريم (ص) وتجنبـــوا مهازل مسيلمة الكذاب الذي يمثل الكذب والشر والباطل.

بيد ان الامور تغيرت تدريجياً وبمرور الزمن فلم تبق على حالها كما هي في قرون الخير، فتقلصت المسافة بين الكذب والصدق رويداً رويداً كلما اقتربنا الى عصورنا الحاضرة حـــتى اصبحا مترادفين متكاتفين في العصر الحاضر، فصار الصدق والكذب يعرضان معاً في معرض واحد، ويصدران معاً من مصدر واحد ففسدت الاخلاق الاجتماعية واختلـــت موازينـــها. وزادت الدعايات السياسية اخفاء قبح الكذب المرعب وستر جمال الصدق الباهر.

فهل يقوى احد على الجرأة في عصر كهذا ويدّعي: استطيع ان ادنو من مرتبة اولئـــك الكرام العظام الذين بلغوا من اليقين والتقوى والعدالة والصدق وبذل النفس والنفيس في سبيل الحق ما لم يبلغه احد، فضلاً عن ان يسبقهم؟

سأورد حالة مرت علي توضح جانباً من هذه المسألة:

لقد خطر على قلبي ذات يوم سؤال وهو: لِمَ لا يبلغ اشخاص امثال محي الدين بن عربي مرتبة الصحابة الكرام؟ ثم لاحظت في اثناء قولي في سجودٍ في صلاة: (سبحان ربي الاعلى) ان شيئا من الحقائق الجليلة لمعاني هذه الكلمة الطيبة قد انكشف لي، لا اقول كلها، بل انكشف شئ منها. فقلت في قلبي: ليتني احظى بصلاة كاملة تنكشف لي من معانيها ما انكشف مـــن معاني هذه الكلمة المباركة فهي خير من عبادة سنة كاملة من النوافل. ثم ادركـــت عقـــب الصلاة ان تلك الخاطرة وتلك الحال كانت جواباً على سؤالي، وارشاداً الى اســـتحالة ادراك احد من الناس درجة الصحابة الكرام في العبادة، ذلك ان التغيير الاجتماعي العظـــيم الـــذي أحدثه القرآن الكريم بأنواره الساطعة قد ميَّز الاضداد بعضها عن البعض الآخـــر، فالشـــرور بجميع توابعها وظلماتها اصبحت في مجابهة الخير والكمالات مع جميع انوارها ونتائجها. ففـــي هذه الحالة المحفزة لانطلاق نوازع الخير والشر من عقالها، تنبهت لدى اهل الخير نوازعه فغدا كل ذكر وتسبيح وتحميد يفيد لديهم معانيه كاملة ويعبر عنها تعبيراً ندياً نضراً. فارتشـــفت مشاعرهم المرهفة ولطائفهم الطاهرة بل حتى خيالهم وسرهم رحيق المعاني السامية العديـــدة

لتلك الاذكار ارتشافاً صافياً يقظاً حسب اذواقها الرقيقة. وبناء على هـــذه الحكمـــة، فـــان الصحابة الكرام الذين كانو يملكون مشاعر حساسة مرهفة وحواس منتبهة ولطائف يقظـــة، عندما يذكرون تلك الكلمات المباركة الجامعة لانوار الايمان والتسبيح والتحميـــد يشـــعرون بجميع معانيها ويأخذون حظهم منها بجميع لطائفهم الزكية.

بيد ان الامور لم تبق على ذلك الوضع الندي والطراوة والجدة فتبدلت تدريجياً بمـــرور الزمن حتى غطت اللطائف في نوم عميق، وغفلت المشاعر والحواس وانصرفت عن الحقـــائق ففقدت الاجيال اللاحقة شيئاً فشيئاً قدرتهم على تذوق طراوة تلك الكلمات الطيبة والتلـــذذ بطعومها ونداوتها. فغدت لديهم كالثمار الفاقدة لطراواتها ونضارتها، حتى لكأنهـــا جفـــت ويـــبست ولم تعد تحمل لهم الا نزراً يسيراً من الطراوة، لا تستخلص الا بعد اعمال الـــذهن والتفكر العميق، وبذل الجهد وصرف الطاقة، لذا فالصحابي الجليل الذي ينال مقاماً وفضيلة في اربعين دقيقة لا يناله غيره الا في اربعين يوماً، بل في اربعين سنة، وذلك بفضل الصـــحبة النبوية الشريفة.

«السبب الثالث:

لقد اثبتنا في كل من الكلمات (الثانية عشرة والرابعة والعشرين والخامسة والعشرين):

ان نسبة النبوة الى الولاية كنسبة الشمس المشهودة بذاتها الى صورتها المثالية الظاهرة في المرايا، لذا فان سمو منزلة العاملين في دائرة النبوة وهم الصحابة الكرام الذين كـــانوا اقـــرب النجوم الى تلك الشمس الساطعة، وعلو مرتبتهم على الاولياء الصالحين هو بنسبة سمو دائـــرة النبوة وعلوها على دائرة الولاية، بل حتى لو كسب احد الاولياء مرتبة الولاية الكبرى، وهي مرتبة ورثة الانبياء والصديقين وولاية الصحابة، فانه لا يبلغ مقام اولئك الصفوة المتقدمين في الصف الاول، رضوان الله تعالى عليهم اجمعين.

سنبين ثلاثة اوجه فقط من بين الوجوه العديدة لهذا السبب الثالث:

الوجه الاول:

لا يمكن اللحاق بالصحابة الكرام في الاجتهاد، اي في اســـتنباط الاحكـــام، اي ادراك مرضاة الله سبحانه من خلال كلامه؛ لان محور ذلك الانقلاب الإلهي العظيم الذي حدث في

ذلك الوقت كان يدور على مرضاة الرب من خلال فهم احكامه الإلهية. فالاذهان كلها كانت مفتوحة متوجهة الى استنباط الاحكام، والقلوب كلها كانت متلهفة الى معرفة: ماذا يريد منا ربنا؟ فالمحادثات والمحاورات كانت تتضمن هذه المعاني، والظروف والاحداث تجري في ضوئها.

وحيث ان كل شئ في ذلك الوقت وكل حال وكل محاورة ومجالسة ومحادثة وحكاية تجري بما يرشد الى تلك المعاني ويدل عليها، لذا كانت - تلك الظروف - تكمل قابليات الصحابة الكرام وتنور افكارهم وتهيئ استعداداتهم لقدح زنادها للاجتهاد واستنباط الاحكام، اذ كانوا يكسبون من الملكة على الاستنباط والاجتهاد في يوم واحد او في شهر واحد ما لا يمكن ان يحصل عليها في هذا الوقت من هو في مستوى ذكائهم واستعدادهم في عشر سنوات، بل في مائة سنة، لان الانظار في الوقت الحاضر متوجهة الى نيل حياة دنيوية رغيدة دون سعادة الآخرة الابدية وحياة النعيم المقيم فيها، فالانظار مصروفة عنها. فهموم العيش التي تتضاعف بعدم التوكل على الله تلقي ثقلها على روح الانسان وتجعلها في اضطراب وقلق، والفسلفة المادية والطبيعية تكل العقل وتعمي البصيرة. فترى المحيط الاجتماعي الحاضر مثلما لا يمد ذهن ذلك الشخص (الذكي) ولا يؤازر استعداده الفطري نحو الاجتهاد فضلاً عن انه يشتته ويرهقه اكثر.

ولقد عقدنا موازنة في رسالة (الاجتهاد) بين سفيان بين عيينة ومَن هو في مستوى ذكائه في هذا العصر، وخلصنا من الموازنة الى ان ما حصل عليه سفيان في عصره من القدرة على الاستنباط في عشر سنوات لا يمكن ان يحصل عليه من هو بمستوى ذكائه في هذا العصر في مائة سنة.

الوجه الثاني:

لا يمكن اللحاق بالصحابة الكرام في قربهم من الله بخطى الولاية؛ ذلك لان الله سبحانه وتعالى هو اقرب الينا من حبل الوريد، اما نحن فبعيدون عنه بعداً مطلقاً، والانسان يمكنه ان ينال القرب منه بالصورتين الآتيتين:

الصورة الاولى: من حيث انكشاف اقربيته سبحانه وتعالى للعبد. فقرب النبوة اليه تعالى هو من هذا الانكشاف. والصحابة الكرام من حيث انهم ورثة النبوة والصحبة النبوية يحظون بهذا الانكشاف.

الصورة الثانية: من حيث بُعدنا عنه سبحانه، فالتشرف بشئ من قربه سبحانه يكـــون بقطع المراتب اليه. واغلب طرق الولاية، وما فيها من سير وسلوك تجري على هذه الصـــورة سواء منها السير الانفسي او الافاقي.

فالصورة الاولى التي هي انكشاف اقربيته سبحانه - اي قربه سبحانه من العبد - هبـــة محضة منه تعالى وليس كسباً قط، بل هو انجذاب إلهي وجذب رحماني، ومحبوبيـــة خالصـــة. فالطريق قصير، الا انه ثابت رصين، وهو عال رفيع سام جداً، وخالص طاهر لا ظل فيه ولا كدر.

اما الصورة الاخرى من التقرب الى الله، فهي كسبية، طويلة، فيها شـــوائب وظـــلال، ورغم ان خوارقها كثيرة فانها لا تبلغ الصورة الاولى من حيث الاهمية والقرب منه تعالى.

ولنوضح ذلك بمثال:

لاجل ادراك الامس من هذا اليوم هناك طريقان:

الاول: الانسلاخ من وقائع الزمن وجريانه بقوة قدسية، والعروج الى ما فوق الزمـــان، ورؤية امس حاضراً كاليوم.

اما الثاني: فهو قطع مسافة سنة كاملة لملاقاة الامس من جديد، ومع ذلك لا يمكن ان تمسك به، لانه يدعك ويمضي.

وهكذا الامر في النفوذ من الظاهر الى الحقيقة، فانه بصورتين:

الاولى: الانجذاب الى الحقيقة مباشرة ووجدان الحقيقة في عين الظاهر المشاهد، من دون الدخول الى برزخ الطريقة.

الثانية: قطع مراتب كثيرة بالسير والسلوك.

فاهل الولاية رغم انهم يوفقون الى فناء النفس الامارة بالسوء ويقتلونها، فانهم لا يبلغون مرتبة الصحابة الكرام، لان نفوس الصحابة كانت مزكاة ومطهرة، فنالوا كثيراً مـــن انـــواع

العبادة وضروباً مختلفة من الوان الشكر والحمد باجهزة النفس العديدة، بينما عبادة الاولياء – بعد فناء النفس – تصبح يسيرة وسهلة.

الوجه الثالث:

لا يمكن ادراك الصحابة الكرام في فضائل الاعمال وثواب الافعال وجزاء الاخرة، لان الجندي المرابط لساعة من الزمن في ظروف صعبة تحيطه، وفي موقع مهم مخيف، يكسب فضيلة وثواباً يقابل سنة من العبادة، واذا اصيب بطلقة واحدة في دقيقة واحدة، فانه يسمو الى مرتبة لا يمكن بلوغها في مراتب الولاية الا في اربعين يوماً على اقل تقدير. كذلك الامر في جهاد الصحابة الكرام عند ارساء دعائم الاسلام، ونشر احكام القرآن، واعلانهم الحرب على العالم اجمع باسم الاسلام، فهو مرتبة عظيمة وخدمة جليلة لا ترقى سنة كاملة من العمل لدى غيرهم الى دقيقة واحدة من عملهم، بل يصح ان يقال:

ان دقائق عمر الصحابة الكرام جميعها – في تلك الخدمة المقدسة – انما هي بمثل الدقيقة التي استشهد فيها الجندي، وان ساعات عمرهم كلها هي بمثل الساعة لذلك الجندي الفدائي المرابط في موقع خطر مرعب. فالعمل قليل، الا ان الاجر عظيم والثواب جزيل، والاهمية جليلة.

نعم! ان الصحابة الكرام انما يمثلون اللبنة الاولى في تأسيس صرح الاسلام، وهم الصف الاول في نشر انوار القرآن، فلهم اذن قسط وافر من جميع حسنات الامة، حسب قاعدة (السبب كالفاعل). فالامة الاسلامية اثناء ترديدها: (اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه وسلم) انما تبين مالآل والصحب الكرام من حظ وافر في حسنات الامة جميعها.

ولكي نوضح ما يترتب من نتائج عظيمة على اثر ضئيل في البداية نسوق الامثلة الآتية:

خاصية صغيرة مهمة في جذر النبات تأخذ صورة عظيمة في اغصانها، فتلك الخاصية في الجذر اذن هي اعظم من اعظم غصن.. وارتفاع ضئيل في البداية يكون تدريجياً عظيماً في النهاية.. وان الزيادة الطفيفة في نقطة المركز – ولو بمقدار انملة – تكون احياناً بمقدار متر كامل في الدائرة المحيطة.

وهكذا فلأن الصحابة الكرام هم مؤسسو الاسلام، وجذور شجرة الاســـلام المــنيرة، وبداية الخطوط الاساسية لبناء الاسلام، وركيزة المجتمع الاسلامي وائمته، واقرب النـــاس الى شمس النبوة المنيرة وسراج الحقيقة.. فعمل قليل منهم هو عظيم جليل. وخدمة ضئيلة يقدمونها هي جسيمة كثيرة، فلا يمكن اللحاق بهم وادراكهم الا ان يكون المرء صحابياً مثلهم.

اللّهم صلِّ على سيدنا محمد الذي قال: (اصحابي كالنجوم بأيهم اقتـــديتم اهتـــديتم [151] و خيرالقرون قرني..) [152] وعلى آله واصحابه وسلم.

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

ذيل الكلمة السابعة والعشرين

الصحابة الكرام قمم الإيمان

سؤال: يقال إن الصحابة الكرام قد رأوا الرسول صلى الله عليه وسلم عياناً ثم آمنـــوا بـــه وصدّقوه، أما نحن فقد آمنا به من دون أن نراه، فإيماننا إذن أقوى من إيمانهم، فضلاً عـــن أن هناك روايات تؤيد ما نذهب إليه!!

الجواب: إن الصحابة الكرام – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين – قد وقفوا أمام جميع التيارات الفكرية في العالم اجمع والتي كانت تعادي حقائق الإسلام وتصدها. فـــآمنوا إيمانـــاً راسخاً صادقاً خالصاً مع انهم لم يروا من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعد إلاّ ظاهر صورته الإنسانية، بل آمنوا به – أحياناً – من دون أن يروا منه معجزة، واصبح إيمانهم مـــن الرسوخ والمتانة ما لا تزعزعه جميع تلك الأفكار العامة المناهضة للإسلام، بل لم تـــؤثر ولـــو بأدنى شبهة أو وسوسة.

---

[151] رواه البيهقي واسنده الديلمي عن ابن عباس بلفظ »اصحابي بمنزلة النجوم في السماء بايّهم اقتديتم اهتديتم « (كشف الخفاء 1/132). - المترجم.

[152] حديث (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً. - المترجم.

أما انتم فمع أنكم لم تروا صورته الظاهرة وشخصيته البشرية التي هي بمثابة نواة لشجرة طوبى النبوة، فإن أفكار عالم الإسلام تشد من إيمانكم وتمده وتعززه، فضلاً عن أنكم ترون – بعين العقل – شخصية الرسول الكريم المعنوية صلى الله عليه وسلم المنورة بـــأنوار الإســـلام وحقائق القرآن، تلك الشخصية المهيبة بألفٍ من معجزاته الثابتة..أ فيوازن إيمانكم هذا مـــع إيمانهم العظيم؟. فأين إيمانكم الذي يهوي في شباك الشبهات بمجرد كلام يطلقـــه فيلســـوف مادي أوربي، من إيمانهم الذي كان كالطود الشامخ لا يتزعزع أمام الأعاصير التي يثيرها جميع أهل الكفر والإلحاد واليهود والنصارى والحكماء؟

فيا أيها المدعي! أين إيمانك الواهي الذي قد لا يقوى لأداء الفرائض على وجهها مـــن صلابة وقوة إيمانهم وعظيم تقواهم وصلاحهم الذي بلغ مرتبة الإحسان؟

أما ما ورد في الحديث الشريف بما معناه أن الذين لم يروني وآمنوا بي هم افضل منكم ..[153] فهو يخص الفضائل الخاصة، وهو بحق بعض الأشخاص. بينما بحثنا هذا هو في الفضائل الكلية وما يعود إلى الأكثرية المطلقة.

السؤال الثاني: يقولون:

إن الأولياء الصالحين وأصحاب الكمال قد تركوا الدنيا وعافوا ما فيها، بمضمون مـــا ورد في حديث شريف: حب الدنيا رأس كل خطيئة[154] ، بينما الصحابة الكرام قد اخـــذوا بأمور الدنيا واقبلوا عليها و لم يدَعوها، بل قد سبق قسم منهم أهـــل الحضـــارة في أخـــذهم بمتطلبات الدنيا. فكيف تقول: إن اصغر صحابي من أمثال هؤلاء هو كأعظم ولي من أوليـــاء الله الصالحين؟

الجواب: لقد أثبتنا إثباتاً قاطعاً في الموقف الثاني والثالث من الكلمة الثانية والثلاثين:

---

[153] لعل المقصود الحديث: (وددتُ انّي قد رأيت إخواننا، قالوا: يا رسول الله ألسنا إخوانك! قال: بل انتم أصحابي وإخواني الذين لم يأتوا بعدُ..) إلى آخر الحديث. رواه مسلم 4306 والنسائي واحمد، وابن ماجه ومالك وكلهم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه. – المترجم.

[154] رواه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلاً (كشف الخفاء، وفيه تفصيل) . – المترجم.

إن للدنيا ثلاثة وجوه: فإبداء المحبة إلى وجهي الدنيا المتطلعين إلى الأسماء الحسنى والآخرة ليس نقصاً في العبودية، بل هو مناط كمال الإنسان وسمو إيمانه، إذ كلما جهد الإنسان في محبته لذينك الوجهين كسب مزيداً من العبادة ومزيداً من معرفة الله سبحانه. ومن هنا كانت دنيا الصحابة الكرام متوجهة إلى ذينك الوجهين، فعدوها مزرعة الآخرة وزرعوا الحسنات وجنوا الثمرات اليانعة من الثواب الجزيل والأجر العظيم، واعتبروا الدنيا وما فيها كأنها مرايا تعكس أنوار تجليات الأسماء الحسنى، فتأملوا فيها وفكروا في جنباتها بلهفة وشوق، فتقربوا إلى الله اكثر، وفي الوقت نفسه تركوا الوجه الثالث من الدنيا وهو وجهها الفاني المتطلع إلى شهوات الإنسان وهواه.

السؤال الثالث:

إن الطرق الصوفية هي سبل الوصول إلى الحقائق، واشهرها واسماها هي الطريقة النقشبندية التي تعدّ الجادة الكبرى، وقد لخّص قواعدها بعض أقطابها هكذا: (در طريق نقشبندي لازم آمد جار ترك: ترك دنيا ترك عقبى ترك هستي ترك ترك) أي: يلزم في الطريقة النقشبندية ترك أربعة أشياء: ترك الدنيا بأن لا تجعلها مقصوداً بالذات. وترك الآخرة بحساب النفس. وترك النفس، أي أن تنساها، ثم الترك. أي: أن لا تتفكر بهذا الترك، لئلا تقع في العجب والفخر. بمعنى أن معرفة الله والكمالات الإنسانية الحقيقيتين إنما تحصل في ترك ما سواه تعالى..

الجواب: لو كان الإنسان مجرد قلب فقط، لكان عليه أن يترك كل ما سواه تعالى، بل يترك حتى الأسماء والصفات ويرتبط قلبه بذاته سبحانه. ولكن للإنسان لطائف كثيرة جداً كالقلب، منها العقل والروح والسر، كل لطيفة منها مكلفة بوظيفة ومأمورة للقيام بعمل خاص بها.

فالإنسان الكامل هو – كالصحابة الكرام – يسوق جميع تلك اللطائف إلى مقصوده الأساس وهو عبادة الله. فيسوق القلب كالقائد كل لطيفة منها ويوجهها نحو الحقيقة بطريق عبودية خاص بها. عند ذلك تسير الكثرة الكاثرة من اللطائف جنوداً في ركب عظيم وفي

ميدان واسع فسيح، كما هو لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. وإلاّ فان ترك القلب جنوده دارجاً وحده لإنقاذ نفسه، ليس من الفخر والاعتزاز، بل هو نتيجة اضطرار ليس إلاّ.

السؤال الرابع:

من أين ينشأ ادعاء الأفضلية تجاه الصحابة الكرام؟ ومن هم الذين يثيرون هذا الادعاء؟ ولماذا تثار هذه المسائل في الوقت الحاضر؟ ومن أين ينبعث ادعاء بلوغ المجتهدين العظام؟

الجواب: إن الذين يقولون بهذه المسائل هم قسمان:

قسم منهم: رأوا بعض الأحاديث الشريفة ونشروها كي يحفزوا الشوق لدى المتقين وأهل الصلاح في هذا الوقت ويرغّبوهم في الدين.. فهؤلاء هم أهل دين وعلم، وهم مخلصون. وليس لنا ما نعلق به عليهم، وهم قلة وينتبهون بسرعة.

أما القسم الآخر: فهم أناس مغرورون جداً، ومعجبون بأنفسهم أيما إعجاب، يريدون أن يبثوا انسلاخهم من المذاهب الفقهية تحت ادعاء انهم في مستوى المجتهدين العظام، بل يحاولون إمرار إلحادهم وانسلاخهم من الدين بادعاء انهم في مستوى الصحب الكرام، فهؤلاء **الضالون قد وقعوا:**

أولاً: في هاوية السفاهة حتى غدوا معتادين عليها، ولا يستطيعون أن يتركوا ما اعتادوه، وينهضوا بتكاليف الشرع التي تردعهم عن السفاهة. فترى أحدهم يبرر نفسه قائلاً: (إن هذه المسائل إنما هي مسائل اجتهادية، والمذاهب الفقهية متباينة في أمثال هذه المسائل، وهم رجال قد اجتهدوا ونحن أيضاً رجال أمثالهم، يمكننا أن نجتهد مثلهم، فلربما يخطأون مثلنا، لذا نؤدي العبادات بالشكل الذي يروق لنا نحن، أي لسنا مضطرين إلى اتباعهم!!). فهؤلاء التعساء يحلُّون ربقة المذاهب عن أنفسهم بهذه الدسيسة الشيطانية. فما أوهاها من دسيسة وما أرخصها من تبرير! وقد أثبتنا ذلك في رسالة (الاجتهاد).

ثانياً: انهم عندما رأوا أن دسيستهم لا تكمل حلقاتها عند حد التعرض للمجتهدين العظام بدأوا يتعرضون للصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم، حيث إن المجتهدين يحملون النظريات الدينية وحدها، وهؤلاء الضالون يرومون هدم الضروريات الدينية وتغييرها، فلو

قالوا: نحن افضل من المجتهدين لم تنته قضيتهم، حيث إن ميدان المجتهدين النظر في المسائل الفرعية، دون النصوص الشرعية، لذا تراهم وهم منسلخون من المذاهب يبدأون بمس الصحابة الأجلاء الذين هم حاملو الضروريات الدينية. ولكن هيهات! فليس أمثال هؤلاء الأنعام الذين هم في صورة إنسان، بل حتى الإنسان الحقيقي، بل الكاملين منهم وهم أعاظم الأولياء الصالحين، لا يمكنهم أن يكسبوا دعوى المماثلة مع اصغر صحابي جليل. كما أثبتناه في رسالة (الاجتهاد).

اللّهم صلّ وسلم على رسولك الذي قال:

(لا تسبوا أصحابي لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم انفق مثل أُحدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه)[155]

---

[155] ورد الحديث بألفاظ متقاربة في مسلم برقم 2540 و 2541، 4/1967-1968 وفي البخاري باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واحمد 11/3 وأبو داود والترمذي في المناقب والنسائي وابن ماجة. - المترجم.

الكلمة الثامنة والعشرون

هذه الكلمة تخـــص الجنة، وهي عبارة عن مقامين؛ المقام الأول يشـــير الى عـــدد من لطائف الجنة. والمقام الثاني قد جاء باللغة الـــعربية [156] وهو خلاصـــة الكلمـــة العاشـــرة وأساسها. اثبـــت فيه وجود الجنة باثنتـــي عشرة حقيقة قاطعة متسلسلة اثباتاً ساطعاً، لذا لا نبحث هنا عن اثبات وجود الجنة، وانما نقصر الكلام على اسئلة وأجوبة حول بعض أحوال الجنة التي تتعرض الى النقد وسوف تُكتب ان شاءالله كلمة جليلة حول تلك الحقيقة العظمى.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

[156] رسالة «لا سيما» المنشورة ضمن المثنوي العربي النوري. - المترجم.

(وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات اَنّ لَهم جنّات تجري من تحتها الأنهارُ كلّما رُزِقُوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبلُ واُتوا به مُتشابهاً ولهم فيها أزواجٌ مطهّرةٌ وهم فيها خالدون) (البقرة: 25)

(هذه أجوبة قصيرة عن عدد من اسئلة تدور حول الجنة الخالدة).

ان آيات القرآن الكريم التي تخص الجنة، هي أجمل من الجنة، وألطف من حورها، وأحلى من سلسبيلها. هذه الآيات البينات لم تدع مزيداً لكلام. لذا نضع درجات سلّمٍ، تقريباً لتلك الآيات الساطعة الأزلية الرفيعة الجميلة للفهم. فنذكر باقة من مسائل لطيفة هي نماذج أزاهيرٍ من جنة القرآن. ونشير اليها في خمسة رموز ضمن أسئلة وأجوبة.

نعم! ان الجنة شاملة جميع اللذائذ المعنوية، كما هي شاملة جميع اللذائذ (المادية) الجسمانية أيضاً.

سؤال: ما علاقة الجسمانية (المادية) القاصرة الناقصة المتغيرة القلقة المؤلمة، بالأبدية والجنة؟ فما دامت الروح تكتفي بلذائذها العلوية في الجنة، فلِمَ يلزم حشر جسماني للتلذذ بلذائذ جسمانية؟

الجواب: على الرغم من كثافة التراب وظلمته، نسبة الى الماء والهواء والضياء فهو منشأُ لجميع أنواع المصنوعات الإلهية، لذا يسمو ويرتفع معنىً فوق سائر العناصر.. وكذا النفس الانسانية على الرغم من كثافتها، فانها ترتفع وتسمو على جميع اللطائف الانسانية بجامعيتها، بشرط تزكيتها.

فالجسمانية كذلك هي أجمع مرآة لتجليات الأسماء الإلهية، وأكثرها احاطة واغناها.. فالالات التي لها القدرة على وزن جميع مدخرات خزائن الرحمة الإلهية وتقديرها، انما هي في الجسمانية، اذ لو لم تكن حاسة الذوق التي في اللسان مثلاً حاوية على آلاتٍ لتذوق الرزق بعدد أنواع المطعومات كلها، لَما كانت تحسّ بكل منها، وتتعرف على الاختلاف فيما بينها، ولَما كانت تستطيع ان تحس وتميز بعضها عن بعض.

وكذا فان أجهزة معرفة أغلب الأسماء الإلهية المتجلية، والشعور بها وتذوقها وادراكها، انما هي في الجسمانية.

وكذا فان الاستعدادات والقابليات القادرة على الشعور والاحساس بلذائذ لا منتـــهى لها، وبانواع لا حدود لها، انما هي في الجسمانية.

يفهم من هذا فهماً قاطعاً - كما اثبتناه في الكلمة الحادية عشرة - ان صـــانع هـــذه الكائنات، قد أراد ان يعرّف بهذه الكائنات جميعَ خزائن رحمته، ويعلّم بها جميع تجليات اسمائه الحسنى، ويذيق بها جميع أنواع نِعَمه وآلائه، وذلك من خلال مجرى حوادث هذه الكائنـــات وانماط التصرف فيها، ومن خلال جامعية استعـــدادات الانسان.. فلابد اذن مـــن حـــوض عظيم يصبّ فيه سيل الكائنات العظيـــم هذا.. ولابد من معرض عظيم يعرض فيه ما صُنع في مصنع الكائنات هذا.. ولابد من مخزن أبدي تخزن فيه محاصيل مزرعة الـــدنيا هـــذه .. أي لابـــد من دار سعادة تشبه هذه الكائنات الى حدٍ ما، وتحافظ على جميع أسسها الجســـمانية والروحانية.. ولابد أن ذلك الصانع الحكيم والعـــادل الرحيم، قد خص لذائذ تليق بتلـــك الآلات الجسمانية أجرة لوظائفها، ومثوبة لخدماتها، واجـــراً لعباداتها الخاصـــة. والاّ - أي بخلاف هذا - تحصل حالة منافـــية تماماً لحكمته سبحانه وعدالته ورحمته، مما لا ينسجم ولا يليق بجمال رحمته وكمال عدالته مطلقاً. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

سؤال: أن أجزاء الكائن الحي في تركيب وتحلّل دائمين، وهي معرّضة للانقـــراض ولا تنال صفة الأبدية، وان الأكل والشرب لبقاء الشخص نفسه ومعاشرة الزوجة لبقاء النـــوع، فصارت - هذه الأمور - أموراً أساسية في هذا العالم، اما في العالم الأبدي والأخروي فـــلا حاجة اليها، فلِمَ اذن درجت ضمن لذائذ الجنة العظيمة؟

الجواب: أولاً: ان تعرض جسم حي للانقراض والموت في هذا العالم، ناجم من اختلال موازنة الواردات والصرفيات (أي بين ما يرد وما يستهلك) فالواردات كثيرة منذ الطفولة الى سن الكمال، وبعد ذلك يزداد الاستهلاك، فـــتضيع الموازنة، ويموت الكائن الحي..

اما في عالم الأبدية، فـــان الذرات تبقى ثابتة لا تتعرض للتركيب والتحلل، أو تســـتقر المـــوازنـــة، فهي تامة ومستمرة بين الـــواردات والصرفيات، [157]ويصبح الجسم أبدياً مـــع اشتغال مصنع الحياة الجسمانية لاستمرار تـــذوق اللذائذ. فعلى الرغـــم من ان الأكـــــل والـــشرب والعـــلاقات الزوجية، ناشئة عـــن حاجة في هذه الدنيا وتُفضـــي الــــى اداء وظيفة، فقد أودعـــت فيها لذائذ حـــلوة ومتنوعة ترجح على سائر اللذائذ، اجرة معجلـــة لتلـــك الوظيفة.

فما دام الأكل والنكاح مدار لذائذ عجيبة ومتنوعة الى هذا الحد، في دار الألم هـــذه، فلاشك ان تلك اللذائذ تتخذ صوراً رفيعة جداً وسامية جداً، في دار اللذة والسعادة، وهـــي الجنة فضلاً عن لذة الأجرة الأخروية للوظيفة الدنيوية، التي تزيدها لذة، وعلاوة علـــى لـــذة الشهية الأخروية اللطيفة نفسها، بدلاً عن الحاجة الدنيوية – التي تزيدها لذة أخرى – حـــتى تزداد تلك اللذائذ لطافة وذوقاً بحيث تكون لذة جامعة لجميع اللذائذ، ونبعاً حياً فياضاً للذائذ لائقة بالجنة وملائمة للأبدية. اذ المواد الجامدة التي لا شعور لها ولا حياة، في دار الدنيا هذه، تصبح هناك ذات شعور وحياة بدلالة الآية الكريمة:

(وما هذه الحياة الدنيا الاّ لهو ولعبٌ وان الدار الاخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمـــون) (العنكبوت: 64).

فالاشجار هناك كالانسان هنا، تدرك الأوامر وتنفّذها، والاحجار هناك كالحيوانـــات هنا، تطيع ما تُؤمر. فاذا قلت لشجرة: إعطيني ثمرة كذا تعطيك حالاً، وان قلت لحجر: تعال هنا، يأتيك.

---

[157] ان جسم الانسان والحيوان في هذه الدنيا، كأنه مضيف للذرات، وثكنة عسكرية لها، ومدرسة تعليم لها، حيث تدخل فيه الذرات الجامدة فتكتسب لياقة تؤهله لتكون ذراتٍ لعالم البقاء الحي، ثم تخرج منه، اما في الآخرة فان نور الحياة هناك عام شامل لكل شئ لقوله تعالى: وإن الدار الاخرة لهي الحيوان، فلا حاجة الى ذلك السير والسفر والتعليمات، ولا الى تلك التعليمات والتدريبات لأجل التنور. فالذرات تبقى ثابتة مستقرة. — المؤلف.

فما دامت الاشجار والاحجار تتخذ مثل هذه الدرجات العالية من الصفات، فلاشك ان الأكل والشرب والنكاح تتخذ صوراً رفيعة عالية، مع محافظتها على حقيقتها الجسمانية التي تفوق درجاتها الدنيوية بنسبة سمو درجة الجنة على الدنيا.

سؤال: يحضر أعرابي مجلس الرسول)ص(لدقيقة واحدة، فيكسب محبة للّه. ويكون معه)ص(في الجنة حسب ما ورد في الحديث الشريف المرء مع من أحب [158]، فكيف يعادل فيض غير متناهٍ يناله الرسول الكريم مع فيض هذا الأعرابي؟

الجواب: نشير الى هذه الحقيقة السامية بمثال:

رجل عظيم أعد ضيافة فاخرة جداً، في بستان مزهر رائع الجمال. وهيأ معرضاً في منتهى الزينة والابداع، جامعاً لجميع أنواع المطعومات التي تحس بها حاسة الذوق، شاملاً جميعَ المحاسن التي ترتاح اليها حاسة البصر، ومشتملاً على جميع الغرائب التي تبهج قوة الخيال. وهكذا وضع فيه كل ما يرضي ويطمئن كل حاسة من الحواس الظاهرة والباطنة.

والآن يذهب صديقان معاً الى تلك الضيافة ويجلسان جنباً الى جنب على مائدة واحدة في مكان مخصص. ولكن لكون أحدهما يملك حاسة ذوق ضعيفة، لا يتذوق الاّ شيئاً قليلاً من تلك الضيافة، ولا يرى كثيراً من الأشياء، لأن بصره ضعيف. ولا يشم الروائح الطيبة، لانه فاقد لحاسة الشم. ولا يفهم خوارق الأشياء، لعجزه عن ادراك غرائب الصنعة.. أي لا يستفيد من تلك الروضة الرائعة، ولا يذوق من تلك الضيافة العامرة الاّ واحداً من ألف، بل من مليون مما فيها، وذلك حسب قابلياته الضعيفة. اما الآخر، فلأن جميع حواسه الظاهرة والباطنة، وجميع لطائفه من عقل وقلب وحسّ، كاملة مكتملة، متفتحة منكشفة بحيث يحس جميع دقائق الصنعة من ذلك المعرض البهيج، وجميع ما فيه من جمال ولطائف وغرائب، يحس كلاً منها ويتذوقها، مع انه جالس مع الرجل الأول.

---

[158] رواه البخاري في الادب 96 ومسلم برقم 2640 عن ابي موسى الاشعري واخرجه احمد 392/4 ، 395 ، 398، 405 وابن حبان 557 - المترجم.

فلئن كان هـــذا حاصلاً في هذه الدنيا المضطربة المؤلمة الضيقة، ويكون الفرق بينـــهما كالـــفرق بين الثرى والثريا، فلابد – بالطريق الأولى – أن يأخذ كل امرئٍ حـــظه من سُفرة الرحمن الرحيم، فـــي دار السعادة والخلود، ويحسّ بما فيهـــا على وفـــق استعداداته – رغم كونه مع مَن يحب. فالجنان لا تمنع ان يكونا معاً بالرغـــم من تفاوتها، لأن طبقـــات الجنـــة الثماني، كل منها أعلى من الأخرى، الا ان عرش الرحمـــن سقف الكل.[159] اذ لـــو بنيـــت بيوت متداخلة حول جبل مخروطـــي، كل منها أعلى من الآخـــر، كـــالـــــدوائـــــــر المحــــيــــطــــة بالجبـــــل، فان تلك الـــدوائــــر تعلـــــو الواحــــدة عـــــلى الأخرى، ولكن لا تمنع الواحدة الأخرى عن رؤية الشمس، فنور الشمس ينفـــذ في البيوت كلها. كذلك الجنان شبيهة بهذا المثال الى حدٍ، كما تفهم من الأحاديث الشريفة.

سؤال: ورد في أحاديث شريفة ما معناه: ان المرأة من نساء أهل الجنة يُرى مخ سوقها من وراء سبعين حلّة،[160] ما معنى هذا وما المراد منه؟ وكيف يعد هذا جمالاً؟

الجواب: ان معناه جميل جداً، بل جماله في منتهى الحسن واللطف. وذلك:

في هذه الدنيا القبيحة الميتة التي أغلبها قشر، يكفي للجمال والحسن أن يبـــدو جمـــيلاً للبصر، ولا يكون مانعاً للألفة. بينما في الجنة التي هي جميلة وحيّة ورائعة وكلها لبّ محض لا قشر فيها تطلب حواسُ الانسان كلها – كالبصر ـــ ولطائفه كلها، أخذ حظـــوظ أذواقهـــا

---

[159] (الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض، والفردوس أعلى الجنة واوسطها، وفوقه عرش الرحمن..) الحديث صحيح: رواه ابن ماجه عن معاذ والحاكم عن عبادة بن الصامت وعن أبي هريرة، وابن عساكر عن ابي عبيدة الجراح، رضي الله عنهم. (صحيح الجامع الصغير وزيادته 3116) قال المحقق: صحيح وانظر الاحاديث 3423، 4120 من المصدر نفسه، وفي سلسلة الاحاديث الصحيحة 919 يشير الى حديث: سقف الجنة عرش الرحمن. - المترجم.

[160] احاديث كثيرة في الباب، منها: «.. لكل واحد منهم زوجتان من الحور العين على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ سوقهما من وراء لحومهما وحللهما، كما يرى الشراب الاحمر من الزجاجة البيضاء» رواه الطبراني باسناد صحيح والبيهقي باسناد حسن عن عبدالله بن مسعود ورواه البخاري ومسلم عن ابي هريرة بنحوه. - المترجم.

المختلفة، ولذائذها المتباينة من الجنس اللطيف، وهن الحور العين، ومن نساء الدنيا لأهل الجنة، وهن يفضلن الحور العين بجمالهن، بمعنى ان الحديث الشريف يشير الى انه ابتداء من أعلى طبقة من جمال الحلل حتى مخ السيقان في داخل العظام، كل منها مدار ذوق لحس معين وللطيفة خاصة.

نعم؛ ان الحديث الشريف يشير بتعبير »على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ سوقهما«.

ان الحور العين جامعة لكل نوع من أنواع الزينة والحسن والجمال المادية والمعنوية، التي تشبع وترضي كل ما في الانسان من مشاعر وحواس وقوى ولطائف عاشقة للحس، ومحبة للذوق، ومفتونه بالزينة، ومشتاقة الى الجمال.. بمعنى ان الحور يلبسن سبعين طرزاً من أقسام زينة الجنة، دون ان يستر أحدها الآخر، اذ ليس من جنسه، بل يبدين جميع مراتب الحسن والجمال المتنوعة بأجسادهن وأنفسهن وأجسامهن بأكثر من سبعين مرتبة حتى يظهرن حقيقة اشارة الآية الكريمة:

(وفيها ما تَشتهيه الأنفسُ وتَلذّ الأعينُ) (الزخرف: 71)

ثم ان الحديث الشريف يبين: ان ليس لأهل الجنة فضلات بعد الأكل والشرب، اذ ليس في الجنة ما لا يحتاج اليه من مواد قشرية زائدة.

نعم، ما دامت الاشجار في هذه الدنيا السفلية، وهي في أدنى مرتبة من ذوات الحياة، لا تترك فضلات مع تغذيتها الكثيرة، فلِمَ لا يكون اهل الطبقات العليا، وهم أهل الجنة دون فضلات؟

سؤال: لقد ورد في أحاديث نبوية هذا المعنى؛ انه ينعم على بعض أهل الجنة ملكاً بقدر الدنيا كلها، ومئات الآلاف من القصور ومئات الآلاف من الحور العين، فما حاجة رجل واحد الى هذه الكثرة من الاشياء؟ وما يلزمه منها؟ وكيف يكون ذلك؟ وماذا تعني هذه الأحاديث؟

الجواب: لو كان الانسان جسداً جامداً فحسب، أو كان مخلوقاً نباتياً وعبارة عن معدة فقط، أو عبارة عن جسم حيواني، وكائن جسماني موقت بسيط مقيد ثقيل، لما كان يملك

تلك الكثرة الكاثرة من القصور والحور،ولا كانت تليق به. ولكن الانسان معجزة من المعجزات الإلهية الباهرة، بحيث لو يُعطى له ملك الدنيا كلها وثروتها ولذائذها في هذه الدنيا الفانية وفي هذا العمر القصير فلا يُشبع حرصَه، حيث هناك حاجات لقسم من لطائف غير منكشفة.

بينما الانسان في دار السعادة الأبدية، وهو المالك لاستعدادات غير متناهية، يطرق باب رحمة غير متناهية، بلسان احتياجات غير متناهية، وبيد رغبات غير متناهية، فلاشك ان نيله لاحسانات إلهية كما ورد في الأحاديث الشريفة معقول وحق وحقيقة قطعاً.

وسنرصد هذه الحقيقة السامية بمنظار تمثيلي على النحو الآتي:

ان لكل بستان من البساتين الموجودة في (بارلا) صاحبه ومالكه كما هو الحال في بستان هذا الوادي، [161]الاّ ان كل نحل وطير وعصفور في (بارلا) يستطيع القول: ان جميع بساتين (بارلا) ورياضها متنزهاتي وميدان جولاني، بالرغم من انه تكفيه حفنة من قوت. أي انه يضم (بارلا) كلها في ملكه. ولا يجرح حكمه هذا اشتراك الآخرين معه.

وكذلك الانسان – الذي هو حقاً انسان – يصح له أن يقول: ان خالقي قد جعل لي هذه الدنيا كلها بيتاً، والشمس سراجاً، والنجوم مصابيح، والأرض مهداً مفروشاً بزرابي مبثوثة مزهرة. يقول هذا ويشكر ربه. ولا ينقض حكمَه هذا اشتراك المخلوقات الأخرى معه في الدنيا، بل المخلوقات تزيّن الدنيا وتجمّلها.

تُرى لو أدّعى انسان أو طير نوعاً من التصرف، في مثل هذه الدوائر العظمى، ونال نعماً جسيمة في هذه الدنيا الضيقة جداً ، فكيف يُستبعد اذن الاحسان إليه بملك عظيم، ما بين كل درجتين مسيرة خمسمائة عام في دار سعادة واسعة أبدية؟.

ثم اننا نشاهد ونعلم في هذه الدنيا الكثيفة المظلمة الضيقة وجود الشمس بعينها في مرايا كثيرة جداً في آن واحد.. ووجود ذاتٍ نورانية في أماكن كثيرة في آن واحد.. وحضور

[161] هو بستان سليمان الذي خدم هذا الفقير ثماني سنوات بوفاء تام، وقد كتب هذا البحث هناك في غضون ما يقرب من ساعتين. ـ المؤلف.

جبرائيل عليه السلام في ألف نجم ونجم وامام العرش الاعظم، وفي الحضرة النبوية وفي الحضرة الإلهية في آن واحد.. ولقاء الرسول)ص(أتقياء أمته في الحشـــر الأعظـــم في آن واحـــد.. وظهوره)ص(في الدنيا في مقامات لا تحد فـــي آن واحد.. ومشاهدة الأبدال - وهم نوع غريب من الأولياء - في أماكن كثيرة في وقت واحد.. وانجاز العوام من النـــاس في الرؤيـــا ومشاهدهم عـــملَ سنة كاملة في دقيقة واحدة.. ووجود كل انسان بالقلب والروح والخيال في أماكن كثيرة، وتكوين علاقات معها في آن واحد.. كل ذلك معلوم ومشهود لدى الناس.

فلاشك ان وجود أهل الجنة - الذين تكون اجسامهم في قوة الروح وخفتها وفي سرعة الخيال - في مائة ألف مكان ومعاشرهم مائة ألف من الحور العين، وتلذذهم بمائة ألف نـــوع من أنواع اللذائذ، في وقت واحد، لائق بتلك الجنة الأبدية، الجنة النورانية، غـــير المقيـــدة، الواسعة، وملائم تماماً مع الرحمة الإلهية المطلقة، ومنطبق تماماً مع ما أخبر به الرسول الكـــريم)ص(فهو حق وحقيقة، ومع كل هذا فان تلك الحقائق العظيمة السامية جداً لا توزن بموازين عقولنا الصغيرة.

نعم، لا يلزم العقول الصغيرة ادراك تلك المعاني.

لأن هذا الميزان لا يتحمل ثقلاً بهذا القدر.

(سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

(ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا) (البقرة:286)

اللهم صلّ على حبيبك الذي فتح أبواب الجنة بحبيبيته وبصلاته، وايدت امته على فتحها بصلواهم عليه، عليه الصلاة والسلام.

اللّهم ادخلنا الجنة مع الابرار بشفاعة حبيبك المختار آمين.

ذيل صغير

يخص جهنم

ان الايمان يضم بذرة جنة معنوية، كما ان الكفر يخفي نواة زقوم جهنم معنوية، كمـــا اثبتنا ذلك في الكلمة الثانية والثامنة.

اذ كما ان الكفر بذرة لجهنم، فجهنم كذلك ثمرة له. وكما ان الكفر سبب لـــدخول جهنم، كذلك سبب لوجودها وايجادها، لانه: لو كان هناك حاكم صغير ذو عـــزة وغـــيرة وجلال بسيط، وقال له رجل فاسد الخلق متحدياً: انك لا تقدر على تأديبي، ولن تقدر عليه. فلاشك انه سيبني سجناً لذلك الشقي ويلقيه فيه ولو لم يكن هناك سجن.

بينما الكافر بانكاره وجود جهنم، يكّذِب مَن له العزة المطلقة والغيرة المطلقة والجـــلال المطلق، ويسند الى القدير المطلق العجزَ، ويتّهمه بالكذب والعجز، فهو بكفره يتعرض لعزتـــه بشدة، ويمس غيرته بقوة، ويطعن في جلاله بعصيان. فلاشك انه لو لم يكن لوجود جهنم أي سبب كان، وهو فرض محال، فانه سبحانه يخلق جهنم لذلك الكافر الذي يتضمن كفره هذا الحد من التكذيب واسناد العجز ويلقيه فيها.

(ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً سُبحانكَ فقنا عذاب النار) (آل عمران:191)

الكلمة التاسعة والعشرون

تخص بقاء الروح والملائكة والحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَنَزَّلُ الْملئكَةُ وَالرّوُحُ فيهَا بِاذنِ رَبِّهِمْ) (القدر:4)

(قُلِ الروحُ مِنْ أمرِ رَبى) (الاسراء:85)

هذا المقام عبارة عن مقصدين أساسين مع مقدمة

المقدمة

يمكن القول بأن وجود الملائكة والعالم الروحاني ثابت كثبوت وجود الانسان والحيوان، فكما بَيّنا في المرتبة الأولى من »الكلمة الخامسة عشرة«: ان الحقيقة تقتضي قطعاً، والحكمة تستدعي يقيناً: ان تكون للسموات - كما هي للأرض - من ساكنين، ولا بدّ أنهم ذوو شعور، وهم متلائمون معها كل التلاؤم. وفي مصطلح الدين يسمّى اولئك الساكنون من ذوي الأجناس المختلفة بـ »الملائكة« و»الروحانيات«.

نعم، ان الحقيقة تقتضي هكذا.. فرغم ضآلة كرتنا الأرضية وصغرها قياساً الى السماء فان ملأها بمخلوقات ذوات مشاعر - بين حين وآخر - واخلاءها منهم وتزيينها بآخرين جُدد يشير، بل يصرح:

ان السموات ذات البروج المشيدة - وكأنها قصور مزيّنة - لابد أنها ملأى ايضاً: بذوي حياة مدركين واعين الذين هم نور الوجود، ومن ذوي الشعور الذين هم ضياء الأحياء، وان تلك المخلوقات - كالأنس والجن - هم كذلك: مشاهدو قصر هذا العالم الفخم.. ومطالعو

كتاب الكون هذا.. والداعون الأدلاّء الى سلطان الربوبية.. ويمثلون بعبوديتهم الكلية الشاملة: تسابيح الكائنات، وأوراد الموجودات الضخمة...

أجل! إن تنوّع هذه الكائنات يدلّ على وجود الملائكة؛ لأن تزيين الكائنات بدقائق الصنعة المبدعة التي لا تعدّ ولا تحصى، وبمحاسن ذات معانٍ ونقوش حكيمة، يتطلب – بالبداهة – أنظار متفكرين ومستحسنين، ومعجبين مقدّرين.. أي يستدعي وجودهم.

نعم! كما أن الجمال يطلب العاشق.. والطعام يعطى للجائع.. فلابد ان غذاء الارواح وقوت القلوب في هذه الصنعة الإلهية الجميلة الرائعة يدل على وجود الملائكة والعالم الروحاني ويتوجه اليهم. ولما كانت هذه التزيينات غير النهائية في الكون تتطلب تأملاً وعبودية غير محدودة، وان الأنس والجن لا يمكنهما القيام الاّ بقسط ضئيل جداً – واحد من مليون – من هذه الوظيفة غير النهائية، ومن هذه الرؤية الحكيمة، ومن هذه العبودية الواسعة.. فلابد أن تكون لهذه الوظائف غير النهائية والعبادات المتنوعة، انواع غير نهائية ايضاً من »الملائكة« وأجناس غير محدودة من »الروحانيات«، كي يعمّروا بصفوفهم المتراصّة ويملأوا هذا المسجد الكبير.. هذا العالم.. هذا الكون..

أجل! ففي كل جهة من هذا الكون، وفي كل دائرة من دوائره، هناك »موظفون« من طبقة »الملائكة والروحانيات« قد أسند اليهم واجب القيام بعبودية مخصوصة.. فاستناداً الى اشارات بعض الأحاديث النبوية الشريفة من جهة، واستلهاماً من حكمة انتظام هذا العالم من جهة أخرى يمكن القول: ان بعضاً من الأجسام الجامدة السيّارة، ابتداءاً من النجوم وانتهاءً بقطرات المطر، انما هي سفن ومراكب لقسم من الملائكة، فهم يركبونها بإذن إلهي، ويشاهدون عالم الشهادة سائحين فيه.. ويمثلون »تسبيحات« تلك المراكب.. وحيث أن الشهداء »ارواحهم في جوف طير خضر تسرح من الجنّة – «كما جاء في حديث نبوي شريف – لذا يمكن القول: انه ابتداءً مما أشار الحديث الشريف من (طير خضر) الى النحل من الأجسام الحية هي طائرات لأجناس من الأرواح، فهي تحل في أجساد تلك الأحياء، بأمر الله الحق، وتشاهد العالم المادي من خلال حواسها كالأعين والآذان، وتتفرج على روائع المعجزات الفطرية فيه، وبذلك تؤدي تسبيحاتها المخصوصة..

وهكذا، فكما اقتضت الحقيقة وجود الملائكة والروحانيات، كذلك تقتضيه الحكمة:

لأن الفاطر الحكيم الذي يخلق باستمرار وبفعالية جادة حياةً لطيفة ذات أدراك متنّـــور، من هذا التراب الكثيف على ضآلة علاقته بالروح، ومن الماء العكر على جزئية تعلّقه بنـــور الحياة، لابدّ أن يكون له ايضاً مخلوقات كثيرة جداً ذوات شعور، قـــد خلقـــت مـــن بحـــر النور،وحتى من محيط الظلمة، ومن الهواء، ومن الكهرباء ومن سائر المواد اللطيفة التي هي أليق بالروح وأنسب للحياة وأقرب اليها.

المقصد الأول

»التصديق بالملائكة ركن من أركان الإيمان«

في هذا المقصد أربع نكات أساسية

الأساس الأوّل

ان كمال الوجود مع الحياة، بل ان الوجود الحقيقي للوجود كائن مع الحياة، فالحيـــاة نور الوجود، والشعور ضياء الحياة.. والحياة رأس كل شئ وأساسه.. وهي التي تجعل كل شئ ملكاً لكل كائن حيّ، فتجعل الشئ الحيّ الواحد بحكم المالك لجميع الأشياء.. فبالحياة يتمكن الشئ الحيّ ان يقول: »ان هذه الأشياء ملكي، والدنيا مسكني، والكائنات كلها ملك اعطانيه مالكي«.. وكما أن الضوء سبب لرؤية الأجسام وسبب لظهور الألوان – علـــى قـــول – كذلك الحياة هي كشّافة للموجودات، وسبب لظهورها، وسبب لتحقق النوعيات.. وهـــي التي تجعل جزء الجزئي بحكم الكلّ والكلّي، وسبب لحصر الأشياء الكلية في الجزء، وســـبب لجميع كمالات الوجود كإشراكها وتوحيدها الاشياء الوفيرة، وجعلها مداراً لوحدة واحـــدة

ومظهراً لروح واحدة.. حتى أن الحياة نوع من تجلّي الوحـــدة في طبقـــات الكثـــرة مـــن المخلوقات، فهي مرآة للأحدية في الكثرة..

والآن لنوضح:

انظر الى الجسم الجامد، وان كان جبلاً شاهقاً، فهو غريب.. يتيم.. وحيد.. اذ تنحصر علاقته وصلته بمكانه، وما يتصل به من أشياء فقط، وما يوجد في الكائنات الأخرى معـــدوم بالنسبة اليه، وذلك لأنه ليس له »حياة« حتى يتصل بها، ولا »شعور« حتى يتعلق به.

ثم انظر الى جسم صغير حيّ كالنحل مثلاً ففي الوقت الذي تدخل فيه »الحياة« فانـــه يقيم عقداً تجارياً وصلةً مع جميع الكائنات والموجودات، وخاصة مع نباتات الأرض وأزهارها بحيث يمكنه القول: »ان جميع الأرض هي حديقتي ومتجري...« فهناك اذن، عـــدا الحـــواس المعروفة الظاهرة والباطنة في الأحياء، دوافع فطرية أخرى غير معروفة كأحاســيس ســائقة ومشوّقة تعطي للنحل فرصة التصرف وإمكانية الأختصاص والأنس والتبادل مع اكثر انـــواع الموجودات في الدنيا.

ولئن كانت الحياة تُظهر تأثيرها هكذا في كائن حيّ صغير، فلابّد أنها كلّمـــا عَلَـــتْ وارتقتْ الى مرتبة عليا وهي المرتبة الأنسانية، فان تأثيرها يتسع ويكبر ويتنوّر، بحيث يجول هذا الانسان بعقله وشعوره – الذي هو ضياء الحياة – في العوالم العلوية والروحية والمادية كمـــا يجول في غرف داره، وهذا يعني: انه مثلما يسافر ذلك الكائن الحيّ ذو الشـــعور الى تلـــك العوالم معنوياً، فان تلك العوالم تأتي وتكون ضيوفاً على مرآة روحه بارتسامها وتمثلها فيها.

والحياة بحد ذاتها أسطع برهان لوحدانية الله سبحانه وتعالى. وأوســع مجـــال لنعمتـــه العظيمة، وألطف تجلٍّ من تجليات رحمته، وأدقّ نقش من نقوش صنعته الخفية التريهة.

نعم، أنها خفية ودقيقة؛ لأن تنبّه »العقدة الحياتية« أي تفتحها ونموها في البذرة – الـــتي هي اولى مراتب الحياة في النبات الذي يمثل أدنى أنواع الحياة – بقي مستوراً عن أنظار علـــم البشر منذ زمن آدم عليه السلام، رغم شدة ظهوره وكثرته والألفة به، ولم تنكشف حقيقتـــه الصائبة لعقل البشر لحدّ الآن بجلاء.

والحياة نزيهـــة نقية بحيث أن وجهيها - الـــمُلك والملكوت - صافيان وشـــفافان؛ اذ ان يد القدرة تباشر اعمالها فيها دون وضع لستار الأسباب، في حين أنها جعلـــت الأســـباب الظاهرية حجاباً لتصرفها في سائر الأمور الأخرى، كي تكـــون منشـــأ للأمـــور الخسيســـة وللكيفيات غير النزيهة التي تنافي عزة القدرة في ظاهر الأمر.

والخلاصة: يمكن القول: ان لم تكن هناك حياة فالوجود ليس بوجود، ولا يختلف عـــن العدم، فالحياة ضياء الروح والشعور نور الحياة.

ولما كانت الحياة والشعور لهما هذه الأهمية، وما دمنا نشاهد كل هذا النظام المـــتقن في هذا العـــالـــم، ونـــرى هـــذه الدقـــة والاتـــقان والإحكـــام الـــتام والانسجام الكامل في الكون، وما دامت كرتنا الأرضية - وهي كذرة بالنسبة الى الكون - تزخر بما لا يعدّ ولا يحصى من ذوي الارواح وذوي المشاعر والادراك، فلابد ان يحكم بحدس صادق ويقرر بيقين قاطع:

ان جوانب هذه القصور السماوية والبروج الشاهقة تدّب فيها سكنة من الأحياء وذوي المشاعر بما يلائمها ويتجاوب معها، اذ كما ان السمك يعيش في الماء، كذلك من الممكن أن يوجد سكنة نورانيون في لهيب الشمس ممن يتلاءمون معها، لأن النار لا تحرق النور بل تمـــدّه وتديمه.

وما دامت القدرة الإلهية تخلق أحياءً وذوي أرواح لا تعدّ ولا تحصى من مواد عاديـــة جداً، بل من اكثف العناصر، وتبدّل المادة الكثيفة الغليظة بالحياة الى مادة لطيفة بكل عنايـــة واتقان، وتنشر نور الحياة في كل شئ بغزارة، وترصّع اغلب الأشياء بضياء الشعور، فلابد أن ذلك القدير الحكيم لن يهمل بقدرته الكاملة، وبحكمته التامة النور والاثير وامثالهمـــا مـــن السيالات اللطيفة والقريبة بل الملائمة للروح دون حياة، ولن يتركه جامداً ولن يدعـــه دون شعور، وانما الأولى أن يخلق جلّت قدرته وحكمته احياءً وذوي شعور من تلك المواد السيّالة اللطيفة من مادة النور وحتى من الظلام وحتى من مادة الأثير وحتى من المعاني وحتى من الهواء وحتى من الكلمات. فيخلق كثرة كاثرة من المخلوقات ذوات الارواح المختلفة -كالاجناس الكثيرة المختلفة للحيوانات - فيصير قسم منها الملائكة وقسم آخر أجناس الجنّ وعالم الروح.

وفي المثال الآتي يتبيّن لك: كم تكون فكرة وجود الملائكة والروحانيات بكثرة – كما بيّنه القرآن الكريم – حقيقة وبداهة وأمراً معقولاً، وكم يكون الرفض وعدم القبول خلافــاً للحقيقة والحكمة، بل خرافة وضلالة وهذياناً وبلاهة..

يتصادق اثنان أحدهما بدوي وآخر حضري، كانا يسيران معاً الى مدينــة عظيمــة – كأستانبول – وقبل دخولهما المدينة وفي زاوية من زواياها يصادفان مبنىً صغيراً وورشة قذرة، فيبصران المبنى مملوءً برجال مساكين يعملون منهوكين في هذا المعمل الغريــب، ويلاحظــان حول المعمــل حيــــوانــــات وأحياء أخرى أيضاً تقتــــات كــــل بطريقتها الخاصة حسب شرائط حياتها. فمنها ما يأكل النبــات وأخــرى تأكــل الأسمــاك فــقــــط، وهـــكــذا.. وفيما هـــمـــا يراقـــبـــان أحـــوال هـــؤلاء إذا بهـــما يريــــان على بُعد منهما آلافاً من العمارات المزينة والقصور العالية تفصل بينها ميادين وفسح واسعة، الاّ أن سكان تلك العمارات الرائعة لا يظهرون لهما، إما لبعدهما عنهم، أو لضعف نظرهما، أو لأختفاء سكنة تلك القصور أنفسهم، ولا توجد شرائط الحياة التي في هذه الورشة القذرة في تلك القصور العالية.

فالبدوي الذي لم ير المدينة في حياته قال: ان تلك العمارات خالية من أهلها ولا أحــد فيها من الأحياء. اذ انني لا أراهم، وليس هناك ما يشير الى الحياة – كحياتنا – أصلاً. فأظهرَ بهذيانه هذا حماقته الشديدة.

أجابه صديقه العاقل الرزين:

يا هذا! أما ترى ان هذا المسكن البسيط الحقير ملئٌ بالأحياء وليس هناك شبرٌ من فراغ حولنا لم يملأ بالأحياء والعاملين، فهناك من يبدلهم ويجددهم دائماً ويستخدمهم أبداً.

فانظر الآن هل من الممكن ان تكون تلك العمارات الرائعة المنتظمة والتزيينات الحكيمة، والقصور الباذخة على بُعدها عنّا خالية من أهلها المتلائمين معها؟. إنها لابدّ قد ملئت جميعــاً بذوي أرواح، لهم شرائط حياة أخرى خاصة بهم، فلربما يأكلون بدلاً من الأعشاب والاسماك شيئاً آخر، فان عدم رؤيتهم – لبُعدهم أو لقُصر النظر أو اختفائهم – لا يقيم دليلاً أبداً على

عدم وجودهم، اذ أن عدم الرؤية لا يدل مطلقاً على عدم الوجود، وليس عدم الظهور بحجة قطعاً على عدم الوجود. وقياساً على هذا المثال البسيط الواضح:

ان الكرة الارضية وهي واحدة من الأجرام السماوية، على كثافتها وضآلة حجمها، قد اصبحت موطناً لما لا يحد من الاحياء وذوي المشاعر، حتى لقد اصبحت أقذر وأخسّ الأماكن فيها منابع ومواطن لكثير من الأحياء، ومحشراً ومعرضاً للكائنات الدقيقة. فالضرورة والبداهة والحدس الصادق واليقين القاطع جميعاً تدل وتشهد بل تعلن أنّ:

هذا الفضاء الواسع والسموات ذات البروج والأنجم والكواكب كلها مليئة بالأحيــاء وبذوي الادراك والشعور. ويطلق القرآن الكريم والشريعة الغرّاء على اولئك الأحياء الشاعرين والذين خُلقوا من النور والنار ومن الضوء والظلام والهواء ومن الصــوت والرائحــة ومــن الكلمات والأثير وحتى من الكهرباء وسائر السيالات اللطيفة الاخــرى بــأنهم: ملائكــة.. وجان.. وروحانيات.. ولكن كما ان الاجسام أجناس مختلفة كذلك الملائكة؛ اذ ليس المَلَك الموكّل على قطرة المطر من جنس المَلَك الموكّل على الشمس. وكذلك الجن والروحانيــات مختلف الأجناس الكثيرة.

خاتمة هذه النكتة الأساس

لقد ثبت بالتجربة أن المادة ليست أساساً وأصلاً ليبقى الوجود مسخّراً من أجلها وتابعاً لها، بل هي قائمة بـــ»معنى«، وهذا المعنى هو الحياة.. هو الروح..

وترينا المشاهدة والملاحظة كذلك ان المادة لا تكون مطاعة حتى يُرجّع اليها كل شئ، وانما هي وسيلة مطيعة خادمة لإكمال حقيقة معينة.. هذه الحقيقة هي الحياة.. وأساسها.. هو الروح.

ومن البديهي ان المادة ليست هي الحاكمة حتى يُستجدى على بابها وتطلب أو تنتظــر منها الكمالات والــمُثُل. بل هي محكومة تسير وفق أساس معيّن وتتحرك باشارته.. هـــذا الأساس هو الحياة.. هو الروح، هو الشعور..

وتقتضي الضرورة كذلك ان لا ترتبط بالمادة الأعمال والـمُثُل ولاتُبنى على ضوئها، اذ انها ليست لبّاً ولا أصلاً ولا أساساً ولا ثابتاً مستقراً، وانما هي قشرة وغلاف وزَبَد وصورة مهيأة للتشقّق والذوبان والتمزق.

ألا يُشاهَد كيف أن الحيوانات الدقيقة التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة تملك احساسات حادة وقوية حتى أنها تسمع همسات بني جنسها وترى مواد رزقهم!!. ان هذا يبيّن لنا بوضوح:

ان المادة كلّما صغرت ودقت ازداد انطباع ملامح الحياة وآثارها عليها، واشتدّ نور الروح فيها، أي ان المادة كلما دقت وابتعدت عن مادّيتنا كأنها تقترب اكثر من عالم الروح، وعالم الحياة، وعالم الشعور، فيتجلّى نور الحياة وحرارة الروح بشدّة اكثر..

فهل من الممكن ان يترشح كل ما نرى من ترشحات الحياة والمشاعر والروح وتنساب رقراقة من أغطية المادّة، ولا يكون العالم الباطن الكائن تحت ستار المادة مملوءاً بذوي المشاعر وبذوي الارواح؟ وهل من الممكن ان يرجع الى المادة ويسند اليها والى حركتها كل ما في عالم الشهادة من ترشحات غير محدودة للمعاني والروح والحقيقة ومنابع لمعانها وثمراتها، وتتوضح بها وحدها!؟.. كلاّ ثم كلاّ.. بل ان هذه المظاهر غير المحدودة المترشحة، ولمعانها تظهر لنا ان عالم الشهادة المادي هذا انما هو ستار منقش مزركش ملقىً على عالم الملكوت والارواح.

الأساس الثاني

يمكن القول بأن هناك اجماعاً ضمنياً – مع تباين التعبير – على وجود حقيقة الملائكة وثبوت العالم الروحاني بين أهل العقل والنقل كافةً سواءً علموا أم لم يعلَموا.. فلم ينكر »معنى« الملائكة حتى المشّاؤون من الفلاسفة الاشراقيين الذين أوغلوا في الماديات؛ اذ عبّروا عن »معنى« الملائكة بقولهم: »ان هناك ماهية مجردة روحية لكل نوع«. والآخرون من الاشراقيين عندما اضطروا لقبول معنى الملائكة أطلقوا عليهم خطأً: »العقول العشرة وأرباب الأنواع«.

ومن المعلوم ان جميع اهل الأديان مؤمنون ان لكل نوع من أنواع الموجـــودات مَلَكـــاً موكّلاً به يستهلم من الوحي الإلهي وارشاده، فيعبّرون عنهم بأسماء: ملك الجبـــال، ومَلـــك البحار، ومَلَك الامطار..

وحتى المادّيون والطبيعيون – الذين تحدّرت عقولهم الى عيونهم – والمتجردون معنوياً من الانسانية، الساقطون الى درجة الجمادات، لم يسعهم إنكار »معنى« الملائكة وحقيقة الروح. فأطلقوا على القوى الجارية في نواميس الفطرة اسم »القوى السارية« فكان هـــذا تصـــديقاً اضطرارياً منهم – ولو بصورة مشوّهة – لمعنى الملائكة.

فيا أيها الانسان المسكين المتردد في قبول وجود الملائكة والعالم الروحاني. علامَ تستند؟ وبأيّ حقيقة تفتخر؟ حتى تواجه ما اتفق عليه جميع أهل العقل – سواءً علموا أم لم يعلموا – من ثبوت معنى وحقيقة وجود الملائكة وتحقق العالم الروحاني؟

فما دامت الحياة – كما أثبتنا في الأساس الأول – كشافة للموجودات بـــل نتيجتـــها وزبدتها.. وان جميع أهل العقل قد اتفقوا ضمنياً – وإن اختلفوا في التعـــبير – علـــى معـــنى الملائكة.. وأن أرضنا هذه معمـــورة بكـــــل هـــــذه الأحيـــــاء وذوي الأرواح، فكيف يمكن اذن ان يخلو هذا الفضاء الواسع من ساكنيه، وتلك السموات البديعـــة اللطيفـــة مـــن عامريها؟!.

ولا يخطرنّ ببالك ان النواميس والقوانين الجارية في العالم كافية أن تجعل الكائنات ذات حياة.. لأن تلك النواميس الجارية والقوانين الحاكمة أوامر اعتبارية، ودساتير وهمية، لا يعتـــدّ بها، ولا تعدّ شيئاً أصلاً.

فان لم يكن هناك عباد الله المسمّون بـــ »الملائكة« يأخذون بزمـــام هـــذه القـــوانين ويظهرونها ويمثلونها، فلا يتعين لتلك القوانين والنواميس أي وجود كان، ولا تعرف لها هوية، فهي ليست حقيقة خارجية قط، والحال أن الحياة حقيقة خارجية، والأمر الوهمي لا يمكن ان تحمل عليه حقيقة خارجية.

نخلص من هذا أنه: مادام أهل الحكمة وأهل الدين واصحاب العقل والنقـــل متفقـــون ضمنياً على أن الموجودات لا تنحصر في عالم الشهادة هذا، وان عالم الشهادة الظاهر الجامد

الذي لا يكاد يتفق مع اقامة الأرواح وتشكلها قد تزين بهذا العدد الهائل مـــن ذوي الارواح والأنسام؛ لذا فالوجود لا يمكن ان يكون منحصراً فيه. بل هناك طبقات أخرى كثيرة مـــن الوجود، بحيث يصبح عالم الشهادة بالنسبة لها ستاراً مزركشاً. وما دام عالم الغيـــب وعـــالم المعنى ملائمين للارواح – كملائمة البحار للأسماك – فلابدّ أنهما يزخران بارواح ملائمـــة لهما.

ولما كانت جميع الأمور قد شهدت على وجود معنى الملائكة، لذلك فـــلا ريـــب أن أحسن صورة لوجود الملائكة والحقائق الروحانية، وأفضل حال وكيفية لها، بحيث تستسيغها العقول السليمة وتستحسنها، هو بلا شك ما شرحه القرآن الكريم وبيّنه بوضوح.

فالقرآن الكريم يذكر الملائكة بأنهم(...عبادٌ مُكْرَمون) (الأنبياء:26)

(..لا يَعصُـــونَ الله مـــا أمَـــــرهـــــم ويفـــعلون مـــا يُـــؤمَرون) (التحريم: 6)

فهم أجسام نورانية لطيفة تنقسم الى أنواع مختلفة.

نعم فكما ان البشر هم أمة يحملون ويمثلون وينفّذون الشريعة الإلهية الآتية مـــن صـــفة »الكلام«، كذلك الملائكة أمة عظيمة جداً بحيث أن قسم العاملين منهم يحملـــون ويمثلـــون وينفّذون الشريعة التـــكـــويـــنـــيـــة الآتية من صفة »الأرادة«. وهم نوع من عبـــاد الله الطائعين لأوامر المؤثر الحقيقي الذي هو القدرة الفاطرة والأرادة الإلهية طاعة كاملـــة حـــتى جعلوا كل جرم من الأجرام السماوية العلوية بمثابة مسجدٍ ومعبدٍ لهم.

الأساس الثالث

ان مسألة ثبوت الملائكة والعالم الروحاني من المسائل التي تنطبق عليها القاعدة المنطقية: »يدرك تحقق الكل بثبوت جزء واحد«. أي أنه برؤية شخص واحد للملائكة يُعرف وجود النوع عامةً؛ لأن الذي ينكر الواحد ينكر الكلّ قاطبةً.

فاذا ما قَبِل فرداً واحداً من ذلك النوع، فعليه أن يقبل النوع جميعاً، إذن تأمّل:

ألا ترى وتسمع بأن جميع أهل الأديان، في جميع العصور، منذ زمن سيدنا آدم عليـــه السلام الى يومنا هذا، قد اتفقوا على وجود الملائكة وثبوت العالم الروحاني، وان طوائف من

البشر قد اجمعوا على إمكان محادثة الملائكة ومشاهدتهم والرواية عنهم مثلما يتحاورون ويشاهدون ويروون الروايات فيما بينهم. فيا ترى هل يمكن ان يحصل مثل هذا الاجماع، ويدوم هذا الاتفاق، بهذا الشكل المتواتر المستمر في أمر وجودي، ايجابي، مستند الى الشهود، إن لم يكن قد شوهد أحدٌ من الملائكة عياناً وبداهةً؟ أو لم يُعرف وجود شخص او أشخاص منهم بصورة قاطعة بالمشاهدة؟ أو لم يُشعر بوجودهم بالبداهة والمشاهدة؟. وهل من الممكن ألاّ يكون منشأ هذا الاعتقاد العام مبادئ ضروريةً واموراً بديهية؟ وهل من الممكن ان يستمر ويبقى وهمٌ لا حقيقة له في جميع العقائد الانسانية وفي خضم التقلبات البشرية؟. وهل من الممكن ان الأجماع العظيم لأهل الأديان هذا، لا يستند الى حدس قطعي وعلى يقين شهودي؟. وهل من الممكن ان هذا الحدس القطعي واليقين الشهودي لا يستندان الى ما لا يعدّ ولا يحصى من الأمارات والعلامات؟ وان هذه الامارات لا تستند على مشاهدات واقعية؟ وان هذه المشاهدات الواقعية لا تستند الى مبادئ ضرورية لا شك فيها ولا شبهة؟

ولما كان الأمر كذلك، فان أسس ومستندات الاعتقادات العامة في أهل الأديان هي مبادئ ضرورية، نتجت بالتواتر المعنوي النابع من رؤية الروحانيات ومشاهدة الملائكة مراراً وتكراراً، فهي أسس قطعية الثبوت.

وهل من الممكن أو المعقول أن تدخل الشبهة في وجود الملائكة وعالم الروح ومشاهدتهم الذي اخبر عنه، وشهد به الأنبياء والاولياء شهوداً متواتراً وبقوة الاجماع الضمني. وهم شموس الحياة الاجتماعية البشرية ونجومها واقمارها وبخاصة أنهم »أهل الاختصاص« في هذه المسألة؛ اذ من المعلوم أن اثنين من أهل الاختصاص يرجحان على آلاف من غيرهم. وهم كذلك »أهل الاثبات« في هذه المسألة، ومن المعلوم أن إثنين من أهل الإثبات يرجحّان كذلك على آلاف من »أهل النفي«.

وهل من الممكن أن تدخل أية شبهة وبخاصة فيما ذكره القرآن الحكيم المعجز الذي يتلألأ في سماء الكائنات دائماً دون أفول، فهو شمس شموس عالم الحقيقة، وبما شهده وشاهده النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وهو شمس الرسالة؟.

ولما كان تحقق وجود كائن روحاني واحد - في وقت ما - يُظهر حقيقة وجود جميـــع نوعه، وقد تحقق هذا فعلاً، فلابدّ أن أفضل صورة معقولة ومقبولة لحقيقة وجودهم هو مثلما شرحتها الشريعة الغرّاء، وأظهرها القرآن الكريم، وشاهدها صاحب المعراج عليـــه أفضـــل الصلاة والسلام.

الأساس الرّابع

اذا أمعنا النظر في موجودات الكون نلاحظ أن:

»للكلّيّات - كما هي للجزئيات - شخصية معنوية، بحيث تظهر لها وظيفة كليّةً«.

فكما ان الزهرة - مثلاً - باظهارها دقة الصنعة فيها تسبّح بلسان حالها بأسماء فاطرها، فرياض الارض كلها ايضاً هي بحكم تلك الزهرة، لها وظيفة تسبيحية كلية في غاية الانتظام.

وكما ان الثمرة تعبّر وتعلن بنظامها البديع المنسق عن تسبيحاتها، كـــذلك الشـــجرة الباسقة بكليتها، لها عبادة ووظيفة فطرية في اتمّ نظام.

وكما أن للشجرة الباسقة تسابيح بحمد ربّها بكلمات أوراقها وأزهارها وأثمارها، فان لآفاق السموات الشاسعة تسابيحها للفاطر الحكيم بكلمات شموسها ونجومها وأقمارها، وهي تحمد وتمجّد صانعها جل جلاله.

وهكذا الموجودات الخارجية كلها - رغم انها جامدة ودون شعور ظـــاهراً - فلـــها واجبات وتسابيح بحمد ربها في منتهى الأحساس والحيوية.

فالملائكة اذ يمثلون الموجودات ويعبّرون عن تسبيحاتها في عالم الملكوت، فـــالموجودات بدورها هي بحكم المساكن والمساجد للملائكة في عالم الملك والشهادة. ولقد بيّنا في »الكلمة الرابعة والعشرين - «الغصن الرابع منها - : ان مالك قصر هذا العالم الفخم وصانعه جـــل جلاله يستخدم في إعمار مملكته أربعة أقسام من العاملين، وفي مقدمتها الملائكة والروحانيات.

»فالنباتات والجمادات« تقوم بعملها دون دراية لقصد الصانع الحكيم، ودون أن تأخذ أجرة لقاء خدماتها العظيمة، ولكن تقوم بها بأمرةِ مَن يعلم بقصد المالك. و»الحيوانات« تقوم بخدمات عظيمة كلية دون دراية أيضاً، ولكن بأجرة جزئية. و »الانسان« يُستخدم في اعمال

موافقة لما يعلم من مقاصد الصانع ذي الجلال مقابل أجرتين - آجلة وعاجلة - مع أخذٍ لنصيب نفسه أيضاً من كل شئ، ورعايته العمال الآخرين، النباتات والحيوانات..

نعم، فما دام استخدام هذه الأنواع مشاهداً عياناً فلابدّ أن هناك قسماً رابعاً بل هم مقدمة صفوف الخَدَمة والعمال، فهم يتشابهون مع الانسان من ناحية، حيث يعلمون المقاصد العامة للصانع ذي الجلال، فيعبدونه بحركاتهم المنسجمة مع أوامره، ولكنهم يختلفون عن الانسان من ناحية اخرى وهي انهم مجرّدون من حظوظ النفس وأخذ الاجرة الجزئية إذ يكتفون بما يحصلونه من اللذة والذوق والكمال والسعادة بمجرّد نظره سبحانه اليهم، ومن اوامره لهم، وتوجهه اليهم، وقربهم منه، وانتسابهم اليه فيسعون لأجله، وباسمه، فيما يخصهم من أعمال بكل اخلاص.. واولئك هم الملائكة، فتتنوع وظائف عبوديتهم حسب اجناسهم، وحسب انواع الموجودات في الكون؛ اذ كما أن للحكومة موظفين مختلفين حسب اختلاف وتنوع دوائرها، كذلك تتنوع تسبيحات ووظائف العبودية باختلاف الدوائر في سلطنة الربوبية.

فمثلاً: سيدنا ميكائيل عليه السلام بأمر من الله ولأجله، وبحوله وقوته، هو كالمشرف العام - اذا جاز التعبير - على جميع المخلوقات الإلهية المزروعة في حقل الارض، أي هو رئيس جميع مَن هم بحكم المزارع من الملائكة. وللفاطر الحكيم جل جلاله كذلك مَلَك موكّل عظيم يتولّى باذنه وأمره وبقوّته وحكمته رئاسة جميع الرعاة المعنويين للحيوانات جميعاً.

فما دام على كل موجود من الموجودات الظاهرة مَلَكٌ موكّل، يمثل ما تُظهر تلك الموجودات من وظائف العبودية والتسبيح في عالم الملكوت ويقدّمه - بعلمٍ - الى الحضرة الإلهية المقدّسة الجليلة، فلابدّ ان نفهم ان ما روى عن المخبر الصادق)ص(حول الملائكة من صور هي أحسن تصوير وأقرب الى العقل وبشكل جدّ مناسب ولائق.

فمثلاً: روى ان الرسول)ص(قال: »ان لله ملائكة لها أربعون - أو أربعون الف - رأس في كل رأس أربعون الف فم وفي كل فم أربعون ألف لسان يُسبّح أربعين الف تسبيحة« أو كمال قال.. فحقيقة هذا الحديث لها معنى، ولها صورة.

أما معناها فهي: ان عبادة الملائكة في غاية الانتظام والكمال، وهي في منتـــهى الســـعة والكليّة أيضاً.

وأما صورها فهي: ان هناك بعض الموجودات الجسمانية الضـــخمة تنجـــز وظـــائف عبوديتها بأربعين الف رأس وبأربعين الف نمط وشكل، فالسماء مـــثلاً تســـبح بالشـــموس والنجوم. والأرض أيضاً مع أنها واحدة من المخلوقات فانهـــا تقـــوم بوظـــائف عبوديتـــها وتسبيحاتها لربّها بمائة الف رأس، وفي كل رأس مئات الألوف من الافواه، وفي كل فم مئات الألوف من الألسنة، فلأجل أن يُظهر الملك الموكل لكرة الأرض هذا المعنى في عالم الملكوت، لابدّ أن يَظهر هو الآخر بتلك الهيئة والصورة. حتى انني رأيت ما يقارب الأربعين غصناً – بما يشبه الرأس – لشجرة متوسطة من اشجار اللوز، ومن ثم نظرت الى أحد أغصَانها فكان لـــه ما يقارب الأربعين من الأغصَان الصغيرة بمثابة الألسنة، ورأيت هناك أربعين زهرة قد تفتحت من أحد تلك الألسنة، فنظرت بدقة وأمعنت بحكمة الى تلك الأزهار، فاذا في كل زهرة مـــا يقارب الأربعين من الخيوط الدقيقة المنتظمة ذات الألوان البديعة والدقة الرائعة، بحيث أن كلّ خيط من تلك الخيوط يُظهر تجلّياً من تجلّيات أسماء الصانع ذي الجلال ويستنطق اسماً من اسمائه الحسنى.

فهل من الممكن ان صانع شجرة اللوز ذا الجلال وهو الحكيم ذو الجمال الذي حمّـــل تلك الشجرة الجامدة جميع تلك الوظائف ثم لا يركّب عليها مَلَكاً موكلاً، يناسبها – وبمثابة الروح لها – ويفهم معنى وجودها، ويعبّر عن ذلك المعنى ويعلنه للكائنات ويرفعه الى الحضرة المقدسة؟.

أيها الصديق! ان ما بينّاه حتى الآن، إنما كان تمهيداً كي يحضر القلب للقبول، ويلـــزم النفس بالتسليم، ويهيء العقل الى الاذعان، فان كنت قد فهمته. وكنت ترغـــب في مقابلـــة الملائكة حقاً، فتهيأ وتطهّر من الأوهام الرديئة. فدونك عالم القرآن الكريم مفتحة ابوابه. فان جنة القرآن مفتحة الأبواب دائماً.. فادخل.. وانظر الى اجمل صورة للملائكـــة في فـــردوس القرآن.. فكل آية من آيات التتريل شرفة.. ومن هذه الشرفات.. قف.. وانظر.. وتمتع:

(والـــمُرسَلاتِ عُرفَاً_ فَالعَاصِفَاتِ عَصْفَاً_ والنّاشِراتِ نَشرا_ فالفَارِقاتِ فَرقـــاَ_ فالملقيات ذِكْراًَ)(المرسلات:1 - 5).

(والنـــازعـــات غـــرقاً_ والـــناشـــطات نشـــطـــاً_ والســـابحـــــات ســـبحاً_ فالسابقات سبقا _ فالمدبرات أمراً) (النازعات: 1-5)

(تتزل الملئكة والروح فيها باذن ربهم ..) (القدر:4)

(عليها ملـــئكة غـــلاظ شداد لا يعـــصون الله ما أمـــرهـــم ويفعلون ما يؤمرون) (التحريم:6)

ثم انصت الى الثناء عليهم:

(سبـــحانه بل عباد مكرمـــون_ لا يسبـــقونه بالـــقول وهم بامره يعملون) (الانبياء: 26، 27).

وان كنت ترغب في مقابلة الجن فادخل حصن سورة:

(قل أوحي اليَّ أنه استمع نفر من الجن...) (الجن:1)

ثم أنصت اليهم ماذا يقولون.. واعتبر.. انهم يقولون:

(إنّا سمعنا قـــرآناً عجباً_ يهدى الى الـــرشد فآمـــنا به ولـــن نشرك بربنـــا أحـــداً) (الجن:1ــــــ2).

المقصد الثاني

»القيامة ودمار الدنيا والحياة الآخرة«

فيه أربعة أسس مع مقدمة

المقدّمة

اذا ادّعى أحد أن هذه المدينة أو القصر سيُدمّر، ويُبنى ويُعمّر من جديد عمراناً محكمـــاً رصيناً، فلاشك أنه يترتب على دعواه هذه ستة أسئلة:

الأول: لماذا يدمّر؟. وهل هناك من مبرّر؟ فاذا أثبتَ: أن نعم، فهنا يردُ:

السؤال الثاني: هل الذي يهدم ثم يبني ويُعمّر قادر على عمله؟ واذا أثبتَ هــذا ايضــاً فسيلي:

السؤال الثالث هكذا: وهل يمكن هدمها؟

وسؤال آخر: وهل تُهدم فعلاً؟ فاذا اثبتَ انه يمكن هدمها وانه سوف يهــدمها فعــلاً فسيرد هنا سؤالان؟.

هل يمكن إعمار هذه المدينة الرائعة أو القصر من جديد؟ فان كان الجواب: نعــم أنــه ممكن.

فسيرد السؤال: وهل يعمرّها فعلاً؟.

فاذا كان الجواب: نعم واثبتَ كل ذلك، عندئذ لا تبقى أية ثغرة في جميع جوانب هذه المسألة لدخول أية شبهة أو شك أو وهم فيها.

وهكذا على غرار هذا المثال، فهناك مبرّر لهدم قصر الدنيا ومدينــة هــذه الكائنــات وتخريبها وتدميرها، ومن ثم تعميرها وبناؤها، وان هناك مَن هو قادر ومهيمن علــى ذلــك، وبالتالي فهو يمكنه هدمها، وسيهدمها فعلاً، ومن ثم فهو يمكنه تعميرها، وسيعمرّها فعلاً مــن جديد. وستثبت لدينا هذه المسائل بعد الأساس الأول.

الأساس الأوّل

ان الروح باقية قطعاً. اذ أن الدلائل التي دلت على وجود الملائكــة والروحانيــات في »المقصد الأول« هي نفسها دلائل مسألتنا - بقاء الروح - هذه. وعندي أن هــذه المســألة ثابتة الى درجة بحيث يكون من العبث أن نخوض في توضيحها.

نعم.. انها قصيرة ودقيقة تلك المسافة التي بيننا وبين القوافل التي لا تعدّ ولا تحصى مــن الأرواح الباقية في عالم البرزخ وعالم الأرواح والمنتظرة للرحيل الى الآخرة، بحيث لا نحتاج الى برهان لايضاحها؛ فاللقاءات التي بينها وبين ما لا يعدّون من أهل الكشف والشهود، ورؤيــة أهل كشف القبور لهم، وعلاقات عامة الناس وارتباطهم معهم في الرؤى الصادقة ومحاورات قسم من العوام معهم، كل ذلك جعل الروح وبقاءها - لكثرة التواتر - من المفاهيم المتعارفة للبشرية.

بيد أن الفكر المادي في عصرنا هذا قد أسكر كثيراً من الناس فأوغل الوهم والشبهة في أبسط الامور البديهية. فلأجل ازالة هذه الاوهام والوساوس، سنشير الى »أربعة منابع« فقط من بين تلك المنابع الغزيرة للحدس القلبي والاذعان العقلي ممهدين لها »بمقدمة«.

المقدمة

كما أثبت في الحقيقة الرابعة من »الكلمة العاشرة«:

ان الجمال البديع الخالد الأبدي الذي ليس له مثيل يطلب خلود مشتاقيه وبقاءهم وهم كالمرآة العاكسة لذلك الجمال. وان الصنعة الكاملة الخالدة غير الناقصة تستدعي دوام مناديها المتفكرين. وان الرحمة والاحسان غير النهائي يقتضيان دوام تنعم شاكريهما المحتاجين.. فذلك المشتاق الذي هو كالمرآة المصقولة.. وذلك المنادي المتفكر..وذلك الشاكر المحتاج، ان هو الاّ روح الانسان اولاً؛ لذا فالروح باقية بصحبة ذلك الجمال وذلك الكمال وتلك الرحمـــة.. في طريق الخلود والأبدية.

وأثبتنا كذلك في الحقيقة السادسة من »الكلمة العاشرة« أنه:

ليست الروح البشرية وحدها لم تخلق للفناء، بل حتى أبســـــط المخـــــلوقـــــات كذلك لم تخلق للفناء بل لها نوع من البقاء، فالزهرة البسيطة - مثلاًـــــ التي لا تملك روحاً مثلنا، هي ايضاً عندما ترحل ظاهراً من الوجود تبقى صورتها محفوظة في كثير من الأذهـــان، كما يدوم قانون تراكيبها في مئات من بُذيراتها المتناهية في الصغر، فتمثل بذلك نموذجاً لنوع من البقاء بالآف من الأوجه.

وما دام نموذج صورة الزهرة وقانون تركيبها - المشابه جزئياً بالروح - باقياً ومحفوظـــاً من قبل الحفيظ الحكيم في بذيراتها الدقيقة بكل انتظام في خضم التقلبات الكثيرة فلاشك ان روح البشر التي هي قانون أمري نوراني تملك ماهية سامية، وهـــي ذات حيـــاة وشـــعور، وخصائص جامعة شاملة جداً وعالية جداً، وقد اُلبست وجوداً خارجياً، لابدّ انها باقية للأبد، ومشدودة بالسرمدية، وذات ارتباط مع الخلود دون أدنى شك. وكيف تدعي ان لم تفهـــم هذا: انني انسان واعٍ..؟.

فهل يمكن ان يُسأل الحكيم ذو الجلال والحفيظ الباقي الذي أدرج تصـــميم الشـــجرة الباسقة وحفظ قانون تركيبها الشبيه بالروح في بذرة متناهية في الصغر: كيف يحافظ علـــى ارواح البشر بعد موتهم؟.

المنبع الأول: انفسي

أي أن كل من يدقق النظر في حياته ويفكر مليّاً في نفسه يدرك أن هناك روحاً باقيةً.

نعم. انه بديهي أن كل روح رغم التبدل والتغير الجاري على الجسم عبر سني العمـــر تظل باقية بعينها دون أن تتأثر، لذا فما دام الجسد يزول ويستحدث - مع ثبات الروح - فلابدّ ان الروح حتى عند انسلاخها بالموت إنسلاخاً تاماً، وزوال الجسد كلّه، لا يتأثر بقاؤها ولا تتغير ماهيتها.. اي أنها باقية ثابتة رغم هذه التغيرات الجسدية، وكل ما هنالك ان الجسد يبدّل أزياءه تدريجياً طوال حياته مع بقاء الروح، أما عند الموت فيجرد نهائياً وتثبت الـــروح. فبالحدس القطعي بل بالمشاهدة نرى ان الجسد قائم بالروح، اي ليست الروح قائمة بالجسد، وانما الروح قائمة ومسيطرة بنفسها. ومن ثم فتفرّق الجسد وتبعثره بأي شكل من الأشـــكال وتجمّعه لايضر باستقلالية الروح ولا يخـــل بها أصـــلاً. فالجســـد عـــــــشّ الـــــــروح ومســـــكنها وليـــــس بردائـــها. وانمـــــا رداء الـــــروح غـــــــلاف لطـــــــيف وبـــــدن مثـــــالي ثـــــابت الى حـــــدٍّ ما ومتناسب بلطافته معها. لذا لا تتعرّى الروح تماماً حتى في حالة الموت بل تخرج من عشّها لابسة بدنها المثالي وأرديتها الخاصة بها.

المنبع الثاني: آفاقي

وهو حكم نابع من المشاهدات المتكررة والوقائع المتعددة ومن التجارب الكثيرة.

نعم، اذا ما فُهم بقاء روح واحدة بعد الممات، يستلزم ذلك بقاء »نوع« تلك الـــروح عامة. إذ المعلوم في علم المنطق أنه اذا ظهرت خاصّة »ذاتية« في فرد واحد يحكم على وجود تلك الخاصة في جميع الأفراد؛ لأنها خاصة ذاتية، فلابدّ من وجودها في كل فرد. والحـــال أن بقاء الروح لم يظهر في فرد واحد فحسب، بل أن الآثار التي تستند الى المشاهدات التي لا تعدّ ولا تحصى والامارات التي تدل على بقائها ثابتة بصورة قطعية الى درجة أنه كما لا يساورنا الشك ولا يأخذنا الريب أبداً في وجود القارة الامريكية المكتشفة حديثاً واستيطانها بالسكان،

كذلك لا يمكن الشك ان في عالم الملكوت والارواح الآن ارواحاً غفيرة للأموات لها علاقات معنا، اذ أن هدايانا المعنوية تمضي اليها، وتأتينا منها فيوضاتها النورانية.

وكذلك يمكن الاحساس وجداناً بالحدس القطعي، بأن ركناً أساساً في كيان الانسان يظل باقياً بعد موته. وهذا الركن الأساس هو الروح، حيث أن الروح ليست معرضة للإنحلال والخراب؛ لأنها بسيطة ولها صفة الوحدة. اذ الانحلال والفساد هما من شأن الكثرة والاشياء المركبة. وكما بيّنا سابقاً فان الحياة تؤمّن طرزاً من الوحدة في الكثرة، فتكون سبباً لنوع من البقاء أي أن الوحدة والبقاء هما أساسا الروح حيث تسري منهما الى الكثرة. لذلك فإن فناء الروح إما أن يكون بالهدم والتحلّل أو بالأعدام؛ فأما الهدم والتحلّل فلا تسمح لهما الوحدة والتفرد بالولوج، ولا تتركهما البساطة للافساد، وأما الاعدام فلا تسمح به الرحمة الواسعة للجواد المطلق، ويأبى جُوده غير المحدود أن يستردّ ما أعطى من نعمة الوجود الى روح الانسان اللائقة والمشتاقة الى ذلك الوجود.

المنبع الثالث

الروح قانون أمري، حيّ، شاعر، نوراني، وذات حقيقة جامعة، معدّة لاكتساب الكلية والماهية الشاملة وقد اُلبست وجوداً خارجياً؛ اذ من المعلوم أن أضعف الأوامر القانونية يظهر عليها الثبات والبقاء، لأنه اذا أمعنا النظر نرى بأن هناك »حقيقة ثابتة« في جميع الأنواع المعرّضة للتغيّر، حيث تتدحرج ضمن التغيرات والتحولات وأطوار الحياة مبدّلة صوراً واشكالاً مختلفة، ولكنها تظل هي باقية حيةً ولا تموت ابداً. فالقانون الذي يسري على »نوع« من الأحياء الاخرى يكون جارياً ايضاً على الشخص »الفرد« للأنسان؛ اذ الانسان »الفرد« حسب شمول ماهيته، وكلّية مشاعره وأحاسيسه، وعموم تصوّراته، قد اصبح في حكم »النوع« وان كان بعدُ فرداً واحداً؛ لأن الفاطر الجليل قد خلق هذا الأنسان مرآة جامعة، وشاملة، مع عبودية تامة، وماهية راقية، فحقيقته الروحية في كل فرد لا تموت أبداً – بإذن الله – وان بدّلت مئات الآلاف من الصور، فتستمر روحه حية كما بدأت حية؛ لذا فان الروح التي هي حقيقة شعور ذلك الشخص وعنصر حياته باقية دائماً وأبداً بابقاء الله لها وبأمره واذنه تبارك وتعالى.

المنبع الرابع:

ان القوانين المتحكمة والسارية في الأنواع تتشابه مع الروح الى حدّ ما، إذ ان كليهما آتيان من عالم »الأمر والارادة«. فهي تتوافق مع الروح بدرجة جزئية معينة لصدورهما من المصدر نفسه، فلو دققنا النظر في تلك النواميس والقوانين النافذة في الانواع التي ليس لها إحساس ظاهر، يظهر لنا أنه:

لو اُلبست هذه القوانين الأمرية وجوداً خارجياً لكانت اذاً بمثابة الروح لهذه الأنواع، اذ ان هذه القوانين ثابتة ومستمرة وباقية دائماً. فلا تؤثر في وحدها التغيرات ولا تفسدها الانقلابات فمثلاً: اذا ماتت شجرة تين وتبعثرت فان قانون تركيبها ونشأتها الذي هو بمثابة روحها يبقى حيّاً في بذرتها المتناهية في الصغر. أي أن وحدة تلك القوانين لا تفسد ولا تتأثر ضمن جميع التغيرات والتقلبات. وطالما أن أبسط الأوامر القانونية السارية وأضعفها مرتبطة بالدوام والبقاء، فيلزم ان الروح الانسانية لا ترتبط مع البقاء فحسب بل مع أبد الآباد؛ لأن الروح بنص القرآن الكريم »مِنْ أمرِ ربّى« آتٍ من عالَم الأمر، فهو قانون ذو شعور وناموس ذو حياة، قد ألبسته القدرة الإلهية وجوداً خارجياً. اذن فكما أن القوانين غير ذات الشعور الآتية من عالم »الأمر« وصفة »الارادة« تظل باقية دائماً أو غالباً، فكذلك الروح – التي هي صنوها – آتية من عالم »الأمر« وهي تجلٍّ لصفة »الارادة« فهي أليق بالبقاء وأصلح له. أي أن بقاءها أولى بالثبوت والقطعية؛ لأن لها وجوداً وامتلاكاً للحقيقة الخارجية، وهي أقوى من جميع القوانين وأعلى مرتبة منها، ذلك لأن لها شعوراً، وهي أدوم وأثمن قيمة منها لأنها تمتلك الحياة.

الأساس الثاني

ان هناك ضرورة ومقتضى للحياة الأخرى.. وان الذي يهب تلك الحياة والسعادة الابدية قادر مقتدر.. وان دمار العالم وموت الدنيا ممكن.. وانه سيقع فعلاً.. وان الحشر وبعث العالم من جديد ممكن ايضاً.. وانه ستقع هذه الواقعة فعلاً.

فهذه ست مسائل سنبيّنها بالتعاقب باختصار يقنع العقل، علماً أننا قد سقنا في »الكلمة العاشرة« براهين جعلت القلوب ترقى الى مرتبة الايمان الكامل، ولكننا هنا نبحثها فحسب بما يقنع العقل ويبهته كما فعل »سعيد القديم« في رسالة »نقطة من نور معرفة الله«.

نعم! ان هناك ما يقتضي الحياة الأخرى، وان هناك مبرراً للسعادة الابدية، وان البرهان القاطع الدّال على هذه الضرورة حدسٌ يترشح من عشرة ينابيع ومدارات:

المدار الأول:

اذا تأملنا في أرجاء الكون نرى ان هناك نظاماً كاملاً وتناسقاً بديعاً مقصوداً في جميع أجزائه. فنشاهد رشحات الارادة والاختيار، ولمعات القصد في كل جهة.. حتى نبصر نور »القصد« في كل شئ، وضياء »الارادة« في كل شأن، ولمعان »الأختيار« في كل حركة، وشعلة »الحكمة« في كل تركيب.

فشهادة ثمرات كل ما سبق تلفت الأنظار. وهكذا ان لم يكن هناك حياة أخرى وسعادة خالدة، فماذا يعني هذا النظام الرصين؟ انه سيبقى مجرد صورة ضعيفة باهتة واهية، وسيكون نظاماً كاذباً دون أساس، وستذهب المعنويات والروابط والنسب - التي هي روح ذلك النظام والتناسق البديع - هباءً منثوراً..

أي أن الحياة الأخرى والسعادة الابدية هي التي جعلت هذا »النظام« نظاماً فعلاً واعطت له معنىً، لذا فنظام العالم هذا يشير الى تلك السعادة الابدية وحياة الخلود.

المدار الثاني:

ان في خلق الكائنات تتضح حكمة جليّة. نعم، ان الحكمة الإلهية التي ترمز الى عنايته الأزلية واضحة وضوحاً تاماً؛ فرعاية مصالح كل كائن، والتزام الفوائد والحِكَم فيها ظاهرة جلية في الجميع، وهي تعلن - بلسان حالها - ان السعادة الأبدية موجودة؛ ذلك إن لم تكن هناك حياة أخرى أبدية فيجب أن ننكر - مكابرين ومعاندين - كل ما في هذه الكائنات من الحِكَم والفوائد الثابتة البديهية.

نقتصر على هذا مكتفين بالحقيقة العاشرة »للكلمة العاشرة« فقد أظهرت هذه الحقيقة كالشمس.

المدار الثالث:

لقد ثبت عقلاً وحكمةً واستقراءً وتجربةً: ان لا عبثية ولا اسراف في خلق الموجودات، وان عدمهما يشير الى السعادة الابدية والدار الآخرة. والدليل على انه ليس في الفطرة اسراف ولا في الخلق عبث، هو أن الخالق سبحانه وتعالى قد اختار لخلق كل شئ أقرب طريق، وأدنى جهة، وأرق صورة، وأجمل كيفية؛ فقد يسند الى شئ واحد مائة وظيفة، وقد يعلق على شئ دقيق واحد ألفاً من الغايات والنتائج. فما دام ليس هناك اسراف، ولا يمكن ان يكون هنـــاك عبث فلابدّ ان تتحقق تلك الحياة الاخرى الأبدية. وذلك إن لم يكن هناك رجوع الى الحياة من جديد، فان العدم يحوّل كل شئ الى عبث، بمعنى ان كل شئ كان اسرافاً وهدراً. الاّ أن عدم الاسراف الثابت حسب علم وظائف الاعضاء في الفطرة جميعها – ومنها الانسان– ليبيّن لنا انه لا يمكن أن تذهب هباءً – فيكون اسرافاً – جميع الاستعدادات المعنوية، والآمال غـــير النهائية، والأفكار والميول.. حيث أن الميل الأصيل الى التكامل المغروس في اعماق الانســـان يفصح عن وجود كمال معين، وأن ميله وتطلّعه الى السعادة يعلن اعلاناً قاطعاً عن وجـــود سعادة خالدة وانه المرشح لهذه السعادة.

فان لم يكن الأمر هكذا، فالمعنويات الرصينة والآمال الراقية السامية التي تؤسس ماهيـــة الانسان الحقيقية تكون كلها – حاشَ لله – اسرافاً وعبثاً وتذهب هباءً، خلافـــاً للحكمـــة الموجودة في جميع الخلق.

نكتفي هنا بهذا القدر لأننا قد أثبتناها سابقاً في الحقيقة الحادية عشرة مـــن »الكلمـــة العاشرة«.

المدار الرابع

ان التبدلات والتحولات التي تحدث في كثير من الأنواع، حتى في الليل والنـــهار، وفي الشتاء والربيع، وفي الهواء، وحتى في جسد الانسان خلال حياته، والنوم الـــذي هـــو أخـــو الموت.. تشابه الحشر والنشر، وهي نوعٍ من القيامة لكل منها، وتُشعر بحدوث القيامة الكبرى وتخبر عنها رمزاً. فمثلما ساعاتنا تعدُّ اليوم، والساعة، والدقيقة، والثانية بحركة تروسها فتُخبر عقاربها بحركتها عن كل واحدة منها، وبالتي تليها – أي أن كل واحدة منها مقدمـــة للـــتي

تليهـــــ كذلك هذه الدنيا فهي كساعة إلهية عظيمة، تعمل بدورانها وتعاقبها على عدّ الأيام والسنين فتخبر كل منها عن التي تليها وهي مقدمة لها. فكما أنها تُحدث الصبح بعد الليــل، والربيع بعد الشتاء، كذلك تُخبرنا رمزاً عن حدوث صبح القيامة بعد الموت وصدورها مــن تلك الساعة العظمى.

وهناك اشكال مختلفة كثيرة من أنواع القيامة يــمرّ بها الانسان في فترة حياته، ففي كل ليلة هناك نوع من الموت وفي الصباح يرى نوعاً من البعث، اي انه يرى ما يشــبه امــارات الحشر، بل انه يرى كيف تتبدّل جميع ذرات جسمه في بضع سنين، حتى انه يرى نموذج قيامةٍ وحشرٍ تدريجيين مرتين في السنة الواحدة من تلك التبدلات التي تحصل في أجــزاء جســمه جميعها. ويشاهد كذلك الحشر والنشور والقيامة النوعية في كل ربيع في اكثر من ثلاثمائة الف من أنواع النباتات والحيوانات.. فهذا الحشد من الامارات والاشارات الــتي لا تحــدّ علــى الحشر، وهذا الحدّ من العلامات والرموز التي لا تحصى على النشور.. مــا هــو الاّ بمثابــة ترشحات للقيامة الكبرى تشير الى الحشر الاكبر. فحدوث مثل هذه القيامة النوعية وما يشبه الحشر والنشور في الانواع، من قبل الخالق الحكيم، باحيائه جميع الجذور وقسماً من الحيوانات بعينها، واعادته سبحانه سائر الاشياء والأوراق والازهار والاثمار بمثلــــــها، يمــــكن أن يكــــون دليــــلاً على القيامة الشخصية لكل فرد انســاني ضمن القيامة العامة. حيث ان »الفرد« الانـــساني يقــابل »النــوع« مـــــن الكــــائنــــــات الأخــرى؛ لأن نـــور الفكر أعــــطى مــــن السعة العظيمة لآماله وأفــكـــاره بحــيـــــث يتمكن ان يحيْط بالمـــــاضي والمـــــستــــقبل، بــل اذا ابتلع الدنيا لا يشبع.. أمــا في الأنــواع الأخرى فماهيّة الفرد جزئية، وقيمته شخصية، ونظره محدود، وعقله محصور، وألمه آني، ولذته وقتية، بينما البشر ماهيته سامية، وميزاته راقية وقيمته غالية، ونظره شامل عام، وكــــماله لا يحدّه شــئ، وقسم من آلامه ولذاتـــه المعنـــوية دائمة؛ ولـــهذا فــــان مــا يـــشـــاهـــد من تكـــرار أشـــكـــال القيامة والحشر في سائر الأنواع يُخبر ويرمز الى ان كل فرد انساني يُعاد بعينه ويُحشر في القيامة الكبرى العامة.

ولما كنا قد أثبتنا هذا في الحقيقة التاسعة من »الكلمة العاشرة« بشكل قطعي كمن يثبت حاصل ضرب الأثنين في اثنين يساوي أربعاً فقد اوجزناه هنا.

المدار الخامس:

يرى العلماء المحققون ان افكار البشر وتصوراته الانسانية التي لا تتناهى المتولّدة من آماله غير المتناهية، الحاصلة من ميوله التي لا تحد، الناشئة من قابلياته غير المحصورة، المندمجة في استعداداته الفطرية غير المحدودة، المندرجة في جوهر روحه، كلّ منها تمدّ اصابعها فتشير وتحدق ببصرها فتتوجه الى عالم السعادة الابدية وراء عالم الشهادة هذا. فالفطرة التي لا تكذب ابداً والتي فيها ما فيها من ميل شديد قطعي لا يتزحزح الى السعادة الأخروية الخالدة تعطي للوجدان حدساً قطعياً على تحقق الحياة الأخرى والسعادة الابدية.

نكتفي هنا بهذا القدر حيث اظهرت الحقيقة الحادية عشرة من »الكلمة العاشرة« هذه الحقيقة واضحة كالنهار.

المدار السادس:

ان رحمة خالق الكون وهو الرحمن الرحيم تدل على السعادة الأبدية، نعم! ان التي جعلت النعمة نعمة فعلاً وانقذها من النقمة، ونجّت الموجودات من نحيب الفراق الابدي.. هي السعادة الخالدة ودار الخلود، وهي من شأن تلك الرحمة التي لا تحرم البشر منها، اذ لو لم توهب تلك السعادة ودار الخلود التي هي رأس كل نعمة وغايتها ونتيجتها الأساس، أي ان لم تبعث الدنيا بعد موتها بصورة »آخرة«.. لتحولت جميع النِعَم الى نقم.. وهذا يستلزم إنكار الرحمة الإلهية المشهودة الظاهرة بداهة وبالضرورة في الكون، والثابتة بشهادة جميع الكائنات والتي هي الحقيقة الثابتة الواضحة وضوحاً أسطع من الشمس.

فاذا ما أفترضتَ ان نهاية الحياة الانسانية تصير الى الفراق الابدي والى العدم ثم دققتَ النظر في بعض الآثار اللطيفة لتلك (الرحمة) وانوارها في نعمة الحب والحنان والعقل.. فانك ترى ان تلك المحبة تصبح مصيبة كبرى.. وذلك الحنان اللذيذ يكون داءً وبيلاً.. وذلك العقل النوراني يكون بلاءً عظيماً..

فالرحمة اذن – لأنها رحمة – لا يمكن ان تقابل المحبةَ الحقيقية بذلك الفــراق الابــدي والعدم. أي لابد من حياة أخرى..

لخصنا هذه الحقيقة هنا حيث أن الحقيقة الثانية من »الكلمة العاشرة« قد اوضحتها بكل جمال ووضوح.

المدار السابع:

ان جميع المحاسن وجميع الكمالات وجميع الأشواق واللطــائف وجميــع الانجــذابات والترحّمات التي نعلمها ونراها في هذه الكائنات ما هي الاّ معانٍ، ومضــامين، وكلمــات معنوية، تبين للقلب بكل وضوح وتظهر للعقل بكل جلاء انها تجليات كرم الخــالق الجليــل واحسانه، وانها تجليات رحمته الخالدة ولطفه الدائم سبحانه ولما كانت هناك »حقيقة« ثابتــة في عالمنا، ورحمة حقيقية واضحة بالبداهة، فلابد أن ستكون السعادة الأبدية. وقد اوضــحت الحقيقة الرابعة مع الثانية من »الكلمة العاشرة« هذه الحقيقة كالشمس.

المدار الثامن:

ان الوجدان الشاعر للانسان الذي هو فطرته، يدلّ على الحياة الأخــرى ويرنــو الى السعادة الأبدية.

نعم، ان الذي يصغى الى وجدانه اليقظ فانه يسمع حتماً صوت »الأبد.. الأبد« حــتى اذا ما أعطي كل ما في الكائنات لذلك الوجدان فانه لا يسدّ حاجته الى الأبد. بمعنى ان ذلك الوجدان مخلوق لذلك الأبد، وان هذا الجذب والانجذاب الوجداني لا يكون الاّ بجذب مــن غاية حقيقية وبجاذب حقيقي.

وقد أظهرت خاتمة الحقيقة الحادية عشرة من »الكلمة العاشرة« هذه الحقيقة.

المدار التاسع:

ان كلام النبي الصادق المصدَّق المصدوق محمد العربي الهاشمي عليــه أفضــل الصــلاة والسلام قد فتح أبواب السعادة الأبدية، وأن احاديثه الشريفة نوافذ مفتحة على تلك السعادة الخالدة تطلّ عليها، وهو اذ يملك قوة اجماع الأنبياء عليهم السلام جميعهم وتــواتر الأوليــاء الصادقين كلهم، فقد ركزّ بيقين راسخ كل دعواه، بكل قواه – بعد توحيد الله – على هذه

النقطة الأساس، وهي الحشر والحياة الآخرة. فهل هناك شئ يمكن ان يزحزح هـــذه القـــوة الصامدة؟.

وقد اوضحت الحقيقة الثانية عشرة من »الكلمة العاشـــــرة« هذه الحقيقة بوضـــوح تام.

المدار العاشر:

وهو البلاغ المبين للقرآن الكريم الذي حافظ على اعجازه – بسبعة أوجه – طوال ثلاثة عشر قرناً وما زال، كما أثبتنا أربعين نوعاً من اعجازه في »الكلمة الخامسة والعشرين«..

نعم.. ان إخبار القرآن نفسه عن الحشر الجسماني هو تنوير كافٍ وكشف بيّن له، فهو المفتاح للحكمة المودعة في الكائنات وللسر المغلق للعالم.

ولقد دعا هذا القرآن العظيم مراراً الى التفكر ولفت الأنظار الى آلاف مـــن الـــبراهين العقلية القطعية. فالآيات الكريمة مثلاً:

(وَقَدْ خَلَقَكُم أطْواراً) (نوح:14)

(قل يُحييهَا الـــــذي أنْشَـــــــــاهَا أوَّلَ مَرَّةٍ...) (يس:79) انمـــــا هي نمـــاذج للقياس التمثيلي. وأن (وَمَا رَبُّكَ بظَلاّمٍ لِلْعَبيدِ) (فصلت:46) نموذج آخر يشـــير الى دليـــل العدالة في الكون، وآيات كثيرة أخرى قد وضحت فيها نظارات »مراصد« ذات عدســـات مكبرة كثيرة كي تنظر بامعان من خلالها الى السعادة الأبدية في الحشـــر الجســـماني. وقـــد اوضحنا في رسالة »النقطة« القياس التمثيلي الموجود في الآيتين الأوليين مع ســـائر الآيـــات الأخرى وخلاصته:

ان الانسان كلما انتقل من طور الى طور مرّ بانقلابات منتظمة عجيبة، فمن النطفة الى العلقة ومن العلقة الى المضغة ومن المضغة الى العظم ثم اللحم، ومن ثم الى خلق جديد، أي ان انقلابه الى صورة انسان يتبع دساتير دقيقة، فكل طور منها له من القوانين الخاصة والانظمـــة المعينة والحركات المطردة بحيث يشف عما تحته من أنوار القصد والارادة والأختيار والحكمة.

وعلى الطريقة نفسها فان الخالق الحكيم يُبدّل هذا الجسد سنوياً كتبديل الثياب، فيكون هذا الجسد بحاجة الى تركيب جديد كي يتبدّل ويبقى حيّاً، وبحاجة الى إحلال ذرات فعّالـــة

جديدة محل ما انحلّت من الأجزاء؛ لذا فكما أن الجسد تنهدم حجيراته بقانون إلهي منتظم، كذلك يحتاج الى مادة لطيفة بأسم »الرزق« كي يعمر من جديد بقانون إلهي ربّاني دقيق.. فالرزّاق الحقيقي يوزع ويقسم – بقانون خاص – لكل عضو من أعضاء الجسد المختلفة – وبنسبة معينة – ما يحتاجه من المواد المتباينة.

والآن انظر الى أطوار تلك المادة اللطيفة المرسلة من قبل الرزاق الحكيم تَــرَ: ان ذرّات تلك المادة هي كقافلة منتشرة في الغلاف الجوّي.. في الأرض.. في الماء.. فبينما هي مبعثرة هنا وهناك، اذا بها تُستنفر فتتجمع بكيفية خاصة، وكأن كل ذرة منها هي مسؤولة عن وظيفة أرسلت الى مكان معيّن بواجب رسمي، فتجتمع مع بعضها في غاية الانتظام، مما يوحي بأنها حركة مقصودة، فسلوكها هذا يبيّن:

ان فاعلاً ذا ارادة يسوق تلك الذرات – بقانونه الخاص – من عالم الجمادات الى عالم الأحياء، وهنا بعد أن دخلت جسماً معيناً – رزقاً له – تسير وفق نظم معينة وحركات مطردة وحسب دساتير خاصة، اذ بعد أن تنضج في اربعة مطابخ وتُمررّ باربعة انقلابات عجيبة وتصفّى باربعة مصاف، تُهيّأ للتوزيع الى أقطار الجسم واعضائه المختلفة حسب الحاجات المتباينة لكل عضو، وتحت رعاية الرزاق الحقيقي وعنايته وبقوانينه المنتظمة، فاذا تأملت بعين الحكمة اية ذرّة من تلك الذرات فانك سترى: ان الذي يسوق تلك الذرّة ويسيّرها انما يسوقها بكل بصيرة، وبكل نظام، وبملء السمع والعلم المحيط.. فلا يمكن بحال من الأحوال ان يتدخل فيه »الاتفاق الأعمى« و »الصدفة العشواء« و »الطبيعة الصمّاء« و»الأسباب غير الواعية«؛ لأن كل ذرة من الذرات عندما دخلت الى أيّ طور من الأطوار ابتداءً من كونها عنصراً في المحيط الخارجي وانتهاءً الى داخل الخلية الصغيرة من الجسم، كأنما تعمل بارادة وباختيار حسب القوانين المعينة في كل طور من تلك الأطوار، اذ هي حينما تدخل فانها تدخل بنظام، وعندما تسير في أية مرتبة من المراتب فانها تسير بخطوات منتظمة الى درجة تظهر جلياً كأن أمر سائقٍ حكيم يسوقها.

وهكذا وبكل انتظام، كلما سارت الذرة من طور الى طور ومن مرتبة الى أخرى لا تحيد عن الهدف المقصود حتى تصل الى المقام المخصص لها بأمر

ربّاني في قزحية عين »توفيق [162]مثلاً.. وهناك تقف لتنجز وظائفها الخاصة وتؤدي ما أنـيط بها من أعمال، وهكذا فان تجلّى الربوبية في الارزاق، يبين ان تلك الذرات – منذ البداية – كانت معيّنة ومأمورة، وكانت مسؤولة عن وظيفة، وكانت مهيّأة مستعدة للوصول الى تلك المراتب المخصصة لها، وكأن كل ذرة مكتوب على جبينها ما ستؤول اليها – أي الها ستكون رزقاً للخلية الفلانية – مما يشير لنا هذا النظام الرائع الى ان اسم كل انسان مكتـوب علـى رزقه، كما أن رزقه مكتوب على جبينه بقلم القدر.

فهل من الممكن ان الرب الرحيم ذا القدرة المطلقة والحكمة المحيطة ألاّ يُنشئ »النشـأة الأخرى«؟ او يعجز عنها؟ وهو الذي له مُلك السموات والأرض وهنّ مطويات بيمينه مـن الذرات الى المجرات ويديرها جميعاً ضمن نظام محكم وميزان دقيق... فسـبحان الله عمـا يصفون.

لذلك فان كثيراً من آيات القرآن الكريم تُلفت نظـر الأنسـان الى »النشـأة الأولى« الحكيمة كمَثَل قياسي »للنشأة الأخرى« في الحشر والقيامة، وذلك كي تستبعد انكارها من ذهن الانسان فتقول (قل يُحييها الذي أنشأَها أولَ مرّة) أي أن الذي أنشأكم – ولم تكونوا شيئاً يذكر – على هذه الصورة الحكيمة هو الذي يحييكم في الآخرة.

وتقول: (وهوَ الذي يَبدَؤا الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهوَ اهونُ عليـه...) (الـروم:27) أي أن اعادتكم وأحياءكم في الآخرة هي أسهل من خلقكم في الدنيا، اذ كما أن الجنـود اذا مـا انتشروا وتفرّقوا للاستراحة، يمكن ارجاعهم الى أماكنهم تحت راية الفرقة بنفخة من البـوق العسكري، فجمعهم هكذا من الاستراحة في مكان معين أسهل بكثير من تكوين فرقة جديدة من الجنود، كذلك فان الذرات الأساس التي استأنست وارتبط بعضـها بـالبعض الآخـر بأمتزاجها في جسم معين عندما ينفخ اسرافيل عليه السّلام في صُورِه نفخة واحدة تهبّ قائلة: لبيّك لأمر الخالق العظيم، وتجتمع. فاجتماعها بعضها مع البعض الآخر مرة أخرى لا ريـب أسهل وأهون – عقلاً – من ايجاد تلك الذرات أول مرّةً.

---

[162] من تلاميذ الاستاذ النورسي الاوائل، وأحد كتّاب رسائل النور. ـ المترجم.

هذا وقد لا يكون ضرورياً اجتماع جميع الذرات، وانما تكفي الذرات الأساس التي هي بمثابة البذور والنوى للأجسام. كما عبّر عنها الحديث الشريف »عجب الذنب« [163] التي هي -الاجزاء الأساس - والذرات الأصيلة الكافية وحدها ان تكون اساساً لأنشاء النشأة الآخرة عليها، فالخالق الحكيم يبني من جديد جسد الانسان على ذلك الأساس.

وأما القياس العدلي الذي تشير اليه الآية الكريمة:

(وما ربُّك بظلاّمٍ للعَبيد) فخلاصته:

اننا نرى كثيراً في عالمنا: ان الظالمين والفجّار يقضون حياتهم في رفاه وراحة تامة أمـــا المظلومون والمتدينون فيقضونها في شظفٍ من العيش بكل مشقة وارهاق.. ومن ثم يأتي الموت فيحصد الأثنين معاً دون تمييز، فلو لم تكن هناك نهاية مقصودة ومعينة لظهر الظلـــم إذن في المسألة؛ لذا فلابدّ من الاجتماع الأخروي بينهما حتى ينال الأول عقابه وينال الثاني ثوابه؛ اذ المترّه عن الظلم سبحانه وتعالى وهو العادل الحكيم - بشهادة الكائنات قاطبةً - لا يمكن بحال من الأحوال أن تقبل عدالته وحكمته هذا الظلم ولا يمكن أن ترضيا به، فالنهاية المقصودة اذن حتميّـــة؛ لأن رؤية هذا الانسان الكادح المنهوك جزاءه وثوابه - حسب استعداده - يجعلـــه رمزاً للعدالة المحضة ومداراً لها، ومظهراً للحكمة الربّانية ومنسجماً مع الموجودات الحكيمة في الكون واخاً كبيراً لها.

نعم، إنّ دار الدنيا القصيرة هذه لا تكفي - كما انها ليست ظرفاً - لأظهار ما لا يحدّ من الاستعدادات المندمجة في روح الانسان واثمارها، فلابدّ ان يرسَل هذا الانســـان الى عـــالم آخر.. نعم، ان جوهر الانسان عظيم، لذا فهو رمز للأبدية ومرشح لها. وان ماهيتـــه عاليـــة وراقية؛ لذا اصبحت جنايته عظيمة؛ فلا يشبه الكائنات الأخرى، وان نظامه دقيق ورائع، فلن تكون نهايته دون نظام، ولن يُهمل ويذهب عبثاً، ولن يحكم عليه بالفناء المطلق ويهـــرب الى العدم.

---

[163]) عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ا ص: «كل ابن آدم يأكله التراب الاّ عجب الذنب، منه خلق ومنه يركّب» رواه مسلم وابو داود وابن ماجه. والعجب: اصل الذنب. ـ المترجم.

وانما تفتح جهنم افواهها فاغرة... تنتظره...

والجنة تبسط ذراعيها لاحتضانه..

اوجزنا هنا حيث أن الحقيقة الثالثة من »الكلمة العاشرة« قد أوضحت هذه الحقيقة بجلاء.

وهكذا، اوردنا هاتين الآيتين مثالاً، وعليك أن تقيس وتتبع مثلها في سائر الآيات الكريمة التي تتضمن براهين عقلية لطيفة كثيرة.

فتلك عشرة كاملة من المنابع والمدارات التي تنتج حدساً صادقاً وبرهاناً قاطعاً على الحشر. وكما أن الحدس الثابت والبرهان القوي دليل قطعي على حدوث القيامة والحشر الجسماني ويقتضيه، كذلك الأسماء الإلهية الحسنى: الحكيم، الرحيم، الحفيظ، العادل، واغلب الأسماء الحسنى تقتضي يوم القيامة والسعادة الخالدة، وتدل على تحققها ووقوعها قطعاً، كما أثبتناها في »الكلمة العاشرة«.

لذا فمقتضيات الحشر والقيامة اصبحت لدينا قوية ومتينة الى درجة لا يمكن أن تنفذ اليها شبهة ولا شك مطلقاً.

الأساس الثالث

نعم، كما انه لاشك مطلقاً في مقتضيات الحشر، كذلك لا ريب ابداً في القدرة المطلقة للذي يحدث الحشر، فلا نقص في قدرته، اذ يستوي عنده كل عظيم وصغير وسواءٌ عنده خلق ربيع كامل وخلق زهرة واحدة.

نعم! ان قديراً يشهد بعظمته وقدرته هذا الكون بألسنة شموسه ونجومه وعوالمه حتى بألسنة ذرّاته وما فيها، هل يحق لأي وهم أو وسوسة أن يستبعد عن تلك القدرة المطلقة الحشر الجسماني؟.

ان قديراً ذا جلال يخلق أكواناً جديدة منتظمة في كل عصر ضمن هذا الكون الهائل، بل يخلق في كل سنة دنىً سيارة جديدة منتظمة، بل يخلق في كل يوم عوالم جديدة منتظمة فيخلق باستمرار عوالم ودنى واكواناً زائلة متعاقبة ويبدلها بكل حكمة على وجه الأرض والسموات، ناشراً ومعلقاً على مسار الزمن عوالم منتظمة بعدد العصور

والسنين بل بعدد الأيام، فيُري بها عظمة قدرته جلّ وعلا، وهو الذي زيّن بستان الربيع العظيم الواسع بمئات الآلاف من نقوش الحشر يتوّج بها هامة الكرة الأرضية كأنها زهرة واحدة، فيظهر لنا جمال صنعته وكمال حكمته، فهل يمكن أن يجرأ أحد ليقول لهذا القدير ذي الجلال: كيف يحدث القيامة؟ أو كيف يبدّل هذه الدنيا بآخرة؟ فالآية الكريمة (ما خَلَقُكُم ولا بَعثُكم إلاّ كَنَفْسٍ واحدة) (لقمان/ 28) تعلن أن هذا القدير جل وعلا لا يصعب عليه شئ، فكل شئ اعظمهُ وأصغره يسير عنده، والجموع الهائلة بأعدادها غير المتناهية كفرد واحد عنده..

وقد أوضحنا حقيقة هذه الآية في خاتمة »الكلمة العاشرة« مجملةً وفي رسالة »نقطة من نور معرفة الله« و»المكتوب العشرين«، أما هنا فسنوضحها بايجاز في ثلاث مسائل:

ان القدرة الإلهية ذاتية؛ فلا يمكن ان يتخللها العجز..

وأنها تتعلّق بملكوتية الأشياء، فلا تتداخل الموانع فيها مطلقاً..

وان نسبتها قانونية؛ فالجزء يتساوى مع الكل والجزئي يصبح بحكم الكلّي..

وسنثبت ونوضح هذه المسائل الثلاث:

المسألة الأولى: ان القدرة الإلهية الإزلية ضرورية للذات الجليلة المقدسة.

أي أنها بالضرورة لازمة للذات المقدسة، فلا يمكن ان يكون للقدرة منها فكاك مطلقاً، لذا فمن البديهي ان العجز الذي هو ضد القدرة لا يمكن أن يعرض للذات الجليلة التي استلزمت القدرة، لأنه عندئذ سيجتمع الضدان، وهذا محال.

فما دام العجز لا يمكن أن يكون عارضاً للذات، فمن البديهي انه لا يمكن ان يتخلل القدرة اللازمة للذات أيضاً ومادام العجز لا يمكنه ان يدخل في القدرة مطلقاً فبديهي اذن ان القدرة الذاتية ليست فيها مراتب، لأن وجود المراتب في كل شئ يكون بتداخل أضداده معه، كما هو في مراتب الحرارة التي تكون بتخلل البرودة، ودرجات الحسن التي تكون بتداخل القُبح.. وهكذا فقس.

أما في الممكنات فلأنه ليس هناك لزومٌ ذاتي حقيقي أو تابع؛ اصبحت الأضداد متداخلة بعضها مع البعض الآخر، فتولّدت المراتب ونتجت عنها الاختلافات، فنشأت منها تغيرات

العالم. وحيث أنه ليست هناك مراتب قط في القدرة الإلهية الأزلية، لذا فالمقدّرات هي حتماً واحدة بالنسبة الى تلك القدرة، فيتساوى العظيم جداً مع المتناهي في الصغر، وتتماثل النجوم مع الذرات، وحشر جميع البشر كبعث نفس واحدة.. وكذا خلق الربيع كخلق زهرة واحدة سهل هيّن أمام تلك القدرة.. ولو أُسند الخلق الى الأسباب المادية دون القدرة المطلقة عند ذاك يكون إحياء زهرة واحدة عسيراً وصعباً مثل احياء الربيع، وقد أثبتنا بـــالبراهين الدامغـــة في حاشية الفقرة الأخيرة من المرتبة الرابعة لمراتب » الله اكبر« من المقام الثاني لهذه الكلمة، وفي »الكلمة الثانية والعشرين« و »المكتوب العشرين وذيله«، أنه عند اسناد خلـــق الأشـــياء الى الواحدِ الأحد يسهل خلق الجميع كخلق شئ واحد، واذا اُسند خلق شئ واحد الى الاسباب المادية فيكون صعباً جداً ومعضلاً كخلق الجميع.

المسألة الثانية: ان القدرة الإلهية تتعلق بملكوتية الأشياء..

نعم، ان لكل شئ في الكون وجهين كالمرآة : أحدهما: جهة الـــمُلك وهي كالوجـــه المطلي الملّون من المرآة. والأخرى هي جهة الملكوت وهي كالوجه الصقيل للمرآة. فجهـــة الملك، هي مجال وميدان تحوّل الأضداد ومحل ورود أمور الحُسن والقُبح والخير والشر والصغير والكبير والصعب والسهل وأمثالها.. لذا وضعَ الخالق الحكـــيم الاســـباب الظـــاهرة ســـتاراً لتصرفات قدرته، لئلا تظهر مباشرةُ يد القدرة الحكيمة بالذات على الأمور الجزئية التي تظهر للعقول القاصرة التي ترى الظاهر، كأنها خسيسة غير لائقة، اذ العظمة والعزّة تتطلب هكذا.. الاّ انه سبحانه لم يعط التأثير الحقيقي لتلك الأسباب والوسائط؛ اذ وحدة الأحدية تقتضـــي هكذا أيضاً.

أما جهة الملكوت، فهي شفافة، صافية، نزيهة، في كل شئ، فلا تختلط معهـــا ألـــوان ومزخرفات التشخصات... هذه الجهة متوجهة الى بارئها دون وساطة، فليس فيهـــا ترتـــب الاسباب والمسبّبات ولا تسلسل العلل، ولا تدخل فيها العليّة والمعلولية ولا تتداخل الموانـــع، فالذرة فيها تكون شقيقة الشمس.

نخلص مما سبق: ان تلك القدرة هي مجردة، أي ليست مؤلفة ومركبة، وهي مطلقة غير محدودة، وهي ذاتية أيضاً. أما محل تعلقها بالأشياء فهي دون وساطة، صـــافية دون تعكـــر،

ودون ستار ودون تأخير، لذا لا يستكبر أمامها الكبير على الصغير، ولا تُرجح الجماعة على الفرد ولا يتبجّح الكل أمام الجزء ضمن تلك القدرة.

المسألة الثالثة: نسبة القدرة قانونية..

أي أنها تنظر الى القليل والكثير والصغير والكبير نظرة واحدة متساوية، فهذه المســألة الغامضة سنقرّبها الى الذهن ببعض الأمثلة. فالشفافية، والمقابلة، والموازنة، والانتظام، والتجرّد، والطاعة، كل منها أمر في هذا الكون يجعل الكثير مساوياً للقليل، والكبير مساوياً للصغير.

المثال الأول: »الشفافية«

ان تجلّي ضوء الشمس يُظهر الهويةَ نفسَها على سطح البحر أو على كل قطــرة مــن البحر، فلو كانت الكرة الأرضية مركّبة من قطع زجاجية صغيرة شفافة مختلفة تقابل الشمس دون حاجز يحجزها، فضوء الشمس المتجلي على كل قطعة على سطح الأرض وعلى سطح الأرض كلها يتشابه ويكون مساوياً دون مزاحمة ودون تجزؤ ودون تناقص.. فاذا افترضنا ان الشمس فاعل ذو إرادة واعطت فيض نورها واشعاع صورها بارادها على الأرض، فلا يكون عندئذٍ نشرُ فيضِ نورها على جميع الأرض اكثَر صعوبة من اعطائها على ذرة واحدة.

المثال الثاني: »المقابلة«

هب أنه كانت هناك حلقة واسعة من البشر يحمل كل واحد منهم مــرآة بيــده، وفي مركز الدائرة رجل يحمل شمعة مشتعلة، فان الضوء الذي يرسله المركز الى المرايــا في المحــيط واحد، ويكون بنسبة واحدة، دون تناقص ودون مزاحمة ودون تشتّت.

المثال الثالث: »الموازنة«

إن كان لدينا ميزان حقيقي عظيم وحساس جداً وفي كفتيه شمســان او نجمــان، أو جبلان، أو بيضتان، أو ذرتان.. فالجهد المبذول هو نفسه الذي يمكن ان يرفع احدى كفتيــه الى السماء ويخفض الأخرى الى الارض.

المثال الرابع: »الانتظام«

يمكن ادارة اعظم سفينة لأنها منتظمة جداً، كأصغر دمية للأطفال.

المثال الخامس: »التجرد«

ان الميكروب مثلاً كالكركدن يحمل الماهية الحيوانية وميزاتها، والسمك الصغير جـــداً يملك تلك الميزة والماهية المجردة كالحوت الضخم، لأن الماهية المجردة من الشـــكل والتجســـم تدخل في جميع جزيئات الجسم من اصغر الصغير الى اكبر الكبير وتتوجه اليها دون تنـــاقص ودون تجزؤ، فخواص التشخصات والصفات الظاهرية للجسم لا تشوش ولا تتـــداخل مـــع الماهيّة والخاصة المجرّدة، ولا تغيّر نظرة تلك الخاصة المجردة.

المثال السادس: »الطاعة«

ان قائد الجيش بأمره »تَقَدمْ« مثلما يحرّك الجندي الواحد فانه يحرّك الجـــيش بأكملـــه كذلك بالأمر نفسه. فحقيقة سر الطاعة هي ان لكل شئ في الكون - كما يشاهد بالتجربة -نقطة كمال، وله ميل اليها، فتضاعف الميل يولّد الحاجة، وتضاعف الحاجـــة يتحـــول الى شوق، وتضاعف الشوق يكوّن الانجذاب، فالانجذاب والشوق والحاجة والميل.. كلّها نـــوىً لأمتثال الأوامر التكوينية الرّبانية وبذورها من حيث ماهية الأشياء.

فالكمال المطلق لماهيات الممكنات هو الوجود المطلق، ولكن الكمال الخاص بها هـــو وجود خاص لها يُخرج كوامن استعداداتها الفطرية من طور القوة الى طور الفعـــل، فاطاعـــة الكائنات لأمر »كُنْ« كأطاعة ذرة واحدة التي هي بحكم جندي مطيـــع. وعنـــد امتثـــال الممكنات وطاعتها للأمر الأزلي »كُن« الصادر عن الارادة الإلهية تندمج كليّاً الميول والأشواق والحاجات جميعها، وكل منها هو تجلٍ من تجلّيات تلك الارادة أيضاً. حتى أن الماء الرقـــراق عندما يأخذ - بميل لطيف منه - أمراً بالانجماد، يظهر سرّ قوة الطاعة بتحطيمها الحديد.

فان كانت هذه الأمثلة الستة تظهر لنا في قوة الممكنات المخلوقات وفي فعلـــها وهـــي ناقصة ومتناهية وضعيفة وليست ذات تأثير حقيقى، فينبغي اذن ان تتساوى جميع الأشياء أمام القدرة الإلهية المتجلّية بآثار عظمتها.. وهي غير متناهية وأزلية وهي الـــتي اوجـــدت جميـــع الكائنات من العدم البحت وحيّرت العقول جميعها، فلا يصعب عليها شئ اذن.

ولا ننسى أن القدرة الإلهية العظمى لا توزن بموازيننا الضعيفة الهزيلة هذه، ولا تتناسب معها، ولكنها تُذكَر تقريباً للأذهان وازالة للأستبعاد ليس إلاّ.

نتيجة الاساس الثالث وخلاصته: ما دامت القدرة الإلهية مطلقة غير متناهية، وهي لازمة ضرورية للذات الجليلة المقدسة، وأن جهة الملكوت لكل شئ تقابلها ومتوجهة اليها دون ستار ودون شائبة، وأنها متوازنة بالأمكان الاعتباري الذي هو تساوي الطرفين وان النظام الفطري الذي هو شريعة الفطرة الكبرى مطيع للفطرة وقوانين الله ونواميسه، وان جهة الملكوت مجردة وصافية من الموانع والخواص المختلفة. لذا فان اكبر شئ كأصغره أمام تلك القدرة، فلا يمكن ان يحجم شئ أيّاً كان أو يتمرّد عليها. فإحياءُ جميع الأحياء يوم الحشر هينٌ عليه كإحياء ذبابة في الربيع ولهذا فالآية الكريمة (ما خَلقكم ولا بَعثُكُم إلاّ كَنَفْسٍ واحدة) أمرٌ حق وصدق جلّى لا مبالغة فيه ابداً.

وهكذا يتحقق عندنا ان الفاعل – الذي نحن بصدده – قادرٌ مقتدرٌ ولا يمنعه شئ.

الأساس الرابع

كما ان هناك مقتضى ومبرّراً للقيامة والحشر، وان الفاعل الذي يُحدث الحشر قادر مقتدر، كذلك فان هذه الدنيا لها القابلية على القيامة والحشر أيضاً، فدعوانا »قابلية الدنيا« هذه فيها أربع مسائل:

الأولى: ان موت هذا العالم ممكن وليس ذلك محالاً.

الثانية: وقوع ذلك الموت فعلاً.

الثالثة: من الممكن بعث الدنيا المندثرة وعمارتها بصورة »آخرة«.

الرابعة: وقوع هذا البعث وهذه العمارة فعلاً.

المسألة الأولى: من الممكن أن يموت هذا العالم وتندثر هذه الكائنات. ذلك ان كان الشئ داخلاً في قانون التكامل، ففي كل حالة اذن هناك نشوء ونماء، وان النشوء والنماء هذا يعني ان له عمراً فطرياً في كل حالة، وان العمر الفطري يعني أنّ له على كل حالة أجلاً فطرياً، وهذا يعنى ان جميع الأشياء لا يمكن أن تنجو من الموت، وهذا ثابت بالاستقراء العام والتتبع الواسع.

نعم، فكما ان الانسان هو عالم مصغر لا خلاص له من الإنهيار، كذلك العالم فانّه انسان كبير لا فكاك له من قبضة الموت، فلابدّ ان سيموت، ثم يبعث، أو ينام ويفتح عينيه فجر الحشر.

وكما أن الشجرة وهي نسخة مصغرة للكائنات لا يمكنها النجاة من التلاشي والتهدم، كذلك سلسلة الكائنات المتشعبة من شجرة الخليقة لا يمكنها ان تنجو من التمزّق والاندثار لأجل التعمير والتجديد.

ولئن لم تحدث للدنيا قبل أجلها الفطري – وبأذن إلهي – حادثة مدمرّة او مرض خارجي، أو لم يخل بنظامها خالقها الحكيم فلاشك – بحساب علمي – أن سيأتي يوم يتردد فيه صدى:

(اذا الشمس كُوِّرَتْ_ واذا النُّجومُ انكَدَرَتْ_ واذا الجِبالُ سُيِّرت) (التكوير: 1ــ3)

(اذا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ_ واذا الكَواكِبُ انْتَثَرَتْ_ واذا البحار فجِّرتْ) (الانفطار: 1ــ3)

عندئذ تظهر معاني هذه الآيات وأسرارها باذن القدير الأزلي. وان هذه الدنيا – التي هي كانسان ضخم – ستبدأ بالسكرات وتتململ وتشخر بصوت غريب وتحشرج ثم تصيح بصوت مدوٍ هائل يملأ الفضاء.. ثم تموت ثم تبعث بأمر إلهي..

«مسألة رمزية دقيقة

كما ان اللفظ يغلظ مضراً بالمعنى، واللب على حساب القشر يقوى، والروح تضعف لأجل الجسد، والجسد يضعف ويهزل لأجل قوة الروح.. كذلك عالمنا الكثيف هذا كلما عملت فيه دواليب الحياة شفّت ورقّت في سبيل العالم اللطيف.. وهو الآخرة..

فالقدرة الفاطرة بفعاليتها المحيرة تنشر نور الحياة على الأجزاء الميتة الجامدة الكثيفة المنطفئة فتذوّب وتليّن وتضيء وتنير تلك الأجزاء بنور تلك الحياة لتتقوى حقيقتها وتكون جاهزة للعالم اللطيف الرائع.. أعني الآخرة.

نعم فالحقيقة مهما كانت ضعيفة فانها لا تموت ابداً ولا يمكن ان تُمحى كالصورة، بل تسير وتجول في الصور والتشخصات والاشكال المختلفة، اذ تكبر وتظهر كلما تقدمت،

بعكس القشر والصورة فانها تتهرأ وتهزل وتتمزق وتتجدد لتظهر بحلّة جميلة جديدة تلائم قوام الحقيقة الثابتة النامية الكبيرة.

فالحقيقة والصورة تتناسبان اذن عكسياً زيادةً ونقصاناً. أي كلما اخشوشنت الصـــورة رقّت الحقيقة، وكلما ضعفت الصورة تقوت الحقيقة بالنسبة نفسها. وهذا قانون شامل لجميع الأشياء الداخلة في قانون التكامل. فليأتينّ ذلك الزمن الذي يتمزق فيه – بإذن الفاطر الجليل –عالم الشهادة الذي هو صورة لحقيقة الكائنات العظمى وقشر لها، ومن ثم يتجدد بصـــورة أجمل، وعندئذ تتحقق حكمة الآية الكريمة:

(يَومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض...) (ابراهيم:48)

نخلص مما سبق: ان موت الدنيا وخرابها ممكن، ولا شك فيه مطلقاً.

المسألة الثانية: وقوع موت الدنيا فعلاً والدليل على هذه المسألة: اجماع جميع الأديـــان السماوية، وشهادة كل فطرة سليمة، وما يشير اليه تبدلات هذه الكائنات وتحولاتها وتغيراتها. وموت عوالم ذات حياة وسيارات – وهي بعدد العصور والسنين – في دار ضـــيافة الـــدنيا هذه.. كل ذلك اشارات ودلالات على موت دنيانا نفسها.

وان شئت أن تتصور سكرات الدنيا، كما تشير اليها الآيات الكريمة، فتأمل في أجـــزاء هذا الكون التي هي مرتبطة بعضها بالبعض الآخر بنظام علوي دقيق، ومتماسكة برابطة لطيفة خفية رقيقة، فهي محكمة النظام بحيث أن جرماً واحداً إن تسلَّم أمر »كُن« أو »أخرجْ مـــن محورك« فالعالم كلّه يعاني السكرات، فتتصادم النجوم وتتلاطم الأجرام وتدوي وترعد بأصداء ملايين المدافع، وترمي بشرر كأرضنا هذه بل أكبر منها في الفضاء الواسع وتتطـــاير الجبـــال وتسجّر البحار.. فتستوي الأرض. وهكذا يرجّ القادر الأزلي ويحرك الكون بهـــذا المـــوات، ويمزجه بهذه السكرات فتتمخض الخلقة كلها وتتميز الكائنات بعضها عن بعـــض.. فتمتـــاز جهنم وتسعّر بعشيرتها ومادتها. وتتجلى الجنة وتزلف جامعة لطائفها مستمدة من عناصـــرها الملائمة لها.. ويبرز عالم الآخرة للوجود الأبدي.

المسألة الثالثة: امكان بعث العالم الذي سيموت، فكما اثبتنا آنفاً في الأساس الثاني انه لا نقص مطلقاً في القدرة الإلهية، وان المبرّر قويّ جداً للآخرة، وان المسألة بحـــدّ ذاتهـــا مـــن

الممكنات. فاذا كان للمسألة الممكنة مبررٌ قوي، وان الفاعل قادر مقتدر مطلق القدرة، فـــلا ينظر اليها بأنها في حدود الأمكان، وانما هي أمرٌ واقع.

» نكتة رمزية:

اذا نظرنا بتدبر وامعان الى هذا الكون، نلاحظ ان فيه عنصرين ممتدين الى جميع الجهات بجذور متشعبة؛ كالخير والشر، والحُسن والقبح، والنفع والضرّ، والكمال والنقص، والضـــياء والظلمة، والهداية والضلال، والنور والنار، والايمان والكفر، والطاعة والعصـــيان، والخـــوف والمحبة... فتصطدم هذه الأضداد بعضها بالبعض الآخر بنتائجها وآثارها مظهـــرة الـــتغيرات والتبدلات باستمرار وكأنما تستعد وتتهيّأ لعالم آخر. فلابدّ ان نتائج ونهايات هذين العنصرين المتضادين سوف تصل الى الأبد وتتميز فيفترق بعضها عن بعض هناك. وعندئذ تظهر علـــى شكل جنة ونار.. ولما كان عالم البقاء سيبنى من عالم الفناء هذا، فالعناصر الأساسية لعالمنـــا اذن ستساق وترسل حتماً الى البقاء والأبد.

نعم، ان النار والجنة هما ثمرتا الغصن المتدلي الممتد الى الأبد من شجرة الخليقة، وهمـــا نتيجتا سلسلة الكائنات هذه، وهما مخزنا سيل الشؤون الإلهية، وهما حوضا أمواج الموجودات المتلاطمة الجارية الى الأبد، وهما تجلّيان من تجليات اللطف والقهر.

فعندما ترجّ يد القدرة وتمخض بحركة عنيفة هذا الكون، يمتلئ الحوضان بما يناسب كلاً منهما من مواد وعناصر..

إيضاح هذه النكتة الرمزية:

ان الحكيم الأزلي بمقتضى حكمته الأزلية وعنايته السرمدية، خلق هذا العالم ليكون محلاً للاختبار وميداناً للامتحان، ومرآة لأسمائه الحسنى وصحيفة لقلم قدرته وقَدَره.

فالابتلاء والامتحان سبب النشوء والنماء، والنشـــوء والنمـــاء ســـبب لانكشـــاف الاستعدادات الفطرية، وتكشف الاستعدادات سبب لظهور القابليات،وظهور القابليات سبب لظهور الحقائق النسبيّة، وهذه الحقائق النسبية سبب لأظهار تجلّيات نقوش الاسمـــاء الحســـنى للخالق الجليل وتحويل الكائنات الى صورة كتابات صمدانيّة ربّانية.

وهكذا فان سرٌ التكليف هذا وحكمة الامتحان يؤدي الى تصفية جواهر الأرواح العالية التي هي كالماس، من مواد الأرواح السافلة التي هي كالفحم، وتمييزها بعضها عن بعض.

فبمثل هذه الاسرار السابقة، ومما لا نعلم من الحِكَم الدقيقة الرائعة، أوجد الحكيم القدير العالَم بصورته هذه، وأراد تغيّره وتحوله لتلك الحِكَم والأسباب، ولأجل التحول والتغيّر مزج الأضداد بحكمةٍ بعضها مع البعض الآخر، وجعلها تتقابل ببعضها، فالمضار ممزوجة بالمنـــافع والشرور متداخلة بالخيرات والقبائح مجتمعة مع المحاسن.. وهكذا عَجَنَتْ يدُ القدرة الأضدادَ، وصيّرت الكائنات تابعة لقانون التبدل والتغيّر ودستور التحوّل والتكامل.

ثم، لـــمّا انقضى مجلس الامتحان، وانتهى وقت الاختبار، وأظهرت الأسمـــاء الحســـنى حكمها، وأتمّ قلم القَدَر كتابته، واكملت القدرة نقوش ابداعها، ووفّت الموجودات وظائفها، وأنهت المخلوقات مهامها، وعبّر كل شئ عن معناه ومغزاه، وأنبتت الدنيا غـــراس الآخـــرة، وكشفت الأرض جميع معجزات القدرة وخوارق الصنعة للخالق القدير، وثبّت هذا العـــالم الفاني لوحات المناظر الخالدة على شريط الزمان.. عندئذٍ تقتضي الحكمة السرمدية والعنايـــة الأزلية لذي الجلال والاكرام أن تَظهَر حقائق نتائج ذلك الامتحان ونتائج ذلك الأختبـــار، وحقائق تجلّيات تلك الأسماء الحسنى، وحقائق كتابات قلم القدر تلك، واصول تلك النماذج لإبداعات صنعته سبحانه، وفوائد وغايات تلك الوظائف للموجودات، وجزاء تلك الخدمات والمهام للمخلوقات، وحقائق معاني تلك الكلمات التي افادها كتاب الكون، وظهور سنابل بذور الاستعدادات الفطرية، وفتح أبواب محكمة كبرى، واظهار المناظر المثالية التي التقطت في الدنيا، وتمزيق ستار الأسباب الظاهرة، واستسلام كلٌّ شئ الى أمر خالقه ذي الجلال مباشرة..

ويوم تتوجه ارادته لإظهار تلك الحقائق المذكورة لتنجّي الكائنات من تقلّبات التغيّـــر والتحول والفناء وتهب لها الخلود، ولتميّز بين تلك الأضداد والتفريق بين أسباب التغيّر ومواد الأختلاف، سيقيم سبحانه القيامة حتماً مقضياً، وسيصفّي الأمور لاظهـــار تلـــك النتـــائج، وستأخذ جهنم في ختامها صورة أبدية بشعة مريعة وسيُهدِّد روّادها بـــ (وامْتازوا اليَومَ أيُّهـــا المُجرِمون.) (يس:59)

وتتجلى الجنة بروعتها وابهتها الجمالية الخالدة ويقول خزنتُها لأهلها وأصحابها: (سَلامٌ عَلَيْكُم طِبْتُمْ فادْخُلوها خَالِدين) (الزمر:73) وسيمنح القدير الحكيم بقدرته الكاملة أهل هذين الدارين الخالدين وجوداً ثابتاً أبدياً خالداً لا يعتريه تغيّر ولا انحلال ولا شيب ولا انقراض، فليس هناك أسباب ومبررات للتغير المؤدي الى الانقراض، كما بُرهن ذلك في »الكلمة الثامنة والعشرين، المقام الأول، السؤال الثاني«.

المسألة الرابعة: ان البعث سيقع حتماً. نعم ان الدنيا بعد دمارها وموتها ستُبعث (آخرة)، وان الخالق القدير الذي بناها لأول مرة سيعمّرها تعميراً أجمل من عمارتها الأولى بعد هدمها، وسيجعلها منزلاً من منازل الآخرة. وأدلّ دليل على هذا هو القرآن الكريم اولاً، بجميع آياته التي تضمّ آلافاً من البراهين العقلية، وجميع الكتب السماوية المتفقة مع القرآن الكريم في هذه المسألة، وكذا أوصاف الجلال والجمال الإلهية وجميع الأسماء الحسنى للذات الجليلة، تدلّ كلها دلالة قاطعة على وقوع البعث هذا، وكذا جميع أوامره سبحانه الموحى بها الى جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام والتي وعد بها وقوع البعث والقيامة. فلأنه وعَدَ فسيفي بالوعد حتماً. راجع الحقيقة الثامنة من الكلمة العاشرة، وكذا جميع ما أخبر به النبي الأمي محمد)ص(ومعه آلاف المعجزات، عن حدوث البعث ويتفق معه جميع الأنبياء والمرسلين والأصفياء والأولياء والصديقين في وقوع هذا البعث، هذا فضلاً عما تخبرنا به جميع الآيات التكوينية في هذا الكون العظيم عن وقوع البعث هذا.

الحاصل: ان جميع حقائق »الكلمة العاشرة«، وجميع براهين »لا سيما« في المقام الثاني من الكلمة الثامنة والعشرين الذي كتب باللغة العربية في المثنوي العربي النوري؛ أظهرتا بكل ثبوت وقطعية – كبزوغ الشمس بعد غروبها – أن ستشرق شمس الحقيقة بصورة حياة أخروية بعد غروب الحياة الدنيوية.

وهكذا فان كل ما بيّناه منذ البداية في الأسس الأربعة، انما كان استمداداً من اسم »الحكيم« واستفادةً من فيض القرآن الكريم كي تعدّ القلب للقبول وتهّيأ النفس للتسليم وتحضر القلب للأذعان.

ومَن نكون نحن حتى نتكلم في أمر كهذا، فالقول الفصل هو ما يقوله مالك هذه الدنيا، وخـــالق هـــذا الكـــون، وربّ هـــذه الموجـــودات، أما نحـــن فلا يســعنا إلاّ الخضوع والانصات والإذعان... فحينما يتكلم رب السموات والأرض، فمن ذا أحق منه بالكلام سبحانه وتعالى.. فهذا الخالق الكريم يوجه خطاباً أزلياً الى جميع صـفوف طوائـف الكائنات في باحة مسجد الدنيا ومدرسة الأرض القابعين وراء العصور والذي يزلزل الكـون بأجمعه:

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ_ اذا زلزلـــت الارض زلزالـــها_ واخرجت الارض اثقالها_ وقال الانسان مالها_ يومئذ تحدث اخبارها_ بان ربك اوحى لها_ يومئذ يصدر الناس اشتاتاً ليروا اعمالهم_ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره_ ومن يعمل مثقال ذرة شـراً يـره).(الزلزال)

وخطاباً أبهج جميع المخلوقات وأثار فيهم الشوق:

(وبشر الذين امنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل واتوا به متشابهاً ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون) (البقرة:25)

فعلينا السمع والانصات الى ذلك الخطاب الصادر من مالك الملك ورب الدنيا والآخرة ونقول: آمنّا وصدّقنا.

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا الاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

(ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا)

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا ابراهم وعلى آل سيدنا ابراهيم انك حميد مجيد.

الكلمة التي كشفتْ عن لغز الكون وطلسمه
وحلّت سراً عظيماً من اسرار القرآن الحكيم

الكلمة الثلاثون

حرف من كتاب »أنا« الكبير

نقطة من بحر »الذرة« العظيم

هذه الكلمة عبارة عن مقصدين:

المقـــصـــد الاول: يبحث في ماهية »أنا« ونتائجها.

المقـــصـــد الثاني: يبحث في حركة »الذرة« ووظائفها.

المقصد الاول

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(إنّا عرضنا الامانةَ على السموات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يحملْنَهاوأشفَقنَ منها وَحَمَلها الانسانُ إنه كان ظلوماً جهولاً) (الاحزاب:72)

من الخزينة العظمى لهذه الآية الجليلة، سنشير الى جوهرة واحدة من جواهرها، وهي: أن الأمانة التي أبَت السمواتُ والارضُ والجبالُ ان يحملنها، لها معانٍ عدة، ولها وجوه كثيرة. فمعنىً من تلك المعاني، ووجهٌ من تلك الوجوه، هو : »أنا«.

نعم ! ان »انا« بذرةٌ، نشأت منها شجرة طوبى نورانية عظيمة، وشجرة زقوم رهيبة، تمدان اغصانَهما وتنشران فروعَهما في أرجاء عالم الانسان من لدن آدم عليه السلام الى الوقت الحاضر.

وقبل ان نخوض في هذه الحقيقة الواسعة نبين بين يديها »مقدمة« تيسّر فهمها. وهي:

المقدمة

ان »انا« مفتاح؛ يفتح الكنوز المخفية للاسماء الإلهية الحسنى، كما يفتح مغاليق الكون. فهو بحد ذاته طلسمٌ عجيب، ومعمىً غريب. ولكن بمعرفة ماهية »انا« ينحَلّ ذلك الطلسم العجيب وينكشف ذلك المعمى الغريب »أنا« وينفتح بدوره لغز الكون، وكنوز عالم الوجوب.

وقد ذكرنا ما يخص هذه المسألة في رسالة»شمة من نسيم هداية القرآن« كالأتي:

»اعلم! ان مفتاح العالم بيد الانسان، وفي نفسه، فالكائنات مع انها مفتحة الابواب ـــ ظاهراً ـــ إلاّ انها منغلقة ـــ حقيقةً ـــ فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة في الانسان مفتاحاً يفتح كل ابواب العالم، وطلسماً يفتح به الكنوز المخفية لخلاّق الكون، والمفتاح ـــ هو ـــ ما فيك من»انا«. إلاّ ان »انا« ايضاً معمىً مغلق وطلسم منغلق. فاذا فتحتَ »انا« بمعرفة ماهيته الموهومة ـــ وسر خلقته ـــ انفتح لك ـــ طلسم ـــ الكائنات كالآتي«

ان الله جل جلاله وضع بيد الانسان امانةً هي:»انا« الذي ينطوي على إشارات ونماذج يستدل بها على حقائق اوصاف ربوبيته الجليلة وشؤونها المقدسة. اي يكون »انــا« وحــدة قياسية تُعرَف بها اوصاف الربوبية وشؤون الالوهية.

ومن المعلوم انه لا يلزم ان يكون للوحدة القياسية وجود حقيقي، بل يمكن ان تركّــب وحدة قياسية بالفرض والخيال، كالخطوط الافتراضية في علم الهندسة. أي لا يلزم لــ »أنا« ان يكون له وجود حقيقي بالعلم والتحقيق.

سؤال: لِمَ ارتبطت معرفة صفات الله جلّ جلاله واسمائه الحسنى »بأنانية« [164] الانسان؟

الجواب: ان الشئ المطلق والمحيط، لا يكون له حدود ولانهاية؛ فلا يُعطى له شكل ولا يُحكَم عليه بحكم، وذلك لعدم وجود وجه تعيّنٍ وصورةٍ له؛ لذا لاتُفهم حقيقة ماهيته.

فمثلاً: الضياء الدائم الذي لا يتخلله ظلام ، لا يُشعَر به ولا يُعرَف وجودُه الاّ اذا حُدّد بظلمة حقيقية أو موهومة.

وهكذا، فان صفات الله سبحانه وتعالى ـــــ كالعلم والقدرة ـــــ واسمــاءه الحســنى ـــــ كالحكيم والرحيم ـــــ لانها مطلقة لا حدود لها ومحيطة بكل شئ، لا شريك لها ولاندّ، لايمكن الاحاطة بها أو تقييدها بشئ، فلا تُعرف ماهيتها، ولا يُشعر بها؛ لذا لابد من وضع حدٍّ فرضي وخيالي لتلك الصفات والاسماء المطلقة، ليكون وسيلة لفهمها ـــــ حيث لا حــدود ولا نهاية حقيقية لها ـــــ وهذا ما تفعله »الانانية« اي ما يقوم به »انا« ؛ اذ يتصور في نفسه ربوبيةً موهومة، ومالكيةً مفترضة وقدرة وعلماً، فيحدّ حدوداً معينة، ويضع بها حداً موهوماً لصفاتٍ محيطة واسماء مطلقة فيقول مثلاً: من هنا الى هناك لي، ومن بعده يعــود الى تلــك الصفات. أي: يضع نوعاً من تقسيم الامور، ويستعد بهذا الى فهم ماهية تلك الصفات غــير المحدودة شيئاً فشيئاً، وذلك بما لديه من موازين صغيرة ومقاييس بسيطة.

فمثلاً: يفهم بربوبيته الموهومة التي يتصورها في دائرة مُلكه، ربوبيــةَ خالقــه المطلقــة سبحانه وتعالى في دائرة الممكنات.

---

[164] ليس المقصود من »الانانية« تلك الصفةالمذمومة في الانسان، وانما اشتقاق من »أنا«. ـــــ المترجم.

ويدرك بمالكيته الظاهرية، مالكيةَ خالقه الحقيقية، فيقول: كما انني مالك لهذا البيـــت فالخالق سبحانه كذلك مالك لهذا الكون.

ويعلم بعلمه الجزئي، علمَ الله المطلق.

ويعرف بمهارته المكتسبة الجزئية، بدائعَ الصانع الجليل، فيقول مثلاً: كما انني شـــيدتُ هذه الدار ونظّمتها، كذلك لابد من منشئ لدار الدنيا ومنظّم لها.

وهكذا.. فقد اندرجت في »أنا« آلاف الاحوال والصفات والمشاعر المنطويـــة علـــى آلاف الاسرار المغلقة التي تستطيع ان تدل وتبيّن ـــــ الى حدٍ ما ـــــــ الصـــفات الإلهيـــة وشؤونها الحكيمة كلها.

أي أن »أنا« لايحمل في ذاته معنىً، بل يدل على معنىً في غيره ؛ كـــالمرآة العاكســـة، والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف، والمعنى الحرفي فهو شعرةٌ حساسة مـــن حبـــل وجـــود الانسان الجسيم .. وهو خيط رفيع من نسيج ثوب ماهية البشر.. وهو حرف »ألـــفٍ« في كتاب شخصية بنى آدم، بحيث ان ذلك الحرف له وجهان:

وجه متوجه الى الخير والوجود؛ فهو في هذا الوجه يتلقى الفيض ويقبله فحســـب، أي يقبل الإفاضة عليه فقط؛ اذ هو عاجز عن ايجاد شئ في هذا الوجه، أي: ليس فاعلاً فيه، لأن يده قصيرة لا تملك قدرة الايجاد.

والوجه الآخر متوجه الى الشر، ويُفضي الى العدم؛ فهو في هذا الوجه فاعل، وصاحب فعل.

ثم ان ماهية »أنا« حرفية، أي يدل على معنىً في غيره، فربوبيته خياليـــة، ووجـــوده ضعيف وهزيل الى حدٍ لايطيق ان يحمل بذاته اي شئ كان، ولا يطيق ان يُحمَل عليه شـــئ، بل هو ميزان ليس إلاّ؛ يبين صفات الله تعالى التي هي مطلقة ومحيطة بكل شئ، بمثل ما يبـــيّن ميزانُ الحرارة وميزان الهواء والموازين الاخرى مقاديرَ الاشياء ودرجاتها.

فالذي يعرف ماهية »أنا« على هذا الوجه، ويذعن له، ثم يعمل وفق ذلك، وبمقتضاه، يدخل ضمن بشارة قوله تعالى (قد أفلح مَن زكّيها) (الشمس:9) ويكون قـــد أدى الأمانـــة حقها فيدرك بمنظار »أنا« حقيقة الكائنات والوظائف التي تؤديها. وعندما ترد المعلومات من

الآفاق الخارجية الى النفس تجد في »أنا« ما يصدّقها، فتستقر تلك المعلومات علوماً نورانيـــة وحكمة صائبة في النفس، ولا تنقلب الى ظلمات العبثية.

وحينما يؤدي »انا« وظيفته على هذه الصورة، يترك ربوبيته الموهومة ومالكيتَه المفترضة ـــــ التي هي وحدة قياس ليس إلاّ ـــــ ويفوّض المُلكَ لله وحده قائلاً: له الملك، وله الحمد، وله الحكم واليه ترجعون، فيلبس لباس عبوديته الحقّة، ويرتقي الى مقام أحسن تقويم.

ولكن اذا نسي »أنا« حكمة خلقه، ونظر الى نفسه بـــالمعنى الاسمي،تاركـــاً وظيفتـــه الفطرية،معتقداً بنفسه أنه المالك، فقد خان الأمانة، ودخل ضمن النذير الإلهي:

(وقد خَابَ مَن دسّيها) (الشمس: 10)

وهكذا فإن إشفاق السموات والارض والجبال من حمل الأمانة، ورهبتهن من شـــرك موهوم مفترض، انما هو من هذا الوجه من »الانانية« التي تُولِّد جميع انواع الشرك والشـــرور والضلالات.

اجل! إن »انا« مع انه ألفٌ رقيق، خيطٌ دقيق، خطٌ مفترض، إلاّ انـــه ان لم تُعـــرف ماهيته ينمو في الخفاء ـــــ كنمو البذرة تحت التراب ـــــ ويكبر شيئاً فشيئاً، حتى ينتشر في جميع انحاء وجود الانسان، فيبتلعه ابتلاع الثعبان الضخم، فيكون ذلك الانسان بكامله وبجميع لطائفه ومشاعره عبارة عن »أنا«. ثم تمده »أنانية« النوع نافخة فيه روح العصـــبية النوعيـــة والقومية، فيستغلظ بالاستناد على هذه »الانانية« حتى يصيرَ كالشيطان الـــرجيم يتحـــدى أوامرالله ويعارضها. ثم يبدأ بقياس كل الناس، بل كل الاشياء على نفسه ووفق هواه، فيقسم مُلك الله سبحانه على تلك الاشياء، وعلى الاسباب فيتردى في شرك عظيم ، يتبيّن فيه معنى الآية الكريمة (إن الشرك لظلم عظيم) (لقمان:13). اذ كما ان الذي يسرق اربعين ديناراً من اموال الدولة لابد ان يرضي اصدقاءه الحاضرين معه بأخذ كل منهم درهماً منه كي تسوَّغ له السرقة، كذلك الذي يقول: انني مالك لنفسي، لابد من أن يقول ويعتقد: ان كل شئ مالك لنفسه!

وهكذا، فـــ »أنا« في وضعه هذا، المتلبس بالخيانة للامانة، انما هو في جهل مطبق بـــل هو أجهل الجهلاء، يتخبط في درك جهالة مركبة حتى لو علِمَ آلاف العلوم والفنون، ذلك لأن

ما تتلقفه حواسُه وافكارُه من انوار المعرفة المبثوثة في رحاب الكون لايجد في نفسه مادةً تصدّقه وتنوّره وتديمه، لذا تنطفئ كل تلك المعارف، وتغدو ظلاماً دامساً؛ اذ ينصبغ كل ما يرِد اليه بصبغة نفسه المظلمة القاتمة، حتى لو وردت حكمةٌ محضة باهرة فانها تلبس في نفسه لبوس العبث المطلق؛ لأن لون »انا« في هذه الحالة هو الشرك وتعطيل الخالق من صفاته الجليلة وانكار وجوده تعالى. بل لو امتلأ الكون كله بآيات ساطعات ومصابيح هدىً فان النقطة المظلمة الموجودة في »انا« تكسف جميع تلك الانوار القادمة، وتحجبها عن الظهور.

ولقد فصّلنا القول في »الكلمة الحادية عشرة« عن الماهية الانسانية و»الانانية« التي فيها من حيث المعنى الحرفي. واثبتنا هناك اثباتاً قاطعاً كيف انها ميزان حساس للكون، ومقياس صائب دقيق، وفهرس شامل محيط، وخريطة كاملة، ومرآة جامعة، وتقويم جامع. فمن شاء فليراجع تلك الرسالة.

الى هنا نختم المقدمة، مكتفين بما في تلك الرسالة من تفصيل.

فيا اخي القارئ، اذا استوعبت هذه المقدمة، فهيا لندخل معاً الى الحقيقة نفسها.

ان في تاريخ البشرية ــــ منذ زمن سيدنا آدم عليه السلام الى الوقت الحاضر ــــ تيارين عظيمين وسلسلتين للافكار، يجريان عبر الازمنة والعصور، كأنهما شجرتان ضخمتان أرسلتا اغصانَهما وفروعَهما في كل صوب، وفي كل طبقة من طبقات الانسانية.

احداهما: سلسلة النبوة والدين

والاخرى: سلسلة الفلسفة والحكمة

فمتى كانت هاتان السلسلتان متحدتين وممتزجتين، أي في أي وقت أو عصر إستجارت الفلسفة بالدين وانقادت اليه واصبحت في طاعته، انتعشت الانسانية بالسعادة وعاشت حياة اجتماعية هنيئة. ومتى ما انفرجت الشقة بينهما وافترقتا، احتشد النور والخير كله حول سلسلة النبوة والدين، وتجمعت الشرور والضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة.

والآن لنجد منشأ كلٍ من تلكما السلسلتين وأساسهما:

فان سلسلة الفلسفة التي عصت الدين، اتخذت صورة شجرة زقوم خبيثة تنشر ظلمات الشرك وتنثر الضلالة حولها. حتى انها سلّمت الى يد عقول البشر، في غصن القوة العقلية،

ثمرات الدهريين والماديين والطبيعيين .. وألقت على رأس البشرية، في غصن القوة الغضـــبية ، ثمرات النماريد والفراعنة والشدادين [165].. وربّت، في غصن القوة الشهوية البهيمية، ثمـــرات الآلهة والاصنام ومدّعي الالوهية.

وبجانب هذه الشجرة الخبيثة، شجرة زقوم، نشأت شجرةُ طوبى العبودية للّه، تلك هي سلسلة النبوة، فاثمرت ثمرات يانعة طيبة في بستان الكرة الارضية، ومدّتها الى البشرية، فتدلّت قطوفاً دانية من غصن القوة العقلية: انبياء ومرسلون وصديقون واولياء صالحون.. كما اثمرت في غصن القوة الدافعة: حكاماً عادلين وملوكاً طاهرين طهر الملائكة.. واثمرت في غصن القوة الجاذبة: كرماء واسخياء ذوي مروءة وشهامة في حسن سيرة وجمـــال صـــورة ذات عفـــة وبراءة.. حتى اظهرت تلك الشجرة المباركة:

ان الانسان هو حقاً اكرم ثمرة لشجرة الكون.

وهكذا فمنشأ هذه الشجرة المباركة، ومنشأ تلك الشجرة الخبيثة، هما جهتـــا »أنـــا« ووجهاه، أي أن »أنا« الذي أصبح بذرة أصلية لتلكما الشجرتين، صار وجهاه منشأ كـــلٍ منهما.

وسنبين ذلك بالآتي:

ان النبوة تمضي آخذة وجهاً لـــ »أنا«.

والفلسفة تُقبل آخذةً الوجه الآخر لـــ »أنا«.

فالوجه الأول الذي يتطلع الى حقائق النبوة:

هذا الوجه منشأ العبودية الخالصة لله. أي أن »أنا«:

يعرف أنه عبدٌ لله، ومطيع لمعبوده..

---

[165] نعم ! ان الفلسفة القديمة لمصر وبابل، التي بلغت مبلغ السحر، شأو تُوهّمت سحراً ــــ لاقتصارها على فئة معينة ــــ هي التي ارضعت الفراعنة والنماريد وربّتهم في احضانها، كما ان حمأة الفلسفة الطبيعية ومستنقعها مكّنت الآلهة في عقول فلاسفة اليونان القدماء، وولدت الاصنام والاوثان. حقاً ان المحجوب عن نور اللّه بستار »الطبيعة « يمنح كلَّ شيء ألوهيةً، ثم يسلطه على نفسه. ــــ المؤلف.

ويفهم ان ماهيته حرفية، أي دال على معنىً في غيره..

ويعتقد ان وجوده تَبَعي، أي قائم بوجود غيره وبايجاده..

ويعلم ان مالكيته للاشياء وهمية، أي: ان له مالكية موقتة ظاهرية باذن مالكه الحقيقي..

وحقيقته ظلية ـــــ ليست اصيلة ـــــ أي انه ممكنٌ مخلوق هزيل، وظلٌ ضعيف يعكس تجلياً لحقيقة واجبة حقة..

أما وظيفته فهي القيام بطاعة مولاه، طاعةً شعوريةً كاملة، لكونه ميزاناً لمعرفة صفات خالقه، ومقياساً للتعرف على شؤونه سبحانه.

هكذا نظر الانبياء والمرسلون عليهم السلام، ومَن تبعهم من الاصفياء والاولياء، الى »انا« بهذا الوجه. وشاهدوه على حقيقته هكذا. فادركوا الحقيقة الصائبة، وفوّضوا المُلك كله الى مالك الملك ذي الجلال، واقرّوا جميعاً، ان ذلك المالك جل وعلا لا شريك له ولا نظير، لا في ملكه ولا في ربوبيته ولافي الوهيته، وهو المتعال الذي لايحتاج الى شئ، فلا معين له ولا وزير، بيده مقاليد كل شئ وهو على كل شئ قدير. وما »الاسباب« إلاّ أستار وحُجب ظاهرية تدل على قدرته وعظمته.. وما »الطبيعة« إلاّ شريعته الفطرية، ومجموعة قوانينه الجارية في الكون، اظهاراً لقدرته وعظمته جل جلاله.

فهذا الوجه الوضئ المنور الجميل، قد أخذ حكم بذرة حية ذات مغزىً وحكمة. خلق الله جل وعلا منها شجرة طوبى العبودية، امتدت اغصانُها المباركة الى انحاء عالم البشرية كافة وزيّنته بثمراتٍ طيبةٍ ساطعة، بدّدت ظلمات الماضي كلها، واثبتت بحق ان ذلك الزمن الغابر المديد ليس كما تراه الفلسفة مقبرةً شاسعة موحشة، وميدان إعدامات مخيفة، بل هو روضة من رياض النور، للارواح التي ألقت عبئها الثقيل لتغادر الدنيا طليقة، وهو مدار أنوار ومعراج منّور متفاوتة الدرجات لتلك الارواح الآفلة لتتنقل الى الآخرة والى المستقبل الزاهر والسعادة الابدية.

أما الوجه الثاني: فقد اتخذته الفلسفة، وقد نظرت الى »انا« بالمعنى الاسمي. أي تقول: ان »انا« يدل على نفسه بنفسه..

وتقضي ان معناه في ذاته، ويعمل لأجل نفسه..

وتتلقى ان وجوده أصيل ذاتي ــــ وليس ظلاً ــــ أي له ذاتية خاصة به..

وتزعم ان له حقاً في الحياة، وانه مالك حقيقي في دائرة تصرفه، وتظن زعمها حقيقة ثابتة..

وتفهم ان وظيفته هي الرقي والتكامل الذاتي الناشئ من حب ذاته.

وهكذا أسندوا مسلكهم الى اسس فاسدة كثيرة وبنوها على تلك الاسس المنهارة الواهية. وقد اثبتنا بقطعية تامة مدى تفاهة تلك الاسس ومدى فسادها في رسائل كثيرة ولا سيما في »الكلمات« وبالاخص في »الكلمة الثانية عشرة« و»الخامسة والعشرين« الخاصة بالمعجزات القرآنية.

ولقد اعتقد عظماء الفلسفة وروادها ودهاتها، امثال افلاطون وارسطو وابن سينا والفارابي ــــ بناء على تلك الاسس الفاسدة ــــ بأن الغاية القصوى لكمال الانسانية هي »التشبّه بالواجب«! أي بالخالق جلّ وعلا، فاطلقوه حكماً فرعونياً طاغياً، ومهّدوا الطريق لكثير من الطوائف المتلبسة بأنواع من الشرك، امثال: عَبدة الاسباب وعَبدة الاصنام وعبدة الطبيعة وعبدة النجوم، وذلك بتهييجهم »الانانية« لتجري طليقة في اودية الشرك والضلالة، فسدّوا سبيل العبودية الى الله، وغلّقوا ابواب العجز والضعف والفقر والحاجة والقصور والنقص المندرجة في فطرة الانسان، فضلوا في أوحال الطبيعة ولا نجوا من حمأة الشرك كلياً ولا اهتدوا الى باب الشكر الواسع.

بينما الذين هم في مسار النبوة: فقد حكموا حكماً ملؤه العبودية الخالصة للّه وحده، وقضوا: ان الغاية القصوى للانسانية والوظيفة الاساسية للبشرية هي التخلق بالاخلاق الإلهية، اي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة ــــ التي يأمر بها الله سبحانه ــــ وان يعلم الانسانُ عجزَه فيلتجىء الى قدرته تعالى، ويرى ضعفَه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر الى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبّح ويقدّس كماله تعالى.

وهكذا فلأن الفلسفة العاصية للدين قد ضلت ضلالاً بعيداً، صار »أنا« ماسكاً بزمام نفسه، مسارعاً الى كل نوع من انواع الضلالة.

وهكذا نبتت شجرة زقوم على قمة هذا الوجه من »أنا« غطت بضلالها نصف البشرية وحادت بهم عن سواء السبيل. أما الثمرات التي قدمتها تلك الشجرة الخبيثة، شجرة زقوم، الى انظار البشر فهي الاصنام والآلهة في غصن القوة البهيمية الشهوية؛ اذ الفلسفة تحبـــذ أصـــلاً القوة، وتتخذها اساساً وقاعدة مقررة لنهجها، حتى ان مبدأ »الحكم للغالب« دســـتور مـــن دساتيرها، وتأخذ بمبدأ »الحق في القوة« [166] فاعجبتْ ضمناً بالظلم والعدوان، وحثت الطغاة والظلمة والجبابرة العتاة حتى ساقتهم الى دعوى الالوهية.

ثم انها ملّكت الجمال في المخلوقات، والحُسن في صورها، الى المخلـــوق نفســـه، والى الصورة نفسها، متناسية نسبة ذلك الجمال الى تجلي الجمال المقدس للخالق الجميل والحُســـن المنزّه للمصور البديع، فتقول: »ما أجملَ هذا!« بدلاً من أن تقول: »ما أجمل خلقَ هذا«! أي: جعلت ذلك الجمال في حكم صنم جدير بالعبادة!

ثم انها استحسنت مظاهر الشهرة، والحسن الظاهر للرياء والسمعة.. لذا حبّذت المرائين، ودفعتهم الى التمادي في غيّهم جاعلة من امثال الاصنام عابدةً لعبّادها [167].

وربّت في غصن القوة الغضبية على رؤوس البشر المساكين، الفراعنة والنماريد والطغاة صغاراً وكباراً.

أما في غصن القوة العقلية، فقد وضعت الدهريين والماديين والطبيعيين، وامثـــالهم مـــن الثمرات الخبيثة في عقل الانسانية، فشتتت عقل الانسان أي تشتيت.

وبعد.. فلأجل توضيح هذه الحقيقة، نعقد مقارنة بين نتائج نشأت من الاسس الفاسدة لمسلك الفلسفة، ونتائج تولدت من الاسس الصائبة لمسار النبوة، وسنقصر الكلام في بضـــعة امثلة فقط من بين الاف المقارنات بينهما.

---

[166] اما النبوة فهي تقرر ان القوة في الحق وليس الحق في القوة، فتقطع بهذا دابرالظلم وتحقق العدل. ـــــ المؤلف.

[167] أي ان اولئك الشبيهين بالاصنام، يُظهرون اوضاعاً شبيهة بالعبادة امام المعجبين بهم، كسباً لإقبالهم وتوجههم اليهم، وتلبية لرغبات هواهم، فيكونون عابدين من جهة ومعبودين من جهة اخرى.ـــــ المؤلف.

المثال الاول:

من القواعد المقررة للنبوة في حياة الانسان الشخصية، التخلق باخلاق الله. أي كونـــوا عباد الله المخلصين، متحلين باخلاق الله محتمين بحماه معترفين في قرارة انفســـكم بعجـــزكم وفقركم وقصوركم.

فأين هذه القاعدة الجليلة من قول الفلسفة: »تشبهوا بالواجب«! التي تقررهـــا غايـــةً قصوى للانسانية!

اين ماهية الانسان التي عجنت بالعجز والضعف والفقر والحاجة غير المحدودة من ماهية واجب الوجود، وهو الله القدير القوي الغني المتعال!!

المثال الثاني:

من القواعد الثابتة للنبوة في الحياة الاجتماعية، ان »التعاون« دســـتور مهـــيمن علـــى الكون، ابتداءً من الشمس والقمر الى النباتات والحيوانات، فترى النباتات تمـــد الحيوانـــات، والحيوانات تمد الانسان، بل ذرات الطعام تمدّ خلايا الجسم وتعاونها.

فأين هذا الدستور القويم دستور التعاون وقانون الكرم وناموس الاكرام مـــن دســـتور »الصراع« الذي تقول به الفلسفة من انه الحاكم على الحياة الاجتماعية، علماً ان »الصراع« ناشئ فقط لدى بعض الظلمة والوحوش الكاسرة من جراء سوء استعمال فطرهم، بل أوغلت الفلسفة في ضلالها حتى اتخذت دستور »الصراع« هذا حاكماً مهيمناً على الموجودات كافة، فقررت ببلاهة متناهية: »ان الحياة جدال وصراع«.

المثال الثالث:

من النتائج المثلى للنبوة ومن قواعدها السامية في التوحيد، أن »الواحد لا يصدر إلاّ عن الواحد«، أي ان كل مالَه وحدةٌ لا يصدر إلاّ عن الواحد؛ اذ ما دامت في كل شـــئ ، وفي الاشياء كلها، وحدة ظاهرة، فلابد انها من ايجاد ذاتٍ واحدة. بينما دستور الفلسفة القديمـــة وعقيدتها هو »ان الواحد لا يصدر عنه إلاّ الواحد« أي لا يصدر عن ذات واحدة إلاّ شـــئ واحد، ثم الاشياء الاخرى تصدر بتوسط الوسائط. هذه القاعدة للفلســـفة القديمـــة تعطـــي للاسباب القائمة والوسائط نوعاً من الشراكة في الربوبية، وتُظهر ان القدير على كـــل شـــئ

والغني المطلق والمستغني عن كل شئ بحاجة الى وسائط عاجزة! بل ضلوا ضلالاً بعيداً فأطلقوا على الخالق جل وعلا اسم مخلوق وهو »العقل الاول«! وقسّموا سائر ملكه بين الوســائط، ففتحوا الطريق الى شرك عظيم.

فاين ذلك الدستور التوحيدي للنبوة من هذه القاعدة ــــ للفلسفة القديمة الســقيمة ــــ الملوثة بالشرك والملطخة بالضلالة؟

فان كان الاشراقيون الذين هم أرقى الفلاسفة والحكماء فهماً يتفوهون بهذا الســخف من الكلام، فكيف يكون يا ترى كلام مَن هم دونهم في الفلسفة والحكمــة مــن مــاديين وطبيعيين؟.

المثال الرابع:

انه من الدساتير الحكيمة للنبوة، ان لكل شئ حِكَماً كثيرة ومنافع شتى حتى ان للثمرة من الحِكَمِ ما يُعدّ بعدد ثمرات الشجرة، كما تُفهم من الآية الكريمة وان من شيءٍ إلاّ يســبّح بحمده فان كانت هناك نتيجة واحدة ــــ لخلقِ ذي حياةٍ ــــ متوجهة الى المخلوق نفسه، وحكمة واحدة من وجوده تعود اليه، فان آلافاً من النتائج تعود الى خالقه الحكيم وآلافاً من الحكم تتوجه الى فاطره الجليل.

أما دستور الفلسفة فهو »ان حكمة خلقِ كلِ كائن حي وفائدته متوجهة الى نفسه، أو تعود الى منافع الانسان ومصالحه«! هذه القاعدة تسلب من الموجودات حِكَماً كثيرة انيطت بها، وتعطي ثمرة جزئية كحبة من خردل الى شجرة ضخمة هائلة، فتحــوّل الموجــودات الى عبث لاطائل من ورائه.

فاين تلك الحكمة الصائبة من هذه القواعد الفاسدة للفلسفة ــــ الفارغة من الحكمة ــــ التي تصبغ الوجود كله بالعبث!.

ولقد قصرنا الكلام هنا على هذا القدر، حيث اننا قد بحثنا هذه الحقيقــة في الحقيقــة العاشرة من الكلمة العاشرة بشئ من التفصيل.

وبعد.. فيمكنك ان تقيس على منوال هذه الامثلة الاربعة آلافاً من النماذج والأمثلــة وقد أشرنا الى قسمٍ منها في رسالة »اللوامع«.

ونظراً لاستناد الفلسفة الى مثل هذه الاسس السقيمة ولنتائجها الوخيمة فان فلاسفة الاسلام الدهاة، الذين غرّهم مظهر الفلسفة البراق، فانساقوا الى طريقها كابن سينا والفارابي، لم ينالوا إلاّ أدنى درجة الايمان، درجة المؤمن العادي، بل لم يمنحهم حجة الاسلام الامام الغزالي حتى تلك الدرجة.

وكذا ائمة المعتزلة، وهم من علماء الكلام المتبحرين، فلأنهم افتتنوا بالفلسفة وزينتها واوثقوا صلتهم بها، وحكّموا العقل، لم يظفروا بسوى درجة المؤمن المبتدع الفاسق.

وكذا ابو العلاء المعري الذي هو من أعلام ادباء المسلمين والمعروف بتشاؤمه، وعمر الخيام الموصوف بنحيبه اليتمي، وامثالهما من الادباء الاعلام ممن استهوتهم الفلسفة، وانبهرت نفوسهم الامارة بها.. فهؤلاء .. قد تلقوا صفعة تأديب ولطمة تحقير وتكفير من قبل اهل الحقيقة والكمال، فزجروهم قائلين: »ايها السفهاء انتم تمارسون السفه وسوء الادب، وتسلكون سبيل الزندقة، وتربّون الزنادقة في احضان أدبكم!«.

ثم ان من نتائج الاسس الفاسدة للفلسفة: ان »انا« الذي ليس له في ذاته إلاّ ماهية ضعيفة كأنه هواء أو بخار، لكن بشؤم نظر الفلسفة، ورؤيتها الاشياء بالمعنى الاسمي، يتميع. ثم بسبب الأُلفة والتوغل في الماديات والشهوات كأنه يتصلب، ثم تعتريه الغفلة والإنكار فتتجمد تلك »الانانية«. ثم بالعصيان ـــ لاوامر الله ـــ يتكدر »أنا« ويفقد شفافيته ويصبح قاتماً. ثم يستغلظ شيئاً فشيئاً حتى يبتلع صاحبه. بل لا يقف »انا« عند هذا الحد وانما ينتفخ ويتوسع بافكار الانسان ويبدأ بقياس الناس، وحتى الاسباب، على نفسه، فيمنحها فرعونية طاغية ـــ رغم رفضها واستعاذتها منها ـــ وعند ذلك يأخذ طور الخصم للاوامر الإلهية فيقول:

(من يحي العظام وهي رميم) (يس:78) وكأنه يتحدى الله عزوجل، ويتهم القدير على كل شئ بالعجز، ثم يبلغ به الأمر ان يتدخل في اوصاف الله الجليلة، فينكر أو يحرّف أو يردّ كل ما لا يلائم هواه، أو لا تعجب فرعونيةَ نفسه. فمثلاً:

اطلقت طائفة من الفلاسفة على الله سبحانه وتعالى: اسم »الموجب بالذات« فنفوا الارادة والاختيار منه تعالى، مكذّبين شهادة جميع الكون على ارادته الطليقة.

فيا سبحان الله! ما اعجب هذا الانسان! ان الموجودات قاطبةً من الذرات الى الشموس لتدل دلالة واضحة على ارادة الخالق الحكيم؛ بتعيّناتها، وانتظامها، وحِكَمهـــا، وموازينـــها، كيف لا تراها عينُ الفلسفة؟ أعمى الله أبصارهم!

وادّعت طائفة اخرى من الفلاسفة: » ان العلم الإلهي لا يتعلق بالجزئيات« نافين إحاطة علم الله سبحانه بكل شئ، رافضين شهادة الموجودات الصادقة على علمه المحيط بكل شئ.

ثم ان الفلسفة تمنح التأثير للأسباب، وتعطي بيد الطبيعة الايجاد والابداع، فـــلا تـــرى الآيات المتلألئة على كل موجود، الدالة على الخالق العظيم ـــــ كما اثبتنـــاه في »الكلمـــة الثانية والعشرين« ـــــ فضلاً عن انها تسند خلق قسم من الموجودات ـــــــ الـــتي هـــي مكاتيب إلهية صمدانية ـــــ الى الطبيعة العاجزة الجامدة الفاقدة للشعور، والـــتي ليســـت في يديها إلاّ المصادفة العشواء والقوة العمياء، جاعلة لها ـــــ أي للطبيعة ـــــ مصدرية في خلق الاشياء، وفاعلية في التأثير! فحجبت آلاف الحِكم المندرجة في الموجودات.

ثم ان الفلسفة لم تمتد الى باب الآخرة الواسع، فانكرت الحشر وادّعت أزليـــة الارواح، علماً ان الله عز وجل بجميع اسمائه الحسنى، والكون بجميع حقائقه والانبياء والرسل الكـــرام عليهم السلام بجميع ما جاءوا من الحقائق، والكتب السماوية بجميع آياتها الكريمة.. تبـــيّن الحشر والآخرة، كما اثبتناه في الكلمة العاشرة (الحشر).

وهكذا يمكنك ان تقيس سائر مسائل الفلسفة على هذه الخرافات السخيفة.

أجل! لكأن الشياطين اختطفوا عقول الفلاسفة الملحدين بمنقار »أنا« ومخاليبه وألقوهـــا في أودية الضلالة، ومزقوها شر ممزق.

فـــ »أنا« في العالم الصغير ـــــ الانسان ـــــ كالطبيعة في العالم الكبير، كلاهما مـــن الطواغيت:(فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) (البقرة : 256).

* * *

ولقد رأيت حادثة مثالية قبل الشروع بتأليف هذه الرسالة بثماني سنوات، عندما كنت في استانبول شهر رمضان المبارك، وكان آنئذٍ سعيد القديم ـــــ الذي انشغل بالفلسفة ـــــ

على وشك ان ينقلب الى سعيد الجديد.. في هذه الفترة بالذات وحينما كنــت أتأمــل في المسالك الثلاثة المشارة اليها في ختام سورة الفاتحة بــ (صراط الذين انعمت علــيهم غــير المغــضوب عليهم ولا الــضالين) رأيت تلك الحادثة الخيالية وهي حادثة أشبه مــا يكــون بالرؤيا. سجلتها في حينها في كتابي »اللوامع« على صورة سياحة خيالية وبما يشبه الــنظم. وقد حان الآن وقت ذكر معناها وشرحها، حيث انها تسلط الاضواء على الحقيقة المذكورة.

كنت ارى نفسي وسط صحراء شاسعة عظيمة، وقد تلبدت السماء بســحب قاتمــة مظلمة، الأنفاس تكاد تختنق على الارض كافة. فلا نسيم ولا ضياء ولا مــاء. كــل ذلــك مفقود.

توهمت ان الارض ملأى بالوحوش والضوارى والحيوانات الضارة. فخطر على قلبي ان في الجهة الاخرى من الارض يوجد نسيم عليل وماء عذب وضياء جميل، فلا مناص اذاً مــن العبور الى هناك.. ثم وجدتني وانا اُساق الى هناك دون ارادتي.. دخلت كهفاً تحــت الارض، اشبه ما يكون بانفاق الجبال، سرتُ في جوف الارض خطوة خطوة وانا اشاهد أن كثيرين قد سبقوني في المضي من هذا الطريق تحت الارض، دون ان يكملوا السير اذ ظلوا في اماكنــهم مختنقين، فكنت أرى آثار اقدامهم، واسمع ــــ حيناً ــــ اصوات عددٍ منهم .. ثم تنقطــع الاصوات.

فيا صديقي الذي يرافقني بخياله في سياحتي الخيالية هذه!

ان تلك الارض هي »الطبيعة« و»الفلسفة الطبيعية«. اماالنفق فهو المسلك الذي شــقه اهل الفلسفة بافكارهم لبلوغ الحقيقة.أما آثار الاقدام التي رأيتها فهــي لمشــاهير الفلاســفة كافلاطون وارسطو [168]. وما سمعته من اصوات هو أصوات الدهاة كابن سينا والفارابي.. نعم

[168] وان قلت: فما تكون انت حتى تنازل هؤلاء المشاهير؟ فهل اصبحت نظير ذبابة حتى تتدخل في طيران الصقور؟

وانا اقول: لما كان لي استاذ أزلي وهو القرآن العظيم، فلا أراني مضطراً ان ابالي ــــ ولو بقدر جناح ذبابة ــــ في طريق الحقيقة والمعرفة، باولئك الصقور الذين هم تلاميذ الفلسفة الملوثة بالضلالة والعقل المبتلى بالاوهام. فمهما كنت أدنى منهم درجة إلاّ ان استاذهم ادنى بدرجات لاحدّ لها من استاذي،

كنت أجد اقوالاً لإبن سينا وقوانين له في عدد من الاماكن، ولكن كانت الاصوات تنقطع كلياً، بمعنى انه لم يستطع ان يتقدم، أي انه اختنق.. وعلى كل حال فقد بينت لك بعض الحقائق الكامنة تحت الخيال لأخفف عنك تلهفك وتشوقك.. والآن اعود الى ذكر سياحتي:

استمر بي السير، واذا بشيئين يجعلان بيدي.

الاول: مصباح كهربائي، يبدد ظلمات كثيفة للطبيعة تحت الارض.

والآخر: آلة عظيمة، تفتت صخوراً ضخمة هائلة امثال الجبال.. فينفتح لي الطريق.

وهُمِس في اذني آنذاك: ان هذا المصباح والآلة، قد منحتا لك من خزينة القرآن الكريم.. وهكذا فقد سرت مدة على هذا المنوال، حتى رأيت نفسي قد وصلت الى الجهة الاخرى، فاذا الشمس مشرقة في سماء صافية جميلة لا سحاب فيها، واليوم يوم ربيع بهيج، والنسيم يهب كأن فيه الروح، والماء السلسبيل العذب يجري. فقد رأيت عالَماً عمّته البهجة ودبّ الفرح في كل مكان، فحمدتُ الله.

ثم نظرت الى نفسي، فرأيت اني لا املكها ولا استطيع السيطرة عليها، بل ان احدهم يختبرني، وعلى حين غرة رأيت نفسي مرة اخرى في تلك الصحراء الشاسعة، وقد اطبقت السحب القاتمة ايضاً فاظلمت السماء، والانفاس تكاد تختنق من الضيق.. واحسست سائقاً يسوقني الى طريق آخر، اذ رأيت أني أسير في هذه المرة على الارض وليس في جوفها في طريقي الى الجهة الاخرى..فرأيت في سيرى هذا اموراً عجيبة ومشاهد غريبة تكاد لا توصف؛ فالبحر غاضب عليّ، والعاصفة تهددني وكل شئ يلقي امامي العوائق والمصاعب. إلاّ ان تلك المشاكل تُذلّل بفضل ما وُهب لي من القرآن الكريم من وسيلة سياحية. فكنت اتغلب عليها بتلك الوسيلة.. وبدأت اقطع السير خطوة خطوة، شاهدت اشلاء السائحين وجنائزهم ملقاة على طرفي الطريق، هنا وهناك فلم يُنهِ إلاّ واحدٌ من ألفٍ هذه السياحة.. وعلى كل حال فقد نجوت من ظلمات تلك السحب الخانقة، ووصلت الى الجهة الاخرى من الارض،

فبفضل استاذي وهمته لم تستطع المادةُ التي اغرقتهم ان تبلل قدمي. نعم! ان الجندي البسيط الحامل لأوامر سلطان عظيم وقوانينه، يمكنه ان ينجز من الاعمال مالا ينجزه مشير لدى ملك صغير. ـــــ المؤلف.

وقابلت الشمس الحقيقية الجميلة، وتنفستُ النسيم العليل، وبدأت اجول في ذلك العالم البهيج كالجنة، وانا اردد: الحمد للّه.

ثم رأيت انني لن اُترَك هنا، فهناك مَن كأنه يريد أن يريني طريقاً آخر، فأرجعَني في الحال الى ما كنت عليه.. تلك الصحراء الشاسعة.. فنظرت فاذا اشياء نازلة من الاعلى كنزول المصاعد (الكهربائية) بأشكال متباينة وانماط مختلفة بعضها يشبه الطائرات وبعضها شبيه بالسيارات، واخرى كالسلال المتدلية.. وهكذا. فايّما انسان يمكن أن يتعلق بأحدى تلك الاشياء، حسب قابليته وقوته، فانه يُعرج به الى الاعلى.. فركبت احداها، واذا أنا في دقيقة واحدة فوق السحب وعلى جبال جميلة مخضوضرة، بل لا تبلغ السحب منتصف تلك الجبال الشاهقة.. ويُشاهد في كل مكان اجمل ضياء، وأعذب ماء وألطف نسيم.. وحينما سرحت نظري الى الجهات كلها رأيت أن تلك المنازل النورانية ـــ الشبيهة بالمصاعد ـــ منتشرة في كل مكان. ولقد كنت شاهدت مثلها في الجهة الاخرى من الارض في تلكما السياحتين السابقتين.. ولكن لم افهم منها شيئاً، بيد اني الآن افهم أن هذه المنازل انما هي تجليات لآيات القرآن الحكيم.

وهكذا فالطريق الاول: هو طريق الضالين المشار اليه بـ (الضالين) وهو مسلك الذين زلّوا الى مفهوم »الطبيعة« وتبنّوا افكار الطبيعيين.. وقد شعرتم مدى صعوبة الوصول الى الحقيقة من خلال هذا السير الملئ بالمشكلات والعوائق.

والطريق الثاني: المشار اليه بـ (المغضوب عليهم) فهو مسلك عَبَدة الاسباب والذين يحيلون الخلق والايجاد الى الوسائط، ويسندون اليها التأثير، ويريدون بلوغ حقيقة الحقائق، ومعرفة الله جل جلاله عن طريق العقل والفكر وحده، كالحكماء المشائيين.

أما الطريق الثالث: المشار اليه بـ (الذين انعمت عليهم) فهو الصراط المستقيم والجادة النورانية لأهل القرآن، وهو أقصر الطرق وأسلمه وايسره، ومفتوح امام الناس كافة ليسلكوه، وهو مسلك سماوي رحماني نوراني.

المقصد الثاني

»يخص تحولات الذرات«

يشير الى ذرة من خزينة هذه الآية الكريمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

(وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينّــكم عالِمِ الغيب لا يعزب عنــه مثقالُ ذرّة في السموات ولا في الارض ولا اصغرُ من ذلك ولا اكبرُ إلا في كتــابٍ مــبين) (سورة سبأ: 3)

[يبين هذا المقصد مثقال ذرة من الخزينة العظمى لهذه الآية الكريمة، أي: يبين الجــوهر الذي تنطوي عليه صنُيديقة الذرة، ويتناول جزءاً ضئيلاً جداً من حركة الــذرة ووظيفتــها؛ وذلك في نقاط ثلاث مع مقدمة.]

المقدمة

ان تحولات الذرات وجولاتها عبارة عن اهتزازات الذرات وتنقلها اثناء كتابة قلم القدرة الإلهية للايات التكوينية في كتاب الكون. فهي ليست كما يتوهمه الماديون والطبيعيون من أنها ألعوبة المصادفة في حركة عشوائية لا معنى لها ولا مغزى؛ ذلك لأن كل ذرة، وكل الذرات تقول في مبدأ حركتها: »بسم الله« ـــ كما تقوله جميع الموجودات ـــ حيث أنها تحمل أثقالاً هائلة تفوق كثيراً طاقتها المتناهية، كحمل بذرة الصنوبر على اكتافها شجرتها الضخمة. ثم عند انتهاء وظيفتها تقول: »الحمد لله« حيث انها اظهرت أثراً بديعاً كأنه ينشد قصيدة رائعة في الثناء على الصانع الجليل، لما فيه من جمال الاتقان الحكيم، وروعة صورةٍ تنم عن مغزى عميق تتحير منه العقول.. فان شئت فانظر بانعام الى الرمان والذُرة.

نعم! ان تحولات الذرات وتنقلاتها، عبارة عن حركات واهتزازات ذات مغزى عميق، ناشئة من كتابة كلمات القدرة الإلهية ومحو تلك الكلمات في لوح »المحو والاثبات« الذي هو حقيقة الزمان السيال وصحيفته المثالية، استنساخاً من الكتاب المبين الذي هو عنوانٌ للقدرة الإلهية وارادتها، ومحور التصرف في ايجاد الاشياء وتشكيلها من عالم الشهادة والزمان الحاضر، وفقاً لدساتير الامام المبين الذي هو جماع مقومات الاشياء في اصولها وفروعها ـــ أي أصل كل شئ مضى وكل نسلٍ آتٍ ـــ التي طواها الغيب، مع مميزاتها، وعنوانٌ للعلم الإلهي وامره. [169]

[169] لقد ذُكر في القرآن : »إمام مبين« و »كتاب مبين« في عدة مواضع. وقال قسم من المفسرين: انهما بمعنى واحد. وقال آخرون: معناهما مختلف. وفسّروا حقيقتهما بوجوه متضاربة. وخلاصة ما قالوه: انهما عنوانان للعلم الإلهي. ولقد حصل لي الاطمئنان التام والقناعة التامة بفيض القرآن الكريم أن:
»الامام المبين« عنوانٌ لنوعٍ من العلم الإلهي وأمره، بحيث يتوجّه الى عالم الغيب اكثر مما يتوجه الى عالم الشهادة. أي: أنه يتوجه الى الماضي والمستقبل اكثر من توجهه الى الحال والزمن الحاضر. وبعبارة اخرى: انه سجلٌ للقدر الإلهي ينظر الى أصل كل شئ والى نسله، الى عروقه والى بذوره، اكثر مما ينظر الى وجوده الظاهري. وقد أُثبت وجود هذا السجل في »الكلمة السادسة والعشرين« ، وفي حاشية الكلمة العاشرة . نعم! ان هذا الامام المبين عنوانٌ لنوع من العلم الإلهي وأمره، وهذا يعني: ان إنتاج مبادئ الاشياء وجذورها واصولها، للاشياء، في غاية الابداع والاتقان، يدل على أن ذلك التنظيم والاتقان إنما

يتمان وفق سجل دساتير للعلم الإلهي. كماان نتائج الاشياء وأنسالها وبذورها، سجل صغير للأوامر الالهية لكونها تتضمن برامج ما سيأتي من الموجودات وفهارسه، فيصح ان يقال: ان البذرة ـــــ مثلاً ـــــ عبارة عن برامج وفهارس مجسّمة مصغرة لجميع ما ينظّم تركيب الشجرة الضخمة، وللاوامر التكوينيـــة التي تعيّن تلك التصاميم والفهارس وتحدّدها.

الحاصل: ان »الامام المبين« هو في حكم فهرس وبرنامج شجرة الخلق، الممتدة عروقها واغصانها وفروعها حول الماضي والمستقبل وعالم الغيب. فـ»الامام المبين« بهذا المعنى سجل للقـــدر الالهـــي، وكـــراس دساتيره. والذرات تُساق الى حركاتها ووظائفها في الاشياء باملاء من تلك الدســاتير وبحكمهـــا. أمـــا »الكتاب المبين« فهو يتوجه الى عالم الشهادة اكثر من توجهه الى عالم الغيب، أي: ينظـــر الى الزمـــان الحاضر اكثر مما ينظر الى الماضي والمستقبل. فهو: عنوانٌ للقدرة الإلهية وارادتها، وسجل لهما وكتـــاب، اكثر مما هو عنوان للعلم الإلهي وأمره. وبتعبير آخر: انه اذا كان »الامام المبين« سجلاً للقَدَر الإلهي فــــ »الكتاب المبين« سجل للقُدرة الإلهية. أي أن الانتظام والاتقان في كل شئ، سواءً في وجوده، في هويته، في صفاته، في شؤونه يدلان على أن الوجود يُضفى على الشئ وتُعيَّن له صوَره، ويشـــخَّص مقـــداره، ويعطى له شكله الخاص، بدساتير قدرة كاملة وقوانين إرادة نافذة. فتلك القدرة الإلهية والارادة الإلهية اذاً لهما قوانين كلية وعمومية محفوظة في سجل عظيم، بحيث يُفصَّل ويُخاط ثوبُ أنماط الوجود الخاص لكل شئ ويُلبَس عليه ويُعطى له صوره المخصوصة، وفق تلك القوانين. وقد اثبت وجود هـــذا الســـجل في رسالة »القدر الإلهي والجزء الاختياري« كما اثبت فيها »الامام المبين«.

فانظر الى حماقة الفلاسفة وارباب الضلالة والغفلة! فلقد شعروا بوجود اللوح المحفوظ للقـــدرة الإلهيـــة الفاطرة، وأحسّوا بمظاهر ذلك الكتاب البصير للحكمة الربانية، وارادتها النافذة في الاشياء، ولمسوا صُوَره ونماذجه، إلاّ انهم اطلقوا عليه اسم »الطبيعة« ـــــ حاشلله ـــــ فاخمدوا نورَه.

وهكذا، باملاءٍ من الإمام المبين، أي بحُكم القَدَر الإلهي ودستوره النافذ، تكتب القدرةُ الإلهية ـــــــ في ايجادها ـــــ سلسلةَ الموجودات ـــــ التي كلٌ منها آية ـــــ وتوجِد وتحرِك الذرات في لـــوح »المحـــو والاثبات« الذي هو الصحيفة المثالية للزمان.

أي ان حركات الذرات انما هي اهتزازات وحركات اثناء عبور الموجودات، من تلك الكتابة، ومن ذلك الاستنساخ، ومن عالم الغيب، الى عالم الشهادة، أي من العلم الى القدرة. أما »لوح المحو والاثبات« فهو سجل متبدل للّوح المحفوظ الاعظم الثابت الدائم، ولوحة »كتابة ومحو« في دائرة الممكنات أي هو سجل للاشياء المعرضة دوماً الى الموت والحياة، الى الفناء والوجود. بحيث ان حقيقة الزمان هو هذا .نعم! فكما

النقطة الاولى

وهي مبحثان

المبحث الاول

ان في حركة كل ذرة وفي سكونها، يتلمع نوران للتوحيد، كأنهما شمسان ســـاطعتان. ولقد اثبتنا بيقين اثباتاً مجملاً في الاشارة الاولى من »الكلمة العاشرة« وفصلناه في »الكلمـــة الثانية والعشرين« ان كل ذرة من الذرات! إن لم تكن مأمورة بـــاوامر الله تعـــالى، وإن لم تتحرك بإذنه وفعله وان لم تتحول بعلمه وقدرته، فلابد ان يكون لكل ذرة علمٌ لا نهاية لـــه، وقدرةٌ لا حدّ لها، وبصر يرى كل شئ، ووجهٌ يتوجه الى كل شئ، وأمرٌ نافذ في كل شئ.

لأن كل ذرة من ذرات العناصر، تعمل ـــــ أو يمكن ان تعمل ـــــ عملاً منتظماً في جسم كل كائن حي، علماً أن انظمة الاشياء وقوانين تراكيبها مخالف بعضها بعضاً، ولا يمكن عمل شئ ما لم تُعلَم انظمته، وحتى لوقامت الذرة بعمل فلا يخلو من خطأ. والحال أن الاعمال تُنجز من دون خطأ. فاذاً: إما أن تلك الذرات العاملة تعمل وفق أوامر مَن يملِك علماً محيطاً بكل شئ، وباذنه، وبعلمه، وبارادته.. أو ينبغي ان يكون لها مثل ذلك العلم المحيط والقـــدرة المطلقة!

ثم ان كل ذرة من ذرات الهواء، تستطيع ان تدخل في جسم كل كائن حي، وفي ثمـــرة كل زهرة، وفي بناء كل ورقة، وتعمل في كلٍ منها. علماً ان بناء كلٍ منها يخـــالف الآخـــر ونظامه يباين الآخر، فلو كان معمل ثمرة التين ـــــ مثلاً ـــــ شبيهاً بمعمل النسيج، لكـــان معمل ثمرة الرمان شبيهاً بمعمل السكر. فتصاميم كل منهما، وبناء كل منهما مخالف للآخر.

ان لكل شئ حقيقة، فحقيقة ما نسميه بالزمان الذي يجري جريان النهر العظيم في الكون هي في حكم صحيفة ومداد لكتابات القدرة الإلهية في لوح المحو والاثبات. ولا يعلم الغيب إلاالله. ـــــ المؤلف.

فهذه الذرات الهوائية تدخل في كلٍ منها ـــــ أو تستطيع الدخول ـــــ وتعمل بمهارة فائقة وبحكمة تامة، وتتخذ فيها أوضاعاً معينة، ثم حالما تنتهى وظيفتُها تتركهـــا ماضـــية الى شأنها.

وهكذا فالذرة المتحركة في الهواء المتحرك؛ إما انها تعلم الصوَر الـــتي اُلبســـتْ علـــى الحيوانات والنباتات، وعلى ثمراتها وازاهيرها، وتعلم ايضاً مقادير كلٍ منها وانماط تصاميمها! أو أن تلك الذرة مأمورة بأمرِ مَن يعلم ذلك كله وعاملة بارادته.

وكذا كل ذرة ساكنة في التراب الساكن الهادئ، فهي متهيئة لتكون منبتاً لجميع بذور النباتات المزهرة والاشجار المثمرة؛ اذ لو اُلقيت في حفنة تراب ـــــ المتكونـــة مـــن ذرات متماثلة كأنها ذرة واحدة ـــــ ولاقت ما فيها من الذرات؛ فإما انها تجد مصنعاً خاصاً بها، مع ما يحتاجه بناؤها من لوازم ومعدّات، أي ان تكون في تلك الحفنة من التراب معامل معنويـــة دقيقة عديدة، عدد انواع النباتات والاشجار والاثمار.! أو ان يكون هناك علم واسع وقـــدرة محيطة بكل شئ، تبدع كل شئ من العدم.. أو ان تلك الاعمال انما تتم بحول وقوة الله القدير على كل شئ والعليم بكل شئ.

لو سافر شخص الى اوروبا، وهو جاهل بوسائل الحضارة جهلاً مطبقاً، وعلاوة علـــى ذلك فهو أعمى لا يبصر، ولو دخل هناك الى جميع المعامل والمصانع، وانجز أعمالاً بديعة في كل صنوف الصناعة وفي انواع الأبنية، بانتظام كامل وحكمة فائقة ومهارة بارعة تحيرت منها العقول.. فلا شك ان مَن له ذرة من الشعور يعرف يقيناً: ان ذلك الرجل لا يعمل ما يعمـــل من تلقاء نفسه، بل هناك استاذ عليم يلقّنه ويستخدمه.

وايضاً لو كان هناك عاجز، أعمى، مقعد، قابع في كوخه الصغير، لا يحـــرك ســـاكناً. اُدخل عليه قليل من حصو، وقطع من عظم، وشئ يسير من قطن، واذا بالكوخ الصغير تصدر منه اطنان من السكر، واطوال من النسيج، وآلاف من قطع الجواهر، مع ملابس في أبهى زينة وأفخر نوع، مع أطعمة طيبة في منتهى اللذة.. أفلا يقول مَن له ذرة من العقـــل: ان ذلـــك الاعمى المقعد ما هو إلاّ حارس ضعيف لمصنع معجزٍ، وخادم لدى صاحبه ذى المعجزات؟

كذلك الامر في حركات ذرات الهواء ووظائفها في النباتات والاشجار والازهار والاثمار، التي كل منها كتابة إلهية صمدانية، ورائعة من روائع الصنعة الربانية، ومعجزة من معجزات القدرة الإلهية، وخارقة من خوارق الحكمة الإلهية، فلا تتحرك تلك الذرات ولا تنتقل من مكان الى آخر إلاّ بأمر الصانع الحكيم ذي الجلال وبارادة الفاطر الكريم ذي الجمال.

وقس على هذا ذرات التراب الذي هو منبت لسنابل البذور والنوى، التي كل منها في حُكم ماكنة عجيبة تختلف عن الاخرى، ومطبعة مغايرة للاخرى، وخزينة متباينة عن الاخرى، ولوحة اعلان تُعلن اسماء الله الحسنى متميزة عن الاخرى، وقصيدة عصماء تثني على كمالاته جل وعلا ولا شك ان هذه البذور البديعة ما اصبحت منشأً لتلك الاشجار والنباتات إلاّ بأمر الله المالك لأمر »كن فيكون« وكل شئ مسخّر لأمره، ولا يعمل إلاّ باذنه وإرادته وقوته.. وهذا يقين وثابت قطعاً.. آمنا.

المبحث الثاني

هذا المبحث عبارة عن اشارة بسيطة الى ما في حركات الذرات من وظائف وحكَم.

ان الماديين الذين انحدرت عقولُهم الى عيونهم، فلا يرون إلاّ المادة، يرون بحكمتهم الخالية من الحكمة وبفلسفتهم المبنية على اساس العبث في الوجود:

ان تحولات الذرات مربوطة بالمصادفة. حتى اتخذوها قاعدة مقررة لدساتيرهم كلها، جاعلين منها مصدر ايجادٍ للمخلوقات الربانية!

فالذي يملك ذرة من الشعور يعلم يقيناً مدى بُعدهم عن منطق العقل، في اسنادهم هذه المخلوقات المزدانة بحِكَمٍ غزيرة، الى شئ مختلط عشوائي لا حكمة فيه ولا معنى.

أما المنظور القرآني وحكمته، فانه يرى ان تحولات الذرات لها حِكَمٌ كثيرة جداً وغايات لا تحصى ووظائف لاتحد، تشير اليها الآية الكريمة (وإن من شيءٍ إلاّ يسبح بحمده) وامثالها من الآيات الكثيرة.

ونحن هنا نشير الى بضعٍ منها فقط، على سبيل المثال:

اولاها:

ان الله سبحانه وتعالى، لأجل تجديد تجليات الايجاد في الوجود، يحرّك الذرات ويسخّرها بقدرته، جاعلاً من كل روحٍ واحدة »نموذجاً« ، يُلبسها جسداً جديداً من معجزات قدرته في كل سنة، ويستنسخ من كل كتاب فرد بحكمته التامة آلاف الكتب المتنوعة، ويُظهر حقيقةً واحدة في انماط مختلفة وصور شتى، ويفسح المجال ويعدّ المكان لورود أكوان جديدة وعوالم جديدة وموجودات جديدة، طائفة إثر طائفة.

ثانيتها:

ان مالك الملك ذا الجلال، قد خلق هذه الدنيا ـــ ولا سيما وجه الارض ـــ على هيئة مزرعة واسعة، أي مهّدها لتكون قابلة لنمو محاصيل الموجوادت ونشوئها ، وظهورها بجدّتها وطراوتها، أي ليزرع فيها معجزات قدرته غير المتناهية ويحصدها.

ففي مزرعته الشاسعة هذه التي هي بسعة سطح الارض، يبرز سبحانه من معجزات قدرته كائنات جديدة، في كل عصر، في كل فصل، في كل شهر، في كل يوم، بل في كل ساعة، فيعطي ساحةَ الارض محاصيل متنوعة جديدة، بتحريك الذرات بحكمة تامة وتوظيفها بنظام متقن. مُبيناً سبحانه وتعالى، بحركات الذرات هذه هدايا رحمته الصادرة من خزينته التي لا تنضب، ونماذج معجزات قدرته التي لا تنفد.

ثالثتها:

انه سبحانه وتعالى يحرّك الذرات بحكمة تامة ويسخرها في وظائف منظمة لأجل اظهار بدائع الموجودات كي تفيد الاسماء الحسنى عن معاني تجلياتها غير المتناهية. فيُخرج سبحانه في مكان محدود ما لايحد من بدائع الصور الدالة على تلك التجليات غير المحدودة ويكتب في صحيفة ضيقة آياتٍ تكوينية لاحدّ لها، تعبّر عن معانٍ سامية غير محدودة.

نعم! ان محاصيل السنة الماضية ونتائجها من الموجودات، ومحاصيل هذه السنة ونتائجها، من حيث الماهية، في حُكم واحد، إلاّ ان معانيها ومدلولاتها متباينة جداً، اذ بتبدل التعينات الاعتبارية تتبدل معانيها وتكثر وتزداد. ومع أن التعينات الاعتبارية والتشخصات الموقتة تبدَّلان، وهما فانيتان في الظاهر، إلاّ ان معانيها الجميلة تحافَظ عليها وتستمر وتبقى وتثبت.

فأوراق هذه الشجرة وازاهيرها وثمراتها التي كانت في الربيع الماضي ـــــ لأنها لا تحمل روحاً كالانسان ـــــ هي عين أمثالها في هذا الربيع، اذا نُظر اليها من زاوية الحقيقة، إلاّ ان الفرق هو في التشخصات الاعتبارية.

هذه التشخصات أتت الى هذا الربيع، لتحل محل تشخصات سابقتها، وذلك للافـــادة عن معاني شؤون الاسماء الإلهية التي تتجدد تجلياتُها باستمرار.

رابعتها:

ان الحكيم ذا الجلال يحرّك الذرات في مزرعة هذه الدنيا الضيقة وينســـجها في مصـــنع الارض، جاعلاً الكائنات سيالةً والموجودات سيارةً، وذلك لأجل إعداد ما يناسب من لوازم أو تزيينات أو محاصيل لعوالم واسعة لاحدّ لها، كعالم المثال وعالم الملكوت الواسع جداً وسائر عوالم الآخرة غير المحدودة. فيهئ سبحانه في هذه الارض الصغيرة، محاصيل ونتائج معنويـــة كثيرة جداً، لتلك العوالم الكبيرة الواسعة جداً. ويُجري من الدنيا سيلاً لا نهاية له ينبع مـــن خزينة قدرته المطلقة ويصبّه في عالم الغيب، وقسماً منه في عوالم الآخرة.

خامستها:

يحرّك سبحانه وتعالى الذرات بقدرته في حكمة تامة ويسخرّها في وظـــائف منتظمـــة اظهاراً لكمالات إلهية لا نهاية لها، وجلوات جمالية لاحدّ لها، وتجليات جلالية لامنتهى لهـــا، وتسبيحات ربانية لاعدّ لها، في هذه الارض الضيقة المحدودة، وفي زمان قليل متناه. فيجعـــل سبحانه وتعالى الموجودات تسبّح تسبيحات غير متناهية في زمانٍ متناهٍ وفي مكان محدود، مبيناً بذلك تجلياته الجمالية والكمالية والجلالية المطلقة موجداً كثيراً من الحقائق الغيبية، وكثيراً من الثمرات الاخروية، وكثيراً من البدائع المثالية ـــــ لصور الفانين وهوياتهم الباقية ـــــ وكثيراً من نسائج لوحية حكيمة. فالذي يحرك الذرات، ويبرز هذه المقاصد العظيمة، وهذه الحكـــم الجسيمة، انما هو الواحد الأحد، وإلاّ فيجب ان تكون لكل ذرة عقل بكبر الشمس!.

وهكذا فهناك أمثلة كثيرة جداً على تحولات الذرات التي تُحرَّك بحكمة بالغة، كهـــذه النماذج الخمسة، بل ربما تربو على خمسة آلاف مثال، إلاّ ان اولئك الفلاسفة الحمقـــى قـــد ظنوها خالية من الحكمة!

فلقد زعموا ـــــ في الحقيقة ـــــ ان الذرات في حركتيها التي تتحرك بهما في نشـــوة وجذب رباني، احدهما آفاقي والآخر أنفسي، والمستغرقة في ذكر وتســـبيح إلهـــي كالمريـــد المولوي، انما تقوم بها من تلقاء نفسها، وترقص ذاهلة وتدور.

نخلص من هذا: ان علم اولئك الفلاسفة ليس علماً، بل جهل. وان حكمتهم ســـخافة وخالية من الحكمة!

(سنذكر في النقطة الثالثة حكمة اخرى مطولة هي السادسة).

النقطة الثانية

ان في كل ذرة شاهدين صادقين على وجود الله سبحانه، وعلى وحدانيته.

أجل! ان الذرة بقيامها بوظائف جسيمة جداً، وحملها لأعباء ثقيلة جداً تفوق طاقتها، في منتهى الشعور، رغم عجزها وجمودها، تشهد شهادة قاطعة على وجود الله سبحانه.

وانها تشهد شهادة صادقة ايضاً على وحدانية الله واحدية مالك الملـــك والملكـــوت؛ بتنسيق حركاتها وانسجامها مع النظام العام الجاري في الكون ومراعاتها النظام حيثما حلّت، وتوطّنها هناك كأنه موطنها. أي: لمن الذرة؟ فمواضع جولانها مُلكُه وتعود اليه، بمعنى ان من كانت الذرة له فان جميع الاماكن التي تسير فيها له ايضاً.

اي أن الذرة لكونها عاجزة، وعبئها ثقيلاً جداً، ووظائفها كثيرة لاتحد، تدل على انهـــا قائمة ومتحركة باسم قدير مطلق القدرة وبأمره.

ثم ان توفيق حركتها وجعلها منسجمة مع الانظمة العامة الكلية في الكون، وكأنها على علمٍ بها، ودخولها الى كل مكان دون مانع يمنعها، يدل على انها تعمل ما تعمل بقدرة واحد عليم مطلق العلم وبحكمته الواسعة.

نعم! ان الجندي له علاقة وانتساب مع كلٍ من فصيله، وســـريته، وفوجـــه، ولوائـــه، وفرقته. كما أن له في كلٍ منها وظيفة معينة على قدر تلك العلاقـــة. وان تنســـيق الحركـــة والانسجام مع كل هذه العلاقات والارتباطات بمعرفتها ومعرفة وظائفها في كل دائرة، مـــع القيام بواجبات عسكرية من تدريب واخذ للتعليمات حسب انظمتها، كل ذلك انما يكـــون بالانقياد الى اوامر القائد الاعظم الذي يقود تلك الدوائر كلها واتباع قوانينه.

فكما ان الامر هكذا في الجندي الفرد، كذلك كل ذرة مـــن الـــذرات الداخلـــة في المركبات المتداخل بعضها في بعض، لها اوضاع ملائمة في كلٍ منها، ومواقع متناسبة تنـــبني عليها مصالح متنوعة، ووظائف منتظمة شتى، ونتائج متباينة ذات حكمة، فلابد ان تـــوطين تلك الذرة بين تلك المركبات، توطيناً لا يخل بالنتائج والحكم الناشئة مـــن تلـــك النســـب والوظائف، مع الحفاظ على جميع النسب والوظائف، خاصٌ بمالك الملك الذي بيده مقاليـــد كل شئ.

فمثلاً: ان الذرة المستقرة في بؤبؤ عين »توفيق« لها علاقة مع اعصاب العين الحركيـــة والحسية ، ومع الشرايين والاوردة التي فيها، ومع الوجه، والرأس، ثم مع الجسم، ومع الانسان ككل. فضلاً عن ان لها في كلٍ منها وظيفة وفائدة.

فوجود تلك النسب، في كلٍ منها، والعلاقات والفوائد، مع الحكمة الكاملة والاتقـــان التام يبين:

ان الذي خلق ذلك الجسد بجميع اعضائه، هو الذي يمكنه ان يمكّن تلك الذرة في ذلك المكان، ولا سيما الذرات الآتية للرزق. فتلك الذرات التي تسير مع قافلة الرزق وتسافر معها، انما تسير بانتظام وتسيح بحكمة تحير العقول. ثم تدخل في اطوار مختلفة وتجـــول في طبقـــات متنوعة بنظام دقيق، فتخطو خطوات ذات شعور، من دون ان تخطئ ، حتى تأتي تـــدريجياً الى الجسم الحي وتصفّى هناك في اربع مصافٍ فيه، الى أن تصل الى الاعضاء والحجيرات المحتاجة الى الرزق، فتمدها به، وتسعفها بقانون الكرم محمولةً على الكريات الحمراء في الدم.

يفهم من هذا بداهة ان الذي أمَرَّ هذه الذرات من خـــلال آلاف المنـــازل المختلفـــة والطبقات المتباينة، وساقها هكذا بحكمة، لابد وبلا ادنى شك هو رزّاق كريم، خلاق رحيم ، تتساوى امام قدرته النجومُ والذرات.

ثم ان كل ذرة من الذرات تقوم بعمل صورة بديعة ونقش رائع في المخلوق بحيث:

إما انها في موقع حاكم مسيطر على كل ذرة من الذرات وعلى مجموعها، ومحكومة في الوقت نفسه تحت أمر كل ذرة من الذرات وأمر مجموعها، وانها تعرف معرفة كاملة، بالصورة

البديعة المحيرة للالباب والنقش الرائع المليئ بالحكمة، فتوجدها! وهذا محال بألف محال.. أو أنها نقطة مأمورة بالحركة نابعة من قلم قدرة الله سبحانه وقانون قَدَره.

فمثلاً: أن الاحجار الموجودة في قبة »ايا صوفيا« ان لم تكن مطيعة لأمر بنّائها، ينبغي ان يكون كل حجر منها ماهراً في صنعة البناء كالمعماري سنان [170] نفسه، ويكون حاكماً على الاحجار الاخرى ومحكوماً بأمرها في الوقت نفسه، اي يمكنه ان يحكم الاحجار الاخرى فيقول لها: »هيا ايتها الاحجار لنتحد حتى نحول دون سقوطنا«! وكذلك الامر في الذرات الموجودة في المخلوقات، التي هي اكثر ابداعاً، واكثر اتقاناً واكثر روعة واكثر اثارة للاعجاب، واكثر حكمة من قبة ايا صوفيا بالاف المرات، إن لم تكن هذه الذرات منقادة لأمر الخالق العظيم، خالق الكون، فينبغي اذاً ان تعطى لكلٍ منها اوصاف الكمال التي لا تليق إلاّ باللّه سبحانه.

فيا سبحان الله ! وياللعجب! ان الماديين الزنادقة الكفرة لما انكروا الله الواجب الوجود، اضطروا حسب مذهبهم للاعتقاد بآلهة باطلة بعدد الذرات. ومن هذه الجهة ترى أن الكافر المنكر لوجود الله سبحانه وتعالى مهما كان فيلسوفاً وعالماً فهو في جهل عظيم، وهو جاهل جهلاً مطلقاً.

النقطة الثالثة

هذه النقطة اشارة الى الحكمة السادسة العظيمة التي وُعد بها في ختام النقطة الاولى، وهي:

لقد ذكر في حاشية السؤال الثاني من الكلمة الثامنة والعشرين:

---

[170] اكبر مهندس معماري تركي (1489 ــــ 1578) اشرف على بناء جوامع كثيرة اهمها: سليمية، سليمانية، شهزادة. ــــ المترجم.

ان حكمة اخرى من آلاف الحكم التي تتضمنها تحولات الذرات وحركاتها في اجسام ذوي الحياة، هي تنوير الذرات بالحياة وكسبها المعنى والمغزى، لتصبح ذرات لائقة في بناء العالم الاخروي.

نعم! ان الكائن الحيواني والانسان وحتى النبات في حكم مضيف لتلك الذرات ومعسكر تدريب لها، ومدرسة تربوية تتلقى فيها الارشادات؛ بحيث أن تلك الذرات الجامدة تدخل هناك فتتنور، وكأنها تنال التدريب وتتلقى الاوامر والتعليمات، فتتلطف، وتكسب باداء كلٍ منها لوظيفة لياقةً وجدارة، لتصبح ذرات لعالم البقاء والدار الآخرة الحية حياةً شاملة لجميع اجزائها.

سـؤال: بماذا يُعرف وجود هذه الحكمة في حركات الذرات؟

الجـواب:

اولاً: يُعرف وجودُها، بحكمة الله الحكيم سبحانه، تلك الحكمة الثابتة بالانظمة الجارية في الموجودات كافة وبالحكم التي تنطوي عليها؛ اذ الحكمة الالهية التي اناطت حِكماً كلية كثيرة جداً بأصغر شيءٍ جزئي، لايمكن ان تترك حركات الذرات سدىً من دون حكمة! تلك الحركات الجارية في سيل الكائنات، والتي تبدي فعالية عظمى في الوجود، والتي هي سبب لإبراز البدائع الحكيمة.

ثم ان الحكمة الالهية وحاكميتها، التي لا تهمل اصغر مخلوق دون أجر، أو دون كمال، أو دون مقام، لما يقوم به من وظيفة، كيف تهمل مأموريها ومستخدميها الكثيرين جداً، الذرات.. دون نور، أو دون أجر.

ثانياً: ان الحكيم العليم يحرك العناصر ويستخدمها لاداء وظائف جليلة، فيرقيها الى درجة المعدنيات، اجراً لها في طريق الكمال.. ويحرك ذرات المعدنيات ويسخرها في وظائف ويعلّمها تسبيحاتها الخاصة بها فيمنحها المرتبة الحية للنباتات.. ويحرك ذرات النباتات ويوظفها، ويجعلها رزقاً للآخرين، فيُنعم عليها برفعها الى المرتبة اللطيفة للحيوانات.. ويستخدم ذرات الحيوانات ــ عن طريق الرزق ــ فيرفعها الى درجة الحياة الانسانية.. وباستمرار ذرات

جسم الانسان من خلال مصافٍ عدة مراتٍ ومرات، وتنقيتها وجعلها لطيفــة، يرقيهـــا الى ألطف مكان وأعز موقع في الجسم وهو الدماغ والقلب.

يفهم مما ذكر: ان حركات الذرات ليست سدىً وليست خالية من الحكمة، بل تُهرع الذرات وتساق الى نوع من الكمال اللائق بها.

ثالثاً: ان قسماً من ذرات الكائن الحي ـــــ كذرات البذور والنوى ـــــ ينال نـــوراً معنوياً، ولطافة ومزيّة، بحيث يكون بمثابة روح وسلطان على سائر الذرات، وعلى الشـــجرة الضخمة نفسها.

فاعتلاء هذه الذرات ـــــ من بين مجموع ذرات الشجرة العظيمة ـــــ هذه المرتبة، انما هو حصيلة ادائها وظائف دقيقة ومهمات جليلة اثناء مراحل نمو الشجرة، مما يدل علـــى ان تلك الذرات حينما تؤدي وظيفتها الفطرية بأمر الخالق الحكيم، تنال لطافة معنويـــة ونـــوراً معنوياً ومقاماً رفيعاً وارشاداً سامياً، حسب انواع حركاتها ووفق ما يتجلى عليها من تجليات الاسماء الحسنى، وسمو تلك الاسماء.

الخلاصة:

* ان الخالق الحكيم قد عيّن لكل شئ نقطة كمال يناسب ذلك الشئ، وحـــدّد نـــورَ وجودٍ يليق به، فيسوق ذلك الشئ الى نقطة الكمال تلك، باستعداد يمنحه اياه.

فهذا القانون للربوبية مثلما هو جارٍ في جميع النباتات والحيوانـــات، جـــارٍ ايضـــاً في الجمادات، حتى يمنح سبحانه التراب العادي رقياً يبلغ به درجة الألماس ومرتبـــة الاحجـــار الكريمة.

من هذه الحقيقة ينكشف طرفٌ من قانون عظيم هو: »قانون الربوبية«.

* وان ذلك الخالق الكريم، اثناء تسخيره الحيوانات لإنفاذ قانون التناسل العظيم، يمنحها لذةً جزئية، أجرةً لأدائها الوظيفة. ويهب للحيوانات المستخدمة لإنفاذ اوامر ربانيـــة ـــــــــ كالبلبل والنحل ـــــ اجرةَ كمالٍ راقية، مقاماً يبث الشوق والمتعة..

من هذه الحقيقة ينكشف طرفٌ من قانون عظيم هو : »قانون الكرم«.

* ثم ان حقيقة كل شئ تتوجه الى تجلي اسمٍ من الاسماء الالهية الحسنى، ومرتبطة بهـــا، وهي كالمرآة العاكسة لأنواره. فذلك الشئ مهما اتخذت من اوضاع جميلة، فالجمال يعود الى شرف ذلك الاسم وسموه؛ اذ يقتضيه ذلك الاسم. فسواءٌ أعَلِم ذلك الشئ أم لم يعلم، فذلك الوضع الجميل مطلوب في نظر الحقيقة.

من هذه الحقيقة يظهر طرفٌ من قانون عظيم هو: »قانون التحسين والجمال«.

* ثم ان ما اعطاه الفاطر الحكيم من مقام وكمال، الى شئ ما، بمقتضى دستور الكرم، لايستردّه منه عند انقضاء مدة ذلك الشئ وانتهاء عمره، بل يُبقي ثمراته، ونتائجه، وهويتـــه المعنوية، ومعناه، وروحه ان كان ذا روح.

فمثلاً: يُبقي سبحانه وتعالى معاني الكمالات التي ينالها الانسان وثمراتها، حتى ان شـــكر المؤمن الشاكر وحمده على ما يأكله من فواكه زائلة، يعيده سبحانه اليه مرة اخـــرى علـــى صورة فاكهة مجسمة طيبة من فواكه الجنة.

من هذه الحقيقة ينكشف طرفٌ من قانون عظيم هو : » قانون الرحمة«.

* ثم ان الخالق الحكيم سبحانه لا يسرف في شئ قط، ولا يعمل عبثاً مطلقاً اذ يستعمل حتى الانقاض المادية للمخلوقات الميتة ـــــ التي انتهت مهماتُها ـــــ في الخريف، في بنـــاء مخلوقات جديدة في الربيع.

لذا، فمن مقتضى الحكمة الالهية، ادراج هذه الذرات الارضية الجامدة، وغير الشاعرة، والتي انجزت وظائف جليلة في الارض في قسم من ابنية الآخرة التي هي حيـــة وذات شـــعور بكل ما فيها، باحجارها واشجارها بدلالة الآية الكريمة (يوم تبـــدل الارض غـــير الارض) (ابراهيم:48) وباشارة الآية الكريمة (وان الدار الاخرة لهي الحيوان) (العنكبـــوت:64) ولأن ترك ذرات الدنيا المتهدمة في الدنيا نفسها، أو رميها الى العدم اسراف وعبث.

من هذه الحقيقة ينكشف طرفٌ من قانون عظيم هو: »قانون الحكمة«.

* ثم ان كثيراً جداً من آثار هذه الدنيا ومعنوياتها وثمراتها، ومنسوجات اعمال المكلفين ـــــ كالجن والانس ـــــ وصحائف افعالهم، وارواحهم، واجسادهم، تُرســـل الى ســـوق الآخرة ومعرضها. فمن مقتضى العدل والحكمة ان تُرسل ايضاً الذرات الارضية التي رافقـــت

تلك الثمرات والمعاني وخَدَمَتها مع انقاض هذه الدنيا التي ستدمّر الى العالم الاخروي وتستعمل في بنائه. وذلك بعد تكاملها تكاملاً يخصّها من حيث الوظيفة، اي بعد أن نالت نور الحياة كثيراً وخدمَتها، واصبحت وسيلة لتسبيحات حياتية.

من هذه الحقيقة ينكشف طرف من قانون عظيم هو :»قانون العدل«.

* ثم ان الروح مثلما انها مهيمنة على الجسم، فالاوامر التكوينية للمواد الجامدة التي كتبها القدر الالهي، لها سلطان ايضاً على تلك المواد. فتتخذ تلك المواد مواقعها، وتسير بنظام معين وفق ما تمليه الكتابة المعنوية للقدر الالهي.

فمثلاً: في انواع البيض، واقسام النطف، واصناف النوى، واجناس البذور، تنال المواد انواراً مختلفة، مقامات متباينة، حسب تباين الاوامر التكوينية التي سطّرها القدر الالهي بانماط متنوعة واشكال متغايرة؛ اذ إن تلك المواد ــــ من حيث هي مادة ــــ في ماهية واحدة[171]، الاّ انها تصبح وسيلة لنشوء مالا يحد من الموجودات، فتكون صاحبة مقامات مختلفة وانوار متنوعة، فلابد اذاً لو وجدت ذرة في خدمات حياتية، ودخلت ضمن التسبيحات الربانية التي تسبح بها الحياة مرات ومرات، وادّت مهماتها هناك، فلاشك ان يُكتب في جبهتها المعنوية حِكَم تلك المعاني، ويسجلها قلمُ القدر الإلهي الذي لا يعزُب عنه شئ، وذلك بمقتضى العلم المحيط الإلهي.

من هذه الحقيقة ينكشف طرفٌ من قانون عظيم هو:»قانون العلم المحيط«.

فبناء على ما سبق: فان الذرات اذاً ليست سائبة ولا منفلتة [172].

النتيجة:

---

[171] نعم! ان جميع تلك المواد مركبة من عناصر اربعة هي: مولد الحموضة ومولد الماء (الاوكسجين والهيدروجين) والازوت والكربون، وامثالها. لذا تعتبر المواد من حيث التركيب المادي متشابهة إلاّ ان الفرق في كتابة القدر المعنوي. ــــ المؤلف.

[172] جواب الفقرات السبع التي مرت.ــــ المؤلف.

ان القوانين السبعة السابقة، اي: قانون الربوبية، وقانون الكرم، وقانون الجمال، وقانون الرحمة، وقانون الحكمة وقانون العدل، وقانون العلم المحيط.. وأمثالها من القوانين العظمى، يلوّح كلٌّ منها من طرفٍ ما ينكشف منه، اسمَ الله الاعظم، وتجلٍ أعظم لذلك الاسم الاعظم. ويفهم من ذلك التجلي: ان تحولات الذرات ايضاً في هذه الدنيا ــ كسائر الموجودات ــ تجول حسب ما خطه القدر الالهي من حدود ووفق ما تعطيه القدرة الالهية من اوامر تكوينية وعلى اساس ميزان علمي حساس، لأجل حِكَمٍ سامية، وكأنها تتهيأ للرحيل الى عالم آخر أسمى! [173]

ومن هنا عدت الاجسام الحية كأنها مدرسة تتعلم فيها الذرات السائحة، ومعسكر تدريب، ومضيف تربوي لها، ويصح ان نحكم بحدس صادق أنها كذلك.

الحاصل: مثلما ذكر في »الكلمة الاولى«، واثبت هناك: ان كل شئ يقول »بسم الله«. فالذرة ايضاً كجميع الموجودات وكل طائفة منها وكل جماعة من جماعاتها تقول بلسان الحال: »بسم الله« وتتحرك وفقها.

نعم! ان كل ذرة ــ بدلالة النقاط الثلاث المذكورة ــ تقول بلسان حالها في مبدأ حركتها: »بسم الله الرحمن الرحيم« اي: أتحرك باسم الله وبقوته وبحوله وباذنه وفي سبيله، ثم تقول ــ وكل طائفة منها ــ بعد انهاء حركتها بمثل ما يقوله اي مخلوق كان بلسان حاله: الحمد لله رب العالمين.

---

[173] لأنه ماثل امامنا ان نشر نور الحياة بغزارة في هذا العالم الكثيف السفلي، وايقاده بفعالية دائمة في منتهى الجود، حتى بث نور الحياة بكثرة هائلة في اخس المواد واكثرها تعفناً، وصقل تلك المواد الكثيفة والخسيسة بنور الحياة وجعلها لطيفة .. تشير بما يقرب من الصراحة ان ا سبحانه وتعالى يذيب هذا العالم الكثيف الجامد ويجمّله ويلمّعه بحركات الذرات ونور الحياة ليهيئه الى العالم الاخر الحي اللطيف السامي الطاهر، وكأنه يزيّنه للرحيل الى عالم لطيف. فالذين لا يستوعبون بعقولهم الضيقة حشر البشر، لو نظروا بنور القرآن وبمرصاده لرأوا ان »قانون قيومية محيط« واضح رأي العين، يحشر جميع الذرات كحشر الجنود في الجيش ويتصرف فيها، كما هو مشاهد.ــ المؤلف.

فكل ذرة تبدي نفسها في حكم ريشةِ قلمٍ صغير للقدرة الالهية في تصوير كل مخلــوق بديع الذي هو بمثابة قصيدة ثناء وحمداً لله تعالى.

بل كل ذرة تبين نفسها في صورة طرف ابرة لأذرع معنوية لاحد لها لحاكٍ رباني معظم، تدور الابرة على اسطوانات ـــــ وهي المصنوعات الربانية ـــــ فتنطقها بقصائد ثناء وحمد ربانية، وتنشدها اناشيد تسبيحات إلهية..

(دعواهم فيها سبحانك اللّهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعــواهم ان الحمــد لله رب العالمين)

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب)

اللّهم صل على سيدنا محمد صلاة تكون لك رضاءً ولحقّه اداءً

وعلى آله وصحبه واخوانه وسلّم،

وسلّمنا وسلم ديننا آمين يارب العالمين.

كان شقيقان في قديم الزمان يذهبان معاً إلى سياحة طويلة، فواصلا سيرَهما سوية إلى أن وصلا إلى مفرق طريقين، فرأيا هناك رجلاً وقوراً فسألاه: أيُّ الطريقين أفضل؟.

الكلمة الحادية والثلاثون

المعراج النبوي

تنبـــيه:

إن مسألة المعراج نتيجة تترتب على أصول الإيمان وأركانه، فهي نورٌ يستمد ضوءه من أنوار الأركان الإيمانية. فلا تُقام الحجج لإثبات المعراج بالذات للملحدين المنكرين لأركـــان الإيمان، بل لا يُذكَر أصلاً لمن لا يؤمن بالله جلّ وعلا ولا يصدِّق بالرسول الكريم صـــلى الله عليه وسلم أو ينكر الملائكة والسماوات، إلاّ بعد إثبات تلك الأركان لهم مقدماً؛ لذا سنجعل المؤمن الذي ساوَرَتْه الشكوك والأوهام فاستبعد المعراجَ، موضعَ خطابنا، فنبين له ما يفيـــده ويشفيه بإذن الله. ولكن نلحظ بين آونة وأخرى ذلك الملحد الـــذي يترقـــب في موضـــع الاستماع ونسرد له من الكلام أيضاً ما يفيده.

ولقد ذُكِرَت لمعاتٌ من حقيقة المعراج في رسائل أخرى، فاستمددنا العنايـــة مـــن الله سبحانه وتعالى – مع إصرار اخوتي الأحبة – على جمع تلك اللمعات المتفرقة وربطها مع اصل الحقيقة نفسها لجعل مرآةٍ تعكس دفعةً واحدة كمالات جمال الرسول الكريم صلى الله عليـــه وسلم.

بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

[سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَى بِعَبْدِه لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ] (الإسراء: 1)

[إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى + عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى + ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى + وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى + ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى+ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى + فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى + مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى + أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى+ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى + عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى+ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى + إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى + مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى+ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى +] (النجم: 4 - 18)

نذكر من الخزينة العظمى للآية الكريمة المتصدرة، رمزين إثنين فقط، وهما رمزان يستندان إلى دستور بلاغي في ضمير "إنّه" وذلك لعلاقتهما بمسألتنا هذه، بمثل ما بيناهما في رسالة "المعجزات القرآنية".

إن القرآن الكريم يُختِم الآية المذكورة أعلاه بـ[إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ] وذلك بعد ذكره إسراء الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم من مبدأ المعراج – أي من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى – ومنتهاه الذي تشير إليه سورة النجم.

فالضمير في "إنّه" إما أن يرجع إلى الله تعالى، أو إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.[174]

فإذا كان راجعاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فان قوانين البلاغة ومناسبة سياق الكلام تفيدان، بأن هذه السياحة الجزئية، فيها من السير العمومي والعروج الكلي بحيث انه صلى الله عليه وسلم قد سَمِع وشاهَدَ كلَّ ما لاقى بَصَره وسمعَه من الآيات الربانية، وبدائع الصنعة الإلهية أثناء ارتقائه في المراتب الكلية للأسماء الإلهية الحسنى البالغة إلى سدرة المنتهى، حتى كان قاب قوسين أو أدنى. مما يدل على أن هذه السياحة الجزئية هي في حُكم مفتاحٍ لسياحةٍ كليةٍ جامعة لعجائب الصنعة الإلهية.

[174] جاء في تفسير روح المعاني للعلامة الآلوسي (ج 15/ص14) ما يأتي: "وأما على تقدير كون الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم، كما نقله ابو البقاء عن بعضهم وقال: أي السميع لكلامنا البصير لذاتنا، وقال الجلبي: إنه لا يبعد، والمعنى عليه: إن عبدي الذي شرفته بهذا التشريف هو المستأهل له فإنه السميع لأوامري ونواهي، العامل بهما، البصير الذي ينظر بنظر العبرة في مخلوقاتي فيعتبر، أو البصير بالآيات التي أريناه إياها". وانظر أيضا تفسير إسماعيل القنوي على البيضاوي ج224/4.ـ المترجم.

وإذا كان الضمير راجعاً إلى الله سبحانه وتعالى، فالمعنى يكون عندئذٍ هكذا: إنه سبحانه وتعالى دعا عبدَه إلى حضوره والمثول بين يديه لينيط به مهمةً ويكلّفه بوظيفة، فأسرى به من المسجد الحـــرام إلى المسجد الأقصى الذي هو مجمع الأنبياء. وبعد إجـــراء اللقـــاء معهـــم وإظهاره بأنه الوارث المطلق لأصول أديان جميع الأنبياء، سَيَّره في جولةٍ ضمن مُلكه وسياحةٍ ضمن ملكوته، حتى أبلغه سدرة المنتهى فكان قاب قوسين أو أدنى.

وهكذا فتلك السياحة أو السير، وإن كانت معراجاً جزئياً وأن الذي عُرِج به عبدٌ، إلاّ أن هذا العبد يحمل أمانة عظيمة تتعلق بجميع الكائنات، ومعه نور مبين ينير الكائنات ويبدّل معنى ملامحها ويصبغها بصبغته. فضلاً عن أن لديه مفتاحاً يستطيع أن يفتح به باب الســـعادة الأبدية والنعيم المقيم.

فلأجل كل هذا يصف الله سبحانه وتعالى نفسَه بـــ [إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِـــيرُ] كـــي يُظهِر أن في تلك الأمانة وفي ذلك النور وفي ذلك المفتاح، من الحِكَم السامية ما يشمل عموم الكائنات، ويعم جميع المخلوقات، ويحيط بالكون أجمع.

هذا ولهذا السر العظيم أربعة أسس:

أولها: ما سر لزوم المعراج؟

ثانيـــها: ما حقيـــقة المعراج؟

ثالـــثها: ما حـــكمة المعراج؟

رابعها: ما ثمـــرات المعراج وفوائده؟

سرّ لزوم المعراج وحكمة ضرورته

يقال مثلاً: إن الله سبحانه وتعالى وهو المنــزّه عن الجسم والمكان أقرب إلى كل شيء من كل شيء، كما تنص عليه الآية الكريمة: [وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيــدِ +] (ق: 16) حتى يستطيع كل ولي من أولياء الله الصالحين أن يقابل ربَّه ويناجيه في قلبه. فلِمَ يوفّــق كل ولي إلى مناجاته سبحانه في قلبه بينما الولاية الاحمدية تُوفّق إليها بعد سير مديد وسياحة طويلة بالمعراج؟

الجواب: نقرّب هذا السر الغامض إلى الفهم بذكر مثالين اثنين، فاستمع إليهما، وهمــا مذكوران في الكلمة الثانية عشرة لدى بيان سر إعجاز القرآن وحكمة المعراج.

المثال الأول:

إن للسلطان نوعين من المكالمة والمقابلة، وطرازين من الخطاب والكلام والتكريم.

الأول: مكالمة خاصة بوساطة هاتف خاص، مع أحد رعاياه من العوام، في أمر جزئي يعود إلى حاجة خاصة له.

والآخر: مكالمة باسم السلطنة العظمى وبعنوان الخلافة الكبرى، وبصــفة الحاكميــة العامة؛ بأمرٍ رفيع كريم يُظهر عظمته ويبين هيبته، يقصد منها نشر أوامره السلطانية في الآفاق. فهي مكالمة تجري مع أحد مبعوثيه ممن له علاقة مع تلك الأمور، أو مع أحد كبار موظفيه ممن له علاقة مع تلك الأوامر.

وهكذا بمثل هذا المثال ‘‘ولله المثل الأعلى’’ فان خلاق الكون ومالك الملك والملكوت، والحاكم الأزلي **المطلق، له طرازان من المكالمة والتكريم**:

الأول: جزئي وخاص.

والآخر: كلّي وعام.

فالمعراج النبوي مظهر رفيع سامٍ للولاية الاحمدية ظهر بكليةٍ تفوق جميع الولايات وبرفعة وعلو يسمو عليها جميعاً؛ إذ إنه تشرّفٌ بمكالمة الله سبحانه وتعالى ومناجاته باسم رب العالمين وبعنوان خالق الموجودات.

المثال الثاني:

رجل يمسك مرآة تجاه الشمس. فالمرآة تلتقط – حسب سعتها – نوراً وضياءً يحمل الألوان السبعة من الشمس. فيكون الرجل ذا علاقة مع الشمس بنسبة تلك المرآة، ويمكنه أن يستفيد منها فيما إذا وجهها إلى غرفته المظلمة أو إلى مشتله الخاص الصغير المسقف، بيد أن استفادته من الضوء تنحصر بمقدار قابلية المرآة على ما تعكسه من نور الشمس وليست بمقدار عِظَم الشمس.

بينما رجل آخر يَدَع المرآة، ويجابه الشمس مباشرة، ويشاهد هيبتها ويدرك عظمتها، ثم يصعد على جبل عال جداً وينظر إلى شعشعة سلطانها الواسع المهيب، ويقابلها بالذات دون حجاب. ثم يرجع ويفتح من بيته الصغير أو من مشتله المسقف الخاص نوافذ واسعة نحو الشمس وهي في أعالي السماء، فيجري حواراً مع الضياء الدائم للشمس الحقيقية، ويناجيها.

وهكذا يستطيع هذا الرجل أن يقوم بهذه المقابلة والمحاورة المؤنسة المكللة بالشكر والامتنان، ويناجي **الشمس قائلاً:**

"إيهِ يا شمسُ! يا من تربعتِ على عرش جمال العالم! يا لطيفة السماء وزهراءها! يا من أضفيت على الأرض بهجة ونوراً ومنحتِ الأزهار ابتسامة وسروراً! لقد منحت الدفء والنور معاً لبيتي ومشتلي الصغير كما وهبت النور للدنيا والدفء للأرض...".

بينما صاحب المرآة السابق لا يستطيع أن يناجي الشمس ويحاورها بمثل هذه المحاورة، إذ إن آثار ضوء الشمس محددة بحدود المرآة وقيودها، ومحصورة بحسب قابلية المرآة واستيعابها للضوء.

وهكذا يظهر تجلي ذات الله الأحد الصمد جل جلاله، وهو نور السماوات والأرض وسلطان الأزل الأبد على الماهية الإنسانية بصورتين، تتضمنان مراتب لا حد لها.

الصورة الأولى: ظهور في مرآة القلب برباط رباني وانتساب إليه، بحيث أن لكل إنسان حظوة مع ذلك النور الأزلي، وله محاورة ومناجاة معه، سواء كانت جزئية أم كلية، حسب استعداده ووفق تجليات الأسماء والصفات، وذلك في سيره وسلوكه لدى طيّه المراتب. فدرجات الغالبية العظمى للولايات السائرة في ظلال الأسماء الحسنى والصفات الجليلة ومراتبها نابعةٌ من هذا القسم.

الصورة الثانية: تجلٍ لله سبحانه لأسمى فرد في نوع البشر وأفضلهم طراً، تجلياً بذاته جلّ وعلا وبأعظم مرتبة من مراتب أسمائه الحسنى؛ لكون الإنسان قادراً على إظهار تجليات الأسماء الحسنى المتظاهرة في الوجود كافة دفعةً واحدة في مرآة روحه، إذ هو أنور ثمرات شجرة الكائنات وأجمعها من حيث الصفات والاستعدادات.

إن هذا التجلي هو سر المعراج الأحمدي، بحيث تكون ولايتُه مبدأ لرسالته. الولاية التي تسير في الظل وتمضي فيه، كالرجل الأول في المثال الثاني. بينما لا ظل في الرسالة، بل تتوجه إلى أحدية الذات الجليلة مباشرة، كالرجل الثاني في المثال الثاني.

أما المعراج فلأنه كرامة كبرى للولاية الأحمدية ومرتبتها العليا، فقد ارتقت وانقلبت إلى مرتبة الرسالة.

فباطن المعراج ولاية؛ إذ قد عرج من الخلق إلى الحق سبحانه وتعالى. وظاهر المعراج رسالة؛ إذ يأتي من الحق سبحانه وتعالى إلى الخلق أجمعين.

فالولاية سلوك في مراتب القرب إلى الله، وهي بحاجة إلى زمانٍ وإلى طيّ مراتب كثيرة. أما الرسالة التي هي أعظم نور فهي متوجهة إلى انكشاف سر الأقربية الإلهية؛ الذي تكفيه لحظة خاطفة وآن سيّال. ولهذا ورد في الحديث الشريف ما يفيد أنه رجع في الحال.

والآن نوجه كلامنا إلى ذلك الملحد الجالس في مقام الاستماع، فنقول: ما دام هذا العالم شبيهاً بمملكة في غاية الانتظام، وبمدينة في غاية التناسق، وبقصر في غاية الزينة والجمال، فلابد أن له حاكماً، مالكاً، صانعاً. وحيث إن ذلك المالك الجليل والحاكم الكامل والصانع الجميل موجود.. والإنسان ذو نظرٍ كلي وذو علاقة عامة بحواسه ومشاعره مع ذلك العالم، وتلك المملكة وذلك القصر.. فلابد أن ذلك الصانع الجليل ستكون له علاقة سامية قوية، مع

هذا الإنسان المالك للنظر الكلي والمشاعر العامة، ولاشك سيكون له معه خطاب قدسي وتوجّه علوي. وحيث إن محمداً النبي الأمين صلى الله عليه وسلم قد أظهر تلك العلاقة السامية – من بين مَن تشرفوا بها منذ زمن سيدنا آدم عليه السلام – بأعظم صورة وأجلاها، بشهادة آثاره، أي بحاكميته على نصف المعمورة وخمس البشر، وتبديله الملامح المعنوية للكائنات وتنويره لها.. لذا فهو ألْيَقُ وأجدرُ مَن يتشرف بالمعراج الذي يمثل أعظم مرتبة من مراتب تلك العلاقة.

الأساس الثاني

ما حقيقة المعراج؟

– **الجواب**: إنها عبارة عن سير الذات الاحمدي وسلوكه صلى الله عليه وسلم في مراتب الكمالات.

وهذا يعني: إن آيات الربوبية وآثارها التي جلاّها سبحانه وتعالى في تنظيم المخلوقات، بأسماءٍ وعناوينَ مختلفة، وأظهر عظمة ربوبيته بالإيجاد والتدبير في سماء كل دائرة من الدوائر التي أبدعها، كل سماء مدارٌ عظيم لعرشِ الربوبية ومركزٌ جليل لتصرف الألوهية.. هذه الآيات الكبرى والآثار الجليلة أطْلعَها سبحانه وتعالى واحدةً واحدةً لذلك العبد المخصص المختار، فَعَلا به البُراقَ وقطع به المراتب كالبرق من دائرةٍ إلى دائرة، ومن منزل إلى منزل – كمنازل القمر – ليُريَه ربوبية ألوهيته في السماوات، ويقابله بإخوانه الأنبياء فرداً فرداً، كلاً في مقامه في تلك السماوات، حتى عَرج به إلى مقام ‘‘قاب قوسين’’، فشرّفَه – بالأحدية – بكلامه وبرؤيته؛ ليجعل ذلك العبد عبداً جامعاً لجميع الكمالات الإنسانية، نائلاً جميع التجليات الإلهية، شاهداً على جميع طبقات الكائنات، داعياً إلى سلطان الربوبية، مبلّغاً للمرضيات الإلهية، كشافاً لطلسم الكائنات.

هذه الحقيقة الرفيعة يمكن رؤيتها من خلال مثالين اثنين:

المثال الأول:

وقد أوضحناه في الكلمة الرابعة والعشرين وهو:

أن للسلطان عناوين مختلفة في دوائر حكومته، وأوصافاً متباينة ضمن طبقات رعاياه، وأسماءٍ وعلاماتٍ **متنوعة في مراتب سلطنته، فمثلاً:** له اسم الحاكم العادل في دوائر العدل، وعنوانُ السلطان في الدوائر المدنية، بينما له اسم القائد العام في الدوائر العسكرية وعنوان الخليفة في الدوائر الشرعية... وهكذا له سائر الأسماء والعناوين.. فله في كل دائرة من دوائر دولته مقام وكرسي بمثابة عرش معنوي له؛ وعليه يمكن أن يكون ذلك السلطان الفرد مالكاً لألف اسم واسم في دوائر تلك السلطنة وفي مراتب طبقات الحكومة؛ أي يمكن أن يكون له ألف عرش وعرش من العروش المتداخل بعضها في بعض حتى كأن ذلك الحاكم موجود وحاضر في كل دائرة من دوائر دولته.. ويعلم ما يجري فيها بشخصيته المعنوية، وهاتفه الخاص. ويُشاهَد ويَشْهَد في كل طبقة من الطبقات بقانونه ونظامه وبممثليه.. ويراقب ويدير من وراء الحجاب كلَّ مرتبة من المراتب بحكمته وبعلمه وبقوته.. فلكل دائرة مركزٌ يخصّها وموقعٌ خاص بها، أحكامُه مختلفة، طبقاتُه متغايرة.

فمثل هذا السلطان يُسَيّرُ مَنْ يريده ويختاره في جولةٍ واسعة يجوب فيها جميع دوائر تلك السلطنة مُشْهِداً إياه هيبةَ دولته وعظمة سلطانه في كل دائرة منها، مُطْلِعاً إياه على أوامره الحكيمة التي تخص كل دائرة، سائراً به من دائرةٍ إلى دائرة من طبقةٍ إلى طبقة، حتى يُبْلغه مقامَ حضوره، ومن بعد ذلك يُرسِله مبعوثاً إلى الناس، مُودِعاً إياه بعض أوامره الكلية العامة المتعلقة بجميع تلك الدوائر. وهكذا ننظر بمنظار **هذا المثال فنقول:**

إن رب العالمين وهو سلطان الأزل والأبد له ضمن مراتب ربوبيته شؤون وعناوين مختلفة، لكن يتناظر بعضها مع بعض.. وله ضمن دوائر ألوهيته علامات وأسماء متغايرة، لكن يُشاهد بعضها في بعضٍ.. وله ضمن إجراءاته العظيمة تجليات وجلوات متباينة، لكن يشابه بعضها بعضاً.. وله ضمن تصرفات قدرته عناوين متنوعة، لكن يُشعر بعضها ببعض.. وله

ضمن تجليات صفاته مظاهر مقدسة متفاوته، لكن يُظهر بعضُها بعضاً.. وله ضمن تجليـــات أفعاله تصرفات متباينة، لكن تكمّل الواحدة الأخرى.. وله ضمن صنعته ومصنوعاته ربوبيـــة مهيبة متغايرة، لكن تلحظ إحداها الأخرى.

فبناءً على هذا السر العظيم، فقد نظّم سبحانه الكون وفق ترتيب مُذهل يبعث علـــى الحيرة والإعجاب؛ إذ من الذرات التي تُعَدُّ اصغر طبقات المخلوقات إلى السماوات، ومن أولى طبقاتها إلى العرش الأعظم، سماواتٌ مبنيّةٌ بعضها فوق بعض، كلٌّ سماء هي في حكم ســـقفٍ لعالم آخر، وبمثابة عرشٍ للربوبية ومركز للتصّرفات الإلهية.

ومع أنه يمكن أن تتجلى جميع الأسماء بجميع العناوين في تلك الـــدوائر وفي الطبقـــات باعتبار الأحدية، إلاّ أنه مثلما يكون عنوان الحاكم العادل هو المستولي والأصـــل في دائـــرة العدلية، وسائر العناوين تابعة له ناظرة إلى أمره، كذلك (ولله المثل الأعلى) هناك اسمٌ إلهـــي وعنوان إلهي هو الحاكم المهيمن في كل طبقة من طبقات المخلوقات وفي كل سمـــاء منـــها، وتكون سائر العناوين ضمنه.

فمثلاً: في أيّ سماء قابل سيدُنا عيسى عليه السلام المتشرف باسم ''القدير''، ســـيدَنا الرسول صلى الله عليه وسلم، فالله سبحانه وتعالى متجلٍ في دائرة تلك السماء بالذات بعنوان ''القدير''.

ومثلاً: إن عنوان ''المتكلم'' الذي تشرف به سيدُنا موسى عليه السلام هو المهيمن على دائرة السماء التي هي مقام سيدنا موسى عليه السلام.

وهكذا فالرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، لأنهُ قد حظي بالإسم الأعظـــم، ولأن نبوته عامة شاملة، وقد نال جميع تجليات الأسماء الحسنى، فإن له علاقة إذن مع جميع دوائـــر الربوبية..فلابد أن حقيقة معراجه تقتضي مقابلته الأنبياء وهم ذوو مقام في تلـــك الـــدوائر، ومروره من جميع الطبقات.

المثال الثاني:

إن عنوان ‘‘القائد الأعظم’’ الذي هو من عناوين السلطان، له ظهورٌ وجلوةٌ في كـــل دائرة من الدوائر العسكرية ابتداءً من دائرة القائد العام ورئاسة الأركـــان – تلـــك الـــدائرة الواسعة الكلية – إلى دائرة العريف وهي الدائرة الجزئية الخاصة.

فمثلاً: إن الجندي الفرد يرى نموذج القيادة العظمى ومثالَها في شخص العريف، فيتوجّه إليه ويتلقى الأوامر منه. وحالما يكون عريفاً يجد عنوان تلك القيادة في دائرة رئيـــسه رئـــيس العرفاء فيـــتوجه إليها. ثـــم إذا اصبح رئيساً للعرفاء يرى نموذج القيادة العامة وجلوتهـــا في دائرة الملازم. فلها كرسي خاص في ذلك المقام.. وهكذا يُرى عنوان تلك القيادة العظمى في كل دائرة من دوائر النقيب والرائد والفريق والمشير حسب سعة الدائرة وضيقها.

والآن إذا أراد ذلك القائد الأعظم إناطة وظيفة تتعلق بجميع الدوائر العسكرية بجنـــدي فرد، وأراد ترقيته إلى مقام رفيع يشاهَد من قبل كل تلك الدوائر ويشهَدها جميعاً، كأنه الناظر والمشرف عليها، فإنه – أي القائد الأعظم – سيُسلك بلا شك ذلك الجندي الفرد ويســـيّره ضمن تلك الدوائر كلها ابتداءً من دائرة العريف وانتهاء إلى دائرته العظمى، دائرة فدائرة، كي يشهَدها ويشاهَد منها. ثم يقبله في مقام حضوره ويشرّفه بكلامه ويُكرمه بأوامره وأوسمتـــه ثم يرسله إلى حيث جاء منه في آنٍ واحد وفي اللحظة نفسها.

ينبغي أن نلفت النظر إلى نقطة في هذا المثال وهي: إن لم يكن السلطان عاجزاً، أي له مقدرة روحية معنوية كما له قوة ظاهرة، فانه لا يوكل أشخاصاً أمثـــال الفريـــق والمشـــير والملازم، وإنما يحضر بذاته في كل مكان، فيصدر الأوامر بنفسه مباشرة متستراً ببعض الأستار ومن وراء أشخاص ذوي مقام، كما يروى أن سلاطين كانوا أولياء كاملين ــ قـــد نفّـــذوا أوامرهم في دوائر كثيرة في صورة بعض الأشخاص.

أما الحقيقة التي ننظر إليها بمنظار هذا المثال فهي:

إن الأمر والحكم يأتي مباشرة من القائد العام إلى كل دائرة من الدوائر، وينفَّذ هنـــاك بأمره وإرادته وقوته؛ حيث لا عجز فيه.

وهكذا على غرار هذا المثال:

ففي كل طبقة من طبقات المخلوقات وطوائف الموجودات – من الذرات إلى السيارات ومن الحشرات إلى السماوات – التي تجري فيها وتنفَّذ بكمال الطاعة والامتثال أوامر سلطان الأزل والأبد وشؤون حاكم الأرض والسماوات، الآمر المطلق المالك لأمرِ ''كن فيكون''.. تُشاهَد – في كل منها – دائرة ربوبيةٍ جليلة وطبقة حاكمية مهيمنة، بطبقات متنوعة وطوائف متباينة، صغيرة وكبيرة، جزئية وكلية، متوجهة كل منها إلى الأخرى.

فلأجل فهم جميع المقاصد الإلهية العليا والنتائج العظمى المندرجة في الكون.. من خلال مشاهدة وظائف عبوديةٍ متنوعة لجميع الطبقات.. ولإدراك ما يرضي ذا العظمة والكبريـــاء، برؤية سلطان ربوبيته الجليلة وهيبة حاكميته العزيزة.. ولأجل أن يكون داعياً إلى الله سبحانه تعالى.. فلابد أن يكون هناك سيرٌ في تلك الطبقات، وسلوكٌ في تلك الدوائر، إلى أن يـــدخل في العرش الأعظم الذي هو عنوان دائرته العظمى سبحانه وتعالى، ويدخل في ''قاب قوسين'' أي يدخل في مقامٍ بين ''الإمكان والوجوب'' المشار إليه بـــ ''قاب قوسين''، ويقابل الذات الجليلة الجميلة.

فهذا السير والسلوك والمقابلة هو حقيقة المعراج.

وكما يحصل لكل إنسان سريانٌ بعقله في سرعة الخيال، ولكل ولي جَـــوَلان بقلبـــه في سرعة البرق، ولكل مَلَكٍ دَوَرانٌ بجسمه النوراني في سرعة الروح من العرش إلى الفرش ومـــن الفرش إلى العرش، ولأهل الجنة عروجٌ في سرعة البُراق من ميدان الحشر إلى الجنة وإلى ما يزيد على بُعد خمسمائة سنة.. فإن الجسم المحمدي صلى الله عليه وسلم الذي هو مخزن أجهزتـــه السامية ومدار وظائف لا تحد لروحه العالية سيرافق تلك الروح المحمدية التي هي نـــور، وفي قابلية النور، وألطف من قلوب الأولياء، وأرق من أرواح الأموات، وأشـــفّ مـــن أجســـام الملائكة، واكثر ظرافة من الجسد النجمي والبدن المثالي.. سيرافقها حتماً وسيعرج معهـــا إلى العرش الأعظم.

والآن لننظر إلى الملحد الذي هو في مقام الاستماع..

فيرد على البال: أن ذلك الملحد يقول في قلبه: أنا لا أؤمن بالله، ولا اعرف الرسول، فكيف اصدق بالمعراج؟

ونحن نقول له:

ما دامت هذه الكائنات موجودة فعلاً، وتُشاهد فيها افعالٌ وإيجاد.. وان الفعل المنتظم لا يكون بلا فاعل، والكتاب البليغ لا يكون بلا كاتب، والنقش البديع لا يكون بلا نقّاش.. فلابد من فاعل لهذه الأفعال الحكيمة المالئة للكائنات، ولابد من نقاش وكاتب لهذه النقــوش البديعة والرسائل البليغة التي تملأ وجه الأرض وتتجدد كل موسم وموسم.. وحيث إن وجود حاكمَين في أمرٍ ما يفسد نظام ذلك الشيء.. وان هناك انتظاماً كاملاً وتناسقاً تامــاً، مــن جناح الذباب إلى قناديل السماوات.. إذن فذلك الحاكم واحدٌ أحدٌ؛ لأن الصنعة والحكمة في كل شيء هما من الإبداع والإتقان بحيث يلزم أن يكون صانع ذلك الشيء قــديراً مطلقــاً، مقتدراً على كل شيء وعليماً بكل شيء، إذ لو لم يكن واحداً للزم وجــود آلهــة بعــدد الموجودات، ولغدا كل إله ضد الآخر ومثله! وعندئذٍ يكون بقاء هذا النظام دون فساد محالاً في ألف محال!

ثم إن طبقات هذه الموجودات لما كانت أكثر انتظاماً وطاعةً للأوامر بألف مــرة مــن جيش منظم كما هو مشاهَد بالبداهة؛ إذ إن كل انتظام من انتظام حركات النجوم والشمس والقمر إلى انتظام أزهار اللوز.. يبدي انتظاماً بديعاً وكاملاً فيما منحها القــديرُ الأزلي مــن شارات وأوسمة وألبسها من لباس قشيب، وعيّن لها من حركات وأعمال، يفوق مــا يبديــه الجيش من نظام وطاعة ألف ألف مرة.. لذا فلهذه الكائنات حكيم مطلق الحكمة محتجــبٌ وراء الغيب، تترقب موجوداتُها أوامَره لتمتثل بها.

وما دام ذلك الحكيم المطلق سلطاناً ذا جلال؛ بشهادة جميع إجراءاته الحكيمــة، وبمــا يظهره من آثار جليلة.. ورباً رحيماً واسع الرحمة؛ بما يُبديه من آلاء وإحسانات.. وصــانعاً بديعاً يحب صنعته كثيراً، بما عرضه من مصنوعات بديعة.. وخالقاً حكيماً يريد إثارة إعجاب ذوي الشعور وجلب استحسانهم بما نشره من تزيينات جميلة وصنائع رائعة.. ويُفهم مما أبدعه من جمال يأخذ بالألباب في خلق العالم أنه يريد **إعلام ذوي الشعور من مخلوقاته:** ما المقصود من هذه التزيينات؟ ومن أين تأتي المخلوقات والى أين المصير؟.. فلا ريب أن هــذا الحــاكم الحكيم والصانع العليم سيُظهر ربوبيته الجليلة. وحيث إنه يريد تعريف نفسه ويحببها إلى ذوي

الشعور؛ بما أظهره من آثار اللطف والرحمة، وبما بث من بدائع الصنعة.. فلا شك أنه سيخبر بوساطة مبلّغ أمين، ما يريده من ذوي الشعور، وبمَ يرضى عنهم؟ وعليه فيعلن حتماً ربوبيته بوساطة مَن يخصصه من ذوي الشعور.. ويشرّف داعياً منهم بقرب حضوره، جاعلاً منه واسطة إعلان عن مصنوعاته المحبوبة لديه.. وسيعيّن معلماً يظهر كمالاته بتعليم مقاصده العليا إلى سائر ذوي الشعور.. وسيعيّن مرشداً يدلّ على مغزى الموجودات كيلا يبقى ما أدرج في هذا الكون من طلسم دون كشف، وما أخفى في هذه الموجودات من شؤون الربوبية دون معنى.. وسيعيّن رائداً يُعَلِّمُ مقاصدهُ كيلا يبقى عبثاً دون نفع ما أظهره من محاسن الصنعة، أو نشره أمام الأنظار.. وسيرفع أحدَهم ويعرُجُ به إلى مقامٍ أعلى من جميع ذوي الشعور ويُعَلّمُهُ مرضياتِهِ ويُرْسِلُهُ إليهم.

فما دامت الحقيقة والحكمة تقتضيان هذا، فإن ألْيَقَ وأجدرَ مَن يوفي حق هذه الوظائف هو محمد صلى الله عليه وسلم فلقد أدّى تلك الوظائف فعلاً بأكمل صورة.. والشاهد العدل الصادق على ذلك هو ما أسس من عالم الإسلام وما أظهره من نور الإسلام المبين؛ لذا فلأجل ما سبق يلزم أن يعرج ويعلو بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم علواً مباشراً إلى مقام رفيع يسمو على جميع الكائنات ويتجاوز جميع الموجودات، كي يحظى بالمثول بين يدي رب العالمين. فالمعراج يفيد هذه الحقيقة.

حاصل الكلام: إن الحكيم المطلق قد زيّن هذه الكائنات العظيمة ونظّمها إظهاراً لأمثال هذه المقاصد العظمى والغايات الجليلة.. وان في هذه الموجودات نوعَ الإنسان الذي يستطيع أن يشاهد هذه الربوبية العامة بجميعِ دقائقها، وهذه الألوهية الجليلة بجميع حقائقها.. فلا ريب أن ذلك الحكيم المطلق سيتكلم مع الإنسان وسيُعْلِمُه مقاصدَه.

وحيث إن كل إنسان لا يستطيع أن يرقى إلى أعلى مقام كلي متجرداً من الجزئية والسفلية، فلا جرم أن بعضاً من أفراد خواص من بين أولئك الناس سيكلّف بتلك الوظيفة، ليكون ذا علاقة مع جهتين معاً، أي يكون إنساناً ليعلّم الناس، وفي الوقت نفسه يكون ذا روح في غاية السمو ليحظى بشرف الخطاب الإلهي مباشرة.

وبعد، فلأن أفضل مَن بلّغ مقاصد رب العالمين من بين البشر، وكشف طلسمها وحلّ لغز الخلق، وأكمل مَن دعا إلى عظمة محاسن الربوبية هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا ريب أن سيكون له من بين البشر سيرٌ وسلوك معنوي سام بحيث يكون له معراجاً في صورة سير وسياحة في العالم الجسماني، وسيقطع المراتب إلى ما وراء طبقات الموجودات وبرزخ الأسماء وتجلى الصفات والأفعال المعبر عنها بسبعين ألف حجاب.

فهذا هو المعراج.

ويرد على البال أيضاً:

إنك أيها المستمع تقول من أعماق قلبك: إن رباً هو أقرب إلينا من كل شيء، ماذا يعني المثول بين يديه بعد قطع مسافة ألوف السنين والمرور من سبعين ألف حجاب؟ كيف اعتقد بهذا؟

ونحن نقول:

إن الله سبحانه وتعالى أقرب إلى كل شيء من كل شيء، إلاّ أن كل شيء بعيدٌ عنه بُعداً مطلقاً.

فلو فرضنا أن للشمس شعوراً وكلاماً، فإنها تستطيع أن تتكلم معك بالمرآة التي في يدك، وتتصرف فيك ما تشاء. فبينما هي أقرب إليك من بؤبؤ عينك الشبيهة بالمرآة، فأنت بعيدٌ عنها بأربعة آلاف سنة تقريباً. ولا يمكنك التقرب إليها بحال من الأحوال. حتى لو ترقيت إلى مقام القمر، وعلوت إلى نقطة مقابلة لها مباشرة، فلا تكون سوى ما يشبه مرآة عاكسة لها.

وهكذا فإن الله جل جلاله وهو شمس الأزل والأبد (ولله المثل الأعلى) أقربُ إلى كل شيء من كل شيء، مع أن كلَّ شيء بعيدٌ عنه بعداً مطلقاً. إلاّ مَن يقطع جميع الموجودات، ويتخلص من الجزئية ويرتقى في مراتب الكلية متدرجاً مرتبة مرتبة ويمضي عبر آلاف الحجب ويتقرب إلى إسم محيط بالموجودات كلها، فيقطع مراتب كثيرة أمامه، ثم بعد ذلك يتشرف بنوع من القرب.

ومثال آخر: إن الجندي الفرد بعيد جداً عن الشخصية المعنوية للقائد الأعظم، فهو ينظر إلى قائده من مسافة في غاية البعد ومن خلال حُجب معنوية كثيرة، فيراه في نموذج مصغّر في مرتبة العريف.

أما القرب الحقيقي من الشخصية المعنوية للقائد الأعظم، فيلزمه المضي في مراتب كلية كثيرة كمراتب الملازم والنقيب والرائد وهكذا. بينما القائد الأعظم موجود عنده ويراه بأمره وقانونه ومراقبته وحكمته وعلمه، وهو موجود بذاته إزاءه إن كان قائداً في المعنى - والروح - كما هو في الصورة والظاهر.

ولما كانت هذه الحقيقة قد أثبتت إثباتاً قاطعاً في الكلمة السادسة عشرة نكتفي هنا بهذا القدر المختصر.

ويرد على البال أيضاً:

إنك تقول من كل قلبك: إنني أنكر وجود السماوات ولا اؤمن بالملائكة، فكيف أصدّق سيرَ إنسان وتجواله في السماوات ومقابلته الملائكة؟

نعم! لا شك أن إراءة شيء وإفهامَ أمرٍ إلى مَن كان مثلك وقد أسْدِلَت الغشاوة على بصره وانحدر عقلُه إلى عينه فلم يعُد يرى إلاّ المادة، شيء صعب وعسير. ولكن لشدة نصاعة الحق ووضوحه يراه حتى العميان. لذا نقول:

انه من المتفق عليه أن الفضاء العلوي مملوء ''بالأثير'' فالضوء والكهرباء والحرارة وأمثالها من السيالات اللطيفة دليل على وجود مادة مالئة للفضاء.

فكما تدل الثمرات على شجرتها، والأزهار على روضتها، والسنابل على مزرعتها، والأسماك على بحرها بالبداهة، فهذه النجوم أيضاً تقتحم عيون العقول دالة بالضرورة على وجود روضتها ومَنشَئها ومزرعتها وبحرها.

فما دام العالم العلوي مبنياً بأشكال متنوعة، كلٌ منها يبين أحكاماً مختلفة في أوضاع مختلفة، فإن منشأ تلك الأحكام - أي السماوات - مختلفة أيضاً بعضها عن بعض؛ إذ كما أن في الإنسان أنماطاً من وجود معنوي — عدا الجسم المادي - كالعقل والقلب والروح والخيال والحافظة وغيرها، ففي العالم أيضاً الذي هو على صورة إنسان أكبر، وفي الكائنات التي هي

شجرة ثمرة الإنسان، عوالم أخرى سوى العالم الجسماني، فضلاً عن أن لكل عالَمٍ من العوالم سماءه ابتداءً من عالم الأرض حتى عالم الجنة.

ونقول بمناسبة الملائكة:

إن الأرض وهي من السيارات المتوسطة الحجم وصغيرة وكثيفة بالنسبة للنجوم، إن كانت مليئة بما لا يعد ولا يحصى من أنماط الحياة والشعور – وهما اثمن شيء في الموجودات وأنورها – فكيف بالسماوات التي هي بحار واسعة تسبح فيها نجوم كأنها عمارات مزدانة وقصور شاهقة بالنسبة للأرض التي هي بيت مظلم صغير؟

إذن فالسماوات مساكن ذوي شعورٍ وذوي حياة، وبأجناس متنوعة وبأعداد لا تعد ولا تحصى، وهم الملائكة والروحانيات. وحيث إننا أثبتنا إثباتاً قاطعاً وجود السماوات وتعددها في تفسيرنا المسمى بـ "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" وذلك في تفسير قوله تعالى: [ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ] (البقرة:29) وكذا أثبتنا وجود الملائكة اثباتاً لا يدنو منه الشك في الكلمة التاسعة والعشرين، نوجز هنا البحث ونحيله إلى تلكما الرسالتين.

الحاصل: إن وجود السماوات التي قد سوّيت من الأثير وأصبحت مسَار الضوء والحرارة والجاذبية وأمثالها من السيارات اللطيفة، وظلت ملائمة لحركات النجوم والكواكب السيارة كما أشار إليها الحديث الشريف (السماء موجٌ مكفوف) [175] قد أخذت أوضاعاً مختلفة وأشكالاً متباينة، من درب التبانة (المسمى بمجرة السماء) إلى اقرب كوكب سيار إلينا، في سبع طبقات، كل منها بحكم سقف لعالم آخر، من عالم الأرض إلى عالم البرزخ إلى عالم المثال، والى عالم الآخرة.. هكذا تقتضي الحكمة ومنطق العقل.

ويرد على البال أيضاً:

175 جزء من حديث أخرجه الإمام احمد في مسنده (370/2) والترمذي برقم (3298) وفي تحفة الاحوذي برقم (3352) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وعزاه صاحب التحفة لاحمد وابن ابي حاتم والبزّار وفي مجمع الزوائد (8/ 132) جزء من حديث رواه الطبراني في الأوسط، وفيه ابو جعفر الرازي، وثقه ابو حاتم وغيره وضعّفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات، وانظر فيه كذلك (121/7) وتفسير ابن كثير -سورة الحديد. - المترجم.

أيها الملحد! أنت تقول: إننا لا نصعد بالطائرة إلى الأعالي إلاّ بشق الأنفس ونصل بصعوبة بالغة إلى مسافة بضع كيلومترات، فكيف يمكن لإنسان أن يقطع بجسمه مسافة ألوف السنين ثم يعود إلى حيث أتى في بضع دقائق؟!

ونحن نقول:

إن جسماً ثقيلاً كالأرض يقطع في الدقيقة الواحدة مسافة ثمان وثمانين ومائة ساعة تقريباً بحركته السنوية، حسب ما توصلتم إليه من علم. أي تقطع الأرض مسافة خمسٍ وعشرين ألف سنة في السنة الواحدة!

أليس قادراً يا ترى ذلك القدير ذو الجلال الذي يسيّر هذه الأرض بهذه الحركات المنتظمة الدقيقة على أن يأتي بإنسان إلى العرش؟ وألا تستطيع تلك الحكمة التي تُجري الأرض الثقيلة — كالمريد المولوي - بقانون رباني يُطلَق عليه اسم جاذبية الشمس، أن ترقى بجسم إنسان إلى عرش الرحمن كالبرق بجاذبة رحمة الرحمن وبانجذاب محبة نور السماوات والأرض؟

ويرد على البال أيضاً!

انك تقول: هب انه يستطيع أن يرقى ويعرج إلى السماء، ولكن لماذا عُرج بـه؟ وأي ضرورة للعروج؟ امَا كان يكفيه أن يعرج بقلبه وروحه كما يفعله الأولياء الصالحون؟

ونحن نقول:

ما دام الصانع الجليل قد أراد إظهار آياته الكبرى له صلى الله عليه وسلم في مُلكه وملكوته، وأراد اطلاعه على منابع ومصانع هذا العالم، وأراد إراءته النتائج الأخروية لأعمال البشر.. فلا شك في أن يصحب معه إلى العرش، بصَرَه الذي هو في حكم مفتاح لعالم المُبصرات، وسمعَه الذي يطّلع به على آيات عالم المسموعات. كما أن من مقتضى العقل والحكمة أن يصحب معه إلى العرش جسمَه المبارك أيضاً الذي هو في حكم ماكنة آلات وأجهزة تدور عليها وظائف روحه التي لا تحد؛ إذ كما تجعل الحكمة الإلهية الجسم رفيقاً للروح في الجنة، حيث الجسد مناط كثير من وظائف العبودية وما لا يحد من اللذائذ والآلام، فلابد أن ذلك الجسد المبارك سيرافق الروح. وحيث إن الجسم يدخل الجنة مع الروح، فانه

من محض الحكمة أيضاً جعل جسده المبارك رفيقاً للذات المحمدي صلى الله عليه وسلم الذي عرج به إلى سدرة المنتهى التي هي جسد جنة المأوى.

ويرد على البال أيضاً:

انك تقول: انه محال عقلاً قطع مسافة ألوف السنين، في بضع دقائق؟

ونحن نقول:

إن الحركات فيما صنعه الصانع الجليل في غاية الاختلاف والتباين. فمثلاً: إن مدى اختلاف سرعة الصوت والضوء والكهرباء والروح والخيال معلوم لدينا. فسرعة الكواكب السيارة أيضاً – كما هو معلوم علمياً – فيها من الاختلاف ما يحير العقول.

فكيف تبدو حركة جسمه اللطيف صلى الله عليه وسلم الذي اكتسب بالعروج سرعةً فتبع روحَه السامية،تلك الحركة السريعة سرعة الروح مخالفة للعقل؟

فأنت بنفسك إذا نمتَ عشر دقائق، تتعرض إلى حالات قد لا تتعرض لها في اليقظة في سنة. حتى إن ما يراه الإنسان في الرؤيا في دقيقة واحدة وما يسمع فيها من كلام وما ينطق به من أقوال إذا ما جُمعَ وضُم بعضُه إلى بعض فانه يلزمه مدة يوم أو اكثر في عالم اليقظة.

فالزمان الواحد إذن بالنسبة لشخصين، يمكن أن يكون في حكم يومٍ واحد لأحدهما وسنةٍ واحدة للآخر.

فانظر إلى هذا المعنى بمنظار هذا المثال:

لنفترض وجود ساعة لقياس سرعة حركات الإنسان والطلقة والصوت والضوء والكهرباء والروح والخيال. وفي هذه الساعة عقارب، عقرب يعدّ الساعات، وآخر يعدّ الدقائق في دائرة أوسع من الأولى ستين مرة، وعقرب آخر يعدّ الثواني في دائرة أوسع من هذه ستين مرة، وآخر يعدّ الثوالث في دائرة أوسع من هذه ستين مرة.. وهكذا عقارب الروابع والخوامس والسوادس والسوابع والثوامن والتواسع والعواشر. أي تكون للساعة عقارب عجيبة كل منها يدور في دائرة أوسع من التي قبلها بستين ضعفاً.

فلو كانت دائرة العقرب العادّ للساعات بقدر ساعتنا اليدوية الصغيرة، فيلزم أن تكون دائرة العقرب العادّ للعواشر بمقدار المدار السنوي للأرض أو اكبر منه.

والآن لنفترض أن هناك شخصين:

أحدهما: كأنه قد ركب عقرب الساعات فيراقب ويطّلع على ما حوله.

والآخر: كأنه قد ركب عقرب العواشر ويشاهد ما حوله.

فالفرق بين ما يشاهده الشخصان من أشياء في زمان واحد، هو نسبة الفرق بين ساعتنا اليدوية ومدار الأرض السنوي، أي أن الفرق هائل جداً، وهكذا فلأن الزمان عبارة عن لونٍ من ألوان الحركة وصبغتها أو شريط لها، فالحكم الجاري في الحركات جارٍ أيضاً في الزمان؛ إذ بينا نشاهد في ساعة واحدة بقدر ما يشاهده الراكب ذو الشعور على عقرب الساعات، وحقيقة عمره هي بالقدر نفسه، فإن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم في الزمان نفسه — كالراكب على عقرب العواشر – في تلك الساعة المعينة يركب براق التوفيق الإلهي ويقطع جميع دوائر الممكنات كالبرق ويرى آيات المُلك والملكوت ويرتقي إلى نقطة دائرة الوجوب، ويتشرف باللقاء والكلام، ويحظى برؤية الجمال الإلهي ويتلقى العهد والأمر الإلهي لأداء وظيفة ثم يعود. وقد عاد فعلاً.. وهو كذلك.

ويرد على البال أيضاً:

إنكم تقولون: نعم يجوز، ولربما يمكن أن يحدث! ولكن لا يقع فعلاً كل ما هو محتمل الوقوع وممكن، إذ كيف يصح أن يُحكَم على شيء ليس له مثيل، بمجرد احتمال وقوعه؟

ونحن نقول:

إن أمثال المعراج كثيرة لا تحصى. فكل ذي نظر مثلاً يرقى بنظره من الأرض إلى كوكب ''نبتون'' في ثانية واحدة.. وكل ذي علم يذهب بعقله راكباً قوانين الفلك إلى ما وراء النجوم والكواكب في دقيقة واحدة.. وكل ذي إيمان يُركب فكرَه على أفعال الصلاة وأركانها مودعاً الكائنات وراء ظهره فيذهب إلى الحضور الإلهي بما يشبه المعراج.. وكل ذي قلب وولي كامل يستطيع أن يمضي بالسير والسلوك من العرش ومن دائرة الأسماء والصفات في أربعين يوماً.. حتى إن الشيخ الكيلاني والإمام الرباني وأمثالهما من الأفذاذ قد حصل لهم عروج روحي إلى العرش في دقيقة واحدة، كما يخبرون بروايات صادقة.. وان الملائكة الذين

هم أجسام نورانية يحصل لهم ذهاب وإياب من العرش إلى الفرش ومن الفرش إلى العــرش في زمن قصير جداً.. وان أهل الجنة يعرجون من المحشر إلى روضات الجنات في زمان قصير.

فهذا القدر من الأمثلة الكثيرة يبين قطعا أن سلطان جميع الأولياء والمرسلين وإمام جميع المؤمنين وسيد جميع أهل الجنة ومقبول جميع الملائكة ذلكم الرسول الكريم صلى الله عليــه وسلم بلا شك يحصل له معراج يكون مدار سيره وسلوكه إلى الله بما يليق مقامه الرفيع. فهذه هي الحكمة بعينها، وفي غاية المعقولية، وهي واقعة فعلاً دون أدنى ريب.

الأساس الثالث

ما حكمة المعراج؟

الجواب: إن حكمة المعراج هي من الرفعة والسمو بحيث يعجز الفكر البشــري عــن إدراكها، وهي من العمق والغور بما يقصر عن تناولها، وهي من الدقة واللطف بما يدق عــن أن يراها العقل بمفرده.. ولكن على الرغم من عدم القدرة على إدراك حقائق هذه الحكمــة واستيعابها، فانه يمكن أن يُعرَف وجودُها ببعض الإشارات كما يأتي:

لأجل إظهار نور وحدته سبحانه وتعالى وتجلي أحديته في طبقات المخلوقات، اصطفى خالق الكائنات ورب العالمين فرداً متميزاً بمعراجٍ - هو كخيطِ اتصال نوراني بــين منتــهى طبقات كثرة الموجودات إلى مبدأ الوحدة - متخذاً إياه موضــع خطابــه، باســم جميــع المخلوقات.. معلماً إياه - وبه - مقاصده الإلهية باسم ذوي الشعور.. ليشهد بنظره جمــال صنعته وكمال ربوبيته في مرآة مخلوقاته، ويُشهِد الآخرين آثار الجمال والكمال.

إذ ما دام رب العالمين له جمال مطلق وكمال مطلق - بشهادة آثاره ومصنوعاته - وان الجمال والكمال محبوبان لذاتيهما، فمالك ذلك الجمال والكمال إذن له محبة بلا نهاية لجماله وكماله، وتلك المحبة تظهر بوجوهٍ عدة وأنماط كثيرة في المصنوعات؛ فيولي سبحانه مصنوعاته حبَّه لما يرى فيها من أثر جماله وكماله..

ولما كان أحب المصنوعات وأسماها لديه ذوو الحياة.. وأحب ذوي الحياة واسماهم ذوو الشعور.. واحب ذوي الشعور – باعتبار جامعية الإستعدادت – هو ضمن الإنسان.. فأحب إنسان إذن هو ذلك الفرد الذي انكشفت استعداداته انكشافاً تاماً فأظهر اظهاراً كاملاً نماذج كمالاته سبحانه المنتشرة في المصنوعات والمتجلية فيها.

وهكذا، فصانع الموجودات لأجل مشاهدة جميع أنواع تجلي المحبة المبثوثة في جميع الموجودات في نقطةٍ، في مرآة.. ولأجل إظهار جميع أنواع جماله – بسرّ الأحدية – اصطفى مَن هو ثمرة منوّرة من شجرة الخلق، ومَن قلبُه في حكم نواة قادرة على استيعاب حقائق تلك الشجرة الأساسية.. اصطفاه بمعراج – هو كخيط اتصال نوراني بين النواة والثمرة، أي من المبدأ الأول إلى المنتهى – مُظهراً محبوبية ذلك الفرد الفذ أمام الكائنات؛ فرقاه إلى حضوره، وشرّفه برؤية جماله، وأكرمه بأمره، وأناط به وظيفةً جعل ما عنده من حكمةٍ قدسية تسري إلى الآخرين.

سنرصد هذه الحكمة الإلهية من خلال مثالين إثنين:

الأول: وهو ما بيناه مفصلاً في الكلمة الحادية عشرة وكما يأتي:

إذا ما وُجدت لسلطان عظيم خزائن كثيرة جداً ملأى بأنواع لا تعد ولا تحصى من الجواهر النفيسة والألماسات الفريدة، وكانت له مهارة فائقة في بدائع الصنعة، وله معرفة واسعة بفنون عجيبة لا تحصر، وإحاطة تامة بها، مع اطلاع شامل على علوم بديعة لا حد لها، وعلم كامل بها.. فلاشك أن ذلك السلطان ذا البدائع والفنون سيريد فتح معرض عام، يعرض فيه معروضاته القيمة – حيث إن كل ذي جمال وكمال يريد مشاهدة وإشهاد جماله وكماله – وذلك ليصرف أنظار الأهلين إلى رؤية عظمة سلطنته ويُشهِدهم شعشعة ثروته وخوارق صنعته وعجائب معرفته، وذلك ليشاهد جمالَه وكمالَه المعنويين على وجهين:

وجه: بنظره الثاقب الدقيق.

وآخر: بنظر الآخرين.

وبناء على هذه الحكمة؛ سيشرع هذا السلطان العظيم حتماً بتشييد قصر عظيم واسع مهيب، ويقسّمه تقسيماً بارعاً إلى دوائر وطوابق ومنازل فخمة، موشحاً كل قسم بجـــواهر ومرصعات خزائنه المتنوعة، مجمّلاً إياه بأجمل ما أبدعته يدُ صنعته وألطفها، منظماً إياه بـــأدق دقائق فنونه وحكمته. وبعد ذلك سيبسط موائد واسعة عامرة، بما يليق بكل طائفة، معدّاً بها ضيافة عامة سخية تزخر بأنواع نعمه وأنماط أطعمته اللذيذة.

ثم يدعو رعاياه إلى هذه الضيافة الكريمة، ومشاهدة كمالاته البديعة، ويجعل أحـــدهم رسولاً بينه وبينهم، فيدعوه إليه مروراً من أدنى الطبقات إلى أعلاها، ويسيّره دائرة فـــدائرة، وطبقة فوق طبقه.. مُشهداً إياه معامل تلك الصنعة البديعة، ومخازن ما يَرِدُ من الطبقات الدنيا من محاصيل، حتى يبلغه دائرته الخاصة، فيشرّفه بقبوله إلى حضرته، مظهراً له ذاته المباركة، التي هي أصل جميع كمالاته.. فيعلّمه كمالاته الذاتية ويرشده إلى حقائق القصر. ويسنّمه وظيفـــة مرشد رائد للمتفرجين ويرسله إليهم ليعرّف الأهلين صانعَ القصر؛ بما في القصر من أركـــان نقـــوشه وعجائب صنعته، ويعلّم ما فـــي النقوش من رموز، وما في الصنائع من إشارات.. ويعرّف الداخلين إلى القصر؛ ما هذه المرصعات المنظومة والنقوش الموزونة؟ وكيف أنها تـــدل على كمالات مالك القصر وإبداعه؟ ويرشدهم إلى آداب السير والتفرج ويلقنـــهم مراســـيم التشريفات للمثول أمام السلطان العظيم الذي لا يُرى.. كل ذلك وفق ما يرضيه ويطلبه.

وهكذا (ولله المثل الأعلى) فقد أراد الصانع الجليل، سلطان الأزل والأبد، رؤية وإراءة جماله المطلق، وكماله المطلق، فبنى قصر العالم هذا في أبدع ما يكون، بحيث إن كل موجـــود فيه يذكر كمالاته بألسنة كثيرة، ويدل على جماله بإشارات عديدة، حتى ان الكائنات تُظهِر بكل موجود فيها؛ كم من كنـــــوز معنـــوية مخفية ضمن كل اسم من أسماء الله الحســـنى، وكم من لطائف مستترة ضمن كل عنوان مقدس!. بل إن دلالتها هذه هي مـــن الوضـــوح والجلاء ما جعل جميع الفنون والعلوم بجميع دساتيرها قاصرة عن بلوغ ما في كتاب الكون من بدائع الأدلة منذ زمن آدم عليه السلام، علماً أن ذلك الكتاب لم يُفصِح بعدُ عن عُشرِ معشار ما يعبَّر عنه من معاني الأسماء والكمالات الإلهية.

وهكذا فالصانع ذو الجلال والجمال والكمال الذي شيّد هذا القصر البديع معرضاً لرؤية جماله وكماله المعنوي وإراءته، تقتضي حكمتُه، أن يعلّم أحد ذوي الشعور في الأرض معاني آيات ذلك القصر، لئلا تبقى معانيه عبثاً لا نفع لهم منها.. وان يرقيه إلى العوالم العلوية التي هي منابع ما في ذلك القصر من أعاجيب، ومخازن ما فيه من محاصيل.. وان يرفعه إلى درجة عالية هي فوق جميع مخلوقاته ويشرّفه بقرب حضوره، ويسيّره في عوالم الآخرة، مكلفاً إياه بوظائف ومهمات، ليكون معلماً لعموم عباده.. داعياً إياهم إلى سلطان ربوبيته.. مُبلّغاً إياهم بوظائف مرضيات ألوهيته.. مفسراً لهم آياته التكوينية في القصر.. وأمثالها من الوظائف الأخرى التي يبين بها سبحانه للعالمين أجمع فضلَ هذا المختار وعظمة منزلته بما قلّده من أوسمة المعجزات، ويُعَلِّمهم - بالقرآن الكريم - أنه المبلّغ الصادق والترجمان الأمين.

وهكذا، فقد بينّا بضع حكَمٍ للمعراج من بين حِكَمه الكثيرة، وذلك في ضوء هذا المثال وعليك أن تقيس بقية الحِكَم على منواله.

المثال الثاني:

إذا ما ألّف شخص عليم كتاباً معجزاً ؛ كل صحيفة منه تزخر بحقائق ما في مائة كتاب، كل سطر منه يحوي على معاني لطيفة لما في مائة صحيفة، كل كلمة منه تنطوي على حقائق ما في مائة سطر، كل حرف منه يُعبّر عن معاني ما في مائة كلمة.. وكانت جميع معاني ذلك الكتاب وجميع حقائقه تشير إلى الكمالات المعنوية لذلك الكاتب البديع المعجز وتتوجه نحوها..

فإذا كان الأمر هكذا، فلا ريب أن ذلك الكاتب المعجز لا يترك كتابه المعجَز هذا دون فائدة، ولا يغلق أبواب هذه الخزينة التي لا تنفَدْ، بل محال أن يدعها معطلة لا طائل وراءها.. لذا سيعلّم أفراداً معينين معاني ذلك الكتاب لئلا يبقى ذلك الكتاب القيم مهملاً دون معنى.. ولتظهر كمالاتهُ المخفية. وتجد طريقها إلى الكمال، ويُشاهد جمالَه المعنوي ليُحَبَّ ويُحَبّبَ صاحبه، أي أنه سيعلّم أحداً مفردات ذلك الكتاب، بجميع معانيه وحقائقه، ملقناً إياه درساً درساً من أول صحيفة فيه إلى آخر صحيفة، حتى يمنحه الشهادة عليه.

وهكذا فالمصور الجميل سبحانه وتعالى الذي كتب هذه الكائنات إظهاراً لكمالاتــه، وإبرازاً لجماله وحقائق أسمائه المقدسة.كتبها كتابةً بديعة، لا أبدع منــها؛ إذ تــدل جميــع الموجودات — بما لا يحد من الجهات – على أسمائه الحسنى وعلى صفاته الجليلة وعلى كمالاته المطلقة وتعبّر عنها.

ومن المعلوم إن كتاباً – مهما كان – إن لم يُعْرَف معناه، فســيذهب هبــاءً منثــوراً، وستسقط قيمتُه إلى العدم، فكيف بكتاب كهذا الذي يتضمن كل حرف فيه ألوف المعــاني؟ فلا يمكن أن تسقط قيمته قطعاً ولا يمكن أن يذهب هباءً قط! بل كاتب ذلك الكتاب المعجز سيعلّمه حتماً، ويفهّم قسماً منه – حسب استعدادات كل طائفة — مَن هو أعم نظراً وأشمل شعوراً وأكمل استعداداً. ولأجل تدريس مثل هذا الكتاب وتعليمه تعليماً كلياً وشاملاً جميع حقائقه، تقتضي الحكمة سيراً وسلوكاً في غاية السمو والرفعة، أي يلزم مشاهدةً وسيراً ابتداءً من نهاية طبقات الموجودات الكثيرة – التي هي أولى صفحات هذا الكتــاب – وانتــهاء إلى دائرة الأحدية التي هي منتهى صفحاته. وهكذا يمكنك مشاهدة شيء من الحكــم الســامية للمعراج في ضوء هذا المثال.

والآن نلتفت إلى الملحد القابع في مقام الاستماع، وننصت إلى ما يجــول في قلبــه لنشاهد أي طور من الأطوار قد تلبّس..

فالذي يرد إلى الخاطر أن قلبه يقول:

لقد بدأت أخطو خطوات في طريق الإيمان، ولكن هناك ثلاثة إشكالات ومعضلات لا أستطيع حلّها واستيعابها!

الأول: لِمَ اختُصَّ بهذا المعراج العظيم محمدٌ صلى الله عليه وسلم.

الثاني: كيف يكون ذلك النبي الكريم صلى الله عليه وسلم نواة هذه الكائنات؟ حيث تقولون: أن الكائنات قد خلقت من نوره. وفي الوقت نفسه هو آخر ثمرة من ثمرات الكائنات وأنورها!. ماذا يفيد هذا الكلام؟

الثالث: تقولون فيما بينتموه سابقاً: أن العروج إلى العالم العلوي إنما كان لأجل مشاهدة المعامل والمصانع الأساس لما في العالم من آثار، ولرؤية مخازن ومستودعات نتائج الآثار.. ماذا يعني هذا الكلام؟

الإشكال الأول:

الجواب: إن إشكالكم الأول هذا، قد حُلَّ مفصلاً في الكلمات الثلاث والثلاثين ضمن كتاب الكلمات، إلا أننا نشير هنا مجرد إشارة مجملة على صورة فهرس موجز إلى كمالات النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ودلائل نبوته، وأنه هو الأحرى بهذا المعراج العظيم.

اولاً: إن الكتب المقدسة، التوراة والإنجيل والزبور تضم بشارات بنبوة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وإشارات اليه، رغم تعرضها إلى التحريفات طوال العصور، وقد استنبط في عصرنا هذا العالم المحقق حسين الجسر عشراً ومائة بشارة منها، وأثبتها في كتابه الموسوم ''الرسالة الحميدية''.

ثانياً: إنه ثابت تاريخياً – ورويت بروايات صحيحة – بشارات كثيرة بشّر بها الكهان من أمثال الكاهنين المشهورين: شِق وسطيح، قبيل بعثته صلى الله عليه وسلم وأخبرا أنه نبي آخر الزمان.

ثالثاً: ما حدث ليلة مولده صلى الله عليه وسلم من سقوط الأصنام في الكعبة وانشقاق إيوان كسرى وأمثالها من مئات الإرهاصات والخوارق المشهورة في كتب التأريخ.

رابعاً: نبعان الماء من بين أصابعه الشريفة وسقيه الجيش به، وأنين الجذع في المسجد وانشقاق القمر كما نصت عليه الآية الكريمة [وَانْشَقَّ الْقَمَرُ] وأمثالها من المعجزات الثابتة لدى العلماء المحققين والتي تبلغ الألف قد أثبتتها كتب السير والتأريخ.

خامساً: لقد اتفق الأعداء والأولياء بما لا ريب فيه أن ما يتحلى به صلى الله عليه وسلم من الأخلاق الفاضلة هو في أسمى الدرجات، وأن ما يتصف به من سجايا حميدة في دعوته هو في أعلى المراتب، تشهد بذلك معاملاته وسلوكه مع الناس. وأن شريعته الغراء تضم أكمل الخصال الحسنة، تشهد بذلك محاسن الأخلاق في دينه القويم.

سادساً: لقد أشرنا في الإشارة الثانية من الكلمة العاشرة إلى أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو الذي أظهر أعلى مراتب العبودية واسماها بالعبودية العظيمة في دينه تلبية لإرادة الله في ظهور ألوهيته بمقتضى الحكمة.

وأنه هو كذلك - كما هو بديهي - أكرم دالّ على جمالٍ في كمال مطلق لخالق العالم وأفضل معرّف لبّى إرادة الله سبحانه في إظهار ذلك الجمال بوساطة مبعوث كما تقتضيه الحكمة والحقيقة.

وأنه هو كذلك - كما هو مشاهد - اعظم دالّ على كمال صنعةٍ في جمال مطلق لصانع العالم، وبأعظم دعوة وأندى صوت، فلبّى إرادة الله جل وعلا في جلب الأنظار إلى كمال صنعته والإعلان عنها.

وأنه هو كذلك - بالضرورة - أكمل مَن أعلن عن جميع مراتب التوحيد، فلبّى إرادة رب العالمين في إعلان الوحدانية على طبقات كثرة المخلوقات.

وأنه هو كذلك - بالضرورة - أجلى مرآة وأصفاها لعكس محاسن جمال مالك العالم ولطائف حُسنه المنزّه - كما تشير إليه آثاره البديعة - وهو أفضل مَن أحبَّه وحببَّه، فلبّى إرادته سبحانه في رؤية ذلك الجمال المقدس وإراءته بمقتضى الحقيقة والحكمة.

وأنه هو كذلك - بالبداهة - أعظم مَن عرَّف ما في خزائن الغيب لصانع هذا العالم - تلك الخزائن الملأى بأبدع المعجزات وأثمن الجواهر - وهو أفضل مَن أعلن عنها ووصفها، فلبّى إرادته سبحانه في إظهار تلك الكنوز المخفية.

وأنه هو كذلك - بالبداهة - أكمل مرشد بالقرآن الكريم للجن والإنس بل للروحانيين والملائكة، واعظم مَن بيّن معاني آثار صانع هذه الكائنات التي زيّنها بأروع زينة ومكّن فيها أرباب الشعور من مخلوقاته لينعموا بالنظر والتفكر والاعتبار، فلّبى إرادته سبحانه في بيان معاني تلك الآثار وتقدير قيمتها لأهل الفكر والمشاهدة.

وأنه هو كذلك - بالبداهة - أحسن من كشف بحقائق القرآن عن مغزى القصد من تحولات الكائنات والغاية منها، وأكمل مَن حلّ اللغز المحير في الموجودات. وهو أسئلة ثلاثة

معضلة: مَن انت؟ ومن أين؟ والى اين؟ فلبّى إرادته سبحانه في كشف ذلك الطلسم المغلــق لذوي الشعور بوساطة مبعوث.

وأنه هو كذلك – بالبداهة – أكمل مَن بيّن المقاصد الإلهية بالقرآن الكريم وأحسن مَن وضح السبيل إلى مرضاة رب العالمين، فلبّى إرادته سبحانه في تعريف ما يريـــده مـــن ذوي الشعور وما يرضاه لهم بوساطة مبعوث، بعدما عرّف نفسه لهم بجميع مصـــنوعاته البديعــة وحببها إليهم بما أسبغ عليهم من نعَمه الغالية.

وأنه هو كذلك – بالبداهة – اعظم من استوفى مهمة الرسالة بالقرآن الكريم وأدّاهـــا أفضل أداء في أسمى مرتبة وابلغ صورة وأحسن طراز، فلبّى إرادة رب العالمين في صرف وجه هذا الإنسان من الكثرة إلى الوحدة ومن الفاني إلى الباقي، ذلك الإنسان الذي خلقه سبحانه ثمرةً للعالم ووهب له من الاستعدادات ما يسع العالم كله وهيأه للعبودية الكلية وابتلاه بمشاعر متوجهة إلى الكثرة والدنيا.

وحيث إن أشرف الموجودات هم ذوو الحياة، وأنبل الأحياء هم ذوو الشعور، وأكـــرم ذوي الشعور هم بنو آدم الحقيقيون الكاملون، لذا فالذي أدّى من بين بني الإنسان المكـــرم تلك الوظائف المذكورة آنفاً وأعطى حقها من الأداء في أفضل صورة واعظم مرتبة من مراتب الأداء، لا ريب أنه سيعرج – بالمعراج العظيم – فيكون قاب قوسين أو أدنى، وسيطرق باب السعادة الأبدية وسيفتح خزائن الرحمة الواسعة، وسيرى حقائق الإيمان الغيبية رؤية شـــهود، ومن ذا يكون غير ذلكم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم؟

سابعاً: يجد المتأمل في هذه المصنوعات المبثوثة في الكون أن فيها فعل التحسين في منتهى الجمال وفعل التزيين في منتهى الروعة، فبديهي أن مثل هذا التحسين والتزيين يـــدلان علـــى وجود إرادة التحسين وقصد التزيين لدى صانع تلك المصنوعات فتلك الإرادة الشديدة تدل بالضرورة على وجود رغبة قوية سامية ومحبة مقدسة لدى ذلك الصانع نحو صنعته..

لذا فمن البديهي أن يكون أحب مخلوق لدى الخالق الكريم الذي يحب مصنوعاته هـــو مَن يتصف بأجمع تلك الصفات، ومَن يُظهر في ذاته لطائف الصنعة إظهاراً كـــاملاً، ومـــن

يعرفها ويعرِّفها، ومَن يحبّب نفسه ويستحسن - بإعجاب وتقـــدير - جمـــال المصـــنوعات الأخرى.

فمَن الذي جعل السماوات والأرض ترن بصدى ''سبحان الله... ما شـــاء الله... الله اكبر'' من أذكار الإعجاب والتسبيح والتكبير تجاه ما يرصّع المصنوعات من مزايـــا تزينّهـــا ومحاسن تجمّلها ولطائف وكمالات تنورها؟ ومن الذي هزّ الكائنات بنغمات القرآن الكـــريم فانجذب البر والبحر إليها في شوق عارم من الاستحسان والتقدير في تفكر وإعلان وتشـــهير، في ذكر وتهليل؟ من ذا يكون تلك الذات المباركة غير محمد الأمين صلى الله عليه وسلم؟.

فمثل هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الذي يضاف إلى كفة حسناته في الميـــزان مثل ما قامت به أمتُه من حسنات بسر ''السبب كالفاعل''... والذي تضاف إلى كمالاتـــه المعنوية الصلوات التي تؤديها الأمة جميعاً.. والذي يُفاض عليه من الرحمة الإلهية ومحبتها ما لا يحدهما حدود فضلاً عما يناله من ثمرات ما أداه من مهمة رسالته من ثواب معنوي عظـــيم.. نعم، فمثل هذا النبي العظيم صلى الله عليه وسلم لا ريب أن ذهابه إلى الجنة، وإلى ســـدرة المنتهى، والى العرش الأعظم، فيكون قاب قوسين أو أدنى، إنما هو عين الحق، وذات الحقيقـــة ومحض الحكمة.

الإشكال الثاني:

أيها القاعد في مقام الاستماع! إن هذه الحقيقة التي استشكلتها هي عميقـــة الغـــور في ذاتها، وهي عالية سامية إلى حدّ لا يبلغها العقل، بل لا يقترب منها، ومع هذا فإنها تُرى بنور الإيمان.

ونحن هنا سنحاول أن نقرّب إلى الأفهام شيئاً من تلك الحقيقة العالية ببعض الأمثلة، التي تساعد على ذلك، وهي على النحو الآتي: إذا ما نظر إلى هذه الكائنات نظر الحكمة، بـــدت كأنها شجرة عظيمة وفي معناها، فكما أن الشجرة لها أغصان وأوراق وأزاهير وثمرات، ففـــي العالم السفلي - الذي هو شقّ من شجرة الخلقة - تشاهد أيضاً أن العناصر بمثابة اغصـــانه، والنباتات والأشجار في حكم أوراقه، والحيوانات كأنها أزاهيره، والأناسي كـــأنهم ثمراتـــه. فالقانون الإلهي الجاري على الأشجار يلزم أن يكون جارياً أيضاً على هذه الشجرة العظمى،

وذلك بمقتضى اسم الله ''الحكيم''؛ لذا فمن مقتضى الحكمة أن تكون شجرة الخلقة هـذه ناشئة أيضاً من نواة، وان تكون النواة جامعةً علـى نمـاذج وأسس سائر العوالم فضلاً عن احتوائه على العالم الجسماني؛ لأن النواة الأصلية للكائنات المتضمنة لألوف العوالم ومنشأها لا يمكن أن تكون مادة جامدة قط. وحيث إنه ليست هناك شجرة من غير نوع شجرة الكائنات قد سبقتها، فإن المعنى والنور الذي هو في حكم المنشأ والنواة لها قد تجسّد بثمرة في شـجرة الكائنات وألبس ملابس الثمرة، وذلك لأن النواة لا تكون مجرّدة عارية دائماً، إذ ما دامت لم تلبس لباس الثمرة في أول الفطرة، فستلبسها في الأخير.

وما دام الإنسان هو تلك الثمرة، وأن أفضل ثمرات نوع البشـر وأنورهـا وأحسـنها وأعظمها وأشرفها وألطفها وأجملها وأنفعها هو محمد صلى الله عليه وسلم - كما أثبت سابقاً - الذي جلب نظر عموم المخلوقات بفضائله، وحصر نظر نصف الأرض وخمس البشرية في ذاته المباركة واستقطب أنظار العالمين إلى محاسنه المعنوية بالمحبة والتبجيل والإعجاب.. فلابـد أن النور الذي هو نواة تَشَكّلِ الكائنات سيتجسد في ذاته صلى الله عليه وسـلم وسـيظهر بصورة ثمرة الختام.

أيها المستمع! لا تستبعد خلق هذه الكائنات البديعة العظيمة من ماهيةٍ جزئيةٍ لإنسان. فإن القدير ذا الجلال الذي يخلق شجرة صنوبر ضخمة - وكأنها عالم بذاته - من نواة صغيرة لها، كيف لا يخلق، أو يعجز عن خلق الكائنات من نور محمد صلى الله عليه وسلم؟

نعم، إن شجرة الكائنات شبيهة بشجرة طوبى الجنة؛ جذعها وجذورها متوغلة في العالم العلوي، وأغصانها وثمراتها متدلية إلى العالم السفلي؛ لذا فان هناك خيطاً ذا علاقة نورانية ابتداءً من مقام الثمرة في الأسفل إلى مقام النواة الأصلية.

فالمعراج النبوي صورة وغلاف لخيط العلاقة النورانية ذاك، حيث فتح الرسول الكـريم صلى الله عليه وسلم ذلك الطريق ودرج فيه بولايته، وعاد برسالته، وترك الباب مفتوحـاً، ليسلكه أولياء أمته الذين يتبعونه سلوكاً بالروح والقلب فيدرجوا في تلك الجادة النورانية تحت ظلال المعراج النبوي، ويعرجوا فيها إلى مقامات عالية كل حسب استعداداته وقابلياته.

ولقد أثبتنا سابقاً؛ أن الصانع الجليل قد أنشأ هذه الكائنات وزيّنها وكأنها قصر بـــديع لأجل مقاصد وغايات جليلة.. فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي هو محـــور تلـــك المقاصد ومدارها لابد أن يكون موضع عنايته سبحانه قبل خلق الكائنات، وان يكون أول مَن حظي بتجليه جلّ جلاله.

إذن فهو الأول معنىً، والآخر وجوداً.

وحيث إن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أكمل ثمرات الخلق، ومدار قيمة جميـــع الثمرات، ومحور ظهور جميع المقاصد، يلزم أن يكون نوره أول من نال تجلي الإيجاد.

الإشكال الثالث:

هذه الحقيقة لها من السعة ما لا تستطيع أذهاننا البشرية الضيقة الإحاطة بها واستيعابها. ولكن نستطيع النظر إليها من بعيد.

نعم، إن المعامل المعنوية للعالم السفلي، وقوانينه الكلية، هي في العوالم العلوية. وان نتائج أعمال ما لا يحد من المخلوقات التي تعمّر الأرض - وهي بذاتها محشر المصنوعات - وكـــذا ثمرات الأفعال التي يقوم بها الجن والإنس.. كلها تتمثل في العوالم العلوية أيضـــاً. حـــتى إن إشارات القرآن الكريم، ومقتضى اسم الله "الحكيم" والحكمة المندرجة في الكائنـــات مـــع شهادات الروايات الكثيرة وأمارات لا حد لها.. تدلّ على أن الحسنات تتمثل بصورة ثمرات الجنة والسيئات تتشكل بصورة زقوم جهنم.

نعم إن الموجودات الكثيرة قد انتشرت على وجه الأرض انتشاراً عظيماً.. وأنماط الخلقة قد تشعبت عليه إلى درجة كبيرة.. بحيث إن أجناس المخلوقات وأصناف المصـــنوعات الـــتي تتبدل وتملأ وتخلى منها الأرض تفوق كثيراً المصنوعات المنتشرة في الكون كله.

وهكذا فمنابع هذه الكثرة والجزئيات ومعادنها الأساس لابد أنها قوانين كلية، وتجليات كلية للأسماء الحسنى، بحيث ان مظاهر تلك القوانين الكلية وتلك التجليات الكليـــة وتلـــك الأسماء المحيطة، هي السماوات، التي هي بسيطة - غير مركبة - وصافية إلى حدٍ ما والتي كل واحدة منها في حكم عرشٍ لعالمٍ، وسقف له، ومركز تصرف. حتى إن إحدى تلك العـــوالم هي جنة المأوى التي هي عند سدرة المنتهى.

ولقد أخبر المخبر الصادق صلى الله عليه وسلم بما معناه: ان التسبيحات والتحميـــدات التي تُذكر في الأرض تتجسد بصورة ثمرات الجنة.

فهذه النقاط الثلاث تبين لنا:

أن مخازن ما في الأرض من النتائج والثمرات الحاصلة إنما هي هنـــاك، وان محاصـــيلها متوجهة ومُساقة إلى هناك.

فلا تقل أيها المستمع: كيف تصبح: ''الحمد لله'' التي أتلفظها في الهواء ثمرة مجسمة في الجنة؟ لأنك عندما تلفظ كلمة طيبة وأنت يقظ في النهار قد تتراءى لك في الرؤيا بصـــورة تفاح لذيذ فتأكله. وكذلك كلامك القبيح نهاراً قد تبلعه في الرؤيا شيئاً مُرّاً علقمـــاً. فـــإن اغتبت أحداً فإذا بك تُجبر على أكل ميت!.

إذن فكلماتك الطيبة او الخبيثة التي تتلفظها في عالم الدنيا الذي هو عالم منام، تأكلـــها ثمراتٍ في عالم الآخرة الذي هو عالم اليقظة، وهكذا لا ينبغي تستبعد أكلك هذا!

الأساس الرابع

ما ثمرات المعراج وفوائده؟

الجواب: إن لهذا المعراج العظيم الذي هو شجرة طوبى معنوية فوائد جليلة جمة، وثمرات يانعة يتدلى منها ما يزيد على خمسمائة ثمرة وفائدة، إلا أننا سنذكر هنا خمساً منها فقط على سبيل المثال:

الثمرة الأولى

هي رؤية حقائق الأركان الإيمانية، رؤية عين وبصر، أي: رؤية الملائكة والجنة والآخرة، بل حتى رؤية الذات الجليلة، فهذه الرؤية والمشاهدة الحقة وهَبَت للكائنات اجمع وللبشـــرية خاصة خزينة عظيمة لا تنفد، ونوراً أزلياً لا يخبو، وهدية أبدية ثمينة لا تقدّر بثمن؛ إذ أخرج ذلك النور الكائنات قاطبة مما يُتوهم أنها تتردى في أوضاع فانية زائلـــة مضـــطربة أليمـــة. وأظهرها على حقيقتها؛ أنها كتابات صمدانية، ورسائل ربانية قدسية، ومرايا جميلة تعكـــس جمال الأحدية. مما أدخل السرور والفرح في قلوب جميع ذوي الشعور بل أبهـــج الكائنـــات كلها.

ومثلما اخرج ذلك النورُ الكائنات من أوضاع أليمة موهومة أخرج الإنسان العاجز أمام أعداء لا حدّ لهم، الفقير إلى حاجات لا نهاية لها من أوضاع فانية ضالة يتخبط فيها. فكشف عن صورته الحقيقية بأنه معجزةٌ من معجزات قدرة الله سبحانه، ومخلوقه الذي هو في أحسن تقويم، ونسخةٌ جامعة من رسائله الصمدانية، ومخاطَبٌ مُدرك لسلطان الأزل والأبد وعبـــدُه الخاص، ومستحسنُ كمالاته وخليلُه المحبوب، والمعجَبُ بجماله المقدس وحبيبـــهُ، والضـــيفُ المكرم لديه والمرشحُ لجنته الباقية.

فيا له من سرور بالغ لا منتهى له، وشوق عارم لا غاية له، يمنحه هذا النور لكل مـــن يعد نفسه إنساناً!

الثمرة الثانية

وهي أنه أتى بأسس الاسلام، وفي مقدمتها ''الصلاة''. تلك الأسس التي تمثل مرضيات رب العالمين، حاكم الأزل والأبد.. وقد أتى بها هدية قيّمة وتحفة طيبة إلى الجن والإنس كافة.

إن معرفة تلك المرضيات الربانية وحدها لتثير لدى الإنسان من الرغبة والشوق والتطلع إلى فهمها ما لا يمكن وصفه، فضلاً عما تورث من سعادة وانشراح وسرور؛ إذ لا جرم أن كل إنسان يرغب رغبة جادة أن يعرف — ولو من بعيد - ما يطلب منه سلطانُه الذي أنعم عليه ويشتاق بلهفة أن يعرف ماذا يريد منه مَن أولاه نعمه وأحسن إليه؟ وحتى إذا ما عرف مرضياته يغمره سرور بالغ ويشيع فيه الرضى والاطمئنان بل حتى إنه يتمنى من قلبه كله قائلاً: ''يا ليت هناك واسطة بيني وبين مولاي لأعرف ما يريد مني، وماذا يرغب أن أكون عليه؟''.

نعم، إن الإنسان الذي هو في أشد الفاقة إلى مولاه سبحانه وتعالى في كل آن، وفي كل أحواله وشؤونه، وقد نال من أفضاله الكريمة، ونعمه السابغة ما لا يعد ولا يحصى، وهو على يقين من أن الموجودات كلها في قبضة تصرفه سبحانه، وما يتألق من سنا الجمال والكمالات على الموجودات، ما هو إلاّ ظل ضعيف بالنسبة لجماله وكماله سبحانه.. أقول: لعلك تقدّر كم يكون هذا الإنسان مشتاقاً ومتلهفاً لمعرفة ما يرضي هذا الرب الجليل، وإدراك ما يطلبه منه!.

فهاهو ذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد أتى بمرضيات رب العالمين وقد سمعها سماعاً مباشراً بحق اليقين من وراء سبعين ألف حجاب، أتى بها ثمرة من ثمرات المعراج وقدّمها هدية طيبة إلى البشرية جمعاء.

نعم، إن الإنسان الذي يتطلع إلى معرفة ماذا يحدث في القمر؟ وإذا ما ذهب أحدهم إلى هناك وعاد فأخبر بما فيه ربما يضحي الكثير لأجل ذلك الخبر، وتأخذه الحيرة والإعجاب كلما عرف أخبار ما هنالك..!! أقول إن كان وضع الإنسان هكذا مع إخبار مَن ذهب إلى القمر، فكيف تكون لهفته وشوقه لتلقي أخبار مَن يأتي عن مالك الملك ذي الجلال الذي ليس القمر

في ملكه الاّ كذباب يطير حول فراش، يطير ذلك الفراش حول سراج من ألوف السرج التي تضئ مضيفه..

نعم، لقد رأى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم شؤون هذا الملك العظيم ذي الجلال وشاهد بدائع صنعته وخزائن رحمته في عالم البقاء. وعاد بعد رؤيته لها وحدّث البشر بما رآه وشاهده.

فإن لم ينصت البشر إلى هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إنصات شوق ورغبة وبكل تبجيل واعجاب، فافهم مدى مجافاتهم العقلَ ومجانبتهم الحكمة.

الثمرة الثالثة

إنه شاهد كنوز السعادة الأبدية و دفائن النعيم المقيم، وتسلّم مفتاحها، وأتى به هدية للإنس والجن.

نعم، إنه شاهد ببصره - بالمعراج - الجنة الخالدة، ورأى التجليات الأبدية لرحمة الرحمن ذي الجلال، وأدرك إدراكاً بحق اليقين السعادة الأبدية، فزفّ بشرى وجود السعادة الأبدية إلى الجن والإنس.. تلك البشرى العظيمة التي يعجز الإنسان عن وصفها، إذ بينما الأوضاع الموهومة تحيط بالجن والإنس حيث تُصفَع الموجودات كلها بصفعات الزوال والفراق في دنيا لا قرار لها، وسيل الزمان وحركات الذرات تجرفها إلى بحر العدم والفراق الأبدي.. نعم! فبينا هذه الأوضاع المؤلمة التي تزهق روح الجن والإنس تحيط بهما من كل جانب، إذا بتلك البشرى السارة تُزَفّ إليهما.. فقس - في ضوء هذا - مدى ما تورثه تلك البشرى من سعادة وانشراح وسرور لدى الجن والإنس اللذين يظنان انهما محكومٌ عليهما بالإعدام الأبدي، وأنهما فانيان فناء مطلقاً! ثم افهم بعد ذلك قيمة تلك البشرى! فلو قيل لمحكوم عليه بالإعدام وهو يخطو خطواته نحو المشنقة: أن السلطان قد تكرم بالعفو عنك فضلاً عن أنه منحك بيتاً عنده. فلك أن تتصور مدى ما يفتح هذا الكلام من آفاق السرور والفرح لدى ذلك المحكوم عليه بالإعدام. ولكي تستطيع أن تتصور قيمة هذه الثمرة وهذه البشرى العظيمة، اجمع جميع ذلك السرور والفرح بعدد الجن والإنس لِتقدر مدى قيمة تلك البشرى!

الثمرة الرابعة

هي رؤية جمال الله سبحانه وتعالى.. فكما حظي بها صلى الله عليه وسلم فقد أتى: بأنه يمكن لكل مؤمن أن يحظى بتلك الثمرة الباقية أيضاً. فأهدى بهذا هدية عظيمة للجن والإنس. ولعلك تتمكن أن تقدّر مدى اللذة الكامنة في تلك الثمرة المهداة ومدى حلاوتها وجمالها ونفاستها من خلال هذا المثال:

إن كل من يحمل قلباً حياً، لا شك أنه يحب من كان ذا جمال وكمال وإحسان، وهذه المحبة تتزايد وفق درجات ذلك الجمال والكمال والإحسان، حتى تبلغ درجة العشق والتعبد. فيضحي صاحبها بما يملك في سبيل رؤية ذلك الجمال، بل قد يضحي بدنياه كلها لأجل رؤيته مرة واحدة. وإذا علمنا أن نسبة ما في الموجودات من جمال وكمال وإحسان إلى جماله وكماله وإحسانه سبحانه وتعالى لا يبلغ أن يكون لُميعات ضئيلة بالنسبة للشمس الساطعة. فإذن تستطيع أن تدرك - إن كنت إنساناً حقاً - مدى ما يورثه من سعادة دائمة ومدى ما يبعث من سرور ولذة ونعمة، التوفيق إلى رؤية مَن هو الأهل لمحبة بلا نهاية وشوق بلا نهاية ورؤية بلا نهاية في سعادة بلا نهاية.

الثمرة الخامسة

وهي أن الإنسان - كما فهم من المعراج - ثمرة قيمة من ثمرات الكائنات جليل القدر، ومخلوق مكرم محبوب لدى الصانع الجليل. هذه الثمرة الطيبة أتى بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالمعراج، هدية إلى الجن والإنس، فرفعت تلك الثمرة الإنسان من كونه مخلوقاً صغيراً وحيواناً ضعيفاً وذا شعور عاجز إلى مقام رفيع ومرتبة عالية، بل إلى أرقى مقام عزيز مكرم على جميع المخلوقات. فمنحت هذه الثمرة الإنسان من الفرح والسرور والسعادة الخالصة ما يُعْجَز عن وصفه؛ لأنه:

إذا قيل لجندي فرد: لقد أصبحت مشيراً في الجيش، كم يكون امتنانه وحمده وسروره وفرحه ورضاه؟ لا يُقدَّر حتماً؛ بينما الإنسان المخلوق الضعيف والحيوان الناطق.. والعاجز الفاني، الذليل أمام ضربات الزوال والفراق، لو قيل له: انك ستدخل جنة خالدة وتتنعم برحمة

الرحمن الواسعة الباقية، وتتنــزّه في مُلكه وملكوته الذي يسع السماوات والأرض، وتتمتع بها بجميع رغبات القلب في سرعة الخيال وفي سعة الروح وجولان العقل وسريانه.. وفوق كــل هذا ستحظى برؤية جماله سبحانه في السعادة الأبدية.

فكل إنسان، لم تنحط إنسانيته يستطيع أن يدرك مدى الفرح والسرور اللذين يغمران ذلك الذي يقال له مثل هذا الكلام.

والآن نتوجه إلى ذلك القاعد في مقام الاستماع، فنقول له:

مزّق عنك قميص الإلحاد، وارمه بعيداً، واستمع بإذن المؤمن، وتقلّد نظــر المســلم، فسأبين لك قيمة بضع ثمرات ضمن مثالين صغيرين:

المثال الأول:

هب أننا معك في مملكة واسعة. أينما تتوجه فيها بالنظر فلا ترى إلاّ العداء، فكل شيء عدوّ لنا، وكل شيء يضمر عداوة للآخر، وكل ما فيها غريب عنا لا نعرفه، وكل زاوية منها ملأى بجنائز تثير الرعب والدهشة. وتتعالى أصوات من هنا وهناك وهــي أصــوات نيــاح واستغاثات اليتامى والمظلومين. فبينما نحن في مثل هذه المآسي والآلام،إذا بأحدٍ يــذهب إلى سلطان المملكة ويأتي منه ببشرى سارة للجميع.

فإذا ما بدّلتْ تلك البشرى ما كان غريباً عنا أحباباً أودّاء.. وإذا ما غيّرتْ شكل مَن كنا نراه عدواً إلى صورة إخوان أحبّاء.. وإذا ما أظهرت لنا الجنائز الميتة المخيفة على صــورة عبّاد خاشعين قانتين ذاكرين الله مسبحين بحمده.. وإذا ما حوّلت تلك الصياحات والنواحات إلى ما يشبه الحمد والثناء والشكر.. وإذا ما بدلت تلك الأمــوات والغصــب والنــهب إلى ترخيص وتسريح من أعباء الوظيفة.. وإذا كنا نحن نشارك الآخرين في سرورهم فضلاً عــن سرورنا.. عند ذلك يمكنك أن تقدّر مدى السرور الذي يعمنا بتلك البشرى العظيمة.

وهكذا فإحدى ثمرات المعراج هي نور الإيمان، فلو خلت الدنيا من هذه الثمرة، أي إذا ما نُظر إلى الكائنات بنظر الضلالة، فلا ترى الموجودات إلاّ غريبة، متوحشة، مزعجة، مضرة، والأجسام الضخمة – كالجبال – جنائز تثير الدهشة والخوف. والأجل جلاد يضرب أعناق

الموجودات ويرميها إلى بئر العدم. وجميع الأصوات والأصداء ما هي إلاّ صراخ ونعي ناشئان من الفراق والزوال..

فبينما تصوِّر لك الضلالة الموجودات هكذا،إذا بثمرة المعراج التي هي حقائق الإيمـــان تنور الموجودات كلها وتبينها أنها أحياء متآخية، في تسبيح وذكر لربها الجليل، والموت والزوال تسريح من الوظيفة وراحة منها. وتلك الأصوات تسبيحات وتحميدات.. وهكذا، فإن شئت أن ترى هذه الحقيقة بأوضح صورها فراجع ''الكلمة الثانية'' من ''الكلمات الصغيرة''.

المثال الثاني:

هب أننا معك في صحراء كبرى. تحيط بنا عواصف رملية من كل جانب، وظلمة الليل تحجب عنا كل شيء حتى لا نكاد نرى أيدينا. والجوع يفتك بنا والعطش يلهب أفئدتنا، ولا معين لنا ولا ملجأ.. تصوّر هذه الحالة التي نضطرب فيها. وإذا بشخص كريم يمزّق حجـــاب الظلام ثم يأتي إلينا، وفي معيته مركبة فارهة هدية لنا، فيقلّنا بها إلى مكان أشبه مـــا يكـــون بالجنة. كل شيء فيه على ما يرام، كل شيء مهيأٌ ومضمون لنا.. يتولاّنا مَن هو في منتـــهى الرحمة والشفقة والرأفة، وقد أعدّ لنا كل ما نحتاجه من وسائل الأكل والشرب..

أظنك تقدّر الآن كم نكون شاكرين لفضل ذلك الشخص الكريم الذي أخـــذنا مـــن موضع اليأس والقنوط إلى مكان كله أمل وسرور.

فتلك الصحراء الكبرى هي هذه الدنيا. وتلك العواصف الرملية هي حركات الـــذرات وسيول الزمان التي تضطرب بها الموجودات وهذا الإنسان المسكين.. كـــل إنســـان قلـــق ومضطرب يتوجس خيفة مما يخفيه له مقبل أيامه المظلمة المخيفة.. هكذا تريه الضـــلالة فـــلا يعرف بمن يستغيث، وهو يتضوّر جوعاً وعطشاً..

وهكذا فمعرفة مرضيات الله سبحانه، وهي ثمرة من ثمرات المعراج، تجعل هذه الـــدنيا مضيفاً لمضيّف جواد كريم. وتجعل الأناسي ضيوفه المكرمين، ومأموريه في الوقـــت نفســـه وضمن له مستقبلاً زاهياً كالجنة، وممتعاً ولذيذاً كالرحمة، وساطعاً باهراً كالسعادة الأبدية.

فإذا تصورت هذا وذاك فعندئذ يمكنك أن تقيس مدى لـــذة تلـــك الثمـــرة وجمالهـــا وحلاوتها!

يقول من كان في مقام الاستماع:

ـــ حمداً لله وشكراً ألف شكرٍ فقد نجوت بفضله من الإلحاد، فسلكت طريق الإيمان والتوحيد. وغنمت الإيمان.. والحمد لله.

ونحن نقول له:

أيها الأخ! نهنئك بالإيمان، ونسأله تعالى أن يجعلنا ممن ينالون شفاعة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

اللهم صل على من انشق بإشارته القمرُ، ونبع من أصابعه الماءُ كالكوثرِ صاحبِ المعراج وما زاغ البصرُ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. من أول الدنيا إلى آخر المحشر.

[سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ]

[رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ]

[رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا]

[رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا]

[رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]

[وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]

ذيل

الكلمة التاسعة عشرة والحادية والثلاثين

الذيل الأول

معجزة

انشقاق القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

[اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ + وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ +] (القمر: 1 - 2)

إن فلاسفة ماديين - ومن يقلّدونهم تقليداً أعمي - يريدون أن يطمسوا ويخسفوا معجزة انشقاق القمر الساطع كالبدر، فيثيروا حولها أوهاماً فاسدة، اذ يقولون: "لو كان الانشقاق قد حدث فعلاً لعرفه العالم، ولذكرته كتب التاريخ كلها!".

الجواب: إن انشقاق القمر معجزة لإثبات النبوة، وقعت أمام الذين سمعوا بدعوى النبوة وأنكروها، وحدثت ليلاً، في وقت تسود فيه الغفلة، وأُظهِرت آنياً، فضلاً عن ان اختلاف المطالع ووجود السحاب والغمام وأمثالها من الموانع تحول دون رؤية القمر، علماً أن أعمال الرصد ووسائل الحضارة لم تكن في ذلك الوقت منتشرة؛ لذا لا يلزم أن يرى الإنشقاق كلُّ الناس، في كل مكان، ولا يلزم أيضاً أن يدخل كتب التاريخ.

فاستمع الآن إلى نقاط خمس فقط من بين الكثير منها، تبدد بإذن الله سُحبَ الأوهام التي تلبّدت على وجه هذه المعجزة الباهرة:

النقطة الأولى:

إن تعنت الكفار في ذلك الزمان معلوم ومشهور تاريخاً، فعندما أعلن القرآن الكريم [وَانْشَقَّ الْقَمَرُ] وبلغ صداه الآفاق، لم يجرؤ أحد من الكفار - وهم يجحدون القرآن - أن يكذّب بهذه الآية الكريمة. أي ينكر وقوع الحادثة. إذ لو لم تكن الحادثة قد وقعت فعلاً في ذلك الوقت، و لم تكن ثابتة لدى أولئك الكفار، لاندفعوا بشدة ليبطلوا دعوى النبوة، ويكذّبوا الرسول صلى الله عليه وسلم. بينما لم تنقل كتب التأريخ والسير شيئاً من أقوال الكفار حول إنكارهم حدوث الانشقاق، إلا ما بيّنته الآية الكريمة [وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ] وهو أن الذين شاهدوا المعجزة من الكفار قالوا: هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا

أرأوا ذلك أم لا؟. ولما حان الصباح أتت القوافل من اليمن وغيرها فسألوهم، فأخبروهم: انهم رأوا مثل ذلك. فقالوا: إن سحر يتيم أبي طالب قد بلغ السماء!

النقطة الثانية:

لقد قال معظم أئمة علم الكلام، من أمثال سعد التفتازاني: ''إن انشقاق القمر متواتر، مثل فوران الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم وارتواء الجيش منه، ومثل حنين الجذع من فراقه صلى الله عليه وسلم الذي كان يستند إليه أثناء الخطبة، وسماع جماعة المسجد لأنينه. أي إن الحادثة نقلته جماعة غفيرة عن جماعة غفيرة يستحيل تواطؤهم على الكــذب، فالحادثة متواترة تواتراً قطعياً كظهور المذنب قبل ألف سنة وكوجود جزيرة سرنديب التي لم نرها''.

وهكذا ترى أن إثارة الشكوك حول هذه المسألة القاطعة وأمثالها من المسائل المشــاهدة شهوداً عياناً إنما هي بلاهة وحماقة، إذ يكفي فيها أنها من الممكنات وليست مستحيلاً. علماً أن انشقاق القمر ممكن كانفلاق الجبل ببركان.

النقطة الثالثة:

إن المعجزة تأتي لإثبات دعوى النبوة عن طريق إقناع المنكرين، وليس إرغامهم علــى الإيمان. لذا يلزم إظهارها للذين سمعوا دعوى النبوة، بما يوصلهم إلى القناعة والاطمئنــان إلى صدق النبوة. أما إظهارها في جميع الأماكن، أو إظهارها اظهاراً بديهياً بحيث يضطر الناس إلى القبول والرضوخ فهو منافٍ لحكمة الله الحكيم ذي الجلال، ومخالف أيضاً لســر التكليــف الإلهي. ذلك لأن سر التكليف الإلهي يقتضي فتح المجال أمام العقل دون سلب الاختيار منه.

فلو كان الخالق الكريم قد ترك معجزة الانشقاق باقية لساعتين من الزمان، وأظهرهــا للعالم أجمع ودخلت بطون التاريخ كما يريدها الفلاسفة لكان الكفار يقولون إنهــا ظــاهرة فلكية معتــادة. وما كانت حجة على صدق النبوة، ولا معجزة تخص الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم. أو لكانت تصبح معجزة بديهية ترغم العقل على الإيمان وتسلبه من الاختيار وعندئذٍ تتساوى أرواح سافلة كالفحم الخسيس من أمثال أبي جهل، مــع الأرواح العاليــة

الصافية كالألماس من أمثال أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أي لكان يضيع سر التكليف الإلهي.

ولأجل هذا فقد وقعت المعجزة آنياً، وفي الليل، وحين تسود الغفلة، وغدا اختلاف المطالع والغمام وأمثالها حُجباً أمام رؤية الناس لها. فلم تدخل بطون كتب التاريخ.

النقطة الرابعة:

إن هذه المعجزة التي وقعت ليلاً، وآنياً، وعلى حين غفلة، لا يراها كل الناس جلية في كل مكان. بل حتى لو ظهرت لبعضهم، فلا يصدّق عينه، ولو صدّقها، فان حادثة كهذه مروية من شخص واحد لا تكون ذات قيمة للتاريخ.

ولقد ردّ العلماء المحققون ما زيد في رواية المعجزة من أن القمر بعد انشقاقه قد هبط إلى الأرض! قالوا: ربما أدخل هذه الزيادة بعض المنافقين ليسقطوا الرواية من قيمتها ويهونوا من شأنها.

ثم إن في ذلك الوقت: كانت سُحب الجهل تغطى سماء إنكلترا، والوقت على وشك الغروب في إسبانيا، وأمريكا في وضح النهار، والصباح قد تنفس في الصين واليابان.. وفي غيرها من البلدان هناك موانع أخرى للرؤية. فلا تشاهد هذه المعجزة العظيمة فيها.

فإذا علمت هذا فتأمل في كلام الذي يقول: ''إن تأريخ إنكلترا والصين واليابان وأمريكا وأمثالها من البلدان لا تذكر هذه الحادثة، إذن لم تقع!''. أي هذرٍ هذا.. ألا تباً للذين يقتاتون على فتات أوربا..

النقطة الخامسة:

إن انشقاق القمر ليس حادثة حدثت من تلقاء نفسها، بناء على أسباب طبيعية وعن طريق المصادفة! بل أوقعها الخالق الحكيم - رب الشمس والقمر - حدثاً خارقاً للسنن الكونية، تصديقاً لرسالة رسوله الحبيب صلى الله عليه وسلم، وإعلاناً عن صدق دعوته، فأبرزه سبحانه وتعالى وفق حكمته وبمقتضى سر الإرشاد والتكليف وحكمة تبليغ الرسالة، وليقيم الحجة على من شاء من المشاهدين له، بينما أخفاه - اقتضاء لحكمته سبحانه

ومشيئته – عمن لم تبلغهم دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم من الساكنين في أقطـار العـالم، وحَجَبه عنهم بالغيوم والسحاب وباختلاف المطالع وعدم طلوع القمر، أو شروق الشـمس في بعض البلدان وانجلاء النهار في أخرى وغروب الشمس في غيرها.. وأمثالها من الأسـباب الداعية إلى حَجب رؤية الانشقاق.

فلو أظهرت المعجزة إلى جميع الناس في العالم كله فإما أنها كانت تبرز لهم نتيجة إشارة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم واظهاراً لمعجزة نبوية، وعندها تصل إلى البداهـة، أي يضطر الناس كلهم إلى التصديق، أي يُسلب منهم الاختيار، فيضيع سر التكليف، بينما الإيمان يحافظ على حرية العقل في الاختيار ولا يسلبها منه.. أو أنها تبرز لهم كحادثة سماوية محضـة، وعندها تنقطع صلتها بالرسالة الأحمدية ولا تبقى لها مزيّة خاصة.

الخلاصة:

إن انشقاق القمر لا ريب فيه. فلقد أثبت إثباتاً قاطعاً. وسنشير هنا إلى وقوعه بسـتة براهين قاطعة [176] **من بين الكثير منها، وهي:**

إجماع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين وهم العدول. واتفاق العلماء المحققين من المفسرين لدى تفسيرهم [وَانْشَقَّ الْقَمَرُ] ونقل جميع المحدّثين الصادقين في رواياتهم وقوعه بأسانيد كثيرة وبطرق عديدة. [177] وشهادة جميع أهل الكشف والإلهام من الأولياء الصادقين الصالحين و تصديق أئمة علم الكلام المتبحرين رغم تباين مسالكهم ومشاربهم. وقبول الأمة التي لا تجتمع على ضلالة كما نص عليه الحديث الشريف.

---

176 أي ان هناك ست حجج قاطعة على وقوع انشقاق القمر في ستة أنواع من الإجماع. ولكن للأسف لم نوف هذا المقام حقّه من البحث فظل مقتضباً. – المؤلف.

177 نذكر ثلاثة أحاديث متفق عليها:

1 ـــ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اشهدوا".

2 ـــ وعن أنس رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر .

3 ـــ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن القمر انشق في زمان النبي صلى الله عليه وسلم.

راجع: مسند الإمام احمد 1/ 377، 413، 447، 456، 3/207، 220، 275، 278، 4/81 ورواه الطيالسي برقم 295، 1891، 1960. وتفسير ابن كثير (6/469) لمعرفة تواتر الحادثة. - المترجم.

كل ذلك يبين انشقاق القمر ويثبته إثباتاً قاطعاً يضاهي الشمس في وضوحها.

حاصل الكلام:

كان البحث إلى هنا باسم التحقيق العلمي، إلزاماً للخصم. أما بعد هذا فسيكون الكلام باسم الحقيقة **ولأجل الإيمان. فقد نطق التحقيق العلمي هكذا. أما الحقيقة فتقول:**

إن خاتم ديوان النبوة صلى الله عليه وسلم وهو القمر المنير لسماء الرسالة، وقد سمَتْ ولايةُ عبوديته إلى مرتبة المحبوبية، فأظهرت الكرامة العظمى والمعجزة الكبرى بالمعراج، أي بجولان جسمٍ ارضي في آفاق السماوات العلى، وتعريف أهل السماوات به، فأثبتت بتلك المعجزة ولايتَه العظمى لله ومحبوبيته الخالصة له وسمّوه على أهل السماوات والملأ الأعلى.. كذلك فقد شق سبحانه القمر المعلق في السماء والمرتبط مع الأرض بإشارة من عبده في الأرض، فأظهر معجزته هذه، إثباتاً لرسالة ذلك العبد الحبيب، حتى اصبح صلى الله عليه وسلم كالفلقين المنيرين للقمر، فعرج إلى أوج الكمالات بجناحَي الولاية والرسالة النورانيين. حتى بلغ قاب قوسين أو أدنى واصبح فخراً لأهل السماوات كما هو فخر لأهل الأرض.

عليه وعلى آله وصحبه الصلاة والتسليمات ملء الارض والسماوات.

[سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ]

اللهم بحق من انشق القمر بإشارته اجعل قلبي وقلوب طلبة رسائل النور الصادقين كالقمر في مقابلة شمس القرآن.. آمين. آمين.

الكلمة الثانية والثلاثون

هذه الكلمة ذيل يوضح اللمعة الثامنة من الكلمة الثانية والعشرين. وهي تفسير لأول لسان من خمسة وخمسين لساناً من ألسنة الموجودات الشاهدة على وحدانية الله سبحانه وتعالى، والتي اشير اليها في رسالة »قطرة من بحر التوحيد "[178] وهي في الوقت نفسه حقيقة من الحقائق الزاخرة للآية الكريمة (لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا) لبست ثوب التمثيل.

الموقف الأول

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا) (الانبياء: 22)

(لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير واليه المصير)

كنت قد بينت في احدى ليالي رمضان المبارك؛ ان في كلٍ من الجمل الاحدى عشرة من هذا الكلام التوحيدي بشارة سارة، ومرتبة من مراتب التوحيد. وقد بسطت الكلام بسطاً يقرب من فهم العوام لتوضيح ما في جملة »لا شريك له« وحدها من معانٍ جميلة؛ وذلك على صورة محاورة تمثيلية ومناظرة افتراضية، واتخاذ لسان الحال على هيئة لسان المقال. وادرج الآن

[178] منشورة ضمن رسائل المثنوي العربي النوري. - المترجم.

تلك المحاورة اسعافاً لطلب اخوتي الاعزاء الذين يعينونني في شؤوني، ونزولاً عند رغبة رفقائي في المسجد ونظراً لطلبهم. وهي على النحو الآتي:

نفترض شخصاً يمثل الشركاء الذين يتوهمهم جميع انواع اهل الشرك والكفر والضلال من امثال عبدة الطبيعة والمعتقدين بتأثير الاسباب والمشركين. ونفرض ان ذلك الشخص المفترض يريد أن يكون رباً لشئ من موجودات العالم، ويدّعي التملك الحقيقي له!

وهكذا فقد قابل ذلك المدّعي اولاً ما هو أصغر شئ في الموجودات وهو الذرة، فقال لها بلسان الطبيعة وبلغة الفلسفة المادية أنه ربها ومالكها الحقيقي!

فاجابته تلك الذرة بلسان الحقيقة وبلغة الحكمة الربانية المودعة فيها:

– انني اؤدي وظائف واعمالاً لا يحصرها العدّ. فأدخل في كل مصنوع على اختلاف انواعها، فان كنت ايها المدّعي مالكاً علماً واسعاً يحيط بجميع تلك الوظائف وصاحب قدرة شاملة توجّه جميعها، ولك حكم نافذ وهيمنة كاملة على تسخيري وتوجيهي مع امثالي من الذرات العاملة والمتجولة في الوجود.. وكذا لو كنت تتمكن من أن تكون مالكاً حقيقياً للموجودات التي أنا جزء منها – كالكريات الحمر – وتتصرف فيها بانتظام تام..[179] فلك أن تدّعي المالكية عليّ، وتسند أمري الى غير خالقي سبحانه.. والاّ فاسكت! اذ لا تقدر على أن تتدخل في شؤوني فضلاً عن انك لا تستطيع أن تكون رباً لي؛ لأن ما في وظائفنا واعمالنا وحركاتنا من النظام المتقن الكامل بحيث لن يقدر عليه من لم يكن ذا حكمة مطلقة وعلم محيط، فلو تدخّل غيره لأفسد.

---

[179] نعم! كما ان كل شئ متحرك ابتداءً من الذرات الى الكواكب السيارة يدل على الوحدانية، بما فيه من سكة الصمدانية وطابعها، فانه يضم جميع الاماكن التي يجول فيها ضمن مُلك مالكه الواحد.. اما المصنوعات الساكنة ابتداءً من النباتات الى النجوم الثابتة فهي بمثابة اختام الوحدانية حيث يظهر كل منها ان موضعه بمثابة رسالة من صانعه ومكتوب منه. اي ان كل نبات، وكل ثمر، هو ختم وحدانية، وسكة وحدة بحيث يدل على ان مواضعه وأوطانه رسالة لصانعه البديع.

والخلاصة: ان كل شئ يسيطر بحركته على جميع الاشياء باسم الوحدانية، اي ان الذي لا يقبض زمام جميع النجوم بيده لن يكون رباً على الذرة ـ المؤلف .

فأنّى لك ايها المدعي أن تمد اصبعك في شؤوننا وانت العاجز الجامد الاعمى الأسير بيد الطبيعة والمصادفة العمياويين!

فقال المدعي ما يقوله الماديون:

– اذن كوني مالكة لنفسك، فَلِمَ تقولين انك تعملين في سبيل غيرك؟ فاجابته الذرة:

– لو كان لي عقل جبار كالشمس وعلم محيط كضوئها وقدرة شاملة كحرارتها وحواس ومشاعر واسعة كالالوان السبعة في ضيائها ووجه متوجّه الى كل مكان أسيح فيه وعين ناظرة وكلام نافذ الى كل موجود أتوجه اليه.. ربما كنت أتغابى مثلك فأدّعي الحاكمية لنفسي!. تنحّ عني فليس لك موضع فينا.

وعندما يئس داعية الشرك من الذرة. قابل كرية حمراء من الدم، علّه يظفر منها بشئ. فقال لها بلسان الاسباب ولغة الطبيعة ومنطق الفلسفة:

– انا لكِ رب ومالك!

فردّت عليه الكرية الحمراء بلسان الحقيقة وبلغة الحكمة الربانية:

– انني لست وحيدة منفردة، فأنا وأمثالي جميعاً في جيش الدم الكثيف، نظامنا واحد ووظائفنا موحدة، نسير تحت إمرة آمر واحد. فان كنت تقدر على أن تملك زمام جميع ما في الدم من امثالي، ولك حكمة دقيقة وقدرة عظيمة تحكمان سيطرتهما على جميع خلايا الجسم التي نجول فيها ونُستخدم لإنجاز مهمات فيها بكل حكمة وانتظام، فهاتها. فلربما يكون عندئذٍ لدعواك معنى. ولكنك ايها المدعي لا تملك سوى قوة عمياء وطبيعة صماء فلا تقدر على أن تتدخل في شؤوننا ولو بمقدار ذرة، فضلاً عن ادّعاء التملك علينا؛ لأن النظام الذي يهيمن علينا دقيق وصارم الى حدّ لا يمكن أن يحكمنا الاّ من يرى كل شئ ويسمع كل شئ ويعلم كل شئ ويفعل ما يشاء. ولهذا فاسكت. اذ لا تدع وظائفنا الجليلة ودقتها ونظامها مجالاً لنا لنسمع هذرك.. وهكذا تطرده الكرية الحمراء.

ولما لم يجد ذلك المدّعي بغيته فيها. ذهب فقابل خلية في الجسم فقال لها بمنطق الفلسفة ولسان الطبيعة:

– لم اتمكن من ان أُسمع دعواي الى الذرة، ولا الى الكرية الحمراء، فلعلي اجد منك أُذناً صاغية؛ لأنك لست الاّ حجيرة صغيرة حاوية على اشياء متفرقة! ولهذا فانني قـــادرة علـــى صنعك . فكوني مصنوعتي ومملوكتي حقاً!

فقالت لها الخلية بلغة الحكمة والحقيقة:

– انني صغيرة جداً حقاً، ولكن لي وظائف جليلة وجسيمة، ولي علاقـــات وروابـــط وثيقة ودقيقة جداً مع جميع خلايا الجسم. فلي وظائف متقنة مع جميع الاوعية الدموية مـــن شرايين واوردة واعصاب محركة وحسية، ومع جميع القوى التي تنظم الجسم كالقوة الجاذبـــة والدافعة والمولّدة والمصوّرة وامثالها؛ فان كان لك ايها المدّعي علم واسع وقدرة شاملة تنشئ تلك العروق والاعصاب والقوى المودعة في الجسم وتنسقها وتستخدمها في مهماتها.. وكذا ان كانت لديك حكمة شاملة وقدرة نافذة تستطيع ان تتصرف في شؤون اخواتي من خلايا الجسم كلها، والتي تتشابه في الاتقان والروعة النوعية، فهيا اظهرها، ثم ادّع بانك تتمكن من صنعي. والاّ فاغرب عنا. فان الكريات الحمر تزودني بالارزاق، والكريات البيضاء تدافع عني تجاه الامراض المهاجمة. فلي اعمال جسام، لا تشغلني عنها. فان عاجزاً قاصراً أعمى مثلـــك ليس له حق التدخل في شؤوننا الدقيقة ابداً؛ لأن فينا من النظام المحكم الكامل [180] مـــا لـــو يحكمنا غير الحكيم المطلق والقدير المطلق والعليم المطلق لفسد نظامنا وانفرط عقدنا.

---

[180] ان الصانع الحكيم قد خلق جسم الانسان على هيئة مدينة منسقة ومنتظمة جداً. فقسم من العروق يقوم بمهمة التلغراف والتلفون، وقسم منها بمثابة الانابيب التي تأتي بالماء من الينابيع فيسير فيها الدم ذلك السائل الباعث على الحياة.. والدم نفسه قد خلق فيه قسمان من الكريات، يطلق على إحداهما الكريات الحمراء التي تقوم بتوزيع الارزاق الى حجيرات البدن، فتوصل اليها ارزاقها بقانون الهي مثلما يقوم موظفو الارزاق وتجّارها بالتوزيع. والقسم الاخر هو الكريات البيضاء التي هي أقل عدداً من الاولى، وتقوم بالدفاع عن الجسم تجاه الامراض متخذة وضعاً سريعاً عجيباً بنوعين من الدوران والحركة - كالمريد المولوي - حالما تدخل حومة المعركة.. اما مجموع الدم فله وظيفتان عامتان..

الاولى: تعمير الحجيرات المتهدمة في الجسم وترميمها.. والاخرى : تنظيف الجسم بجمع النفايات وانقاض الخلايا. وهناك قسمان من العروق ايضاً، يطلق على احدهما الشرايين التي تقوم بنقل الدم الصافي وتوزيعه،

وهكذا يئس المدّعي من الخلية كذلك، ولكنه قابل جسم الانسان، فقال له كما يقول الماديون، بلسان الطبيعة العمياء والفلسفة الضالة:

– انت ملكي. فانا الذي صنعتك، أو في الأقل لي حظٌ فيك!

فردّ عليه ذلك الجسم الانساني بحقيقة النظام الحكيم الذي فيه:

– ان كان لك ايها المدعي علم واسع وقدرة شاملة لها التصرف المطلق في جميع اجسام البشر من امثالي، لوضع العلامات الفارقة الظاهرة في وجوهنا، والتي هي طابع القدرة وختم الفطرة.. وكذا لو كانت لك ثروة طائلة وحاكمية مهيمنة تتحكم في مخازن أرزاقي الممتدة من الهواء والماء الى النباتات والحيوانات.. وكذا لو كانت لك حكمة لا حدّ لها وقدرة لا منتهى لها بحيث تمكّن اللطائف

فهي بحكم مجاري الدم النقي الصافي.. والآخر: هو مجاري الدم الفاسد الذي يجمع النفايات الضارة والانقاض، ويأتي بها الى الرئة التي هي مركز التنفس.

ان الصانع الحكيم قد خلق عنصرين في الهواء احدهما: الآزوت، والآخر: مولد الحموضة (الاوكسجين) فهذا الاخير ما ان يلامس الدم اثناء التنفس حتى يجذب اليه الكربون الكثيف الذي لوّث الدم محولاً اياه الى مادة سامة يطلق عليها «حامض الكربون البخاري» (ثنائي اوكسيد الكربون) وبهذا يقوم بتنقية الدم وتصفيته، فضلاً عن انه يضمن الحرارة الغريزية للجسم. ذلك لان الصانع الحكيم قد وهب لمولد الحموضة والكربون علاقة شديدة تلك التي يطلق عليها (الأُلفة الكيمياوية) بحيث ما ان يقتربا حتى يمتزجا معاً بقانون الهي، فتتولد الحرارة من هذا الامتزاج كما هو ثابت علماً، اذ الامتزاج نوع من احتراق. وحكمة هذا السر هي ما يأتي: ان لذرات كل عنصر من العناصر حركات مختلفة، فاثناء الامتزاج، تمتزج الحركتان معاً وتتحرك الذرتان حركة واحدة، وتظل حركة واحدة معلقة ، سائبة، فتنطلق ـ بقانون الصانع الحكيم ـ على صورة حرارة.. ومعلوم ان الحركة تولد الحرارة،كما هو ثابت ومقرر.

وبناء على هذا السر، فكما تتحقق حرارة الجسم الغريزية بهذا الامتزاج الكيمياوي، يتصفى الدم ايضاً عندما يسلب منه الكربون.

وهكذا ينقي الشهيق ماء حياة الجسم ويشعل نار الحياة. اما الزفير فانه يثمر الكلمات المنطوقة من الفم، التي هي معجزات القدرة الالهية، فسبحان من تحير في صنعه العقول. ـ المؤلف.

المعنوية الراقية الواسعة من روح وقلب وعقل في بودقة صغيرة مثلي وتسيّرها بحكمة بالغة الى العبودية، فأرنيها ثم ادّع الربوبية لي، والاّ فاسكت، فان صانعي الجليل قادر على كل شئ عليم بكل شئ بصير بكل شئ، بشهادة النظام الاكمل الذي يسيّرني، وبدلالة طابع الوحدانية الموجود في وجهي، فلا يقدر عاجز وضال مثلك أن يمدّ اصبعه الى صنعته البديعة ابداً ولا أن يتدخل فيها ولو بمقدار ذرة.

فانصرف داعية الشرك حيث لم يستطع ان يجد موضعاً للتدخل في الجسم، فقابل نوع الانسان، فحاور نفسه قائلاً: ربما أجد في هذه الجماعة المتشابكة المتفرقة موضعاً، فأتدخل في احوال فطرتهم ووجودهم مثلما يتدخل الشيطان بضلاله في أفعالهم الاختيارية وشؤونهم الاجتماعية. وعندها اتمكن من أن اجري حكمي على جسم الانسان الذي طردني هو وما فيه من خلايا.

ولهذا خاطب نوع الانسان بلسان الطبيعة الصماء والفلسفة الضالة ايضاً:

– انتم ايها البشر تبدون في فوضى، فلا أرى نظاماً ينظمكم، فانا لكم رب ومالك، أو في الاقل لي حصة فيكم.

فردّ عليه حالاً نوع الانسان بلسان الحق والحقيقة وبلغة الحكمة والانتظام:

– ان كنت مالكاً – ايها المدعي – قدرةً تتمكن من أن تُلبس الكرة الارضية حلّة قشيبة ملونة بألوان زاهية منسوجة بكمال الحكمة بخيوط انواع النباتات والحيوانات التي تنوف على مائة الف نوع الشبيهة بنوعنا الانساني، وتكون بوسعها نسج ذلك البساط البديع المفروش على الارض من خيوط مئات الالوف من انواع الكائنات الحية، والتي هي في ابدع نقش واجمله.. وفضلاً عن خلق هذا البساط الرائع، تجدده دوماً وبحكمة تامة! فان كانت لديك قدرة محيطة وحكمة شاملة كهذه، بحيث تتصرف في كرة الارض التي نحن من ثمارها، وتدبّر شؤون العالم الذي نحن بذوره، فترسل بميزان الحكمة لوازم حياتنا الينا من اقطار العالم كله.. وان كنت تنطوي – ايها المدعي– على اقتدار يخلق علامات القدرة الإلهية المميزة الموحدة في وجوهنا، وفي امثالنا من السالفين والآتين.. فان كنت مالكاً لما ذكرنا فلربما يكون لك حقّ ادّعاء الربوبية عليّ. والاّ فاخرس! ولا تقل انني اتمكن من أن أتدخل في

شـــــؤون هــــؤلاء الـــــذين يبـــدون في اخـــــتـــــلاط وتشـــــــابك، اذ الانتظـــــام عـــــنــــــدنا على أتمه، وتلك الاوضاع التي تظنها فوضى انما هي استنســـاخ للقدرة الإلهية بكمال الانتظام على وفق القدر الإلهي. فلئن كان النظام دقيقاً في ادنى درجات الحياة كالنباتات والحيوانات ويرفض اي تدخلٍ كان، فكيف بنا ونحن في قمة مراتب الحياة؟ أليس الذي يبدو اختلاطاً وفوضى هو نوع من كتابة ربانية حكيمة؟ أفيمكن للـــذي مكّـــن خيوط النقوش البديعة لهذا البساط، كلٌ في موضعه المناسب، وفي اي جزء وطرف كان، ان يكون غير صانعه، غير خالقه الحقيقي، فهل يمكن أن يكون خالق النواة غير خالق ثمرتها؟ وهل يمكن أن يكون خالق الثمرة غير خالق شجرتها؟ ولكنك اعمى لا تبصر! ألاترى معجـــزات القدرة في وجهي وخوارق الصنعة في فطرتي؟ فان استطعت ان تشاهدها، فستدرك أن خالقي لا يخفى عليه شئ ولا يصعب عليه أمر، ولا يعجزه شئ، يدير النجوم بيسر ادارة الـــذرات، ويخلق الربيع الشاسع بسهولة خلق زهرة واحدة، وهو الذي ادرج فهرس الكون العظـــيم في ماهيتي بانتظام دقيق، أفيمكن لعاجز أعمى مثلك أن يحشر نفسه فيتدخل في ابداع هذا الخالق العظيم والصانع الجليل.. ولهذا فاسكت واصرف وجهك عني.. فيمضى مطروداً.

ثم يذهب ذلك المدّعي الى البساط الزاهي المفروش على وجه الارض والحلـــة القشـــيبة المزينة التي اُلبست، فخاطبه باسم الاسباب وبلغة الطبيعة ولسان الفلسفة:

- انني اتمكن من التصرف في شؤونك، فانا اذن مالك لك ولي حظ فيك في الأقل.

وعند ذلك تكلم ذلك البساط المزركش، وتلك الحلة القشيبة [181]وخاطبا ذلك المدعي بلغة الحقيقة وبلسان الحكمة المودعة فيهما:

- ان كانت لك قدرة نافذة واتقان بديع يجعلانك تنسج جميع هذه البسط المفروشـــة والحلل البهية التي تخلع على الارض بعدد القرون والسنين ثم تنزعها عنها بنظام تام وتنشـــرها

---

[181] ولكن مثلما ان هذا النسيج ذو حيوية، فهو كذلك في اهتزاز منتظم اذ تتبدل نقوشه باستمرار وبحكمة كاملة وتناسق تام، وذلك اظهاراً لتجليات الاسماء الحسنى المختلفة لنسّاجه البديع في تجليات متنوعة مختلفة.ـــــ المؤلف.

على حبل الزمان الماضي، ومن بعد ذلك تخيط ما تخلع عليها من حلل زاهرة بنقوشها وتفصّل تصاميمها في دائرة القدر.. وكذا ان كنت مالكاً ليد معنوية ذات قدرة وحكمة بحيث تمتد الى كل شئ ابتداءً من خلق الارض الى دمارها، بل من الازل الى الأبد، فتجدد وتبدّل أفراد لحمة بساطي هذا وسداه.. وكذا ان كنت تستطيع أن تقبض على زمـــام الارض الـــتي تلبســـنا وتكتسي بنا وتتستر.. نعم إن كنت هكذا فادعّ الربوبية عليّ.. والاّ فاخرج مذموماً مدحوراً من الارض. فليس لك مقام هنا؛ اذ فينا من تجليات الوحدانية وأختام الأحدية بحيث مَـــن لم يكن جميع الكائنات في قبضة تصرفه و لم ير جميع الاشياء بجميع شؤونها دفعـــة واحـــدة، و لم يستطع أن يعمل اموراً لا تحد في آن واحد، و لم يكن حاضراً ورقيباً في كل مكان ومتزّهاً عن المكان والزمان.. لا يتمكن أن يكون مالكاً لنا ابداً، بل لا يمكن أن يتدخل في امورنا مطلقاً. اي من لم يكن مالكاً لقدرة مطلقة وحكمة مطلقة وعلم مطلق، لا يمكن أن يـــتحكم فينـــا ويدّعي المالكية علينا.

وهكذا يذهب المدّعى مخاطباً نفسه: لأذهب الى الكرة الارضية علني استغفلها وأجـــد فيها موضعاً.. فتوجه اليها قائلاً لها [182]باسم الاسباب وبلسان الطبيعة مرة اخرى:

– ان دورانك هكذا دون قصد يشف عن انك سائبة دون مالك. ولهـــذا يمكـــن ان تكوني طوع أمري!

فردت عليه الارض بصيحة كالصاعقة منكرة دعواه بلسان الحق والحقيقة المضمرة فيها:

– لا تهذر ايها الاحمق الابله!. كيف اكون هملاً بلا مالك ومولى! فهل رايت في ثوبي الذي البسه خيطاً واحداً فقط نشازاً بغير حكمة ومن دون اتقان! حتى تزعم ان حبلى علـــى

[182] الحاصل: ان الذرة تحيل ذلك المدّعي الى الكرية الحمراء، وهذه تحيله الى الخلية، وهذه الى الجسم، والجسم يحيله الى النوع الانساني، والنوع الى الحلّة المنسوجة من الاحياء التي يلبسها سطح الارض، وتحيله حلّة سطح الارض الى الارض نفسها، وهذه الى الشمس، والشمس الى النجوم.. وهكذا يقول كل منها: انصرف عنّا.. فلو استطعت ان تسيطر على من هو فوقي فحاول السيطرة عليّ، والا فانت عاجز عن التحكم عليّ. فاذن من لم ينفذ امره على النجوم كافة لا يمكنه ان ينفذه على ذرة واحدة ـ المؤلف

غاربي وانني بلا مولى ولا مالك؟ انظر فحسب الى حركاتي، ومنها حركتي السنوية [183] الــتي اسير فيها مسافة خمس وعشرين الف سنة في سنة واحدة فقط، منجزة وظائفي الملقاة علــيّ بكمال الميزان والحكمة.. فان كانت لديك حكمة مطــــلــقــــــة وقــدرة مطلــــقة فــــتسيــّر وتجـــري معي رفـــقائـــــي من الســـيـــــارات العــــشر من امثالي في افلاكها العظمى، وتخلق الشمس المنيرة التي هي قائدنا وامامنا والتي تربطنا واياها جاذبــة الرحمة فتديرنا وتجري بنا انا والسيارات جميعاً حول الشمس بنظام تام وحكمة كاملة. نعــم ايها المدعّي ان كانت لديك قدرة مطلقة وحكمة مطلقة على ادارة هـــذه الامـــور الجســام وتدبيرها فادّع بدعواك. والاّ فاترك هذا الهذيان المفرط، وسحقاً لك في جهنم وبئس المصير، فلا تشغلني عن مهماتي العظيمة. اذ إن ما فينا من الانتظام الرائع والتناسق المهيب والتســخير الحكيم يدل بوضوح على ان جميع الموجودات من الذرات الى النجوم والى الشموس طوع أمر صانعنا ومسخّرة له. اذ مثلما ينظم الشجرة بسهولة ويزّين ثمراتها فانه بالسهولة نفسها ينظم الشمس بسياراتها. فهو الحكيم ذو الجلال والحاكم المطلق ذو الكمال.

ثم يتوجه ذلك المدعي الى الشمس بعد أن لم يجد له موضع قدم في الارض فحاورنفسه قائلاً: إن هذه الشمس شئ عظيم، لعلّي أجد فيها ثغرة أمرر فيها دعواي واسخّر بـــدوري الارض كذلك.

فقال للشمس بلسان الشرك وأضاليل الفلسفة الشيطانية، وكما يقوله المجوس:

– انت يا شمس سلطانة العالم، وانت حتماً مالكة لنفسك، وتتصرفين في العالم كيف تشائين.

وعلى الفور اجابته الشمس بلسان الحق والحقيقة:

– كلا والف مرة كلا.. بل لست الاّ مأمورة مطيعة مسخرة بوظيفة تنوير مستضاف سيدي. فلست مالكة لنفسي ابداً بل لست مالكة حتى لجناح ذبابة ملكـــاً حقيقيـــاً، لأن في

---

[183] اذا كان نصف قطر دائرة مائة وثمانين مليون كيلومتراً، فتلك الدائرة تكون بمسافة خمس وعشرين ألف سنة تقريباً.ـــــ المؤلف.

جسم الذباب من الجواهر المعنوية النفيسة، كالعين والاذن ومن بدائع الصنعة، ما لا املكه قط وما هو خارج عن طوقي. وهكذا يوبّخ المدّعي.

فينبرى ذلك المدّعي قائلا بلسان الفلسفة المتغطرسة المتفرعنة:

– ما دمت لست مالكة لنفسك، بل خادمة، فاذن انت مملوكة لي وتحت تصرفي باسم الاسباب.

فردت عليه الشمس رداً قوياً باسم الحق والحقيقة وبلسان العبودية قائلة:

– انما انا اكون مملوكة لمن خلق نجوماً عالية من امثالي، واسكنَها في سمائه بكمال حكمة، وأدارها بكمال هيبة، وزيّنها بكمال زينة.

ثم ان ذلك المدّعي بدأ يحدّث نفسه: ان النجوم مختلطة مزدحمة، وهي مشتتة متباعدة بعضها عن بعض، فلعلي أجد منها موضعاً باسم موكلي فاظفر منها بشئ.. فيدخل بين النجوم.

فقال لها كما يقول الصابئة عباد النجوم باسم الاسباب وفي سبيل شركائه وبلسان الفلسفة الطاغية:

–ـ ايتها النجوم! ان حكاماً كثيرين يتحكمون فيكم لشدة تشتتكم وتبعثركم.

فاجابته نجمة واحدة نيابة عن النجوم: ما اشد بلاهتك ايها المدعي الاحمق.ألا ترى علامة التوحيد وطغراء الاحدية على وجوهنا، ألا تفهمها؟. ألا تعلم انظمتنا الراقية وقوانين عبوديتنا الصارمة؟ اتظننا بلا نظام؟

فنحن مخلوقون عبيداً لواحد أحد يمسك في قبضته امورنا وامور السموات التي هي بحرنا والكائنات التي هي شجرتنا وفضاء العالم الواسع الذي هو مسيرنا. فنحن شواهد نورانية كالمصابيح المنيرة ايام المهرجانات نبيّن كمال ربوبيته سبحانه، ونحن براهين ساطعة نعلن عن سلطنة ربوبيته، فكل طائفة منا خدمة عاملون نورانيون ندل على عظمة سلطنته في منازل علوية سفلية دنيوية برزخية اخروية.

نعم، اننا معجزة باهرة من معجزات قدرة الواحد الأحد. وثمرة يانعة لشجرة الخلقة. وبرهان منور للوحدانية. فنحن للملائكة مترل وطائرة ومسجد، وللعوالم العلوية مصباح

وشمس، وعلى سلطنة الربوبية شاهد، ولفضاء العالم وقصره زينة وزهرة. وكأننا اسماك نورانية تسبح في بحر السماء، وعين جميلة لوجه السماء .[184]فكما ان كلاً منا هكذا فان في مجموعنا: سكوت في سكون.. وحركة في حكمة.. وزينة في هيـــبة.. واستواء خلقة في انتـــــظام.. واتقان صنـــــعة في مـــــوزونية. لهــــذا نشهد بألسنة غير محدودة على وحدانية صانعنا الجليل وبأحديته وصمدانيته وعلى اوصاف جمـــاله وكماله وجــــلاله ونعـــــلن هـــذه الشـــهادة على اشهاد الكائنات جـــــميعــــها.. أفبعــــد هذا تـــتـــهمــــنــــا ونحن العــبيد الطــاهرين المطــيعــين المسخرين باننا في فوضى واختلاط وعبث بل بـــلا مولى ومالك؟ فانك لا شك تستحق التأديب على اتهامك هذا.. فترجم نجمةٌ واحدة ذلـــك المدعي فتطرحه من هناك الى قعر جهنم وبِئس المصير. وتقذف معه الطبيعة ومدّعيها الى وادي الأوهام[185]وتلقي المصادفة الى بئر العدم، والشركاء الى ظلمات الامتناع والمحال، والفلســفة المعادية للدين الى اسفل سافلين.

فترتل تلك النجمة مع النجوم كلها قوله تعالى:

(لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا)

معلنة أن لا مجال لشريك قط ولا حدّ له ان يتدخل حتى في ادنى شئ اعتباراً من جناح ذبابة الى قناديل السماء.

---

[184] فنحن مشاهدو مصنوعات الخالق البديعة، والمشيرون اليها، بل نجعل الآخرين يشاهدونها باعجاب.. اي كأن السماء تنظر الى عجائب الصنعة الالهية في الارض بما لا يحدّ لها من عيون.. فالنجوم كملائكة السماء تنظر الى الارض التي هي محشر العجائب، ومعرض الغرائب ، بل تستقطب أنظار ذوي الشعور اليها. - المؤلف.

[185] وبعد ما هوت الطبيعة ندمت عمّا فعلت فتابت، وعلمت ان وظيفتها الحقيقية القبول والانفعال، لا التأثير والفعل، وانها تعمل وفقاً لقدرة ا ومشيئته فهي كدفتر للقدر الالهي - دفتر قابل للتبديل والتغيير - وبما يشبه منهج القدرة الربانية. ونوعاً من شريعة فطرية للقدير ذي الجلال. ومجموعة قوانينه.. فقبلت الطبيعة وظيفتها وهي العبودية بكمال العجز والانقياد، وتسمت باسم الفطرة الالهية والصنعة الربانية.ـــــ المؤلف.

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد سراج وحدتك في كثرة مخلوقاتك ودلاّل وحدانيتك في مشهر كائناتك وعلى آله وصحبه اجمعين.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(فَانْظُر اِلى آثَارِ رَحْمتِ اللهِ كَيْفَ يُحيْيِ الاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها)

(سورة الروم:50)

هذه الفقرة العربية تشير الى زهرة واحدة

من البستان الازلي لهذه الآية الكريمة

حتى كأن الشجرة المزهّرة.. قصيدة منظومة محرّرة .. وتُنشد للفاطر المدائح المبهّرة.

او فتحتْ بكثرةٍ عيونَها المبصّرة.. لتنظر للصانع العجائب المنشّرة.

او زيّنت لعيدها اعضاءها المـــخـــضّرة.. ليشهدَ سُلطانُها آثارَه المنوّرة .. وتشـــهر في الـــمحـــضر مرصّعات الجوهر.. وتعلن للبشر حكمة خلق الشجر.. بكثرها المدخر من جود رب الثمر.

سبحانه ما احسن احسانه! ما ازين برهانه ما أبين تبيانه!.

خيال بيند ازين اشجار ملائك را جسد آمد سماوي با هزاران نى.. ازين نيها شنيدت هوش ستايشهاى ذات حي.. ورقهارا زبان دارند همه هو هو ذكر آرند بدر معنـــاى حـــي حي.. جو لا إله الاّ هو برابر ميزند هر شئ.. دمادام جويدند يا حق سراسر كويدند يا حى برابر ميزند الله (ونزّلنا من السماءِ ماءً مُباركاً) (ق:9)

ذيل صغير

للموقف الاول

فاستمع للآية الكريمة:

(أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها...) الى آخر الآية (ق:6).

ثم انظر الى وجه السماء! كيف ترى سكوتاً في سكونة، حركة في حكمة، تلألـــؤاً في حشمة، تبسماً في زينة، مع انتظام الخلقة، مع اتزان الصنعة. تشعشُعُ سراجِها، تهلُلُ مصباحِها تلألؤ نجومها، تعلن لأهل النهى، سلطنة بلا انتهاء.

هذه الفقرات (العربية) انما هي ترجمة بعض معاني الآية الكريمة المتصدرة، وهي تعني: ان الآية الكريمة تلفت نظر الانسان الى وجه السماء الجميل المزّين. ليرى بتلك الملاحظة وانعـــام النظر؛ سكوتاً وصمتاً في سكون وهدوء، وليعلم ان السماء قد اتخذت ذلك الوضع الهـــادئ، بأمر قدير مطلق القدرة وبتسخيره. اذ لولا تلك القدرة المطلقة، اي لو كانت السماء مفلوتة الزمام، طليقة في حركاتها وسكناتها، لكانت تلك الاجرام الهائلة، المتداخل بعضها في البعض،

وتلك الكرات الضخمة، تحدث بحركاتها الرهيبة اصواتاً مدوية مخيفة تصم سمع الكائنات قاطبة، ولحدث من الاختلاط والاضطراب ما تتلاشى من شدته الكائنات كلها، اذ من المعلوم انه لو ثار عشرون جاموساً في حقل لاختلط الحابل بالنابل، ولتسبب الدمار والهرج والمرج، فكيف باجرام سماوية اضخم من ارضنا بألف مرة، تنطلق في سرعةٍ هي أسرع من القذيفة بسبعين مرة، كما هو ثابت في علم الفلك! فافهم من هذا ان الهدوء الذي يعم الاجرام ويخيم على السماء انما يبيّن مدى سعة قدرة القدير ذي الكمال ومدى هيمنة تسخير الصانع الجليل لها، ومدى انقياد النجوم وخضوعها لأوامره تعالى.

(حركةً في حكمة): ثم ان الآية الكريمة تأمر ايضاً بمشاهدة ما في وجه السماء من حركة ضمن حكمة. اذ إنها حركات عظيمة تسير ضمن حكمة دقيقة واسعة تتحير منها الالباب ويقف امامها الانسان باعجاب واكبار.. فكما ان صناعاً ماهراً يدير دواليب معمل وتروسه على وفق حكمة محددة، انما يبين بعلمه هذا درجة مهارته ودقة صنعته ضمن عظمة المعمل وانتظامه، كذلك القدير المطلق الجليل (وله المثل الاعلى) الذي يعطى للشمس وسياراتها وضعاً خاصاً شبيهاً بوضع معمل عظيم. فيدير تلك الكرات الهائلة، كأنها احجار مقلاع صغيرة، ودواليب معمل بسيط، يديرها حول الشمس، امام الأنظار ليدرك الانسان بتلك النسبة طلاقة قدرته وسعة حكمته.

(تلألؤا في حشمة، تبسماً في زينة): اي أن في وجه السماء ايضاً سطوعاً باهراً وتهللاً مهيباً، وتبسماً وبشاشة في زينة وجمال، مما يبيّن عظمة سلطنة الصانع الجليل، ومدى الدقة في صنعته الجميلة. اذ كما أن إضاءة مصابيح وانوار واظهار مظاهر الفرح والبهجة في يوم اعتلاء السلطان العرش، إنما هو لبيان درجة كماله في مضمار الرقي الحضاري. كذلك السموات العظيمة بنجومها المهيبة تُظهر لنظر المتأمل كمال سلطنة الصانع الجليل وجمال صنعته البديعة.

(مع انتظام الخلقة، مع اتزان الصنعة): تقول العبارة: انظر الى انتظام المخلوقات في وجه السماء، وافهم وزان المصنوعات بموازين دقيقة، وادرك من هذا: ما اوسع قدرة صانع هذه المخلوقات ومَا اعمّ حكمته!

نعم! ان ادارة مواد صغيرة او اجرام وحيوانات، وتدويرها وتسخيرها، وسوق كل منها الى طريق خاص يعيّن بميزان مخصص، تبين مدى قدرة القائم بها ومدى حكمته ومدى طاعة تلك المواد والحيوانات وانقيادها لأوامره. كذلك الأمر في السموات الواسعة جداً. فانها تبين بعظمتها المحيرة، وبنجومها الجسيمة التي لا يحصرها العد وبحركاتها الفائقة، مع عدم تجاوزها عمّا قدّر لها من حدود ولو قيد أنملة وعدم تخلفها عنها ولو بلحظة، وعدم توانيها عن اداء ما وكل بها من واجب ولو بعشر معشار الدقيقة.. اقول انها تبين للانظار ان صانعها وخالقها الجليل يظهر ربوبيته الجليلة باجرائه هذه الامور بميزان دقيق خاص.

(تشعشع سراجها، تهلل مصباحها، تلألؤ نجومها، تعلن لأهل النهى سلطنة بلا انتهاء).

اي ان تسخير الشمس والقمر والنجوم الوارد في آيات كثيرة امثال هذه الآية المتصدرة وما ورد في سورة »النبأ« وغيرها، كلها تبين أن تعليق سراج كالشمس في سقف السماء المزين، وهو السراج الوهاج الذي يشع النور وينشر الدفء وجعل ذلك النور كأنه حبر لكتابة مكاتيب الله الصمدانية على صحيفة الصيف والشتاء بخطوط الليل والنهار.. وكذا جعل القمر ميلاً لساعة زمانية كبرى، وآلة لقياس المواقيت وتعليقه في الاعالي شبيهاً بالساعات المنصوبة على الابراج. وذلك بجعله في منازل أهلّةٍ متفاوتة، حتى لكأن الله سبحانه يضع في كل ليلة هلالاً جديداً غير السابق على وجه السماء، ثم يعيد ويجمع تلك الأهلة ويحركها في منازلها بميزان كامل وحساب دقيق. ثم ان تزيين وجه السماء وتجميله بالنجوم المتلألئة المبتسمة في قبة السماء، لا شك انه من شعائر ربوبية لا منتهى لعظمتها، وهي في الوقت نفسه اشارات الى الوهية جليلة لا منتهى لكمالها. كل ذلك يدعو ارباب الفكر والعقل الى الايمان والتوحيد.

انظر الى الصحيفة الملونة الزاهية لكتاب الكون.

كيف صوّرها قلم القدرة المذهّب.

لم تبق نقطة مظلمة لأبصار أرباب القلوب.

فكأنه سبحانه قد حرّر آياته من نور.

انظر! ما اعظمها من معجزة حكمة، تقود الى الاذعان!

وما اسماها من مشاهد بديعة في فضاء الكون!

واستمع الى النجوم ايضاً، الى حلو خطابها الطيب اللذيذ.

لترى ما قرّره ختم الحكمة النيّر على الوجود.

انها جميعاً تهتف وتقول معاً بلسان الحق:

نحن براهين ساطعة على هيبة القدير ذي الجلال

نحن شواهد صدق على وجود الصانع الجليل وعلى وحدانيته وقدرته.

نتفرج كالملائكة على تلك المعجزات اللطيفة التي جمّلت وجه الارض.

فنحن الوف العيون الباصرة تطل من السماء الى الارض وترنو الى الجنة.

نحن الوف الثمرات الجميلة لشجرة الخلقة، علّقتنا يدُ حكمة الجميل ذي الجلال على شطر السماء وعلى اغصان درب التبانة.

فنحن لأهل السموات مساجد سيارة ومساكن دوّارة وأوكار سامية عالية ومصابيح نوّارة وسفائن جبارة وطائرات هائلة!

نحن معجزات قدرة قدير ذي كمال وخوارق صنعة حكيم ذي جلال. ونوادر حكمة ودواهي خلقة وعوالم نور.

هكذا نبيّن مائة الف برهان وبرهان، بمائة الف لسان ولسان، ونُسمعها الى مَن هو انسان حقاً.

عميت عين الملحد لا يرى وجوهنا النيرة، ولا يسمع اقوالنا البينة، فنحن آيات ناطقة بالحق.

سكتنا واحدة، طُرتنا واحدة، مسبّحات نحن عابدات لربنا، مسخّرات تحت امره.

نذكره تعالى ونحن مجذوبات بحبّه، منسوبات الى حلقة ذكر درب التبانة.

الموقف الثاني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(قل هو الله أحد_ الله الصمد)

»لهذا الموقف ثلاثة مقاصد«

المقصد الاول

ان داعية اهل الشرك والضلال الذي هوى الى الارض برجمٍ من نجمة، تخلى عن ذلك النمط من الدعوى، لانه عجز عن ان يجد في اي موضع كان، مثقال ذرة من الشرك، ابتداءً من الذرات الى المجرات، الاّ انه عاد - كالشيطان - وحاول تشكيك اهل التوحيد في التوحيد، وذلك بإلقاء الشبهات فيما يخص الاحدية والوحدانية من خلال ثلاثة اسئلة مهمة

uالسؤال الأول:

انه يقول بلسان الزندقة: يا اهل التوحيد! انني لم اتمكن من ان اجد شيئاً باسم موكلي، وعجزت عن ان اقع على شئ اتشبث به يؤيد دعاوي في الموجودات كافة، فلم اتمكن ان اثبت صواب مسلكي. ولكن كيف تثبتون انتم وجود واحدٍ أحدٍ قدير مطلق القدرة؟ فلِمَ ترون انه لا يمكن قطعاً أن تدخل ايدي اخرى مع قدرته.

الجواب: لقد أُثبت في الكلمة الثانية والعشرين اثباتاً قاطعاً ان جميع الموجودات من الذرات الى السيارات كل منها برهان نيّر على وجوب وجوده سبحانه، وهو الواجب الوجود والقدير المطلق، فكل سلسلة من السلاسل الموجودة في العالم دليل قاطع على وحدانيته، وقد

اثبت القرآن الكريم هذا، بما لا يحد من البراهين، الاّ انه يزيد من ذكر البراهين الظاهرة لعموم المخاطبين.

ففي قوله تعالى (ولَئن سألتَهم مَن خَلَقَ السموات والارضَ لَيقولُنّ الله) (الزمـــر:38).. وقوله تعالى(ومِن آياته خَلقُ السموات والارض واختلافُ ألسِنَتِكُم وألوانِكُم) (الـــروم:22) وامثالها من الآيات العديدة يعرض القرآن الكريم خلق الســـموات والارض برهانـــاً علـــى الوحدانية بدرجة البداهة. فكل مَن يملك شعوراً مضطر الى تصديق خالقه في خلقه السموات والارض كما في قوله تعالى: (ليقولُنّ الله).

ولقد بينا في الموقف الاول بوضوح ختمَ التوحيد وسكّته على الموجودات، ابتداءً مـــن ذرة واحدة الى السيارات والى السموات. فالقرآن الكريم يطرد الشرك وينفيه ابتـــداءً مـــن النجوم والسموات وانتهاءً الى الذرات، بمثل هذه الآيات الجليلة، فيشير ويومىء الى:

أن القدير المطلق الذي خلق السموات والارض في نظام بديع لابد وان تكون المنظومة الشمسية – التي هي من دوائر مصنوعاته – في قبضته بالبداهة.

وما دام ذلك القدير المطلق يمسك الشمس وسياراتها في قبضته وينظمهـــا ويســـخّرها، ويديرها. فلابد ان الارض التي هي جزء من تلك المنظومة ومرتبطة بالشمس في قبضته سبحانه وضمن ادارته وتدبيره ايضاً.

وما دامت الكرة الارضية ضمن تدبيره سبحانه وضـــمن ادراتـــه، فالبداهـــة تكـــون المصنوعات التي تُخلق وتكتب على وجه الارض التي هي بمثابة ثمـــرات الارض وغاياتهـــا في قبضة ربوبيته سبحانه.

وما دامت جميع المصنوعات المنشورة والمنثورة على وجه الارض والتي تجمّلها وتزيّنها وتملؤها وتفرغها منها كل حين في قبضة قدرته وعلمه، وانها توزن وتـــنظم بميـــزان عدلـــه وحكمته، وان جميع الانواع في قبضة قدرته سبحانه، فلابد ان افرادها المنتظمة المتقنة – التي كل منها بمثابة مثال مصغر للعالم وفهرس انواع الكائنات، وفهارس مصغرة – تكون بالبداهة في قبضة ربوبيته سبحانه وايجاده وضمن ادارته وتربيته.

ومادام كل ذي حياة في قبضة تدبيره وتربيته، فلابد ان الحجيرات والكريات والاعضاء والاعصاب – التي تشكل وجود ذلك الكائن الحي – في قبضة علمه وقدرته بالبداهة.

وما دامت كل حجيرة وكل كرية دموية منقادة لأوامره سبحانه، وضمن تدبيره وتصريفه الامور، وتتحرك وفق قانونه. فلابد ان جميع موادها الاساسية، وجميع ذراتها التي تنسج منها نقوش صنعها في قبضة قدرته، وضمن دائرة علمه بالضرورة، ولابد أنها تتحرك بانتظام وتؤدي الوظائف على أتم وجه بأمره وإذنه وقوته.

وما دامت حركة كل ذرة واداؤها الوظائف، بقانونه وإذنه وامره، فلابد ان تشخصات الوجه وملامحه ووجود العلامات الفارقة المميزة لكل فرد عن الآخر سواءً في الملامح، أو في الألسنة، انما هو بعلمه وحكمته بالبداهة.

فتدبّر في هذه الآية الكريمة التي تبين مبدأ هذه السلسلة (المذكورة) ومنتهاها:

(ومن آياته خَلقُ السموات والارض واختلافُ ألسِنَتِكُم وألوانِكُم، انّ في ذلك لايات للعالمين) (الروم:22)

فيا داعية اهل الشرك! ان البراهين التي تثبت مسلك التوحيد وتدل على قدير مطلق القدرة قوية كثيرة بقوة سلسلة الكائنات، اذ مادام خلق السموات والارض يدل على صانع قدير، ويدل على قدرته المطلقة، وعلى كمال تلك القدرة لديه، فلابد من استغناء مطلق عن الشركاء، اي لا حاجة الى شركاء في اية جهة كانت. فإذ لا احتياج – كما ترى – فَلِمَ اذن تنساق في هذا المسلك المظلم؟ ما الذي يدفعك الى الدخول هناك؟ وحيث لا حاجة الى شركاء، والكائنات كلها مستغنية عن الشركاء استغناءً مطلقاً فلا شك ان وجود شريك للالوهية والربوبية وفي الايجاد ايضاً ممتنع محال؛ لان القدرة التي يملكها صانع السموات والارض قدرة لا منتهى لها وهي في غاية الكمال – كما اثبتنا – ولو وجد شريك يلزم ان تكون قدرة اخرى متناهية تغلب تلك القدرة غير المتناهية والتي هي في غاية الكمال وتستولى على موضعٍ منها فتمنع لا تناهيها وتجعلها في وضع عجز معنوي، وتحدّها وهي غير محدودة بالذات، بمعنى ان شيئاً متناهياً يُنهي مالا يتناهى وهو في كمال لاتناهيه ويجعله متناهياً!! وهذا هو أبعد المحالات وابعد الممتنعات عن العقل والمنطق.

ثم ان الشركاء مستغنىً عنها، وممتنعة بالذات، كما ان وجودها محال، فادعاء الشـــركاء اذن ادعاء تحكّمى ليس إلاّ. اذ لعدم وجود سبب لإدعاء تلك الدعوى عقلاً ومنطقاً وفكـــراً يُعدّ كلاماً لا معنى له، ويطلق على مثل هذه الدعوى في علم الاصول مصطلح: تحكمى، بمعنى انه دعوىً مجردة لا معنى لها.

ومن الدساتير المقررة في علم الكلام والاصول:

(لا عبرة للاحتمال غير الناشئ عن دليل، ولا ينافي الإمكان الذاتي اليقينَ العلمى).

مثال ذلك: من الممكن والمحتمل ان تتحول بحيرة (بارلا) الى دبس وينقلب الى دهـــن، وهذا احتمال ولكن هذا الاحتمال لا ينشأ من أمارة، فلا يؤثر ولا يلقي شكاً ولا شـــبهة في يقيننا العلمي بأن البحيرة من ماء.

وعلى غرار هذا فقد سألنا من كل ناحية من نواحي الموجودات، ومن كل زاوية مـــن زوايا الكائنات،ومن كل شئ ابتداءً من الذرات الى السيارات - كما في الموقـــف الاول - ومن خلق السموات والارض الى اختلاف ألوان الانسان وألسنته - كما يشـــاهد في هـــذا الموقف الثاني - فكان الجواب: شهادة صدق للوحدانية بلسان الحال، ودلالة قاطعة بوجـــود ختم التوحيد المضروب على كل شئ، وقد شاهدتَه بنفسك ايضاً.

لذا فلا توجد اية امارة في موجودات الكائنات يمكن ان يبنى عليها احتمال الشـــرك. بمعنى ان دعوى الشرك دعوى تحكمية بحتة، أو كلام لا معنى له، ودعوى مجردة عن الحقيقة، لذا فان من ادّعى الشرك بعد هذا فهو اذن في جهالة جهلاء وبلاهة بلهاء.

فأمام هذه الحجج الدامغة يبقى داعية اهل الضلالة مبهوتاً لا يتمكن من النطق بشىء إلاّ انه يقول: ان ما في ا لكائنات من ترتيب الاشياء، أمارةٌ على الشرك، اذ كل شـــئ مربـــوط بسبب، بمعنى ان للاسباب تأثيراً حقيقياً، واذ لها تأثير، فيمكن ان تكون شركاء!.

الجواب: ان المسببات قد رُبطت بالاسباب بمقتضى المشيئة الإلهية وحكمتها، ولإستلزام ظهور كثير من الاسماء الحسنى، يُربط كل شئ بسبب. ولقد اثبتنا في كثير من المواضـــع، وفي كلمات متعددة اثباتاً قاطعاً أنه ليس للاسباب تأثير حقيقي في الايجاد والخلق، ونقول هنا:

ان الانسان بالبداهة هو اشرف الاسباب واوسعها اختياراً واشملها تصرفاً في الامـــور، وهو في اظهر افعاله الاختيارية، كالأكل والكلام والفكر - التي كل منها عبارة عن سلســـلة عجيبة وفي غاية الانتظام والحكمة - ليس له نصيب منها الاّ واحداً من مائـــة جـــزء مـــن السلسلة.

فمثلاً: سلسلة الافعال التي تبدأ من الاكل وتغذية الحجيرات حتى تبلغ تشكل الثمرات، ليس للانسان - ضمن هذه السلسلة الطويلة - الاّ مضغه للطعام. ومن سلسلة التكلم ليس له الاّ ادخال الهواء الى قوالب مخارج الحروف واخراجه منها. علماً ان كلمة واحدة في فمه مع كونها كالبذرة، الاّ انها في حكم شجرة حيث انها تثمر ملايين الكلمات نفســـها في الهـــواء وتدخل الى اسماع ملايين المستمعين بينما لا تصل الى هذه الشجرة المثالية والسنبل المثـــالي الاّ يد خيال الانسان.. فأنّى لليد القصيرة للاختيار ان تصل اليه.

فان كان الانسان وهو أشرف الموجودات واكثرها اختياراً، مغلول اليد عـــن الايجـــاد الحقيقي، فكيف بالجمادات والبهائم والعناصر والطبيعة، كيف تكـــون متصـــرفة تصـــرفاً حقيقياً؟!.

فتلك الاسباب ما هي الاّ اغلفة المصنوعات الربانية، وظروف الهدايا الرحمانية، وخَدمة لتقديمها فلاشك ان الصحون التي تُقدّم فيها هدايا السلطان او القماش المغلـــف للهديـــة أو الجندي الذي سُـــلّمت بيده هدية السلطان لن يكون شريكاً للسلطان قطعاً. فمَن توهم ذلك فقد تفوه بهذيان ما بعده هذيان.

وهكذا ليست للاسباب الظاهرية والوسائط الصورية حصة في الربوبية الإلهية قطعـــاً، وليست لها الاّ القيام بخدمات العبودية.

المقصد الثاني

بعد ان عجز داعية اهل الشرك عن اثبات مسلك الشرك، ويئس من اثباته في اية جهة كانت، رغب في محاولة إلقاء شكوكه وشبهاته لهدم مسلك اهل التوحيد.

uفسأل السؤال الثاني قائلاً:

- يا اهل التوحيد! أنتم تقولون: (قل هو الله احد_ الله الصمد) أي ان خالق العالم واحد، أحد، صمدٌ، وهو خالق كل شئ، بيده مقاليد كل شئ، وهو الأحد الفرد، بيده مفاتيح كل شئ، أخذ بناصية كل شئ، يتصرف في الاشياء كلها في آن واحد، باحوالها كافة دون أن يمنع شئٌ شيئاً.. كيف يمكن تصديق حقيقة عجيبة كهذه؟ فهل يمكن لواحد مشخّص ان يقوم باعمال غير متناهية في اماكن غير متناهية وبلاصعوبة؟

الجواب: يجاب عن هذا السؤال ببيان سر الأحدية والصمدانية، الذي هو في غاية العمق ومنتهى الرفعة ونهاية السعة، حتى ان فكر الانسان يقصر عن فهم ذلك السر العظيم الاّ بمنظار التمثيل ورصد المَثَل. وحيث أنه لا مِثل ولا مثيل لذات الله سبحانه ولا لصفاته الجليلة، الاّ ما كان من المَثَل والتمثيل في شؤونه الحكيمة. لذا نشير الى ذلك السر بأمثلة مادية:

المثال الاول:

كما اثبتنا في الكلمة السادسة عشرة ان شخصاً واحداً يكسب صفة كلية بوساطة المرايا، ومع كونه جزئياً حقيقياً يصبح في حكم كلّي مالكٍ لشؤون كثيرة.

وكما ان الزجاج والماء وامثالهما من المواد تكون مرايا للاشياء الجسمانية (المادية) وتُكسب الشئ المادي صفة كلية، كذلك الهواء والاثير وبعض موجودات عالم المثال يصبح في حكم مرايا ويتحول الى صورة وسائط للسير والسياحة، في سرعة البرق والخيال، بحيث يتجول اولئك النورانيون والروحانيون في تلك المرايا الطاهرة، وفي تلك المنازل اللطيفة في سرعة الخيال، فيدخلون في آن واحد الوف الاماكن والمواضع. وحيث انهم نورانيون وصورهم في المرايا هي عينُهم ومالكةٌ لصفاتهم - بخلاف الجسمانيين - فانهم يسيطرون على

تلك الاماكن كأنهم موجودون فيها بذواتهم. بينما صور الجسمانيين الكثيفة، ليست عينـــها، كما انها ليست مالكة لصفاتها، فهي ميتة.

مثلاً: الشمس، مع انها جزئي مشخّص، الاّ انها تصبح في حكم كلي بوســاطة المـــواد اللماعة، اذ تعطي صورتها ومثالها الى كل مادة لّماعة على سطح الارض، والى كل قطرة ماء، والى كل قطعة زجاج – كل حسب قابليته – فتكون حرارة الشمس وضياؤها وما فيه مـــن الوان سبعة، مع نوع من صورة ذاتها المثالية موجودةً في كل جسم لـــمّاع.

فلو فُرض ان للشمس علماً وشعوراً لكانت كل مرآة، شبيهة بمنزلها وبمثابـــة عرشـــها وكرسيّها وتلتقي بذاتها كل شئ، وتتصل – كما في الهاتف – مع كل ذي شعور بوســـاطة المرايا.. بل حتى ببؤبؤ عينه، فما يمنع شئ شيئاً ولا تحجب مخابرةٌ بالهاتف مخابرة اخرى. فمع انها موجودة في كل مكان الاّ انها لا يحدها مكان.

فالشمس التي هي في حكم مرآة مادية وجزئية وجامعة لإسمٍ واحدٍ من الف اسم واسم من الاسماء الإلهية الحسنى، وهو »النور« ان كانت مع تشخصها تنال الى هذه الدرجة مـــن الافعال الكلية وتكون في اماكن كلية، أفلا يستطيع ذلك الجليل ذو الجلال باحديته الذاتية ان يفعل ما لا يتناهى من الافعال في آن واحد؟!

المثال الثاني:

لما كانت الكائنات في حكم شجرة، يمكن اتخاذها اذن مثالاً لإظهار حقائق الكائنات. فنأخذ هذه الشجرة الضخمة التي امام غرفتنا، وهي شـــجرة الـــدُلب العـــظيمة، بوصـــفها مثـــالاً مـــصغراً للكائـــنات. وسنبين تجلي الأحدية في الكائنات بوساطتها، على النحـــو الآتي:

ان لهذه الشجرة ما لايقل عن عشرة آلاف ثمرة، ولكل ثمرة ما لايقل عن مئـــات مـــن البذور المجنحة، اي أن كل هذه الاثمار العشرة الاف والمليون من البذور تكون موضع الايجاد والاتقان في آن واحد، بينما توجد العقدة الحياتية في البذرة الأصلية لهذه الشجرة، وفي جذرها وفي جذعها، وهي شئ جزئي ومشخص من تجلي الارادة الإلهية ونواة من الامـــر الربـــاني، وبهذا التجلي الجزئي تتكون مركزية قوانين تشكيل الشجرة، الموجودة في بداية كل غصـــن

وداخل كل ثمرة وجنب كل بذرة، بحيث لا تدع شيئاً ناقصاً لأي جزء من اجزاء الشجرة ولا يمنعها مانع.

ثم ان ذلك التجلي الواحد للارادة الإلهية والأمر الرباني، لا ينتشر الى كل مكان، كانتشار الضياء والحرارة والهواء، لأنه لا يترك اثراً في تلك المسافات البعيدة للاماكن التي يذهب اليها، وفي المصنوعات المختلفة، بل لا يُرى له اثر قط. اذ لو كان ذلك بالانتشار لبان الاثر. وانما يكون جنب كل جزء من الاجزاء دون تجزئة ولا انتشار. ولا تنافي تلك الافعال الكلية احديته وذاتيته.

لذا يصح ان يقال: ان ذلك التجلي للارادة وذلك القانون الأمري، وتلك العقدة الحياتية موجودة جنب كل جزء من الاجزاء، ولا ينحصر في اي مكان اصلاً. حتى كأن في هذه الشجرة المهيبة عيوناً واذاناً لذلك القانون الامري، بعدد الاثمار والبذور، بل ان كل جزء من اجزاء الشجرة في حكم مركز لحواس ذلك القانون الأمري، بحيث لا تكون المسافات البعيدة مانعاً بل وسيلةَ تسهيلٍ وتقريب - كأسلاك الهاتف - فالأبعد كالأقرب سواء بسواء.

فما دمنا نشاهد تجلياً جزئياً واحداً من تجليات صفة الارادة للأحد الصمد، في مليونٍ من الامكنة، ويكون مبعث ملايين الافعال، دون داعٍ الى وساطة، فلابد من لزوم اليقين بدرجة الشهود، بقدرة الذات الجليلة على التصرف في شجرة الخلق، بجميع اجزائها وذراتها معاً، بتجلٍ من تجليات قدرته وارادته سبحانه وتعالى.

وكما اثبتنا واوضحنا في الكلمة السادسة عشرة، نقول هنا:

ان مخلوقات عاجزة ومسخّرة كالشمس، ومصنوعات شبه نورانية مقيّدة بالمادة كالروحاني، ان كان يمكن أن توجد في موضع واحد وفي عدة مواضع في الوقت نفسه، بسر النورانية؛ اذ بينما هو جزئي مقيّد يكسب حكماً كلياً مطلقاً، يفعل باختيار جزئي اعمالاً كثيرة في آن واحد.. فكيف اذن بمن هو مجرد عن المادة، ومقدّس عنها، ومَن هو منزّه عن التحديد بالقيد وظلمة الكثافة ومبرأ عنها، بل ما هذه الانوار والنورانيات كلها الاّ ظلال كثيفة لأنوار اسمائه الحسنى، وما جميع الوجود والحياة كلها وعالم الارواح وعالم المثال الاّ

مرايا شبه شفافة لإظهار جمال ذلك القدوس الجليل الذي صفاته محيطة بكل شـــئ وشـــؤونه شاملة كل شئ.

تُرى اي شئ يستطيع ان يتستر عن توجه أحديته في تجلي صفاته المحيطة، وتجلي افعالـــه بارادته الكلية وقدرته المطلقة وعلمه المحيط بكل شئ؟

وأي شئ يصعب عليه؟ واي شئ يستطيع أن يتخفى عنه؟

أوَ يمكن أن يمنع شئٌ شيئاً؟ أفيمكن أن يخلو موضع من حضوره؟ ألا يكون لـــه بصـــر يبصر كل موجود وسمع يسمع كل موجود، كما قال ابن عباس رضى الله عنه؟

أوَ لا تكون سلسلة الاشياء كالاسلاك والعروق لجريان اوامره وقوانينه بسرعة؟ أفـــلا تكون الموانع والعوائق وسائل ووسائط لتصرفه؟ أوَ لا تكون الاســـباب والوســـائط حجبـــاً ظاهرية بحتة؟

ألا يكون في كل مكان وهو المتزّه عن المكان؟ أيمكن ان يكون محتاجـــاً الى التحيـــز والتمكّن؟ أيمكن ان يكون البُعد والصِغَر وحُجب طبقات الوجود موانـــع لقُربـــه وتصـــرفه وشهوده؟ وهل يمكن ان تلحق بالذات المقدسة لله سبحانه المجردّ عن المادة، الواجب الوجود، نور الانوار الواحد الأحد، المتزّه عن القيود، المبرأ عن الحدود، المقدس عن القصور، والمعلّـــى عن النقصان خواص الماديات والممكنات والكثيفات والكثيرات والمقيدات، وما يلزم المـــادة والامكان والكثافة والكثرة والتقيد والمحدودية من امور، امثال التغير والتبدل والتجزؤ؟

أيليق به العجز؟ أيقرب القصور من طرف عزته الجليلة جل جلاله.؟!

حاشَ للّه، وكلا. وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

خاتمة المقصد الثاني

بينما كنت متأملاً ومستغرقاً في تفكر يخص الأحدية، نظرت الى ثمرات شجرة الـدلب القريبة من غرفتي، فخطر الى القلب تفكر متسلسل بعبارات عربية، فكتبتُه كما ورد بالعربية وسأذكر توضيحاً مختصراً له.

فالبذورُ والاثمارُ، والحبوبُ والازهارُ معجزاتُ الحكمة.. خـوارقُ الصـنعة.. هـدايا الرحمة.. براهينُ الوحدة.. شواهدُ لطفِه في دار الاخرة.. شواهدُ صادقة بان خلاّقها على كل شيء قدير وبكل شيء عليم. قد وَسِع كل شيء بالرحمة والعلم والخلق والتـدبير والصـنع والتصوير. فالشمسُ كالبذرة، والنجمُ كالزهرة، والارضُ كالحبة، لا تثقـل عليـه بـالخلق والتدبير، والصنُع والتصوير. فالبذور والاثمار مرايا الوحدة في اقطار الكثرة، اشاراتُ القَـدَر، رموزاتُ القُدْرَة بان تلك الكثرة من منبع الوحدة، تصدُرُ شاهدةً لوحدةِ الفـاطر في الصـنع والتصوير. ثم الى الوحدة تنتهي ذاكرةً لِحكمة الصانعِ في الخلق والتدبير.. وتلويحات الحكمة بأن خالق الكل – بكُلّية النَظَر الى الجزئي – ينظُرُ ثَمَّ الى جزئه، اذ إن كان ثمراً فهو المقصود الأظهرُ مِن خلق هذا الشجر..

فالبشر ثمرٌ لهذه الكائنات، فهو المقصود الأظهر لخالق الموجودات. والقلبُ كالنواة، فهو المرآة الأنور، لصانع المخلوقات من هذه الحكمة. فالانسان الاصغرُ في هذه الكائنات هو المدار الاظهرُ للنشر والمحشر في هذه الموجودات، والتخريبِ والتبديلِ والتحويلِ والتجديـد لهـذه الكائنات.

ومبدأ هذه الفقرة العربية هو:

فسبحان مَن جعل حديقةَ ارضِه مَشْهَر صَنعتِه، مَحْشَرَ فِطرتَه، مَظْهَر قُدرتـه، مَـدار حِكمته، مَزْهَر رحمته، مَزْرَع جنته، ممرَّ المخلوقات، مَسيلَ الموجودات، مَكيلَ المصنوعات.

فمُزَيَّنُ الحيوانات، مُنَقّشُ الطيورات، مثمَّرُ الشجرات، مزهَّرُ النباتات؛ معجزاتُ عِلمه، خوارقُ صُنعه، هدايا جُودِه، براهينُ لطفه.

تبسُّمُ الازهارِ من زينةِ الاثمار، تسجُّعُ الاطيارِ في نَسمةِ الأسحار، تهزُّجُ الأمطارِ على خدودِ الازهار، ترحُّمُ الوالدات على الاطفالِ الصغارِ.. تعرُّفُ ودودٍ، تودّد رحمــن، تــرحُّم حنّان، تحنن منّان، للجن والانسان، والروح والحيوان والملك والجان.

وتوضيح هذا التفكر الذي ورد باللغة العربية هو:

ان جميع الاثمار وما فيها من بذيرات، معجزات الحكمة الإلهيــة.. خــوارق الصــنعة الإلهية.. هدايا الرحمة الإلهية.. براهين مادية للوحدانية.. بشائر الألطاف الإلهيــة في الــدار الآخرة.. شواهد صادقة بأن خلاّقها على كل شئ قدير، وبكل شئ عليم.. فالبذور والاثمار، مرايا الوحدة في اقطار عالم الكثرة، وفي اطراف هذه الشجرة المتشعبة كالعالم، تُصرِف الانظارَ من الكثرة الى الوحدة.

فكل ثمر وبذر يقول بلسان الحال: لا تتشتت في هذه الشجرة الضخمة الممتدة الاعضاء والعروق فكل ما فيها فينا، كثرتُها داخلة ضمن وحدتنا، حتى ان البذرة – وهي كقلب الثمرة –هي الاخرى مرآة مادية للوحدانية، فهي تذكر الاسماء الحسنى ذكراً قلبياً خفياً بمثــل مــا تذكرها الشجرة ذكراً جهرياً.

فكما ان تلك الاثمار والبذور مرايا للوحدانية، فهي اشارات مشهودات للقدر، رموزات مجسمات للقدرة، بحيث ان القدر يشير بها، والقدرة تقول بها رمزاً: ان هذه الشجرة باغصانها المتشابكة قد نمت من بذرة، فهي تدل على وحدانية صانعها في الايجاد والتصوير، ثم تجمــع حقيقتها في ثمرةٍ بعد تشعب اغصانها وفروعها وتدرج معانيها كلها في بذرة. فتــدل علــى حكمة خالقها الجليل في الخلق والتدبير.

وكذلك شجرة الكائنات هذه، فهي تأخذ وجودها من منبع الوحدانية وتتربى بهــا، وتثمر ثمرة الانسان الدال على الوحدانية في هذه الكثرة من الموجودات. فالقلب يــرى ســر الوحدانية بعين الايمان في هذه الكثرة.

وكذا، فان تلك الاثمار والبذور؛ تلويحات الحكمة الربانية، فالحكمة تنطق بها وتُشــعر اهلَ الشعور بما يأتي:

ان النظر الكلي والتدبير الكلي في هذه الشجرة، بكل شموليتهما وسعتهما، يتوجهان الى هذه الثمرة؛ لأن تلك الثمرة مثال مصغر لتلك الشجرة، وهي المقصود منها. وذلــك النظــر الكلي والتدبير العمومي ينظر الى ما في داخل الثمرة من بذر ايضاً. اذ البذرة تحمــل معــاني الشجرة وفهرسها. بمعنى ان الذي يدبّر امور الشجرة، واسماءه التي لها علاقة بتدبيرها متوجهة الى كل ثمرة من ثمرات الشجرة، التي هي المقصودة من ايجاد الشجر..

وهذه الشجرة الضخمة قد تقلّم وتكسّر بعض اغصانها، للتجديد، لأجل تلك الثمرات الصغيرة، وتُطعّم لتثمر ثمرات باقية، ابهى جمالاً وازهى لطافة.

كذلك الانسان الذي هو ثمرة شجرة الكائنات؛ اذ المقصود من ايجادها انما هو الانسان، وغاية ايجاد الموجودات هي الانسان. وبذرة تلك الثمرة، قلب الانسان، وهو أنــور مــرآة للصانع الجليل واجمعها.

وهكذا بناء على هذه الحكمة، اصبح الانسان الصغير هذا محور انقلابات عظيمة للحشر والنشور، وسبباً لدمار الكائنات وتبديلها، اذ ينسد باب الدنيا لأجل محاكمته ويفتح بــاب الآخرة لأجله.

واذ ورد بحثٌ في الآخرة، فقد آن أوان ذكر حقيقة بليغة تبيّن جانباً من جزالــة بيــان القرآن الكريم وقوة تعابيره في معرض اثبات الحشر وهي:

ان نتيجة هذا التفكر تبيّن انه لأجل محاكمة الانسان وفوزه بالسعادة الابدية، يــدمّر الكون كله اذا لزم الأمر. فالقوة القادرة على التدمير والتبديل موجودة فعلاً وهــي ظــاهرة ومشهودة، الاّ أن للحشر مراتب:

منها ما يلزم معرفته، والايمان به فرض، وقسم آخر يظهر حسب درجــات الترقيــات الروحية والفكرية ويكون علمه والمعرفة به ضرورياً.

فالقرآن الكريم لأجل اثبات أبسط وأسهل مرتبة من مراتب الحشر اثباتاً قاطعاً يبين قدرة قادرة على فتح اوسع دائرة من دوائر الحشر واعظمها.

فمرتبة الحشر – الذي يلزم العموم الايمان به – هي: ان الناس بعد المــوت، تــذهب ارواحهم الى مقامات اخرى واجسادهم تَرِمُّ الاّ عجب الذنب – الذي هو جــزء صــغير لا

يندثر من جسم الانسان وهو في حكم بذرة – وان الله سبحانه ينشئ من هذا الجزء الصغير جسد الانسان يوم الحشر ويبعث اليه روحه.

فهذه المرتبة من الحشر سهلة الى درجة ان لها الملايين من الامثلة في كل ربيع. الاّ أن القرآن الكريم لأجل اثبات هذه المرتبة السهلة، يبيّن احياناً قدرة قادرة على حشر جميع الذرات ونشرها واحياناً يبين آثار قدرة وحكمة تتمكن من ارسال المخلوقات كافة الى الفناء والعدم ثم اعادتها من هناك.. ويبين في بعض آياته آثار وتدابير قدرة وحكمة لها من المقدرة على نثر النجوم وشق السماوات وفطرها. وتبين آيات اخرى تدابير قدرة وحكمة قادرة على اماتة جميع ذوي الحياة وبعثهم بصيحة واحدة، دفعة واحدة، ويبين في اخرى تجليات قدرة وحكمة قادرة على حشر ما على الارض من ذوي الحياة، ونشره كل على انفراد. ويبين احياناً آثار قدرة وحكمة قادرة على بعثرة الارض كلها ونسف الجبال وتبديلها الى صورة اجمل منها.بمعنى انه مما سوى مرتبة الحشر الذي هو مفروض على الجميع الايمان به ومعرفته، فان كثيراً من مراتبه يمكن أن تتحقق بتلك القدرة والحكمة. فاذا ما اقتضت الحكمة الربانية قيامها، فلابد أنه سيقيمها جميعاً مع حشر الانسان ونشره، أو سيقيم بعضاً مهماً منها.

سؤال: تقولون: انك تستعمل في »الكلمات« القياس التمثيلي كثيراً. بينما القياس التمثيلي لا يفيد اليقين حسب علم المنطق؛ اذ يلزم البرهان المنطقي في المسائل اليقينية، اما القياس التمثيلي فيستعمل في المطالب التي يكفيها الظن الغالب، كما هو لدى علماء اصول الفقه.

فضلاً عن انك تذكر التمثيلات في اسلوب الحكاية. والحكاية تكون خيالية، ليست حقيقية وقد تكون مخالفة للواقع.

الجواب: نعم! لقد ورد في علم المنطق: ان القياس التمثيلي لا يفيد اليقين العلمي. الاّ أن للقياس التمثيلي نوعاً هو أقوى بكثير من البرهان اليقيني للمنطق. بل هو اكثر يقيناً من الضرب الاول من الشكل الاول للمنطق. وذلك القسم هو:

اظهار جزء وطرف من حقيقة كلية بتمثيل جزئي. ثم بناء الحكم على تلك الحقيقة، وبيان قانون تلك الحقيقة في مادة خاصة، كي تُعرف منها تلك الحقيقة العظمى، وتُرجع اليها المواد الجزئية.

فمثلاً: الشمس توجد قريبة من كل شئ لمّاع - بوساطة النورانية - مع انها ذات واحدة. فبهذا المثال يُبيّن قانون حقيقة هي:

انه لا قيد للنور والنوراني، فالبعيد والقريب سواء. القليل والكثير يتساوى. فلا يحدّه مكان.

ومثلاً: ان تشكيل اثمار الشجرة واوراقها وتصويرها في آن واحد، بطراز واحد، بسهولة تامة، وعلى اكمل وجه، من مركز واحد، بقانون امري واحد. انما هو مثال لإراءة جزء من حقيقة عظمى وطرف من قانون كلي.

فتلك الحقيقة وقانونها يثبتان اثباتاً قاطعاً ان تلك الكائنات الهائلة، كهذه الشجرة، يجري عليها قانون الحقيقة هذا، فهي كالشجرة ميدان جولان سر الاحدية ذاك.

فالقياسات التمثيلية في »الكلمات« كلها من هذا الطراز بحيث تكون أقوى من البرهان القاطع المنطقي واكثر يقيناً منه.

الجواب عن السؤال الثاني:

من المعلوم في فن البلاغة، انه اذا كان المعنى المقصود للّفظ والكلام يراد لقصد آخر يعرف بـ »لفظ الكنائي« ولا يكون المعنى الأصلي في اللفظ الكنائي مناط صدق وكذب. بل المعنى الكنائي هو الذي يكون مدار الصدق والكذب. فلو كان المعنى الكنائي صدقاً، فالكلام صدق، وان كان المعنى الاصلي كذباً، فلا يفسد كذب هذا صدق ذاك. ولكن لو لم يكن المعنى الكنائي صدقاً، وكان المعنى الاصلي صدقاً، فالكلام كذب.

مثلاً: »طويل النجاد« اي: شخصٌ حزام سيفه طويل. هذا الكلام كناية عن طول قامة ذلك الشخص، فان كان طويلاً حقاً، فالكلام صدق وصواب وإن لم يكن له سيف ولا نجاد، ولكن ان لم يكن الرجل طويل القامة وله سيف ونجاد طويل فالكلام كذب، لأن المعنى الاصلي غير مقصود.

فالحـــــكايـــات الـــــواردة في الكلمة العاشرة والكلمة الثانية والعشرين وامثالهما، هي من الكنايات بحيث أن الحقائق التي تختم بها الحكايـــات – وهـــي في منتـــهى الصـــدق والصواب والمطابقة مع الواقع – هي المعاني الكنائية لتلك الحكايات، فمعانيها الأصلية انمـــا هي منظار تمثيلي. فكيفما كان لا يفسد صدقها وصوابها. فضلاً عن أن تلك الحكايـــــات انما هـــــي تمثيــــلات أُظهر فيها لســــان الحــــال في صورة لسان المقال، وأبرز فيهـــا الشخص المعنوي في صورة شخص مادي وذلك لأجل افهام العامة.

المقصدالثالث

ان داعية اهل الضلالة، بعدما أخذ الجواب القاطع المقنع الملزم، عـــن ســـؤاله الثـــاني[186] يسأل هذا السؤال، وهو الثالث فيقول:

uان في القرآن:»احسن الخالقين« »ارحم الراحمين« وامثالهما من الكلمات القرآنيـــة التي تُشعر بوجود خالقين وراحمين آخرين.

ثم انكم تقولون: ان رب العالمين له كمال لا منتهى له، فهو جامع لأقصى نهاية مراتب انواع الكمالات كلها، بينما كمالات الاشياء تعرف باضدادها؛ اذ لولا الالم لما كانت اللذة كمالاً، ولولا الظلام لما تحقق الضياء، ولولا الفراق لما اورث الوصال لذة، وهكذا؟

الجواب: نجيب عن الشق الاول من السؤال بخمس اشارات:

الاشارة الاولى:

ان القرآن الكريم يبين التوحيد من اوله الى آخره، ويثبته اثباتاً قاطعاً، وهذا بحـــد ذاتـــه دليل على أن تلك الانواع من الكلمات القرآنية ليست كما تفهمونها. بل قوله تعالى (احسن الخالقين) يعني: هو في احسن مراتب الخالقية، فليس له اية دلالة على وجود خالق آخـــر، اذ الخالقية لها مراتب كثيرة كسائر الصفات فقوله تعالى (احسن الخالقين) يعني: ان الخالق الجليل هو في احسن مراتب الخالقية واقصى منتهاها.

الاشارة الثانية:

---

[186] المقصود السؤال الوارد في بداية المقصد الثاني، وليس هذا السؤال الذي هو في نهاية الخاتمة. ـ المؤلف.

ان(احسن الخالقين) وامثالها من التعابير القرآنية لا تنظر الى تعدد الخالقين بل تنظـــر الى انواع المخلوقية. اي ان الخالق الذي يخلق كل شئ، يخلقه بأفضل طراز واجمل مرتبة. وقد بيّن هذا المعنى قوله تعالى (احسن كل شئ خَلَقه) وامثاله من الآيات الكريمة.

الاشارة الثالثة:

ان الموازنة الموجودة في التعابير القرآنية: (احسن الخالقين) (الله اكبر) (خير الفاصـــلين) (خير المحسنين) وامثالها، ليست موازنة وتفضيلاً بين صفات واقعيـــة لله ســـبحانه وتعـــالى، والمالكين لنماذج تلك الصفات والافعال، لأن جميع الكمالات الموجودة في الكون قاطبـــة في الجن والانس والملك، ظلٌ ضعيف بالنسبة لكماله جل وعلا، فكيف يمكن عقد موازنة بينهما؟ وانما الموازنة هي بالنسبة لنظر الناس ولاسيما لأهل الغفلة.

نورد مثالاً للتوضيح:

جندي يقدم اتم الولاء والطاعة لعريفه في الجيش، ويرى الحسنات والخيرات منه، وقد لا يخطر بباله، السلطان الاّ نادراً، بل لو خطر بباله، فإنه يقدم امتنانه وشكره ايضاً الى العريف، فيقال لمثل هذا الجندي: ان السلطان اكبر من عريفك، فقدّم شكرك اليه وحده. فهذا الكلام ليس موازنة بين القيادة المهيبة للسلطان في الواقع، وقيادة العريف الجزئية الصورية، لأن موازنة كهذه، وتفضيلاً من هذا النوع لا معنى لهما اصلاً. وانما الموازنة معقودة حسب مـــا لـــدى الجندي من اهمية وارتباط بعريفه، بحيث يفضّله على غيره، فيقدم شكره وثناءه اليه، ويحبـــه وحده.

ومثل هذا، فالاسباب الظاهرية التي هي في وهم اهل الغفلة في حكم خالقٍ، ومـــنعمٍ، والتي تكون حجاباً دون المنعم الحقيقي، اذ يتشبثون بها ويرون ورود النعمة والاحسان مـــن تلك الحجب والاسباب، فيقدمون ثناءهم ومدحهم اليها. يقول القرآن الكريم لهم: الله اكبر. أحسن الخالقين. خير المحسنين. أي توجهوا اليه واشكروه.

الاشارة الرابعة:

تعقد الموازنة والتفضيل بين الموجودات الحقيقية مثلما تعقد بـــين الاشـــياء الفرضـــية والامكانية. ثم ان اكثر ماهيات الاشياء فيها مراتب متعددة، وكذا في ماهيات الاسماء الإلهية

الحسنى والصفات الجليلة المقدسة يمكن ان توجد مراتب كثيرة. فالله سبحانه في أكمل تلـــك المراتب للصفات والاسماء من المراتب المتصوّرة والممكنة، وفي احسنها. والكون كله وما فيـــه من كمالات شاهد صدق لهذه الحقيقة، وقوله تعالى (وله الاسماء الحسنى) وصـــف لأسمائـــه كلها يعبّر عن هذا المعنى.

الاشارة الخامسة:

هذه الموازنة والمفاضَلة لا تقابل ما سواه تعالى، بل له جلّ وعلاّ نوعان من التجليـــات والصفات.

الاولى: تدبيره وتصريفه الامور على صورة قانون عام، يجري تحت ســـتار الاســـباب وحجاب الوسائط، بسر الواحدية.

الثانية: تدبيره وتصريفه الامور تدبيراً مباشراً خاصاً، دون حجاب الاســـباب، بســـر الأحدية. فاحسانه المباشر وايجاده المباشر وتجلّى كبريائه المباشر هو أعظم واجمل واعلى – بسر الأحدية – من احسانه وايجاده وكبريائه المشاهدة اثارها بالاسباب والوسائط.

فمثلاً: ان جميع موظفي السلطان، وقوّاده انما هم حجب لا غير، لو كان السلطان من الاولياء، وكان الحكم والاجراءات كلها بيده.

فتدبير الامور وتصريفها، لدى هذا السلطان نوعان:

الاول: الاوامر التي يصدرها، والاجراءات التي ينجزها بقانون عام من خلال وســـائط الموظفين والقواد الظاهريين، وحسب قابلية المقام.

الثاني: احساناته المباشرة واجراءاته المباشرة التي لا تتم من خلال قانون عام و لم يتخـــذ فيها الموظفين الظاهريين حجباً، فهذه اجمل وارفع من تلك التي تتم بصورة غير مباشرة.

(ولله المثل الاعلى) فهو سبحانه سلطان الازل والابد، وهو رب العالمين، قـــد جعـــل الاسباب حجباً لاجراءاته، اظهاراً لعزة ربوبيته وعظمتها، فضلاً عن انه وضع في قلوب عباده هاتفاً خاصاً وامرهم بقوله تعالى (اياك نعبد واياك نستعين) اي بعبودية خاصة ليتوجهوا اليـــه مباشرة تاركين الاسباب وراءهم ظهرياً، وبهذا يصرف سبحانه وجوه عباده من الكائنـــات اليه تعالى.

ففي قوله تعالى (احسن الخالقين) (ارحم الراحمين) (الله اكبر) هذا المعنى المذكور.

أما الشق الثاني من سؤال داعية اهل الضلال، فجوابه في خمسة رموز:

الرمز الاول:

يقول في السؤال: كيف يكون للشئ كمال ما لم يكن له ضد؟

الجواب: صاحب هذا السؤال يجهل الكمال الحقيقي، اذ يظنه نسبياً، بينما المزايا والفضائل والتقدم على الآخرين، الحاصلة كلها نتيجة النظر الى الاشياء الاخرى والمفاضلة معها، ليست فضائل حقيقية وكمالاً حقيقياً بل هي فضائل نسبية، فهي ضعيفه واهية تسقط من الاعتبار باهمال الغير.

مثلاً: لذة الحرارة وميزها هي بتأثير البرودة، واللذة النسبية للطعام بتأثير ألم الجوع.

فاذا ما انتفت تلك التأثيرات، قلّت اللذة وتضاءلت. بينما اللذة والمحبة والكمال والفضيلة الحقيقية هي التي لا تبنى على تصور الغير، بل تكون موجودة في ذاها. وتكون حقيقية مقررة بالذات كلذة الوجود ولذة الحياة ولذة المحبة ولذة المعرفة ولذة الايمان ولذة البقاء ولذة الرحمة ولذة الشفقة.. وحُسن النور وحسن البصر وحسن الكلام وحسن الكرم وحسن السيرة وحسن الصورة.. وكمال الذات وكمال الصفات وكمال الافعال.. وامثالها من المزايا الذاتية التي لا تتبدل بوجود غيرها او عدمه.

فكمالات الصانع الجليل والفاطر الجميل والخالق ذي الكمال كمالات حقيقية، ذاتية، لا يؤثر فيها ما سواه تعالى. بل ما سواه مظاهر ليس الاّ.

الرمز الثاني:

لقد قال السيد الشريف الجرجاني في كتابه »شرح المواقف« ان سبب المحبة: إما اللذة أو المنفعة أو المشاكلة – بين بني الجنس – أو الكمال، لأن الكمال محبوب لذاته.

اي: ايّما شئ تحبه، فإما انك تحبه للذّة، او للمنفعة او للمشاكلة الجنسية – كالميل الى الاولاد – او كونه كمالاً. فان كان السبب كمالاً فلا يلزم اي سبب آخر او غرض آخر، فهو محبوب لذاته.

مثلاً محبة الناس لأصحاب الفضائل من الاقدمين، فهم يولون لهم محبتهم واعجابهم على الرغم من عدم وجود رابطة وعلاقة تربطهم بهم، فكمال الله سبحانه وكمال مراتب اسمائه الحسنى كمال حقيقي، لذا فهو محبوب لذاته. والله سبحانه وتعالى الذي هو محبوب بالحق، وحبيب حقيقي يحب كماله الحقيقي وجمال صفاته واسمائه الحسنى بمحبة لائقة به جل وعلا، ويحب ايضاً محاسن مخلوقاته وصنعته ومصنوعاته التي هي مظاهر ذلك الكمال ومراياه، فيحب انبياءه واولياءه ولا سيما سيد المرسلين وسلطان الاولياء حبيب رب العالمين.

اي لمحبته سبحانه لجماله يحب حبيبَه)ص(اذ هو مرآة ذلك الجمال.. ولمحبته لاسمائه الحسنى يحب حبيبه)ص(واخوانه، اذ هو المدرك الشاعر لتلك الاسماء.. ولمحبته لصنعته سبحانه يحب حبيبه)ص(وامثاله، اذ هو الدال على صنعته والمعلن عنها.. ولمحبته لمصنوعاته سبحانه يحب حبيبه)ص(وَمن هم خلفه من المقتدين بهديه، اذ هو الذي يقدّر قيمة المصنوعات ويباركها بـ: ما اجمل صنعتها!.. ولمحبته لمحاسن مخلوقاته يحب حبيبه)ص(ومن تبعه واخوانه، اذ هو الجامع لمكارم الاخلاق.

الرمز الثالث:

ان جميع انواع الكمال الموجودة في الكون كله آيات لكمال ذات جليلة واشارات الى جماله سبحانه بل جميع الحسن والكمال والجمال ما هو الاّ ظل ضعيف بالنسبة لكماله الحقيقي. نشير الى خمسة حجج لهذه الحقيقة:

الحجة الاولى: ان القصر الفخم المنقش المزين يدل بالبداهة على صانع ماهر؛ فالفعل المكمل الرائع وهو الصنعة والنقش البديع يدل بالضرورة على فاعل وصنّاع ومهندس كامل ويشير الى عناوينهم واسمائهم: النقاش المصور وامثالها. وتلك الاسماء الكاملة ايضاً تدل بلاشك على صفة الصنعة المكملة لدى ذلك الصنّاع. وذلك الكمال في الصنعة والصفات يدل بالبداهة على كمال استعداد ذلك الصنّاع وكمال قابليته. وذلك الاستعداد الكامل والقابلية الكاملة يدلان بالضرورة على كمال ذات الصنّاع نفسه وعلى سمو ماهيته. وعلى غرار هذا، فقصر العالم، هذا الاثر المزيّن المكمل، يدل بالبداهة على افعال في غاية الكمال، لأن

انـــواع الكـــمال التـــي في الاثر نابعة من كمال تلك الافعال، وكمال الافعال يدل بالضرورة على فاعل كامل وعلى كمال اسمائه، كالمدبر والمصور والحكيم والمزيّن وامثالها من الاسماء المتعلقة بالأثر. أما كمال الاسماء والعناوين فانه يدل بلا ريب على كمـال اوصـاف ذلك الفاعل؛ لأن الصفات ان لم تكن كاملة فالاســماء النـاشـئة منها لن تكون كاملة. وكمال تلك الاوصاف يدل بالبداهة على كمال الشؤون الذاتية، لأن مبادىء الصـــفات هـــي تلك الــشــؤون الذاتـــية. أما كمال الشـــؤون الذاتية فانه يدل بعلـــم اليقين على كمال ذاتٍ جليلة صاحبة الشؤون، ويدل عليه دلالة قاطعة بحيث ان ضياء ذلــك الكمال قد اظهر حسن الجمال والكمال في هذا الكون على الرغم من مروره مـــن حجـــب الشؤون والصفات والاسماء والافعال والآثار.

تُرى ما اهمية كمال نسبي ينظر الى الغير والى الامثال والى التفوق على الاضداد، بعـــد ثبوت وجود كمال ذاتي حقيقي ثبوتاً الى هذا الحد؟ ألا يكون خافتاً منطفئاً؟!

الحجة الثانية: عندما ينظر الى هذا الكون بنظر العبرة، يشعر الوجدان والقلب، بحـــدسٍ صادق، ان الذي يجمّل هذه الكائنات ويزيّنها بانواع المحاسن لا شك ان له جمالاً وكمالاً لا منتهى لهما، ولهذا يظهر الجمال والكمال في فعله.

الحجة الثالثة: من المعلوم ان الصنائع الموزونة المنتظمة الجميلة تستند الى برنامج في غاية الحسن والاتقان، والبرنامج الكامل المتقن الجميل يستند الى علم جميل والى ذهن حسن، والى قابلية روحية كاملة، وهذا يعنى ان الجمال المعنوي للروح يظهر في الصنعة بالعلم.

فهذه الكائنات وما فيها، مع جميع محاسنها المادية التي لا تعد ولا تحصى، ما هـــي الاّ ترشحات محاسن معنوية وعلمية، وتلك المحاسن والكمال العلمي والمعنوي لاشك انها جلوات حسن وجمال وكمال سرمدي.

الحجة الرابعة: من المعلوم أن المشع للنور يستلزم أن يكون متنوراً، وكل مضيئ يســتلزم ان يكون ذا ضوء، والاحسان يرد من الغنى، واللطف يظهر من اللطيف. لذا فاضفاء الحســـن والجمال على الكائنات ومنح الموجودات انواعاً من الكمالات المختلفة، يدل علـــى جمـــال سرمدي، كدلالة الضوء على الشمس.

ولما كانت الموجودات تجري جريان النهر العظيم وتلتمع بالكمال ثم تمضـــي. فمثلمـــا يلتمع ذلك النهر بجلوات الشمس، فان سيل الموجودات هذا يلتمع مؤقتاً بلمعـــات الحســـن والجمال والكمال ثم يمضي الى شأنه. ويفهم من تعاقب اللمعات، بأن جلوات حبابات النهر الجاري وجمالها ليست ذاتية، بل هو جمال ضياء شمس منورة وجلواتها، فالمحاسن والكمالات التي تلتمع مؤقتاً على سيل الكائنات انما هي لمعات جمال اسماء مَن هو نور سرمدي.

نعم! تفاني المرآةِ زوالُ الموجوداتِ مع التجلّي الدائم مع الفيـــض الملازمِ، مِـــن اظهـــر الظواهر من أبهر البواهر على ان الجمال الظاهر، أن الكمال الزاهر ليسا مُلْكَ المظاهر، مِـــن أفصح تبيانٍ من اوضحِ برهانٍ، للجمال المجرَّدِ للاحسان المجَدَّدِ، للواجـــب الوجـــودِ للبـــاقي الودود.

الحجة الخامسة: من المعلوم أنه اذا روى اشخاص مختلفون أتوا من طرق متباينة وقـــوع حادثة معينة بالذات، فان هذا يدل بالتواتر الذي يفيد اليقين على وقوع الحادثة قطعاً.

فلقد اتفق جميع اهل الكشف والذوق والشهود من الطبقات المختلفة للمحققين والطرق المختلفة للاولياء والمسالك المختلفة للاصفياء والمذاهب المختلفة للحكماء المحققـــين.. اتفـــق هؤلاء المختلفون في المشرب والمسلك والاستعداد والعصر، بالكشف والذوق والمشاهد علـــى أن ما يظهر على الكائنات ومرايا الموجودات من المحاسن والكمالات انما هو تجليات كمـــال ذاتٍ جليلة وتجليات جمال اسمائه الحسنى جل جلاله.. اقول ان اتفاق هؤلاء جميعاً حجة قاطعة لا تتزعزع واجماع عظيم لا يجرح.

اظن ان داعية الضلال مضطر الى الفرار، ساداً اذنيه، لئـــلا يســـــمع حقـــائق هـــذا الرمز.

نعم! ان الرؤوس المظلمة لا تتحمل – كالخفاش – رؤية هذه الانوار، ولهذا نحن بدورنا لا نعير لها اهمية تذكر.

الرمز الرابع:

ان لذة الشئ وحسنه وجماله يرجع الى مظاهره اكثر من رجوعه الى اضداده وامثالـــه، فمثلاً: الكرم صفة جميلة لطيفة، فالكريم يتلذذ لذة ممتعة من تلذذ مَن يكـــرمهم، ويســـتمتع بفرحهم اكثر ألف مرة من لذة نسبية يحصل عليها من تفوقه على اقرانه من المكرمين.

وكذا الشفيق والرحيم، يتلذذ كل منهما، لذة حقيقية بقدر راحة من يشفق عليهم من المخلوقات.

فاللذة التي تحصل عليها الوالدة من راحة اولادها ومن سعادتهم قوية راسخة الى حـــد تضحي بروحها لأجل راحتهم، حتى ان لذة تلك الشفقة تدفع الدجاجة الى الهجـــوم علـــى الاسد حماية لأفراخها.

فاللذة والحسن والكمال والسعادة الحقيقية في الاوصاف الراقية الرفيعة اذن لا ترجع الى الاقران ولا تنظر الى الاضداد، بل الى مظاهرها ومتعلقاتها، فان جمـــال رحمـــة ذي الجمـــال والكمال، الحي القيوم، الحنان المنان، الرحمن الرحيم ينظر ويتوجه الى المرحومين الذين نـــالوا رحمته، ولا سيما الى اولئك الذين نالوا انواع رحمته الواسعة وشفقته الرؤوفة في الجنة الخالدة. وله جل وعلا ما يشبه المحبة - تليق بذاته سبحانه - بمقدار سعادة مخلوقاته وبمدى تـــنعمهم وفرحهم، وله شؤون سامية مقدسة جميلة منزّهة ذات معانٍ تليق به سبحانه وتعـــالى، مـــا لا نستطيع ان نذكرها - لعدم وجود اذن شرعي - من التعابير المنزهة للغاية والمقدسة الجليلـــة والتي يعبّر عنها باللذة المقدسة والعشق المقدس والفرح المنزّه والسرور القدسي، بحيث أن كلاً منها هي اسمى وارفع وانزه بما لا يتناهى من درجات العلو والسمو والنزاهة ممـــا يظهـــر في الكائنات وما نشعر به من العشق والسرور بين الموجودات.. كما اثبتناه في مواضع كثيرة.

وان شئت ان تنظر الى لمعة من لمعات تلك المعاني الجليلة فانظر اليها بمنظار هذا المثال:

شخص سخي كريم ذو شفقة ورأفة، أعدّ ضيافة جميلة للفقراء المحتاجين، فبسط ضيافته الفخمة على احدى سفنه الجوالة، واطلع عليهم وهم يتنعمون بانعامه تنعماً بامتنان، ترى كم يكون ذلك الشخص الكريم مسروراً فرحاً، وكم يبتهج بتنعم هؤلاء الفقراء وتلـــذذ الجيـــاع منهم، ورضى المحتاجين منهم، وثنائهم جميعاً عليه، يمكنك ان تقيسه بنفسك.

وهكذا فالانسان الذي لا يملك ملكاً حقيقياً لضيافة صغيرة، وليس له من هذه الضيافة إلاّ إعدادها وبسطها، ان كان يستمتع وينشرح الى هذا القدر لدى اكرامه الآخرين في ضيافة جزئية، فكيف بالذي تنطلق له آيات الحمد والشكر، وترفع اليه اكف الثناء والرضى بالدعاء والتضرع، من الجن والانس والاحياء كافة، الذين حملهم في سفينة ربانية جبارة تلك هي الكرة الارضية، ويسيّرها فيسيح بهم في عباب فضاء العالم، واسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة داعياً جميع ذوي الحياة الى تلك الضيافة التي هي من قبيل فطور بسيط بالنسبة لما بسط في دار البقاء التي كل جنة من جنانه كسفرةٍ مفروشة امامهم مشحونة بكل ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين، اعدّها لعباده الذين لا يحصون وهم في منتهى الحاجة وغاية الشوق الى لذائذ لا تحد اشباعاً للطائف لاتحد، ليتناولوا من تلك الضيافة الحقيقية وليتنعموا تنعماً حقيقياً في زمن خالد ابدي. فقس بنفسك على هذا ما نعجز عن التعبير عنه من المعاني المقدسة للمحبة والتعابير المترهة لنتائج الرحمة المتوجهة الى الرحمن الرحيم.

ومثلاً:

اذا قام صنّاع ماهر بصنع حاكٍ جميل ينطق من دون حاجة الى اسطوانة، ووضعه موضع التجربة والعرض للاخرين. فعبّر الجهاز عما يريده منه وعمل على افضل وجه يرغب فيه، فكم يكون مفتخراً متلذذاً برؤية صنعته على هذه الصورة، وكم يكون مسروراً، حتى انه يردد في نفسه: بارك الله..

وهكذا فإن كان انسان صغير عاجز عن الايجاد والخلق يغمره السرور الى هذه الدرجة بمجرد صنعه صنعة صغيرة، فكيف بالصانع الجليل الذي خلق هذا الكون على صورة موسيقى وحاك عظيم، وبخاصة صدى تسبيحات الاحياء على الارض ولا سيما ما وضع في رأس الانسان من حاكٍ رباني وموسيقى إلهية، حتى تقف حكمة البشر وعلومه أمامه في ذهول وحيرة.

نعم ان جميع المصنوعات تُظهر ما يطلب منها من نتائج، تظهرها في منتهى الجمال والكمال، بانقيادها للاوامر التكوينية – التي تعبّر عنها بالعبادات المخصوصة والتسبيحات

الخصوصية والتحيات المعينة – وتحقق بهذا المقاصد الربانية المطلوبة منها، فيحصل من الافتخار والامتنان والسرور وغيرها من المعاني المقدسة والشؤون المنزهة التي نعجز عن التعبير عنـــها، وهي سامية مقدسة بحيث اذا اتحدت جميع عقول البشر في عقل واحد لعجز عن بلوغ كنهها والاحاطة بها.

ومثلاً:

ان حاكماً عادلاً يجد لذة ومتعة عندما يأخذ حق المظلوم من الظالم ويجعل الحق يأخـــذ نصابه، ويفتخر لدى صيانته الضعفاء من شرور الاقوياء، وينسرّ لدى منحه كـــل فـــرد مـــا يستحقه من حقوق. فلك ان تقيس على هذا، المعاني المقدسة الواردة من احقـــاق الحكـــيم المطلق والعادل المطلق والقهار الجليل، الحقّ في الموجودات كافة، وليس على الجن والانـــس وحدهم. اي الحاصلة من منحه سبحانه وتعالى شروط الحيـــاة في صـــورة حقـــوق الحيـــاة للمخلوقات قاطبة، ولاسيما الاحياء باحسانه اليهم باجهزة تحافظ على حياتهم وبحمايتهم من اعتداء المعتدين وبايقافه الموجودات الرهيبة عند حدّها، ولاسيما المعاني المقدسة المنبعثة مـــن التجلي الاعظم للعدالة الكاملة والحكمة التامة في الحشر الاعظم في الدار الآخرة على الأحياء كافة فضلاً عن الجن والانس.

وهكذا على غرار هذه الامثلة الثلاثة، ففي كل اسم من الف اسم من الاسماء الإلهيـــة الحسنى طبقات حُسن وجمال وفضل وكمال كثيرة جداً، كما ان فيها مراتب محبـــة وفخـــر وعزة وكبرياء كثيرة جداً. ومن هنا قال الاولياء المحققون الذين حظوا باسم الودود: ان جوهر الكون كله هو المحبة وان حركة الموجودات بالمحبة، فقوانين الانجذاب والجذب والجاذبية الـــتي تجرى في الموجودات انما هي آتية من المحبة. وقد قال احدهم:

كل ذرات الوجود في نشوة المحبة.

الفلك نشوان والملك نشوان

النجوم والسموات نشاوى

القمر والشمس نشويان والارض نشوى

والعناصر والنباتات والاشجار نشاوى.

بمعنى ان كل شئ نشوان من شراب المحبة بتجلي المحبة الإلهية، كل حسب استعداده، ومن المعلوم ان كل قلب يحب مَن يحسن اليه، ويحب الكمال الحقيقي ويعشق الجمال السامي ويزيد حبه لمن يحب مَن يحبهم ويشفق عليهم ويحسن اليهم.

ترى ما مدى العشق والمحبة التي تليق بمن له في كل اسم من اسمائه ألف كنز وكنز من الاحسان والانعام.. ومن يُسعد كل من نحبهم.. ومن هو منبع الوف انواع الكمالات.. ومن هو مبعث الوف طبقات الجمال.. ومن هو مسمى الف اسم واسم.. وهو الجميل ذو الجلال والمحبوب ذو الكمال.

ألا يفهم من هذا مدى الأحقية في نشوة الكون طراً بمحبته؟

ولأجل هذا السر قال قسم من الاولياء الذين نالوا شرف الحظوة باسم »الودود«: »لمعة من محبة الله تغنينا عن الجنة«.

ومن ذلك السر ايضاً، ورد في الحديث الشريف ما معناه: ان رؤية جمال الله في الجنة تفوق جميع لذائذ الجنة.

فكمالات المحبة ومزاياها هذه، انما تحصل ضمن دائرة الواحدية والاحدية باسمائه سبحانه وبمخلوقاته. بمعنى: ان ما يتوهم من كمالات خارج تلك الدائرة ليست كمالات قطعاً.

الرمز الخامس: خمس نقاط:

النقطة الاولى: يقول داعية اهل الضلال: لقد لُعنت الدنيا في احاديثكم(1)، وذُكرت انها جيفة، ونرى أن اهل الولاية واهل الحقيقة يحقرون الدنيا ويستهينون بها ويقولون: انها فاسدة، قذرة، بينما تبينها انت: انها مبعث كمالٍ إلهي وحجة له، وتذكرها ذكر عاشق لها.

الجواب: الدنيا لها ثلاثة وجوه:

الوجه الاول: ينظر الى اسماء الله الحسنى ويبين آثار تلك الاسماء ونقوشها، وتؤدي الدنيا -بهذا الوجه – وظيفة مرآة لتلك الاسماء بالمعنى الحرفي، فهذا الوجه مكاتيب صمدانية لا تحد. لذا يستحق العشق لا النفور، لأنه في غاية الجمال.

الوجه الثاني: وجه ينظر الى الآخرة، فهو مزرعة الآخرة، مزرعة الجنة، موضع ازهار ازاهير الرحمة الإلهية. وهذا الوجه جميل كالوجه الأول يستحق المحبة لا التحقير.

الوجه الثالث: وجه ينظر الى اهواء الانسان، ويكون ستار الغافلين، وموضع لعب اهل الدنيا واهوائهم. هذا الوجه قبيح دميم، لأنه فانٍ، زائلٍ، مؤلم،خداع.

فالتحقير الوارد في الحديث الشريف، والنفور الذي لدى اهل الحقيقة هو من هذا الوجه.

أما ذكر القرآن الكريم للموجودات بأهمية بالغة واعجاب واطراء فهو متوجه الى الوجهين الاوليين، وان الدنيا المرغوبة فيها لدى الصحابة الكرام وسائر اولياء الله في الوجهين الاوليين.

والآن نذكر اولئك الذين يحقرون الدنيا وهم اربعة اصناف:

الاول: هم اهل المعرفة الإلهية، فهم يحقروها لأنها تحجب عن معرفة اللّه سبحانه وتستر عن محبته والعبادة له.

الثاني: هم اهل الآخرة. فإما أن ضرورات الحياة الدنيوية ومشاغلها تمنعهم عن الاعمال الاخروية، او انهم يرون الدنيا قبيحة بالنسبة لكمالات الجنة وجمالها ومحاسنها التي يشاهدونها بايمان شهودي.

نعم فكما اذا قورن رجل جميل مع سيدنا يوسف عليه السلام يبدو قبيحاً بلا شك. كذلك تبدوجميع مفاتن الدنيا القيمة تافهة بالنسبة لنعيم الجنة.

الثالث: يحقّر الدنيا لأنه لا يحصل عليها، وهذا التحقير ناتج من محبة الدنيا لا من النفور منها.

الرابع: يحقّر الدنيا لأنه يحصل عليها الاّ انها لا تظل عنده، بل ترحل عنه، فهو بدوره يغضب، ولا يجد غير تحقير الدنيا ليسلّي نفسه فيقول: انها قذرة. فهذا التحقير ايضاً ناتج من محبة الدنيا.

بينما التحقير المطلوب هو الناتج من حب الآخرة ومن معرفة الله. بمعنى أن التحقير المقبول هو القسمان الاوليان.

اللّهم اجعلنا منهم آمين بحرمة سيد المرسلين)ص(.

الموقف الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

(وان من شيء الاّ يسبّح بحمده)

هذا الموقف عبارة عن نقطتين وهي مبحثان

المبحث الاول

ان في كل شئ وجوهاً كثيرة جداً متوجهة - كالنوافذ - الى الله سبحانه وتعالى، بمضمون الآية الكريمة (وان من شيء الاّ يسبّح بحمده) اذ ان حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند الى الاسماء الإلهية الحسنى، فحقيقة كل شئ تستند الى اسم من الاسماء او الى كثير من الاسماء. وان الاتقان الموجود في الاشياء يستند الى اسم من الاسماء، حتى ان علم الحكمة الحقيقي يستند الى اسم الله »الحكيم« وعلم الطب يستند الى اسم الله »الشافي« وعلم الهندسة يستند الى اسم الله »المقدّر«.. وهكذا كل علم من العلوم يستند الى اسم من الاسماء الحسنى وينتهي اليه، كما ان حقيقة جميع العلوم وحقيقة الكمالات البشرية وطبقات الكمّل من البشر، تستند كلها الى الاسماء الإلهية الحسنى، حتى قال اولياء محققون ان:

» الحقائق الحقيقية للاشياء، انما هي الاسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الاشياء فهي ظلال تلك الحقائق« بل يمكن مشاهدة آثار تجلي عشرين اسماً من الاسماء على ظاهر كل ذي حياة فحسب.

نحاول تقريب هذه الحقيقة الدقيقة والعظيمة الواسعة في الوقت نفسه الى الاذهان بمثال، نصفّيه بمصاف ونحلله بمحللات مختلفة، ومهما يطل البحث بنا فانه يعدّ قصيراً، فينبغي عدم السأم.

اذا اراد فنان بارع في التصوير والنحت، رسم صورة زهرة فائقة الجمال، وعمل تمثال حسناء رائعة الحسن، فانه يبدأ اول ما يبدأ بتعيين بعض خطوط الشكل العام لكل منهما..

فتعيينه هذا انما يتم بتنظيم، ويعمله بتقدير يستند فيه الى علم الهندسة، فيعيّن الحدود وفقـــه.. فهذا التنظيم والتقدير يدلان على انهما فُعلا بعلمٍ وبحكمة. اي ان فعلَي التنظـــيم والتحديـــد يتمان وفق »بركار« العلم والحكمة، لذا تحكُم معاني العلم والحكمة وراءَ التنظيم والتحديد، اذن ستبيّن ضوابط العلم والحكمة نفسها.. نعم، وها هي تبيّن نفسها، اذ نشاهد الفنان قد بدأ بتصوير العين والاذن والانف للحسناء واوراق الزهرة وخيوطها اللطيفة الدقيقة داخل تلـــك الحدود التي حدّدها.

والآن نشاهد ان تلك الاعضاء التي عُيّنت وفق »بركار« العلم والحكمة أخذت صـــيغة الصنعة المتقنة والعناية الدقيقة، لذا تحكمُ معاني الصنع والعناية وراء »بركار« العلم والحكمة.. اذن ستبين نفسها.. نعم، وها قد بدات قابلية الحسن والزينة في الظهور مما يدل على أن الذي يحرك الصنعة والعناية هو ارادة التجميل والتحسين وقصد التزيين، لذا يحكمـــان مـــن وراء الصنعة والعناية؛ وها قد بدأ (الفنان) باضفاء حالة التبسم لتمثال الحسناء، وشرع بمنح اوضاع حياتية لصورة الزهرة، اي بدأ بفعلَي التزيين والتنوير. لذا فالذي يحرك معنى التحسين والتنوير هما معنيا اللطف والكرم.. نعم! ان هذين المعنيين يحكمان، بل يهيمنان الى درجة كأن تلـــك الزهرة لطفٌ مجسم وذلك التمثال كرمٌ متجّسد. تُرى ما الذي يحرك معاني الكرم واللطـــف، وما وراءهما غير معاني التودد والتعرف. اي تعريف نفسه بمهارته وفنه وتحبيبها الى الآخرين.. وهذا التعريف والتحبيب آتيان من الميل الى الرحمة وإرادة النعمة.. وحيث أن الرحمـــة وارادة النعمة من وراء التودد والتعرّف، فستملآن اذن نواحي التمثال بـــانواع الزينـــة والـــنعم، وستعلقان على الصورة، صورة الزهرة الجميلة هدية ثمينة.. وها نحن نشاهد أن (الفنان) قد بدأ بملء يدي التمثال وصدره بنعمٍ قيمة ويعلّق على صورة الزهرة درراً ثمينة.. بمعـــنى ان معـــاني الترحم والتحنن والاشفاق قد حرّكت الرحمة وإرادة النعمة.. وما الذي يحرك معاني التـــرحم والتحنن هذه، وما الذي يسوقهما الى الظهور لدى ذلك المستغنى عن الناس، غير ما في ذاتـــه من جمال معنوي وكمال معنوي يريدان الظهور. إذ إن اجمل ما في ذلك الجمال، وهو المحبة، وألذ ما فيه وهو الرحمة، كل منها – اي المحبة والرحمة – يريد اراءة نفسه بمرآة الصنعة، ويريد رؤية نفسه بعيون المشتاقين، لأن الجمال – وكذا الكمال – محبوب لذاته، يحب نفسه اكثـــر

من اي شئ آخر، حيث أنه حُسن وعشق في الوقت نفسه، فاتحاد الحسن والعشق آتٍ مـــن هذه النقطة.. ولما كان الجمال يحب نفسه، فلابد أنه يريد رؤية نفســه في المرايـــا، فـــالنعم الموضوعة على التمثال، والثمرات اللطيفة المعلقة على الصورة، تحمل لمعةً براقة مـــن ذلـــك الجمال المعنوي – كل حسب قابليته – فتُظهر تلك اللمعات الساطعة نفســها الى صـــاحب الجمال، والى الآخرين معاً.

وعلى غرار هذا المثال ينظم الصانع الحكيم (ولله المثل الاعلى) الجنة والدنيا والسموات والارض والنباتات والحيوانات والجن والانس والملك والروحانيات، اي بتعبير موجز يـــنظم سبحانه جميع الاشياء كليّها وجزئيها.. ينظمها جميعاً بتجليات اسمائه الحسنى ويعطي لكل منها مقداراً معيناً حتى يجعله يستقرىء اسم »المقدر، المنظم، المصور«.

وهكذا بتعيينه سبحانه وتعالى حدود الشكل العام لكل شئ تعييناً دقيقاً يُظهـــر اســـم »العليم، الحكيم«. ثم يرسم بمسطرة العلم والحكمة ذلك الشئ ضمن الحدود المعينة، رسمـــاً متقناً الى حد يُظهر معاني الصنع والعناية، اي اسمي: الصانع، الكريم.. ثم يضفي علـــى تلـــك الصورة جمالاً وزينة، بفرشاة العناية وباليد الكريمة للصنعة، فان كانت الصورة انساناً اضـــفى على اعضائه كالعين والانف والاذن الواناً من الحسن والجمال.. وان كانت الصورة زهـــرة اضفى سبحانه الى اوراقها واعضائها وخيوطها الرقيقة الواناً من الجمال والرواء والحسن.. وان كانت الصورة ارضاً منح معادنها ونباتاتها وحيواناتها الواناً من الزينة وضروباً مـــن الجمـــال والحسن.. وان كانت الصورة جنة النعيم اسبغ على قصورها الواناً من الحسن وعلى حورها انواعاً من الزينة.. وهكذا قس على هذا المنوال.

ثم يزّين ذلك الشئ وينوره بطرازٍ بديع من الزينة والنور حتى تحكُم عليه معاني اللطـــف والكرم فتجعل ذلك الموجود المزيَّن وذلك المصنوع المنوَّر لطفاً مجسماً وكرماً متجسداً يذكّر باسمى »اللطيـــــف، الكريم« والذي يســـوق ذلك اللطف والكرم الى هذا التجلي انما هـــو التودد والتعرّف، اي شؤون تحبيب ذاته الجليلة الى ذوي الحيـــاة وتعريـــف ذاتـــه الى ذوي الشعـــور حتى يُقرأ على ذلـــــك الشـــــئ اســـــماً »الودود والمعروف« اللذين هما وراء اسمي »اللطيف، الكريم« بل يُسمعان قراءته لذينك الاسمين من حال المصنوع نفسه. ثم يجمّل

سبحانه ذلك الموجود المزيّن، وذلك المخلوق الجميل، بثمرات لذيذة، بنتائج محبوبة، فيحوّل – جـــــل وعـــــلا – الزينة الى نعمة، واللطفَ الى رحمة، حتى يدفع كل مشاهد يقرأ اسمـــي »المنعم، الرحيم« حيث تشف تجليات ذينك الاسمين من وراء الحجب الظاهرية. ثم ان الذي يسوق اسمي الرحيم والكريم وهو المستغني المطلق، الى هذا التجلي انما هو شؤون »التـــرحم والتحنن« مما يجعل المشاهد يقرأ على الشئ اسمي »الحنان، الرحمن«. والذي يســـوق معـــاني الترحم والتحنن الى التجلي، جمال وكمال ذاتيان، يريدان الظهور، مما يدفع المشاهد الى قراءة اسم »الجميل«، واسمي »الودود، الرحيم« المندرجين فيه؛ اذ الجمال محبوب لذاته. والجمال وذو الجمال يحب نفسه بالذات فهو حسن وَهو محبة. وكذا الكمال محبوب لذاته، اي محبوب بلا داعٍ الى سبب، فهو مُحبٌّ وهو محبوب.

فما دام جمالٌ في كمال لا نهاية له، وكذا كمالٌ في جمال لا نهاية له، يُحبُّ كلٌ منهما غاية الحب ومنتهاه، وهما يستحقان المحبة والعشق، فلابد انهما يريـــدان الظهـــور في مرايـــا، ويريدان شهود لمعاتهما وتجلياتهما – حسب قابلية المرايا – واشهادها الآخرين.

وهذا يعني ان الجمال الذاتي والكمال الذاتي للصانع ذي الجلال، والحكيم ذي الجمال، والقدير ذي الكمال، يريدان الترحم والتحنن، فيسوقان اسمي »الرحمن، الحنان« الى التجلي. والترحم والتحنن يسوقان اسمي »الرحيم والمنعم« الى التجلي، وذلك باظهار الرحمة والنعمـــة معاً. والرحمة والنعمة تقتضيان شؤون التودد والتعرف وتسوقان اسمي »الودود والمعروف« الى التجلي فيظهران على المصنوع. والتودد والتعرف يحركان معنى اللطف والكـــرم ويســـتقرآن اسمي »اللطيف والكريم«، في بعض نواحي المصنوع. وشؤون اللطف والكرم تحـــرك فعلَـــي التزيين والتنوير فتستقرىء اسمي »المزيّن المنور« بلسان حُسن المصنوع ونورانيتـــه. وشـــؤون التزيين والتحسين تقتضي معاني الصنع والعناية وتستقرىء اسمي »الصانع المحسن« في السيماء الجميل لذلك المصنوع. وذلك الصنع والعناية تقتضيان العلم والحكمة فيستقرىء المصـــنوع اسمي »العليم والحكيم« في اعضائه المنتظمة الحكيمة. ولاشك ان ذلك العلم والحكمة تقتضيان افعال التنظيم والتصوير والتشكيل، فيستقرىء المصنوع بشكله وهيئته، اسمي »المصوّر المقدّر«.

وهكذا خلق الصانع الجليل مصنوعاته كلها، حتى يستقرئ القسم الغالب منها ولا سيما ذوي الحياة، كثيراً جداً من الاسماء الحسنى، وكأنه سبحانه قد ألبس كل مصنوع عشرين حلّة متباينة متراكبة، او كأنه لف مصنوعه ذلك بعشرين غطاء وستره بعشرين ستاراً، وكتب على كل حلة، وعلى كل ستار اسماءه المختلفة.

ففي زهرة واحدة جميلة، وفي حسناء لطيفة، مثلاً في ظاهر خلقهما صحائف كثيرة جداً -كما في المثال - يمكنك ان تأخذهما مثالاً تقيس عليهما المصنوعات الاخرى العظيمة.

الصحيفة الاولى: هيئة الشئ التي تبين شكله العام ومقداره، والتي تذكّر باسماء: يا مصور يا مقدر يا منظم.

الصحيفة الثانية: صور الاعضاء المتباينة المنكشفة ضمن تلك الهيئة البسيطة للزهرة والانسان، التي تُسطر في تلك الصحيفة اسماء كثيرة امثال: العليم، الحكيم.

الصحيفة الثالثة: اضفاء الحسن والزينة على الاعضاء المتباينة لذينك المخلوقين بانماط متنوعة من الحسن والزينة حتى تكتب في تلك الصحيفة اسماء كثيرة من امثال: الصانع، البارئ.

الصحيفة الرابعة: الزينة والحسن البديع الموهوبان الى ذينك المصنوعين، حتى كأن اللطف والكرم قد تجسما فيهما، فتلك الصحيفة تذكّر وتقرأ اسماء كثيرة امثال: يا لطيف. يا كريم.

الصحيفة الخامسة: تعليق ثمرات لذيذة على تلك الزهرة، ومنح الاولاد المحبوبين والاخلاق الفاضلة لتلك الحسناء، يجعلان تلك الصحيفة، تستقرئ اسماء كثيرةً امثال: يا ودود يا رحيم يا منعم.

الصحيفة السادسة: صحيفة الإنعام والإحسان التي تقرأ اسماء أمثال: يا رحمن يا حنان.

الصحيفة السابعة: ظهور لمعات حسن وجمال واضحة في تلك النعم وتلك النتائج حتى تكون أهلاً لشكر خالص عُجن بشوق وشفقة حقيقيين، ومستحقاً لمحبة خالصة طاهرة، فتكتب تلك الصحيفة وتقرأ اسماء: يا جميل ذا الكمال يا كامل ذا الجمال.

نعم، ان كانت زهرة جميلة واحدة، وإنسية حسناء جميلة، يُظهران الى هذا الحد من الاسماء الحسنى في صورتهما الظاهرية المادية فقط، فالى اي حد من السمو والكلية تستقرىء

جميع الازهار، وجميع ذوي الحياة والموجودات العظيمة الكلية، الاسماء الحسنى الإلهية. يمكنك أن تقيس ذلك بنفسك.

ويمكنك في ضوء ذلك أن تقيس ايضاً مدى ما يقرأه الانسان وما يستقرؤه من الاسمـــاء الحسنى امثال: الحي، القيوم، المحيي، في كلٍ من صحائف الحياة واللطائف الانسانية كـــالروح والقلب والعقل.

وهكذا.. فالجنة زهرة. والحور زهرة. وسطح الارض زهرة، والربيع زهرة، والســـماء زهرة ونقوشها البديعة والنجوم والشمس زهرة والوان ضيائها السبعة اصباغ نقـــوش تلـــك الزهرة.

والعالم انسان جميل عظيم، مثلما أن الانسان عالم مصغر، فنـــوع الحـــور، وجماعـــة الروحانيات، وجنس الملك، وطائفة الجن، ونوع الانسان، كل من هؤلاء قد صُـــوّر ونُظـــم وأُوجد في حكم انسان جميل. كما ان كلاً منهم مرايا متنوعة متباينة لإظهار جماله ســـبحانه وكماله ورحمته ومحبته.. وكل منهم شاهد صدقٍ لجمالٍ وكمال ورحمة ومحبة لا منتهى لها.. وكل منهم آيات جمال وكمال ورحمة ومحبة.

فهذه الانواع من الكمالات التي لا نهاية لها، حاصلة ضمن دائرة الواحدية والاحديـــة، وهذا يعني ان ما يُتوهم من كمالات خارج تلك الدائرة ليست كمالاتٍ قطعاً.

فافهم من هذا:

استناد حقائق الاشياء الى الاسماء الحسنى، بل الحقائق الحقيقية انما هي تجليـــات تلـــك الاسماء.

وان كل شئ بجهات كثيرة وبألسنة كثيرة يذكر صانعه ويسبّحه ويقدّسه. وافهم مـــن هذا معنىً واحداً من معاني الآية الكريمة:

(وان من شيء الاّ يسبّح بحمده)

وقل: سبحان من اختفى بشدة ظهوره.

وافهم سراً من اسرار خواتيم الآيات وحكمة تكرار امثال: وهو العليم القدير. وهـــو الغفور الرحيم. وهو العزيز الحكيم.

فان لم تستطع ان تقرأ في زهرة واحدة الاسماء الحسنى وتعجز عن رؤيتـــها بوضـــوح، فانظر الى الجنة وتأمل في الربيع وشاهد سطح الارض، عند ذلك يمكنك ان تقـــرأ بوضـــوح الاسماء المكتوبة على الجنة وعلى الربيع وعلى سطح الارض، التي هي ازاهير كبيرة جداً لرحمة الله الواسعة.

المبحث الثاني

من الموقف الثالث من الكلمة الثانية والثلاثين

إن ممثل أهل الضلالة والداعية لها، إذ لم يجد ما يبني عليه ضلالته، وعندما تفوته البينة وتلزمه الحجة يقول:

إني أرى أن سعادة الدنيا، والتمتع بلذة الحياة، والرقي والحضارة، والتقدم الصناعي هي في عدم تذكر الآخرة وفي عدم الإيمان بالله وفي حب الدنيا وفي التحرر من القيود وفي الاعتداد بالنفس والإعجاب بها.. لذا سقتُ أكثر الناس ولا زلت أسوقهم - بهمة الشيطان- إلى هذا الطريق.

الجواب: ونحن بدورنا نقول باسم القرآن الكريم:

أيها الإنسان البائس! عُد إلى رُشدك! لا تصغ إلى داعية أهل الضلالة. ولئن ألقيت السمع إليه ليكونن خسرانك من الفداحة ما يقشعر من هول تصوره الروحُ والعقلُ والقلبُ. فأمامك طريقان:

الأول: هو طريق ذو شقاء يريك إياه داعية الضلالة.

الثاني: هو الطريق ذو السعادة الذي يبينه لك القرآن الحكيم.

ولقد رأيتَ كثيراً من الموازنات بين ذينك الطريقين في كثير من "الكلمات" ولا سيما في "الكلمات الصغيرة" والآن انسجاماً مع البحث تأمل في واحدةٍ من ألفٍ من المقارنات والموازنات وتدبَّرها، وهي:

إن طريق الشرك والضلالة والسفاهة والفسوق يهوي بالإنسان إلى منتهى السقوط والى أسفل سافلين، ويُلقي على كاهله الضعيف العاجز في غمرة آلام غير محدودة عبئاً ثقيلاً لا نهاية لثقله، ذلك لأن الإنسان إن لم يعرف الله سبحانه وتعالى وإن لم يتوكل عليه، يكون بمثابة حيوانٍ فانٍ؛ يتألم دوماً ويحزن باستمرار، ويتقلب في عجز وضعف لا نهاية لهما، ويتلوى في حاجة وفقر لا نهاية لهما، ويتعرض لمصائب لا حد لها، ويتجرع آلام الفراق من التي استهواها

ونسج بينه وبينها خيوط العلاقات، فيقاسي وما زال يقاسي، حتى يغادر ما بقي من أحبائه نهاية المطاف ويفارقهم جزعاً وحيداً غريباً إلى ظلمات القبر.

وسيجد نفسه طوال حياته أمام آلام وآمال لا نهاية لهما، مع أنه لا يملك سوى إرادة جزئية، وقدرة محدودة، وحياة قصيرة، وعمر زائل، وفكر آفل.. فتذهب جهودُه في تطمينها سدىً؛ ويسعى هباء وراء رغباته التي لا تحد. وهكذا تمضي حياتُه دون أن يجني ثمراً.

وبينما تجده عاجزاً عن حمل أعباء نفسه، تراه يحمّل عاتقَه وهامته المسكينة أعباء الدنيا الضخمة، فيتعذب بعذاب محرق أليم قبل الوصول إلى عذاب الجحيم.

إن أهل الضلالة لا يشعرون بهذا الألم المرير والعذاب الروحي الرهيب إذ يلقون أنفسهم في أحضان الغفلة ليُبطلوا شعورهم ويخدّروا إحساسهم - مؤقتاً - بسُكرها.. ولكن ما أن يدنو أحدُهم من شفير القبر حتى يرهف إحساسه ويضاعف شعوره بهذه الآلام دفعةً واحدة؛ ذلك لأنه إن لم يكن عبداً خالصاً لله تعالى فسيظن أنه مالكٌ نفسَه، مع أنه عاجز بإرادته الجزئية وقدرته الضئيلة حتى عن إدارة كيانه وحده أمام أحوال هذه الدنيا العاصفة إذ يرى عالماً من الأعداء يحيط به ابتداءً من أدق الميكروبات وانتهاء بالزلازل المدمرة على أتم استعداد للانقضاض عليه والإجهاز على حياته، فترتعد فرائصُه ويرتجف قلبُه رعباً وهلعاً كلما تخيل القبر ونظر إليه.

وبينما يقاسي هذا الإنسان ما يقاسي من وضعه إذا بأحوال الدنيا التي يتعلق بها ترهقه دوماً، وإذا بأوضاع بني الإنسان الذي يرتبط بهم تنهكه باستمرار، ذلك لظنه أن هذه الأحداث والوقائع ناشئة من لعب الطبيعة وعبث المصادفة، وليست من تصرف واحدٍ أحد حكيمٍ عليمٍ، ولا من تقدير قادرٍ رحيمٍ كريمٍ، فيعاني مع آلامه هو آلام الناس كذلك، فتصبح الزلازل والطاعون والطوفان والقحط والغلاء والفناء والزوال وما شابهها مصائب قاتمة وبلايا مزعجة معذّبة!

فهذا الإنسان الذي اختار بنفسه هذا الوضع المفجع، لا يثير إشفاقاً عليه، ولا رثاء على حاله.. مثله في هذا كمثل الذي ذكر في الموازنة بين الشقيقين في "الكلمة الثامنة" من أن رجلاً لم يقنع بلذة بريئة ونشوة نـزيهة وتسلية حلوة ونـزهة شريفة مشروعة، بين أحبة لطفاء في

روضة فيحاء وسط ضيافة كريمة، فراح يتعاطى الخمر النجسة ليكسب لذة غـير مشـروعة، فسكر حتى بدأ يخيّل إليه أنه في مكان قذر، وبين ضوارٍ مفترسة، تصيبه الرعشـة كأنـه في شـتاء، وبدأ يستصرخ ويستنجد فلم يشفق عليه أحد؛ لأنه تصور أصدقاءه الطيبين حيوانات شرسة، فحقرهم وأهانهم.. وتوهم الأطعمة اللذيذة والأواني النظيفة التي في صـالة الضـيافة أحجاراً ملوثة، فباشر بتحطيمها.. وظن الكتب القيمة والرسائل النفيسة في المجلـس نقوشـاً عادية وزخارف لا معنى لها، وشرع بتمزيقها ورميها تحت الأقدام.. وهكذا.

فكما لا يكون هذا الشخص – وأمثاله – أهلاً للرحمة ولا يستحق الرأفة، بل يستوجب التأديب والتأنيب، كذلك الحال مع مَن يتوهم بسُكر الكفر وجنون الضلالة الناشئين من سوء اختياره أن الدنيا التي هي مضيف الصانع الحكيم لعبةَ المصادفة العميـاء، وألعوبـة الطبيعـة الصماء.. ويتصور تجديد المصنوعات لتجليات الأسماء الحسنى وعبورها إلى عالم الغيب مع تيار الزمن، بعد أن أنهت مهامها واستنفدت أغراضها كأنها تصب في بحر العدم ووادي الانعـدام وتغيب في شواطئ الفناء.. ويتخيل أصوات التسبيح والتحميد التي تملأ الأكوان والعوالم أنيناً ونواحاً يطلقه الزائلون الفانون في فراقهم الأبدي.. ويحسب صحائف هذه الموجودات الـتي هي رسائل صمدانية رائعة خليطاً لا معنى له ولا مغزى.. ويخال باب القبر الذي يفتح الطريق إلى عالم الرحمة الفسيح نفقاً يؤدي إلى ظلمات العدم.. ويتصور الأجَل الـذي هـو دعـوة الوصال واللقاء بالأحباب الحقيقيين أوان فراق الأحبة جميعهم!.

نعم! إن الذي يعيش في دوامة هذه التصورات والأوهام يلقي نفسه في أتـون عـذاب دنيوي أليم، ففضلاً عن أنه لا يكون أهلاً لرحمة ولا لرأفة، يستحق عذاباً شديداً، لـتحقيره الموجودات – باتهامها بالعبثية – وتزييفه الأسماء الحسنى – بإنكار تجلياتها – وإنكاره الرسائل الربانية بردّه شهاداتها على الوحدانية.

فيا أيها الضالون السفهاء، ويا أيها التعساء الأشقياء!

تُرى هل يُجدي أعظم علومكم، وأعلى صروح حضارتكم وأرقى مراتـب نبـوغكم وأنفذ خطط دهائكم شيئاً أمام هذا السقوط المخيف المريع للإنسان؟ وهل يستطيع الصـمود حيال هذا اليأس المدمّر للروح البشرية التواقة إلى السلوان؟ وهل يقدر ما تطلقون من "طبيعة"

لكم، وما تسندون إليه الآثار الإلهية من "أسباب" عندكم، وما تنسبون إليه الإحسانات الربانية من "شريك" لديكم، وما تتباهون به من "كشوفاتكم" وما تعتزون به من "قومكم"، وما تعبدون من "معبودكم" الباطل.. هل يستطيع كل أولئك من إنقاذكم من ظلمات الموت الذي هو إعدام أبدي لديكم؟ وهل يستطيع كل أولئك من إمراركم من حدود القبر بسلامة، ومن تخوم البرزخ بأمان، ومن ميدان الحشر باطمئنان، ويتمكن أن يعينكم على عبور جسر الصراط بحكمة، ويجعلكم أهلاً للسعادة الأبدية والحياة الخالدة؟.

إنكم لا محالة ماضون في هذا الطريق، إذ ليس بمقدوركم أن توصدوا باب القبر دون أحد. فأنتم مسافرو هذا الطريق لا مناص. ولابد لمن يمضي في هذا الطريق من أن يستند ويتكل على مَن له علم محيط شامل بكل دروبه وشعابه وحدوده الشاسعة، بل تكون جميع تلك الدوائر العظيمة تحت تصرفه وضمن أمره وحكمه.

فيا أيها الضالون الغافلون!

إن ما أودع في فطرتكم من استعداد المحبة والمعرفة، ومن وسائط الشكر ووسائل العبادة التي يلزم أن تبذل إلى ذات الله تبارك وتعالى، وينبغي أن تتوجه إلى صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، قد بذلتموها - بذلاً غير مشروع - لأنفسكم وللدنيا، فتعانون مستحقين عقابَها، وذلك بسر القاعدة "إن نتيجة محبة غير مشروعة مقاساة عذاب أليمٍ بلا رحمة". لأنكم وهبتم أنفسكم المحبة التي تخص الله سبحانه وتعالى، فتعانون بلايا محبوبتكم التي لا تعد إذ لم تمنحوها راحتها الحقيقة.. وكذا لا تسلمون أمرَها بالتوكل إلى المحبوب الحق وهو الله القدير المطلق، فتقاسون الألم دائماً.. وكذا فقد أوليتم الدنيا المحبة التي تعود إلى أسماء الله الحسنى وصفاته الجليلة المقدسة، ووزعتم آثار صنعته البديعة وقسمتموها بين الأسباب المادية، فتذوقون وبال عملكم؛ لأن قسماً من أحبائكم الكثيرين يغادرونكم مُدبرين دون توديع، ومنهم مَن لا يعرفونكم أصلاً، وحتى إذا عرفوكم لا يحبونكم، وحتى إذا أحبوكم لا ينفعونكم، فتظلون في عذاب مقيم من أعذبة فراقٍ لا حد له ومن آلام زوال يائس من العودة.

فهذه هي حقيقة ما يدعيه أهل الضلالة، وماهية ما يدعون إليه من "سعادة الحياة" و "كمال الإنسان" و "محاسن الحضارة" و "لذة التحرر"!!

ألا ما أكثف حجاب السفاهة والسكُر الذي يخدّر الشعور والإحساس!

ألا قل: تباً لعقل أولئك الضالين!.

أما الصراط المستقيم أو الجادة المنورة للقرآن الكريم، فانه يداوي جميع تلك الجروح التي يعاني منها أهل الضلالة ويضمدها بالحقائق الإيمانية، ويبدد كل تلك الظلمات السابقة في ذلك الطريق، ويسد جميع أبواب الضلالة والهلاك، بالآتي:

انه يداوي ضعفَ الإنسان، وعجزه، وفقره، واحتياجَه بالتوكل على القدير الــرحيم، مُسلّماً أثقال الحياة وأعباء الوجود إلى قدرته سبحانه والى رحمته الواسعة دون أن يحملها على كاهل الإنسان، بل يجعله مالكاً لزمام نفسه وحياته، واجداً له بذلك مقاماً مريحاً، ويعرّفه بأنه ليس بحيوانٍ ناطق، بل هو إنسان بحق وضيف عزيز مكرم عند الملك الرحمن.

ويداوي أيضاً تلك الجروح الإنسانية الناشئة من فناء الدنيا وزوال الأشياء، ومن حــب الفانيات، يداويها بلطف وحنان بإظهاره الدنيا دار ضيافة الرحمن ومبيناً أن مــا فيهــا مــن الموجودات هي مرايا الأسماء الحسنى، وموضحاً أن مصنوعاتها رسائل ربانية تتجدد كل حين بإذن ربها، فينقذ الإنسان من قبضة ظلمات الأوهام.

ويداوي أيضاً تلك الجروح التي يتركها الموت، الذي يتلقاه أهل الضلالة فراقاً أبدياً عن الأحبة جميعاً، ببيانه أن الموت مقدمة الوصال واللقاء مع الأحباء الذين رحلوا إلى عالم البرزخ والذين هم الآن في عالم البقاء، ويثبت أن ذلك الفراق هو عين اللقاء.

ويزيل كذلك أعظم خوف للإنسان بإثباته أن القبر باب مفتــوح إلى عــالم الرحمــة الواسعة، والى دار السعادة الأبدية، والى رياض الجنان، والى بلاد النور للرحمن الرحيم، مبينــاً أن سياحة البرزخ التي هي أشد ألماً وأشقى سياحة عند أهل الضلالة، هي أمتع سياحة وآنسها وأسرها إذ ليس القبر فم ثعبان مرعب، بل هو باب إلى روضة من رياض الجنة.

ويقول للمؤمن:

إن كانت إرادتك واختيارك جزئية، ففوّض أمرك لإرادة مولاك الكليــة.. وإن كــان اقتدارك ضعيفاً فاعتمد على قدرة القادر المطلق.. وان كانت حياتك فانية وقصــيرة ففكّــر بالحياة الباقية الأبدية.. وان كان عمرك قصيراً فلا تحزن فإن لك عمراً مديــداً.. وان كــان

فكرك خافتاً فادخل تحت نور شمس القرآن الكريم، وانظر بنور الإيمان كي تمنحك كل آية من الآيات القرآنية نوراً كالنجوم المتلألئة الساطعة بدلاً من ضوء فكرك الباهت.. وان كانت لك آمال وآلام غير محدودة فان ثواباً لا نهاية له ورحمة لا حد لها ينتظرانك.. وان كانـت لـك غايات ومقاصد لا تحد، فلا تقلق متفكراً بها فهي لا تُحصر في هذه الدنيا، بل مواضعها ديار أخرى، ومانحها جواد كريم واسع العطاء.

ويخاطب الإنسان أيضاً ويقول:

أيها الإنسان! أنت لستَ مالكاً لنفسك.. بل أنت مملوكٌ للقادر المطلق القدرة، والرحيم المطلق الرحمة، فلا ترهق نفسَك بتحميلها مشقة حياتك، فان الذي وهب الحياة هو الـذي يديرها.

ثم إن الدنيا ليست سائبة دون مالك، كي تقلق عليها وتكلف نفسك حمـل أعبائهـا وترهق فكرك في أحوالها. ذلك لأن مالكها حكيم ومولاها عليم، وأنت لستَ إلاّ ضيفاً لديه، فلا تتدخل بفضولٍ في الأمور، ولا تخلطها من غير فهم.

ثم إن الإنسان والحيوان ليسوا موجودات مهملة، بل موظفون مأمورون تحت هيمنـة حكيم رحيم وتحت إشرافه. فلا تجرّع روحَك ألماً بالتفكر في مشاق أولئك وآلامهم ولا تقدّم رأفتك عليهم بين يدي رحمة خالقهم الرحيم.

ثم إن زمام أولئك الذين اتخذوا طور العداء معك ابتداء من الميكروبات إلى الطـاعون والطوفان والقحط والزلازل، بل زمام كل شيء بيد ذلك الرحيم الكريم سبحانه، فهو حكيم لا يصدر منه عبث، وهو رحيم واسع الرحمة، فكل ما يعمله فيه اثر من لطف ورأفة.

ويقول أيضاً:

أن هذا العالم مع أنه فانٍ فانه يهيئ لوازم العالم الأبدي.. ومع أنه زائل ومؤقت إلاّ أنه يؤتي ثمرات باقية، ويظهر تجليات رائعة من تجليات الأسماء الحسنى الخالدة.. ومع أن لذائـذه قليلة وآلامه كثيرة، إلاّ أن لطائف الرحمن الرحيم وتكرمه وتفضله هي بذاتها لذات حقيقية لا تزول، أما الآلام فهي الأخرى تولد لذّات معنوية من جهة الثواب الأُخروي. فمـا دامـت الدائرة المشروعة كافية ليأخذ كل من الروح والقلب والنفس لذّاتهـا ونشـواتها جميعـاً،

فـــــلا داعـــــي إذن أن تـــلـــــج في الدائرة غير المشروعة، لأن لذة واحدة مـــن هـــذه الدائرة قد يكون لها ألف ألم وألم، فضلاً عن أنها سبب الحرمان من لذة تكريم الرحمن الكريم، تلك اللذة الخالصة الزكية الدائمة الخالدة.

هكذا تبين مما سبق بأن طريق الضلالة يردي الإنسان إلى أسفل سافلين، إلى حد تعجز أية مدنية كانت وأية فلسفة كانت عن إيجاد حل له، بل يعجز الرقي البشري وما بلغه مـــن مراتب العلم عن إخراجه من تلك الظلمات السحيقة التي في الضلالة.

بينما القرآن الكريم يأخذ بيد الإنسان –بالإيمان والعمل الصالح – ويرفعه من أســـفل سافلين إلى أعلى عليين، ويبين له الدلائل القاطعة ويبسط أمامه البراهين الدامغة على ذلـــك، فيردم تلك الأغوار العميقة بمراتب رقي معنوي وبأجهزة تكامل روحي.. وكذا ييسر لــــه – بسهولة مطلقة – رحلته الطويلة المضنية العاصفة نحو الأبدية، ويهوّنها عليه؛ وذلـــك بـــإبرازه الوسائط والوسائل التي يمكن أن يقطع بها مسافة ألف سنة، بل خمسين ألف ســـنة في يـــوم واحد.

وكذا يضفي على الإنسان جلباب العبودية ويكسبه طور عبد مأمور، وضيف موظـــف لدى الذات الجليلة، وذلك بتعريفه أن الله سبحانه هو مالك الأزل والأبد، فيضمن له راحـــة تامة في سياحته في الدنيا المضياف أو في منازل البرزخ في ديار الآخرة.. فكما أن الموظـــف المخلص للسلطان يتجول بيسر تام في دائرة مملكة سلطانه، ويتنقل من تخوم ولاياته بوســـائط سريعة كالطائرة والباخرة والقطار، كذلك الإنسان المنتسب بالإيمان إلى المالك الأزلي فانه يمر بالعمل الصالح من منازل الدنيا المضياف ومن دوائر عالمي البرزخ والحشر ومـــن حـــدودهما الواسعة الشاسعة بسرعة البَرق والبُراق حتى يجد السعادة الأبدية.. فيثبت القرآن الكريم هـــذه الحقائق إثباتاً قاطعاً ويبرزها عياناً للأصفياء والأولياء.

ثم تستأنف حقيقته قائلة:

أيها المؤمن لا تبذل ما تملكه من قابلية غير محدودة للمحبة إلى نفسك التي هي أمـــارة بالسوء وهي قبيحة ناقصة، وشريرة مضرة لك، ولا تتخذها محبوبتك ومعشوقتك، ولا تجعل هواها معبودك، بل اجعل محبوبك مَن هو أهلٌ لمحبة غير متناهية.. ذلكم القادر على الإحسان

إليك إحساناً لا نهاية له، والقادر على إسعادك سعادة لا منتهى لها، بل يسعدك كذلك بما يجـزل من إحساناته على جميع مَن ترتبط معهم بعلاقات، فهو الذي له الكمال المطلق والجمال المقدس والمنـزه عن كل نقص وقصور وزوال وفناء.. فجماله لا حدود له وجميع أسمائه جميلة وحسنى.

نعم إن في كل اسم من أسمائه أنوار حُسنٍ وجمال لا نهاية لها؛ فالجنة بجميع لطائفها وجمالها ونعيمها إنما هي تجلٍ لإظهار جمال رحمته ورحمة جماله، وجميع الحسن والجمال والمحاسن والكمالات المحبوبة والمحببة في الكون كله ما هي إلاّ إشارة إلى جماله ودلالة على كماله سبحانه.

ويقول أيضاً:

أيها الإنسان! إن ينابيع المحبة المتفجرة في أعماقك والمتوجهة إلى الله سبحانه والمتعلقة بأسمائه الحسنى والمولهة بصفاته الجليلة لا تجعلها مبتذلة بتشبثها بالموجودات الفانية، ولا تهدرها دون فائدة على المخلوقات الزائلة؛ ذلك لأن الآثار والمخلوقات فانيتان، بينما الأسماء الحسنى البادية تجلياتها وجمالها على تلك الآثار وعلى تلك المصنوعات باقية دائمة.. ففي كل اسم من الأسماء الحسنى وفي كل صفة من الصفات المقدسة آلاف من مراتب الإحسان والجمال وآلاف من طبقات الكمال.

فانظر إلى اسم "الرحمن" فحسب لترى: أن الجنة إحدى تجلياته، والسعادة الأبدية إحدى لمعاته، وجميع الأرزاق والنعم المبثوثة في أرجاء الدنيا كافة إحدى قطراته.

فأنعم النظر وتدبر في الآيات الكريمة التي تشير إلى هذه الموازنة بين ماهية أهل الضلالة وأهل الإيمان من حيث الحياة ومن حيث الوظيفة.

(لقد خَلَقنا الإنسان في أحسنِ تقْويم_ ثم رَدَدْناه أسفلَ سافلين_ إلاّ الذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون).(التين:4_ 6)

والآية الأخرى

(فما بَكَتْ عليهم السماءُ والأرضُ) (الدخان:44)هذه الآيات تشير إلى عقبى كل منهما. تأمل فيهما لتجد مدى سموهما وإعجازهما في بيان ما عقدناه من الموازنة والمقارنة.

أما الآيات الأولى. فنحيل بيان حقيقة ما تتضمنه من إعجاز في إيجاز إلى الكلمة "الحادية عشرة" التي تبينها بياناً مفصلاً. وأما الآية الثانية، فسنشير ـــــ إشارة فحسب– إلى مـــدى إفادتها عن حقيقة سامية وهي كالآتي:

إنها تخاطب قائلة: إن السموات والأرض لا تبكيان على موت أهل الضـــلالة. وتـــدل بالمفهوم المخالف أن السَّموات والأرض تبكيان على رحيل أهل الإيمان عن الدنيا. أي لما كانَ أهل الضلالة ينكرون وظائف السموات والأرض ويتهمونهما بالعبثية ولا يدركون معاني مـــا يؤديانه من مهام، فيبخسون حقهما، بل لا يعرفون خالقَهما ولا دلالاتهما على صـــانعهما، فيستهينون بهما، ويتخذون منهما موقف العداء والإهانة والاستخفاف، فلابـــد إلاّ تكتفـــي السموات والأرض بعدم البكاء عليهم، بل تدعوان عليهم بل ترتاحان لهلاكهم.

وتقول كذلك بالمفهوم المخالف، أن السَّموات والأرض تبكيان على موت أهل الإيمان لأنهم يعرفون وظائفهما، ويقدرونهما حق قدرهما، ويصدقون حقائقهما الحقة، ويفهمون – بالإيمان – ما تفيدان من معانٍ، حيث أنهم كلما تأملوا فيهما قالوا بإعجـــاب: "مـــا أجمـــل خلقهما! وما أحسن ما تؤديان من وظائف!". فيمنحونهما ما يستحقان من القيمة والاحترام، حيث يبثون حبهم لهما بحبهم للّه، أي لأجل الله، باعتبارهما مرايا عاكسة لتجليـــات أسمائـــه الحسنى. ولهذا تهتز السَّموات، وتحزن الأرض، لموت أهل الإيمان وكأنهما تبكيان على زوالهم.

سؤال مهم

(حول المحبة)

تقولون:

إن المحبة ليست اختيارية، لا تقع تحت إرادتنا، فأنا بمقتضى حاجتي الفطريـــة احـــب الأطعمة اللذيذة والفواكه الطيبة، وأحب والديّ وأولادي وزوجتي التي هي رفيقـــة حيـــاتي، وأحب الأنبياء المكرمين والأولياء الصالحين، وأحب شبابي وحياتي وأحب الربيع وكل شيء جميل، وبعبارة أوجز أنا احب الدنيا، ولِمَ لا احب كل هذه؟.. ولكن كيف أستطيع أن اقدّم

جميع هذه الأنواع من المحبة للّه، واجعل محبتي لأسمائه الحسنى ولصفاته الجليلة ولذاته المقدسة سبحانه؟ ماذا يعني هذا؟.

الجواب: عليك أن تستمع إلى النكات الأربع الآتية:

النكتة الأولى:

ان المحبة وان لم تكن اختيارية، إلاّ أنها يمكن أن يُحوَّل وجهُها بالإرادة من محبوب إلى آخر؛ كأن يظهرَ قبحُ المحبوب وحقيقته مثلاً، أو يُعرَف انه حجابٌ وستار لمحبوب حقيقي يستحق المحبة، أو مرآة عاكسة لجمال ذلك المحبوب الحقيقي، فعندها يمكن أن يُصرَف وجهُ المحبة من المحبوب المجازي إلى المحبوب الحقيقي.

النكتة الثانية:

نحن لا نقول لك: لا تحمل ودّاً ولا حباً لكل ما ذكرتَه آنفاً. وإنما نقول اجعل محبتك لما ذكرته في سبيل الله ولوجهه الكريم:

فالتلذذ بالأطعمة الشهية وتذوق الفواكه الطيبة مع التذكر بأنها إحسانٌ من الله سبحانه وإنعام من الرحمن الرحيم، يعني المحبة لاسم "الرحمن" واسم "المنعم" من الأسماء الحسنى، علاوة على انه شكر معنوي. والذي يدلنا على أن هذه المحبة لم تكن للنفس والهوى بل لاسم "الرحمن" هو كسب الرزق الحلال مع القناعة التامة ضمن الدائرة المشروعة، وتناوله بالتفكر في انه نعمة من الله مع الشكر له.

ثم إن محبتك للوالدين واحترامهما، إنما يعودان إلى محبتك لله سبحانه؛ إذ هو الذي غرس فيهما الرحمة والشفقة حتى قاما برعايتك وتربيتك بكل رحمة وحكمة. وعلامة كونهما محبة لوجه الله تعالى، هي المبالغة في محبتهما واحترامهما عندما يبلغان الكبر، ولا يبقى لك فيهما من مطمع. فتُكثر من الشفقة عليهما والرحمة لهما رغم ما يشغلانك بالمشاكل ويثقلان كاهلك بالمشقة. فالآية الكريمة: (إمّا يَبْلُغَنّ عِندَكَ الكِبَرَ أحدُهما أو كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما اُفٍّ وَلاَ تَنْهَرهُما وَقُلْ لَهُما قَولاً كَريماً_ وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَحمةِ وَقُلْ رَبِّ ارحَمْهُما كَما رَبياني صَغيراً) (الإسراء:23 ـــ24). تدعو الأولاد إلى رعاية حقوق الوالدين في خمس مراتب، وتبين مدى أهمية برّهما وشناعة عقوقهما..

وحيث إن الوالد لا يقبل أن يتقدمه أحد سوى إبنه إذ لا يحمل في فطرته حسداً إليه مما يسد على الولد طريق مطالبة حقه من الوالد؛ لأن الخصام إما ينشأ من الحسد والمنافسة بـين اثنين أو ينشأ من غمط الحق، فالوالد سليم معافى منهما فطرة، لذا لا يحق للولد إقامة الدعوى على والده، بل حتى لو رأى منه بغياً فليس له أن يعصيه ويعقّه. بمعنى أن من يعـقّ والديـه ويؤذيهما ما هو إلاّ إنسان ممسوخ حيواناً مفترساً.

أما محبة الأولاد فهي كذلك محبةٌ لله تعالى وتعود إليه، وذلك بالقيام برعايتهم بكمـال الشفقة والرحمة بكونهم هبة من الرحيم الكريم. أما العلامة الدالة على كون تلك المحبة لله وفي سبيله فهي الصبر مع الشكر عند البلاء، ولا سيّما عند الموت والترفع عن اليـأس والقنـوط وهدر الدعاء بل يجب التسليم بالحمد عند القضاء. كأن يقول: إن هذا المخلوق محبوب لدى الخالق الكريم، ومملوك له، وقد أمنَّني عليه لفترة من الزمن، فالآن اقتضت حكمته سبحانه أن يأخذه مني إلى مكان آمن وأفضل. فان تك لي حصة واحدة ظاهرية فيه، فله سبحانه ألـف حصة حقيقية فيه. فلا مناص إذن من التسليم بحكم الله.

أما محبة الأصدقاء وودّهم، فان كانوا من أصحاب الإيمان والتقوى فان محبتهم هـي في سبيل الله وتعود إليه سبحانه بمقتضى "الحب في الله".

ثم إن محبة الزوجة وهي رفيقة حياتك، فعليك بمحبتها على أنها هدية أنيسة لطيفة مـن هدايا الرحمة الإلهية. وإياك أن تربط محبتك لها برباط الجمال الظاهري السريع الـزوال، بـل أوثقها بالجمال الذي لا يزول ويزداد تألقاً يوماً بعد يوم، وهو جمال الأخلاق والسيرة الطيبة المنغرزة في أنوثتها ورقّتها. وان أحلى ما فيها من جمال واسماه هـو في شـفقتها الخالصـة النورانية. فجمال الشفقة هذا، وحُسن السيرة يدومان ويزدادان إلى نهاية العمر. وبمحبتـهما تُصان حقوق هذه المخلوقة اللطيفة الضعيفة، وإلاّ تفقد حقوقها في وقت هي أحوج ما تكون إليها، بزوال الجمال الظاهري.

أما محبة الأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحين فهي أيضاً لوجه الله وفي سـبيله مـن حيث انهم عباد الله المخلصون المقبولون لديه جل وعلا. فمن هذه الزاوية تصبح تلك المحبـة للّه.

والحياة أيضاً التي وهبها الله سبحانه وتعالى لك وللإنسان، هي رأس مال عظيم تستطيع أن تكسب به الحياة الأُخروية الباقية. وهي كنـــز عظيم يحوي أجهزة وكمالات خالدة.. من هنا فالمحافظة عليها ومحبتها من هذه الزاوية، وتسخيرها في سبيل المولى عز وجل تعود إلى الله سبحانه أيضاً.

ثم إن محبة الشباب وجماله ولطافته، وتقديره من حيث انه نعمة ربانية جميلة، ثم العمـــل على حسن استخدامه، هي محبة مشروعة، بل مشكورة.

ثم محبة الربيع والشوق إليه تكون في سبيل الله ومتوجهة إلى أسمائه الحسنى، من حيـــث كونه اجمل صحيفة لظهور نقوش الأسماء الحسنى النورانية واعظم معرض لعرض دقائق الصنعة الربانية البديعة.. فالتفكر في الربيع من هذه الزاوية محبة متوجهة إلى الأسماء الحسنى.

وحتى حب الدنيا والشغف بها ينقلب إلى محبة لوجه الله تعالى فيما إذا كان النظر إليها من زاوية كونها مزرعة الآخرة، ومرآة الأسماء الحسنى، ورسائل ربانيـــة إلى الوجـــود، ودار ضيافة موقتة (وعلى شرط عدم تدخل النفس الأمارة في تلك المحبة). ومجمل القول:

اجعل حبك للدنيا وما فيها من مخلوقات بالمعنى (الحرفي) وليس بالمعنى (الاسمي) أي لمعنى ما فيها وليس لذاتها. ولا تقل لشيء: "ما اجمل هذا" بل قل: "ما أجمله خلقاً" أو "ما اجمـــل خلقه"! وإياك أن تترك ثغرة يدخل منها حبٌ لغير الله في باطن قلبك، فان باطنه مرآة الصمد، وخاص به سبحانه وتعالى. وقل:

اللّهم ارزقنا حبك وحب ما يقرّبنا إليك.

وهكذا فان جميع ما ذكرناه من أنواع المحبة، إن وجهت الوجهة الصائبة على الصـــورة المذكورة آنفاً، أي عندما تكون لله وفي سبيله، فإنها تورث لذة حقيقية بلا ألم. وتكون وصالاً حقاً بلا زوال، بل تزيد محبة الله سبحانه وتعالى، فضلاً عن أنها محبة مشروعة وشـــكر لله في اللذة نفسها، وفكر في آلائه في المحبة عينها.

مثال للتوضيح:

إذا أهدى إليك سلطان عظيم [187]تفاحة – مثلاً – فانك ستكّن لها نوعين من المحبـــة، وستلتذ بها بشكلين من اللذة:

الأولى:

المحبة التي تعود إلى التفاحة، من حيث إنها فاكهة طيبة فيها لذة بقدر مـــا فيهـــا مـــن خصائص، هذه المحبة لا تعود إلى السلطان. بل مَن يأكلها بشراهة أمامه يبدي محبته للتفاحـــة وليس للسلطان، وقد لا يعجب السلطان ذلك التصرف منه، وينفر من تلك المحبة الشـــديدة للنفس. علاوة على أن لذة التفاحة جزئية وهي في زوال. إذ بمجرد الانتهاء من أكلها تـــزول اللذة وتورث الأسف.

أما المحبة الثانية:

فهي للتكرمة السلطانية والتفاتته اللطيفة التي ظهرت بالتفاحة.. فكأن تلـــك التفاحـــة نموذج للتوجه السلطاني، أو هي ثناء مجسّم منه. فالذي يتسلم هدية السلطان حبـــاً وكرامـــةً يبدي محبته للسلطان وليس للتفاحة. علماً أن في تلك التفاحة التي صارت مظهراً للتكرمة لذة تفوق وتسمو على ألف تفاحة أخرى. فهذه اللذة هي الشكران بعينه، وهذه المحبة هي محبـــة ذات احترام وتوقير يليق بالسلطان.

وهكذا فإذا ما وجّه الإنسان محبته إلى النعم والفواكه بالذات وتلذذ عن غفلة بلـــذاتها المادية وحدها، فتلك محبة نفسانية تعود إلى هوى النفس، وتلك اللذات زائلة مؤلمة. أمـــا إذا كانت المحبة متوجهة إلى جهة التكرمة الربانية ونحو ألطاف رحمته سبحانه وثمرات إحســـانه، مقدّراً درجات الإحسان واللطف ومتلذذاً بها بشهية كاملة، فهي شكر معنوي، وهي لذة لا تورث ألماً.

النكتة الثالثة:

إن المحبة المتوجهة إلى الأسماء الحسنى لها طبقات: فقد تتوجه بالمحبة إلى الأسماء الحســـنى بمحبة الآثار الإلهية المبثوثة في الكون – كما بيناه سابقاً – وقد تتوجه بالمحبة إلى الأسماء الحسنى

---

187 لقد وقعت هذه الحادثة فعلاً فيما مضى، عندما دخل رئيسا عشيرتين إلى سلطانٍ عظيم وقاما بمثل ما ذكر أعلاه. - المؤلف.

لكونها عناوين كمالات إلهية سامية، وقد يكون الإنسان مشتاقاً إلى الأسماء الحسنى لحاجته الماسة إليها، وذلك لجامعية ماهيته وعمومها وحاجاته غير المحدودة، أي يحب تلك الأسماء بدافع الحاجة إليها.

ولنوضح ذلك بمثال:

تصور وأنت تستشعر عجزك وحاجتك الشديدة إلى مَن يساعدك ويعينك لإنقاذ مَن تحن عليهم وتشفق على أوضاعهم من الأقارب والفقراء، وحتى المخلوقات الضعيفة المحتاجة، إذا بأحدهم يبرز في الميدان، ويُحسن لأولئك ويتفضل عليهم ويسبغ عليهم نِعَمه بما تريده وترغبه.. فكم تطيب نفسُك وكم ترتاح إلى اسمه "المنعم" و "الكريم".. وكم تنبسط أساريرك وتنشرح من هذين الاسمين، بل كم يأخذ ذلك الشخص من إعجابك وتقديرك، وكم تتوجه إليه بالحب بذينك الإسمين والعنوانين!.

ففي ضوء هذا المثال تدبّر في اسمين فقط من الأسماء الحسنى وهما: "الرحمن" و "الرحيم" تجد أن جميع المؤمنين من الآباء والأجداد السالفين وجميع الأحبة والأقارب والأصدقاء، هؤلاء الذين تحبهم وتحن إليهم وتشفق عليهم، يُنعَمون في الدنيا بأنواع من النعم اللذيذة، ثم يُسعَدون في الآخرة بما لذّ وطاب من النعم، بل يزيدهم سبحانه وهو الرحمن الرحيم سعادة ونعيماً بلقاء بعضهم بعضاً وبرؤية الجمال السرمدي هناك.. فكم يكون اسم "الرحمن" و "الرحيم" جديرين إذن بالمحبة؟ وكم تكون روح الإنسان تواقة إليهما؟ قس بنفسك ذلك لتدرك مدى صواب قولنا؛ الحمد لله على رحمانيته ورحيميته.

ثم انك تتعلق بالموجودات المبثوثة على الأرض وتتألم بشقائها، حتى لكأن الأرض برمتها مسكنك الجميل وبيتك المأنوس؛ فإذا ما أنعمت النظر تجد في روحك شوقاً عارماً وحاجة شديدة إلى اسم "الحكيم" وعنوان "المربي" للذي ينظم هذه المخلوقات كافة بحكمة تامة وتنظيم دقيق وتدبير فائق وتربية رحيمة.

ثم إذا أنعمت النظر في البشرية جمعاء تجدك تتعلق بهم وتتألم لحالهم البائسة وتتألم أشد الألم بزوالهم وموتهم، وإذا بروحك تشتاق إلى اسم "الوارث الباعث" وتحتاج إلى عنوان

"الباقي، الكريم، المحيي، المحسن" للخالق الكريم الذي ينقذهم من ظلمات العدم ويسكنهم في مسكن اجمل من الدنيا وافضل منها.

وهكذا فلأن ماهية الإنسان عالية وفطرته جامعة فهو محتاج بألف حاجة وحاجة إلى ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى والى كثير جداً من مراتب كل اسم. فالحاجة المضاعفة هي الشوق، والشوق المضاعف هو المحبة والمحبة المضاعفة كذلك هي العشق، فحسب تكمّل روح الإنسان تنكشف مراتبُ المحبة وفق مراتب الأسماء. ومحبة جميع الأسماء أيضاً تتحول إلى محبة ذاته الجليلة سبحانه، إذ إن تلك الأسماء عناوين وتجليات ذاته جلّ وعلا.

والآن سنبين من بين ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى مرتبة واحدة فقط وعلى سبيل المثال من بين ألف مرتبة ومرتبة لاسم "العدل والحكم والحق والرحيم على النحو الآتي:

إن شئت أن تشاهد ما في نطاق الحكمة والعدل من اسم "الرحمن الرحيم، الحق" ضمن دائرة واسعة عظمى فتأمل في هذا المثال:

جيش يضم أربعمائة طائفة متنوعة من الجنود، كل منها تختلف عن الأخرى فيما يعجبها من ملابس، وتتباين فيما تشتهيه من أطعمة وتتغاير فيما تستعمله بيُسر من أسلحة، وتتنوع فيما تتناوله من علاجات تناسبها.. فعلى الرغم من هذا التباين والاختلاف في كل شئ، فان تلك الطوائف الأربعمائة لا تتميز إلى فرق وأفواج، بل يتشابك بعضها في بعض من دون تمييز.. فإذا ما وُجد سلطانٌ واحد يعطي لكل طائفة ما يليق بها من ملابس، وما يلائمها من أرزاق، وما يناسبها من علاج، وما يوافقها من سلاح، بلا نسيانٍ لأحد ولا التباس ولا اختلاط، ومن دون أن يكون له مساعد ومعين، بل يوزعها كلها عليهم بذاته، بما يتصف به من رحمة ورأفة وقدرة وعلم معجز وإحاطة تامة بالأمور كلها، مع عدالة فائقة وحكمة تامة.. نعم، إذا ما وُجد سلطان كهذا الذي لا نظير له، وشاهدتَ بنفسك أعماله المعجزة الباهرة، تدرك عندئذٍ مدى قدرته ورأفته وعدله. ذلك لأن تجهيز كتيبة واحدة تضم عشرة أقوام مختلفين بأعتدة متباينة وألبسة متنوعة أمر عسير جداً، حتى يُلجأ إلى تجهيز الجيش بطراز معين ثابت من الألبسة والأعتدة مهما اختلفت الأجناس والأقوام.

فإذا شئت - في ضوء هذا المثال - أن ترى تجلي اسم الله "الحق" و "الرحمن الـــرحيم" ضمن نطاق العدل والحكمة، فسرّح نَظَرَك في الربيع إلى تلك الخيام المنصوبة علـــى بســـاط الأرض لأربعمائة ألفٍ من الأمم المتنوعة، الذين يمثلون جيش النباتات والحيوانات، أنعم النظر فيها تجد أن جميع تلك الأمم والطوائف، مع أنها متداخلة، وألبستهم مختلفة وأرزاقهم متفاوتة وأسلحتهم متنوعة وطرق معيشتهم متباينة وتدريبـــهم وتعليمـــاتهم متغـــايرة، وتســـريحاتهم وإجازاتهم متميزة.. وهم لا يملكون ألسنة يطالَبون بها تأمين حاجاتهم وتلبية رغاباتهم.. مـــع كل هذا فان كلاً منها تدار وتربى وتراعى باسم "الحق والرحمن والرزاق والرحيم والكـــريم" دون التباس ولا نسيان ضمن نطاق الحكمة والعدل بميزان دقيق وانتظام فائق.. فشَاهِد هـــذا التجلي وتأمّل فيه؛ فهل يمكن أن يتدخل أحد غير الله سبحانه وتعالى في هذا العمل الذي يُدار بمثل هذا النظام البديع والميزان الدقيق؟ وهل يمكن لأي سبب مهما كان أن يمدّ يده ليتـــدخل في هذه الصنعة الباهرة والتدبير الحكيم والربوبية الرحيمة والإدارة الشاملة غير الواحد الأحد الحكيم القدير على كل شيء؟..

النكتة الرابعة:

تقول إنني احمل أنواعاً متباينة من المحبة في نفسي، تتعلق بالأطعمة اللذيـــذة، وبنفســـي وزوجتي وبأولادي ووالديّ وبأحبابي وأصدقائي، وبالأولياء الصالحين والأنبياء المكرمين، بـــل يتعلق حبي بكل ما هو جميل، وبالربيع الزاهي خاصة وبالدنيا عامة.. فلو سارت هذه الأنواع المختلفة من المحبة وفق ما يأمر به القرآن الكريم، فما تكون نتائجها وما فوائدها؟.

الجواب: إن بيان تلك النتائج وتوضيح تلك الفوائد كلها يحتاج إلى تأليف كتاب ضخم في هذا الشأن، لذا سنشير هنا إلى نتيجة واحدة أو نتيجتين منها إشارة مجملة. وســـنبين أولاً النتائج التي تحصل في الدنيا، ثم بعد ذلك نبين النتائج التي ستظهر في الآخرة. وهي كالآتي:

لقد ذكرنا سابقاً: إن أنواع المحبة التي لدى أرباب الغفلة والدنيا والتي لا تنبعـــث إلاّ لإشباع رغبات النفس، لها نتائج أليمة وعواقب وخيمة من بلايا ومشقات، مع ما فيها مـــن نشوة ضئيلة وراحة قليلة.

فمثلاً: الشفقة تصبح بلاءً مؤلماً بسبب العجز، والحب يغدو حُرقة مفجعة بسبب الفراق، واللذة تكون شراباً مسموماً بسبب الزوال.. أما في الآخرة فستبقى دون جدوى ولا نفع، لأنها لم تكن في سبيل الله تعالى، أو تكون عذاباً أليماً إن ساقت إلى الوقوع في الحرام.

سؤال: كيف يظل حب الأنبياء الكرام والأولياء الصالحين دون نفع أو فائدة؟

الجواب: مثلما لا ينتفع النصارى المعتقدون بالتثليث من حبهم لسيدنا عيسى عليه السلام، وكذا الروافض من حبهم لسيدنا علي رضى الله عنه!

أما ما ذكرته من أنواع المحبة فان كانت وفق إرشاد القرآن الكريم وفي سبيل الله سبحانه وتعالى ومحبة الرحمن الرحيم، فان نتائج جميلة تثمر في الدنيا، فضلاً عن نتائجها الطيبة الخالدة في الآخرة.

أما نتائجها في الدنيا:

فان محبتك للأطعمة اللذيذة والفواكه الطيبة فهي نعمة إلهية لا يشوبها ألم، ولذة لطيفة في الشكر بعينه.

أما محبتك لنفسك أي إشفاقك عليها، والجهد في تربيتها وتزكيتها، ومنعها عن الأهواء الرذيلة، تجعلها منقادة إليك، فلا تسيّرك ولا تقيدك بأهوائها بل تسوقها أنت إلى حيث الهدى دون الهوى.

أما محبتك لزوجتك وهي رفيقة حياتك، فلأنها قد أسست على حُسن سيرتها وطيب شفقتها، وكونها هبة من الرحمة الإلهية، فستولها حباً خالصاً ورأفة جادة، وهي بدورها تبادلك هذه المحبة مع الاحترام والتوقير، وهذه الحالة تزداد بينكما كلما تقدمتما في العمر، فتقضيان حياة سعيدة هنيئة بإذن الله.. ولكن لو كان ذلك الحب مبنياً على جمال الصورة الذي تهواه النفس، فانه سرعان ما يخبو ويذبل، وتفسد الحياة الزوجية أيضاً.

أما محبتك للوالد والوالدة، فهي عبادة تُثاب عليها ما دامت في سبيل الله، ولا شك انك ستزيد الحب والاحترام لهما عندما يبلغان الكبر، وتكسب لذة روحية خالصة وراحة قلبية تامة لدى القيام بخدمتهما وتقبيل أيديهما وتبجيلهما بإخلاص، فتتوجه إلى المولى القدير، وأنت تشعر هذا الشعور السامي والهمة الجادة، بأن يطيل عمرهما لتحصل على مزيد من الثواب..

ولكن لو كان ذلك الحب والاحترام لأجل كسب حطام الدنيا ونابعاً من هوى النفس، فانه يولد ألماً روحياً قاتماً ينبعث من شعور سافل منحط وإحساس دنيء وضيع هو النفور من ذينك الموقرَين اللذين كانا السبب لحياتكَ أنت، واستثقالهما وقد بلغا الكبر وباتا عبئاً عليك، ثم الأدهى من ذلك تمني موهما وترقّب زوالهما!

أما محبتك لأولادك، أي حبك لمن استودعك الله إياهم أمانةً، لتقوم بتربيتهم ورعايتهم.. فحب أولئك المؤنسين المحبوبين من خلق الله، إنما هو حب مكلل بالسعادة والبهجة، وهو نعمة إلهية في الوقت نفسه، فإذا شعرت بهذا فلا يَنْتَبك الحزن على مصابهم ولا تصرخ متحسراً على وفاهم. إذ –كما ذكرنا سابقاً – أن خالقهم رحيم بهم حكيم في تدبير أمورهم وعند ذلك تقول إن الموت بحق هؤلاء لهو سعادة لهم. فتنجو بهذا من ألم الفراق وتتفكر أن تستدر رحمته تعالى عليك.

أما محبتك للأصدقاء والأقرباء، فلأنها لوجه الله تعالى، فلا يُحول فراقهم ولا موهم عن دوام الصحبة معهم، ودوام اخوتكم ومحبتكم ومَوانستكم؛ إذ تدوم تلك الرابطة الروحية والحب المعنوي الخالص، فتدوم بدورهما لذة اللقاء ومتعة الوصال.. ولكن إن لم يكن ذلك الحب لأجله تعالى ولا في سبيله، فان لذة لقاء يوم واحد يورث آلام الفراق لمائة يوم.[188] أما محبتك للأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحين، فان عالم البرزخ الذي هو عالم مظلم موحش في نظر أرباب الضلالة والغفلة تراه منازل من نور تنورت بأولئك المنورين، وعندها لا تستوحش من اللحاق بهم، ولا تجفل من عالم البرزخ، بل تشتاق إليه، وتحن إليه من دون أن يعكر ذلك تمتعك بالحياة الدنيا.. ولكن لو كان حبهم شبيهاً بحب أرباب المدنية لمشاهير الإنسانية، فان مجرد التفكر في فناء أولئك الأولياء الكاملين، وترمم عظامهم في مقبرة الماضي الكبرى، يزيد ألماً على آلام الحياة، ويدفع المرء إلى تصور موته وزواله حيث يقول سأدخل يوماً هذه المقبرة التي ترمم عظام العظماء! يقوله بكل مرارة وحسرة وقلق.. بينما في المنظور الأول يراهم يقيمون براحة وهناء في عالم البرزخ الذي هو

188 إن ثانية واحدة من لقاء في سبيل الله تعالى تعد سنة من العمر، بينما سنة من لقاء لأجل الدنيا الفانية لا تساوي ثانية. - المؤلف.

قاعة المستقبل ورواقه، بعد أن تركوا ملابسهم الجسدية في الماضي.. فينظر إلى المقبرة نظـــرة شوق وأنس.

ثم إن محبتك للأشياء الجميلة والأمور الطيبة، لما كانت محبة في ســـبيل الله، وفي ســـبيل معرفة صانعها الجليل بحيث يجعلك تقول: ما اجمل خلقه!. فان هذه المحبة في حد ذاتها تفكـــر ذو لذة ومتعة، فضلاً عن أنها تفتح السبيل أمام أذواق حب الجمال والشوق إلى الحسن لتتطلع إلى مراتب أذواق أسمى وارفع ، وتريه هناك كنوز تلك الخزائن النفيسة فيتملاها المرء في نشوة سامية عالية؛ ذلك لان هذه المحبة تفتح آفاقاً أمام القلب ليحوّل نظره من آثار الصانع الجليـــل إلى جمال أفعاله البديعة، ومن جمال الأفعال إلى جمال أسمائه الحسنى، ومن جمال الأسماء الحسنى إلى جمال صفاته الجليلة، ومن جمال الصفات الجليلة إلى جمال ذاته المقدسة.. فهذه المحبة وبهذا السبيل إنما هي عبادة لذيذة وتفكر رفيع ممتع في الوقت نفسه.

أما محبتك للشباب، فلأنك قد أحببت عهد شبابك لكونه نعمة جميلة لله سبحانه، فلا شك انك ستصرفه في عبادته تعالى ولا تقتله غرقاً في السفه وتمادياً في الغي؛ إذ العبادات التي تكسبها في عهد الشباب إنما هي ثمرات يانعة باقية خالدة أثمرها ذلك العهد الفـــاني، فكلمـــا جاوزت ذلك العـــهـــــد وطعنت في السن حصلت على مزيد من ثمراته الباقية، ونجـــوت تدريجياً من آفات النفس الأمارة بالسوء وسيئات طيش الشباب. فترجو من المولى القـــدير أن يوفقك إلى كسب المزيد من العبادة في الشيخوخة، لتكون أهلاً لرحمته الواسعة. وتربأ بنفسك أن تكون مثل أولئك الغافلين الذين يقضون خمسين سنة من عمر شيخوختهم وشيبهم أســـفاً وندماً على ما فقدوه من متاع الشباب في خمس أو عشر سنوات. حتى عبّر أحد الشعراء عن ذلك الندم والأسف بقوله:

ألا لَيتَ الشَبابَ يعودُ يوماً   فأُخبره بِمَا فَعَلَ المَشِيبُ

أما محبتك للمناظر البهيجة ولا سيّما مناظر الربيع، فحيث إنها مشاهدة لبدائع صنع الله واطلاع عليها، فذهاب ذلك الربيع لا يزيل لذة المشاهدة ومتعة التفرج، إذ يترك وراءه معانيه الجميلة، حيث الربيع أشبه ما يكون برسالة ربانية زاهية تفتح للمخلوقات. فخيالك والـــزمن شبيهان بالشريط السينمائي يديمان لك لذة المشاهدة هذه، ويجددان دوماً تلك المعـــاني الـــتي

تحملها رسالة الربيع. فلا يكون حبك إذن مؤقتاً ولا مغموراً بالأسف والأسى، بـــل صـــافياً خالصاً لذيذاً ممتعاً.

أما حبك للدنيا، فلأنه حب لله ولأجله سبحانه، فان موجوداتها المثيرة للرعب والدهشة تصبح لك أصدقاء مؤنسين، ولأنك تتوجه إليها بالحب من حيث كونها مزرعـــة الآخـــرة، تستطيع أن تجني من كل شيء فيها ما يمكن أن يكون ثمرة من ثمار الآخرة، أو تغنم منها مـــا يمكن أن يكون رأس مال للآخرة. فمصائبها إذن لا تخيفك وزوالها وفناؤهـــا لا يضـــايقك. وهكذا تقضي مدة أقامتك فيها، وأنت ضيف مكرم.. ولكن لو كان حبك لها كحب أرباب الغفلة، فقد قلنا لك مراراً: ستغرق نفسك وتفنى بحبٍ ساحقٍ، خانق، زائل، لا طائـــل وراءه ولا نفع!.

وهكذا فقد حاولنا أن نُري لطيفة واحدة من مئات اللطائف التي تعود لكلٍ مما ذكرتَه، عندما يكون حبك له وفق إرشاد القرآن الكريم، وأشرنا في الوقت نفسه إلى واحد من مئات أضرار ذلك الحب إن لم يكن وفق ما يأمر به القرآن الكريم.

فان كنت تريد أن تدرك نتائج هذه الأنواع المختلفة من المحبة في دار البقـــاء وعـــالم الآخرة، مثلما إشارت إليها الآيات البينات للقرآن الكريم، فسنبين لك بياناً مجمـــلاً فائـــدة واحدة أُخروية من فوائد تلك الأنواع المشروعة من المحبة، وذلك في تسع إشارات، بعـــد أن نقدم بين يديها مقدمة:

المقدمة

إن الله سبحانه وتعالى، بألوهيته الجليلة، ورحمته الجميلة، وربوبيته الكـــبيرة، ورأفتـــه الكريمة، وقدرته العظيمة، وحكمته اللطيفة، قد زيّن هذا الإنسان الصغير بحـــواسَ ومشـــاعر كثيرة جداً، وجمّله بجوارح وأجهزة وأعضاء مختلفة عديدة؛ ليُشعر طبقات رحمتـــه الواســـعة ويذيقه أنواع آلائه التي لا تعد، ويعرّفه أقسام إحساناته التي لا تحصى، ويُطلعه عـــبر تلـــك الأجهزة والأعضاء الكثيرة على أنواع تجلياته التي لا تُحد لألف اسم واسم من أسمائه الحسنى، ويحببها إليه، ويجعله يحسن تقديرها حق قدرها.

فلكل عضو – من تلك الأعضاء الكثيرة – ولكل جهاز وآلة منها وظائفهـــا المتنوعـــة وعباداتها المتباينة كما أن لذائذها مختلفة وآلامها متغايرة وثوابها متميز.

فمثلاً: العين، تشاهد الجمال في الصور، وترى معجزات القدرة الإلهية الجميلة في عالم الشهود، فتؤدي وظيفتها بتقديم الشكر لله من خلال نظرتها ذات العبرة. ولا يخفى على أحد مدى ما فيها– أي الرؤية – من لذةٍ وما يحصل من زوالها من ألم، لذا لا داعي لتعريف لـــذة الرؤية وألم فقدانها.

ومثلاً: الأذن، تشعر بلطائف الرحمة الإلهية السارية في عالم المسموعات، بسماعها أنواع الأصوات ونغماتها اللطيفة المختلفة. فلها عبادة خاصة بها، ولذة تخصها، وثواب يعود إليها.

ومثلاً: حاسة الشم التي تشعر بلطائف الرحمة الإلهية الفواحة من شذى أنواع العطـــور والروائح، فان لها لذتها الخاصة به ضمن أدائها شكرها الخاص، ولا شك أن لها ثواباً خاصـــاً بها.

ومثلاً: حاسة الذوق التي في الفم. فهي تؤدي وظيفتها وتقدم بشكرها المعنوي بأنمـــاط شتى من خلال إدراكها مذاقات أنواع الأطعمة ولذائذها.

وهكذا فلكل جهاز من أجهزة الإنسان ولكل حاسة وجارحة، ولكل لطيفـــة مـــن لطائفه المهمة – كالقلب والروح والعقل وغيرها – وظائفها المختلفة، لذائذها المتنوعة الخاصة بها، فمما لا ريب فيه ان الخالق الحكيم الذي سخّر هذه الأجهزة لتلك الوظائف ســـيجزى كلاً منها بما يلائمها ويستحقها من جزاء.

إن النتائج العاجلة للأنواع المتعددة من المحبة – المذكورة سابقاً – يشعر بها كل إنســـان شعوراً وجدانياً، ويستدل على شعوره هذا ويتيقن منه بحدس صادق.

أما نتائجها الأُخروية فقد أثبتتها اثنتا عشرة حقيقة من الحقائق الساطعة للكلمة العاشرة والأسس الستة الباهرة للكلمة التاسعة والعشرين.

أما تفصيلها فهو ثابت قطعاً بالقرآن الكريم الذي هو أصدق كلام وابلغ نظـــام وهـــو كلام الله الملك العزيز العلام، في تصريح آياته البينات وتلويحها وفي رموزها وإشاراتها.. لذا لا نرى داعياً لإيراد براهين مطولة في هذا الشأن، علماً أننا سردنا بـــراهين كـــثيرة جـــداً في

"كلمات" أخرى وفي المقام الثاني العربي من الكلمة الثامنة والعشرين الخاصة بالجنة وفي الكلمة التاسعة والعشرين.

الإشارة الأولى:

إن النتيجة الأُخروية للمحبة المشروعة المكللة بالشكر للّه، نحو الأطعمة اللذيذة والفواكه الطيبة في الدنيا، هي تلك الأطعمة والفواكه الطيبة اللائقة بالجنة الخالدة.. كما ينص عليه القرآن الكريم. هذه المحبة، محبة ذات اشتياق واشتهاء لتلك الجنة وفواكهها. حتى أن الفاكهة التي تأكلها في الدنيا وتذكر عليها "الحمد للّه" تتجسم في الجنة فاكهة خاصة بها وتقدّم إليك طيبة من طيبات الجنة. فأنت تأكل هنا فاكهة، وهناك "الحمد للّه" مجسمة في فاكهة من فواكه الجنة.. وحيث انك تقدم شكراً معنوياً لذيذاً برؤيتك الإنعام الإلهي والالتفات الرباني في الأطعمة والفواكه التي تتناولها هنا، فستسلم إليك هناك في الجنة أطعمة لذيذة وفواكه طيبة، كما هو ثابت في الحديث الشريف وبإشارات القرآن الكريم، وبمقتضى الحكمة الإلهية ورحمتها الواسعة.

الإشارة الثانية:

إن نتيجة المحبة المشروعة نحو النفس، أي محبتها المبنية – في الدنيا – على رؤية نقائصها دون محاسنها، ومحاولة إكمالها، وتزكيتها ورعايتها بالشفقة والرأفة، ودفعها إلى سبيل الخير، هي إعطاء البارئ عز وجلّ محبوبين يليقون بها وبالجنة، فالنفس التي عافت – في الدنيا – هواها وشهواتها وتركت رغباتها في سبيل الله، وأستعمل ما فيها من أجهزة متنوعة على أفضل وجه وأتمه، سيمنحها البارئ الكريم سبحانه – مكافأة على هذه المحبة المشروعة المكللة بالعبودية لله – الحور العين المترفلات بسبعين حلة من حلل الجنة المتنوعة بأنواع لطائفها وزينتها، والمتجملات بسبعين نوعاً من أنواع الحسن والجمال حتى كأنهن جنة مجسمة مصغرة تنبض بالروح والحياة، لتقرّ بها عينُ النفس التي أطاعت الله وتهدأ بها المشاعر التي اطمأنت إلى أوامر الله.. فهذه النتيجة لا ريب فيها، إذ الآيات الكريمة تصرح بها يقيناً.

ثم إن نتيجة المحبة المتوجهة نحو الشباب في الدنيا، أي صرف قوة الشباب ونضارته في العبادة والتقوى، هي شباب دائم خالد في دار البقاء والنعيم المقيم.

الإشارة الثالثة:

أما النتيجة الأخروية لمحبة الزوجة المؤسسة على حُسن سيرتها وجميل خصلتها ولطيف شفقتها، والتي تصونها عن النشوز وتجنبها الخطايا والذنوب، فهي:

جعل تلك الزوجة الصالحة محبوبة ومحبة وصديقة صدوقة وأنيسة مؤنسة، في الجنة، جمالُها أبهى من الحور العين، زينتها أزهى من زينتهن، حسنها يفوق حسنهن.. تتجاذب مع زوجها أطراف الحديث، يستذكران أحداث أيام خلت.. هكذا وعد الرحيم الكريم. فما دام قد وعد فسيفى بوعده حتماً.

الإشارة الرابعة:

أما نتيجة محبة الوالدين والأولاد فهي أن الرحمن الرحيم جل وعلا يُحسن إلى تلك العائلة السعيدة المحظوظة - رغم تفاوت مراتبهم في الجنة - لقاء بعضهم البعض والمعاشرة والمجالسة والمحادثة فيما بينهم بما يليق بالجنة ودار البقاء، كما هو ثابت بنص القرآن الكريم. وينعم على أولئك الآباء بملاطفة أولادهم الذين توفوا في دار الدنيا قبل سن البلوغ، ويجعلهم لهم ولداناً مخلّدين، في ألطف وضع وأحبّه إلى نفوسهم، وبهذا تطمئن رغبة مداعبة الأطفال المغروزة في فطرة الإنسان، فيستمتعون بمتعة خالدة وذوق دائم في الجنة، حيث خُلّد لهم أطفالُهم الصغار - الذين لم يبلغوا سن التكليف - ولقد كان يُظن أن ليس في الجنة مداعبة الأطفال، لأنها ليست محلاً للتوالد. ولكن الجنة لأنها تحوى افضل لذائذ الدنيا وأجودها، فملاطفة الأولاد ومداعبة الأطفال لابد أنها موجودة فيها بأفضل صورها واجمل أشكالها.. فيا بشرى أولئك الآباء الذين فقدوا أطفالهم في دار الدنيا!.

الإشارة الخامسة:

إن نتيجة محبتك لصالح الأصدقاء والأقرباء التي يتطلبها "الحب في الله"، إنما هي في جلوسكم على سُرُر متقابلين ومؤانستكم بلطائف الذكريات، ذكريات أيام الدنيا وخواطرها الجميلة، وقضاء وقت ممتع وجميل بهذه المحاورة والمجالسة. كما هو ثابت بنص القرآن الكريم.

الإشارة السادسة:

أما نتيجة محبة الأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحين حسب ما بينه القرآن الكريم - فهي كسب شفاعة أولئك الأنبياء الكرام والأولياء الصالحين في عالم البرزخ، وفي الحشر الأعظم فضلاً عن الاستفاضة - بتلك المحبة - من فيوضات مقاماتهم الرفيعة ومراتبهم العالية اللائقة بهم.

نعم، إن الحديث الشريف ينص على أن "المرء مع من احب" فالإنسان إذن يستطيع أن يرتفع إلى أعلى مقام وارفعه بما نسج مع صاحبه من أواصر المحبة وبانتمائه إليه واتباعه له.

الإشارة السابعة:

إن محبتك للأشياء الجميلة وللربيع، أي نظرك إليها من زاوية قولك: "ما اجمل خلقه!" وتوجيه محبتك إلى ما وراء ذلك الشيء الجميل من جمال الأفعال وانتظامها، والى ما وراء تلك الأفعال المنسقة من جمال تجليات الأسماء الحسنى، والى ما وراء تلك الأسماء الحسنى من تجليات الصفات الجليلة.. وهكذا.. إن نتيجة هذه المحبة المشروعة هي:

مشاهدة جمالٍ أسمى من ذلك الجمال الذي شاهدته في المصنوعات بألوف ألوف المرات. أي مشاهدة تجليات الأسماء الحسنى وجمال الصفات الجليلة بما يليق بالجنة ودار البقاء. حتى قال الإمام الرباني السرهندي رضى الله عنه: "إن لطائف الجنة إنما هي تمثلات الأسماء الحسنى" فتأمل!.

الإشارة الثامنة:

أما محبتك للدنيا محبةً مشروعة، أي محبتك لها مع التأمل والتفكر في وجهيَها الجميلين اللذين هما: مزرعة الآخرة ومرآة التجليات للأسماء الحسنى فان نتيجتها الأُخروية هي أنه:

سيُهَب لك جنة تسع الدنيا كلها، ولكنها لا تزول مثلها، بل هي خالدة دائمة. وستُظهر لك في مرايا تلك الجنة تجليات الأسماء الحسنى بأزهى شعشعتها وبهائها، تلك التي رأيت بعض ظلالها الضعيفة في الدنيا.

ثم إن محبة الدنيا في وجهها الذي هو مزرعة للآخرة، أي باعتبار الدنيا مشتلاً صغيراً جداً لاستنبات البذور لتتسنبل في الآخرة وتثمر هناك، فان نتيجتها هي:

أثمار جنة واسعة تسع الدنيا كلها، تنكشف فيها جميع الحواس والمشاعر الإنسانية التي يحملها الإنسان في الدنيا كبُذيرات صغيرة، انكشافاً تاماً ونمواً كاملاً، وتتسنبل فيها بُذيرات الاستعدادات الفطرية حاملة جميع أنواع اللذائذ والكمالات.. هذه النتيجة ثابتة بمقتضى رحمة الله الواسعة وحكمته المطلقة. وهي ثابتة كذلك بنص الحديث الشريف وإشارات القرآن الكريم.

ولما كانت محبتك للدنيا ليست لذلك الوجه المذموم الذي هو راس كل خطيئة، وإنما هي محبة متوجهة إلى وجهَيها الآخرين أي إلى الأسماء الحسنى والآخرة، وقد عقدت - لأجلهما - أواصر المحبة معها وعمّرت ذينك الوجهين على نية العبادة، حتى كأنك قمت بالعبادة بدنياك كلها.. فلابد أن الثواب الحاصل من هذه المحبة يكون ثواباً أوسع من الدنيا كلها، وهذا هو مقتضى الرحمة الإلهية وحكمتها.

ثم لان المحبة قد حصلت معها بمحبة الآخرة وكونها مزرعة لها، وبمحبة الله سبحانه، وكونها مرآة لإظهار أسمائه الحسنى.. فلاشك أن تقابل هذه المحبة بمحبوب أوسع من الدنيا كلها، وما هو إلاّ الجنة التي عرضها السّموات والأرض.

سؤال: ما فائدة الجنة الواسعة سعة الدنيا؟

الجواب: لو كان من الممكن أن تتجول بسرعة الخيال في أقطار الأرض كلها، وتزور اغلب النجوم التي في السماء، لكنت تقول عندئذٍ: أن العالم كله لي. فلا يزاحم حكمك هذا ولا ينافيه وجود الملائكة والناس الآخرين والحيوانات معك في هذا العالم الواسع.

وكذلك يمكنك أن تقول: أن تلك الجنة لي، حتى لو كانت مليئة بالقادمين إليها.

وقد بينا في رسالة (الجنة) - وهي الكلمة الثامنة والعشرون - معنى الحديث الوارد من انه يُعطى لبعض أهل الجنة جنة سعتها خمسمائة سنة، وكذا بيناه في رسالة (الإخلاص).

الإشارة التاسعة:

إن نتيجة الإيمان بالله ومحبته سبحانه هي:

رؤية جمال مقدس وكمال منـــزه للذات الجليلة سبحانه وتعالى – كمـــا هـــي ثابتـــة بالحديث الصحيح [189] والقرآن الكريم – هذه الرؤية التي تساوي ساعة منها ألف ألف سنة من نعيم الجنة، [190] ذلك النعيم الذي ساعة منه تفوق ألف ألف سنة من حياة الدنيا الهنيئة، كمـــا هو ثابت لدى أهل العلم والكشف بالاتفاق.

ويمكنك قياس مدى الشوق واللهفة التي تنطوي عليهما فطرة الإنسان لرؤيـــة ذلـــك الجمال المقدس والكمال المنـــزه، ومدى ما فيها من رغبة جياشة وتـــوق شـــديد والتيـــاع لشهودهما، بالمثال الآتي:

كل إنسان يشعر في وجدانه بلهفة شديدة لرؤية سيدنا سليمان عليه السلام الذي أوتى الكمال ويشعر أيضاً بشوقٍ عظيم نحو رؤية سيدنا يوسف عليه السلام الذي أوتـــى شـــطر الجمال. فيا ترى كم يكون مدى الشوق واللهفة لدى الإنسان لرؤية جمال مقدس وكمـــال منـــزه، الذي من تجليات ذلك الجمال والكمال، الجنة الخالدة بجميـــع محاســـنها ونعيمهـــا وكمالاتها التي تفوق بما لا يحد من المرات جميع محاسن الدنيا وكمالاتها..

اللّهم ارزقنا في الدنيا حبَّك وحبَّ ما يقرّبنا إليك، والاستقامة كما أمرتَ، وفي الآخرة رحمتَك ورؤيتك.

(سبحانك لا عِلمَ لَنا إلاّ ما عَلّمْتَنا إنَكَ أنَت العَليم الحَكيم)

اللّهمَ صلّ وَسَلم على مَن أرسَلته رَحمة للعالمين

وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين

---

189 عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تُضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تُضارون في الشمس ليس دونها ســحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذا. والحديث بطوله رواه البخاري ومسلم.

190 فقد ورد في الحديث الشريف «... قال: فيكشف الله تبارك وتعالى تلك الحجب، ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره شـــئ لولا أنه قضى عليهم أن لا يحترقوا لاحترقوا مما غشيهم من نوره. قال: ثم يقال لهم: ارجعوا إلى منازلكم. قال: فيرجعون إلى منازلهم وقد خَفُوا على أزواجهم وخَفينَ عليهم مما غشيهم من نوره تبارك وتعالى، فإذا صاروا إلى منازلهم تراد النور وأمكنَ حتى يرجعوا إلى صورهم التي كانوا عليها. قال: فتقول لهم أزواجهم: لقد خرجتم من عندنا على صورة، ورجعـــتم على غيرها؟ قال: فيقولون: ذلك بأن الله تبارك وتعالى تجلى لنا فنظرنا منه ما خفينا به عليكم....» (رواه البزار - انظـــر الترغيب والترهيب للحافظ المنذري 556/4) - المؤلف.

تنـــــــــــــــبيه

لا تعدّ التفصيلات الواردة في ختام هذه الكلمة طويلة، بل هـــي مختصـــرة بالنســـبة لأهميتها، اذ تحتاج الى اطناب اكثر.

والمتكلم في »الكلمات« كلها، ليس انا، فلست المتكلم فيها، بل الحقيقة هي التي تتكلم باسم »الاشارات القرآنية« وان الحقيقة تنطق بالحق وتقول الصدق.

لذا ان رأيتم خطأً فاعلموا يقيناً ان فكري قد خالط البحث وعكّر صفوه وأخطأ دون ارادتي.

مناجاة

يا رب! ان من لا يُفتح له باب قصر عظيم، يدق ذلك الباب بصدى صوت من هـــو مقبول مأنوس لدى البواب.

فانا الضعيف المسكين ادق باب رحمتك بنداء عبدك المحبوب لديك (اويـــس القـــرني) وبمناجاته، فكما فتحتَ له باب رحمتك يا إلهي، افتحه لي يارب كذلك.اقول كما قال:

إلهي انت ربي وانا العبد

وانـــت الخـــالق وانا المخلوق

وانت الرزاق وانا المرزوق

وانت المالك وانا المملوك

وانت العزيز وانا الذليل

وانت الغني وانا الفقير

وانت الحـــــي وانا الميت

وانت الباقي وانا الفاني

وانت الكريم وانا اللئيم

وانت المحسن وانا المسئ

وانت الغفور وانا المذنب

وانت العظيم وانا الحقير

وانت القوي وانا الـــضعيف

وانت المعطي وانا السائل

وانت الامين وانا الخائف

وانت الجواد وانا المسكين

وانت المجيب وانا الداعي

وانت الشافي وانا المريــض

فاغفر لي ذنوبي وتجاوز عني واشف امراضي يا الله يا كافــي يا رب يا وافي يا رحيم يا شافي يا كريم يا معافي. فاعف عني من كل ذنب وعافني من كل داء

وارض عني ابداً برحمتك يا ارحم الراحمين..

(وآخر دعواهم ان الحمد لله ربِّ العالمين).

الكلمة الثالثة والثلاثون

»وهي عبارة عن ثلاثٍ وثلاثين نافذة«

هذه الكلمة هي »الكلمة الثالثة والثلاثون« من جهة وهي »المكتوب الثالث والثلاثون« من جهة اخرى.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(سَنُريهِمْ آيَاتِنَا فِي الافَاقِ وَفى اَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ اَنَّهُ الْحَقُّ اَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ اَنَّــهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ) (فصلت:53)

سؤال: نرجو أن توضح لنا توضيحاً مجملاً ومختصراً، ما في هذه الآية الكريمة الجامعة من دلائل على وجوب وجود الله سبحانه، وعلى وحدانيته وأوصافه الجليلة وشــؤونه الربانيــة، سواءً أكان وجه الدلائل في العالم الأصغر او الأكبر، أي في الانسان أو الكون. فلقد أفــرط الملحدون وتمادوا في غيّهم حتى بدأوا يجاهرون بقولهم: الى متى نرفع اكفّنا وندعو: »وهو على كل شيء قدير«؟.

الجواب: ان ما كُتِبَ في كتاب »الكلمات« من ثلاث وثلاثين »كلمة«، ما هــي الاّ ثلاث وثلاثون قطرة تقطّرت من فيض هذه الآية الكريمة. يمكنكم ان تجــدوا مــا يقــنعكم بمراجعتها. أما هنا فسنشير مجرد اشارة الى رشحاتِ قطرةٍ من ذلك البحر العظيم. فنمهد لهــا بمثال:

ان الذي يملك قدرة معجزة ومهارة فائقة اذا ما أراد ان يبني قصراً عظيماً فلا شك أنه قبل كل شئ يرسي اسسه بنظام متقن، ويضع قواعده بحكمة كاملة، وينسّقه تنسيقاً يلائم لما يُبنى لأجـــلـــه مـــن غـــايـــات ومـــا يرجـــى منه من نتـــائج. ثم يبـــدأ بتقسيمه وتفصيله بما لديه من مهارة وابداع الى أقسام ودوائر وحجرات، ثم نراه ينظم تلـــك الحجرات ويزيّنها بروائع النقوش الجميلة، ثم ينوّر كل ركن من أركـــان القصـــر بمصـــابيح كهربائية عظيمة، ثم لأجل تجديد إحسانه واظهار مهارته نراه يجدد ما فيه من الاشياء ويبدّلها ويحوّلها. ثم يربط بكل حجرة من الحجرات هاتفاً خاصاً يتصل بمقامه، ويفتح من كلٍ منـــها نافذةً يُرى منها مقامه الرفيع.

وعلى غرار هذا المثال »ولله المثل الأعلى« فالصانع الجليل – الذي له ألف اسم واســـم من الأسماء الحسنى – أمثال: الحاكم الحكيم، والعدل الحَكَم، والفاطر الجليل، الـــذي لـــيس كمثله شئ. أراد – وإرادته نافذة – خلقَ شجرة الكائنات العظيمة، وايجاد قصـــر الكـــون البديع.. هذا العالم الأكبر.. فوضع أسس ذلك القصر وأصول تلك الشجرة في ســـتة أيـــام بدساتير حكمته المحيطة وقوانين علمه الأزلي. ثم صوّره وأحسن صوره بدساتير القضاء والقدر وفصّله تفصيلاً دقيقاً الى طبقات وفروع علوية وسفلية. ثم نظّم كل طائفة مـــن المخلوقـــات وكل طبقة منها بدساتير العناية والإحسان. ثم زيّن كل شئٍ وكل عالم، بما يليق به من جمال –فزيّن السماء مثلاً بالنجوم وجمّل الأرض بالأزاهير ـــــــ ثم نوّر ميادين تلـــك القـــوانين الكلية وآفاق تلك الدساتير العامة بتجليات أسمائه الحسنى، ثم أمدّ الذين يستغيثون بـــه ممـــا يلاقونه من مضايقات تلك القوانين الكلية فتَوجَّه اليهم باسم »الرحمن الرحيم«، أي أنه وضع في ثنايا قوانينه الكلية ودساتيره العامة من الاحسانات الخاصة والاغاثات الخاصة والتجليـــات الخاصة ما يمكّن كل شئ أن يتوجَّه اليه سبحانه في كل حين ويسأله كل ما يحتاجه. وفَتَح من كل منزل، ومن كل طبقة، ومن كل عالم، ومن كل طائفة، ومن كل فرد، ومن كل شـــئ نوافذ تتطلع اليه وتظهره، أي تُبين وجوده الحق ووحدانيته، فأودع في كل قلب هاتفاً يتصل به.

وبعد؛

فسوف لا نقحم أنفسنا فيما لا طاقة لنا به من بحث هذه النوافذ الــتي لا تعــد ولا تحصى، بل نحيلها الى علم الله المحيط بكل شئ، الاّ ما نشير من اشارات مجملة فقط الى ثلاث وثلاثين نافذة منها، تألّقت من لمعات آيات القرآن الكريم فاصبحت »الكلمة الثالثة والثلاثين« أو »المكتوب الثالث والثلاثين« وقد حصرناها في ثلاثٍ وثلاثين نافذة تبركاً بالأذكار التي تأتي عقب الصلوات الخمس. وندع ايضاحاتها المفصّلة الى الرسائل الاخرى.

النافذة الاولى

نشاهد في الموجودات جميعها ولا سيما الأحياء منها إفتقــاراً الى حاجــات مختلفــة ومطاليب متنوعة لا تحصى.. وان تلك الحاجات تُساقُ اليها من حيث لا تحتســب، وتلــك المطاليب تترى عليها كُلٌّ في وقته المناسب.. علماً بأنَّ أيدي ذوي الحاجة تقصر عن بلــوغ أدنى حاجاتها فضلاً عن أوسع غاياتها ومقاصدها.. فإن شئتَ فتأمل في نفسك تجدها مغلولــة الأيدي إزاء كثير مما يلزم حواسك الظاهرة، أو يشبع رغباتك الباطنة.. فقس على نفســك نفوس جميع الأحياء، وتأمل فيها تجد أن كل كائن منها يشهد بفَقره وحاجاته المقضيّة من غير حول منه ولا قوة على الواجب الوجود، ويشير بهما الى وحدانيته سبحانه وتعالى، كما يدل عليه بمجموعه كدلالة ضوء الشمس على الشمس نفسها ويبين للعقل المنصف أنه سبحانه في منتهى الكرم والرحمة والربوبية والتدبير.

فما أبغض جهلك.. وألعنَ غفلتك.. أيها الجاهل الغافل المكابر.. كيف تفســر هــذه الفعالية الحكيمة والبصيرة والرحيمة؟!

أبالطبيعة الصماء؟ أم بالقوة العمياء؟ أم بالمصادفة العشــواء؟ أم بالأســباب الجامــدة العاجزة؟

النافذة الثانية

بينما تتردد الأشياء بين الوجود والتشخص وتحار بين طرق الإمكانات والاحتمــالات غير المتناهية، اذا بها تُمنح صورة مميزة لها، غايةً في الإنتظام والحكمة..

تأمل في العلامات الفارقة الموجودة في وجه كُلِّ إنسان، تلك العلامات التي تميّزه عن كل واحد من أبناء جنسه، وأمعن النظر فيما أودع فيه بحكمة بديعة من حَوَاسَّ ظاهرةٍ ومشاعر باطنة.. ألا يثبت ذلك أن هذا الوجه الصغير آية ساطعة للأحدية؟

فكما أن كل وجه يدل – بمئات الدلائل – على وجود صانعٍ حكيم، ويشهد على وحدانيته، فمجموع الأوجه ايضاً، وفي الأحياء كافة تبيّن للبصيرة النافذة أنها آية كبرى جليلة للخالق الواحد الأحد.

فيا أيها المنكر.. أتقدر أن تحيل هذه العلامات والاختام التي لا تقلد، أو أن تسند الآية الكبرى للاحد الصمد الساطعة في مجموعها.. الى غير بارئها المصور؟

النافذة الثالثة

إنَّ أنواع النبات، وطوائف الحيوان، المنتشرة على الارض هي أكثر من اربعمائة ألف نوع وطائفة، [191]وكأنها جيش هائل عظيم، فنرى ان كل نوع من هذا الجيش له رزقه المختلف عن الآخر وصورته المتباينة، وأسلحته المتنوعة وملابسه المتميزة، وتدريبه الخاص وتسريحه المتفاوت من الخدمة.. وتجري هذه كلها في نظام متقن، ووفق تقدير دقيق.

فإدارة هذا الجيش العظيم، وتربية افراده، دونما نسيان لأحد ولا التباس، لهي آية ساطعة كالشمس للواحد الأحد.

فمن ذا يستطيع أنْ يمدَّ يد المداخلة في هذه الادارة المعجزة من دون مالكها القدير الذي لا حدّ لقدرته، ولا حدود لعلمه، ولا نهاية لحكمته! ذلك لأن الذي يعجز عن إدارة وتربية هذ الأنواع المتداخلة ببعضها والأمم المكتنفة بعضها في بعض، دفعةً واحدة وفي آن واحد، يعجز كلياً عن مباشرة خلق واحد منها، اذ لو حصلت مداخلته في أي منها لظَهَر أثرُه، وبان النقصُ والقصور(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُور) (الملك:3)

فلا فطور ولا نقص، اذن فلا شريك.

---

[191] بل ان عدد افراد قسم من تلك الطوائف ـ خلال سنة واحدة ـ هو اكثر من عدد البشرية منذ آدم عليه السلام الى قيام الساعة. ـ المؤلف.

النافذة الرابعة

هي أستجابة الخالق لجميع الأدعية المنطلقة بلسان استعدادات البذور، وبلسان احتياجات الحيوانات، وبلسان اضطرار المستغيثين من بني الانسان..

نعم، انَّ الاستجابة لجميع هذه الادعية غير المحدودة استجابة فعليةً، باديةٌ أمامنا، نشاهدها رأي العين.

فكما يشير كُلّ منها الى »الواجب الوجود« والى الوحدانية، فان مجموع تلك الاستجابات تدل بالبداهة - وبمقياس أوسع وأعظم على خالق رحيم كريم مجيب، وتوجِّه الأنظار اليه سبحانه.

النافذة الخامسة

اذا أمعنا النظر في الأشياء، ولا سيما الأحياء، نشاهدها وكأنها قد خرجت من يد الخلق لتوها، وبرزت الى الوجود بروزاً فجائياً... فبينما ينبغي ان تكون الاشياء المركبة آنياً وعلى عجل بسيطةَ التركيب ومشوهة الشكل، ومن دون إتقان، نراها تُخلَقُ في أتقن صنعة وأبدعها؛ هذا الإتقان والإبداع الذي يتطلب مهارة فائقةً..

ونراها في أروع نقش وأدق صورة؛ هذه الروعة والدقة التي تحتاج الى صبر عظيم وزمن مديد..

ونراها في زينة فاخرة وجمال أخاذ؛ هذه الزينة وهذا الجمال اللذان يستدعيان آلات تجميل متنوعة، ووسائل زينة كثيرة...

فهذا الإتقان المعجِز، والصورة البديعة، والهيأة المنسقة، والابداع الآني، كلٌّ منه يشهد على وجود الصانع الحكيم، ويشير الى وحدانية ربوبيته. كما أن مجموعه يبيّن بوضوح »الواجب الوجود« القدير الحكيم، ويبين وحدانيته سبحانه.

فيا أيها الغافل عن ربه، الحائر في أمر الموجودات..هيَّا.. بماذا توضح هذا الأمر وتفسره؟ أفتفسره بالطبيعة العاجزة البليدة الجاهلة؟ أم تريد أن تقترف بجهلك خطأً لا حدود له، فتقلد الطبيعة صفات الألوهية، وتنسب اليها بهذه الحجة معجزات قدرة ذلك الصانع الجليل المنزّه عن كل نقص وعيب، فترتكب ألف محال ومحال.

(اِنَّ فِي خَلْقِ السَّموات والاْرضِ وَاختِلافِ الَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالفُلْكِ الّتِى تَجْرى فِي البَحرِ بمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمآ اَنْزَلَ الله مِنَ السَّمآءِ مِنْ مآءٍ فَاحيا بِهِ الارضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فيها من كُــلِّ دَآبةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسّحَابِ الــمُسخَّرِ بَيْنَ السَمَآءِ والارضِ لايــاتٍ لِقَــوْمٍ يَعقِلــُونَ) (البقرة: 164)

هذه الآية الكريمة كما أنها تبين وجود الله سبحانه وتعالى وتدل على وحدانيته، فهي في الحقيقة نافذة عظيمة جداً تطل على الاسم الأعظم من الأسماء الحسنى. وزبدة خلاصتها:

ان جميع عوالم الكون علوّيها وسفليّها، تدل بألسنة مختلفة على نتيجة واحدة، أي على ربوبية صانعٍ حكيمٍ واحد، وكما يأتي:

ان جريان الأجرام في »السماوات« بمنتهى النظام لبلوغ غايات جليلة، ونتائج سامية – بتقرير علم الفلك نفسه – إنما يدل على وجود اله قدير ذي جلال ويشهد على وحدانيتـــه وربوبيته الكاملة.

كما ان التحولات المنتظمة في »الأرض« والمشاهَدة في المواسم لحصول منافع عظيمـــة ومصالح شتى – بتقرير الجغرافية – إنما تدل دلالة واضحة على ذلكم القـــدير ذي الجـــلال، وتشهد على وحدانيته وربوبيته الكاملة.

ثم ان جميع »الحيوانات« التي تملأ البر والبحر والتي يُرْسَلُ رزقُ كُلٍّ منها برحمة واسعة، وتُكسى بأثواب متنوعة، بحكمة تامة، وتجهّز بحواس مختلفة، بربوبية كاملة.. يشير كل منها الى ذلك القدير ذي الجلال، ويشهد على وحدانيته، كما أن مجموعها ككل يدل معاً وبمقيـــاس واسع جداً على عظمة الألوهية وكمال الربوبية.

وكذا الحال في »النباتات« الموزونة المنتظمة التي تفرش الأرض والبساتين والزروع، كل منها يدل على ذلك الصانع الحكيم، ويشير الى وحدانيته بما تحمل من أزاهير جميلة، وما تنتج هذه الازاهير من ثمار موزونة، وما على هذه الثمار من نقوش رائعة، فكما ان كلاً منها على حدة يدل عل الصانع فإن مجموعَها يظهر جمال رحمته سبحانه، وكمال ربوبيته.

ثم ان »القطرات« المسخرة لحِكَمٍ غزيرة، ولغايات سامية، ومنافعَ جليلة، وفوائد جمّةً، والتي تُرسل من السحب الثقال المعلقة بين السماء والأرض، تدل بعدد القطرات على ذلك الصانع الحكيم، وتشهد على وحدانيته وكمال ربوبيته.

كما أن »الجبال« الراسيات، وما في أجوافها من معادن، وما لكلٍ منها من خواص، وما أدّخر فيها من غايات شتى، والمعدّة لمصالح عدة، كل منها على حدة وبمجموعها معاً، تدل دلالة أقوى من الشمّ الرواسي على ذلك الصانع الحكيم وعلى وحدانيته وكمال ربوبيته.

ثم ان أنواع »الازاهير« الجميلة اللطيفة المنثورة عل التلال والروابي والصحارى، وقد أضفى عليها البهاء والجمال، كُلٌّ منها يدل على ذلك الصانع الحكيم ويشهد على وحدانيته، مثلما أن مجموعها العام يدل على عظيم سلطانه وكمال ربوبيته.

ثم ان أنواع »الاوراق« وأشكالها المنسقة، واهتزازاتها اللطيفة الجذابة في النباتات والاشجار والأعشاب كافة تشهد بعدد الأوراق على ذلك الصانع الحكيم، وعلى وحدانيته وكمال ربوبيته.

ثم ان »نمو الاجسام« بخطوات هادفة مطردة، وتجهيز كل منها بأنواع من الاجهزة المتوجهة معاً الى تكوين الثمار، وكأنه توجُّهٌ شعوري، يجعل كل جسم نامٍ بأجزائه ومجموعه، يشهد لذلك الصانع الحكيم ويشير الى وحدانيته، ويدل دلالة أعظم على قدرته المحيطة، وحكمته الشاملة، وصنعته الجميلة، وربوبيته الكاملة.

ثم ان إيداع »النفس« في الجسد، وتمكين »الروح« من كل كائن حيواني بحكمة تامة، وتسليحه بأسلحة متنوعة، وتزويده بأعتدة مختلفة بنظام كامل، وتوجيهه الى مهمات جليلة، واستخدامه في وظائف متنوعة بحكمة تامة، يشير إشارات بعدد الحيوانات بل بعدد أجهزتها وأعضائها الى وجود ذلك الصانع الحكيم، ويشهد على وحدانيته، مثلما أن مجموعها الكلي يدل دلالة ساطعة على جمال رحمته وكمال ربوبيته.

ثم أن جميع »الإلهامات« الغيبية التي ترشد قلوب الناس وتُفقِّهها بالعلوم والحقائق، وتُعلّم الحيوان الاهتداء الى توفير ما يحتاجه من حاجات... هذه الإلهامات الغيبية بأنواعها المختلفة تُشعِرُ كُلَّ ذي بصيرة بوجود رب رحيم وتشير الى ربوبيته.

ثم ان جميع »المشاعر« المتنوعة والحواس المختلفة – الظاهرة منها والباطنة – والتي تجني الازاهير المعنوية من بستان الكون، وكون كل حاسة منها مفتاحاً لعالم من العوالم المختلفة في الكون الواسع، تدل كالشمس على وجود صانع حكيم عليم، وخالق رحيم، ورزاق كريم، وتشهد على واحديته وأحديته وكمال ربوبيته.

فهذه النوافذ الأثنتا عشرة، كلٌ منها تمثل وجهاً لنافذة واسعة، فتدل بأثني عشر لوناً من ألوان الحقيقة على أحدية الله سبحانه، ووحدانيته وكمال ربوبيته.

فيا أيها المكذّب الشقي!.. كيف تستطيع أن تسدَّ هذه النافذة الواسعة سَعَةَ الأرض.. بل الواسعة سعة مدارها السنوي.؟! وبأي شئ يمكنك ان تطفئ منبع هذا النور الساطع كالشمس؟. وبأي ستار من ستائر الغفلة يمكنك أن تخفيه..؟!

النافذة السابعة

ان ما يبدو عياناً في جميع المصنوعات المبثوثة على صفحات الكون من مظاهر النظام والموازنة التامة، وما تتشكل فيه من صور الزينة والجمال، وما يشاهد من سهولة متناهية في انبعاثها الى الوجود وتملكها للحياة، وما هي عليه من تشابه بعضها للبعض الآخر في المظاهر أو الماهيات فضلاً عن استجاباتها الفطرية الواحدة للأحداث الكونية.. كل من هذه المظاهر والخصائص دليل واسع سعة الكون على الخالق القدير، وشهادة صادقة قاطعة على وحدانيته سبحانه وقدرته المطلقة.

وكذا ان »ايجاد مركبات« منتظمة لا تعد ولا تحصى من عناصر جامدة بسيطة التركيب، يشهد شهادة قاطعة بعدد المركبات على ذلك الخالق القدير الواجب الوجود سبحانه، ويشير إشارة صريحة الى وحدانيته، فضلاً عن أن مجموعها العام يبين بياناً باهراً كمال قدرته ووحدانيته.

وكذا ان ما يشاهد من »تمايز« واضح و »افتراق« كامل أثناء تجدد الموجودات – بالتحليل والتركيب – رغم كونها في منتهى الإختلاط والامتزاج يدل دلالة واضحة على ذلك الحكيم المطلق الحكمة، والعليم المطلق العلم، والقدير المطلق القدرة، ويشير الى وجوب وجوده سبحانه وكمال قدرته.

فخذ مثلاً: تسنبل الحبوب المدفونة في جوف الأرض، ونمو أصول الأشجار الى نباتات مختلفة وأشجار متباينة، رغم الاختلاط والتشابك، وكذلك تميُّز المواد المختلفة الداخلة في النباتات والاشجار المتنوعة الى اوراق زاهية وألوان جميلة، وثمار لطيفة رغم الامتزاج الشديد. بل حتى تمايز وتجزءُ المواد الغذائية الدقيقة الداخلة في حجيرات الجسم بحكمة كاملة وبميزان دقيق رغم الامتزاج والاختلاط.

وكذا ان تسخير »ذرات« جامدة عاجزة جاهلة للقيام بمهام في غاية الانتظام والشعور والقدرة والحكمة، وجعل »عالم الذرات« ما يشبه مزرعة عظيمة هائلة تزرع فيها كل حين عوالم، وتحصد اخرى بحكمة تامة.. كلها دلائل واضحة على وجوب وجود ذلكم القدير ذي الجلال، وذلكم الخالق ذي الكمال، وتشهد شهادة قوية على كمال قدرته، وعظيم ربوبيته، وعلى وحدانيته وكمال ربوبيته.

وهكذا تؤدي بنا هذه الطرق الأربع الواسعة الى نافذة عظيمة جداً تنفتح على المعرفة الإلهية، حيث يطل منها نظر العقل الحاد على وجود الخالق الحكيم.

فيا أيها الغافل الشقي بغفلته! إن لم تُرِد بعد هذا كله رؤيته ومعرفته عدّ نفسك من الانعام!

النافذة الثامنة

ان جميع الأنبياء عليهم السلام الذين هم أصحاب الارواح النيّرة في النوع الإنساني مستندين الى معجزاتهم الظاهرة الباهرة، وجميع الأولياء الذين يمثلون أقطاب القلوب المنورة معتمدين على كشفياتهم وكراماتهم، وجميع الأصفياء العلماء الذين يمثلون أرباب العقول النورانية مستندين الى تحقيقاتهم العلمية.. يشهدون جميعاً على وجوب وجود الواحد الأحد الخالق لكل شئ، ويدلون على كمال ربوبيته ووحدانيته.

هذه النافذة واسعة جداً ومنورة مضيئة ساطعة، وهي مفتوحة أبداً لإظهار ذلك المقام الرفيع للربوبية.

فيا أيها المنكر الحيران!.. بِمَ تَعْتَدّ وتفتخر، حتى لا تلقي لهذه الحقائق سمعاً؟! لعلّك تظن أنك بإطباق جفنيك تستطيع أن تجعل نهار الدنيا ليلاً.. ألا هيهات..!

النافذة التاسعة

ان »العبادات« التي تؤديها الكائنات بأسرها تدل بالبداهة على معبود مطلق ..

نعم!.. ان العبودية الخالصة التي يؤديها الملائكة والروحانيات عموماً، والثابتة بشـــهادة الذين عَبَروا الى عالم الارواح من البشر، واستبطنوا بواطن الوجود. والتقوا هنـــاك الملائكـــة والروحانيات، وشاهدوهم في عباداتهم وتسابيحهم..

وقيام جميع ذوي الحياة – مهما كانوا – بمهامهم التي خلقوا لها على أتم نظام، وامتثالهم للأوامر الإلهية امتثال عبد مأمور..

وأداء جميع الجمادات خدماتها المتسمة بعبودية كاملة على أتم طاعة..

ان جميع هذه العبادات المشاهدة تشير الى المعبود الحق الواجب الوجود والى وحدانيته.

وان جميع »المعارف« الحقة التي يحملها جميع العارفين نتيجة اخلاصهم في عبوديتـــهم للّه.. والشكر المثمر النابع من صميم قلوب الشاكرين.. والاذكار المنورة التي ترطب ألســـنة الذاكرين.. والحمد المزيد للنعمة الذي يلهج به الحامدون.. والتوحيد الحقيقي المصدَّق بآيات جميع الموجودات الذي يبثه الموحدون.. والحب الإلهي وعشقه الصادق الذي يشيعه المحبـــون والواجدون.. ورغبات المريدين الخالصة في الله، وحزم ارادتهم في الســـير اليـــه.. والإنابـــة الصادقة، والتوسل الحزين لدى المنيبين..

كل هذه الظواهر المنبعثة من جميع هؤلاء الذين يحمل كل منهم قوة التواتر والاجمـــاع، تدل دلالة قوية على وجوب وجود ذلكم المعبود الأزلي؛ المعـــروف، المـــذكور، المشـــكور، المحمود، الواحد، المحبوب، المرغوب، المقصود، وتدل على كمال ربوبيته ووحدانيته.

ثم إنّ جميع العبادات المقبولة التي يتعبد بها الكاملون من الناس، وما ينبعث مـــن تلـــك العبادات المُرضية من فيوضات ومناجاة ومشاهدات وكشفيات، جميعها تدل دلالة قوية جداً على ذلك الموجود الباقي، وذلك المعبود الأبدي وعلى أحديته وكمال ربوبيته.

فهذه النافذة المضيئة والواسعة جداً، تنفتح من ثلاث جهات انفتاحاً على الوحدانية.

النافذة العاشرة

(وَاَنْزَلَ مِنَ السَّمآءِ مَآءً فَاَخْرَجَ بِه مِنَ الثَّمراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِي الْبَحْرِ بِاَمْرِهِ وَسَخَّر لَكُمُ الاَنْهارَ ــ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمسَ وَالقَمَرَ دآئِبَيْنِ وَسَــخّرَ لَكُــمُ الّيــلَ والنَّهارَ ــ وَآتيكمُ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلتُمُوهُ وَاِنْ تَعدّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا) (ابراهيم: 32ــــ 34)

إن معاونة الموجودات بعضها للبعض الآخر وتجاوبها فيما بينها، وتساندها في الوظائف والواجبات.. يدل على أن كل المخلوقات تحت تربية ورعاية مُربٍّ واحد أحد. وأن الكــل تحت أمر مدبر واحد أحد.. وان الكل تحت تصرف واحد أحد.. ذلك لأن »دستور التعاون« بين الموجودات، يجري ابتداءً من الشمس، التي تهيئ بأمر الله لوازم الحياة للأحياء، ومن القمر الذي يعلمنا المواقيــت، وانتهاءً الى امداد الضوء والهواء والماء والغذاء لذوي الحياة، وامــداد النباتات للحيوانات، وامــداد الحيوانات للانسان، بل حتى امداد كل عضو من اعـــضاء الجسم للآخر، وامداد ذرات الغذاء لحجيرات الجسم.. فخضوع هذه الموجــودات الجامــدة الفاقدة للشعور وانقيادها لدستور التعاون وارتباطها معاً ارتباط تفاهم وتجــاوب في منتــهى الحكمة، وفي منتهى الايثار والكرم، وجعل كل منها يســعى لاغاثة الآخر وإمداده بلــوازم حياته، ويهرع لقضاء حاجياته واسعافه، تحت ظل قانون الكرم وناموس الرأفــة، ودســتور الرحمة.. كل ذلك يدل بداهة على أن جميعها مخلوقات مأمورات ومســخرات عــاملات للواحد الأحد، الفرد الصمد، القدير المطلق القدرة، والعليم المطلق العلم، والكــريم المطلــق الكرم.

فيا أيها المتفلسف المفلس! ما تقول في هذه النافذة العظيمة؟ أيمكن للمصادفة التي تعتقد بها أن تتدخل في هذه الأمور..؟

النافذة الحادية عشرة

(اَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ) (الرعد: 28)

انه لا خلاص للقلوب والارواح من قبضة القلق الرهيب، ومن دوامات الإضطراب والخوف، ومن ظمأ الضلالة وحرقة نار البعد عن الله الاّ بمعرفة خالق واحد أحد.. اذ ما ان يُسلَّم أمر القلوب والارواح، وأمر كل الموجودات الى خالق واحد احد حتى تجد راحتها، وتحظى بخلاصها من عناء تلك الزلازل النفسية المدمّرة وتسكن من ذلك القلق وتستقر وتطمئن..

لأنه ان لم يُسنَد أمر الموجودات كافة الى واحد أحد، فسَيُحالُ خلق كل شئ اذن الى ما لا يُحدُّ من الأسباب.. وعندها يكون ايجاد شئ واحدٍ مشكلاً وعويصاً كخلق الموجودات كلها، ولقد أثبتنا في الكلمة الثانية والعشرين انه:

إن فُوّض أمرُ الخلق الى الله، فقد فوّض اذن ما لا يحدُّ من الاشياء الى الواحد الأحد، والاّ فسيكون أمر كل شئ بيد ما لا يحدُّ من الاسباب، وفي هذه الحالة يكون خلق ثمرة واحدة مثلاً فيه من المشكلات والصعوبات بقدر الكون كله، بل أكثر. ولنوضح ذلك بمثال:

فكما ان تفويض ادارة جندي واحد الى أمراء عديدين فيه مشاكل عديدة جداً، بينما تفويض ادارة مائة جندي الى ضابط واحد فيه سهولة بالغة كأدارة جندي واحد، كذلك اتفاق ما لا يحد من الأسباب في ايجاد شئ واحد فيه مئات الاضعاف من الاشكالات. بينما في ايجاد الواحد الأحد للأشياء العديدة، فيه مئات الأضعاف من السهولة.

وهكذا فما يستشعره الانسان من لهفة الى الحقيقة وتَوقٍ اليها، يجعله دائم القلق والإضطراب ما لم يبلغها. فلا يجد الاطمئنان والسكون الاّ بتوحيد الخالق ومعرفة الله سبحانه ذلك لأن سلوك سبيل الكفر الذي فيه ما لا يحد من الاضطرابات والمشاكل محال، ولا حقيقة له اصلاً. بينما التوحيد فيه من السهولة المطلقة في خلق الموجودات بهذه الكثرة والابداع بحيث لا يدع للانسان مجالاً الاّ سلوكه، ولا غرو لأنه أصيل وحقيقي.

فيا مَن يتبع الضلالة.. ويا أيها الشقي المسكين!.. تأمل طريق الضلالة ما أظلمه ومـــا أشده ايلاماً لوجدان الانسان، فلا تحاول قط ان تقحمه.. ثم تأمل في طريق التوحيـــد فمـــا أصفاه وما أبسمه فاسلكه وانجُ بنفسك!

النافذة الثانية عشرة

(سَبِّحْ اِسْمَ رَبِّكَ الاَعلى_ اَلَّذى خَلَقَ فَسَوّى_ وَالَّذى قَدَّرَ فَهَدى)

هذه الآيات الكريمة ترشدنا الى أن جميع الأشياء ولا سيما الأحياء تظهر الى الوجـــود وكأنها خرجت من قالب مصمَّم تصميماً حكيماً يَهَبُ لكلّ شيءٍ مقداراً منتظماً وصورةً بديعة يشفّان عن حكمة واضحة. فنرى في الجسم خطوطاً متعرجة، وانحناءات وانعطافات تنشـــأ عنها فوائد شتى للجسم، ومنافع عديدة تسهل له أمر أداء وظيفته التي خلق من أجلها على أتم وجه.

فالموجود له صورة معنوية في علم الله تمثل مقدراته الحياتية، وهي تلازم الصورة الماديـــة وتنتقل معها في مراحل نموها، ثم تتبدل تلك الصورة والمقادير في مسيرة حياته تبدلاً يلائـــم الحكمة في خلقه وينسجم كلياً مع المصالح المركبة عليه، مما يدل بالبداهة على ان صور تلك الاجسام ومقاديرها تُفصَّل وتُقدَّر تقديراً معيناً في دائرة القدر الإلهي، الجليـــل الحكـــيم ذي الكمال، وتُنظَّم تلك الصور وتُنسَّق بيد القدرة الإلهية وتمنحها الوجود المعيّن المقدّر.

فتلك الموجودات غير المحدودة تدل على الواجب الوجود، وتشهد بألسنةٍ لا تحد علـــى وحدانيته وكمال قدرته.

تأمّل فيما يحويه جسمك واعضاؤك أيها الانسان من حدود متعرجة والتواءات دقيقة.. وتأمل في فوائدها ونتائج خدماتها وشاهد كمال القدرة في كمال الحكمة.

النافذة الثالثة عشرة

(وَاِنْ مِنْ شَيءٍ اِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه)

ان كل شئ يذكر خالقه ويسبّحه بلسانه الخاص، كما هو المفهوم مـــن هـــذه الآيـــة الكريمة.

نعم، ان التسبيحات المرفوعة من قبل الموجودات سواء بلسان الحال أو المقـــال، تـــدل دلالة واضحة على وجود ذات مقدسة لواحد أحد..

نعم، ان دلالة الفطرة صادقة، وشهادتها لا تردّ. ولا سيما اذا كانت الشهادة صادرة عن دلالة الحال، وبخاصة اذا توافرت الدلالات من جهات عدة، فهي شهادة صـــادقة لا تقبـــل الشك قطعاً.

فتأمل الآن في صور الموجودات المتناسقة، تَرَها قد اتفقت كما تتفق الدوائر المتداخلة في توجهها نحو نقطة المركز؛ لذا فهي تنطوي على دلالات بلسان الحال وبأنماط لا حدَّ لها وعلى شهادات الفطرة بانواع لا حدّ لها، اذ كل صورة منها لسان شاهد بحد ذاته. وهيئتها المتناسقة هي الأخرى لسان شاهد صادق، بل حياة الموجود كلها لسان ذاكر بالتسبيح.

ولقد اثبتنا في الكلمة الرابعة والعشرين؛ ان جميع هذه التسبيحات الباديـــة للمتأمـــل، والمنبعثة بألسنة الحال أو المقال من جميع الموجودات وتحياتها وشهاداتها الدالة على ذات مقدسة مباينة، تُظهر بوضوح ذلك الواحد الأحد الواجب الوجود، وتدل علـــى كمـــال ألوهيتـــه سبحانه.

النافذة الرابعة عشرة

(قُلْ مَنْ بيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ) (المؤمنون:88)

(وَانْ مِنْ شَيْءٍ الاَ عِنْدَنَا خَزَآئِنُهُ) (الحجر:21)

(مَا مِنْ دَآبَّةٍ الاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِها) (هود:56)

(ان ربي على كل شيء حَفيظ) (هود:57)

يفهم من هذه الآيات الكريمة أن كل شئ، في كل شأنٍ من شؤونه، مفتقرٌ الى الخـــالق الواحد الأحد ذي الجلال. فإلقاء نظرة فاحصة على ما هو منبسط بين أيدينا من موجـــودات الكون، نشاهد مظاهرَ قوةٍ مطلقة تنضح من خلال ضعفٍ مطلقٍ مشاهَد..

ونشاهد آثارَ قدرة مطلقة تَبين من بين ثنايا عجز مطلقٍ ملموس. كالحالات الخارقة التي تظهرها بذور النباتات وأصولها أثناء نموها وانتباه العقد الحياتية فيها.

ونرى ايضاً مظاهر غنى مطلق تتظاهر ضمن فقر مطلق وجدب تامّ. كمـــا في الثـــروة الطافحة، وأوضاع الخصب الغامر للأرض والنباتات في الربيع بعـــد أن كانـــت في يبوســـة وجدب في الشتاء.

ونرى ترشحات حياة مطلقة في بواطن جمود مطلق، وخمود تام، كما هو في انقـــلاب العناصر الجامدة – كالتراب والماء – الى مواد تنبض بالحياة في الكائنات الحية.

ونرى مظاهر شعور كامل طَي جهل مطبق، كما هو في حركات كل شئ وجريانه – ابتداءً من الذرات الى المجرات – تلك الحركات المتسمة بالشعور الكامل والانسجام التام مع نظام الكون كله، والملائمة ملائمة تامة مع مقتضيات الحياة ومطاليب الحكمة المقصودة مـــن الوجود.

فالقدرة الكامنة في الضعف والعجز..

والقوة التي تتراءى ضمن معدن الضعف..

والثروة والغنى الموجودان في ذات الفقر..

وأنوار الحياة والشعور المحيط المشعَّان من خلال الجمود والجهل..

فكل مظهر من هذه المظاهر يفتح من جانبه نوافذ تظهر بالبداهة والضرورة وجـــوب وجود ووحدانية ذات مقدسة لقدير مطلق القدرة. وغني مطلق الغنى، لقوي مطلـــق القـــوة وعليم مطلق العلم. وحي قيوم...

فضلاً عن أن مجموعها يشهد على وحدته، ويبين الصراط السوي بياناً واضحاً وبمقياس أعظم.

فيا أيها الغافل المتردي في مستنقع الطبيعة!

إن لم تعرف عظمة القدرة الربانية، و لم تنبذ مفوم خلاقية الطبيعة، فما عليـــك الاّ ان تسند الى كل شئ في الوجود، بل حتى الى ذرة، قوة هائلة لا حدود لها، وقدرة عظيمـــة لا منتهى لها، وحكمة بالغة لا حد لحدودها، ومهارة فائقة بلا نهاية. بل عليك ان تسند الى كل شئ بصراً نافذاً الى كل شئ، وإدارة حازمة تحيط بكل شئ!!.

النافذة الخامسة عشرة

(اَلذَّي اَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) (السجدة:7)

إن كُلَّ شئ قد فصّل على قدّ قامة ماهيته، تفصيلاً متقناً، ووُزنَ بميزان دقيق كامل الوزن عليها، ونُظم تنظيماً تاماً فيها، ونُسق تنسيقاً بارعاً، وصُنع بمهارة، وأُلبس أجمل صورة، وألطف ثوب، وأبهى طراز، من أقرب طريق اليه، وأسهل شكل يُعينه على أداء مهمته، ووُهب له وجود ينضح حكمةً، لا عبث فيه ولا اسراف.

فخذ مثلاً، الطيور؛ لباسها الريش الناعم اللطيف. فهل يمكن أن تلبس ثوباً أنسب لها ولحكمة خلقها منه..

أيّ لطف وجمال حين تنظّفه! وأي يسر وسهولة حين تحركه وتستخدمه في شتى أمورها الحياتية والمعاشية!.

وهكذا، كل ما في الوجود شاهد ناطق – كهذا المثال – على الخالق الحكيم. وكل منه اشارة واضحة الى قدير عليم مطلق القدرة والعلم.

النافذة السادسة عشرة

ان ما يشاهد على سطح الأرض من انتظام واطراد في خلق المخلوقات، وتدبير أمورها، وتجديدها باستمرار في كل موسم، يدل بالبداهة على حكمة عامة تغمر الموجودات. هذه الحكمة العامة تدل بالضرورة على حكيم مطلق الحكمة، اذ لا صفة دون موصوف.

ثم إن أنواع الزينة البديعة التي تؤطر ستار الحكمة العامة الذي يتلفع الوجود به، تدل بالبداهة على عناية فائقة عامة، وهذه العناية تدل بالضرورة على خالق كريم.

ان أنواع اللطف والكرم، وألوان الرفق والإحسان المرسومة على ستار العناية الذي يغطي الوجود كله، تدل بالبداهة على رحمة واسعة، وهذه الرحمة الواسعة تدل بالضرورة على »الرحمن الرحيم«.

ثم ان أنواع الرزق، وانماط الإعاشة، المزهرة على أغصان الرحمة التي تظلل بافنانها كُلَّ شئ، والمعدّة للأحياء المحتاجة الى الرزق، وإعاشتها إعاشة تلائمها تماماً، يدل بالبداهة على رزاقية ذات تربية ورعاية.. وربوبية ذات رأفة ورحمة..

وهذه التربية والإدارة تدلان بالضرورة على رزّاق كريم.

نعم، ما على الأرض من مخلوقات تُربّى بحكمة كاملة، وتُزيَّن بعناية كاملــة، وتُســبغ عليها النعم برحمة كاملة، وتُمدُّ بوسائل عيشها برأفة كاملة، فكُلٌّ منها لسان ناطق ومشــير الى الله الحكيم، الكريم، الرحيم، الرزّاق.

وكُلٌّ منها ايضاً يشير الى وحدانيته.

كما أنَّ ما على الأرض من حكمة ظاهرة يُستَشَف منها القصد والارادة..

وما عليها من عناية عامة التي تتضمن تلك الحكمة..

وما عليها من رحمة تسع الوجود والتي تتضمن العناية والحكمة..

وما عليها من رزق شامل عام للأحياء واعاشة كريمة لطيفة، والتي تتضــمن الرحمــة والعناية والحكمة...

فكل من هذه المظاهر وبمجموعها تدل دلالة عظيمة جداً على الحكيم، الكريم، الرحيم، الرزاق، وتدل على وجوب وجوده سبحانه وعلى وحدانيته وكمال ربوبيتــه.اذ إن مــا في الحكمة من عناية، وما في العناية من رحمة، وما في الرحمة من إعاشة وإرزاق دلالات قاطعــة وبمقياس واسع جداً على الواجب الوجود بمثل دلالة الألوان السبعة على ضوء الشمس الذي يملأ النهار نوراً.

فيا أيها الغافل الحائر الجاحد!

كيف تفسر هذه التربية المكللة بالحكمة البالغة، والكرم الشامل، والرحمــة الواســعة، والرزق الوفير، وبِمَ توضح هذه المظاهر المعجزة؟

أفيمكن تفسيرها بالمصادفة العشواء؟ أم يمكن توضيحها بالقوة الميتة موات قلبــك؟ أم يمكن ذلك بالطبيعة الصمَّاء صمَم عقلك؟ أم بالأسباب العاجزة الجامدة الجاهلة مثلــك؟ أم تريد ان ترتكب خطأً جسيماً – ما بعده خطأ – وهو اطلاقك صفات البارئ الجليل المــنزّه المتعال والقدير العليم السميع البصير، على »الطبيعة« العاجزة الجاهلة الصمَّاء العمياء؟

فبأي قوة يمكنك أن تطفئ سراج هذه الحقيقة الساطعة سطوع الشمس؟ وتحــت أي ستار من أستار الغفلة يمكنك أن تسترها؟

النافذة السابعة عشرة

(إنَّ في السّموات والاَرْضِ لايَاتٍ لِلْمؤمِنينَ) (الجاثية:3)

اذا تأملنا وجه الارض المبسوط أمامنا نَرى:

ان سخاءً مطلقاً يتجلى في إيجاد الأشياء. فبينما يقتضي السخاء ان تكون الأشياء في فوضى وعدم انتظام، اذا بنا نشاهدها في غاية الانسجام ومنتهى الانتظام. شاهدْ جميع النباتات التي تزيّن وجه الأرض تَرَ هذه الحقيقة.

ونرى أيضاً سرعة مطلقة تتبين في إيجاد الأشياء. فبينما تقتضي السرعة ان تكون الأشياء مشوهة الصورة، مختلة المادة، ومضطربة الميزان، وينقصها الإتقان، إذا بنا نشاهدها في غاية التقدير والضبط والسبك، ومنتهى الدقة والموازنة. لاحظ جميع الأثمار التي تجمل وجه الأرض حيث تبدو هذه الحقيقة فيها على احسن وجه.

ونرى ايضاً وفرةً وغزارةً مطلقة في ايجاد الأشياء، فبينما تقتضي الكثرة ان تكون الأشياء تافهة ومبتذلة وربما قبيحة، اذا بنا نشاهدها في اتقان رائع، وصنعة بديعة وجمال أخّاذ. أنظر وتأمل في جميع الأزهار التي ترصّع وجه الأرض. ألا يبدو ذلك فيها تماماً!.

ونرى ايضاً سهولة مطلقة تبدو في إيجاد الأشياء. فبينما تقتضي السهولة ان تكون الأشياء بسيطة ومفتقرة الى الإتقان والمهارة. اذا بنا نشاهدها في كمال الإبداع وروعة المهارة. شاهد البذور وأمعن النظر في النوى، تلك العلب الدقيقة الحاملة في مادّة تركيبها فهارس أجهزة الشجر وخرائط أجسام النبات.

ونرى ايضاً بُعداً مطلقاً يفصُل بين أزمنة وأمكنة إيجاد الأشياء، فبينما تقتضي هذه الأبعاد المهولة أن تأتي الأشياء مختلفة ومتباينة، اذا بنا نشاهدها في اتفاق تام في الصفات والخواص. شاهد أنواع الحبوب المزروعة في أقطار الأرض كافة رغم البعد الزماني والمكاني الذي يفصل بينها.

ونرى ايضاً اختلاطاً مطلقاً، وتشابكاً متيناً في إيجاد الأشياء. فبينما يقتضي هذا الأختلاط تداخل المواد بعضها في البعض الآخر وتشابكها، اذا بنا نشاهدها في تمايز كامل، وتخصص منتظم. شاهد البذور المنثورة المدفونة تحت التراب، وأمعن النظر في تمايزها أثناء نموها وتسنبلها، رغم تشابه تراكيبها. وتأمل في المواد المختلفة الداخلة في بنية الأشجار،

وتحوّلها الى مختلف الأشكال من الأوراق الرقيقة، والأزهار الزاهية، والثمار اللطيفة. وتأمل في انواع الطعام والأغذية المختلفة الداخلة في المعدة، وتمايز بعضها عن البعض، ودخول كل منها الى العضو الذي يناسبها بل الى الحجيرة التي تلائمها بتمايز واضح.. شـاهد آثـار القـدرة المطلقة، من خلال الحكمة المطلقة.

ونرى ايضاً وفرة متناهية في الأشياء، وكثرة كاثرة من أنواعها وأشكالها. فبينما تقتضي هذه الوفرة أن تكون الأشياء رخيصة بسيطة، اذا بنا نشاهدها في غاية النفاسة ومنتهى الجودة. شاهد الأثار البديعة المعدَّة لمائدة الأرض، وأمعن النظر في ثمرة واحدة، ولتكن ثمرة التوت مثلاً. ألا تمثل هذه الثمرة نموذجاً رائعاً لحلوى مصنوعة بيد القدرة الإلهية؟ شاهد كمال الرحمة، من ثنايا كمال الأبداع.

وهكذا نشاهد على وجه الأرض جميعه؛ جودة ونفاسة في المصنوعات رغم وفرتها غير المتناهية.. ونرى ضمن هذه الوفرة تميزاً للموجودات رغم اختلاطها وتشابكها.. ونجد في هذا الإختلاط والتشابك اتفاقاً وتشابهاً في الموجودات رغم البعد فيما بينها.. ونبصر من ثنايا هذا التوافق جمالاً رائعاً في الموجودات ورعاية بالغة بها رغم السهولة المتناهية في ايجادها. ونلمـح ضمن هذه الرعاية التامة تقديراً دقيقاً بلا اسراف وموازنة حسَّاسة رغم السرعة في ايجادها.. ونلاحظ ضمن هذا التقدير والموازنة وعدم الإسراف ابداعاً في الصنعة وروعة فيهـا رغـم كثرتها المتناهية. ونشاهد ضمن هذه الروعة في الصنعة انتظاماً بديعاً رغم السخاء المطلـق في إيجادها..

فإذا تأملنا في هذه الامور كلها، نراها تدل دلالة واضحة أوضح من دلالة النهار علـى الضياء، واسطع من دلالة الضياء على الشمس؛ على وجوب وجود قدير ذي جلال، وحكيم ذي كمال، ورحيم ذي جمال، وتشهد على وحدانيته، وأحديته وكمال قدرته وجمال ربوبيته، وتبين بجلاء سراً من اسرار الآية الكريمة: (لَهُ الاَسْمَآءُ الْحُسْنٰى).

وبعد؛ فيا أيها الغافل العنيد، ويا أيها الجاهل المسكين!

بماذا تفسر هذه الحقيقة العظمى التي تراها رأي العين؟ وبماذا توضح هـــذه الأوضـــاع الخارقة المعروضة أمامك؟ والى مَن تسند أمر هذه المصنوعات البديعة العجيبة؟ وبأي ستار من ستائر الغفلة يمكنك أن تستر هذه النافذة الواسعة سعة الأرض نفسها؟

أين المصادفة التي تعتقد بها والطبيعة التي تعتمد عليها وهي بلا شعور؟ بل أين أوهـــام الضلالة التي تستند اليها، وتلازمها وترافقها وتصادقها؟! أين جميعها أمام هذه الحقائق المحـــيرة والأحوال البديعة المذهلة؟

أليس محالاً في مائة محال أن تدخل المصادفة في أمثال هذه الأمور؟ أوَليس محالاً في ألف محال أن يسند واحد من هذه الأمور الى الطبيعة ناهيك عن جميعها؟!

أم انك تعتقد في الطبيعة الجامدة العاجزة امكان امتلاكها لمكائن معنوية في كل شـــئ؟ وبعدد الأشياء كلها؟ فيا للضلالة!

النافذة الثامنة عشرة

(اَوَلَم يَنْظُروُا في مَلكُوتِ السَّموَاتِ وَالاَرْضِ) (الاعراف: 185)

تأمل في هذا المثال الذي سبق وأن ذكرناه في الكلمة الثانية والعشرين:

إنَّ أثراً رائعاً كالقصر الفخم، كامل الاجزاء، منتظم الاركان، متقن البناء، يدل بالبداهة على فعلٍ مُتقَنٍ.أي أن البِنَاءَ يدُلُّ على صنعة البنَّاء وفِعله. والفعل الكامل المتقن يدل بالضرورة على فاعلٍ حاذقٍ، ومعماري ماهر. وهذه العناوين؛ فاعل حاذق معماري ماهر بَنَّاء مُـــتْقِنٌ، تدل بالبداهة على صفات كاملة لا نقص فيها يتصف بها ذلك الفاعل، أي تدل، على مَلَكة الإبداع عنده. وان الصفات الكاملة ومَلَكة الابداع الكاملة، تدل بالبداهـــة علـــى وجـــود استعداد كامل وقابلية تامة، والاستعداد الكامل هذا يدل على ذات رفيعة، وروح عالية.

»ولله المثل الأعلى« فهذه الآثار المتجددة البادية للعيان والتي تملأ الأرض بل الكـــون، تدل بالبداهة على أفعال في منتهى الكمال. وان عنـــــاوين هـــذه الافعال الظـــاهرة مـــن خلال منتهى الإتقــــان وغاية الحكــــمة تــــدل بالبداهـــــة على فاعل كـــــــاملٍ منزّهٍ عن النقص في عنـــاوينه وأسمائه. لأنَّ الأفعال المتقـــــنة والحكيـــمة مـــعـــلومٌ بـــداهةً أنهـــا لا تحصل دونما فاعل. وان العناوين التي هي في منتهى الكمال تدل على صفات هي في

منتهى الكمال لذلك الفاعل لأنه كما يُشتق اسم الفاعل من المصدر حسب علم الصرف، فان منشأ العناوين ومصادر الأسماء هي الصفات. والصفات التي هي في منتهى الكمال، لا شك أنها تدل على شؤون ذاتية هي في منتهى الكمال. والقابلية الذاتية او تلك الشؤون الذاتية التي نعجز عن التعبير عنها، تدل بحق اليقين على ذات متزهة في كمال مطلق.

وحيث ان كل أثر من الآثار البديعة الماثلة أمامنا في الكون وفي جميع المخلوقات هو كاملٌ بديع بحد ذاته.. وان هذا الاثر البديع يشهد على فعل.. والفعل يشهد على اسم. والاسم يشهد على صفة.. والصفة تشهد على شأن.. والشأن يشهد على ذات. لذا فانَّ كلاً منها مثلما يشهد شهادة صادقة على صانع جليل واحد أحد واجب الوجود، ويشير الى احديته.. أي مثلما أن هناك شهادات واشارات بعدد المخلوقات الى التوحيد، فإن كلاً منها ايضاً مع مجموع الآثار والمخلوقات في الكون إنما هو معراج عظيم لمعرفة الله سبحانه، له من القوة ما للمخلوقات جميعاً.. فضلاً عن أنه برهان دامغ على الحقيقة، لا يمكن ان تدنو منه أية شبهة مهما كانت..

والآن أيها الغافل الجاحد! بماذا تستطيع أن تجرح هذا البرهان القوي قوة الكون؟ وبماذا تستر هذه النافذة الواسعة التي تبين شعاعات الحقيقة من ألف نافذة ونافذة، بل من نوافذ بعدد المخلوقات؛ وبأي غطاء الغفلة يمكنك ان تسترها؟!

النافذة التاسعة عشرة

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالارضُ وَمَنْ فيهِنَّ وَاِنْ مِنْ شَيءٍ اِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه) (الاسراء:44)

نعم، مثلما أودع الصانع الجليل حكماً لا تُعَدُّ، ومعاني سامية لا تحصى في الأجرام السماوية، فزيَّن تلك السماوات بكلمات الشموس والأقمار والنجوم لتعبّر عن جلاله وجماله سبحانه.. كذلك ركّب جلَّ وعلا في موجودات جو السماء حِكَماً عالية، وعلّق عليها معاني سامية، ومقاصد عظمى، وأنطق جو السماء بكلمات الرعود والبروق وقطرات الأمطار ليُعْلَمَ بها، ويُعَرّفَ عن طريقها كمال حكمته، وجمال رحمته.

ومثلما جعل سبحانه وتعالى كرة الأرض تتكلم بكلمات ذات مغزى، وأنطَقَها بما بثَّ فيها من الحيوانات والنباتات التي هي كلمات بليغة، مبيّناً بذلك كمال صــنعته للوجــود.. كذلك جعل النباتات والأشجار نفسها تنطق بلسان أوراقها وأزهارها وثمارها، معلنةً كمال صنعته سبحانه، وجمال رحمته جلَّ جلاله.. وجعل الزهرة ايضاً، والثمرة كذلك وهي كلمــة واحدة من تلك الكلمات.. جعلها البارئ المصور تتكلم بلسان بُذيراتها الدقيقة فأشــار بهــا سبحانه الى دقائق صنعته، وكمال ربوبيته، لمن يُحسن الرؤية من ذوي الاحساس والشعور.

فدونك إنْ شئتَ الاستماع الى ما لا يحد من كلمات التسبيح والأذكار في الكون.

وسنستمع الآن الى ذلك النمط من الكلام متمثلاً في كلام زهرة واحدة من بين أزهار العالم، وسنصغي الى أفادة سنبلة واحدة من بين سنابل الأرض، لتزداد يقيناً كيف أن هذا كله يشهد شهادة صادقة على مصداقية التوحيد.

نعم، ان كل نبات وكل شجر، دليل واضح على صانعه، وشاهد صدق على وحدانية خالقه بمختلف الألسنة، بحيث أن تلك الشهادة تجعل المدقق المتمعن فيها في حيرة وذهــول، فيقول: يا سبحان الله.. ما أجمل شهادة هذا على أحقية التوحيد!

نعم، انه واضح جلي كوضوح النبات نفسه، وجميل كذلك كجمال النبات نفسه، تلك التسبيحات التي يهمس بها كل نبات في إشراق تبسمه، عند تفتح زهره، ونضج ثمره، وتسنبل سنبله، لأنه بالثغر الباسم لكل زهرة، وباللسان الدقيق للسنبل المنتظم، وبكلمــات البــذور الموزونة، والحبوب المنسقة، يظهر »النظام« الذي يدل على »الحكمة«..

وهذا النظام كما هو مشاهد، في ثنايا »ميزان« دقيق حسّاس، يدل على »العِلم« ويبينه ويبرزه، وذلك »الميزان« هو ضمن »الصنعة الدقيقة« التي تدل على »المهارة الفائقة«. وتلك الصنعة الدقيقة والنقوش البديعة هي الأخرى ضمن الزينة الرائعة التي تبين »اللطف والكرم«. وتلك الزينة البهيجة هي بدورها معبّقة بالروائح الطيبة الفواحة، والعطور الزكية اللطيفة الــتي تظهر »الرحمة والاحسان«.

فتلك الأوضاع والحالات، التي لها معانٍ عميقة متداخلة، ومكتنفة بعضها ببعض، لسان شهادة عظمى للتوحيد، بحيث تعرِّف الصانعَ ذا الجلال بأسمائه المقدسة الحســنى، وتصــفه

باوصافه الجليلة السامية، وتشرح وتفسر انوار تجليات أسمائه الحسنى، وتعبّر عن تودّده وتحبّبه سبحانه وتعالى.

فلئن استمعتَ الى شهادة كهذه من زهرة واحدة فقط، وتمكنـــت مـــن الأصـــغاء الى الشهادة العظمى الصادرة من جميع الأزهار في جميع البساتين الربانية علـــى ســـطح الأرض، واستمعت الى ذلك الاعلان المدوي الهائل الذي تعلنه تلك الازهار في وجوب وجوده سبحانه ووحدانيته، فهل تبقى لديك ثمة غفلة! أو أية شبهة؟ وإنْ بقيتْ لديك غفلة، فهل يمكـــن أن يطلق عليك بأنك إنسان ذو شعور سامٍ متجاوب مع مشاعر الكون وأحاسيسه؟!.

فتعالَ لنتأمل شجرة.. نحن أمام نشوء الاوراق ونموها في الربيع بانتظام ودقة متناهيـــة، وأمام تفتح الأزهار وخروجها من اكمامها بشكل موزون، وأمام نمو الثمار بحكمة ورحمة..

فهلاَّ أمعنت النظر في منظر ملاعبة النسيم للأوراق برقة وبراءة كبراءة الطفولة النقيـــة الرقيقة.

وشاهد من فم الشجرة، كيف تنطق هذه الألسن وتفصح عـــن حالها؛لســـان الأوراق المخضرة بيد الكرم.. ولسان الأزهار المبتسمة بنشوة اللطف.. ولسان الثمار الفرحة بتجلـــي الرحمة.. كُلٌ منها يعبّر عن ذلك »الميزان« الدقيق العادل الذي هو ضمن »النظام« البـــديع المحكم، وفي هذا الميزان الدقيق الذي يدل على »العدل« نقوشُ صنعةٍ دقيقة بديعة، وزينة فائقة تضم مذاقات متنوعة، وروائح مختلفة طيبة لطيفة، تدل على الرحمة والاحســـان، وفي تلـــك المذاقات اللطيفة بذور ونوى هي بحد ذاتها معجزة من معجزات القدرة الإلهية، ألا يدل ذلك بوضوح، ويظهر بجلاء وجوب وجود خالق كريم ورحيم، محسن، منعم، مُجمِّل، مُفضِّـــلٍ، واحد، أحد، ويشهد كذلك على جمال رحمته سبحانه وكمال ربوبيته؟

فان استطعت ان تسمع هذا من لسان حال جميع الأشجار على ســـطح الأرض معـــاً، فستفهم، بل سترى؛ كم من الجواهر الجميلة النفيسة الرائعة في خزينة الآية الكريمة: (يُسَبِّحُ لِلّهِ مَا فِي السّموات وَالاَرضِ) (الحشر:24)

فيا أيها الغافل المسكين، ويا مَنْ يظن نفسَه هملاً دون حساب، ويا مَنْ يغرق في نكران الجميل والكفران!.

ان الكريم ذا الجمال يعرّف نفسه ويحبّبُها اليك بهذا الحشد من الألسنة التي لا تعــد ولا تحصى، وإن اردت أن تصرف نفسك عن ذلك التعريف، فما عليك الاّ ان تكمم جميع هذه الأفواه، وتسكت تلك الألسنة كافة.

وأنّى لك هذا!!

فما دام اسكات تلك الألسنة الناطقة بالتوحيد غير ممكن، فمـــا عليـــك إلاّ الاصـــغاء والانصات اليها. والاّ فلن تنجو بمجرد سد الأذن بأصابع الغفلة، لأن عملك هذا لا يسكت الكون. فالكون جميعاً، والموجودات كافة ناطقة بالتوحيد. فدلائل التوحيد وأصداؤه شواهد عدل لا تنقطع ولا تنتهي أبداً. فلا بد أنها ستُدينك.

النافذة العشرون [192]

(فَسُبْحَانَ الّذى بيَده مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْء) (يس:83)

(وَانْ منْ شَيءٍ الاّ عنْدَنا خزَائنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إلاّ بقَدرٍ مَعْلُومٍ_وَارْسَلْنا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَاَنْزَلْنا منَ السَّمَآءِ ماءً فَاَسْقَيْنَاكُمُوُهُ وَمَآ اَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنينَ) (الحجر:21ــــ22)

---

[192] ان حقيقة النافذة العشرين هذه وردت الى القلب ذات يوم باللغة العربية كما يأتي:

تلألؤُ الضياء من تنويرك، تشهيرك

تموجُ الأعصارِ من تصريفك، توظيفك ..سبحانك ما أعظمَ سلطانَك

تفجُّرُ الأنهارِ من تدخيرك، تسخيرك

تزيّنُ الأحجارِ من تدبيرك، تصويرك..سبحانك ما ابدعَ حكمتَك

تبسُّم الأزهارِ من تزيينك، تحسينك

تبرّجُ الأثمارِ من إنعامك، إكرامك.. سبحانك ما أحسنَ صنعتَك

تسجُّعُ الأطيارِ من إنطاقك، إرفاقك

تهزُّجُ الأمطارِ من إنزالك، إفضالك.. سبحانك ما أوسعَ رحمتَك

تحرُّك الأقمار، من تقديرك، تدبيرك، تدويرك، تنويرك.. سبحانك ما أنور برهانك و أبهر سلطانك.

- المؤلف.

كما يُشاهَدُ كمال الحكمة، وجمال الاتقان في الجزئيات والفرعيات، وفي النتائج والفوائد، فان العناصر الكلية، والمخلوقات العظيمة التي تبدو مختلطة ومتشابكة، وتوهمُ أنها لعبة المصادفة، تتخذ أيضاً أوضاعاً تتسم بالحكمة والاتقان، رغم الاختلاط الظاهر عليها، فمثلاً:

النور أو الضوء، بدلالة وظائفه الحكيمة الأخرى إنما هو للأعلان عن مصنوعات الله سبحانه، وعرضها بإذنه أمام الأنظار، أي أن الضوء مسخّر من لدن خالق حكيم، لِيُظهِر به سبحانه عجائبَ مخلوقاته، ويُعرض تحت شعاعه بدائعَ مصنوعاته، في معارض سوق العالم.

وانظر الآن الى الرياح؛ تَرَ أنها تجري لإنجاز وظائف مهمة وخدمات جليلة، يشهد بهذا ما يُحَمَّلُ على وظائفها الحكيمة من منافع كريمة.

فموجات الأعاصير إذن، هي تصريفٌ وتسخيرٌ من لدن الخالق الحكيم. وما يُشَاهَدُ من عصفها وشدّةِ هبوبها، فلأسراعها في تنفيذ الأوامر الربانية وامتثالها لِحُكمها.

وانظر الآن الى الينابيع والجداول والأنهار، وتأمل في تفجرها من الأرض أو الجبال، تجد أنه لا مصادفة فيها ولا عبث قط. اذ تترتب عليها الفوائد والمصالح التي هي آثار رحمة إلهية واضحة، اما النتائج الحاصلة منها فهي موزونة محسوبة، وكذلك إدخارها وخزنها في الجبال إنما يجري ضمن حساب دقيق، ووفق حاجات الأحياء، ومن بعد ذلك تفجيرها وإرسالها بميزان هو الغاية في الحكمة.. كل ذلك دلالات وشواهد ناطقة ان ذلك التسخير والادخار إنما يتم من لدن ربّ حكيم.. وما نراه من شدة فورانها وتفجرها من الأرض إنما هو تَوقُّهـا العظيم لأمتثال الأوامر الربانية حال صدورها.

وأنظر الآن الى أنواع الأحجار، وأشكال الصخور، ودقائق الجواهر، وصفات المعادن، تأمل في تزييناتها ومزاياها التي تترتب عليها منافع شتَّى، تجد أن ما يتعلق بها من فوائد حكيمة، ومن انسجام تام بين نتائجها التي تصير اليها، ومقتضيات الحياة، ومن ثمة ملاءمتها لمتطلبات الانسان، وقضاؤها لحاجاته وحاجات اخرى للأحياء.. كل ذلك دلالات على أن ذلك التزيين والتنظيم والتدبير والتصوير، إنما هو من لدن رب حكيم.

وأنظر الآن الى الأزهار والأثمار، تجد أن بِشْرَ وجوهها، وحلاوة مطعوماتهــا، وجمالهــا الأخاذ، ونقوشها البديعة، وشذى عطرها الطيب، كلها بمثابة دعاة وأدلاّء الى ضيافة الــرب الكريم، والمنعم الرحيم. وهي رسائل تعريف به بين يدي موائده المنصوبة على الأرض كافَّة، فكل لون من الألوان المختلفة، وكل رائحة من الروائح المتنوعة، وكل طعــم مــن الطعــوم المتباينة، يدل على ذلك الخالق الكريم، ويعرّف ذلك المنعم الرحيم بلسانه الخاص.

وانظر الآن الى الطيور.. تجد أن هديلها وتغريدها وزقزقتها، ليس الاّ من إنطاق خــالقٍ حكيم.. فمناجاة بعضها بعضاً، وما تسكبه في لحونها من أشجان لِمّا يأخذ بالألباب.

وأنظر الآن الى السحب الثقال، تجد أن صوت أهازيج الأمطار المنسكبة منها، وجلجلة رعود السماء ليس عبثاً قط، اذ إن إحداث تلك الأصوات العجيبة في فضاء واسع، وإنــزال قطرات باعثة على الحياة، وعصرها من السحب الثقال، وارضاع الأحياء بها، وإغاثة المتلهفين عليها، تبين بوضوح أن تلك الأهازيج والجلجلة تحمل من الحِكَم البليغة و المغزى العميق، حتى لكأنّ تلك القطرات تهتف بأمر الرب الكريم بأولئك العطاش المستغيثين قائلة: »بشراكم... ها نحن مقبلون اليكم من رب رحيم«.

وانظر الآن الى السماء، وتمعن في القمر وحده – من بين أجرام السماء التي لا حصر لها –تجد ان حركاتــها جميعاً ومن ضمنها القمر منسقة أجمل تنسيق وأحكمه، ومقدّرة أعظــم تقدير بيد قدير حكيم، إذ تتعلق عليها حِكمٌ غزيرة، وثيقة الصلة بالأرض. وحيث أننا قــد فصلنا هذا في موضع آخر، نكتفي هنا بهذا القدر.

وهكذا يفتح كُلٌ ممـــا ذكرناه من العناصر الكلية – ابتداءً من الضوء وانتهاءً بالقمر – نافذة واسعة جداً تبين وجود الله سبحانه، وتظهر وحدانيته، وتعلن عــن كمــال قدرتــه وعظمة سلطنته، بمقياس أعظم وأكبر وبألوان شتى، وأنواع مختلفة.

فيا أيها الغافل!

إن كنت تقدر على إسكات هذه الأصوات المدوية كرعود السماء، وان كنت تستطيع ان تطفئ هذه الأضواء الساطعة. فيمكنك عندئذ ان تنسى الخالق الكريم. وإلاّ عُد الى رشدك،

وتوجَّه الى شطر عقلك وقل: سبحان من (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ وَالاَرضُ وَمَنْ فــيهِنَّ) (الاسراء:44)

النافذة الحادية والعشرون

(وَالشّمْسُ تَجْرى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليم) (يس:38)

إنَّ الشمس التي هي سراج هذه الكائنات، إنَّما هي نافذة مضيئة ساطعة كنورها تتطلع منها المخلوقات الى وجود خالق الكون ووحدانيته.

فالسيارات الأثنتا عشرة - مع كرتنا الأرضية - والتي يطلق عليها اســم »المنظومــة الشمسية« تجري بنظام متقن، وِفْقَ حكمة تامَّة، وحسبَ ميزان دقيق، رغم الاختلاف الشديد فيما بينها، من حيث كتلها وجرمها ومن حيث صغرها وكبرها، ورغم التفاوت الواسع فيما بينها من حيث قربها وبعدها من الشمس، ورغم التنوع الهائل في حركاتها وسرعاتها.

نعم، فرغم هذا كله تجري السيارات في أفلاكها سابحة مشدودة الوثــاق بالشــمس، مرتبطة معها بقانون إلهي، هذا القانون هو الذي يطلق عليه علماء الفلك اسم »الجاذبيــة«.. فهي تجري بنظام دقيق دون خطأ - ولو بمقدار ثانية واحدة - وتنقاد انقياداً تاماً، وبطاعــة مطلقة لهذا القانون، كانقياد المصلين المأمومين لإمامهم.. وهذا دليل وأيّ دليــل - بأوســع مقياس وأعظمه - على عظمة القدرة الربانية ووحدانية الربوبية.. فان اســتطعت أن تقــدّر عظمة هذا الأمر بنفسك فافعل، لترى مدى العظمة والحكمة في جعل تلك الاجرام الجامدة، وتلك الكتل الهائلة وهي بلا شعور تجري في منتهى النظام وكمال الميزان، وفي غاية الحكمة، وعلى صور متباينة، وضمن مسافات مختلفة، وبحركات متنوعة، ومن بعد ذلــك تســخيرها جميعاً وِفْقَ نظام بديع رائع!

فلو كانت للمصادفة أي تدخل - مهما كان ضيئلاً - في مثل هذه الأمور الجســام، لتوقعنا حدوث أخطاء تنجم عنها انفلاقات كونية عظيمة، واصطدامات هائلة، تدمر الكون وتجعله هباءً منثوراً.

لأنه لو سُمِحَ للمصادفة أن تلعب لعبتها، فلربما تُوقِفُ أحدَ هذه الأجرام الهائلة - بــلا سبب - وتخرجه عن محوره، وبذلك تمهد السبيل لاصطدامات لا حدَّ لهــا بــين أجــرام لا

يحصرها العدّ. فقدّر اذن مدى الهول المريع الناجم من اصطدام أجرام اضـــخم مـــن كرتنـــا الأرضية بآلاف الأضعاف.

سنفوّض عجائب أمور المنظومة الشمسية وغرائبها الى العلم الإلهي، المحيط بكل شـــئ، ونحصر ذهننا في تأمل كرتنا الأرضية، التي هي مأمورة واحدة من تلك الســـيارات الاثـــنتي عشرة، وثمرة من الثمار اليانعة لشجرة المنظومة الشمسية، فنرى:

ان سيارتنا هذه تُسخَّر بأمر ربَّاني - كما بيناه في المكتوب الثالث - لأجل ان تنـــهض بخدمات جليلة، ومهامّ جسيمة خلال سيرٍ وتجوال طويل، فتدور حول الشمس لتظهر بجريها ودورانها هذا عظمة الربوبية وكبرياء الألوهية، وكمال الرحمة والحكمة. فكأن الأرض سفينة عظيمة لرب العالمين مشحونة بعجائب مخلوقاته سبحانه، او هي كمسكن متجول لذوي الحياة والشعور من عباده، أسكنهم فيها، ويجريهم بها للنزهة والتفرج في أرجاء الفضاء هذا.

والقمر ايضاً كأنه عقارب ساعة، مشدودة بالأرض تدلنا على الزمن والأوقات،و قـــد أُعطيتْ له مهام أخرى - عدا مهمة كونه ساعة للأرض - في منازل أخرى من هذا الفضاء.

وهكذا يتبين أن سيارتنا المباركة هذه، قد أعطي لها من الحِكَم الدقيقـــة، والوظـــائف الجليلة في سياحتها هذه، مما يثبت ويدل باوضاعها، ويشهد شـــهادة قويـــة كقـــوة الأرض وعظمتها على القدير المطلق القدرة، وعلى وحدانيته سبحانه. وقس البقية على ارضنا.

ثم ان جعل السيارات تدور دوراناً حكيماً حول محور الشمس، وشدّها بعرى معنوية - يطلق عليها اسم الجاذبية - بالشمس، ومن بعد ذلك تنظيم إدارتها، وتنسيق أمرها جميعاً، لا يتم الاّ بتقدير القدير الحكيم، فضلاً عن ان سَوق الشمس لتجري بسرعة مذهلة - فتقطـــع مسافة خمس ساعات في ثانية واحدة الى برج »هرقل« أو نحو »شمس الشـــموس« حســـب تقدير العلماء ليس الاّ بأمر سلطان الأزل والأبد، وبقدرته المطلقة، وكأنه سبحانه يســـتعرض بجيش المنظومة الشمسية وجنودها المنقادين لأمره مناورةً عسكرية إظهاراً لعظمـــة ربوبيتـــه للعالمين أجمع.

فيامَنْ يرى نفسه أنه قد تعلَّم شيئاً من الفلك! قل لي بربك أيمكن لمصادفة ان يكون لها شأن في أمور عظيمة كهذه؟

أم يمكن لسبب من الأسباب التي تراها ذا تأثير في حوادث الأكوان أن يصل بيده اليها؟! أو لقوةٍ أياً كانت أن تدنو منها؟

هل تعتقد أن سلطاناً ذا عزّةٍ وجلال يسمح لشريك أياً كان أن يتدخل في أمر ملكه العظيم، مظهراً بذلك عجزه وقصوره؟! حاش لله وكلاّ.

أو هل يمكن ان يسلم سبحانه أمور ذوي الحياة الذين هم ثمرة الكون ونتيجته وغايته وخلاصته الى الأغيار؟! أو يسمح ولو بمقدار ضئيل بمداخلة هذه الأغيار في شؤونه الحكيمة؟

وهل يرضى العقل أن تُترك سدىً خلاصة تلك الثمرات، وأكمل نتائجها وخليفة الأرض، والضيف المكرم للسلطان.. أن يسلّم أمره الى الطبيعة والمصادفة فيهوي بذلك بعظمة السلطنة، وكمال الحكمة؟! حاشَ لله وكلاّ... وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

النافذة الثانية والعشرون

(اَلَمْ نَجْعَلِ الاَرْضَ مِهَاداً_ وَالْجِبَالَ اَوْتَاداً_ وَخَلَقْنَاكُمْ اَزْوَاجاً..) (النبأ:6-8)

(فَانْظُرْ اِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحيِْي الاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا اِنَّ ذَلِكَ لَمُحيِي الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ..) (الروم:50)

لو تصورنا أن الكرة الأرضية رأس مخلوق عظيم، فاننا نجد في هذا الرأس الهائل في الكبر مائة ألف فم وكل فم له مائة ألف لسان، وكل لسان يبين بمائة ألف برهان »الواجب الوجود« الواحد الأحد، القدير على كل شئ، والعليم بكل شئ. وكل لسان ينطق بمائة ألف شهادة صادقة على وحدانيته سبحانه، وأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى.

فها ننظر الى الأرض في بداية خلقها فهي في حالة من السيولة والميوعة، فخُلقَت منها الصخور الصماء، وخُلق منها التراب.. فلو كانت الأرض باقية على حالتها الأولى من الميوعة لتعذرت الحياة عليها، ولتعذر إتخاذها مسكناً صالحاً لأي نوع من أنواع السكنى. ولو كانت تلك الصخرة المهولة الصلدة – المتحولة من الميوعة – باقية على صلابتها لتعسرت الاستفادة منها. إذن فالذي منح الأرض وضعاً ملائماً للعيش لابد أن يكون ذلك الخالق الحكيم الذي يرى بحكمته المطلقة مَنْ في الأرض جميعاً، ويهئ لهم حاجاتهم كافةً.

ثم نتأمل الجبال الشامخات التي تسند الأرض وتمسكها وتشدُّ كيانها أثناء دورانها... فنرى ان انقلابات هائلة تحدث في جوف الارض وهذه الانقلابات يتولد عنها الكثير من الغـــازات والأبخرة فتنفثها وتزفرها من خلال الجبال على صورة زلازل وبراكين، كيلا يصـــرفها عـــن القيام بحركتها المنتظمة وأداء مهماتها الأساسية ما يحدث في جوفها من أحداث، كمـــا أنهـــا تشكل بارتفاعات سفوحها سدوداً أمام طغيان البحار على ترابها، ولتصبح خـــزائن الميـــاه الاحتياطية لحاجات الأحياء ولتمشيط الهواء وتصفيته من الغازات المضـــرة ليصـــبح صـــالحاً للتنفس ولتجمع شتات الماء من كل مكان وتدخره للأحياء ولتكون كنوزاً لمعـــادن متنوعـــة تتوقف عليها إدامة حياة الكائنات.

فهذه الأوضاع وكثير غيرها، تشهد شهادة ناطقة على القدير المطلق والحكيم والرحيم وعلى وحدانيته سبحانه.

فيا أيها المتباهي بعلم الجغرافية! قل لي كيف تفسر هذه الأمور؟ اية مصادفة يمكنـــها ان تمسك بزمام الأرض المشحونة بالمصنوعات العجيبة، وتجعلها تسبح في فضاء تقطع فيه مسافة أربع وعشرين سنة في سنة واحدة، دون أن يتبعثر ما عليها من معارض العجائب...؟!

ثم أمعن النظر فيما على الأرض من بديع الصنائع. وكيف ان العناصر كلها قد سُخّرت لمهام حكيمةٍ، حتى تراها كأنها تنظر نظرةَ إجلال واحترام الى ضيوف القدير الحكيم، الجالسين حول مائدة الأرض، فتهرع الى خدمتهم جميعاً.

ثم أمعن النظر في ملامح الأرض وسيمائها، وفي مطرزات تعاريجها، ونقوش انحنـــاءات سطحها، والتواءات جسمها، ولاحظ شكلها وألوانها الزاهية المتنوعة بتنوع تربتـــها، والـــتي تتسم بالحكمة والإبداع، وتثير الحيرة والإعجاب.. فدونك الأنهـــار والســـواقي والبحـــار والجداول وسفوح الجبال، فانها كلها قد هُيئت ومُهدت لتكون سكناً للمخلوقات ووســـائط نقلهم من مكان الى آخر.

ثم ألا ترى ان ملأها - يعني الأرض - بكمال الحكمة والنظام البديع بمئات الألوف من أجناس النباتات وأنواع الحيوانات وبعث الحياة البهيجة فيها. ثُمَّ إعفاءَها بالمـــــوت مـــــن وظـــائفـــها التـــي كانـــت تـــــقوم بهـــــا.. هـــذه الـــظـــاهـــــرة

تـــــتـــــوالى وتـــترى بانتظام دقيق. حتَّى إذا أُفرِغَتِ الأرض منها بوشر مجدداً بملئها.. ألا يعني هذا ان »البعث بعد الموت« حق لا ريب فيه.

أوَ ليست كل هذه الظواهر شهادات صادقة ناطقة بمئات الآلاف من الألســـنة علـــى القدير ذي الجلال، الحكيم ذي الكمال، وعلى وحدانيته سبحانه؟!

والخلاصة: ان الأرض التي هي بمثابة قلب الكون، قد اصـــبحت مَشْـــهَرَاً لعجائـــب مصنوعات الله البديعة، ومحشراً لغرائب مخلوقاته الجميلة، وممراً لقافلـــة موجوداتـــه الـــوفيرة، ومسجداً لعباده المتراصين صفوفاً عليها، ومقراً لأداء عباداتهم.. هذه الأرض تظهر من شعاع التوحيد ما يملأ الكون نوراً وضياءً.

فيا أيها المعتدّ بعلم الجغرافية! إذا كان رأس الأرض هذه يعرّف ربَّ العالمين بمائة ألـــف فم، وفي كل فم مائة ألف لسان، وأنت تعرض عن هذا التعريف، وتغمس رأسك في مستنقع الطبيعة، ففكر إذن في مصير جريمتك. الى اي عقاب يسوقك هذا الإعراض والإنكار؟. أحذر وأنتبه وأرفع رأسك من المستنقع الآسن وقل: آمنت بالله الذي بيده ملكوت كل شئ.

النافذة الثالثة والعشرون

(اَلّذى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيو'ة) (الملك:2)

ان الحياة هي أسطع معجزة من معجزات القدرة الربانية وأجملها، وأقوى برهان مـــن براهين الوحدانية وأبهرها، وأجمع مرآة من مرايا تجليات الصمدانية وألمعها.

نعم! ان الحياة وحدها تبيّن الحي القيوم باسمائه الحسنى وصفاته الجليلة وشؤونه الحكيمة.

فالحياة كالنور.. فكما ان نور الشمس يحصل من امتزاج الالوان السبعة لطَيف الشمس، كذلك »الحياة« تحصل من امتزاج صفات كثيرة امتزاجاً دقيقاً.. وهي - أي الحياة - كدواء ناتج من امتزاج موادَّ كثيرة متنوعة إمتزاجاً مقدراً تقديراً محكماً.

فالحياة إذن حقيقة مركبة من صفات كثيرة جداً. فصفات منها تنبســـط وتنكشـــف ويظهر تمايزها واختلافها بعضها عن البعض الآخر، من خلال مسيلها في قنوات الحواس، التي تأخذ كُل حاسة منها لوناً من الوان هذه الصفات والاسماء.

أما القسم الأعظم منها فانه يعلن عن نفسه من خلال الأحاسيس المفعمة »بالحياة«.

ثم ان »الحياة« تتضمن الرزق والرحمة والعناية والحكمة، التي كُــلٌّ منــها ســارية في الكائنات ومهيمنة على أمرها وخلقها وتدبيرها، فكأنَّ الحياة تقود أولئك جميعاً معها أينمــا حلَّت. اذ حالما تحل »الحياة« في أيما جسم، اذا باسم »الحكيم« يتجلى فيه ايضاً حيث يشرع ببناء عشه بناءً متقناً وينظمه تنظيماً حكيماً. وفي الوقت نفسه يتجلّى اسم »الكريم« أيضــاً حيث يرتّب مسكنه وينسقه ويزيّنه وفق حاجاته ويظهر آنئذٍ اسم »الرحيم« متجليــاً ايضــاً فيسبغ أفضاله وألطاف إنعامه لأدامة الحياة وبلوغ كمالها، وفي الوقت نفسه يتجلــى اســم »الرزاق« بادياً للعيان حيث يهيئ المقومات الغذائية – المادية والمعنوية – لبقاء تلــك الحيــاة وانبساطها، بل يدخر قسماً منها في الجسم..

أي ان الحياة كالبؤرة التي تتجمع فيها الأشعة الضوئية المختلفة، فتتــداخل الصــفات المتنوعة في الحياة بعضها في بعض تداخلاً يجعل كل صفة منها عين الأخرى، فكأن الحياة – بكاملها» – علمٌ« كما أنها »قدرة« في الوقت نفسه، وهي »حكمة« و »رحمــة« ســواء بسواء..

وهكذا أصبحت »الحياة« بناءً على ماهياتها الجامعة هذه، مرآة تعكس »الصمدانية« التي تتمثل فيها شؤون الذات الربانية. ومن هذا السر أيضاً نجد أن »الحي القيّوم« جلَّ وعلا، قد خلق الحياة بكثرة هائلة، ووفرة شاملة، وبثها في أرجاء الوجود كافة، جاعلاً كل شئ يحــوم حول الحياة، ويُسخَّر لأجلها، فلا غرو أن وظيفة الحياة جليلة.

نعم، ان القيام بأداء مهمة »المرآة العاكسة« لتجليات »الصمدانية« ليس أمراً سهلاً ولا وظيفة هينة، اذ نرى أمامنا ماثلةً للعيان انواعاً لاتعد ولا تحصى من »الحياة« تُخلق كل حين، وإن أرواحها – التي هي أصولها وذواتها – تُخلق دفعةً واحدةً من العدم، وترسل انواعاً غفيرة من الأحياء الى ميدان الحياة مباشرةً..

ألا يدل كل هذا على وجوب وجود ذات الجليل الأقدس و »الحي القيوم« الذي له الصفات القدسية والأسماء الحسنى أوضح من دلالة لمعان أشياء الأرض على الشمس؟ فكما أن الذي لا يعتقد بوجود الشمس، ويتجاهل صفاتها المشاهدة على الاشياء، لا شك مضــطر الى إنكار النهار الملئ بنور الشمس، كذلك الذي لا يعتقد بوجود ذلكم »الحي القيــوم، المحيــي

والمميت« الذي يتجلى نورُهُ بشمس الأحدية على الوجود كله، فهو مضطر ايضاً الى إنكـــار وجود الأحياء التي تملأ الأرض، بل تملأ الماضي والمستقبل معاً.. وعندها لا يرى لنفسه موقعاً إلاّ بين الأنعام أو أضل منها، فيكون بمستوى الجمادات.

النافذة الرابعة والعشرون

(لا اِلهَ اِلاّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ اِلاَ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَاِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(القصص:88)

ان الموت كالحياة برهان ساطع للربوبية، وهو حجة في غاية القوة على الوحدانية، مثل الحياة، اذ بدلالة الآية الكريمة:

(اَلّذى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحياةَ)

ان الموت ليس عدماً، ولا اِعداماً، ولا فناءً، ولا لعبة العبث، ولا إنقراضاً بالذات مـــن غير فاعل، بل هو: تسريح من العمل، من لدن فاعل حكيم، وهو استبدال مكـــان بمكـــان، وتبديل جسم بجسم، وانتهاءٌ من وظيفة، وانطلاق من سجن الجسم، وخلق منتظم جديد وِفقَ الحكمة الإلهية. كما بينا في المكتوب الاول.

نعم، كما ان الموجودات الحية المبثوثة في الأرض كافة، تشير بحياتها الى الخالق الحكـــيم والى وحدانيته. فتلك الأحياء تشهد بموتها أيضاً على سرمدية ذلك الحي الباقي، وتشـــير الى وحدانيته جلَّ شأنه. وحيث أننا بحثنا في »الكلمة الثانية والعشرين« ان الموت برهان قـــاطع على الوحدانية، وحجة دامغة على السرمدية، لذا نحيل البحث اليها. الاّ أننا نبين هنا نكتـــة مهمة فقط وهي:

ان الأحياء مثلما تدل بوجودها على الخالق الحي فأنها تشهد بموتها على سرمدية الحـــي الباقي وعلى وحدانيته. ولنأخذ شاهداً على ذلك سطح الأرض، فأن النظام الرائع الباســط هيمنته على الأرض بأسرها والذي يبدو لنا من خلال مظاهره عياناً يشهد شهادة صادقة على الصانع القدير.

فعندما يسدل الشتاء كفنه الثلجي الأبيض على وجه الأرض الربيعي، وتموت الأحيـــاء التي كانت تزخر بالحياة فوقها؛ فأن منظر هذا الموت ينقل نظر الإنسان الى أبعد من اللحظـــة

الراهنة، فيركب متنَ الخيال ليذهب بعيداً الى الماضي الذي درجت اليه جنائز كل ربيع راحل، فتتفتح عندئذ أمام النظر مشاهد من الموت والحياة أوسع من هذا المنظر المحصور في الحاضـــر الراهن.

لأن كل ربيع راحل مما لا يُحصى من الاربِعَة، كان مشحوناً ملء الأرض بمعجـــزات القدرة الإلهية، وهو يُشعِرُ الانسان بمجئ موجودات تتدفق بالحياة وتملأ الأرض كلها في ربيع مقبل.

فنجد بهذا أن موت الربيع يشهد شهادة بمقياس عظيم جداً، وبصـــورة رائعـــة جـــداً وبدرجة من القوة أكثر على الخالق ذي الجلال، والقدير ذي الكمال، والحي القيوم، والنـــور السرمدي، ويشير الى وحدانيته، وسرمديته تبارك وتعالى. فيبين – هذا الموت – دلائل باهرة الى حدّ يرغمك معه على القول بداهةً [آمنت بالله الواحد الأحد].

الخلاصة: انه حسب الحكمة التي تتضمنها الآية الكريمة:(وَيُحْيِي الاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) فان الأرض الحية هذه كـــما أنها تشهد على الخالق الحكيم سبحانه بحياتها، فانها بموتها تلفت النظر الى التأمل في معجزات القدرة الإلهية التي تطرز جناحي الزمن؛ الماضي والمستقبل، فيعرض الله سبحانه بهذا الموت أمام نظر الانسان ألوفاً من الاربِعَة بدلاً من ربيع واحد، فبـــدلاً مـــن أن تشهد على قدرته سبحانه معجزةٌ واحدة وهي هنا »الربيع الحاضر« تشهد عليها بهذا المـــوت الذي حلَّ في الربيع الحاضر ألوفُ المعجزات.

فكل ربيع من تلك الألوف من الأربِعَة، يشهد شهادة أقوى على الوحدانية من الربيـــع الحاضر، لأنَّ الذي أرتحل الى جهة الماضي قد أرتحل اليه بأسباب قدومه الظاهرة التي ليس لها صفة البقاء، فالأسباب التي تذهب وتأتي ليست لها إذن تأثير قط في إحلال ربيع جديد عقب الربيع الراحل، بل القدير ذو الجلال الذي لا يحول ولا يزول هو الذي خلقه من جديد وربطه بحكمته بالأسباب الظاهرة، وأرسله على الصورة الرائعة الى ميدان الشهود.

أما وجوه الأرض التي ســـــتأتي في المستقبل، والمـــــزهـــــرة بالربيـــــع النابـــض بالحياة، فهي تشهد شهادةً أقوى من شهادتها على الربيع الحاضر، لأن كل ربيـــع يـــأتي في

المستقبل إنما يأتي اليها من العدم، ومن غير شئ، ويبعث الى المكان المعين، ومن ثمة تُحمَّلُ عليه وظيفة خاصة.

فيا أيها الغافل المطموس في أوحال الطبيعة، والغارق فيها!

إنَّ مَنْ لا تظهر يدُ حكمته وقدرته في المستقبل الآتي كله، ومَنْ لا يترك بصمات هـــذه اليد على الماضي الذاهب كله، كيف يستطيع – وأنَّى له ذلك – أن يتدخل في حياة هـــذه الأرض؟ فهل يمكن للمصادفة والطبيعة اللتين هما من غير شئ أن يتدخلا في أمر الحياة علـــى الأرض؟

إن كنت صادقاً وراغباً في نجاة نفسك من هذه الورطة، فادنُ من الحقيقة وقل:

ان الطبيعة إن كانت شيئاً موجوداً فهي كُرَّاس القدرة الإلهية ليس الاّ. أما المصادفة فهي ليست الاّ ستار الحكمة الإلهية الخفية الذي يسترُ جهلَنا.

النافذة الخامسة والعشرون

إن المضروب يدل بالضرورة على فاعل، وهو الضارب، والمصنوع المُـــتْقَنُ يســـتوجب الصانِعَ المتقِنَ، ووجود الولد يقتضي الوالد، والتحت يستلزم الفوق... وهكذا..

وقد أطلق العلماء على أمثال هذه الصفات مصطلح »الامور الإضافية« أي النسبية، أي لا يحصل الواحد دون الآخر.

فجميع ما في هذه الأمور من »إمكان« سواء في جزئيات الكون أو كلياته، تدل علـــى »الوجوب«. وما يُشَاهدُ في الجميع من انفعالات تدل على فعل واحد، وما يشاهد في جميعها من مخلوقية تدل على الخالقية، وما يشاهد فيها من كثرة وتركيب يستلزم الوحدة.

فالوجوب، والفعل، والخالقية، والوحدة، تستلزم بالبداهة والضرورة مَنْ هو الموصوف بـــــ »الواجب، الفاعل، الخالق، الواحد« الذي هو ليس ممكناً ولا منفعلاً ولا مخلوقـــاً ولا كثيراً ولا مركّباً.

وعلى هذا الأساس فان ما في الكون من إمكان، وما فيه من إنفعال، ومـــا فيـــه مـــن مخلوقية، وما فيه من كثرة، وما فيه من تركيب، يشهد شهادة واضحة علـــى ذاتِ واجـــب الوجود، الواحد الأحد، خالق كل شئ الفعال لما يريد.

الخلاصة: كما يُشاهَدُ »الوجوب« من خلال »الإمكان« ويُشَاهَدُ »الفعل« من خلال »الأفعال« وتُشاهَدُ »الوحدة« من خلال »الكثرة«، وكما يدل وجود كل منها على وجود الآخر دلالة قاطعة، كذلك الصفات المشاهدة على الموجودات كـ »المخلوقية، والمرزوقية« (أي كون الموجود مخلوقاً ومرزوقاً) تدل على شؤون »الخالقية والرزاقية« دلالة قاطعة.. فوجود هذه الصفات أيضاً يدل بالضرورة وبالبداهة على »الخلاّق الرزّاق، والصانع الرحيم«...

أي أن كل موجود يشهد على »الذات الأقدس لواجب الوجود« وعلى مئات من اسمائه الحسنى بما يحمل من مئاتٍ من أمثال تلك الصفات.

فإن لم تقبل أيها الإنسان بجميع هذه الشهادات فينبغي لك إذن إنكار أمثال تلك الصفات كلها.

النافذة السادسة والعشرون [193]

ان أنواع الجمال الزاهر، وأشكال الحسن الباهر، التي تتلألأ على وجوه الكائنات السريعة الأفول، ثم تتابع هذا الجمال وتجدده بتجدد هذه الكائنات، واستمراره باستمرار تعاقبها.. إنما يظهر أنه ظِلٌّ من ظلال تجليات جمال سرمدي لا يحول ولا يزول. تماماً كما ان تلألأ الحباب على وجه الماء الرقراق، وتتابع هذا اللمعان في تتابع الحباب يدل على أن الحباب والزبد والتموجات التي تطفو على سطح الماء إنما تمثل مرايا عاكسة لأشعة شمسٍ باقية.. فتلمّع أنواع الجمال أيضاً على الموجودات السيالة في نهر الزمان الجاري يشير الى جمال سرمدي خالد، ويدل على ان تلك الموجودات انما تمثل اشارات وعلامات على ذلك الجمال.

ثمَّ ان ما يخفق به قلب الكون من حُبّ جاد وعشق صادق يدل على معشوق دائمٍ باقٍ... إذ كما لا يظهر شيءٌ في الثمرة ما لم يوجد في الشجرة نفسها، فكذلك العشق الإلهي العَذْب الذي يستحوذ على قلب الانسان – وهو ثمرة شجرة الكون – يبين أن عشقاً خالصاً

[193] مفتوحة لمن يريد أن يطل منها، وبالأخص لأهل القلب والمحبة. ـ المؤلف.

ومحبةً صادقة بأشكال شتّى، مغروزة في كيان الكون كله، وتتظاهر بأشكال شتّى. هذا الحب المالك قلب الكون يفصح عن محبوب خالد سرمدي.

ثُمَّ إنَّ ما تمور به قلوب اليقظين الراشدين من أصفياء الناس، وما يشعرون به من انجذاب، وما يؤرقهم من وَجْد، وما يحسون به من جذبات، وما تتدفق به صدورهم من توق وحنين، إنما يدل على أن حنايا ضلوع الكون تعاني ما يعاني الانسان، وتكاد تتمزق من شدة انجذابها وعظيم جذباتها، التي تتظاهر بصور متنوعة. وهذا الجذب لا ينشأ إلاّ من جاذب حقيقي، وجاذبية باقية أبدية.

ثم ان أرقَّ الناس طبعاً وألطفهم شعوراً، وأنورهم قلباً، وهم الأولياء الصالحون من أهل الكشف والشهود قد أعلنوا متفقين على أنهم قد تبددت ظلمات نفوسهم باشراق أنوار تجليات ذي الجلال، وذاقوا حلاوة تعريف الجميل ذي الجلال، وتودّده اليهم.

فاعلانهم هذا شهادة ناطقة على «الواجب الوجود» وتعريف نفسه عن طريقهم للانسان..

ثم ان قلم التجميل والتحسين الذي يبدع نقوشه في وجه الكائنات، يدل بوضوح على جمال أسماء مالك ذلك القلم المبدع..

وهكذا فالجمال الذي يشع من وجه الكون.. والعشق الذي يخفق به قلبه.. والانجذاب الذي يمتلئ به صدره.. والكشف والشهود الذي تبصره عينه.. والروعة والإبداع في مجموع الكون كله.. يفتح نافذة لطيفة جداً ونورانية ساطعة أمام العقول والقلوب اليقظة، يتجلى منها ذلك الجميل ذو الجلال، الذي له الأسماء الحسنى، وذلك المحبوب الباقي والمعبود الأزلي.

فيا أيها المغرور التائه في ظلمات المادية! ويا أيها الغافل المتقلب في ظلمات الأوهام والمختنق بحبال الشبهات! عُد الى رشدك، واسمُ سمواً لائقاً بالانسان، أنظر من خلال هذه المنافذ الاربعة، وشاهد جمال الوحدانية، وأظفر بكمال الايمان، وكن انساناً حقيقياً.

النافذة السابعة والعشرون

(اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (الزمر:62)

سنطل من هذه النافذة على ما في موجودات الكون من »أسباب ومسبـّبات« فنرى ان اسمى الأسباب وأشرفها قاصرةٌ يدُها على بلوغ أدنى المسببات وعاجزة عن ادراك ما ينجم عنها. فالأسباب إذن ليست الاّ ستائر وحجباً، فالذي يوجِد »المسبَّبات« هوغير الأسباب. ولنوضح الكلام بمثال:

القوة الحافظة في ذهن الانسان، وهي بحجم حبة من خردل موضوعة في زاوية من زوايا دماغه، نراها وكأنها كتاب جامع شامل، بل مكتبة وثائقية لحياة الانسان، حيث تضم مستندات جميع أحداث حياته من دون اختلاط ولا سهو. تُرى أي سبب من الأسباب يمكن ان يبرز لتوضيح وتفسير هذه المعجزة الظاهرة للقدرة الإلهية؟ أهو تلافيف الدماغ؟ أم أن ذرّات حجيرات الدماغ وهي بلا شعور تستطيع الحفظ والتسجيل؟ ام رياح المصادفات العشوائية؟

فلا يمكن أن تكون هذه المعجزة الباهرة الاّ من إبداع »صانعٍ حكيمٍ« جعلَ تلك »القوة الحافظة« مكتبة أو سجلاً يضم صحائف أعمال الأنسان، ليذكّره بأن ربَّه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ احصاها، وليعرضه أمام المشهد الأعظم يوم الحساب.. خذ »القوة الحافظة« في ذهن الانسان، وقس عليها سائر المسبّبات من بيوض ونوى وبذور وأمثالها من المعجزات البديعة المصغرة، تَرَ أينما وليتَ نظرك وفي أي مصنوع كان، فإنك أمام خوارق إبداع لا يقوى عليها سببٌ من الأسباب، بل حتى لو اجتمعت الأسباب جميعها لأيجاد تلك الصنعة الخارقة لأظهرت عجزها عجزاً تاماً ولو كان بعضها لبعض ظهيراً.

ولنأخذ الشمس مثلاً - التي يُظَنّ أنها سبب عظيم - فلو قيل لها مفترضين فيها الشعور والإختيار: أيتها الشمس العظيمة! هل تستطيعين إيجادَ جسم ذبابة واحدة؟ فلاشك أنها ستردُّ قائلة:

إنَّ ما وهبني ربي من ضياء، وأغدق عليَّ من حرارة وألوان، لا يؤهلني للخلق، ولا يمنحني ما يتطلبه إيجاد ذبابة من عيون وسمع وحياة، لستُ مالكة لشئ منها قط، فهذا الأمر هو فوق طاقتي كلياً.

نعم، كما أن الابداع الظاهر على »المسبَّبات« وروعة جمالها قـــد عَزَلـــت الأســـباب وسلبتها قدرة الخلق، ودلَّتنا بلسان حالها على مسبِّب الأسباب، وسلَّمتْ الأمور كلها بيد الله كما جاء في الآية الكريمة:(وَالَيه يُرْجَعُ الاَمْرُ كُلُّهُ) (هود:123) كذلك النـــــتائج التـــــي نيطت بالمسبَّبات، والغـــايات الناشئة والفـــوائد الحاصلة منها، تظهر جميعاً بداهــــــةً أن وراء حجاب الأسباب ربّاً كريماً، حكيماً، رحيماً، وأن ما نراه من أشياء ليست إلاّ من صنعه وإبداعه سبحانه.

ذلك لأن »الأسباب« التي هي بلا شعور عاجزة كلياً عن ملاحظة – مجرد ملاحظة – غاية لشيءٍ مُسَبَّبٍ، بينما اي مخلوق يرد الوجود لا تُناط به حكمة واحدة بل حكمٌ عديـــدة جداً وفوائد جمَّة وغايات شتى. أي أن الرب الحكيم والكريم هو الذي يُوجِـــد الأشـــياء ثم يرسلها الى هذا العالم ويجعل تلك الفوائد غاية وجودها. فمثلاً:

ان الأسباب الظاهرة لتكوين المطر، عاجزة عجزاً مطلقاً، وبعيدةٌ كل البعد عن أن تشفق على الحيوانات، أو تلاحظ أمورها وترحمها وتنـزل لأجلها.

إذن فالذي تكفَّل برزقها هو الخالق الجليل الذي يرسل المطر ويغيثها رحمة بها، وكأنه – أي المطر – رحمة متجسمة لكثرة ما فيه من آثار الرحمة والفوائد الجمة. ومن هنا أطلق علـــى المطر اسم »الرحمة«.

ثم ان التزيينات البديعة والجمال المبتسم على النباتات والحيوانات الـــتي تمـــلأ وجـــه المخلوقات قاطبة، وجميع المظاهر الجمالية عليها، تدل على أن وراء ستار الغيب مدبّراً يريد أن يعرِّف نفسه ويحبّبها بهذه المخلوقات الجميلة البديعة وتدل على وجوب وجوده ووحدانيته.

إذن فالتزيينات الرائعة في الأشياء، وما في مظاهرها من جمال بديع، وكيفياتها المتســـمة بالحكمة، كلها تدل قطعاً على صفتي التعريف والتودّد. وهاتان الصفتان – التعرف والتودّد – تشهدان بالبداهة على صانع قدير معروف ودود، فضلاً عن شـــهادتهما علـــى وحدانيتـــه سبحانه..

وزبدة الكلام: ان السبب الذي نراه شيئاً عادياً جداً، وعاجزاً عجزاً تاماً، قد استند اليه مسبَّبٌ في منتهى الإتقان والنفاسة. فهذا »المسبَّب« المتقن لا بد أنه يعزل ذلك السبب العاجز عن القيام بايجاده.

ثم ان غاية »المسبَّب« وفوائده ترفع الأسباب الجاهلة والجامدة فيما بينها وتسـلمها الى يد الصانع الحكيم.

ثم ان التزيينات المنقوشة على ملامح »المسبَّب« وما يتجلى عليها من عجائب الرحمـة تشير الى صانع حكيم يريد ان يُعرِّف قدرتَهُ الى ذوي الشعور من مخلوقاته، ويحبّـب نفسـه اليهم.

فيا عابد الأسباب. أيها المسكين!. ما تفسير هذه الحقائق المهمة الثلاث التي وضـعناها بين يديك؟ وكيف يمكنك ان تقنع نفسك بأوهامك؟ ان كنت راشداً فمزّق حجاب الأسباب وقل:»هو الله وحده لا شريك له« وتحرر من الأوهام المضلّة.

النافذة الثامنة والعشرون

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّموات وَالاَرْضِ وَاخْتِلافُ اَلْسِنَتِكُم وَالْوَانِكُمْ اِنَّ في ذلِكَ لايـاتٍ لِلْعَالِمينَ) (الروم:22)

لو نتأمل في هذه الكائنات فسنشاهد أنَّ في كل شئ ابتداءً من حجيرات الجسم وانتهاءً بمجموع العالم كله، حكمة شاملة، ونظاماً متقناً.

فلدى فحصنا لحجيرات الجسم نجد أن تدبيراً بالغ الاهمية ينظّم شؤون تلك الحجـيرات المتناهية في الصغر؛ ينظمها حسبَ أوامر مَنْ يرى مصالح الجسم كله، ويدير اموره. فكما أن قسماً من الأغذية يدَّخر في الجسم على صورة شحوم داخلية تُصرف عند الحاجة، كذلك نجد في كل من تلك الحجيرات الصغيرة قابلية إدِّخار دقيقة. ثم ننظر الى النباتات فنجد أنها مشمولة بتربية خاصة. وننظر الى الحيوانات فنجد أنها تعيش في بحبوحة من الكرم العميم. وننظـر الى أركان الكون العظيمة فنجد أن ادارةً وتنويراً في منتهى العظمة يكتنفانه من كـل جوانبـه ويفضيان به الى غايات عظيمة وجليلة. وننظر الى مجموع الكون كله، فاذا به يتجلى أمامنـا

وكأنه مملكة منسقة الأرجاء، أو مدينة رائعة الجمال، أو قصر منيف باذخ، وإذا بنا أمام أنظمة دقيقة ترقى به لبلوغ حكم عالية وغايات سامية.

فكما أثبتنا في الموقف الأول من الكلمة الثانية والثلاثين:

ان الموجودات مرتبطة ببعضها ارتباطاً معنوياً وثيقاً الى حد لا يدع مجالاً قط لمداخلة أي شريك، حتى بمقدار ذرة واحدة من المداخلة، ابتداءً من الذّرات وانتهاءً بالمجرات.

فَمَنْ لم يكن مسخّراً لحُكمه جميع المجرات والنجوم والسيارات ويملك زمـــام أمورهـــا ويتصرف بمقاليد شؤونها، لا يمكنه ان يُوقِعَ حُكمَهُ، ويُمْضي أمرهُ على ذرة واحـــدة، أي – بعبارة أخرى – مَنْ يكون رباً حقيقياً على ذرة واحدة ينبغي ايضاً أن يكون مالكـــاً لمقاليـــد الكون كله.

وفي ضوء ما أوضحنا وأثبتنا في »الموقف الثاني« من الكلمة الثانية والثلاثين: أنه مـــن يعجز عن الهيمنة على السماوات كلها يعجز عن رسم خطوط سيماء الانســـان، أي إن لم يكن ربّاً لما في السماوات والأرض، لا يستطيع أن يخط ملامح وجه انسان، ويضـــع عليـــه علاماته الفارقة.

وهكذا تجد أمامك نافذة واسعة سعة الكون كله فإذا ما أطْلَلْتَ منها تجد – حتى بعين العقل – أن الآيات الكريمة الآتية، قد كُتبت بحروف كبيرة واضحة على صـــفحات الكـــون كله:

(اللهُ خَالِقُ كُلِّ شـــَيْءٍ وَهُوَ عَلىَ كُلِّ شيء وكيـــلٌ _ لَـــهُ مَقَـــالـــــيدُ السَّـــمواتِ وَالاَرْضِ) (الزمر:62 – 63)

لذا فَمَنْ لا يستطيع رؤية هذه الحروف البارزة العظيمة المسطرة على صحيفة الكائنات، فما هو إلاّ واحد من ثلاثة إما فاقد عقله..أو فاقد قلبه. أو آدمي الصورة أنعامي التطلعات.

النافذة التاسعة والعشرون

(وَانْ مِنْ شَيءٍ الاَّ يسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) (الاسراء:44)

كنت سارحاً في رفقة غربتي، أسوح مع الفكر، وأجول مع الخيال والتأمـــل، فقـــادتني قدماي الى سفح رابية مزدانة بالخضرة، فرنت اليَّ – على استحياء – من وسط هذا البســـاط

الأخضر، زهرة صفراء ساطعة الصفرة، وألوت بجيدها اليَّ تناغيني بــودّ ومحبَّــة، فأثــارت مشاعري وأشواقي الى زهرات مثلها كنت التقيَها في ربوع بلدتي »وان« وفي ســائر المــدن الأخرى التي كانت تحتضن غربتي مرةً بعد أخرى، فانثال هذا المعنى فجأةً على قلبي، وها أنذا أسرده كما ورد:

هذه الزهرة الرقيقة ليست الاّ طغراء على صفحة الجمال، وختم يختم به خالقُ الجمــال رسالته الخضراء الى العالم، فَمَنْ كانت هذه الزهرة طغراءه ونقشه على البساط الأخضر فــأن جميع الأنواع من هذه الزهرة إذن هي أختامه على بسط الأرض جميعاً، وعلامــات وحــدة صنعه.

وعقب هذه الصورة المتخيلة ورد الى القلب هذا التصور؛ إن الختم المختوم به أية رسالة كانت إنما يدل على صاحب الرسالة. فهذه الزهرة إنما هي ختم رحماني على رسالة الرحمن. وهذه الرسالة هي سفح التل الصغير المسطور فيها الكلمات البليغة للنباتــات والأعشــاب، والمحفور فوقها أنواع الزخارف الحكيمة الإتقان. فهذه الرسالة إذن تعود لصاحب الختم هذا.

ثم أوغلت في التأمل أكثر فأكثر. فاذا بهذا السفح الجميل يتحول في نظــري ويأخــذ صورة ختم كبير وواضح على رسالة هذه الفلاة الممتدة بعيداً. وانتصب السهل المنسبط أمام خيالي رسالةً رحمانيةً رائعةً، ختمُها هذا السفح الجميل. وقد أفضى بي هذا التصور الى هــذه الحقيقة:

كما أن كلّ ختم على أية رسالة يشير الى صاحبها، فكل شئ كالختم يُســنِد جميــعَ الأشياء التي تحيط به الى خالقه الرحيم، وكأنه ختم رحماني. فكل شئ من حوله يمثل رســالةً لخالقه الرحيم.

وهكذا، فما من شئ الاّ ويغدو نافذة توحيد عظيمة الى حد يسلّم جميع الأشــياء الى الواحد الأحد... كل شئ - ولا سيما الأحياء - يملك من النقوش الحكيمة والإتقان البديع بحيث أن الذي خلقه على هذه الصورة البديعة قادرٌ على خلق جميع الأشياء، أي أن الذي لا يستطيع أن يخلق جميع الأشياء لا يمكن أن يخلق شيئاً واحداً.

أيها الغافل!

تأمل في وجه الكائنات تجد أن صحيفة الموجودات ما هي الاّ بمثابة رسائل متداخلة بعضها في البعض الآخر، مبعوثة من قبل الأحد الصمد. وان كل رسالة منها قد خُتِمَتْ بما لا يُعدُّ من أختام التوحيد.تُرى مَنْ يجرأ على تكذيب شهادات هذه الأختام غير المتناهية؟ أية قوة يمكنها أن تكتم أصوات هذه الشهادات الصادقة؟ وأنت إذا ما أنصتَّ بأذن القلب لأيٍ منها تسمعها تردد: اَشْهَدُ اَنْ لآ اِلهَ إلاَّ الله.

النافذة الثلاثون

(لَوْ كَانَ فيهمآ اِلهَةٌ الاّ الله لَفَسَدَتَا) (الأنبياء:22)

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَاِلَيْهِ تُرجْعَوُنَ) (القصص:88)

هذه نافذة يطل منها علماء الكلام الذين سلكوا في سبيل إثبات وجود الله سبحانه طريقاً مدعماً بأدلة »الإمكان« و »الحدوث«. ونحن إذ نحيل تفاصيل تلك الأدلة الى مظانها من أمهات كتب العلماء الأعلام كـ »شرح المواقف« و »شرح المقاصد« نذكر هنا شعاعات من فيض نور القرآن غمرت القلبَ، ونفذَتْ اليه من خلال هذه النافذة.

إنَّ الآمرية أو الحاكمية تقتضي رفض المنافسة، وردَّ المشاركة، ودفع المداخلة أياً كانت. ومن هنا نرى أنه إذا وجد مختاران في قرية اختلَّ نظام القرية، واضطرب أمن الناس وراحتهم، وإذا ما كان هناك مديران في ناحية، أو محافظان في محافظة واحدة، فان الحابل يختلط بالنابل، وإذا ما وجد سلطانان في بلاد فان الفوضى تضرب اطنابها في أركان البلاد كلها، ويسببان من القلاقل والاضطرابات ما لا يُحمد عقباها.

فلئن كان الانسان الذي هو عاجز ومحتاج الى معاونة الآخرين، والذي يحمل ظلاً جزئياً ضعيفاً من الآمرية أو الحاكمية، لا يقبل مداخلة أحدٍ من مثيله في شؤونه، ويردُّ المنافس رداً شديداً. نعم، لئن كان الانسان العاجز هذا شأنه فكيف بآمرية القدير المطلق وحاكمية السلطان الأعظم ربّ العالمين.؟

قِسْ بنفسك كيف سيسود قانون ردّ المداخلة ويهيمن على الكون كله. أي أن الوحدة أو الإنفراد من لوازم الألوهية، ومقتضى الربوبية، التي لا تنفك عنها. فان رُمْتَ برهاناً قاطعاً على هذا، وشاهداً صادقاً عليه، فدونك النظام الأكمل، والإنسجام الأجمل المشاهدان في

الكون. فتلمس النظام البديع سائداً في كل شئ ابتداءً من جناح ذبابة وانتهاءً بقناديل السماء، حتى يجعل هذا النظامُ المتقنُ العقلَ مشدوهاً أمامه ويردّد من إعجابه: سبحان الله.. ما شاء الله كان.. تبارك الله.. ويهوي ساجداً لعظمة مُبدعه. فلو كان هناك موضعٌ ولـــو بمقـــدار ذرةٍ لشريكٍ مهما كان، أو مداخلة في شـــــؤون الكون مهما كـــــان نوعها، لَفَسد نظـــــام السماوات والأرض ولبدت آثار الفساد عياناً، ولَمَا كانت هذه الصـــورة البديعـــة الماثلـــة أمامنا... وصدق الله العظيم الذي يقول: (لَوْ كَانَ فيهمآ الِهَةٌ الاَّ الله لَفَسَدَتَا) (الانبياء:22) علما أن الآية الكريمة الآتية:(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ_ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ اِلَيكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسيرٌ) (الملك:3 – 4)

انه مهما كان الانسان جاداً في تحرّيه القصور، فسيرجع خائباً، مما يـــدلنا أن النظـــام والانتظام هما في غاية الكمال. أي أن انتظام الكائنات شاهد قاطع على الوحدانية.

أما بصدد »الحدوث« فقد قال علماء الكلام:

إن العالم متغير، وكل متغير حادث، وكل مُحْدَثٍ لابد له من مُحْدِث، أي: موجِد، لذا فالكون لابد له من »موجِدٍ قديم«..

ونحن نقول:

نعم، ان الكون حادث، حيث نشاهد في كل عصر وفي كل سنة بل في كـــل موســـم عالَماً يرحل ويحطُّ آخرُ مكانه، تمضي كائنات، وتأتي أخرى. فالقدير ذو الجلال هو الـــذي يوجِد هذا العالم من العدم في كل سنة، بل في كل موسم، بل في كل يوم، ويعرضـــه امـــام ارباب الشعور ثم يأخذه الى الغيب، ويأتي مكانه بآخر، وهكذا ينشر الواحدَ تلو الآخـــر في تعاقب مستمر، معلقاً تلك العوالم بشكل متسلسل على شريط الزمان.

فترى الربيع معجزة باهرة من معجزات القدير الجليل، يُوجِدُ فيه الأشياء من »العـــدم« ويجدد تلك العوالم الشاسعة من غير شئ مذكور. فالذي يبدل تلك العوالم، ويجددها ضـــمن العالم الأكبر، ليس الاّ رب العالمين الذي بسط سطح الأرض مائدةً عامرةً لضيوفه الكرام.

أما موضوع »الإمكان« فقد قال المتكلمون:

إنَّ »الإمكان« متساوي الطرفين، أي اذا تساوى العدم والوجود بالنسبة الى شئ مـــا، فلابُدَّ من مخصّص ومرجّح وموجد.

لأن الممكن لا يمكنه بداهةً ان يُوجِدَ ممكناً آخر مثله. أي لا يمكنُ ان يُوجَـــدَ الممكـــنُ الآخر، لأنَّ وجوده يكونُ سلسلةً دائرةً مغلوقةً من »الممكنات«. فلابدَّ إذن مـــن »واجـــب الوجود« يوجِدُ الأشياء كلها..

ولقد فنَّد علماء الكلام فكرة »الدّور والتسلسل« وأثبتوا بطلانها باثني عشـــر برهانـــاً سُميت بالبراهين »العرشية والسلمية« وقطعوا سلسلة الأسباب والمسبَّبات وأثبتـــوا بـــذلك »الواجب الوجود«.

ونحن نقول:

إنَّ اظهار الختم الخاص للخالق الجليل على كل شئ المختوم به كل شئ لهـــو أســـهل وأقوى وضوحاً من برهان »انقطاع سلسلة الأسباب« ثم بلوغ اثبات الخالق جلَّ وعلا.

ولقد درجت بفيض القرآن جميعُ »الكلمات« و »النوافذ« على هذا المـــدرج الســـهل القاطع. ومع ذلك فان بحث »الإمكان« واسع جداً، إذ يبينُ الخالقَ من جهات لا حصر لها، وليس منحصراً بما سلكه المتكلمون من طريقٍ لإثبات الصانع باثبـــات انقطـــاع التسلســـل، فالطريق واسعة بلا حدود، اذ تؤدي الى معرفة لا حدود لها لمعرفة واجب الوجود.

وتوضيح ذلك كالآتي:

بينما نرى كُلَّ شيءٍ، في وجوده وفي صفاته وفي مدة بقائه وحياته، متردداً ضمن طـــرق إمكانات واحتمالات لا حدَّ لها، إذا بنا نشاهده قد سلك من بين تلك الجهات التي لا حدَّ لها طريقاً منتظماً خاصاً به، وتُمنح كل صفة من صفاته كذلك بهذا الطراز المخصَّص، بل تُوهَبُ له بتخصيص معين صفات وأحوال يبدّلها باستمرار ضمن حياته وبقائه..

إذن فَسَوقُ كل شيءٍ الى طريق معينة، واختيار الطريق المؤدية الى حِكَم معينة، من بـــين طرق غير متناهية. إنما هو بإرادة مخصِّص، وبترجيح مُرجِّح، وبأيجاد موجدٍ حكيم. إذ تـــرى الشيء يُلبَس لباس صفات منتظمة، وأحوال منسقة معينة مخصصة له، ثم تراه يُساق – أي هذا الشيء – ليكون جزءاً من جسم مركب، فيخرج بهذا من الإنفراد، وعندئـــذٍ تـــزداد طـــرق

الإمكانات أكثر، لأنَّ هذا الجزء يمكن أن يتخذ ألوفاً من الأشكال والأنماط في ذلك الجسم المركب، والحال إننا نرى أنه يُمنح له وضع معين ذو فوائد ومصالح، ويُختارُ له هذا الوضع من بين ما لا يُحدّ من الأوضاع التي لا جدوى له فيها. أي يُساق الى أداء وظائف مهمة وبلوغ منافع شتى لذلك الجسم المركب.

ثم نراه قد جُعل جزءاً من جسم مركب آخر، فتزداد طرق الإمكانات أكثر، لأن هذا الجسم كذلك يمكن أن يتشكل بألوف الأنماط، بينما نراه قد أختير له وضعٌ معين ضمن الألوف المؤلفة من الطرز والأنماط، فيساق الى أداء وظائف اخرى... وهكذا كلما اوغلتَ في الإمكانات تبيّن لك بجلاء ان جميع هذه الطرق توصلك الى مدبّر حكيم، وتجعلك تقتنع اقتناعاً تاماً بأن كل شئ يساق الى وظيفة بأمر آمر عليم. حيث أن جميع المركبات مركبة من أجزاء، وهذه مركبة من أجزاء اخرى.. وهكذا فكل جزء موضوع في موضع معين من المركب، وله وظائفه المخصصة في ذلك المكان.. يشبه ذلك علاقة الجندي مع فصيله وسريته ولوائه وفرقته والجيش كله. فله علاقات معينة ذات حكمة مع جميع تلك التشكيلات العسكرية المتداخلة، وله مهمات ذات تناسق معين مع كل منها.. وبمثل الخلية التي في بؤبؤ عينك، لها علاقة وظيفية مع عينك، ولها وظيفة ذات حكمة ومصالح مع الرأس ككل حتى لو اختلط شئ جزئي بتلك الخلية لاختلت ادارة الجسم وصحته، ولها علاقة خاصة مع الشرايين والأوردة والأعصاب، بل علاقة وظيفية مع الجسم كله، مما يثبت لنا أن تلك الخلية قد اعطيَ لها ذلك الموضع المعين في بؤبؤ العين وأختير لها ذلك المكان من بين ألوف الأمكنة، للقيام بتلك المهام. وليس ذلك الاّ بحكمة صانع حكيم.

فكل موجودات الكون على هذا الغرار، فكل منها يعلن بذاته، بصفاته، عن صانعه بلسانه الخاص، ويشهد على حكمته بسلوكه في طريق معينة ضمن طرق امكانات لا حد لها. وكلما دخل الى جسم مركب اعلن بلسان آخر عن صانعه ضمن تلك الطرق التي لا تحد من الإمكانات. وهكذا يشهد كل شئ على صانعه الحكيم وإرادته وإختياره، شهادةً بعدد تلك الطرق من طرق الإمكانات التي لا تحد، وبعدد المركبات وإمكاناها وعلاقاها التي فيها، الى أن

تصل الى أعظم مركب. لأن الذي يضع شيئاً ما بحكمة تامة في جميع المركبات، ويحافظ على تلك العلاقات فيما بينها لا يمكن أن يكون الاّ خالق جميع المركبات.

أي ان شيئاً واحداً بمثـــابة شـــاهـــد بألـــوف الألسنـــة عـــلـيـــه سبحانه وتعالى. بـــل ليس هناك ألوف الشهادات على وجوده سبحانه وحكمته واختياره وحدها، بل الشهادات موجودة ايضاً بعدد الكائنات، بل بعدد صفات كل موجود وبعـــدد مركباته. وهكذا ترد من زاوية »الإمكان« شهادات لا تحدّ على »الواجب الوجود«.

فيا أيها الغافل! قل لي بربك أليس صمّ الأذان عن جميع هذه الشهادات التي يملأ صداها الكون كله لهو صمم ما بعده صممٌ، وجهل ما بعده جهل؟

النافذة الحادية والثلاثون

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِى اَحْسَنِ تَقْويمٍ) (التين:4)

(وَفِى الأرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقنينَـ وَفِى اَنْفُسِكُمْ اَفَلاَ تُبْصِرونَ) (الذاريات:20ـــ21)

نحنُ هنا أمام نافذة الانسان، نتطلع من خلال نفس الانسان الى نور التوحيد، ونحن إذ نحيل تفاصيل ذلك الى الكتب والأسفار المدونة من قبل ألوف الأولياء الصالحين الذين بحثوا في نفس الانسان بأسهاب، نود ان نشير الى بضع اشارات مستلهمة من فيض نور القرآن الكريم، وهي كما يأتي:

ان الانسان هو نسخة جامعة لما في الوجود من خواص، حتى يُشعِرُهُ الحـــقُّ ســـبحانه وتعالى جميع اسمائه الحسنى المتجلية بما اودع في نفس الانسان من مزايا جامعة. نكتفي في بيان هذا بما ذكرناه في »الكلمة الحادية عشرة« وفي رسائل أخرى، غير أننا نبين هنا ثلاث نقـــاط فقط:

النقطة الأولى:

إن »الانسان« مرآةٌ عاكسة لتجليات الأسماء الإلهية الحسنى، وهو مرآة لها ثلاثة أوجه:

الوجه الاول: كما أن الظلام سبب لرؤية النور، أي أن ظلام الليل وشدّته يبين النـــور ويظهره بشكل أكثر وضوحاً.. فالأنسان ايضاً يُعرِّف بضَعفه وعَجزه وبفقـــره وحاجاتـــه، وبنقصه وقصوره، قدرةَ القدير ذي الجلال، وقوتَهُ العظيمة، وغناه المطلق، ورحمته الواسعة.

فيكون الانسان بهذا كأنه مرآة عاكسة لكثير من تجليات الصفات الإلهية الجليلة. بل حتى ان ما يحمله من ضعف شديد، وما يكتنفه من اعداء لا حد لهم، يجعله يتحرى دائماً عن مرتكز يرتكز عليه، ومستند يستند اليه. فلا يجد وجدانه الملهوف إلاّ الله سبحانه.

وهو مضطر ايضاً الى تحري نقطة استمداد يستمد منها حاجاته التي لا تتناهى، ويسد بها فقره غير المتناهي، ويشبع آماله التي لا نهاية لها، فلا يجد في غمرة تحريه الا الاستناد – من هذه الجهة – الى باب غني رحيم، فيتضرع اليه بالدعاء والتوسل.

أي أن في كل وجدان نافذتين صغيرتين من جهة نقطة الاستناد والاستمداد، فيتطلع الانسان منهما دوماً الى ديوان رحمة القدير الرحيم.

أما الوجه الثاني: فهو أن الانسان مرآة لتجليات الأسماء الحسنى، اذ ان ما وهِبَ من نماذج جزئية من »العلم، والقدرة، والبصر، والسمع، والتملك، والحاكمية« وأمثالها من الصفات الجزئية، يصبح مرآة عاكسة يُعرَف منها الصفات المطلقة لله سبحانه وتعالى، وادراك علمه وقدرته وبصره وسمعه وحاكميته وربوبيته، فيفهم تلك الصفات المطلقة للربوبية بالنسبة لمحدوديتها عنده.. ولا شك أنه بعد ذلك سيحاور نفسه ويقول مثلاً:

كما أنني قد قمت ببناء هذا البيت، وأعلم تفاصيله، وأشاهد جميع جوانبه وأجزائه، وأديره بنفسي، فأنا مالكه، كذلك لابد لهذا الكون العظيم من مبدعٍ ومالكٍ يعرف اجزاءه معرفة كاملة، ويبصر كل صغيرة وكبيرة فيه، ويديره.

الوجه الثالث: لكون الانسان مرآة عاكسة للأسماء الحسنى، فهو ايضاً مرآة عاكسة لها من حيث نقوشها الظاهرة عليه. ولقد وضِحَ هذا بشئ من التفصيل في مستهل »الموقف الثالث« من الكلمة »الثانية والثلاثين« ان »الماهية« الجامعة للأنسان، فيها أكثر من سبعين نقشاً ظاهراً من نقوش الأسماء الإلهية الحسنى، فمثلاً:

يبين الأنسان من كونه مخلوقاً، اسمَ الصانع »الخالق« ويُظهر من حسن تقويمه اسمَ »الرحمن الرحيم« ويدلّ من كيفية تربيته ورعايته على اسم »الكريم« واسم »اللطيف«.

وهكذا يُبرز الانسان نقوشاً متنوعة ومختلفة للأسماء الحسنى المتنوعة بجميع أعضائه وأجهزتـــه، وجوارحه وبجميع لطائفه ومعنوياته، وبجميع حواسه ومشاعره.

أي كما أن في الأسماء الحسنى أسماً أعظم لله تعالى، فهناك نقش أعظم في نقوش تلـــك الأسماء وذلك هو الانسان.

فيا مَنْ يعدّ نفسه انساناً حقاً، إقرأ نفسك بنفسك، وإن لم تفعل فلربما تهبط من مرتبـــة الانسانية الى مرتبة الإنعام.

النقطة الثانية:

تشير هذه النقطة الى سرٍ مهمٍ من أسرار الأحدية، وتوضيحه كما يأتي:

كما أن روح الإنسان، ترتبط بعلاقات وأواصر مع جميع أنحاء جسم الانســـان، حـــتى تجعل جميع اعـــضائه وجميع اجزائه، في تعاون تامٍّ فيما بينها، أي أن الروح - التي هي لطيفة ربانية وقانون أمري اُلبس الوجود الخارجي بالأوامر التكوينية التي هي تجلي الإرادة الإلهية - لا يحجبها شئ عن إدارة شؤون كل جزء من اجزاء الجسم، ولا يشغلها شئٌ عن تفقـــدها، وإيفاء حاجات الجسم بكل جزء من أجزائه، فالبعيد والقريب إزاءها سواء، ولا يمنع شئ شيئاً قط، إذ تقدر على مدّ عضو واحد بأمداد من سائر الأعضاء، وتستطيع ان تسوق الى خدمته الأعضاء الأخرى. بل تقدر أن تعرف جميع الحاجات بكل جزء من أجزاء الجسم، وتُحِسُّ من خلال هذا الجزء بجميع الاحساسات، وتدير من هذا الجزء الواحد الجسمَ بأكمله، بل تتمكن الروح أن ترى وتسمع بكل جزء من اجزاء الجسم ان كانت قد اكتسبت نورانية اكثر..

فما دامت الروح التي هي قانون أمري من قوانين الله سبحانه - لها هذه القدرة لإظهار أمثال هذه الاجراءات في العالم الصغير وهو الانسان، فكيف يصعب إذن على الإرادة المطلقة (ولله المثل الاعلى)، وعلى قدرته المطلقة من القيام بأفعال لا حدَّ لها في العالم الأكبر، وهـــو الكون، وسماع أصوات لا حد لها فيه، وبأجابة دعوات لا نهاية لها تنطلق من موجوداته؟ فهو سبحانه يفعل ما يشاء في آن واحد، فلا يؤده شئ ولا يحتجب عنه شئ، ولا يمنع منه شـــئٌ شيئاً، ولا يُشغله شئ عن شئٍ. يرى الكل في آن واحد، ويسمع الكل في آن واحد. فالقريب

والبعيد لديه سواء، إذا أراد شيئاً يسوق له كُلَّ شئ، يبصر كُلَّ شئ من أي شئ كان، يسمع أصوات كل شئ، ويعرف كلَّ شئ بكل شئ، فهو ربُّ كل شئ.

النقطة الثالثة:

ان للحياة ماهية عظيمة مهمة، ووظيفة ذات أهمية بالغة، وحيث أن هذا البحث قد فصل في »نافذة الحياة« من »النافذة الثالثة والعشرين« وفي المكتوب العشرين – الكلمة الثامنة منه – لذا نحيل البحث اليهما، وننبه هنا الى ما يأتي:

ان النقوش الممزوجة في الحياة والتي تظهر على صورة حواسّ ومشاعر، هذه النقوش تشير الى اسماء إلهية حسنى كثيرة، والى شؤون ذاتية لله سبحانه وتعالى. فتكون الحياة من هذه الوجهة مرآة عاكسة ساطعة لتجليات الشؤون الذاتية للحي القيوم.

ولما كان وقتنا لا يتسع لأيضاح هذا السر لأولئك الذين لم يرتضوا بالله ربّاً، والذين لم يبلغوا بعد مرتبة الايمان اليقين، لذا سنغلق هذا الباب.

النافذة الثانية والثلاثون

(هُوَ الّذى اَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدينِ الحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّه وكَفى بِاللّهِ شَهيداً_ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله..) (الفتح:28 – 29)

(قُلْ يَآ اَيُّها النَّاسُ اِنّى رَسُولُ الله اِلَيْكُمْ جَميعاً الَّذى لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالاَرْضِ لا إلهَ اِلاّ هُوَ يُحْيي وَيُميتُ..) (الاعراف:158)

هذه النافذة هي نافذة تخص شمس سماء الرسالة، بل شمس شموس النبوة، حبيب رب العالمين، محمداً عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ان هذه النافذة ساطعة سطوع الشمس، وواسعة سعة الكون، ومنورة نورانية النهار. وحيث أننا قد أثبتنا »النبوة« إثباتاً قاطعاً في الكلمة الحادية والثلاثين، رسالة »المعراج« وفي الكلمة التاسعة عشرة، رسالة »دلائل النبوة« وفي المكتوب التاسع عشر، رسالة »المعجزات الأحمدية« لذا فنحن نستعيد هنا بذاكرتنا بعض ما هو مذكور في تلك الرسائل، ونحيل اليها، إلاّ أننا نقول:

ان الرسول الإكرم عليه أفضل الصلاة والسلام، الذي هو برهان التوحيد الناطق، قد أعلن التوحيد واظهره بجلاء، وبيّنه للبشرية أبلغ بيان، في جميع سيرته العطرة، وبكل ما وهبه الله من قوة، فهو الذي يملك بجناحي الرسالة والولاية قوة إجماع وتواتر جميع الأنبياء الذين أتوا قبله، وقوة تواتر واجماع جميع الأولياء والأصفياء الذين أتوا بعده. وفتح بهذه القوة الهائلة نافذة واسعة عظيمة سَعَة العالم الاسلامي إزاء معرفة الله سبحانه، فبدأ يتطلع منها ملايين العلماء المحققين والأصفياء والصديقين أمثال: الإمام الغزالي والإمام الرباني ومحي الدين بن عربي والشيخ الكيلاني، فهؤلاء وغيرهم يتطلعون من هذه النافذة المفتوحة، ويبينونها للآخرين.

فهل هناك من ستار يا ترى يمكن اسداله على هذه النافذة العظيمة! وهل أنَّ مَنْ لا ينظر من هذه النافذة يملك شيئاً من العقل، فاحكم أنت!

النافذة الثالثة والثلاثون

(اَلْحَمْدُ للّه الَّذى اَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً) (الكهف:1)

(الر كِتَابٌ اَنْزَلْنَاهُ اِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ اِلَى النّورِ) (ابراهيم:1)

تأمل وأعلم ان ما ذُكر في جميع »النوافذ« السابقة ما هو إلاَّ بضع قطرات من بحر »القرآن الكريم«، فاذا كان الأمر هكذا فانك تستطيع الآن قياس الامداء العظيمة لأنوار التوحيد التي تفيض من بحر الحياة في القرآن الكريم، ولو أننا نظرنا – مجرد نظرة بسيطة ومجملة –الى منبع جميع تلك النوافذ، وكنزها وأصلها وهو القرآن العظيم، لوجدناه نافذة جامعة ساطعة تشع نوراً فياضاً لا حدَّ له، وحيث ان الكلمة الخامسة والعشرين (رسالة إعجاز القرآن) والاشارة الثامنة عشرة من المكتوب التاسع عشر، قد بحثتا سعة هذه النافذة وسطوعها، بما فيه الكفاية، لذا نحيل البحث اليهما.

وختاماً نرفع أكفنا ضارعين أمام عرش الرحمن جل جلاله الذي انزل علينا هذا القرآن الكريم رحمةً ونوراً وهدايةً وشفاءً ونقول:

(رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَآ اِنْ نَسِينآ اَوْ اَخْطَاْنَا)

(رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلوُبَنَا بَعْدَ اِذْ هَدَيْتَنَا)

(رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنّآ اِنّكَ اَنْتَ السّميعُ الْعَليمُ ــ

وَتُب عَلَيْنَآ اِنَّكَ اَنْتَ التَّوّابُ الرَّحيمُ)

تنـــــــــبيه

هذا المكتوب »الثالث والثلاثون« الذي يضم ثلاثاً وثلاثين نافذة، نسأل الله تعـــالى أن يكون زاداً لمن لا إيمان له، فيدعوه الى حظيرة الإيمان.. ويشدَّ من إيمان الذي يجـــد في إيمانـــه ضعفاً فيقويه.. ويجعل الإيمان القوي التقليدي إيماناً تحقيقياً راسخاً.. ويوسع من آفاق الايمـــان التحقيقي الراسخ.. ويهب لمن كان إيمانه واسعاً مدارج الرقي في المعرفة الإلهيـــة الـــتي هـــي الأساس في الكمال الحقيقي، ويفتح أمامه مشاهد أكثر نورانية وأشدّ سطوعاً.

لأجل هذا، فليس لك ان تقول:

أكتفي بنافذة واحدة دون الأخرى، ذلك لأن القلب يطلب حظه رغم أن العقل قـــد انتفع، والروح هي الأخرى تطالب بحظها، بل حتى الخيال يطالب بقبسٍ من ذلك النور. أي ان كل نافذة من النوافذ لها فوائد متنوعة، ومنافع شتى. ولقد كان المخاطب الأساس في رسالة »المعراج« السابقة، هو المؤمن، وكان الملحد في موضع الاستماع، أما هذه الرسالة فالمخاطب الأساس فيها هو المنكر الجاحد، والمؤمن هو في موضع الاستماع.

ولما كنت قد كتبتُ هذا المكتوب في غاية السرعة – بناءً على سبب مهم – لذا فقـــد بقي على حاله، و لم أراجع مسودته، و لم أدخل عليها أي تعديل، فلا جرم أنْ سيكون فيه شئٌ من القصور والتشوش في بعض العبارات، وفي طريقة العرض. فأرجو من إخواني ان ينظـــروا اليه بعين الصفح والسماح، ويصححوا – إن استطاعوا – ما بدر مني من خطأ، ويـــدعوا لي بالمغفرة. والسلام على مَن اتبع الهدى.. والـــمَلامُ على من إتبع الهوى.

(سُبحَانَك لا عِلْمَ لَنَا اِلاّ مَا عَلَّمْتَنا اِنَّكَ انْتَ العليم الحكيمُ)

اللّهم صلِّ على مَنْ أرسلته رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه وسلم..

آمين

اللوا مع

من بين هلال صومٍ وهلال العيد
ازاهير تفتحت عن نوى الحقائق وديوان شعر إيماني لطلاب النور

تنبيه:

ان هذا الديوان الموسوم بـــ »اللوامع« لا يجري مجرى الدواوين الاخرى على نمط واحد متناولاً عدداً من المواضيع؛ ذلك لأن المؤلف المحترم قد وضح فيه المقولات البليغة المختصـــرة جداً لأحد مؤلفاته القديمة »نوى الحقائق«، ولأنه قد كتب على اسلوب النثر، زد على ذلك لا يجنح الى الخيالات والانطلاق من احاسيس غير موزونة، كما هو في سائر الدواوين. فـــلا يضم هذا الديوان بين دفتيه الاّ ما هو موزون بميزان المنطق وحقائق القرآن والايمان. فهو درس علمي بل قرآني وايماني ألقاه المؤلف على مسامع ابن أخيه وامثاله من الطلاب الذين لازموه. ولقد اقتدى استاذنا واستفاض من نور وما علّمناه الشعر فما كان له ميل الى النظم والشـــعر و لم يشغل نفسه بهما ابداً، كما بيّنه في التنبيه المتصدر للأثر وادركنا نحن ايضاً منه هذا الامر.

وقد تم تأليف هذا الديوان الشبيه بالمنظوم خلال عشرين يوماً، بعد ســـعي متواصـــل لساعتين او زيادة نصف ساعة من الزمان يومياً، مع كثرة المشاغل والمهام الجليلة لـــــ »دار الحكمة الاسلامية«. ان تأليفاً كهذا ضمن هذا الوقت القصير جداً، مع ما في كتابة صـــحيفة واحدة من المنظوم صعوبة تفوق عشر صفحات من غيره، ومع وروده فطرياً وطبعه كما ورد دون أن يطرأ عليه تصحيح أو تشذيب أو تدقيق.. يجعلنا نراه خارقة من خوارق رسائل النور، فلا نعلم ديوان شعر مثل هذا يسهل قراءته نثراً دون تكلّف .

نسأل الله ان يجعل هذا المؤلَّف النفيس بمثابة المثنوي (الرومي) لطلاب النـــور، اذ هـــو خلاصة قيمة لرسائل النور وفي حكم فهرس يبشر بقدومها ويشير اشارة مستقبلية اليها، تلك الرسائل التي ظهرت بعد عشر سنوات واكتملت في غضون ثلاث وعشرين سنة.

صنغور، محمد فيضي، خسرو

من طلاب النور

تنـــبيه[o]

لم اقدّر النظم والقافية قدرهما، لعدم معرفتي بهما، فالمرء عدوّ لما جهل.

و لم أشأ قط تغيير صورة الحقيقة لتوافِق اهواء القافية، نظير »التضحية بصـــافية فـــداء للقافية [194]ولأجل هذا فقد ألبستُ أسمى الحقائق أردأ الملابس في هذا الكتاب الخالي من القافية والنظم. وذلك:

اولاً:

لأنني لا أعلم أفضل من هذا. فكنت احصر فكري في المعنى وحده، دون اللفظ.

ثانياً:

أردت أن ابين بهذا الاسلوب نقدي لأولئك الشعراء الذين ينحتـــون الجســـد ليوافـــق اللباس!

ثالثاً:

---

[o] ملاحظة: هذا الديوان الشبيه بالمنظوم هو آخر ما ألّفه «سعيد القديم» وطبعه ونشره في سنة 1337 (1921م) وبعد تأليفه لرسائل النور وانتشارها، أوصى تلاميذه ان يلحقوه بمجموعة «الكلمات» بعد حذفه ابحاث وفقرات منه. وفي أوائل الخمسينات وضع هوامش جديدة وأمر بنشره على هذه الصورة النهائية ـ المترجم.

[194] مثل تركي: يُحكى ان رجلاً كان يقرض الشعر ضحّى بزوجته المسماة «صافية» وطلقّها كي تستقيم قافية شعره. ـ المترجم .

أردت اشغال النفس ايضاً بالحقائق العالية مع انشغال القلب بها في هذا الشهر المبارك، شهر رمضان.

ولأجل هذه الاسباب اُختير هذا الاسلوب الشبيه باساليب المبتدئين.

ولكن ايها القارىء الكريم!

لئن كنت قد أخطأت – وانا اعترف به – فإياك أن تخطىء فتنظر الى الاسلوب المتهرئ ولا تنعم النظر في تلك الحقائق الرفيعة، ومن ثم تهوّن من شأنها.

ايــضاح

ايها القارئ الكريم!

انني اعترف سلفاً بضجري من فقر قابليتي في صنعة الخطّ وفن النظم، اذ لا استطيع الآن حتى كتابة إسمي كتابة جيدة، و لم اتمكن طوال حياتي من نظم بيتٍ واحد أو من وزنه.

ولكن، وعلى حين غرّة ألحّتْ على فكري رغبةٌ قويةٌ في النظم، وقد كانــت روحــي ترتاح لما في كتاب »قول نوالاسيسيبان [195]من نظمٍ فطري عفوي على نمط مدائح تصــف غزوات الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. فاخترتُ لنفسي طراز نظمه، وكتبتُ نثراً شبيهاً بالنظم. و لم اتكلف للوزن قطعاً. فليقرأه مَن شاء نثراً قراءة سهلة دون تذكّر النظم والاهتمام به، بل عليه أن يعدّه نثراً ليفهم المعنى، اذ هناك ارتباط في المعنى بين القِطعَ، وعليه الاّ يتوقــف في القافية. [196]فكما تكون الطاقية والطربوش بلا شُرّابة كذلك يكون الوزن ايضاً بلا قافيــة، والنظم بلا قاعدة. بل اعتقد انه لو كان اللفظ والنظم جذابين صنعةً يُشغلان فكر الانســان بهما ويشدّانه اليهما، فالأولى اذن ان يكون اللفظ بسيطاً من غير تزويق لئلا يصرف النظــر اليه.

---

[195]) قصيدة طويلة تنوف على اربعمائة بيت في وصف غزوات الصحابة الكرام، باللغة الكردية الكرمانجية الشمالية، نظَمها الملا خالد آغا الزيباري المعروف بزهده وتقواه . ـ المترجم ـــــ

[196] ولقد وفّقنا ا لترجمة هذا الديوان الرائع نثراً ايضاً مكتفين بالمعنى دون القافية او اللفظ. ـ المترجم

ان استاذي ومرشدي في هذا الكتاب: القرآن الكريم.

وكتابي الذي أقرأه: الحياة

ومخاطبي الذي أوجّه له الكلام: نفسي.

أما أنت ايها القارئ العزيز، فمستمعٌ ليس الاّ، والمستمع لا يحق له الانتقاد، بل يأخذ ما يعجبه ولا يتعرض لما لا يعجبه.

ولما كان كتابي هذا نابعاً من فيض الشهر الكريم، شهر رمضان المبارك، [197]فإنني آمل ان يؤثر في قلب اخي في الدين، فيهدي لي بظهر الغيب دعاءً بالمغفرة أو قراءة سورة الفاتحة.

الداعي [198]

قبري المهدّم [199] يضم تسعاً وسبعين جثة [200] لسعيد ذي الآثام والآلام وقد غدا تمـــام الثمانين شاهد قبري

والكل يبكي [201] لضياع الاسلام.

---

[197] حتى أن تأريخ تأليفه ظهر في العبارة الآتية:

(نجم أدب وُلِد لهلالَي رمضان) «مجموع ارقامه:1337» المؤلف.

[198] هذه القطعة توقيعه - المؤلف.

[199] فلقد اخرجت السلطات آنذاك جثمانه ودفنته في مكان مجهول وذلك بعد مرور اربعة اشهر على وفاته 1960) - المترجم .

[200] يعني ان سعيدين يموتان في السنة الواحدة، حيث يتجدد الجسم في السنة مرتين. فضلاً عن ان سعيداً سيعيش الى هذا التاريخ، اي الى هذه السنة، التاسعة والسبعين، اذ يموت في كل سنة سعيد*)ــــــالمؤلف.

[201] فلقد احس قبل الوقوع بهذه الاحوال قبل عشرين سنة من وقوعها. - المؤلف.

فيئن ذلك القبر المليء بالاموات مع شاهده.

وغداً انطلقُ مسرعاً الى ساحة عقباي

وانا على يقينٍ: أن مستقبل آسيا بأرضها وسمائها

يستسلم ليد الاسلام البيضاء

اذ يمينه يمن الايمان

يمنح الطمأنينة والامان للأنام. [202]

(1) هذه القطعة توقيعه – المؤلف.

(2)فلقد اخرجت السلطات آنذاك جثمانه ودفنته في مكان مجهول وذلك بعد مـــرور اربعة اشهر على وفاته (1960) – المترجم .

(3) يعني ان سعيدين يموتان في السنة الواحدة، حيث يتجدد الجسم في السنة مـــرتين. فضلاً عن ان سعيداً سيعيش الى هذا التاريخ، اي الى هذه السنة، التاسعة والسبعين، اذ يموت في كل سنة سعيد(*)ـــــالمؤلف.

(4) فلقد احس قبل الوقوع بهذه الاحوال قبل عشرين سنة من وقوعها. – المؤلف.

(*) هذه الفقرات المنتهية بعلامة (*) اضافها المؤلف نفسه الى الكتاب بعد سنة 1951 ـــــــ المترجم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

[202] هذه الفقرات المنتهية بعلامة *) اضافها المؤلف نفسه الى الكتاب بعد سنة 1951 - المترجم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

برهانان عظيمان للتوحيد

oهذا الكون بذاته برهان عظيم.

اذ لسان الغيب ولسان الشهادة يسبّحان بالتوحيد، توحيد الرحمن. ويذكُران بصـــوت هائل: (لا إله الاّ هو).

فكل ذرات الكون، وحجيراته، وأركانه، وأعضائه؛ لسان ذاكر يلهج مع ذلك الصوت الداوي بـــ : (لا إله الاّ هو).

في تلك الألسنة تنوّع، وفي تلك الاصوات مراتب، الاّ انها تنطلق معاً بـــ: (لا إلـــه إلاّ هو).

هذا الكون انسان أكبر.. يذكر ربَّه بصوت عالٍ، والأصوات الرقيقة لأجزائه وذراتـــه كلها تدوي مع ذلك الصوت الهادر:(لا إله الاّ هو).

نعم ان هذا العالم يتلو آيات القرآن في حلقة ذكر عظيمة.

وهذا القرآن المشرق المنور يترنم مع ذوي الأرواح كلها بـــ:(لا إله الاّ هو).

oهذا الفرقان الحكيم، برهان ناطق لذلك التوحيد. آياتُه كلها ألسنة صادقة.. وأشعة ساطعة بالايمان.. فالجميع يذكر معاً: (لا إله الاّ هو).

فاذا ما ألصقتَ الأذن بصدر هذا الفرقان، ستسمع من أعمق الأعماق صدىً سماويـــاً صريحاً ينبعث :(لا إله الاّ هو).

فذلك الصوت اللطيف، صوت رفيع عالٍ، في منتهى الجدية وغاية الإينـــاس، ونهايـــة الصدق والاخلاص. ومدعم بالبرهان القاطع المقنع.. يقول مكرراً :(لا إله الاّ هو).

هذا البرهان المنور، جهاتُه الست شفافة رائقة اذ:

عليه نقش الاعجاز الظاهر.

وفيه يلمع نور الهداية، ويقول:(لا إله الاّ هو).

تحته نسيج البرهان والمنطق.

في يمينه استنطاق العقل، ويصدّقه بـــ :(لا إله الاّ هو).

وفي شماله – الذي هو يمين – استشهاد الوجدان.

امامه الحسن والخير.

وهدفه السعادة.

مفتاحه دائماً:(لا إله الاّ هو).

ومن ورائه الذي هو أمام. أي استناده؛ سماوي وهو: الوحي المحض.

فهذه الجهات الست منيرة مضيئة، يتجلى في بروجها :(لا إله الاّ هو).

فأنّى للوهم ان يسترق منها السمع، وانّى للشبهة ان تطرق بابها.

أفيمكن ان يدخل ذلك المارق هذا الصرح البارق الشارق!!

فأسوار سوره شاهقة، وكل كلمة منه مَلَك ناطق بـــــ:(لا إله الاّ هو).

فذلك القرآن العظيم بحر ناطق للتوحيد.

لنأخذ قطرة منه مثالاً؛ »سورة الاخلاص«. نتناولها رمزاً قصيراً مما لا يعد من الرموز.

انها تردّ الشرك بجميع أنواعه ردّاً قاطعاً. وتثبت سبعة أنواع مـــن التوحيـــد في جملـــها الست: ثلاث جملٍ منها مثبتة وثلاث منها منفية.

الجملة الاولى: (قل هو):اشارة بلا قرينة، أي هو تعيين بالاطلاق، ففي ذلك التعـــيين تعيّن. أي: لا هو الاّ هو. وهذا اشارة الى توحيد الشهود. فلو استغرقت البصيرةُ النافذة الى الحق في التوحيد، لقالت: »لا مشهود الاّ هو«.

الجملة الثانية: (الله أحد) تصريح بتوحيد الألوهية، اذ الحقيقة تقول بلسان الحـــق: »لا معبود الاّ هو«.

الجملة الثالثة: (الله الصمد) صدف لدرّين من درر التوحيد.

الأول: توحيد الربوبية: فلسان نظام الكون يقول: »لا خالق الاّ هو«.

الثاني: توحيد القيومية: أي: ان لسان الحاجة الى مؤثر حقيقي في الكون كله يقول: »لا قيوم الاّ هو«.

الجملة الرابعة: (لم يلد) يستتر فيها توحيد الجلال، ويردّ أنواع الشرك، ويقطـــع دابـــر الكفر:

لان الذي يتغير ويتناسل ويتجزأ لاشك انه ليس بخالق ولا قيوم ولا إله.

و (لم يلد): يردّ مفهوم البنوة والتولد، اذ يقطع قطعاً شرك بنوة عيسى وعزير (عليهما السلام) والملائكة أو العقول. فلقد ضل كثير من الناس، وهووا في غياهب الضلال من هـــذا الشرك.

خامستها: (ولم يولد) توحيد سرمدي يشير الى اثبات الأحدية.

فمن لم يكن واجباً قديماً أزلياً لا يكون إلهاً، أي: إن كان حادثاً زمانياً، أو متولداً مادةً، أو منفصلاً عن أصل، لا يمكن ان يكون إلهاً لهذا الكون.

هذه الجملة تردّ شرك عبادة الأسباب، وعبادة النجوم، وعبادة الأصنام، وعبادة الطبيعة.

سادستها: (ولم يكن) توحيد جامع، أي: لا نظير له في ذاته، ولا شريك له في أفعالـــه. ولا شبيه له في صفاته. كل ذلك مندمج معاً يوجه النظر الى (لم).

فهذه الجمل الست متضمنة سبع مراتب من مراتب التوحيد، كل منها نتيجة للأخرى، وبرهان لها في الوقت نفسه.

أي ان (سورة الاخلاص) تشتمل على ثلاثين سورة من سور الاخلاص سورٍ منتظمة مركبة من دلائل يثبت بعضها بعضاً.

لا يعلم الغيب الا الله.

(((

السبب ظاهري بحت

تقتضي عزة الالوهية وعظمتها، ان تكون الاسباب الطبيعية أستاراً بين يدي قدرتـــه تعالى أمام نظر العقل.

ويقتضي التوحيد والجلال، ان تسحب الاسبابُ الطبيعية يدَها عن التأثير الحقيقـــي في آثار القدرة الإلهية.[203]

(((

الوجود غير منحصر في العالم الجسماني

ان انواع الوجود المختلفة التي لا تحصى، لا تنحصر في هذا العالم، عالم الشهادة.

فالعالم الجسماني (المادي) شبيه بستار مزركش ملقىً على عوالم الغيب المنورة.

(((

الاتحاد في قلم القدرة يعلن التوحيد

ان ظهور أثر الابداع في كل زاوية من زوايا الفطرة يردّ ـــــــ بالبداهـــة - ايجـــاد الاسباب لها.

ان نقش القلم نفسه والقدرة عينها، في كل نقطة في الخلقة، يرفض - بالضـــرورة - وجود الوسائط.

(((

لا شئ دون الاشياء كلها

ان سر التساند والترابط، المستتر في الكائنات كلها، المنتشر فيها.. وكذا انبعـــاث روح التجاوب والتعاون من كل جانب.. يبين:

أنه ليست الاّ قدرة محيطة بالعالم كله، تخلق الذرة وتضعها في موضعها المناسب.

فكل حرف وكل سطر من كتاب العالم، حيّ، تسوقه الحاجة، وتعرّف الواحد الآخر، فيُلبي النداء اينما انطلق.

وبسر التوحيد تتجاوب الآفاق كلها، اذ توجّه القدرة كل حرف حي الى كل جملة من جمل الكتاب وتبصّرها.

---

[203] اي الاّ تتدخل في الايجاد والتأثير الحقيقي قطعاً.ــــــ المؤلف.

(((

حركة الشمس للجاذبية، وهي لشدّ منظومتها

الشمس شجرة مثمرة، تنتفض لئلا تسقط ثمارها السيارات المنتشية المنجذبة اليها.. ولو سكنتْ بصمتها وسكونها لزالت الجذبةُ، وتبخرت النشوةُ، وبكتْ - شوقاً اليها - مجاذيبُها السيارات المنتظمة في الفضاء الوسيع.

(((

الاشياء الصغيرة مربوطة بالكبيرة

ان الذي خلق عين البعوضة، هو الذي خلق الشمس ودرب التبانة.. والذي نظّم معدة البرغوث هو الذي نظّم المنظومة الشمسية.. والذي ادرج الرؤية في العين وغرز الحاجة في المعدة هو الذي كحّل عين السماء باثمد النور وبسط سفرة الاطعمة على وجه الارض.

(((

في نظم الكون اعجاز عظيم

شاهد الاعجاز في تأليف الكون؛ فلو اصبح كلُ سببٍ من الاسباب الطبيعية فاعلاً مختاراً مقتدراً - بفرضٍ محال - لسجدتْ تلك الاسبابُ عاجزةً ذليلةً أمام ذلك الاعجاز قائلة: سبحانك.. لا قدرة فينا.. ربنا انت القدير الازلي ذو الجلال.

(((

كل شئ امام القدرة سواء

(ما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُم الاّ كنفسٍ واحدة)

القدرة الإلهية ذاتية وأزلية لا يتخللها العجز أصلاً، فلا مراتب فيها، ولا تداخلها العوائق قطعاً، فالكل والجزء ازاءها سواء، لا يتفاوتان؛ لأن كل شئ مرتبط بالاشياء كلها.

فمن لا يقدر على خلق كل الاشياء لا يقدر على خلق شئ واحد.

(((

مَن لم يقبض على زمام الكون كلّه لا يقدر على خلق ذرة

ان من لا يملك قبضة قوية يرفع بها ارضنا والشموس والنجوم التي لا تحصى، ويضعها على هامة الفضاء، وفوق صدره، بانتظام واتقان، ليس له ان يدّعي الخلق والايجاد قطعاً.

احياء النوع كإحياء الفرد

كما ان إحياء ذبابة غطت في نومٍ شبيه بالموت في الشتاء، ليس عسيراً على القدرة الإلهية، كذلك احياء هذه الدنيا بعد موتها، بل احياء ذوي الارواح قاطبة، سهلٌ ويسير عليها.

(((

الطبيعة صنعة إلهية

الطبيعة ليست طابعة، بل مطبع.. ولا نقاشة بل نقش، ولا فاعلة بل قابلة للفعل.. ولا مصدراً، بل مسطر.. ولا ناظماً بل نظام.. ولا قدرة بل قانون.

فهي شريعة ارادية، وليست حقيقة خارجية.

الوجدان يعرف الله بوَجْده ونَشوته

في الوجدان انجذاب وجذب، مندمجان فيه دوماً، لذا ينجذب، والانجذاب انما يحصل بجذبِ جاذبٍ.

وذو الشعور ينجذب انجذاباً، إذا ما بدا ذو الجمال وتجلّى ببهاء دون حُجُب.

هذه الفطرة الشاعرة تشهد شهادة قاطعة على الواجب الوجود ذي الجلال والجمال. شاهدها الاول ذلك الجذب.. والآخر ذلك الانجذاب.

(((

شهادة الفطرة صادقة

لا كذبَ في الفطرة، فما تقوله صدق؛ فميلان النمو الكامن في النواة يقول: سأنمو وأثمر. والواقع يصدّقه.

في داخل البيضة، يقول ميلان الحياة، في تلك الاعماق: سأكون فرخاً .. ويكون باذن الله فعلاً، ويُصدّق كلامه.

واذا نوت غرفة من ماء داخل كرة من حديد الانجماد، فان ميلان انبساطها اثناء البرودة يقول: توسَّع ايها الحديد، أنا محتاج الى مكان اوسع. فيحاول الحديد الصلب الاّ يكذّبه، بل ما فيه من اخلاص وصدق الجنان يفتّت ذلك الحديد.

كلٌ ميلٍ من هذه الميول، أمرٌ تكويني، حكمٌ إلهي، شريعة فطرية، تجلٍّ للإرادة الإلهية في ادارة الاكوان.

فكلُ ميل، وكل امتثال، انقيادٌ لأمر إلهي تكويني.

فالتجلي في الوجدان جلوة كهذه، بحيث أن الانجذاب والجذبة صافيان كالمرآة المجلوة، ينعكس فيهما نور الايمان وتجلّي الجمال الخالد.

(((

النبوة ضـــرورية للبشرية

ان القدرة الإلهية التي لا تترك النمل من دون أمير، والنحل من دون يعسوب، لا تتـــرك حتماً البشر من دون نبي، من دون شريعة.

نعم هكذا يقتضي سرُّ نظام العالم.

(((

المعراج معجزة للملائكة مثلما انشقاق القمر معجزة للانسان

المعراجُ ولايةٌ عظمى في نبوة مسلَّمة بها رأته الملائكة رؤية حقة كرامةً.

ركب النبي الباهر »البُراق« وغدا بَرقاً، فدار الوجود كالقمر مشاهداً عالم النور ايضاً.

فكما ان انشقاق القمر معجزةٌ حسيّة عظمى للانسان المنتشر في عالم الشهادة، فهـــذا المعراج ايضاً هو أعظم معجزة لساكني عالم الارواح.

(((

كلمة الشهادة برهانها فيها

كلمتا الشهادة: كل منها شاهدة للاخرى، ودليل، وبرهان.

فالأولى: برهان لِمّي للثانية، والثانية: برهان إنّي للاولى [204]((

الحياة طراز من تجلّي الوحدة

الحياة نور الوحدة.

فالتوحيد يتجلى بالحياة في هذه الكثرة.

نعم! ان تجلّياً من تجليات الوحدة يجعل الكثرة الكاثرة من الموجودات، وجوداً واحداً؛ لأن الحياة تجعل الشئ الواحد مالكاً لكل شئ.. بينما كل الاشياء عند فاقد الحياة عدم.

)))

الروح قانون اُلبس وجوداً خارجياً

الروح قانون نوراني، وناموس اُلبس وجوداً خارجياً. اُودع فيه الشعور.

فهذا الروح الموجود - وجوداً خارجياً - وذاك القانون المعقول - المدرك عقلاً - اصبحا اخوين وصديقين.

اذ هذا الروح آتٍ من عالم الأمر، ومن صفة الارادة، كالقوانين الفطرية الثابتة الدائمة.

وان القدرة الإلهية تكسو الروحَ وجوداً حسياً، وتودع فيه الشعور، فتجعل سيالة لطيفة صَدَفة لذلك الجوهر.

ولو ألبست قدرةُ الخالق القوانينَ الجارية في الانواع، وجوداً خارجياً، لأصبح كل منها روحاً. ولو نزع الروحُ هذا الوجودَ، وطرح عنه الشعور، لأصبح قانوناً باقياً.

)))

الوجود بلا حياة كالعدم

الضياء والحياة، كلاهما كشّافان للموجودات.

ان لم يكن هناك نور الحياة، فالوجود معرّض للعدم، بل هو كالعدم.

---

[204] اعلم أن البرهان إما «لِمّيٌّ» وهو الاستدلال بالمؤثر على الأثر. وإما «إنّيٌّ» وهو الاستدلال بالأثر على المؤثر، وهذا اسلم. (اشارات الاعجاز: 186).ـــــ المترجم.

نعم! إن ما لا حياة فيه غريب، يتيم، حتى لو كان قمراً.

(((

النملة بالحياة اكبر من الارض

اذا وازنت النملة بميزان الوجود، فالكون الذي تنطوي عليه النملة بسر الحياة، لا تسعه كرتنا الارضية.

فلو قارنا هذه الكرة الارضية – التي اراها حية ويراها البعض ميتة – مع النملة، فانها لا تعدل نصف رأس هذا الكائن المجهز بالشعور.

(((

النصرانية ستسلّم أمرها للاسلام

ستجد النصرانية امامها الانطفاء أو الاصطفاء. وسوف تلقي السلاح وتستسلم للاسلام. لقد تمزقت عدة مرات، حتى آلت الى «البروتستانتية» ولم تسعفها كذلك، وتمزق الستار مرة اخرى، فوقعت في ضلالة مطلقة. الاّ أن قسماً منها اقترب من التوحيد، وسيجد فيه الفلاح. وهي الآن على وشك التمزق، [205]ان لم تنطفىء فانها تتصفّى وتكون ملك الاسلام (اذ تجد نفسها امام الحقائق الاسلامية الجامعة لاسس النصرانية الحقيقية).

هذا سر عظيمٌ اشار اليه الرسول الكريم(ص) بنزول عيسى عليه السلام، وأنه سيكون من امته ويعمل بشريعته.

(((

النظر التقليدي يرى المحال ممكناً

لقد اشتهرت حادثة: انه بينما كان الناس يراقبون هلال العيد، ولم ير أحد شيئاً، اذا بشيخ هرم يحلف أنه قد رأى الهلال، ثم تبين ان ما رآه لم يكن هلالاً بل شعرة بيضاء تقوست من اهدابه. فاصبحت تلك الشعرة هلالاً له. فأين تلك الشعرة المقوسة من الهلال؟.

---

[205] اشارة الى النتائج الرهيبة للحرب العالمية الاولى، بل يخبر عن الحرب العالمية الثانية.المؤلف (*)

فهلا فهمت هذا الرمز!

لقد أصبحت حركات الذرات شعرات مظلمة لأهداب العقل، أسدلت علـى البصـر المادي واعمته، فلم يعد يرى الفاعلَ لتشكيل الانواع كلها. وهكذا تقع الضلالة.

فأين حركات الذرات من نظّام الكون؟.

ان توهم صدور تلك الانواع من تلك الحركات محال في محال.

(((

القرآن لا يحتاج الى وكيل بل الى مرآة

ان ما في المصدر من قدسية هي التي تحض جمهور الأمة والعوام على الطاعة وتسـوقهم الى امتثال الاوامر اكثر من قوة البرهان.

ان تسعين بالمئة من احكام الشريعة مسلَّمات وضروريات دينية، شبيهة باعمـدة مـن الالماس، أما المسائل الاجتهادية الخلافية الفرعية، فلا تبلغ الاّ عشرة بالمئة. فلا ينبغي ان يكون تسعون عموداً من الالماس تحت حماية عشرة منها من ذهب، ولا تابعة لها.

ان معدن اعمدة الالماس وكنزها: الكتاب والسنة. فهي ملكهما ولا تُطلب الاّ منهما.

اما الكتب الاخرى والاجتهادات فينبغي ان تكون مرايا عاكسة للقرآن أو مناظير اليـه ليس الاّ. اذ إن تلك الشمس المنيرة المعجزة لا ترضى لها ظلاً ولا وكيلاً.

(((

المُبطل يأخذ الباطل بظن الحق

ان الانسان يقصد الحق ويتحراه دوماً، لما يحمل من فطرة مكرّمة، وقد يعثر على باطل فيظنه حقاً ويحافظ عليه، وقد يقع عليه الضلالُ من دون اختيار وهو ينقّب عن الحقيقة، فيظنه حقاً ويصدّقه.

(((

مرايا القدرة كثيرة

ان مرايا القدرة الإلهية كثيرة جداً، كلٌ منها يفتح نوافذ أشفّ وألطف من الاخرى الى عالم من عوالم المثال.

فابتداءً من الماء الى الهواء، ومن الهواء الى الاثير، ومن الاثير الى عالم المثال، ومن عـــالم المثال الى عالم الارواح، ومن عالم الارواح الى الزمان، ومن الزمان الى الخيال، ومن الخيال الى الفكر، كلها مرايا متنوعة تتمثل فيها الشؤون الإلهية السيالة. فتأمل بأُذنك في مرآة الهواء تـــرَ الكلمة الواحدة تصبح مليوناً من الكلمات.

هكذا يسطّر قلمُ القدرة الإلهية سرّ هذا التناسل والاستنساخ العجيب.

اقسام التمثلات مختلفة

ينقسم التمثل في المرآة الى اربع صور:

فإما أنها صورة تمثل الهوية فحسب، او تمثل معها الخاصية، او تمثل الهوية ونور الماهية، أو ماهية الهوية.

فان شئت مثالاً، فدونك الانسان والشمس، والمَلَك والكلمة.

ان تمثلات الكثيف تصبح امواتاً متحركة في المرآة.

وتمثلات روح نورانية في مراياها كل منها حية مرتبطة، ونور منبسط. ان لم يكن عينه فليس هو غيره.

فلو كانت للشمس حياة، لكانت حرارتُها حياتها، وضياؤها شعورَها.فصورتُها المنعكسة في المرآة تملك هذه الخواص.

فهذا هو مفتاح هذه الاسرار:

ان جبرائيل عليه السلام وهو في سدرة المنتهى يتمثل في صورة دحية الكلبي في المجلـــس النبوي وفي اماكن اخرى كثيرة.

وان عزرائيل يقبض الارواح في مكان وفي اماكن كثيرة لا يعلمها الاّ الله.

وان الرسول)ص(يظهر لأمته في وقت واحد، في كشف الاولياء، وفي الرؤى الصادقة، ويقابلهم جميعاً بشفاعته لهم يوم القيامة يوم الحشر الاعظم. وأن الابدال في الاولياء يظهرون هكذا في اماكن عدة في آن واحد.

)))

قد يكون المستعد مجتهداً لا مشرعاً

كل من لديه استعداد وقابلية على الاجتهاد وحائز على شروطه، له أن يجتهد لنفسه في غير ما ورد فيه النص، من دون أن يلزم الاخرين به، اذ لا يستطيع أن يشرّع ويدعو الامة الى مفهومه. اذ فهمه يُعدّ من فقه الشريعة ولكن ليس الشريعة نفسها، لذا ربما يكون الانسان مجتهداً ولكن لا يمكن ان يكون مشرّعاً. فالدعوة الى اي فكر كان مشروطة بقبول جمهور العلماء له، والاّ فهو بدعة مردودة. تنحصر بصاحبها ولا تتعداه. لأن الإجماع وجمهور الفقهاء هم الذين يميزون ختم الشريعة عليه.

نور العقل يشعّ من القلب

على المفكرين الذين غشيَهم ظلامٌ ان يدركوا الكلام الآتي:

لا يتنور الفكر من دون ضياء القلب.

فإن لم يمتزج ذلك النور وهذا الضياء، فالفكر ظلامٌ دامس يتفجّر منه الظلم والجهل. فهو ظلام قد لبس لبوس النور (نور الفكر) زوراً وبهتاناً.

ففي عينك نهار لكنه بياض مظلم، وفيها سواد لكنه منور.

فان لم يكن فيها ذلك السواد المنور، فلا تكون تلك الشحمة عيناً، ولا تقدر على الرؤية.

وهكذا، لا قيمة لبصر بلا بصيرة.

فإن لم تكن سويداء القلب في فكرة بيضاء ناصعة، فحصيلةُ الدماغ لا تكون علماً ولا بصيرة.

فلا عقل دون قلب.

)))

مراتب العلم في الدماغ مختلفة وملتبسة

في الدماغ مراتب، يلتبس بعضها ببعض، احكامها مختلفة.

يحصل التخيل اولاً، ثم يأتي التصور، ثم يرد التعقل، ثم التصديق، ثم يصبح اذعاناً ثم يأتي الالتزام، ثم الاعتقاد. فاعتقادك بشئ غير التزامك به.

وعن كلٍ من هذه المراتب تصدر حالة:

فالصلابة تصدر عن الاعتقاد، والتعصب عن الالتزام، والامتثال عن الاذعان، والالتزام عن التصديق، ويحصل الحياد في التعقل، والتجرد في التصور، والسفسطة في التخيل إن عجـــز عن المزج.

إن تصوير الامور الباطلة تصويراً جيداً جرحٌ للاذهان الصافية واضلال لها.

(((

لا يُلقَّن مالا يُستوعب من علم

ان العالم المرشد الحقيقي يهب للناس علمه في سبيل الله دون انتظار عـــوض ويصـــبح كالشاة لا كالطير، فالشاة تُطعم بَهْمتها لبناً خالصاً والطير تلقم فراخها قيئها المليء باللعاب.

(((

التخريب أسهل والـــــضعيف يكون مخرّباً

ان وجود الشئ يتوقف على وجود جميع اجزائه، بينما عدمه يحصل بانعدام جزءٍ منـــه، لذا يكون التخريب أسهل .

ومن هنا يميل الضعيفُ العاجز الى التخريب وارتكابِ اعمال سلبية تخريبية. بل لا يدنو من الايجابية ابداً.

(((

ينبغي للقوة ان تخدم الحق

ان لم تمتزج دساتير الحكمة ونواميس الحكومة وقوانين الحق وقواعد القوة بعضها ببعض ولم يستمد كل من الآخر ولم يستند اليه، فلا تكون مثمرة ولا مؤثرة لدى جمهور النـــاس. فتُهمَل شعائر الشريعة وتعطّل، فلا يستند اليها الناس في امورهم ولا يثقون بها.

(((

الشئ يتـــضمن ضـــدَّه احياناً

سيكون زمان يُخفي الضدُّ ضدَّهُ، واذا باللفظ ضد المعنى في لغة السياسة. واذا بـــالظلم يلبس قلنسوة العدالة، واذا بالخيانة ترتدي رداء الحمية بثمن زهيد. ويُطلق اسم البغي على الجهاد في سبيل الله ويسمّى الأسر الحيواني والاستبداد الشيطاني حرية.[206]

وهكذا تتماثل الاضداد، وتتبادل الصور، وتتقابل الاسماء، وتتبادل المقامات المواضعَ.

السياسة الدائرة على المنفعة وحش رهيب

ان السياسة الحاضرة الدائرة رحاها على المنافع وحشٌ رهيبٌ، فالتودد الى وحش جائع لا يدرّ عطفه بل يثير شهيته، ثم يعود ويطلب منك اجرة انيابه واظفاره!

(((

تتعاظم جناية الانسان لعدم تحدد قواه

ان القوى المودعة في الانسان لم تُحدد فطرةً خلافاً للحيوان، فالخير والشر الصادران عنه لا يتناهيان. فاذا ما اقترن غرورٌ من هذا وعنادٌ من ذاك، يولدان ذنباً عظيماً الى حـــد لم يعثر له البشر على إسم. ان هذا دليل على وجود جهنم، اذ لا جزاء له الاّ النار.[207]

ومثلاً: يتمنى احدُهم أن تحل بالمسلمين مصيبة كي يظهر صدق كلامه وصواب تنبؤه!!.

ولقد أظهر هذا الزمان ايضاً: ان الجنة غالية ليست رخيصة وان جهنم ليست زائدة عن الحاجة.

(((

رُبَّ خير يكون وسيلة لشر

ان المزية التي يتحلّى بها الخواص، في الحقيقة سبب لدفعهم الى التواضع وانكار الذات. ولكن مع الاسف اصبحت وسيلة للتحكم بالآخرين والتكبر عليهم.

وكذلك عجز الفقراء وفقر العوام، هما داعيان في الحقيقة للاشفاق عليهم، ولكن مـــع الاسف انجرا – في الوقت الحاضر – الى سوقهم الى الذل والأسر.

---

[206]) يذكر هذا وكانه قد شهد هذا الزمان. ـ المؤلف(*)

[207] في هذا اشارة الى ما سيقع في المستقبل – المؤلف (*)

لو حصل شرف ومحاسن في شيءٍ ما، فانه يُسند الى الخواص والرؤساء. أما ان حصلت منه السيئات والشرور فانه توزع على الافراد والعوام.

فالشرف الذي نالته العشيرة الغالبة يقابل بـــ: احسنت يا شيخ العشيرة!

ولكن لو حصل العكس فيقال: سحقاً لافرادها

وهذا هو الشر المؤلم في البشر!

(((

ان لم تكن للجماعة غاية وهدف فالانانية تقوى

ان لم يكن لفكر الجماعة غاية وهدف مثالي، أو نُسيت تلك الغاية، أو تنوسيت، تحولت الاذهان الى انانيات الافراد وحامت حولها.

اي: يتقوى »أنا« كل فرد، وقد يتحدد ويتصلب حتى لا يمكن خرقه ليصبح »نحـــن« فالذين يحبون »أنا« أنفسهم لا يحبون الآخرين حباً حقيقياً.

(((

انتعاش الاضـــطرابات بموت الزكاة وحياة الربا

ان معدن جميع انواع الاضطرابات والقلاقل والفساد واصلها، وان محرك جميع انـــواع السيئات والاخلاق الدنيئة ومنبعها كلمتان اثنتان أو جملتان فقط:

الكلمة الاولى: اذا شبعتُ انا فمالي إن مات غيري من الجوع.

الكلمة الثانية: تحمّل انتَ المشاق لأجل راحتي، اعمل انت لآكل أنا. لك المشقة وعليّ الاكل.

والداء الشافي الذي يستأصل شأفة السم القاتل في الكلمة الاولى هو: الزكاة، التي هـــي ركن من اركان الاسلام.

والذي يجتث عرق شجرة الزقوم المندرجة في الكلمة الثانية هو: تحريم الربا.

فان كانت البشرية تريد صلاحاً وحياة كريمة فعليها ان تفرض الزكاة وترفع الربا.

(((

على البشرية قتل جميع انواع الربا ان كانت تريد الحياة

لقد انقطعت صلة الرحم بين طبقة الخواص والعوام. فانطلقت مـــن العـــوام اصـــداء الاضطرابات وصرخات الانتقام،ونفثات الحسد والحقد. ونزلت من الخواص على العوام نـــار الظلم والاهانة وثقل التكبر ودواعي التحكم.

بينما ينبغي ان يصعد من العوام: الطاعة والتودد والاحترام والانقياد، بشرط ان يـــترل عليه من الخواص: الاحسان والرحمة والشفقة والتربية.

فان ارادت البشرية دوام الحياة فعليها ان تستمسك بالزكاة وتطرد الربا.

اذ إن عدالة القرآن واقفة بباب العالم وتقول للربا: »ممنوع، لا يحـــق لـــك الـــدخول ارجع!«.

ولكن البشرية لم تصغ الى هذا الأمر، فتلقّت صفعة قوية. [208]وعليها ان تصغي اليه قبل أن تتلقى صفعة اخرى أقوى وأمرّ.

(((

لقد كسر الانسان قيد الأسر وسيكسر قيد الأجر

لقد قلتُ في رؤيا:

ان الحروب الطفيفة بين الدول والشعوب تتخلى عن مواضعها الى صراعات اشد ضرواة بين طبقات البشر؛ لأن الانسان لم يرض في ادواره التاريخية بالأسر، بل كسر الاغلال بدمه. ولكن الآن اصبح أجيراً يتحمل أعباءه، وسيكسرهايوماً ما.

لقد اشتعل رأس الانسان شيباً، بعد أن مرّ بادوار خمسة:

الوحشية والبداوة والرق وأسر الاقطاع، وهو الآن أجير. هكذا بدأ وهكذا يمضي.

(((

الطريق غير المشروع يؤدي الى خلاف المقصود

---

[208] اشارة مستقبلية قوية حيث لم تسمع البشرية هذا النداء فتلقت صفعة قوية من يد الحرب العالمية الثانية.ــــ

المؤلف(*)

»القاتل لا يرث [209]دستور عظيم

ان الذي يسلك طريقاً غير مشروع لبلوغ مقصده، غالباً ما يجازى بخلاف مقصـــوده.. فمحبة اوروبا غير المشروعة وتقليدها والألفة بها كان جزاؤها العداء الغادر مـــن المحبـــوب! وارتكاب الجرائم.

نعم، فالفاسق محروم لا يجد لذةً ولا نجاة.

)))

في الجبرية والمعتزلة حبة من حقيقة

يا طالب الحقيقة!

ان الشريعة تنظر الى الماضي والى المصيبة غير نظرتها الى المستقبل والى المعصية.

اذ تنظر الى الماضي والى المصائب بنظر القدر الإلهي، فالقول هنا للجبرية.

اما المستقبل والمعاصي فتنظر اليهما بنظر التكليف الإلهي، فالقول هنا للمعتزلة. وهكذا تتصالح الجبرية والمعتزلة.

ففي هذه المذاهب الباطلة تندرج حبة من حقيقة، لها محلها الخاص بها، وينشأ الباطل من تعميمها.

)))

العجز والجزع شأن الـــضعفاء

ان رمت الحياة، فلا تتشبث بالعجز فيما يمكن حلّه.

وان رمت الراحة فلا تستمسك بالجزع فيما لا علاج له.

)))

قد يؤدي الشئ الصغير الى عظائم الامور

ستكون هناك احوال، بحيث ان حركة بسيطة عندها تسمو بالانسان الى اعلى عليين.

وكذا تحدث حالات، بحيث أن فعلاً بسيطاً يردي بصاحبه الى اسفل سافلين.

---

[209] حديث شريف رواه ابو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي واحمد في مسنده.ـــــ المترجم.

(((

آن واحد يعدل سنة عند بعـــضهم

فطرة الانسان قسمان: قسم يسطع في الحال، وقسم آخر يتألق بالتدرج، ويسمو رويداً رويداً.

فطبيعة الانسان تشبه كليهما معاً. وهي تتبدل حسب الشروط والاحوال.

فتمضي احياناً بشكل تدريجي، واحياناً تتفجر ناراً مضيئة تفجر البارود الاسود.

ورب نظرة تحول الفحم ألماساً.

وربّ مسّ يحول الحجر اكسيراً.

فنظرة من النبي)ص(يقلب الاعرابي الجاهل عارفاً بالله منوراً في الحال.

وان سألت ميزاناً، فدونك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل الاسلام وبعده.

ومثالهما: البذرة والشجرة التي اعطت ثمارها اليانعة دفعة واحدة.

فحوّل ذاك النظر النبوي وهمّته الفطرَ المتفحمة

في الجزيرة العربية الى ألماسات لامعات.

وتحولت السجايا المظلمة المحرقة – كالبارود الاسود – الى خصال فاضلة نيّرة.

(((

الكذب لفظ كافر

حبة واحدة من صدق تبيد بيدراً من الاكاذيب.

ان حقيقة واحدة تهدم صرحاً من خيال.

فالصدق اساس عظيم وجوهر ساطع،

وربما يتخلى عن مكانه للسكوت، ان كان فيه ضرر، ولكن لا موضع للكذب قطعـــاً، مهما يكن فيه من فائدة ونفع.

ليكن كلامك كله صدقاً ولتكن احكامك كلها حقاً،

ولكن عليك أن تدرك هذا: انه لاحق لك أن تبوح بالصدق كله.

اتخذ هذه القاعدة دستوراً لك:

»خذ ما صفا دع ما كدر«. فانظر بُحسن وشاهد بُحسن ليكون فكرك حسناً، وظُن ظناً حسناً، وفكّر حسناً لتجد الحياة اللذيذة الهانئة.

ان الامل المندرج في حسن الظن ينفخ الحياة في الحياة،

بينما اليأس المخبوء في سوء الظن ينخر سعادة الانسان ويقتل الحياة.

مجلس في عالم المثال

(موازنة بين الحضارة الحاضرة والشريعة الغراء، والدهاء العلمي والهدى الإلهي)

ابان الهدنة، نهاية الحرب العالمية الاولى، وفي ليلة من ليالي الجمعة، دخلت مجلساً مهيباً في عالم المثال، وذلك في رؤيا صادقة، فسألوني:

- ماذا سيحدث لعالم الاسلام عقب هذه الهزيمة؟

اجبت بصفتي ممثلاً عن العصر الحاضر، وهم يستمعون اليّ:

- ان هذه الدولة التي اخذت على عاتقها - منذ السابق - حماية استقلال العالم الاسلامي، واعلاء كلمة الله بالقيام بفريضة الجهاد - فرضاً كفائياً - ووضعت نفسها موضع التضحية والفداء عن العالم الاسلامي الذي هو كالجسد الواحد حاملة راية الخلافة، اقول: ان هذه الدولة، وهذه الامة الاسلامية، ستعوّض عن هذا البلاء الذي أصابها، سعادة يرفل بها العالم الاسلامي، وحرية يتمتع بها، وستتلافى المصائب والاضرار الماضية، فالذي يكسب ثلاثمائة بدفع ثلاثٍ لا شك انه غير خاسر، وذو الهمة يبدل حاله الحاضرة الى مستقبل زاهر. فهذه المصيبة قد بعثت الشفقة والاخوة والترابط بين المسلمين بعثاً خارقاً.

ان تنامي الاخوة بين المسلمين يُسرع في هزّ المدنية الحاضرة ويقرب دمارها، وستتبدل صورة المدنية الحاضرة، وسيقوض نظامها. وعندها تظهر المدنية الاسلامية، وسيكون المسلمون اول من يدخلونها بارادتهم.

وان اردت الموازنة بين المدنية الشرعية والمدنية الحاضرة، فدقق النظر في اسس كلٍ منهما ثم انظر الى آثارهما.

ان اسس المدنية الحاضرة سلبية، وهي اسس خمسة، تدور عليها رحاها.

فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هـــذا تنشأ الخيانة.

هدفها وقصدها: منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية.

دستورها في الحياة: الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتــدافع، ومن هذا تنشأ السفالة.

رابطتها الاساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بـــابتلاع الآخرين وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد. ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك.

وخامستها: هي ان خدمتها الجذابة، تشجيع الاهواء والنـــوازع، وتـــذليل العقبـــات امامهما، واشباع الشهوات والرغبات. وشأن الاهواء والنوازع دائماً: مسخ الانسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الانسانية وتمسخ مسخاً معنوياً.

ان معظم هؤلاء المدنيين، لو قلبتَ باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والدب والخنزير.

نعم! ان خيالك ليمس فراء تلك الحيوانات وجلودها.. وآثارهم تدل عليهم.

انه لا ميزان في الارض غير ميزان الشريعة. انها رحمة مهداة نزلت من سمـــاء القـــرآن العظيم.

أما اسس مدنية القرآن الكريم، فهي ايجابية تدور سعادتها على خمسة اسس ايجابية.

نقطة استنادها: الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائماً: العدالة والتوازن. ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء.

وهدفها: الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة: المحبة والتقارب، ومن هذا تنشأ السعادة وتزول العداوة.

دستورها في الحياة: التعاون بدل الخصام والقتال، وشأن هذا الدستور: الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات.

وخدمتها للمجتمع: بالهدى بدل الاهواء والنوازع، وشأن الهدى: الارتقاء بالانسان ورفاهه الى ما يليق به مع تنوير الروح ومدّها بما يلزم.

رابطتها بين المجموعات البشرية: رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصنف والمهنة واخوة الايمان. وشأن هذه الرابطة: اخوة خالصة، وطرد العنصرية والقومية السلبية.

وبهذه المدنية يعم السلام الشامل، اذ هو في موقف الدفاع ضد اي عدوان خارجي.

والآن! ندرك لِمَ اعرض العالم الاسلامي عن المدنية الحاضرة، ولم يقبلها، ولم يدخل المسلمون فيها بارادتهم.

انها لا تنفعهم، بل تضرهم. لانها كبّلتهم بالاغلال، بل صارت سماً زعافاً للانسانية بدلاً من ان تكون لها ترياقاً شافياً؛ اذ ألقت ثمانين بالمائة من البشرية في شقاء، لتعيش عشرة بالمائة منها في سعادة مزيفة. اما العشرة الباقية فهم حيارى بين هؤلاء وهؤلاء.

وتتجمع الارباح التجارية بايدي أقلية ظالمة، بينما السعادة الحقة، هي في اسعاد الجميع، أو في الأقل ان تصبح مبعث نجاة الاكثرية.

والقرآن الكريم النازل رحمة للعالمين لا يقبل الاّ طرازاً من المدنية التي تمنح السعادة للجميع او الاكثرية، بينما المدنية الحاضرة قد اطلقت الاهواء والنوازع من عقالها، فالهوى حر طليق طلاقة البهائم، بل اصبح يستبد، والشهوة تتحكم، حتى جعلتا الحاجات غير الضرورية في حكم الضرورية. وهكذا مُحيت راحة البشرية؛ اذ كان الانسان في البداوة محتاجاً الى اشياء اربعة، بينما، افقرته المدنية الحاضرة الآن وجعلته في حاجة الى مائة حاجة وحاجة. حتى لم يعد السعي الحلال كافياً لسد النفقات، فدفعت المدنية البشرية الى ممارسة الخداع والانغماس في الحرام. ومن هنا فسدت اسس الاخلاق، اذ أحاطت المجتمع والبشرية بهالة من الهيبة ووضعت في يدها ثروة الناس فاصبح الفرد فقيراً وفاقداً للأخلاق.

والشاهد على هذا كثير، حتى ان مجموع ما ارتكبته البشرية من مظالم وجرائم وخيانات في القرون الاولى قاءتها واستفرغتها هذه المدنية الخبيثة مرة واحدة. وسوف تصاب بالمزيد من الغثيان في قابل أيامها(1) ومن هنا ندرك لِمَ يتوانى العالم الاسلامي في قبولها ويتحرج. ان استنكافه منها له مغزى، يلفت النظر.

نعم! ان النور الإلهي في الشريعة الغراء يمنحها خاصة مميزة وهي: الاستقلال الذي يؤدي الى الاستغناء.

هذه الخاصية لا تسمح ان يتحكم في ذلك النور دهاء [210]روما - الممثل لروح هـذه المدنية - ولا يطعّم بها ولا يمتزج معها. ولن تكون الشريعة تابعة لذلك الدهاء.

اذ الشريعة تربي في روح الاسلام الشفقة وعزة الايمان. فلقد اخذ القرآن بيده حقـائق الشريعة. كل حقيقة منها عصا موسى (في تلك اليد). وستسجد له تلك المدنيـة السـاحرة سجدة تبجيل واعجاب.

والآن دقق النظر في هذا:

كانت روما القديمة واليونان يملكان دهاءً، وهما دهاءان توأمان، ناشئان من أصل واحد. احدهما غلب الخيال عليه. والآخر عبد المادة. ولكنهما لم يمتزجا، كما لا يمتزج الدهن بالماء. فحافظ كل منهما على استقلالها، رغم مرور الزمان، ورغم سعي المدنية لمزجهما، ومحاولـة النصرانية لذلك. الاّ ان جميع المحاولات باءت بالاخفاق.

والآن، بدلت تلكما الروحان جسديهما، فاصبح الألمان جسد احـدهما والفرنسـيون جسد الآخر. وكأنهما قد تناسخا منهما.

ولقد أظهر الزمان: ان ذينك الدهاءين التوأمين قد ردّا أسباب المزج بعنف، و لم يتصالحا الى الوقت الحاضر.

فلئن كان التوأمان، الصديقان، الاخوان الرفيقان في الرقي قد تصـارعا و لم يتصـالحا، فكيف يمتزج هدى القرآن - وهـو من اصل مغاير ومعـدن آخر ومطلع مختلف - مـع دهاء روما وفلسفتها؟! فذلك الدهاء، وهذا الهدى مختلفان في المنشأ.

الهدى نزل من السماء.. والدهاء خرج من الارض.

---

[210] كلمة «الدهاء» في هذا المبحث يقصد منها، المفاهيم المادية التي تتبناها حضارة الغرب. أو الفكر المادي في فلسفته. ولقد أبقينا الكلمة كما هي لما فيها من تجانس جميل مع الهدى. - المترجم.

الهدى فعّال في القلب، يدفع الدماغ الى العمل والنشاط. بينما الدهاء فعال في الدماغ، ويعكرّ صفو القلب ويكدّره.

الهدى ينور الروح حتى تثمر حباها سنابل، فتتنور الطبيعة المظلمة، وتتوجه الاستعدادات نحو الكمال. ولكن يجعل النفس الجسمانية خادمة مطيعة. فيضع في سيماء الانسان الساعي الجاد صورة المَلَك.

أما الدهاء فيتوجّه مقدماً الى النفس والجسم ويخوض في الطبيعة، ويجعل النفس المادية مزرعة لإنماء الاستعداد النفساني وترعرعه. بينما يجعل الروح خادمة، حتى تتيبس بذورها وحباها، فيضع في سيماء الانسان صورة الشيطان.

الهدى يمنح السعادة لحياة الانسان في الدارين وينشر فيهما النور والضياء، ويدفع الانسان الى الرقي. اما الدهاء الاعور كالدجال، فيفهم الحياة انها دار واحدة فحسب، لذا يدفع الانسان ليكون عبد المادة، متهالكاً على الدنيا حتى يجعله وحشاً مفترساً.

نعم! ان الدهاء يعبد الطبيعة الصماء، ويطيع القوة العمياء.

أما الهدى فانه يعرف الصنعة المالكة للشعور، ويقدّر القدرة الحكيمة.

الدهاء يسدل على الارض ستار الكفران.. والهدى ينثر عليها نور الشكر والامتنان.

ومن هذا السر: فالدهاء أعمى أصم.. والهدى سميع بصير.

اذ في نظر الدهاء: لا مالك للنعم المبثوثة على الارض ولا مولى يرعاها، فيغتصبها دون شكران، اذ الاقتناص من الطبيعة يولد شعوراً حيوانياً.

أما في نظر الهدى فان النعم المبسوطة على الارض هي ثمرات الرحمة الإلهية، وتحت كلٍ منها يد المحسن الكريم. مما يحض الانسان على تقبيل تلك اليد بالشكر والتعظيم.

زد على ذلك:

فمما ينبغي الاّ ننكر ان في المدنية محاسن كثيرة، الاّ انها ليست من صنع هذا العصر، بل هي نتاج العالم وملك الجميع، اذ نشأت بتلاحق الافكار وتلاقحها، وحث الشرائع السماوية -ولا سيما الشريعة المحمدية - وحاجة الفطرة البشرية. فهي بضاعة نشأت من الانقلاب الذي احدثه الاسلام. لذا لا يتملكها احدٌ من الناس.

وهنا عاد رئيس المجلس فسأل قائلاً:

يا رجل هذا العصر! ان البلاء يترل دوماً نتيجة الخيانة، وهو سبب الثواب. ولقد صفع القدر صفعته ونزل القضاء بهذه الامة. فبأيٍ من اعمالكم قد سمحتم للقضاء والقدر حتى أنزل القضاء الإلهي بكم البلاء ومسّكم الضر؟ فان سبب نزول المصائب العامة هو خطأ الاكثرية من الناس.

قلت:

ان ضلال البشرية وعنادها النمرودي وغرورها الفرعوني، تضخّم وانتفش حتى بلغ السماء ومسّ حكمة الخلق، وأنزل من السموات العلا ما يشبه الطوفان والطاعون والمصائب والبلايا.. تلك هي الحرب العالمية الحاضرة. اذ أنزل الله سبحانه لطمة قوية على النصارى بل على البشرية قاطبة. لأن أحد أسبابها التي يشترك فيها الناس كلهم هو الضلال الناشئ من الفكر المادي، والحرية الحيوانية، وتحكّم الهوى.

أما ما يعود الينا من سبب فهو:

اهمالنا اركان الاسلام وتركنا الفرائض؛ اذ طلب منا سبحانه وتعالى ساعة واحدة من اربع وعشرين ساعة، طلبها لأجلنا نحن، لأداء الصلوات الخمس، فتقاعسنا عنها. واهملناها غافلين، فجازانا بتدريب شاق دائم لأربع وعشرين ساعة طوال خمس سنوات متواليات، أي أرغمنا على نوع من الصلاة!

وانه سبحانه طلب منا شهراً من السنة نصوم فيه رحمة بأنفسنا. فعزّت علينا نفوسُنا فأرغمنا على صوم طوال خمس سنوات، كفّارة لذنوبنا.

وانه سبحانه طلب منا الزكاة عُشراً أو واحداً من اربعين جزءاً من ماله الذي اعطاه لنا، فبخلنا وظلمنا وخلطناه بالحرام، ولم نعطها طوعاً. فأرغمنا على دفع زكاة متراكمة. وانقذنا من الحرام، فالجزاء من جنس العمل.

ان العمل الصالح نوعان:

احدهما: ايجابي واختياري.

والآخر: سلبي واضطراري.

فالآلام والمصائب كلها اعمال صالحة سلبية اضطرارية، كما ورد في الحديث الشريف وفيه سلواننا وعزاؤنا.

ولهذا، فلقد تطهرت هذه الامة المذنبة وتوضأت بدمها. وتابت توبة فعلية.

وكان ثوابها العاجل رفع خُمس هذه الامة العثمانية - اي اربعة ملايين من الناس - الى مرتبة الولاية ومنحهم درجة الشهادة والمجاهدين.. هكذا كفّر عن الذنوب.

استحسن مَن في المجلس الرفيع المثالي هذا الكلام.

وانتبهتُ من نومي، بل قد نمتُ مجدداً باليقظة. لأنني اعتقد ان اليقظة رؤيا والرؤيا نوع من اليقظة.

سعيد النورسي هنا

ممثل العصر هناك

(((

اذا تسلَّم الجهلُ المجازَ حوّله الى حقيقة

اذا وقع المجاز من يد العلم الى يد الجهل ينقلب حقيقة ويفتح ابواباً الى الخرافات. فلقد رأيتُ ايام صباي خسوف القمر، سألتُ والدتي عن السبب، فقالت: ابتلعه الثعبان. قلت: لِمَ يشاهد اذن؟. قالت: الثعابين هناك نصف شفافة!

وهكذا ظُن المجاز حقيقة. اذ يخسف القمر بأمر إلهي بحيلولة الارض بين الشمس والقمر وعند نقطتي تقاطع مدارهما وهما الرأس والذنب.

وقد اطلق على ذينك القوسين الموهومين اسم »التنين« اي الثعبان ولكن الاسم الـــذي اطلق حسب تشبيه خيالي تحوّل الى مسمىً (حقيقي).

(((

المبالغة ذم ضـــمني

اذا وصفت شيئاً فصفْه على ما هو عليه. اعتقد ان المبالغـــة في المـــدح ذم ضـــمني. لا احسان اكثر من الاحسان الإلهي.

الشهرة ظالمة

الشهرة مستبدة متحكمة، اذ تُمَلِّكُ صاحبَها مالا يملِكْ

فالخواجة نصر الدين (جحا) لا يملك من لطائفه المنتشرة غير العُشر.

وهالة الخيال التي وضعت حول رستم السيستاني قد أغارت على مفاخر ايران لعصـــر كامل. فلقد انتعش الغصب وتضخم ذلك الخيال، حتى اختلط بالخرافات والقى الانسان فيها.

(((

الذين يعزلون الدين عن الحياة يردون المهالك

ان خطأ »تركيا الفتاة [211]« نابع من عدم معرفتهم أن الدين اساس الحياة. فظنـــوا ان الامة شئ والاسلام شئ آخر؛ وهما متمايزان! ذلك لأن المدنية الحاضـــرة. اوحـــت بـــذلك واستولت على الافكار بقولها: أن السعادة هي في الحياة نفسها. الاّ ان الزمان أظهـــر الآن أن نظام المدنية فاسد ومضرّ. [212]والتجارب القاطعة اظهرت لنا: أن الدين حياة للحياة ونورها واساسها.

احياء الدين احياء لهذه الأمة. والاسلام هو الذي ادرك هذا.

ان رقي امتنا هو بنسبة تمسكها بالدين، وتدنيها هو بمقدار اهمالها له، بخـــلاف الـــدين الآخر. هذه حقيقة تاريخية، قد تنوسيت.

(((

الموت ليس مرعباً كما يُتوهم

الموت تبديل مكان وتحويل موضع وخروج من سجن الى بستان. فليطلب الشهادة من يريد الحياة . والقرآن الكريم ينص على حياة الشهيد.

---

[211] تركيا الفتاة او «جون ترك»: يطلق هذا الاسم على الجماعات والافراد المعارضين للحكم في الدولة العثمانية منذ عهد السلطان عبد العزيز وحتى عزل السلطان عبد الحميد الثاني (1909) حيث استطاعت جمعية الاتحاد والترقي ان تحل محلها، وبالتعاون مع قوى خارجية وباسناد من الدول الكبرى استطاعت هذه الجمعية من عزل السلطان عبد الحميد الثاني من الحكم. واصبح تعبير «تركيا الفتاة» علماً للمعارضة السياسية آنذاك، لذا قد يطلق على منتسبي الاتحاد والترقي كذلك. (المترجم)

[212] اشارة واضحة الى المدنية الظالمة الملحدة التي تعاني السكرات .ـــــ المؤلف(*).

الشهيد الذي لم يذق ألم السكرات يُعدّ نفسه حياً. وهو يرى نفسه هكذا، الاّ أنه يجد حياته الجديدة نزيهة طاهرة اكثر من قبل، فيعتقد انه لم يمت. والنسبة بين الاموات والشهداء شبيهة بالمثال الآتي:

رجلان يتجولان في الرؤيا في بستان زاهر جامع لأنواع اللذائذ.

احدهما يعرف ان الذي يراه هو رؤيا، لذا لا يستمتع كثيراً، وربما يتحسر. والآخر يظن ان ما يراه في الرؤيا حقيقة في عالم اليقظة فيستمتع ويتلذذ حقيقة.

الرؤيا ظلُ عالم المثال، وعالم المثال ظلُ عالم البرزخ، ومن هنا تتشابه دساتير هذه العوالم.

السياسة الحاضرة شيطان في عالم الافكار ينبغي الاستعاذة منها

ان سياسة المدنية الحاضرة تضحي بالاكثرية في سبيل الاقلية، بل تضحي قلةٌ قليلة من الظلمة بجمهور كبير من العوام في سبيل مقاصدها.

اما عدالة القرآن الكريم، فلا تضحى بحياة برئ واحد، ولا تهدر دمه لأي شئ كان، لا في سبيل الاكثرية، ولا لأجل البشرية قاطبة. اذ الآية الكريمة (مَن قَتَل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الارض فكأنما قَتَل الناسَ جميعاً) (المائدة: 32)تضع سرّين عظيمين امام نظر الانسان:

الاول: العدالة المحضة، ذلك الدستور العظيم الذي ينظر الى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة، فهم سواء في نظر العدالة الإلهية مثلما انهم سواء في نظر القدرة الإلهية. وهذه سنة دائمة. الاّ ان الشخص يستطيع – برغبة من نفسه – ان يضحي بنفسه، من دون ان يُضحّى به قطعاً، حتى في سبيل الناس جميعاً. لأن ازهاق حياته وازالة عصمته وهدر دمه بإبطال حق الناس جميعاً شبيه بازالة عصمتهم جميعاً وهدر دمائهم جميعاً.

والسر الثاني: هو لو قتل مغرورٌ بريئاً دون ورع، تحقيقاً لحرصه واشباعاً لنزواته وهوى رغباته، فانه مستعد لتدمير العالم والجنس البشري ان استطاع.

(((

الضعف يشجع الخصم

ايها الخائف الضعيف!

ان خوفك وضعفك يذهبان سدىً، لا طائل وراءه، بل يكونان عليك لا لك. لانهمـــا يشجعان الآخرين ويثيران شهيتهم لإفتراسك.

ان لله ان يختبر عبده وليس للعبد ان يختبر ربه.

أيها المرتاب!

ان مصلحة محققة لا يضحى بها في سبيل مضرة موهومة. فعليك بالســعي والنتيجــة موكولة الى الله تعالى. فان لله ان يختبر عبده ويقول لك ان قمتَ بهذا سأكافئك بكذا، ولكن ليس للعبد ان يختبر ربه قائلاً: فليوفقني الله تعالى في هذا لأعمل هذا كذا. فان قال هكذا فقد تجاوز حدّه.

وقد قال ابليس يوماً لعيسى بن مريم عليه السلام: مادام الأمر كله للّه، ولن يصيبك الاّ ما كتبه عليك فارمِ نفسك من ذروة هذا الجبل، وانظر ماذا يفعل بك؟

فقال له عيسى عليه السلام:

يا ملعون إن لله أن يختبر عبده وليس للعبد أن يختبر ربه!

(((

لا تفرط فيما يعجبك

قد يكون دواء مرضٍ داءً لداء آخر وينقلب بلسَمُه الشافي سماً زعافاً، اذ لــو جــاوز الدواءُ حدَّه انقلبَ الى ضدّه.

(((

عين العناد ترى المَلَك شيطاناً

امر العناد هو: انه اذا ما ساعد شيطانٌ امرءاً قال له: انه »مَلَكٌ« وترحّم عليه. بينما اذا رأى مَلكاً في صف مَن يخالفه في الرأي؛ قال: »انه شيطان قد بدّل لباسه« فيعاديه ويلعنه.

(((

لا تثر الاختلاف لأجل الأحق بعد وجدانك الحق

يا طالب الحقيقة!

ان كان الاتفاق في الحق اختلافاً في الأحق، يكون الحقُ أحقَّ من الأحـــقِّ، والحســـنُ أحسنَ من الأحسن.

)))

الاسلام دين السلام والأمان، يرفـــض النزاع والخصام في الداخل

ايها العالم الاسلامي! ان حياتك في الاتحاد.

ان كنت طالباً للاتحاد فاتخذ هذا دستورك:

لابد أن يكون »هو حق« بدلاً من »هو الحق«. و»هو حسن« بدلاً من »هو الحسن«.

اذ يحق لكل مسلم أن يقول في مسلكه ومذهبه: ان هذا »حق« ولا اتعرض لما عـــداه. فان يك جميلاً فمذهبي أجمل. بينما لا يحق له القول في مذهبه: ان هذا هو »الحق« وما عداه باطل. وما عندي هو »الحسن« فحسب وغيره قبيح وخطأ!

ان ضيق الذهن وانحصاره على شئ، ينشأ من حب النفس ثم يكون داءً. ومنه يـــنجم النزاع.

فالادوية تتعدد حسب تعدد الادواء، ويكون تعددها حقاً.. وهكـــذا الحـــق يتعـــدد. والحاجات والاغذية تتنوع، وتنوعها حق.. وهكذا الحق يتنوع.

والاستعدادات ووسائل التربية تتشعب، وتشعبها حق.. وهكذا الحق يتشعب.

فالمادة الواحدة قد تكون داءً ودواءً حسب مزاجين اثنين..

اذ تعطى نسبية مركبة وفق أمزجة المكلفين، وهكذا تتحقق وتتركب.

ان صاحب كل مذهب يحكم حكماً مطلقاً مهملاً من دون ان يعين حدود مذهبه، اذ يدعه لاختلاف الأمزجة، ولكن التعصب المذهبي هو الذي يولد التعمـــيم ولـــدى الالتـــزام بالتعميم ينشأ النزاع.

كانت هناك هوّات سحيقة بين طبقات البشر، قبل الاسلام. مع بُعدٍ شاسع عجيـــب بينهما. فاستوجب تعدد الانبياء وظهورهم في وقت واحد، كما استوجب تنـــوع الشـــرائع وتعدد المذاهب.

ولكن الاسلام أوجد انقلاباً في البشرية فتقارب الناس واتحد الشرع واصبح الرســـول واحداً.

وما لم تتساو المستويات فان المذاهب تتعدد. ومتى ما تساوت وأوفت التربية الواحـــدة بحاجات الناس كافة تتحد المذاهب.

)))

في ايجاد الاضداد وجمعها حكمة عظيمة

الذرة والشمس في قبـــضة القدرة سواء

يا اخي ياذا القلب اليقظ!

ان القدرة تتجلى في جمع الأضداد؛

فوجود الالم في اللذة والشر في الخير والقبح في الحسن والضر في النفع والنقمة في النعمة والنار في النور.. فيه سر عظيم. أتعرف لماذا؟

انه لكي تثبت الحقائق النسبية وتتقرر، وتتولد اشياء كثيرة من شئ واحد وتنال الوجود وتظهر.

فالنقطة تتحول خطاً بسرعة الحركة، واللمعة تتحول بالدوران دائرة من نور. فوظيفة الحقائق النسبية في الدنيا هي حبات تنشأ منها سنابل، اذ هي التي تشكل طينـــة الكائنـــات وروابط نظامها وعلائق نقوشها.

اما في الآخرة فهذه الاوامر النسبية تصبح حقائق حقيقية.

فالمراتب التي في الحرارة انما هي ناشئة من تخلل البرودة فيها. ودرجات الحسن هي من تداخل القبح، فالسبب يصبح علة.

فالضوء مدين للظلام، واللذة مدينة للألم، ولا متعة للصحة من دون المرض، ولولا الجنة لما عذبت جهنم، فهي لا تكمل الاّ بالزمهرير، بل لولاه لما احرقت جهنم احراقاً تاماً.

فذلك الخلاّق القديم أظهر حكمته العظيمة في خلق الاضداد، فتجلت هيبته وبهاؤه.

وذلك القدير الدائم اظهر قدرته في جمع الاضداد، فظـــهرت عظمته وجلاله.

فما دامت تلك القدرة الإلهية لازمة للذات الجليلة، فبالضرورة لا ضد في تلك الذات. ولا يتخللها العجز، ولا مراتب في القدرة، ونسبتها واحدة لكل شئ، لا يثقل عليها شئ. وقد اصبحت الشمس مشكاةً لضوء تلك القدرة، وغدا وجه الارض مرآة لتلك المشكاة بل حتى عيون الندى اصبحت مرايا لها. فالوجه الواسع للبحر مرآة لتلك الشمس كما تظهرهاحبابات ذلك الوجه المتموج. وعيون الندى تتلمع كالنجوم. كل منها يبين الهوية نفسها. ففي نظر الشمس يتساوى البحر والندى، فالقدرة نظير هذا. اذ بؤبؤ عين الندى شُميسة تلمع، والشمس الضخمة هي ندى صغير، يستلم بؤبؤ عينها النور من شمس القدرة الإلهية فتدور دوران القمر حول تلك القدرة. والسموات بحر عظيم لا ساحل له. تتماوج على وجهها بأمر الرحمن الحبابات، تلك هي الشموس والنجوم.

وهكذا تجلت القدرة ونثرت على تلك القطرات لمعات النور.

فكل شمس قطرة وكل نجم ندى. وكل لمعة صورة.

فتلك الشمس العظيمة – الشبيهة بالقطرة – انعكاس خافت لتجلي ذلك الفيض العظيم فلميعةٌ من ذلك الفيض تُحوّل الشمس كوكباً دريّاً

وذلك النجم الشبيه بالندى يمكّن تلك اللميعة من عينه، وتغدو سراجاً، وعينه زجاجة ، تزيد المصباح ضياءً.

(((

ادفن مزاياك تحت تراب الخفاء لتنمو

ياذا المزايا ويا صاحب الخاصية!

لا تظلِم بالتعيّن والتشخص، فلو بقيتَ تحت ستار الخفاء، منحتَ اخوانك بركةً واحساناً.اذ من الممكن ظهورك في كل أخٍ لك، وان يكون هو أنت بالذات، وبهذا تجلب الانظار والاحترام الى كل اخ.

بينما تلقي الظل هنا، بالتعين والتشخص، بعد ان كنت شمساً هناك. فتُسقط شأن اخوانك وتقلل من احترامهم.

.بمعنى ان التعيّن والتشخص امران ظالمان.

فلئن كان هذا هو امر المزايا الصحيحة، وصاحبها الصادق وانت تراه، فكيف بكسب الشهرة والتشخص بالتصنع الكاذب والرياء؟!

فهو اذن سر عظيم وحكمة إلهية ونظام أكمل، ان فرداً خارقاً في نوعه يمنح القيمة والأهمية الى افراد نوعه بالستر والخفاء، ودونك المثال:

الولي في الانسان، والأجل في العمر، فقد ظلا مخفيين. وكذا ساعة الاجابة في الجمعة وليلة القدر في رمضان، والاسم الاعظم في الاسماء الحسنى.

والسر اللطيف في هذه الامثلة وقيمتها العظيمة هي:

ان في الإبهام اظهاراً وفي الإخفاء اثباتاً.

فمثلاً في إبهام الأجل موازنة لطيفة بين الخوف والرجاء، موازنة بين توهم البقاء في الدنيا وثواب العاقبة.

فالعمر المجهول الذي يستغرق عشرين سنة ارجح من الف سنة من عمر معلوم النهاية، لأنه بعد قضاء نصف هذا العمر يكون المرء كأنه يخطو خطوات الى منصة الاعدام. فالحزن المستمر المتلاحق لا يدع صاحبه يتمتع بالراحة والسلوان.

(((

لا رحمة أوسع من رحمته تعالى

ولا غضب اشد من غضبه سبحانه

لا رحمة تفوق رحمة الله، ولا غضب يفوق غضبه.

فدع الأمور للعادل الرحيم. اذ فرط الشفقة أليم وفرط الغضب ذميم.

(((

الاسراف باب السفاهة وهي تقود الى السفالة

يا أخي المسرف!

لقمتان مغذيتان؛ أحداهما بقرش والاخرى بعشرة، هما سيّان قبل دخولهما الفم، وسيّان كذلك بعد مرورهما من الحلقوم.

فلا فرق الاّ ذوق يدوم لبضع ثوان، للغافل الأحمق؛ اذ تخدعه حاسة الذوق دوماً بهـــذا الفرق،

فهذه الحاسة حارسة الجسم وناظرة مفتشة للمعدة.

ولها تأثير سلبي لا ايجابي، ان أصبحت وظيفتها ارضاء الحارس.

كي يديم الذوق للغافل،

فيتعكر صفو وظيفتها بدفع احد عشر قرشاً بدلاً من واحد، فيجعلها تابعة للشيطان.

لا تتقرب من هذا، فيسوقك الى أبشع أنواع الاسراف. وأفظع أنواع التبذير.

(((

حاسة الذوق مأمورة البرق

لا تجعل اللذة همها فتفسدها

[213]لقد أســـس سبحانه بفضل ربوبيته وحكمته وعنايته في فم الانسان وانفه مركزين : وضع فيهما حراسَ حدودِ هذا العالم الصغير وعيونه. ونصب كل عرق، بمثابـــة الهـــاتف، وجعـــل كل عصب في حكم البرق. وجعلت عنايته الكريمة حاسةَ الشم مـــأمورة ارســـال المكـــالمات الهاتفية، وحاسة الذوق موظفة ارسال البرقيات.

ومن رحمة ذلك الرزاق الحقيقي انه وضع قائمة الاثمان على الأرزاق، تلك هي: الطعم، واللون، والرائحة.

فهذه الخواص الثلاثة – من حيث الإرزاق – لوحة اعلان، وبطاقة دعـــوة، وتـــذكرة رخصة، ومنادية الزبائن وجالبة المحتاجين.

وقد منح ذلك الرزاق الكريم، الاحياء المرزوقة أعضاءً للذوق والرؤية والشـــم. وزيـــن الاطعمة بمختلف ألوان الزينة والجمال.. ليسلّي بها القلوب المشتاقة ويثير شوق غير المبالين.

فحالما يدخل الطعام الفم، تخبر حاسة الذوق انحاء الجسم برقياً به، وتبلّغ الشم هاتفيـــاً نوع الطعام الوارد وصنفه.

---

[213] هذه القطعة نواة رسالة الاقتصاد. وكأنه قد لخص تلك الرسالة في هذه السطور ـــــ المؤلف(*).

فالحيوانات المتباينة في الرزق والحاجات، تتصرف وفق تلك الاخبار وتتهيأ على حسبها. أو يأتي الجواب بالرد، فيلفظ الفم الطعام خارجاً، بل قد يبصق عليه.

ولما كانت حاسة الذوق مأمورة من قبل العناية الإلهية فلا تفسدها بالتذوق المستمر، ولاتخدعها بالتلذذ دوماً.

اذ ستنسى ما الشهية الحقة؟ لورود الشهية الكاذبة اليها، تلك التي تأخذ بلبها.. فيجازى صاحبها بالمرض ويعاقب بالعلل جراء خطئها.

اعلم ان اللذة الحقيقية، انما تنبع من شهية حقيقية.

وان الشهية الحقة الصادقة تنبع من حاجة حقيقية صادقة.

وفي هذه اللذة الحقة – الكافية للانسان ـــ يتساوى السلطان والشحاذ.

(((

نوع النظر كالنية يقلب العادات الى عبادات

لاحظ بدقة، هذه النقطة:

كما تصبح العادات المباحة بالنية عبادات.

كذلك تكون العلوم الكونية بنوع النظر معارف إلهية.

فاذا ما نظرت الى هذه العلوم نظراً حرفياً، مع دقة الملاحظة والتفكر العميق، من حيث الصنعة والاتقان. أي ان تقول: »ما أبدع خلق هذا! ما أجمل صنع الصانع الجليل!« بدلاً من قولك: »ما أجمله«.

نعم، اذا ما نظرت الى الكون من هذه الزاوية تجد ان نقوش المصور الجليل ولمعةَ القصد والاتقان في نظامه وحكمته تنور الشبهات وتبددها.

وعندها تتبدل العلوم الكونية معارف إلهية.

ولكن لو نظرت الى الكائنات بالمعنى الاسمي، ومن حيث »الطبيعة« أي انها تولدت بذاتها،

فعندها تتحول دائرة العلوم الى ميدان جهل.

فيا لضياع الحقائق في الأيادي الوضيعة.

وما أكثر الامثلة الشاهدة على هذه الحقيقية.

في مثل هذا الزمان لا يأذن الشرع لنا باختيار الترفّه

كلما نادت اللذائذ ينبغي الاجابة: »كاني أكلت«

فالذي جعل هذا دستوراً له، لم يأكل مسجداً [214]

لم يكن أكثر المسلمين في السابق جائعين. فكان الترفّه جائز الاختيار الى حدٍ ما. امــا الآن فمعظمهم يبيتون جياعاً، فلم يعد لناإذنٌ شرعي للتلذذ.

اذ إن معيشة السواد الأعظم وغالبية المسلمين بسيطة. فينبغي الاقتداء بهــم في الطعــام الكفاف البسيط.

وهذا هو الأفضل بألف مرة من الانسياق وراء أقلية مسرفة أو ثلة مــن الســفهاء في ترفههم في الطعام.

)))

سيكون عدم النعمة نعمة

قوة الذاكرة نعمة، ولكن يرجّح عليها النسيان في شخص سفيه وفي زمــن الــبلاء. والنسيان كذلك نعمة، لانه لا يذيق الاّ آلام يوم واحد وينسي الآلام المتراكمة.

)))

في كل مصيبة جهة خير

أيها المبتلى ببلية!

ان نعمةً ما مندرجةٌ ضمن كل مصيبة. لاحظها بدقة لتشاهدها.

اذ كما توجد درجة حرارةٍ في كل شئ، ففي كل مصيبة توجد درجة من النعمة.

شاهد درجة النعمة هذه في البلية الصغرى، وفكّر بالعظمى واشكر ربك الرحيم.

والاّ، فكلما استعظمتها جفلتَ منها، لأنك اذا ما تأسفت عليها تستعظم وتكبر حــتى تتضخم ويصيبك الرعب منها. واذا ما زدتها بالقلق والأوهام، تتوأمتْ بعد ان كانت واحدة،

---

[214] يقع هذا المسجد في حي السلطان محمد الفاتح باستانبول. وقد بناه صاحبه مما ادّخره من الاموال اللازمة لبنائه بقوله: «كأنني أكلت» كلما اشتهت نفسه شيئاً. ومن هنا جاءت التسمية.ـــــ المؤلف(*)

لأن صورتها الوهمية التي في القلب تنقلب الى حقيقة ثم تعود تُنزل بضرباتها الموجعة على القلب.

لا تظهر بزي الكبير فتصغر

يا من يحمل »أنا« مضاعفاً، ويحمل في رأسه غروراً وكبراً! عليك ان تعرف هذا الميزان!

لكل شخص نافذة يطل منها على المجتمع ـــ للرؤية والاراءة ـــ تسمى مرتبة. فاذا كانت تلك النافذة أرفع من قامة قيمته، يتطاول بالتكبر. اما اذا كانت أخفض من قامة همته يتواضع بالتحدّب ويتخفض، حتى يشهد في ذلك المستوى ويشاهَد.

ان مقياس العظمة في الكاملين هو التواضع.

اما الناقصون القاصرون فميزان الصُغر فيهم هو التكبر.

)))

تتغير ماهية الخصال بتغير المنازل

خصلة واحدة في مواضع متباينة وصورة واحدة تكون تارة غولاً بشعاً وتارة مَلَكاً رقيقاً ومرةً صالحة واخرى طالحة. أمثلة ذلك الآتي:

ان عزة النفس التي يشعر بها الضعيف تجاه القوي، لو كانت في القوي لكانت تكبراً وغروراً. وكذا التواضع الذي يشعر به القوي تجاه الضعيف لو كان في الضعيف لكان تذللاً ورياءً.

ان جدّية ولي الأمر في مقامه وقارٌ، اما لينه فذلةٌ.

كما ان جديته في بيته دليل على الكبر، ولينه دليل على التواضع.

ان صفح المرء عن المسيئين وتضحيته بما يملك، عمل صالح. بينما هو خيانة وعمل طالح ان كان متكلماً عن الجماعة.

ان التوكل في ترتيب المقدمات كسل، بينما تفويض الأمر الى الله في ترتّب النتيجة توكل يأمر به الشرع.

ان رضى المرء عن ثمرة سعيه وقسمته قناعةٌ ممدوحة. تقوي فيه الرغبة في مواصلة السعي. بينما الاكتفاء بالموجود قناعة لا ترغب، بل تقاصر في الهمة.

وهناك أمثلة كثيرة على هذا.

فالقرآن الكريم يذكر »الصالحات« و »التقوى« ذكراً مطلقاً. ويرمز في »ابهامهما« الى تأثير المقامات والمنازل. فايجازه تفصيل. وسكوته كلام واسع.

الحق يعلو

ايها الصديق! سألني احدهم ذات يوم:

لما كان »الحق يعلو« أمراً حقاً لا مراء فيه، فلِمَ ينتصر الكافرُ على المسلم، وتغلُب القوة على الحق؟.

قلت: تأمل في النقاط الاربع الآتية، تنحل المعضلة.

»النقطة الاولى:

لا يلزم ان تكون كلُّ وسيلةٍ من وسائل كل حقٍّ حقاً، كما لا يلزم ايضاً ان تكون كلُّ وسيلةٍ من وسائل كلِّ باطلٍ باطلاً.

فالنتيجة اذن: ان وسيلةً حقة (ولو كانت في باطل) غالبةٌ على وسيلةٍ باطلة (ولو كانت في الحق).

وعليه يكون: حقٌ مغلوب لباطل، مغلوبٌ بوسيلته الباطلة، اي مغلـــوبٌ موقتـــاً، والاّ فليس مغلوباً بذاته، وليس دائماً، لأن عاقبة الأمور تصير للحق دوماً.

أما القوة، فلها من الحق نصيبٌ، وفيها سرٌّ للتفوق كامنٌ في خلقتها.

»النقطة الثانية:

بينما يجب أن تكون كلُّ صفةٍ من صفات المسلم مسلمةً مثله، الا ان هذا ليس أمـــراً واقعاً، ولا دائماً!

ومثله، لا يلزم ايضاً ان تكون صفات الكافر جميعها كافرةً ولا نابعةً من كفره.

وكذا الأمر في صفات الفاسق، لا يشترط ان تكون جميعُها فاسقة، ولا ناشئة من فسقه.

إذن، صفةٌ مسلمةٌ يتصف بها كافرٌ تتغلب على صفةٍ غير مشروعة لدى المسلم. وبهـــذه الوساطة (والوسيلة الحقة) يكون ذلك الكافر غالباً على ذلك المسلم (الذي يحمل صفة غـــير مشروعة).

ثم ان حقّ الحياة في الدنيا شامل وعام للجميع. والكفر ليس مانعاً لحق الحياة الذي هو تجلٍ للرحمة العامة والذي ينطوي على سر الحكمة في الخلق.

»النقطة الثالثة:

لله سبحانه وتعالى تجليان ـــــ يتجلى بهما على المخلوقات ـــــ وهما تجليان شرعيان صادران من صفتين من صفات كماله جل وعلا.

اولهما:

الشرع التكويني ـــــ أو السنة الكونية ـــــ الذي هو المشيئة والتقدير الإلهي الصـــادر من صفة »الارادة الإلهية«.

والثاني:

الشريعة المعروفة الصادرة من صفة »الكلام الرباني«.

فكما ان هناك طاعةً وعصياناً تجاه الاوامر الشرعية المعروفة، كـــذلك هنـــاك طاعـــةٌ وعصيانٌ تجاه الاوامر التكوينية.

وغالباً ما يرى الاول ـــــ مطيع الشريعة والعاصي لها ـــــ جزاءه وثوابــه في الـــدار الآخرة. والثاني ـــــ مطيع السنن الكونية والعاصي لها ـــــ غالباً ما ينال عقابه وثوابــه في الدار الدنيا.

فكما ان ثواب الصبر النصرُ.

وجزاء البطالة والتقاعس الذلُّ والتسفّل.

كذلك ثواب السعي الغنى،

وثواب الثبات التغلب.

مثلما ان نتيجة السمِّ المرضُ.

وعاقبةَ الترياقِ والدواء الشفاء والعافية.

وتجتمع احياناً اوامر الشريعتين معاً في شئ.. فلكلٍ جهة.

فطاعةُ الأمر التكويني الذي هو حق، هذه الطاعة غالبة ـــــ لأنها طاعة لأمر إلهي ـــــ على عصيان هذا الأمر بالمقابل، لأن العصيان ـــــ لأي أمر تكويني ـــــ يندرج في الباطـــل ويصبح جزءاً منه.

فاذا ما اصبح حقٌ وسيلةً لباطلٍ فسينتصر على باطلٍ اصبح وسيلةً لحق، وتظهر النتيجة:

حقٌ مغلوب أمام باطل! ولكن ليس مغلوباً بذاته، وانما بوسيلته. اذن فـــــــ »الحـــق يعلو« يعلو بالذات، والعقبى هي المرادة ـــــ فليس العلو قاصراً في الدنيا ـــــ الاّ ان التقيّد والأخذ بحيثيات الحق مقصود ولابد منه.

»النقطة الرابعة:

ان ظلَّ حقٌ كامناً في طور القوة ـــــ اي لم يخرج الى طور الفعل المشاهَد ـــــ أو كان مشوباً بشـــئ آخــــر، أو مغشـــــوشـــــــاً، وتطلّـــب الأمـــر كشـــــــف الحـــق وتـــــزويده بـــقـــــوة جديدة، وجعله خالصاً زكياً، يُسلّط عليه مؤقتاً باطلٌ حتى يخلُـــص الحق ـــــ نتيجة التدافع ـــــ من كل درن فيكون طيباً.

ولتظهر مدى قيمة سبيكة الحق الثمينة جداً.

فاذا ما انتصر الباطل في الدنيا ـــــ في مكان وزمان معينين ـــــ فقد كسب معركـــة و لم يكسب الحرب كلها، لأن »العاقبة للمتقين« هي المآل الذي يؤول اليه الحق.

وهكذ الباطل مغلوب ـــــ حتى في غلبه الظاهر ـــــ وفي »الحق يعلو« ســـرٌّ كـــامن عميق يدفع الباطل قهراً الى العقاب في عقبى الدنيا أو الآخرة، فهو يتطلع الى العقبى. وهكـــذا الحق غالب مهما ظهر انه مغلوب!.

)))

دساتير اجتماعية

ان شئت دساتير في المجتمع فدونك:

ان العدالة التي لا مساواة فيها ليست عدالة اصلاً..

فالتماثل سبب مهم للتضاد.

واما التناسب فهو اساس التساند.

منبع التكبر اظهار صغر النفس

ومنبع الغرور ضعف القلب.

وقد أصبح العجز منشأ الخلاف.

اما حب الاستطلاع فهو استاذ العلم.

الحاجة أم الاختراع.

والضيق معلم السفاهة.

ولقد أصبح الضيق منبع السفاهة. ومنبع الضيق نفسه هو اليأس وسوء الظن.

فالضلالة ضلالة الفكر.

والظلمات تعم القلب.

والاسراف يكون في الأمور الجسدية.

(((

اضلت النساء البشرية بخروجهن من بيوتهن فعليهن العودة اليها

»اذا تأنث الرجال السفهاء بالهوسات اذاً ترجل النساء الناشزات بالوقاحات [215]لقـــد اطلقت المدنية السفيهة النساء من أعشاشهن. وامتهنت كرامتهن. وجعلتهن متاعاً مبذولاً.

بينما شرعُ الاسلام يدعو النساء الى اعشاشهن رحمة بهنّ. فكرامتهن فيها، وراحتهن في بيوتهن وحياتهن في دوام العائلة.

الطهـــر زينتـــهـــن

الخُـــلق هيبتـــهـــن

العـــفة جـــمالهـــن

الشفقة كمالهـــن

الاطفال لهوهـــن.

---

[215] هذه القطعة اساس رسالة «الحجاب» التي أبرزتها المحكمة تهمة لإدانة مؤلفها. الاّ انها ادانت نفسها وحاكميها إدانة ابدية وألزمتهم الحجة.ـــــ المؤلف (*).

ولا تصمد ازاء جميع هذه الاسباب المفسدة الاّ ارادة من حديد.

كلما دخلتْ حسناء في مجلس تسود فيه الأخوة، أثارت فيهم عروق الرياء والمنافسة والحسد والأنانية، فتتنبه الأهواء الراقدة.

ان تكشّف النساء تكشفاً دون قيد، أصبح سبباً لتكشّف اخلاق البشر السيئة وتناميها.

هذه الصور التي هي جنائز مصغرة، وأموات متبسمة، لها دور خطير جداً في الروح الرعناء للانسان المتحضر. بل ان تأثيرها مخيف مرعب. [216]ان الهياكل والتماثيل الممنوعة شرعاً والصور المحرمة، اما انها ظلم متحجر، أو رياء متجسد، أو هوى منجمد. أو طلسم يجلب تلك الأرواح الخبيثة.

(((

سعة تصرف القدرة، تردّ الوسائط

ان شمسنا تصبح كالذرة ازاء تصرف قدرة القدير ذي الجلال وسعة تأثيرها.

ان مساحة تصرفه العظيم في النوع الواحد واسعة جداً.

خذ القوة الجاذبة بين ذرتين، ثم ضعها قرب القوة الجاذبة الموجودة في شمس الشموس وفي درب التبانة.

واجلب المَلَك الذي يحمل حبة البَرَد مع المَلَك الشبيه بالشمس الذي يحمل الشمس.

وضع أصغر سمكة ـــ صغر الابرة ـــ جنب الحوت العظيم وبعد ذلك تصوَّر التجلي الواسع للقدير ذي الجلال واتقانه الكامل في أصغر شئ وفي أكبره.

عندها تعلم ان الجاذبية والنواميس كلها ان هي الاّ وسائل سيالة وأوامر عرفية، وليست الاّ اسماء وعناوين لتجلي القدرة وتصرف الحكمة.

فهذا هو التفسير لا غير.

---

[216] كما ان النظر الى جثة امرأة نظرة شهوانية، دليل على دناءة النفس وخستها، كذلك النظر بشهوة الى صورة جميلة لحسناء ميتة محتاجة الى الرحمة يطمس مشاعر الروح السامية.ـــ المؤلف

فكّر في هذه الأمور معاً تجد بالضرورة؛ ان الاسباب الحقيقية والوسائط المعينة، وكـــذا الشركاء، ما هي الاّ أمور باطلة وخيال محال في نظر تلك القدرة الجليلة.

ان الحياة كمال الوجود.

ولجلالة مقامها أقول:

لِمَ لا تكون كرتنا وعالمنا مسخراً مطيعاً كالحيوان؟

فللّه سبحانه كثير من أمثال هذه الحيوانات الطائرة منتشرة في الفضاء الواســع تنشــر البهاء والجمال والعظمة والهيبة.

انه سبحانه يديرها ويسيّرها في بستان خلقه.

فالنغمات التي تبعثها تلك الكائنات والحركات التي تقوم بها هذه الطيور.. تلك الأقوال والأحوال تسبيحات وعبادات للقديم الذي لم يزل، وللحكيم الذي لا يزال.

ان كرتنا الأرضية كثيرة الشبه بالحيوان، إذ انها تبرز آثار الحياة، فلو صــغرت كبيضــة صغيرة ــــ بفرض محال ــــ لتحولت الى حيوان لطيف.

ولو كبر حيوان مجهرى كروي واصبح كالكرة الأرضية، لصار شبيهاً بها.

فلو صغر عالمنا صغر الانسان وانقلبت نجومه الى ما يشبه الذرات، ربما يكون حيواناً ذا شعور. والعقل يجد مجالاً في هذا الاحتمال.

فالعالَم اذن عابدٌ مسبّح بأركانه،

كل ركن مسخّر مطيع، للخالق القدير القديم.

فليس من الضروري ان يكون الكبير كمّاً كبيراً نوعاً.

بل الساعة الصغيرة صغر الخردل ابدع صنعة وأعظم جزالة من كبيرتها التي هي بكبر (ايا صوفيا)..

فخلق الذبابة أعجب من خلق الفيل.

لو كتب قرآنٌ بقلم القدرة بالجواهر الفردات للأثير على جزءٍ فردٍ، فان دقة صــفحاته تعادل في صنعة الاتقان القرآن الكريم المكتوب بمداد النجوم في صحيفة السماء. فهما سيّان في الجزالة والابداع.

فالصنعة الباهرة بالجمال والكمال للمصور الازلي مبثوثة هكذا في كل جهة، والاتحـــاد الكامل الاتم في كمالها يعلن التوحيد.

خذ هذا الكلام البيّن بعين الاعتبار.

الملائكة أمة مأمورة لتنفيذ الشريعة الفطرية

الشريعة الإلهية اثنتان:

وهما آتيتان من صفتين إلهيتين، والمخاطب انسانان وهما مكلفان بهما.

اولاهما: الشريعة التكوينية الآتية من صفة الارادة الإلهية، وهي الشريعة والمشيئة الربانية التي تنظّم أحوال العالم ــــ الانسان الاكبر ــــ وحركاته التي هي ليست اختيارية. وقــد يطلق عليها خطأً اسم الطبيعة.

اما الأخرى: فهي الشريعة الآتية من صفة الكلام الإلهي، هذه الشريعة تــنظم أفعــال الانسان الاختيارية، ذلك العالم الأصغر. وتجتمع الشريعتان أحياناً معاً.

اما الملائكة فهم أمة عظيمة، جند الله، حَمَلة الشريعة الاولى وممثلوها وممتثلوها.

قسم منهم عباد مسبّحون.

وقسم منهم مستغرقون في العبادة وهم مقربو العرش الأعظم.

)))

كلما رقّت المادة اشتدت الحياة فيها

الحياة أساس الوجود وأصله. والمادة تابعة لها وقائمة بها.

فاذا ما قارنت الحواس الخمس في الانسان والحيوان المجهري تجد:

كم يكبر الانسان عن ذلك المجهري، فان حواسه ادنى من حواسه بالنسبة نفسها. فذلك المجهري يسمع صوت أخيه ويرى رزقه.

فلو كَبُر كبر الانسان لتوسعت حواسه الى حدّ محيّر للالباب. فحياته تنشر الشــعاع، وبصرُه نور سماوي يضاهي البرق.

والانسان نفسه ليس كائناً ذا حياة مركّب من كتلة من موات. بل هو حجيرة كــبيرة مركبة من مليارات من الحجيرات الحية.

(ان الانسان كصورة »يس« كُتب فيها سورة »يس«)

فتبارك الله أحسن الخالقين.

(((

الفلسفة المادية طاعون معنوي

الفلسفة المادية طاعون معنوي، حيث سبّبت في سريان حمّـــى مهلكـــة في البشـــرية، وعرّضها للغضب الإلهي.[217]

فكلما توسعت قابلية التمرد والانتقاد ـــــ بالتلقين والتقليد ـــــ توسّع ذلك الطاعون ايضاً وانتشر.

فانبهار الانسان بالعلوم، وانغماره في تقليد المدنية الحاضرة اعطاه الحرية وروح الانتقاد والتمرد، فظهر الضلال من غروره.

(((

لا تعطُّلَ في الوجود، العاطل يسعى في الوجود في سبيل العدم

ان أشد الناس شقاءً واضطراباً وضيقاً هو العاطل عن العمل، لأن العطل هو »عـــدم« ضمن الوجود، اي موت ضمن حياة.

اما السعي فهو حياة الوجود ويقظة الحياة.

(((

الربا ضرر محض في الاسلام

الربا يسبب العطل، ويطفيء جذوة الشوق الى السعي.

ان ابواب الربا ووسائطه، هذه البنوك، انما تعود بالنفع الى أفسد البشر وأسوأهم. وهم الكفار.. والى أسوأ هؤلاء وهم الظلمة، والى اسوأ هؤلاء وهم أسفههم.

---

[217] اشارة الى الحرب العالمية الاولى.ـــــ المؤلف

ان ضرر الربا على العالم الاسلامي ضرر محض. والشرع لا يرى تحقيق رفاهية البشـــر قاطبة في كل حين.اذ الكافر الحربي، لاحرمة له ولاعصمة لدمه.

)))

القرآن يحمي نفسه بنفسه وينفذ حكمه [218]

رأيت شخصاً قد ابتلي باليأس، وأصيب بالتشاؤم. يقول:

لقد قلّ العلماء في هذه الايام، وغلبت الكميةُ النوعيةَ، نخشى ان ينطفئ ديننا في يوم من الايام.

قلت: كما لا يمكن اطفاء نور الكون ولا يمكن اطفاء ايماننا الاسلامي، كذلك سيسطع الاسلام في كل آن ان لم تطفأ منارات الدين، معابد الله، معالم الشرع، تلك هـــي شـــعائر الاسلام، الاوتاد الراسخة في الارض.

فلقد اضحى كل معبد من معابد الله معلّماً بطبعه يعلّم الطبائع.

وصار كلُ مَعْلَمٍ من معالم الشرع استاذاً، يلقن الدين بلسان حاله. من دون خطـــأ ولا نسيان!

واصبحت كل شَعيرة من شعائر الاسلام، عالماً حكيماً بذاته، يـــدرّس روح الاســـلام ويبسطه امام الانظار بمرور العصور.

حتى كأن روح الاسلام قد تجسم في شعائره. وكأن زلال الاســـلام قـــد تصـــلب في معابده، عموداً سانداً للايمان، وكأن احكام الاسلام قد تجسدت في معالمه. وكـــأن اركـــان الاسلام قد تحجرت في عوالمه، كل ركن عمود من الألماس يربط الارض بالسماء. ولا سيما هذا القرآن العظيم، الخطيب المعجز البيان، يلقي خطاباً ازلياً في اقطار عالم الاسلام.. لم تبقَ ناحيةٌ ولا زاوية الاّ واستمعت له واهتدت بهديه. حتى صار حفظُه مرتبة جليلة يسري فيها سر الآية الكريمة (.. وانا له لحافظون..) وغدت تلاوته عبادة الانس والجان.

---

[218] كأن هذا البحث الذي كتب قبل خمس وثلاثين سنة، قد كتب هذه السنة، فهو اشارة مستقبلية أملتها اذن بركة شهر رمضان.ـــــ المؤلف(*).

فيه تعليم، فيه تذكير بالمسلّمات. اذ النظريات تنقلب الى مسلّمات بمرور الازمان، ثم الى بديهيات حتى لا تدع حاجة الى بيان.

فقد خرجت الضروريات الدينية من طور النظريات. فالتذكير بها اذن كافٍ والتنبيه وافٍ، والقرآن شاف في كل وقت وآن، اذ فيه التنبيه والتذكير.

ويقظة المسلمين وصحوتهم الاجتماعية تسلّم لكل فرد ما يخص العموم من الدلائل، وتضع لهم الميزان.

فايمان كل شخص لا ينحصر بدليله، ولا يستند الوجدان اليه وحده، بل والى اسباب لا تحد في قلب الجماعة ايضاً.

فلئن كان رفض مذهب ضعيف يصعب كلما مرّ عليه الزمن. فكيف بالاسلام الذي هيمن طوال هذه العصور هيمنة تامة، وهو المستنِد الى اساسين عظيمين هما: الوحي الإلهي، والفطرة السليمة.

لقد التحم الاسلام وتغلغل في اعماق نصف المعمورة، بأسسه الراسخة وآثاره الباهرة. فسرى روحاً فطرياً فيه. فأنّى يستُره كسوفٌ وقد انزاح عنه الكسوف تواً.

ولكن وياللاسف يحاول بعض الكفرة البلهاء واهل السفسطة ان يتعرضوا لأسس هذا القصر الشاهق العظيم، كلما سنحت لهم الفرصة.

ولكن هيهات.. فهذه الاسس لا تتضعضع ابداً.

فليخرس الالحاد الآن، ولقد افلس ذلك الديوث.

ألا تكفيه تجربة الكفران ومزاولة الكذب والبهتان.

كانت هذه الدار، دار الفنون (الجامعة). في مقدمة قلاع عالم الاسلام تجاه الكفر والطغيان، بيد أن اللامبالاة والغفلة والعداوة، تلك الطبيعة الثعبانية المنافية للفطرة، شقّت فرجة خلف الجبهة فهاجم منها الالحاد، واهتزت عقيدة الامة ايّ اهتزاز.

فلابد أن تكون طليعة الحصون المستنيرة بروح الاسلام، اكثَرها صلابة وازيدها انتباهاً ويقظة، هكذا تكون والاّ فلا. فلا ينبغي ان يُخدع المسلمون.

ان القـــلب مستـــقر الايمـــان، بينما الدماغ مرآة لنوره، وقد يكون مجاهداً وقد يزاول كنس الشبهات وادران الاوهام.

فان لم تدخل الشبهات التي في الدماغ الى القلب لا يزيغ ايمان الوجدان.

ولو كان الايمان في الدماغ ـــــ كما هو ظن البعض ـــــ فالاحتمـــالات الكـــثيرة والشكوك تصبح اعداءاً ألدّاء لروح الايمان الذي هو حق اليقين.

ان القلب والوجدان محل الايمان.

والحدس والالهام دليل الايمان.

وحسّ سادس طريق الايمان.

والفكر والدماغ حارس الايمان.

تدعو الحاجة الى التذكير بالمسلّمات اكثر من تعليم النظريات

لقد استقرت في القلوب الضروريات، والمسلّمات الشرعية.

ويحصل المطلوب بمجرد التنبيه للاطمئنان، والتذكير للاستشعار. والعبارة العربية [219]تنبّه وتذكّر على أفضل وجه واسماه ولهذا؛ فخطبة الجمعة باللغة العربية كافية ووافية للتنبيه علـــى الضروريات والتذكير بالمسلّمات. اذ تعليم النظريات ليس مقصود الخطبة.

ثم ان هذه العبارة العربية تمثل شعار الوحدة الاسلامية في اعماق وجدان الاسلام الذي يرفض التشتت.

(((

الحديث يقول للآية: بلوغك محال

اذا قارنت بين الحديث والآية، ترى بالبداهة ان أبلغ البشر (وهو مبلّغ الوحي الإلهي) لا يبلغ ايضاً شأوَ بلاغة الآية، فالحديث لا يشبهها.

---

[219] لقد احسّ بحادثة تقع بعد عشر سنوات،فحاول صدها.ــــ المؤلف(*).

(المقصود فرض ايراد خطبة الجمعة باللغة التركية وحظرها باللغة العربية والذي نفّذ في أواخر العشرينات). المترجم.

بمعنى إن ما يصدر من فم النبوة من كلام ليس دائماً كلام النبي.

(((

بيان موجز لاعجاز القرآن

رأيت في الماضي فيما يرى النائم: اني تحت جبل (آرارات). انفلق الجبل على حين غرة، وقذف صخوراً بضخامة الجبال الى انحاء العالم، فهزّ العالم وتزلزل.

وفجأة وقف بجنبي رجل، قال لي: بيّن بايجاز ما تعرفه مجملاً من أنواع الاعجاز... اعجاز القرآن.

فكرتُ في تعبير الرؤيا، وأنا ما زلت فيها وقلت:

ان ما حدث هنا من انفلاق مثالٌ لما يحدث في البشرية من انقلاب، وسيكون هدى القرآن بلا ريب عالياً ومهيمناً في هذا الانقلاب. وسيأتي يوم يبين فيه اعجازه.

أجبتُ ذلك السائل قائلاً:

ان اعجاز القرآن يتجلى من سبعة منابع كلية، ويتركب من سبعة عناصر.

المنبع الأول:

سلاسة لسانه من فصاحة اللفظ؛ اذ تنشأ بارقة بيانه من جزالة النظم، وبلاغة المعنى، وبداعة المفاهيم، وبراعة المضامين، وغرابة الاساليب. فيتولد نقش بياني عجيب، وصنعة لسان بديع، من امتزاج كل هذه في نوع اعجاز لا يملّ الانسان من تكراره أبداً.

أما العنصر الثاني:

فهو الاخبار السماوي عن الغيوب في الحقائق الغيبية الكونية والاسرار الغيبية للحقائق الإلهية. فمن أمور الغيب المنطوية في الماضي، ومن الأحوال المستترة الباقية في المستقبل تنشأ خزينة علم الغيوب. فهو لسان عالم الغيوب يتكلم مع عالم الشهادة، في أركان (الايمان) يبينها بالرموز، والهدف هو نوع الانسان، وما هذا الاّ نوع من لمعة نورانية للاعجاز.

اما المنبع الثالث فهو:

ان للقرآن جامعية خارقة من خمس جهات: في لفظه، في معناه، في أحكامه، في علمه، في مقاصده.

لفظه:يتضمن احتمالات واسعة ووجوهاً كثيرة بحيث ان كل وجهٍ تستحسنه البلاغة، ويستصوبه علم اللغة العربية، ويليق بسر التشريع.

في معناه: لقد أحاط ذلك البيان المعجز بمشارب الأولياء واذواق العارفين ومذاهب السالكين، وطرق المتكلمين، ومناهج الحكماء، بل قد تضمن كلَّها. ففي دلالاته شمولٌ وفي معناه سعة.

فما أوسع هذا الميدان ان أطللت من هذه النافذة!.

الاستيعاب في الاحكام: هذه الشريعة الغراء قد اُستنبطتْ منه، اذ قد تضمن طراز بيانه جميع دساتير سعادة الدارين، ودواعي الأمن والاطمئنان، وروابط الحياة الاجتماعية، ووسائل التربية، وحقائق الأحوال.

استغراق علمه: لقد ضم ضمن سُورِ سوره العلوم الكونية والعلوم الإلهية، مراتب ودلالات ورموزاً واشارات.

في المقاصد والغايات: لقد راعى الرعاية التامة في الموازنة والاطراد والمطابقة لدساتير الفطرة، والاتحاد في المقاصد والغايات، فحافظ على الميزان.

وهكذا الجامعية الباهرة في احاطة اللفظ وسعة المعنى واستيعاب الاحكام واستغراق العلم وموازنة الغايات.

اما العنصر الرابع:

فافاضته النورانيةَ حسب درجة فهم كل عصر، ومستوى أدب كل طبقة من طبقاته وعلى وفق استعدادها ورتب قابليتها.

فبابُه مفتوح لكل عصر ولكل طبقة من طبقاته، حتى كأن ذلك الكلام الرحماني يترل في كل مكان في كل حين.

فكلما شاب الزمان شبّ القرآنُ وتوضحت رموزه، فذلك الخطيب الإلهي يمزق ستار الطبيعة وحجاب الاسباب فيفجّر نورَ التوحيد من كل آية، في كل وقت. رافعاً راية الشهادة شهادة التوحيد على الغيب.

ان علو خطابه يلفت نظر الانسان ويدعوه الى التدبّر؛ اذ هو لسان الغيب يتكلم بالذات مع عالم الشهادة.

يُخلَص من هذا العنصر: أن شبابيته الخارقة شاملة محيطة، وأنسيته جعلته محبوب الانس والجان، وذلك بالتنزلات الإلهية الى عقول البشر لتأنيس الأذهان، والمتنوعة بتنــوع أســاليب التنزيل.

أما المنبع الخامس:

فنُقولُه واخبارُه في اسلوب بديع غزير المعاني، فينقل النقاط الأساس للاخبار الصــادقة كالشاهد الحاضر لها. ينقل هكذا لينبّه بها البشر.

ومنقولاته هي الآتية: اخبار الأولين وأحوال الآخرين وأسرار الجنة والجحيم، حقــائق عالم الغيب، واسرار عالم الشهادة، والاسرار الإلهية والروابط الكونية. تلك الاخبار المشاهَدة شهود عيان حتى انه لا يردّها الواقع ولا يكذّبها المنطق بل لا يستطيع ردّهــا ابــداً ولــو لم يدركها.

فهو مطمَح العالم في الكتب السماوية، اذ ينقل الاخبار عنها مصــدّقاً بهــا في مظــان الاتفاق، ويبحث فيها مصححاً لها في مواضع الاختلاف.

ألا انه لمعجزة هذا الزمان ان يصدر مثل هذه الأمور النقلية من »أميّ«!

اما العنصر السادس:

فانه مؤسس دين الاسلام ومتضمنه. ولن تجد مثل الاسلام ان تحريت الزمان والمكان، لا في الماضي ولا في المستقبل. انه حبل الله المتين، يمسك الأرض لئلا تفلت، ويــديرها دورانــاً سنوياً ويومياً. فلقد وضع وقاره وثقله على الأرض، وساسها وقادها وحال بينها وبين النفور والعصيان.

أما المنبع السابع:

فان الأنوار الستة المفاضة من هذه المنابع الستة يمتزج بعضها مع بعض، فيصدر شــعاع حُسنٍ فائق، ويتولد حدس ذهني، وهو الوسيلة النورانية.

والذي يصدر عن هذا: ذوق، يُدرَك به الاعجاز.

لساننا يعجز عن التعبير عنه، والفكر يقصر دونه.

فتلك النجوم السماوية تُشاهَد ولا تُستمسك.

طوال ثلاثة عشر قرناً من الزمان يحمل أعداء القرآن روح التحدي والمعارضة..

وتولدت في أوليائه واحبائه.. روح التقليد والشوق اليه.

وهذا هو بذاته برهان للاعجاز،

اذ كُتبت من جراء هاتين الرغبتين الشديدتين ملايين الكتب بالعربية، فلو قورنت تلك الملايين من الكتب مع القرآن الكريم، لقال كلُ من يشاهد ويسمع، حتى أكثر الناس عاميـــة، دونك الذكي الحكيم:

ان هذه الكتب بشرية.. وهذا القرآن سماوي.

وسيحكم حتماً:

ان هذه الكتب كلها لا تشبه هذا القرآن ولا تبلغ شأوه قطعاً.

لذا فإما انه أدنى من الكل. وهذا معلوم البطلان وظاهر بالبداهة.

اذن فهو فوق الكل.

ولقد فتح أبوابه على مصراعيه للبشر ونشر مضامينه أمامهم طوال هذه المدة الطويلـــة. ودعا لنفسه الأرواح والأذهان.

ومع هذا لم يستطع البشر معارضته، ولا يمكنهم ذلك. فلقد انتهى زمن الامتحان.

ان القرآن لا يقاس بسائر الكتب ولا يشبهها قطعاً.

اذ نزل في عشرين سنة ونيف نجماً نجماً ـــــ لحكمة ربانية ـــــ لمواقع الحاجات نزولاً متفرقاً متقطعاً. ولأسباب نزول مختلفة متباينة. وجواباً لأسئلة مكررة متفاوتة. وبياناً لحادثات أحكام متعددة متغايرة. وفي أزمان نزول مختلفةمتفارقة. وفي حالات تَلَقٍّ متنوعـــة متخالفـــة. ولأفهام مخاطبين متعددة متباعدة. ولغايات ارشاداتٍ متدرجة متفاوتة.

وعلى الرغم من هذه الأسس فقد أظهر كمال السلاسة والسلامة والتناسب والتســـاند في بيانه وجوابه وخطابه، ودونك علم البيان وعلم المعاني.

وفي القرآن خاصية لا توجد في أي كلام آخر: لأنك اذا سمعت كلاماً من أحدٍ فانـــك ترى صاحب الكلام خلفه أو فيه فالاسلوب مرآة الأنسان.

أيها السائل المثالي!

لقد أردت الاعجاز، وها قد أشرتُ اليه.

وان شئت التفصيل، فذلك فوق حدّي وطوقي. أتقدر الذبابة مشاهدة السماوات؟

وقد بيّن كتاب (اشارات الاعجاز) واحداً من أربعين نوعاً من ذلك الاعجاز، ولم تفِ مائة صفحة من تفسير لبيان نوع واحد.

بل أنا الذي أريد منك التفصيل، فقد تفضّل المولى عليك بفيضٍ من الهامات روحية.

لا تبلغ يد الأدب الغربي ذي الاهواء والنزوات والدهاء..

شأن أدب القرآن الخالد ذي النور والهدى والشفاء.

اذ الحالة التي ترضى الأذواق الرفيعة للكاملين من الناس وتُطمئنهم، لا تسرّ أصـــحاب الاهواء الصبيانية وذوي الطبائع السفيهة، ولا تسلّيهم، فبناءً على هذه الحكمة؛

فان ذوقاً سفيهاً سافلاً، ترعرع في حمأة الشهوة والنفسانية، لا يستلذ بالذوق الروحي، ولا يعرفه أصلاً.

فالأدب الحاضر؛ المترشح من أدب أوروبا، عاجز عن رؤية ما في القرآن الكـــريم مـــن لطائف عالية ومزايا سامية، من خلال نظرته الروائية، بل هو عاجز عـــن تـــذوقها، لـــذا لا يستطيع ان يجعل معياره محكّاً له.

والأدب يجول في ثلاثة ميادين، دون ان يحيد عنها:

ميدان الحماسة والشهامة..

ميدان الحسن والعشق..

ميدان تصوير الحقيقة والواقع..

فالأدب الأجنبي:

في ميدان الحماسة؛

لا ينشد الحق، بل يلقّن شعور الافتتان بالقوة بتمجيده جَور الظالمين وطغيانهم.

وفي ميدان الحسن والعشق؛

لا يعرف العشق الحقيقي، بل يغرز ذوقاً شهوياً عارماً في النفوس.

وفي ميدان تصوير الحقيقة والواقع؛

لا ينظر الى الكائنات على انها صنعة إلهية، ولا يراها صبغة رحمانية، بل يحصر همه في زاوية الطبيعة ويصور الحقيقة في ضوئها، ولا يقدر الفكاك منها.. لذا يكون تلقينه عشق الطبيعة، وتأليه المادة، حتى يمكّن حبها في قرارة القلب، فلا ينجو المرء منه بسهولة.

ثم ان ذلك الأدب المشوب بالسفه، لا يغني شيئاً عن اضطرابات الروح وقلقها الناشئة من الضلالة والواردة منه أيضاً، ولربما يهدئها وينيّمها.

وفي حسبانه انه قد وجد حلاً، وكأن العلاج الوحيد، وهو رواياته. وهي:

في كتاب.. ذلك الحي الميت.

وفي سينما.. وهي أموات متحركة.

وفي مسرح.. الذي تبعث فيه الأشباح وتخرج سراعاً من تلك المقبرة الواسعة المسماة بالماضي!

هذه هي أنواع رواياته.

وأنّى للميت ان يهب الحياة!..

وبلا خجل ولا حياء!.. وضع الأدب الأجنبي لساناً كاذباً في فم البشر.. وركّب عيناً فاسقة في وجه الانسان.. وألبس الدنيا فستان راقصة ساقطة.

فمن أين سيعرف هذا الأدب؛ الحسنَ المجرد.

حتى لو أراد ان يُري القارئ الشمسَ؛ فانه يذّكره بممثلة شقراء حسناء.

وهو في الظاهر يقول: »السفاهة عاقبتها وخيمة، لا تليق بالانسان«..

ثم يبين نتائجها المضرة..

الاّ انه يصورها تصويراً مثيراً الى حد يسيل منه اللعاب، ويفلت منه زمام العقل، اذ يضرم في الشهوات، ويهيج النزوات. حتى لا يعود الشعور ينقاد لشئ.

* اما أدب القرآن الكريم:

فانه لا يحرك ساكن الهوى، لا يثيره، بل يمنح الانسان الشعور بنشدان الحق وحبه، والافتتان بالحسن المجرد، وتذوّق عشق الجمال، والشوق الى محبة الحقيقة.. ولا يخدع أبداً.

فهو لا ينظر الى الكائنات من زاوية الطبيعة، بل يذكرها صنعة إلهية، صبغة رحمانية، دون ان يحير العقول.

فيلقّن نور معرفة الصانع..

ويبين اياته في كل شئ..

والأدبان.. كلاهما يورثان حزناً مؤثراً. الاّ انهما لا يتشابهان.

فما يورثه أدب الغرب هو حزن مهموم، ناشئ من فقدان الأحباب، وفقدان المالك. ولا يقدر على منح حزن رفيع سامٍ .

اذ استلهام الشعور من طبيعة صماء، وقوة عمياء يملاؤه بالالام والهموم حتى يغدو العالم مليئاً بالاحزان، ويلقي الانسان وسط اجانب وغرباء دون أن يكون له حامٍ ولامالك! فيظل في مأتمه الدائم..

وهكذا تنطفىء أمامه الآمال.

فهذا الشعور المليئ بالأحزان والآلام يهيمن على كيان الانسان، فيسوقه الى الضلال، والى الالحاد، والى انكار الخالق.. حتى يصعب عليه العودة الى الصواب، بل قد لا يعود أصلاً.

أما أدب القرآن الكريم:

فانه يمنح حزناً سامياً علوياً، ذلك هو حزن العاشق، لا حزن اليتيم.. هذا الحزن نابع من فراق الأحباب، لا من فقدانهم.

ينظر الى الكائنات؛ على أنها صنعة إلهية، رحيمة، بصيرة بدلاً من طبيعة عمياء. بل لا يذكرها اصلاً، وانما يبين القدرة الإلهية الحكيمة، ذات العناية الشاملة، بدلاً من قوة عمياء.

فلا تلبس الكائنات صورة مأتم موحش، بل تتحول ـــ امام ناظريه ـــ الى جماعة متحابّة، اذ في كل زاوية تجاوب. وفي كل جانب تحابب. وفي كل ناحية تآنس.. لا كدر ولا ضيق.

هذا هو شأن الحزن العاشقي.

وسط هذا المجلس يستلهم الانسان شعوراً سامياً، لا حزناً يضيق منه الصدر.

الأدبان.. كلاهما يعطيان شوقاً وفرحاً.

فالشوق الذي يعطيه ذلك الأدب الأجنبي؛ شوق يهيج النفس، ويبسط الهوس.. دون ان يمنح الروح شيئاً من الفرح والسرور.

بينما الشوق الذي يهبه القرآن الكريم؛ شوق تهتز له جنبات الروح، فتعــرج بــه الى المعالي.

وبناءً على هذا السر:

فقد نهت الشريعة الغراء عن اللهو، وما يُلهي.. فحرّمت بعض آلات اللهو، واباحـت أخرى.

بمعنى:

ان الآلة التي تؤثر تأثيراً حزيناً حزناً قرآنياً وشوقاً تنزيلياً، لا تضر. بينمـا ان أثـرت في الانسان تأثيراً يتيمياً وهيّجت شوقاً نفسانياً شهوياً. تحرم الآلة.

تتبدل حسب الاشخاص هذه الحالة..

والناس ليسوا سواء.

(((

الاغصان تقدم الثمرات باسم الرحمة الالهية

ان اغصان شجرة الخليقة تقدم ثمرات النعم وتوصلها ظاهراً الى أيدي الأحياء في كـل ناحية من أنحاء العالم.

بل تقدم اليكم تلك الثمرات بتلك الاغصان من يد الرحمة ويد القدرة.

فقبّلوا يد الرحمة تلك، بالشكر،

وقدّسوا يد القدرة تلك، بالامتنان.

بيان الطرق الثلاث المشار اليها في ختام سورة الفاتحة

يا اخي! يا من امتلأ صدره بالامل المشرق! امسكْ خيالك في يدك، وتعال معي.. نحن الآن في ارض واسعة، ننظر الى جوانبها، دون ان يرانا أحد، ولكن اُلقي علينا غيم اسود مظلم

فهبط على جبالٍ شمٍ، حتى غطى وجه ارضنا بالظلمات، بل كأنه سقف صلب كثيف.. الاّ انه سقف تُرى الشمس من جهته الاخرى.

ولكننا نحن تحت ذلك الغيم الكثيف، لا نكاد نطيق ضيق الظلمات، ويخنقنا الضجر والانقباض، ففقدان الهواء مميت!.

واذ نحن في هذه الحالة من الضيق الخانق انفتحت امامنا ثلاث طرق تؤدي الى ذلك العالم المضئ. ولقد اتيناه مرةً وشاهدناه من قبل. فمضينا من الطرق الثلاث، كل على انفراد:

* الطريق الاولى:

معظم الناس يمرون منها، فهي سياحة حول العالم؛ والسياحة تشدّنا اليها.. فها نحن ندرج في الطريق نسير مشياً على الاقدام.. فها تجاهنا بحار الرمال في هذه الصحراء الواسعة.. انظر كيف تغضب علينا. وتستطير غيظاً وتزجرنا زجراً.. وانظر الى امواجٍ كالجبال لهذا البحر العظيم.. انها تحتد علينا وها نحن في الجهة الاخرى.. والحمد للّه. نتنفس الصعداء.. نرى وجه الشمس المضئ. ولكن لا أحد يقدّر مدى ما قاسينا من اتعاب وآلام.

ولكن وا أسفى! لقد رجعنا مرة ثانية الى هذه الارض الموحشة التي اطبقت عليها الغيوم بالظلمات ونحن احوج ما نكون الى عالم مضئ يفتح بصيرتنا.

ان كنت ذا شجاعة فائقة فرافقني في الطريق المليئة بالمخاطر، سنخوضها بشجاعة.

وهي طريقنا الثانية:

نثقب طبيعة الارض، ننقب فيها لننفذ ونبلغ الجهة الاخرى. نمضي في انفاق فطرية في الارض والخوف يحيطنا.. فلقد شاهدتُ ـــ في زمن ما ـــ هذه الطريق ومضيت فيها بوجل واضطراب ولكن كانت في يدي آلة أو مادة تذيب ارض الطبيعة وتخرقها وتمهد السبيل.. تلك المادة اعطانيها القرآن الكريم في الطريق الثالثة.

يا اخي! لا تتركني. اتبعني. لا تخف ابداً. انظر فها امامك كهوف ومغارات كالانفاق تحت الارض، تنتظرنا وتسهّل لنا الطريق الى الجهة الاخرى.

لا تروعك صلابة الطبيعة، فان تحت ذلك الوجه العبوس القمطرير وجه مالكها الباسم. ان تلك المادة القرآنية مادة مشعة كالراديوم.

بشراك يا اخي! فلقد خرجنا الى العالم المنور.. انظر الى الارض الجميلة، والسماء اللطيفة المزينة.. الا ترفع رأسك يا أخي لتشاهد هذا الذي غطى وجه السماء كلها وسما عليها وعلى الغيوم. انه القرآن الكريم.. شجرة طوبى الجنة.. مدّت اغصانها الى ارجاء الكون كله. وما علينا الاّ التعلق بهذا الغصن المتدلي والتشبث به، فهو بقربنا ليأخذنا الى هناك.. الى تلك الشجرة السماوية الرفيعة.

ان الشريعة الغراء نموذج مصغر من تلك الشجرة المباركة.

فلقد كان باستطاعتنا اذن بلوغ ذلك العالم المضئ بتلك الطريق.. طريق الشريعة، من دون ان نرى صعوبة وكللاً.

بيد أننا اخطأنا السير. فلنرجع القهقرى الى ما كنا فيه لنسلك الطريق المستقيم.. فانظر فها هي:

* طريقنا الثالثة:

الداعية العظيم يقف منتصباً على هذه الشواهق الراسية.. انه ينادي مؤذناً بجيهلوا الى عالم النور.. انه يشترط علينا الدعاء والصلاة.. انه المؤذن الاعظم محمد الهاشمي)ص(.

انظر الى هذه الجبال.. جبال الهدى، وقد اخترقت الغيوم، انها تناطح السموات.

وانظر الى جبال الشريعة الشاهقة انها جمّلت وجه ارضنا وأزهرتها. وعلينا أن نحلّق بالهمة لنرى الضياء هناك ونرى نور الجمال.

نعم! فها هنا.. اُحُد التوحيد.. ذلك الجبل الحبيب العزيز.

وها هناك.. جودي الاسلام.. ذلك الجبل الاشم.. جبل السلامة والاطمئنان.

وها هو جبل القمر، القرآن الازهر.. يسيل منه زلال النيل. فاشرب هنيئاً ذلك الماء العذب السلسبيل.

فتبارك الله أحسن الخالقين. وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

فيا اخي!

اطرح الآن الخيال، وتقلّد العقل.

ان الطريقين الأُوليين، هما طريق: »المغضوب عليهم والضالين« ففيهما مخاطر كـــثيرة، فهما شتاء دائم لا ربيع فيهما. بل ربما لا ينجو الاّ واحد من مائة شخص قد سلك فيهما.. كأفلاطون وسقراط.

أما الطريق الثالثة: فهي سهلة قصيرة، لأنها مستقيمة، الضعيف والقوي فيهـــا ســـيّان. والكل يمكنه ان يمضي فيها.

أما أفضل الطرق واسلمها فهو:

ان يرزقك الله الشهادة أو شرف الجهاد.

فها نحن الآن على عتبة النتيجة.

ان الدهاء العلمي يسلك في الطريقين الأوليين.

أما الهدى القرآني، وهو الصراط المستقيم، فهو الطريق الثالثة فهي التي تبلغنا هناك.

اللّهم اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين انعمت عليهم غير المغضـــوب علـــيهم ولا الضالين. آمين.

(((

كل الالام في الـــضلالة وكل اللذائذ في الايمان

»حقيقة كبرى تزيّت بزي الخيال«

ايها الصديق الفطن!

ان شئت ايها العزيز ان ترى الفرق الواضح بين »الصراط المستقيم« ذلك المسلك المنور »وطريق المغضوب عليهم والضالين« ذلك الطريق المظلم! تناول اذن يا اخي وهْمَك واركب متن الخيال. سنذهب سوية الى ظلمات العدم، تلك المقبرة الكبرى المليئة بالاموات. ان القدير الجليل قد أخرجنا من تلك الظلمات بيد قدرته، واركبنا هذا الوجود، وأتى بنـــا الى هـــذه الدنيا.. الخالية من اللذة الحقة.

فها نحن قد اتينا الى هذا العالم، عالم الوجود.. هذه الصحراء الواسعة. وأعيُننا قد فُتحت فنظرْنا الى الجهات الست، وصوّبنا نظرنا الى الامام واذا البلايا والالام تريد الانقضاض علينا كالاعداء.. ففزعنا منها، وتراجعنا عنها.

ثم نظرنا الى اليمين والى الشمال مسترحمين العناصر والطبائع، فرأيناها قاسية القلوب لا رحمة فيها، وقد كشرت عن اسنانها تنظر الينا بنظرات شزرة. لا تسمع دعاءً ولا تلين بكثرة التوسل. فرفعنا ابصارنا مضطرين الى الاعلى مستمدين العون من الاجرام، ولكن رأيناها مرعبة مهيبة، تهددنا، اذ انها كالقذائف المنطلقة تسير بسرعة فائقة تجوب بها انحاء الفضاء، من دون اصطدام! يا تُرى لو أخطأت سيرها وضلّت، اذاً لانفلق كبد العالم، عالم الشهادة. والعياذ باللّه. أليس امره موكولاً الى المصادفة، هل يأتي منها خير؟! فصرفنا انظارنا عن هذه الجهة يائسين، ووقعنا في حيرة أليمة، وخفضنا رؤوسنا وفي صدورنا استترنا، ننظر الى نفوسنا ونطالع ما فيها.. فاذا بنا نسمع ألوف صيحات الحاجات والوف أنّات الفاقات، تنطلق كلها من نفوسنا الضعيفة. فنستوحش منها في الوقت الذي ننتظر منها السلوان، لاجدوى اذن من هذه الجهة كذلك. لجأنا الى وجداننا، نبحث عن دواء. ولكن وا أسفاه لا دواء. بل علينا وقع العلاج، اذ تجيش فيه الوف الآمال والرغبات والوف المشاعر والنزعات، الممتدة الى اطراف الكون.. تراجعنا مذعورين.. نحن عاجزون عن اغاثتها. فلقد تزاحمت الآمال في الانسان حتى امتدت اطرافها من الازل الى الأبد، بل لو ابتلعت الدنيا كلها لما شبعت.

وهكذا اينما ولّينا وجوهنا، قابَلَنا البلاء.. هذا هو طريق »الضالين والمغضوب عليهم« لأن النظر مصوّب الى المصادفة والضلال.

وحيث أننا قلّدنا ذلك المنظار، وقعنا في هذه الحال، ونسينا موقتاً الصانع والحشر والمبدأ والمعاد. انها أشد ايلاماً للروح من جهنم واشد احراقاً منها.. فما جنينا من تلك الجهات الست الاّ حالة مركبة من خوف واندهاش وعجز وارتعاش وقلق واستيحاش مع يتم ويأس.. تلك التي تعصر الوجدان..

فلنحاول دفعها ولنجابهها..

فنبدأ مقدماً بالنظر الى قدرتنا. فوا أسفاه! انها عاجزة ضعيفة.

ثم نتوجه الى تطمين حاجات النفس العطشى، تصرخ دون انقطاع ولكن ما من مجيب ولا من مغيث لإسعاف تلك الآمال التي تستغيث!

فظننا كل ما حولنا اعداءً.. كل شئ غريب. فلا نستأنس بشـــئ، ولا شـــئ يبعـــث الاطمئنان.. فلا متعة ولا لذة حقيقية.

ومن بعد ذلك كلما نظرنا الى الاجرام، امتلأ الوجدان خوفاً وهلعاً ووحشة، والعقـــول اوهاماً وريباً.

فيا أخي!

هذه هي طريق الضلال. وتلك ماهيتها. فلقد رأينا فيها ظلام الكفر الدامس.

هيا الآن يا اخي لنرجع الى العدم، ثم لنعود منه، فطريقنا هـــذه المـــرة في »الصـــراط المستقيم« ودليلنا العناية الإلهية، وإمامُنا القرآن الكريم.

نعم! لما ارادنا المولى الكريم، اخرجتنا قدرتُه من العدم، رحمةً منه وفضلاً. واركبنا قانون المشيئة الإلهية، وسيّرنا على الاطوار والادوار.. ها قد أتى بنا، وخلع علينا خلعة الوجود وهو الرؤوف، واكرمنا مترلة الأمانة، شارتُها الصلاة والدعاء.

كل دور وطور مترل من منازل الضعف في طريقنا الطويلة هذه، وقد كتب القدر على جباهنا أوامره لتيسير امورنا، فاينما حللنا ضيوفاً نُستقبل بالترحاب الاخوى. نســـلّمهم مـــا عندنا ونتسلّم من اموالهم.. هكذا تجري التجارة في محبة ووئام. يغذّوننا، ثم يحمّلوننا بالهدايا، ويشيّعوننا.. هكذا سرنا في الطريق، حتى بلغنا باب الدنيا، نسمع منها الاصوات.

وها قد اتيناها ودخلناها، وطأت اقدامنا عالم الشـــهادة، معـــرض الـــرحمن، مشـــهر مصنوعاته، وموضع صخب الانسان وضجيجه. دخلناها ونحن جاهلون بكل ما حولنا، دليلنا وإمامنا مشيئة الرحمن، ووكيلها عيوننا اللطيفة.

ها قد فتحت عيونُنا، أجلناها في اقطار الدنيا.. أتذكر مجيئنا السابق الى ههنا؟ كنا ايتاماً غرباء، بين اعداء لا يعدّون من دون حامٍ ولا مولى.

أما الآن، فنور الايمان »نقطة استناد« لنا، ذلك الركن الشديد تجاه الاعداء.

حقاً، ان الايمان بالله نورحياتنا، ضياء روحنا، روح ارواحنا، فقلوبنا مطمئنة بالله لا تعبأ بالاعداء، بل لا تعدّهم اعداء.

في الطريق الاولى، دخلنا الوجدان، سمعنا الوف الصيحات والاستغاثات، ففزعنا مـــن البلاء. اذ الآمال والرغبات والمشاعر والاستعدادات لا ترضى بغير الأبد. ونحن نجهل ســـبيل اشباعها. فكان الجهل منا، والصراخ منها.

أما الآن، فاللّه الحمد والمنة، فقد وجدنا »نقطة استمداد« تبعـــث الحيـــاة في الآمـــال والاستعدادات، وتسوقها الى طريق أبد الآباد. فيتشرب الاستعداد منها والآمال ماء الحيـــاة، وكلٌ يسعى لكماله.

فتلك النقطة المشوقة، نقطة الاستمداد، هي القطب الثاني من الايمان، وهـــو الايمـــان بالحشر. والسعادة الخالدة هي درّة ذلك الصدف.

ان برهان الايمان هو القرآن والوجدان، ذلك السر الانساني.

ارفع رأسك يا اخي، وألق نظرة في الكائنات، وحاورها، أما كانت موحشة في طريقنا الاولى والآن تبتسم وتنشر البشر والسرور؟ الا ترى قد اصبحت عيوننا كالنحلة تطير الى كل جهة في بستان الكون هذا، وقد تفتحت فيه الازهار في كل مكان، وتمنح الرحيق الطهـــور. ففي كل ناحية انس وسلوان، وفي كل زاوية محبة ووئام.. فهي ترتشف تلك الهدايا الطيبـــة، وتقطّر شهد الشهادة، عسلاً على عسل.

وكلما وقعت انظارنا على حركات النجوم والشموس، تسلِّمها الى يد حكمة الخالق، فتستلهم العبرة وجلوة الرحمة. حتى كأن الشمس تتكلم معنا قائلة:

»يا اخوتي! لا تستوحشوا مني ولا تضجروا! فأهلاً وسهلاً بكم. فقد حللـــتم أهـــلاً ونزلتم سهلاً. انتم اصحاب المترل، وانا المأمور المكلف بالاضاءة لكم. انا مثلكم خادم مطيع سخرّني الأحد الصمد للاضاءة لكم، بمحض رحمته وفضله. فعليّ الاضاءة والحرارة وعلـــيكم الدعاء والصلاة.

فيا هذا! هلاّ نظرت الى القمر.. الى النجوم.. الى البحار.. كل يرحب بلسانه الخـــاص ويقول: حياكم وبياكم. فأهلاً وسهلاً بكم!

فانظر يا اخي بمنظار التعاون، واستمع بصماخ النظام، كل منها يقول: »نحـــن ايضـــاً خدّام مسخرون. نحن مرايا رحمة الرحمن. لا نسأم من العمل ابداً. لا تتضايقوا منا«.

فلا تخيفنكم نعرات الزلازل وصيحات الحوادث، فهي ترنمـــات الاذكـــار ونغمـــات التسبيحات، وهاليل التضرعات.. نعم ان الذي ارسلكم الى هنا، هو ذلك الجليل الجميل الذي بيده زمام كل اولئك.. ان عين الايمان تقرأ في وجوهها آيات الرحمة.

ايها المؤمن ياذا القلب اليقظ!

ندع عيوننا لتخلد الى شئ من الراحة، ونسلّم آذاننا للايمان بدلاً منها.

ولنستمع من الدنيا الى نغمات لذيذة.. فالاصوات التي كانت تتعالى في طريقنا السابقة ـــــ وظنناها اصوات مآتم عامة ونعيات الموت.. هي اصوات اذكار في هذه الطريق وتسابيح وحمد وشكر.

فترنمات الرياح ورعدات الرعود ونغمات الامواج.. تسبيحات سامية جليلة وهزجات الامطار وسجعات الاطيار.. هاليل رحمة وعناية..

كلها مجازات تومئ الى حقيقة.

نعم! ان صوت الاشياء، صدى وجودها، يقول: انا موجود.

وهكذا تنطق الكائنات كلها معاً وتقول: ايها الانسان الغافل لا تحســبنا جامـــدات! فالطيور تنطق، في تذوق نعمة، أو نزول رحمةٍ فتزقزق باصوات عذبة، بافواه دقيقة ترحابـــاً بنزول الرحمة المهداة. حقاً النعمة تترل عليها، والشكر يديمها، وهي تقـــول رمـــزاً: ايتـــها الكائنات! يا اخوتي! ما اطيب حالنا! ألا نُربّى بالشفقة والرأفة.. نحن راضون عما نحن عليـــه من احوال.. وهكذا تبث اناشيدها بمناقيرها الدقيقة، حتى تحول الكائنات كلها الى موســيقى رفيعة.

ان نور الايمان هو الذي يسمع اصداء الاذكار وانغام التسابيح، حيث لا مصـــادفة ولا اتفاقية عشواء.

ايها الصديق!

ها نحن نغادر هذا العالم المثالي، ونقف على عتبة العقل وندخل ميدانه، لـــترن الامـــور بميزانه كي نميّز الطرق المختلفة.

فطريقنا الاولى: طريق المغضوب عليهم والضالين. تورث الوجدان حساً أليماً وعـــذاباً شديداً حتى في اعمق اعماقه، فتطفح تلك المشاعر المؤلمة الى الوجوه، فنخادع انفسنا مضطرين للنجاة من تلك الحالة، ونحاول التسكين والتنويم وابطال الشعور وإلغائه.. وإلاّ لا نطيق تجـــاه استغاثات وصيحات لا تنقطع! فالهوى يبطل الحس ويخدّر الشعور، والشـــهوات الســـاحرة تطلب اللهو، كي تخدع الوجدان وتستغفله وتنيم الروح وتسكّنها لئلا تشعر بالألم. لأن ذلك الشعور يحرق الوجدان حتى لا يكاد يطاق صراخه من شدة الالم.. ألا ان ألم اليأس لا يطاق حقاً!

اذ كلما ابتعد الوجدان عن الصراط المستقيم اشتدت عليه تلك الحالة، حتى ان كل لذة تترك أثراً من الألم، ولا تجدي بهرجة المدنية الممزوجة بالشهوات والهوى واللهو.. انها مـــرهم فاسد وسمّ منوّم للضيق الذي يولده الضلال.

فيا صديقي العزيز!

لقد شعرنا بالراحة من حالتنا في الطريق الثانية المنورة، فتلك هي منبع اللذات وحيـــاة الحياة، بل تنقلب فيها الآلام الى لذائذ.. هكذا عرفناها، فهي تبعث الاطمئنان الى الروح ـــــ حسب قوة الايمان ـــــ والجسد متلذذ بلذة الروح، والروح تتنعم بنعم الوجدان.

ان في الوجدان سعادة عاجلة مندرجة فيه، انها فردوس معنوي منـــدمج في ســـويداء القلب. والتفكر يقطّرها ويذيقها الانسان. أما الشعور فهو الذي يُظهرها.

ونعلم الآن: انه بمقدار تيقظ القلب، وحركة الوجدان، وشعور الروح، تـــزداد اللـــذة والمتعة، وتنقلب نار (الحياة) نوراً وشتاؤها صيفاً.

وهكذا تنفتح ابواب الجنان على مصراعيها في الوجدان، وتغدو الدنيا جنة واسعة تجول فيها ارواحنا، بل تعلو علو الصقور، بجناحي الصلاة والدعاء.

واستودعكم الله يا صديقي الحميم. ولندع معاً كلٌ لأخيه. نفترق الآن والى لقاءٍ.

اللّهم اهدنا الصراط المستقيم.

)))

جواب موجّه الى الكنيسة الانكليكية

سأل ذات يوم قسيس حاقد، ذلك السياسي الماكر، العدوّ الألدّ للاسلام، عن اربعة امور طالباً الإجابة عنها في ستمائة كلمة. سألها بغية اثارة الشبهات، مستنكراً ومتعالياً، وبشماتة متناهية، وفي وقت عصيب حيث كانت دولته تشد الخناق في مضايقنا.

فينبغي الإجابة بـ: تباً لك! تجاه شماتته، وبالسكون عليه بسخط تجاه مكره ودسيسته، فضلاً عن جواب مسكت يترل به كالمطرقة تجاه انكاره. فأنا لا أضعه موضع خطابي، بل اجوبتنا لمن يلقي السمع وينشد الحق وهي الاتية:

فلقد قال في السؤال الأول: ما دين محمد)ص(؟. قلت: انه القرآن الكريم. أساس قصده ترسيخ اركان الايمان الستة وتعميق اركان الاسلام الخمسة.

ويقول في الثاني: ماذا قدّم للفكر وللحياة؟ قلت: التوحيد للفكر، والاستقامة للحياة. وشاهدي في هذا: قوله تعالى (قل هو الله أحد) (فاستقم كما أُمرت).

ويقول في الثالث: كيف يعالج الصراعات الحاضرة؟. اقول: بتحريم الربا وفرض الزكاة. وشاهدي قوله تعالى: (واحل الله البيع وحرم الربا) (يمحق الله الربا) (واقيموا الصلاة واتوا الزكاة).

ويقول في الرابع: كيف ينظر الى الاضطرابات البشرية؟ اقول: السعي هو الاساس، والاّ تتكدس ثروة الانسان بيد الظالمين، ولا يكتروها. وشاهدي قوله تعالى: (وأن ليس للانسان الاّ ما سعى) (والذين يكترون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم) [220].

[220] ما شاء الله على هذا الجواب بمائة مرة. - المؤلف.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا فرد، يا حي، يا قيوم، يا حكم، يا عدل. يا قدوس

بحق الاسم الاعظم وبحرمة القرآن المعجز البيان وبكرامة الرسول الاعظم)ص(، ادخل الذين قاموا بطبع هذه المجموعة ومعاونيهم الميامين جنة الفردوس والسعادة الابدية.. آمين. ووفّقهم في خدمة الايمان والقرآن دوماً وابداً.. آمين واكتب في صحيفة حسناتهم ألف حسنة لكل حرف من حروف كتاب »الكلمات«... آمين. وأحسن اليهم الثبات والدوام والاخلاص في نشر رسائل النور.. آمين

يا ارحم الراحمين! آت جميع طلاب النور في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة.. آمين. واحفظهم من شر شياطين الجن والانس.. آمين. واعف عن ذنوب هذا العبد العاجز الضعيف سعيد.. آمين

بإسم جميع طلاب النور

سعيد النورسي

باسمه سبحانه

لقد كانت ترجمة كليات رسائل النور الى اللغة العربية ونشرها غاية المنى لمؤلّفها الاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، وقد حث عليها في رسائل عديدة. حتى أنه كان يأمل قيام علماء من الازهر أو من بلاد الشام على ترجمة »مجموعة عصا موسى«. وقبل ارتحاله الى دار البقاء ارسل احد طلبته الى العراق ومصر بغية الاتصال بالعلماء هناك على أمل الشروع بترجمة الرسائل. وفعلاً تمت ترجمة ونشر عدد قليل من رسائل صغيرة في الشام.

ولما درّس الاستاذ من كان حوله من الطلاب »المثنوي العربي النوري« و تفسير »اشارات الاعجاز« وهما مؤلفان باللغة العربية، أمر بطبعهما (بالرونيو) ونشرهما، كما بعث »المثنوي العربي النوري« الى علماء في العالم ولا سيما الى علماء في العالم الاسلامي. وقد نشرت وقتئذٍ بعض الرسائل من قبل عدد من الفضلاء.

أما الآن فقد ظهرت ولله الحمد، الترجمة الأمينة الكاملة لكليات رسائل النور بفضل الله وكرمه وشمول عنايته، بجهود ذوي علم فاضلين متعاونين مخلصين صادقين وهمتهم كشخص معنوي جاد وهيئة علمية دؤوبة، اذ قام الأخ احسان قاسم الصالحي واخوة صادقون معه في خدمة نور القرآن والايمان بترجمتها ونشرها.

ومن التوافق العجيب والتشابه الغريب أن تظهر هذه المترجمات في ظروف عصيبة واوقات صعبة تمر على العراق شبيهة تماماً بالسنين الحالكة الاولى لتأليف رسائل النور. ولم تظهر هذه المترجمات إلا بفضل إمداد معنوي وحماية شاملة ورعاية تامة القتها رحمة الرحمن الرحيم على اولئك الاخوة الصادقين فوجّهت انظارهم الى حقائق رسائل النور وعزفتهم عن الاحداث السياسية المتقلبة. وهكذا تجلت العناية الربانية، فبذلوا ما وسعهم لنشر انوار القرآن والايمان، واصبحت الادعية المرفوعة من انحاء العالم الاسلامي والتهاني القلبية بظهور المترجمات مدداً لهم يشد من عزائمهم على مواصلة العمل. فللّه الحمد والمنة ان تمت ترجمة كليات رسائل النور على هذه الصورة الكاملة وعرضت أمام انظار العالم الاسلامي على هيئة مجموعات.

ولما كان استاذنا المحترم بديع الزمان سعيد النورسي يكتب دعاءً جامعاً ختام كل مجموعة من مجموعات رسائل النور المنشورة، لذا ثبّتنا الدعاء نفسه اعلاه لما نعتقد بأن كتابته ختام المترجمات العربية ايضاً كانت من رغبات استاذنا المعنوية.

ونلفت نظر القراء الكرام الى ما يأتي:

كان استاذنا يقول: ان رسائل النور درس قرآني يوافق أفهام هذا العصر. وقد علق هذه اللوحة على ظهر الباب الخارجي لمحل اقامته في كل من اسبارطة واميرداغ، وكان يستقرئها كل زائر له:

الى جميع اخوتي الاعزاء الراغبين في مقابلتي وزيارتي ابيّن لهم الاتي:

انني لا اطيق مقابلة الناس ما لم تكن هناك ضرورة، اذ التسمم الحالي، والضعف الذي اعترى جسمي، وكذا الشيخوخة والمرض.. كل ذلك جعلني عاجزاً عن التكلم كثيراً. ولأجل هذا ابلّغكم يقيناً أن كل كتاب من رسائل النور انما هو »سعيد«. فما من رسالة تطالعونها إلاّ

وتستفيدون فوائد افــضل من مواجهتي بعشرة اضعاف، بل تواجهونني مواجهة حقيقية. فلقد قررت: ان اذكر في دعواتي وقراءاتي صباح كل يوم اولئك الراغبين في لقائي لوجه الله بديلاً عن عدم استطاعتهم من اللقاء، وسأستمر على هذا القرار.

سعيد النورسي

وبعد وفاة استاذنا الجليل تبين أنه يواصل خدمة الايمان والقرآن برسائله، رسائل النــور وكأنه على قيد الحياة مرشداً كاملاً وإماماً للعصر.

اجل.. اجل.. ان التحاق ابناء الجيل الجديد افواجاً افواجاً في كل مكان بقافلة النــور واسترشادهم برسائل النور يثبت اثباتاً فعلياً مجسماً هذه الحقيقة. ونحن علــى ثقــة مــن ان الرسائل المترجمة الى العربية تؤدي العمل نفسه وتحمل المعنى نفسه والروح نفسها.

والحمد لله هذا من فضل ربي والخير والنور والسعادة كلها من الله وحده.

ومن الله التوفيق والسداد.

من طلاب النور الذين خدموا

الاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي

عبدالله، حسني، بايرام، صونغور

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

(واما بنعمة ربك فحدّث)

حمداً لله بما لا يتناهى من الحمد، حمداً لله بما يليق من الحمد، حمداً لله بما هــو أهلــه. فاللّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. والصلاة والسلام على ســيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وإمام الأصفياء والمتقين وحبيب رب العالمين وعلى آله الأطهــار وصحبه الابرار.

واذ أبتهل الى المولى القدير أن مَنّ علينا هذه النعمة العظمى، نعمة ترجمة رسائل النور. أتضرع اليه تعالى أن يوزعني شكر نعمته هذه، ويديمها علينا جميعاً.. ولقد عزمنا على نشــر

»كليات رسائل النور« كاملة في مجموعات بإذن الله تعالى وسنفرد منها مجلداً كاملاً لحيـــاة الاستاذ المؤلف مع دراسة مفصلة عن رسائل النور، لذا لم نَر داعياً الى تقديم الكتاب بنبذة عن المؤلف والمؤلَّف كما هو معتاد.

ومع هذا أراني مضطراً الى ان اضع هذه الملاحظات امام القارئ الكريم في ختام هـــذه »الكلمات«:

ان الذي يواكب خيالاً زمن تأليف رسائل النور ونشرها يجد أن الأمة، أمة الإسلام تمر في أحلك فترات حياها، حيث تجتاح سيول الظلمات، ظلمات الفتن العاتية أرجـــاء العـــالم الاسلامي كافة، وتغزو الشبهات والأفكار الباطلة العقول والقلوب من كل صوب، فأظلمت النفوس واختنقت الارواح حتى انقطع الرجاء..

في هذه الفترة الحرجة من حياة الامة مَنّ الله عزوجل على هذه الأمة فقيّض الاســـتاذ سعيد النورسي للذود عن حياض الإيمان وبيان انوار القرآن، وشرح صدره للتتلمذ على يدي القرآن العظيم والتزود من نبعه الفيّاض، حتى استنار قلبه وسطع فكره وارتوت روحـــه مـــن زلال القرآن ونور الايمان فأملى على من حوله من محبيه ما استلهمه من نور الكتاب المـــبين هذه اللفتات القرآنية والمعارف الإلهية والفيوضات الإيمانية، فكانت هذه الرسائل التي أطلـــق عليها اسم »رسائل النور«.

وهذه المجموعة »الكلمات« التي تضم ثلاثاً وثلاثين كلمة هي عمدة رسائل النـــور، اذ الكلمة الثالثة والثلاثون منها عبارة عن ثلاث وثلاثين مكتوباً، جُمعت في مجموعة مســـتقلة سميت بـــ »المكتوبات«. وانبثقت من المكتوب الحادي والثلاثين ثلاث وثلاثون لمعـــة هـــي مجموعة »اللمعات«. وتشعبت من اللمعة الحادية والثلاثين منها مجموعة »الشعاعات« الـــتي تضم خمسة عشر شعاعاً.

فرسائل النور مائة وثلاثون ونيف من الرسائل مع خمس عشرة رسالة باللغة العربيـــة.. كل منها رسالة مستقلة بحد ذاها اي لا تلجئ القارئ الكريم الى البحث عن الرســـائل الاولى كي يحيط فهماً بالتالية منها، بل هو حر في اختيار الرسالة من أية مجموعة كانت بغير اعتبـــار

لتسلسلها. وإن لقيه شئ من الغموض سواء في العبارة أو في المعنى فسيلاقيه حتماً توضـــيح وبيان في موضع آخر.

وقد وضعنا هوامش لتوضيح بعض العبارات أو المصطلحات، كما وضعنا ارقام الآيات الكريمة واسماء سورها، وكذا خرّجنا الاحاديث الشريفة من مظانها من الكتب الموثوقة، وأبقينا ما لم نستطع على تخريجه كما هو، علّنا نظفر في قابل الأيام بنصيحة أخوية من عالم ضـــليع بالحديث النبوي الشريف.

وقد يلفت نظر القارئ الكريم ما يذكره الاستاذ المؤلـــف مـــن مفـــاهيم علميـــة أو مصطلحاتها التي كانت دارجة زمن تأليف الرسالة، الاّ انها تبدلت وتغيرت بمـــرور الـــزمن، كمولّد الحموضة ومولّد الماء، أو عدد المسلمين في العالم.. أو ما شابهها من الامور، فترجمناها نصاً دون أن نحشر فيها شيئاً من عندنا الاّ ما اشرنا اليه بهامش، وذلك حفاظاً علـــى امانـــة الترجمة.

واسم هذه المجموعة »سوزلر« ترجمناه بـــ »الكلمات« لأن الاستاذ المؤلف نفسه قـــد ذكر في الشعاع الأول: ان »سوزلر« تعني »الكلمات« باللغة العربية. أما اسم الديوان الملحق بهذه المجموعة »لمعات« فقد ترجمناه بـــ »اللوامع« لئلا يلتبس مع اسم مجموعة »اللمعات«.

ولقد حرصت كل الحرص في الترجمة ان اكون اميناً ما استطعت، محافظاً على المعـــنى الذي يقصده الاستاذ المؤلف، مما تطلب مني طول النظر في الرسائل كلها والتأمل في عباراتها والامعان في معانيها. لذا تحاشيت التقيد بحرفية النص، لاعتقادي بعدم إيفائه الغـــرض، اذ لا يوحي المعنى الذي يريده المؤلف الى روح القارئ، ولا يخفى مدى الصعوبة البالغـــة في نقـــل المعنى من لغة الى اخرى ولا سيما المعاني الواسعة العميقة التي يحصرها الاستاذ النورســـي في عبارات دقيقة وجمل موجزة، ولكن بفضل الله العميم وبعنايته الشاملة ذُللت تلك الصعوبات، اذ هيأ سبحانه وتعالى للأمر اساتذة كرماء ممن درسوا ودرّسوا قواعد اللغة العربية وآدابهـــا، وعلماء أفاضل ممن لهم الباع الطويل في التفسير والحديث والعلوم الاسلامية، واخوة صادقين تولوا مهمة التبييض والتنقيح ومقابلة النصوص. بل كنت استنصح كل قارئ واستشير كـــل من له خبرة في هذا الموضوع ليدلّني على الصواب. مما أضفى على الترجمة جمالاً في العبـــارة

ودقّة في التعبير وبعداً عن الاخطاء ما امكن وتطابقاً في المعنى، حتى سلمت – في نظري – من عورات الركاكة وعيوب العجمة. والحمدلله اولاً وآخراً، وهذا من فضل ربي الذي أسبغ عليّ نعمه ظاهرة وباطنة رحمةً منه تعالى لضعفي ورأفة بعجزي فأمدّني باولئك الميامين من ذوي الاقلام القوية والفكر الخصب والرأي السديد، الذين آزروني وشدّوا من عزيمتي على الاستمرار في العمل بغير كلل، حتى ظهرت المترجمات الى ساحة النشر ببركة اخلاصهم وصدق نواياهم. ولولا علمي بأن هؤلاء الاخوة البررة لا يحبذون ذكر اسمائهم، لما ترددت في ذكرهم فرداً فرداً. ولئن لم اذكرهم باسمائهم فهم مذكورون لدى العلي القدير بما قدّموا من عمل جليل خالص زكي في سبيل نشر الايمان ورفع راية القرآن.

فالى كل اولئك الاخوة الأكارم، والى الاخوات الفاضلات، والى كل من أعانني في أيّ شأن من شؤون الترجمة، تصحيحاً وتهذيباً وتشذيباً وتبييضاً ودعاءً وحثاً، أقدم عظيم شكري ومزيد امتناني راجياً المولى القدير ان يجزل ثواب عملهم الخالص ويرزقهم واياي حبّه وحب من يحبّه والعمل الذي يبلغنا الى حبه.

وأملي في الله عظيم ان يكون القارئ العزيز ايضاً كريماً يصفح عن الزلات ويغض الطرف عن الهفوات ويدعو لنا بظهر الغيب خالص الدعوات ويرشدنا الى مافيه الخير والسداد.

ومما يزيد شكري وحمدي لله تعالى ان مسك الختام لهذه المجموعة الاولى هو دعاء الاستاذ النورسي نفسه بقلم أوصيائه وطلابه الذين رافقوه ولازموه طوال سني حياته المباركة حتى وافاه الأجل ورحل الى عالم الآخرة فرحمة الله عليه رحمة واسعة ونفعنا بعلومه القرآنية وخدمته الأيمانية.

والله نسأل أن يوفقنا الى حسن القصد وصحة الفهم وصواب القول وسداد العمل.

وصلّ اللّهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

احسان قاسم الصالحي